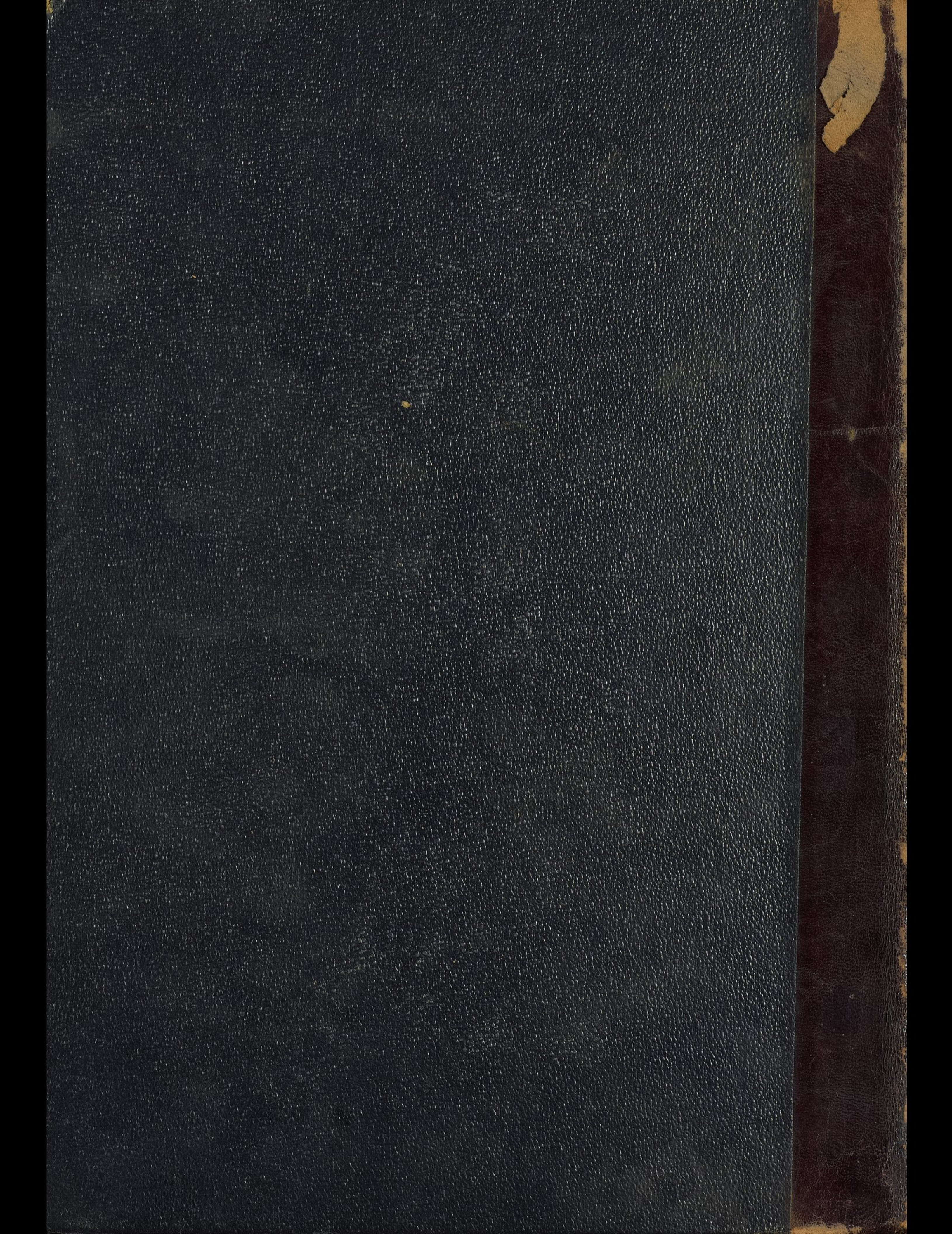
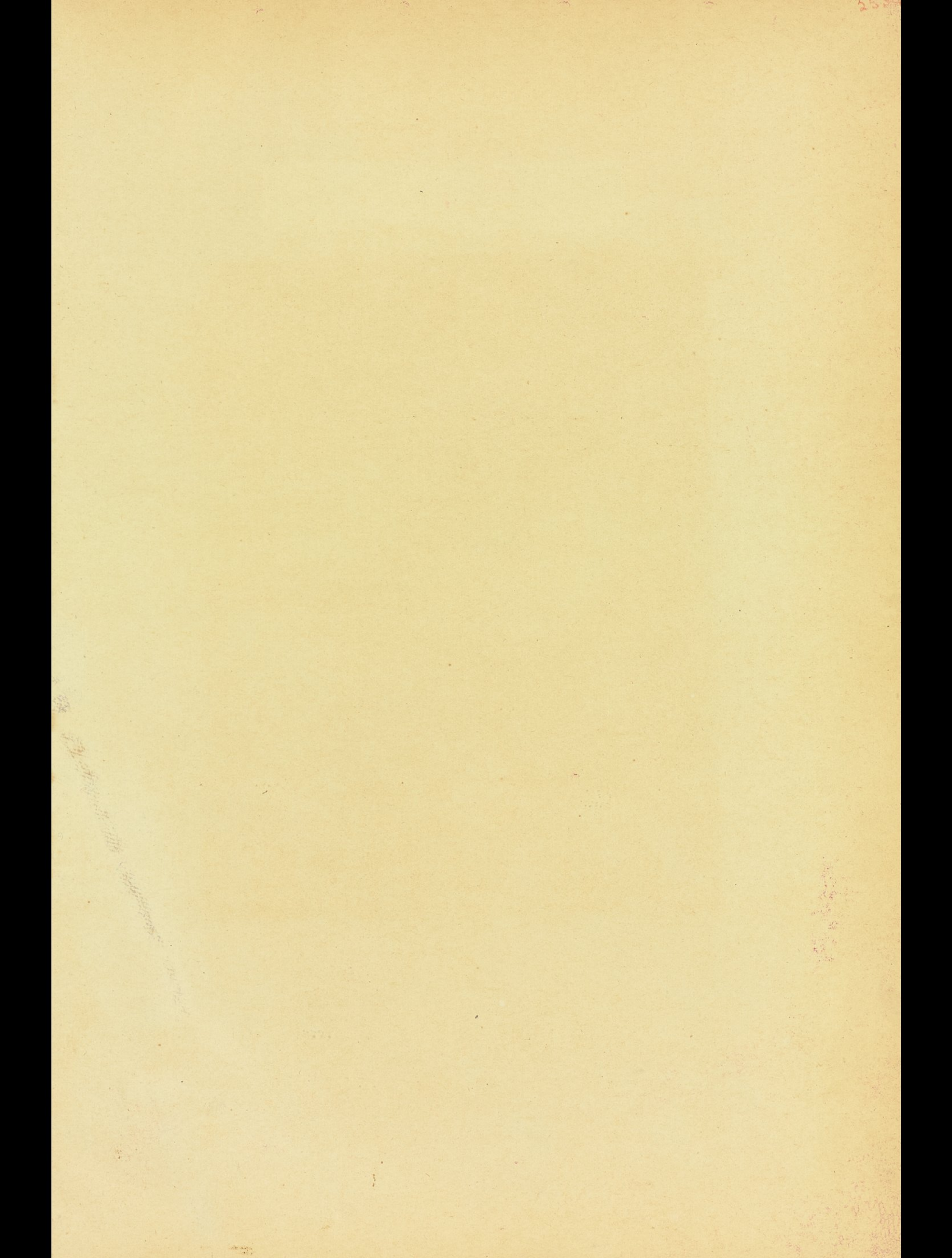



SUPRA SPEM SPERO





ترجمة الامام الشوكانى

صاحب



مأخوذة

من كتابه البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ومن
ترجمة تلميذه العلامة حسين بن محسن السبعي الأنصارى اليمانى



نسبه ومولده

هو محمد بن على بن محمد بن عبدالله الشوكانى ثم الصنعانى . الامام العلامة الربانى ، والسهيل الطالع من القطر اليمانى ، امام الأئمة ومفتى الأمة ، بحر العلوم وشمس الفهوم ، سند المجتهدين الحفاظ ، فارس المعانى والألفاظ فريد العصر ، نادرة الدهر ، شيخ الاسلام ، قدوة الأنام ، علامة الزمان ، ترجمان الحديث والقرآن ، علم الزهاد أوحد العباد ، قامع المبتدعين ، آخر المجتهدين ، رأس الموحدين ، تاج المتبعين ، صاحب التصانيف التى لم يسبق إلى مثلها . قاضى قضاة أهل السنة والجماعة ، شيخ الرواية والسماعة ، عالى الاسناد السابق فى ميدان الاجتهاد ، على الأكابر الأمجاد ، المطلع على حقائق الشريعة ومواردها ، العارف بغوامضها ومقاصدها ، ولد حسبما وجد بخطه فى وسط نهار الاثنين الثامن والعشرين من شهر ذى القعدة سنة ١١٧٣ هجرية فى بلده هجرة شوكان * وتوفى رحمه الله ليلة الأربعاء السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٥٠ ﻫ قال صاحب الترجمة فى كتابه : البدر الطالع عند ذكر نسب والده ، وعرف (أى والده) فى صنعاء بالشوكانى نسبة الى شوكان ، وهى قرية من قرى السحامية إحدى قبائل خولان ، بينها و بين صنعاء دون مسافة يوم ، وهو أحد المواضع التى يطلق عليها شوكان . قال فى القاموس : وشوكان موضع بالبحرين وحصن باليمن ، و بلدة بين سرخس وأبيورد : منه عتيق بن محمد بن عنبس وأخوه أبو العلاء عنبس بن محمد الشوكانى اه ، ونسبة صاحب الترجمة الى شوكان ليست حقيقية ، لأن وطنه وطن سلفه وقرابته بمكان عدنى شوكان بينه و بينها جبل كبير مستطيل ، يقال له هجرة شوكان ، فمن هذه الحيثية كان انتساب أهله الى شوكان والله أعلم .

نشأته وطلبه العلم

نشأ رحمه الله تعالى بصنعاء ، وتربى فى حجر أبيه على العفاف والطهارة ، وأخذ فى طلب العلم وسماع العلماء الأعلام ، وفرّغ نفسه للطلب وجدّ واجتهد ، فقرأ القرآن على جماعة من المعلمين ، وختمه على الفقيه حسن ابن عبدالله الهبل ، وجوّده على جماعة من مشايخ القرآن (بصنعاء) ثم حفظ الأزهار للامام المهدى فى الفقه ومختصر الفرائض للعصيفرى ، والملحة للحريرى ، والكافية والشافية لأبن الحاجب ، والتهذيب للعلامة التفتازانى والتلخيص فى علوم البلاغة للقزوينى ، والغاية لابن الامام و بعض مختصر المنتهى لابن الحاجب فى أصول الفقه . ومنظومة الجزرى فى القراءات ، ومنظومة الجزار فى العروض ، وآداب البحث والمناظرة للامام العضد ، ورسالة الوضع له أيضا ، وكان حفظه لبعض هذه المختصرات قبل شروعه فى الطلب وبعضها بعد ذلك وقبل شروعه فى الطلب كان كثير الاشتغال بمطالعة كتب التاريخ ومجاميع الأدب من أيام كونه فى المكتب فطالع كتبا عدّة ومجاميع كثيرة ، ثم شرع فى الطلب والسماع والتلقى من أفواه الرجال الى أن صار إماما يشار اليه ورأسا يرحل اليه ، ولم يزل مكبا على العلم قراءة وتدريسا الى أن فارقه أجله ولقى ربه رحمه الله تعالى ورضي عنه .

مشايخه الذين أخذ عنهم العلم سماعا وقراءة

قرأ رحمه الله على والده شرح الأزهار . وشرح الناظرى لمختصر العصيفرى . وقرأ شرح الأزهار أيضا على السيد العلامة عبد الرحمن بن قاسم المدانى . والعلامة أحمد بن عامر الحدائى . والعلامة أحمد بن محمد الحرازى و به انتفع فى الفقه وعليه تخرّج وطالت ملازمته له نحو ثلاث عشرة سنة وكرّر عليه قراءة شرح الأزهار وحواشيه . وقرأ عليه بيان ابن مظفر وشرح الناظرى وحواشيه ، وفى أيام قراءته فى الفروع شرع فى قراءة النحو . فقرأ الملحة وشرحها على السيد العلامة اسماعيل بن الحسن بن أحمد بن الحسن ابن الامام القاسم ابن محمد . وقواعد الأعراب وشرحها للأزهرى والحواشى جميعا على العلامة عبدالله بن اسماعيل النهمى . وشرح السيد المفتى على الكافية على العلامة القاسم بن يحيى الخولانى والعلامة عبدالله بن اسماعيل النهمى . وأكمله من أوّله الى آخره على كل واحد منهما . وقرأ شرح الخبيصى على الكافية وحواشيه على العلامة عبد الله ابن اسماعيل النهمى من أوّلة الى آخره ، وكذلك قرأه من أوّله الى آخره على شيخه العلامة القاسم بن يحيى الخولانى . وقرأ شرح الجامى على الكافية مع مايحتاج اليه من حواشيه على السيد العلامة عبد الله بن الحسين بن على ابن الامام المتوكل على الله اسماعيل من أوّله الى آخره . وقرأ شرح الرضىّ على الكافية على العلامة القاسم بن يحيى الخولانى ، و بقى منه بقية يسيرة . وقرأ شرح الشافية للطف الله الغياث جميعا على العلامة القاسم بن يحيى الخولانى . وقرأ شرح ايساغوجى للقاضى زكريا على العلامة عبد الله بن اسماعيل النهمى جميعا . وشرح التهذيب للشيرازى وللبزدى على شيخه العلامة القاسم بن يحيى الخولانى من أوّلهما إلى آخرهما . وشرح الشمسية للقطب وحاشيته للشريف على شيخه العلامة الحسن بن اسماعيل المغربى واقتصر على البعض من ذلك ..وشرح التلخيص المختصر للسعد وحاشيته للطف الله الغياث على العلامة القاسم بن يحيى الخولانى جميعا ماعدا بعض المقدّمة فعلى العلامة على بن هادى عرهب ، والشرح المطول للسعد التفتازانى أيضا وحاشيته للجلبى وللشريف أما المطول فجميعه ، وكذلك حاشية الجلبى ، وأما حاشيه الشريف فما تدعو إليه الحاجة . وقرأ الكافل وشرحه لابن لقمان على العلامة عبد الله بن اسماعيل النهمى جميعا . وشرح الغاية على العلامة القاسم بن يحيى الخولانى . وحاشيته لسيلان وشرح العضد على المختصر وحاشيته للسعد وماتدعو اليه الحاجة من سائر الحواشى وكمل ذلك على العلامة الحسن بن اسماعيل المغربى وشرح جمع الجوامع للمحلى وحاشيته لابن أبى شريف على شيخه السيد الامام عبد القادر بن أحمد ، وكذلك شرح القلائد للنجرى وشرح المواقف العضدية للشريف ، واقتصر على البعض من ذلك . وقرأ شرح الجزرية على العلامة هادى بن حسين القارنى . وقرأ جميع شفاء الأمير الحسين على العلامة عبد الله بن اسماعيل النهمى وسمع أوائله على العلامة عبد الرحمن بن حسن الأكوع . وقرأ فى البحر الزخار وحاشيته وتخريجه وضوء النهار على شرح الأزهار على الشيخ السيد العلامة عبد القادر بن أحمد ولم يكملا . وقرأ الكشاف وحاشيته للسعد و بعد انقطاعها حاشيته للسراج مع مراجعة غير ذلك من الحواشى على شيخه العلامة الحسن بن اسماعيل المغربى ، وتم ذلك الافوتا يسيرا فى آخر الثلث الأوسط ، وسمع البخارى من أوّله إلى آخره على السيد العلامة على بن ابراهيم بن أحمد بن عامر ، وسمع صحيح مسلم جميعه وسنن الترمذى جميعا ، و بعض موطأ مالك و بعض شفاء القاضى عياض على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد ، وكذلك سمع منه بعض جامع الأصول و بعض سنن النسائى و بعض سنن ابن ماجه ، وسمع جميع سنن أبى داود وتخريجها للمنذرى ، و بعض المعالم للخطابى و بعض شرح ابن رسلان على العلامة الحسن بن اسماعيل

المغربى وكذلك بعض المنتقى لابن تيمية على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد ، وكذلك سمع شرح بلوغ المرام على العلامة الحسن بن اسماعيل المغربى وفاته بعض من أوله ، وكذلك سمع على العلامة عبدالقادر ابن أحمد ، بعض فتح البارى ، وعلى الحسن بن اسماعيل ، بعض شرح مسلم للنووى ، و بعض شرح العمدة على العلامة القاسم بن يحيى الخولانى ، والتنقيح فى علوم الحديث على العلامة الحسن بن اسماعيل المغربى ، والنخبة وشرحها على العلامة القاسم بن يحيى ، و بعض ألفية الزين العراقى وشرحها له على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد وجميع منظومة الجزار وجميع شرحها له فى العروض على شيخنا المذكور ، وشرح آداب البحث وحواشيه على العلامة القاسم بن يحيى الخولانى ، والخالدى فى الفرائض والضرب والوصايا والمساحة وطريقة ابن الهائم فى المناسخة على السيد العارف يحيى بن محمد الحوثى ، و بعض صحاح الجوهرى ، و بعض القاموس على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد مع مؤلفه الذى سماه فلك القاموس هذا ما أمكن سرده من مسموعات صاحب الترجمة ومقرواته وله غير ذلك من المسموعات .

بعض تلاميذه الذين أخذوا عنه العلم

أخذ عنه العلم ابنه العلامة على بن محمد الشوكانى ، وكان صالحا عالما مبرزا فى جميع العلوم ، وكان نادرة زمانه على صغر سنه ، والعلامة المتحلى بفرائض البيان والمعانى حسين بن محسن السبعى الأنصارى اليمانى والعلامة الأديب محمد بن حسن الشجنى الذمارى ، والعلامة الشيخ عبدالحق بن فضل الهندى ، والشريف الامام محمد بن ناصر الحازمى وغير هؤلا وكلهم جهابذة محققون ونبلاء مدققون أولو أفهام خارقة وفضائل فائقة ، ولبعضهم تآليف رحم الله الجميع .

مذهبه وعقيدته

تفقه على مذهب الامام زيد و برع فيه وألف وأفتى حتى صار قدوة فيه ، وطلب الحديث وفاق فيه أهل زمانه حتى خلع ربقة التقليد وتحلى بمنصب الاجتهاد فألف كتاب السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار وقد تكلم فيه على عيون من المسائل وصحيح ماهو مقيد بالدلائل ، وزيف مالم يكن عليه دليل فقام عليه أهل عصره وغالبهم من المقلدة الجامدين على التعصب فى الأصول والفروع ، ولم تزل المجادلة والمصاولة بينه و بينهم دائرة ، ولم يزالوا يندّدون عليه فى المباحث من غير حجة ، فجعل كلامه فى شرح الأزهار الذى هو فى فقه آل البيت المختار موجها إليهم فى التنفير عن التقليد المذموم و إيقاظهم إلى النظر فى الدليل ، لأنه كان يرى تحريم التقليد ، وقد ألف فى ذلك رسالة سماها « القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد » (١) وعند ما ألف هذه الرسالة تحامل عليه جماعة من علماء الوقت ، وأرسل إليه أهل جهته سهام اللوم والمقت وثارت من أجل ذلك فتنة فى صنعاء اليمن بين من هو مقلد ، ومن هو مقتد بالدليل توهما من المقلدين أنه ما أراد إلا هدم مذهب آل البيت . قال بعض من ترجمه وحاشاه من التعصب على من أوجب الله محبتهم وجعل أجر نبينا ﷺ فى تبليغ الرسالة مودّتهم ، لأن له الولاء التام لهم . وقد نشر محاسنهم فى مؤلفه در السحابة ، بما لا يختلج بعده ريبة لمرتاب ، على أن كلامه مع الجميع من أهل المذاهب سواء بسواء ، لأن المأخذ واحد والرد واحد ، والخطب يسير والخلاف فى المسائل العلمية الظنية سهل وعقيدته عقيدة مذهب

---

(١) طبعت سنة ١٣٤٧ هـ بمطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

السلف من حمل صفات البارى تعالى الواردة فى القرآن الحكيم والسنة النبوّة الصحيحة على ظاهره من غير تأويل ولاتحريف . وقد ألف رسالة فى ذلك سماها « التحف بمذهب السلف » .

ذكر مؤلفاته

له مؤلفات مفيدة فى فنون عديدة منها ، كتاب نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار فى الحديث الشريف (١) وأدب الطلب ومنتهى الأرب ، وتحفة الذاكرين شرح عدة الحصن الحصين (٢) وارشاد الثقات الى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوّات ، ردّا على الخبيث موسى بن ميمون الأندلسى اليهودى فى ظاهر المستند والزنديق فى باطن المعتقد ، والطود المنيف فى الانتصاف للسعد من الشريف فى المسألة المشهورة التى تنازعا فيها بين يدى تيمورلنك ، وشفاء العلل فى حكم الزيادة فى الثمن لمجرد الأجل ، وشرح الصدور فى تحريم رفع القبور ، وطيب النشر فى المسائل العشر جواب عن سؤال القاضى العلامة عبد الرحمن بن أحمد البهكلى ، ورسالة أجاب بها الشريف ابراهيم بن أحمد بن اسحق ، ومنها الصوارم الهندية المسلولة على الرياض الندية ، لابطال قول من أوجب غسل الفرجين قبل الوضوء وجعله من أركانه ، كما هو مذهب الزيدية ، ورسالة فى اختلاف العلماء فى تقدير مدّة النفاس ، ورسالة فى الرد على القائل بوجوب التحية ، والقول الصادق فى حكم الامام الفاسق * ورسالة فى حدّ السفر الذى يجب معه قصر الصلاة ، وله تشنيف السمع بابطال أدلة الجمع ، يعنى جمع الصلاتين فى الحضر ردّا على القائلين بجوازه من الزيدية ، والرسالة المكملة فى أدلة البسملة ، واطلاع أرباب الكمال على مافى رسالة الجلال فى الهلال من الاختلال ، ورسالة فى حكم الطلاق البدعى هل يقع أم لا ، ورسالة فى أن الطلاق لايتبع الطلاق ، ورسالة فى حكم رضاع الكبير هل يقتضى التحريم أم لا ، ورسالة تنبيه ذوى الحجا على حكم بيع الرجا ، ورسالة القول المحرر فى حكم لبس المعصفر وسائر أنواع الأحمر ، وعقود الزبرجد فى جيد مسائل علامة ضمد * ورسالة فى إبطال دعوى الاجماع على تحريم السماع ، ورسالة زهر النسرين فى حديث المعمرين ، واتحاف المهرة فى الكلام على حديث لاعدوى ولاطيرة * وعقود الجمان فى بيان حدود البلدان ، وأخرى سماها إرشاد الأعيان إلى تصحيح مافى عقود الجمان ردّا على السيد العلامة حسين بن يحيى الديلمى ، ورسالة حل الاشكال فى إجبار اليهود على التقاط الازبال ، وأخرى ردّا على مناقضها السيد العلامة عبد الله بن عيسى بن محمد الكوكبانى ، التى سماها ارسال المقال على ازالة حل الاشكال ، فردّ شيخ الاسلام المترجم له على تعقبه بتفويق النبال إلى ارشاد المقال ، ورسالة البغية فى مسألة الرؤية ، يعنى رؤية الله فى الآخرة بين فيها مذهب أهل السنة ، وزيف مقال أهل البدعة ، والتشكيك على التفكيك ، وارشاد الغبى الى مذهب أهل البيت فى صحب النبى ، ورسالة رفع الجناح عن نافى المباح هل هو مأمور به أم لا ، والقول المقبول فى ردّ خبر المجهول من غير صحابة الرسول ، وجواب السائل عن قول الله تعالى ـ والقمر قدّرناه منازل ـ ، وأمنية المتشوّق الى معرفة حكم علم المنطق ،

---

(١) طبع بمطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر . على ورق جيد مضبوطة الأحاديث بالشكل الكامل ومعتنى بتصحيحها فى سنة ١٣٤٧ هـ

(٢) طبع لأول مرة سنة ١٣٥٠ هـ مع ضبط المتن بالشكل الكامل . بمطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

وارشاد المستفيد الى دفع كلام ابن دقيق العيد فى الاطلاق والتقييد ، ورسالة و بل الغمامة فى قوله تعالى ـ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ـ ورسالة فى قول المحدثين رجال إسناده ثقات ، ورسالة البحث الملم المتعلق بقوله تعالى ـ لايحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ـ ، والبحث المسفر عن تحريم كل مسكر ومفتر * ورسالة الدواء العاجل لدفع العدوّ الصائل ، ورسالة عجيبة فى رفع المظالم والمآثم ، والدر النضيد ، فى اخلاص كلمة التوحيد ، ورسالة فى وجوب توحيد الله عزّ وجل ، ورسالة المقالة الفاخرة فى اتفاق الشرائع على اثبات الدار الآخرة ، ونزهة الأحداق فى علم الاشتقاق ، ورفع الريبة فيما يجوز ومالا يجوز من الغيبة ، وتحرير الدلائل على مقدار مايجوز بين الامام والمؤتم من الارتفاع والانخفاض والبعد والحائل ، وكشف الأستار عن حكم الشفعة بالجوار ، والوشى المرقوم فى تحريم التحلى بالذهب للرجال على العموم ، وكشف الأستار فى إبطال القول بفناء النار ، ورسالة فى الارشاد الى مذهب السلف ، سماها التحف فى الارشاد الى مذهب السلف جواب سؤال ورد عليه من علماء مكة المشرّفة فى إجراء الصفات الالهية على ظاهرها من غير تأويل ، ورسالة الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقال أهل الالحاد ، ورسالة على حديث الدنيا ملعونة ملعون مافيها الا ذكر الله وماوالاه ، ورسالة اشراق النيرين فى بيان الحكم اذا تخلف عن الوعد أحد الخصمين ، ورسالة فى حكم التسعير ، ورسالة نثر الجوهر فى شرح حديث أبى ذرّ ورسالة منحة المنان فى أجرة القاضى والسجان ، ورسالة فى مسائل العول ، ورسالة تنبيه الأمثال على جواز الاستعانة من خالص المال ، يعنى طلب ولاة الجور من الأغنياء ظلما من المال يسمونه معونة ، وقطر الولى فى معرفة الولى ، والتوضيح فى تواتر ماجاء فى المهدى المنتظر والدجال والمسيح ، ورسالة فى حكم الاتصال بالسلاطين ، ورسالة جيد النقد فى عبارة الكشاف والسعد ، ورسالة بغية المستفيد فى الرد على من أنكر الاجتهاد من أهل التقليد ، والروض الوسيع فى الدليل المنيع على عدم انحصار علم البديع ، ورسالة فتح الخلاق فى جواب مسائل عبد الرزاق مشتملة على جواب مائة وخمسين سؤالا فى علم المنطق الى غير ذلك من التصانيف التى لم يتسع المقام لبسطها وذكرها ، وأما الابحاث التى اشتملت عليها فتاواه المسماة بالفتح الربانى فكثيرة جدا والله أعلم ،

صورة ماوجد على أول كتاب

فتح القدير فى التفسير

للعلامة الشوكانى بخط يده

تاريخ الشروع فى التأليف

الحمد لله رب العالمين ، إياك نعبد و إياك نستعين . كان الشروع فى تأليف هذا التفسير المبارك بمعونة الله فى شهر ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وعشرين بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية . كتبه مؤلفه محمد بن على الشوكانى ، ثم الصنعانى ، حامدا لله مصليا مسلما على رسوله وآله ، راجيا من الله سبحانه أن يعين على التمام ، كما ألهم إلى الشروع طالبا منه البلوغ الى الغاية ، كما منّ بالتوجه إلى البداية اللهم أجب ، يامن يقول : ادعونى أستجب لكم ، يا أرحم الراحمين .

لمعة

من تاريخ حياة بعض المفسرين الذين اعتمد عليهم المؤلف فى التفسير ونقل عنهم

ا ـ النحاس : هو أحمد بن محمد بن اسمعيل النحاس أبو جعفر من أهل مصر رحل الى بغدادفأخذ عن المبرد والأخفش على بن سليمان ونفطويه والزجاج وغيرهم : ثم عادالى مصر فأقام بها الى أن مات فى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة .

ب ـ ابن عطية : هو عبد الله بن عطية بن عبد الله بن حبيب أبو محمد المقرى المفسر ، مات سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة ، قيل انه كان يحفظ خمسين ألف بيت من الشعر للاستشهاد بها على معانى القرآن وغيره وكان ثقة .

ج ـ ابن عطية أيضا : هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى عالم بالتفسير والأحكام والحديث والفقه والنحو والأدب واللغة حسن التقييد ، له نظم ونثر ، ولى قضاء «المرية» من بلاد المغرب سنة تسع وعشرين وخمسمائة . ألف كتابه الوجيز فى التفسير ، فأحسن فيه وأبدع وطار لحسن نيته كل مطار ، كذا قال فى الاحاطة من مؤلفات المغاربة ، ومولده سنة احدى وثمانين وأربعمائة وتوفى سنة ست وأربعين وخمسمائة فى بلاد المغرب .

د ـ القرطبى : قال الذهبى فى النبلاء فى ترجمته مالفظه : القرطبى الامام العلامة المفسر صاحب التصانيف أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرج الأنصارى القرطبى المالكى نزيل منية ابن خصيب من الديار المصرية ، عمل التفسير الكبير وتعب عليه وحشاه بكل فريدة ، وألف كتاب الأسنى فى الأسماء الحسنى ، وكتاب التذكرة فى أمور الآخرة ، وغير ذلك . وكان من أوعية العلم ، ثم قال وسمع من ابن دواح وابن الجيرى وأبى العباس بن المزنى وعدة ، روى عنه بالاجازة ولده شهاب الدين أبو العباس بالمنية ثم قال ومات سنة نيف وسبعين وستمائة فى أوائل سنة احدى بالمنية انتهى .

وقال فى تاريخ الاسلام العلامة أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد بن بكير بن فرج : الامام القرطبى امام متقن متبحر فى العلم ، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور فضله ، ثم ذكر موته وقال بعده وقد سارت بتفسيره العظيم الشان الركبان ، وله الاسنى فى شرح الأسماء الحسنى ، والتذكرة ، وانها تدل على امامته وذكائه وكثرة اطلاعه انتهى ،

وقال الكتبى فى تاريخه كان شيخا فاضلا ، وله تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور علمه منها تفسير القرآن مليح الى الغاية فى ستة عشر مجلدا انتهى .

تنبيه

جرى المفسر رحمه الله فى ضبط ألفاظ القرآن فى تفسيره هذا على رواية نافع مع تعرّضه للقراءات السبع وأثبتنا القرآن طبق رسم المصحف العثمانى



فتح القدير

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

للقاضى الحافظ الضابط المحدث المفسر الشهير محمد بن على بن محمد
الشوكانى اليمانى الصنعانى صاحب (نيل الأوطار وغيره) المتوفى
بمدينة صنعاء فى جمادى الآخرة سنة ١٢٥٠ هـ عن ست وسبعين
سنة وسبعة أشهر رحمه الله تعالى وإيانا والمؤمنين آمين

الطبعة الأولى

على النسخة الوحيدة بقلم المؤلف الامام الشوكانى رحمه الله تعالى
أذن لنا بالطبع عليها فرع الشجرة النبوية حضرة صاحب الفضيلة العلامة السيد
محمد بن محمد زبارة الحسنى الصنعانى أحد عظماء رجال الدولة الاسلامية اليمنية
المتوكلية أدام نصرها رب البرية آمين

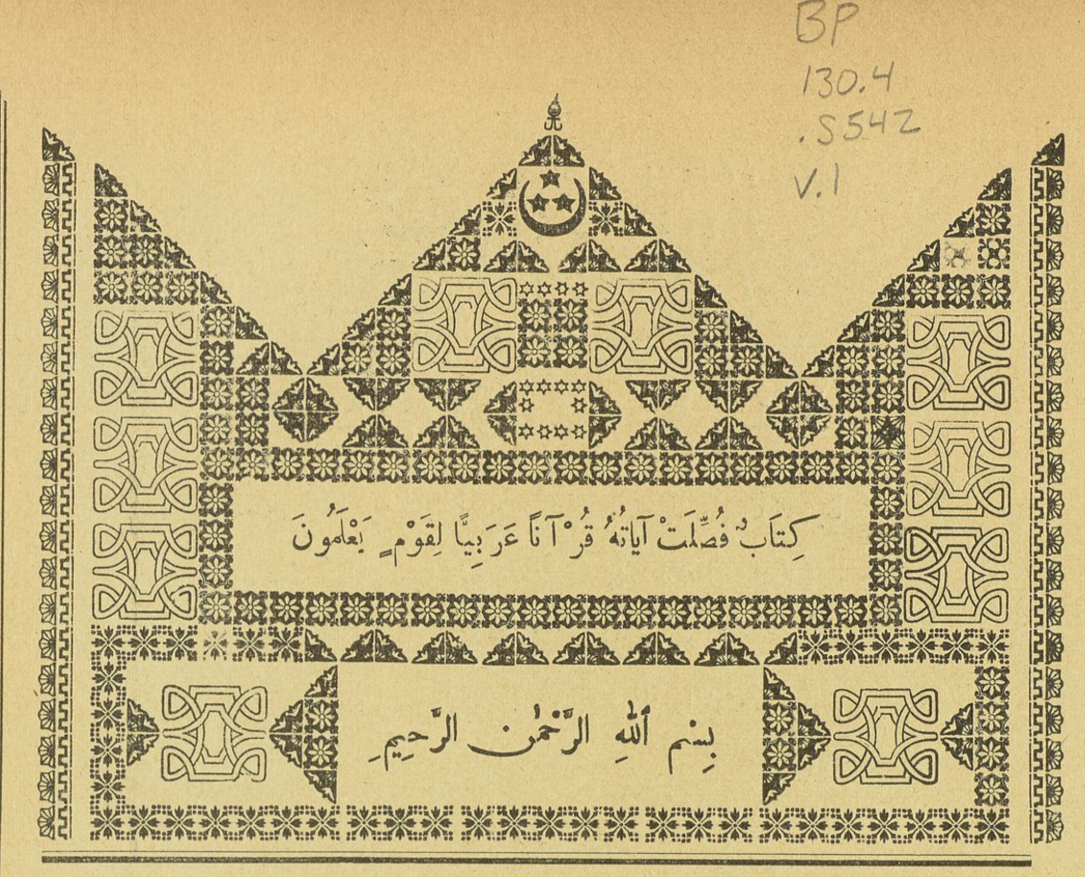
الجزء الأول

طبع بمطبعة

مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

وباشر طبعه ــ محمد أمين عمران

شوال سنة ١٣٤٩ هجرية رقم ٤٤٦



يروى : المفتقر إلى رحمة الله سبحانه وتعالى محمد بن محمد بن يحيى زبارة الحسنى اليمنى غفر الله له وللمؤمنين

﴿ كتاب فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ﴾

للقاضى الحافظ الشهير ، محمد بن على بن محمد الشوكانى الصنعانى المتوفى سنة ١٢٥٠ هجرية ، عن المولى الجهبذ الكبير ، سيف الاسلام ، أحمد بن قاسم بن عبد الله حميد الدين أبقاه الله تعالى ، عن السيد الحافظ ، عبد الكريم بن عبدالله أبى طالب الحسنى اليمنى المتوفى سنة ١٣٠٩ ، عن القاضى الحافظ ، أحمد ابن محمد بن على الشوكانى المتوفى سنة ١٢٨١ ، عن أبيه المؤلف * قال رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل كتابه المبين كافلا ببيان الأحكام ، شاملا لما شرعه لعباده من الحلال والحرام ، مرجعا للأعلام عند تفاوت الأفهام ، وتباين الأقدام ، وتخالف الكلام ، قاطعا للخصام ، شافيا للسقام ، مرهما للأوهام ، فهو العروة الوثقى التى من تمسك بها فاز بدرك الحق القويم ، والجادة الواضحة التى من سلكها فقد هدى إلى الصراط المستقيم ، فأى عبارة تبلغ أدنى مايستحقه كلام الحكيم من التعظيم ، وأى لفظ يقوم ببعض مايليق به من التكريم والتفخيم ، كلا والله ان بلاغات البلغاء المصاقع ، وفصاحات الفصحاء البواقع ، وان طالت ذيولها ، وسالت سيولها ، واستنت بميادينها خيولها ، تتقاصر عن الوفاء بأوصافه ، وتتصاغر عن التشبث بأدنى أطرافه ، فيعود جيدها عنه عاطلا ، وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا ، فهو كلام من لاتحيط به العقول علما ، ولاتدرك كنهه الطباع البشرية فهما ، فالاعتراف بالعجز عن القيام ، بمايستحقه من الأوصاف العظام ، أولى بالمقام ، وأوفق بماتقتضيه الحال من الاجلال والاعظام ، والصلاة والسلام على من نزل اليه الروح الأمين ، بكلام رب العالمين ، محمد سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، وعلى آله المطهرين ، وصحبه المكرمين ﴿ وبعد ﴾ فان أشرف العلوم على الاطلاق ، وأولاها بالتفضيل على الاستحقاق ، وأرفعها قدرا بالاتفاق ، هو علم التفسير ، لكلام القوى القدير ، إذا كان على الوجه المعتبر ،

فى الورود والصدر ، غير مشوب بشئ من التفسير بالرأى الذى هو من أعظم الخطر ، وهذه الأشرفية لهذا العلم غنية عن البرهان ، قريبة الى الأفهام والأذهان ، يعرفها من يعرف الفرق ، بين كلام الخلق والحق ، ويدرى بها من يميز بين كلام البشر ، وكلام خالق القوى والقدر ، فمن فهم هذا استغنى عن التطويل ، ومن لم يفهمه فليس بمتأهل للتحصيل ، ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حيث يقول فيما أخرجه عنه الترمذى وحسنه من حديث أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » ولما كان هذا العلم بهذه المنزلة الشامخة الأركان ، العالية البنيان ، المرتفعة المكان ، رغبت إلى الدخول من أبوابه ، ونشطت إلى القعود فى محرابه ، والكون من أحزابه ، ووطنت النفس على سلوك طريقة ، هى بالقبول عند الفحول حقيقة ، وها أنا أوضح لك منارها ، وأبين لك ايرادها وإصدارها * فأقول : إن غالب المفسرين تفرقوا فريقين ، وسلكوا طريقين * الفريق الأوّل اقتصروا فى تفاسيرهم على مجرد الرواية ، وقنعوا برفع هذه الراية * والفريق الآخر جردوا أنظارهم إلى ماتقتضيه اللغة العربية ، وما تفيده العلوم الآلية ، ولم يرفعوا إلى الرواية راسا ، وان جاءوا بها لم يصححوا لها أساسا ، وكلا الفريقين قد أصاب ، وأطال وأطاب ، وان رفع عماد بيت تصنيفه على بعض الأطناب ، وترك منها مالا يتم بدونه كمال الانتصاب ، فان ما كان من التفسير ثابتا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وان كان (١) المصير إليه متعينا ، وتقديمه متحتما ، غير أن الذى صح عنه من ذلك إنما هو تفسير آيات قليلة بالنسبة إلى جميع القرآن ، ولا يختلف فى مثل ذلك من أئمة هذا الشأن اثنان ، وأما ما كان منها ثابتا عن الصحابة رضى الله عنهم ، فان كان من الألفاظ التى قد نقلها الشرع إلى معنى مغاير للمعنى اللغوى بوجه من الوجوه فهو مقدّم على غيره ، وان كان من الألفاظ التى لم ينقلها الشرع فهو كواحد من أهل اللغة الموثوق بعربيتهم ، فاذا خالف المشهور المستفيض لم تقم الحجة علينا بتفسيره الذى قاله على مقتضى لغة العرب ، فبالاولى تفاسير من بعدهم من التابعين وتابعيهم وسائر الأئمة ، وأيضا كثيرا مايقتصر الصحابى ومن بعده من السلف على وجه واحد مما يقتضيه النظم القرآنى باعتبار المعنى اللغوى ، ومعلوم أن ذلك لايستلزم إهمال سائر المعانى التى تفيدها اللغة العربية ولا إهمال مايستفاد من العلوم التى تتبين بها دقائق العربية وأسرارها كعلم المعانى والبيان فان التفسير بذلك هو تفسير باللغة لاتفسير بمحض الرأى المنهىّ عنه . وقد أخرج سعيد بن منصور فى سننه وابن المنذر والبيهقى فى كتاب الرؤية عن سفيان قال ليس فى تفسير القرآن اختلاف انما هو كلام جامع يراد منه هذا وهذا ، وأخرج ابن سعد فى الطبقات وأبو نعيم فى الحلية عن أبى قلابة قال قال أبو الدرداء : لاتفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها ، وأخرج ابن سعد أن عليا قال لابن عباس اذهب اليهم ، يعنى الخوارج ولا تخاصمهم بالقرآن فانه ذو وجوه ولكن خاصمهم بالسنة ، فقال له أنا أعلم بكتاب الله منهم فقال صدقت ولكن القرآن حمال ذو وجوه ، وأيضا لايتيسر فى كل تركيب من التراكيب القرآنية تفسير ثابت عن السلف بل قد يخلو عن ذلك كثير من القرآن ولا اعتبار بما لم يصح كالتفسير المنقول باسناد ضعيف ، ولا بتفسير من ليس بثقة منهم وان صح إسناده إليه ، وبهذا تعرف أنه لابد من الجمع بين الأمرين ، وعدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين ، وهذا هو المقصد الذى وطنت نفسى عليه ، والمسلك الذى عزمت على سلوكه ان شاء الله مع تعرضى للترجيح بين التفاسير المتعارضة مهما أمكن واتضح لى وجهه وأخذى من بيان المعنى العربى والاعرابى والبيانى بأوفر نصيب والحرص على ايراد ماثبت من التفسير عن رسول الله ﷺ ، أو الصحابة ، أو التابعين ، أو تابعيهم ، أو الأئمة المعتبرين ، وقد أذكر مافى إسناده ضعف إما لكون فى المقام مايقوّيه ، أو لموافقته للمعنى العربى ، وقد أذكر الحديث معزوّا إلى راويه من غير بيان حال الاسناد لأنى أجده فى الأصول التى نقلت عنها كذلك كما يقع

(١) قوله وان كان هكذا بالأصل ولعله كان بدون وان اهـ مصححه

فى تفسير ابن جرير والقرطبى وابن كثير والسيوطى وغيرهم ، ويبعد كل البعد أن يعلموا فى الحديث ضعفا ولا يبينونه ولا ينبغى أن يقال فيما أطلقوه انهم قد علموا ثبوته ، فان من الجائز أن ينقلوه من دون كشف عن حال الاسناد بل هذا هو الذى يغلب به الظن لأنهم لو كشفوا عنه فثبتت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك كما يقع منهم كثيرا التصريح بالصحة أو الحسن ، فمن وجد الأصول التى يروون عنها و يعزون مافى تفاسيرهم اليها فلينظر فى أسانيدها موفقا ان شاء الله * واعلم أن تفسير السيوطى المسمى « بالدر المنثور » قد اشتمل على غالب مافى تفاسير السلف من التفاسير المرفوعة الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وتفاسير الصحابة ومن بعدهم ومافاته الا القليل النادر . وقد اشتمل هذا التفسير على جميع ماتدعو اليه الحاجة منه مما يتعلق بالتفسير مع اختصار لما تكرر لفظا واتحد معنى بقولى ومثله أو نحوه ، وضممت الى ذلك فوائد لم يشتمل عليها وجدتها فى غيره من تفاسير علماء الرواية أو من الفوائد التى لاحت لى من تصحيح ، أو تحسين ، أو تضعيف ، أو تعقب أو جمع أو ترجيح * فهذا التفسير وان كبر حجمه ، فقد كثر علمه ، وتوفر من التحقيق قسمه ، وأصاب غرض الحق سهمه ، واشتمل على مافى كتب التفاسير من بدائع الفوائد ، مع زوائد فوائد ، وقواعد شوارد ، فان أحببت أن تعتبر صحة هذا فهذه كتب التفسير على ظهر البسيطة ، انظر تفاسير المعتمدين على الرواية ، ثم ارجع الى تفاسير المعتمدين على الدراية ، ثم انظر فى هذا التفسير بعد النظرين ، فعند ذلك يسفر الصبح لذى عينين ، ويتبين لك أن هذا الكتاب ، هو لب اللباب ، وعجب العجاب ، وذخيرة الطلاب ، ونهاية مآرب الألباب * وقد سميته

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

مستمدا من الله سبحانه بلوغ الغاية والوصول بعد هذه البداية إلى النهاية ، راجيا منه جل جلاله أن يديم به الانتفاع ، ويجعله من الذخائر التى ليس لها انقطاع

واعلم أن الأحاديث فى فضائل القرآن كثيرة جدا ولا يتم لصاحب القرآن مايطلبه من الأجر الموعود به فى الأحاديث الصحيحة حتى يفهم معانيه فان ذلك هو الثمرة من قراءته . قال القرطبى ينبغى له أن يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن الله مراده ومافرض عليه فينتفع بما يقرأ و يعمل بما يتلو فما أقبح بحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لايفهم معنى مايتلوه فكيف يعمل بما لايفهم معناه ، وما أقبح به أن يسأل عن فقه مايتلوه ولا يدريه ، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا . و ينبغى له أن يعرف المكىّ من المدنىّ ليفرق بين ماخاطب الله به عباده فى أوّل الاسلام ، وما ندبهم إليه فى آخر الاسلام وما فرض فى أوّل الاسلام وما زاد عليهم من الفرائض فى آخره ، فالمدنى هو الناسخ للمكى فى أكثر القرآن

وقال أيضا قال علماؤنا وأما ماجاء فى فضل التفسير عن الصحابة والتابعين . فمن ذلك أن علىّ بن أبى طالب ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم فقال له رجل جعلت فداك ، تصف جابرا بالعلم وأنت أنت ، فقال انه كان يعرف تفسير قوله تعالى « ان الذى فرض عليك القرآن لرادّك الى معاد » وقال مجاهد أحب الخلق إلى الله أعلمهم بما أنزل الله ، وقال الحسن والله ماأنزل الله آية الا أحب أن يعلم فيمن نزلت وما يعنى بها . وقال الشعبى رحل مسروق فى تفسير آية إلى البصرة ، فقيل له ان الذى يفسرها رحل إلى الشام فتجهز ورحل الى الشام حتى علم تفسيرها . وقال عكرمة فى قوله عز وجل « ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله » طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته ، قال ابن عبد البر هو ضميرة بن حبيب ، وقال ابن عباس مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ مايمنعنى الا مهابته

فسألته

فسألته فقال هي حفصة وعائشة . وقال إياس بن معاوية مثل الذين يقرءون القرآن وهم لايعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من عند مليكهم ليلا وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة ولايدرون مافى الكتاب ، ومثل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا مافى الكتاب وذكر ابن أبى الحوارى أن فضيل ابن عياض قال لقوم قصدوه ليأخذوا عنه العلم : لوطلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما تريدون ، فقالوا قد تعلمنا القرآن ، فقال ان فى تعلمكم القرآن شغلا لأعماركم وأعمار أولادكم فقالوا كيف ياأبا على ؟ قال لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه ومحكمه ومتشابهه وناسخه من منسوخه فاذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فضيل وابن عيينة ، وللسلف رحمهم الله من هذا الجنس مالا يأتى عليه الحصر ،

سورة الفاتحة

معنى الفاتحة فى الأصل أوّل مامن شأنه أن يفتتح به ثم اطلقت على أوّل كل شيء كالكلام ، والتاء للنقل من الوصفية الى الاسمية فسميت هذه السورة « فاتحة الكتاب » لكونه افتتح بها ، إذ هى أوّل مايكتبه الكاتب من المصحف ، وأوّل مايتلوه التالى من الكتاب العزيز وان لم تكن أوّل مانزل من القرآن ، وقد اشتهرت هذه السورة الشريفة بهذا الاسم فى أيام النبوّة ، قيل هى مكية ، وقيل مدنية ، وقد أخرج الواحدى فى أسباب النزول والثعلبى فى تفسيره عن علىّ رضى الله عنه قال نزلت فاتحة الكتاب بمكة من كنز تحت العرش ، وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وأبو نعيم ، والبيهقى كلاهما فى دلائل النبوّة ، والثعلبى ، والواحدى من حديث عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما شكا الى خديجة مايجده عند أوائل الوحى فذهبت به الى ورقة فأخبره فقال له اذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى : يامحمد يامحمد فأنطلق هاربا فى الأرض ، فقال لاتفعل اذا أتاك فاثبت حتى تسمع مايقول ثم ائتنى فأخبرنى فلما خلا ناداه يامحمد قل « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين حتى بلغ ولا الضالين » الحديث ، وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن رجل من بنى سلمة قال لما أسلمت فتيان بنى سلمة وأسلم ولد عمرو بن الجموح قالت امرأة عمرو له هل لك أن تسمع من أبيك ماروى عنه ؟ فسأله فقرأ عليه الحمد لله رب العالمين وكان ذلك قبل الهجرة ، وأخرج أبو بكر بن الأنبارى فى المصاحف عن عبادة قال فاتحة الكتاب نزلت بمكة * فهذا جملة مااستدل به من قال انها نزلت بمكة ، واستدل من قال انها نزلت بالمدينة بما أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف ، وأبو سعيد بن الأعرابى فى معجمه ، والطبرانى فى الأوسط من طريق مجاهد عن أبى هريرة « رنّ ابليس حين أنزلت فاتحة الكتاب » وأنزلت بالمدينة ، وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وأبو نعيم فى الحلية وغيرهم من طرق عن مجاهد قال نزلت فاتحة الكتاب بالمدينة ، وقيل انها نزلت مرتين ، مرة بمكة ، ومرة بالمدينة جمعا بين هذه الروايات * وتسمى أم الكتاب ، قال البخارى فى أوّل التفسير ، وسميت أم الكتاب لانه يبدأ بكتابتها فى المصاحف ويبدأ بقراءتها فى الصلاة ، وأخرج ابن الضريس فى فضائل القرآن عن أيوب أن محمد بن سيرين كان يكره أن يقول أم الكتاب ويقول قال الله تعالى « وعنده أمّ الكتاب » ولكن يقول فاتحة الكتاب ، ويقال لها الفاتحة لأنه يفتتح بها القراءة وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الامام ، قال ابن كثير فى تفسيره وصح تسميتها بالسبع المثانى ، قالوا لأنها تثنى فى الصلاة فتقرأ فى كل ركعة ، وأخرج أحمد من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « لأم القرآن هى أم القرآن وهى السبع المثانى وهى القرآن العظيم » وأخرج ابن

جرير فى تفسيره عن أبى هريرة أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « هى أم القرآن وهى فاتحة الكتاب وهى السبع المثانى » وأخرج نحوه ابن مردويه فى تفسيره والدارقطنى من حديثه ، وقال كلهم ثقات ، وروى البيهقى عن علىّ وابن عباس وأبى هريرة أنهم فسروا قوله تعالى « سبعا من المثانى » بالفاتحة ، ومن جملة أسمائها كما حكاه فى الكشاف سورة الكنز ، والوافية ، وسورة الحمد ، وسورة الصلاة ، وقد أخرج الثعلبى أن سفيان بن عيينة كان يسمى فاتحة الكتاب الواقيه ، وأخرج الثعلبى أيضا عن عبد الله ابن يحى بن أبى كثير أنه سأله سائل عن قراءة الفاتحة خلف الامام فقال عن الكافية تسأل ؟ قال السائل وما الكافيه ؟ قال الفاتحة أما علمت أنها تكفى عن سواها ولا يكفى سواها عنها ، وأخرج أيضا عن الشعبى أن رجلا اشتكى اليه وجع الخاصرة ، فقال عليك بأساس القرآن ، قال وما أساس القرآن ؟ قال فاتحة الكتاب ، وأخرج البيهقى فى الشعب عن أنس عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال ان الله أعطانى فيما منّ به علىّ فاتحة الكتاب ، وقال هى من كنوز عرشى ، وأخرج اسحق بن راهويه فى مسنده عن علىّ نحوه مرفوعا ، وقد ذكر القرطبى فى تفسيره للفاتحة اثنى عشر اسما ، وهى سبع آيات بلا خلاف كما حكاه ابن كثير فى تفسيره ، وقال القرطبى أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات الا ماروى عن حسين الجعفى أنها ست وهو شاذ ، والا ماروى عن عمرو بن عبيد أنه جعل اياك نعبد آية فهى عنده ثمان وهو شاذ انتهى ، وانما اختلفوا فى البسملة كما سيأتى ان شاء الله ، وقد أخرج عبد بن حميد ، ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة وابن الأنبارى فى المصاحف عن محمد بن سيرين أن أبىّ بن كعب وعثمان بن عفان كانا يكتبان فاتحة الكتاب والمعوذتين ، ولم يكتب ابن مسعود شيئا منهنّ ، وأخرج عبد بن حميد عن ابراهيم قال كان عبد الله بن مسعود لا يكتب فاتحة الكتاب فى المصحف ، وقال لو كتبتها لكتبت فى أوّل كل شىء * وقد ورد فى فضل هذه السورة أحاديث ، منها ماأخرجه البخارى وأحمد وأبو داود والنسائى من حديث أبى سعيد بن المعلى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد قال فأخذ بيدى فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت يارسول الله انك قلت لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن ؟ قال نعم « الحمد لله رب العالمين » هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته ، وأخرج أحمد والترمذى وصححه من حديث أبىّ بن كعب أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال له أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل فى التوراة ولا فى الانجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها ثم أخبره أنها الفاتحة ، وأخرجه النسائى ، وأخرج أحمد فى المسند من حديث عبد الله بن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له « ألا أخبرك بأخير سورة فى القرآن ؟ قلت بلى يارسول الله قال اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختمها » وفى اسناده ابن عقيل ، وقد احتج به كبار الأئمة ، وبقية رجاله ثقات ، وعبد الله بن جابر هذا هو العبدى كما قال ابن الجوزى ، وقيل الانصارى البياضى كما قال ابن عساكر ، وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى سعيد أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال لما أخبروه بأن رجلا رقى سليما بفاتحة الكتاب « وما كان يدريه أنها رقية الحديث » ، وأخرج مسلم فى صحيحه ، والنسائى فى سننه من حديث ابن عباس قال بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعنده جبريل إذ سمع نقيضا فوقه فرفع جبريل بصره الى السماء فقال هذا باب قد فتح من السماء مافتح قط قال فنزل منه ملك فأتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال « أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبىّ قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفا منهما إلا أوتيته » وأخرج مسلم والنسائى والترمذى ، وصححه من حديث أبى هريرة « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج ثلاثا ، غير تامة . وأخرج البزار فى مسنده بسند ضعيف عن أنس قال قال رسول الله ﷺ اذا وضعت جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد فقد أمنت من كل شىء إلا الموت .

واخرج

وأخرج الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف عن أبى زيد وكان له صحبة قال : كنت مع النبى ﷺ فى بعض فجاج المدينة ، فسمع رجلا يتهجد ويقرأ بأم القرآن فقام النبى ﷺ فاستمع حتى ختمها ثم قال « مافى القرآن مثلها » وأخرج سعيد بن منصور فى سننه ، والبيهقى فى شعب الايمان عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال « فاتحة الكتاب شفاء من كل سقم » وأخرج أبو الشيخ نحوه من حديثه ، وحديث أبى هريرة مرفوعا . وأخرج الدارمى ، والبيهقى فى شعب الايمان بسند رجاله ثقات عن عبد الملك ابن عمير قال قال رسول الله ﷺ فى فاتحة الكتاب « شفاء من كل داء » وأخرج أحمد ، وأبو داود والنسائى وابن السنى فى عمل اليوم والليلة ، وابن جرير والحاكم وصححه عن خارجة بن الصلت التميمى عن عمه أنه أتى رسول الله ﷺ ثم أقبل راجعا من عنده فمر على قوم وعندهم رجل مجنون موثق بالحديد فقال أهله أعندك ماتداوى به هذا ؟ فان صاحبكم قد جاء بخير قال فقرأت عليه فاتحة الكتاب ثلاثة أيام فى كل يوم مرتين غدوة وعشية أجمع بزاقى ثم أتفل فبرأ فأعطانى مائة شاة فأتيت النبى ﷺ فذكرت ذلك له فقال « كل فمن أكل برقية باطل فقد أكلت برقية حق » وأخرج الفريابى فى تفسيره عن ابن عباس قال « فاتحة الكتاب ثلث القرآن » وأخرج الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ « من قرأ أم القرآن وقل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن ، وأخرج عبد بن حميد فى مسنده بسند ضعيف عن ابن عباس يرفعه الى النبى ﷺ « فاتحة الكتاب تعدل بثلثى القرآن » وأخرج الحاكم ، وصححه ، وأبو ذر الهروى فى فضائله ، والبيهقى فى الشعب عن أنس قال كان النبى ﷺ فى مسيرله فنزل فمشى رجل من أصحابه الى جنبه فالتفت اليه النبى ﷺ فقال « ألا أخبرك بأفضل القرآن فتلا عليه الحمد لله رب العالمين » وأخرج أبو نعيم والديلمى عن أبى الدرداء قال قال رسول ﷺ « فاتحة الكتاب تجزى مالا يجزى شئ من القرآن ، ولو أن فاتحة الكتاب جعلت فى كفة الميزان وجعل القرآن فى الكفة الأخرى لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرات » وأخرج أبو عبيد فى فضائله عن الحسن مرسلا قال قال رسول الله ﷺ من قرأ فاتحة الكتاب فكأنما قرأ التوراة والانجيل والزبور والفرقان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

اختلف أهل العلم هل هى آية مستقلة فى أوّل كل سورة كتبت فى أوّلها ، أو هى بعض آية من أوّل كل سورة ، أو هى كذلك فى الفاتحة فقط دون غيرها ، أو انها ليست بآية فى الجميع وانما كتبت للفصل ، والأقوال وأدلتها مبسوطة فى موضع الكلام على ذلك . وقد اتفقو على أنها بعض آية فى سورة النمل . وقد جزم قراء مكة والكوفة بأنها آية من الفاتحة ومن كل سورة ، وخالفهم قراء المدينة والبصرة والشام فلم يجعلوها آية لامن الفاتحة ولامن غيرها من السور قالوا ، وانما كتبت للفصل والتبرك . وقد أخرج أبو داود باسناد صحيح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان لايعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم ، وأخرجه الحاكم فى المستدرك . وأخرج ابن خزيمة فى صحيحه عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قرأ البسملة فى أوّل الفاتحة فى الصلاة وغيرها آية ، وفى اسناده عمرو بن هرون البلخى وفيه ضعف ، وروى نحوه الدارقطنى مرفوعا عن أبى هريرة * وكما وقع الخلاف فى اثباتها وقع الخلاف فى الجهر بها فى الصلاة . وقد أخرج النسائى فى سننه وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما ، والحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة أنه صلى فجهر فى قراءته بالبسملة . وقال بعد أن فرغ انى لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ وصححه الدارقطنى والخطيب ، والبيهقى وغيرهم . وروى أبو داود والترمذى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم ، قال الترمذى وليس اسناده بذاك . وقد أخرجه الحاكم فى المستدرك

عن ابن عباس بلفظ « كان رسول الله ﷺ يجهر بسم الله الرحمن الرحيم ثم قال صحيح . وأخرج البخارى فى صحيحه عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال كانت قراءته مدًّا ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله و يمد الرحمن و يمد الرحيم . وأخرج أحمد فى المسند وأبو داود فى السنن وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم فى مستدركه عن أم سلمة أنها قالت كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . وقال الدارقطنى اسناده صحيح * واحتج من قال بأنه لايجهر بالبسملة فى الصلاة بما فى صحيح مسلم عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين ، وفى الصحيحين عن أنس قال صليت خلف النبى ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين ، ولمسلم لايذكرون بسم الله الرحمن الرحيم فى أوّل قراءة ولا فى آخرها . وأخرج أهل السنن نحوه عن عبدالله بن مغفل ، والى هذا ذهب الخلفاء الأربعة وجماعة من الصحابة ، وأحاديث الترك وان كانت أصح ولكن الاثبات أرجح مع كونه خارجا من مخرج صحيح فالأخذ به أولى ولا سيما مع امكان تأويل الترك وهذا يقتضى الاثبات الذاتى أعنى كونها قرآنا ، والوصفى أعنى الجهر بها عند الجهر بقراءة مايفتتح بها من السور فى الصلاة ، ولتنقيح البحث والكلام على أطرافه استدلالا وردّا وتعقبا ودفعا ، ورواية ودراية موضع غير هذا * ومتعلق البا محذوف وهو أقرأ أو أتلوا لأنه المناسب لما جعلت البسملة مبدأ له ، فمن قدره متقدما كان غرضه الدلالة بتقديمه على الاهتمام بشأن الفعل ، ومن قدره متأخرا كان غرضه الدلالة بتأخيره على الاختصاص مع مايحصل فى ضمن ذلك من العناية بشأن الاسم والاشارة الى أن البداية به أهمّ لكون التبرك حصل به ، وبهذا يظهر رجحان تقدير الفعل متأخرا فى مثل هذا المقام ، ولا يعارضه قوله تعالى « اقرأ باسم ربك الذى خلق » لان ذلك المقام مقام القراءة فكان الأمر بها أهمّ ، وأما الخلاف بين أئمة النحو فى كون المقدر اسما أو فعلا فلا يتعلق بذلك كثير فائدة * والباء للاستعانة أو للمصاحبة ، ورجح الثانى الزمخشرى * واسم أصله سمو حذفت لامه ، ولما كان من الأسماء التى بنوا أوائلها على السكون زادوا فى أوّله الهمزة اذا نطقوا به لئلا يقع الابتداء بالساكن ، وهو اللفظ الدال على المسمى ، ومن زعم أن الاسم هو المسمى كما قاله أبو عبيدة ، وسيبويه ، والباقلانى ، وابن فورك ، وحكاه الرازى عن الحشوية والكرامية والأشعرية فقد غلط غلطا بينا وجاء بما لايعقل مع عدم ورود مايوجب المخالفة للعقل لامن الكتاب ولامن السنة ولا من لغة العرب بل العلم الضرورى حاصل بأن الاسم الذى هو أصوات مقطعة وحروف مؤلفة غير المسمى الذى هو مدلوله ، والبحث مبسوط فى علم الكلام . وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة « إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة » وقال الله عز وجل ـ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ـ وقال تعالى ـ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيامّا تدعوا فله الأسماء الحسنى ـ * والله علم لذات الواجب الوجود لم يطلق على غيره ، وأصله إله حذفت الهمزة وعوّضت عنها أداة التعريف فلزمت . وكان قبل الحذف من أسماء الأجناس يقع على كل معبود بحق أو باطل ، ثم غلب على المعبود بحق كالنجم والصعق فهو قبل الحذف من الأعلام الغالبة و بعده من الأعلام المختصة * والرحمن الرحيم اسمان مشتقان من الرحمة على طريق المبالغة ، ورحمن أشدّ مبالغة من الرحيم . وفى كلام ابن جرير مايفهم حكاية الاتفاق على هذا ولذلك قالوا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا . وقد تقرر أن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى . وقال ابن الأنبارى والزجاج ان الرحمن عبرانى والرحيم عربى وخالفهما غيرهما * والرحمن من الصفات الغالبة لم يستعمل فى غير الله عز وجل . وأما قول بنى حنيفة فى مسيلمة رحمن اليمامة فقال فى الكشاف انه باب من تعنتهم فى كفرهم . قال أبو على الفارسى الرحمن اسم عام فى جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى والرحيم انما هو فى جهة المؤمنين قال الله تعالى ـ وكان بالمؤمنين رحيما ـ وقد ورد فى فضلها أحاديث ، منها ماأخرجه سعيد

ابن منصور فى سننه وابن خزيمة فى كتاب البسملة والبيهقى عن ابن عباس قال استرق الشيطان من الناس أعظم آية من القرآن بسم الله الرحمن الرحيم . وأخرج نحوه أبو عبيد وابن مردويه والبيهقى فى شعب الايمان عنه أيضا . وأخرج الدارقطنى بسند ضعيف عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال كان جبريل اذا جاءنى بالوحى أول مايلقى علىّ بسم الله الرحمن الرحيم . وأخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره والحاكم فى المستدرك وصححه والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن عباس أن عثمان بن عفان سأل النبى ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال هو اسم من أسماء الله وما بينه و بين اسم الله الأكبر الا كما بين سواد العين و بياضها من القرب . وأخرج ابن جرير وابن عدىّ فى الكامل وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية وابن عساكر فى تاريخ دمشق والثعلبى بسند ضعيف جدا عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ ان عيسى ابن مريم أسلمته أمه الى الكتاب لتعلمه فقال له المعلم : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال له عيسى : وما بسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال المعلم لا أدرى فقال له عيسى : الباء بهاء الله والسين سناه والميم مملكته والله إله الآلهة والرحمن رحمن الدنيا والآخرة والرحيم رحيم الآخرة ، وفى إسناده اسماعيل بن يحيى وهو كذاب . وقد أورد هذا الحديث ابن الجوزى فى الموضوعات . وأخرج ابن مردويه ، والثعلبى عن جابر قال لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم هرب الغيم الى المشرق وسكنت الريح وهاج البحر وأصغت البهائم بآذانها ورجمت الشياطين من السماء وحلف الله بعزته وجلاله أن لا تسمى على شئ الا بارك فيه . وأخرج أبو نعيم والديلمى عن عائشة قالت لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم ضجت الجبال حتى سمع أهل مكة دويها فقالوا : سحر محمد الجبال ، فبعث الله دخانا حتى أظل على أهل مكة ، فقال رسول الله ﷺ من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم موقنا سبحت معه الجبال الا أنه لا يسمع ذلك منها . وأخرج الديلمى عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله له بكل حرف أربعة آلاف حسنة ومحا عنه أربعة آلاف سيئة ورفع له أربعة آلاف درجة . وأخرج الخطيب فى الجامع عن أبى جعفر محمد بن على قال قال رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم مفتاح كل كتاب * وهذه الأحاديث ينبغى البحث عن أسانيدها والكلام عليها بما يتبين بعد البحث ان شاء الله . وقد شرعت التسمية فى مواطن كثيرة قد بينها الشارع منها عند الوضوء ، وعند الذبيحة ، وعند الأكل ، وعند الجماع ، وغير ذلك .

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (١)

﴿ الحمد لله ﴾ الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختيارى ، و بقيد الاختيار فارق المدح فانه يكون على الجميل وان لم يكن الممدوح مختارا كمدح الرجل على جماله وقوّته وشجاعته . وقال صاحب الكشاف انهما أخوان والحمد أخص من الشكر موردا وأعمّ منه متعلقا ، فمورد الحمد اللسان فقط ، ومتعلقه النعمة وغيرها ومورد الشكر اللسان والجنان والأركان ، ومتعلقه النعمة . وقيل ان مورد الحمد كمورد الشكر لأن كل ثناء باللسان لا يكون من صميم القلب مع موافقة الجوارح ليس بحمد بل سخرية واستهزاء . وأجيب بأن اعتبار موافقة القلب والجوارح فى الحمد لا يستلزم أن يكون موردا له بل شرطا ، وفرق بين الشرط والشطر وتعريفه لاستغراق أفراد الحمد ، وأنها مختصة بالرب سبحانه على معنى أن حمد غيره لا اعتداد به لأن المنعم هو الله عز وجل ، أو على أن حمده هو الفرد الكامل فيكون الحصر ادّعائيا . ورجح صاحب الكشاف أن

(١) استحسنا اثبات جميع الفاتحة مشكولة هنا للتبرك ثم أثبتناها بكمالها مفرقة على مقتضى ما أثبتها المفسر الشوكانى فليعلم ذلك

التعريف هنا هو تعريف الجنس لا الاستغراق والصواب ماذكرناه . وقد جاء فى الحديث «اللهم لك الحمد كله» وهو مرتفع بالابتداء وخبره الظرف وهو لله . وأصله النصب على المصدرية باضمار فعله كسائر المصادر التى تنصبها العرب فعدل عنه إلى الرفع لقصد الدلالة على الدوام والثبات المستفاد من الجمل الاسمية دون الحدوث والتجدد اللذين تفيدهما الجمل الفعلية ، واللام الداخلة على الاسم الشريف هى لام الاختصاص . قال ابن جرير الحمد ثناء أثنى به على نفسه ، وفى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه فكأنه قال قولوا الحمد لله ، ثم رجح اتحاد الحمد والشكر مستدلا على ذلك بما حاصله : ان جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر ، قال ابن كثير وفيه نظر لانه اشتهر عند كثير من العلماء المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية ، والشكر لا يكون الا على المتعدية ويكون بالجنان واللسان والأركان انتهى . ولا يخفى أن المرجع فى مثل هذا الى معنى الحمد فى لغة العرب لا إلى ماقاله جماعة من العلماء المتأخرين ، فان ذلك لا يردّ على ابن جرير ولا تقوم به الحجة ، هذا اذا لم يثبت للحمد حقيقة شرعية فان ثبتت وجب تقديمها . وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال قال عمر ، قد علمنا سبحان الله ولا إله إلا الله فما الحمد لله ؟ فقال على ّ كلمة رضيها لنفسه . وروى ابن أبى حاتم أيضا عن ابن عباس أنه قال الحمد لله كلمة الشكر واذا قال العبد الحمد لله قال شكرنى عبدى . وروى هو وابن جرير عن ابن عباس أيضا أنه قال الحمد لله هو الشكر لله والاستخذاء له والاقرار له بنعمه وهدايته وابتدائه وغير ذلك . وروى ابن جرير عن الحكم بن عمير ، وكانت له صحبة قال قال النبى ﷺ اذا قلت الحمد لله رب العالمين فقد شكرت الله فزادك . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول والخطابى فى الغريب والبيهقى فى الأدب والديلمى فى مسند الفردوس عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ أنه قال الحمد رأس الشكر ماشكر الله عبد لا يحمده . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى عبد الرحمن الحبلى قال الصلاة شكر والصيام وكل خير تفعله شكر وأفضل الشكر الحمد . وأخرج الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف عن النوّاس بن سمعان قال سرقت ناقة رسول الله ﷺ فقال لئن ردّها الله على ّ لأشكرنّ ربى فرجعت فلما رآها قال الحمد لله فانتظروا هل يحدث رسول الله ﷺ صوما أوصلاة فظنوا أنه نسى فقالوا يارسول الله قد كنت قلت لئن ردّها الله على ّ لأشكرنّ ربى قال ألم أقل الحمد لله ؟ * وقد ورد فى فضل الحمد أحاديث منها ماأخرجه أحمد والنسائى والحاكم وصححه ، والبخارى فى الادب المفرد عن الأسود بن سريع قال قلت يارسول الله ألا أنشدك محامد حمدت بها ربى تبارك وتعالى فقال أما إن ربك يحب الحمد . وأخرج الترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه وابن حبان والبيهقى عن جابر قال قال رسول الله ﷺ أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله . وأخرج ابن ماجه والبيهقى بسند حسن عن أنس قال قال رسول ﷺ ماأنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله الا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول والقرطبى فى تفسيره عن أنس عن النبى ﷺ قال لو أن الدنيا كلها بحذافيرها فى يد رجل من أمتى ثم قال الحمد لله لكان الحمد أفضل من ذلك . قال القرطبى معناه لكان إلهامه الحمد أكبر نعمة عليه من نعم الدنيا لأن ثواب الحمد لا يفنى ، ونعيم الدنيا لا يبقى . وأخرج البيهقى فى شعب الايمان عن جابر قال قال رسول الله ﷺ مامن عبد ينعم عليه بنعمة الا كان الحمد أفضل منها . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف نحوه عن الحسن مرفوعا . وأخرج مسلم ، والنسائى ، وأحمد عن أبى مالك الأشعرى قال قال رسول الله ﷺ الطهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان الحديث . وأخرج سعيد بن منصور ، وأحمد ، والترمذى وحسنه وابن مردويه عن رجل من بنى سليم أن رسول الله ﷺ قال سبحان الله نصف الميزان والحمد لله تملأ الميزان والله أكبر تملأ مابين السماء والأرض والطهور نصف الايمان والصوم نصف الصبر . وأخرج الحكيم

الترمذى

الترمذى عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ التسبيح نصف الميزان والحمد لله تملؤه ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلص اليه . وأخرج البيهقى عن أنس قال قال رسول الله ﷺ التأنى من الله والعجلة من الشيطان وما شئ أكثر معاذير من الله وما شئ أحب إلى الله من الحمد . وأخرج ابن شاهين فى السنة والديلمى عن أبان بن أنس قال قال رسول الله ﷺ التوحيد ثمن الجنة والحمد ثمن كل نعمة ويتقاسمون الجنة بأعمالهم . وأخرج أهل السنن ، وابن حبان ، والبيهقى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ كل أمر ذى بال لايبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع . وأخرج ابن ماجه فى سننه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حدثهم أن عبدا من عباد الله قال يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فلم يدر الملكان كيف يكتبانها ؟ فصعدا الى السماء فقالا يار بنا ان عبدا قدقال مقالة لاندرى كيف نكتبها ؟ قال الله وهو أعلم بما قال عبده ماذا قال عبدى ؟ قالا يارب انه قال : لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فقال الله لهما اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى وأجزيه بها . وأخرج مسلم عن أنس قال قال رسول الله ﷺ ان الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها ﴿ رب العالمين ﴾ قال فى الصحاح الرب اسم من أسماء الله تعالى ولا يقال فى غيره الا بالاضافة وقد قالوه فى الجاهلية للملك . وقال فى الكشاف الرب المالك ومنه قول صفوان لأبى سفيان لأن يربنى رجل من قريش أحب إلىّ من أن يربنى رجل من هوازن ، ثم ذكر نحو كلام الصحاح . قال القرطبى فى تفسيره والرب السيد ومنه قوله تعالى اذكرنى عند ربك ، وفى الحديث أن تلد الأمة ربها ، والرب المصلح والمدبر والجابر والقائم قال والرب المعبود ، ومنه قول الشاعر ،

أرب يبول الثعلبان برأسه * لقد هان من بالت عليه الثعالب

والعالمين جمع العالم وهو كل موجود سوى الله تعالى ، قاله قتادة ، وقيل أهل كل زمان عالم ، قاله الحسين بن الفضل وقال ابن عباس العالمون الجن والانس ، وقال الفراء وأبو عبيد العالم عبارة عمن يعقل وهم أربعة أمم : الانس والجن والملائكة والشياطين . ولايقال للبهائم عالم ، لأن هذا الجمع انما هو جمع مايعقل ، حكى هذه الأقوال القرطبى فى تفسيره ، وذكر أدلتها وقال ان القول الأول أصح هذه الأقوال لأنه شامل لكل مخلوق وموجود دليله قوله تعالى «قال فرعون ومارب العالمين قال رب السموات والأرض ومابينهما» وهو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على موجده كذا قال الزجاج ، وقال العالم كل ماخلقه الله فى الدنيا والآخرة انتهى . وعلى هذا يكون جمعه على هذه الصيغة المختصة بالعقلاء تغليبا للعقلاء على غيرهم . وقال فى الكشاف ساغ ذلك لمعنى الوصفية فيه وهى الدلالة على معنى العلم . وقد أخرج ماتقدم من قول ابن عباس عنه الفريابى ، وعبد بن حميد وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه . وأخرجه عبد بن حميد . وابن جرير عن مجاهد . وأخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبير . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى رب العالمين ، قال إله الخلق كله السموات كلهن ومن فيهن . والأرضون كلهن ومن فيهن ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم ﴿الرحمن الرحيم﴾ قد تقدم تفسيرهما ، قال القرطبى وصف نفسه تعالى بعد رب العالمين بأنه الرحمن الرحيم لأنه لما كان فى اتصافه برب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب ليجمع فى صفاته بين الرهبة منه والرغبة اليه فيكون أعون على طاعته وأمنع كما قال تعالى «نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم» وقال «غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب» وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال لو يعلم المؤمن ماعند الله من العقوبة ماطمع فى جنته أحد ولو يعلم الكافر ماعند الله من الرحمة ماقنط من جنته أحد انتهى . وقد أخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله الحمد لله رب العالمين قال ماوصف من خلقه وفى قوله الرحمن الرحيم قال مدح نفسه ثم ذكر

بقية الفاتحة ﴿ ملك يوم الدين ﴾ قرئ مَلِكِ ومالِكِ ومَلْكِ بسكون اللام ومَلَكَ بصيغة الفعل ، وقد اختلف العلماء أيما أبلغ ملك أومالك فقيل ان ملك أعم وأبلغ من مالك اذ كل ملك مالك وليس كل مالك ماسكا ولأن أمر الملك نافذ على المالك فى ملكه حتى لايتصرف الاعن تدبير الملك قاله أبو عبيد والمبرد ورجحه الزمخشرى . وقيل مالك أبلغ لأنه يكون مالكا للناس وغيرهم فالمالك أبلغ تصرفا وأعظم . وقال أبو حاتم ان مالكا أبلغ فى مدح الخالق من ملك . وملك أبلغ فى مدح المخلوقين من مالك لأن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك و إذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا . واختارهذا القاضى أبو بكر بن العربى . والحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لايوجد فى الآخر فالمالك يقدر على مالايقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له بالبيع والهبة والعتق ونحوها ، والملك يقدر على مالا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة الى تدبير الملك وحياطته ورعاية مصالح الرعية فالمالك أقوى من الملك فى بعض الأمور والملك أقوى من المالك فى بعض الأمور ، والفرق بين الوصفين بالنسبة الى الرب سبحانه أن الملك صفة لذاته والمالك صفة لفعله * ويوم الدين يوم الجزاء من الرب سبحانه لعباده كما قال «وما أدراك مايوم الدين ثم ماأدراك مايوم الدين يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله» ، وهذه الاضافة الى الظرف على طريق الاتساع كقولهم ياسارق الليلة أهل الدار ، ويوم الدين وان كان متأخرا فقد يضاف اسم الفاعل وما فى معناه الى المستقبل كقولك هذا ضارب زيد غدا . وقد أخرج الترمذى عن أم سلمة أن النبى ﷺ كان يقرأ ملك بغير ألف . وأخرج نحوه ابن الانبارى عن أنس . وأخرج أحمد والترمذى عن أنس أيضا أن النبى ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان كانوا يقرءون مالك بالألف . وأخرج نحوه سعيد بن منصور عن ابن عمر مرفوعا . وأخرج نحوه أيضا وكيع فى تفسيره ، وعبد بن حميد ، وأبو داود عن الزهرى يرفعه مرسلا . وأخرجه أيضا عبد الرزاق فى تفسيره وعبد بن حميد وأبو داود عن ابن المسيب مرفوعا مرسلا . وقد روى هذا من طرق كثيرة فهو أرجح من الأول . وأخرج الحاكم وصححه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ مالك يوم الدين ، وكذا رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود مرفوعا . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه عن ابن مسعود وناس من الصحابة أنهم فسروا يوم الدين بيوم الحساب . وكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال يوم الدين يوم يدين الله العباد بأعمالهم ﴿ إياك نعبد و إياك نستعين ﴾ قراءة السبعة وغيرهم بتشديد الياء وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر . وقرأ الفضل والرقاشى بفتح الهمزة . وقرأ أبو السوار الغنوى هياك فى الموضعين وهى لغة مشهورة . والضمير المنفصل هو إيا وما يلحقه من الكاف والهاء والياء هى حروف لبيان الخطاب والغيبة والتكلم ولا محل لها من الاعراب كما ذهب اليه الجمهور وتقديمه على الفعل لقصد الاختصاص . وقيل للاهتمام ، والصواب أنه لهما ولاتزاحم بين المقتضيات * والمعنى نخصك بالعبادة ونخصك بالاستعانة لانعبد غيرك ولانستعينه ، والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل ، قال ابن كثير ، وفى الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف . وعدل عن الغيبة الى الخطاب لقصد الالتفات لأن الكلام اذا نقل من أسلوب الى آخر كان أحسن تطرية لنشاط السامع وأكثر ايقاظا له كما تقرر فى علم المعانى . والمجىء بالنون فى الفعلين لقصد الاخبار من الداعى عن نفسه وعن جنسه من العباد ، وقيل ان المقام لما كان عظيما لم يستقل به الواحد استقصارا لنفسه واستصغارا لها ، فالمجىء بالنون لقصد التواضع لالتعظيم النفس ، وقدمت العبادة على الاستعانة لكون الأولى وسيلة الى الثانية ، وتقديم الوسائل سبب لتحصيل المطالب واطلاق الاستعانة لقصد التعميم . وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله اياك نعبد يعنى اياك نوحد ونخاف يار بنا لاغيرك واياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها ، وحكى ابن كثير عن قتادة أنه قال فى اياك نعبد واياك نستعين

يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أمركم ، وفى صحيح مسلم من حديث المعلى بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ يقول الله تعالى «قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ماسأل ، اذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال حمدنى عبدى ، واذا قال الرحمن الرحيم قال أثنى على عبدى ، فاذا قال مالك يوم الدين قال مجدنى عبدى ، فاذا قال اياك نعبد واياك نستعين قال هذا بينى و بين عبدى ولعبدى ماسأل فاذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال هذا لعبدى ولعبدى ماسأل» . وأخرج أبو القاسم البغوى ، والباوردى معا فى معرفة الصحابة ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الدلائل ، عن أنس ابن مالك ، عن أبى طلحة قال كنا مع رسول الله ﷺ فى غزاة فلق العدوّ فسمعته يقول يامالك يوم الدين إياك نعبدو إياك نستعين ، قال فلقد رأيت الرجال تصرع فتضربها الملائكة من بين يديها ومن خلفها ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ قرأه الجمهور بالصاد وقرئ السراط بالسين ، والزراط بالزاى ، والهداية قديتعدى فعلها بنفسه كما هنا ، وكقوله «وهديناه النجدين» . وقديتعدى بالى كقوله «اجتباه وهداه الى صراط مستقيم» فاهدوهم الى صراط الجحيم وانك لتهدى الى صراط مستقيم . وقد يتعدّى باللام كقوله الحمد لله الذى هدانا لهذا . ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، قال الزمخشرى أصله أن يتعدّى باللام أو بالى انتهى * وهى الارشاد أوالتوفيق ، أوالالهام ، أوالدلالة . وفرق كثير من المتأخرين بين معنى المتعدى بنفسه وغير المتعدى فقالوا معنى الأوّل الدلالة ، والثانى الايصال ، وطلب الهداية من المهتدى معناه طلب الزيادة كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى . والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا * والصراط الطريق ، قال ابن جرير أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعا على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذى لاعوجاج فيه وهو كذلك فى لغة جميع العرب قال ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله فتصف المستقيم باستقامته والمعوج باعوجاجه . وقد أخرج الحاكم وصححه وتعقبه الذهبى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ اهدنا الصراط المستقيم بالصاد . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه عن ابن عباس أنه قرأ السراط بالسين ، وأخرج ابن الانبارى عن ابن كثير أنه كان يقرأ السراط بالسين . وأخرج أيضا عن حمزة أنه كان يقرأ الزراط بالزاى ، قال الفراء وهى لغة لعذرة وكلب و بنى القين . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال اهدنا الصراط المستقيم يقول ألهمنا دينك الحق . وأخرج ابن جرير عنه وابن المنذر نحوه . وأخرج وكيع وعبد ابن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن جابر بن عبدالله أنه قال هو دين الاسلام وهو أوسع مما بين السماء والأرض . وأخرج نحوه ابن جرير عن ابن عباس . وأخرج نحوه أيضا عن ابن مسعود وناس من الصحابة . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، والحاكم ، وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الايمان عن النوّاس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول : ياأيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تفرّقوا ، وداع يدعو من فوق الصراط فاذا أراد الانسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال ويحك لاتفتحه فانك ان تفتحه تلجه فالصراط الاسلام والسوران حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله والداعى من فوق واعظ الله تعالى فى قلب كل مسلم ، قال ابن كثير بعد اخراجه وهو اسناد حسن صحيح . وأخرج وكيع ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر وأبو بكر الانبارى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن مسعود أنه قال هو كتاب الله . وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وابن عدى ، وابن عساكر عن أبى العالية قال هو رسول الله ﷺ وصاحباه من بعده .

وأخرج الحاكم ، وصححه ، عن أبى العالية عن ابن عباس مثله ، وروى القرطبى عن الفضيل بن عياض أنه قال الصراط المستقيم طريق الحج ، قال وهذا خاص والعموم أولى انتهى ، وجميع ماروى فى تفسير هذه الآية ماعدا هذا المروى عن الفضيل يصدق بعضه على بعض فان من اتبع الاسلام أو القرآن أو النبى فقد اتبع الحق . وقد ذكر ابن جرير نحو هذا ، فقال والذى هو أولى بتأويل هذه الآية عندى معنيابه وفقنا للثبات على مارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول وعمل وذلك هو الصراط المستقيم لأن من وفق اليه ممن أنعم الله عليه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقد وفق للاسلام وتصديق الرسل والتمسك بالكتاب والعمل بما أمره الله به والانزجار عما زجره عنه واتباع منهاج النبى ﷺ ومنهاج الخلفاء الأربعة وكل عبد صالح وكل ذلك من الصراط المستقيم انتهى ﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ انتصب صراط على أنه بدل من الأول ، وفائدته التوكيد لمافيه من التثنية والتكرير ، ويجوز أن يكون عطف بيان ، وفائدته الايضاح ، والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون فى سورة النساء حيث قال ـ ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ـ وأطلق الانعام ليشمل كل انعام ، وغير المغضوب عليهم بدل من الذين أنعمت عليهم على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله والضلال ، أو صفة له على معنى أنهم جمعوا بين النعمتين نعمة الايمان والسلامة من ذلك ، وصح جعله صفة للمعرفة مع كون غير لاتتعرف بالاضافة الى المعارف لما فيها من الابهام لأنها هنا غير مبهمة لاشتهار المغايرة بين الجنسين ، والغضب فى اللغة قال القرطبى الشدة ورجل غضوب أى شديد الخلق ، والغضوب الحية الخبيثة لشدتها ، قال ومعنى الغضب فى صفة الله ارادة العقوبة فهو صفة ذاته ، أو نفس العقوبة ، ومنه الحديث «ان الصدقة لتطفئ غضب الرب» فهو صفة فعله ، قال فى الكشاف هو ارادة الانتقام من العصاة وانزال العقوبة بهم وأن يفعل بهم مايفعله الملك اذا غضب على من تحت يده ، والفرق بين عليهم الأولى وعليهم الثانية ، أن الأولى فى محل نصب على المفعولية ، والثانية فى محل رفع على النيابة عن الفاعل ، ولافى قوله ولا الضالين تأكيد للنفى المفهوم من غير ، والضلال فى لسان العرب ، قال القرطبى : هو الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق ، ومنه ضل اللبن فى الماء أى غاب ، ومنه ـ أئذا ضللنا فى الأرض ـ أى غبنا بالموت وصرنا ترابا . وأخرج وكيع ، وأبو عبيد ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن عمر بن الخطاب انه كان يقرأ ـ صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين ـ . وأخرج أبو عبيد ، وعبد بن حميد ، أن عبدالله بن الزبير قرأ كذلك . وأخرج ابن الأنبارى ، عن الحسن أنه كان يقرأ عليهمى بكسر الهاء والميم واثبات الياء . وأخرج ابن الانبارى ، عن الأعرج انه كان يقرأ عليهمو بضم الهاء والميم و إلحاق الواو . وأخرج أيضا عن ابن كثير انه كان يقرأ عليهمو بكسر الهاء وضم الميم مع إلحاق الواو . وأخرج أيضا عن أبى اسحق أنه قرأ عليهم بضم الهاء والميم من غير إلحاق واو . وأخرج ابن أبى داود ، عن عكرمة ، والأسود أنهما كانا يقرآن كقراءة عمر السابقة . وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ صراط الذين أنعمت عليهم ـ يقول طريق من أنعمت عليهم من الملائكة والنبيين والصديقين والشهداء و الصالحين الذين أطاعوك وعبدوك . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنهم المؤمنون . وأخرج عبد بن حميد ، عن الربيع بن أنس فى قوله ـ صراط الذين أنعمت عليهم ـ قال النبيون ـ غير المغضوب عليهم ـ قال اليهود ولا الضالين قال النصارى . وأخرج عبد بن حميد ، عن مجاهد مثله . وأخرج أيضا عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج عبد الرزاق ، وأحمد فى مسنده ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، والبغوى ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عن عبدالله بن شقيق قال أخبرنى من سمع رسول الله ﷺ وهو بوادى القرى على فرس له وسأله رجل من

بنى القين فقال من المغضوب عليهم يارسول الله ؟ قال اليهود ، قال فمن الضالون ؟ قال النصارى . وأخرجه ابن مردويه عن عبدالله بن شقيق عن أبى ذر قال سألت رسول الله ﷺ فذكره . وأخرجه وكيع وعبد ابن حميد ، وابن جرير عن عبدالله بن شقيق قال كان رسول الله ﷺ يحاصر أهل وادى القرى فقال له رجل إلى آخره ولم يذكر فيه أخبرنى من سمع النبى كالأول . وأخرجه البيهقى فى الشعب عن عبدالله بن شقيق عن رجل من بنى القين عن ابن عم له أنه قال أتيت رسول الله ﷺ فذكره . وأخرجه سفيان بن عيينة ، فى تفسيره ، وسعيد بن منصور ، عن اسماعيل بن أبى خالد أن النبى ﷺ قال المغضوب عليهم اليهود ، والضالون النصارى . وأخرجه أحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان فى صحيحه ، عن عدى بن حاتم قال قال رسول الله ﷺ ان المغضوب عليهم هم اليهود ، وان الضالين النصارى . وأخرج أحمد ، وأبوداود ، وابن حبان ، والحاكم ، وصححه ، والطبرانى عن الشريد قال مر بى رسول الله ﷺ وأنا جالس هكذا . وقد وضعت يدى اليسرى خلف ظهرى واتكأت على ألية يدى فقال أتقعد قعدة المغضوب عليهم ؟ قال ابن كثير بعد ذكره لحديث عدى بن حاتم وقد روى حديث عدى هذا من طرق وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها انتهى ، والمصير الى هذا التفسير النبوى متعين وهو الذى أطبق عليه أئمة التفسير من السلف ، قال ابن أبى حاتم لاأعلم خلافا بين المفسرين فى تفسير المغضوب عليهم باليهود ، والضالين بالنصارى ، ويشهد لهذا التفسير النبوى آيات من القرآن قال الله تعالى فى خطابه لبنى اسرائيل فى سورة البقرة ــ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين ــ ، وقال فى المائدة ــ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل * وفى السيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه الى الشام يطلبون الدين الحنيف قال له اليهود انك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ، فقال أنا من غضب الله أفر ، وقالت له النصارى انك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله ، فقال لاأستطيعه فاستمر على فطرته وجانب عبادة الأوثان

﴿ فائدة فى مشروعية التأمين بعد قراءة الفاتحة ﴾ اعلم أن السنة الصحيحة الصريحة الثابتة تواترا ، قد دلت على ذلك ، فمن ذلك ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى عن وائل بن حجر قال سمعت رسول الله ﷺ قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقال آمين مد بها صوته ، ولأبى داود رفع بها صوته . وقد حسنه الترمذى . وأخرجه أيضا النسائى وابن أبى شيبة وابن ماجه والحاكم وصححه ، وفى لفظ من حديثه أنه ﷺ قال رب اغفر لى آمين أخرجه الطبرانى والبيهقى ، وفى لفظ أنه قال آمين ثلاث مرات أخرجه الطبرانى . وأخرج وكيع وابن أبى شيبة عن أبى ميسرة قال لما أقرأ جبريل رسول الله ﷺ فاتحة الكتاب فبلغ ولا الضالين قال قل آمين فقال آمين . وأخرج ابن ماجه عن على قال سمعت رسول الله ﷺ اذا قال ولا الضالين قال آمين . وأخرج مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن أبى موسى قال قال رسول الله ﷺ اذا قرأ يعنى الامام غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين يحبكم الله . وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وأحمد وابن أبى شيبة وغيرهم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال اذا أمن الامام فأمنوا فانه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ماتقدم من ذنبه . وأخرج أحمد وابن ماجه والبيهقى بسند قال السيوطى صحيح عن عائشة أن النبى ﷺ قال ماحسدتكم اليهود على شئ ماحسدتكم على السلام والتأمين . وأخرج ابن عدى من حديث أبى هريرة قال قال رسول ﷺ ان اليهود قوم حسد حسدوكم على ثلاثة : إفشاء السلام ، واقامة الصف ، وآمين . وأخرج الطبرانى فى الأوسط من حديث معاذ مثله . وأخرج ابن ماجه بسند ضعيف عن

ابن عباس قال ماحسدتكم اليهود على شئ ماحسدتكم على آمين فاكثروا من قول آمين ، ووجه ضعفه أن فى اسناده طلحة بن عمرو وهو ضعيف . وأخرج الديلمى عن أنس قال قال رسول الله ﷺ من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ثم قرأ فاتحة الكتاب ثم قال آمين لم يبق ملك فى السماء مقرّب الا استغفر له . وأخرج أبو داود عن بلال أنه قال يارسول الله لاتسبقنى بآمين * ومعنى آمين استجب قال القرطبى فى تفسيره معنى آمين عند أكثر أهل العلم اللهم استجب لنا ، وضع موضع الدعاء وقال فى الصحاح معنى آمين كذلك فليكن . وأخرج جويبر فى تفسيره عن الضحاك عن ابن عباس قال قلت يارسول الله مامعنى آمين قال رب افعل . وأخرج الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس مثله . وأخرج وكيع وابن أبى شيبة فى المصنف عن هلال ابن يساف ومجاهد قالا آمين اسم من اسماء الله . وأخرج ابن أبى شيبة عن حكيم بن جبير مثله ، وقال الترمذى معناه لاتخيب رجاءنا * وفيه لغتان ، المد على وزن فاعيل كياسين ، والقصر على وزن يمين قال الشاعر فى المد

يارب لاتسلبنى حبها أبدا * ويرحم الله عبدا قال آمينا

وقال آخر

آمين آمين لاأرضى بواحدة * حتى أبلغها ألفين آمينا

قال الجوهرى وتشديد الميم خطأ ، وروى عن الحسن ، وجعفر الصادق ، والحسين بن فضل التشديد ، من أمّ إذا قصد أى نحن قاصدون نحوك ، حكى ذلك القرطبى ، قال الجوهرى وهو مبنى على الفتح مثل أين وكيف لاجتماع الساكنين وتقول منه أمّن فلان تأمينا ، وقد اختلف أهل العلم فى الجهر بها ، وفى أن الامام يقولها أم لا ؟ وذلك مبين فى مواطنه .

سورة البقرة

قال القرطبى فى تفسيره سورة البقرة مدنية نزلت فى مدد شتى . وقيل هى أوّل سورة نزلت بالمدينة الا قوله تعالى ـ واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ـ فانه آخر آية نزلت من السماء ونزلت يوم النحر فى حجة الوداع بمنى وآيات الربا أيضا من أواخر مانزل من القرآن انتهى . وأخرج أبو الضريس فى فضائله وأبو جعفر النحاس فى الناسخ والمنسوخ وابن مردويه ، والبيهقى فى دلائل النبوة من طرق عن ابن عباس قال نزلت بالمدينة سورة البقرة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله . وأخرج أبو داود فى الناسخ والمنسوخ عن عكرمة قال أوّل سورة أنزلت بالمدينة سورة البقرة * وقد ورد فى فضلها أحاديث منها ماأخرجه مسلم والترمذى وأحمد والبخارى فى تاريخه ومحمد بن نصر عن النوّاس بن سمعان قال سمعت رسول الله ﷺ يقول يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به فى الدنيا تقدمهم سورة البقرة وآل عمران قال وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال مانسيتهن بعد قال كأنهما غمامتان أو كأنهما غيابتان أو كأنهما ظلتان سوداوان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والدارمى ومحمد بن نصر ، والحاكم وصححه عن بريدة قال قال رسول الله ﷺ تعلموا سورة البقرة فان أخذها بركة وتركها حسرة ولايستطيعها البطلة ثم سكت ساعة ثم قال تعلموا سورة البقرة وآل عمران فانهما الزهراوان تظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف ، قال ابن كثير وإسناده حسن على شرط مسلم . وأخرج نحوه أبو عبيد وأحمد وحميد بن زنجويه ومسلم وابن حبان والطبرانى والحاكم والبيهقى من حديث أبى أمامة مرفوعا . وأخرج نحوه أيضا الطبرانى وأبو ذر الهروى بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعا . وأخرج نحوه أيضا البزار فى سننه بسند صحيح عن أبى هريرة مرفوعا .

وأخرج مسلم والترمذى وأحمد عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لاتجعلوا بيوتكم مقابر ان الشيطان ينفر من البيت الذى يقرأ فيه سورة البقرة » . وأخرج أبو عبيد عن أنس نحوه مرفوعا . وأخرج ابن عدى فى الكامل وابن عساكر فى تاريخه عن أبى الدرداء مرفوعا نحوه . وأخرج الطبرانى بسند ضعيف عن عبد الله بن مغفل مرفوعا نحوه . وأخرج النسائى والطبرانى والبيهقى عن ابن مسعود مرفوعا نحوه ، وسنده ضعيف . وأخرجه الدارمى والبيهقى والحاكم وصححه من حديثه بنحوه . وأخرج أبو يعلى وابن حبان والطبرانى والبيهقى عن سهل بن سعد الساعدى قال قال رسول الله ﷺ « ان لكل شئ سناما وسنام القرآن سورة البقرة من قرأها فى بيته نهارا لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام ، ومن قرأها فى بيته ليلا لم يدخله الشيطان ثلاث ليال » . وأخرج أحمد ومحمد بن نصر والطبرانى بسند صحيح عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال « البقرة سنام القرآن وذروته ، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا واستخرجت ـ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ـ من تحت العرش فوصلت بها » . وأخرج البغوى فى معجم الصحابة وابن عساكر فى تاريخه عن ربيعة الجرسى قال سئل رسول الله ﷺ أى القرآن أفضل ؟ قال « السورة التى يذكر فيها البقرة » قيل فأى البقرة أفضل ؟ قال « آية الكرسى وخواتيم سورة البقرة نزلت من تحت العرش » . وأخرج أبو عبيد وأحمد والبخارى فى صحيحه تعليقا ومسلم والنسائى عن أسيد بن حضير قال بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده اذ جالت الفرس فسكت فسكنت ، ثم قرأ فجالت الفرس فسكت فسكنت ، ثم قرأ فجالت الفرس فسكت فسكنت فانصرف الى ابنه يحيى وكان قريبا منها فأشفق أن تصيبه فلما أخذه رفع رأسه الى السماء فاذا هو بمثل الظلة فيها أمثال المصابيح عرجت الى السماء حتى ما يراها فلما أصبح حدّث رسول الله ﷺ بذلك فقال رسول الله ﷺ أتدرى ماذاك ؟ قال لا يارسول الله قال « تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت تنظر اليها الناس لاتتوارى منهم » ولهذا الحديث ألفاظ . وأخرج الترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال « بعث رسول الله ﷺ بعثا فاستقرأ كل رجل منهم » يعنى مامعه من القرآن ، فأتى على رجل من أحدثهم سنا فقال مامعك يافلان ؟ قال معى كذا وكذا وسورة البقرة قال أمعك سورة البقرة ؟ قال نعم قال اذهب فأنت أميرهم » . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن عثمان بن أبى العاص قال استعملنى رسول الله ﷺ وأنا أصغر القوم الذين وفدوا عليه من ثقيف وذلك أنى كنت قرأت سورة البقرة . وأخرج البيهقى فى الشعب بسند صحيح عن الصلصال بن الدلهمس أن رسول الله ﷺ قال « اقرءوا سورة البقرة فى بيوتكم ولا تجعلوها قبورا » قال « ومن قرأ سورة البقرة فى ليلة توّج بتاج فى الجنة » . وأخرج أبو عبيد عن عباد بن عباد عن جرير بن حازم عن عمه جرير بن يزيد أن أشياخ أهل المدينة حدثوا عن رسول الله ﷺ قيل له ألم تر الى ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح ، قال فلعله قرأ سورة البقرة . قال فسئل ثابت فقال قرأت سورة البقرة ، قال ابن كثير وهذا إسناد جيد الا أن فيه إبهاما ثم هو مرسل * وقد روى أئمة الحديث فى فضائلها أحاديث كثيرة وآثارا عن الصحابة واسعة ، ومن فضائلها ماهو خاص بآية الكرسى وما هو خاص بخواتم هذه السورة ، وقد سبق بعض ذلك ، وما هو فى فضلها وفضل آل عمران ، وقد سبق أيضا بعض من ذلك وما هو فى فضل السبع الطوال كما أخرج أبو عبيد عن واثلة ابن الأسقع عن النبى ﷺ قال « أعطيت السبع مكان التوراة وأعطيت المئين مكان الانجيل وأعطيت المثانى مكان الزبور وفضلت بالمفصل » وفى إسناده سعيد بن بشير وفيه لين وقد رواه بسند آخر عن سعيد بن أبى هلال . وأخرج أيضا عن عائشة عن النبى ﷺ قال « من أخذ السبع فهو خير » . وقد رواه عنها أحمد فى المسند بلفظ « ان رسول الله ﷺ قال من أخذ السبع الأول من القرآن فهو خير » . وأخرج أبو عبيد عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى ـ ولقد آتيناك سبعا من المثانى ـ قال هى السبع الطوال البقرة وآل عمران

والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس ، وبذلك قال مجاهد ومكحول وعطية بن قيس وأبو محمد القارى شدّاد ابن عبد الله ويحيى بن الحرث الذمارى * وقد ورد ما يدل على كراهة أن يقول القائل سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء وكذا القرآن كله . فأخرج ابن الضريس والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف عن أنس قال قال رسول الله ﷺ «لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء وكذا القرآن كله ولكن قولوا السورة التى تذكر فيها البقرة والسورة التى يذكر فيها آل عمران وكذا القرآن كله» قال ابن كثير هذا حديث غريب لا يصح رفعه ، وفى إسناده يحيى بن ميمون الخوّاص وهو ضعيف الرواية لا يحتج به . وأخرج البيهقى فى الشعب بسند صحيح عن ابن عمر قال «لا تقولوا سورة البقرة ولكن قولوا السورة التى تذكر فيها البقرة . وقد روى عن جماعة من الصحابة خلاف هذا * فثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود أنه رمى الجمرة من بطن الوادى فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه ثم قال : هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة . وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد ، ومسلم ، وأهل السنن ، والحاكم ، وصححه عن حذيفة قال صليت مع رسول الله ﷺ ليلة من رمضان فافتتح البقرة ، فقلت يصلى بها فى ركعة ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران فقرأها مترسلا الحديث . وأخرج أحمد ، وابن الضريس ، والبيهقى عن عائشة قالت كنت أقوم مع رسول الله ﷺ فى الليل فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنساء . وأخرج أبو داود والترمذى فى الشمائل والنسائى والبيهقى عن عوف بن مالك الأشجعى قال قمت مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لا يمرّ بآية رحمة الا وقف الحديث .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : الٓمٓ

﴿ الٓمٓ ﴾ قال القرطبى فى تفسيره : اختلف أهل التأويل فى الحروف التى فى أوائل السور فقال الشعبى وسفيان الثورى وجماعة من المحدثين هى سر الله فى القرآن ولله فى كل كتاب من كتبه سرّ ، فهى من المتشابه الذى انفرد الله بعلمه ولا نحب أن نتكلم فيها ولكن نؤمن بها ، وتمد كما جاءت وروى هذا القول عن أبى بكر الصديق وعلىّ بن أبى طالب قال وذكر أبو الليث السمرقندى عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطعة من المكتوم الذى لا يفسر ، وقال أبو حاتم لم نجد الحروف فى القرآن الا فى أوائل السور ولا ندرى ما أراد الله عز وجل * قال وقال جمع من العلماء كثير بل نحب أن نتكلم فيها ونلتمس الفوائد التى تحتها والمعانى التى تتخرج عليها . واختلفوا فى ذلك على أقوال عديدة فروى عن ابن عباس وعلىّ أيضا ان الحروف المقطعة فى القرآن اسم الله الأعظم الا أنا لا نعرف تأليفه منها . وقال قطرب والفراء وغيرهما هى إشارة الى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين تحدّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هى التى بناء كلامهم عليها ليكون عجزهم عنه أبلغ فى الحجة عليهم اذ لم يخرج عن كلامهم ، قال قطرب كانوا ينفرون عند استماع القرآن فلما نزل الٓمٓ والمص استنكروا هذا اللفظ فلما أنصتوا له ﷺ أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته فى أسماعهم وآذانهم ويقيم الحجة عليهم . وقال قوم روى أن المشركين لما أعرضوا عن القرآن بمكة ـ وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ـ فأنزلها استغربوها فيفتحون أسماعهم فيسمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة . وقال جماعة هى حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيتها كقول ابن عباس وغيره الألف من الله واللام من جبريل والميم من محمد . وذهب الى هذا الزجاج فقال أذهب الى أن كل حرف منها يؤدى عن معنى ، وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة كقوله * فقلت لها قفى فقالت قاف * أى وقفت وفى الحديث «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة» قال شقيق هو أن يقول فى اقتل اق كما قال ﷺ «كفى بالسيف شا» أى شافيا وفى نسخة شاهدا وقال زيد بن أسلم هى أسماء للسور ، وقال الكلبى هى أقسام أقسم الله بها لشرفها وفضلها وهى من أسمائه .

ومن

* ومن أدق ما أبرزه المتكلمون فى معانى هذه الحروف ماذكره الزمخشرى فى الكشاف فانه قال : واعلم أنك اذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه فى الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامى حروف المعجم أربعة عشر سواء : وهى الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون فى تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ثم اذا نظرت فى هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على انصاف أجناس الحروف . بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها الصاد والكاف والهاء والسين والحاء ، ومن المجهورة نصفها الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون ، ومن الشديدة نصفها الألف والكاف والطاء والقاف ، ومن الرخوة نصفها اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون ، ومن المطبقة نصفها الصاد والطاء . ومن المنفتحة نصفها الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون . ومن المستعلية نصفها القاف والصاد والطاء ، ومن المنخفضة نصفها الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والتاء والعين والسين والحاء والنون . ومن حروف القلقلة نصفها القاف والطاء * ثم اذا استقريت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التى ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكنوزة بالمذكورة منها ، فسبحان الذى دقت فى كل شئ حكمته ، وقد علمت ان معظم الشئ وجله ينزل منزلة كله وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته ، فكأن الله عز اسمه عدد على العرب الألفاظ التى منها تراكيب كلامهم إشارة الى ماذكرت من التبكيت لهم و إلزام الحجة اياهم ، ومايدل على أنه تعمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعا فى تراكيب الكلم أن الألف واللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءتا فى معظم هذه الفواتح مكررين وهى فواتح سورة البقرة وآل عمران والروم والعنكبوت ولقمان والسجدة والأعراف والرعد و يونس وابراهيم وهود و يوسف والحجر انتهى * وأقول هذا التدقيق لايأتى بفائدة يعتد بها ، و بيانه أنه إذا كان المراد منه إلزام الحجة والتبكيت كما قال فهذا متيسر بأن يقال لهم هذا القرآن هو من الحروف التى تتكلمون بها ليس هو من حروف مغايرة لها فيكون هذا تبكيتا و إلزاما يفهمه كل سامع منهم من دون إلغاز وتعمية وتفريق لهذه الحروف فى فواتح تسع وعشرين سورة فان هذا مع مافيه من التطويل الذى لايستوفيه سامعه الا بسماع جميع هذه الفواتح هو أيضا مما لايفهمه أحد من السامعين ولا يتعقل شيئا منه فضلا عن أن يكون تبكيتا له و إلزاما للحجة أيا كان ، فان ذلك هو أمر وراء الفهم مترتب عليه ولم يفهم السامع هذا . ولا ذكر أهل العلم عن فرد من أفراد الجاهلية الذين وقع التحدى لهم بالقرآن أنه بلغ فهمه إلى بعض هذا فضلا عن كله . ثم كون هذه الحروف مشتملة على النصف من جميع الحروف التى تركبت لغة العرب منها وذلك النصف مشتمل على انصاف تلك الأنواع من الحروف المتصفة بتلك الأوصاف هو أمر لايتعلق به فائدة لجاهلى ولا إسلامى ولا مقر ولا منكر ولامسلم ولا معارض ولا يصلح أن يكون مقصدا من مقاصد الرب سبحانه الذى أنزل كتابه للارشاد الى شرائعه والهداية به . وهب أن هذه صناعة عجيبة ونكتة غريبة فليس ذلك مما يتصف بفصاحة ولا بلاغة حتى يكون مفيدا أنه كلام بليغ أو فصيح وذلك لأن هذه الحروف الواقعة فى الفواتح ليست من جنس كلام العرب حتى يتصف بهذين الوصفين وغاية ماهناك أنها من جنس حروف كلامهم ولا مدخل لذلك فيما ذكر * وأيضا لوفرض أنها كلمات متركبة بتقدير شىء قبلها أو بعدها لم يصح وصفها بذلك لأنها تعمية غير مفهومة للسامع الا بأن يأتى من يريد بيانها بمثل مايأتى به من أراد بيان الألغاز والتعمية وليس ذلك من الفصاحة والبلاغة فى ورد ولا صدر بل من عكسهما وضد رسمهما ، واذا عرفت هذا فاعلم ان من تكلم فى بيان معانى هذه الحروف جازما بأن ذلك هو ماأراده الله عز وجل فقد غلط أقبح الغلط وركب فى فهمه ودعواه أعظم الشطط فانه ان كان تفسيره لها بما فسرها به راجعا إلى لغة العرب وعلومها فهو كذب بحت فان العرب لم يتكلموا بشىء من ذلك واذا سمعه السامع

منهم كان معدودا عنده من الرطانة ولا ينافى ذلك انهم قد يقتصرون على حرف أو حروف من الكلمة التى يريدون النطق بها فانهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن تقدمه مايدل عليه و يفيد معناه بحيث لايلتبس على سامعه كمثل ماتقدم ذكره . ومن هذا القبيل مايقع منهم من الترخيم ، وأين هذه الفواتح الواقعة فى أوائل السور من هذا ؟ واذا تقرر لك أنه لايمكن استفادة ماادّعوه من لغة العرب وعلومها لم يبق حينئذ الا أحد أمرين الأوّل التفسير بمحض الرأى الذى ورد النهى عنه والوعيد عليه وأهل العلم أحق الناس بتجنبه والصدّ عنه والتنكب عن طريقه وهم أتقى لله سبحانه من أن يجعلوا كتاب الله سبحانه ملعبة لهم يتلاعبون به و يضعون حماقات أنظارهم وخزعبلات أفكارهم عليه ، الثانى التفسير بتوقيف عن صاحب الشرع وهذا هو المهيع الواضح والسبيل القويم بل الجادة التى ماسواها مردوم والطريقة العامرة التى ماعداها مهدوم فمن وجد شيئا من هذا فغير ملوم أن يقول بملء فيه و يتكلم بما وصل اليه علمه ومن لم يبلغه شىء من ذلك فليقل لاأدرى ، أوالله أعلم بمراده ، فقد ثبت النهى عن طلب فهم المتشابه ومحاولة الوقوف على علمه مع كونه ألفاظا عربية وتراكيب مفهومة ، وقد جعل الله تتبع ذلك صنيع الذين فى قلوبهم زيغ ، فكيف بما نحن بصدده فانه ينبغى أن يقال فيه انه متشابه المتشابه على فرض أن للفهم اليه سبيلا ، ولكلام العرب فيه مدخلا فكيف وهو خارج عن ذلك على كل تقدير . وانظر كيف فهم اليهود عند سماع الم فانهم لما لم يجدوها على نمط لغة العرب فهموا أن الحروف المذكورة رمز إلى مايصطلحون عليه من العدد الذى يجعلونه لها كما أخرج ابن اسحاق والبخارى فى تاريخه وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس عن جابر بن عبدالله قال مر أبو ياسر بن أخطب فى رجال من يهود برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ــ الم ذلك الكتاب لاريب ــ فأتى أخاه حيي بن أخطب فى رجال من اليهود فقال تعلمون والله لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل عليه الم ذلك الكتاب فقال أنت سمعته فقال نعم فمشى حيي فى أولئك النفر الى رسول الله ﷺ فقالوا يامحمد ألم تذكر أنك تتلوفيما أنزل عليك ــ الم ذلك الكتاب ــ قال بلى قالوا أجاءك بهذا جبريل من عند الله ؟ قال نعم . قالوا لقد بعث الله قبلك الأنبياء مانعلمه بين لنبى منهم مامدّة ملكه وما أجل أمته غيرك فقال حيي بن أخطب وأقبل على من كان معه الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة أفتدخلون فى دين نبى انما مدّة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة ، ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال يامحمد هل مع هذا غيره ؟ قال نعم قال وماذاك ؟ قال المص قال هذه أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذه إحدى وستون ومائة سنة هل مع هذا يامحمد غيره ؟ قال نعم قال وماذاك قال ــ الر ــ قال هذه أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان هذه إحدى وثلاثون سنة ومائتان فهل مع هذا غيره ؟ قال نعم المر قال فهذه أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان فهذه إحدى وسبعون سنة ومائتان ثم قال لقد لبس علينا أمرك يامحمد حتى ماندرى أقليلا أعطيت أم كثيرا . ثم قاموا فقال أبو ياسر لأخيه حيي ومن معه من الأحبار مايدريكم لعله قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون و إحدى وستون ومائة و إحدى وثلاثون ومائتان و إحدى وسبعون ومائتان فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون سنة فقالوا لقد تشابه علينا أمره فيزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم ــ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات ــ فانظر مابلغت إليه أفهامهم من هذا الأمر المختص بهم من عدد الحروف مع كونه ليس من لغة العرب فى شىء وتأمل أىّ موضع أحق بالبيان من رسول الله ﷺ من هذا الموضع فان هؤلاء الملاعين قد جعلوا مافهموه عند سماع ــ الم ذلك الكتاب ــ من ذلك العدد موجبا للتثبيط عن الاجابة له والدخول فى شريعته فلو كان لذلك معنى يعقل ومدلول يفهم لدفع رسول الله ﷺ ماظنوه بادئ بدء حتى لايتأثر عنه ماجاءوا به من التشكيك

على من معهم * فان قلت هل ثبت عن رسول الله فى هذه الفواتح شيء يصلح للتمسك به * قلت لا أعلم ان رسول الله ﷺ تكلم فى شيء من معانيها بل غاية ماثبت عنه هو مجرد عدد حروفها ، فأخرج البخارى فى تاريخه والترمذى وصححه والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لاأقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف وله طرق عن ابن مسعود . وأخرج ابن أبى شيبة والبزار بسند ضعيف عن عوف بن مالك الأشجعى نحوه مرفوعا . فان قلت هل روى عن الصحابة شيء من ذلك باسناد متصل بقائله أم ليس الا ماتقدم من حكاية القرطبى عن ابن عباس وعلى * قلت قد روى ابن جرير والبيهقى فى كتاب الأسماء والصفات عن ابن مسعود أنه قال الم حرف اشتقت من حروف اسم الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله الم وحم ون قال اسم مقطع ، وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى كتاب الأسماء عن ابن عباس أيضا فى قوله ، الم ، والمص ، والر ، والمر ، وكهيعص ، وطه ، وطسم ، وطس ويس ، وص ، وحم ، وق ، ون ، قال هو قسم أقسمه الله وهو من أسماء الله ، وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله الم قال هى اسم الله الأعظم . وأخرج عبد بن حميد عن الربيع بن أنس فى قوله الم قال ألف مفتاح اسمه الله ولام مفتاح اسمه لطيف وميم مفتاح اسمه مجيد . وقد روى نحو هذه التفاسير عن جماعة من التابعين فيهم عكرمة ، والشعبى ، والسدى ، وقتادة ، ومجاهد ، والحسن * فان قلت هل يجوز الاقتداء بأحد من الصحابة قال فى تفسير شيء من هذه الفواتح قولا صح إسناده إليه * قلت لا لما قدمنا الا أن يعلم انه قال ذلك عن علم أخذه عن رسول الله ﷺ * فان قلت هذا مما لامجال للاجتهاد فيه ولا مدخل للغة العرب فلم لا يكون له حكم الرفع * قلت تنزيل هذا منزلة المرفوع وان قال به طائفة من أهل الأصول وغيرهم فليس ممايتشرح له صدور المنصفين ولا سيما اذا كان فى مثل هذا المقام وهو التفسير لكلام الله سبحانه فانه دخول فى أعظم الخطر بما لابرهان عليه صحيح إلا مجرد قولهم انه يبعد من الصحابى كل البعد أن يقول بمحض رأيه فيما لامجال فيه للاجتهاد وليس مجرد هذا الاستبعاد مسوّغا للوقوع فى خطر الوعيد الشديد على أنه يمكن أن يذهب بعض الصحابة الى تفسير بعض المتشابه كما تجده كثيرا فى تفاسيرهم المنقولة عنهم و يجعل هذه الفواتح من جملة المتشابه . ثم ههنا مانع آخر وهو أن المروى عن الصحابة فى هذا مختلف متناقض فان عملنا بما قاله أحدهم دون الآخر كان تحكما لاوجه له وان عملنا بالجميع كان عملا بما هو مختلف متناقض ولا يجوز * ثم ههنا مانع غير هذا المانع وهو أنه لو كان شيء مما قالوه مأخوذا عن النبى ﷺ لاتفقوا عليه ولم يختلفوا كسائر ماهو مأخوذ عنه فلما اختلفوا فى هذا علمنا انه لم يكن مأخوذا عن النبى ﷺ ، ثم لو كان عندهم شيء عن النبى ﷺ فى هذا لما تركوا حكايته عنه ورفعه اليه لاسيما عند اختلافهم واضطراب أقوالهم فى مثل هذا الكلام الذى لامجال للغة العرب فيه ولا مدخل لها * والذى أراه لنفسى ولكل من أحب السلامة واقتدى بسلف الأمة أن لايتكلم بشيء من ذلك مع الاعتراف بأن فى إنزالها حكمة لله عز وجل لاتبلغها عقولنا ولاتهتدى اليها أفهامنا ، واذا انتهيت الى السلامة فى مداك فلا تجاوزه وسيأتى لنا عند تفسير قوله تعالى ــ منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهات ــ كلام طويل الذيول وتحقيق تقبله صحيحات الافهام وسليمات العقول

ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ

الاشارة بقوله ذلك الى الكتاب المذكور بعده ، قال ابن جرير قال ابن عباس ذلك الكتاب هذا الكتاب وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والسدى ، ومقاتل ، وزيد بن أسلم ، وابن جريج ، وحكاه

البخارى عن أبى عبيدة ، والعرب قد تستعمل الاشارة إلى البعيد الغائب مكان الاشارة الى القريب الحاضر كما قال خفاف

أقول له والرمح يأطر متنه * تأمل خفافا اننى أنا ذلكا

أى أناهذا ومنه قوله تعالى ـ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ـ وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم ـ تلك آيات الكتاب نتلوها عليك ـ ذلكم حكم الله يحكم بينكم ـ وقيل ان الاشارة إلى غائب ، واختلف فى ذلك الغائب فقيل هو الكتاب الذى كتب على الخلائق بالسعادة والشقاوة والأجل والرزق ، لاريب فيه أى لامبدل له ، وقيل ذلك الكتاب الذى كتبه الله على نفسه فى الأزل ان رحمته سبقت غضبه كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب على نفسه فهو موضوع عنده : ان رحمتى تغلب غضبى . وفى رواية سبقت * وقيل الاشارة إلى ماقد نزل بمكة ، وقيل الى مافى التوراة والانجيل ، وقيل إشارة الى قوله قبله الم ورجحه الزمخشرى . وقد وقع الاختلاف فى ذلك إلى تمام عشرة أقوال حسبما حكاه القرطبى وأرجحها ماصدّرناه ، واسم الاشارة مبتدا ، والكتاب صفته ، والخبر لاريب فيه ومن جوّز الابتداء بالم جعل ذلك مبتدا ثانيا وخبره الكتاب أو هو صفته والخبر لاريب فيه والجملة خبر المبتدا . ويجوز أن يكون المبتدا مقدّرا وخبره الم وما بعده * والريب مصدر وهو قلق النفس واضطرابها ، وقيل ان الريب الشك . قال ابن أبى حاتم لاأعلم فى هذا خلافا . وقد يستعمل الريب فى التهمة والحاجة ، حكى ذلك القرطبى ، ومعنى هذا النفى العام أن الكتاب ليس بمظنة للريب لوضوح دلالته وضوحا يقوم مقام البرهان المقتضى لكونه لاينبغى الارتياب فيه بوجه من الوجوه ، والوقف على فيه هو المشهور وقد روى عن نافع وعاصم الوقف على لاريب . قال فى الكشاف ولابد للواقف من أن ينوى خبرا ونظيره قوله تعالى ـ قالوا لاضير ـ وقول العرب : لابأس ، وهى كثيرة فى لسان أهل الحجاز والتقدير لاريب فيه فيه هدى * والهدى مصدر . قال الزمخشرى وهو الدلالة الموصلة الى البغية بدليل وقوع الضلال فى مقابلته انتهى . ومحله الرفع على الابتداء وخبره الظرف المذكور قبله على ماسبق . قال القرطبى الهدى هديان هدى دلالة وهو الذى يقدر عليه الرسل وأتباعهم . قال الله تعالى ـ ولكل قوم هاد ـ وقال ـ وانك لتهدى إلى صراط مستقيم ـ فأثبت لهم الهدى الذى معناه الدلالة والدعوة والتنبيه ، وتفرد سبحانه بالهدى الذى معناه التأييد والتوفيق فقال لنبيه ﷺ ـ إنك لاتهدى من أحببت ـ فالهدى على هذا يجئ بمعنى خلق الايمان فى القلب ومنه قوله تعالى ـ أولئك على هدى من ربهم ـ وقوله ـ ولكن الله يهدى من يشاء ـ انتهى * والمتقين من ثبتت لهم التقوى . قال ابن فارس وأصلها فى اللغة قلة الكلام ، وقال فى الكشاف المتقى فى اللغة اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى ، والوقاية الصيانه ، ومنه فرس واق وهذه الدابة تقى من وجارها اذا أصابها ضلع من غلظ الأرض ورقة الحافر فهو يقى حافره أن يصيبه أدنى شئ يؤلمه * وهو فى الشريعة الذى يقى نفسه تعاطى مايستحق به العقوبة من فعل أو ترك انتهى . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه عن ابن مسعود أن الكتاب القرآن لاريب فيه لاشك فيه . وأخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله لاريب فيه قال لاشك فيه . وأخرج أحمد فى الزهد وابن أبى حاتم عن أبى الدرداء قال الريب الشك . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله وكذا ابن جرير عن مجاهد . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله ـ هدى للمتقين ـ قال نور للمتقين وهم المؤمنون ، وأخرج ابن اسحاق ، وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ هدى للمتقين ـ أى الذين يحذرون من الله عقوبته فى ترك مايعرفون من الهدى ويرجون رحمته فى التصديق بما جاء منه ، وأخرج ابن أبى حاتم عن معاذ بن جبل أنه قيل له من المتقون ؟ فقال قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا لله العبادة . وأخرج ابن أبى الدنيا

عن

عن أبى هريرة أن رجلا قال له ماالتقوى ؟ قال هل وجدت طريقا ذا شوك قال نعم قال فكيف صنعت قال اذارأيت الشوك عدلت عنه أوجاوزته أوقصرت عنه قال ذاك التقوى . وأخرج أحمد فى الزهد عن أبى الدرداء قال تمام التقوى أن يتقى الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة حين يترك بعض مايرى أنه حلال خشية أن يكون حراما يكون حجابا بينه و بين الحرام ، وقد روى نحو ماقاله أبو الدرداء عن جماعة من التابعين . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخارى فى تاريخه والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن عطية السعدى ، قال قال رسول الله ﷺ لايبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا لما به البأس ، فالمصير الى ماأفاده هذا الحديث واجب و يكون هذا معنى شرعيا للمتقى أخص من المعنى الذى قدمنا عن صاحب الكشاف زاعما أنه المعنى الشرعى .

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ

هو وصف للمتقين كاشف * والايمان فى اللغة التصديق ، وفى الشرع ماسيأتى * والغيب فى كلام العرب كل ماغاب عنك . قال القرطبى واختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا فقالت فرقة الغيب فى هذه الآية هو الله سبحانه ، وضعفه ابن العربى . وقال آخرون القضاء والقدر . وقال آخرون القرآن وما فيه من الغيوب . وقال آخرون : الغيب كل ماأخبر به الرسول مما لاتهتدى إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار . قال ابن عطية وهذه الأقوال لاتتعارض بل يقع الغيب على جميعها قال وهذا هو الايمان الشرعى المشار اليه فى حديث جبريل حين قال للنبى ﷺ فأخبرنى عن الايمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت انتهى ، وهذا الحديث هو ثابت فى الصحيح بلفظ أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره . وقد أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن منده وأبو نعيم كلاهما فى معرفة الصحابة عن تويلة بنت أسلم قالت صليت الظهر أو العصر فى مسجد بنى حارثة فاستقبلنا مسجد ايليا فصلينا سجدتين ثم جاءنا من يخبرنا بأن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت فتحوّل الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام فبلغ رسول الله ﷺ فقال أولئك قوم آمنوا بالغيب . وأخرج البزار وأبو يعلى والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب قال كنت جالسا مع النبى ﷺ فقال أنبئونى بأفضل أهل الايمان إيمانا فقالوا يارسول الله الملائكة قال هم كذلك ويحق لهم وما يمنعهم ، وقد أنزلهم الله المنزلة التى أنزلهم بها ، قالوا يارسول الله الأنبياء الذين أكرمهم الله برسالته والنبوّة قال هم كذلك ويحق لهم وما يمنعهم ، وقد أنزلهم الله المنزلة التى أنزلهم بها قالوا يارسول الله الشهداء الذين استشهدوا مع الأنبياء قال هم كذلك وما يمنعهم وقد أكرمهم الله بالشهادة ، قالوا فمن يارسول الله ؟ قال أقوام فى أصلاب الرجال يأتون من بعدى يؤمنون بى ولم يرونى و يصدقونى ولم يرونى ، يجدون الورق المعلق فيعملون بما فيه فهؤلاء أفضل أهل الايمان إيمانا ، وفى إسناده محمد بن أبى حميد وفيه ضعف . وأخرج الحسن بن عرفة فى جزئه المشهور والبيهقى فى الدلائل عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال قال رسول الله ﷺ فذكر نحو الحديث الأوّل وفى إسناده المغيرة بن قيس البصرى وهو منكر الحديث . وأخرج نحوه الطبرانى عن ابن عباس مرفوعا والاسماعيلى عن أبى هريرة مرفوعا أيضا والبزار عن أنس مرفوعا . وأخرج ابن أبى شيبة فى مسنده عن عوف بن مالك قال قال رسول الله ﷺ ياليتنى قد لقيت إخوانى . قالوا يارسول الله ألسنا إخوانك ؟ قال بلى ولكن قوم يجيئون من بعدكم يؤمنون بى إيمانكم و يصدّقونى تصديقكم و ينصرونى نصركم فياليتنى قد لقيت إخوانى . وأخرج نحوه ابن عساكر فى الأربعين السباعية من حديث أنس ، وفى إسناده أبو هدبة وهو كذاب وزاد فيه ، ثم قرأ النبى ﷺ

ـ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ـ الآية . وأخرج أحمد والدارمى والباوردى ، وابن قانع معا فى معجم الصحابة والبخارى فى تاريخه والطبرانى والحاكم عن أبى جمعة الأنصارى قال قلت يارسول الله هل من قوم أعظم منا أجرا آمنابك واتبعناك . قال مايمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحى من السماء ، بل قوم يأتون من بعدكم يأتيهم كتاب الله بين لوحين فيؤمنون بى ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجرا . وأخرج أحمد وابن أبى شيبة والحاكم عن أبى عبد الرحمن الجهنى . قال بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذطلع راكبان فقال رسول الله ﷺ كنديان أو مذحجيان حتى أتيا فاذا رجلان من مذحج فدنا أحدهما ليبايعه فلما أخذ بيده قال يارسول الله أرأيت من ذاك فآمن بك واتبعك وصدّقك فماذا له قال طوبى له فمسح على زنده وانصرف ، ثم جاء الآخر حتى أخذ بيده ليبايعه . فقال يارسول الله أرأيت من آمن بك وصدّقك واتبعك ولم يرك ؟ قال طوبى له ، ثم طوبى له ، ثم مسح على زنده وانصرف . وأخرج الطيالسى ، وأحمد ، والبخارى فى تاريخه ، والطبرانى والحاكم ، عن أبى أمامة الباهلى . قال قال رسول الله ﷺ « طوبى لمن رآنى وآمن بى وطوبى لمن آمن بى ولم يرنى سبع مرات » وأخرج أحمد وابن حبان عن أبى سعيد « أن رجلا قال يارسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك ؟ قال طوبى لمن رآنى وآمن بى وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى » وأخرج الطيالسى وعبدبن حميد عن ابن عمر نحوه . وأخرج أحمد وأبو يعلى ، والطبرانى من حديث أنس نحو حديث أبى أمامة الباهلى المتقدّم . وأخرج سفيان بن عيينة وسعيد بن منصور وأحمد بن منيع فى مسنده ، وابن أبى حاتم وابن الضبارى والحاكم وصححه عن ابن مسعود أنه قال : والذى لا إله غيره ما آمن أحد أفضل من ايمان بغيب ، ثم قرأ ـ الم ذلك الكتاب لاريب فيه ـ الى قوله المفلحون * وللتابعين أقوال ، والراجح ماتقدّم من أن الايمان الشرعى يصدق على جميع ماذكر هنا . قال ابن جرير * والأولى أن تكونوا موصوفين بالايمان بالغيب قولا واعتقادا وعملا . قال وتدخل الخشية لله فى معنى الايمان الذى هو تصديق القول بالعمل . والايمان كلمة جامعة للاقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الاقرار بالفعل . وقال ابن كثير ان الايمان الشرعى المطلوب لا يكون الا اعتقادا وقولا وعملا هكذا ذهب اليه أكثر الأئمة . بل قد حكاه الشافعى ، وأحمد بن حنبل وأبو عبيد . وغير واحد اجماعا . أن الايمان قول وعمل ويزيد وينقص * وقد ورد فيه آيات كثيرة انتهى

وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ *

هو معطوف على يؤمنون * والاقامة فى الأصل الدوام والثبات . يقال قام الشىء أى دام وثبت . وليس من القيام على الرجل . وانما هو من قولك قام الحق أى ظهر وثبت قال الشاعر :

* وقامت الحرب بنا على ساق *

وقال آخر وإذا يقال أتيتموا لم تبرحوا * حتى تقيم الخيل سوق طعان

واقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيآتها فى أوقاتها * والصلاة أصلها فى اللغة الدعاء من صلى يصلى إذا دعا * وقد ذكر هذا الجوهرى وغيره . وقال قوم هى مأخوذة من الصلا وهو عرق فى وسط الظهر ويفترق عند العجب . ومنه أخذ المصلى فى سبق الخيل لأنه يأتى فى الحلبة ورأسه عند صلوى السابق فاشتقت منه الصلاة لأنها ثانية للايمان فشبهت بالمصلى من الخيل ، وإما لأن الراكع يثنى صلويه والصلا مغرز الذنب من الفرس والاثنان صلوان والمصلى تالى السابق لأن رأسه عند صلوه . ذكر هذا القرطبي فى تفسيره * وقد ذكر المعنى الثانى فى الكشاف . هذا المعنى اللغوى . وأما المعنى الشرعى

فهو

فهو هذه الصلاة . التى هى ذات الأركان والأذكار * وقد اختلف أهل العلم هل هى مبقاة على أصلها اللغوى أو موضوعة وضعا شرعيا ابتدائيا . فقيل بالأوّل وانما جاء الشرع بزيادات هى الشروط والفروض الثابتة فيها * وقال قوم بالثانى * والرزق عند الجمهور ماصلح للانتفاع به حلالا كان أو حراما خلافا للمعتزلة . فقالوا ان الحرام ليس برزق ، وللبحث فى هذه المسئلة موضع غير هذا * والانفاق إخراج المال من اليد ، وفى المجىء بمن التبعيضية ههنا نكتة سرية هى الارشاد الى ترك الاسراف * وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن اسحاق عن ابن عباس فى قوله — يقيمون الصلاة — قال : الصلوات الخمس — ومما رزقناهم ينفقون — قال زكاة أموالهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أن اقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها — ومما رزقناهم ينفقون — قال أنفقوا فى فرائض الله التى افترض عليهم فى طاعته وسبيله . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله — ومما رزقناهم ينفقون — قال هى نفقة الرجل على أهله . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال كانت النفقات قربات يتقربون بها الى الله عزوجل على قدر ميسورهم وجهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات فى سورة براءة هنّ الناسخات المبينات ، واختار ابن جرير أن الآية عامة فى الزكاة والنفقات وهو الحق من غير فرق بين النفقة على الأقارب وغيرهم وصدقة الفرض والنفل ، وعدم التصريح بنوع من الأنواع التى يصدق عليها مسمى الانفاق يشعر أتمّ اشعار بالتعميم .

وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ *

قيل هم مؤمنو أهل الكتاب فانهم جمعوا بين الايمان بما أنزل الله على محمد ﷺ وما أنزله على من قبله وفيهم نزلت . وقد رجح هذا ابن جرير ونقله السدى فى تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة واستشهد له ابن جرير بقوله تعالى — وانّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم — و بقوله تعالى — الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين — الآية ، والآية الأولى نزلت فى مؤمنى العرب . وقيل الآيتان جميعا فى المؤمنين على العموم . وعلى هذا فهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى صفة للمتقين بعد صفة ويجوز أن تكون مرفوعة على الاستئناف ويجوز أن تكون معطوفة على المتقين فيكون التقدير هدى للمتقين ، وللذين يؤمنون بما أنزل اليك * والمراد بما أنزل الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم هو القرآن ، وما أنزل من قبله هو الكتب السالفة * والايقان ايقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه ، ذكره فى الكشاف ، والمراد أنهم يوقنون بالبعث والنشور وسائر أمور الآخرة من دون شك * والآخرة تأنيث الآخر الذى هو نقيض الأوّل وهى صفة الدار كما فى قوله تعالى — تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّا فى الأرض ولا فسادا — وفى تقديم الظرف مع بناء الفعل على الضمير المذكور اشعار بالحصر وأن ماعدا هذا الأمر الذى هو أساس الايمان ورأسه ليس بمستأهل للايقان به والقطع بوقوعه ، وانما عبر بالماضى مع انه لم ينزل إذ ذاك إلا البعض لا الكل تغليبا للموجود على مالم يوجد ، أو تنبيها على تحقق الوقوع كانه بمنزلة النازل قبل نزوله . وقد أخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى — والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك — أى يصدقونك بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من المرسلين لا يفرقون بينهم ولا يجحدون ماجاؤهم به من ربهم — وبالآخرة هم يوقنون — إيمانا بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان أى لا هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما كان قبلك ويكفرون بما جاء من ربك . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه * والحق أن هذه الآية فى المؤمنين كالتى قبلها وليس مجرد

ذكر الايمان بما أنزل إلى النبي ﷺ وما أنزل إلى من قبله بمقتض لجعل ذلك وصفا لمؤمنى أهل الكتاب ولم يأت مايوجب المخالفة لهذا ولا فى النظم القرآنى مايقتضى ذلك . وقد ثبت الثناء على من جمع بين الأمرين من المؤمنين فى غيرآية * فمن ذلك قوله تعالى ـ ياأيها الذين آمنوا آمنوابالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ـ وكقوله ـ وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ـ وقوله ـ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله ـ وقال ـ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم ـ

أُولٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ *

هذا كلام مستأنف استئنافا بيانيا كأنه قيل كيف حال هؤلاء الجامعين بين التقوى والايمان بالغيب والاتيان بالفرائض والايمان بما أنزل على رسول الله ﷺ وعلى من قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؟ فقيل ـ أولئك على هدى ـ ويمكن أن يكون هذا خبرا عن الذين يؤمنون بالغيب الخ . فيكون متصلا بما قبله . قال فى الكشاف ومعنى الاستعلاء فى قوله على هدى مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به ، شبهت حالهم بحال من اعتلى الشىء وركبه ، ونحوه هو على الحق وعلى الباطل . وقد صرحوا بذلك فى قوله جعل الغواية مركبا وامتطى الجهل واقتعد غارب الهوى انتهى . وقد أطال المحققون الكلام على هذا بما لايتسع له المقام ، واشتهر الخلاف فى ذلك بين المحقق السعد والمحقق الشريف ، واختلف من بعدهم فى ترجيح الراجح من القولين . وقد جمعت فى ذلك رسالة . سميتها «الطود المنيف فى ترجيح ماقاله السعد على ماقاله الشريف» فليرجع اليها من أراد أن يتضح له المقام ويجمع بين أطراف الكلام على التمام * قال ابن جرير ان معنى ـ أولئك على هدى من ربهم ـ على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديد الله اياهم وتوفيقه لهم * والمفلحون أى المنجحون المدركون ماطلبوا عند الله بأعمالهم وايمانهم بالله وكتبه ورسله هذا معنى كلامه * والفلاح أصله فى اللغة الشق والقطع قاله أبو عبيد ، ويقال للذى شقت شفته أفلح ومنه سمى الاكار فلاحا لانه شق الأرض بالحرث فكأن المفلح قد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه . قال القرطبى وقد يستعمل فى الفوز والبقاء وهو أصله أيضا فى اللغة فمعنى ـ أولئك هم المفلحون ـ الفائزون بالجنة والباقون ، وقال فى الكشاف المفلح الفائز بالبغية كأنه الذى انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه انتهى . وقد استعمل الفلاح فى السحور ، ومنه الحديث الذى أخرجه أبو داود «حتى كاد يفوتنا الفلاح» مع رسول الله ﷺ قلت وما الفلاح ؟ قال السحور » فكأن معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سمى فلاحا ، وفى تكرير اسم الاشارة دلالة على أن كلا من الهدى والفلاح مستقل بتميزهم به عن غيرهم بحيث لوانفرد أحدهما لكفى تميزا على حياله * وفائدة ضمير الفصل الدلالة على اختصاص المسند اليه بالمسند دون غيره . وقد روى السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود . وعن أناس من الصحابة أن الذين يؤمنون بالغيب هم المؤمنون من العرب والذين يؤمنون بما أنزل الى رسول الله ﷺ وما أنزل الى من قبله هم المؤمنون من أهل الكتاب ، ثم جمع الفريقين فقال ـ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ـ . وقد قدمنا الاشارة الى هذا والى ماهو أرجح منه كما هو منقول عن مجاهد وأبى العالية والربيع بن أنس وقتادة . وأخرج ابن أبى حاتم من حديث عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال قيل يارسول « إنا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ فنكاد أن نيأس أو كما قال فقال ألا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار ؟ قالوا بلى يارسول الله قال ـ الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ـ الى قوله المفلحون هؤلاء أهل الجنة قالوا إنا نرجو أن نكون هؤلاء ثم قال ـ ان الذين كفروا سواء عليهم ـ الى قوله عظيم هؤلاء أهل النار

قالوا السناهم يارسول الله ؟ قال أجل » . وقد ورد فى فضل هذه الآيات الشريفة أحاديث ، منها ما أخرجه عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند والحاكم والبيهقى عن أبىّ بن كعب قال كنت عند النبى ﷺ فجاء أعرابى فقال يانبى الله ان لى أخاو به وجع فقال وما وجعه ؟ قال به لمم قال فائتنى به فوضعه بين يديه فعوّذه النبى بفاتحة الكتاب وأربع آيات من أوّل سورة البقرة وهاتين الآيتين ـ وإلهكم إله واحد ـ وآية الكرسى وثلاث آيات من آخر سورة البقرة وآية من آل عمران ـ شهد الله أنه لا إله إلا هو ـ وآية من الأعراف ان ربكم الله ، وآخر سورة المؤمنين ـ فتعالى الله الملك الحق ـ وآية من سورة الجن ـ وأنه تعالى جدّ ربنا ـ وعشر آيات من أوّل الصافات وثلاث آيات من آخر سورة الحشر وقل هو الله أحد والمعوّذتين فقام الرجل كأنه لم يشتك قط . وأخرج نحوه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة من طريق عبد الرحمن بن أبى يعلى عن رجل عن أبىّ مثله . وأخرج الدارمى وابن الضريس عن ابن مسعود . قال من قرأ أربع آيات من أول سورة البقرة وآية الكرسى وآيتين بعد آية الكرسى وثلاثا من آخر سورة البقرة لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شىء يكرهه فى أهله ولا ماله ولا تقرأ على مجنون الا أفاق . وأخرج الدارمى . وابن المنذر والطبرانى عنه قال من قرأ عشر آيات من سورة البقرة فى ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح أربع من أوّلها وآية الكرسى وآيتان بعدها وثلاث خواتمها أوّلها لله مافى السموات . وأخرج سعيد بن منصور والدارمى والبيهقى عن المغيرة بن سبيع وكان من أصحاب عبد الله بن مسعود بنحوه . وأخرج الطبرانى والبيهقى عن ابن عمر . قال قال رسول الله ﷺ «اذا مات أحدكم فلا تحبسوه وأسرعوا به الى قبره وليقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة وعند رجليه بخاتمة سورة البقرة » وقد ورد فى ذلك غير هذا

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *

ذكر سبحانه فريق الشر بعد الفراغ من ذكر فريق الخير قاطعا لهذا الكلام عن الكلام الأوّل معنونا له بما يفيد أن شأن جنس الكفرة عدم اجداء الانذار لهم وأنه لا يترتب عليهم ما هو المطلوب منهم من الايمان وأن وجود ذلك كعدمه * وسواء اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر ، والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء غير مراد بهما ما هو أصلهما من الاستفهام وصح الابتداء بالفعل والاخبار عنه بقوله سواء هجرا لجانب اللفظ الى جانب المعنى كأنه قال الانذار وعدمه سواء كقولهم تسمع بالمعيدىّ خير من ان تراه أى سماعك * وأصل الكفر فى اللغة الستر والتغطية قال الشاعر * فى ليلة كفر النجوم غمامها * أى سترها ومنه سمى الكافر كافرا لانه يغطى بكفره ما يجب أن يكون عليه من الايمان * والانذار الابلاغ والاعلام ، قال القرطبى واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ، فقيل هى عامة ومعناها الخصوص فيمن سبقت عليه كلمة العذاب وسبق فى علم الله أنه يموت على كفره * أراد الله تعالى أن يعلم الناس أن فيهم من هذا حاله دون أن يعين أحدا ، وقال ابن عباس والكلبى نزلت فى رؤساء اليهود حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف ونظرائهما وقال الربيع بن أنس نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب ، والأوّل أصح فان من عين أحدا فانما مثل بمن كشف الغيب بموته على الكفر انتهى * وقوله لا يؤمنون خبر مبتدأ محذوف أى هم لا يؤمنون وهى جملة مستأنفة لأنها جواب سؤال مقدر كأنه قيل هؤلاء الذين استوى حالهم مع الانذار وعدمه ماذا يكون منهم ؟ فقيل لا يؤمنون أى هم لا يؤمنون . وقال فى الكشاف انها جملة مؤكدة للجملة الأولى أو خبر لان والجملة قبلها اعتراض انتهى * والأولى ما ذكرناه لأن المقصود الاخبار عن عدم الاعتداد بانذارهم وأنه

لايجدى شيئا بل بمنزلة العدم فهـذه الجملة هى التى وقعت خبرا لان وما بعدها من عدم الايمان متسبب عنها لأنه المقصود . وقد قال بمثل قول الزمخشرى القرطبى وقال ابن كيسان ان خبر إن سواء ومابعده يقوم مقام الصلة ، وقال محمد بن يزيد المبرد سواء رفع بالابتداء وخبره ءأنذرتهم أم لم تنذرهم والجملة خبران * والختم مصدر ختمت الشىء ، ومعناه التغطية على الشىء والاستيثاق منه حتى لايدخله شىء ، ومنه ختم الكتاب والباب ومايشبه ذلك حتى لايوصل الى مافيه ولايوضع فيه غيره * والغشاوة الغطاء ومنه غاشية السرج ، والمراد بالختم والغشاوة هنا هما المعنويان لاالحسيان أى لما كانت قلوبهم غير واعية لما وصل اليها والاسماع غير مؤدية لما يطرقها من الآيات البينات الى العقل على وجه مفهوم والابصار غير مهدية للنظر فى مخلوقاته وعجائب مصنوعاته جعلت بمنزلة الأشياء المختوم عليها ختما حسيا والمستوثق منها استيثاقا حقيقيا والمغطاة بغطاء مدرك استعارة أو تمثيلا ، واسناد الختم الى الله قد احتج به أهل السنة على المعتزلة وحاولوا دفع هذه الحجة بمثل ماذكره صاحب الكشاف ، والكلام على مثل هذا متقرر فى مواطنه . وقد اختلف فى قوله تعالى ــ وعلى سمعهم ــ هل هو داخل فى حكم الختم فيكون معطوفا على القلوب أو فى حكم التغشية فقيل ان الوقف على قوله وعلى سمعهم تام" وما بعده كلام مستقل فيكون الطبع على القلوب والاسماع والغشاوة على الابصار كما قاله جماعة وقد قرئ غشاوة بالنصب . قال ابن جرير يحتمل أنه نصبها باضمار فعل تقديره وجعل على أبصارهم غشاوة ، ويحتمل أن يكون نصبها على الاتباع على محل وعلى سمعهم كقوله تعالى وحور عين ، وقول الشاعر

* علفتها تبنا وماء باردا * وانما وحد السمع مع جمع القلوب والأبصار لأنه مصدر يقع على القليل والكثير * والعذاب هو مايؤلم وهو مأخوذ من الحبس والمنع ، يقال فى اللغة أعذبه عن كذا حبسه ومنعه ، ومنه عذوبة الماء لأنها حبست فى الاناء حتى صفت . وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى فى الكبير وابن مردوية والبيهقى عن ابن عباس فى قوله ــ سواء عليهم ءأنذرتهم ــ قال كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله أنه لايؤمن إلا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول ولا يضل الامن سبق له من الله الشقاوة فى الذكر الأول . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أيضا فى تفسير الآية أنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق فكيف يسمعون منك انذارا وتحذيرا وقد كفروا بما عندهم من علمك ــ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ــ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله ان الذين كفروا قال نزلت هاتان الآيتان فى قادة الأحزاب وهم الذين ذكرهم الله فى هذه الآية ــ ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله كفرا ــ قال فهم الذين قتلوا يوم بدر ولم يدخل من القادة فى الاسلام إلا رجلان أبو سفيان والحكم بن العاص وأخرج ابن المنذر عن السدى فى قوله ءأنذرتهم أم لم تنذرهم قال أوعظتهم أم لم تعظهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى هذه الآية قال أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة فهم لايبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال الختم على قلوبهم وعلى سمعهم والغشاوة على أبصارهم . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم فلا يعقلون ولا يسمعون وجعل على أبصارهم يعنى أعينهم غشاوة فهم لايبصرون . وروى ذلك السدى عن جماعة من الصحابة . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال الختم على القلب والسمع والغشاوة على البصر ، قال الله تعالى ــ فان يشأ الله يختم على قلبك ــ وقال ــ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ــ . قال ابن جرير فى معنى الختم * والحق عندى فى ذلك ماصح نظيره عن رسول الله ﷺ ثم ذكر اسنادا متصلا بأبى هريرة . قال قال رسول الله ﷺ « ان المؤمن اذا أذنب ذنبا كان نكتة سوداء فى قلبه فان تاب ونزع واستعتب صقل قلبه وان زاد زادت حتى تغلق قلبه » فذلك الران

الذى

الذى قال الله — كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون — * وقد رواه من هذا الوجه الترمذى وصححه والنسائى . ثم قال ابن جرير فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب اذا تتابعت على القلوب أغلقتها واذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله سبحانه والطبع فلا يكون اليها مسلك ولا للكفر منها مخلص فذلك هو الختم الذى ذكره الله فى قوله — ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم — نظير الطبع والختم على ماتدركه الأبصار من الأوعية والظروف التى لايوصل الى مافيها الا بفض ذلك عنها ثم حلها فكذلك لايصل الايمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم الا بعد فض خاتمه وحل رباطه عنها .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَٰدِعُونَ ٱللهَ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ *

ذكر سبحانه فى أوّل هذه السورة المؤمنين الخلص ، ثم ذكر بعدهم الكفرة الخلص ، ثم ذكر ثالثا المنافقين وهم الذين لم يكونوا من إحدى الطائفتين بل صاروا فرقة ثالثة لأنهم وافقوا فى الظاهر الطائفة الاولى وفى الباطن الطائفة الثانية ومع ذلك فهم أهل الدرك الأسفل من النار * وأصل ناس أناس حذفت همزته تخفيفا وهو من النوس وهو الحركة يقال ناس ينوس أى تحرك ، وهو من أسماء الجموع جمع انسان وانسانة على غير لفظه واللام الداخلة عليه للجنس ومن تبعيضية أى بعض الناس ومن موصوفة أى ومن الناس ناس يقول * والمراد باليوم الآخر الوقت الذى لاينقطع بل هو دائم أبدا * والخداع فى أصل اللغة الفساد ، حكاه ثعلب عن ابن الاعرابى وأنشد

أبيض اللون رقيق طعمه * طيب الريق اذا الريق خدع

وقيل أصله الاخفاء ومنه مخدع البيت الذى يحرز فيه الشيء : حكاه ابن فارس وغيره . والمراد من مخادعتهم لله أنهم صنعوا معه صنع المخادعين ، وان كان العالم الذى لايخفى عليه شيء لايخدع وصيغة فاعل تفيد الاشتراك فى أصل الفعل فكونهم يخادعون الله والذين آمنوا يفيد أن الله سبحانه والذين آمنوا يخادعونهم . والمراد بالمخادعة من الله أنه لما أجرى عليهم أحكام الاسلام مع أنهم ليسوا منه فى شيء فكأنه خادعهم بذلك كما خادعوه باظهار الاسلام وابطان الكفر مشاكلة لما وقع منهم بما وقع منه . والمراد بمخادعة المؤمنين لهم هو أنهم أجروا عليهم ماأمرهم الله به من أحكام الاسلام ظاهرا وان كانوا يعلمون فساد بواطنهم كما أن المنافقين خادعوهم باظهار الاسلام وابطان الكفر . والمراد بقوله تعالى — وما يخادعون إلا أنفسهم — الاشعار بأنهم لما خادعوا من لايخدع كانوا مخادعين لأنفسهم لان الخداع انما يكون مع من لايعرف البواطن . وأما من عرف البواطن فمن دخل معه فى الخداع فانما يخدع نفسه وما يشعر بذلك ، ومن هذا قول من قال من خادعته فانخدع لك فقد خدعك . وقد قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو يخادعون فى الموضعين ، وقرأ حمزة وعاصم والكسائى وابن عامر فى الثانى يخدعون . والمراد بمخادعتهم أنفسهم انهم يمنونها الأمانى الباطلة وهى كذلك تمنيهم * قال أهل اللغة شعرت بالشيء فطنت . قال فى الكشاف والشعور علم الشيء علم حس ، من الشعار . ومشاعر الانسان حواسه * والمعنى أن لحوق ضرر ذلك لهم كالمحسوس ، وهم لتمادى غفلتهم كالذى لاحس له * والمراد بالأنفس هنا ذواتهم لاسائر المعانى التى تدخل فى مسمى النفس كالروح والدم والقلب . وقد أخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنهم المنافقون من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود أنه قال والمراد بهذه الآية المنافقون . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين قال لم يكن عندهم شيء أخوف من هذه الآية — ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين — . وأخرج ابن سعد عن حذيفة أنه قيل له ماالنفاق ؟ قال أن يتكلم بالاسلام

ولا يعمل به . وأخرج أحمد بن منيع فى مسنده بسند ضعيف عن رجل من الصحابة أن قائلا من المسلمين قال يارسول الله ماالنجاة غدا ؟ قال لاتخادع الله قال وكيف نخادع الله ؟ قال أن تعمل بما أمرك الله به تريد به غيره فاتقوا الرياء فانه الشرك بالله فان المرائى ينادى يوم القيامة على رءوس الخلائق بأربعة أسماء ياكافر يافاجر ياخاسر ياغادر ضل عملك و بطل أجرك فلا خلاق لك اليوم عند الله فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يامخادع وقرأ آيات من القرآن ــ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ــ الآية و ــ ان المنافقين يخادعون الله ــ الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن وهب . قال سألت ابن زيد عن قوله ــ يخادعون الله والذين آمنوا ــ قال هؤلاء المنافقون يخادعون الله ورسوله والذين آمنوا أنهم مؤمنون بما أظهروه وعن قوله ــ وما يخادعون إلا أنفسهم ومايشعرون ــ أنهم ضروا أنفسهم بما أضمروا من الكفر والنفاق . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله ــ يخادعون الله ــ قال يظهرون لاإله إلا الله يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وفى أنفسهم غيرذلك .

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ *

المرض كل مايخرج به الانسان عن حد الصحة من علة أونفاق أوتقصير فى أمر قاله ابن فارس . وقيل هو الألم فيكون على هذا مستعارا للفساد الذى فى عقائدهم إماشكا ونفاقا أو جحدا وتكذيبا ، وتقديم الخبر للاشعار بأن المرض مختص بها مبالغة فى تعلق هذا الداء بتلك القلوب لما كانوا عليه من شدة الحسد وفرط العداوة . والمراد بقوله ــ فزادهم الله مرضا ــ الاخبار بأنهم كذلك بما يتجدد لرسول الله ﷺ من النعم ويتكرر له من منن الله الدنيوية والدينية . ويحتمل أن يكون دعاء عليهم بزيادة الشك وترادف الحسرة وفرط النفاق * والأليم المؤلم أى الموجع ، وما فى قوله ــ بما كانوا يكذبون ــ مصدرية أى بتكذيبهم وهو قولهم ــ آمنا بالله و باليوم الآخر وما هم بمؤمنين ــ والقراء مجمعون على فتح الراء من قوله مرض الا مارواه الأصمعى عن أبى عمرو أنه قرأ باسكان الراء ، وقرأ حمزة وعاصم والكسائى يكذبون بالتخفيف ، والباقون بالتشديد . وقد أخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى ــ فى قلوبهم مرض ــ قال شك ــ فزادهم الله مرضا ــ قال شكا . وأخرج عنه ابن جرير وابن أبى حاتم فى قوله ــ فى قلوبهم مرض ــ قال النفاق ولهم عذاب أليم قال نكال موجع بما كانوا يكذبون قال يبدلون ويحرفون . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثل ماقاله ابن عباس أولا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال كل شىء فى القرآن أليم فهو الموجع . وأخرج أيضا عن أبى العالية مثله . وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله أيضا وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قلوبهم مرض أى ريبة وشك فى أمر الله فزادهم الله مرضا ريبة وشكا ــ ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ــ قال إياكم والكذب فانه باب النفاق . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال هذا مرض فى الدين وليس مرضا فى الاجساد وهم المنافقون . والمرض الشك الذى دخل فى الاسلام . وروى عن عكرمة وطاوس أن المرض الرياء .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ *

اذا فى موضع نصب على الظرف والعامل فيه قالوا المذكور بعده . وفيه معنى الشرط * والفساد ضد الصلاح ، وحقيقته العدول عن الاستقامة الى ضدها . فسد الشىء يفسد فسادا وفسودا فهو فاسد وفسيد . والمراد فى الآية لاتفسدوا فى الأرض بالنفاق وموالاة الكفرة وتفريق الناس عن الايمان بمحمد ﷺ والقرآن فانكم اذا

فعلتم ذلك فسد مافى الأرض بهلاك الأبدان وخراب الديار و بطلان الزرائع كما هو مشاهد عند ثوران الفتن والتنازع * وانما من أدوات القصر كما هو مبين فى علم المعانى * والصلاح ضد الفساد * لما نهاهم الله عن الفساد الذى هو دأبهم أجابوا بهذه الدعوى العريضة ونقلوا أنفسهم من الاتصاف بما هى عليه حقيقة وهو الفساد الى الاتصاف بما هو ضدّ لذلك وهو الصلاح ولم يقفوا عند هذا الكذب البحت والزور المحض حتى جعلوا صفة الصلاح مختصة بهم خالصة لهم فردّ الله عليهم ذلك أبلغ ردّ لما يفيده حرف التنبيه من تحقق مابعده ولما فى إن من التأكيد وما فى تعريف الخبر مع توسيط ضمير الفصل من الحصر المبالغ فيه بالجمع بين أمرين من الأمور المفيدة له وردّهم الى صفة الفساد التى هم متصفون بها فى الحقيقة ردّا مؤكدا مبالغا فيه بزيادة على ماتضمنته دعواهم الكاذبة من مجرد الحصر المستفاد من انما * واما نفى الشعور عنهم فيحتمل أنهم لما كانوا يظهرون الصلاح مع علمهم أنهم على الفساد الخالص ظنوا أن ذلك ينفق على النبى ﷺ وينكتم عنه بطلان ماأضمروه ولم يشعروا بأنه عالم به وان الخبر يأتيه بذلك من السماء فكان نفى الشعور عنهم من هذه الحيثية لامن جهة أنهم لايشعرون بأنهم على الفساد . ويحتمل أن فسادهم كان عندهم صلاحا لما استقر فى عقولهم من محبة الكفر وعداوة الاسلام . وقد أخرج ابن جرير عن ابن مسعود أنه قال الفساد هنا هو الكفر والعمل بالمعصية . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله إنما نحن مصلحون أى انما نريد الاصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى تفسير هذه الآية قال اذا ركبوا معصية فقيل لهم لاتفعلوا كذا قالوا إنما نحن على الهدى . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن سلمان أنه قرأ هذه الآية فقال لم يجىء أهل هذه الآية بعد . قال ابن جرير يحتمل أن سلمان أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فسادا من الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ لأنه عنى انه لم يمض ممن تلك صفته أحد انتهى . ويحتمل أن سلمان يرى أن هذه الآية ليست فى المنافقين بل يحملها على مثل أهل الفتن التى يدين أهلها بوضع السيف فى المسلمين كالخوارج وسائر من يعتقد فى فساده أنه صلاح لما يطرأ عليه من الشبه الباطلة .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ *

أى واذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن أصحاب محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار أجابوا بأحمق جواب وأبعده عن الحق والصواب فنسبوا الى المؤمنين السفه استهزاء واستخفافا فتسببوا بذلك الى تسجيل الله عليهم بالسفه بأبلغ عبارة وآكد قول وحصر السفاهة وهى رقة الحلوم وفساد البصائر وسخافة العقول فيهم مع كونهم لايعلمون أنهم كذلك إما حقيقة أو مجازا تنزيلا لاصرارهم على السفه منزلة عدم العلم بكونهم عليه وأنهم متصفون به ، ولما ذكر الله هنا السفه ناسبه نفى العلم عنهم لانه لايتسافه الا جاهل * والكاف فى موضع نصب لأنها نعت لمصدر محذوف أى إيمانا كايمان الناس . وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ـ أى صدّقوا كما صدّق أصحاب محمد أنه نبىّ ورسول وأن ماأنزل عليه حق قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء يعنون أصحاب محمد ألا انهم هم السفهاء يقول الجهال ولكن لايعلمون يقول لايعقلون . وروى عن ابن عساكر فى تاريخه بسند واه أنه قال آمنوا كما آمن الناس أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله ـ كما آمن السفهاء ـ قال يعنون أصحاب النبى ﷺ . وأخرج عن الربيع وابن زيد مثله . وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنها نزلت فى شأن اليهود أى اذا قيل لهم يعنى اليهود آمنوا كما آمن الناس عبد الله بن سلام وأصحابه قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء .

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ *

لقوا أصله لقيوا نقلت الضمة الى القاف وحذفت الياء لالتقا الساكنين . ومعنى لقيته ولاقيته استقبلته قريبا ، وقرأ محمد بن السميقع اليمانى وأبو حنيفة لاقوا وأصله لاقيوا تحركت الياء وانفتح ماقبلها فانقلبت ألفا ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين * وخلوت بفلان واليه اذا انفردت به ، وانما عدى بالى وهو يتعدى بالباء فيقال خلوت به لاخلوت اليه لتضمنه معنى ذهبوا وانصرفوا * والشياطين جمع شيطان على التكسير . وقد اختلف كلام سيبويه فى نون الشيطان فجعلها فى موضع من كتابه أصلية وفى آخر زائدة ، فعلى الأول هو من شطن أى بعد عن الحق ، وعلى الثانى من شط أى بعد أوشاط أى بطل ، وشاط أى احترق ، وأشاط اذا هلك قال

* وقد يشيط على أرماحنا البطل * أى يهلك وقال آخر

وأبيض ذى تاج أشاطت رماحنا * لمعترك بين الفوارس أقتما

أى أهلكت . وحكى سيبويه أن العرب تقول تشيطن فلان اذا فعل أفعال الشياطين ولو كان من شاط لقالوا تشيط ومنه قول أمية بن أبى الصلت أيما شاطن عصاه عكاه ورماه فى السجن والاغلال * وقوله انا معكم معناه مصاحبوكم فى دينكم وموافقوكم عليه * والهزؤ السخرية واللعب . قال الراجز

قد هزئت منى أم طيسله * قالت أراه معدما لامال له

قال فى الكشاف وأصل الباب الخفة من الهزء وهو القتل السريع وهزأ يهزأ مات على المكان ، عن بعض العرب مشيت فلغبت فظننت لأهزأن على مكانى وناقته تهزأ به أى تسرع وتخف انتهى . وقيل أصله الانتقام قال الشاعر

قد استهزءوا منهم بألفى مدجج * سراتهم وسط الصحاصح جثم

فأفاد قولهم انا معكم أنهم ثابتون على الكفر وأفاد قولهم انما نحن مستهزءون ردهم للاسلام ورفعهم للحق وكأنه جواب سؤال مقدر ناشئ من قولهم انا معكم أى اذا كنتم معنا فما بالكم اذا لقيتم المسلمين وافقتموهم فقالوا انما نحن مستهزءون بهم فى تلك الموافقة ولم تكن بواطننا موافقة لهم ولا مائلة اليهم فرد الله ذلك عليهم بقوله ــ الله يستهزئ بهم ــ أى ينزل بهم الهوان والحقارة وينتقم منهم ويستخف بهم انتصافا منهم لعباده المؤمنين وانما جعل سبحانه ماوقع منه استهزاء مع كونه عقوبة ومكافأة مشاكلة . وقد كانت العرب اذا وضعت لفظا بازاء لفظ جوابا له وجزاء ذكرته بمثل ذلك اللفظ وان كان مخالفا له فى معناه . وورد ذلك فى القرآن كثيرا ومنه وجزاء سيئة سيئة مثلها ــ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم ــ والجزاء لا يكون سيئة والقصاص لا يكون اعتداء لانه حق ومنه ــ ومكروا ومكر الله ــ وانهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا ــ يخادعون الله والذين آمنوا * يخادعون الله وهو خادعهم * تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك ــ وهو فى السنة كثير كقوله ﷺ « ان الله لايمل حتى تملوا » وانما قال ــ الله يستهزئ بهم ــ لانه يفيد التجدد وقتا بعد وقت وهو أشد عليهم وأنكأ لقلوبهم وأوجع لهم من الاستهزاء الدائم الثابت المستفاد من الجملة الاسمية لما هو محسوس من ان العقوبة الحادثة وقتا بعد وقت ، والمتجددة حينا بعد حين أشد على من وقعت عليه من العذاب الدائم المستمر لانه يألفه ويوطن نفسه عليه * والمد الزيادة . قال يونس بن حبيب يقال مد فى الشر وأمد فى الخير ، ومنه ــ وأمددناهم بأموال وبنين وأمددناهم بفاكهة ولحم ــ . وقال الأخفش مددت له اذا تركته وأمددته اذا أعطيته . وقال الفراء واللحيانى مددت فيما كانت زيادته من مثله يقال مد النهر ومنه ــ والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ــ وأمددت فيما كانت زيادته من غيره ومنه ــ يمددكم بخمسة آلاف من الملائكة ــ * والطغيان مجاوزة الحد والغلو فى الكفر ومنه ــ انا لما طغى الماء ــ أى تجاوز المقدار

الذى قدّرته الخزان وقوله ـ فى فرعون انه طغى ـ أى أسرف فى الدعوى حيث قال ـ أنا ربكم الأعلى ـ * والعمه والعامه الحائر المتردد ، وذهبت ابله لعمهى اذالم يدر أين ذهبت ، والعمه فى القلب كالعمى فى العين ، قال فى الكشاف العمه مثل العمى الا أن العمى فى البصر والرأى ، والعمه فى الرأى خاصة انتهى . والمراد أن الله سبحانه يطيل لهم المدّة و يمهلهم كما قال ـ انما نملى لهم ليزدادوا إثما ـ . قال ابن جرير ـ فى طغيانهم يعمهون ـ فى ضلالهم وكفرهم الذى قد غمرهم يترددون حيارى ضلالا لايجدون الى المخرج منه سبيلا لان الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها فلا يبصرون رشدا ولايهتدون سبيلا . وقدأخرج الواحدى والثعلبى بسندواه لأن فيه محمد بن مروان وهو متروك عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية فى عبد الله بن أبىّ وأصحابه وذكر قصة وقعت لهم مع أبى بكر وعمر وعلى رضى الله عنهم ، وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال كان رجال من اليهود اذا لقوا أصحاب النبى ﷺ أو بعضهم قالوا انا على دينكم واذا خلوا الى شياطينهم وهم اخوانهم قالوا انا معكم على مثل ما أنتم عليه انما نحن مستهزءون بأصحاب محمد ، الله يستهزئ بهم قال يسخر بهم للنقمة منهم و يمدهم فى طغيانهم قال فى كفرهم يعمهون قال يترددون ، وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عنه بمعناه وأطول منه . وأخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عنه بنحو الأول . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله ـ واذا خلوا إلى شياطينهم ـ قال رؤسائهم فى الكفر . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك قال واذا خلوا أى مضوا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحو ماقاله ابن مسعود . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قولة و يمدهم قال يملى لهم فى طغيانهم يعمهون قال فى كفرهم يتمادون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس نحو ماقاله ابن مسعود فى تفسير يعمهون . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد يمدهم يزيدهم فى طغيانهم يعمهون قال يلعبون و يترددون فى الضلالة . وأخرج أحمد فى المسند عن أبى ذرّ قال قال رسول الله ﷺ نعوذ بالله من شياطين الانس والجن : فقلت يارسول الله وللانس شياطين ? قال نعم .

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ *

قال سيبويه ضمت الواو فى اشتروا فرقا بينها و بين الواو الأصلية فى نحو ـ وأن لواستقاموا ـ وقال الزجاج حركت بالضم كما يفعل فى نحن . وقرأ يحيى بن يعمر بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين . وقرأ أبو السماك العدوى بفتحها لخفة الفتحة . وأجاز الكسائى همز الواو * والشراء هنا مستعار للاستبدال أى استبدلوا الضلالة بالهدى كقوله تعالى ـ فاستحبوا العمى على الهدى ـ فأما أن يكون معنى الشراء المعاوضة كما هو أصله حقيقة فلا ، لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعوا ايمانهم ، والعرب قد تستعمل ذلك فى كل من استبدل شيئا بشىء . قال أبوذؤيب

فان تزعمينى كنت أجهل فيكمو * فانى شريت الحلم بعدك بالجهل

وأصل الضلالة الحيرة والجور عن القصد وفقد الاهتداء ، وتطلق على النسيان ومنه قوله تعالى ـ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ـ ، وعلى الهلاك كقوله ـ وقالوا ءإذا ضللنا فى الأرض ـ وأصل الربح الفضل * والتجارة صناعة التاجر ، وأسند الربح اليها على عادة العرب فى قولهم ربح بيعك وخسرت صفقتك وهو من الاسناد المجازى وهو إسناد الفعل إلى ملابس للفاعل كما هو مقرر فى علم المعانى . والمراد ربحوا وخسروا * والاهتداء قد سبق تحقيقه أى وما كانوا مهتدين فى شرائهم الضلالة . وقيل فى سابق علم الله . وقدأخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال اشتروا الضلالة بالهدى أى الكفر بالايمان . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال أخذوا الضلالة وتركوا الهدى . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد

قال آمنوا ثم كفروا . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال استحبوا الضلالة على الهدى قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى الى الضلالة ومن الجماعة الى الفرقة ومن الأمن الى الخوف ومن السنة الى البدعة .

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ * صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ *

مثلهم مرتفع بالابتداء وخبره إما الكاف فى قوله كمثل لأنها اسم أى مثل مثل كما فى قول الأعشى

أتنتهون ولن تنهى ذوى شطط * كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

وقول امرئ القيس

ورحنا بكابن الماء يجنب وسطنا * تصوّب فيه العين طورا وترتقى

أراد مثل الطعن و بمثل ابن الماء ويجوز أن يكون الخبر محذوفا أى مثلهم مستنير كمثل فالكاف على هذا حرف * والمثل الشبه ، والمثلان المتشابهان * والذى موضوع موضع الذين أى كمثل الذين استوقدوا ، وذلك موجود فى كلام العرب كقول الشاعر :

وان الذى حانت بفلج دماؤهم * هم القوم كل القوم ياأمّ خالد

ومنه ـ وخضتم كالذى خاضوا ـ ومنه ـ والذى جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون ـ * ووقود النار سطوعها وارتفاع لهبها ، واستوقد بمعنى أوقد مثل استجاب بمعنى أجاب فالسين والتاء زائدتان قاله الأخفش ، ومنه قول الشاعر

وداع دعا يامن يجيب الى الندا * فلم يستجبه عند ذاك مجيب

أى يجبه * والاضاءة فرط الانارة وفعلها يكون لازما ومتعديا * وماحوله قيل مازائدة وقيل هى موصولة فى محل نصب على أنها مفعول أضاءت وحوله منصوب على الظرفية وذهب من الذهاب وهو زوال الشىء * وتركهم أى أبقاهم ـ فى ظلمات ـ جمع ظلمة ، وقرأ الأعمش باسكان اللام على الأصل ، وقرأ أشهب العقيلى بفتح اللام ، وهى عدم النور * وصم ومابعده خبر مبتدأ محذوف أى هم ، وقرأ ابن مسعود صما بكما عميا بالنصب على الذم ، ويجوز أن ينتصب بقوله تركهم * والصمم الانسداد يقال قناة صماء اذا لم تكن مجوّفة ، وصممت القارورة اذا سددتها وفلان أصم اذا انسدت خروق مسامعه * والأبكم الذى لاينطق ولايفهم ، فاذا فهم فهو الأخرس . وقيل الاخرس والأبكم واحد * والعمى ذهاب البصر ، والمراد بقوله ـ فهم لايرجعون ـ أى الى الحق ، وجواب لما فى قوله فلما أضاءت قيل هو ـ ذهب الله بنورهم ـ وقيل محذوف تقديره طفئت فبقوا حائرين ، وعلى الثانى فيكون قوله ـ ذهب الله بنورهم ـ كلاما مستأنفا أو بدلا من المقدر * ضرب الله هذا المثل للمنافقين لبيان أن مايظهرونه من الايمان مع مايبطنونه من النفاق لايثبت لهم به أحكام الاسلام كمثل المستوقد الذى أضاءت ناره ثم طفئت فانه يعود الى الظلمة ولا تنفعه تلك الاضاءة اليسيرة ، فكان بقاء المستوقد فى ظلمات لايبصر كبقاء المنافق فى حيرته وتردده ، وانما وصفت هذه النار بالاضاءة مع كونها نار باطل لان الباطل كذلك تسطع ذوائب لهب ناره لحظة ثم تخفت ، ومنه قولهم «للباطل صولة ثم يضمحل» . وقد تقرر عند علماء البلاغة أن لضرب الأمثال شأنا عظيما فى ابراز خفيات المعانى ورفع أستار محجبات الدقائق ، ولهذا استكثر الله من ذلك فى كتابه العزيز ، وكان رسول الله ﷺ يكثر من ذلك فى مخاطباته ومواعظه . قال ابن جرير ان هؤلاء المضروب لهم المثل ههنا لم يؤمنوا فى وقت من الاوقات واحتج بقوله تعالى ـ ومن الناس من يقول آمنا بالله و باليوم الآخر وماهم بمؤمنين ـ وقال ابن كثير ان الصواب أن هذا إخبار عنهم فى حال نفاقهم وكفرهم وهذا لاينفى أنه

كان

كان حصل لهم ايمان قبل ذلك ، ثم سلبوه وطبع على قلوبهم كما يفيده قوله تعالى ـ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ـ قال ابن جرير وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال ـ رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ـ أى كدوران عينى الذى يغشى عليه من الموت وقال تعالى ـ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ـ اهـ وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى ـ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ـ قال هذا مثل ضربه الله للمنافقين كانوا يعتزون بالاسلام فينا كحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفىء فلما ماتوا سلبهم الله العز كما سلب صاحب النار ضوءه ـ وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ـ يقول فى عذاب ـ صم بكم عمى فهم لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله ـ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ـ قالوا ان ناسا دخلوا فى الاسلام عند مقدم النبى ﷺ المدينة ثم نافقوا فكان مثلهم كمثل رجل كان فى ظلمة فأوقد نارا فأضاءت ماحوله من قذى وأذى فابصره حتى عرف مايتقى فبينما هو كذلك اذ طفئت ناره فأقبل لايدرى مايتقى من أذى ، فكذلك المنافق كان فى ظلمة الشرك فأسلم فعرف الحلال من الحرام والخير من الشر فبينما هو كذلك اذ كفر فصار لايعرف الحلال من الحرام ولا الخير من الشر فهم صم بكم هم الخرس فهم لا يرجعون الى الاسلام . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله ـ كمثل الذى استوقد نارا ـ قال ضربه الله مثلا للمنافق ، وقوله ـ ذهب الله بنورهم ـ قال أما النور فهو ايمانهم الذى يتكلمون به ، وأما الظلمة فهو ضلالهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس مثله وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرجا أيضا عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة والحسن والسدى والربيع بن أنس نحو ماتقدّم .

أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ * يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ *

عطف هذا المثل على المثل الأوّل بحرف الشك لقصد التخيير بين المثلين أى مثلوهم بهذا أو هذا ، وهى وان كانت فى الأصل للشك فقد توسع فيها حتى صارت لمجرد التساوى من غير شك ، وقيل انها بمعنى الواو قاله الفراء وغيره وأنشد

وقد زعمت ليلى بانى فاجر * لنفسى تقاها أو عليها فجورها

وقال آخر

نال الخلافة أو كانت له قدرا * كما أتى ربه موسى على قدر

والمراد بالصيب المطر واشتقاقه من صاب يصوب اذا نزل ، قال علقمة

فلا تعدلى بينى وبين معمر * سقتك روايا الموت حيث تصوب

وأصله صيوب اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت كما فعلوا فى ميت وسيد * والسماء فى الأصل كل ماعلاك فاظلك ، ومنه قيل لسقف البيت سماء ، والسماء أيضا المطر ، سمى بها لنزوله منها ، وفائدة ذكر نزوله من السماء مع كونه لا يكون إلا منها أنه لا يختص نزوله بجانب منها دون جانب ، واطلاق السماء على المطر واقع كثيرا فى كلام العرب ، فمنه قول حسان

ديار من بنى الحسحاس قفر * تعفيها الروامس والسماء

وقال آخر * اذا نزل السماء بأرض قوم * والظلمات قد تقدّم تفسيرها
وانما جمعها اشارة الى أنه انضم الى ظلمة الليل ظلمة الغيم * والرعد اسم لصوت الملك الذى يزجر السحاب .
وقد أخرج الترمذى من حديث ابن عباس قال « سألت اليهود النبى ﷺ عن الرعد ماهو ؟ قال
ملك من الملائكة بيده مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله ، قالوا فما هذا الصوت الذى
نسمع . قال زجره بالسحاب اذا زجره حتى ينتهى الى حيث أمر ، قالت صدقت » الحديث بطوله ، وفى إسناده
مقال ، قال القرطبى وعلى هذا التفسير أكثر العلماء ، وقيل هو اضطراب أجرام السحاب عند نزول المطر منها
والى هذا ذهب جمع من المفسرين تبعا للفلاسفة وجهلة المتكلمين ، وقيل غير ذلك * والبرق مخراق حديد بيد
الملك الذى يسوق السحاب ، واليه ذهب كثير من الصحابة وجمهور علماء الشريعة ، للحديث السابق . وقال
بعض المفسرين تبعا للفلاسفة ان البرق ماينقدح من اصطكاك أجرام السحاب المتراكمة من الأبخرة المتصعدة
المشتملة على جزء نارى يتلهب عند الاصطكاك * وقوله يجعلون أصابعهم فى آذانهم جملة مستأنفة لامحل لها
كأنّ قائلا قال فكيف حالهم عند ذلك الرعد ؟ فقيل يجعلون أصابعهم فى آذانهم ، واطلاق الأصبع على بعضها
مجاز مشهور والعلاقة الجزئية والكلية لأن الذى يجعل فى الأذن انما هو رأس الأصبع لا كلها * والصواعق
و يقال الصواقع ، هى قطعة نار تنفصل من مخراق الملك الذى يزجر السحاب عند غضبه وشدة ضربه لها ، و يدل
على ذلك مافى حديث ابن عباس الذى ذكرنا بعضه قريبا ، و به قال كثير من علماء الشريعة ، ومنهم من قال انها نار
تخرج من فم الملك ، وقال الخليل هى الواقعة الشديدة من صوت الرعد يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق
ماأتت عليه . وقال أبو زيد الصاعقة نار تسقط من السماء فى رعد شديد ، وقال بعض المفسرين تبعا للفلاسفة
ومن قال بقولهم انها نار لطيفة تنقدح من السحاب اذا اصطكت أجرامها . وسيأتى فى سورة الرعد ان شاء الله
فى تفسير الرعد والبرق والصواعق ماله مزيد فائدة وايضاح ، ونصب حذر الموت على أنه مفعول لأجله . وقال
الفراء منصوب على التميز * والموت ضدّ الحياة * والاحاطة الأخذ من جميع الجهات حتى لاتفوت المحاط به بوجه
من الوجوه * وقوله ــ يكاد البرق يخطف أبصارهم ــ جملة مستأنفة كأنه قيل فكيف حالهم مع ذلك البرق ؟
* ويكاد يقارب * والخطف الأخذ بسرعة ، ومنه سمى الطير خطافا لسرعته . وقرأ مجاهد يخطف بكسر الطاء
والفتح أفصح * وقوله ــ كلما أضاء لهم مشوا فيه ــ كلام مستأنف كأنه قيل كيف تصنعون فى تارتى خفوق
البرق وسكونه ، وهو تمثيل لشدّة الأمر على المنافقين بشدّته على أهل الصيب ــ ولو شاء الله لذهب بسمعهم
وأبصارهم ــ بالزيادة فى الرعد والبرق ــ ان الله على كل شىء قدير ــ وهذا من جملة مقدوراته سبحانه . وقد أخرج
ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال أو كصيب هو المطر ضرب مثله فى القرآن ــ فيه ظلمات ــ
يقول ابتلاء ــ ورعد وبرق ــ تخويف ــ يكاد البرق يخطف أبصارهم ــ يقول يكاد محكم القرآن يدل على عورات
المنافقين ــ كلما أضاء لهم مشوا فيه ــ يقول كلما أصاب المنافقون من الاسلام عزا اطمأنوا ، فان أصاب الاسلام
نكبة قاموا ليرجعوا الى الكفر كقوله ــ ومن الناس من يعبد الله على حرف ــ الآية . وأخرج ابن جرير عن
ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا كان رجلان من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله ﷺ
الى المشركين فأصابهما هذا المطر الذى ذكر الله فيه رعد شديد وصواعق و برق فجعلا كلما أصابهما الصواعق
يجعلان أصابعهما فى آذنهما من الفرق أن تدخل الصواعق فى مسامعهما فتقتلهما واذا لمع البرق مشيا
فى ضوئه واذا لم يلمع لم يبصرا قاما مكانهما لايمشيان فجعلا يقولان ليتنا قد أصبحنا فنأتى محمدا فنضع أيدينا
فى يده فأصبحا فأتياه فأسلما ووضعا أيديهما فى يده وحسن اسلامهما فضرب الله شأن هذين المنافقين
الخارجين مثلا للمنافقين الذين بالمدينة ، وكان المنافقون اذا حضروا مجلس النبى ﷺ جعلوا أصابعهم فى آذنهم
فرقا من كلام النبى ﷺ أن ينزل فيهم شىء أو يذكروا بشىء فيقتلوا كما كان ذانك المنافقان الخارجان

يجعلان

يجعلان أصابعهما فى آذانهما واذا أضاء لهم مشوا فيه أى فاذا كثرت أموالهم وأولادهم وأصابوا غنيمة وفتحا مشوا فيه وقالوا إن دين محمد ﷺ حينئذ صدق واستقاموا عليه كما كان ذانك المنافقان يمشيان اذا أضاء لهم البرق واذا أظلم عليهم قاموا فكانوا اذا هلكت أموالهم وأولادهم وأصابهم البلاء قالوا هذا من أجل دين محمد ﷺ وارتدوا كفرا كما قام المنافقان حين أظلم البرق عليهما . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال ـ أوكصيب ـ قال هو المطر وهو مثل للمنافق فى ضوئه يتكلم بما معه من كتاب الله مراآة الناس فاذا خلاوحده عمل بغيره فهوفى ظلمة ماأقام على ذلك . وأما الظلمات فالضلالات . وأما البرق فالايمان وهم أهل الكتاب واذا أظلم عليهم فهو رجل يأخذ بطرف الحق لايستطيع أن يجاوزه . وأخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أيضا نحو ماسلف . وقد روى تفسيره بنحو ذلك عن جماعة من التابعين * واعلم أن المنافقين أصناف ، فمنهم من يظهر الاسلام و يبطن الكفر ، ومنهم من قال فيه النبى ﷺ كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما «ثلاث من كنّ فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه واحدة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، من اذا حدّث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا اؤتمن خان» وورد بلفظ أربع وزاد «واذا خاصم فجر» . وورد بلفظ «واذا عاهد غدر» . وقد ذكر ابن جرير ومن تبعه من المفسرين أن هذين المثلين لصنف واحد من المنافقين .

يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ *

لما فرغ سبحانه من ذكر المؤمنين والكافرين والمنافقين أقبل عليهم بالخطاب التفاتا للنكتة السابقة فى الفاتحة * و ياحرف نداء والمنادى أىّ وهو اسم مفرد مبنى على الضم ، وها حرف تنبيه مقحم بين المنادى وصفته . قال سيبويه كأنك كررت يا مرتين وصار الاسم بينهما كما قالوا هاهوذا . وقد تقدّم الكلام فى تفسير الناس والعبادة ، وانما خص نعمة الخلق وامتنّ بهاعليهم ، لان جميع النعم مترتبة عليها وهى أصلها الذى لايوجد شيء منها بدونها ، وأيضا فالكفار مقرّون بأن الله هو الخالق ـ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله ـ فامتنّ عليهم بما يعترفون به ولا ينكرونه * وفى أصل معنى الخلق وجهان ، أحدهما التقدير ، يقال خلقت الأديم للسقاء اذاقدّرته قبل القطع . قال زهير

ولأنت تفرى ماخلقت و بعـــض القوم يخلق ثم لايفرى

الثانى الانشاء والاختراع والابداع * ولعل أصلها الترجى والطمع والتوقع والاشفاق ، وذلك مستحيل على الله سبحانه ولكنه لما كانت المخاطبة منه سبحانه للبشر كان بمنزلة قوله لهم افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع . و بهذا قال جماعة من أئمة العربية منهم سيبويه . وقيل ان العرب استعملت لعل مجردة من الشك بمعنى لام كى . والمعنى هنا لتتقوا ، وكذلك ماوقع هذا الموقع ، ومنه قول الشاعر :

وقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا * نكف ووثقتم لنا كل موثق
فلما كففنا الحرب كانت عهودكم * كشبه سراب فى الملا متألق

أى كفوا عن الحرب لنكف ، ولو كانت لعل للشك لم يوثقوا لهم كل موثق ، و بهذا قال جماعة منهم قطرب . وقيل انها بمعنى التعرض للشىء كأنه قال متعرضين للتقوى * وجعل هنا بمعنى صير لتعدّيه الى المفعولين ومنه قول الشاعر :

وقد جعلت أرى الاثنين أربعة * والأربع اثنين لما هدنى الكبر

وفراشا أى وطاء يستقرون عليها * لما قدّم نعمة خلقهم أتبعه بنعمة خلق الأرض فراشا لهم لما كانت الأرض التى هى مسكنهم ومحل استقرارهم من أعظم ماتدعو اليه حاجتهم ، ثم أتبع ذلك بنعمة جعل السماء كالقبة المضروبة عليهم والسقف للبيت الذى يسكنونه كما قال ـ وجعلنا السماء سقفا محفوظا ـ * وأصل البناء وضع لبنة على أخرى .٠ ثم امتنّ عليهم بانزال الماء من السماء * وأصل ماء موه قلبت الواو لتحركها وانفتاح ماقبلها ألفا فصار ماه فاجتمع حرفان خفيفان فقلبت الهاء همزة * والثمرات جمع ثمرة . والمعنى أخرجنا لكم ألوانا من الثمرات وأنواعا من النبات ليكون ذلك متاعا لكم الى حين * والأنداد جمع ندّ وهو المثل والنظير وقوله ـ وأنتم تعلمون ـ جملة حالية والخطاب للكفار والمنافقين * فان قيل كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك حيث قال ـ ولكن لا يعلمون . ولكن لا يشعرون . وما كانوا مهتدين . صم بكم عمى ـ * فيقال ان المراد أن جهلهم وعدم شعورهم لا يتناول هذا أى كونهم يعلمون أنه المنعم دون غيره من الأنداد فانهم كانوا يعلمون هذا ولا ينكرونه كما حكاه الله عنهم فى غير آية . وقد يقال المراد وأنتم تعلمون وحدانيته بالقوّة والامكان لو تدبرتم ونظرتم * وفيه دليل على وجوب استعمال الحجج وترك التقليد . قال ابن فورك المراد وتجعلون لله أندادا بعد علمكم الذى هو نفى الجهل بأن الله واحد انتهى ، وحذف مفعول تعلمون للدلالة على عدم اختصاص ماهم عليه من العلم بنوع واحد من الأنواع الموجبة للتوحيد . وقد أخرج البزار والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال ما كان ياأيها الذين آمنوا فهو أنزل بالمدينة ، وما كان ياأيها الناس فهو أنزل بمكة . وروى نحو ذلك عن ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والطبرانى فى الأوسط والحاكم وصححه . وروى نحوه أبو عبيد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر من قول علقمة . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن مردويه وابن المنذر عن الضحاك مثله . وكذا أخرج أبو عبيد عن ميمون بن مهران وأخرج نحوه أيضا ابن أبى شيبة وابن مردويه عن عروة وعكرمة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ياأيها الناس قال هى للفريقين جميعا من الكفار والمؤمنين . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : لعلكم يعنى كى . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عون بن عبد الله بن عتبة قال لعل من الله واجب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله ـ الذى جعل لكم الأرض فراشا أى تمشون عليها وهى المهاد والقرار ـ والسماء بناء ـ قال كهيئة القبة وهى سقف الأرض . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن الحسن أنه سئل المطر من السماء أم من السحاب ؟ قال من السماء . وأخرج ابن ابى حاتم وأبو الشيخ عن كعب قال السحاب غربال المطر ولولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد مايقع عليه من الأرض والبذر . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن خالد ابن معدان قال المطر ماء يخرج من تحت العرش فينزل من سماء إلى سماء حتى يجتمع فى سماء الدنيا فيجتمع فى موضع يقال له الأبزم فتجىء السحاب السود فتدخله فتشربه مثل شرب الاسفنجة فيسوقها الله حيث يشاء . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال ينزل الماء من السماء السابعة فتقع القطرة منه على السحاب مثل البعير . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن خالد بن يزيد قال المطر منه من السماء ومنه مايستقيه الغيم من البحر فيعذبه الرعد والبرق . وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب المطر عن ابن عباس قال اذا جاء القطر من السماء تفتحت له الأصداف فكان لؤلؤا . وأخرج الشافعى فى الام وابن أبى الدنيا فى كتاب المطر وأبو الشيخ فى العظمة عن المطلب بن حنطب أن النبى ﷺ قال « مامن ساعة من ليل ولانهار الا والسماء تمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء » وأخرج ابن أبى الدنيا وأبو الشيخ عن ابن عباس قال مانزل مطر من السماء الا ومعه البذر أما لو أنكم بسطتم نطعا لرأيتموه . وأخرج ابن أبى الدنيا وأبو الشيخ عن ابن عباس قال المطر مزاجه من الجنة فاذا كثر المزاج عظمت البركة وان قلّ المطر واذا قلّ المزاج قلت

البركة وان كثر المطر . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال مامن عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه حيث يشاء و ينزل مع المطر كذا وكذا من الملائكة يكتبون حيث يقع ذلك المطر ومن يرزقه ومن يخرج منه مع كل قطرة . وأخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله – فلا تجعلوا لله أندادا – أى لاتشركوا به غيره من الأنداد التى لاتضر ولاتنفع وأنتم تعلمون أنه لارب لكم يرزقكم غيره . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس – أندادا – قال أشباها . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود – أندادا – قال أكفاء من الرجال يطيعونهم فى معصية الله . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة – أندادا – قال شركاء . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والبخارى فى الأدب المفرد والنسائى وابن ماجه وأبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس قال قال رجل للنبى ﷺ ماشاء الله وشئت قال جعلتنى لله ندّا ماشاء الله وحده . وأخرج ابن سعد عن قتيلة بنت صيفى قالت جاء حبر من الأحبار الى النبى ﷺ فقال يامحمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون قال وكيف ؟ قال يقول أحدكم لا والكعبة ، فقال النبى ﷺ « من حلف فليحلف برب الكعبة » فقال يامحمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تجعلون لله ندّا ، قال وكيف ذلك ؟ قال يقول أحدكم ماشاء الله وشئت فقال النبى ﷺ فمن قال منكم ماشاء الله قال ثم شئت . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبوداود والنسائى وابن ماجه والبيهقى عن حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله ﷺ لاتقولوا ماشاء الله وشاء فلان قولوا ماشاء الله ثم شاء فلان وأخرج أحمد وابن ماجه والبيهقى وابن مردويه عن طفيل بن سخيرة أنه رأى فيما يرى النائم كأنه مرّ برهط من اليهود فقال أنتم نعم القوم لولا أنكم تزعمون أن عزيرا ابن الله فقالوا وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون ماشاء الله وشاء محمد ، ثم مر برهط من النصارى فقال أنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله قالوا وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون ماشاء الله وشاء محمد ، فلما أصبح أخبر النبى ﷺ فخطب فقال ان طفيلا رأى رؤيا وأنكم تقولون كلمة كان يمنعنى الحياء منكم فلا تقولوها ولكن قولوا ماشاء وحده لاشريك له . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال الانداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفا سوداء فى ظلمة الليل ، وهو أن تقول والله وحياتك يافلان وحياتى ، وتقول لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص ، ولولا القط فى الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل ماشاء الله وشئت ، وقول الرجل لولا الله وفلان هذا كله شرك . وأخرج البخارى ومسلم عن ابن مسعود . قال « قلت يارسول الله ؟ أىّ الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندّا وهو خلقك » الحديث .

وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكٰفِرِينَ *

فى ريب أى شك مما نزلنا على عبدنا أى القرآن أنزله على محمد ﷺ * والعبد مأخوذ من التعبد وهو التذلل * والتنزيل التدريج والتنجيم * وقوله فأتوا الفاء جواب الشرط وهو أمر معناه التعجيز * لما احتج عليهم بما يثبت الوحدانية ويبطل الشرك عقبه بما هو الحجة على اثبات نبوّة محمد ﷺ وما يدفع الشبهة فى كون القرآن معجزة فتحدّاهم بأن يأتوا بسورة من سوره * والسورة الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص سميت بذلك لانها مشتملة على كلماتها كاشتمال سور البلد عليها * ومن فى قوله من مثله زائدة لقوله فأتوا بسورة مثله . والضمير فى مثله عائد على القرآن عند جمهور أهل العلم . وقيل عائد على التوراة والانجيل لان المعنى فأتوا بسورة من كتاب مثله فانها تصدّق مافيه . وقيل يعود على النبى ﷺ ، والمعنى من بشر مثل محمد أى لا يكتب ولا يقرأ * والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة أو المعاون . والمراد هنا الآلهة * ومعنى دون أدنى

مكان من الشيء واتسع فيه حتى استعمل فى تخطى الشيء الى شيء آخر ، ومنه مافى هذه الآية وكذلك قوله تعالى — لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين — وله معان أخر ، منها التقصير عن الغاية والحقارة يقال هذا الشيء دون أى حقير ، ومنه

اذا ماعلا المرء رام العلا * ويقنع بالدون من كان دونا

والقرب يقال هذا دون ذاك أى أقرب منه ويكون إغراء تقول دونك زيدا أى خذه من أدنى مكان * ومن دون الله متعلق بادعوا أى ادعوا الذين يشهدون لكم من دون الله ان كنتم صادقين فيما قلتم من انكم تقدرون على المعارضة وهذا تعجيز لهم و بيان لانقطاعهم * والصدق خلاف الكذب وهو مطابقة الخبر للواقع أو للاعتقاد أولهما على الخلاف المعروف فى علم المعانى — فان لم تفعلوا — يعنى فيما مضى — ولن تفعلوا — أى تطيقوا ذلك فيما يأتى وتبين لكم عجزكم عن المعارضة — فاتقوا النار — بالايمان بالله وكتبه ورسله والقيام بفرائضه واجتناب مناهيه ، وعبر عن الاتيان بالفعل لأن الاتيان فعل من الأفعال لقصد الاختصار ، وجملة لن تفعلوا لامحل لها من الاعراب لأنها اعتراضية ، ولن للنفى المؤكد لما دخلت عليه ، وهذا من الغيوب التى أخبر بها القرآن قبل وقوعها لأنها لم تقع المعارضة من أحد من الكفرة فى أيام النبوّة وفيما بعدها والى الآن * والوقود بالفتح الحطب و بالضم التوقد أى المصدر . وقد جاء فيه الفتح * والمراد بالحجارة الأصنام التى كانوا يعبدونها لأنهم قرنوا أنفسهم بها فى الدنيا فجعلت وقودا للنار معهم . و يدل على هذا قوله تعالى — انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم — أى حطب جهنم . وقيل المراد بها حجارة الكبريت وفى هذا من التهويل مالايقدّر قدره من كون هذه النار تتقد بالناس والحجارة فأوقدت بنفس مايراد إحراقه بها ، والمراد بقوله أعدّت جعلت عدّة لعذابهم وهيئت لذلك . وقد كرر الله سبحانه تحدّى الكفار بهذا فى مواضع فى القرآن . منها هذا ، ومنها قوله تعالى فى سورة القصص — قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ان كنتم صادقين — وقال فى سورة سبحان — قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا — وقال فى سورة هود — أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين — وقال فى سورة يونس — وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين — * وقد وقع الخلاف بين أهل العلم هل وجه الاعجاز فى القرآن هو كونه فى الرتبة العلية من البلاغة الخارجة عن طوق البشر أو كان العجز عن المعارضة للصرفة من الله سبحانه لهم عن أن يعارضوه ، والحق الأوّل ، والكلام فى هذا مبسوط فى مواطنه . وقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم والنسائى والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « مامن نبى من الأنبياء الا أعطى مامثله آمن عليه البشر وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله — وان كنتم فى ريب — قال هذا قول الله لمن شك من الكفار فيما جاء به محمد ﷺ . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله — وان كنتم فى ريب — قال فى شك — مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله — قال من مثل القرآن حقا وصدقا لاباطل فيه ولا كذب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد — فأتوا بسورة من مثله — قال مثل القرآن — وادعوا شهداءكم — قال ناس يشهدون لكم اذا أتيتم بها أنها مثله . وأخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله شهداءكم قال أعوانكم على ماأنتم عليه فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فقد بين لكم الحق . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فان لم تفعلوا ولن تفعلوا يقول لن تقدروا على ذلك ولن تطيقوه . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد أنه كان

يقرا

يقرأ كل شيء فى القرآن وقودها برفع الواو الأولى إلا التى فى السماء ذات البروج ـ والنار ذات الوقود ـ بنصب الواو . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الكبير والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال ان الحجارة التى ذكرها الله فى القرآن فى قوله ـ وقودها الناس والحجارة ـ حجارة من كبريت خلقها الله عنده كيف شاء . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن جرير أيضا عن عمرو بن ميمون مثله أيضا . وأخرج ابن مردويه والبيهقى فى شعب الايمان عن أنس قال « تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ـ وقودها الناس والحجارة ـ قال أوقد عليها ألف عام حتى احمرت وألف عام حتى ابيضت وألف عام حتى اسودت فهى سوداء مظلمة لا يطفأ لهبها » . وأخرج ابن أبى شيبة والترمذى وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعا مثله . وأخرج أحمد ومالك والبخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « نار بنى آدم التى توقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم قالوا يارسول الله ان كانت لكافية قال فانها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها » . وأخرج الترمذى وحسنه عن أبى سعيد مرفوعا نحوه . وأخرج ابن ماجه والحاكم وصححه عن أنس مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج مالك فى الموطأ والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة قال أترونها حمراء مثل ناركم هذه التى توقدون انها لأشد سوادا من القار . وأخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ أعدّت للكافرين ـ قال أى لمن كان مثل ما أنتم عليه من الكفر .

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ *

لما ذكر تعالى جزاء الكافرين عقبه بجزاء المؤمنين ليجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد كما هى عادته سبحانه فى كتابه العزيز لما فى ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعاته وتثبيط عباده الكافرين عن معاصيه * والتبشير الاخبار بما يظهر أثره على البشرة ، وهى الجلدة الظاهرة ، من البشر والسرور . قال القرطبى أجمع العلماء على أن المكلف اذا قال : من بشرنى من عبيدى فهو حر فبشره واحد من عبيده فأكثر فان أوّلهم يكون حرا دون الثانى ، واختلفوا اذا قال من أخبرنى من عبيدى بكذا فهو حر . فقال أصحاب الشافعى يعمّ لان كل واحد منهم مخبر . وقال علماؤنا لا ، لان المكلف انما قصد خبرا يكون بشارة وذلك مختص بالأوّل انتهى * والحق أنه ان أراد مدلول الخبر عتقوا جميعا ، وان أراد الخبر المقيد بكونه بشارة عتق الأوّل ، فالخلاف لفظى ، والمأمور بالتبشير قيل هو النبى ﷺ ، وقيل هو كل أحد كما فى قوله ﷺ « بشر المشائين » وهذه الجمل وان كانت مصدرة بالانشاء فلا يقدح ذلك فى عطفها على ما قبلها لان المراد عطف جملة وصف ثواب المطيعين على جملة وصف عقاب العاصين من دون نظر الى ما اشتمل عليه الوصفان من الأفراد المتخالفة خبرا وانشاء ، وقيل ان قوله و بشر معطوف على قوله فاتقوا النار ، وليس هذا بجيد * والصالحات الاعمال المستقيمة ، والمراد هنا الاعمال المطلوبة منهم المفترضة عليهم ، وفيه ردّ على من يقول ان الايمان بمجرده يكفى فالجنة تنال بالايمان والعمل الصالح * والجنات البساتين وانما سميت جنات لانها تجنّ من فيها أى تستره بشجرها ، وهو اسم لدار الثواب كلها وهى مشتملة على جنات كثيرة * والأنهار جمع نهر وهو المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر ، والمراد الماء الذى يجرى فيها ، وأسند الجرى اليها مجازا والجارى حقيقة هو الماء كما فى قوله تعالى ـ واسأل القرية ـ أى أهلها : وكما قال الشاعر

ونبئت أن النار بعدك أوقدت * واستب بعدك ياكليب المجلس

والضمير فى قوله ـ من تحتها ـ عائد الى الجنات لاشتمالها على الاشجار أى من تحت أشجارها * وقوله ـ كلما رزقوا ـ وصف آخر للجنات ، أوهو جملة مستأنفة كأن سائلا قال كيف ثمارها * ومن ثمرة فى معنى من أى ثمرة أى من أى نوع من أنواع الثمرات * والمراد بقوله ـ هذا الذى رزقنا من قبل ـ أنه شبيهه ونظيره لأنه هو لأن ذات الحاضر لاتكون عين ذات الغائب لاختلافهما ، وذلك أن اللون يشبه اللون وان كان الحجم والطعم والرائحة والماوية متخالفة * والضمير فى به عائد الى الرزق ، وقيل المراد أنهم أتوا بما يرزقونه فى الجنة متشابها فما يأتيهم فى أوّل النهار يشابه الذى يأتيهم فى آخره فيقولون هذا الذى رزقنا من قبل فاذا أكلوا وجدوا له طعما غير طعم الأوّل * ومتشابها منصوب على الحال * والمراد بتطهير الأزواج أنه لايصيبهن مايصيب النساء من قذر الحيض والنفاس وسائر الادناس التى لايمتنع تعلقها بنساء الدنيا * والخلود البقاء الدائم الذى لاينقطع وقد يستعمل مجازا فيما يطول ، والمراد هنا الأوّل . وقد أخرج ابن ماجه وابن أبى الدنيا فى صفة الجنة والبزار وابن أبى حاتم وابن حبان والبيهقى وابن مردويه عن أسامة بن زيد قال قال رسول الله ﷺ « ألا هل مشمر للجنة فان الجنة لاخطر لها هى ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد وثمرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة ومقام فى أبد فى دار سليمة وفاكهة خضراء الحديث ، والأحاديث فى وصف الجنة كثيرة جدا ثابتة فى الصحيحين وغيرهما . وأخرج ابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ «أنهار الجنة تفجر من تحت جبال مسك» وأخرج ابن أبى شيبة وأبو حاتم وأبو الشيخ وابن حبان والبيهقى فى البعث وصححه عن ابن مسعود نحوه موقوفا . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله ـ تجرى من تحتها الانهار ـ قال يعنى المساكن تجرى أسفلها أنهارها . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله ـ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا ـ قال أتوا بالثمرة فى الجنة فنظروا اليها ـ فقالوا هذا الذى رزقنا من قبل ـ فى الدنيا ـ وأتوا به متشابها ـ فى اللون والمرأى وليس يشبه الطعم . وأخرج عبد بن حميد عن على بن زيد وقتادة نحوه . وأخرج مسدد فى مسنده وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال ليس فى الدنيا مما فى الجنة شىء إلا الاسماء . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال قولهم ـ من قبل ـ معناه هذا مثل الذى كان بالامس . وأخرج ابن جرير عن يحيى بن أبى كثير نحوه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال ـ متشابها ـ فى اللون مختلفا فى الطعم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن فى قوله متشابها قال خيار كله يشبه بعضه بعضا لارذل فيه ألم تروا الى ثمار الدنيا كيف ترذلون بعضه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن أبى سعيد عن النبى ﷺ فى قوله ـ ولهم فيها أزواج مطهرة ـ قال من الحيض والغائط والبزاق والنخامة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال من القذر والأذى . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال لايحضن ولايحدثن ولايتنخمن . وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وقد ثبت عن النبى ﷺ فى صفات أهل الجنة فى الصحيحين وغيرهما من طريق جماعة من الصحابة أن أهل الجنة لايبصقون ولا يتمخطون ولا يتغوّطون ، وثبت أيضا عن النبى ﷺ فى أحاديث كثيرة فى الصحيحين وغيرهما من صفات نساء أهل الجنة مالا يتسع المقام لبسطه ، فلينظر فى دواوين الاسلام وغيرها . وأخرج ابن جرير وابن اسحق وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ وهم فيها خالدون ـ أى خالدون أبدا ، يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدا لاانقطاع له . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله ـ وهم فيها خالدون ـ يعنى لايموتون . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر عن النبى

ﷺ قال «يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم ياأهل النار لاموت وياأهل الجنة لاموت كل هو خالد فيما هو فيه» وأخرج البخارى من حديث أبى هريرة نحوه . وأخرج الطبرانى والحاكم وصححه من حديث معاذ نحوه . وأخرج الطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ « لو قيل لأهل النار انكم ماكثون فى النار عدد كل حصاة فى الدنيا لفرحوا بها ، ولو قيل لأهل الجنة انكم ماكثون عدد كل حصاة لحزنوا ولكن جعل لهم الأبد .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهٰذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلْفٰسِقِينَ * ٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثٰقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخٰسِرُونَ *

أنزل الله هذه الآية ردّا على الكفار لما أنكروا ماضرب به سبحانه من الأمثال كقوله ـ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ـ وقوله ـ أو كصيب من السماء ـ فقالوا الله أجلّ وأعلا من أن يضرب الأمثال . وقال الرازى انه تعالى لما بين بالدليل كون القرآن معجزا أورد هاهنا شبهة أوردها الكفار قدحا فى ذلك وأجاب عنها ، وتقرير الشبهة أنه جاء فى القرآن ذكر النحل والعنكبوت والنمل وهذه الأشياء لايليق ذكرها بكلام الفصحاء ، فاشتمال القرآن عليها يقدح فى فصاحته فضلا عن كونه معجزا * وأجاب الله عنها بأن صغر هذه الأشياء لاتقدح فى الفصاحة اذا كان ذكرها مشتملا على حكمة بالغة انتهى ، ولايخفاك أن تقرير هذه الشبهة على هذا الوجه وارجاع الانكار الى مجرد الفصاحة لامستند له ولا دليل عليه وقد تقدمه الى شىء من هذا صاحب الكشاف ، والظاهر ماذكرناه أوّلا لكون هذه الآية جاءت بعقب المثلين اللذين هما مذكوران قبلها ولا يستلزم استنكارهم لضرب الامثال بالاشياء المحقرة أن يكون ذلك لكونه قادحا فى الفصاحة والاعجاز * والحياء تغير وانكسار يعترى الانسان من تخوّف مايعاب به ويذم كذا فى الكشاف وتبعه الرازى فى مفاتيح الغيب . وقال القرطبى أصل الاستحياء الانقباض عن الشىء والامتناع منه خوفا من مواقعة القبيح وهذا محال على الله انتهى ، وقد اختلفوا فى تأويل مافى هذه الآية من ذكر الحياء فقيل ساغ ذلك لكونه واقعا فى الكلام المحكى عن الكفار . وقيل هو من باب المشاكلة كما تقدّم ، وقيل هو جار على سبيل التمثيل . قال فى الكشاف مثل تركه تخييب العبد وأنه لايردّ يديه صفرا من عطائه لكرمه بترك من يترك رد المحتاج اليه حياء منه انتهى . وقد قرأ ابن محيصن وابن كثير فى رواية عنه يستحى بياء واحدة وهى لغة تميم وبكر بن وائل ، نقلت فيها حركة الياء الأولى الى الحاء فسكنت ثم استثقلت الضمة على الثانية فسكنت فحذفت احداهما لالتقاء الساكنين * وضرب المثل اعتماده وصنعه * ومافى قوله ـ مابعوضة ـ ابهامية أى موجبة لابهام مادخلت عليه حتى يصير أعم مما كان عليه وأكثر شيوعا فى أفراده ، وهى فى موضع نصب على البدل من قوله مثلا و بعوضة نعت لها لابهامها ، قاله الفراء والزجاج وثعلب ، وقيل انها زائدة و بعوضة بدل من مثل ونصب بعوضة فى هذين الوجهين ظاهر ، وقيل انها منصوبة بنزع الخافض والتقدير أن يضرب مثلا مابين بعوضة فحذف لفظ بين . وقد روى هذا عن الكسائى ، وقيل ان يضرب بمعنى يجعل فتكون بعوضة المفعول الثانى ، وقرأ الضحاك وابراهيم بن أبى عبلة ورؤبة بن العجاج بعوضة بالرفع وهى لغة تميم . قال أبو الفتح وجه ذلك أن ما اسم بمنزلة الذى ، و بعوضة رفع على اضمار المبتدأ ، ويحتمل أن تكون ما استفهامية كأنه قال تعالى ـ مابعوضة فما فوقها ـ حتى لايضرب المثل به بل يدان لمثل بما هو أقلّ من ذلك بكثير * والبعوضة

فعولة من بعض اذاقطع ، يقال بعض و بضع بمعنى ، والبعوض البق الواحدة بعوضة ، سميت بذلك لصغرها قاله الجوهري وغيره * وقوله ـ فما فوقها ـ قال الكسائى وأبوعبيدة وغيرهما فما فوقها والله أعلم مادونها أى انها فوقها فى الصغر كجناحها . قال الكسائى وهذا كقولك فى الكلام أتراه قصيرا فيقول القائل أو فوق ذلك أى أقصر مما ترى ، و يمكن أن يراد فما زاد عليها فى الكبر . وقد قال بذلك جماعة * قوله ـ فأما الذين آمنوا ـ أما حرف فيه معنى الشرط وقدره سيبويه بمهما يكن من شيء فكذا ، وذكر صاحب الكشاف أن فائدته فى الكلام أنه يعطيه فضل توكيد وجعل تقدير سيبويه دليلا على ذلك ، والضمير فى ـ أنه ـ راجع الى المثل * والحق الثابت ، وهو المقابل للباطل والحق واحد الحقوق ، والمراد هنا الأوّل . وقد اختلف النحاة فى ـ ماذا ـ فقيل هى بمنزلة اسم واحد بمعنى أىّ شيء أراد الله فتكون فى موضع نصب بأراد ، قال ابن كيسان وهو الجيد ، وقيل ما اسم تام فى موضع رفع بالابتداء وذا بمعنى الذى وهو خبر المبتدا مع صلته ، وجوابه يكون على الأوّل منصوبا وعلى الثانى مرفوعا * والارادة نقيض الكراهة ، وقد اتفق المسلمون على أنه يجوز اطلاق هذا اللفظ على الله سبحانه * ومثلا قال ثعلب منصوب على القطع والتقدير أراد مثلا . وقال ابن كيسان هو منصوب على التميز الذى وقع موقع الحال وهذا أقوى من الأوّل * وقوله ـ يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ـ هو كالتفسير للجملتين السابقتين المصدّرتين بأما فهو خبر من الله سبحانه ، وقيل هو حكاية لقول الكافرين كأنهم قالوا مامراد الله بهذا المثل الذى يفرق به الناس الى ضلالة والى هدى ؟ وليس هذا بصحيح فان الكافرين لايقرون بأن فى القرآن شيئا من الهداية ولايعترفون على أنفسهم بشيء من الضلالة * قال القرطبي ولا خلاف أن قوله ـ وما يضل به الا الفاسقين ـ من كلام الله سبحانه ، وقد أطال المتكلمون الخصام فى تفسير الضلال المذكور هنا وفى نسبته الى الله سبحانه . وقد نقح البحث الرازى فى تفسيره مفاتيح الغيب فى هذا الموضع تنقيحا نفيسا وجوّده وطوله وأوضح فروعه وأصوله فليرجع اليه فانه مفيد جدا . وأما صاحب الكشاف فقد اعتمد هاهنا على عصاه التى يتوكأ عليها فى تفسيره فجعل اسناد الاضلال الى الله سبحانه بكونه سببا فهو من الاسناد المجازى الى ملابس للفاعل الحقيق . وحكى القرطبي عن أهل الحق من المفسرين أن المراد بقوله ـ يضل ـ يخذل * والفسق الخروج عن الشيء يقال فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرها ، والفأرة من جحرها ، ذكر معنى هذا الفراء . وقد استشهد أبو بكر بن الانبارى فى كتاب الزاهر له على معنى الفسق بقول رؤبة بن العجاج .

يهوين فى نجد وغورا غائرا * فواسقا عن قصدها جوائرا

وقد زعم ابن الاعرابى انه لم يسمع قط فى كلام الجاهلية ولا فى شعرهم فاسق وهذا مردود عليه فقد حكى ذلك عن العرب وانه من كلامهم جماعة من أئمة اللغة كابن فارس والجوهرى وابن الانبارى وغيرهم . وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ انه قال «خمس فواسق» الحديث . وقال فى الكشاف الفسق الخروج عن القصد ، ثم ذكر عجز بيت رؤبة المذكور ، ثم قال والفاسق فى الشريعة الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة انتهى . وقال القرطبي والفسق فى عرف الاستعمال الشرعى الخروج من طاعة الله عز وجل فقد يقع على من خرج بكفر وعلى من خرج بعصيان انتهى ، وهذا هو أنسب بالمعنى اللغوى ولاوجه لقصره على بعض الخارجين دون بعض . قال الرازى فى تفسيره : واختلف أهل القبلة هل هو مؤمن أوكافر ؟ فعند أصحابنا انه مؤمن ، وعند الخوارج انه كافر ، وعند المعتزلة لامؤمن ولا كافر ، واحتج المخالف بقوله تعالى ـ بئس الاسم الفسوق بعد الايمان * وقوله ـ إن المنافقين هم الفاسقون * وقوله ـ حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكرّه اليكم الكفر والفسوق والعصيان ـ وهذه المسئلة طويلة مذكورة فى علم الكلام انتهى * وقوله ـ الذين ينقضون ـ فى محل نصب وصفا للفاسقين * والنقض إفساد ماأبرم من بناء أوحبل

أوعهد ، والنقاضة ماتقض من حبل الشعر * والعهد قيل هو الذى أخذه الله على بنى آدم حين استخرجهم من ظهره ، وقيل هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه على ألسن رسله ، ونقضهم ذلك ترك العمل به . وقيل بل هو نصب الأدلة على واحدانيته بالسموات والأرض وسائر مخلوقاته ، ونقضه ترك النظر فيه ، ، وقيل هو ماعهده إلى الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس * والميثاق العهد المؤكد باليمين مفعال من الوثاقة وهى الشدّة فى العقد والربط ، والجمع المواثيق والمياثيق ، وأنشد ابن الأعرابى

حمى لانحل الدهر الا باذننا * ولا نسأل الأقوام عهد المياثق

واستعمال النقض فى إبطال العهد على سبيل الاستعارة * والقطع معروف ، والمصدر فى الرحم القطيعة ، وقطعت الحبل قطعا ، وقطعت النهر قطعا * ومافى قوله ــ ماأمر الله به ــ فى موضع نصب بيقطعون * ــ وأن يوصل ــ فى محل نصب بأمر ، ويحتمل أن يكون بدلا من ما ، أومن الهاء فى به . واختلفوا ماهو الشىء الذى أمر الله بوصله ، فقيل الأرحام . وقيل أمر أن يوصل القول بالعمل . وقيل أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب البعض الآخر ، وقيل المراد به حفظ شرائعه وحدوده التى أمر فى كتبه المنزلة وعلى ألسن رسله بالمحافظة عليها فهى عامة : وبه قال الجمهور وهو الحق * والمراد بالفساد فى الأرض الأفعال والأقوال المخالفة لما أمر الله به كعبادة غيره والاضرار بعباده وتغيير ماأمر بحفظه ، وبالجملة فكل ماخالف الصلاح شرعا أو عقلا فهو فساد * والخسران النقصان ، والخاسر هو الذى نقص نفسه من الفلاح والفوز ، وهؤلاء لما استبدلوا النقض بالوفاء والقطع بالوصل كان عملهم فسادا لما نقصوا أنفسهم من الفلاح والربح وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين قوله ــ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا * وقوله ــ أوكصيب من السماء ــ قال المنافقون : الله أعلا وأجلّ من أن يضرب هذه الأمثال فأنزل الله ــ ان الله لايستحيي أن يضرب مثلا ــ الآية . وأخرج الواحدى فى تفسيره عن ابن عباس قال ان الله ذكر آلهة المشركين فقال ــ وان يسلبهم الذباب شيئا ــ وذكر كيد الآلهة فجعله كبيت العنكبوت ، فقالوا أرأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد أىّ شىء كان يصنع بهذا ؟ فأنزل الله ــ ان الله لايستحيي ــ وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة نحو قول ابن عباس . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال لما نزلت ــ ياأيها الناس ضرب مثل ــ قال المشركون ماهذا من الأمثال فيضرب ، فأنزل الله هذه الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله تعالى ــ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ــ قال يؤمن به المؤمن ويعلمون أنه الحق من ربهم ويهديهم الله به ، ويعرفه الفاسقون فيكفرون به . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله ــ يضل به كثيرا ــ يعنى المنافقين ــ ويهدى به كثيرا ــ يعنى المؤمنين ــ وما يضل به إلا الفاسقين ــ قال هم المنافقون ، وفى قوله ــ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ــ قال هو ماعهد اليهم فى القرآن فأقرّوا به ثم كفروا فنقضوه وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ــ وما يضل به إلا الفاسقين ــ يقول يعرفه الكافرون فيكفرون به . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال فسقوا فأضلهم الله بفسقهم . وأخرج البخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعد بن أبى وقاص قال الحرورية هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وكان يسميهم الفاسقين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال مانعلم الله أوعد فى ذنب ماأوعد فى نقض هذا الميثاق فمن أعطى عهد الله وميثاقه من ثمرة قلبه فليوف به الله . وقد ثبت عن رسول الله ﷺ فى أحاديث ثابتة فى الصحيح وغيره من طريق جماعة من الصحابة

النهى عن نقض العهد والوعيد الشديد عليه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله ـ و يقطعون ماأمر الله به أن يوصل ـ قال الرحم والقرابة * وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله ـ و يفسدون فى الأرض ـ قال يعملون فيها بالمعصية . وأخرج ابن المنذر عن مقاتل فى قوله ـ أولئك هم الخاسرون ـ يقول هم أهل النار . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال كل شىء نسبه الله إلى غير أهل الاسلام مثل خاسر ومسرف وظالم ومجرم وفاسق فانما يعنى به الكفر وما نسبه إلى أهل الاسلام فانما يعنى به الذم .

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *

كيف مبنية على الفتح لخفته وهى فى موضع نصب بتكفرون ، و يسأل بها عن الحال ، وهذا الاستفهام هو للانكار عليهم والتعجيب من حالهم وهى متضمنة لهمزة الاستفهام ، والواو فى وكنتم للحال وقد مقدّرة كما قال الزجاج والفراء ، وانما صح جعل هذا الماضى حالا لأن الحال ليس هو مجرد قوله ـ كنتم أمواتا ـ بل هو وما بعده إلى قوله ـ ترجعون ـ كما جزم به صاحب الكشاف كأنه قال كيف تكفرون ؟ وقصتكم هذه أى وأنتم عالمون بهذه القصة و بأوّلها وآخرها * والأموات جمع ميت ، واختلف المفسرون فى ترتيب هاتين الموتتين والحياتين فقيل ان المراد ـ كنتم أمواتا ـ قبل أن تخلقوا أى معدومين لانه يجوز إطلاق اسم الموت على المعدوم لاجتماعهما فى عدم الاحساس ـ فأحياكم ـ أى خلقكم ـ ثم يميتكم ـ عند انقضاء آجالكم ـ ثم يحييكم ـ يوم القيامة . وقد ذهب إلى هذا جماعة من الصحابة فمن بعدهم . قال ابن عطية وهذا القول هو المراد بالآية وهو الذى لامحيد للكفار عنه واذا أذعنت نفوس الكفار بكونهم كانوا معدومين ثم أحياء فى الدنيا ثم أمواتا فيها لزمهم الاقرار بالحياة الأخرى . قال غيره والحياة التى تكون فى القبر على هذا التأويل فى حكم حياة الدنيا ، وقيل ان المراد كنتم أمواتا فى ظهر آدم ثم أخرجكم من ظهره كالذرّ ثم يميتكم موت الدنيا ثم يبعثكم ، وقيل ـ كنتم أمواتا ـ أى نطفا فى أصلاب الرجال ـ ثم يحييكم ـ حياة الدنيا . ـ ثم يميتكم ـ بعد هذه الحياة ـ ثم يحييكم ـ فى القبور ـ ثم يميتكم ـ فى القبر ـ ثم يحييكم ـ الحياة التى ليس بعدها موت . قال القرطبى فعلى هذا التأويل هى ثلاث موتات وثلاث إحياءات ، وكونهم موتى فى ظهر آدم و إخراجهم من ظهره والشهادة عليهم غير كونهم نطفا فى أصلاب الرجال ، فعلى هذا يجىء أربع موتات وأربع إحياءات . وقد قيل ان الله أوجدهم قبل خلق آدم كالهباء وأماتهم فيكون على هذا خمس موتات وخمس إحياءات وموتة سادسة للعصاة من أمة محمد ﷺ كما ورد فى الحديث «ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم فأماتهم الله إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن فى الشفاعة فجىء بهم إلى أن قال فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل» وهو فى الصحيح من حديث أبى سعيد * وقوله ـ ثم إليه ترجعون ـ أى إلى الله سبحانه فيجازيكم بأعمالكم . وقد قرأ يحيى بن يعمر وابن أبى إسحق ومجاهد وسلام و يعقوب بفتح حرف المضارعة ، وقرأ الجماعة بضمه . قال فى الكشاف عطف الأوّل بالفاء ومابعده بثم لأن الاحياء الأوّل قد تعقب الموت بغير تراخ . وأما الموت فقد تراخى عن الاحياء ، والاحياء الثانى كذلك متراخ عن الموت ان أريد به النشور تراخيا ظاهرا ، وان أريد به احياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه ، والرجوع الى الجزاء أيضا متراخ عن النشور انتهى ، ولايخفاك أنه ان أراد بقوله ان الأحياء الأوّل قد تعقب الموت انه وقع على ماهو متصف بالموت فالموت الآخر وقع على ماهو متصف بالحياة وان أراد أنه وقع الاحياء الأوّل عند أوّل اتصافه بالموت بخلاف الثانى فغير مسلم فانه وقع عند آخر أوقات موته كما وقع الثانى عند آخر أوقات حياته فتأمل هذا . وقد أخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله تعالى ـ وكنتم أمواتا ـ

الآية

الآية قال لم تكونوا شيئا فخلقكم - ثم يميتكم ثم يحييكم - يوم القيامة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن أبى صالح قال يميتكم ثم يحييكم فى القبر ثم يميتكم . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله - وكنتم أمواتا - قال حين لم تكونوا شيئا ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة ثم يرجعون اليه بعد الحياة وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال خلقهم من ظهر آدم فأخذ عليهم الميثاق ثم أماتهم ثم خلقهم فى الأرحام ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة والصحيح الأوّل .

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَافِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّيٰهُنَّ سَبْعَ سَمٰوٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ *

قال ابن كيسان - خلق لكم - أى من أجلكم ، وفيه دليل على أن الأصل فى الأشياء المخلوقة الاباحة حتى يقوم دليل يدل على النقل عن هذا الأصل ، ولا فرق بين الحيوانات وغيرها مما ينتفع به من غير ضرر ، وفى التأكيد بقوله جميعا أقوى دلالة على هذا . وقد استدل بهذه الآية على تحريم أكل الطين لأنه تعالى خلق لنا مافى الأرض دون نفس الأرض ، وقال الرازى فى تفسيره ان لقائل أن يقول ان فى جملة الأرض مايطلق عليه أنه فى الأرض فيكون جامعا للوصفين ، ولا شك أن المعادن داخلة فى ذلك وكذلك عروق الأرض وما يجرى مجرى البعض لها ولأن تخصيص الشىء بالذكر لايدل على نفى الحكم عما عداه انتهى . وقد ذكر صاحب الكشاف ماهو أوضح من هذا فقال . فان قلت هل لقول من زعم أن المعنى خلق لكم الأرض وما فيها وجه صحة . قلت ان أراد بالأرض الجهات السفلية دون الغبراء كما تذكر السماء ويراد الجهات العلوية جاز ذلك فان الغبراء ومافيها واقعة فى الجهات السفلية انتهى ، وأما التراب فقد ورد فى السنة تحريمه وهو أيضا ضارّ فليس مما ينتفع به أكلا ولكنه ينتفع به فى منافع أخرى ، وليس المراد منفعة خاصة كمنفعة الأكل بل كل مايصدق عليه أنه ينتفع به بوجه من الوجوه * وجميعا منصوب على الحال * والاستواء فى اللغة الاعتدال والاستقامة قاله فى الكشاف ، ويطلق على الارتفاع والعلو على الشىء قال تعالى - فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك - وقال - لتستووا على ظهوره - وهذا المعنى هو المناسب لهذه الآية . وقد قيل ان هذه الآية من المشكلات . وقد ذهب كثير من الأئمة الى الايمان بها وترك التعرّض لتفسيرها ، وخالفهم آخرون ، والضمير فى قوله فسوّاهنّ مبهم يفسره مابعده كقولهم زيد رجلا ، وقيل انه راجع الى السماء لانها فى معنى الجنس ، والمعنى انه عدل خلقهنّ فلا اعوجاج فيه . وقد استدل بقوله - ثم استوى - على أن خلق الأرض متقدم على خلق السماء ، وكذلك الآية التى فى حم السجدة . وقال فى النازعات - ءأنتم أشدّ خلقا أم السماء بناها - فوصف خلقها ثم قال - والأرض بعد ذلك دحاها - فكأن السماء على هذا خلقت قبل الأرض وكذلك قوله تعالى - الحمد لله الذى خلق السموات والأرض - وقد قيل ان خلق جرم الأرض متقدم على السماء ودحوها متأخر . وقد ذكر نحو هذا جماعة من أهل العلم وهذا جمع جيد لابدّ من المصير اليه ولكن خلق مافى الأرض لايكون الابعد الدحو ، والآية المذكورة هنا دلت على أنه خلق مافى الأرض قبل خلق السماء وهذا يقتضى بقاء الاشكال وعدم التخلص عنه بمثل هذا الجمع * وقوله - سبع سموات - فيه التصريح بان السموات سبع وأما الأرض فلم يأت فى ذكر عددها إلا قوله تعالى - ومن الأرض مثلهن - فقيل أى فى العدد . وقيل أى فى غلظهنّ وما بينهنّ . وقال الداودى ان الأرض سبع ولكن لم يفتق بعضها من بعض والصحيح أنها سبع كالسموات . وقد ثبت فى الصحيح قوله ﷺ « من أخذ شبرا من الأرض ظلما طوّقه الله من سبع أرضين » وهو ثابت من حديث عائشة وسعيد بن زيد * ومعنى قوله تعالى - سوّاهنّ -

سوّى سطوحهنّ بالاملاس ، وقيل جعلهنّ سواء ، قال الرازى فى تفسيره . فان قيل فهل يدل التنصيص على سبع سموات أى فقط . قلنا الحق أن تخصيص العدد بالذكر لايدل على نفى الزائد والله أعلم انتهى ، وفى هذا اشارة الى ماذكره الحكماء من الزيادة على السبع * ونحن نقول انه لم يأتنا عن الله ولا عن رسوله إلا السبع فنقتصر على ذلك ولا نعمل بالزيادة الا اذا جاءت من طريق الشرع ولم يأت شىء من ذلك وانما أثبت لنفسه سبحانه انه بكل شىء عليم لانه يجب أن يكون عالما بجميع ماثبت أنه خالقه . وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله تعالى ــ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ــ قال سخر لكم مافى الأرض جميعا كرامة من الله ونعمة لابن آدم وبلغة ومنفعة الى أجل . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن مجاهد فى قوله ــ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ــ قال سخر لكم مافى الأرض جميعا ، ــ ثم استوى الى السماء ــ قال خلق الأرض قبل السماء فلما خلق الأرض ثار منها دخان فذلك قوله ــ ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ سبع سموات ــ يقول خلق سبع سموات بعضهنّ فوق بعض وسبع أرضين بعضهنّ فوق بعض . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله ــ هو الذى خلق لكم مافى الأرض ــ الآية . قالوا ان اللهّ كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا قبل الماء ، فلما أراد أن يخلق الخلق . أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء ، ثم انبس الماء فجعله أرضا واحدة ، ثم فتقها سبع أرضين فى يومين الأحد والاثنين فخلق الأرض على حوت وهو الذى ذكره فى قوله ــ ن والقلم ــ والحوت فى الماء والماء على ظهر صفاة والصفاة على ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة فى الريح وهى الصخرة التى ذكر لقمان ليست فى السماء ولا فى الأرض فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض فأرسى عليها الجبال فقرّت فذلك قوله تعالى ــ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ــ وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وسخرها وما ينبغى لها فى يومين فى الثلاثاء والأربعاء وذلك قوله ــ أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض ــ الى قوله وبارك فيها ــ يقول أنبت شجرها ــ وقدّر فيها أقواتها ــ يقول أقوات أهلها ــ فى أربعة أيام سواء للسائلين ــ يقول من سأل فهكذا الأمر ، ــ ثم استوى الى السماء وهى دخان ــ وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين فى الخميس والجمعة ، وانما سمى يوم الجمعة لانه جمع فيه خلق السموات والأرض ــ وأوحى فى كل سماء أمرها ــ قال خلق فى كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البرد وما لايعلم ، ثم زين السماء الدنيا بالكواكب فجعلها زينة وحفظا من الشياطين فلما فرغ من خلق ماأحب استوى على العرش . وأخرج البيهقى فى الاسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله ــ ثم استوى الى السماء ــ يعنى صعد أمره الى السماء فسواهنّ يعنى خلق سبع سموات قال أجرى النار على الماء فبخر البحر فصعد فى الهواء فجعل السموات منه . وقد ثبت عن النبى ﷺ من حديث أبى هريرة فى الصحيح قال «أخذ النبى ﷺ بيدى فقال خلق الله التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة بعد العصر . وقد ثبت عن النبى ﷺ من طرق عند أهل السنن وغيرهم عن جماعة من الصحابة أحاديث فى وصف السموات وأن غلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام وما بين كل سماء الى سماء خمسمائة عام وأنها سبع سموات وأن الأرض سبع أرضين وكذلك ثبت فى وصف السماء آثار عن جماعة من الصحابة . وقد ذكر السيوطى فى الدرّ المنثور بعض ذلك فى تفسير هذه الآية وانما تركنا ذكره هاهنا لكونه غير متعلق بهذه الآية على الخصوص بل هو متعلق بما هو أعم منها .

واذ

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ *

اذ من الظروف الموضوعة للتوقيت وهى للمستقبل ، واذا للماضى وقد توضع احداهما موضع الأخرى وقال المبرد هى مع المستقبل للمضىّ ومع الماضى للاستقبال . وقال أبو عبيدة انها هنا زائدة وحكاه الزجاج وابن النحاس وقالا هى ظرف زمان ليست مما يزاد ، وهى هنا فى موضع نصب بتقدير اذكر أو بقالوا ، وقيل هو متعلق بخلق لكم ، وليس بظاهر * والملائكة جمع ملك بوزن فعل قاله ابن كيسان ، وقيل جمع ملأك بوزن مفعل قاله أبو عبيدة من لأك اذا أرسل ، والألوكة الرسالة . قال لبيد

وغلام أرسلته أمه * بألوك فبذلنا ماسأل

وقال عدى بن زيد

أبلغ النعمان عنى مألكا * أنه قد طال حبسى وانتظار

ويقال ألكنى أى أرسلنى . وقال النضر بن شميل لا اشتقاق للملك عند العرب ، والهاء فى الملائكة تأكيد لتأنيث الجمع ، ومثله الصلادمة ، والصلادم الخيل الشداد واحدها صلدم ، وقيل هى للمبالغة كعلامة ونسابة * وجاعل هنا من جعل المتعدى إلى مفعولين . وذكر المطرزى أنه بمعنى خالق وذلك يقتضى أنه متعدّ الى مفعول واحد والأرض هنا هى هذه الغبراء ولا يختص ذلك بمكان دون مكان ، وقيل انها مكة * والخليفة هنا معناه الخالف لمن كان قبله من الملائكة ، ويجوز أن يكون بمعنى المخلوف أى يخلفه غيره ، قيل هو آدم وقيل كل من له خلافة فى الأرض ، ويقوى الأوّل قوله خليفة دون خلائف ، واستغنى بآدم عن ذكر من بعده . قيل خاطب الله الملائكة بهذ الخطاب لا للمشورة ولكن لاستخراج ماعندهم ، وقيل خاطبهم بذلك لأجل أن يصدر منهم ذلك السؤال فيجابون بذلك الجواب ، وقيل لأجل تعليم عباده مشروعية المشاورة لهم * وأما قولهم ــ أتجعل فيها من يفسد فيها ــ فظاهره أنهم استنكروا استخلاف بنى آدم فى الأرض لكونهم مظنة للافساد فى الأرض ، وانما قالوا هذه المقالة قبل أن يتقدم لهم معرفة ببنى آدم بل قبل وجود آدم فضلا عن ذريته ، لعلم قد علموه من الله سبحانه بوجه من الوجوه لأنهم لا يعلمون الغيب ، قال بهذا جماعة من المفسرين وقال بعض المفسرين ان فى الكلام حذفا : والتقدير انى جاعل فى الأرض خليفة يفعل كذا وكذا فقالوا ــ أتجعل فيها من يفسد فيها ــ * وقوله ــ يفسد ــ قائم مقام المفعول الثانى * والفساد ضدّ الصلاح * وسفك الدم صبه ، قاله ابن فارس والجوهرى ، ولا يستعمل السفك الا فى الدم ، وواحد الدماء دم ، وأصله دمى حذف لامه ، وجملة ونحن نسبح بحمدك حالية * والتسبيح فى كلام العرب التنزيه والتبعيد من السوء على وجه التعظيم . قال الأعشى :

أقول لما جاءنى فخره * سبحان من علقمة الفاخر

* وبحمدك فى موضع الحال أى حامدين لك . وقد تقدم معنى الحمد * والتقديس التطهير أى ونطهرك عما لا يليق بك مما نسبه اليك الملحدون وافتراه الجاحدون ، وذكر فى الكشاف أن معنى التسبيح والتقديس واحد وهو تبعيد الله من السوء ، وأنهما من سبح فى الأرض والماء وقدّس فى الأرض إذا ذهب فيها وأبعد ، وفى القاموس وغيره من كتب اللغة مايرشد إلى ماذكرناه ، والتأسيس خير من التأكيد خصوصا فى كلام الله سبحانه . ولما كان سؤالهم واقعا على صفة تستلزم إثبات شئ من العلم لأنفسهم . أجاب الله سبحانه عليهم بقوله ــ إنى أعلم مالا تعلمون ــ وفى هذا الاجمال مايغنى عن التفصيل لان من علم مالا يعلم المخاطب له كان حقيقا بأن

يسلم له مايصدر عنه وعلى من لايعلم أن يعترف لمن يعلم بأن أفعاله صادرة على مايوجبه العلم وتقتضيه المصلحة الراجحة والحكمة البالغة ولم يذكر متعلق قوله تعلمون ليفيد التعميم ، ويذهب السامع عند ذلك كل مذهب و يعترف بالعجز و يقر بالقصور . وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال « ان الله أخرج آدم من الجنة قبل أن يخلقه » ثم قرأ — إنى جاعل فى الأرض خليفة — وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضا نحوه وزاد . وقد كان فيها قبل أن يخلق بألفى عام الجن بنو الجان فأفسدوا فى الأرض وسفكوا الدماء ، فلما أفسدوا فى الأرض بعث الله عليهم جنودا من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البحور ، فلما قال الله — إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء — كما فعل أولئك الجان فقال الله — إنى أعلم مالا تعلمون — وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمرو مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أطول منه . وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس على ملك سماء الدنيا ، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن ، وإنما سموا الجن لأنهم خزان الجنة ، وكان إبليس مع ملكه خازنا فوقع فى صدره كبر وقال ما أعطانى الله هذا إلا لمزية لى فاطلع الله على ذلك منه فقال للملائكة — إنى جاعل فى الأرض خليفة — قالوا ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال يكون له ذرية يفسدون فى الأرض و يتحاسدون و يقتل بعضهم بعضا قالوا ربنا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء قال انى أعلم مالا تعلمون . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى الآية قال قد علمت الملائكة وعلم الله أنه لا شئ أكره عند الله من سفك الدماء والفساد فى الأرض . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال اياكم والرأى فان الله ردّ الرأى على الملائكة وذلك أن الله قال — انى جاعل فى الأرض خليفة — قالت الملائكة — أتجعل فيها من يفسد فيها * قال انى أعلم مالا تعلمون — وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن عساكر عن أبى سابط أن النبى ﷺ قال « دحيت الأرض من مكة وكانت الملائكة تطوف بالبيت » فهى أوّل من طاف به وهى الأرض التى قال الله — انى جاعل فى الأرض خليفة — قال ابن كثير وهذا مرسل فى سنده ضعف ، وفيه مدرج وهو أن المراد بالأرض مكة ، والظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك انتهى . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال التسبيح والتقديس المذكور فى الآية هو الصلاة . وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب التوبة عن أنس قال قال رسول الله ﷺ إن أوّل من لبى الملائكة قال الله تعالى إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء قال فرادّوه فأعرض عنهم فطافوا بالعرش ست سنين يقولون لبيك لبيك اعتذارا إليك لبيك لبيك نستغفرك ونتوب إليك ، وثبت فى الصحيح من حديث أبى ذرّ أن النبى ﷺ قال « أحب الكلام إلى الله ما اصطفاه للملائكته سبحان ربى وبحمده » . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله — ونقدس لك — قال نصلى لك . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال التقديس التطهير . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله — ونقدس لك — قال نعظمك ونكبرك . وأخرجا عن أبى صالح قال نعظمك ونمجدك . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله — أعلم مالا تعلمون — قال علم من إبليس المعصية وخلقه لها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى تفسيرها قال كان فى علم الله أنه سيكون من الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن حبان فى صحيحه والبيهقى فى الشعب عن عبد الله بن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ان آدم لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة أى رب — أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء — الآية قالوا ربنا نحن أطوع لك من بنى آدم قال الله للملائكته هلموا ملكين من الملائكة حتى يهبطا إلى

الارض

الأرض فننظر كيف يعملان ؟ فقالوا ربنا هاروت وماروت قال فاهبطا إلى الأرض فتمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر وذكر القصة . وقد ثبت فى كتب الحديث المعتبرة أحاديث من طريق جماعة من الصحابة فى صفة خلقه سبحانه لآدم وهى موجودة فلا نطوّل بذكرها .

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ *

آدم أصله أأدم بهمزتين الأنهم لينوا الثانية و إذا حركت قلبت واوا كما قالوا فى الجمع أوادم . قاله الأخفش ، واختلف فى اشتقاقه ، فقيل من أديم الأرض وهو وجهها . وقيل من الأدمة وهى السمرة . قال فى الكشاف وما آدم الا إسم عجمى ، وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر وعازر وعابر وشالخ وفالغ وأشباه ذلك * والأسماء هى العبارات * والمراد أسماء المسميات قال بذلك أكثر العلماء وهو المعنى الحقيقى للاسم * والتأكيد بقوله كلها يفيد أنه علمه جميع الأسماء ولم يخرج عن هذا شىء منها كائنا ما كان . وقال ابن جرير انها أسماء الملائكة وأسماء ذرية آدم ، ثم رجح هذا وهو غير راجح . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أسماء الذرية ، وقال الربيع بن خيثم أسماء الملائكة * واختلف أهل العلم هل عرض على الملائكة المسميات أو الأسماء ، والظاهر الأوّل لأن عرض نفس الأسماء غير واضح * وعرض الشىء إظهاره ، ومنه عرض الشىء للبيع ، وانما ذكر ضمير المعروضين تغليبا للعقلاء على غيرهم ، وقرأ ابن مسعود عرضهنّ ، وقرأ أبىّ عرضها وانما رجع ضمير عرضهم الى مسميات مع عدم تقدم ذكرها لأنه قد تقدّم مايدل عليها وهو أسماؤها ، قال ابن عطية والذى يظهر أن الله علم آدم الأسماء وعرض عليه مع ذلك الأجناس أشخاصا ، ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن أسماء مسمياتها التى قد تعلمها آدم فقال لهم آدم : هذا اسمه كذا وهذا اسمه كذا . قال الماوردى فكان الأصح توجه العرض إلى المسمين * ثم فى زمن عرضهم قولان ، أحدهما أنه عرضهم بعد أن خلقهم ، الثانى أنه صوّرهم لقلوب الملائكة ثم عرضهم ، وأما أمره سبحانه للملائكة بقوله ـ أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ـ فهذا منه تعالى لقصد التبكيت لهم مع علمه بأنهم يعجزون عن ذلك * والمراد ـ ان كنتم صادقين ـ أن بنى آدم يفسدون فى الأرض فأنبئونى . كذا قال المبرد وقال أبو عبيد وابن جرير ان بعض المفسرين قال معنى ـ ان كنتم صادقين ـ اذ كنتم قالا وهذا خطأ * ومعنى أنبئونى أخبرونى . فلما قال لهم ذلك اعترفوا بالعجز والقصور ـ فقالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا ـ * وسبحان منصوب على المصدرية عند الخليل وسيبويه ، وقال الكسائى هو منصوب على أنه منادى مضاف وهذا ضعيف جدا * والعليم للمبالغة والدلالة على كثرة المعلومات * والحكيم صيغة مبالغة فى إثبات الحكمة له ، ثم أمر الله سبحانه آدم أن يعلمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة فعجزوا واعترفوا بالقصور ، ولهذا قال سبحانه ـ ألم أقل لكم ـ الآية * قال فيما تقدم ـ أعلم مالا تعلمون ـ ثم قال هنا ـ أعلم غيب السموات والأرض ـ تدرجا من المجمل إلى ما هو مبين بعض بيان ، ومبسوط بعض بسط ، وفى اختصاصه بعلم غيب السموات والأرض ردّ لما يتكلفه كثير من العباد من الاطلاع على شىء من علم الغيب كالمنجمين والكهان وأهل الرمل والسحر والشعوذة * والمراد بما يبدون وما يكتمون مايظهرون و يسرون كما يفيده معنى ذلك عند العرب ، ومن فسره بشىء خاص فلا يقبل منه ذلك الا بدليل . وقد أخرج الفريابى

وابن سعد وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال انما سمى آدم لأنه خلق من أديم الأرض . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ــ وعلم آدم الأسماء كلها ــ قال علمه اسم الصحفة والقدر وكل شىء وأخرج ابن جرير عنه نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه فى تفسير الآية قال عرض عليه أسماء ولده إنسانا إنسانا والدواب ، فقيل هذا الجمل هذا الحمار هذا الفرس . وأخرج الحاكم فى تاريخه وابن عساكر والديلمى عن عطية بن بشر مرفوعا فى قوله ــ وعلم آدم الأسماء كلها ــ قال علم الله آدم فى تلك الأسماء ألف حرفة من الحرف وقال له قل لأولادك ولذريتك ان لم تصبروا عن الدنيا فاطلبوها بهذه الحرف ولا تطلبوها بالدين فان الدين لى وحدى خالصا ويل لمن طلب الدنيا بالدين ويل له . وأخرج الديلمى عن أبى رافع قال قال رسول الله ﷺ « مثلت لى أمتى فى الماء والطين وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها » وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى تفسير الآية قال أسماء ذريته أجمعين ، ثم عرضهم قال أخذهم من ظهره . وأخرج عن الربيع بن أنس قال أسماء الملائكة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس ــ ثم عرضهم ــ يعنى عرض أسماء جميع الأشياء التى علمها آدم من أصناف الخلق . فقال أنبئونى يقول أخبرونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ان كنتم تعلمون أنى لم أجعل فى الأرض خليفة قالوا سبحانك تنزيها لله من أن يكون يعلم الغيب أحد غيره تبنا إليك ــ لاعلم لنا ــ تبرؤا منهم من علم الغيب ــ إلا ماعلمتنا ــ كما علمت آدم . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال عرض أصحاب الأسماء على الملائكة وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله ــ إنك أنت العليم الحكيم ــ قال العليم الذى قد كمل فى علمه والحكيم الذى قد كمل فى حكمه . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى وقوله ــ ان كنتم صادقين ــ ان بنى آدم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء ــ وأعلم ماتبدون ــ قال قولهم ــ أتجعل فيها من يفسد فيها ــ وما كنتم تكتمون ــ يعنى ما أسر إبليس فى نفسه من الكبر . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال ــ ماتبدون ــ ماتظهرون ــ وما كنتم تكتمون ــ يقول أعلم السر كما أعلم العلانية

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ *

اذ متعلق بمحذوف تقديره واذكر اذ قلنا . وقال أبو عبيدة اذ زائدة وهو ضعيف . وقد تقدم الكلام فى الملائكة وآدم * السجود معناه فى كلام العرب التذلل والخضوع . وغايته وضع الوجه على الأرض . قال ابن فارس سجد اذا تطامن ، وكل ما سجد فقد ذل ، والاسجاد إدامة النظر . وقال أبو عمرو سجد اذا طأطأ رأسه ، وفى هذه الآية فضيلة لآدم عليه السلام عظيمة حيث أسجد الله له ملائكته ، وقيل ان السجود كان لله ولم يكن لآدم : وانما كانوا مستقبلين له عند السجود ، ولا ملجئ لهذا فان السجود للبشر قد يكون جائزا فى بعض الشرائع بحسب ماتقتضيه المصالح . وقد دلت هذه الآية على أن السجود لآدم وكذلك الآية الأخرى أعنى قوله ــ فاذا سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ــ وقال تعالى ــ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ــ فلا يستلزم تحريمه لغير الله فى شريعة نبينا محمد ﷺ أن يكون كذلك فى سائر الشرائع * ومعنى السجود هنا هو وضع الجبهة على الأرض ، واليه ذهب الجمهور . وقال قوم هو مجرد التذلل والانقياد . وقد وقع الخلاف هل كان السجود من الملائكة لآدم قبل تعليمه الأسماء أم بعده . وقد أطال البحث فى ذلك البقاعى فى تفسيره * وظاهر السياق أنه وقع التعليم وتعقبه الأمر بالسجود وتعقبه إسكانه الجنة ثم إخراجه منها و إسكانه الأرض * وقوله ــ إلا إبليس ــ استثناء متصل لأنه كان من الملائكة على ماقاله الجمهور . وقال شهر بن حوشب و بعض الأصوليين ــ كان من الجن ــ الذين كانوا فى الأرض .

فيكون

فيكون الاستثناء على هذا منقطعا . واستدلوا على هـذا بقوله تعالى ـ لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون ـ و بقوله تعالى ـ إلا إبليس كان من الجنّ ـ والجنّ غير الملائكة ، وأجاب الأوّلون بأنه لايمتنع أن يخرج إبليس عن جملة الملائكة : لماسبق فى علم الله من شقائه عدلا منه ـ لايسئل عما يفعل ـ وليس فى خلقه من نار ولاتركيب الشهوة فيه حين غضب عليه مايدفع أنه من الملائكة ، وأيضا على تسليم ذلك لايمتنع أن يكون الاستثناء متصلا تغليبا للملائكة الذين هم ألوف مؤلفة على إبليس الذى هو فرد واحد بين أظهرهم * ومعنى ـ أبى ـ امتنع من فعل ماأمر به * والاستكبار الاستعظام للنفس وقد ثبت فى الصحيح عنه ﷺ أن الكبر بطر الحق وغمط الناس . وفى رواية غمص بالصاد المهملة * وكان من الكافرين ـ أى من جنسهم . قيل ان كان هنا بمعنى صار . وقال ابن فورك انه خطأ ترده الأصول . وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال كانت السجدة لآدم والطاعة لله . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال سجدوا كرامة من الله أكرم بها آدم . وأخرج ابن عساكر عن ابراهيم المزنى . قال إن الله جعل آدم كالكعبة . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن أبى حاتم وابن الانبارى عن ابن عباس . قال كان ابليس اسمه عزازيل وكان من أشراف الملائكة من ذوى الأجنحة الأربعة ثم أبلس بعد . وروى ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال انما سمى إبليس لان الله أبلسه من الخير كله أى آيسه منه . وأخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن الانبارى عنه . قال كان إبليس قبل أن يرتكب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل وكان من سكان الأرض ، وكان من أشدّ الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما فذلك دعاه الى الكبر ، وكان من حى يسمون جنا . وأخرج ابن المنذر والبيهقى فى الشعب عنه قال كان ابليس من خزان الجنة ، وكان يدبر أمر سماء الدنيا . وأخرج محمد بن نصر عن أنس قال قال رسول الله ﷺ إن الله أمر آدم بالسجود فسجد . فقال لك الجنة ولمن سجد من ولدك ، وأمر ابليس بالسجود فأبى أن يسجد فقال لك النار ولمن أبى من ولدك أن يسجد . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله ـ وكان من الكافرين ـ قال جعله الله كافرا لايستطيع أن يؤمن . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال ابتدأ الله خلق إبليس على الكفر والضلالة وعمل بعمل الملائكة فصيره إلى ماابتدئ إليه خلقه من الكفر قال الله ـ وكان من الكافرين .

وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * قُلْنَا ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ *

اسكن أى اتخذ الجنة مسكنا وهو محل السكون ، وأما ماقاله بعض المفسرين من أن فى قوله اسكن تنبيها على الخروج لان السكنى لاتكون ملكا ، وأخذ ذلك من قول جماعة من العلماء أن من أسكن رجلا منزلا له فانه لايملكه بذلك وان له أن يخرجه منه فهو معنى عرفى والواجب الأخذ بالمعنى العربى اذا لم تثبت فى اللفظ حقيقة شرعية * وأنت تأكيد للضمير المستكن فى الفعل ليصح العطف عليه كما تقرر فى علم النحو

أنه لايجوز العطف على الضمير المرفوع المستكن الا بعد تأكيده بمنفصل . وقد يجيء العطف نادرا بغير تأكيد كقول الشاعر :

قلت اذ أقبلت وزهر تهادى * كنعاج الملا تعسفن رملا

* وقوله ـ وزوجك ـ أى حوّاء وهذه هى اللغة الفصيحة زوج بغيرهاء ، وقد جاء بها قليلا كما فى صحيح مسلم من حديث أنس « أن النبى ﷺ كان مع إحدى نسائه ، فمرّ به رجل فدعاه وقال يافلان هذه زوجتى فلانة» الحديث ، ومنه قول الشاعر :

وان الذى يسعى ليفسد زوجتى * كساع الى أسد الشرى يستميلها

* ورغدا بفتح المعجمة ، وقرأ النخعى وابن وثاب بسكونها ، والرغد العيش الهنىء الذى لاعناء فيه وهو منصوب على الصفة لمصدر محذوف * وحيث مبنية على الضم وفيها لغات كثيرة مذكورة فى كتب العربية * والقرب الدنوّ قال فى الصحاح قرب الشىء بالضم يقرب قربا أى دنا وقربته بالكسر أقربه قربانا أى دنوت منه وقربت أقرب قرابة مثل كتبت أكتب كتابة اذا سرت الى الماء وبينك وبينه ليلة ، والاسم القرب . قال الأصمعى قلت لأعرابى ماالقرب ؟ قال سير الليل لورود الغد * والنهى عن القرب فيه سدّ للذريعة وقطع للوسيلة ، ولهذا جاء به عوضا عن الأكل ، ولايخفى أن النهى عن القرب لايستلزم النهى عن الأكل لانه قد يأكل من ثمر الشجرة من هو بعيد عنها اذا يحمل اليه ، فالأولى أن يقال المنع من الأكل مستفاد من المقام * والشجر ما كان له ساق من نبات الأرض وواحده شجرة وقرىء بكسر الشين وبالياء المثناة من تحت مكان الجيم * وقرأ ابن محيصن هذى بالياء بدل الهاء وهو الأصل . واختلف أهل العلم فى تفسير هذه الشجرة ، فقيل هى الكرم وقيل السنبلة ، وقيل التين ، وقيل الحنطة ، وسيأتى ماروى عن الصحابة فمن بعدهم فى تعينها وقوله * فتكونا معطوف على تقربا فى الكشاف أونصب فى جواب النهى وهو الأظهر * والظلم أصله وضع الشىء فى غير موضعه والأرض المظلومة التى لم تحفر قط ، ثم حفرت ورجل ظليم شديد الظلم . والمراد هنا ـ فتكونا من الظالمين ـ لأنفسهم بالمعصية ، وكلام أهل العلم فى عصمة الأنبياء واختلاف مذاهبهم فى ذلك مدوّن فى مواطنه ، وقد أطال البحث فى ذلك الرازى فى تفسيره فى هذا الموضع فليرجع اليه فانه مفيد * وأزلهما من الزلة وهى الخطيئة أى استزلهما وأوقعهما فيها ، وقرأ حمزة فازالهما باثبات الألف من الازالة وهى التنحية أى نحاهما ، وقرأ الباقون بحذف الألف . قال ابن كيسان هو من الزوال أى صرفهما عما كانا عليه من الطاعة الى المعصية . قال القرطبى وعلى هذا تكون القراءتان بمعنى الأن قراءة الجماعة أمكن فى المعنى ، يقال منه ازللته فزل * وعنها متعلق بقوله أزلهما على تضمينه معنى أصدر أى أصدر الشيطان زلتهما عنها أى بسببها يعنى الشجرة . وقيل الضمير للجنة وعلى هذا فالفعل مضمن معنى أبعدهما أى أبعدهما عن الجنة * وقوله ـ فأخرجهما ـ تأكيد لمضمون الجملة الأولى أى أزلهما ان كان معناه زال عن المكان وان لم يكن معناه كذلك فهو تأسيس لان الاخراج فيه زيادة على مجرد الصرف والابعاد ونحوهما لان الصرف عن الشجرة والابعاد عنها قد يكون مع البقاء فى الجنة بخلاف الاخراج لهما عما كانا فيه من النعيم والكرامة أو من الجنة ، وانما نسب ذلك الى الشيطان لانه الذى تولى اغواء آدم حتى أكل من الشجرة ، وقد اختلف أهل العلم فى الكيفية التى فعلها الشيطان فى ازلالهما ، فقيل انه كان ذلك بمشافهة منه لهما واليه ذهب الجمهور واستدلوا على ذلك بقوله تعالى ـ وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ـ والمقاسمة ظاهرها المشافهة وقيل لم يصدر منه الا مجرد الوسوسة ، وقيل غير ذلك مما سيأتى فى المروى عن السلف * وقوله ـ اهبطوا ـ خطاب لآدم وحواء ، وخوطبا بما يخاطب به الجمع لان الاثنين أقلّ الجمع عند البعض من أئمة العربية ، وقيل انه خطاب لهما ولذريتهما لانهما لما كانا أصل هذا النوع الانسانى جعلا بمنزلته ، ويدل على ذلك قوله

– بعضكم لبعض عدوّ – فان هذه الجملة الواقعة حالا مبينا للهيئة الثابتة للمأمورين بالهبوط تفيد ذلك ﴿ والعـدوّ خلاف الصديق وهو من عدا اذا ظلم ، و يقال ذئب عدوان أى يعدو على الناس والعدوان الظلم الصراح . وقيل انه مأخوذ من المجاوزة يقال عداه اذا جاوزه ، والمعنيان متقاربان فان من ظلم فقد تجاوز وانما أخبر عن قوله – بعضكم – بقوله – عدو – مع كونه مفردا لان لفظ بعض وان كان معناه محتملا للتعدد فهو مفرد فروعى جانب اللفظ وأخبر عنه بالمفرد ، وقد يراعى المعنى فيخبرعنه بالمتعدد ﴿ وقد يجاب بأن عدوا وان كان مفردا فقد يقع موقع المتعدد كقوله تعالى – وهم لـكم عدوّ – وقوله – يحسبون كل صيحة عليهم هم العدوّ – قال ابن فارس العدو اسم جامع للواحد والاثنين والثلاثة ﴿ والمراد بالمستقر موضع الاستقرار ، ومنه – أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا . وقد يكون بمعنى الاستقرار ومنه – الى ربك يومئذ المستقر – فالآية محتملة للمعنيين ، ومثلها قوله – جعل لكم الأرض قرارا – ﴿ والمتاع ما يستمتع به من المأكول والمشروب والملبوس ونحوها ﴿ واختلف المفسرون فى قوله – إلى حين – فقيل الى الموت ، وقيل الى قيام الساعة ، وأصل معنى الحين فى اللغة الوقت البعيد ، ومنه – هل أتى على الانسان حين من الدهر – والحين الساعة ، ومنه – أو تقول حين ترى العذاب – والقطعة من الدهر ، ومنه – فذرهم فى غمرتهم حتى حين – أى حتى تفنى آجالهم ، و يطلق على السنة ، وقيل على ستة أشهر ، ومنه – تؤتى أكلها كل حين – و يطلق على المساء والصباح ، ومنه – حين تمسون وحين تصبحون – وقال الفراء الحين حينان حين لا يوقف على حده ، ثم ذكر الحين الآخر واختلافه بحسب اختلاف المقامات كما ذكرنا ، وقال ابن العربى الحين المجهول لا يتعلق به حكم ، والحين المعلوم سنة ﴿ ومعنى تلقى آدم للكلمات أخذه لها وقبوله لما فيها وعمله بها ، وقيل فهمه لها وفطانته لما تضمنته ، وأصل معنى التلقى الاستقبال أى استقبل الـكلمات الموحاة اليه ، ومن قرأ بنصب آدم جعل معناه استقبلته الـكلمات . وقيل ان معنى تلقى تلقن ولا وجه له فى العربية ، واختلف السلف فى تعيين هذه الـكلمات وسيأتى ﴿ والتوبة الرجوع يقال تاب العبد اذا رجع الى طاعة مولاه وعبد تواب كثير الرجوع فمعنى تاب عليه رجع عليه بالرحمة ، فقبل توبته أو وفقه للتوبة ، واقتصر على ذكر التوبة على آدم دون حواء مع اشتراكهما فى الذنب لان الـكلام من أوّل القصة معه فاستمر على ذلك واستغنى بالتوبة عليه عن ذكر التوبة عليها لكونها تابعة له كما استغنى بنسبة الذنب اليه عن نسبته اليها فى قوله – وعصى آدم ربه فغوى – ﴿ وأما قوله – قلنا اهبطوا – بعد قوله – قلنا اهبطوا – فكرره للتوكيد والتغليظ . وقيل انه لما تعلق به حكم غير الحكم الأوّل كرره ولا تزاحم بين المقتضيات . فقد يكون التكرير للامرين معا ﴿ وجواب الشرط فى قوله – فاما يأتينكم منى هـدى – هو الشرط الثانى مع جوابه قاله سيبويه . وقال الكسائى ان جواب الشرط الأوّل والثانى قوله – فلا خوف – ﴿ واختلفوا فى معنى الهدى المذكور فقيل هو كتاب الله ، وقيل التوفيق للهداية ﴿ والخوف هو الذعر ولا يكون الا فى المستقبل ، وقرأ الزهرى والحسن وعيسى بن عمار وابن أبى اسحاق و يعقوب فلا خوف بفتح الفاء ﴿ والحزن ضد السرور . قال اليزيدى حزنه لغة قريش وأحزنه لغة تميم . وقد قرئ بهما ﴿ وصحبة أهل النار لها بمعنى الاقتران والملازمة . وقد تقدّم ذكر تفسير الخلود . وقد أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبى ذر . قال قلت يارسول الله أرأيت آدم نبيا كان ؟ قال نعم كان نبيا رسولا كلمه الله قال له – يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة – . وأخرج ابن أبى شيبة والطبرانى عن أبى ذر قال « قلت يارسول الله من أوّل الأنبياء ؟ قال آدم . قلت نبى قال نعم . قلت ثم من ؟ قال نوح و بينهما عشرة آباء » وأخرج أحمد والبخارى فى تاريخه والبيهقى فى الشعب نحوه من حديث أبى ذر مرفوعا وزاد كم كان المرسلون ؟ قال ثلثمائة وخمسة عشر جما غفيرا . وأخرج ابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى عن أبى أمامة الباهلى أن رجلا « قال يارسول الله أنبى كان آدم ؟ قال نعم قال كم بينه وبين نوح ؟ قال عشرة

...in lviii.11; xii.13; vi.33; iii.170; v.
x.66; xxxi.22; xxxvi.76; xxi.103.
...ic = Ibn Muḥaiṣin so read.

قرون قال كم بين نوح و بين ابراهيم ؟ قال عشرة قرون قال يارسول الله كم الأنبياء ؟ قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، قال يارسول الله كم كانت الرسل من ذلك ؟ قال ثلثمائة وخمسة عشر جما غفيرا » . وأخرج أحمد وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه من حديث أبى أمامة نحوه وصرح بأن السائل أبو ذر . وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه عن ابن عباس قال ماسكن آدم الجنة الا مابين صلاة العصر الى غروب الشمس . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى عنه قال « ماغابت الشمس من ذلك اليوم حتى أهبط من الجنة . وأخرج الفريابى وأحمد فى الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن قال لبث آدم فى الجنة ساعة من نهار تلك الساعة مائة وثلاثون سنة من أيام الدنيا ، وقد روى تقدير اللبث فى الجنة عن سعيد بن جبير بمثل ماتقدّم عن ابن عباس كما رواه أحمد فى الزهد . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى وابن عساكر عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة قالوا لما سكن آدم الجنة كان يمشى فيها وحشا ليس له زوج يسكن اليها فنام نومة فاستيقظ واذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه . وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ «استوصوا بالنساء خيرا فان المرأة خلقت من ضلع وان أعوج شىء من الضلع رأسه فان ذهبت تقيمه كسرته وان تركته وفيه عوج » وروى أبو الشيخ وابن عساكر عن ابن عباس قال انما سميت حواء لانها أم كل حى . وأخرج ابن عدى وابن عساكر عن النخعى قال لما خلق الله آدم وخلق له زوجه بعث اليه ملكا وأمره بالجماع ففعل فلما فرغ قالت له حواء يا آدم هذا طيب زدنا منه . وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال الرغد الهنىء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال الرغد سعة المعيشة . وأخرجا عنه فى قوله ـ وكلا منها رغدا حيث شئتما ـ قال لاحساب عليكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال الشجرة التى نهى الله عنها آدم السنبلة وفى لفظ البرّ . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال هى الكرم . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثله . وأخرج أبو الشيخ عنه قال هى اللوز . وأخرج ابن جرير عن بعض الصحابه قال هى التينة . وروى مثله أبو الشيخ عن مجاهد وابن أبى حاتم عن قتادة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن وهب بن منبه قال هى البر . وأخرج أبو الشيخ عن أبى مالك قال هى النخلة . وأخرج أبو الشيخ عن يزيد بن عبدالله بن قسيط . قال هى الاترج . وأخرج أحمد فى الزهد عن شعيب الجبائى . قال هى تشبه البر وتسمى الدعة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ فأزلهما ـ قال فأغواهما . وأخرج ابن أبى حاتم عن عاصم بن بهدلة قال فأزلهما فنحاهما . وأخرج أبو داود فى المصاحف عن الأعمش قال قراءتنا فى البقرة مكان فأزلهما فوسوس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا أراد ابليس أن يدخل عليهما الجنة فمنعته الخزنة فأتى الحية وهى دابة لها أربع قوائم كأنها البعير وهى كأحسن الدواب فكلمها أن تدخله فى فمها حتى تدخل به الى آدم فأدخلته فى فمها فمرت الحية على الخزنة فدخلت ولا يعلمون لما أراد الله من الأمر فكلمه من فمها فلم يبال بكلامه فخرج اليه فقال يا آدم ـ هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى ـ وحلف لهما بالله ـ انى لكما لمن الناصحين ـ فأبى آدم أن يأكل منها فتقدّمت حواء فأكلت ، ثم قالت يا آدم كل فأنى قد أكلت فلم يضرنى فلما أكلا ـ بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ـ وقد أخرج قصة الحية ودخول ابليس معها عبدالرزاق وابن جرير عن ابن عباس . وأخرج ابن سعد وأحمد فى الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن أبىّ بن كعب عن النبى ﷺ قال ان آدم كان رجلا طوالا كأنه نخلة سحوق طوله ستون ذراعا كثير شعر الرأس فلما ركب الخطيئة بدت له عورته الحديث . وأخرج ابن منيع وابن المنذر وأبو الشيخ

والحاكم

والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس . قال قال الله لآدم ماحملك على أن أكلت من الشجرة التى نهيتك عنها ؟ قال يارب زينته لى حواء قال فانى عاقبتها بأن لاتحمل إلا كرها ولا تضع إلا كرها وأدميتها فى كل شهر مرتين ، وأخرج البخارى والحاكم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها » . وقد ثبتت أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة فى الصحيحين وغيرهما فى محاجة آدم وموسى ، وحج آدم موسى بقوله : أتلومنى على أمر قدّره الله علىّ قبل أن أخلق . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ـ قال آدم وحواء و إبليس والحية ـ ولكم فى الأرض مستقرّ ـ قال القبور ـ ومتاع إلى حين ـ قال الحياة . وروى نحو ذلك عن مجاهد وأبى صالح وقتادة كما أخرجه عن الأوّل والثانى أبو الشيخ وعن الثالث عبد بن حميد . وأخرج أبو الشيخ عن ابن مسعود فى قوله ـ ولكم فى الأرض مستقر ـ قال القبور ـ ومتاع إلى حين ـ قال إلى يوم القيامة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر قال أهبط آدم بالصفا وحواء بالمروة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال « أوّل ما أهبط الله آدم إلى أرض الهند » وفى لفظ بدجنى أرض الهند . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أنه أهبط إلى أرض بين مكة والطائف . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه والبيهقى عنه قال قال علىّ بن أبى طالب أطيب ريح الأرض الهند هبط بها آدم فعلق شجرها من ريح الجنة . وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس قال أهبط آدم بالهند وحواء بجدّة لجاء فى طلبها حتى أتى جمعا فازدلفت إليه حواء فلذلك سميت المزدلفة ، واجتمعا بجمع وأخرج الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « أنزل آدم عليه السلام بالهند فاستوحش فنزل جبريل فنادى بالأذان فلما سمع ذكر محمد قال له ومن محمد هذا ؟ قال هذا آخر ولدك من الأنبياء » . وقد روى عن جماعة من الصحابة أن آدم أهبط إلى أرض الهند ، منهم جابر أخرجه ابن أبى الدنيا وابن المنذر وابن عساكر ، ومنهم ابن عمر أخرجه الطبرانى . وأخرج ابن عساكر عن علىّ قال قال النبى ﷺ « ان الله لما خلق الدنيا لم يخلق فيها ذهبا ولافضة فلما أهبط آدم وحواء أنزل معهما ذهبا وفضة فسلكه ينابيع فى الأرض منفعة لأولادهما من بعدهما وجعل ذلك صداق لحواء ، فلا ينبغى لأحد أن يتزوّج الا بصداق » . وأخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن أنس قال قال رسول الله ﷺ « هبط آدم وحواء عريانين جميعا عليهم ورق الجنة فعد يبكى ويقول لها ياحواء قد آذانى الحر فجاءه جبريل بقطن وأمرها أن تغزل وعلمها ، وأمر آدم بالحياكة وعلمه » . وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس مرفوعا « أوّل من حاك آدم عليه السلام » . وقد روى عن جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم حكايات فى صفة هبوط آدم من الجنة وما أهبط معه وماصنع عند وصوله الى الأرض ، ولاحاجة لنا يبسط جميع ذلك . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله ـ فتلقى آدم من ربه كلمات ـ قال أى رب ألم تخلقنى بيدك ؟ قال بلى ، قال أى رب ألم تنفخ فىّ من روحك ؟ قال بلى ، قال أى رب ألم تسبق الىّ رحمتك قبل غضبك ؟ قال بلى ، قال أى رب ألم تسكنى جنتك ؟ قال بلى ، قال أى رب أرأيت ان تبت وأصلحت أراجعى أنت الى الجنة ؟ قال نعم . وأخرج الطبرانى فى الأوسط وابن عساكر بسند ضعيف عن عائشة عن النبى ﷺ قال « لما أهبط الله آدم إلى الأرض قام وجاه الكعبة فصلى ركعتين » الحديث . وقد روى نحوه باسناد لابأس به أخرجه الأزرقى فى تاريخ مكة ، والطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الدعوات وابن عساكر من حديث بريدة مرفوعا . وأخرج الثعلبى عن ابن عباس فى قوله ـ فتلقى آدم من ربه كلمات ـ قال قوله ـ ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين ـ . وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جرير عنه

مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى فى شعب الايمان عن محمد بن كعب القرظى فى قوله ـ فتلقى آدم من ربه كلمات ـ مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد مثله . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن والضحاك مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قيل له ماالكلمات التى تلقى آدم من ربه ؟ . قال علم شأن الحج فهى الكلمات . وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن زيد فى قوله ـ فتلقى آدم من ربه كلمات ـ قال لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفرلى إنك أنت خير الغافرين ، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءا وظلمت نفسى فارحمنى إنك أنت أرحم الراحمين ، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءا وظلمت نفسى فتب علىّ إنك أنت التوّاب الرحيم . وأخرج نحوه البيهقى فى شعب الايمان وابن عساكر عن أنس . وأخرج نحوه هنا وفى الزهد عن سعيد بن جبير . وأخرج نحوه ابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس . وأخرج نحوه الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف عن علىّ مرفوعا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله ـ فاما يأتينكم منى هدى ـ قال الهدى الأنبياء والرسل والبيان . وأخرج ابن الأنبارى فى المصاحف عن أبى الطفيل قال قرأ رسول الله ﷺ ـ فمن تبع هدىّ ـ بتثقيل الياء وفتحها . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله ـ فلا خوف عليهم ـ يعنى فى الآخرة ـ ولاهم يحزنون ـ يعنى لايحزنون للموت .

يَٰبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ * وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ *

اعلم أن كثيرا من المفسرين جاءوا بعلم متكلف وخاضوا فى بحر لم يكلفوا سباحته ، واستغرقوا أوقاتهم فى فنّ لايعود عليهم بفائدة ، بل أوقعوا أنفسهم فى التكلم بمحض الرأى المنهىّ عنه فى الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه ، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود فى المصاحف فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الانصاف ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلا عن كلام الرب سبحانه ، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف ، وجعلوه المقصد الأهمّ من التأليف ، كما فعله البقاعى فى تفسيره ومن تقدّمه حسبما ذكر فى خطبته ، وان هذا لمن أعجب مايسمعه من يعرف أن هذا القرآن مازال ينزل مفرّقا على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزول الوحى على رسول الله ﷺ إلى أن قبضه الله عز وجل اليه ، وكل عاقل فضلا عن عالم لايشك أن هذه الحوادث المقتضية لنزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها ، بل قد تكون متناقضة كتحريم أمر كان حلالا وتحليل أمر كان حراما وإثبات أمر لشخص أو أشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله ، وتارة يكون الكلام مع المسلمين ، وتارة مع الكافرين ، وتارة مع من مضى ، وتارة مع من حضر ، وحينا فى عبادة ، وحينا فى معاملة ، ووقتا فى ترغيب ، ووقتا فى ترهيب ، وآونة فى بشارة ، وآونة فى نذارة ، وطورا فى أمر دنيا ، وطورا فى أمر آخرة ، ومرة فى تكاليف آتية ، ومرة فى أقاصيص ماضية ، واذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف ، ومتباينة هذا التباين الذى لايتيسر معه الائتلاف فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه مختلف كاختلافها ، فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب والنون والماء والنار والملاح والحادى ، وهل هذا الا من فتح أبواب الشك وتوسيع دائرة الريب على من فى قلبه مرض أو كان مرضه مجرد الجهل والقصور فانه اذا وجد أهل العلم يتكلمون فى التناسب بين جميع آى

القرآن و يفردون ذلك بالتصنيف تقرر عنده أن هذا أمر لابدّ منه وأنه لايكون القرآن بليغا معجزا الا اذا ظهر الوجه المقتضى للمناسبة ، وتبين الأمر الموجب للارتباط ، فان وجد الاختلاف بين الآيات فرجع الى ماقاله المتكلمون فى ذلك فوجده تكلفا محضا وتعسفا بينا انقدح فى قلبه ما كان عنه فى عافية وسلامة ، هذا على فرض أن نزول القرآن كان مترتبا على هذا الترتيب الكائن فى المصحف ، فكيف وكل من له أدنى علم بالكتاب ، وأيسر حظ من معرفته يعلم علما يقينا أنه لم يكن كذلك ، ومن شك فى هذا وان لم يكن مما يشك فيه أهل العلم رجع إلى كلام أهل العلم العارفين بأسباب النزول ، المطلعين على حوادث النبوّة ، فانه يثلج صدره ، ويزول عنه الريب ، بالنظر فى سورة من السور المتوسطة ، فضلا عن المطوّلة ، لأنه لامحالة يجدها مشتملة على آيات نزلت فى حوادث مختلفة ، وأوقات متباينة ، لامطابقة بين أسبابها وما نزل فيها فى الترتيب بل يكفى المقصر أن يعلم أن أوّل مانزل ــ اقرأ باسم ربك الذى خلق ــ وبعده ــ ياأيها المدثر * ياأيها المزمل ــ وينظر أين موضع هذه الآيات والسور فى ترتيب المصحف ؟ واذا كان الأمر هكذا ، فأىّ معنى لطلب المناسبة بين آيات نعلم قطعا أنه قد تقدّم فى ترتيب المصحف ماأنزله الله متأخرا وتأخر ماأنزله الله متقدما فان هذا عمل لايرجع إلى ترتيب نزول القرآن ، بل إلى ماوقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة ، وما أقلّ نفع مثل هذا وأنزر ثمرته ، وأحقر فائدته ، بل هو عند من يفهم مايقول وما يقال له من تضييع الأوقات ، وانفاق الساعات فى أمر لايعود بنفع على فاعله ولاعلى من يقف عليه من الناس ، وأنت تعلم أنه لو تصدّى رجل من أهل العلم للمناسبة بين ماقاله رجل من البلغاء من خطبه ورسائله وانشا آته ، أوالى ماقاله شاعر من الشعراء من القصائد التى تكون تارة مدحا ، وأخرى هجاء ، وحينا نسيبا ، وحينا رثاء ، وغير ذلك من الأنواع المتخالفة ، فعمد هذا المتصدى إلى ذلك المجموع فناسب بين فقره ومقاطعه ، ثم تكلف تكلفا آخر ، فناسب بين الخطبة التى خطبها فى الجهاد ، والخطبة التى خطبها فى الحج ، والخطبة التى خطبها فى النكاح ونحو ذلك ، وناسب بين الانشاء الكائن فى العزاء ، و الانشاء الكائن فى الهناء ، ومايشابه ذلك لعدّ هذا المتصدى لمثل هذا مصابا فى عقله ، متلاعبا بأوقاته ، عابثا بعمره الذى هو رأس ماله ، واذا كان مثل هذا بهذه المنزلة وهو ركوب الأحموقة فى كلام البشر فكيف تراه يكون فى كلام الله سبحانه الذى أعجزت بلاغته بلغاء العرب ، وأبكمت فصاحته فصحاء عدنان وقحطان . وقد علم كل مقصر وكامل أن الله سبحانه وصف هذا القرآن بأنه عربى ، وأنزله بلغة العرب ، وسلك فيه مسالكهم فى الكلام ، وجرى به مجاريهم فى الخطاب . وقد علمنا أن خطيبهم كان يقوم المقام الواحد فيأتى بفنون متخالفة ، وطرائق متباينة فضلا عن المقامين ، فضلا عن المقامات ، فضلا عن جميع ماقاله مادام حيا ، وكذلك شاعرهم ، ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التى تعثر فى ساحاتها كثير من المحققين ، وانما ذكرنا هذا البحث فى هذا الموطن لان الكلام هنا قد انتقل مع بنى إسرائيل بعد أن كان قبله مع أبى البشر آدم عليه السلام ، فاذا قال متكلف كيف ناسب هذا ماقبله قلنا لا كيف

فدع عنك نهبا صيح فى حجراته * وهات حديثا ماحديث الرواحل

قوله ــ يابنى إسرائيل ــ اتفق المفسرون على أن اسرائيل هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام ومعناه عبد الله ، لأن اسر فى لغتهم هو العبد وايل هو الله ، قيل ان له اسمين ، وقيل اسرائيل لقب له ، وهو اسم عجمى غير منصرف ، وفيه سبع لغات اسرائيل بزنة ابراهيم واسرائل بمدّة مهموزة مختلسة رواها ابن شنبوذ عن ورش ، واسرايل بمدّة بعد الياء من غير همز وهى قراءة الأعمش وعيسى بن عمر ، وقرأ الحسن من غير همز ولا مدّ واسرائل بهمزة مكسورة ، واسراءل بهمزة مفتوحة وتميم يقولون اسرائين * والذكر هو ضد الانصات ، وجعله بعض أهل اللغة مشتركا بين ذكر القلب واللسان . وقال الكسائى ما كان بالقلب فهو

مضموم الذال وما كان باللسان فهو مكسور الذال . قال ابن الأنبارى والمعنى فى الآية اذكروا اشكروا نعمتى فحذف الشكر اكتفاء بذكر النعمة ، وهى اسم جنس ، ومن جملتها انه جعل منهم أنبياء وأنزل عليهم الكتب والمنّ والسلوى ، وأخرج لهم الماء من الحجر ، ونجاهم من آل فرعون وغير ذلك * والعهد قد تقدّم تفسيره واختلف أهل العلم فى العهد المذكور فى هذه الآية ماهو ؟ فقيل هو المذكور فى قوله تعالى ـ خذوا ما آتيناكم بقوّة ـ وقيل هو مافى قوله ـ ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل و بعثنا منهم اثنى عشر نقيبا ـ وقيل هو قوله ـ واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ـ * وقال الزجاج هو ماأخذ عليهم فى التوراة من اتباع محمد ﷺ ، وقيل هو أداء الفرائض ، ولا مانع من حمله على جميع ذلك * ومعنى قوله ـ أوف بعهدكم ـ أى بما ضمنت لكم من الجزاء * والرهب والرهبة الخوف ، ويتضمن الأمر به معنى التهديد ، وتقديم معمول الفعل يفيد الاختصاص كما تقدّم فى ـ إياك نعبد ـ واذا كان التقديم على طريقة الاضمار والتفسير مثل زيدا ضربته ، واياى فارهبون ، كان أوكد فى إفادة الاختصاص ، ولهذا قال صاحب الكشاف وهو أوكد فى إفادة الاختصاص من إياك نعبد ، وسقطت الياء من قوله فارهبون لأنها رأس آية * ومصدقا حال مما فى قوله ـ ماأنزلت ـ أو من ضميرها المقدّر بعد الفعل أى أنزلته * وقوله ـ أوّل كافر به ـ انما جاء به مفردا ، ولم يقل كافرين حتى يطابق ماقبله ، لأنه وصف لموصوف محذوف مفرد اللفظ ، متعدد المعنى نحو فريق أو فوج . وقال الأخفش والفراء انه محمول على معنى الفعل ، لأن المعنى أوّل من كفر * وقد يكون من باب قولهم هو أظرف الفتيان وأجمله كما حكى ذلك سيبويه فيكون هذا المفرد قائما مقام الجمع ، وانما قال أوّل مع أنه قد تقدّمهم إلى الكفر به كفار قريش ، لأن المراد أوّل كافر به من أهل الكتاب ، لأنهم العارفون بما يجب للأنبياء ، وما يلزم من التصديق ، والضمير فى به عائد إلى النبى ﷺ أى لاتكونوا أوّل كافر بهذا النبى مع كونكم قد وجدتموه مكتوبا عندكم فى التوراة والانجيل مبشرا به فى الكتب المنزلة عليكم . وقد حكى الرازى فى تفسيره فى هذا الموضع ماوقف عليه من البشارات برسول الله ﷺ فى الكتب السالفة وقيل انه عائد إلى القرآن المدلول عليه بقوله ـ بما أنزلت ـ وقيل عائد إلى التوراة المدلول عليها بقوله ـ لما معكم ـ * وقوله ـ ولا تشتروا بآياتى ـ أى بأوامرى ونواهىّ ـ ثمنا قليلا ـ أى عيشا نزرا ورئاسة لاخطر لها

جعل مااعتاضوه ثمنا ، وأوقع الاشتراء عليه وان كان الثمن هو المشترى به ، لأن الاشتراء هنا مستعار للاستبدال أى لاتستبدلوا بآياتى ثمنا قليلا ، وكثيرا مايقع مثل هذا فى كلامهم . وقد قدّمنا الكلام عليه فى تفسير قوله تعالى ـ اشتروا الضلالة بالهدى ـ ، ومن إطلاق اسم الثمن على نيل عرض من أعراض الدنيا قول الشاعر .

ان كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها * فما أصبت بترك الحج من ثمن

وهذه الآية وان كانت خطابا لبنى اسرائيل ونهيا لهم فهى متناولة لهذه الأمة بفحوى الخطاب أو بلحنه فمن أخذ من المسلمين رشوة على ابطال حق أمر الله به ، أو اثبات باطل نهى الله عنه ، أو امتنع من تعليم ماعلمه الله وكتم البيان الذى أخذ الله عليه ميثاقه به فقد اشترى بآيات الله ثمنا قليلا * وقوله ـ واياى فاتقون ـ الكلام فيه كالكلام فى قوله تعالى ـ واياى فارهبون ـ وقد تقدّم قريبا * واللبس الخلط يقال لبست عليه الأمر ألبسه اذا خلطت حقه بباطله وواضحه بمشكله ، قال الله تعالى ـ وللبسنا عليهم مايلبسون ـ قالت الخنساء

ترى الجليس يقول الحق تحسبه * رشدا وهيهات فانظر مابه التبسا

صدق مقالته واحذر عداوته * والبس عليه أمورا مثل مالبسا

وقال العجاج

لما لبست الحق بالتجنى * عتبن فاستبدلن زيدا منى

ومنه قول عنترة

* وكتيبة لبستها بكتيبة * حتى اذا التبست نفضت لها يدى

وقيل هو مأخوذ من التغطية أى لاتغطوا الحق بالباطل ، ومنه قول الجعدى

اذا ما الضجيع ثنى جيدها * تثنت عليه وكانت لباسا

وقول الأخطل

وقد لبست لهذا الأمر أعصره * حتى تجلل رأسى الشيب فاشتعلا

والأوّل أولى * والباطل فى كلام العرب الزائل ، ومنه قول لبيد * ألا كل شىء ما خلا الله باطل * و بطل الشىء يبطل بطولا وبطلانا ، وأبطله غيره ، و يقال ذهب دمه بطلا أى هدرا ، والباطل الشيطان ، وسمى الشجاع بطلا لانه يبطل شجاعة صاحبه ، والمراد به هنا خلاف الحق * والباء فى قوله بالباطل يحتمل أن تكون صلة وأن تكون للاستعانة ، ذكر معناه فى الكشاف ، ورجح الرازى فى تفسيره الثانى * وقوله وتكتموا يجوز أن يكون داخلا تحت حكم النهى ، أو منصوبا باضمار أن ، وعلى الأوّل يكون كل واحد من اللبس والكتم منهيا عنه ، وعلى الثانى يكون المنهى عنه هو الجمع بين الأمرين ، ومن هذا يلوح رجحان دخوله تحت حكم النهى وأن كل واحد منهما لايجوز فعله على انفراده ، والمراد النهى عن كتم حجج الله التى أوجب عليهم تبليغها وأخذ عليهم بيانها ، ومن فسر اللبس أو الكتمان بشىء معين ، ومعنى خاص فلم يصب ان اراد أن ذلك هو المراد دون غيره لا ان أراد أنه مما يصدق عليه * وقوله ــ وأنتم تعلمون ــ جملة حالية ، وفيه أن كفرهم كفر عناد لا كفر جهل وذلك أغلظ للذنب وأوجب للعقوبة ، وهذا التقييد لايفيد جواز اللبس والكتمان مع الجهل لان الجاهل يجب عليه أن لايقدم على شىء حتى يعلم بحكمه خصوصا فى أمور الدين فان التكلم فيها والتصدى للاصدار والايراد فى أبوابها انما أذن الله به لمن كان رأسا فى العلم فردا فى الفهم ، وما للجهال والدخول فيما ليس من شأنهم والقعود فى غير مقاعدهم . وقد أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ــ يابنى اسرائيل ــ قال للاحبار من اليهود اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم أى بلائى عندكم وعند آبائكم لما كان نجاهم به من فرعون وقومه ــ وأوفوا بعهدى ــ الذى أخذت فى أعناقكم للنبى ﷺ اذا جاءكم ــ أوف بعهدكم ــ أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه بوضع ما كان عليكم من الاصر والاغلال ــ واياى فارهبون ــ أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات ــ وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولاتكونوا أوّل كافر به ــ وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم ــ وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ــ أى لاتكتموا ما عندكم من المعرفة برسولى و بما جاءكم به وأنتم تجدونه عندكم فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه * فى قوله ــ أوفوا بعهدى ــ يقول ما أمرتكم به من طاعتى ونهيتكم عنه من معصيتى فى النبى ﷺ وغيره ــ أوف بعهدكم ــ يقول أرض عنكم وأدخلكم الجنة . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود مثله . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد فى قوله ــ أوفوا بعهدى ــ قال هو الميثاق الذى أخذه عليهم فى سورة المائدة ــ لقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل ــ الآية . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال أوفوا لى بما افترضت عليكم أوف لكم بما وعدتكم . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الضحاك نحوه . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية * فى قوله ــ إياى فارهبون ــ قال فاخشون . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله ــ وآمنوا بما أنزلت ــ قال القرآن ــ مصدقا لما معكم ــ قال التوراة والانجيل . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج فى قوله ــ أوّل كافر به ــ قال بالقرآن . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى الآية قال يقول يامعشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت على محمد مصدقا لما معكم لأنهم يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل ولا تكونوا أوّل كافر به أى أوّل من

كفر بمحمد ولاتشتروا بآياتى يقول لاتأخذوا عليه أجرا قال وهو مكتوب عندهم فى الكتاب الأوّل يابن آدم علم مجانا كما علمت مجانا . وأخرج أبو الشيخ عنه قال لاتأخذ على ماعلمت أجرا انما أجر العلماء والحكماء والحلماء على الله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس * فى قوله ـ ولاتلبسوا الحق بالباطل ـ قال لاتخلطوا الصدق بالكذب وتكتموا الحق قال لاتكتموا الحق وأنتم قدعلمتم أن محمدا رسول الله . وأخرج عبدبن حميد عن قتادة فى قوله ـ ولا تلبسوا ـ الآية قال لاتلبسوا اليهودية والنصرانية بالاسلام وتكتموا الحق قال كتموا محمدا وهم يعلمون أنه رسول الله يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والأنجيل . وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال الحق التوراة والباطل الذى كتبوه بأيديهم .

وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَآتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ * أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ *

قد تقدم الكلام فى تفسير إقامة الصلاة واشتقاقها ، والمراد هنا الصلاة المعهودة ، وهى صلاة المسلمين على أن التعريف للعهد ، ويجوز أن تكون للجنس ، ومثلها الزكاة * والايتاء الاعطاء يقال آتيته أى أعطيته * والزكاة مأخوذة من الزكاء ، وهو النماء ، زكا الشىء اذا نما وزاد ، ورجل زكى أى زائد الخير ، وسمى إخراج جزء من المال زكاة أى زيادة مع أنه نقص منه ، لأنها تكثر بركته بذلك ، أو تكثر أجر صاحبه ، وقيل الزكاة مأخوذة من التطهير كما يقال زكا فلان أى طهر

والظاهر أن الصلاة والزكاة والحج والصوم ونحوها قد نقلها الشرع الى معان شرعية هى المرادة بما هو مذكور فى الكتاب والسنة منها . وقد تكلم أهل العلم على ذلك بما لايتسع المقام لبسطه ، وقد اختلف أهل العلم فى المراد بالزكاة هنا ، فقيل المراد المفروضة لاقترانها بالصلاة ، وقيل صدقة الفطر والظاهر أن المراد ماهو أعم من ذلك * والركوع فى اللغة الانحناء ، وكل منحن راكع ، قال لبيد

أخبر أخبار القرون التى مضت * أدبّ كأنى كلما قمت راكع

وقيل الانحناء يعم الركوع والسجود ، ويستعار الركوع أيضا للانحطاط فى المنزلة ، قال الشاعر

لاتهين الفقير علك أن * تركع يوما والدهر قد رفعه

وانما خص الركوع بالذكر هنا ، لان اليهود لاركوع فى صلاتهم ، وقيل لكونه كان ثقيلا على أهل الجاهلية وقيل انه أراد بالركوع جميع أركان الصلاة * والركوع الشرعى هو أن ينحنى الرجل ويمد ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه ثم يطمئن راكعا ذاكرا بالذكر المشروع * وقوله ـ مع الراكعين ـ فيه الارشاد الى شهود الجماعة والخروج الى المساجد . وقد ورد فى ذلك من الأحاديث الصحيحة الثابتة فى الصحيحين وغيرهما ماهو معروف . وقد أوجب حضور الجماعة بعض أهل العلم على خلاف بينهم فى كون ذلك عينا أو كفاية ، وذهب الجمهور الى أنه سنة مؤكدة مرغب فيها وليس بواجب ، وهو الحق للأحاديث الصحيحة الثابتة عن جماعة من الصحابة من أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة أو بسبع وعشرين درجة . وثبت فى الصحيح عنه ﷺ الذى يصلى مع الامام أفضل من الذى يصلى وحده ثم ينام ، والبحث طويل الذيول ، كثير النقول * والهمزة فى قوله ـ أتأمرون الناس بالبر ـ للاستفهام مع التوبيخ للمخاطبين ، وليس المراد توبيخهم على نفس الأمر بالبر فانه فعل حسن مندوب إليه بل بسبب ترك فعل البر المستفاد من قوله ـ وتنسون أنفسكم ـ مع التطهر بتزكية النفس والقيام فى مقام دعاة الخلق

الى

إلى الحق إيهاما للناس وتلبيسا عليهم كما قال أبو العتاهية

وصفت التقى حتى كأنك ذو تقى ﴿ وريح الخطايا من ثيابك يسطع

والبر الطاعة والعمل الصالح ، والبر سعة الخير والمعروف ، والبر الصدق ، والبر ولد الثعلب ، والبر سوق الغنم ، ومن اطلاقه على الطاعة قول الشاعر :

لاهمّ ربّ ان يكونوا دونكا ﴿ يبرك الناس و يفجرونكا

أى يطيعونك و يعصونك ﴿ والنسيان بكسر النون هو هنا بمعنى الترك أى وتتركون أنفسكم ، وفى الأصل خلاف الذكر والحفظ أى زوال الصورة التى كانت محفوظة عن المدركة والحافظة ﴿ والنفس الروح ، ومنه قوله تعالى ـ الله يتوفى الأنفس حين موتها ـ يريد الأرواح . وقال أبو خراش ﴿ نجا سالم والنفس منه بشدقه ﴿ والنفس أيضا الدم ﴿ ومنه قولهم سالت نفسه ، قال الشاعر :

تسيل على حد السيوف نفوسنا ﴿ وليس على غير الظبات تسيل

والنفس الجسد ، ومنه :

نبئت أن بنى سحيم ادخلوا ﴿ أبياتهم تأمور نفس المنذر

والتأمور البدن ﴿ وقوله ـ وأنتم تتلون الكتاب ـ جملة حالية مشتملة على أعظم تقريع وأشد توبيخ وأبلغ تبكيت ، أى كيف تتركون البر الذى تأمرون الناس به وأنتم من أهل العلم العارفين بقبح هذا الفعل وشدّة الوعيد عليه كما ترونه فى الكتاب الذى تتلونه والآيات التى تقرءونها من التوراة ﴿ والتلاوة القراءة وهى المراد هنا وأصلها الاتباع ، يقال تلوته اذا تبعته ، وسمى القارئ تاليا والقراءة تلاوة لانه يتبع بعض الكلام ببعض على النسق الذى هو عليه ﴿ وقوله ـ أفلا تعقلون ـ استفهام للانكار عليهم والتقريع لهم ، وهو أشدّ من الأوّل وأشدّ ماقرّع الله فى هذا الموضع من يأمر بالخير ولا يفعله من العلماء الذين هم غير عاملين بالعلم فاستنكر عليهم أوّلا أمرهم للناس بالبر مع نسيان أنفسهم فى ذلك الأمر الذى قاموا به فى المجامع ونادوا به فى المجالس ايهاما للناس بأنهم مبلغون عن الله ماتحملوه من حججه ومبينون لعباده ماأمرهم ببيانه وموصلون الى خلقه مااستودعهم وائتمنهم عليه وهم أترك الناس لذلك وأبعدهم من نفعه وأزهدهم فيه ، ثم ربط هذه الجملة بجملة أخرى جعلها مبينة لحالهم وكاشفة لعوارهم وهاتكة لأستارهم ، وهى أنهم فعلوا هذه الفعلة الشنيعة والخصلة الفظيعة على علم منهم ومعرفة بالكتاب الذى أنزل عليهم وملازمة لتلاوته ، وهم فى ذلك كما قال المعرّى

وانما حمل التوراة قارئها ﴿ كسب الفوائد لاحب التلاوات

ثم انتقل معهم من تقريع الى تقريع ، ومن توبيخ الى توبيخ . فقال انكم لولم تكونوا من أهل العلم وحملة الحجة ، وأهل الدراسة لكتب الله لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلا بينكم و بين ذلك ذائدا لكم عنه زاجرا لكم منه فكيف أهملتم مايقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجبه العلم ﴿ والعقل فى أصل اللغة المنع ومنه عقال البعير لانه يمنعه عن الحركة ، ومنه العقل فى الدية لانه يمنع ولى المقتول عن قتل الجانى ، والعقل نقيض الجهل و يصح تفسير مافى الآية هنا بما هو أصل معنى العقل عند أهل اللغة أى أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هذه الحال المزرية ، و يصح أن يكون معنى الآية ـ أفلا تنظرون ـ بعقولكم التى رزقكم الله اياها حيث لم تنتفعوا بما لديكم من العلم ﴿ وقوله ـ واستعينوا بالصبر ـ الصبر فى اللغة الحبس وصبرت نفسى على الشىء حبستها ﴿ ومنه قول عنترة :

فصبرت عارفة لذلك حرة ﴿ ترسو اذا نفس الجبان تطلع

والمراد هنا استعينوا بحبس أنفسكم عن الشهوات وقصرها على الطاعات على دفع مايرد عليكم من المكروهات . وقيل الصبر هنا هو خاص بالصبر على تكاليف الصلاة . واستدل هذا القائل بقوله تعالى

ـ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ـ وليس فى هـذا الصبر الخاص بهذه الآية ماينفى ماتفيده الألف واللام الداخلة على الصبر من الشمول ، كما أن المراد بالصلاة هنا جميع ماتصدق عليه الصلاة الشرعية من غير فرق بين فريضة ونافلة . واختلف المفسرون فى رجوع الضمير فى قوله ـ وانها لكبيرة ـ فقيل انه راجع إلى الصلاة وان كان المتقدم هو الصبر والصلاة فقد يجوز إرجاع الضمير إلى أحد الأمرين المتقدم ذكرهما * كما قال تعالى ـ والله ورسوله أحق أن يرضوه ـ اذا كان أحدهما داخلا تحت الآخر بوجه من الوجوه ، ومنه قول الشاعر :

ان شرخ الشباب والشعر الاسـ ـود مالم يعاض كان جنونا

ولم يقل مالم يعاضا بل جعل الضمير راجعا الى الشباب لأن الشعر الأسود داخل فيه . وقيل انه عائد الى الصلاة من دون اعتبار دخول الصبر تحتها لان الصبر هو عليها ، كما قيل سابقا . وقيل ان الضمير راجع الى الصلاة وان كان الصبر مرادا معها لكن لما كانت آكد وأعم تكليفا وأكثر ثوابا كانت الكناية بالضمير عنها ، ومنه قوله ـ والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله ـ كذا قيل . وقيل ان الضمير راجع إلى الأشياء المكنوزة . ومثل ذلك قوله تعالى ـ واذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا اليها ـ فأرجع الضمير هنا الى الفضة والتجارة لما كانت الفضة أعم نفعا وأكثر وجودا ، والتجارة هى الحاملة على الانفضاض والفرق بين هذا الوجه و بين الوجه الأوّل أن الصبر هناك جعل داخلا تحت الصلاة ، وهنا لم يكن داخلا وان كان مرادا . وقيل ان المراد الصبر والصلاة ولكن أرجع الضمير إلى أحدهما استغناء به عن الآخر * ومنه قوله تعالى ـ وجعلنا ابن مريم وأمه آية ـ أى ابن مريم آية وأمه آية . ومنه قول الشاعر :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله * فانى وقيار بها لغريب

وقال آخر

لكل همّ من الهموم سعه * والصبح والمساء لافلاح معه اهـ

وقيل رجع الضمير اليهما بعد تأويلهما بالعبادة ، وقيل رجع إلى المصدر المفهوم من قوله ـ واستعينوا ـ وهو الاستعانة ، وقيل رجع إلى جميع الأمور التى نهى عنها بنو اسرائيل * والكبيرة التى يكبر أمرها ، و يتعاظم شأنها على حاملها ، لما يجده عند تحملها والقيام بها من المشقة ، ومنه ـ كبر على المشركين ماتدعوهم إليه ـ * والخاشع هو المتواضع ، والخشوع التواضع . قال فى الكشاف والخشوع الاخبات والتطامن ، ومنه الخشعة للرملة المتطامنة . وأما الخضوع فاللين والانقياد ، ومنه خضعت بقولها اذا لينته انتهى . وقال الزجاج الخاشع الذى يرى أثر الذل والخشوع عليه كخشوع الدار بعد الأقوى ، ومكان خاشع لايهتدى اليه ، وخشعت الأصوات أى سكنت ، وخشع ببصره اذا غضه ، والخشعة قطعة من الأرض رخوة . وقال سفيان الثورى سألت الأعمش عن الخشوع فقال ياثورى أنت تريد أن تكون إماما للناس ولاتعرف الخشوع ليس الخشوع بأكل الخشن ، ولبس الخشن ، وتطأطئ الرأس ، لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنىء فى الحق سواء ، وتخشع لله فى كل فرض افترض عليك انتهى . وما أحسن ماقاله بعض المحققين فى بيان ماهيته . انه هيئة فى النفس يظهر منها فى الجوارح سكون وتواضع ، واستثنى سبحانه الخاشعين مع كونهم باعتبار استعمال جوارحهم فى الصلاة ، وملازمتهم لوظائف الخشوع الذى هو روح الصلاة ، واتعابهم لأنفسهم اتعابا عظيما فى الأسباب الموجبة للحضور والخضوع ، لأنهم لما يعلمونه من تضاعف الأجر وتوفر الجزاء ، والظفر بما وعد الله به من عظيم الثواب ، تسهل عليهم تلك المتاعب ، و يتذلل لهم مايرتكبونه من المصاعب ، بل يصير ذلك لذة لهم خالصة وراحة عندهم محضة ، ولأمرّما هان على قوم مايلاقونه من حرّ السيوف عند تصادم الصفوف وكانت الأمنية عندهم طعم المنية حتى قال قائلهم :

ولست أبالى حين أقتل مسلما * على أى جنب كان فى الله مصرعى

والظن هنا عند الجمهور بمعنى اليقين * ومنه قوله تعالى ـ إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ـ وقوله ـ وظنوا أنهم مواقعوها ـ ومنه قول دريد بن الصمة :

فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج * سراتهم بالفارسى المسوّد

وقيل ان الظن فى الآية على بابه ويضمر فى الكلام بذنوبهم فكأنهم توقعوا لقاءه مذنبين ، ذكره المهدوى والماوردى ، والأوّل أولى ، وأصل الظن الشك مع الميل الى أحد الطرفين وقد يقع موقع اليقين فى مواضع ، منها هذه الآية * ومعنى قوله ـ ملاقوا ربهم ـ ملاقوا جزائه ، والمفاعلة هنا ليست على بابها ولا أرى فى حمله على أصل معناه من دون تقدير المضاف بأسا * وفى هذا مع مابعده من قوله ـ وأنهم إليه راجعون ـ إقرار بالبعث وما وعد الله به فى اليوم الآخر . وقد أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله ـ واركعوا ـ قال صلوا . وأخرج ابن أبى حاتم أيضا عن مقاتل فى قوله ـ واركعوا مع الراكعين ـ قال أمرهم أن يركعوا مع أمة محمد ، يقول كونوا منهم ومعهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله تعالى ـ أتأمرون الناس بالبر ـ الآية قال أولئك أهل الكتاب كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب ولاينتفعون بما فيه . وأخرج الثعلبى والواحدى عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية فى يهود أهل المدينة كان الرجل منهم يقول لصهره ولذى قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين اثبت على الدين الذى أنت عليه وما يأمرك به هذا الرجل يعنون محمدا ﷺ فان أمره حق ، وكانوا يأمرون الناس بذلك ولايفعلونه . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله ـ أتأمرون الناس بالبر ـ قال بالدخول فى دين محمد . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوّة والعهد من التوراة وأنتم تكفرون بما فيها من عهدى إليكم فى تصديق رسلى . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير والبيهقى عن أبى الدرداء فى الآية . قال لايفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس فى ذات الله ، ثم يرجع الى نفسه فيكون لها أشدّ مقتا . وأخرج أحمد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية وابن حبان وابن مردويه والبيهقى عن أنس قال قال رسول الله ﷺ « رأيت ليلة أسرى بى رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت رجعت فقلت لجبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء خطباء من أمتك كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » ، وثبت فى الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق به أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون يافلان مالك ماأصابك ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه » وفى الباب أحاديث ، منها عن جابر مرفوعا عند الخطيب وابن النجار ، وعن الوليد بن عقبة مرفوعا عند الطبرانى والخطيب بسند ضعيف ، وعند عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عنه موقوفا ، ومعناها جميعا أنه يطلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم بما دخلتم النار وانما دخلنا الجنة بتعليمكم ، قالوا انا كنا نأمركم ولا نفعل . وأخرج الطبرانى والخطيب فى الاقتضاء والأصبهانى فى الترغيب بسند جيد عن جندب بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ « مثل العالم الذى يعلم الناس الخير ولايعمل به كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه » . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عنه نحوه . وأخرج الطبرانى والخطيب فى الاقتضاء عن أبى برزة مرفوعا نحوه . وأخرج ابن قانع فى معجمه والخطيب فى الاقتضاء عن سليك مرفوعا نحوه . وأخرج ابن سعد وابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد عن أبى الدرداء قال « ويل للذى لايعلم مرة ، ولوشاء الله لعلمه ، وويل للذى يعلم ولايعمل سبع مرات »

وأخرج أحمد فى الزهد عن عبد الله بن مسعود مثله ، وما أحسن ماأخرجه ابن مردويه والبيهقى فى شعب الايمان وابن عساكر عن ابن عباس أنه جاءه رجل فقال ياابن عباس انى أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر قال أو بلغت ذلك ؟ قال أرجو ، قال فان لم تخش أن تفتضح بثلاثة أحرف فى كتاب الله فافعل قال وماهنّ ؟ قال قوله عز وجل ـ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ـ أحكمت هذه الآية ؟ قال لا قال فالحرف الثانى ، قال قوله تعالى ـ لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ـ أحكمت هذه الآية ؟ قال لا قال فالحرف الثالث ، قال قول العبد الصالح شعيب ـ ماأريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه ـ أحكمت هذه الآية ؟ قال لا قال فابدأ بنفسك . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله تعالى ـ واستعينوا بالصبر والصلاة ـ قال انهما معونتان من الله فاستعينوا بهما . وقد أخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب الصبر وأبو الشيخ فى الثواب والديلمى فى مسند الفردوس عن علىّ قال قال رسول الله ﷺ « الصبر ثلاثة ، فصبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية » . وقد وردت أحاديث كثيرة فى مدح الصبر والترغيب فيه والجزاء للصابرين ولم نذكرها هنا لأنها ليست بخاصة بهذه الآية بل هى واردة فى مطلق الصبر وقد ذكر السيوطى فى الدرّ المنثور هاهنا منها شطرا صالحا ، وفى الكتاب العزيز من الثناء على ذلك والترغيب فيه الكثير الطيب . وأخرج أحمد وأبو داود وابن جرير عن حذيفة قال كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . وأخرج أحمد والنسائى وابن حبان عن صهيب عن النبى ﷺ قال كانوا يعنى الأنبياء يفزعون اذا فزعوا إلى الصلاة . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن عساكر عن أبى الدرداء مرفوعا نحو حديث حذيفة . وأخرج سعيد ابن منصور وابن المنذر والحاكم والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن عباس أنه كان فى مسير له فنعى إليه ابن له فنزل فصلى ركعتين ثم استرجع نقال فعلنا كما أمرنا الله فقال ـ واستعينوا بالصبر والصلاة ـ . وقد روى عنه نحو ذلك سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والبيهقى لما نعى إليه أخوه قثم . وقد روى نحو ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين * وأخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله ـ وانها لكبيرة ـ قال لثقيلة وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ إلا على الخاشعين ـ قال المؤمنين حقا . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله ـ إلا على الخاشعين ـ قال الخائفين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال كل ظن فى القرآن فهو يقين ، ولا يتم هذا فى مثل قوله ـ إن الظن لا يغنى من الحق شيئا . وقوله ـ إن بعض الظن إثم ـ ولعله يريد الظن المتعلق بأمور الآخرة كما رواه ابن جرير عن قتادة قال ما كان من ظن الآخرة فهو علم * وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله ـ وأنهم إليه راجعون ـ قال يستيقنون أنهم يرجعون إليه يوم القيامة .

يَٰبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ *

قوله ـ يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ـ قد تقدم تفسيره ، وانما كرر ذلك سبحانه توكيدا للحجة عليهم وتحذيرا لهم من ترك اتباع محمد ﷺ ، ثم قرنه بالوعيد وهو قوله ـ واتقوا يوما ـ * وقوله ـ وأنى فضلتكم ـ معطوف على مفعول اذكروا أى اذكروا نعمتى وتفضيلى لكم على العالمين ، قيل المراد بالعالمين

عالم زمانهم ، وقيل على جميع العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء . وقال فى الكشاف على الجم الغفير من الناس كقوله ـ باركنا فيها للعالمين ـ يقال رأيت عالما من الناس يراد الكثرة انتهى . قال الرازى فى تفسيره وهذا ضعيف لان لفظ العالم مشتق من العلم وهو الدليل ، وكل ماكان دليلا على الله كان علما وكان من العالم وهذا تحقيق قول المتكلمين : العالم كل موجود سوى الله ، وعلى هذا لايمكن تخصيص لفظ العالم ببعض المحدثات انتهى * وأقول هذا الاعتراض ساقط ، أما أوّلا فدعوى اشتقاقه من العلم لابرهان عليه ، وأما ثانيا فلو سلمنا صحة هذا الاشتقاق كان المعنى موجودا بما يتحصل معه مفهوم الدليل على الله الذى يصح إطلاق اسم العلم عليه وهو كائن فى كل فرد من أفراد المخلوقات التى يستدلّ بها على الخالق ، وغايته أن جمع العالم يستلزم أن يكونوا مفضلين على أفراد كثيرة من المحدثات ، وأما انهم مفضلون على كل المحدثات فى كل زمان فليس فى اللفظ مايفيد هذا ولا فى اشتقاقه مايدل عليه ، وأما من جعل العالم أهل العصر ، فغايته أن يكونوا مفضلين على أهل عصور لاعلى أهل كل عصر فلا يستلزم ذلك تفضيلهم على أهل العصر الذين فيهم نبينا ﷺ ولاعلى مابعده من العصور ، ومثل هذا الكلام ينبغى استحضاره عند تفسير قوله تعالى ـ إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين ـ وعند قوله تعالى ـ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ـ وعند قوله تعالى ـ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ـ * فان قيل ان التعريف فى العالمين يدل على شموله لكل عالم * قلت لو كان الأمر هكذا لم يكن ذلك مستلزما لكونهم أفضل من أمة محمد ﷺ لقوله تعالى ـ كنتم خير أمة أخرجت للناس ـ فان هذه الآية ونحوها تكون مخصصة لتلك الآيات * وقوله ـ واتقوا يوما ـ أمر معناه الوعيد ، وقد تقدم معنى التقوى . والمراد باليوم يوم القيامة أى عذابه * وقوله ـ لاتجزى نفس عن نفس شيئا ـ فى محل نصب صفة ليوم ، والعائد محذوف . قال البصريون فى هذا وأمثاله تقديره فيه . وقال الكسائى هذا خطأ بل التقدير لاتجزيه ، لأن حذف الظرف لايجوز ، ويجوز حذف الضمير وحده . وقد روى عن سيبويه والأخفش والزجاج جواز الأمرين ، ومعنى لاتجزى لاتكفى وتقضى ، يقال جزاعنى هذا الأمر يجزى أى قضى واجتزأت بالشىء أجتزى أى اكتفيت ، ومنه قول الشاعر

فان الغدر فى الأقوام عار * وان الحر يجزى بالكراع

والمراد أن هذا اليوم لاتقضى نفس عن نفس شيئا ولاتكفى عنها ، ومعنى التنكير التحقير أى شيئا يسيرا حقيرا ، وهو منصوب على المفعولية أو على أنه صفة مصدر محذوف أى جزاء حقيرا * والشفاعة مأخوذة من الشفع وهو الاثنان تقول استشفعته أى سألته أن يشفع لى أى يضم جاهه إلى جاهك عند المشفوع إليه ليصل النفع إلى المشفوع له ، وسميت الشفعة شفعة لانك تضم ملك شريكك إلى ملكك . وقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو تقبل بالمثناة الفوقية لأن الشفاعة مؤنثة ، وقرأ الباقون بالياء التحتية لأنها بمعنى الشفيع . قال الأخفش الأحسن التذكير * وضميرمنها يرجع الى النفس المذكورة ثانيا أى إن جاءت بشفاعة شفيع ، ويجوز أن يرجع إلى النفس المذكورة أوّلا أى اذا شفعت لم يقبل منها * والعدل بفتح العين الفداء وبكسرها المثل . يقال عدل وعديل للذى ماثل فى الوزن والقدر . وحكى ابن جرير أن فى العرب من يكسر العين فى معنى الفدية * والنصر العون ، والأنصار الاعوان ، وانتصر الرجل انتقم ، والضمير أى هم يرجع إلى النفوس المدلول عليها بالنكرة فى سياق النفى ، والنفس تذكر وتؤنث * وقوله ـ إذ نجيناكم ـ متعلق بقوله ـ اذكروا ـ * والنجاة النجوة من الأرض وهى ماارتفع منها ، ثم سمى كل فائز ناجيا * وآل فرعون قومه ، وأصل آل أهل بدليل تصغيره على أهيل ، وقيل غير ذلك ، وهو يضاف إلى ذوى الخطر . قال الأخفش انما يقال فى الرئيس الأعظم نحو آل محمد . ولايضاف إلى البلدان فلا يقال من آل المدينة ، وقال الأخفش قد سمعناه فى البلدان قالوا آل المدينة ، واختلفوا هل يضاف إلى المضمر أم لا فمنعه قوم وسوّغه آخرون وهو الحق ، ومنه قول عبد المطلب

وانصر على آل الصليــــب وعابديه اليوم آلك

وفرعون قيل هو اسم ذلك الملك بعينه ، وقيل انه اسم لكل ملك من ملوك العمالقة كما يسمى من ملك الفرس كسرى ، ومن ملك الروم قيصر ، ومن ملك الحبشة النجاشي * واسم فرعون موسى المذكور هنا قابوس فى قول أهل الكتاب . وقال وهب اسمه الوليد بن مصعب بن الريان . قال المسعودى لايعرف لفرعون تفسير بالعربية . وقال الجوهرى ان كل عات يقال له فرعون وقد تفرعن وهوذوفرعنة أى دهاء ومكر . وقال فى الكشاف تفرعن فلان اذاعتا وتجبر * ومعنى قوله ـ يسومونكم ـ يولونكم . قاله أبو عبيدة ، وقيل يذيقونكم ويلزمونكم إياه ، وأصل السوم الدوام ، ومنه سائمة الغنم لمداومتها الرعى ، ويقال سامه خطة خسف إذا أولاه إياها . وقال فى الكشاف أصله من سام السلعة إذا طلبها ، كأنه بمعنى يبغونكم سوء العذاب ويريدونكم عليه انتهى * وسوء العذاب أشدّه ، وهو صفة مصدر محذوف أى يسومونكم سوما سوء العذاب ، ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا ، وهذه الجملة فى محل رفع على أنها خبر لمبتدا مقدّر ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على الحال أى سائمين لكم * وقوله ـ يذبحون ـ ومابعده بدل من قوله ـ يسومونكم ـ وقال الفراء انه تفسير لما قبله ، وقرأه الجماعة بالتشديد ، وقرأ ابن محيصن بالتخفيف * والذبح فى الأصل الشقّ وهوفرى أوداج المذبوح * والمراد بقوله تعالى ـ ويستحيون نساءكم ـ يتركونهنّ أحياء ليستخدموهنّ ويمتهنوهنّ ، وانما أمر بذبح الأبناء واستحياء البنات . لأن الكهنة أخبروه بأنه يولد مولود يكون هلاكه على يده ، وعبر عن البنات باسم النساء لأنه جنس يصدق على البنات . وقالت طائفة انه أمر بذبح الرجال واستدلوا بقوله ـ نساءكم ـ والأوّل أصح بشهادة السبب ، ولا يخفى مافى قتل الأبناء واستحياء البنات للخدمة ونحوها من إنزال الذل بهم وإلصاق الاهانة الشديدة بجميعهم لما فى ذلك من العار * والاشارة بقوله ـ وفى ذلكم ـ إلى جملة الأمر * والبلاء يطلق تارة على الخير ، وتارة على الشر ، فان أريد به هنا الشر كانت الاشارة بقوله ـ وفى ذلكم بلاء ـ إلى ماحلّ بهم من النقمة بالذبح ونحوه ، وان أريد به الخير كانت الاشارة إلى النعمة التى أنعم الله عليهم بالانجاء وماهو مذكور قبله من تفضيلهم على العالمين . وقد اختلف السلف ومن بعدهم فى مرجع الاشارة فرجح الجمهور الأوّل ، ورجح الآخرون الآخر . قال ابن جرير وأكثر ما يقال فى الشر بلوته أبلوه بلاء ، وفى الخير أبليه ابلاء وبلاء ، قال زهير

جزى الله بالاحسان مافعلا بكم * وأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

قال فجمع بين اللغتين لانه أراد فأنعم عليهما خير النعم التى يختبر بها عباده * وقوله ـ وإذ فرقنا ـ متعلق بماتقدم من قوله ـ اذكروا ـ * وفرقنا فلقنا ، وأصل الفرق الفصل ، ومنه فرق الشعر ، وقرأ الزهرى فرقنا بالتشديد ، والباء فى قوله بكم قيل هى بمعنى اللام أى لكم ، وقيل هى الباء السببية أى فرقناه بسببكم ، وقيل ان الجار والمجرور فى محل الحال أى فرقناه متلبسا بكم ، والمراد ههنا أن فرق البحر كان بهم أى بسبب دخولهم فيه أى لما صاروا بين الماءين صار الفرق بهم * وأصل البحر فى اللغة الاتساع أطلق على البحر الذى هو مقابل البر لما فيه من الاتساع بالنسبة الى النهر والخليج ، ويطلق على الماء المالح ، ومنه أبحر الماء اذا ملح ، قال نصيب :

وقد عاد ماء الأرض بحرا فزادنى * إلى مرضى أن أبحر المشرب العذب

وقوله ـ فأنجيناكم ـ أى أخرجناكم منه ـ وأغرقنا آل فرعون ـ فيه * وقوله ـ وأنتم تنظرون ـ فى محل نصب على الحال أى حال كونكم ناظرين إليهم بأبصاركم ، وقيل معناه وأنتم تنظرون أى ينظر بعضكم إلى البعض الآخر من السالكين فى البحر . وقيل نظروا إلى أنفسهم ينجون وإلى آل فرعون يغرقون * والمراد بآل فرعون هنا هو وقومه وأتباعه . وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب

انه

انه كان إذا تلا ـ اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ـ قال مضى القوم وانما يعنى به أنتم . وأخرج ابن جرير عن سفيان بن عيينة قال فى قوله ـ اذكروا نعمتى ـ هى أيادى الله وأيامه . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال نعمة الله التى أنعم بها على بنى إسرائيل فيما سمى وفيما سوى ذلك ، فجر لهم الحجر وأنزل عليهم المنّ والسلوى وأنجاهم من عبودية آل فرعون . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة فى قوله ـ وأنى فضلتكم على العالمين ـ قال فضلوا على العالم الذى كانوا فيه ، ولكل زمان عالم . وأخرج عبد ابن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وابن جرير عن أبى العالية فى قوله ـ فضلتكم على العالمين ـ قال بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على من كان فى ذلك الزمان فان لكل زمان عالما . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله ـ لاتجزى نفس عن نفس شيئا ـ قال لاتغنى نفس مؤمنة عن نفس كافرة من المنفعة شيئا . وأخرج ابن جرير عن عمرو بن قيس الملائى عن رجل من بنى أمية من أهل الشام أحسن الثناء عليه . قال قيل يارسول الله ماالعدل ؟ قال العدل الفدية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس نحوه . قال ابن أبى حاتم وروى عن أبى مالك والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك . وأخرج عبد الرزاق عن علىّ فى تفسير الصرف والعدل قال التطوّع والفريضة قال ابن كثير وهذا القول غريب ههنا ، والقول الأوّل أظهر فى تفسير هذه الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال قالت الكهنة لفرعون انه يولد فى هذا العام مولود يذهب بملكه ، فجعل فرعون على كل ألف امرأة مائة رجل وعلى كل مائة عشرة وعلى كل عشر رجلا فقال انظروا كل امرأة حامل فى المدينة فاذا وضعت حملها فان كان ذكرا فاذبحوه وان كان أنثى فخلوا عنها وذلك قوله ـ يذبحون أبناءكم و يستحيون نساءكم ـ وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله ـ يسومونكم سوء العذاب ـ قال ان فرعون ملكهم أربعمائة سنة . فقالت له الكهنة انه سيولد العام بمصر غلام يكون هلاكك على يديه فبعث فى أهل مصر نساء قوابل فاذا ولدت امرأة غلاما أتى به فرعون فقتله ، و يستحيى الجوارى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ بلاء من ربكم عظيم ـ يقول نقمة . وأخرج وكيع عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله ـ و إذ فرقنا بكم البحر ـ فقال إى والله لفرق البحر بينهم حتى صار طريقا يبسا يمشون فيه فأنجاهم الله وأغرق آل فرعون عدوّهم . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال ماهذا اليوم ؟ قالوا هذا يوم صالح نجى الله فيه بنى اسرائيل من عدوّهم فصامه موسى ، فقال رسول الله ﷺ نحن أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصومه . وقد أخرج الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية عن سعيد بن جبير أن هرقل كتب إلى معاوية يسأله عن أمور منها عن البقعة التى لم تصبها الشمس الاساعة ، فكتب معاوية إلى ابن عباس فأجابه عن تلك الأمور وقال وأما البقعة التى لم تصبها الشمس إلا ساعة من نهار فالبحر الذى أفرج عن بنى اسرائيل ولعله سيأتى ان شاء الله تعالى زيادة على ماهنا عند تفسير قوله تعالى ـ أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ـ .

وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ *

قرأ أبو عمرو ــ وعدنا ــ بغير ألف ورجحه أبو عبيد وأنكر واعدنا قال لأن المواعدة انما تكون من البشر ، فاما من الله فانما هو التفرد بالوعد على هذا وجدنا القرآن كقوله ــ وعدكم وعد الحق ــ وقوله ــ واذ يعدكم الله إحدى الطائفتين ــ ومثله ، قال أبو حاتم ومكى ، وانما قالوا هكذا نظرا الى أصل المفاعلة أنها تفيد الاشتراك فى أصل الفعل وتكون من كل واحد من المتواعدين ونحوهما ولكنها قد تأتى للواحد فى كلام العرب كما فى قولهم داويت العليل وعاقبت اللص وطارقت النعل وذلك كثير فى كلامهم ، وقرأه الجمهور ــ واعدنا ــ قال النحاس وهى أجود وأحسن وليس قوله ــ وعد الله الذين آمنوا ــ من هذا فى شىء لأن واعدنا موسى انما هو من باب الموافاة وليس هو من الوعد والوعيد فى شىء وانما هو من قولك موعدك يوم الجمعة وموعدك موضع كذا ، والفصيح فى هذا أن يقال واعدته قال الزجاج واعدنا بالالف ههنا جيد لان الطاعة فى القبول بمنزلة المواعدة فمن الله سبحانه وعد ومن موسى قبول * قوله ــ أربعين ليلة ــ قال الزجاج التقدير تمام أربعين ليلة ، وهى عند أكثر المفسرين ذو القعدة وعشر من ذى الحجة ، وانما خص الليالى بالذكر دون الأيام لان الليلة أسبق من اليوم فهى قبله فى الرتبة * ومعنى قوله ــ ثم اتخذتم العجل ــ أى جعلتم العجل إلها من بعده أى من بعد مضىّ موسى الى الطور . وقد ذكر بعض المفسرين أنهم عدوا عشرين يوما وعشرين ليلة وقالوا قد اختلف موعده فاتخذوا العجل ، وهذا غير بعيد منهم ، فقد كانوا يسلكون طرائق من التعنت خارجة عن قوانين العقل مخالفة لما يخاطبون به بل و يشاهدونه بأبصارهم ، فلا يقال كيف تعدون الأيام والليالى على تلك الصفة ، وقد صرح لهم فى الوعد بانها أربعون ليلة ، وانما سماهم ظالمين لانهم أشركوا بالله وخالفوا موعد نبيهم عليه السلام ، والجملة فى موضع نصب على الحال * وقوله ــ من بعد ذلك ــ أى من بعد عبادتكم العجل ، وسمى العجل عجلا لاستعجالهم عبادته كذا قيل ، وليس بشىء لان العرب تطلق هذا الاسم على ولد البقر . وقد كان جعله لهم السامرىّ على صورة العجل * وقوله ــ لعلكم تشكرون ــ أى لكى تشكروا ما أنعم الله به عليكم من العفو عن ذنبكم العظيم الذى وقعتم فيه * وأصل الشكر فى اللغة الظهور من قولهم دابة شكور اذا ظهر عليها من السمن فوق ما تعطى من العلف ، قال الجوهرى الشكر الثناء على المحسن بما أولاك من المعروف ، يقال شكرته وشكرت له ، و باللام أفصح ، وقد تقدّم معناه ، والشكران خلاف الكفران * والكتاب التوراة بالاجماع من المفسرين * واختلفوا فى الفرقان ، وقال الفراء وقطرب : المعنى آتينا موسى التوراة ومحمدا الفرقان . وقد قيل ان هذا غلط أوقعهما فيه أن الفرقان مختص بالقرآن وليس كذلك فقد قال تعالى ــ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ــ وقال الزجاج ان الفرقان هو الكتاب أعيد ذكره تأكيدا . وحكى نحوه عن الفراء ، ومنه قول عنترة .

حييت من طلل تقادم عهده * أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

وقيل ان الواو صلة والمعنى آتينا موسى الكتاب الفرقان والواو قد تزاد فى النعوت كقول الشاعر :

الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم

وقيل المعنى أن ذلك المنزل جامع بين كونه كتابا وفارقا بين الحق والباطل ، وهو كقوله ــ ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء ــ وقيل الفرقان الفرق بينهم و بين قوم فرعون أنجى هؤلاء ، وأغرق هؤلاء ، وقال ابن زيد الفرقان انفراق البحر ، وقيل الفرقان الفرج من الكرب ، وقيل انه الحجة والبيان بالآيات التى أعطاه الله من العصا واليد وغيرهما ، وهذا أولى وأرجح ويكون العطف على بابه كأنه قال آتينا موسى التوراة والآيات التى أرسلناه بها معجزة له * قوله ــ ياقوم ــ القوم يطلق تارة على الرجال دون النساء ، ومنه قول زهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقوم آل حصن أم نساء

ومنه قوله تعالى ــ لايسخر قوم من قوم ــ ثم قال ــ ولانساء من نساء ــ ومنه ــ ولوطا اذ قال

لقومه ـ أراد الرجال ، وقد يطلق على الجميع كقوله تعالى ـ إنا أرسلنا نوحا الى قومه ـ والمراد هنا بالقوم عبدة العجل * والبارئ الخالق ، وقيل ان البارئ هو المبدع المحدث ، والخالق هو المقدّر الناقل من حال الى حال ، وفى ذكر البارئ هنا إشارة الى عظيم جرمهم أى فتوبوا الى الذى خلقكم وقد عبدتم معه غيره * والفاء فى قوله فتوبوا للسببية أى لتسبب التوبة عن الظلم ، وفى قوله فاقتلوا للتعقيب أى اجعلوا القتل متعقبا للتوبة قال القرطبى وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بان يقتل نفسه بيده ، قيل قاموا صفين ، وقتل بعضهم بعضا ، وقيل وقف الذين عبدوا العجل ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم * وقوله ـ فتاب عليكم ـ قيل فى الكلام حذف أى ففعلتم أنفسكم فتاب عليكم أى على الباقين منكم . وقيل هو جواب شرط محذوف كأنه قال فان فعلتم فقد تاب عليكم . وأما ماقاله صاحب الكشاف من انه يجوز أن يكون خطابا من الله لهم على طريقة الالتفات فيكون التقدير ففعلتم ماأمركم به موسى فتاب عليكم باروكم فهو بعيد جدا كما لايخفى . وقد أخرج ابن جرير عن أبى العالية * فى قوله ـ أربعين ليلة ـ قال ذا القعدة وعشرا من ذى الحجة * وأخرج ابن جرير عنه فى قوله ـ من بعد ذلك ـ قال معنى من بعد مااتخذتم العجل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد * فى قوله ـ واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان ـ قال الكتاب هو الفرقان فرق بين الحق والباطل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال الفرقان جماع اسم التوراة والانجيل والزبور والقرآن . وأخرج ابن جرير عنه قال أمر موسى قومه عن أمر ربه أن يقتلوا أنفسهم واختبأ الذين عكفوا على العجل فجلسوا وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضا فانجلت الظلمة عنهم عن سبعين ألف قتيل ، كل من قتل منهم كانت له توبة وكل من بقى كانت له توبة . وأخرج ابن أبى حاتم عن على قال قالوا لموسى ماتوبتنا ؟ قال يقتل بعضكم بعضا فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه لايبالى من قتل حتى قتل منهم سبعون ألفا فأوحى الله الى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم وقد غفر لمن قتل وتيب على من بقى . وقد أخرج عبد بن حميد عن قتادة ، وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير عن الزهرى نحوا مما سبق ، وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية * فى قوله الى بارئكم قال خالقكم .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *

* قوله ـ واذ قلتم ـ هذه الجملة معطوفة على التى قبلها ، وظاهر السياق أن القائلين هذه المقالة هم قوم موسى ، وقيل هم السبعون الذين اختارهم ، وذلك أنهم لما سمعوا كلام الله قالوا له بعد ذلك هذه المقالة فأرسل الله عليهم نارا فأحرقتهم ثم دعا موسى ربه فأحياهم كما قال تعالى هنا ـ ثم بعثناكم من بعد موتكم ـ وسيأتى ذلك فى الأعراف ان شاء الله * والجهرة المعاينة ، وأصلها الظهور ومنه الجهر بالقراءة والمجاهرة بالمعاصى ، ورأيت الأمر جهرة وجهارا أى غير مستتر بشىء وهى مصدر واقع موقع الحال ، وقرأ ابن عباس جهرة بفتح الهاء وهى لغتان مثل زهرة وزهرة ، ويحتمل أن يكون على هذه القراءة جمع جاهر * والصاعقة قد تقدّم تفسيرها وقرأ عمر وعثمان وعلىّ الصعقة وهى قراءة ابن محيصن ، والمراد بأخذ الصاعقة إصابتها اياهم ـ وأنتم تنظرون ـ فى محل نصب على الحال والمراد من هذا النظر الكائن منهم أنهم نظروا أوائل الصاعقة النازلة بهم الواقعة عليهم لا آخرها الذى ماتوا عنده ، وقيل المراد بالصاعقة الموت واستدل عليه بقوله ـ ثم بعثناكم من بعد موتكم ـ ولا موجب للمصير الى هذا

التفسير لان المصعوق قد يموت كما فى هذه الآية وقد يغشى عليه ثم يفيق كما فى قوله تعالى ـ وخرّ موسى صعقا فلما أفاق ـ ومما يوجب بعد ذلك قوله ـ وأنتم تنظرون ـ فانها لو كانت الصاعقة عبارة عن الموت لم يكن لهذه الجملة كبير معنى ، بل قد يقال انه لايصح أن ينظروا الموت النازل بهم الا أن يكون المراد نظر الأسباب المؤثرة للموت * والمراد بقوله ثم بعثنا كم الاحياء لهم لوقوعه بعد الموت ، وأصل البعث الاثارة للشىء من محله ، يقال بعثت الناقة أى أثرتها ، ومنه قول امرئ القيس :

واخوان صدق قد بعثت بسحرة * فقاموا جميعا بين غاث ونشوان

وقول عنترة

وصحابة شمّ الانوف بعثتهم * ليلا وقد مال الكرى بطلاها

وانما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم لانهم طلبوا مالم يأذن الله به من رؤيته فى الدنيا ، وقد ذهبت المعتزلة ومن تابعهم إلى انكار الرؤية فى الدنيا والآخرة ، وذهب من عداهم إلى جوازها فى الدنيا والآخرة ووقوعها فى الآخرة . وقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم فى الآخرة وهى قطعية الدلالة لاينبغى لمنصف أن يتمسك فى مقابلها بتلك القواعد الكلامية التى جاء بها قدماء المعتزلة ، وزعموا أن العقل قد حكم بها دعوى مبنية على شفا جرف هار ، وقواعد لايغترّ بها إلا من لم يحظ من العلم النافع بنصيب ، وسيأتيك ان شاء الله بيان ماتمسكوا به من الأدلة القرآنية ، وكلها خارج عن محل النزاع بعيد من موضع الحجة ، وليس هذا موضع المقال فى هذه المسئلة * قوله ـ وظللنا عليكم الغمام ـ أى فعلناه كالظلة * والغمام جمع غمامة كسحابة وسحاب قاله الأخفش ، قال الفراء ويجوز غمائم . وقد ذكر المفسرون أن هذا جرى فى التيه بين مصر والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين * والمنّ قيل هو الترنجبين . قال النحاس هو بتشديد الراء وإسكان النون ، ويقال الطرنجبين بالطاء وعلى هذا أكثر المفسرين وهو طلّ ينزل من السماء على شجر أو حجر ويحلو وينعقد عسلا ويجف جفاف الصمغ ذكر معناه فى القاموس ، وقيل ان المنّ العسل ، وقيل شراب حلو ، وقيل خبز الرقاق ، وقيل انه مصدر يعم جميع مامنّ الله به على عباده من غير تعب ولا زرع ، ومنه ماثبت فى صحيح البخارى ومسلم من حديث أبى سعيد بن زيد عن النبى ﷺ ان الكمأة من المنّ الذى أنزل على موسى . وقد ثبت مثله من حديث أبى هريرة عند أحمد والترمذى ومن حديث جابر وأبى سعيد وابن عباس عند النسائى * والسلوى قيل هو السمانى كحبارى طائر يذبحونه فيأكلونه قال ابن عطية السلوى طير باجماع المفسرين ، وقد غلط الهذلى فقال :

وقاسمهما بالله جهدا لأنتما * ألذّ من السلوى اذا ماأشورها

ظنّ أن السلوى العسل . قال القرطبى مادعاه من الاجماع لايصح . وقد قال المؤرج أحد علماء اللغة والتفسير انه العسل . واستدل ببيت الهذلى وذكر أنه كذلك بلغة كنانة وأنشد :

لو شربت السلوى ماسلوت * مابى غنا عنك وان غنيت

وقال الجوهرى والسلوى العسل . قال الأخفش السلوى لاواحد له من لفظه مثل الخير والشر وهو يشبه أن يكون واحده سلوى . وقال الخليل واحده سلواة وأنشد :

وانى لتعرونى لذكراك سلوة * كما انتفض السلواة من سلكه القطر اهـ

وقال الكسائى السلوى واحدة وجمعه سلاوى * وقوله ـ كلوا ـ أى قلنا لهم كلوا ، وفى الكلام حذف ، والتقدير قلنا كلوا فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر فظلموا أنفسهم وما ظلمونا فحذف هذا لدلالة ـ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ـ عليه ، وتقديم الأنفس هنا يفيد الاختصاص . وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس * فى قوله ـ حتى نرى الله جهرة ـ قال علانية . وأخرج ابن جرير

وابن

وابن أبى حاتم عن أنس قال هم السبعون الذين اختارهم موسى ـ فأخذتكم الصاعقة ـ قال ماتوا * ثم بعثناكم من بعد موتكم . قال فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله ـ ثم بعثناكم ـ نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله ـ وظللنا عليكم الغمام ـ قال غمام أبرد من هذا وأطيب ، وهو الذى يأتى الله فيه يوم القيامة ، وهو الذى جاءت فيه الملائكة يوم بدر وكان معهم فى التيه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله ـ وظللنا عليكم الغمام ـ قال كان هذا الغمام فى البرية ظلل عليهم الغمام من الشمس ، وأطعمهم المنّ والسلوى حين برزوا الى البرية فكان المنّ يسقط عليهم فى محلتهم سقوط الثلج أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس فيأخذ الرجل قدر مايكفيه يومه ذلك فان تعدى ذلك فسد مايبقى عنده حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعته أخذ مايكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه فبقى عنده لانه كان يوم عيد لايشخص فيه لأمر المعيشة ولا لطلبة شىء ، وهذا كله فى البرية . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عكرمة قال المنّ شىء أنزل الله عليهم مثل الطل ، والسلوى طير أكبر من العصفور . وأخرج وكيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال المنّ صمغة ، والسلوى طائر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال قالوا ياموسى كيف لنا بما هاهنا أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المنّ فكان يسقط على الشجرة الترنجبين . وأخرجوا عن وهب أنه سئل ما المنّ ؟ قال خبز الرقاق مثل الذرة أو مثل النقىّ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس قال المنّ شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال كان المنّ ينزل عليهم بالليل على الأشجار فيغدون اليه فيأكلون منه ماشاءوا . والسلوى طائر يشبه السمانى كانوا يأكلون منه ماشاءوا . وأخرج ابن جرير عنه نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى السلوى مثله . وقد روى نحو ذلك عن جماعة من التابعين ومن بعدهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ وما ظلمونا ـ قال نحن أعزّ من أن نظلم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ـ قال يضرون .

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ *

قال جمهور المفسرين القرية هى بيت المقدس . وقيل انها أريحاء قرية من قرى بيت المقدس . وقيل من قرى الشام * وقوله ـ كلوا ـ أمر اباحة * ـ ورغدا ـ كثيرا واسعا ، وهو نعت لمصدر محذوف أى أكلا رغدا ويجوز أن يكون فى موضع الحال . وقد تقدّم تفسيره * والباب الذى أمروا بدخوله هو باب فى بيت المقدس يعرف اليوم بباب حطة ، وقيل هو باب القبة التى كان يصلى اليها موسى و بنو اسرائيل * والسجود قد تقدم تفسيره ، وقيل هو هنا الانحناء ، وقيل التواضع والخضوع واستدلوا على ذلك بأنه لو كان المراد السجود الحقيقى الذى هو وضع الجبهة على الأرض لامتنع الدخول المأمور به لأنه لايمكن الدخول حال السجود الحقيقى وقال فى الكشاف انهم أمروا بالسجود عند الانتهاء الى الباب شكرا لله وتواضعا * واعترضه أبو حيان فى النهر المادّ فقال لم يؤمروا بالسجود بل هو قيد فى وقوع المأمور به وهو الدخول ، والأحوال نسب تقييدية والأوامر نسب اسنادية انتهى * ويجاب عنه بأن الأمر بالمقيد أمر بالقيد فمن قال اخرج مسرعا فهو آمر

بالخروج على هذه الهيئة فلو خرج غير مسرع كان عند أهل اللسان مخالفا للامر ، ولا ينافى هذا كون الأحوال نسبا تقييدية فان اتصافها بكونها قيودا مأمورا بها هو شيء زائد على مجرد التقييد * وقوله حطة بالرفع فى قراءة الجمهور على اضمار مبتدأ ، قال الأخفش وقرئت حطة نصبا على معنى احطط عنا ذنوبنا حطة ، وقيل معناها الاستغفار ، ومنه قول الشاعر :

فاز بالحطة التى أمر الله بها ذنب عبده مغفورا

وقال ابن فارس فى المجمل ـ حطة ـ كلمة أمروا بها ولو قالوها لحطت أوزارهم . قال الرازى فى تفسيره أمرهم بأن يقولوا مايدل على التوبة ، وذلك لان التوبة صفة القلب فلا يطلع الغير عليها ، واذا اشتهر وأخذ بالذنب ثم تاب بعده لزمه أن يحكى توبته لمن شاهد منه الذنب ، لان التوبة لاتتم إلا به انتهى * وكون التوبة لاتتم إلا بذلك لادليل عليه بل مجرد عقد القلب عليها يكفى سواء اطلع الناس على ذنبه أم لا ، وربما كان التكتم بالتوبة على وجه لايطلع عليها إلا الله عز وجل أحب إلى الله وأقرب إلى مغفرته ، وأما رفع ماعند الناس من اعتقادهم بقاءه على المعصية فذلك باب آخر * وقوله ـ يغفر لكم ـ قرأه نافع بالياء التحتية المضمومة ، وقرأه ابن عامر بالتاء الفوقية المضمومة ، وقرأه الباقون بالنون وهى أولى * والخطايا جمع خطيئة بالهمز . وقد تكلم علماء العربية فى ذلك بما هو معروف فى كتب الصرف * وقوله ـ وسنزيد المحسنين ـ أى نزيدهم إحسانا على إحسانهم المتقدم ، وهو اسم فاعل من أحسن . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ « سئل عن الاحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » * وقوله ـ فبدّل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم ـ قيل انهم قالوا حنطة . وقيل غير ذلك * والصواب أنهم قالوا حبة فى شعرة كما سيأتى مرفوعا إلى النبى ﷺ * وقوله ـ فأنزلنا على الذين ظلموا ـ هو من وضع الظاهر موضع المضمر لنكتة كما تقرر فى علم البيان ، وهى هنا تعظيم الأمر عليهم ، وتقبيح فعلهم ، ومنه قول عدى بن زيد :

لاأرى الموت يسبق الموت شيء * نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

فكرر الموت فى البيت ثلاثا تهويلا لأمره ، وتعظيما لشأنه * وقوله ـ رجزا ـ بكسر الراء فى قراءة الجميع إلا ابن محيصن فانه قرأ بضم الراء * والرجز العذاب * والفسق قد تقدم تفسيره . وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله ـ ادخلوا هذه القرية ـ قال بيت المقدس . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال هى أريحاء قرية من بيت المقدس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله ـ ادخلوا الباب ـ قال باب ضيق ـ سجدا ـ قال ركعا * وقوله ـ حطة ـ قال مغفرة ، فدخلوا من قبل أستاههم وقالوا حنطة استهزاء قال فذلك قوله تعالى ـ فبدّل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم ـ وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال الباب هو أحد أبواب بيت المقدس وهو يدعى باب حطة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الكبير وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال قيل لهم ادخلوا الباب سجدا فدخلوا مقنعى رءوسهم وقالوا حنطة حبة حمراء فيها شعيرة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله ـ وادخلوا الباب سجدا ـ قال طأطئوا رءوسكم ـ وقولوا حطة ـ قال قولوا لاإله إلا الله . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله ـ قولوا حطة ـ قال لاإله إلا الله . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال كان الباب قبل القبلة وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « قيل لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فبدّلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا حبة فى شعرة » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس وأبى هريرة قالا قال رسول الله ﷺ « دخلوا الباب الذى أمروا أن

يدخلوا

يدخلوا فيه سجدا يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة فى شعيرة .

والأول أرجح لكونه فى الصحيحين . وقد أخرجه معهما من أخرج هذا الحديث الآخر أعنى ابن جرير وابن المنذر . وأخرج ابن أبى شيبة عن علىّ قال انما مثلنا فى هذه الأمة كسفينة نوح وكباب حطة فى بنى اسرائيل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال كل شىء فى كتاب الله من الرجز يعنى به العذاب . وأخرج مسلم وغيره من حديث أسامة بن زيد وسعد بن مالك وخزيمة بن ثابت قالوا : قال رسول الله ﷺ «ان هذا الطاعون رجز و بقية عذاب عذب به أناس من قبلكم فاذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها ، واذا بلغكم أنه بأرض فلا تدخلوها» .

وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَٱشْرَبُوا مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ *

الاستسقاء انما يكون عند عدم الماء وحبس المطر ، ومعناه فى اللغة طلب السقيا ، وفى الشرع ماثبت عن النبى ﷺ فى صفته من الصلاة والدعاء * والحجر يحتمل أن يكون حجرا معينا فتكون اللام للعهد ، ويحتمل أن لا يكون معينا فتكون للجنس * وهو أظهر فى المعجزة وأقوى للحجة * وقوله فانفجرت الفاء مترتبة على محذوف تقديره فضرب فانفجرت * والانفجار الانشقاق وانفجر الماء انفجارا انفتح ، والفجرة موضع تفتح الماء . قال ابن عطية ولا خلاف أنه كان حجرا مربعا يخرج من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى سالت العيون و إذا استغنوا عن الماء جفت * والمشرب موضع الشرب . وقيل هو المشروب نفسه ، وفيه دليل على أنه يشرب من كل عين قوم منهم لايشاركهم غيرهم . قيل كان لكل سبط عين من تلك العيون لايتعداها إلى غيرها ، والاسباط ذرية الاثنى عشر من أولاد يعقوب * وقوله – كلوا – أى قلنا لهم كلوا المنّ والسلوى واشربوا الماء المتفجر من الحجر * وعثا يعثى عثيا ، وعثا يعثو عثوا ، وعاث يعيث عيثا ، لغات . بمعنى أفسد * وقوله – مفسدين – حال مؤكدة . قال فى القاموس ، عثى كرمى ، وسعى ، ورضى ، عثيا ، وعثيا ، وعثيانا ، وعثا يعثو عثوا أفسد . وقال فى الكشاف العثى أشدّ الفساد . فقيل لهم لاتمادوا فى الفساد فى حال فسادكم لانهم كانوا متمادين فيه انتهى * قوله – لن نصبر على طعام واحد – تضجر منهم بما صاروا فيه من النعمة والرزق الطيب والعيش المستلذ ونزوع إلى ما ألفوه قبل ذلك من خشونة العيش .

ان الشقى بالشقاء مولع * لايملك الرد له إذا أتى

ويحتمل أن لايكون هذا منهم تشوّقا إلى ما كانوا فيه ونظرا لما صاروا إليه من العيشة الرافهة بل هو باب من تعنتهم ، وشعبة من شعب تعجرفهم كما هو دأبهم وهجيراهم فى غالب ماقص علينا من أخبارهم . وقال الحسن البصرى انهم كانوا أهل كراث وأبصال وأعداس فنزعوا إلى عكرهم أى أصلهم عكر السوء واشتاقت طباعهم إلى ماجرت عليه عادتهم فقالوا لن نصبر على طعام واحد . والمراد بالطعام الواحد هو المنّ والسلوى وهما وان كانا طعامين لكن لما كانوا يأكلون أحدهما بالآخر جعلوهما طعاما واحدا . وقيل لتكررهما فى كل يوم وعدم وجود غيرهما معهما ولا تبدلة بهما * ومن فى قوله – مما

تنبت ـ تخرج . قال الأخفش زائدة وخالفه سيبويه لكونها لاتزاد فى الكلام الموجب . قال النحاس وانما دعا الأخفش إلى هذا لانه لم يجد مفعولا ليخرج فأراد أن يجعل مامفعولا .

والأولى أن يكون المفعول محذوفا دل عليه سياق الكلام أى تخرج لناماً كولا * وقوله ـ من بقلها ـ بدل من ما باعادة الحرف ، والبقل كل نبات ليس له ساق ، والشجرماله ساق . قال فى الكشاف البقل ماأنبته الأرض من الخضر ، والمراد به أطايب البقول التى يأ كلها الناس كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها انتهى * والقثاء بكسر القاف وفتحها . والأولى قراءة الجمهور . والثانية قراءة يحيى بن وثاب وطلحة ابن مصرف ، وهومعروف * والفوم . قيل هوالثوم . وقد قرأه ابن مسعود بالثاء * وروى نحوذلك عن ابن عباس . وقيل الفوم الحنطة ، وإليه ذهب أكثر المفسرين . كما قال القرطبى ، وقدرجح هذا ابن النحاس وقال الجوهرى الفوم الحنطة ، وممن قال بهذا الزجاج والأخفش وأنشد :

قد كنت أحسبنى كأغنى واحد * ترك المدينة عن زراعة فوم

وقال بالقول الأول الكسائى والنضر بن شميل ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة * فيها الفراديس والفومات والبصل

أى الثوم ، وقال حسان :

وأنتم أناس لئام الأصول * طعامكم الفوم والحوقل

يعنى الثوم والبصل . وقيل الفوم السنبلة . وقيل الحمص . وقيل الفوم كل حب يخبز * والعدس والبصل معروفان * والاستبدال وضع الشىء موضع الآخر * ـ وأدنى ـ قال الزجاج انه مأخوذ من الدنو أى القرب ، والمراد أتضعون هذه الأشياء التى هى دون موضع المن والسلوى اللذين هما خير منها من جهة الاستلذاذ والوصول من عند الله بغير واسطة أحد من خلقه والحل الذى لاتطرقه الشبهة وعدم الكلفة بالسعى له والتعب فى تحصيله * وقوله ـ اهبطوا مصرا ـ أى انزلوا . وقد تقدم معنى الهبوط ، وظاهر هذا أن الله أذن لهم بدخول مصر . وقيل ان الأمر للتعجيز لانهم كانوا فى التيه فهو مثل قوله تعالى ـ كونوا حجارة أو حديدا ـ ، وصرف مصر هنا مع اجتماع العلمية والتأنيث لانه ثلاثى ساكن الوسط وهو يجوز صرفه مع حصول السببين . وبه قال الأخفش والكسائى . وقال الخليل وسيبويه ان ذلك لايجوز ، وقالا انه لاعلمية هنا لانه أراد مصرا من الأمصار ولم يرد المدينة المعروفة ، وهوخلاف الظاهر * وقرأ الحسن وأبان بن تغلب وطلحة بن مصرف بترك التنوين وهو كذلك فى مصحف أبى وابن مسعود * ومعنى ضرب الذلة والمسكنة إلزامهم بذلك والقضاء به عليهم قضاء مستمرا لايفارقهم ولا ينفصل عنهم مع دلالته على أن ذلك مشتمل عليهم اشتمال القباب على من فيها ، ومنه قول الفرزدق يهجو جريرا :

ضربت عليك العنكبوت بوزنها * وقضى عليك به الكتاب المنزل

وهوضرب من الهجاء بليغ كما أنه اذا استعمل فى المديح كان فى منزلة رفيعة ، ومنه قول الشاعر :

ان المروءة والشجاعة والندى * فى قبة ضربت على ابن الحشرج

وهذا الخبر الذى أخبرنا الله به هو معلوم فى جميع الازمنة ، فان اليهود أقماهم الله أزل الفرق وأشدهم مسكنة وأكثرهم تصاغرا لم ينتظم لهم جمع ولاخفقت على رءوسهم راية ، ولاثبتت لهم ولاية ، بل مازالوا عبيد العصى فى كل زمن وطروقة كل فحل فى كل عصر ، ومن تمسك منهم بنصيب من المال وان بلغ فى الكثرة أى مبلغ فهو متظاهر بالفقر مترد بأثواب المسكنة ليدفع عن نفسه أطماع الطامعين فى ماله اما بحق كتوفير ماعليه من الجزية أو بباطل كما يفعله كثير من الظلمة من التجرىء على الله بظلم من لايستطيع الدفع عن نفسه ومعنى ـ باءوا ـ رجعوا ، يقال باء بكذا أى رجع به ، و باء الى المباءة أى رجع الى المنزل ، والبواء الرجوع ، و يقال هم

Khal. 6 however gives ... as reading قُثَّائِهَا.

فى هذا الأمر بواء أى سواء يرجعون فيه الى معنى واحد ، وباء فلان بفلان اذا كان حقيقا بان يقبل به لمساواته له ، ومنه قول الشاعر :

ألا تنتهى عنا ملوك وتتقى * محارمنا لايبوأ الدم بالدم

والمراد فى الآية أنهم رجعوا بغضب من الله ، أو صاروا أحقاء بغضبه . وقد تقدم تفسير الغضب * والاشارة بقوله — ذلك — الى ماتقدم من حديث الذلة ومابعده بسبب كفرهم بالله وقتلهم لأنبيائه بغير حق يحق عليهم اتباعه والعمل به ، ولم يخرج هذا مخرج التقييد حتى يقال انه لايكون قتل الأنبياء بحق فى حال من الأحوال لمكان العصمة ، بل المراد نعى هذا الأمر عليهم وتعظيمه ، وأنه ظلم بحت فى نفس الأمر ، ويمكن أن يقال انه ليس بحق فى اعتقادهم الباطل لأن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لم يعارضوهم فى مال ولا جاه بل أرشدوهم الى مصالح الدين والدنيا كما كان من شعيب وزكريا ويحيى فانهم قتلوهم وهم يعلمون و يعتقدون أنهم ظالمون ، وتكرير الاشارة لقصد التأكيد وتعظيم الأمر عليهم وتهويله ، ومجموع مابعد الاشارة الأولى والاشارة الثانية هو السبب لضرب الذلة ومابعده ، وقيل يجوز أن تكون الاشارة الثانية الى الكفر والقتل فيكون مابعدها سببا للسبب وهو بعيد جدا * والاعتداء تجاوز الحد فى كل شىء .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله — واذ استسقى موسى لقومه — قال ذلك فى التيه ضرب لهم موسى الحجر فصار فيها اثنتاعشرة عينا من ماء ، لكل سبط منهم عين يشربون منها . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ومجاهد وابن أبى حاتم عن جويبر نحو ذلك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله — ولا تعثوا فى الأرض — قال لاتسعوا فى الأرض فسادا . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك قال يعنى ولا تمشوا بالمعاصى . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال لاتسيروا فى الأرض مفسدين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله — لن نصبر على طعام واحد — قال المنّ والسلوى استبدلوا به البقل وما حكى معه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله — وفومها — قال الخبز ، وفى لفظ البر ، وفى لفظ الحنطة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال الفوم الثوم . وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن مسعود أنه قرأ وثومها . وروى ابن أبى الدنيا عن ابن عباس أنه قال قراءتى قراءة زيد وأنا آخذ ببضعة عشر حرفا من قراءة ابن مسعود هذا أحدها من بقلها وقثائها وثومها . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله — الذى هو أدنى — قال أردأ . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله — اهبطوا مصرا — قال مصرا من الأمصار . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية أنه مصر فرعون . وأخرج نحوه ابن أبى داود وابن الانبارى عن الأعمش . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله — وضربت عليهم الذلة — قال هم أصحاب الجزية . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة والحسن قال ضربت عليهم الذلة والمسكنة أى يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية قال المسكنة الفاقة . وأخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله — وباءوا بغضب من الله — قال استحقوا الغضب من الله . وأخرج عبد ابن حميد عن قتادة فى قوله — و باءوا — قال انقلبوا . وأخرج أبو داود الطيالسى وابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال كانت بنو إسرائيل فى اليوم تقتل ثلثمائة نبى ثم يقيمون سوق بقلهم فى آخر النهار .

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِئِينَ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ *

قيل ان المراد بالذين آمنوا المنافقون بدلالة جعلهم مقترنين باليهود والنصارى والصابئين أى آمنوا فى الظاهر

والأولى أن يقال ان المراد الذين صدّقوا النبي ﷺ وصاروا من جملة أتباعه ، وكأنه سبحانه أراد أن يبين أن حال هذه الملة الاسلامية وحال من قبلها من سائر الملل يرجع الى شيء واحد ، وهوأن من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا استحق ماذكره الله من الأجر ، ومن فاته ذلك فاته الخير كله والأجر دقه وجله * والمراد بالايمان هاهنا هو مابينه رسول الله ﷺ من قوله لما سأله جبريل عن الايمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره ، ولا يتصف بهذا الايمان إلا من دخل فى الملة الاسلامية فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ ولا بالقرآن فليس بمؤمن ، ومن آمن بهما صار مسلما مؤمنا ولم يبق يهوديا ولا نصرانيا ولا مجوسيا * وقوله ــ هادوا ــ معناه صاروا يهودا ، قيل هو نسبة لهم إلى يهوذا بن يعقوب بالذال المعجمة فقلبتها العرب دالا مهملة ، وقيل معنى هادوا تابوا لتوبتهم عن عبادة العجل * ومنه قوله تعالى ــ إنا هدنا إليك ــ أى تبنا ، وقيل ان معناه السكون والموادعة . وقال فى الكشاف إن معناه دخل فى اليهودية * والنصارى قال سيبويه مفرده نصران ونصرانة كندمان وندمانة ، وأنشد شاهدا على ذلك قول الشاعر :

تراه إذا زار العشا متخففا * ويضحى لديه وهو نصران شامس

وقال الآخر

فكلتاهما خرت وأسجد رأسها * كما سجدت نصرانة لم تحنف

قال ولكن لايستعمل إلا بياء النسب ، فيقال رجل نصرانى وامرأة نصرانية . وقال الخليل واحد النصارى نصرى . وقال الجوهرى ونصران قرية بالشام تنسب إليها النصارى ، ويقال ناصرة ، وعلى هذا فالياء للنسب . وقال فى الكشاف ان الياء للمبالغة كالتى فى أحمرى ، سموا بذلك لانهم نصروا المسيح * والصابين جمع صابى ، وقيل صاب . وقد اختلف فيه القراء فهمزوه جميعا الا نافعا ، فمن همزه جعله من صبأت النجوم إذا طلعت ، وصبأت ثنية الغلام إذا خرجت ، ومن لم يهمزه جعله من صبا يصبو اذا مال ، والصابئ فى اللغة من خرج ومال من دين إلى دين ، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صبأ ، وسموا هذه الفرقة صابئة لأنها خرجت من دين اليهود والنصارى وعبدوا الملائكة * وقوله ــ من آمن بالله ــ فى موضع نصب بدلا من الذين آمنوا وما بعده . وقد تقدم معنى الايمان ، ويكون خبر إن قوله ــ فلهم أجرهم ــ ويجوز أن يكون قوله ــ من آمن بالله ــ فى محل رفع على أنه مبتدأ خبره قوله ــ فلهم أجرهم ــ وهما جميعا خبر إن ، والعائد مقدّر فى الجملة الأولى أى من آمن منهم ، ودخلت الفاء فى الخبر لتضمن المبتدا معنى الشرط . وقد تقدم تفسير قوله تعالى ــ فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون ــ * وقد أخرج ابن أبى حاتم عن سلمان قال سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم فذكرت من صلاتهم وعبادتهم فنزلت ــ إن الذين آمنوا والذين هادوا ــ الآية . وأخرج الواحدى عن مجاهد نحو ذلك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى ذكر السبب بنحو ماسبق ، وحكى قصة طويلة . وأخرج أبوداود فى الناسخ والمنسوخ وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ــ إن الذين آمنوا والذين هادوا ــ قال فأنزل الله بعد هذا ــ ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ــ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن علىّ قال انما سميت اليهود لانهم قالوا ــ إنا هدنا اليك ــ . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود . قال نحن أعلم من أين سميت اليهود باليهودية من كلمة موسى عليه السلام ــ إنا هدنا إليك ــ ولم تسمت النصارى بالنصرانية ؟ من كلمة عيسى عليه السلام ــ كونوا أنصار الله ــ وأخرج أبو الشيخ نحوه عنه . وأخرج ابن جرير عن قتادة انما تسموا نصارى بقرية يقال لها ناصرة . وأخرج ابن سعد فى طبقاته وابن جرير عن ابن عباس . قل انما سميت النصارى لان قرية عيسى كانت تسمى

ناصرة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال الصابئون فرقة بين اليهود والنصارى والمجوس ليس لهم دين . وأخرج عبد الرزاق عنه قال قال ابن عباس فذكر نحوه . وقد روى فى تفسير الصابئين غير هذا .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ *

قوله ـ وإذ أخذنا ـ هو فى محل نصب بعامل مقدر هو اذكروا كما تقدم غير مرة . وقد تقدّم تفسير الميثاق ، والمراد أنه أخذ سبحانه عليهم الميثاق بأن يعملوا بما شرعه لهم فى التوراة وبما هو أعم من ذلك أو أخص * والطور اسم الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل عليه التوراة فيه . وقيل هو اسم لكل جبل بالسريانية . وقد ذكر كثير من المفسرين أن موسى لما جاء بنى اسرائيل من عند الله بالالواح قال لهم خذوها والتزموها فقالوا : لا الا أن يكلمنا الله بها كما كلمك ، فصعقوا ثم أحيوا ، فقال لهم خذوها والتزموها ، فقالوا لا ، فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلا من جبال فلسطين طوله فرسخ فى مثله وكذلك كان عسكرهم فجعل عليهم مثل الظلة وأتوا ببحر من خلفهم ونار من قبل وجوههم . وقيل لهم خذوها وعليكم الميثاق أن لا تضيعوها والا سقط عليكم الجبل فسجدوا توبة لله وأخذوا التوراة بالميثاق . قال ابن جرير عن بعض العلماء لو أخذوها أوّل مرة لم يكن عليهم ميثاق . قال ابن عطية والذى لا يصح سواه أن الله سبحانه اخترع وقت سجودهم الايمان لأنهم آمنوا كرها وقلوبهم غير مطمئنة انتهى .

وهذا تكلف ساقط حمله عليه المحافظة على ماقد ارتسم لديه من قواعد مذهبية ، قد سكن قلبه اليها كغيره ، وكل عاقل يعلم أنه لا سبب من أسباب الاكراه أقوى من هذا أو أشد منه * ونحن نقول أكرههم الله على الايمان فآمنوا مكرهين ورفع عنهم العذاب بهذا الايمان ، وهو نظير ماثبت فى شرعنا من رفع السيف عن من تكلم بكلمة الاسلام والسيف مصلت قد هزه حامله على رأسه . وقد ثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ قال لمن قتل من تكلم بكلمة الاسلام معتذرا عن قتله بأنه قالها تقية ولم تكن عن قصد صحيح : أأنت فتشت عن قلبه ، وقال لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس * وقوله ـ خذوا ـ أى وقلنا لكم خذوا ما آتيناكم بقوّة ـ والقوّة الجدّ والاجتهاد * والمراد بذكر مافيه أن يكون محفوظا عندهم ليعملوا به * قوله ـ ثم توليتم ـ أصل التولى الادبار عن الشىء والاعراض بالجسم ، ثم استعمل فى الاعراض عن الأمور والأديان والمعتقدات اتساعا ومجازا * والمراد هنا اعراضهم عن الميثاق المأخوذ عليهم * وقوله ـ من بعد ذلك ـ أى من بعد البرهان لهم والترهيب بأشد مايكون وأعظم ماتجوّزه العقول وتقدّره الأفهام ، وهو رفع الجبل فوق رءوسهم كأنه ظلة عليهم * وقوله ـ فلولا فضل الله عليكم ـ بأن تدارككم بلطفه ورحمته حتى أظهرتم التوبة لخسرتم * والفضل الزيادة . قال ابن فارس فى المجمل الفضل الزيادة والخير ، والافضال الاحسان انتهى والخسران النقصان . وقد تقدم تفسيره * والسبت فى أصل اللغة القطع لان الاشياء تمت فيه وانقطع العمل ، وقيل هو مأخوذ من السبوت ، وهو الراحة والدعة . وقال فى الكشاف السبت مصدر سبتت اليهود اذا عظمت يوم السبت انتهى . وقد ذكر جماعة من المفسرين أن اليهود افترقت فرقتين ، ففرقة اعتدت فى السبت أى جاوزت ما أمرها الله به من العمل فيه فصادوا السمك الذى نهاهم الله عن صيده فيه ، والفرقة الأخرى

انقسمت إلى فرقتين ففرقة جاهرت بالنهى واعتزلت ، وفرقة لم توافق المعتدين ولاصادوا معهم لكنهم جالسوهم ولم يجاهروهم بالنهى ولا اعتزلوا عنهم فمسخهم الله جميعا ولم تنج الا الفرقة الأولى فقط ، وهذه من جملة المحن التى امتحن الله بها هؤلاء الذى بالغوا فى العجرفة ، وعاندوا أنبياءهم ، وما زالوا فى كل موطن يظهرون من حماقاتهم وسخف عقولهم وتعنتهم نوعا من أنواع التعسف ، وشعبة من شعب التكلف ، فان الحيتان كانت فى يوم السبت كما وصف الله سبحانه بقوله ـ إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعا و يوم لايسبتون لاتأتيهم كذلك نبلوهم ـ فاحتالوا لصيدها ، وحفروا الحفائر ، وشقوا الجداول ، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصيدونها يوم الأحد فلم ينتفعوا بهذه الحيلة الباطلة * والخاسىء المبعد ، يقال : خسأته ، نخسأ ، وخسىء ، وانخسأ : أبعدته فبعد * ومنه قوله تعالى ـ ينلقب إليك البصر خاسئا ـ أى مبعدا * وقوله ـ اخسئوا فيها ـ أى تباعدوا تباعد سخط ، ويكون الخاسىء بمعنى الصاغر * والمراد هنا كونوا بين المصير إلى أشكال القردة مع كونهم مطرودين صاغرين ، فقردة خبر الكون ، وخاسئين خبر آخر . وقيل انه صفة لقردة * والأوّل أظهر ، واختلف فى مرجع الضمير فى قوله ـ فجعلناها ـ وفى قوله ـ لما بين يديها وماخلفها ـ فقيل العقوبة ، وقيل الأمة . وقيل القرية . وقيل القردة . وقيل الحيتان * والأوّل أظهر * والنكال الزجر والعقاب ، والنكل القيد لانه يمنع صاحبه ، ويقال للجام الدابة نكل ، لانه يمنعها ، والموعظة مأخوذة من الاتعاظ والانزجار ، والوعظ التخويف . وقل الخليل الوعظ التذكير بالخير . وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الطور الجبل الذى أنزلت عليه التوراة وكان بنو اسرائيل أسفل منه . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال الطور ماأنبت من الجبال ومالم ينبت فليس بطور . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله ـ خذوا ما آتيناكم بقوّة ـ قال بجدّ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله ـ واذكروا مافيه ـ قال اقرءوا مافى التوراة واعملوا به . وأخرج ابن اسحاق وابن جرير عن ابن عباس فى قوله ـ لعلكم تتقون ـ قال لعلكم تنزعون عما أنتم عليه . وأخرج ابن جرير عنه قال ـ ولقد علمتم ـ أى عرفتم ـ واعتدوا ـ يقول اجترءوا فى السبت بصيد السمك ، فمسخهم الله قردة بمعصيتهم ، ولم يعش مسيخ قط فوق ثلاثة أيام ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل . وأخرج ابن المنذر عنه قال القردة والخنازير من نسل الذين مسخوا . وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال انقطع ذلك النسل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة ، وانما هو مثل ضربه الله لهم كقوله ـ كمثل الحمار يحمل أسفارا ـ وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى الآية قال أحلت لهم الحيتان وحرمت عليهم يوم السبت ليعلم من يطيعه ممن يعصيه فكان فيهم ثلاثة أصناف ، وذكر نحو ماقدّمناه عن المفسرين . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال صار شباب القوم قردة ، والمشيخة صاروا خنازير . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ خاسئين ـ قال ذليلين . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله ـ خاسئين ـ قال صاغرين . وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ـ فجعلناها نكالا لما بين يديها ـ من القرى ـ وما خلفها ـ من القرى ـ وموعظة للمتقين ـ الذين من بعدهم إلى يوم القيامة . وأخرج ابن جرير عنه ـ فجعلناها ـ يعنى الحيتان ـ نكالا لما بين يديها وما خلفها ـ من الذنوب التى عملوا قبل و بعد . وأخرج ابن جرير عنه ـ فجعلناها ـ قال جعلنا تلك العقوبة وهى المسخة ـ نكالا ـ عقوبة ـ لما بين يديها ـ يقول ليحذر من بعدهم عقوبتى ـ وما خلفها ـ يقول للذين كانوا معهم ـ وموعظة ـ قال تذكرة وعبرة للمتقين .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ *

قيل ان قصة ذبح البقرة المذكورة هنا مقدّم فى التلاوة ومؤخر فى المعنى على قوله تعالى ــ واذ قتلتم نفسا ــ ويجوز أن يكون قوله قتلتم مقدّما فى النزول ، ويكون الأمر بالذبح مؤخرا ، ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها ، فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ، ثم وقع ماوقع من أمر القتل فأمروا أن يضربوه ببعضها ، هذا على فرض أن الواو تقتضى الترتيب ، وقد تقرر فى علم العربية أنها لمجرد الجمع من دون ترتيب ولامعية ، وسيأتى فى قصة القتل تمام الكلام * والبقرة اسم للأنثى ، ويقال للذكر ثور . وقيل انها تطلق عليهما ، وأصله من البقر وهو الشق لانها تشق الأرض بالحرث . قال الأزهرى البقر اسم جنس ، وجمعه باقر . وقد قرأ عكرمة ويحيى بن يعمر ــ ان الباقر تشابه علينا ــ * وقوله ــ هزوا ــ الهزو هنا اللعب والسخرية . وقد تقدم تفسيره ، وانما يفعل ذلك أهل الجهل لانه نوع من العبث الذى لايفعله العقلاء ، ولهذا أجابهم موسى بالاستعاذة بالله سبحانه من الجهل * وقوله ــ قالوا ادع لنا ربك ــ هذا نوع من أنواع تعنتهم المألوفة فقد كانوا يسلكون هذه المسالك فى غالب ماأمرهم الله به ، ولو تركوا التعنت والأسئلة المتكلفة لأجزأهم ذبح بقرة من عرض البقر ، ولكنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم كما سيأتى بيانه * والفارض المسنة ، ومعناه فى اللغة الواسع . قال فى الكشاف ، وكأنها سميت فارضا لأنها فرضت سنها أى قطعتها و بلغت آخرها انتهى ويقال للشىء القديم فارض ، ومنه قول الراجز :

يارب ذى ضغن علىّ فارض * له قروّ كقرو الحائض

أى قديم . وقيل الفارض التى قد ولدت بطونا كثيرة فيتسع جوفها * والبكر الصغيرة التى لم تحمل ، وتطلق فى إناث البهائم و بنى آدم على مالم يفتحله الفحل ، وتطلق أيضا على الاوّل من الأولاد ، ومنه قول الراجز :

يا بكر بكرين وياصلب الكبد * أصبحت منى كذراع من عضد

والعوان المتوسطة بين سنى الفارض والبكر ، وهى التى قد ولدت بطنا أو بطنين ، و يقال هى التى قد ولدت مرة بعد مرة ، والاشارة بقوله ــ بين ذلك ــ إلى الفارض والبكر ، وهما وان كانتا مؤنثتين فقد أشير إليهما بما هو للمذكر على تأويل المذكور ، كأنه قال بين ذلك المذكور ، وجاز دخول بين المقتضية لشيئين لان المذكور متعدد * وقوله ــ فافعلوا ــ تجديد للأمر ، وتأكيد له ، وزجر لهم عن التعنت ، فلم ينفعهم ذلك ولا نجع فيهم ، بل رجعوا إلى طبيعتهم ، وعادوا إلى مكرهم ، واستمروا على عادتهم المألوفة ، فقالوا ادع لنا ربك * واللون واحد الألوان ، وجمهور المفسرين على أنها كانت جميعها صفراء . قال بعضهم حتى قرنها وظلفها . وقال الحسن وسعيد بن جبير انها كانت صفراء القرن والظلف فقط ، وهو خلاف الظاهر * والمراد بالصفرة هنا الصفرة المعروفة . وروى عن الحسن أن صفراء معناه سوداء ، وهذا من بدع التفاسير ومنكراتها وليت شعرى كيف يصدق على اللون الأسود الذى هو أقبح الألوان أنه يسر الناظرين ، وكيف يصح وصفه

بالفقوع الذى يعلم كل من يعرف لغة العرب أنه لايجزى على الأسود بوجه من الوجوه ، فانهم يقولون فى وصف الأسود : حالك وحلكوك ودجوجى وغربيب . قال الكسائى يقال فقع لونها يفقع فقوعا إذا خلصت صفرته وقال فى الكشاف الفقوع أشدّ ما يكون من الصفرة وأنصعه * ومعنى ـ تسر الناظرين ـ تدخل عليهم السرور إذا نظروا إليها إعجابا بها واستحسانا للونها . قال وهب كانت كأن شعاع الشمس يخرج من جلدها ، ثم لم ينزعوا عن غوايتهم ولا ارعووا من سفههم وجهلهم ، بل عادوا إلى تعنتهم فقال ـ ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ان البقر تشابه علينا ـ أى ان جنس البقر يتشابه عليهم لكثرة مايتصف منها بالعوان الصفراء الفاقعة ، ووعدوا من أنفسهم بالاهتداء إلى مادلهم عليه ، والامتثال لما أمروا به * والذلول التى لم يذللها العمل أى هى غير مذللة بالعمل ولا ريضة به * وقوله ـ تثير ـ فى موضع رفع على الصفة لبقرة أى هى بقرة لاذلول مثيرة ، وكذلك قوله ـ ولا تسقى الحرث ـ فى محل رفع لانه وصف لها أى ليست من النواضح التى يسنى عليها لسقى الزروع ، وحرف النفى الآخر توكيد للأوّل أى هى بقرة غير مذللة بالحرث ولابالنضح ولهذا قال الحسن كانت البقرة وحشية . وقال قوم ان قوله ـ تثير ـ فعل مستأنف . والمعنى ايجاب الحرث لها والنضح بها * والأوّل أرجح ، لانها لو كانت مثيرة ساقية لكانت مذللة ريضة . وقد نفى الله ذلك عنها ، وقوله ـ مسلمة ـ مرتفع على أنه من أوصاف البقرة ، ويجوز أن يكون مرتفعا على انه خبر لمبتدا محذوف أى هى مسلمة . والجملة فى محل رفع على أنها صفة ، والمسلمة هى التى لاعيب فيها . وقيل مسلمة من العمل ، وهوضعيف لان الله سبحانه قدنفى ذلك عنها ، والتأسيس خير من التأكيد ، والافادة أولى من الاعادة * والشية أصلها وشية حذفت الواوكما حذفت من يشى ، وأصله يوشى ، ونظيره الزنة والعدة والصلة وهى مأخوذة من وشى الثوب إذا نسج على لونين مختلفين ، وثور موشى فى وجهه وقوائمه سواد . والمراد أن هذه البقرة خالصة الصفرة ليس فى جسمها لمعة من لون آخر . فلماسمعوا هذه الأوصاف التى لايبقى بعدها ريب ولا يخالج سامعها شك ، ولا تحتمل الشركة بوجه من الوجوه ، أقصروا من غوايتهم ، وانتبهوا من رقدتهم وعرفوا بمقدار ماأوقعهم فيه تعنتهم من التضييق عليهم ـ قالوا الآن جئت بالحق ـ أى أوضحت لنا الوصف ، و بينت لنا الحقيقة التى يجب الوقوف عندها ، فحصلوا تلك البقرة الموصوفة بتلك الصفات ـ فذبحوها ـ وامتثلوا الأمر الذى كان يسرا فعسروه ، وكان واسعا فضيقوه ـ وما كادوا يفعلون ـ ماأمروا به لما وقع منهم من التثبط والتعنت وعدم المبادرة ، فكان ذلك مظنة للاستبعاد ، ومحلا للمجىء بعبارة مشعرة بالتثبط الكائن منهم * وقيل انهم ما كادوا يفعلون لعدم وجدان البقرة المتصفة بهذه الأوصاف * وقيل لارتفاع ثمنها * وقيل لخوف انكشاف أمر المقتول * والأوّل أرجح . وقد استدل جماعة من المفسرين والأصوليين بهذه الآية على جواز النسخ قبل إمكان الفعل .

وليس ذلك عندى بصحيح لوجهين * الأوّل أن هذه الأوصاف المزيدة بسبب تكرر السؤال هى من باب التقييد للمأمور به لامن باب النسخ ، و بين البابين بون بعيد كما هو مقرر فى علم الأصول * الثانى أنا لوسلمنا أن هذا من باب النسخ لامن باب التقييد لم يكن فيه دليل على ماقالوه ، فانه قد كان يمكنهم بعد الأمر الأوّل أن يعمدوا إلى بقرة من عرض البقر فيذبحوها ، ثم كذلك بعد الوصف بكونها جامعة بين الوصف بالعوان والصفراء ، ولادليل يدل على أن هذه المحاورة بينهم و بين موسى عليه السلام واقعة فى لحظة واحدة بل الظاهر أن هذه الأسئلة المتعنتة كانوا يتواطؤن عليها ، ويديرون الرأى بينهم فى أمرها ، ثم يوردونها ، وأقل الأحوال الاحتمال القادح فى الاستدلال .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن عبيدة السلمانى قال كان رجل من بنى إسرائيل عقيما لايولد له وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله

ليلا فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدّعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم إلى بعض ، فقال ذوالرأى منهم علام يقتل بعضكم بعضا ، وهـذا رسول الله فيكم ، فأتوا موسى فذكروا ذلك له ، فقال ـ ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ـ الآية قال فلولم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شـدّدوا فشدّد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التى أمروا بذبحها ، فوجدوها عـند رجل ليس له بقرة غيرها ، فقال والله لاأنقصها من ملء جلدها ذهبا ، فأخذوها بملء جلدها ذهبا فذبحوها فضربوه ببعضـها ، فقام فقالوا من قتلك ؟ فقال هـذا لابن أخيه ثم مال ميتا فلم يعط من ماله شيئا ، ولم يورث قاتل بعـده . وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب من عاش بعـد الموت عن ابن عباس أن القتيل وجد بين قريتين وأن البقرة كانت لرجل كان يبرّ أباه فاشتروها بوزنها ذهبا . وأخرج ابن جرير عنه نحوا من ذلك ولم يذكر ماتقدم فى البقرة ، وقد روى فى هذا قصص مختلفة لايتعلق بها كثير فائدة . وأخرج البزار عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « ان بنى اسرائيل لوأخذوا أدنى بقرة لأجزأهم أولأجزأت عنهم » وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « لولا أن بنى إسرائيل قالوا ـ وانا ان شاء الله لمهتدون ـ ماأعطوا أبدا ، ولوأنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم ، ولكنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم » وأخرج نحوه الفريابى وسعيد بن منصور وابن المنذر عن عكرمة يبلغ به النبى ﷺ . وأخرجه ابن جرير عن ابن جريج يرفعه . وأخرجه ابن جرير عن قتادة يرفعه أيضا ، وهذه الثلاثة مرسلة . وأخرج نحوه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس قال الفارض الهرمة ، والبكر الصغيرة ، والعوان النصف . وأخرج نحوه عن مجاهد . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ عوان بين ذلك ـ قال بين الصغيرة والكبيرة ، وهى أقوى ما يكون وأحسنه . وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنـه أيضا فى قوله ـ صفراء فاقع لونها ـ قال شـديدة الصفرة تـكاد من صفرتها تبيض . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله ـ صفراء ـ قال صفراء الظلف ـ فاقع لونها ـ قال صافى . وأخرج عبـد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال ـ فاقع لونها ـ أى صاف ـ تسر الناظرين ـ أى تعجب . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير عن الحسن فى قوله ـ صفراء فاقع لونها ـ قال سوداء شـديدة السواد . وأخرج ابن جرير عن أبى العاليـة فى قوله ـ لاذلول ـ أى لم يذلها العمل ـ تثير الأرض ـ يعنى ليست بذلول فتثير الأرض ـ ولا تسقى الحرث ـ يقول ولا تعمل فى الحرث ـ مسلمة ـ قال من العيوب . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد * وقال ـ لاشية فيها ـ لابياض فيها ولاسواد . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ـ مسلمة ـ لاعوار فيها . وأخرج عبد بن حميـد وابن جرير عن قتادة ـ قالوا الآن جئت بالحق ـ قالوا الآن بينت لنا ـ فذبحوها وما كادوا يفعلون ـ وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب فى قوله ـ وما كادوا يفعلون ـ لغلاء ثمنها .

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *

قد تقدم ماذكرناه فى قصة ذبح البقرة ، فيكون تقدير الكلام ـ واذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها والله

مخرج ما كنتم تكتمون ــ فقال موسى لقومه ــ ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ــ إلى آخر القصة وبعدها ــ فقلنا اضربوه ببعضها ــ الآية . وقال الرازى فى تفسيره : اعلم أن وقوع القتل لابد أن يكون متقدما لأمره تعالى بالذبح ، فأما الاخبار عن وقوع ذلك القتل ، وعن أنه لابدّ أن يضرب القتيل ببعض تلك البقرة فلا يجب أن يكون متقدما على الاخبار عن قصة البقرة ، فقول من يقول هذه القصة يجب أن تكون متقدمة فى التلاوة على الأولى خطأ ، لأن هذه القصة فى نفسها يجب أن تكون متقدمة على الأولى فى الوجود فأما التقدم فى الذكر فغير واجب لأنه تارة يقدم ذكر السبب على ذكر الحكم ، وأخرى على العكس من ذلك ، فكأنهم لما وقعت لهم تلك الواقعة أمرهم الله بذبح البقرة ، فلما ذبحوها قال واذ قتلتم نفسا من قبل ، ونسب القتل اليهم بكون القاتل منهم ، وأصل ادّارأتم تدارأتم ، ثم أدغمت التاء فى الدال ، ولما كان الابتداء بالمدغم الساكن لايجوز زادوا ألف الوصل ، ومعنى ادّارأتم اختلفتم وتنازعتم ، لان المتنازعين يدرأ بعضهم بعضا أى يدفعه ، ومعنى مخرج مظهر أى ما كتمتم بينكم من أمر القتل ، فالله مظهره لعباده ومبينه لهم ، وهذه الجملة معترضة بين أجزاء الكلام أى فادّرأتم فيها فقلنا ، واختلف فى تعيين البعض الذى أمروا بأن يضربوا القتيل به ، ولاحاجة إلى ذلك مع ما فيه من القول بغير علم ، ويكفينا أن نقول أمرهم الله بأن يضربوه ببعضها فأىّ بعض ضربوا به فقد فعلوا ما أمروا به ، وما زاد على هذا فهو من فضول العلم اذا لم يرد به برهان * قوله ــ كذلك يحيي الله الموتى ــ فى الكلام حذف ، والتقدير ــ فقلنا اضربوه ببعضها ــ فأحياه الله ــ كذلك يحيى الله الموتى ــ أى إحياء كمثل هذا الاحياء * ــ ويريكم آياته ــ أى علاماته ودلائله الدالة على كمال قدرته ، وهذا يحتمل أن يكون خطابا لمن حضر القصة ، ويحتمل أن يكون خطابا للموجودين عند نزول القرآن * والقسوة الصلابة واليبس ، وهى عبارة عن خلوّها من الانابة والاذعان لآيات الله مع وجود ما يقتضى خلاف هذه القسوة من إحياء القتيل وتكلمه وتعيينه لقاتله ، والاشارة بقوله ــ من بعد ذلك ــ إلى ما تقدم من الآيات الموجبة للين القلوب ورقتها . قيل ــ أو ــ فى قوله ــ أو أشدّ قسوة ــ بمعنى الواو كما فى قوله تعالى ــ آثما أو كفورا ــ وقيل هى بمعنى بل ، وعلى أن أو على أصلها أو بمعنى الواو فالعطف على قوله ــ كالحجارة ــ أى هذه القلوب هى كالحجارة أو هى أشدّ قسوة منها فشبهوها بأىّ الأمرين شئتم فانكم مصيبون فى هذا التشبيه . وقد أجاب الرازى فى تفسيره عن وقوع أو ههنا مع كونها للترديد أى لايليق لعلام الغيوب بثمانية أوجه ، وانما توصل إلى أفعل التفضيل بأشدّ مع كونه يصح أن يقال وأقسى من الحجارة لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة ، كما قاله فى الكشاف . وقرأ الأعمش أو أشدّ بنصب الدال وكأنه عطفه على الحجارة فيكون أشدّ مجرورا بالفتحة * وقوله ــ وان من الحجارة ــ إلى آخره . قال فى الكشاف انه بيان لفضل قلوبهم على الحجارة فى شدّة القسوة وتقرير لقوله ــ أو أشدّ قسوة ــ انتهى

وفيه أن مجىء البيان بالواو غير معروف ولا مألوف ، والأولى جعل ما بعد الواو تذييلا أو حالا * التفجر التفتح . وقد سبق تفسيره ، وأصل يشقق يتشقق أدغمت التاء فى الشين ، وقد قرأ الأعمش يتشقق على الأصل وقرأ ابن مصرف ينشق بالنون ، والشق واحد الشقوق وهو يكون بالطول أو بالعرض ، بخلاف الانفجار فهو الانفتاح من موضع واحد مع اتساع الخرق * والمراد أن الماء يخرج من الحجارة من مواضع الانفجار والانشقاق ، ومن الحجارة ما يهبط أى ينحط من المكان الذى هو فيه إلى أسفل منه من الخشية لله التى تداخله وتحل به . وقيل ان الهبوط مجاز عن الخشوع منها ، والتواضع الكائن فيها انقيادا لله عز وجل فهو مثل قوله تعالى ــ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ــ وقد حكى ابن جرير عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الارادة للجدار ، وكما قال الشاعر :

لما أتى خبر الزبير تواضعت * سور المدينة والجبال الخشع

وذكر

وذكر الجاحظ أن الضمير فى قوله ـ وان منها ـ راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة ، وهو فاسد ، فان الغرض من سياق هذا الكلام هو التصريح بأن قلوب هؤلاء بلغت فى القسوة وفرط اليبس الموجبين لعدم قبول الحق والتأثر للمواعظ إلى مكان لم تبلغ إليه الحجارة التى هى أشدّ الأجسام صلابة ، وأعظمها صلادة ، فانها ترجع إلى نوع من اللين ، وهى تفجرها بالماء وتشققها عنه وقبولها لما توجبه الخشية لله من الخشوع والانقياد بخلاف تلك القلوب * وفى قوله ـ وما الله بغافل عما تعملون ـ من التهديد وتشديد الوعيد مالا يخفى ، فان الله عز وجل إذا كان عالما بما يعملونه مطلعا عليه غير غافل عنه كان لمجازاتهم بالمرصاد .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله ـ وإذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها ـ قال اختلفتم فيها ـ والله مخرج ما كنتم تكتمون ـ قال ما تغيبون . وأخرج ابن أبى حاتم والبيهقى فى شعب الايمان عن المسيب بن رافع قال « ما عمل رجل حسنة فى سبعة أبيات إلا أظهرها الله ، وما عمل رجل سيئة فى سبعة أبيات إلا أظهرها الله ، وتصديق ذلك فى كتاب الله ـ والله مخرج ما كنتم تكتمون ـ » وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن أبى سعيد قال قال رسول الله ﷺ « لو أن رجلا عمل عملا فى صخرة صماء لا باب لها ولا كوّة خرج عمله إلى الناس كائنا ما كان » وأخرج البيهقى من حديث عثمان قال قال رسول الله ﷺ « من كانت له سريرة صالحة أو سيئة أظهر الله عليه منها رداء يعرف به » ورواه البيهقى أيضا بنحوه من قول عثمان قال والموقوف أصح . وأخرج أبو الشيخ والبيهقى عن أنس مرفوعا حديثا طويلا فى هذا المعنى ، ومعناه أن الله يلبس كل عامل عمله حتى يتحدّث به الناس ويزيدون ، ولو عمله فى جوف بيت إلى سبعين بيتا على كل بيت باب من حديد ، وفى إسناده ضعف . وأخرج ابن عدى من حديث أنس أيضا مرفوعا « ان الله مردّ كل امرئ رداء عمله » * ولجماعة من الصحابة والتابعين كلمات تفيد هذا المعنى . وأخرج عبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ فقلنا اضربوه ببعضها ـ قال ضرب بالعظم الذى يلى الغضروف . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنهم ضربوه بفخذها . وأخرج مثله ابن جرير عن عكرمة . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد . وأخرج ابن جرير عن السدى قال ضرب بالبضعة التى بين الكتفين . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ فى العظمة عن وهب بن منبه قصة طويلة فى ذكر البقرة وصاحبها لا حاجة إلى التطويل بذكرها ، وقد استوفاها فى الدرّ المنثور . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله ـ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ـ قال من بعد ما أراهم الله من إحياء الموتى ومن بعد ما أراهم من أمر القتيل ـ فهى كالحجارة أو أشدّ قسوة ـ ثم عذر الله الحجارة ولم يعذر شقىّ بنى آدم فقال ـ وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ـ الى آخر الآية . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : أى من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون اليه من الحق . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال « ان الحجر ليقع على الأرض ولو اجتمع عليه فئام من الناس ما استطاعوه ، وانه ليهبط من خشية الله »

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ *

قوله ـ أفتطمعون ـ هذا الاستفهام فيه معنى الانكار كأنه آيسهم من ايمان هذه الفرقة من اليهود ، والخطاب

لأصحاب النبى ﷺ أوله ولهم * و ـ يؤمنوا لكم ـ أى لأجلكم ، أو على تضمين آمن معنى استجاب ، أى أتطمعون أن يستجيبوا لكم * والفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه * ـ وكلام الله ـ أى التوراة ، وقيل انهم سمعوا خطاب الله لموسى حين كلمه ، وعلى هذا فيكون الفريق هم السبعون الذى اختارهم موسى ، وقرأ الأعمش ـ كلم الله ـ * والمراد من التحريف أنهم عمدوا إلى ماسمعوه من التوراة فجعلوا حلاله حراما أو نحو ذلك مما فيه موافقة لأهوائهم كتحريفهم صفة رسول الله ﷺ واسقاط الحدود عن أشرافهم ، أو سمعوا كلام الله لموسى فزادوا فيه ونقصوا ، وهذا إخبار عن اصرارهم على الكفر وانكار على من طمع فى إيمانهم وحالهم هذه الحال ، أى ولهم سلف حرفوا كلام الله وغيروا شرائعه وهم مقتدون بهم متبعون سبيلهم * ومعنى قوله ـ من بعد ماعقلوه ـ أى من بعد مافهموه بعقولهم مع كونهم يعلمون أن ذلك الذى فعلوه تحريف مخالف لما أمرهم الله به من تبليغ شرائعه كما هى ، فهم وقعوا فى المعصية عالمين بها ، وذلك أشد لعقوبتهم وأبين لضلالهم * ـ واذا لقوا الذين آمنوا ـ يعنى ان المنافقين ـ إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضهم إلى بعض ـ أى اذا خلا الذين لم ينافقوا بالمنافقين قالوا لهم عاتبين عليهم ـ أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ـ أى حكم عليكم من العذاب ، وذلك أن ناسا من اليهود أسلموا ثم نافقوا فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذب به آباؤهم ، وقيل ان المراد مافتح الله عليهم فى التوراة من صفة محمد ، وقد تقدم معنى خلا * والفتح عند العرب القضاء والحكم والفتاح القاضى بلغة اليمن ، والفتح النصر ، ومن ذلك قوله تعالى ـ يستفتحون على الذين كفروا ـ وقوله ـ ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ـ ومن الأول ثم يفتح بيننا بالحق ـ وهو خير الفاتحين ـ أى الحاكمين ، ويكون الفتح بمعنى الفرق بين الشيئين * والمحاجة ابراز الحجة ، أى لاتخبروهم بما حكم الله به عليكم من العذاب فيكون ذلك حجة لهم عليكم فيقولون نحن أكرم على الله منكم وأحق بالخير منه ، والحجة الكلام المستقيم ، وحاججت فلانا فحججته أى غلبته بالحجة * ـ أفلا تعقلون ـ مافيه الضرر عليكم من هذا التحدث الواقع منكم لهم ، ثم وبخهم الله سبحانه فقال ـ أولا يعلمون أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون ـ من جميع أنواع الأسرار وأنواع الاعلان ، ومن ذلك إسرارهم الكفر واعلانهم الايمان .

وقد أخرج ابن اسحق وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال ثم قال الله لنبيه ومن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم ـ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ـ وليس قوله يسمعون التوراة كلهم قد سمعها ولكنهم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله ـ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ـ الآية قال هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ماسمعوه ووعوه ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله ـ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ـ الآية قال الذين يحرفونه والذين يكتبونه هم العلماء منهم ، والذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم هؤلاء كلهم يهود . وأخرج ابن جرير عن السدى فى قوله ـ يسمعون كلام الله ـ قال هى التوراة حرفوها . وأخرج ابن اسحق وابن جرير عن ابن عباس فى قوله ـ واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ـ أى بصاحبكم رسول الله ﷺ ولكنه اليكم خاصة ـ واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا لاتحدثوا العرب بهذا فقد كنتم تستفتحون به عليهم ، وكان منهم ليحاجوكم به عند ربكم أى تقرون بأنه نبى وقد علمتم أنه قد أخذ عليكم الميثاق باتباعه وهو يخبرهم أنه النبى الذى كان ينتظر ونجد فى كتابنا اجحدوه ولاتقروا به . وأخرج ابن جرير عنه أن هذه الآية فى المنافقين من اليهود * وقوله ـ بما فتح الله عليكم يعنى بما أكرمكم به . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال نزلت هذه الآية فى ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا وكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به فقال بعضهم لبعض أتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب لتقولوا نحن أحب الى الله منكم وأكرم على الله منكم ، وقد

أخرج

أخرج ابن جرير عن ابن زيد أن سبب نزول الآية أن النبي ﷺ قال لايدخلنّ علينا قصبة المدينة إلا مؤمن فكان اليهود يظهرون الايمان فيدخلون ويرجعون الى قومهم بالأخبار ، وكان المؤمنون يقولون لهم أليس قد قال الله فى التوراة كذا وكذا ؟ فيقولون نعم فاذا رجعوا الى قومهم ـ قلوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ـ الآية . وروى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد أن سبب نزول الآية أن النبي ﷺ قام لقوم قريظة تحت حصونهم فقال ياإخوان القردة والخنازير وياعبدة الطاغوت ، فقالوا من أخبر هذا الأمر محمدا ؟ ماخرج هذا الأمر إلامنكم أتحدثونهم بما فتح الله عليكم أى بما حكم الله ليكون لهم حجة عليكم ، وروى ابن أبى حاتم عن عكرمة أن السبب فى نزول الآية أن امرأة من اليهود أصابت فاحشة فجاءوا الى النبي ﷺ يبتغون منه الحكم رجاء الرخصة ، فدعا رسول الله ﷺ عالمهم وهو ابن صوريا فقال له احكم قال فجبوه ، والتجبية يحملونه على حمار ويجعلون وجهه الى ذنب الحمار ، فقال رسول الله ﷺ أبحكم الله حكمت ؟ قال لا ولكن نساءنا كنّ حسانا فاسرع فيهنّ رجالنا فغيرنا الحكم وفيه نزل ـ واذا خلا بعضهم الى بعض ـ الآية ، وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله ـ واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ـ قال هم اليهود وكانوا اذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا فصانعوهم بذلك ليرضوا عنهم واذا خلا بعضهم الى بعض نهى بعضهم بعضا أن يحدثوا بما فتح الله عليهم وبين لهم فى كتابه من أمر محمد ﷺ ونعته ونبوّته وقالوا انكم اذا فعلتم ذلك احتجوا بذلك عليكم عند ربكم ـ أفلا تعقلون أولا يعلمون أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون ـ قال مايعلنون من أمرهم وكلامهم اذا لقوا الذين آمنوا ، ومايسرون اذا خلا بعضهم الى بعض من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به ، وهم يجدونه مكتوبا عندهم ، وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله ـ أولا يعلمون أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون ـ يعنى من كفرهم بمحمد ﷺ ولكذبهم ، ومايعلنون حين قالوا للمؤمنين آمنا ، وقد قال بمثل هذا جماعة من السلف .

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ * وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *

قوله ـ ومنهم ـ أى من اليهود * والأمىّ منسوب الى الأمة الأمية التى هى على أصل ولادتها من أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولاتحسن القراءة للمكتوب ، ومنه حديث إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، وقال أبو عبيدة انما قيل لهم أميون لنزول الكتاب عليهم كأنهم نسبوا الى أم الكتاب فكأنه قال ومنهم أهل كتاب ، وقيل هم نصارى العرب ، وقيل هم قوم كانوا أهل كتاب فرفع كتابهم لذنوب ارتكبوها ، وقيل هم المجوس ، وقيل غير ذلك ، والراجح الأوّل ، ومعنى ـ لايعلمون الكتاب إلا أمانىّ ـ أنه لاعلم لهم به إلا ماهم عليه من الأمانىّ التى يتمنونها ويعللون بها أنفسهم * والأمانىّ جمع أمنية ، وهى مايتمناه الانسان لنفسه ، فهؤلاء لاعلم لهم بالكتاب الذى هو التوراة لما هم عليه من كونهم لا يكتبون ولايقرءون المكتوب ، والاستثناء منقطع أى لكن الأمانىّ ثابتة لهم من كونهم مغفورا لهم بمايدّعونه لأنفسهم من الأعمال الصالحة ، أو بما لهم من السلف الصالح فى

اعتقادهم ، وقيل الأمانىّ الأكاذيب كما سيأتى عن ابن عباس ، ومنه قول عثمان بن عفان ماتمنيت منذ أسلمت أى ما كذبت ، حكاه عنه القرطبى فى تفسيره ، وقيل الأمانى التلاوة ، ومنه قوله تعالى ـ إلا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ـ أى اذا تلا ألقى الشيطان فى تلاوته ، أى لاعلم لهم إلا مجرد التلاوة من دون تفهم وتدبر ، ومنه قول كعب بن مالك :

تمنى كتاب الله أوّل ليله * وآخره لاقى حمام المقادر

وقال آخر

تمنى كتاب الله آخر ليلة * تمنى داود الزبور على رسل

وقيل الأمانىّ التقدير ، قال الجوهرى يقال منى له أى قدّر ، ومنه قول الشاعر :

لاتأمنن وان أمسيت فى حرم * حتى تلاقى مايمنى لك المانى

أى يقدر لك المقدر . قال فى الكشاف والاشتقاق من منى اذا قدّر لأن المتمنى يقدر فى نفسه ويجوّز ماتمناه ، وكذلك المختلق والقارئ يقدران كلمة كذا بعد كذا انتهى * ـ و إن ـ فى قوله ـ وان هم إلا يظنون ـ نافية أى ماهم * والظن هو التردد الراجح بين طرفى الاعتقاد الغير الجازم كذا فى القاموس ، أى ماهم الا يترددون بغير جزم ولا يقين ، وقيل الظن هنا بمعنى الكذب ، وقيل هو مجرد الحدس * لما ذكر الله سبحانه أهل العلم منهم بانهم غير عاملين بل يحرّفون كلام الله من بعد ماعقلوه وهم يعلمون ذكر أهل الجهل منهم بانهم يتكلون على الامانى و يعتمدون على الظن الذى لايقفون من تقليدهم على غيره ولا يظفرون بسواه * والويل الهلاك ، وقال الفراء الأصل فى الويل وى أى حزن كما تقول وى لفلان أى حزن له ، فوصلته العرب باللام ، قال الخليل : لم نسمع على بنائه إلا ويح ، وويس ، وويه ، وويك ، وويب ، وكله متقارب فى المعنى ، وقد فرق بينها قوم وهى مصادر لم ينطق العرب بافعالها ، وجاز الابتداء به ، وان كان نكرة لأن فيه معنى الدعاء * والكتابة معروفة ، والمراد أنهم يكتبون الكتاب المحرف ولا يبينون ولا ينكرونه على فاعله * وقوله ـ بأيديهم ـ تأكيد لأن الكتابة لاتكون إلا باليد فهو مثل قوله ـ ولا طائر يطير بجناحيه ـ * وقوله ـ يقولون بأفواههم ـ وقال ابن السراج هو كناية عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم * وفيه أنه قد دلّ على أنه من تلقائهم قوله ـ يكتبون الكتاب ـ فاسناد الكتابة اليهم يفيد ذلك * والاشتراء الاستبدال ، وقد تقدّم الكلام عليه ووصفه بالقلة لكونه فانيا لاثواب فيه ، أو لكونه حراما لاتحل به البركة ، فهؤلاء الكتبة لم يكتفوا بالتحريف ولا بالكتابة لذلك المحرّف حتى نادوا فى المحافل بأنه من عند الله لينالوا بهذه المعاصى المتكررة هذا الغرض النزر والعوض الحقير * وقوله ـ مما يكسبون ـ قيل من الرشا ونحوها ، وقيل من المعاصى ، وكرر الويل تغليظا عليهم وتعظيما لفعلهم وهتكا لأستارهم * ـ وقالوا ـ أى اليهود ـ لن تمسنا النار ـ الآية . وقد اختلف فى سبب نزول الآية كما سيأتى بيانه . والمراد بقوله ـ قل أتخذتم عند الله عهدا ـ الانكار عليهم لما صدر منهم من هذه الدعوى الباطلة انها لن تمسهم النار الا أياما معدودة ، أى لم يتقدّم لكم مع الله عهدا بهذا ولا أسلفتم من الأعمال الصالحة مايصدّق هذه الدعوى حتى يتعين الوفاء بذلك وعدم اخلاف العهد أى ان ـ اتخذتم عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون ـ . قال فى الكشاف ، وأم اما أن تكون معادلة بمعنى أىّ الأمرين كائن على سبيل التقرير لأن العلم واقع بكون أحدهما ، ويجوز أن تكون منقطعة انتهى ، وهذا توبيخ لهم شديد . قال الرازى فى تفسيره : العهد فى هذا الموضع يجرى مجرى الوعد ، وانما سمى خبره سبحانه عهدا لأن خبره أوكد من العهود المؤكدة * وقوله ـ بلى ـ اثبات بعد النفى أى بلى تمسكم لاعلى الوجه الذى ذكرتم من كونه أياما معدودة * والسيئة المراد بها الجنس هنا ، ومثله قوله تعالى ـ وجزاء سيئة سيئة مثلها * من يعمل سوءا يجز به ـ ثم أوضح سبحانه أن مجرد كسب السيئة لايوجب

الخلود فى النار بل لابد أن تكون سيئة محيطة به . قيل هى الشرك ، وقيل الكبيرة ، وتفسيرها بالشرك أولى لما ثبت فى السنة تواترا من خروج عصاة الموحدين من النار ، ويؤيد ذلك كونها نازلة فى اليهود وان كان الاعتبار بعموم اللفظ لابخصوص السبب . وقد قرأ نافع خطياته بالجمع ، وقرأ الباقون بالافراد ، وقد تقدم تفسير الخلود .

وقد أخرج ابن اسحاق وابن جرير عن ابن عباس فى قوله ـ ومنهم أميون لايعلمون الكتاب ـ قال لايدرون مافيه ـ وان هم إلا يظنون ـ قال وهم يجحدون نبوّتك بالظن . وأخرج ابن جرير عنه قال الأمّيون قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله ، ولا كتابا أنزله الله فكتبوا كتابا بأيديهم ، ثم قالوا لقوم سفلة جهال هذا من عند الله . وقد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ، ثم سماهم أمّيين لجحودهم كتب الله ورسله . وأخرج ابن جرير عن النخعى . قال منهم من لايحسن أن يكتب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ إلا أمانىّ ـ قال الاحاديث . وأخرج ابن جرير عنه انها الكذب . وكذا روى مثله عبد بن حميد عن مجاهد ، وزاد ـ وان هم إلا يظنون ـ قال الا يكذبون . وأخرج النسائى وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله ـ فويل للذين يكتبون الكتاب ـ قال نزلت فى أهل الكتاب . وأخرج أحمد والترمذى وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه ، وصححه عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ قال «ويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره» وأخرج ابن جرير من حديث عثمان مرفوعا قال الويل جبل فى النار . وأخرج البزار وابن مردوية من حديث سعد بن أبى وقاص مرفوعا أنه حجر فى النار . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ فويل للذين يكتبون الكتاب ـ قال هم أحبار اليهود وجدوا صفة النبى ﷺ مكتوبة فى التوراة أكحل أعين ربعة جعد الشعر حسن الوجه ، فلما وجدوه فى التوراة محوه حسدا وبغيا ، فأتاهم نفر من قريش فقالوا : تجدون فى التوراة نبيا أمّيا ؟ فقالوا نعم نجده طويل أزرق سبط الشعر ، فأنكرت قريش وقالوا ليس هذا منا * وأخرج ابن جرير عنه فى قوله ـ ثمنا قليلا ـ قال عرضا من عرض الدنيا * ـ فويل لهم ـ قال فالعذاب عليهم من الذى كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب * ـ وويل لهم مما يكسبون ـ يقول مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم . وقد ذكر صاحب الدر المنثور آثارا عن جماعة من السلف أنهم كرهوا بيع المصاحف مستدلين بهذه الآية ، ولادلالة فيها على ذلك ، ثم ذكر آثارا عن جماعة منهم أنهم جوّزوا ذلك ولم يكرهوه . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والواحدى عن ابن عباس : ان اليهود كانوا يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وانما نعذب بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوما واحدا فى النار ، وانما هى سبعة أيام معدودة ، ثم ينقطع العذاب ، فأنزل الله فى ذلك ـ وقالوا لن تمسنا النار ـ الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه . قال وجد أهل الكتاب مسيرة مابين طرفى جهنم مسيرة أربعين فقالوا لن تعذب أهل النار الا قدر أربعين ، فاذا كان يوم القيامة ألجموا فى النار فساروا فيها حتى انتهوا الى سقر وفيها شجرة الزقوم الى آخر يوم من الأيام المعدودة ، فقال لهم خزنة النار ياأعداء الله زعمتم أنكم لن تعذبوا فى النار إلا أياما معدودة . فقد انقضى العدد وبقى الأبد ، فيؤخذون فى الصعود يرهقون على وجوههم . وأخرج ابن جرير عنه أن اليهود قالوا لن تمسنا النار الا أربعين ليلة مدة عبادة العجل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال اجتمعت يهود يوما فخاصموا النبى ﷺ فقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودات أربعين يوما . ثم يخلفنا فيها ناس وأشاروا الى النبى ﷺ وأصحابه ، فقال رسول الله ﷺ ورد يديه على رأسه كذبتم بل أنتم خالدون تخلدون فيها لانخلفكم فيها ان شاء الله أبدا ففيهم نزلت هذه الآية * ـ وقالوا لن تمسنا النار ـ . وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم مرفوعا نحوه . وأخرج أحمد والبخارى والدارمى

والنسائى من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ سأل اليهود فى خيبر من أهل النار ؟ فقالوا نكون فيها يسيرا ، ثم تخلفونا فيها ، فقال لهم رسول الله ﷺ اخسئوا والله لانخلفكم فيها أبدا . وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله ـ قل أتخذتم عند الله عهدا ـ أى موثقا من الله بذلك أنه كما تقولون . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه فسر العهد هنا بأنهم قالوا لا إله إلا الله لم يشركوا به ، ولم يكفروا . وأخرج عبد ابن حميد عن قتادة فى قوله ـ أم تقولون على الله مالا تعلمون ـ قال : قال القوم الكذب والباطل ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ بلى من كسب سيئة ـ قال الشرك . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد وعكرمة وقتادة مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة فى قوله ـ وأحاطت به خطيآته ـ قال أحاط به شركه . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله ـ بلى من كسب سيئة ـ أى من عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم حتى يحيط كفره بماله من حسنة ـ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ أى من آمن بما كفرتم به وعمل بما تركتم من دينه فلهم الجنة خالدين فيها . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله ـ وأحاطت به خطيآته قال هى الكبيرة الموجبة لأهلها النار ، وأخرج وكيع وابن جرير عن الحسن أنه قال كل ماوعدالله عليه النار فهو الخطيئة . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن الربيع بن خيثم قل هو الذى يموت على خطيئته قبل أن يتوب . وأخرج مثله ابن جرير عن الأعمش .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَآتُوا ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ *

قد تقدّم تفسير الميثاق المأخوذ على بنى اسرائيل ، وقال مكى ان الميثاق الذى أخذه الله عليهم هنا هو ماأخذه الله عليهم فى حياتهم على ألسن أنبيائهم ، وهو قوله ـ لاتعبدون إلا الله ـ وعبادة الله اثبات توحيده وتصديق رسله والعمل بما أنزل فى كتبه ، قال سيبويه ان قوله ـ لاتعبدون إلا الله ـ هو جواب قسم ، والمعنى استحلفناهم والله لاتعبدون إلا الله ، وقيل هو اخبار فى معنى الأمر ، ويدل عليه قراءة أبىّ وابن مسعود لاتعبدوا على النهى ، ويدل عليه أيضا ماعطف عليه من قوله وقولوا وأقيموا وآتوا ، وقال قطرب والمبرد ان قوله ـ لاتعبدون ـ جملة حالية أى أخذنا ميثاقهم موحدين أو غير معاندين ، قال القرطبى وهذا انما يتجه على قراءة ابن كثير وحمزة والكسائى يعبدون بالياء التحتية ، وقال الفراء والزجاج وجماعة ان معناه أخذنا ميثاقكم بان لاتعبدوا إلا الله وبان تحسنوا بالوالدين وبان لاتسفكوا الدماء ثم حذف أن فارتفع الفعل لزوالها قال المبرد هذا خطأ لان كل ماأضمر فى العربية فهو يعمل عمله مظهرا ، وقال القرطبى ليس بخطأ بل هما

وجهان صحيحان ، وعليهما أنشد :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغا * وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

بالنصب لقوله أحضر و بالرفع * والاحسان الى الوالدين معاشرتهما بالمعروف والتواضع لهما وامتثال أمرهما وسائر ما أوجبه الله على الولد لوالديه من الحقوق * والقربى مصدر كالرجعى والعقبى ، هم القرابة ، والاحسان بهم صلتهم والقيام بما يحتاجون اليه بحسب الطاقة وبقدر ما تبلغ اليه القدرة * واليتامى جمع يتيم واليتيم فى بنى آدم من فقد أبوه . وفى سائر الحيوانات من فقدت أمه . وأصله الانفراد ، يقال : صبى يتيم ، أى منفرد من أبيه * والمساكين جمع مسكين ، وهو من أسكنته الحاجة وذللته ، وهو أشد فقرا من الفقير عند أكثر أهل اللغة وكثير من أهل الفقه . وروى عن الشافعى أن الفقير أسوأ حالا من المسكين . وقد ذكر أهل العلم لهذا البحث أدلة مستوفاة فى مواطنها * ومعنى قوله ــ وقولوا للناس حسنى ــ أى قولوا لهم قولا حسنا فهو صفة مصدر محذوف . وهو مصدر كبشرى . وقرأ حمزة والكسائى حسنا بفتح الحاء والسين . وكذلك قرأ زيد بن ثابت وابن مسعود . قال الأخفش هما بمعنى واحد : مثل البخل والبخل ، والرشد والرشد . وحكى الأخفش أيضا حسنى بغير تنوين على فعلى . قال النحاس وهذا لايجوز فى العربية لايقال من هذا شىء الا بالألف واللام ، نحو الفضلى . والكبرى والحسنى . وهذا قول سيبويه . وقرأ عيسى بن عمر حسنا بضمتين * والظاهر أن هذا القول الذى أمرهم الله به لايختص بنوع معين ، بل كل ما صدق عليه أنه حسن شرعا كان من جملة ما يصدق عليه هذا الأمر . وقد قيل ان ذلك هو كلمة التوحيد . وقيل الصدق ، وقيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وقيل غير ذلك * وقوله ــ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ــ قد تقدم تفسيره ، وهو خطاب لبنى اسرائيل ، فالمراد الصلاة التى كانوا يصلونها ، والزكاة التى كانوا يخرجونها قال ابن عطية : وزكاتهم هى التى كانوا يضعونها فتنزل النار على ما يقبل ، ولا تنزل على ما لا يقبل * وقوله ــ ثم توليتم ــ قيل الخطاب للحاضرين منهم فى عصر النبى ﷺ لأنهم مثل سلفهم فى ذلك ، وفيه التفات من الغيبة الى الخطاب * وقوله ــ إلا قليلا ــ منصوب على الاستثناء ، ومنهم عبد الله بن سلام وأصحابه * وقوله ــ وأنتم معرضون ــ فى موضع النصب على الحال * والاعراض والتولى بمعنى واحد . وقيل : التولى بالجسم ، والاعراض بالقلب * وقوله ــ لاتسفكون ــ الكلام فيه كالكلام فى لاتعبدون وقد سبق . وقرأ طلحة بن مصرف وشعيب بن أبى حمزة بضم الفاء ، وهى لغة . وقرأ أبو نهيك بضم الياء وتشديد الفاء وفتح السين ، والسفك الصب . وقد تقدم ، والمراد أنه لايفعل ذلك بعضهم ببعض * والدار المنزل الذى فيه أبنية المقام ، بخلاف منزل الارتحال . وقال الخليل : كل موضع حله قوم فهو دارهم وان لم يكن فيه أبنية . وقيل سميت دارا لدورها على سكانها . كما يسمى الحائط حائطا لاحاطته على ما يحويه * وقوله ــ ثم أقررتم ــ من الاقرار أى حصل منكم الاعتراف بهذا الميثاق المأخوذ عليكم فى حال شهادتكم على أنفسكم بذلك . قيل الشهادة هنا بالقلوب . وقيل هى بمعنى الحضور أى انكم الآن تشهدون على أسلافكم بذلك . وكان الله سبحانه قد أخذ فى التوراة على بنى اسرائيل أن لايقتل بعضهم بعضا ولاينفيه ، ولا يسترقه وقوله ــ ثم أنتم هؤلاء ــ أى أنتم هؤلاء المشاهدون الحاضرون تخالفون ما أخذه الله عليكم فى التوراة فتقتلون أنفسكم الى آخر الآية . وقيل ان هؤلاء منصوب باضمار أعنى . ويمكن أن يقال منصوب بالذم أو الاختصاص ، أى أذم أو أخص . وقال القتيبى ان التقدير يا هؤلاء . قال النحاس هذا خطأ على قول سيبويه لايجوز . وقال الزجاج هؤلاء بمعنى الذين أى ثم أنتم الذين تقتلون . وقيل هؤلاء مبتدأ وأنتم خبر مقدم . وقرأ الزهرى تقتلون مشددا ، فمن جعل قوله ــ أنتم هؤلاء ــ مبتدأ وخبرا جعل قوله ــ تقتلون ــ بيانا لان معنى قوله ــ أنتم هؤلاء ــ أنهم على حالة كحالة أسلافهم من نقض الميثاق . ومن جعل هؤلاء

منادى أو منصوبا بما ذكرنا جعل الخبر تقتلون وما بعده * وقوله ـ تظاهرون ـ بالتشديد ، وأصله تتظاهرون أدغمت التاء فى الظاء لقربها منها فى المخرج ، وهى قراءة أهل مكة . وقرأ أهل الكوفة تظاهرون مخففا بحذف التاء الثانية ، لدلالة الأولى عليها * وأصل المظاهرة المعاونة مشتقة من الظهر لان بعضهم يقوى بعضا فيكون له كالظهر ، ومنه قول الشاعر :

تظاهرتم من كل أوب ووجهة * على واحد لازلتم قرن واحد

ومنه قوله تعالى ـ وكان الكافر على ربه ظهيرا ـ وقوله ـ والملائكة بعدذلك ظهير ـ * وأسارى حال . قال أبوعبيد وكان أبوعمرو يقول : ماصار فى أيديهم فهو أسارى ، وماجاء مستأسرافهوالاسرى . ولا يعرف أهل اللغة ماقال أبوعمرو . وانما هذا كما تقول سكارى وسكرى . وقد قرأ حمزة أسرى . وقرأ الباقون أسارى ، والأسرى جمع أسير كالقتلى جمع قتيل ، والجرحى جمع جريح . قال أبو حاتم ولا يجوز أسارى . وقال الزجاج يقال أسارى ، كما يقال سكارى . وقال ابن فارس يقال فى جمع أسير أسرى وأسارى انتهى . فالعجب من أبى حاتم حيث ينكر ماثبت فى التنزيل . وقرأ به الجمهور ، والأسير مشتق من السير ، وهو القيد الذى يشدّ به المحمل ، فسمى أسيرا لانه يشدّ وثاقه ، والعرب تقول قد أسرقتبه أى شدّه ، ثم سمى كل أخيذ أسيرا وان لم يؤخذ * وقوله ـ تفادوهم ـ جواب الشرط وهى قراءة حمزة ونافع والكسائى . وقرأ الباقون ـ تفدوهم ـ * والفداء هو مايوجد من الأسير ليفك به أسره ، يقال فداه وفاداه : اذا أعطاه فداءه . قال الشاعر :

قفى فادى أسيرك ان قومى * وقومك ماأرى لهم اجتماعا

وقوله ـ وهو محرّم عليكم إخراجهم ـ الضمير للشأن ، وقيل مبهم تفسره الجملة التى بعده ، وزعم الفراء أن هذا الضمير عماد . واعترض عليه بأن العماد لا يكون فى أوّل الكلام * ـ واخراجهم ـ مرتفع بقوله ـ محرّم ـ سادّ مسدّ الخبر . وقيل بل مرتفع بالابتداء ـ ومحرّم ـ خبره . قال المفسرون كان الله سبحانه . قد أخذ على بنى اسرائيل أربعة عهود ، ترك القتل ، وترك الاخراج ، وترك المظاهرة ، وفداء أسراهم ، فأعرضوا عن كل ماأمروا به إلا الفداء ، فوبخهم الله على ذلك * بقوله ـ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ـ * والخزى الهوان . قال الجوهرى وخزى بالكسر يخزى خزيا : اذا ذلّ وهان وقد وقع هذا الجزاء الذى وعد الله به الملاعين اليهود موفرا ، فصاروا فى خزى عظيم بما ألصق بهم من الذل والمهانة بالقتل والأسر وضرب الجزية والجلاء ، وانما ردّهم الله يوم القيامة إلى أشدّ العذاب ، لأنهم جاءوا بذنب شديد ومعصية فظيعة . وقد قرأ الجمهور يردّون بالياء التحتية . وقرأ الحسن بالفوقية على الخطاب . وقد تقدّم تفسير قوله ـ وما الله بغافل عما يعملون ـ وكذلك تفسير ـ أولئك الذين اشتروا ـ * وقوله ـ فلا يخفف ـ اخبار من الله سبحانه بأن اليهود لايزالون فى عذاب موفر لازم لهم بالجزية والصغار والذلة والمهانة ، فلا يخفف عنهم ذلك أبدا ماداموا ، ولا يوجد لهم ناصر يدفع عنهم ، ولا يثبت لهم نصر فى أنفسهم على عدوّهم .

وقد أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل ـ قال يؤنبهم أى ميثاقكم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله ـ وقولوا للناس حسنى ـ قال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وروى البيهقى فى الشعب عن علىّ فى قوله ـ وقولوا للناس حسنى ـ قال يعنى الناس كلهم ، ومثله روى عبد بن حميد وابن جرير عن عطاء . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ ثم توليتم ـ قل أى تركتم ذلك كله . وأخرج ابن جرير عنه أنه قال معناه أعرضتم عن طاعتى إلا قليلا منكم وهم الذين اخترتهم لطاعتى . وأخرج ابن جرير عن

أبى

Read 'Āṣim here in place of Ḥamza of Tasūr p.74.

أبى العالية فى قوله ـ لاتسفكون دماءكم ـ لايقتل بعضكم بعضا ـ ولاتخرجون أنفسكم من دياركم ـ لايخرج بعضكم بعضا من الديار ـ ثم أقررتم ـ بهذا الميثاق ـ وأنتم تشهدون ـ وأنتم شهود . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ ثم أقررتم ـ أن هذا حق من ميثاقى عليكم ـ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ـ أى أهل الشرك حتى تسفكوا دماءهم معهم ـ وتخرجون فريقامنكم من ديارهم ـ قال تخرجونهم من ديارهم معهم ـ تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان ـ فكانوا اذا كان بين الأوس والخزرج حرب خرجت معهم بنو قينقاع مع الخزرج والنضير وقريظة مع الأوس وظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى يسافكوا دماءهم ، فاذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقا لما فى التوراة ـ وان يأتوكم أسارى تفادوهم ـ وقد عرفتم أن ذلك عليكم فى دينكم ـ وهو محرّم عليكم ـ فى كتابكم لاخراجهم ـ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ـ أتفادونهم مؤمنين بذلك ، وتخرجونهم كفرا بذلك . وأخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله ـ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ـ قال استحبوا قليل الدنيا على كثير الآخرة .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ *

الكتاب التوراة ، والتقفية الاتباع والارداف ، مأخوذة من القفا وهو مؤخر العنق ، تقول : استقفيته اذا جئت من خلفه ، ومنه سميت قافية الشعر لأنها تتلوسائر الكلام * والمراد أن الله سبحانه أرسل على أثره رسلا جعلهم تابعين له وهم أنبياء بنى اسرائيل المبعوثون من بعده * و ـ البينات ـ الأدلة التى ذكرها الله فى آل عمران والمائدة * والتأييد التقوية . وقرأ مجاهد وابن محيصن ـ آيدناه ـ بالمدّ وهما لغتان * وروح القدس من إضافة الوصوف الى الصفة أى الروح المقدّسة ، والقدس الطهارة ، والمقدّس المطهر ، قيل هو جبريل أيد الله به عيسى ، ومنه قول حسان :

وجبريل أمين الله فينا * وروح القدس ليس به خفاء

قال النحاس وسمى جبريل روحا وأضيف الى القدس لأنه كان بتكوين الله له من غير ولادة . وقيل القدس هو الله عز وجل ، وروحه جبريل . وقيل المراد بروح القدس الاسم الذى كان عيسى يحيي به الموتى وقيل المراد به الانجيل . وقيل المراد به الروح المنفوخ فيه ، أيده الله به لما فيه من القوّة * وقوله ـ بما لاتهوى أنفسكم ـ أى بمالا يوافقها ويلائمها . وأصل الهوى الميل الى الشىء . قال الجوهرى وسمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه الى النار * وبخهم الله سبحانه بهذا الكلام المعنون بهمزة التوبيخ فقال ـ أفكلما جاءكم رسول ـ منكم ـ بمالا ـ يوافق ماتهوونه استكبرتم عن اجابته احتقارا للرسل واستبعادا للرسالة ، والفاء فى قوله ـ أفكلما ـ للعطف على مقدّر أى آتينا كم يابنى اسرائيل من الأنبياء ما آتينا كم أفكلما جاءكم رسول * وفريقا منصوب بالفعل الذى بعده والفاء للتفصيل ، ومن الفريق المكذبين عيسى ومحمد ، ومن الفريق المقتولين يحيي وزكريا * والغلف جمع أغلف ، المراد به هنا الذى عليه غشاوة تمنع من وصول الكلام اليه ، ومنه غلفت السيف أى جعلت له غلافا . قال فى الكشاف هو مستعار من الأغلف الذى لم يختن كقوله ـ قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ـ وقيل ان الغلف جمع غلاف مثل حمار وحمر أى قلوبنا أوعية للعلم فما بالها لاتفهم عنك . وقد وعينا علما كثيرا ، فردّ الله عليهم ماقالوه فقال ـ بل لعنهم الله بكفرهم ـ وأصل اللعن فى كلام العرب الطرد والابعاد ، ومنه قول الشماخ :

ذعرت به القطا ونفيت عنه * مقام الذئب كالرجل اللعين

أى كالرجل المطرود . والمعنى أبعدهم الله من رحمته ، و ـ قليلا ـ نعت لمصدر محذوف أى إيمانا قليلا مايؤمنون ، وما زائدة ، وصف إيمانهم بالقلة ، لأنهم الذين قص الله علينا من عنادهم وعجرفتهم وشدّة لجاجهم ، و بعدهم عن إجابة الرسل ماقصه ، ومن جملة ذلك أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض وقال معمر : المعنى لايؤمنون إلا قليلا مما فى أيديهم ويكفرون بأكثره ، وعلى هذا يكون قليلا منصوبا بنزع الخافض . وقال الواقدى معناه لايؤمنون قليلا ولا كثيرا . قال الكسائى تقول العرب مررنا بأرض قلّ ماتنبت الكراث والبصل أى لاتنبت شيئا .

وقد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله ـ ولقد آتينا موسى الكتاب ـ يعنى به التوراة جملة واحدة مفصلة محكمة ـ وقفينا من بعده بالرسل ـ يعنى رسولا يدعى أشمويل بن بابل ، ورسولا يدعى منشابيل ، ورسولا يدعى شعياء ، ورسولا يدعى حزقيل ، ورسولا يدعى أرمياء وهو الخضر ، ورسولا يدعى داود وهو أبو سليمان ، ورسولا يدعى المسيح عيسى ابن مريم ، فهؤلاء الرسل ابتعثهم الله وانتخبهم من الأمة بعد موسى فأخذنا عليهم ميثاقا غليظا أن يؤدوا إلى أمتهم صفة محمد ﷺ وصفة أمته . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله ـ وآتينا عيسى ابن مريم البينات ـ قال هى الآيات التى وضع على يديه من إحياء الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير ، و إبراء الاسقام ، والخبر بكثير من الغيوب ، وماورد عليهم من التوراة والانجيل الذى أحدث الله إليه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله ـ وأيدناه ـ قال قوّيناه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال روح من القدس الاسم الذى كان عيسى يحيى به الموتى . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال القدس الله تعالى . وأخرج عن الربيع بن أنس مثله . وأخرج عن ابن عباس قال القدس الطهر . وأخرج عن السدّى قال القدس البركة . وأخرج عن اسمعيل بن أبى خالد ان روح القدس جبريل . وأخرج عن ابن مسعود مثله . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن جابر عن النبى ﷺ قال روح القدس جبريل . وقد ثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ قال « اللهم أيد حسان بروح القدس » وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله ـ فريقا ـ قال طائفة . وأخرج عن ابن عباس قال انما سمى القلب لتقلبه . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عنه أنه كان يقرأ ـ قلوبنا غلف ـ مثقلة أى كيف نتعلم وقلوبنا غلف للحكمة أى أوعية للحكمة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله ـ وقالوا قلوبنا غلف ـ مملوءة علما لاتحتاج إلى علم محمد ولا غيره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله ـ قلوبنا غلف ـ قال فى غطاء . وروى ابن اسحق وابن جرير عنه أنه قال فى أكنة . وأخرج ابن جرير عنه أنه قال هى القلوب المطبوع عليها . وأخرج وكيع عن عكرمة وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال هى التى لاتفقه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا فى كتاب الاخلاص وابن جرير عن حذيفة قال القلوب أربعة : قلب أغلف ، فذلك قلب الكافر ، وقلب مصفح ، فذلك قلب المنافق ، وقلب أجرد فيه مثل السراج ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب فيه إيمان ونفاق ، فمثل الايمان كمثل شجرة يمدّها ماء طيب ، ومثل المنافق كمثل قرحة يمدّها القيح والدم . وأخرج أحمد بسند جيد عن أبى سعيد قال قال رسول الله ﷺ « القلوب أربعة ، قلب أجرد فيه مثل السراج يزهى ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد ، فقلب المؤمن سراجه فيه نوره . وأما القلب الأغلف ، فقلب الكافر . وأما القلب المنكوس ، فقلب المنافق عرف ثم أنكر . وأما القلب المصفح ، فقلب فيه إيمان ونفاق فمثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح ، فأىّ المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سلمان الفارسى مثله سواء موقوفا . وأخرج

عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة فى قوله ـ فقليلا مايؤمنون ـ قال لايؤمن منهم إلا قليل .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَٰبٌ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَاتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَٰلِمُونَ *

ـ ولما جاءهم ـ يعنى اليهود ـ كتاب ـ يعنى القرآن ـ ومصدق ـ وصف له وهو فى مصحف أبى منصور ، ونصبه على الحال وان كان صاحبها نكرة فقد تخصصت بوصفها بقوله ـ من عند الله ـ وتصديقه لما معهم من التوراة والانجيل أنه يخبرهم بما فيهما ، و يصدقه ولا يخالفه * والاستفتاح الاستنصار أى كانوا من قبل يطلبون من الله النصر على أعدائهم بالنبى المنعوت فى آخر الزمان الذى يجدون صفته عندهم فى التوراة . وقيل الاستفتاح هنا بمعنى الفتح أى يخبرونهم بأنه سيبعث ، و يعرّفونهم بذلك ، وجواب لما فى قوله ـ ولما جاءهم كتاب ـ قيل هو قوله ـ فلما جاءهم ماعرفوا ـ وما بعده . وقيل هو محذوف أى كذبوا أونحوه : كذا قال الأخفش والزجاج . وقال المبرد ان جواب لما الأولى هو قوله ـ كفروا ـ وأعيدت لما الثانية لطول الكلام ، واللام فى الكافرين للجنس * ويجوز أن تكون للعهد ويكون هذا من وضع الظاهر موضع المضمر * والأوّل أظهر * ومافى قوله ـ بئسما ـ موصولة أوموصوفة ، أى بئس الشىء أو شيئا ـ اشتروا به أنفسهم ـ قاله سيبويه . وقال الأخفش ما فى موضع نصب على التمييز كقولك بئس رجلا زيد ، وقال الفراء ، بئسما بجملته شىء واحد ركب كحبذا . وقال الكسائى ـ ما واشتروا ـ بمنزلة اسم واحد قائم بنفسه . والتقدير بئس اشتراؤهم أن يكفروا * وقوله ـ أن يكفروا ـ فى موضع رفع على الابتداء عند سيبو يه وخبره ماقبله . وقال الفراء والكسائى ان شئت كان فى موضع خفض بدلا من الهاء فى به أى اشتروا أنفسهم بأن يكفروا . وقال فى الكشاف ان ما نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس بمعنى شيئا اشتروا به أنفسهم ، والمخصوص بالذم أن يكفروا ، واشتروا بمعنى باعوا * وقوله ـ بغيا ـ أى حسدا . قال الأصمعى البغى مأخوذ من قولهم ، قد بغى الجرح اذا فسد * وقيل أصله الطلب ، ولذلك سميت الزانية بغيا ، وهو علة لقوله ـ اشتروا ـ وقوله ـ أن ينزل ـ علة لقوله ـ بغيا ـ أى لأن ينزل * والمعنى أنهم باعوا أنفسهم بهذا الثمن البخس حسدا ومنافسة ـ أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ـ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو و يعقوب وابن محيصن ـ أن ينزل ـ بالتخفيف ـ فباءوا ـ ، أى رجعوا وصاروا أحقاء ـ بغضب على غضب ـ وقد تقدّم معنى باءوا ومعنى الغضب ، قيل الغضب الأوّل لعبادتهم العجل . والثانى لكفرهم بمحمد . وقيل كفرهم بعيسى ثم كفرهم بمحمد . وقيل كفرهم بمحمد ثم البغى عليه . وقيل غير ذلك * والمهين مأخوذ من الهوان ، قيل وهو مااقتضى الخلود فى النار * وقوله ـ بما أنزل الله ـ هو القرآن . وقيل كل كتاب ، أى صدّقوا بالقرآن أو صدّقوا بما أنزل الله من الكتب ـ قالوا نؤمن ـ أى نصدّق ـ بما أنزل علينا ـ أى التوراة * وقوله ـ ويكفرون بما وراءه ـ قال الفراء بما سواه . وقال أبو عبيدة بما بعده . قال الجوهرى وراء بمعنى خلف . وقد يكون بمعنى قدّام وهى من الأضداد . ومنه

قوله تعالى ـ وكان وراءهم ملك ـ أى قدّامهم . وهذه الجملة أعنى ويكفرون فى محل النصب على الحال أى قالوا نؤمن بما أنزل علينا حال كونهم كافرين بما وراءه مع كون هذا الذى هو وراء ما يؤمنون به هو الحق * وقوله ـ مصدقا ـ حال مؤكدة وهذه أحوال متداخلة أعنى قوله ـ ويكفرون ـ وقوله ـ وهو الحق ـ وقوله ـ مصدقا ـ ثم اعترض الله سبحانه عليهم لما قالوا نؤمن بما أنزل علينا بهذه الجملة المشتملة على الاستفهام المفيد للتوبيخ أى ان كنتم تؤمنون بما أنزل عليكم فكيف تقتلون الأنبياء ؟ وقد نهيتم عن قتلهم فيما أنزل عليكم . وهذا الخطاب وان كان مع الحاضرين من اليهود فالمراد به أسلافهم ولكنهم لما كانوا يرضون بأفعال سلفهم كانوا مثلهم . واللام فى قوله ـ ولقد ـ جواب لقسم مقدّر * والبينات يجوز أن يراد بها التوراة أو التسع الآيات المشار اليها بقوله تعالى ـ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ـ ويجوز أن يراد الجميع ثم عبدتم العجل بعد النظر فى تلك البينات حال كونكم ظالمين بهذه العبادة الصادرة منكم عنادا بعد قيام الحجة عليكم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله ـ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق ـ قال هو القرآن ـ مصدق لما معهم ـ من التوراة والانجيل . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل من طريق عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى قال حدّثنى أشياخ منا قالوا لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منا لأن معنا يهود وكانوا أهل كتاب وكنا أصحاب وثن وكانوا إذا بلغهم منا ما يكرهون قالوا ان نبيا ليبعث الآن قد أظلّ زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد و إرم فلما بعث رسول الله ﷺ اتبعناه وكفروا به ففينا والله . وفيهم أنزل الله ـ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ـ وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة قالوا كانت العرب تمرّ باليهود فيؤذونهم وكانوا يجدون محمدا فى التوراة فيسألون الله أن يبعثه نبيا فيقاتلون معه العرب . فلما جاء محمد كفروا به حين لم يكن من بنى إسرائيل . وقد روى نحو هذا عن ابن عباس من غير وجه بألفاظ مختلفة ومعانيها متقاربة . وروى عن غيره من السلف نحو ذلك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله ـ بئسما اشتروا به أنفسهم ـ قال هم اليهود كفروا بما أنزل الله و بمحمد ﷺ بغيا وحسدا للعرب ـ فباءوا بغضب على غضب ـ قال غضب الله عليهم مرتين بكفرهم بالانجيل و بعيسى و بكفرهم بالقرآن و بمحمد . وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ بغيا أن ينزل الله ـ أى ان الله جعله من غيرهم ـ فباءوا بغضب ـ بكفرهم بهذا النبى ـ على غضب ـ كان عليهم بما صنعوه من التوراة . وأخرج ابن جرير عن عكرمة نحوه . وأخرج أيضا عن مجاهد معناه . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله ـ ويكفرون بما وراءه ـ قال بما بعده . وأخرج ابن جرير عن السدى قال بما وراءه أى القرآن .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ *

قد تقدّم تفسير أخذ الميثاق ، ورفع الطور * والأمر بالسماع معناه الطاعة والقبول ، وليس المراد مجرد الادراك بحاسة السمع ، ومنه قولهم «سمع الله لمن حمده» أى قبل واجاب ، ومنه قول الشاعر :

دعوت الله حتى خفت أن لا * يكون الله يسمع ما أقول

أى يقبل ، وقولهم فى الجواب ـ سمعنا ـ هو على بابه وفى معناه ، أى سمعنا قولك بحاسة السمع وعصيناك أى لا نقبل ما تأمرنا به ، ويجوز أن يكونوا أرادوا بقولهم سمعنا ما هو معهود من تلاعبهم واستعمالهم المغالطة فى مخاطبة أنبيائهم وذلك بأن يحملوا قوله تعالى ـ اسمعوا ـ على معناه الحقيقى أى السماع بالحاسة . ثم أجابوا بقولهم ـ سمعنا ـ أى أدركنا ذلك بأسماعنا عملا بموجب ما تأمر به ، ولكنهم لما كانوا يعلمون ان هذا غير مراد لله عز وجلّ ، بل مراده بالأمر بالسماع الأمر بالطاعة والقبول لم يقتصروا على هذه المغالطة بل ضموا إلى ذلك ما هو الجواب عندهم ، فقالوا ـ وعصينا ـ ، وفى قوله ـ وأشربوا ـ تشبيه بليغ أى جعلت قلوبهم لتمكن حب العجل منها كأنها تشرب به ، ومثله قول زهير :

فصحوت عنها بعد حب داخل * والحب يشربه فؤادك دائما

وإنما عبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل ، لان شرب الماء يتغلغل فى الأعضاء حتى يصل إلى باطنها والطعام يجاوزها ولا يتغلغل فيها ، والباء فى قوله ـ بكفرهم ـ سببية أى كان ذلك بسبب كفرهم عقوبة لهم وخذلانا * وقوله ـ قل بئسما يأمركم به إيمانكم ـ أى إيمانكم الذى زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل عليكم وتكفرون بما وراءه فان هذا الصنع وهو قولكم ـ سمعنا وعصينا ـ فى جواب ما أمرتم به فى كتابكم وأخذ عليكم الميثاق به مناد عليكم بأبلغ نداء بخلاف ما زعمتم ، وكذلك ما وقع منكم من عبادة العجل ونزول حبه من قلوبكم منزلة الشراب هو من أعظم ما يدل على أنكم كاذبون فى قولكم ـ نؤمن بما أنزل علينا ـ لا صادقون فان زعمتم أن كتابكم الذى آمنتم به أمركم بهذا فبئسما يأمركم به إيمانكم بكتابكم ، وفى هذا من التهكم بهم ما لا يخفى * وقوله ـ قل ان كانت لكم الدار الآخرة ـ هو ردّ عليهم لما ادّعوا أنهم يدخلون الجنة ولا يشاركهم فى دخولها غيرهم ، وإلزام لهم بما يتبين به أنهم كاذبون فى تلك الدعوى ، وأنها صادرة منهم لا عن برهان ، و ـ خالصة ـ منصوب على الحال ويكون خبر كان هو عند الله أو يكون خبر كان هو خالصة ، ومعنى الخلوص أنه لا يشاركهم فيها غيرهم اذا كانت اللام فى قوله ـ من دون الناس ـ للجنس أو لا يشاركهم فيها المسلمون ان كانت اللام للعهد . وهذا أرجح لقولهم فى الآية الأخرى ـ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ـ وإنما أمرهم بتمنى الموت . لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحب اليه من الحياة ، ولما كان ذلك منهم مجرد دعوى أحجموا ، ولهذا قال سبحانه ـ ولن يتمنوه أبدا ـ وما فى قوله ـ بما قدّمت أيديهم ـ موصولة والعائد محذوف أى بما قدّمته من الذنوب التى يكون فاعلها غير آمن من العذاب بل غير طامع فى دخول الجنة : فضلا عن كونه قاطعا بها فضلا عن كونها خالصة له مختصة به ، وقيل ان الله سبحانه صرفهم عن التمنى ليجعل ذلك آية لنبيه ﷺ * والمراد بالتمنى هنا هو التلفظ بما يدل عليه لا مجرد خطوره بالقلب وميل النفس اليه فان ذلك لا يراد فى مقام المحاجة ومواطن الخصومة ومواقف التحدى ، وفى تركهم للتمنى أو صرفهم عنه معجزة لرسول الله ﷺ فانهم قد كانوا يسلكون من التجرف والتجرئ على الله وعلى أنبيائه بالدعاوى الباطلة فى غير موطن ما قد حكاه عنهم التنزيل فلم يتركوا عادتهم هنا الا لما قد تقرر عندهم من أنهم إذا فعلوا ذلك التمنى نزل بهم الموت إما لأمر قد علموه أو للصرفة من الله عز وجل . وقد يقال ثبت النهى عن النبى ﷺ عن تمنى الموت فكيف أمره الله أن يأمرهم بما هو منهىّ عنه فى شريعته * ويجاب بأن المراد هنا إلزامهم الحجة ، وإقامة البرهان على بطلان دعواهم * وقوله ـ والله عليم بالظالمين ـ تهديد لهم وتسجيل

عليهم بأنهم كذلك . واللام فى قوله ــ ولتجدنهم ــ جواب قسم محذوف ، وتنكير حياة للتحقير أى انهم أحرص الناس على أحقر حياة وأقلّ لبث فى الدنيا ، فكيف بحياة كثيرة ولبث متطاول ؟ وقال فى الكشاف انه أراد بالتنكير حياة مخصوصة وهى الحياة المتطاولة ، وتبعه فى ذلك الرازى فى تفسيره * وقوله ــ ومن الذين أشركوا ــ قيل هو كلام مستأنف ، والتقدير ومن الذين أشركوا ناس ــ يودّ أحدهم ــ وقيل انه معطوف على الناس أى أحرص الناس وأحرص من الذين أشركوا ، وعلى هذا يكون قوله يودّ أحدهم راجعا إلى اليهود بيانا لزيادة حرصهم على الحياة ، ووجه ذكر الذين أشركوا بعد ذكر الناس مع كونهم داخلين فيهم الدلالة على مزيد حرص المشركين من العرب ومن شابههم من غيرهم . فمن كان أحرص منهم وهم اليهود كان بالغا فى الحرص إلى غاية لا يقادر قدرها . وانما بلغوا فى الحرص إلى هذا الحدّ الفاضل على حرص المشركين ، لأنهم يعلمون بما يحل بهم من العذاب فى الآخرة . بخلاف المشركين من العرب ونحوهم فانهم لا يقرّون بذلك . وكان حرصهم على الحياة دون حرص اليهود * والأوّل وان كان فيه خروج من الكلام فى اليهود الى غيرهم من مشركى العرب ، لكنه أرجح لعدم استلزامه للتكليف ، ولا ضير فى استطراد ذكر حرص المشركين بعد ذكر حرص اليهود . وقال الرازى ان الثانى أرجح ليكون ذلك أبلغ فى إبطال دعواهم وفى إظهار كذبهم فى قولهم ان الدار الآخرة لنا لا لغيرنا انتهى * ويجاب عنه بأن هذا الذى جعله مرجحا قد أفاده قوله تعالى ــ ولتجدنهم أحرص الناس ــ ولا يستلزم استئناف الكلام فى المشركين أن لا يكونوا من جملة الناس ، وخص الألف بالذكر لان العرب كانت تذكر ذلك عند إرادة المبالغة * وأصل سنة سنهة وقيل سنوة . واختلف فى الضمير فى قوله ــ وما هو بمزحزحه ــ فقيل هو راجع إلى أحدهم ، والتقدير وما أحدهم بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، وعلى هذا يكون قوله ــ أن يعمر ــ فاعلا لمزحزحه * وقيل هو لما دل عليه يعمر من مصدره أى وما التعمير بمزحزحه ، ويكون قوله ــ أن يعمر ــ بدلا منه . وحكى الطبرى عن فرقة أنها قالت هو عماد ، وقيل هو ضمير الشأن ، وقيل ماهى الحجازية والضمير اسمها وما بعده خبرها * والأوّل أرجح وكذلك الثانى والثالث ضعيف جدا لأن العماد لا يكون الا بين شيئين ولهذا يسمونه ضمير الفصل والرابع فيه أن ضمير الشأن يفسر بجملة سالمة عن حرف جر كما حكاه ابن عطية عن النحاة ، والزحزحة التنحية يقال زحزحته فتزحزح أى نحيته فتنحى وتباعد ، ومنه قول ذى الرمة

ياقابض الروح عن جسم عصى زمنا * وغافر الذنب زحزحنى عن النار

والبصير العالم بالشىء الخبير به ، ومنه قولهم فلان بصير بكذا أى خبير به ، ومنه قول الشاعر :

فان تسألونى بالنساء فاننى * بصير بأدواء النساء طبيب

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة فى قوله ــ وأشربوا فى قلوبهم العجل ــ قال أشربوا حبه حتى خلص ذلك الى قلوبهم . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية أن اليهود لما قالوا ــ لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ــ الآية نزل قوله تعالى ــ قل ان كانت لكم الدار الآخرة ــ الآية . وأخرج ابن جرير مثله عن قتادة . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أن قوله ــ خالصة من دون الناس ــ يعنى المؤمنين ــ فتمنوا الموت ــ فقال لهم رسول الله : ان كنتم فى مقالتكم صادقين فقولوا اللهم أمتنا فوالذى نفسى بيده لا يقولها رجل منكم الاغصّ بريقه فمات مكانه . وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ــ فتمنوا الموت ــ أى ادعوا بالموت على أىّ الفريقين أكذب ، فأبوا ذلك ولو تمنوه يوم قال ذلك ما بقى على الأرض يهودى الا مات . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم عنه قال لو تمنى اليهود الموت لماتوا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه نحوه . وأخرج البخارى وغيره من حديثه مرفوعا لو أن اليهود تمنوا لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار . وأخرج

ابن

ابن أبى حاتم والحاكم وصححه عنه فى قوله ـ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ـ قال اليهود ـ ومن الذين أشركوا ـ قال وذلك أن المشركين لايرجون بعثا بعد الموت فهو يحب طول الحياة ، وأن اليهودى قد عرف ماله من الخزى بما ضيع ماعنده من العلم ـ وماهو بمزحزحه ـ قال بمنحيه . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم عنه فى قوله ـ يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة ـ قال هو قول الأعاجم إذا عطس أحدهم «ذه هز ارسال» يعنى عش ألف سنة .

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ *

هذه الآية قد أجمع المفسرون على أنها نزلت فى اليهود . قال ابن جرير الطبرى ، وأجمع أهل التأويل جميعا أن هذه الآية نزلت جوابا على اليهود إذ زعموا أن جبريل عدوّ لهم ، وأن ميكائيل ولىّ لهم : ثم اختلفوا ما كان سبب قولهم ذلك ؟ فقال بعضهم إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم و بين رسول الله ﷺ من أمر نبوّته ، ثم ذكر روايات فى ذلك ستأتى آخر البحث ان شاء الله * والضمير فى قوله ـ فانه ـ يحتمل وجهين ، الأوّل أن يكون لله ويكون الضمير فى قوله ـ نزّله ـ لجبريل ، أى فان الله سبحانه نزل جبريل على قلبك وفيه ضعف كما يفيده قوله ـ مصدّقا لما بين يديه ـ ، الثانى أنه لجبريل والضمير فى نزله للقرآن أى فان جبريل نزل القرآن على قلبك ، وخص القلب بالذكر لانه موضع العقل والعلم * وقوله ـ باذن الله ـ أى بعلمه وارادته وتيسيره وتسهيله ، و(ما بين يديه) هو التوراة كما سلف أو جميع الكتب المنزلة وفى هذا دليل على شرف جبريل وارتفاع منزلته وأنه لاوجه لمعاداة اليهود له حيث كان منه ماذكر من تنزيل الكتاب على قلبك ، أومن تنزيل الله له على قلبك ، وهذا هو وجه الربط بين الشرط والجواب ، أى من كان معاديا لجبريل منهم فلا وجه لمعاداته له فانه لم يصدر منه إلا مايوجب المحبة دون العداوة ، أومن كان معاديا له فان سبب معاداته أنه وقع منه ما يكرهونه من التنزيل وليس ذلك بذنب له وان نزهوه فان هذه الكراهة منهم له بهذا السبب ظلم وعدوان لان هذا الكتاب الذى نزل به هو مصدق لكتابهم وهدى و بشرى للمؤمنين ، ثم أتبع سبحانه هذا الكلام بجملة مشتملة على شرط وجزاء يتضمن الذم لمن عادى جبريل بذلك السبب والوعيد الشديد له فقال ـ من كان عدوّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فان الله عدوّ للكافرين ـ والعداوة من العبد هى صدور المعاصى منه لله والبغض لأوليائه ، والعداوة من الله للعبد هى تعذيبه بذنبه وعدم التجاوز عنه والمغفرة له ، وانما خص جبريل وميكائيل بالذكر بعد ذكر الملائكة لقصد التشريف لهما ، والدلالة على فضلهما وأنهما وان كانا من الملائكة فقد صارا باعتبار مالهما من المزية بمنزلة جنس آخر أشرف من جنس الملائكة تنزيلا للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى كما ذكره صاحب الكشاف وقرره علماء البيان ، وفى جبريل عشر لغات ذكرها ابن جرير الطبرى وغيره ، وقد قدّمنا الاشارة الى ذلك ، وفى ميكائيل ست لغات ، وهما اسمان عجميان ، والعرب اذا نطقت بالعجمى تساهلت فيه ، وحكى الزمخشرى عن ابن جنى أنه قال العرب اذا نطقت بالأعجمى خلطت فيه * وقوله للكافرين من وضع الظاهر موضع المضمر أى فان الله عدوّ لهم لقصد الدلالة على أن هذه العداوة موجبة لكفر من وقعت منه ، وقد أخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس قال حضرت عصابة من اليهود النبى ﷺ فقالوا ياأبا القاسم حدثنا من خلال نسألك عنهنّ لايعلمهنّ إلا نبى قال سلونى عما شئتم فسألوه وأجابهم ثم قالوا فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك ، فقال

ولي جبريل ولم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه ، قالوا فعندها نفارقك لو كان وليك سواه من الملائكة لاتبعناك وصدقناك ، قال فما يمنعكم أن تصدقوه ؟ قالوا هذا عدوّنا ، فعند ذلك أنزل الله الآية . وأخرج نحوذلك ابن أبي شيبة فى المصنف وابن جرير وابن أبي حاتم عن الشعبى عن عمر بن الخطاب فى قصة جرت له معهم واسنادها صحيح ولكن الشعبي لم يدرك عمر ، وقد رواها عكرمة وقتادة والسدّى وعبد الرحمن بن أبي ليلى عن عمر . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخارى والنسائى وغيرهم عن أنس قال سمع عبدالله ابن سلام بمقدم النبي ﷺ وهو فى أرض يخترف فأتى النبي ﷺ فقال انى سائلك عن ثلاث لايعلمهنّ إلا نبى ، ماأوّل أشراط الساعة ، وما أوّل طعام أهل الجنة ، وماينزع الولد الى أبيه أوالى أمه ؟ فقال أخبرنى بهنّ جبريل آنفا ، فقال جبريل ؟ قال نعم ، قال ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقرأ هذه الآية ــ من كان عدوّا لجبريل فانه نزله على قلبك ــ قال أما أوّل أشراط الساعة ، فنار تخرج من المشرق فتحشر الناس الى المغرب ، وأما أوّل مايأكل أهل الجنة فزيادة كبد حوت ، وأما ماينزع الولد الى أبيه وأمه فاذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع اليه الولد ، واذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع اليها ، قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله ــ فانه نزله على قلبك باذن الله ــ يقول فان جبريل نزل القرآن بأمر الله يشدد به فؤادك ويربط به على قلبك ، مصدقا لما بين يديه يقول لما قبله من الكتب التى أنزلها والآيات والرسل الذين بعثهم الله . وقد ذكر السيوطى فى هذا الموضع من تفسيره الدر المنثور أحاديث كثيرة واردة فى جبريل وميكائيل وليست مما يتعلق بالتفسير حتى نذكرها .

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ * أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *

الضمير فى قوله اليك للنبي ﷺ أى أنزلنا اليك علامات واضحات دالة على نبوتك * وقوله ــ إلا الفاسقون ــ قد تقدّم تفسيره ، والظاهر أن المراد جنس الفاسقين ، ويحتمل أن يراد اليهود لان الكلام معهم ، والواو فى قوله ــ أوكلما ــ للعطف دخلت عليها همزة الاستفهام كما تدخل على الفاء ، ومن ذلك قوله تعالى ــ أفحكم الجاهلية يبغون ــ أفأنت تسمع الصم ــ أفتتخذونه وذريته ــ وكما تدخل على ثم ، ومن ذلك قوله تعالى ــ أثمّ اذا ماوقع ــ وهذا قول سيبويه ، وقال الأخفش الواو زائدة ، وقال الكسائى انها أو حركت الواو تسهيلا ، قال ابن عطية وهذا كله متكلف ، والصحيح قول سيبويه والمعطوف عليه محذوف والتقدير أكفروا بالآيات البينات وكلما عاهدوا * قوله ــ نبذ فريق ــ قال ابن جرير أصل النبذ الطرح والالقاء ، ومنه سمى اللقيط منبوذا ، ومنه سمى النبيذ وهو التمر والزبيب اذا طرحا فى الماء ، قال أبو الأسود :

نظرت

نظرت الى عنوانه فنبذته * كنبذك نعلا أخلقت من نعالكا

وقال آخر

ان الذين أمرتهم أن يعدلوا * نبذوا كتابك واستحل المحرم

وقوله ـ وراء ظهورهم ـ أى خلف ظهورهم ، هومثل يضرب لمن يستخف بالشىء فلا يعمل به تقول العرب : اجعل هذا خلف ظهرك ودبر أذنك وتحت قدمك أى اتركه وأعرض عنه ، ومنه ما أنشده الفراء :

تميم بن زيد لاتكونن حاجتى * بظهر فلا يعيى علىّ جوابها

وقوله ـ كتاب الله ـ أى التوراة لأنهم لما كفروا بالنبى ﷺ و بما أنزل عليه بعد أن أخذ الله عليهم فى التوراة الايمان به وتصديقه واتباعه و بين لهم صفته كان ذلك منهم نبذا للتوراة ونقضا لها ورفضا لما فيها ، ويجوز أن يراد بالكتاب هنا القرآن أى لما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم من التوراة نبذوا كتاب الله الذى جاء به هذا الرسول ، وهذا أظهر من الوجه الأول * وقوله ـ كأنهم لايعلمون ـ تشبيه لهم بمن لايعلم شيئا مع كونهم يعلمون علما يقينا من التوراة بما يجب عليهم من الايمان بهذا النبى ولكنهم لما لم يعملوا بالعلم بل عملوا عمل من لايعلم من نبذ كتاب الله وراء ظهورهم كانوا بمنزلة من لايعلم * قوله ـ واتبعوا ماتتلوا الشياطين ـ معطوف على قوله نبذوا أى نبذوا كتاب الله واتبعوا ماتتلوا الشياطين من السحر ونحوه . قال الطبرى اتبعوا بمعنى فعلوا * ومعنى ـ تتلوا ـ تتقوّله وتقرؤه ـ وعلى ملك سليمان ـ على عهد ملك سليمان . قاله الزجاج ، وقيل المعنى فى ملك سليمان يعنى فى قصصه وصفاته وأخباره ، قال الفراء تصلح على وفى فى هذا الموضع * والأوّل أظهر . وقد كانوا يظنون أن هذا هو علم سليمان وأنه يستجيزه ويقول به ، فردّ الله ذلك عليهم وقال و ما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، ولم يتقدم أن أحدا نسب سليمان الى الكفر ولكن لما نسبته اليهود الى السحر صاروا بمنزلة من نسبه إلى الكفر لان السحر يوجب ذلك ، ولهذا أثبت الله سبحانه كفر الشياطين فقال ـ ولكنّ الشياطين كفروا ـ أى بتعليمهم * وقوله ـ يعلمون الناس السحر ـ فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن يكون فى محل رفع على أنه خبر بعد خبر . وقرأ ابن عامر والكوفيون سوى عاصم ولكن الشياطين بتخفيف لكن ورفع الشياطين ، والباقون بالتشديد والنصب ، والسحر هو مايفعله الساحر من الحيل والتخييلات التى تحصل بسببها للمسحور مايحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب فيظنه ماء ، وما يظنه راكب السفينة أو الدابة من ان الجبال تسير ، وهو مشتق من سحرت الصبى إذا خدعته ، وقيل أصله الخفاء فان الساحر يفعله خفية ، وقيل أصله الصرف لان السحر مصروف عن جهته ، وقيل أصله الاستمالة لان من سحرك فقد استمالك . وقال الجوهرى السحر الأخذة ، وكل مالطف مأخذه ودق فهو سحر . وقد سحره يسحره سحرا ، والساحر العالم ، وسحره أيضا بمعنى خدعه . وقد اختلف هل له حقيقة أم لا ؟ فذهبت المعتزلة وأبو حنيفة إلى أنه خدع لاأصل له ولا حقيقة . وذهب من عداهم الى أن له حقيقة مؤثرة . وقد صح أن النبى ﷺ سحر ، سحره لبيد بن الأعصم اليهودى حتى كان يخيل إليه أنه يأتى الشىء ولم يكن قد أتاه ثم شفاه الله سبحانه ، والكلام فى ذلك يطول * وقوله ـ وما أنزل على الملكين ـ أى و يعلمون الناس ماأنزل على الملكين فهو معطوف على السحر . وقيل هو معطوف على قوله ـ ماتتلوا الشياطين ـ أى واتبعوا ماأنزل على الملكين . وقيل ان ما فى قوله ـ وما أنزل على الملكين ـ نافية والواو عاطفة على قوله ـ وما كفر سليمان ـ وفى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ـ فهاروت وماروت بدل من الشياطين فى قوله ـ ولكن الشياطين كفروا ـ ذكر هذا ابن جرير وقال فان قال لنا قائل وكيف وجه تقديم ذلك ؟ قيل وجه تقديمه أن يقال ـ واتبعوا ماتتلوا الشياطين

على ملك سليمان وما كفر سليمان وما أنزل الله على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت — فيكون معنيا بالملكين جبريل وميكائيل ، لان سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود فأكذبهم الله بذلك وأخبر نبيه ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين وانها تعلم الناس ذلك ببابل وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان أحدهما هاروت والآخر ماروت فيكون — هاروت وماروت — على هذا التأويل ترجمة عن الناس وردًا عليهم انتهى * وقال القرطبي فى تفسيره بعد أن حكى معنى هذا الكلام ورجح أن هاروت وماروت بدل من الشياطين مالفظه : هذا أولى ماحملت عليه الآية وأصح ماقيل فيها ولا يلتفت إلى سواه فالسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم ودقة أفهامهم وأكثر مايتعاطاه من الانس النساء وخاصة فى حال طمثهن قال الله — ومن شر النفاثات فى العقد — ثم قال ان قيل كيف يكون اثنان بدلا من جمع والبدل انما يكون على حد المبدل ، ثم أجاب عن ذلك بأن الاثنين . قد يطلق عليهما الجمع ، أو أنهما خصا بالذكر دون غيرهما لتمردهما ، ويؤيد هذا أنه قرأ ابن عباس والضحاك والحسن الملكين بكسر اللام ، ولعل وجه الجزم بهذا التأويل مع بعده وظهور تكلفه تنزيه الله سبحانه أن ينزل السحر الى أرضه فتنة لعباده على ألسن ملائكته * وعندى أنه لاموجب لهذا التعسف المخالف لما هو الظاهر فان لله سبحانه أن يمتحن عباده بماشاء كما امتحن بنهر طالوت ، ولهذا يقول الملكان انما نحن فتنة ، قال ابن جرير وذهب كثير من السلف الى أنهما كانا ملكين من السماء وانهما أنزلا الى الأرض فكان من أمرهما ما كان * — وبابل — قيل هى العراق ، وقيل نهاوند ، وقيل نصيبين ، وقيل المغرب ، وهاروت وماروت اسمان أعجميان لاينصرفان * وقوله — وما يعلمان من أحد حتى يقولا — قال الزجاج تعليم انذار من السحر لاتعليم دعاء اليه ، قال وهو الذى عليه أكثر أهل اللغة والنظر ، ومعناه أنهما يعلمان على النهى فيقولان لهم لاتفعلوا كذا ، ومن فى قوله — من أحد — زائدة للتوكيد ، وقد قيل ان قوله — يعلمان — من الاعلام لامن التعليم ، وقد جاء فى كلام العرب تعلم بمعنى أعلم كما حكاه ابن الانبارى وابن الاعرابى وهو كثير فى أشعارهم ، كقول كعب بن مالك :

تعلم رسول الله أنك مدركى * وأن وعيدا منك كالأخذ باليد

وقال القطامى

تعلم أن بعد الغى رشدا * وأن لذلك الغى انقشاعا

وقوله — انما نحن فتنة — هو على ظاهره أى انما نحن ابتلاء واختبار من الله لعباده ، وقيل انه استهزاء منهما لأنهما انما يقولانه لمن قد تحققا ضلاله ، وفى قولهما — فلا تكفر — أبلغ إنذار وأعظم تحذير أى ان هذا ذنب يكون من فعله كافرا فلا تكفر ، وفيه دليل على أن تعلم السحر كفر وظاهره عدم الفرق بين المعتقد وغير المعتقد ، وبين من تعلمه ليكون ساحرا ومن تعلمه ليقدر على دفعه * وقوله — فيتعلمون — فيه ضمير يرجع الى قوله من أحد ، قال سيبويه التقدير فهم يتعلمون قال ومثله — كن فيكون — وقيل هو معطوف على موضع مايعلمان لانه وان كان منفيا فهو يتضمن الايجاب . وقال الفراء هى مردودة على قوله — يعلمون الناس السحر — أى يعلمون الناس فيتعلمون * وقوله — مايفرقون به بين المرء وزوجه — فى اسناد التفريق الى السحرة وجعل السحر سببا لذلك دليل على أن للسحر تأثيرا فى القلوب بالحب والبغض والجمع والفرقة والقرب والبعد . وقد ذهبت طائفة من العلماء الى أن الساحر لايقدر على أكثر مما أخبر الله به من التفرقة لان الله ذكر ذلك فى معرض الذم للسحر وبين ماهو الغاية فى تعليمه ، فلو كان يقدر على أكثر من ذلك لذكره . وقالت طائفة أخرى ان ذلك خرج مخرج الأغلب ، وأن الساحر يقدر على غير ذلك

المنصوص عليه ، وقيل ليس للسحر تأثير فى نفسه أصلا ، لقوله تعالى ـ وماهم بضارين به من أحد إلا باذن الله ـ والحق أنه لاتنافى بين قوله ـ فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزجه ـ وبين قوله ـ وماهم بضارين به من أحد إلا باذن الله ـ فان المستفاد من جميع ذلك أن للسحر تأثيرا فى نفسه ولكنه لايؤثر ضررا الا فيمن أذن الله بتأثيره فيه . وقد أجمع أهل العلم على أن له تأثيرا فى نفسه وحقيقة ثابتة ولم يخالف فى ذلك الا المعتزلة وأبو حنيفة ، كما تقدّم * وقوله ـ ويتعلمون مايضرهم ولاينفعهم ـ فيه تصريح بأن السحر لايعود على صاحبه بفائدة ولايجلب اليه منفعة بل هو ضرر محض وخسران بحت ، واللام فى قوله ـ ولقد ـ جواب قسم محذوف ، وفى قوله ـ لمن اشتراه ـ للتأكيد ، ومن موصولة وهى فى محل رفع على الابتداء ، والخبر قوله ـ ماله فى الآخرة من خلاق ـ وقال الفراء انها شرطية للمجازاة . وقال الزجاج ليس هذا بموضع شرط ، ورجح أنها موصولة كما ذكرنا * والمراد بالشراء هنا الاستبدال أى من استبدل ماتتلوا الشياطين على كتاب الله * والخلاق النصيب عند أهل اللغة كذا قال الزجاج * والمراد بقوله ـ ماشروا به أنفسهم ـ أى باعوها . وقد أثبت لهم العلم فى قوله ـ ولقد علموا ـ ونفاه عنهم فى قوله ـ لوكانوا يعلمون ـ واختلفوا فى توجيه ذلك فقال قطرب والأخفش ان المراد بقوله ـ ولقد علموا ـ الشياطين ، والمراد بقوله ـ لوكانوا يعلمون ـ الانس . وقال الزجاج : ان الأوّل للملكين وان كان بصيغة الجمع فهو مثل قولهم الزيدان قاموا * والثانى المراد به علماء اليهود ، وانما قال ـ لوكانوا يعلمون ـ لانهم تركوا العمل بعلمهم * وقوله ـ ولو أنهم آمنوا ـ أى بالنبى ﷺ وما جاء به من القرآن ـ واتقوا ـ ماوقعوا فيه من السحر والكفر ، واللام فى قوله ـ لمثوبة ـ جواب لو ، والمثوبة الثواب . وقال الأخفش ان الجواب محذوف والتقدير ـ ولو أنهم آمنوا واتقوا ـ لأثيبوا فحذف لدلالة قوله ـ لمثوبة ـ عليه وقوله ـ لوكانوا يعلمون ـ هو اما للدلالة على أنه لاعلم لهم ، أو لتنزيل علمهم مع عدم العمل منزلة العدم

وقد أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال ابن صوريا للنبى ﷺ يامحمد ماجئتنا بشىء يعرف وما أنزل الله عليك من آية بينة * فأنزل الله تعالى فى ذلك ـ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات ومايكفر بها إلا الفاسقون ـ وقال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله ﷺ وذكرهم ماأخذ عليهم من الميثاق وما عهد اليهم فى محمد ، والله ماعهد الينا فى محمد ولا أخذ علينا شيئا ، فأنزل الله ـ أو كلما عاهدوا ـ الآية . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله ـ آيات بينات ـ يقول فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غدوة وعشية وبين ذلك وأنت عندهم أمىّ لم تقرأ الكتاب وأنت تخبرهم بما فى أيديهم على وجهه ، ففى ذلك عبرة لهم وحجة عليهم ـ لوكانوا يعلمون ـ وأخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله ـ نبذه ـ قال نقضه . وأخرج أيضا عن السدى فى قوله ـ مصدّق لما معهم ـ قال لما جاءهم محمد عارضوه بالتوراة واتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت كأنهم لايعلمون بما فى التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ وتصديقه . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال ان الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء فاذا سمع أحدهم بكلمة حق كذب معها ألف كذبة فأشربتها قلوب الناس واتخذوها دواوين فاطلع الله على ذلك سليمان بن داود فأخذها فدفنها تحت الكرسى . فلما مات سليمان قام شيطان بالطريق فقال ألا أدلكم على كنز سليمان الذى لاكنز لأحد مثل كنزه الممنع ؟ قالوا نعم ، فأخرجوه فاذا هو سحر فتناسختها الأمم . وأنزل الله عذر سليمان فيما قالوا من السحر فقال ـ واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان ـ الآية . وأخرج النسائى وابن أبى حاتم عنه قال كان آصف كاتب سليمان ، وكان يعلم الاسم الأعظم ، وكان يكتب كل شىء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه . فلما مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين

سحرا وكفرا وقالوا هذا الذى كان سليمان يعمل بها فأكفره جهال الناس وسبوه ووقف علماؤهم فلم يزل جهالهم يسبونه حتى أنزل الله على محمد ـ واتبعوا ماتتلوا الشياطين ـ الآية . وأخرج ابن جرير عنه قال كان سليمان اذا أراد أن يدخل الخلاء أو يأتى شيئا من شأنه أعطى الجرادة وهى امرأته خاتمه ، فلما أراد الله أن يبتلى سليمان بالذى ابتلاه به أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه فجاء الشيطان فى صورة سليمان ، فقال لها هاتى خاتمى فأخذه فلبسه فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والانس ، فجاء سليمان فقال هاتى خاتمى فقالت كذبت لست سليمان فعرف أنه بلاء ابتلى به فانطلقت الشياطين فكتبت فى تلك الأيام كتبا فيها سحر وكفر . ثم دفنوها تحت كرسى سليمان ثم أخرجوها فقرءوها على الناس وقالوا انما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب فبرئ الناس من سليمان وأكفروه حتى بعث الله محمدا وأنزل عليه ـ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ـ وأخرج ابن جرير عنه فى قوله ـ وما تتلوا ـ قال ماتتبع . وأخرج أيضا عن عطاء فى قوله ـ ماتتلوا ـ قال نراه ماتحدث . وأخرج أيضا عن ابن جريج فى قوله ـ على ملك سليمان ـ يقول فى ملك سليمان . وأخرج أيضا عن السدى فى قوله ـ وما أنزل على الملكين ـ قال هذا سحر آخر خاصموه به فان كلام الملائكة فيما بينهم اذا علمته الانس فصنع وعمل به كان سحرا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ وما أنزل على الملكين ـ قال لم ينزل الله السحر . وأخرج ابن أبى حاتم عن على قال هما ملكان من ملائكة السماء . وأخرج نحوه ابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعا . وأخرج البخارى فى تاريخه وابن المنذر عن ابن عباس ـ وما أنزل على الملكين ـ يعنى جبريل وميكائيل ـ ببابل هاروت وماروت ـ يعلمان الناس السحر . وأخرج ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن البزى أنه كان يقرؤها وما أنزل على الملكين داود وسليمان . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك قال هما علجان من أهل بابل . وأخرج البيهقى فى شعب الايمان من حديث ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ أشرفت الملائكة على الدنيا فرأت بنى آدم يعصون فقالت يارب ماأجهل هؤلاء ماأقل معرفة هؤلاء بعظمتك فقال الله لو كنتم فى محلاتهم لعصيتمونى ، قالوا كيف يكون هذا ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال فاختاروا منكم ملكين فاختاروا هاروت وماروت ، ثم أهبطا إلى الأرض وركبت فيهما شهوات بنى آدم ومثلت لهما امرأة فما عصما حتى واقعا المعصية فقال الله اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ، فنظر أحدهما لصاحبه قال ماتقول ؟ قال أقول ان عذاب الدنيا ينقطع وان عذاب الآخرة لاينقطع فاختارا عذاب الدنيا فهما اللذان ذكر الله فى كتابه ـ وما أنزل على الملكين ـ الآية . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر أنه كان يقول أطلعت الحمراء بعد فاذا رآها قال لامرحبا ، ثم قال ان ملكين من الملائكة هاروت وماروت سألا الله أن يهبطهما الى الأرض فأهبطا الى الأرض فكانا يقضيان بين الناس ، فاذا أمسيا تكلما بكلمات فعرجا بها إلى السماء فقيض لهما امرأة من أحسن النساء وألقيت عليهما الشهوة فجعلا يؤخرانها وألقيت فى أنفسهما فلم يزالا يفعلان حتى وعدتهما ميعادا فأتتهما للميعاد فقالت علمانى الكلمة التى تعرجان بها فعلماها الكلمة فتكلمت بها فعرجت الى السماء فمسخت فجعلت كما ترون فلما أمسيا تكلما بالكلمة فلم يعرجا فبعث اليهما ان شئتما فعذاب الآخرة وان شئتما فعذاب الدنيا الى أن تقوم الساعة على أن تلقيا الله فان شاء عذبكما وان شاء رحمكما ، فنظر أحدهما الى صاحبه فقال بل نختار عذاب الدنيا ألف ألف ضعف فهما يعذبان الى يوم القيامة . وقد رويت هذه القصة عن ابن عمر بألفاظ ، وفى بعضها انه يروى ذلك ابن عمر عن كعب الأحبار كما أخرجه عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الشعب من طريق الثورى عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب قال ذكرت الملائكة أعمال بنى آدم وما يأتون من الذنوب فقيل لو كنتم مكانهم لأتيتم مثل مايأتون فاختاروا منكم اثنين فاختاروا هاروت وماروت . فقال لهما انى أرسل

إلى بنى آدم رسلا فليس بينى و بينـكم رسول انزلا لاتشركا بى شيئا ولا تزنيا ولاتشربا الخمر ، قال كعب فوالله ماأمسيا من يومهما الذى أهبطا فيـه حتى استعملا جميع مانهيا عنه . قال ابن كثير وهذا أصح ، يعنى من الاسنادين اللذين ذكرهما قبله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ فى العظمة والحاكم وصححه عن علىّ بن أبى طالب . قال ان هذه الزهرة تسميها العرب الزهرة ، والعجم أناهيد وذكر نحو الرواية السابقة عن ابن عمر عند الحاكم . قال ابن كثير وهذا الاسناد رجاله ثقات وهو غريب جدا . وقد أخرج عبد ابن حميد والحاكم وصححه عن ابن عباس قال كانت الزهرة امرأة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عنه أن المرأة التى فتن بها الملكان مسخت فهى هـذه الكوكبة الحمراء يعنى الزهرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عنه فذكر قصة طويلة وفيها التصريح بأن الملكين شربا الخمر وزنيا بالمرأة وقتلاها . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وابن عباس هـذه القصة وقالا انها أنزلت اليهما الزهرة فى صورة امرأة وأنهما وقعا فى الخطيئة . وقد روى فى هذا الباب قصص طويلة وروايات مختلفة استوفاها السيوطى فى الدر المنثور ، وذكر ابن كثير فى تفسيره بعضها ثم قال : وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدّى والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين * وحاصلها راجع فى تفصيلها الى أخبار بنى اسرائيل اذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الاسناد الى الصادق المصدوق المعصوم الذى لاينطق عن الهوى ، وظاهر سياق القرآن اجمال القصة من غير بسط ولا اطناب فيها فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ماأراده الله تعالى ، والله أعلم بحقيقة الحال انتهى ، وقال القرطبى بعد سياق بعض ذلك قلنا هذا كله ضعيف و بعيد عن ابن عمر وغيره لايصح منه شىء فانه قول تدفعه الأصول فى الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه وسفراؤه الى رسله لايعصون الله ماأمرهم و يفعلون مايؤمرون ثم ذكر مامعناه أن العقل يجوّز وقوع ذلك منهم لكن وقوع هذا الجائز لايدرى إلابالسمع ولم يصح انتهى ، وأقول هذا مجرد استبعاد ، وقد ورد الكتاب العزيز فى هذا الموضع بما تراه ولا وجه لاخراجه عن ظاهره بهذه التكلفات ، وماذكره من أن الأصول تدفع ذلك فعلى فرض وجود هذه الاصول فهى مخصصة بما وقع فى هذه القصة ولا وجـه لمنع التخصيص ، وقد كان ابليس بملك المنزلة العظيمة وصار أشر البرية وأكفر العالمين . وأخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله (انما نحن فتنة) قال بلاء . وأخرج البزار باسناد صحيح والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال من أتى كاهنا أو ساحرا وصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد . وأخرج البزار عن عمران بن حصين قال قال رسول الله ﷺ « من تطير أو تطير له أو تكهن أو تـكهن له أو سحر أوسحر له ومن عقد عقدة ومن أتى كاهنا فصـدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» وأخرج عبدالرزاق عن صفوان بن سليم قال قال رسول الله ﷺ «من تعلم شيئا من السحر قليلا أو كثيرا كان آخرعهده من الله» . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (من خلاق) قال قوام . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال (من خلاق) من نصيب ، وكذا روى ابن جرير عن مجاهد . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن الحسن (ماله فى الآخرة من خلاق) قال ليس له دين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (ولبئس ماشروا به) قال باعوا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة فى قوله (لمثوبة) قال ثواب .

يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَاتَقُولُوا رَٰعِنَا وَقُولُوا ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا وَلِلْـكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * مَايَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْـكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّـكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ

بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ *

قوله (راعنا) أى راقبنا واحفظنا وصيغة المفاعلة تدل على أن معنى (راعنا) ارعنا ونرعاك واحفظنا ونحفظك ، وارقبنا ونرقبك ، ويجوز أن يكون من أرعنا سمعك أى فرغه لكلامنا ، وجه النهى عن ذلك أن هذا اللفظ كان بلسان اليهود سبا ، قيل انه فى لغتهم بمعنى اسمع لاسمعت ، وقيل غير ذلك فلما سمعوا المسلمين يقولون للنبى ﷺ راعنا طلبا منه أن يراعيهم من المراعاة اغتنموا الفرصة وكانوا يقولون للنبى ﷺ كذلك مظهرين أنهم يريدون المعنى العربى مبطنين أنهم يقصدون السب الذى هو معنى هذا اللفظ فى لغتهم * وفى ذلك دليل على أنه ينبغى تجنب الالفاظ المحتملة للسب والنقص وان لم يقصد المتكلم بها ذلك المعنى المفيد للشتم سدّا للذريعة ودفعا للوسيلة وقطعا لمادة المفسدة والتطرق اليه ، ثم أمرهم الله بأن يخاطبوا النبى ﷺ بما لا يحتمل النقص ولا يصلح للتعريض فقال (وقولوا انظرنا) أى أقبل علينا وانظر الينا فهو من باب الحذف والايصال ، كما قال الشاعر :

ظاهرات الجمال والحسن ينظر * ن كما ينظر الاراك الظباء

أى الى الأراك ، وقيل معناه انتظرنا وتأنّ بنا ، ومنه قول الشاعر :

فانكما ان تنظرانى ساعة * من الدهر تنفعنى لدى أمّ جندب

وقرأ الأعمش (أنظرنا) بقطع الهمزة وكسر الظاء بمعنى أخرنا وأمهلنا حتى نفهم عنك ، ومنه قول الشاعر :

It was Ubai's reading also

أبا هند فلا تعجل علينا * وأنظرنا نخبرك اليقينا

وقرأ الحسن (راعنا) بالتنوين ، وقال الراعن من القول السخرىّ منه انتهى ، وأمرهم بعد هذا النهى والأمر بأمر آخر وهو قوله (واسمعوا) أى اسمعوا ما أمرتم به ونهيتم عنه ، ومعناه أطيعوا الله فى ترك خطاب النبى ﷺ بذلك اللفظ وخاطبوه بما أمرتم به ، ويحتمل أن يكون معناه اسمعوا ما يخاطبكم به الرسول من الشرع حتى يحصل لكم المطلوب بدون طلب للمراعاة ، ثم توعد اليهود بقوله (وللكافرين عذاب أليم) ويحتمل أن يكون وعيدا شاملا لجنس الكفرة * قال ابن جرير : والصواب من القول عندنا فى ذلك أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ (راعنا) لأنها كلمة كرهها الله أن يقولوها لنبيه ﷺ نظير الذى ذكر عن النبى ﷺ أنه قال لا تقولوا للعنب الكرم ولكن قولوا الحبلة ، ولا تقولوا عبدى ولكن قولوا فتاى ، وما أشبه ذلك * وقوله (مايود الذين كفروا من أهل الكتاب) الآية فيه بيان شدة عداوة الكفار للمسلمين حيث لا يودّون انزال الخير عليهم من الله سبحانه ، ثم رد الله سبحانه ذلك عليهم فقال (والله يختص برحمته من يشاء) الآية * وقوله (أن ينزل) فى محل نصب على المفعولية ، ومن فى قوله (من خير) زائدة ، قاله النحاس ، وفى الكشاف ان من فى قوله (من أهل الكتاب) بيانية ، وفى قوله (من خير) مزيدة لاستغراق الخير ، وفى قوله (من ربكم) لابتداء الغاية ، وقد قيل بان الخير الوحى ، وقيل غير ذلك والظاهر أنهم لا يودون أن ينزل على المسلمين أىّ خير كان ، فهو لا يختص بنوع معين كما يفيده وقوع هذه النكرة فى سياق النفى وتأكيد العموم بدخول من المزيدة عليها ، وان كان بعض أنواع الخير أعظم من بعض فذلك لا يوجب التخصيص * والرحمة قيل هى القرآن ، وقيل النبوّة ، وقيل جنس الرحمة من غير تعيين كما يفيد ذلك الاضافة الى ضميره تعالى (والله ذو الفضل العظيم) أى صاحب الفضل العظيم فكيف لا تودون أن يختص برحمته من يشاء من عباده .

وقد أخرج سعيد بن منصور فى سننه وأحمد فى الزهد وابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود أن رجلا أتاه فقال اعهد الىّ فقال اذا سمعت الله يقول ـ يأيها الذين آمنوا ـ

فأوعها سمعك فانه خير يأمر به أو شر ينهى عنه . وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال (راعنا) بلسان اليهود السب القبيح ، وكان اليهود يقولون ذلك لرسول الله سرا فلما سمعوا أصحابه يقولون ذلك أعلنوا بها فكانوا يقولون ذلك و يضحكون فيما بينهم ، فأنزل الله الآية . وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عنه أنه قال المؤمنون بعد هذه الآية من سمعتموه يقولها فاضربوا عنقه فانتهت اليهود بعد ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن السدى قال كان رجلان من اليهود مالك بن الصيف ورفاعة بن زيد اذا لقيا النبى ﷺ قالا له وهما يكلمانه راعنا سمعك واسمع غير مسمع ، فظن المسلمون أن هذا شىء كان أهل الكتاب يعظمون به أنبياءهم فقالوا للنبى ﷺ فأنزل الله الآية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى صخر قال كان رسول الله ﷺ اذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين فقالوا ارعنا سمعك فأعظم الله رسوله أن يقال له ذلك وأمرهم أن يقولوا (انظرنا) ليعزروا رسول الله ﷺ و يوقروه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم عن قتادة أن اليهود كانت تقول ذلك استهزاء فكره الله للمؤمنين أن يقولوا كقولهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال الرحمة القرآن والاسلام .

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ *

النسخ فى كلام العرب على وجهين . أحدهما النقل كنقل كتاب من آخر ، وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخا أعنى من اللوح المحفوظ فلا مدخل لهذا المعنى فى هذه الآية ، ومنه ـ انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ـ أى نأمر بنسخه . الوجه الثانى الابطال والازالة ، وهو المقصود هنا ، وهذا الوجه الثانى ينقسم إلى قسمين عند أهل اللغة . أحدهما ابطال الشىء وزواله و إقامة آخر مقامه ، ومنه نسخت الشمس الظل اذا أذهبته وحلت محله ، وهو معنى قوله (ما ننسخ من آية) وفى صحيح مسلم « لم تكن نبوّة قط إلا تناسخت » أى تحوّلت من حال الى حال * والثانى إزالة الشىء دون أن يقوم مقامه آخر كقولهم نسخت الريح الأثر ومن هذا المعنى ـ فينسخ الله ما يلقى الشيطان ـ أى يزيله . وروى عن أبى عبيد أن هذا قد كان يقع فى زمن رسول الله ﷺ فكانت تنزل عليه السورة فترفع فلا تتلى ولا تكتب ، ومنه ماروى عن أبىّ وعائشة أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة فى الطول . قال ابن فارس النسخ نسخ الكتاب ، والنسخ أن تزيل أمرا كان من قبل يعمل به ثم تنسخه بحادث غيره كالآية تنزل بأمر ثم تنسخ بأخرى ، وكل شىء خلف شيأ فقد انتسخه : يقال نسخت الشمس الظل ، والشيب الشباب ، وتناسخ الورثة أن يموت ورثة بعد ورثة ، وأصل الميراث قائم ، وكذا تناسخ الأزمنة والقرون . وقال ابن جرير (ما ننسخ) ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره ، وذلك أن نحوّل الحلال حراما ، والحرام حلالا ، والمباح محظورا ، والمحظور مباحا ، ولا يكون ذلك الا فى الأمر والنهى والحظر والاطلاق والمنع والاباحة . فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب : وهو نقله من نسخة أخرى ، فكذلك معنى نسخ الحكم الى غيره انما هو تحويله الى غيره ، وسواء نسخ حكمها أو خطها : إذ هى فى كلتى حالتيها منسوخة انتهى . وقد جعل علماء الأصول مباحث النسخ من جملة مقاصد ذلك الفن فلا نطول بذكره ، بل نحيل من أراد الاستشفاء عليه . وقد اتفق أهل الاسلام على ثبوته سلفا وخلفا ، ولم يخالف فى ذلك أحد الا من لا يعتدّ بخلافه ولا يؤبه لقوله . وقد اشتهر عن اليهود أقماهم الله انكاره وهم محجوجون بما فى التوراة أن الله قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة انى قد جعلت كل دابة مأكلا لك ولذريتك وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب ما خلا الدم فلا تأكلوه ، ثم قد حرّم على موسى وعلى بنى اسرائيل كثيرا من

الحيوان . وثبت فى التوراة أن آدم كان يزوّج الأخ من الاخت وقد حرّم الله ذلك على موسى عليه السلام وعلى غيره . وثبت فيها أن ابراهيم عليه السلام أمر بذبح ابنه ثم قال الله له لاتذبحه ، وبأن موسى أمر بنى اسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل ثم أمرهم برفع السيف عنهم ، ونحو هذا كثير فى التوراة الموجودة بأيديهم * وقوله (أوننسها) قرأ أبو عمرو وابن كثير بفتح النون والسين والهمز ، وبه قرأ عمر وابن عباس وعطاء ومجاهد وأبىّ بن كعب وعبيد بن عمير والنخعى وابن محيصن ، ومعنى هذه القراءة نؤخرها عن النسخ من قولهم : نسأت هذا الأمر اذا أخرته . قال ابن فارس ويقولون نسأ الله فى أجلك وأنسأ الله أجلك . وقد انتسأ القوم اذا تأخروا وتباعدوا ونسأتهم أنا أخرتهم . وقيل معناه نؤخر نسخ لفظها أى نتركه فى أم الكتاب فلا يكون . وقيل نذهبها عنكم حتى لاتقرأ ولاتذكر . وقرأ الباقون (ننسها) بضم النون من النسيان الذى بمعنى الترك أى نتركها فلا نبدلها ولا ننسخها ، ومنه قوله تعالى — نسوا الله فنسيهم — أى تركوا عبادته فتركهم فى العذاب . واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم . وحكى الأزهرى أن معناه نأمر بتركها يقال أنسيته الشىء أى أمرته بتركه ، ونسيته تركته ، ومنه قول الشاعر :

ان علىّ عقبة أقضيها * لست بناسيها ولا منسيها

أى ولا آمر بتركها . وقال الزجاج ان القراءة بضم النون لايتوجه فيها معنى الترك ، لايقال أنسى بمعنى ترك ، قال وماروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس (أوننسها) قال نتركها لانبدلها فلا يصح ، والذى عليه أكثر أهل اللغة والنظر أن معنى (أوننسها) نبح لكم تركها من نسى اذا ترك ثم تعديه * ومعنى (نأت بخير منها أو مثلها) نأت بما هو أنفع للناس منها فى العاجل والآجل ، أوفى أحدهما ، أو بما هو مماثل لها من غير زيادة ، ومرجع ذلك الى إعمال النظر فى المنسوخ والناسخ فقد يكون الناسخ أخف فيكون أنفع لهم فى العاجل ، وقد يكون أثقل وثوابه أكثر فيكون أنفع لهم فى الآجل . وقد يستويان فتحصل المماثلة . وقوله (ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير) يفيد أن النسخ من مقدوراته وأن إنكاره إنكار للقدرة الالهية ، وهكذا قوله (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) أى له التصرف فى السموات والأرض بالايجاد والاختراع ونفوذ الأمر فى جميع مخلوقاته فهو أعلم بمصالح عباده وما فيه النفع لهم من أحكامه التى تعبدهم بها وشرعها لهم . وقد يختلف ذلك باختلاف الأحوال والأزمنة والأشخاص ، وهذا صنع من لاولىّ لهم غيره ولا نصير سواه ، فعليهم أن يتلقوه بالقبول والامتثال والتعظيم والاجلال .

وقد أخرج ابن أبى حاتم والحاكم فى الكنى وابن عدى وابن عساكر عن ابن عباس قال كان مما ينزل على النبى ﷺ الوحى بالليل وينساه بالنهار فأنزل الله (ماننسخ من آية أو ننسأها نأت بخير منها أو مثلها) وفى إسناده الحجاج الجزرى ينظر فيه . وأخرج الطبرانى عن ابن عمر قال قرأ رجلان من الأنصار سورة أقرأهما رسول الله ﷺ وكانا يقرآن بها ، فقاما يقرآن ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف فأصبحا غادين على رسول الله ﷺ فقال انها مما نسخ أونسى فالهوا عنها . وفى إسناده سليمان بن أرقم وهو ضعيف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (ماننسخ من آية أو ننسأها) يقول مانبدل من آية أو نتركها لانبدلها (نأت بخير منها أو مثلها) يقول خير لكم فى المنفعة وأرفق بكم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أنه قال (ننسأها) نؤخرها . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن مسعود فى قوله (ماننسخ من آية) قال نثبت خطها ونبدل حكمها (أو ننسأها) قال نؤخرها . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود فى ناسخه وابن جرير عن قتادة فى قوله (نأت بخير منها أو مثلها) يقول فيها تخفيف فيها رخصة فيها أمر فيها نهى . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن المنذر وابن الانبارى فى المصاحف وأبو ذر الهروى فى فضائله

عن

عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف أن رجلا كانت معه سورة فقام من الليل فقام بها فلم يقدر عليها ، وقام آخر يقرأ بها فلم يقدر عليها ، وقام آخر فلم يقدر عليها ، فأصبحوا فأتوا رسول الله ﷺ فاجتمعوا عنده فأخبروه فقال انها نسخت البارحة . وقد روى نحوه عنه من وجه آخر . وقد ثبت فى البخارى وغيره عن أنس أن الله أنزل فى الذين قتلوا فى بئر معونة : أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا ثم نسخ وهكذا ثبت فى مسلم وغيره عن أبى موسى قال كنا نقرأ سورة نشبهها فى الطول والشدّة ببراءة فأنسيتها غير أنى حفظت منها : لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا ولا يملأ جوفه إلا التراب ، وكنا نقرأ سورة نشبهها باحدى المسبحات * أوّلها ـ سبح لله مافى السموات ـ فأنسيناها غير أنى حفظت منها ـ يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون فتكتب شهادة فى أعناقكم فتسألوا عنها يوم القيامة ـ . وقد روى مثل هذا من طريق جماعة من الصحابة ، ومنه آية الرجم كما رواه عبد الرزاق وأحمد وابن حبان عن عمر.

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *

(أم) هذه هى المنقطعة التى بمعنى بل ، أى بل تريدون ، وفى هذا توبيخ وتقريع ، والكاف فى قوله (كما سئل) فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف أى سؤالا مثل ماسئل موسى من قبل حيث سألوه أن يريهم الله جهرة ، وسألوا محمدا ﷺ أن يأتى بالله والملائكة قبيلا * وقوله (سواء) هو الوسط من كل شىء ، قاله أبو عبيدة ، ومنه قوله تعالى ـ فى سواء الجحيم ـ ومنه قول حسان : يرثى النبى ﷺ

ياويح أصحاب النبى ورهطه * بعد المغيب فى سواء الملحد

وقال الفراء السواء القصد ، أى ذهب عن قصد الطريق وسمته أى طريق طاعة الله * وقوله تعالى (ودّ كثير من أهل الكتاب) فيه اخبار المسلمين بحرص اليهود على فتنتهم وردّهم عن الاسلام والتشكيك عليهم فى دينهم * وقوله (لو يردّونكم) فى محل نصب على انه مفعول للفعل المذكور * وقوله (من عند أنفسهم) يحتمل أن يتعلق بقوله ودّ أى ودّوا ذلك من عند أنفسهم ، ويحتمل أن يتعلق بقوله (حسدا) أى حسدا ناشئا من عند أنفسهم ، وهو علة لقوله ودّ * والعفو ترك المؤاخذة بالذنب * والصفح إزالة أثره من النفس ، صفحت عن فلان : اذا أعرضت عن ذنبه ، وقد ضربت عنه صفحا ، اذا أعرضت عنه ، وفيه الترغيب فى ذلك والارشاد اليه . وقد نسخ ذلك بالأمر بالقتال . قاله أبو عبيدة * وقوله ـ حتى يأتى الله بأمره ـ هو غاية ماأمر الله سبحانه به من العفو والصفح : أى افعلوا ذلك الى أن يأتى اليكم الأمر من الله سبحانه فى شأنهم بما يختاره و يشاؤه وماقد قضى به فى سابق علمه ، وهو قتل من قتل منهم ، واجلاء من أجلى ، وضرب الجزية على من ضربت عليه ، و إسلام من أسلم * وقوله (وأقيموا الصلاة) حثّ من الله سبحانه لهم على الاشتغال بما ينفعهم و يعود عليهم بالمصلحة من إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة ، وتقديم الخير الذى يثابون عليه حتى يمكن الله لهم و ينصرهم على المخالفين لهم .

وقد أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال قال رافع بن حريملة ووهب

ابن زيد لرسول الله ﷺ يامحمد ائتنا بكتاب ينزل علينا من السماء نقرؤه أوفجر لنا أنهارا نتبعك ونصدقك فأنزل الله فى ذلك (أم تريدون أن تسألوا رسولكم إلى قوله سواء السبيل) وكان حيى بن أخطب من أشدّ اليهود حسدا للعرب اذ خصهم الله برسوله ، وكانا جاهدين فى ردّ الناس عن الاسلام مااستطاعا ، فأنزل الله فيهما ـ ودّ كثير من أهل الكتاب ـ الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن السدى قال سألت العرب محمدا ﷺ أن يأتيهم بالله فيروه جهرة ، فنزلت هذه الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال قال رجل لو كانت كفاراتنا كفارات بنى إسرائيل ، فقال النبى ﷺ ما أعطاكم الله خير ، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها فان كفرها كانت له خزايا فى الدنيا ، وان لم يكفرها كانت له خزايا فى الآخرة . وقد أعطاكم الله خيرا من ذلك قال ـ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ـ الآية ، والصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن فأنزل الله (أم تريدون أن تسألوا رسولكم) الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد . قال سألت قريش محمدا ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، فقال نعم وهو لكم كالمائدة لبنى اسرائيل ان كفرتم ، فأبوا ورجعوا فأنزل الله (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) أن يريهم الله جهرة . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله (ومن يتبدل الكفر بالايمان) قال يتبدل الشدّة بالرخاء . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (فقد ضلّ سواء السبيل) قال عدل عن السبيل . وأخرج أبو داود وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن كعب بن مالك قال كان اليهود والمشركون من أهل المدينة يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أشدّ الأذى ، فأمر الله بالصبر على ذلك والعفو عنهم وأنزل الله (ودّ كثير من أهل الكتاب) وفى الصحيحين وغيرهما عن أسامة ابن زيد قال كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله و يصبرون على الأذى ، قال الله تعالى ـ ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ـ وقال ـ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم ـ الآية وكان رسول الله ﷺ يتأوّل فى العفو ماأمره الله به حتى أذن الله فيهم بقتل فقتل الله به من قتل من صناديد قريش . وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس فى قوله (من عند أنفسهم) قال من قبل أنفسهم (من بعد ماتبين لهم الحق) يقول ان محمدا رسول الله وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله (فاعفوا واصفحوا) وقوله ـ وأعرض عن المشركين ـ ونحوهذا فى العفو عن المشركين قال نسخ ذلك كله بقوله ـ قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ـ الآية ، وقوله ـ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ـ . وأخرج ابن جرير عن السدى نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير فى قوله (وما تقدّموا لأنفسكم من خير) يعنى من الأعمال من الخير فى الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله (تجدوه عند الله) قال تجدوا ثوابه .

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ *

قوله (هودا) قال الفراء : يجوز أن يكون هودا بمعنى يهوديا ، وأن يكون جمع هائد . وقال الأخفش ان الضمير المفرد فى كان هو باعتبار لفظ من ، والجمع فى قوله ــ هودا ــ باعتبار معنى من ، قيل فى هذا الكلام حذف ، وأصله وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا ، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا هكذا قال كثير من المفسرين ، وسبقهم إلى ذلك بعض السلف وظاهر النظم القرآنى أن طائفتى اليهود والنصارى وقع منهم هذا القول وأنهم يختصون بذلك دون غيرهم ، ووجه القول بأن فى الكلام حذفا ماهو معلوم من أن كل طائفة من هاتين الطائفتين تضلل الأخرى وتنفى عنها أنها على شىء من الدين فضلا عن دخول الجنة كما فى هذا الموضع ، فانه قد حكى الله عن اليهود أنها قالت ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء * (والأمانىّ) قد تقدّم تفسيرها والاشارة بقوله (تلك) إلى ماتقدّم لهم من الأمانىّ التى آخرها أنه لايدخل الجنة غيرهم . وقيل ان الاشارة إلى هذه الأمنية الآخرة ، والتقدير أمثال تلك الأمنية أمانيهم على حذف المضاف ليطابق أمانيهم ، قوله (هاتوا) أصله هاتيوا حذفت الضمة لثقلها ، ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين ، ويقال للمفرد المذكر هات وللمؤنث هاتى ، وهو صوت بمعنى احضر * والبرهان الدليل الذى يحصل عنده اليقين . قال ابن جرير طلب الدليل هنا يقتضى اثبات النظر ويردّ على من ينفيه * وقوله (إن كنتم صادقين) أى فى تلك الأمانىّ المجردة والدعاوى الباطلة ، ثم ردّ عليهم فقال (بلى من أسلم) وهو إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة أى ليس كما يقولون بل يدخلها من أسلم وجهه لله * ومعنى أسلم استسلم ، وقيل أخلص ، وخص الوجه بالذكر لكونه أشرف مايرى من الانسان ولأنه موضع الحواس الظاهرة ، وفيه يظهر العز والذل وقيل ان العرب تخبر بالوجه عن جملة الشىء ، وان المعنىّ هنا الوجه وغيره . وقيل المراد بالوجه هنا المقصد أى من أخلص مقصده * وقوله (وهو محسن) فى محل نصب على الحال ، والضمير فى قوله (وجهه) و (له) باعتبار لفظ من ، وفى قوله (عليهم) باعتبار معناها * وقوله (من) ان كانت الموصولة فهى فاعل لفعل محذوف أى بلى يدخلها من أسلم * وقوله (فله) معطوف على من أسلم وان كانت من شرطية فقوله ــ فله ــ هو الجزاء ، ومجموع الشرط والجزاء ردّ على أهل الكتاب وابطال لتلك الدعوى * وقوله (وقالت اليهود) وما بعده فيه أن كل طائفة تنفى الخير عن الأخرى ، ويتضمن ذلك اثباته لنفسها تحجرا لرحمة الله سبحانه . قال فى الكشاف ان الشىء هو الذى يصح ويعتدّ به ، قال وهذه مبالغة عظيمة لان المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشىء ، واذا نفى اطلاق اسم الشىء عليه فقد بولغ فى ترك الاعتداد به إلى ماليس بعده وهكذا قولهم أقلّ من لا شىء * وقوله (وهم يتلون الكتاب) أى التوراة والانجيل والجملة حالية ، وقيل المراد جنس الكتاب وفى هذا أعظم توبيخ وأشدّ تقريع لان الوقوع فى الدعاوى الباطلة والتكلم بما ليس عليه برهان هو وان كان قبيحا على الاطلاق لكنه من أهل العلم والدراسة لكتب الله أشدّ قبحا وأفظع جرما وأعظم ذنبا * وقوله (كذلك قال الذين لايعلمون) المراد بهم كفار العرب الذين لا كتاب لهم قالوا مثل مقالة اليهود اقتداء بهم لانهم جهلة لايقدرون على غير التقليد لمن يعتقدون أنه من أهل العلم * وقيل المراد بهم طائفة من اليهود والنصارى وهم الذين لاعلم عندهم ، ثم أخبرنا سبحانه بأنه المتولى لفصل هذه الخصومة التى وقع فيها الخلاف عند الرجوع اليه فيعذب من يستحق التعذيب وينجى من يستحق النجاة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله (وقالوا لن يدخل الجنة) الآية قال قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا . وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا (تلك أمانيهم) قال أمانىّ يتمنونها على الله بغير حق (قل هاتوا برهانكم) قال حجتكم (ان كنتم صادقين)

بما تقولونه انه كما تقولون (بلى من أسلم وجهه لله) يقول أخلص لله . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله (قل هاتوا برهانكم) قال حجتكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (بلى من أسلم وجهه) قال أخلص دينه . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال لما قدم وفد نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حريملة ماأنتم على شىء وكفر بعيسى والانجيل . فقال له رجل من أهل نجران ماأنتم على شىء وجحد نبوّة موسى وكفر بالتوراة قال فأنزل الله فى ذلك (وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب) أى كلّ يتلو فى كتابه تصديق من كفر به . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج . قال قلت لعطاء : من هؤلاء الذين لايعلمون ؟ قال هم أمم كانت قبل اليهود والنصارى . وأخرج ابن جرير عن السدى قال هم العرب قالوا ليس محمد على شىء .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِى خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *

هذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على أن هذا الظلم متناه وأنه بمنزلة لاينبغى أن يلحقه سائر أنواع الظلم ، أى لاأحد أظلم ممن منع مساجد الله ، واسم الاستفهام فى محل رفع على الابتداء وأظلم خبره * وقوله (أن يذكر فيها اسمه) قيل هو بدل من مساجد ، وقيل انه مفعول له بتقدير كراهية أن يذكر ، وقيل ان التقدير من أن يذكر ثم حذف حرف الجر لطول الكلام ، وقيل انه مفعول ثان لقوله ــ منع ــ والمراد بمنع المساجد أن يذكر فيها اسم الله منع من يأتى إليها للصلاة والتلاوة والذكر وتعليمه * والمراد بالسعى فى خرابها هو السعى فى هدمها ورفع بنيانها ، ويجوز أن يراد بالخراب تعطيلها عن الطاعات التى وضعت لها فيكون أعم من قوله ــ أن يذكر فيها اسمه ــ فيشمل جميع مايمنع من الأمور التى بنيت لها المساجد كتعلم العلم وتعليمه ، والقعود للاعتكاف ، وانتظار الصلاة ، ويجوز أن يراد ماهو أعم من الأمرين من باب عموم المجاز كما قيل فى قوله تعالى ــ إنما يعمر مساجد الله ــ * وقوله (ماكان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) أى ما كان ينبغى لهم دخولها إلا حال خوفهم ، وفيه إرشاد للعباد من الله عز وجلّ أنه ينبغى لهم أن يمنعوا مساجد الله من أهل الكفر من غير فرق بين مسجد ومسجد ، و بين كافر وكافر كما يفيده عموم اللفظ ، ولاينافيه خصوص السبب ، وأن يجعلوهم بحالة إذا أرادوا الدخول كانوا على وجل وخوف من أن يفطن لهم أحد من المسلمين فينزلون بهم مايوجب الاهانة والاذلال ، وليس فيه الاذن لنا بتمكينهم من ذلك حال خوفهم ، بل هو كناية عن المنع لهم منا عن دخول مساجدنا * والخزى قيل هو ضرب الجزية عليهم واذلالهم ، وقيل غير ذلك . وقد تقدّم تفسيره * والمشرق موضع الشروق * والمغرب موضع الغروب أى هما ملك لله وما بينهما من الجهات والمخلوقات فيشمل الأرض كلها * وقوله (فأينما تولوا) أى أىّ جهة تستقبلونها فهناك وجه الله أى المكان الذى يرتضى لكم استقباله ، وذلك يكون عند التباس جهة القبلة التى أمرنا بالتوجه اليها بقوله سبحانه ــ فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره ــ قال فى الكشاف ، والمعنى أنكم إذا منعتم أن تصلوا فى المسجد الحرام أى فى بيت المقدس فقد جعلت لكم الأرض مسجدا ، فصلوا فى أىّ بقعة شئتم من بقاعها ، وافعلوا التولية فيها ، فان التولية ممكنة فى كل مكان لاتختص أماكنها فى مسجد دون مسجد ، ولا فى مكان دون مكان انتهى ، وهذا التخصيص لاوجه له فان اللفظ أوسع منه ، وان كان المقصود به بيان السبب فلا بأس * وقوله (ان الله

واسع

واسع عليم) فيه إرشاد إلى سعة رحمته ، وأنه يوسع على عباده فى دينهم ولا يكلفهم ماليس فى وسعهم ، وقيل واسع بمعنى أنه يسع علمه كل شىء كما قال ـ وسع كل شىء علما ـ وقال الفراء الواسع الجواد الذى يسع عطاؤه كل شىء .

وقد أخرج ابن اسحق وابن أبى حاتم عن ابن عباس أن قريشا منعوا النبى ﷺ الصلاة عند الكعبة فى المسجد الحرام فأنزل الله (ومن أظلم ممن منع مساجد الله) وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال هم النصارى . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير عن السدى قال هم الروم كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس ، وفى قوله (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) قال فليس فى الأرض رومى يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يضرب عنقه . وقد أخيف بأداء الجزية فهو يؤدّيها * وفى قوله (لهم فى الدنيا خزى) قال أما خزيهم فى الدنيا فانه إذا قام المهدى وفتحت القسطنطينية قتلهم فذلك الخزى . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أنهم الروم . وأخرج ابن أبى حاتم عن كعب أنهم النصارى لما ظهروا على بيت المقدس حرقوه . وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم قال هم المشركون حين صدّوا رسول الله ﷺ عن البيت يوم الحديبية . وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى صالح قال ليس للشركين أن يدخلوا المسجد إلا خائفين . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة فى قوله (لهم فى الدنيا خزى) قال يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال أوّل مانسخ من القرآن فيما ذكر لنا والله أعلم شأن القبلة ، قال الله تعالى (ولله المشرق والمغرب) الآية فاستقبل رسول الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ثم صرفه الله إلى البيت العتيق ونسخها فقال ـ ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ـ . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن ابن عمر قال كان النبى ﷺ يصلى على راحلته تطوّعا أينما توجهت به ، ثم قرأ ابن عمر هذه الآية (أينما تولوا فثم وجه الله) وقال فى هذا أنزلت هذه الآية وأخرج نحوه عنه ابن جرير والدارقطنى والحاكم وصححه . وقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث جابر عن رسول الله ﷺ أنه كان يصلى على راحلته قبل المشرق ، فاذا أراد أن يصلى المكتوبة نزل واستقبل القبلة وصلى . وروى نحوه من حديث أنس مرفوعا أخرجه ابن أبى شيبة وأبوداود . وأخرج عبد بن حميد والترمذى وضعفه وابن ماجه وابن جرير وغيرهم عن عامر بن ربيعة قال كنا مع رسول الله ﷺ فى ليلة سوداء مظلمة فنزلنا منزلا فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجدا فيصلى فيه ، فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا على غير القبلة ، فقلنا يارسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة ، فأنزل الله (ولله المشرق والمغرب) الآية فقال مضت صلاتكم . وأخرج الدارقطنى وابن مردويه والبيهقى عن جابر مرفوعا نحوه الا أنه ذكر أنهم خطوا خطوطا . وأخرج نحوه ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعا . وأخرج نحوه أيضا سعيد بن منصور وابن المنذر عن عطاء يرفعه وهو مرسل . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (فثم وجه الله) قال قبلة الله أينما توجهت شرقا أوغربا . وأخرج ابن أبى شيبة والترمذى وصححه وابن ماجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « مابين المشرق والمغرب قبلة » وأخرج ابن أبى شيبة والدارقطنى والبيهقى عن ابن عمر مثله . وأخرج ابن أبى شيبة والبيهقى عن عمر نحوه .

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ

أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ *

قوله (وقالوا) هم اليهود والنصارى ، وقيل اليهود أى قالوا ـ عزير ابن الله ـ وقيل النصارى أى ـ قالوا المسيح ابن الله ـ وقيل هم كفار العرب أى قالوا الملائكة بنات الله * وقوله (سبحانه) قد تقدم تفسيره ، والمراد هنا تبرأ الله تعالى عما نسبوه اليه من اتخاذ الولد * وقوله (بل له ما فى السموات والأرض) ردّ على القائلين بأنه اتخذ ولدا أى بل هو مالك لما فى السموات والأرض ، وهؤلاء القائلون داخلون تحت ملكه ، والولد من جنسهم لا من جنسه ، ولا يكون الولد إلا من جنس الوالد * والقانت المطيع الخاضع ، أى كل من فى السموات والأرض مطيعون له خاضعون لعظمته خاشعون لجلاله ، والقنوت فى أصل اللغة أصله القيام . قال الزجاج فالخلق قانتون أى قائمون بالعبودية إما إقرارا و إما أن يكونوا على خلاف ذلك ، فأثر الصنعة بين عليهم ، وقيل أصله الطاعة ، ومنه ـ والقانتين والقانتات ـ وقيل السكون ، ومنه قوله ـ وقوموا لله قانتين ـ ولهذا قال زيد بن أرقم كنا نتكلم فى الصلاة حتى نزلت ـ وقوموا لله قانتين ـ فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام ، وقيل القنوت الصلاة ، ومنه قول الشاعر :

قانتا لله يتلو كتبه * وعلى عمد من الناس اعتزل

والأولى أن القنوت لفظ مشترك بين معان كثيرة ، قيل هى ثلاثة عشر معنى ، وهى مبينة . وقد نظمها بعض أهل العلم كما أوضحت ذلك فى شرحى على المنتقى * و بديع فعيل للمبالغة وهو خبر مبتدا محذوف أى هو بديع سمواته وأرضه ، أبدع الشىء أنشأه لا عن مثال ، وكل من أنشأ مالم يسبق اليه قيل له مبدع * وقوله (واذا قضى أمرا) أى أحكمه وأتقنه . قال الأزهرى قضى فى اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشىء وتمامه ، قيل هو مشترك بين معان ، يقال قضى بمعنى خلق ، ومنه ـ فقضاهنّ سبع سموات ـ و بمعنى أعلم ، ومنه ـ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب ـ و بمعنى أمر ، ومنه ـ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ـ و بمعنى ألزم ، ومنه قضى عليه القاضى ، و بمعنى أوفاه ، ومنه ـ فلما قضى موسى الأجل ـ و بمعنى أراد ومنه ـ فاذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون ـ * والأمر واحد الأمور . وقد ورد فى القرآن على أربعة عشر معنى * الأوّل الدين ، ومنه ـ حتى جاء الحق وظهر أمر الله ـ * الثانى بمعنى القول ، ومنه ـ فاذا جاء أمرنا ـ * الثالث العذاب ، ومنه ـ لما قضى الأمر ـ * الرابع عيسى ، ومنه ـ فاذا قضى أمرا ـ أى أوجد عيسى عليه السلام * الخامس القتل ، ومنه ـ فاذا جاء أمر الله ـ * السادس فتح مكة ، ومنه ـ فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ـ * السابع قتل بنى قريظة و إجلاء النضير ، ومنه ـ فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ـ * والثامن القيامة ، ومنه ـ أتى أمر الله ـ * التاسع القضاء ، ومنه ـ يدبر الأمر ـ * العاشر الوحى ، ومنه ـ يتنزل الأمر بينهنّ ـ * والحادى عشر أمر الخلائق ، ومنه ـ ألا إلى الله تصير الأمور ـ * والثانى عشر النصر ، ومنه ـ هل لنا من الأمر من شىء ـ * والثالث عشر الذنب ، ومنه ـ فذاقت و بال أمرها ـ * والرابع عشر الشأن ، ومنه ـ وما أمر فرعون برشيد ـ هكذا أورد هذه المعانى بأطول من هذا بعض المفسرين ، وليس تحت ذلك كثير فائدة ، و إطلاقه على الأمور المختلفة لصدق اسم الأمر عليها * وقوله (فانما يقول له كن فيكون) الظاهر فى هذا المعنى الحقيق ، وأنه يقول سبحانه هذا اللفظ ، وليس فى ذلك مانع ولا جاء ما يوجب تأويله ، ومنه قوله تعالى ـ انما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ـ وقال تعالى ـ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ـ وقال ـ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ـ ومنه قول الشاعر :

إذا ماأراد الله أمرا فانما * يقول له كن قوله فيكون

وقد قيل ان ذلك مجاز وأنه لاقول وانما هو قضاء يقضيه ، فعبر عنه بالقول ، ومنه قول الشاعر ، وهو عمر بن حممة الدوسى :

فأصبحت مثل النسر طار فراخه * اذا رام تطيارا يقال له قع

وقال آخر

قالت جناحاه لساقيه الحقا * ونجيا لحمكما أن يمزقا

والمراد بقوله (وقال الذين لايعلمون) اليهود ، وقيل النصارى ورجحه ابن جرير لأنهم المذكورون فى الآية ، وقيل مشركو العرب و (لولا) حرف تحضيض أى هلا (يكلمنا الله) بنبوّة محمد فنعلم أنه نبىّ (أو تأتينا) بذلك علامة على نبوّته * والمراد بقوله (قال الذين من قبلهم) قيل هم اليهود والنصارى فى قول من جعل الذين لايعلمون كفار العرب ، أو الأمم السالفة فى قول من جعل الذين لايعلمون اليهود والنصارى ، أو اليهود فى قول من جعل الذين لايعلمون النصارى (تشابهت) أى فى التعنت والاقتراح ، وقال الفراء (تشابهت) فى اتفاقهم على الكفر (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) أى يعترفون بالحق وينصفون فى القول ويذعنون لأوامر الله سبحانه لكونهم مصدقين له سبحانه مؤمنين بآياته متبعين لما شرعه لهم .

وقد أخرج البخارى من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال قال الله تعالى «كذبنى ابن آدم وشتمنى ، فأما تكذيبه إياى فيزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياى فقوله لى ولد فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولدا» . وأخرج نحوه أيضا من حديث أبى هريرة ، وفى الباب أحاديث . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (سبحان الله) قال تنزيه الله نفسه عن السوء . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الأسماء والصفات عن موسى بن طلحة عن النبى ﷺ أنه سئل عن التسبيح أن يقول الانسان سبحان الله قال برأه الله من السوء . وأخرجه الحاكم وصححه ابن مردويه والبيهقى من طريق طلحة بن يحيى بن طلحة عن أبيه عن جدّه طلحة بن عبيدالله قال سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله فقال هو تنزيه الله من كل سوء . وأخرجه ابن مردويه عنه من طريق أخرى مرفوعا . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية والضياء فى المختارة عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ قال «كل حرف فى القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة» وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (كلّ له قانتون) قال مطيعون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله (بديع السموات والأرض) يقول ابتدع خلقهما ولم يشركه فى خلقهما أحد . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ يامحمد ان كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه ، فأنزل الله فى ذلك (وقال الذين لايعلمون) الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أنهم كفار العرب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال هم النصارى والذين من قبلهم يهود .

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ * وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ * ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ

يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ *

قوله (بشيرا ونذيرا) يحتمل أن يكون منصوبا على الحال ، ويحتمل أن يكون مفعولا له أى أرسلناك لأجل التبشير والانذار * وقوله (ولا تسئل) قرأه الجمهور بالرفع مبنيا للمجهول أى حال كونك غير مسئول وقرئ بالرفع مبنيا للمعلوم . قال الأخفش ويكون فى موضع الحال عطفا على (بشيرا ونذيرا) أى حال كونك غير سائل عنهم ، لان علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغنى عن سؤاله عنهم ، وقرأ نافع (ولاتسئل) بالجزم أى لايصدر منك السؤال عن هؤلاء أو لايصدر منك السؤال عمن مات منهم على كفره ومعصيته تعظيما لحاله وتغليظا لشأنه ، أى ان هذا أمر فظيع وخطب شنيع يتعاظم المتكلم أن يجريه على لسانه أو يتعاظم السامع أن يسمعه * قوله (ولن ترضى عنك اليهود) الآية أى ليس غرضهم ومبلغ الرضا منهم مايقترحونه عليك من الآيات ويوردونه من التعنتات ، فانك لوجئتهم بكل مايقترحون وأجبتهم عن كل تعنت لم يرضوا عنك ، ثم أخبره بأنهم لن يرضوا عنه حتى يدخل فى دينهم ويتبع ملتهم * والملة اسم لما شرعه الله لعباده فى كتبه على ألسن أنبيائه وهكذا الشريعة ، ثم ردّ عليهم سبحانه فأمره بأن يقول لهم (ان هدى الله هو الهدى) الحقيقى ، لا ماأنتم عليه من الشريعة المنسوخة والكتب المحرّفة ، ثم أتبع ذلك بوعيد شديد لرسول الله ﷺ ان اتبع أهواءهم وحاول رضاهم وأتعب نفسه فى طلب مايوافقهم ، ويحتمل أن يكون تعريضا لأمته وتحذيرا لهم أن يواقعوا شيئا من ذلك ، أو يدخلوا فى أهوية أهل الملل ويطلبوا رضا أهل البدع * وفى هذه الآية من الوعيد الشديد الذى ترجف له القلوب وتتصدع منه الأفئدة مايوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه والقائمين ببيان شرائعه ترك الدهان لأهل البدع المتمذهبين بمذاهب السوء التاركين للعمل بالكتاب والسنة المؤثرين لمحض الرأى عليهما ، فان غالب هؤلاء وان أظهر قبولا وأبان من أخلاقه لينا لايرضيه إلا اتباع بدعته والدخول فى مداخله والوقوع فى حبائله ، فان فعل العالم ذلك بعد أن علمه الله من العلم مايستفيد به أن هدى الله هو مافى كتابه وسنة رسوله ، لا ماهم عليه من تلك البدع التى هى ضلالة محضة ، وجهالة بينة ورأى منهار ، وتقليد على شفا جرف هار ، فهو اذ ذاك ماله من الله من ولى ولا نصير ، ومن كان كذلك فهو مخذول لامحالة وهالك بلا شك ولا شبهة * وقوله (الذين آتيناهم الكتاب) قيل هم المسلمون ، والكتاب هو القرآن وقيل من أسلم من أهل الكتاب ، والمراد بقوله (يتلونه) أنهم يعملون بما فيه فيحللون حلاله ويحرمون حرامه فيكون من تلاه يتلوه اذا اتبعه ، ومنه قوله تعالى — والقمر اذا تلاها — أى اتبعها كذا قيل ، ويحتمل أن يكون من التلاوة ، أى يقرءونه حق قراءته لايحرّفونه ولايبدّلونه * وقوله (الذين آتيناهم الكتاب) مبتدأ وخبره (يتلونه) أو الخبر قوله (أولئك) مع مابعده .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب القرظى قال قال رسول الله ﷺ « ليت شعرى مافعل أبواى » فنزل (إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) فما ذكرهما حتى توفاه الله ، قال السيوطى هذا مرسل ضعيف الاسناد ثم رواه من طريق ابن جرير عن داود بن أبى عاصم مرفوعا وقال هو معضل الاسناد ضعيف لاتقوم به ولا بالذى قبله حجة . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك قال (الجحيم) ماعظم من النار . وأخرج الثعلبى عن ابن عباس قال ان يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلى النبى ﷺ الى قبلتهم ، فلما صرف الله القبلة الى الكعبة شق ذلك عليهم وأيسوا منه أن يوافقهم على دينهم . فأنزل الله (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى) الآية وأخرج عبد الرزاق عن قتادة فى قوله (الذين آتيناهم الكتاب) قال هم اليهود والنصارى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله (يتلونه حق تلاوته) قال

يحلون حلاله ويحرمون حرامه ولايحرفونه عن مواضعه . وأخرجوا عنه أيضا قال يتبعونه حق اتباعه ، ثم قرءوا ــ والقمر إذا تلاها ــ يقول اتبعها . وأخرج ابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب قال فى قوله (يتلونه حق تلاوته) اذا مرّ بذكر الجنة سأل الله الجنة ، واذا مرّ بذكر أهل النار تعوّذ بالله من النار . وأخرج الخطيب فى كتاب الرواة بسند فيه مجاهيل عن ابن عمر عن النبى ﷺ فى قوله (يتلونه حق تلاوته) قال يتبعونه حق اتباعه ، وكذا قال القرطبى فى تفسيره ان فى اسناده مجاهيل قال لكن معناه صحيح . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير من طرق عن ابن مسعود فى تفسير هذه الآية مثل ماسبق عن ابن عباس فى قوله يحلون حلاله إلى آخره . وأخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم قال يتكلمون به كما أنزل ولا يكتمونه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى هذه الآية قال هم أصحاب محمد ، ثم حكى نحو ذلك عن عمر ابن الخطاب . وأخرج وكيع وابن جرير عن الحسن فى قوله (يتلونه حق تلاوته) قال يعملون بمحكمه ، و يؤمنون بمتشابهه ، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه .

يَٰبَنِى إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ * وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى

قوله (يابنى إسرائيل الى قوله ولاهم ينصرون) قد سبق مثل هذا فى صدر السورة ، وتقدم تفسيره ، ووجه التكرار الحث على اتباع الرسول النبى الأمىّ ، ذكر معناه ابن كثير فى تفسيره . وقال البقاعى فى تفسيره انه لما طال المدى فى استقصاء تذكيرهم بالنعم ثم فى بيان عوارهم ، وهتك أستارهم ، وختم ذلك بالترهيب لتضييع أديانهم بأعمالهم وأحوالهم وأقوالهم : أعاد ماصدّر به قصتهم من التذكير بالنعم ، والتحذير من حلول النقم ، يوم تجمع الأمم ، ويدوم فيه الندم ، لمن زلت به القدم ، ليعلم أن ذلك فذلكة القصة ، والمقصود بالذات الحث على انتهاز الفرصة انتهى * وأقول ليس هذا بشىء فانه لو كان سبب التكرار ماذكره من طول المدى وأنه أعاد ماصدّر به قصتهم لذلك لكان الأولى بالتكرار ، والأحق باعادة الذكر هو قوله سبحانه ــ يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم و إياى فارهبون ــ فان هذه الآية مع كونها أوّل الكلام معهم والخطاب لهم فى هذه السورة هى أيضا أولى بأن تعاد وتكرر لما فيها من الأمر بذكر النعم والوفاء بالعهد والرهبة لله سبحانه ، و بهذا تعرف صحة ماقدّمناه لك عند أن شرع الله سبحانه فى خطاب بنى إسرائيل من هذه السورة فراجعه ، ثم حكى البقاعى بعد كلامه السابق عن الحوالى أنه قال كرره تعالى إظهارا لمقصد التئام آخر الخطاب بأوّله ،وليتخذ هذا الافصاح والتعليم أصلا لما يمكن بأن يرد من نحوه فى سائر القرآن حتى كان الخطاب إذا انتهى إلى غاية خاتمه يجب أن يلحظ القلب بذاته تلك الغاية فيتلوها ليكون فى تلاوته جامعا لطرفى الثناء ، وفى تفهيمه جامعا لمعانى طرفى المعنى انتهى * وأقول لو كان هذا هو سبب التكرار لكان الأولى به ماعرفناك . وأما قوله وليتخذ ذلك أصلا لما يرد من التكرار فى سائر القرآن فمعلوم أن حصول هذا الأمر فى الأذهان وتقرره فى الأفهام لايختص بتكرير آية معينة يكون افتتاح هذا المقصد بها ، فلم تتم حينئذ النكتة فى تكرير هاتين الآيتين بخصوصهما ، ولله الحكمة البالغة التى لاتبلغها الأفهام ولا تدركها العقول ، فليس فى تكلف هذه المناسبات المتعسفة إلا ماعرفناك به هنالك فتذكر * قوله (و إذ ابتلى) الابتلاء الامتحان والاختبار أى ابتلاه بما أمره به و (ابراهيم) معناه فى السريانية

أب رحيم . كذا قال الماوردى ، قال ابن عطية ومعناه فى العربية ذلك . قال السهيلى وكثيرا مايقع الاتفاق بين السريانى والعربى . وقد أورد صاحب الكشاف هنا سؤالا فى رجوع الضمير إلى ابراهيم مع كون رتبته التأخير . وأجاب عنه بأنه قد تقدّم لفظا فرجع إليه ، والأمر فى هذا أوضح من أن يشتغل بذكره ، أوترد فى مثله الأسئلة أو يسود وجه القرطاس بايضاحه * وقوله (بكلمات) قد اختلف العلماء فى تعينها ، فقيل هى شرائع الاسلام ، وقيل ذبح ابنه ، وقيل أداء الرسالة ، وقيل هى خصال الفطرة ، وقيل هى قوله — انى جاعلك للناس إماما — وقيل بالطهارة كما سيأتى بيانه . قال الزجاج وهذه الأقوال ليست بمتناقضة لأن هذا كله مما ابتلى به ابراهيم انتهى * وظاهر النظم القرآنى أن الكلمات هى قوله (قال إنى جاعلك) وما بعده ، ويكون ذلك بيانا للكلمات ، وسيأتى عن بعض السلف مايوافق ذلك ، وعن آخرين مايخالفه وعلى هذا فيكون قوله (قال إنى جاعلك) مستأنفا كأنه قيل ماذا قال له . وقال ابن جرير ماحاصله أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ذلك ، وجائز أن يكون بعض ذلك ، ولا يجوز الجزم بشىء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع ، ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له ، ثم قال فلو قال قائل ان الذى قاله مجاهد وأبو صالح والربيع بن أنس أولى بالصواب يعنى أن الكلمات هى قوله (إنى جاعلك للناس إماما) * وقوله (وعهدنا إلى ابراهيم) وما بعده ورجح ابن كثير انها تشمل جميع ماذكر ، وسيأتى التصريح بما هو الحق بعد إيراد ماورد عن السلف الصالح . وقوله (فأتمهنّ) أى قام بهنّ أتمّ قيام ، وامتثل أكمل امتثال * والامام هو مايؤتمّ به ، ومنه قيل للطريق إمام ، وللبناء إمام ، لأنه يؤتمّ بذلك أى يهتدى به السالك ، والامام لما كان هو القدوة للناس لكونهم يأتمون به ويهتدون بهديه أطلق عليه هذا اللفظ وقوله (ومن ذريتى) يحتمل أن يكون ذلك دعاء من ابراهيم ، أى واجعل من ذريتى أئمة ، ويحتمل أن يكون هذا من ابراهيم بقصد الاستفهام وان لم يكن بصيغته أى ومن ذريتى ماذا يكون يارب ، فأخبره أن فيهم عصاة وظلمة ، وأنهم لايصلحون لذلك ولايقومون به ولاينالهم عهد الله سبحانه * والذرية مأخوذة من الذر ، لأن الله أخرج الخلق من ظهر آدم حين أشهدهم على أنفسهم كالذر ، وقيل مأخوذة من ذرأ الله الخلق يذرؤهم إذا خلقهم . وفى الكتاب العزيز — فأصبح هشيما تذروه الرياح — قال فى الصحاح ذرت الريح السحاب وغيره تذروه وتذريه ذروا وذريا أى نسفته ، وقال الخليل انما سموا ذرية لان الله تعالى ذرأها على الأرض كما ذرأ الزارع البذر . واختلف فى المراد بالعهد فقيل الامامة ، وقيل النبوّة ، وقيل عهد الله أمره ، وقيل الامان من عذاب الآخرة ، ورجحه الزجاج والأوّل أظهر كما يفيده السياق . وقد استدل بهذه الآية جماعة من أهل العلم على أن الامام لابد أن يكون من أهل العدل والعمل بالشرع كما ورد لأنه إذا زاغ عن ذلك كان ظالما ، ويمكن أن ينظر إلى مايصدق عليه اسم العهد وما تفيده الاضافة من العموم فيشمل جميع ذلك اعتبارا بعموم اللفظ من غير نظر الى السبب ولا الى السياق فيستدل به على اشتراط السلامة من وصف الظلم فى كل من تعلق بالأمور الدينية . وقد اختار ابن جرير أن هذه الآية وان كانت ظاهرة فى الخبر أنه لاينال عهد الله بالامامة ظالما ففيها إعلام من الله لابراهيم الخليل أنه سيوجد من ذريته من هو ظالم لنفسه انتهى . ولا يخفاك أنه لاجدوى لكلامه هذا فالأولى أن يقال ان هذا الخبر فى معنى الأمر لعباده أن لايولوا أمور الشرع ظالما ، وانما قلنا انه فى معنى الأمر لان أخباره تعالى لايجوز أن تتخلف . وقد علمنا أنه قد نال عهده من الامامة وغيرها كثيرا من الظالمين * قوله (وإذ جعلنا البيت) هو الكعبة غلب عليه كما غلب النجم على الثريا ، و (مثابة) مصدر من ثاب يثوب مثابا ومثابة ، أى مرجعا يرجع الحجاج إليه بعد تفرقهم عنه ، ومنه قول ورقة بن نوفل فى الكعبة

مثاب لاقفاء القبائل كلها * تخب اليها اليعملات الذوابل

وقرأ

وقرأ الأعمش مثابات ، وقيل المثابة من الثواب ، أى يثابون هنالك . وقال مجاهد المراد أنهم لايقضون منه أوطارهم ، قال الشاعر :

جعل البيت مثابات لهم * ليس منه الدهر يقضون الوطر

قال الأخفش ودخلت الهاء لكثرة من يثوب اليه فهى كعلامة ونسابة . وقال غيره هى للتأنيث وليست للمبالغة * وقوله (وأمنا) هو اسم مكان ، أى موضع أمن . وقداستدل بذلك جماعة من أهل العلم على أنه لايقام الحد على من لجأ اليه ، ويؤيد ذلك قوله تعالى ـ ومن دخله كان آمنا ـ وقيل ان ذلك منسوخ * وقوله (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على أنه فعل ماض أى جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوه مصلى . وقرأ الباقون على صيغة الأمر عطفا على اذكروا المذكور أوّل الآيات ، أوعلى اذكروا المقدّر عاملا فى قوله (وإذ) ويجوز أن يكون على تقدير القول ، أى وقلنا اتخذوا * والمقام فى اللغة موضع القيام . قال النحاس هو من قام يقوم ، يكون مصدرا واسما للموضع ، ومقام من أقام ، وليس من هذا قول الشاعر :

وفيهم مقامات حسان وجوهها * وأندية ينتابها القول والفعل

لان معناه أهل مقامات ، واختلف فى تعيين المقام على أقوال أصحها أنه الحجر الذى يعرفه الناس و يصلون عنده ركعتى الطواف ، وقيل المقام الحج كله . روى ذلك عن عطاء ومجاهد ، وقيل عرفة والمزدلفة ، روى عن عطاء أيضا . وقال الشعبى الحرم كله مقام ابراهيم . وروى عن مجاهد .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (وإذ ابتلى ابراهيم ربه) قال ابتلاه الله بالطهارة ، خمس فى الرأس ، وخمس فى الجسد : فى الرأس قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق والسواك ، وفرق الرأس ، وفى الجسد تقليم الأظفار ، وحلق العانة والختان ، ونتف الابط ، وغسل مكان الغائط والبول بالماء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر عنه نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه وابن عساكر عنه قال ماابتلى أحد بهذا الدين فقام به كله إلا ابراهيم . وقرأ هذه الآية فقيل له ماالكلمات ؟ قال سهام الاسلام ثلاثون سهما عشرة فى براءة ـ التائبون العابدون ـ الى آخر الآية ، وعشرة فى أوّل سورة قد أفلح ـ وسأل سائل ـ والذين يصدّقون بيوم الدين ـ الآيات ، وعشرة فى الأحزاب ـ إن المسلمين ـ إلى آخر الآية ، (فأتمهنّ) كلهنّ فكتب له براءة قال تعالى ـ وابراهيم الذى وفى ـ وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم عنه قال منهنّ مناسك الحج . وأخرج ابن جرير عنه قال الكلمات (إنى جاعلك للناس إماما * وإذ يرفع ابراهيم القوعد) والآيات فى شأن المناسك ، والمقام الذى جعل لابراهيم ، والرزق الذى رزق ساكنو البيت و بعث محمد فى ذريتهما . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن مجاهد فى قوله (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات) قال ابتلى بالآيات التى بعدها . وأخرجا أيضا عن الشعبى مثله . وأخرج ابن اسحق وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال الكلمات التى ابتلى بهنّ ابراهيم فأتمهنّ فراق قومه فى الله حين أمر بمفارقتهم ومحاجته نمروذ فى الله حين وقفه على ماوقفه عليه من خطر الأمر الذى فيه خلافهم وصبره على قذفهم إياه فى النار ليحرقوه فى الله ، والهجرة بعد ذلك من وطنه و بلاده حين أمره بالخروج عنهم وما أمره به من الضيافة والصبر عليها ، وما ابتلى به من ذبح ولده فلما مضى على ذلك كله قال الله (له أسلم قال أسلمت لرب العالمين) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن قال ابتلاه بالكوكب فرضى عنه ، وابتلاه بالقمر فرضى عنه ، وابتلاه بالشمس فرضى عنه ، وابتلاه بالهجرة فرضى عنه ، وابتلاه بالختان فرضى عنه ، وابتلاه بابنه فرضى عنه . وأخرج

ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (فأتمهن) قال فأداهن . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال قال رسول الله ﷺ من فطرة ابراهيم السواك . قلت وهذا على تقدير أن إسناده إلى عطاء صحيح فهو مرسل لاتقوم به الحجة ولا يحل الاعتماد على مثله فى تفسيره كلام الله سبحانه ، وهكذا لايحل الاعتماد على مثل ماأخرجه ابن أبى حاتم عن مجاهد قال من فطرة ابراهيم غسل الذكر والبراجم ، ومثل ماأخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه عنه قال ست من فطرة ابراهيم : قص الشارب ، والسواك ، والفرق ، وقص الأظفار ، والاستنجاء ، وحلق العانة ، قال ثلاثة فى الرأس ، وثلاثة فى الجسد . وقد ثبت عن رسول الله ﷺ فى الصحيح وغيره من طريق جماعة من الصحابة مشروعية تلك العشر لهذه الأمة ، ولم يصح عن النبى ﷺ أنها الكلمات التى ابتلى بها ابراهيم ، وأحسن ماروى عنه ماأخرجه الترمذى وحسنه عن ابن عباس قال كان النبى ﷺ يقص أو يأخذ من شاربه . قال وكان خليل الرحمن ابراهيم يفعله * ولايخفاك أن فعل الخليل له لايستلزم أنه من الكلمات التى ابتلى بها واذا لم يصح شىء عن رسول الله ﷺ ولاجاءنا من طريق تقوم بها الحجة تعيين تلك الكلمات لم يبق لنا إلا أن نقول انها ماذكره الله سبحانه فى كتابه بقوله (قال إنى جاعلك) إلى آخر الآيات ، ويكون ذلك بيانا للكلمات ، أو السكوت و إحالة العلم فى ذلك على الله سبحانه ، وأما ماروى عن ابن عباس ونحوه من الصحابة ومن بعدهم فى تعيينها فهو أوّلا أقوال صحابة لاتقوم بها الحجة فضلا عن أقوال من بعدهم ، وعلى تقدير أنه لامجال للاجتهاد فى ذلك ، وأن له حكم الرفع فقد اختلفوا فى التعيين اختلافا يمتنع معه العمل ببعض ماروى عنهم دون البعض الآخر ، بل اختلفت الروايات عن الواحد منهم كما قدمنا عن ابن عباس فكيف يجوز العمل بذلك ، وبهذا تعرف ضعف قول من قال انه يصار الى العموم و يقال تلك الكلمات هى جميع ماذكرهنا فان هذا يستلزم تفسير كلام الله بالضعيف والمتناقض وما لاتقوم به الحجة . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس (قال إنى جاعلك للناس إماما) يقتدى بدينك وهديك وسنتك (قال ومن ذريتى) إماما لغير ذريتى (قال لاينال عهدى الظالمين) أن يقتدى بدينهم وهديهم وسنتهم . وأخرج الفريابى وابن أبى حاتم عنه قال قال الله لابراهيم (إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى) فأبى أن يفعل ، ثم قال (لاينال عهدى الظالمين) وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال هذا عند الله يوم القيامة لاينال عهده ظالما ، فأما فى الدنيا فقد نالوا عهده فوارثوا به المسلمين وغازوهم وناكحوهم ، فلما كان يوم القيامة قصر الله عهده وكرامته على أوليائه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى تفسير الآية أنه قال لاأجعل إماما ظالما يقتدى به . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال يخبره أنه ان كان فى ذريته ظالم لاينال عهده ولا ينبغى له أن يوليه شيئا من أمره . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه أنه قال ليس لظالم عليك عهد فى معصية الله . وقد أخرج وكيع وابن مردويه من حديث علىّ عن النبى ﷺ فى قوله (لاينال عهدى الظالمين) قال لاطاعة إلا فى المعروف ، واسناده عند ابن مردويه هكذا : قال حدثنا عبد الرحمن بن محمد ابن حامد حدثنا أحمد بن عبدالله بن سعد الأسدى حدثنا سليم بن سعيد الدامغانى حدّثنا وكيع عن الأعمش عن سعد بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن السلمى عن علىّ عن النبى ﷺ فذكره . وأخرج عبد ابن حميد من حديث عمران بن حصين سمعت النبى ﷺ يقول « لاطاعة لمخلوق فى معصية الله » وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال فى تفسير الآية ليس للظالم عهد وان عاهدته فانقضه . قال ابن كثير : وروى عن مجاهد وعطاء ومقاتل وابن حبان نحو ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (مثابة للناس وأمنا) قال يثوبون إليه ثم يرجعون . وأخرج ابن جرير عنه انه قال لايقضون منه وطرا يأتونه ثم يرجعون الى أهليهم ثم يعودون اليه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد

وابن

وابن جرير والبيهقي عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (وأمنا) قال أمنا للناس . وأخرج البخارى وغيره من حديث أنس عن عمر بن الخطاب قال وافقت ربى فى ثلاث ووافقنى ربى فى ثلاث ، قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلى ، فنزلت (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقلت يارسول الله ان نساءك يدخل عليهن البرّ والفاجر ، فلو أمرتهنّ أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب ، واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيرة ، فقلت لهنّ — عسى ربه ان طلقكنّ أن يبدله أزواجا خيرا منكنّ — فنزلت كذلك . وأخرجه مسلم وغيره مختصرا من حديث ابن عمر عنه . وأخرج مسلم وغيره من حديث جابر أن النبى ﷺ رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعا ، حتى إذا فرغ عمد إلى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين ، ثم قرأ (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) * وفى مقام ابراهيم عليه السلام أحاديث كثيرة مستوفاة فى الأمهات وغيرها ، والأحاديث الصحيحة تدل على أن مقام ابراهيم هو الحجر الذى كان ابراهيم يقوم عليه لبناء الكعبة ، لما ارتفع الجدار أتاه اسمعيل به ليقوم فوقه كما فى البخارى من حديث ابن عباس وهو الذى كان ملصقا بجدار الكعبة ، وأوّل من نقله عمر بن الخطاب كما أخرجه عبد الرزاق والبيهقى باسناد صحيح وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق مختلفة . وأخرج ابن أبى حاتم من حديث جابر فى وصف حج النبى ﷺ قال لما طاف النبى ﷺ قال له عمر هذا مقام ابراهيم ؟ قال نعم . وأخرج نحوه ابن مردويه .

وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ *

قوله (عهدنا) معناه هنا أمرنا أو أوجبنا * وقوله (أن طهرا) فى موضع نصب بنزع الخافض أى بأن طهرا ، قاله الكوفيون ، وقال سيبويه هو بتقدير أى المفسرة أى أن طهرا فلا موضع لها من الاعراب ، والمراد بالتطهير ، قيل من الأوثان ، وقيل من الآفات والريب ، وقيل من الكفار ، وقيل من النجاسات ، وطواف الجنب والحائض وكل خبيث * والظاهر أنه لايختص بنوع من هذه الأنواع ، وأن كل مايصدق عليه مسمى التطهير ، فهو يتناوله إما تناولا شموليا أو بدليا ، والاضافة فى قوله (بيتى) للتشريف والتكريم وقرأ الحسن وابن أبى اسحق وأهل المدينة وهشام وحفص (بيتى) بفتح الياء ، وقرأ الآخرون باسكانها ، والطائف الذى يطوف به ، وقيل الغريب الطارئ على مكة * والعاكف المقيم ، وأصل العكوف فى اللغة اللزوم والاقبال على الشىء ، وقيل هو المجاور دون المقيم من أهلها * والمراد بقوله (الركع السجود) المصلون وخص هذين الركنين بالذكر لانهما أشرف أركان الصلاة * وقوله (واذ قال ابراهيم) ستأتى الأحاديث الدالة على أن ابراهيم هو الذى حرّم مكة ، والأحاديث الدالة على أن الله حرّمها يوم خلق السموات والأرض والجمع بين هذه الأحاديث فى هذا البحث * وقوله (بلدا آمنا) أى مكة * والمراد الدعاء لأهله من ذريته وغيرهم كقوله — عيشة راضية — أى راض صاحبها * وقوله (من آمن) بدل من قول أهله أى ارزق من آمن من أهله دون من كفر * وقوله (ومن كفر) الظاهر أن هذا من كلام الله سبحانه

ردّا على ابراهيم حيث طلب الرزق للمؤمنين دون غيرهم أى وأرزق من كفر فأمتعه بالرزق قليلا ثم أضطره الى عذاب النار ، ويحتمل أن يكون كلاما مستقلا بيانا لحال من كفر ، ويكون فى حكم الاخبار عن حال الكافرين بهذه الجملة الشرطية أى من كفر فانى أمتعه فى هذه الدنيا بما يحتاجه من الرزق (ثم أضطره) بعد هذا التمتيع (الى عذاب النار) فأخبر سبحانه أنه لاينال الكفرة من الخير الا تمتيعهم فى هذه الدنيا وليس لهم بعد ذلك الا ماهو شر محض ، وهو عذاب النار ، وأما على قراءة من قرأ (فأمتعه) بصيغة الأمر وكذلك قوله (ثم اضطره) بصيغة الأمر فهى مبنية على أن ذلك من جملة كلام ابراهيم ، وأنه لما فرغ من الدعاء للمؤمنين دعا للكافرين بالامتاع قليلا ، ثم دعا عليهم بأن يضطرهم الى عذاب النار * ومعنى (أضطره) ألزمه حتى صيره مضطرا لذلك لايجد عنه مخلصا ، ولا منه متحوّلا * قوله (واذ يرفع) هو حكاية لحال ماضية استحضارا لصورتها العجيبة * والقواعد الأساس . قاله أبوعبيدة والفراء . وقال الكسائى هى الجدر . والمراد برفعها رفع ماهومبنىّ فوقها ، لارفعها فى نفسها فانها لم ترتفع ، لكنها لما كانت متصلة بالبناء المرتفع فوقها صارت كأنها مرتفعة بارتفاعه ، كما يقال ارتفع البناء ، ولا يقال ارتفع أعالى البناء ولا أسافله * قوله (ربنا تقبل منا) فى محل الحال بتقدير القول أى قائلين ربنا . وقرأ أبىّ وابن مسعود (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ويقولان ربنا تقبل منا) * وقوله (واجعلنا مسلمين لك) أى اجعلنا ثابتين عليه ، أوزدنا منه ، قيل المراد بالاسلام هنا مجموع الايمان والأعمال * وقوله (ومن ذريتنا) أى واجعل من ذريتنا ، ومن للتبعض أو للتبيين . وقال ابن جرير انه أراد بالذرية العرب خاصة ، وكذا قال السهيلى قال ابن عطية وهذا ضعيف لان دعوته ظهرت فى العرب وغيرهم من الذين آمنوا به * والأمة الجماعة فى هذا الموضع . وقد تطلق على الواحد ، ومنه قوله تعالى – ان ابراهيم كان أمة قانتا لله – وتطلق على الدين ومنه – انا وجدنا آباءنا على أمة – وتطلق على الزمان ، ومنه – وادّكر بعد أمة – * وقوله (وأرنا مناسكنا) هى من الرؤية البصرية . وقرأ عمر بن عبد العزيز وقتادة وابن كثير وابن محيصن وغيرهم ، أرنا بسكون الراء ، ومنه قول الشاعر :

أرنا إداوة عبد الله يملؤها * من ماء زمزم ان القوم قد ظمئوا

* والمناسك جمع نسك ، وأصله فى اللغة الغسل ، يقال نسك ثوبه اذا غسله ، وهو فى الشرع اسم للعبادة والمراد هنا مناسك الحج ، وقيل مواضع الذبح ، وقيل جميع المتعبدات * وقوله (وتب علينا) قيل المراد بطلبهما للتوبة التثبيت ، لانهما معصومان لاذنب لهما ، وقيل المراد تب على الظلمة منا .

وقد أخرج ابن جرير عن عطاء قال (وعهدنا الى ابراهيم) أى أمرناه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (أن طهرا بيتى) قال من الأوثان . وأخرج أيضا عن مجاهد وسعيد بن جبير مثله ، وزادوا الريب وقول الزور والرجس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال اذا كان قائما فهو من الطائفين ، ولذا كان جالسا فهو من العاكفين ، واذا كان مصليا فهو من الركع السجود . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن الذين ينامون فى المسجد فقال هم العاكفون . وقد ثبت عن النبى ﷺ انه قال « ان ابراهيم حرّم مكة ، وانى حرّمت المدينة مابين لابتيها ، فلا يصاد صيدها ، ولايقطع عضاهها » كما أخرجه أحمد ومسلم والنسائى وغيرهم من حديث جابر . وقد روى هذا المعنى عن النبى ﷺ من طريق جماعة من الصحابة ، منهم رافع بن خديج عند مسلم وغيره ، ومنهم أبوقتادة عند أحمد ، ومنهم أنس عند الشيخين ، ومنهم أبوهريرة عند مسلم ، ومنهم علىّ بن أبى طالب عند الطبرانى فى الأوسط ، ومنهم أسامة بن زيد عند أحمد والبخارى ، ومنهم عائشة عند البخارى . وثبت عن النبى ﷺ انه قال « ان الله حرّم مكة يوم خلق السموات

والارض

والأرض وهى حرام الى يوم القيامة . أخرجه البخارى تعليقا ، وابن ماجه من حديث صفية بنت شيبة . وأخرجه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عباس . وأخرجه الشيخان وأهل السنن من حديث أبى هريرة وفى الباب أحاديث غير ما ذكرنا ، ولا تعارض بين هذه الأحاديث فان ابراهيم عليه السلام لما بلغ الناس أن الله حرّمها وأنها لم تزل حرما آمنا نسب اليه أنه حرّمها أى أظهر للناس حكم الله فيها ، والى هذا الجمع ذهب ابن عطية وابن كثير . وقال ابن جرير انها كانت حراما ولم يتعبد الله الخلق بذلك حتى سأله ابراهيم فحرّمها وتعبدهم بذلك انتهى ، وكلا الجمعين حسن . وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن محمد بن مسلم الطائفى قال بلغنى انه لما دعا ابراهيم للحرم فقال (وارزق أهله من الثمرات) نقل الله الطائف من فلسطين وأخرج نحوه ابن أبى حاتم والأزرقى عن الزهرى . وأخرج نحوه أيضا الأزرقى عن بعض ولد نافع بن جبير ابن مطعم . وقد أخرج الأزرقى نحوها مرفوعا من طريق محمد بن المنكدر . وأخرج أيضا عن محمد بن كعب القرظى قال دعا ابراهيم للمؤمنين ، وترك الكفار ولم يدع لهم بشىء قال الله (ومن كفر فأمتعه) الآية . وأخرج نحوه سفيان بن عيينة عن مجاهد . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (من آمن منهم بالله) قال كأن ابراهيم احتجرها على المؤمنين دون الناس ، فأنزل الله (ومن كفر) أيضا فأنا أرزقهم كما أرزق المؤمنين أخلق خلقا لاأرزقهم أمتعهم قليلا ثم أضطرهم إلى عذاب النار ، ثم قرأ ابن عباس — كلا نمدّ هؤلاء وهؤلاء — الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال قال أبىّ بن كعب فى قوله (ومن كفر) ان هذا من قول الرب . وقال ابن عباس هذا من قول ابراهيم يسأل ربه أن من كفر فأمتعه قليلا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال القواعد أساس البيت . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وغيرهم عن سعيد بن جبير قصة مطوّلة وآخرها فى بناء البيت ، قال فعند ذلك رفع ابراهيم القواعد من البيت ، فجعل اسمعيل يأتى بالحجارة وابراهيم يبنى حتى اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يبنى ، واسمعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (واذ يرفع ابراهيم القواعد) قال القواعد التى كانت قواعد البيت قبل ذلك . وقد أكثر المفسرون فى تفسير هذه الآية من نقل أقوال السلف فى كيفية بناء البيت ، ومن أىّ أحجار الأرض بنى ، وفى أى زمان عرف ، ومن حجه ؟ وما ورد فيه من الأدلة الدالة على فضله أو فضل بعضه كالحجر الأسود ، وفى الدر المنثور من ذلك مالم يكن فى غيره ، فليرجع اليه ، وفى تفسير ابن كثير بعض من ذلك ، ولما لم يكن ما ذكروه متعلقا بالتفسير لم نذكره . وأخرج ابن أبى حاتم عن سلام بن أبى مطيع فى هذه الآية (ربنا واجعلنا مسلمين لك) قال كانا مسلمين ولكن سألاه الثبات . وأخرج ابن أبى حاتم عن عبد الكريم ، قال مخلصين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (ومن ذريتنا) قال يعنيان العرب . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى حاتم عن مجاهد قال قال ابراهيم رب أرنا مناسكنا فأتاه جبريل فأتى به البيت فقال ارفع القواعد ، فرفع القواعد وأتمّ البنيان ، ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به نحو منى ، فلما كان عند العقبة فاذا ابليس قائم عند الشجرة ، فقال كبر وارمه ، فكبر ورماه ، فذهب ابليس حتى أتى الجمرة الوسطى ففعل به ابراهيم كما فعل فى الأولى ، ثم كذلك فى الجمرة الثالثة ، ثم أخذ جبريل بيد ابراهيم حتى أتى به المشعر الحرام ، فقال هذا المشعر الحرام ، ثم ذهب حتى أتى به عرفات ، قال وقد عرفت ما أريتك ؟ قالها ثلاثا ، قال نعم قال فأذن فى الناس بالحج قال وكيف أؤذن ؟ قال قل يا أيها الناس أجيبوا ربكم ثلاث مرات ، فأجاب العباد : لبيك اللهم لبيك ، فمن أجاب ابراهيم يومئذ من الخلق فهو حاج . وأخرج ابن جرير من طريق

ابن المسيب عن على ، قال لما فرغ ابراهيم من بناء البيت قال قد فعلت أى رب فأرنا مناسكنا : أبرزها لنا علمناها ، فبعث الله جبريل فحج به ، وفى الباب آثار كثيرة عن السلف من الصحابة ومن بعدهم تتضمن أن جبريل أرى ابراهيم المناسك ، وفى أكثرها ان الشيطان تعرّض له كما تقدّم عن مجاهد . وقد أخرج ابن خزيمة والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس نحو ذلك ، وكذلك أخرج عنه أحمد وابن أبى حاتم والبيهقى .

رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي ٱلآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَأَوْصَىٰ بِهَا إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ *

الضمير فى قوله (وابعث فيهم) راجع الى الأمة المسلمة المذكورة سابقا . وقرأ أبىّ (وابعث فى آخرهم) ويحتمل أن يكون الضمير راجعا الى الذرية . وقد أجاب الله لابراهيم عليه السلام هذه الدعوة ، فبعث فى ذريته (رسولا منهم) وهو محمد ﷺ . وقد أخبر عن نفسه بانه دعوة ابراهيم كما سيأتى تخريج ذلك ان شاء الله ، ومراده هذه الدعوة * والرسول هو المرسل . قال ابن الانبارى يشبه أن يكون أصله ناقة مرسال ورسلة اذا كانت سهلة السير ، ماضية أمام النوق ، ويقال جاء القوم أرسالا أى بعضهم فى أثر بعض ، والمراد بالكتاب القرآن * والمراد بالحكمة المعرفة بالدين ، والفقه فى التأويل والفهم للشريعة * وقوله (يزكيهم) أى يطهرهم من الشرك وسائر المعاصى * وقيل ان المراد بالآيات ظاهر الألفاظ ، والكتاب معانيها ، والحكمة الحكم ، وهو مراد الله بالخطاب ، والعزيز الذى لا يعجزه شىء . قاله ابن كيسان . وقال الكسائى (العزيز) الغالب (ومن يرغب) فى موضع رفع على الابتداء ، والاستفهام للانكار * وقوله (الامن سفه نفسه) فى موضع الخبر ، وقيل هل بدل من فاعل يرغب ، والتقدير وما يرغب عن ملة ابراهيم أحد الا من سفه نفسه . قال الزجاج سفه بمعنى جهل ، أى جهل أمر نفسه فلم يفكر فيها . وقال أبو عبيدة المعنى أهلك نفسه ، وحكى ثعلب والمبرد أن سفه بكسر الفاء يتعدى كسفه بفتح الفاء مشدّدة . قال الأخفش (سفه نفسه) أى فعل بها من السفه ما صار به سفيها ، وقيل ان نفسه منتصب بنزع الخافض ، وقيل هو تمييز ، وهذان ضعيفان جدا ، وأما سفه بضم الفاء فلا يتعدى قاله المبرد وثعلب * والاصطفاء الاختيار أى اخترناه فى الدنيا وجعلناه فى الآخرة من الصالحين ، فكيف يرغب عن ملته راغب * وقوله (إذ قال له) يحتمل أن يكون متعلقا بقوله (اصطفيناه) أى اخترناه وقت أمرنا له بالاسلام ، ويحتمل أن يتعلق بمحذوف هو اذكر . قال فى الكشاف ، كأنه قيل اذكر ذلك الوقت ليعلم أنه المصطفى الصالح الذى لا يرغب عن ملة مثله ، والضمير فى قوله (وأوصى بها) راجع الى الملة أو الى الكلمة أى أسلمت لرب العالمين . قال القرطبى وهو أصوب لأنه أقرب مذكور أى قولوا أسلمنا انتهى * والأوّل أرجح لأن المطلوب ممن بعده هو اتباع ملته لا مجرد التكلم بكلمة الاسلام ، فالتوصية بذلك أليق بابراهيم ، وأولى بهم * ووصى وأوصى بمعنى وقرئ بهما ، وفى مصحف عثمان (وأوصى) وهى قراءة أهل الشام والمدينة ، وفى مصحف عبد الله ابن مسعود (ووصى) وهى قراءة الباقين (ويعقوب) معطوف على ابراهيم ، أى وأوصى يعقوب بنيه كما أوصى ابراهيم بنيه . وقرأ عمر بن فايد الاسوارى واسمعيل بن عبد الله المكى بنصب يعقوب ، فيكون داخلا فيمن أوصاه ابراهيم ، قال القشيرى وهو بعيد ، لأن يعقوب لم يدرك جدّه ابراهيم ، وانما ولد بعد

موته

موته * وقوله (يابنىّ) هو بتقدير أن . وقد قرأ أبىّ وابن مسعود والضحاك باثباتها . قال الفراء ألغيت أن ، لان التوصية كالقول ، وكل كلام رجع إلى القول جاز فيه دخول أن وجاز فيه إلغاؤها ، وقيل انه على تقدير القول أى قائلا يابنى ، روى ذلك عن البصريين * وقوله (اصطفى لكم الدين) أى اختاره لكم ، والمراد ملته التى لايرغب عنها إلا من سفه نفسه ، وهى الملة التى جاء بها محمد ﷺ * وقوله (فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون) فيه ايجاز بليغ * والمراد الزموا الاسلام ، ولاتفارقوه حتى تموتوا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله (ومن يرغب عن ملة ابراهيم) قال رغبت اليهود والنصارى عن ملته ، واتخذوا اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله ، تركوا ملة ابراهيم الاسلام ، وبذلك بعث الله نبيه محمدا ﷺ بملة ابراهيم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله (ولقد اصطفيناه) قال اخترناه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ووصى بها ابراهيم بنيه) قال وصاهم بالاسلام ووصى يعقوب بنيه بمثل ذلك . وأخرج الثعلبى عن فضيل بن عياض فى قوله (فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون) أى محسنون بربكم الظن .

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَاتَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ إِلٰهًا وٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصٰرٰى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسٰى وَعِيسٰى وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ ٱهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * صِبْغَةَ ٱللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عٰبِدُونَ * قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِى ٱللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصٰرٰى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ ٱللهِ وَمَا ٱللهُ بِغٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

قوله (أم كنتم شهداء) أم هذه قيل هى المنقطعة ، وقيل هى المتصلة ، وفى الهمزة الانكار المفيد للتقريع والتوبيخ ، والخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون الى ابراهيم والى بنيه أنهم على اليهودية والنصرانية فردّ الله ذلك عليهم وقال لهم أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى به بنيه فتدّعون ذلك عن علم أم لم تشهدوا بل أنتم مفترون ، والشهداء جمع شاهد ، ولم ينصرف لان فيه ألف التأنيث التى لتأنيث الجماعة ، والعامل فى اذ الأولى معنى الشهادة واذ الثانية بدل من الأولى ، والمراد بحضور الموت حضور مقدماته ، وانما جاء بما دون من فى قوله (ماتعبدون) لان المعبودات من دون الله غالبها جمادات كالأوثان ، والنار ، والشمس ، والكواكب * ومعنى (من بعدى) أى من بعد موتى * وقوله (ابراهيم واسماعيل واسحق) عطف بيان

لقوله (آبائك) واسماعيل وان كان عما ليعقوب لان العرب تسمى العم أبا * وقوله (إلها) بدل من إلهك وان كان نكرة فذلك جائز ولاسيما بعد تخصيصه بالصفة التى هى قوله (واحدا) فانه قد حصل المطلوب من الابدال بهذه الصفة ، وقيل ان إلها منصوب على الاختصاص ، وقيل انه حال، قل ابن عطية وهوقول حسن لان الغرض الاثبات حال الوحدانية ، وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر وأبو رجاء العطاردى (وإله أبيك) فقيل أراد ابراهيم وحده * ويكون قوله (واسماعيل) عطفا على أبيك وكذلك (اسحق) وان كان هو أباه حقيقة وابراهيم جدّه ولكن لابراهيم مزيد خصوصية ، وقيل ان قوله (أبيك) جمع كما روى عن سيبويه أن أبين جمع سلامة ومثله أبون ، ومنه قول الشاعر :

فلما تبين أصواتنا * بكين وقد بنا بالأبينا

وقوله (ونحن له مسلمون) جملة حالية أى نعبده حال اسلامنا له ، وجوّز الزمخشرى أن تكون اعتراضية على مايذهب اليه من جواز وقوع الجمل الاعتراضية آخر الكلام * والاشارة بقوله (تلك) الى ابراهيم و بنيه و يعقوب و بنيه (وأمة) بدل منه وخبره (قد حلت) أوأمة خبره ، وقد خلت نعت لأمة * وقوله (لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) بيان لحال تلك الأمة ، وحال المخاطبين بان لكل من الفريقين كسبه لاينفعه كسب غيره ولا يناله منه شيء ولايضره ذنب غيره ، وفيه الردّ على من يتكل على عمل سلفه ويروّح نفسه بالامانى الباطلة ، ومنه ماورد فى الحديث « من بطأ به عمله لم يسرع نسبه » والمراد أنكم لاتنتفعون بحسناتهم ولا تؤاخذون بسيآتهم ولا تسألون عن أعمالهم كما لايسألون عن أعمالكم ، ومثله ـ ولا تزر وازرة وزر أخرى ـ وأن ليس للانسان إلا ماسعى ـ * ولما ادّعت اليهود والنصارى أن الهداية بيدها والخير مقصور عليها ردّ الله ذلك عليهم بقوله (بل ملة ابراهيم) أى قل يامحمد هذه المقالة ، ونصب ملة بفعل مقدر أى نتبع ، وقيل التقدير نكون ملة ابراهيم أى أهل ملته ، وقيل بل نهتدى بملة ابراهيم فلما حذف حرف الجر صار منصوبا ، وقرأ الاعرج وابن أبى عبلة (ملة) بالرفع أى بل الهدى ملة ابراهيم * والحنيف المائل عن الاديان الباطلة الى دين الحق ، وهو فى أصل اللغة الذى تميل قدماه كل واحدة الى أختها ، قال الزجاج وهو منصوب على الحال أى نتبع ملة ابراهيم حال كونه حنيفا ، وقال على بن سليمان هو منصوب بتقدير أعنى ، والحال خطأ كما لايجوز جاءنى غلام هند مسرعة ، وقال فى الكشاف هو حال من المضاف اليه كقولك رأيت وجه هند قائمة ، وقال قوم الحنف الاستقامة ، فسمى دين ابراهيم حنيفا لاستقامته ، وسمى معوج الرجلين أحنف تفاؤلا بالاستقامة كما قيل للديغ سليم ، وللمهلكة مفازة . وقد استدل من قال بأن الحنيف فى اللغة المائل لاالمستقيم بقول الشاعر :

اذا حوّل الظل العشي رأيته * حنيفا وفى قرن الضحى يتنصر

أى ان الحرباء تستقبل القبلة بالعشى وتستقبل المشرق بالغداة وهى قبلة النصارى ، ومنه قول الشاعر :

والله لولا حنف فى رجله * ما كان فى رجالكم من مثله

وقوله (وما كان من المشركين) فيه تعريض باليهود لقولهم ـ عزير ابن الله ـ و بالنصارى لقولهم ـ المسيح ابن الله ـ أى ان ابراهيم ما كان على هذه الحالة التى أنتم عليها من الشرك بالله فكيف تدّعون عليه أنه كان على اليهودية أو النصرانية * وقوله (قولوا آمنا بالله) خطاب للمسلمين وأمر لهم بان يقولوا هذه المقالة ، وقيل انه خطاب للكفار بأن يقولوا ذلك حتى يكونوا على الحق ، والأوّل أظهر * والأسباط أولاد يعقوب وهم اثنا عشر ولدا ، ولكل واحد منهم من الأولاد جماعة ، والسبط فى بنى اسرائيل بمنزلة القبيلة فى العرب ، وسموا الأسباط من السبط وهو التتابع ، فهم جماعة متتابعون ، وقيل أصله من السبط بالتحريك وهو الشجر

أى

أى هم فى الكثرة بمنزلة الشجر ، وقيل الاسباط حفدة يعقوب أى أولاد أولاده ، لاأولاده لان الكثرة انما كانت فيهم دون أولاد يعقوب فى نفسه ، فهم أفراد لاأسباط * وقوله (لانفرّق بين حد منهم) قال الفراء معناه لانؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم كما فعلت اليهود والنصارى . قال فى الكشاف وأحد فى معنى الجماعة ، ولذلك صح دخول بين عليه * وقوله (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به) هذا الخطاب للمسلمين أيضا ، أى فان آمن أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به من جميع كتب الله ورسله ولم يفرّقوا بين أحد منهم فقد اهتدوا ، وعلى هذا فمثل زائدة كقوله ــ ليس كمثله شىء ــ وقول الشاعر : * فصيروا مثل كعصف مأكول * وقيل ان المماثلة وقعت بين الايمانين أى فان آمنوا بمثل إيمانكم ، وقال فى الكشاف انه من باب التبكيت لان دين الحق واحد لامثل له وهو دين الاسلام قال أى فان حصلوا دينا آخر مثل دينكم مساويا له فى الصحة والسداد فقد اهتدوا ، وقيل ان الباء زائدة مؤكدة ، وقيل انها للاستعانة * والشقاق أصله من الشق وهو الجانب كان كل واحد من الفريقين فى جانب غير الجانب الذى فيه الآخر ، وقيل انه مأخوذ من فعل مايشق و يصعب ، فكل واحد من الفريقين يحرص على فعل مايشق على صاحبه ، ويصح حمل الآية على كل واحد من المعنيين ، وكذلك قول الشاعر :

والا فاعلموا أنا وأنتم * بغاة مابقينا فى شقاق

وقول الآخر

الى كم تقبل العلماء قسرا * وتفخر بالشقاق و بالنفاق

وقوله (فسيكفيكهم الله) وعد من الله تعالى لنبيه أنه سيكفيه من عاندة وخالفه من المتولين ، وقد أنجز له وعده بما أنزله من بأسه بقريظة والنضير و بنى قينقاع * وقوله (صبغة الله) قال الاخفش وغيره أى دين الله ، قال وهى منتصبة على البدل من ملة . وقال الكسائى هى منصوبة على تقدير اتبعوا ، أو على الاغراء أى الزموا ، ورجح الزجاج الانتصاب على البدل من ملة ، كما قاله الفراء . وقال فى الكشاف : انها مصدر مؤكد منتصب عن قوله (آمنا بالله) كما انتصب ــ وعد الله ــ عما تقدّمه ، وهى فعلة من صبغ كالجلسة من جلس ، وهى الحالة التى يقع عليها الصبغ ، والمعنى تطهير الله لان الايمان تطهير النفوس انتهى ، و به قال سيبو يه أى كونه مصدرا مؤكدا ، وقد ذكر المفسرون أن أصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم فى الماء ، وهو الذى يسمونه المعمودية ويجعلون ذلك تطهيرا لهم ، فاذا فعلوا ذلك قالوا الآن صار نصرانيا حقا فردّ الله عليهم بقوله (صبغة الله) أى الاسلام ، وسماه صبغة استعارة ، ومنه قول بعض شعراء همدان :

وكل أناس لهم صبغة * وصبغة همدان خير الصبغ

صبغنا على ذاك أولادنا * فأكرم بصبغتنا فى الصبغ

وقيل ان الصبغة الاغتسال لمن أراد الدخول فى الاسلام بدلا من معمودية النصارى ، ذكره الماوردى وقال الجوهرى : صبغة الله دينه ، وهو يؤيد ماتقدّم عن الفراء ، وقيل الصبغة الختان * وقوله (قل أتحاجوننا فى الله) أى أتجادلوننا فى الله أى فى دينه والقرب منه والحظوة عنده ، وذلك كقولهم ــ نحن أبناء الله وأحباؤه ــ وقرأ ابن محيصن (أتحاجونا) بالادغام لاجتماع المثلين * وقوله (وهو ربنا وربكم) أى نشترك نحن وأنتم فى ربو بيته لنا وعبوديتنا له فكيف تدّعون انكم أولى به منا وتحاجوننا فى ذلك * وقوله (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) أى لنا أعمال ولكم أعمال فلستم بأولى بالله منا ، وهو مثل قوله تعالى ــ فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ــ * وقوله (ونحن له مخلصون) أى نحن أهل الأخلاص للعبادة دونكم ، وهو المعيار الذى يكون به التفاضل ، والخصلة التى يكون صاحبها أولى

بالله سبحانه من غيره فكيف تدّعون لأنفسكم مانحن أولى به منكم وأحق ، وفيه توبيخ لهم وقطع لما جاءوا به من المجادلة والمناظرة * وقوله (أم يقولون) قرأحمزة والكسائى وعاصم فى رواية حفص تقولون بالتاء الفوقية وعلى هذه القراءة تكون أم ههنا معادلة للهمزة فى قوله (أتحاجوننا) أى أتحاجوننا فى الله أم تقولون ان هؤلاء الأنبياء على دينكم ، وعلى قراءة الياء التحتية تكون أم منقطعة أى بل يقولون * وقوله (قل ءأنتم أعلم أم الله) فيه تقريع وتوبيخ أى ان الله أخبرنا بأنهم لم يكونوا هودا ولا نصارى وأنتم تدّعون انهم كانوا هودا أو نصارى فهل أنتم أعلم أم الله سبحانه * وقوله (ومن أظلم) استفهام أى لاأحد أظلم (ممن كتم شهادة عنده من الله) يحتمل أن يريد بذلك الذم لأهل الكتاب بأنهم يعلمون أن هؤلاء الانبياء ما كانوا هودا ولا نصارى ، بل كانوا على الملة الاسلامية فظلموا أنفسهم بكتمهم لهذه الشهادة بل بادّعائهم لما هو مخالف لها وهو أشدّ فى الذنب ممن اقتصر على مجرد الكتم الذى لاأحد أظلم منه ، ويحتمل أن المراد أن المسلمين لو كتموا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منهم ، ويكون المراد بذلك التعريض بأهل الكتاب ، وقيل المراد هنا ما كتموه من صفة محمد ﷺ * وفى قوله (وما الله بغافل عما تعملون) وعيد شديد ، وتهديد ليس عليه مزيد ، وإعلام بأن الله سبحانه لا يترك عقوبتهم على هذا الظلم القبيح ، والذنب الفظيع ، وكرر قوله سبحانه (تلك أمة قد خلت) إلى آخر الآية لتضمنها معنى التهديد والتخويف الذى هو المقصود فى هذا المقام

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله (أم كنتم شهداء) يعنى أهل الكتاب . وأخرج أيضا عن الحسن فى قوله (أم كنتم شهداء) قال يقول لم يشهد اليهود ولا النصارى ولا أحد من الناس يعقوب إذ أخذ على بنيه الميثاق إذ حضره الموت أن لا تعبدوا إلا الله فأقرّوا بذلك وشهد عليهم أن قد أقرّوا بعبادتهم أنهم مسلمون . وأخرج عن ابن عباس أنه كان يقول : الجدّ أب ويتلو الآية . وأخرج أيضا عن أبى العالية فى الآية قال سمى العمّ أبا . وأخرج أيضا نحوه عن محمد بن كعب . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال قال عبدالله بن صوريا الأعور للنبى ﷺ ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد ، وقالت النصارى مثل ذلك فأنزل الله فيهم (وقالوا كونوا هودا) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (حنيفا) قال متبعا . وأخرجا أيضا عن ابن عباس فى قوله (حنيفا) قال حاجا . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب قال الحنيف المستقيم . وأخرج أيضا عن خصيف قال الحنيف المخلص . وأخرج أيضا عن أبى قلابة قال الحنيف الذى يؤمن بالرسل كلهم من أوّلهم إلى آخرهم . وأخرج أحمد عن أبى أمامة قال قال رسول الله ﷺ «بعثت بالحنيفية السمحة» . وأخرج أحمد أيضا والبخارى فى الأدب المفرد وابن المنذر عن ابن عباس قال قيل يارسول الله أىّ الأديان أحب إلى الله ؟ قال الحنيفية السمحة . وأخرج الحاكم فى تاريخه وابن عساكر من حديث أسعد بن عبدالله بن مالك الخزاعى مرفوعا مثله . وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يقرأ فى ركعتى الفجر فى الأولى منهما الآية التى فى البقرة (قولوا آمنا بالله) كلها وفى الآخرة ــ آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون ــ . وأخرج البخارى من حديث أبى هريرة قال كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام فقال رسول الله ﷺ «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله» الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال الاسباط بنو يعقوب كانوا اثنى عشر رجلا كل واحد منهم ولد أمة من الناس . وروى نحوه ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى ، وحكاه ابن كثير فى تفسيره عن أبى العالية والربيع وقتادة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس قال لا تقولوا فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فان الله لا مثل له ولكن قولوا فان آمنوا بالذى آمنتم به

واخرج

وأخرج ابن أبي داود فى المصاحف والخطيب فى تاريخه عن أبي جمرة قال كان ابن عباس يقرأ (فان آمنوا بالذى آمنتم به . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية فى قوله (فانما هم فى شقاق) قال فراق . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (صبغة الله) قال دين الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال فطرة الله التى فطر الناس عليها . وأخرج ابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس عن النبي ﷺ « قال ان بنى اسرائيل قالوا ياموسى هل يصبغ ربك ؟ فقال اتقوا الله ، فناداه ربه ياموسى سألوك هل يصبغ ربك ؟ فقل نعم أنا أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها فى صبغتى ، وأنزل الله على نبيه (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) . وأخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس موقوفا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال ان اليهود تصبغ أبناءها يهودا ، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى ، وان صبغة الله الاسلام ، ولا صبغة أحسن من صبغة الاسلام ولا أطهر ، وهو دين الله الذى بعث به نوحا ومن كان بعده من الأنبياء . وأخرج ابن النجار فى تاريخ بغداد عن ابن عباس فى قوله (صبغة الله) قال البياض . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (أتحاجوننا) قال : أتخاصموننا . وأخرج ابن جرير عنه قال أتجادلوننا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله (ومن أظلم ممن كتم شهادة) الآية ، قال أولئك أهل الكتاب كتموا الاسلام وهم يعلمون أنه دين الله ، واتخذوا اليهودية والنصرانية ، وكتموا محمدا وهم يعلمون أنه رسول الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير عن الحسن نحوه . وأخرج ابن جرير عن قتادة والربيع فى قوله (تلك أمة قد خلت) قال يعنى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والأسباط .

سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ *

قوله (سيقول) هذا إخبار من الله سبحانه لنبيه ﷺ وللمؤمنين بأن السفهاء من اليهود والمنافقين سيقولون هذه المقالة عند أن تتحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، وقيل ان (سيقول) بمعنى قال ، وانما عبر عن الماضى بلفظ المستقبل للدلالة على استدامته والاستمرار عليه ، وقيل ان الاخبار بهذا الخبر كان قبل التحوّل إلى الكعبة ، وان فائدة ذلك أن الاخبار بالمكروه اذا وقع قبل وقوعه كان فيه تهوينا لصدمته ، وتخفيفا لروعته ، وكسرا لسورته * والسفهاء جمع سفيه وهو الكذاب البهات المعتمد خلاف مايعلم كذا قال بعض أهل اللغة . وقال فى الكشاف هم خفاف الأحلام ، ومثله فى القاموس . وقد تقدّم فى تفسير قوله (إلا من سفه نفسه) ماينبغى الرجوع إليه ، ومعنى (ماولاهم) ماصرفهم (عن قبلتهم التى كانوا عليها) وهى بيت المقدس ، فردّ الله عليهم بقوله (قل لله المشرق والمغرب) فله أن يأمر بالتوجه إلى أىّ جهة شاء * وفى قوله (يهدى من يشاء) إشعار بأن تحويل القبلة إلى الكعبة من الهداية للنبى ﷺ ولأهل ملته إلى الصراط المستقيم * وقوله (وكذلك جعلناكم) أى مثل ذلك الجعل جعلناكم ، قيل معناه وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطا * والوسط الخيار ، أو العدل والآية محتملة للأمرين ، ومما يحتملهما قول زهير :

هم وسط ترضى الانام بحكمهم * اذا نزلت إحدى الليالى بمعظم

ومثله قول الآخر

أنتم أوسط حى علموا * بصغير الأمر أواحدى الكبر

وقد ثبت عن النبى ﷺ تفسير الوسط هنا بالعدل كما سيأتى ، فوجب الرجوع الى ذلك ، ومنه قول الراجز :

لاتذهبن فى الأمور مفرطا * لاتسألنّ ان سألت شططا * وكن من الناس جميعا وسطا

ولما كان الوسط مجانبا للغلو والتقصير كان محمودا ، أى هذه الأمة لم تغل غلوّ النصارى فى عيسى ولاقصروا تقصير اليهود فى أنبيائهم ، ويقال فلان أوسط قومه وواسطتهم ووسطهم أى خيارهم * وقوله (لتكونوا شهداء على الناس) أى يوم القيامة تشهدون للأنبياء على أممهم أنهم قد بلغوهم ماأمرهم الله بتبليغه اليهم ، ويكون الرسول شهيدا على أمته بأنهم قد فعلوا ماأمر بتبليغه اليهم ، ومثله قوله تعالى ـ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ـ ، قيل ان قوله (عليكم) يعنى لكم ، أى يشهد لهم بالايمان ، وقيل معناه يشهد عليكم بالتبليغ لكم . قال فى الكشاف لما كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له جىء بكلمة الاستعلاء ، ومنه قوله تعالى ـ والله على كل شىء شهيد * كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ـ انتهى . وقالت طائفة معنى الآية يشهد بعضكم على بعض بعد الموت ، وقيل المراد لتكونوا شهداء على الناس فى الدنيا فيما لايصح إلا بشهادة العدول ، وسيأتى من المرفوع مايبين معنى الآية ان شاء الله ، وانما أخر لفظ على فى شهادة الامة على الناس ، وقدّمها فى شهادة الرسول عليهم ، لأن الغرض كما قال صاحب الكشاف فى الأوّل إثبات شهادتهم على الأمم ، وفى الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم * وقوله (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها) قيل المراد بهذه القبلة هى بيت المقدس ، أى ماجعلناها إلا لنعلم المتبع والمنقلب ، ويؤيد هذا قوله (كنت عليها) إذا كان نزول هذه الآية بعد صرف القبلة إلى الكعبة ، وقيل المراد الكعبة ، أى ماجعلنا القبلة التى أنت عليها الآن بعد أن كانت إلى بيت المقدس إلا لذلك الغرض ، ويكون (كنت) بمعنى الحال ، وقيل المراد بذلك القبلة التى كان عليها قبل استقبال بيت المقدس ، فانه كان يستقبل فى مكة الكعبة ، ثم لما هاجر توجه إلى بيت المقدس تألفا لليهود ، ثم صرف إلى الكعبة * وقوله (إلا لنعلم) قيل المراد بالعلم هنا الرؤية ، وقيل المراد الالتعلموا أنا نعلم بأن المنافقين كانوا فى شك ، وقيل ليعلم النبى ، وقيل المراد لنعلم ذلك موجودا حاصلا ، وهكذا ماورد معللا بعلم الله سبحانه لابدّ أن يؤوّل بمثل هذا كقوله ـ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ـ وقوله (وان كانت لكبيرة) أى ما كانت إلا كبيرة ، كما قاله الفراء فى أن وإن انهما بمعنى ماوالا . وقال البصريون : هى الثقيلة خففت ، والضمير فى كانت راجع الى مايدل عليه قوله (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها) من التحويلة أو التولية أو الجعلة أو الردّة ، ذكر معنى ذلك الأخفش ، ولا مانع من أن يرجع الضمير الى القبلة المذكورة أى وان كانت القبلة المتصفة بأنك كنت عليها لكبيرة إلا على الذين هداهم الله للايمان ، فانشرحت صدورهم لتصديقك ، وقبلت ماجئت به عقولهم ، وهذا الاستثناء مفرّع لأن ماقبله فى قوّة النفى ، أى انها لاتخفّ ولا تسهل إلا على الذين هدى الله ، وقوله (وماكان الله ليضيع ايمانكم) قال القرطبى : اتفق العلماء على انها نزلت فيمن مات وهو يصلى الى بيت المقدس ، ثم قال فسمى الصلاة ايمانا لاجتماعها على نية وقول وعمل ، وقيل المراد ثبات المؤمنين على الايمان عند تحويل القبلة ، وعدم ارتيابهم كما ارتاب غيرهم * والأوّل يتعين القول به ، والمصير اليه لما سيأتى من تفسيره ﷺ للآية بذلك * والرءوف كثير الرأفة ، وهى أشدّ من الرحمة . قال أبوعمرو

ابن

ابن العلاء : الرأفة أكبر من الرحمة والمعنى متقارب وقرأ أبوجعفر بن يزيد بن القعقاع لروف بغير همز وهى لغة بنى أسد ، ومنه قول الوليد بن عتبة :

وشر الغالبين فلا تكنه * يقاتل عمه الروف الرحيم اه

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن البراء أن النبى ﷺ كان أوّل مانزل المدينة نزل على أخواله من الأنصار وأنه صلى الى بيت المقدس ستة عشر أوسبعة عشر شهرا ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ، وأن أوّل صلاة صلاها العصر ، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه ، فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون ، فقال أشهد بالله لقد صليت مع النبى ﷺ قبل الكعبة ، فداروا كما هم قبل البيت وكانت اليهود قد أعجبهم اذ كان يصلى قبل بيت المقدس وأهل الكتاب ، فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك ، وكان الذى مات على القبلة قبل أن تحوّل قبل البيت رجال ، وقتلوا فلم ندر مايقول فيهم ، فأنزل الله (وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرءوف رحيم) وله طرق أخر ، وألفاظ متقاربة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس قال ان أوّل مانسخ فى القرآن القبلة . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود فى ناسخه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أن النبى ﷺ كان يصلى بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه ، و بعد ماتحوّل الى المدينة ستة عشر شهرا ، ثم صرفه الله الى الكعبة . وفى الباب أحاديث كثيرة بمضمون ماتقدّم ، وكذلك وردت أحاديث فى الوقت الذى نزل فيه استقبال القبلة ، وفى كيفية استدارة المصلين لما بلغهم ذلك ، وقد كانوا فى الصلاة فلا نطوّل بذكرها . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والنسائى والترمذى وصححه وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان والاسماعيلى فى صحيحه والحاكم وصححه عن أبى سعيد عن النبى ﷺ فى قوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) قال عدلا . وأخرج ابن جرير عن أبى هريرعن النبى ﷺ مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله . وأخرج أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وغيرهم عن أبى سعيد قال قال رسول الله ﷺ « يدعى نوح يوم القيامة ، فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيدعى قومه ، فيقال لهم هل بلغكم ؟ فيقولون ماأتانا من نذير ، وما أتانا من أحد ، فيقال لنوح من يشهد لك ، فيقول محمد وأمته » ، فذلك قوله (وكذلك جعلناكم أمةوسطا) قال والوسط العدل فتدعون فتشهدون له بالبلاغ وأشهد عليكم . وأخرج سعيدبن منصور وأحمد والنسائى وابن ماجه عن أبى سعيد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر عن النبى ﷺ قال « أنا وأمتى يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق ، مامن الناس أحد الا ودّ أنه منا ، ومامن نبى كذبه قومه الا ونحن نشهد أنه بلغ رسالة ربه » . وأخرج ابن جرير عن أبى سعيد فى قوله (وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) بأن الرسل قد بلغوا (ويكون الرسول عليكم شهيدا) بماعملتم ، وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال مروا بجنازة فأثنى عليهاخيرا ، فقال النبى ﷺ وجبت وجبت وجبت ، ومروا بجنازة فأثنى عليها شرا ، فقال النبى ﷺ وجبت وجبت وجبت ، فسأله عمر فقال من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة ، ومن أثنيتم عليه شراوجبت له النار ، أنتم شهداءالله فى الأرض أنتم شهداء الله فى الأرض ، أنتم شهداءالله فى الأرض ، زاد الحكيم الترمذى ، ثم تلا رسول الله ﷺ (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) الآية . وفى الباب أحاديث منهاعن جابر مرفوعا عند ابن المنذر والحاكم وصححه ، ومنها عن عمر مرفوعا عند ابن أبى شيبة وأحمد والبخارى والترمذى والنسائى ، ومنها عن أبى زهير الثقفى مرفوعا عند أحمد وابن ماجه والطبرانى والدارقطنى فى الافراد والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى السنن ، ومنها عن أبى هريرة مرفوعا عند ابن جرير وابن أبى حاتم ، ومنها عن سلمة بن الأكوع

مرفوعا عند ابن أبى شيبه وابن جرير والطبرانى . وأخرج ابن جرير عن عطاء فى قوله تعالى (وماجعلنا القبلة التى كنت عليها) قال يعنى بيت المقدس (الا لنعلم) قال نبتليهم لنعلم من يسلم لأمره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (إلا لنعلم) قال لنميز أهل اليقين من أهل الشك (وان كانت لكبيرة) يعنى تحويلها على أهل الشرك والريب . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال بلغنى أن ناسا ممن أسلم رجعوا فقالوا مرة ههنا ومرة ههنا . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن حبان والطبرانى والحاكم وصححه عن ابن عباس قال لما وجه رسول الله ﷺ إلى القبلة ، قالوا يارسول الله فكيف بالذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس ، فأنزل الله (وما كان الله ليضيع ايمانكم) . وقد تقدّم حديث البراء . وفى الباب أحاديث كثيرة ، وآثار عن السلف .

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ * ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ *

قوله (قد نرى تقلب وجهك) قال القرطبى فى تفسيره قال العلماء هذه الآية مقدّمة فى النزول على قوله (سيقول السفهاء) ، ومعنى (قد) تكثير الرؤية ، كما قاله صاحب الكشاف ، ومعنى (تقلب وجهك) تحوّل وجهك الى السماء ، قاله قطرب . وقال الزجاج تقلب عينيك فى النظر الى السماء ، والمعنى متقارب * وقوله (فلنولينك) هو إما من الولاية ، أى فلنعطينك ذلك ، أومن التولى ، أى فلنجعلنك متوليا إلى جهتها ، وهذا أولى لقوله (فول وجهك شطر المسجد الحرام) * والمراد بالشطر هنا الناحية والجهة ، وهو منتصب على الظرفية ، ومنه قول الشاعر :

أقول لأم زنباع أقيمى * صدور العيس شطر بنى تميم

ومنه أيضا قول الآخر :

ألا من مبلغ عمرا رسولا * وما تغنى الرسالة شطر عمرو

وقد يراد بالشطر النصف ، ومنه «الوضوء شطر الايمان» ، ومنه قول عنترة :

انى أمرؤ من خير عبس منصبا * شطرى وأحمى سائرى بالمنصل

قال ذلك لان أباه من سادات عبس ، وأمّه أمة ، ويرد بمعنى البعض مطلقا ، ولا خلاف أن المراد بشطر المسجد هنا الكعبة ، وقد حكى القرطبى الاجماع على أن استقبال عين الكعبة فرض على المعاين ، وعلى أن غير المعاين يستقبل الناحية ، و يستدل على ذلك بما يمكنه الاستدلال به ، والضمير فى قوله (أنه الحق) راجع الى مايدل عليه الكلام من التحوّل الى جهة الكعبة ، وعلم أهل الكتاب بذلك إما لكونه قد بلغهم عن أنبيائهم أو وجدوا فى كتب الله المنزلة عليهم أن هذا النبى يستقبل الكعبة ، أو لكونهم قد علموا من كتبهم أو أنبيائهم أن النسخ سيكون فى هذه الشريعة ، فيكون ذلك موجبا عليهم الدخول فى الاسلام ومتابعة النبى ﷺ * قوله (وما الله بغافل عما يعملون) قد تقدّم معناه . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى تعملون

بالمثناة الفوقية على مخاطبة أهل الكتاب أو أمة محمد ﷺ . وقرأ الباقون بالياء التحتية * وقوله (ولئن أتيت) هذه اللام هى موطئة للقسم ، والتقدير والله لئن أتيت * وقوله (ماتبعوا) جواب القسم المقدر قال الأخفش والفراء ، أجيب لئن بجواب لو ، لان المعنى ، ولو أتيت ، ومثله قوله تعالى - ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا - أى ولو أرسلنا ، وانما قالا هكذا ، لأن لئن هى ضد لو ، وذلك أن الأولى تطلب فى جوابها المضى والوقوع ، ولئن تطلب فى جوابها الاستقبال . وقال سيبويه ان معنى لئن يخالف معنى لو فلا تدخل إحداهما على الأخرى ، فالمعنى ولئن آتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية لايتبعون قبلتك . قال سيبويه ومعنى - ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا - ليظلن انتهى * وفى هذه الآية مبالغة عظيمة ، وهى متضمنة للتسلية لرسول الله ﷺ وترويح خاطره ، بأن هؤلاء لاتؤثر فيهم كل آية ، ولا يرجعون الى الحق ، وان جاءهم بكل برهان فضلا عن برهان واحد ، وذلك لانهم لم يتركوا اتباع الحق لدليل عندهم أو لشبهة طرأت عليهم حتى يوازنوا بين ماعندهم وما جاءهم به رسول الله ﷺ ويقلعوا عن غوايتهم عند وضوح الحق ، بل كان تركهم للحق تمردا وعنادا ، مع علمهم بأنهم ليسوا على شىء ، ومن كان هكذا فهو لاينتفع بالبرهان أبدا * وقوله (وما أنت بتابع قبلتهم) هذا الاخبار ممكن أن يكون بمعنى النهى من الله سبحانه لنبيه ﷺ أى لاتتبع يامحمد قبلتهم ، ويمكن أن يكون على ظاهره دفعا لأطماع أهل الكتاب ، وقطعا لما يرجونه من رجوعه ﷺ الى القبلة التى كان عليها * وقوله (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) فيه اخبار بأن اليهود والنصارى مع حرصهم على متابعة الرسول ﷺ لما عندهم هم مختلفون فى دينهم حتى فى هذا الحكم الخاص الذى قصه الله سبحانه على رسوله فان بعضهم لايتابع الآخر فى استقبال قبلته . قال فى الكشاف وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس والنصارى تستقبل مطلع الشمس انتهى * وقوله (ولئن اتبعت أهواءهم) الى آخر الآية ، فيه من التهديد العظيم ، والزجر البليغ ، ماتقشعر له الجلود ، وترجف منه الأفئدة ، واذا كان الميل الى أهوية المخالفين لهذه الشريعة الغراء ، والملة الشريفة من رسول الله ﷺ الذى هو سيد ولد آدم يوجب عليه أن يكون وحاشاه من الظالمين ، فما ظنك بغيره من أمته ، وقد صان الله هذه الفرقة الاسلامية بعد ثبوت قدم الاسلام ، وارتفاع مناره عن أن يميلوا الى شىء من هوى أهل الكتاب ، ولم تبق الادسيسة شيطانية ، ووسيلة طاغوتية ، وهى ميل بعض من تحمل حجج الله الى هوى بعض طوائف المبتدعة ، لما يرجوه من الحطام العاجل من أيديهم أو الجاه لديهم ، ان كان لهم فى الناس دولة ، أو كانوا من ذوى الصولة ، وهذا الميل ليس بدون ذلك الميل ، بل اتباع أهوية المبتدعة تشبه اتباع أهوية أهل الكتاب ، كما يشبه الماء الماء ، والبيضة البيضة ، والتمرة التمرة ، وقد تكون مفسدة اتباع أهوية المبتدعة أشد على هذه الملة من مفسدة اتباع أهوية أهل الملل ، لان المبتدعة ينتمون الى الاسلام ، ويظهرون للناس أنهم ينصرون الدين ويتبعون أحسنه ، وهم على العكس من ذلك ، والضد لما هنالك فلايزالون ينقلون من يميل الى أهويتهم من بدعة الى بدعة ، ويدفعونه من شنعة الى شنعة ، حتى يسلخوه من الدين ويخرجوه منه ، وهو يظن أنه منه فى الصميم ، وأن الصراط الذى هو عليه هو الصراط المستقيم ، هذا ان كان فى عداد المقصرين ، ومن جملة الجاهلين ، وان كان من أهل العلم والفهم المميزين بين الحق والباطل كان فى اتباعه لأهويتهم ممن أضله الله على علم وختم على قلبه ، وصار نقمة على عباد الله ومصيبة صبها الله على المقصرين ، لأنهم يعتقدون أنه فى علمه وفهمه لايميل الا الى حق ، ولا يتبع الا الصواب ، فيضلون بضلاله ، فيكون عليه إثمه وإثم من اقتدى به الى يوم القيامة ، نسأل الله اللطف والسلامة والهداية ، وقوله (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه) قيل الضمير لمحمد ﷺ أى يعرفون نبوته . روى ذلك عن مجاهد وقتادة وطائفة من أهل العلم ، وقيل يعرفون تحويل القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة بالطريق التى قدمنا

ذكرها ، وبه قال جماعة من المفسرين ، ورجح صاحب الكشاف الأوّل وعندى أن الراجح الآخر كما يدل عليه السياق الذى سيقت له هذه الآيات * وقوله (ليكتمون الحق) هو عند أهل القول الأوّل نبوّة محمد ﷺ ، وعند أهل القول الثانى استقبال الكعبة * وقوله (الحق من ربك) يحتمل أن يكون المراد به الحق الأوّل ، ويحتمل أن يراد به جنس الحق على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ وخبره قوله (من ربك) أى الحق هو الذى من ربك لامن غيره ، وقرأ على بن أبى طالب الحق بالنصب على أنه بدل من الأوّل ، أو منصوب على الاغراء أى الزم الحق * وقوله (فلا تكوننّ من الممترين) خطاب للنبى ﷺ * والامتراء الشك ، نهاه الله سبحانه عن الشك فى كونه الحق من ربه ، أو فى كون كتمانهم الحق مع علمهم ، وعلى الأوّل هو تعريض للأمة ، أى لا يكن أحد من أمته من الممترين ، لأنه ﷺ لا يشك فى كون ذلك هو الحق من الله سبحانه .

وقد أخرج ابن ماجه عن البراء قال صلينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهرا وصرفت القبلة الى الكعبة بعد دخوله الى المدينة بشهرين ، وكان رسول الله ﷺ اذا صلى الى بيت المقدس أكثر تقليب وجهه فى السماء وعلم الله من قلب نبيه أنه يهوى الكعبة فصعد جبريل فجعل رسول الله ﷺ يتبعه بصره وهو يصعد بين السماء والأرض ينظر ما يأتيه به ، فأنزل الله (قد نرى تقلب وجهك فى السماء) الآية ، فقال رسول الله ﷺ ياجبريل كيف حالنا فى صلاتنا الى بيت المقدس ؟ فأنزل الله (وما كان الله ليضيع إيمانكم) وأخرجه الطبرانى من حديث معاذ مختصرا لكنه قال سبعة عشر شهرا . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الكبير والحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو فى قوله تعالى (فلنولينك قبلة ترضاها) قال قبلة ابراهيم نحو الميزاب . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن أبى حاتم عن البراء فى قوله (فولّ وجهك شطر المسجد الحرام) قال قبله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن علىّ مثله . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن جرير والبيهقى عن ابن عباس قال (شطره) نحوه . وأخرج البيهقى عن مجاهد مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن أبى العالية قال (شطر المسجد الحرام) تلقاءه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال البيت كله قبلة وقبلة البيت الباب : وأخرج البيهقى فى سننه عنه مرفوعا قال البيت قبلة لأهل المسجد ، والمسجد قبلة لأهل الحرم ، والحرم قبلة لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أمتى . وأخرج ابن جرير عن السدّى فى قوله (وان الذين أوتوا الكتاب) قال أنزل ذلك فى اليهود . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ليعلمون أنه الحق) قال يعنى بذلك القبلة . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن جرير عن أبى العالية نحوه . وأخرج ابن جرير عن السدّى فى قوله (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) يقول ما اليهود بتابعى قبلة النصارى ، ولا النصارى بتابعى قبلة اليهود . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (الذين آتيناهم الكتاب) قال اليهود والنصارى (يعرفونه) قال يعرفون رسول الله فى كتابهم (كما يعرفون أبناءهم) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عنه فى قوله (يعرفونه) أى يعرفون أن البيت الحرام هو القبلة . وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله (وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) قال يكتمون محمدا وهم يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن جرير عن أبى العالية قال قال الله لنبيه ﷺ (الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) يقول لا تكونن فى شك يا محمد أن الكعبة هى قبلتك وكانت قبلة الانبياء من قبلك .

ولكل

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ *

قوله (ولكل) بحذف المضاف اليه لدلالة التنوين عليه ، أى لكل أهل دين وجهة ، والوجهة فعلة من المواجهة ، وفى معناها الجهة والوجه * والمراد القبلة ، أى انهم لايتبعون قبلتك وأنت لاتتبع قبلتهم (ولكل وجهة) إما بحق وإما بباطل ، والضمير فى قوله (هو موليها) راجع الى لفظ كل * والهاء فى قوله (موليها) هى المفعول الأوّل ، والمفعول الثانى محذوف أى موليها وجهه ، والمعنى أن لكل صاحب ملة قبلة صاحب القبلة موليها وجهه ، أولكل منكم ياأمة محمد قبلة يصلى اليها من شرق أو غرب أو جنوب أو شمال اذا كان الخطاب للسلمين ، ويحتمل أن يكون الضمير لله سبحانه وان لم يجر له ذكر إذهو معلوم أن الله فاعل ذلك والمعنى أن لكل صاحب ملة قبلة الله موليها اياه . وحكى الطبرى أن قوما قرءوا ولكل وجهة بالاضافة ونسب هذه القراءة أبو عمرو الدانى الى ابن عباس . قال فى الكشاف ، والمعنى وكل وجهة الله موليها فزيدت اللام لتقدم المفعول كقولك لزيد ضربت ولزيد أبوه ضارب به انتهى ، وقرأ ابن عباس وابن عامر مولاها على مالم يسم فاعله . قال الزجاج ، والضمير على هذه القراءة لواحد أى ولكل واحد من الناس قبلة الواحد مولاها أى مصروف اليها * وقوله (فاستبقوا الخيرات) أى الى الخيرات على الحذف والايصال أى بادروا الى ما أمركم الله من استقبال البيت الحرام كما يفيده السياق وان كان ظاهره الأمر بالاستباق الى كل مايصدق عليه أنه خير كما يفيده العموم المستفاد من تعريف الخيرات ، والمراد من الاستباق إلى الاستقبال الاستباق الى الصلاة فى أوّل وقتها * ومعنى قوله (أين ما تكونوا يأت بكم الله) أى فى أىّ جهة من الجهات المختلفة تكونوا يأت بكم الله للجزاء يوم القيامة أو يجمعكم جميعا ، ويجعل صلاتكم فى الجهات المختلفة كأنها الى جهة واحدة * وقوله (ومن حيث خرجت) كرر سبحانه هذا لتأكيد الأمر باستقبال الكعبة ، وللاهتمام به ، لأن موقع التحويل كان معتنى به فى نفوسهم ، وقيل وجه التكرير أن النسخ من مظانّ الفتنة ومواطن الشبهة ، فاذا سمعوه مرة بعد أخرى ثبتوا ، واندفع مايختلج فى صدورهم ، وقيل انه كرر هذا الحكم لتعدد علله ، فانه سبحانه ذكر للتحويل ثلاث علل ، الأولى ابتغاء مرضاته ، والثانية جرى العادة الالهية أن يولى كل أهل ملة وصاحب دعوة جهة يستقل بها ، والثالثة دفع لجج المخالفين ، فقرن بكل علة معلولها ، وقيل أراد بالأوّل ولّ وجهك شطر الكعبة اذا صليت تلقاءها ، ثم قال وحيث ما كنتم معاشر المسلمين فى سائر المساجد بالمدينة وغيرها فولوا وجوهكم شطره ، ثم قال (ومن حيث خرجت) يعنى وجوب الاستقبال فى الأسفار فكان هذا أمرا بالتوجه الى الكعبة فى جميع المواطن من نواحى الأرض * وقوله (لئلا يكون للناس عليكم حجة) قيل معناه لئلا يكون لليهود عليكم حجة الا للمعاندين منهم القائلين ماترك قبلتنا الى الكعبة الا ميلا الى دين قومه ، فعلى هذا المراد بالذين ظلموا المعاندون من أهل الكتاب ، وقيل هم

مشركو العرب ، وحجتهم قولهم : راجعت قبلتنا ، وقيل معناه لئلا يكون للناس عليكم حجة لئلا يقولوا لكم قد أمرتم باستقبال الكعبة ولستم ترونها . وقال أبو عبيدة ان الا ها هنا بمعنى الواو ، أى والذين ظلموا فهو استثناء بمعنى الواو ، ومنه قول الشاعر :

مابالمدينة دار غير واحدة * دار الخليفة الا دار مروانا

كأنه قال الا دار الخليفة ودار مروان ، وأبطل الزجاج هذا القول وقال انه استثناء منقطع ، أى لكن الذين ظلموا منهم فانهم يحتجون ، ومعناه الا من ظلم باحتجاجه فيما قد وضح له كما تقول مالك على حجة الا أن تظلمنى أى مالك على حجة ألبتة ولكنك تظلمنى ، وسمى ظلمه حجة لأن المحتج بها سماه حجة وان كانت داحضة . وقال قطرب يجوز أن يكون المعنى لئلا يكون للناس عليكم حجة الا على الذين ظلموا ، فالذين بدل من الكاف والميم فى عليكم . ورجح ابن جرير الطبرى أن الاستثناء متصل وقال نفى الله أن يكون لأحد حجة على النبى ﷺ وأصحابه فى استقبالهم الكعبة ، والمعنى لا حجة لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة حيث قالوا ماولاهم ، وقالوا ان محمدا تحير فى دينه ، وما توجه الى قبلتنا الا أنا أهدى منه ، وغير ذلك من الأقوال التى لم تنبعث الا من عابد وثن ، أو من يهودى ، أو منافق ، قال والحجة بمعنى المحاجة التى هى المخاصمة والمجادلة ، وسماها تعالى حجة وحكم بفسادها ، حيث كانت من ظالم ، ورجح ابن عطية أن الاستثناء منقطع ، كما قال الزجاج . قال القرطبى : وهذا على أن يكون المراد بالناس اليهود ، ثم استثنى كفار العرب ، كأنه قال لكن الذين ظلموا فى قولهم رجع محمد إلى قبلتنا ، وسيرجع إلى ديننا كله * وقوله (فلا تخشوهم) يريد الناس أى لاتخافوا مطاعنهم فانها داحضة باطلة لاتضركم * وقوله (ولأتم نعمتى عليكم) معطوف على (لئلا يكون) ، أى ولأن أتم ، قاله الأخفش ، وقيل هو مقطوع عما قبله فى موضع رفع بالابتداء ، والخبر مضمر والتقدير ، ولأتم نعمتى عليكم عرفتكم قبلتى . قله الزجاج ، وقيل معطوف على علة مقدرة كأنه قيل واخشونى لأوفقكم ، ولأتم نعمتى عليكم * وإتمام النعمة الهداية الى القبلة ، وقيل دخول الجنة * وقوله (كما أرسلنا) الكاف فى موضع نصب على النعت لمصدر محذوف ، والمعنى ولأتم نعمتى عليكم إتماما مثل ماأرسلنا . قاله الفراء ، ورجحه ابن عطية ، وقيل الكاف فى موضع نصب على الحال ، والمعنى ولأتم نعمتى عليكم فى هذه الحال ، والتشبيه واقع على أن النعمة فى القبلة كالنعمة فى الرسالة ، وقيل معنى الكلام على التقديم والتأخير أى فاذكرونى كما أرسلنا ، قاله الزجاج * وقوله (فاذكرونى أذكركم) أمر وجوابه ، وفيه معنى المجازاة . قال سعيد بن جبير : ومعنى الآية اذكرونى بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة ، حكاه عنه القرطبى فى تفسيره . واخرجه عنه عبد بن حميد وابن جرير ، وقد روى نحوه مرفوعا كما سيأتى * وقوله (واشكروالى) قال الفراء شكر لك وشكرت لك * والشكر معرفة الاحسان والتحدث به ، وأصله فى اللغة الظهور . وقد تقدم الكلام فيه * وقوله (ولا تكفرون) نهى ولذلك حذفت نون الجماعة ، وهذه الموجودة فى الفعل هى نون المتكلم ، وحذفت الياء لانها رأس آية ، و إثباتها أحسن فى غير القرآن * والكفر هنا ستر النعمة لا التكذيب ، وقد تقدم الكلام فيه .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولكل وجهة هو موليها) قال يعنى بذلك أهل الأديان ، يقول: لكل قبلة يرضونها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أنه قال فى تفسير هذه الآية صلوا نحو بيت المقدس مرة ، ونحو الكعبة مرة أخرى . وأخرج أبو داود فى ناسخه عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله (فاستبقوا الخيرات) يقول لاتغلبن على قبلتكم . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله (فاستبقوا الخيرات) قال الأعمال الصالحة . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله (فاستبقوا الخيرات)

يقول

يقول فسارعوا فى الخيرات (أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا) قال يوم القيامة . وأخرج ابن جرير من طريق السدّى عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة قال لما صرف النبى ﷺ نحو الكعبة بعد صلاته إلى بيت المقدس قال المشركون من أهل مكة تحير على محمد دينه ، فتوجه بقبلته اليكم وعلم أنكم أهدى منه سبيلا ، ويوشك أن يدخل فى دينكم ، فأنزل الله (لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى) وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله (لئلا يكون للناس عليكم حجة) قال يعنى بذلك أهل الكتاب حين صرف نبى الله إلى الكعبة قلوا اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال حجتهم قولهم قد أحب قبلتنا . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ومجاهد فى قوله (إلا الذين ظلموا منهم) قال الذين ظلموا منهم مشركو قريش انهم سيحتجون بذلك عليكم ، واحتجوا على نبىّ الله بانصرافه الى البيت الحرام وقالوا سيرجع الى ديننا كما رجع إلى قبلتنا ، فأنزل الله فى ذلك كله (ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين) وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم) يعنى محمدا ﷺ وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم) يقول كما فعلت فاذكرونى . وأخرج أبو الشيخ والديلمى من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ (فاذكرونى أذكركم) يقول اذكرونى يامعاشر العباد بطاعتى أذكركم بمغفرتى . وأخرج الديلمى وابن عساكر مثله مرفوعا من حديث أبى هند الدارى وزاد فمن ذكرنى وهو مطيع فحق علىّ أن أذكره بمغفرتى ، ومن ذكرنى وهو لى عاص فحق علىّ أن أذكره بمقت . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس يقول الله ذكرى لكم خير من ذكركم لى . وقد ورد فى فضل ذكر الله على الاطلاق وفضل الشكر أحاديث كثيرة .

يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ * وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنْفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ *

لما فرغ سبحانه من إرشاد عباده إلى ذكره وشكره عقب ذلك بارشادهم الى الاستعانة بالصبر والصلاة فان من جمع بين ذكر الله وشكره ، واستعان بالصبر والصلاة على تأدية ماأمر الله به ، ودفع مايرد عليه من المحن فقد هدى إلى الصواب ، ووفق إلى الخير ، وان هذه المعية التى أوضحها الله بقوله (ان الله مع الصابرين) فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه الى لزوم الصبر على ماينوب من الخطوب ، فمن كان الله معه لم يخش من الأهوال ، وان كانت كالجبال ، و (أموات وأحياء) مرتفعان على أنهما خبران لمحذوفين أى لاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله هم أموات بل هم أحياء ، ولكن لاتشعرون بهذه الحياة عند مشاهدتكم لأبدانهم بعد سلب أرواحهم ، لأنكم تحكمون عليها بالموت فى ظاهر الأمر بحسب مايبلغ اليه علمكم الذى هو بالنسبة إلى علم الله كما يأخذ الطائر فى منقاره من ماء البحر ، وليسوا كذلك فى الواقع بل هم أحياء فى البرزخ ، وفى الآية دليل على ثبوت عذاب القبر ولا اعتداد بخلاف من خالف فى ذلك فقد تواترت به الأحاديث الصحيحة ، ودلت عليه الآيات القرآنية ، ومثل هذه الآية قوله تعالى ــ ولا تحسبنّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ــ * والبلاء أصله المحنة ، ومعنى نبلوكم نمتحنكم لنختبركم هل تصبرون

على القضاء أم لا ، وتنكير شيء للتقليل أى بشيء قليل من هذه الأمور . وقرأ الضحاك بأشياء * والمراد بالخوف مايحصل لمن يخشى من نزول ضرر به من عدوّ أو غيره * وبالجوع المجاعة التى تحصل عند الجدب والقحط * وبنقص الأموال مايحدث فيها بسبب الجوائح وما أوجبه الله فيها من الزكاة ونحوها * وبنقص الأنفس الموت والقتل فى الجهاد * وبنقص الثمرات مايصيبها من الآفات وهو من عطف الخاص على العام لشمول الأموال للثمرات وغيرها ، وقيل المراد بنقص الثمرات موت الأولاد * وقوله (وبشر الصابرين) أمر لرسول الله ﷺ أو لكل من يقدر على التبشير . وقد تقدّم معنى البشارة * والصبر أصله الحبس ، ووصفهم بأنهم المسترجعون عند المصيبة ، لأن ذلك تسليم ورضا * والمصيبة واحدة المصائب ، وهى النكبة التى يتأذى بها الانسان وان صغرت * وقوله (إنا لله وإنا إليه راجعون) فيه بيان أن هذه الكلمات ملجأ للمصابين ، وعصمة للممتحنين ، فانها جامعة بين الاقرار بالعبودية لله ، والاعتراف بالبعث والنشور ، ومعنى الصلوات هنا المغفرة والثناء الحسن . قاله الزجاج ، وعلى هذا فذكر الرحمة لقصد التأكيد . وقال فى الكشاف الصلاة الرحمة والتعطف ، فوضعت موضع الرأفة ، وجمع بينها وبين الرحمة كقوله – رأفة ورحمة * رءوف رحيم – والمعنى عليهم رأفة بعد رأفة ، ورحمة بعد رحمة انتهى ، وقيل المراد بالرحمة كشف الكربة وقضاء الحاجة * و (المهتدون) قد تقدّم معناه ، وانما وصفوا هنا بذلك لكونهم فعلوا ما فيه الوصول إلى طريق الصواب من الاسترجاع والتسليم .

وقد أخرج الحاكم والبيهقى فى الدلائل عن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال غشى على عبد الرحمن ابن عوف فى وجعه غشية ظنوا أنه قد فاضت نفسه فيها حتى قاموا من عنده ، وجللوه ثوبا ، وخرجت أم كلثوم بنت عقبة امرأته إلى المسجد تستعين بما أمرت به من الصبر والصلاة ، فلبثوا ساعة وهو فى غشيته ثم أفاق . وأخرج ابن منده فى المعرفة عن ابن عباس قال قتل تميم بن الحمام ببدر ، وفيه وفى غيره نزلت (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال (فى سبيل الله) فى طاعة الله فى قتال المشركين . وقد وردت أحاديث أن أرواح الشهداء فى أجواف طيور خضر تأكل من ثمار الجنة ، فمنها عن كعب بن مالك مرفوعا عند أحمد والترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه . وروى ان أرواح الشهداء تكون على صور طيور بيض ، كما أخرجه عبد الرزاق عن قتادة قال بلغنا فذكر ذلك وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير عنه أيضا بنحوه ، وروى أنها على صور طيور خضر كما أخرجه ابن أبى حاتم والبيهقى فى شعب الايمان عن أبى العالية . وأخرجه ابن أبى شيبة فى البعث والنشور عن كعب . وأخرجه هناد بن السرى عن هذيل . وأخرجه عنه عبد الرزاق فى المصنف عن عبد الله بن كعب بن مالك مرفوعا وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عطاء فى قوله (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع) قال هم أصحاب محمد ﷺ وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن عباس فى قوله (ولنبلونكم) الآية قال أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء وأنه مبتليهم فيها ، وأمرهم بالصبر وبشرهم فقال (وبشر الصابرين) وأخبر أن المؤمن إذا سلم لأمر الله ورجع واسترجع عند المصيبة كتب الله له ثلاث خصال من الخير الصلاة من الله ، والرحمة ، وتحقيق سبيل الهدى . وقال رسول الله ﷺ « من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته ، وأحسن عقباه ، وجعل له خلفا صالحا يرضاه » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن رجاء بن حيوة فى قوله (ونقص من الثمرات) قال يأتى على الناس زمان لاتحمل النخلة فيه الا تمرة . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال قال النبى ﷺ « أعطيت أمتى شيأ لم يعطه أحد من الأمم أن يقولوا عند المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون » وقد ورد فى فضل الاسترجاع عند المصيبة أحاديث كثيرة .

ان

إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ *

أصل (الصفا) فى اللغة الحجر الأملس، وهو هنا علم لجبل من جبال مكة معروف، وكذلك (المروة) علم لجبل بمكة معروف، وأصلها فى اللغة واحدة المروى وهى الحجارة الصغار التى فيها لين، وقيل التى فيها صلابة، وقيل تعم الجميع، قال أبو ذؤيب:

حتى كأنى للحوادث مروة * بصفا المشقر كل يوم تقرع

وقيل انها الحجارة البيض البراقة، وقيل انها الحجارة السود * والشعائر جمع شعيرة وهى العلامة أى من أعلام مناسكه، والمراد بها مواضع العبادة التى أشعرها الله اعلاما للناس من الموقف والسعى والمنحر، ومنه اشعار الهدى أى اعلامه بغرز حديدة فى سنامه، ومنه قول الكميت:

نقتلهم جيلا فجيلا تراهم * شعائر قربان بهم يتقرب

وحج البيت فى اللغة قصده، ومنه قول الشاعر:

واشهد من عوف حؤلا كثيرة * يحجون سب الزبرقان المزعفرا

والسب العمامة، وفى الشرع الاتيان بمناسك الحج التى شرعها الله سبحانه، والعمرة فى اللغة الزيارة وفى الشرع الاتيان بالنسك المعروف على الصفة الثابتة * والجناح أصله من الجنوح وهو الميل، ومنه الجوانح لاعوجاجها * وقوله (يطوّف) أصله يتطوف فأدغم وقرئ أن يطوف، ورفع الجناح يدل على عدم الوجوب، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه والثورى، وحكى الزمخشرى فى الكشاف عن أبى حنيفة أنه يقول انه واجب وليس بركن وعلى تاركه دم، وقد ذهب الى عدم الوجوب ابن عباس وابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين ومما يقوّى دلالة هذه الآية على عدم الوجوب قوله تعالى فى آخر الآية (ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم) وذهب الجمهور إلى أن السعى واجب ونسك من جملة المناسك واستدلوا بما أخرجه الشيخان وغيرهما عن عائشة أن عروة قال لها أرأيت قول الله (ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما) فما أرى على أحد جناحا أن لا يطوّف بهما؟ فقالت عائشة بئس ما قلت يا ابن اختى انها لو كانت على ما أوّلتها كانت فلا جناح عليه أن لا يطوّف بهما ولكنها انما أنزلت ان الأنصار قبل ان يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التى كانوا يعبدونها وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة فى الجاهلية فأنزل الله (ان الصفا والمروة من شعائر الله) الآية قالت عائشة ثم قد بين رسول الله ﷺ الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما. وأخرج مسلم وغيره عنها أنها قالت لعمرى ما أتم الله حج من لم يسع بين الصفا والمروة ولا عمرته لان الله قال ان الصفا والمروة من شعائر الله. وأخرج الطبرانى عن ابن عباس قال سئل رسول الله ﷺ فقال ان الله كتب عليكم السعى فاسعوا. وأخرج أحمد فى مسنده والشافعى وابن سعد وابن المنذر وابن قانع والبيهقى عن حبيبة بنت أبى تجرأة قالت رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعى يدور به إزاره وهو يقول اسعوا فان الله عز وجل كتب عليكم السعى، وهو فى مسند أحمد من طريق شيخه عبد الله بن المؤمل عن عطاء بن أبى رباح عن صفية بنت شيبة عنها، ورواه من طريق أخرى عن عبد الرزاق أخبرنا معمر عن واصل مولى أبى عيينة عن موسى بن عبيدة عن صفية بنت شيبة ان امرأة أخبرتها فذكرته ويؤيد ذلك حديث «خذوا عنى مناسككم» اه

إنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ *

قوله (ان الذين يكتمون) الى آخر الآية فيه الاخبار بأن الذى يكتم ذلك ملعون ، واختلفوا من المراد بذلك فقيل أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد ﷺ ، وقيل كل من كتم الحق وترك بيان ماأوجب الله بيانه وهو الراجح لأن الاعتبار بعموم اللفظ لابخصوص السبب كما تقرر فى الأصول ، فعلى فرض أن سبب النزول ماوقع من اليهود والنصارى من الكتم فلا ينافى ذلك تناول هذه الآية كل من كتم الحق ، وفى هذه الآية من الوعيد الشديد مالا يقادرقدره ، فان من لعنه الله ولعنه كل من يتأتى منه اللعن من عباده قد بلغ من الشقاوة والخسران الى الغاية التى لاتلحق ولا يدرك كنهها ، وفى قوله (من البينات والهدى) دليل على أنه يجوز كتم غير ذلك كما قال أبو هريرة حفظت عن رسول الله ﷺ وعاءين أما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم أخرجه البخارى * والضمير فى قوله (من بعد ماييناه) راجع الى ماأنزلنا * والكتاب اسم جنس وتعريفه يفيد شموله لجيع الكتب ، وقيل المراد به التوراة * واللعن الابعاد والطرد * والمراد بقوله (اللاعنون) الملائكة والمؤمنون. قله الزجاج وغيره ، ورجحه ابن عطية ، وقيل كل من يتأتى منه اللعن فيدخل فى ذلك الجن ، وقيل هم الحشرات والبهائم * وقوله (إلا الذين تابوا) الى آخره فيه استثناء التائبين والمصلحين لما فسد من أعمالهم ، والمبينين للناس ماينه الله فى كتبه وعلى ألسن رسله * قوله (وماتوا وهم كفار) هذه الجملة حالية ، وقد استدل بذلك على أنه لايجوز لعن كافر معين لان حاله عند الوفاة لايعلم ولا ينافى ذلك ماثبت عنه ﷺ من لعنه لقوم من الكفار بأعيانهم لانه يعلم بالوحى مالا نعلم ، وقيل يجوز لعنه عملا بظاهر الحال كما يجوز قتاله * قوله (أولئك عليهم لعنة الله) الخ استدل به على جواز لعن الكفار على العموم قال القرطبى ولا خلاف فى ذلك قال وليس لعن الكافر بطريق الزجر له عن الكفر بل هو جزاء على الكفر واظهار قبح كفره سواء كان الكافر عاقلا أو مجنونا ، وقال قوم من السلف لافائدة فى لعن من جنّ أو مات منهم لابطريق الجزاء ولا بطريق الزجر قال و يدل على هذا القول أن الآية دالة على الاخبار عن الله والملائكة والناس بلعنهم لاعلى الأمر به . قال ابن العربى ان لعن العاصى المعين لايجوز باتفاق لما روى أن النبى ﷺ أتى بشارب خمر مرارا فقال بعض من حضر لعنه الله ماأكثر مايشرب به فقال النبى ﷺ لاتكونوا عونا للشيطان على أخيكم ، والحديث فى الصحيحين * وقوله (والناس أجمعين) قيل هذا يوم القيامة ، وأما فى الدنيا فنى الناس المسلم والكافر ومن يعلم بالعاصى ومعصيته ومن لايعلم فلا يتأتى اللعن له من جيع الناس ، وقيل فى الدنيا ، والمراد أنه يلعنه غالب الناس أو كل من علم بمعصيته منهم * وقوله (خالدين فيها) أى فى النار ، وقيل فى اللعنة * والانظار الامهال ، وقيل معنى لاينظرون لاينظر الله اليهم فهو من النظر ، وقيل هو من الانتظار أى لاينتظرون ليعتذروا ، وقد تقدّم تفسير (الرحمن الرحيم * وقوله (وإلهكم إله واحد) فيه الارشاد الى التوحيد وقطع علائق الشرك والاشارة الى أن أوّل مايجب بيانه ويحرم كتمانه هو أمر التوحيد .

وقد أخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال سأل معاذ بن جبل أخو بنى سلمة وسعد بن معاذ أخو بنى الأشهل وخارجة بن زيد أخو بنى الحارث بن الخزرج نفرا من أحبار اليهود عن بعض مافى التوراة فكتموهم إياه وأبوا أن يخبروهم فأنزل الله فيهم (إن الذين يكتمون ما أنزلنا) الآية. وقد روى عن جماعة من السلف أن الآية نزلت فى أهل الكتاب لكتمهم نبوّة نبينا ﷺ.
وأخرج ابن ماجه وابن المنذر وابن أبى حاتم عن البراء بن عازب قال كنا فى جنازة مع النبى ﷺ فقال ان الكافر يضرب ضربة بين عينيه فتسمعه كل دابة غير الثقلين فتلعنه كل دابة سمعت صوته فذلك قول الله تعالى (ويلعنهم اللاعنون) يعنى دواب الأرض. وأخرج عبد بن حميد عن عطاء قال الجنّ والانس وكل دابة. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد قال اذا أجدبت البهائم دعت على فجار بنى آدم. وأخرج عنه عبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الايمان قال فى تفسير الآية ان دواب الأرض والعقارب والخنافس يقولون انما منعنا القطر بذنوبهم فيلعنونهم. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن أبى جعفر قال يلعنهم كل شىء حتى الخنفساء. وقد وردت أحاديث كثيرة فى النهى عن كتم العلم والوعيد لفاعله. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله (إلا الذين تابوا وأصلحوا) قال أصلحوا مابينهم و بين الله و بينوا الذى جاءهم من الله ولم يكتموه ولم يجحدوه. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (أتوب عليهم) يعنى أتجاوز عنهم. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال ان الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله، ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس أجمعون. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال يعنى بالناس أجمعين المؤمنين. وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله (خالدين فيها) يقول خالدين فى جهنم فى اللعنة وقال فى قوله (ولاهم ينظرون) يقول لاينظرون فيعتذرون. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولاهم ينظرون) قال لايؤخرون. وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والدارمى وأبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله ﷺ أنه قال «اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين ـ وإلهكم إله واحد لاإله إلا هو الرحمن الرحيم * والم الله لاإله إلا هو الحىّ القيوم ـ». وأخرج الديلمى عن أنس أن النبى ﷺ «قال ليس شىء أشدّ على مردة الجن من هؤلاء الآيات التى فى سورة البقرة (وإلهكم إله واحد) الآيتين»

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *

لما ذكر سبحانه التوحيد بقوله (وإلهكم إله واحد) عقب ذلك بالدليل الدال عليه، وهو هذه الأمور التى هى من أعظم صنعة الصانع الحكيم، مع علم كل عاقل بأنه لايتهيأ من أحد من الآلهة التى أثبتها الكفار أن يأتى بشىء منها، أو يقتدر عليه أو على بعضه، وهى خلق السموات، وخلق الأرض، وتعاقب الليل والنهار، وجرى الفلك فى البحر، و إنزال المطر من السماء، و إحياء الأرض به، و بث الدواب منها بسببه، وتصريف الرياح، فان من أمعن نظره، وأعمل فكره فى واحد منها، انبهر له، وضاق ذهنه عن تصوّر حقيقته، وتحتم عليه التصديق، بأن صانعه هو الله سبحانه، وانما جمع السموات لانها أجناس مختلفة، كل سماء من جنس غير جنس الأخرى، ووحد الأرض لأنها كلها من جنس واحد وهو التراب،

والمراد باختلاف الليل والنهار تعاقبهما باقبال أحدهما و إدبار الآخر ، و إضاءة أحدهما و إظلام الآخر ، والنهار مابين طلوع الفجر إلى غروب الشمس . وقال النضر بن شميل : أوّل النهار طلوع الشمس ولايعدّ ماقبل ذلك من النهار ، وكذا قال ثعلب ، واستشهد بقول أمية بن أبي الصلت :

والشمس تطلع كل آخر ليلة * حمراء يصبح لونها يتورّد

وكذا قال الزجاج ، وقسم ابن الأنبارى الزمان الى ثلاثة أقسام ، قسما جعله ليلا محضا ، وهومن غروب الشمس إلى طلوع الفجر ، وقسما جعله نهارا محضا ، وهومن طلوع الشمس الى غروبها ، وقسما جعله مشتركا بين النهار والليل ، وهو مابين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لبقايا ظلمة الليل ، ومبادئ ضوء النهار ، هذا باعتبار مصطلح أهل اللغة ، وأما فى الشرع فالكلام فى ذلك معروف * والفلك السفن ، و إفراده وجمعه بلفظ واحد ، وهو هذا و يذكر و يؤنث . قال الله تعالى — فى الفلك المشحون * والفلك التى تجرى فى البحر — وقال — حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم — وقيل واحده فلك بالتحريك ، مثل أسد وأسد * وقوله (بما ينفع الناس) يحتمل أن تكون ماموصولة ، أى بالذى ينفعهم ، أومصدرية ، أى بنفعهم ، والمراد بما أنزل من السماء المطر الذى به حياة العالم . و إخراج النبات والأرزاق * والبثّ النشر ، والظاهر أن قوله (بثّ) معطوف على قوله (فأحيا) لانهما أمران متسببان عن إنزال المطر . وقال فى الكشاف ان الظاهر عطفه على أنزل * والمراد بتصريف الرياح إرسالها عقما ، وملقحة وصرّا ونصرا ، وهلا كا وحارة وباردة ، ولينة وعاصفة ، وقيل تصريفها إرسالها جنوبا وشمالا ودبورا ، وصبا ونكبا ، وهى التى تأتى بين مهبى ريحين ، وقيل تصريفها أن تأتى السفن الكبار بقدر ماتحملها والصغار كذلك ، ولا مانع من حمل التصريف على جميع ماذكر * والسحاب سمى سحابا لانسحابه فى الهواء ، وسحبت ذيلى سحبا وتسحب فلان على فلان : اجترأ * والمسخر المذلل ، وسخره بعثه من مكان الى آخر ، وقيل تسخيره ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد ولاعلائق * والأوّل أظهر * والآيات الدلالات على وحدانيته سبحانه لمن ينظر ببصره ، و يتفكر بعقله .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال قالت قريش للنبى ﷺ ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهبا نتقوى به على عدوّنا ، فأوحى الله اليه أنى معطيهم فأجعل لهم الصفا ذهبا ، ولكن ان كفروا بعد ذلك عذبتهم عذابا لاأعذبه أحدا من العالمين ، فقال رب دعنى وقومى فأدعوهم يوما بيوم ، فأنزل الله هذه الآية . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير . وأخرج وكيع والفريابى وآدم بن أبى إياس وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة والبيهقى فى شعب الايمان عن أبى الضحى قال لما نزلت (و إلهكم إله واحد) عجب المشركون وقالوا ان محمدا يقول (و إلهكم إله واحد) فليأتنا بآية ان كان من الصادقين ، فأنزل الله (ان فى خلق السموات والأرض) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطاء نحوه . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن سلمان قال الليل موكل به ملك يقال له شراهيل ، فاذا حان وقت الليل أخذ خرزة سوداء فدلاها من قبل المغرب ، فاذا نظرت اليها الشمس وجبت فى أسرع من طرفة عين . وقد أمرت الشمس أن لاتغرب حتى ترى الخرزة ، فاذا غربت جاء الليل ، فلا تزال الخرزة معلقة حتى يجىء ملك آخر يقال له هراهيل بخرزة بيضاء فيعلقها من قبل المطلع ، فاذا رآها شراهيل مدّ إليه خرزته ، وترى الشمس الخرزة البيضاء ، فتطلع . وقد أمرت أن لاتطلع حتى تراها ، فاذا طلعت جاء النهار . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله (والفلك) قال السفينة . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال (بثّ) خلق ، وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وتصريف الرياح) قال اذا شاء جعلها رحمة لواقح

للسحاب

للسحاب ، و بشرا بين يديه رحمته ، واذا شاء جعلها عذابا ريحا عقيما لاتلقح . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى بن كعب قال كل شىء فى القرآن من الرياح فهى رحمة ، وكل شىء فى القرآن من الريح فهى عذاب ، وقد ورد فى النهى عن سب الريح وأوصافها أحاديث كثيرة لاتعلق لها بالآية .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ ٱللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ وَلَوْ تَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ *

لما فرغ سبحانه من الدليل على واحدانيته أخبر أن مع هذا الدليل الظاهر المفيد لعظيم سلطانه ، وجليل قدرته ، وتفرده بالخلق ، قد وجد فى الناس من يتخذ معه سبحانه ندا يعبده من الاصنام . وقد تقدم تفسير الأنداد ، مع أن هؤلاء الكفار لم يقتصروا على مجرد عبادة الأنداد ، بل أحبوها حبا عظيما وأفرطوا فى ذلك إفراطا بالغا ، حتى صار حبهم لهذه الأوثان ونحوها متمكنا فى صدورهم كتمكن حب المؤمنين لله سبحانه فالمصدر فى قوله (كحب الله) مضاف الى المفعول ، والفاعل محذوف وهو المؤمنون ، ويجوز أن يكون المراد كحبهم لله ، أى عبدة الأوثان . قاله ابن كيسان والزجاج ، ويجوز أن يكون هذا المصدر من المبنى للمجهول ، أى كما يحب الله * والأول أولى لقوله (والذين آمنوا أشد حبا لله) فانه استدراك لما يفيده التشبيه من التساوى ، أى ان حب المؤمنين لله أشد من حب الكفار للأنداد ، لأن المؤمنين يخصون الله سبحانه بالعبادة والدعاء ، والكفار لايخصون أصنامهم بذلك ، بل يشركون الله معهم ، و يعترفون بأنهم انما يعبدون أصنامهم ليقربوهم إلى الله ، و يمكن أن يجعل هذا أعنى قوله (والذين آمنوا أشد حبا لله) دليلا على الثانى ، لأن المؤمنين اذا كانوا أشد حبا لله لم يكن حب الكفار للأنداد كحب المؤمنين لله ، وقيل المراد بالأنداد هنا الرؤساء ، أى يطيعونهم فى معاصى الله ، و يقوى هذا الضمير فى قولهم (يحبونهم) فانه لمن يعقل ، و يقويه أيضا قوله سبحانه عقب ذلك (إذ تبرأ الذين اتبعوا) الآية * قوله (ولو ترى الذين ظلموا) قراءة أهل مكة والكوفة وأبو عمرو بالياء التحتية ، وهو اختيار ابى عبيد . وقراءة أهل المدينة وأهل الشام بالفوقية ، والمعنى على القراءة الأولى لو يرى الذين ظلموا فى الدنيا عذاب الآخرة لعلموا حين يرونه أن القوة لله جميعا . قاله أبو عبيد . قال النحاس ، وهذا القول هو الذى عليه أهل التفسير انتهى ، وعلى هذا فالرؤية هى البصرية لاالقلبية . وروى عن محمد بن يزيد المبرد انه قال هذا التفسير الذى جاء به أبو عبيد بعيد ، وليست عبارته فيه بالجيدة ، لأنه يقدر ، ولو يرى الذين ظلموا العذاب ، فكأنه يجعله مشكوكا فيه . وقد أوجبه الله تعالى ، ولكن التقدير وهو الأحسن ، ولو يرى الذين ظلموا أن القوة لله ، ويرى بمعنى يعلم أى لو يعلمون حقيقة قوة الله ، وشدة عذابه قال وجواب لو محذوف ، أى لتبينوا ضرر اتخاذهم الآلهة كما حذف فى قوله — ولو ترى اذ وقفوا على النار * ولو ترى اذ وقفوا على ربهم — ومن قرأ بالفوقية فالتقدير ولو ترى يا محمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهم العذاب ، وفزعهم منه لعلمت أن القوة لله جميعا . وقد كان النبى ﷺ علم ذلك ولكن خوطب بهذا الخطاب ، والمراد به أمته ، وقيل (أن) فى موضع نصب مفعول لأجله أى لأن القوة لله ، كما قال الشاعر :

وأغفر عوراء الكريم ادّخاره * وأعرض عن شتم اللئيم تكرّما

أى لادّخاره ، والمعنى ولو ترى يامحمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهم للعذاب لان القوّة لله لعلمت مبلغهم من النكال ، ودخلت (اذ) وهى لما مضى فى اثبات هذه المستقبلات تقريبا للأمر وتصحيحا لوقوعه . وقرأ ابن عامر (إذيرون) بضم الياء ، والباقون بفتحها ، وقرأ الحسن و يعقوب وأبو جعفر ان القوّة وان الله بكسر الهمزة فيهما على الاستئناف ، أو على تقدير القول * قوله (إذ تبرأ الذين اتبعوا) بدل من قوله (إذيرون العذاب) ومعناه أن السادة والرؤساء تبرءوا ممن اتبعهم على الكفر * وقوله (ورأوا العذاب) فى محل نصب على الحال ، يعنى التابعين والمتبوعين ، قيل عند المعاينة فى الدنيا ، وقيل عند العرض والمساءلة فى الآخرة ، و يمكن أن يقال فيهما جميعا إذ لامانع من ذلك * قوله (وتقطعت بهم الأسباب) هى جمع سبب ، وأصله فى اللغة الحبل الذى يشدّ به الشىء و يجذب به ، ثم جعل كل ماجرّ شيئا سببا ، والمراد بها الوصل التى كانوا يتواصلون بها فى الدنيا من الرحم وغيره ، وقيل هى الأعمال * والكرة الرجعة والعودة الى حال قد كانت ، ولوهنا فى معنى التمنى كأنه قيل ليت لنا كرة ، ولهذا وقعت الفاء فى الجواب ، والمعنى أن الأتباع قالوا لورددنا الى الدنيا حتى نعمل صالحا ونتبرأ منهم كما تبرءوا منا * والكاف فى قوله (كما تبرءوا منا) فى محل نصب على النعت لمصدر محذوف ، وقيل فى محل نصب على الحال ، ولا أراه صحيحا * وقوله (كذلك يريهم الله) فى موضع رفع ، أى الأمر كذلك أى كما أراهم الله العذاب يريهم أعمالهم ، وهذه الرؤية ان كانت البصرية فقوله (حسرات) منتصب على الحال ، وان كانت القلبية فهو المفعول الثالث ، والمعنى أن أعمالهم الفاسدة يريهم الله إياها فتكون عليهم حسرات ، أو يريهم الأعمال الصالحة التى أوجبها عليهم فتركوها فيكون ذلك حسرة عليهم * وقوله (وماهم بخارجين من النار) فيه دليل على خلود الكفار فى النار ، وظاهر هذا التركيب يفيد الاختصاص ، وجعله الزمخشرى للتقوية لغرض له يرجع الى المذهب ، والبحث فى هذا يطول .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا) قال مباهاة ومضاررة للحق بالأنداد (والذين آمنوا أشدّ حبا لله) قال من الكفار لآلهتهم . وأخرج ابن جرير عن أبى زيد فى هذه الآية قال هؤلاء المشركون أندادهم آلهتهم التى عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله (والذين آمنوا أشدّ حبا لله) من حبهم لآلهتهم . وأخرج ابن جرير عن السدى فى الآية قال الأنداد من الرجال يطيعونهم كما يطيعون الله اذا أمروهم أطاعوهم وعصوا الله . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة نحو ماقال ابن زيد . وأخرج ابن جرير عن الزبيرى فى قوله (ولو ترى الذين ظلموا) قال ولو ترى يامحمد الذين ظلموا أنفسهم فاتخذوا من دونى أندادا يحبونهم كحبكم اياى حين يعاينون عذابى يوم القيامة الذى أعددت لهم لعلمتم أن القوّة كلها لى دون الأنداد والآلهة لاتغنى عنهم هنالك شيئا ولا تدفع عنهم عذابا أحللت بهم وأيقنتم أنى شديد عذابى لمن كفر بى وادّعى معى إلها غيرى . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله (اذ تبرأ الذين اتبعوا) قال هم الجبابرة والقادة والرءوس فى الشرك من الذين اتبعوا قال هم الشياطين تبرءوا من الانس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله (فتقطعت بهم الأسباب) قال المودة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال هى المنازل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال هى الأرحام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم فى الحلية عن مجاهد قال هى الأوصال التى كانت بينهم فى الدنيا والمودة . وأخرج عبد بن حميد عن أبى صالح ، قال هى الأعمال . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الربيع ، قال هى المنازل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله (لو أن لنا كرة) قال رجعة الى الدنيا . وأخرج ابن أبى حاتم

عن

عن أبى العالية فى قوله (حسرات) قال صارت أعمالهم الخبيثة حسرة عليهم يوم القيامة . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله (وماهم بخارجين من النار) قال أولئك أهلها الذين هم أهلها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ثابت بن معبد قال مازال أهل النار يأملون الخروج منها حتى نزلت (وماهم بخارجين من النار) .

يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ *

قوله (يأيها الناس) قيل إنها نزلت فى ثقيف وخزاعة و بنى مدلج فيما حرّموه على أنفسهم من الأنعام حكاه القرطبى فى تفسيره ، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لابخصوص السبب * وقوله (حلالا) مفعول أو حال ، وسمى الحلال حلالا لانحلال عقدة الحظر عنه * والطيب هنا هو المستلذ كماقاله الشافعى وغيره . وقال مالك وغيره هو الحلال فيكون تأكيدا لقوله (حلالا) * و(من) فى قوله (مما فى الأرض) للتبعيض للقطع بأن فى الأرض ماهو حرام (وخطوات) جمع خطوة بالفتح والضم ، وهى بالفتح للمرة ، و بالضم لما بين القدمين وقرأ الفراء خطوات بفتح الخاء ، وقرأ أبو سماك بفتح الخاء والطاء ، وقرأ علىّ وقتادة والأعرج وعمرو ابن ميمون والأعمش (خطؤات) بضم الخاء والطاء والهمز على الواو . قال الأخفش ، وذهبوا بهذه القراءة الى أنها جمع خطية من الخطأ لامن الخطو . قال الجوهرى ، والخطوة بالفتح : المرة الواحدة ، والجمع خطوات وخطا انتهى ، والمعنى على قراءة الجمهور لاتقفوا أثر الشيطان وعمله ، وكل مالم يرد به الشرع فهو منسوب إلى الشيطان ، وقيل هى النذور والمعاصى ، والأولى التعميم ، وعدم التخصيص بفرد أونوع * وقوله (انه لكم عدوّ مبين) أى ظاهر العداوة ، ومثله قوله تعالى ــ إنه عدوّ مضلّ مبين ــ وقوله ــ ان الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوّا ــ * وقوله (بالسوء) سمى السوء سوءا لأنه يسوء صاحبه بسوء عاقبته ، وهو مصدر ساءه يسوؤه سوءا ومساءة إذا أحزنه * (والفحشاء) أصله سوء المنظر ، ومنه قول الساعر :

* وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش * ثم استعمل فيما يقبح من المعانى ، وقيل السوء : القبيح ، والفحشاء : التجاوز للحدّ فى القبح ، وقيل السوء : مالا حدّ فيه ، والفحشاء : مافيه الحدّ ، وقيل الفحشاء : الزنا ، وقيل ان كل مانهت عنه الشريعة فهو من الفحشاء * وقوله (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) قال ابن جرير الطبرى يريد ماحرّموه من البحيرة والسائبة ونحوهما مما جعلوه شرعا ، وقيل هو قولهم هذا حلال وهذا حرام بغير علم * والظاهر انه يصدق على كل ماقيل فى الشرع بغير علم * وفى هذه الآية دليل على أن كل مالم يرد فيه نص أو ظاهر من الأعيان الموجودة فى الأرض فأصله الحل حتى يرد دليل يقتضى تحريمه ، وأوضح دلالة على ذلك من هذه الآية قوله تعالى ــ هو الذى خلق لكم مافى الأرض ــ * والضمير فى قوله (واذا قيل لهم) راجع إلى الناس ، لأن الكفار منهم وهم المقصودون هنا ، وقيل كفار العرب خاصة ، و (ألفينا) معناه وجدنا ، والألف فى قوله (أولو كان آباؤهم) للاستفهام ، وفتحت الواو لأنها واو العطف ، وفى هذه الآية من الذم للمقلدين ، والنداء بجهلهم الفاحش ، واعتقادهم الفاسد ، مالا يقادر قدره ، ومثل

هذه الآية قوله تعالى ـ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ماأنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا ـ الآية ، وفى ذلك دليل على قبح التقليد ، والمنع منه ، والبحث فى ذلك يطول . وقد أفردته بمؤلف مستقل سميته «القول المفيد . فى حكم التقليد» واستوفيت الكلام فيه فى «أدب الطلب ومنتهى الأرب» *وقوله (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق) فيه تشبيه واعظ الكافرين ، وداعيهم وهو محمد ﷺ بالراعى الذى ينعق بالغنم أو الابل فلا يسمع إلا دعاء ونداء ولا يفهم مايقول هكذا فسره الزجاج والفراء وسيبويه وبه قال جماعة من السلف . قال سيبويه لم يشبهوا بالناعق ، إنما شبهوا بالمنعوق به ، والمعنى مثلك يامحمد ومثل الذين كفروا ، كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التى لاتفهم حذف لدلالة المعنى عليه . وقال قطرب : المعنى مثل الذين كفروا فى دعائهم مالا يفهم ، يعنى الأصنام : كمثل الراعى إذا نعق بغنمه وهو لايدرى أين هى ، وبه قال ابن جرير الطبرى . وقال ابن زيد : المعنى مثل الذين كفروا فى دعائهم الآلهة الجماد كمثل الصائح فى جوف الليل فيجيبه الصدى فهو يصيح بما لايسمع ، ويجيبه مالاحقيقة فيه ، والنعيق زجر الغنم والصياح بها ، يقال نعق الراعى بغنمه ينعق نعيقا ونعاقا ونعقانا أى صاح بها وزجرها ، والعرب تضرب المثل براعى الغنم فى الجهل ويقولون ، أجهل من راعى ضأن * وقوله (صم) وما بعده أخبار لمبتدإ محذوف أى هم صم بكم عمى . وقد تقدم تفسير ذلك .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس . قال تليت هذه الآية عند النبى ﷺ يعنى (ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا) فقام سعد بن أبى وقاص فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة . فقال ياسعد : أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده ان الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه فما يتقبل منه أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) قال عمله . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أنه قال « ماخالف القرآن فهو من خطوات الشيطان » وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد أنه قال خطاه . وأخرجا أيضا عن عكرمة قال : هى نزغات الشيطان . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال هى تزيين الشيطان . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : قال : كل معصية لله فهى من خطوات الشيطان . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال : ما كان من يمين أو نذر فى غضب فهو من خطوات الشيطان ، وكفارته كفارة يمين . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد ابن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه عن ابن مسعود أنه أتى بضرع وملح ، فجعل يأكل فاعتزل رجل من القوم ، فقال ابن مسعود ناولوا صاحبكم : فقال لا أريد ، فقال أصائم أنت ؟ قال لا . قال فما شأنك : قال حرّمت على نفسى أن آكل ضرعا ، فقال ابن مسعود هذا من خطوات الشيطان ، فاطعم وكفر عن يمينك . وأخرج عبد بن حميد عن عثمان بن غياث ، قال سألت جابر بن زيد عن رجل نذر أن يجعل فى أنفه حلقة من ذهب ، فقال هى من خطوات الشيطان ولا يزال عاصيا لله فليكفر عن يمينه . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه جعل يمين من حلف أن يحج حبوا من خطوات الشيطان . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبى مجلز قال هى النذور فى المعاصى . وأخرج ابن جرير عن السدى فى قوله (انما يأمركم بالسوء) قال المعصية (والفحشاء) قال الزنا . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال دعا رسول الله ﷺ اليهود الى الاسلام ، ورغبهم فيه ، وحذرهم عذاب الله ونقمته ، فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف : بل نتبع يامحمد ماوجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أعلم وخيرا منا ، فأنزل الله فى ذلك (وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا)

وأخرج ابن جرير عن الربيع وقتادة فى قوله (ألفينا) قالا وجدنا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ومثل الذين كفروا) الآية . قال كمثل البقر والحمار والشاة ان قلت لبعضهم كلاما لم يعلم ماتقول ، غير أنه يسمع صوتك ، وكذلك الكافر ان أمرته بخير أو نهيته عن شرّ أو وعظته لم يعقل ماتقول غير أنه يسمع صوتك . وروى نحو ذلك عن مجاهد أخرجه عبد بن حميد ، وعن عكرمة أخرجه وكيع وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : قال لى عطاء فى هذه الآية هم اليهود الذين أنزل الله فيهم (ان الذين يكتمون ماأنزل الله من الكتاب) إلى قوله (فما أصبرهم على النار) .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

قوله (كلوا من طيبات مارزقناكم) هذا تأكيد للأمر الأوّل أعنى قوله (ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا) وانما خص المؤمنين هنا لكونهم أفضل أنواع الناس ، قيل والمراد بالأكل الانتفاع ، وقيل المراد به الأكل المعتاد ، وهوالظاهر * قوله (واشكروا لله) قد تقدّم أنه يقال شكره وشكرله يتعدى بنفسه و بالحرف * وقوله (إن كنتم إياه تعبدون) أى تخصونه بالعبادة ، كما يفيده تقدّم المفعول * قوله (إنما حرّم عليكم الميتة) قرأ أبو جعفر (حرّم) على البناء للمفعول * (و إنما) كلمة موضوعة للحصر تثبت ماتناوله الخطاب وتنفى ماعداه . وقد حصرت ههنا التحريم فى الأمور المذكورة بعدها * قوله (الميتة) قرأ ابن أبى عبلة بالرفع ، ووجه ذلك أنه يجعل ما فى إنما موصولة منفصلة فى الخط والميتة ومابعدها خبر الموصول ، وقراءة الجميع بالنصب . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع الميتة بتشديد الياء وقد ذكر أهل اللغة أنه يجوز فى ميت التخفيف والتشديد * والميتة مافارقها الروح من غير ذكاة . وقد خصص هذا العموم بمثل حديث « أحلّ لنا ميتتان ودمان » أخرجه أحمد وابن ماجه والدارقطنى والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا ، ومثل حديث جابر فى العنبر الثابت فى الصحيحين مع قوله تعالى ـ أحلّ لكم صيد البحر ـ فالمراد بالميتة هنا ميتة البر لاميتة البحر . وقد ذهب أكثر أهل العلم الى جواز أكل جميع حيوانات البحر حيها وميتها . وقال بعض أهل العلم انه يحرم من حيوانات البحر مايحرم شبهه فى البر، وتوقف ابن حبيب فى خنزير الماء . وقال ابن القاسم وأنا أتقيه ولا أراه حراما * قوله (والدم) قد اتفق العلماء على أن الدم حرام ، وفى الآية الأخرى ـ أودما مسفوحا ـ فيحمل المطلق على المقيد لان ماخلط باللحم غير محرّم . قال القرطبى بالاجماع . وقد روت عائشة أنها كانت تطبخ اللحم فتعلو الصفرة على البرمة من الدم فيأكل ذلك النبى ﷺ ولا ينكره * قوله (ولحم الخنزير) ظاهر هذه الآية والآية الأخرى أعنى قوله تعالى ـ قل لاأجد فيما أوحى إلىّ محرّما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أودما مسفوحا أولحم خنزير ـ أن المحرّم ، إنما هو اللحم فقط . وقد أجمعت الأمة على تحريم شحمه ، كما حكاه القرطبى فى تفسيره . وقد ذكر جماعة من أهل العلم أن اللحم يدخل تحته الشحم ، وحكى القرطبى الاجماع أيضا على أن جملة الخنزير محرّمة إلا الشعر فانه تجوز الخرازة به * قوله (وماأهلّ به لغير الله) الاهلال رفع الصوت يقال أهلّ بكذا : أى رفع صوته . قال الشاعر يصف فلاة :

تهلّ بالفرقد ركبانها * كما يهلّ الراكب المعتمر

وقال النابغة

أودرة صدفية غواصها * بهج متى يرها يهل ويسجد

ومنه إهلال الصبي ، واستهلاله : وهو صياحه عند ولادته * والمراد هنا ماذكر عليه اسم غير الله كاللات والعزى اذا كان الذابح وثنيا ، والنار اذا كان الذابح مجوسيا * ولا خلاف فى تحريم هذا وأمثاله ، ومثله مايقع من المعتقدين للأموات من الذبح على قبورهم ، فانه مما أهل به لغير الله ولافرق بينه و بين الذبح للوثن * قوله (فمن اضطر) قرئ بضم النون للاتباع و بكسرها على الأصل فى التقاء الساكنين ، وفيه إضمار أى فمن اضطر إلى شيء من هذه المحرمات . وقرأ ابن محيصن بادغام الضاد فى الطاء . وقرأ أبو السماك بكسر الطاء * والمراد من صيره الجوع والعدم الى الاضطرار الى الميتة * قوله (غير باغ) نصب على الحال ، قيل المراد بالباغى من يأكل فوق حاجته ، والعادى من يأكل هذه المحرمات وهو يجد عنها مندوحة ، وقيل غير باغ على المسلمين وعاد عليهم فيدخل فى الباغى والعادى قطاع الطريق والخارج على السلطان وقاطع الرحم ونحوهم ، وقيل المراد غير باغ على مضطر آخر ولاعاد سد الجوعة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (كلوا من طيبات مارزقناكم) قال من الحلال . وأخرج ابن سعد عن عمر بن عبد العزيز أن المراد بما فى الآية طيب الكسب لاطيب الطعام . وأخرج ابن جرير عن الضحاك أنها حلال الرزق . وأخرج أحمد ومسلم والترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «ان الله طيب لايقبل الا طيبا وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال ـ يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم ـ وقال ـ يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم ـ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام فأنى يستجاب له» . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (وما أهل) قال ذبح . وأخرج ابن جرير عنه قال (ما أهل به) للطواغيت . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد . قال ماذبح لغير الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية . قال ماذكر عليه اسم غير الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (غير باغ ولا عاد) يقول من أكل شيئا من هذه وهو مضطر فلا حرج ، ومن أكله وهو غير مضطر فقد بغى واعتدى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (غير باغ) قال فى الميتة ، ولا عاد قال فى الأكل . وأخرج سعيد ابن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (غير باغ ولا عاد) قال غير باغ على المسلمين ، ولا معتد عليهم فمن خرج يقطع الرحم ، أو يقطع السبيل أو يفسد فى الأرض أومفارقا للجماعة والأئمة ، أو خرج فى معصية الله فاضطر إلى الميتة لم تحل له . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير . قال العادى الذى يقطع الطريق * وقوله (فلا إثم عليه) يعنى فى أكله (إن الله غفور رحيم) لمن أكل من الحرام رحيم به إذ أحل له الحرام فى الاضطرار . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة (فمن اضطر غير باغ ولا عاد) غير باغ فى أكله ولا عاد يتعدى الحلال إلى الحرام ، وهو يجد عنه بلغة ومندوحة .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ

بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ *

قوله (إن الذين يكتمون) قيل المراد بهذه الآية علماء اليهود لانهم كتموا ماأنزل الله فى التوراة من صفة محمد ﷺ * والاشتراء هنا الاستبدال . وقدتقدّم تحقيقه ، وسماهقليلا لانقطاع مدّته وسوء عاقبته وهذا السبب وان كان خاصا ، فالاعتبار بعموم اللفظ ، وهو يشمل كل من كتم ماشرعه الله ، وأخذ عليه الرشا ، وذكر البطون دلالة وتأكيدا أن هذا الأكل حقيقة إذ قد يستعمل مجازا فى مثل أكل فلان أرضى ونحوه . وقال فى الكشاف ان معنى (فى بطونهم) ملء بطونهم . قال يقول أكل فلان فى بطنه ، وأكل فى بعض بطنه انتهى * وقوله (إلا النار) أى انه يوجب عليهم عذاب النار ، فسمى ماأكلوه نارا لأنه يؤول بهم اليها ، هكذا قال أكثر المفسرين ، وقيل انهم يعاقبون على كتمانهم بأكل النار فى جهنم حقيقة ، ومثله قوله سبحانه ـ ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا ـ وقوله (ولا يكلمهم الله) فيه كناية عن حلول غضب الله عليهم وعدم الرضا عنهم ، يقال فلان لا يكلم فلانا اذا غضب عليه . وقال ابن جرير الطبرى : المعنى ولا يكلمهم بمايحبونه لابما يكرهونه . كقوله تعالى ـ اخسئوا فيها ولاتكلمون ـ * وقوله (ولا يزكيهم) معناه لايثنى عليهم خيرا . قاله الزجاج ، وقيل معناه : لايصلح أعمالهم الخبيثة فيطهرهم * وقوله (اشتروا الضلالة بالهدى) قد تقدّم تحقيق معناه * وقوله (فما أصبرهم على النار) ذهب الجمهور ومنهم الحسن ومجاهد الى أن معناه التعجب * والمراد تعجيب المخلوقين من حال هؤلاء الذين باشروا الأسباب الموجبة لعذاب النار فكأنهم بهذه المباشرة للأسباب صبروا على العقوبة فى نار جهنم . وحكى الزجاج أن المعنى ما أبقاهم على النار ، من قولهم : ما أصبر فلانا على الحبس ، أى ماأبقاه فيه ، وقيل المعنى ماأقلّ جزعهم من النار ، فجعل قلة الجزع صبرا . وقال الكسائى وقطرب أى ماأدومهم على عمل أهل النار ، وقيل ما استفهامية ، ومعناه التوبيخ ، أى أىّ شىء أصبرهم على عمل النار قاله ابن عباس والسدى وعطاء وأبوعبيدة * (ذلك بأنّ الله نزل الكتاب بالحق) الاشارة باسم الاشارة الى الأمر أى ذلك الأمر وهو العذاب . قاله الزجاج . وقال الأخفش ان خبر اسم الاشارة محذوف والتقدير ذلك معلوم * والمراد بالكتاب هنا القرآن (بالحق) أى بالصدق ، وقيل بالحجة * وقوله (وان الذين اختلفوا فى الكتاب) قيل المراد بالكتاب هنا التوراة فادّعى النصارى أن فيها صفة عيسى وأنكرهم اليهود ، وقيل خالفوا مافى التوراة من صفة محمد ﷺ واختلفوا فيها ، وقيل المراد القرآن ، والذين اختلفوا كفار قريش ، يقول بعضهم هو سحر ، و بعضهم يقول هو أساطير الأوّلين ، و بعضهم يقول غير ذلك . (لفى شقاق) أى خلاف (بعيد) عن الحق ، وقد تقدم معنى الشقاق .

وقد أخرج ابن جرير عن عكرمة فى قوله (ان الذين يكتمون ماأنزل الله) قال نزلت فى يهود . وأخرج ابن جرير عن السدى قال كتموا اسم محمد ﷺ وأخذوا عليه طمعا قليلا . وأخرج ابن جرير أيضا عن أبى العالية نحوه . وأخرج الثعلبى عن ابن عباس بسندين ضعيفين أنها نزلت فى اليهود . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) قال اختاروا الضلالة على الهدى والعذاب على المغفرة (فما أصبرهم على النار) قال ماأجرأهم على عمل النار . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (فما أصبرهم على النار) قال ماأعملهم بأعمال أهل النار . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر فى قوله (ما أصبرهم على النار) قال والله مالهم عليها من صبر ولكن يقول ماأجرأهم على النار . وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج

ابن جرير أيضا عن السدى فى الآية قال هذا على وجه الاستفهام يقول : ما الذى أصبرهم على النار * وقوله (وان الذين اختلفوا فى الكتاب) قال هم اليهود والنصارى (لفى شقاق بعيد) قال فى عداوة بعيدة .

لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّينَ وَآتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّائِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَآتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ *

قوله (ليس البرّ) قرأ حمزة وحفص بالنصب على أنه خبر ليس والاسم (أن تولو) وقرأ الباقون بالرفع على أنه الاسم ، قيل ان هذه الآية نزلت للردّ على اليهود والنصارى ، لما أكثروا الكلام فى شأن القبلة عند تحويل رسول الله ﷺ إلى الكعبة ، وقيل ان سبب نزولها أنه سأل رسول الله سائل ، وسيأتى ذلك آخر البحث إن شاء الله * وقوله (قبل المشرق والمغرب) قيل أشار سبحانه بذكر المشرق إلى قبلة النصارى لأنهم يستقبلون مطلع الشمس ، وأشار بذكر المغرب إلى قبلة اليهود ، لأنهم يستقبلون بيت المقدس ، وهو فى جهة الغرب منهم إذ ذاك * وقوله (ولكن البرّ) هو اسم جامع للخير ، وخبره محذوف تقديره برّ من آمن . قاله الفراء وقطرب والزجاج ، وقيل ان التقدير ، ولكن ذو البرّ من آمن ، ووجه هذا التقدير الفرار عن الاخبار باسم العين عن اسم المعنى ، ويجوز أن يكون البرّ بمعنى البار ، وهو يطلق المصدر على اسم الفاعل كثيرا ، ومنه فى التنزيل ــ ان أصبح ماؤكم غورا ــ أى غائرا وهذا اختيار أبى عبيدة * والمراد بالكتاب هنا الجنس أو القرآن ، والضمير فى قوله (على حبه) راجع إلى المال ، وقيل راجع إلى الايتاء المدلول عليه بقوله (وآتى المال) وقيل انه راجع إلى الله سبحانه أى على حب الله ، والمعنى على الأوّل أنه أعطى المال وهو يحبه ويشح به ، ومنه قوله تعالى ــ لن تنال البرّ حتى تنفقوا مما تحبون ــ والمعنى على الثانى أنه يحب إيتاء المال وتطيب به نفسه ، والمعنى على الثالث أنه أعطى من تضمنته الآية فى حب الله عز وجل لا لغرض آخر ، وهو مثل قوله ــ ويطعمون الطعام على حبه ــ ومثله قول زهير

* ان الكريم على علاته هرم * وقدّم ذوى القربى لكون دفع المال إليهم صدقة وصلة اذا كانوا فقراء ، وهكذا اليتامى الفقراء أولى بالصدقة من الفقراء الذين ليسوا بيتامى ، لعدم قدرتهم على الكسب * والمسكين الساكن الى مافى أيدى الناس ، لكونه لايجد شيئا * (وابن السبيل) المسافر المنقطع وجعل ابنا للسبيل لملازمته له * وقوله (وفى الرقاب) أى فى معاونة الأرقاء الذين كاتبهم المالكون لهم ، وقيل المراد شراء الرقاب و إعتاقها ، وقيل المراد فك الأسارى * وقوله (وآتى الزكاة) فيه دليل على أن الايتاء المتقدم هو صدقة التطوّع ، لاصدقة الفريضة * وقوله (والموفون) قيل هو معطوف على من آمن ، كأنه قيل ، ولكنّ البرّ المؤمنون والموفون . قاله الفراء والأخفش ، وقيل هو مرفوع على الابتداء ، والخبر محذوف ، وقيل هو خبر لمبتدإ محذوف ، أى هم الموفون ، وقيل انه معطوف على الضمير فى آمن ، وأنكره أبو على وقال ليس المعنى عليه * وقوله (والصابرين) منصوب على المدح ، كقوله تعالى ــ والمقيمين الصلاة ــ ، ومنه ماأنشده أبو عبيدة :

لايبعدن قومى الذين هم * سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معركة * والطيبين معاقد الأزر

وقال

وقال الكسائى هو معطوف على ذوى القربى كأنه قال وآتى الصابرين . وقال النحاس انه خطأ . قال الكسائى وفى قراءة عبد الله والموفين والصابرين . قال النحاس يكونان على هذه القراءة منسوقين على ذوى القربى أوعلى المدح . وقرأ يعقوب والأعمش (والموفون والصابرون) بالرفع فيهما * (والبأساء) الشدة والفقر * (والضراء) المرض والزمانة (وحين البأس) قيل المراد وقت الحرب ، والبأساء والضراء اسمان بنيا على فعلاء ولافعل لهما لأنهما اسمان وليسا بنعت * وقوله (صدقوا) وصفهم بالصدق والتقوى فى أمورهم والوفاء بها وأنهم كانوا جادّين ، وقيل المراد صدقوهم القتال ، والأول أولى .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وصححه عن أبى ذرّ أنه . سأل رسول الله ﷺ عن الايمان فتلا (ليس البر أن تولوا وجوهكم) حتى فرغ منها ، ثم سأله أيضا فتلاها ، ثم سأله فتلاها . قال واذا عملت بحسنة أحبها قلبك ، واذا عملت بسيئة أبغضها قلبك . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن القاسم بن عبد الرحمن قال جاء رجل الى أبى ذرّ ، فقال ماالايمان ؟ فتلا عليه هذه الآية ، ثم ذكر له نحو الحديث السابق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى هذه الآية قال يقول ليس البر أن تصلوا ولاتعملوا هذا حين تحوّل من مكة إلى المدينة وأنزلت الفرائض . وأخرج عنه ابن جرير أنه قال هذه الآية نزلت بالمدينة ، يقول ليس البر أن تصلوا ، ولكن البر ماثبت فى القلب من طاعة الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال ذكر لنا أن رجلا سأل النبى ﷺ عن البر ، فأنزل الله (ليس البر) الآية وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة قال كانت اليهود تصلى قبل المغرب ، والنصارى قبل المشرق ، فنزلت (ليس البر) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية مثله . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن مسعود فى قوله (وآتى المال على حبه) قال يعطى وهو صحيح شحيح ، يأمل العيش ، ويخاف الفقر . وأخرج عنه مرفوعا مثله . وأخرج البيهقى فى الشعب عن المطلب أنه قيل يارسول ما آتى المال على حبه فكلنا نحبه . قال رسول الله ﷺ تؤتيه حين تؤتيه ونفسك تحدثك بطول العمر والفقر . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (وآتى المال على حبه) يعنى على حب المال . وأخرج عنه أيضا فى قوله (ذوى القربى) يعنى قرابته . وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم ثنتان صدقة وصلة » أخرجه ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه والحاكم والبيهقى فى سننه من حديث سلمان بن عامر الضبى ، وفى الصحيحين وغيرهما من حديث زينب امرأة ابن مسعود أنها سألت رسول الله ﷺ هل تجزى عنها من الصدقة النفقة على زوجها وأيتام فى حجرها ، فقال لك أجران أجر الصدقة وأجر القرابة ، وأخرج الطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه من حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول « أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح » وأخرج أحمد والدارمى والطبرانى من حديث حكيم بن حزام عن النبى ﷺ نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال هو الذى يمرّ بك وهو مسافر . وأخرج ابن جرير عن عكرمة فى قوله (والسائلين) قال السائل الذى يسألك . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (وفى الرقاب) قال يعنى فك الرقاب . وأخرج أيضا عنه فى قوله (وأقام الصلاة) يعنى وأتمّ الصلاة المكتوبة (وآتى الزكاة) يعنى الزكاة المفروضة . وأخرج الترمذى وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عدى والدارقطنى وابن مردويه عن فاطمة بنت قيس قالت قال رسول الله ﷺ

« فى المال حق سوى الزكاة » ثم قرأ (ليس البر أن تولوا وجوهكم) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله (والموفون بعهدهم) قال فمن أعطى عهد الله ثم نقضه فالله ينتقم منه ، ومن أعطى ذمة النبى ﷺ ثم غدر بها فالنبى ﷺ خصمه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (والموفون بعهدهم اذا عاهدوا) يعنى فيما بينهم و بين الناس . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن مسعود فى الآية قال (البأساء) الفقر (والضراء) السقم (وحين البأس) حين القتال . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (أولئك الذين صدقوا) قال فعلوا ماذكر الله فى هذه الآية . وأخرج ابن جرير عن الربيع فى قوله (أولئك الذين صدقوا) قال تكلموا بكلام الايمان ، فكانت حقيقته العمل صدقوا الله ، قال وكان الحسن يقول هذا كلام الايمان وحقيقته العمل ، فان لم يكن مع القول عمل فلا شىء .

يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنْثَىٰ بِٱلْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *

قوله (كتب) معناه فرض وأثبت ، ومنه قول عمر بن أبى ربيعة :

كتب القتل والقتال علينا * وعلى الغانيات جر الذيول

وهذا إخبار من الله سبحانه لعباده بأنه شرع لهم ذلك ، وقيل ان كتب هنا إشارة إلى ماجرى به القلم فى اللوح المحفوظ * (والقصاص) أصله قص الأثر أى اتباعه ، ومنه القاص لأنه يتتبع الآثار ، وقص الشعر اتباع أثره ، فكأن القاتل يسلك طريقا من القتل ، يقص أثره فيها ، ومنه قوله تعالى ــ فارتدا على آثارهما قصصا ــ وقيل إن القصاص مأخوذ من القص ، وهو القطع ، يقال قصصت مابينهما أى قطعته . وقد استدل بهذه الآية القائلون بأن الحر لايقتل بالعبد وهم الجمهور ، وذهب أبو حنيفة وأصحابه والثورى وابن أبى ليلى وداود إلى أنه يقتل به . قال القرطبى ، وروى ذلك عن على وابن مسعود ، وبه قال سعيد بن المسيب وابراهيم النخعى وقتادة والحكم بن عتيبة . واستدلوا بقوله تعالى ــ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ــ وأجاب الأوّلون عن هذا الاستدلال بأن قوله تعالى (الحر بالحر والعبد بالعبد) مفسر لقوله تعالى ــ النفس بالنفس ــ وقالوا أيضا إن قوله ــ وكتبنا عليهم فيها ــ يفيد أن ذلك حكاية عما شرعه الله لبنى اسرائيل فى التوراة ، ومن جملة مااستدل به الآخرون قوله ﷺ « المسلمون تتكافأ دماؤهم » ويجاب عنه بأنه مجمل ، والآية مبينة ، ولكنه يقال ان قوله تعالى (الحر بالحر والعبد بالعبد) إنما أفاد بمنطوقه أن الحر يقتل بالحر ، والعبد يقتل بالعبد ، وليس فيه مايدل على أن الحر لايقتل بالعبد إلا باعتبار المفهوم ، فمن أخذ بمثل هذا المفهوم لزمه القول به هنا ، ومن لم يأخذ بمثل هذا المفهوم لم يلزمه القول به هنا ، والبحث فى هذا محرّر فى علم الأصول . وقد استدل بهذه الآية القائلون بأن المسلم يقتل بالكافر وهم الكوفيون والثورى لان الحر يتناول الكافر ، كما يتناول المسلم ، وكذا العبد والأنثى يتناولان الكافر ، كما يتناولان المسلم ، واستدلوا أيضا بقوله تعالى ــ أن النفس بالنفس ــ لان النفس تصدق على النفس الكافرة ، كما تصدق على النفس المسلمة ، وذهب الجمهور إلى أنه لايقتل المسلم بالكافر ، واستدلوا بما ورد من السنة عن النبى ﷺ أنه لايقتل مسلم بكافر ، وهو مبين لما يراد فى الآيتين ، والبحث فى هذا يطول ، واستدل بهذه الآية

القائلون بأن الذكر لايقتل بالأنثى ، وقرروا الدلالة على ذلك بمثل ماسبق الا إذا سلم أولياء المرأة الزيادة على ديتها من دية الرجل ، وبه قال مالك والشافعى وأحمد واسحاق والثورى وأبو ثور . وذهب الجمهور إلى أنه يقتل الرجل بالمرأة ولا زيادة ، وهو الحق . وقد بسطنا البحث فى شرح المنتقى ، فليرجع إليه * قوله (فمن عفى له من أخيه شىء) من هنا عبارة عن القاتل * والمراد بالأخ المقتول أو الولىّ * والشىء عبارة عن الدم ، والمعنى : أن القاتل أو الجانى إذا عفى له من جهة المجنى عليه أو الولىّ دم أصابه منه على أن يأخذ منه شيئا من الدية أو الارش ، فليتبع المجنىّ عليه الولى من عليه الدم فيما يأخذه منه من ذلك اتباعا بالمعروف ، وليؤدّ الجانى مالزمه من الدية أو الارش إلى المجنىّ عليه ، أو الى الولى أداء باحسان ، وقيل ان من عبارة عن الولى والأخ يراد به القاتل ، والشىء الدية ، والمعنى : أن الولى إذا جنح إلى العفو عن القصاص إلى مقابل الدية فان القاتل مخير بين أن يعطيها أو يسلم نفسه للقصاص : كما روى عن مالك أنه يثبت الخيار للقاتل فى ذلك ، وذهب من عداه إلى أنه لايخير ، بل إذا رضى الأولياء بالدية فلا خيار للقاتل ، بل يلزمه تسليمها ، وقيل معنى عفى بذل ، أى من بذل له شىء من الدية ، فليقبل وليتبع بالمعروف ، وقيل ان المراد بذلك أن من فضل له من الطائفتين على الأخرى شىء من الديات ، فيكون عفى بمعنى فضل ، وعلى جميع التقادير فتنكير شىء للتقليل ، فيتناول العفو عن الشىء اليسير من الدية ، والعفو الصادر عن فرد من أفراد الورثة * وقوله (فاتباع) مرتفع بفعل محذوف ، أى فليكن منه اتباع ، أو على انه خبر مبتدا محذوف ، أى فالأمر اتباع وكذا قوله (وأداء إليه باحسان) * وقوله (ذلك تخفيف) إشارة إلى العفو والدية أى ان الله شرع لهذه الأمة العفو من غير عوض أو بعوض ، ولم يضيق عليهم ، كما ضيق على اليهود ، فانه أوجب عليهم القصاص ، ولا عفو ، وكما ضيق على النصارى ، فانه أوجب عليهم العفو ولادية * قوله (فمن اعتدى بعد ذلك ذلك) أى بعد التخفيف ، نحو أن يأخذ الدية ثم يقتل القاتل ، أو يعفو ثم يستقص . وقد اختلف أهل العلم ، فيمن قتل القاتل بعد أخذ الدية . فقال جماعة منهم مالك والشافعى انه كمن قتل ابتداء ، ان شاء الولىّ قتله ، وان شاء عفا عنه . وقال قتادة وعكرمة والسدى وغيرهم عذابه أن يقتل ألبتة ، ولا يمكن الحاكم الولىّ من العفو . وقال الحسن عذابه أن يرد الدية فقط ، ويبقى اثمه إلى عذاب الآخرة . وقال عمر ابن عبد العزيز أمره إلى الامام يصنع فيه مارأى * قوله (ولكم فى القصاص حياة) أى لكم فى هذا الحكم الذى شرعه الله لكم حياة ، لان الرجل إذا علم أنه يقتل قصاصا اذا قتل آخر كف عن القتل وانزجر عن التسرع إليه والوقوع فيه ، فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الانسانية ، وهذا نوع من البلاغة بليغ ، وجنس من الفصاحة رفيع ، فانه جعل القصاص الذى هو موت حياة باعتبار مايؤول اليه من ارتداع الناس عن قتل بعضهم بعضا ، إبقاء على أنفسهم ، واستدامة لحياتهم ، وجعل هذا الخطاب موجها إلى أولى الألباب ، لأنهم هم الذين ينظرون فى العواقب ويتحامون مافيه الضرر الآجل ، وأما من كان مصابا بالحمق والطيش والخفة ، فانه لاينظر عند سورة غضبه وغليان مراجل طيشه إلى عاقبة ولا يفكر فى أمر مستقبل كما قال بعض فتاكهم :

سأغسل عنى العار بالسيف جالبا * علىّ قضاء الله ما كان جالبا

ثم علل سبحانه هذا الحكم الذى شرعه لعباده بقوله (لعلكم تتقون) أى تتحامون القتل بالمحافظة على القصاص ، فيكون ذلك سببا للتقوى . وقرأ أبو الجوزاء (ولكم فى القَصَص حياة) قيل أراد بالقصص القرآن : أى لكم فى كتاب الله الذى شرع فيه القصاص حياة : أى نجاة ، وقيل أراد حياة القلوب ، وقيل هو مصدر بمعنى القصاص ، والكل ضعيف ، والقراءة به منكرة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير . قال ان حيين من العرب اقتتلوا فى الجاهلية قبل الاسلام بقليل ، فكان بينهم قتل وجراحات حتى قتلوا العبيد والنساء ، ولم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر فى العدة والأموال فحلفوا أن لا يرضوا ، حتى يقتل بالعبد منا الحرّ منهم ، وبالمرأة منا الرجل منهم ، فنزلت هذه الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الشعبى نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة ، ولكن يقتلون الرجل بالرجل ، والمرأة بالمرأة ، فأنزل الله ـ النفس بالنفس ـ فجعل الأحرار فى القصاص سواء فيما بينهم فى العمد رجالهم ونساءهم فى النفس وفيما دون النفس ، وجعل العبيد مستوين فى العمد فى النفس وفيما دون النفس رجالهم ونساءهم . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبى مالك قال كان بين حيين من الأنصار قتال كان لأحدهما على الآخر الطول فكأنهم طلبوا الفضل ، فجاء النبى ﷺ ليصلح بينهم ، فنزلت هذه الآية (الحرّ بالحرّ والعبد والعبد والأنثى بالأنثى) قال ابن عباس فنسختها ـ النفس بالنفس ـ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس (فمن عفى له) قال هو العمد رضى أهله بالعفو * (فاتباع بالمعروف) أمر به الطالب (وأداء إليه باحسان) من القابل ، قال يؤدى المطلوب باحسان * (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) مما كان على بنى إسرائيل . وأخرج نحوه ابن أبى حاتم عنه من وجه آخر . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال كان فى بنى إسرائيل القصاص ولم تكن الدية فيهم ، فقال الله لهذه الأمة (كتب عليكم القصاص فى القتلى) إلى قوله (فمن عفى له من أخيه شىء) فالعفو أن تقبل الدية فى العمد (فاتباع بالمعروف وأداء إليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) مما كتب على من كان قبلكم (فمن اعتدى بعد ذلك) قيل بعد قبول الدية (فله عذاب أليم) . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال كان أهل التوراة إنما هو القصاص أو العفو ليس بينهما أرش ، وكان أهل الانجيل إنما هو العفو أمروا به ، وجعل الله لهذه الأمة القتل والعفو والدية إن شاءوا أحلها لهم ، ولم تكن لأمة قبلهم . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وأحمد وابن أبى حاتم والبيهقى عن أبى شريح الخزاعى أن النبى ﷺ قال « من أصيب بقتل أو خبل فانه يختار إحدى ثلاث إما أن يقتص وإما أن يعفو ، وإما أن يأخذ الدية ، فان أراد الرابعة فخذوا على يديه ، ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالدا فيها أبدا » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة أنه اذا قتل بعد أخذ الدية فله عذاب عظيم قال فعليه القتل لا تقبل منه الدية . قال وذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال « لا أعافى رجلا قتل بعد أخذه الدية » وأخرج سمولة فى فوائده عن سمرة قال قال رسول الله ﷺ فذكر مثله . وأخرج ابن أبى شيبة عن عكرمة أنه قال يقتل . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة فى قوله (ولكم فى القصاص حياة) قال جعل الله فى القصاص حياة ونكالا وعظة إذا ذكره الظالم المعتدى كف عن القتل . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله (لعلكم تتقون) قال لعلك تتقى أن تقتله فتقتل به . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير فى قوله (ياأولى الألباب) قال من كان له لب يذكر القصاص فيحجزه خوف القصاص عن القتل (لعلكم تتقون) قال لكى تتقوا الدماء مخافة القصاص .

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ * فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ *

قد تقدّم معنى (كتب) قريبا ، وحضور الموت حضور أسبابه ، وظهور علاماته ، ومنه قول عنترة :

وان الموت طوع يدى إذا ما * وصلت بنانها بالهندوانى

وقال جرير

أنا الموت الذى حدّثت عنه * فليس لهارب منى نجاة

وانما لم يؤنث الفعل المسند إلى الوصية ، وهو كتب لوجود الفاصل بينهما ، وقيل لأنها بمعنى الايصاء وقد روى جواز إسناد مالا تأنيث فيه إلى المؤنث مع عدم الفصل . وقد حكى سيبويه ، قام امرأة وهو خلاف ماأطبق عليه أئمة العربية ، وشرط سبحانه ماكتبه من الوصية بأن يترك الموصى خيرا ، واختلف فى جواب هذا الشرط ماهو فروى عن الأخفش وجهان * أحدهما أن التقدير ان ترك خيرا فالوصية ثم حذفت الفاء كما قال الشاعر :

من يفعل الحسنات الله يشكرها * والشر بالشر عند الله مثلان

والثانى أن جوابه مقدّر قبله أى كتب الوصية للوالدين والأقربين ان ترك خيرا ، واختلف أهل العلم فى مقدار الخير ، فقيل مازاد على سبعمائة دينار ، وقيل ألف دينار ، وقيل مازاد على خمسمائة دينار ، والوصية فى الأصل عبارة عن الأمر بالشىء والعهد به فى الحياة و بعد الموت ، وهى هنا عبارة عن الأمر بالشىء لبعد الموت . وقد اتفق أهل العلم على وجوب الوصية على من عليه دين أو عنده وديعة أو نحوها ، وأما من لم يكن كذلك فذهب أكثرهم إلى أنها غير واجبة عليه سواء كان فقيرا أو غنيا ، وقالت طائفة انها واجبة ، ولم يبين الله سبحانه هاهنا القدر الذى كتب الوصية به للوالدين والأقربين ، فقيل الخمس ، وقيل الربع ، وقيل الثلث . وقد اختلف أهل العلم فى هذه الآية : هل هى محكمة أو منسوخة ، فذهب جماعة إلى أنها محكمة ، قالوا وهى وان كانت عامة فمعناها الخصوص * والمراد بها من الوالدين من لايرث كالأبوين الكافرين ، ومن هو فى الرق ، ومن الأقربين من عدا الورثة منهم . قال ابن المنذر أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أن الوصية للوالدين اللذين لايرثان والأقرباء الذين لايرثون جائزة . وقال كثير من أهل العلم انها منسوخة بآية المواريث مع قوله ﷺ « لاوصية لوارث » وهو حديث صححه بعض أهل الحديث ، وروى من غير وجه . وقال بعض أهل العلم انه نسخ الوجوب ونفى الندب ، وروى عن الشعبى والنخعى ومالك * قوله (بالمعروف) أى لعدل لاوكس فيه ولا شطط . وقد أذن الله للميت بالثلث دون مازاد عليه * وقوله (حقا) مصدر معناه الثبوت والوجوب * قوله (فمن بدّله) هذا الضمير عائد الى الايصاء المفهوم من الوصية ، وكذلك الضمير فى قوله (سمعه) والتبديل : التغيير ، والضمير فى قوله (فانما إثمه) راجع إلى التبديل المفهوم من قوله (بدّله) ، وهذا وعيد لمن غير الوصية المطابقة للحق التى لاجنف فيها ولا مضارة ، وأنه يبوء بالاثم ، وليس على الموصى من ذلك شىء ، فقد تخلص مما كان عليه بالوصية به . قال القرطبى ولاخلاف انه إذا أوصى بما لايجوز ، مثل أن يوصى بخمر أو خنزير أو شىء من المعاصى أنه يجوز تبديله ، ولايجوز إمضاؤه كما لايجوز إمضاء مازاد على الثلث . قاله أبو عمر انتهى * والجنف المجاوزة ، من جنف يجنف إذا جاوز . قاله النحاس ، وقيل الجنف الميل ، ومنه قول الأعشى :

تجانف عن حجر اليمامة ياقتى * وما قصدت من أهلها لسوائكا

قال فى الصحاح الجنف : الميل ، وكذا فى الكشاف . وقال لبيد :

انى امرؤ منعت أرومة عامر * ضيمى وقد جنفت علىّ خصوم

وقوله (فأصلح بينهم) أى أصلح ماوقع بين الورثة من الشقاق والاضطراب بسبب الوصية بابطال مافيه

ضرار ومخالفة لما شرعه الله ، وإثبات ماهو حق كالوصية فى قربة لغير وارث ، والضمير فى قوله (بينهم) راجع إلى الورثة ، وان لم يتقدّم لهم ذكر ، لأنه قد عرف أنهم المرادون من السياق ، وقيل راجع الى الموصى لهم ، وهم الأبوان والقرابة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (إن ترك خيرا) قال مالا . وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس . قال من لم يترك ستين دينارا لم يترك خيرا . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقى فى سننه عن عروة أن علىّ بن أبى طالب دخل على مولى لهم فى الموت وله سبعمائة درهم أو ستمائة درهم فقال ألا أوصى ، قال لا انما قال الله (ان ترك خيرا) وليس لك كثير مال فدع مالك لورثتك . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر والبيهقى عن عائشة أن رجلا قال لها أريد أن أوصى قالت كم مالك ؟ قال ثلاثة آلاف ، قالت كم عيالك ؟ قال أربعة ، قالت : قال الله (إن ترك خيرا) وان هذا شىء يسير فاتركه لعيالك فهو أفضل . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والبيهقى عن ابن عباس قال إذا ترك الميت سبعمائة درهم فلا يوصى . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن الزهرى . قال جعل الله الوصية حقا مما قلّ منه ، ومما كثر . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال قال رسول الله ﷺ وذكر حديثا وفيه « انظر قرابتك الذين يحتاجون ولايرثون فأوص لهم من مالك بالمعروف » وأخرجا أيضا عن طاوس . قال من أوصى لقوم وسماهم وترك ذوى قرابته محتاجين انتزعت منهم وردت على قرابته . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود فى الناسخ وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن محمد بن بشير عن ابن عباس قال نسخت هذه الآية . وأخرج عنه من وجه آخر أبو داود فى ناسخه وابن المنذر وابن أبى حاتم أن هذه الآية نسخها قوله تعالى ــ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ــ الآية . وأخرج عنه من وجه آخر ابن جرير وابن أبى حاتم أنها منسوخة بآية الميراث . وأخرج عنه أبو داود فى سننه والبيهقى مثله . وأخرج ابن جرير عنه أنه قال فى الآية نسخ من يرث ، ولم ينسخ الأقربين الذين لايرثون . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن عمر ، أنه قال هذه الآية نسختها آية الميراث . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فمن بدّله) الآية . قال وقد وقع أجر الموصى على الله وبرئ من إثمه ، وقال فى قوله (جنفا) يعنى إثما (فأصلح بينهم) قال اذا أخطأ الميت فى وصيته أوحاف فيها فليس على الأولياء حرج أن يردوا خطأه إلى الصواب . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه لكنه فسر الجنف بالميل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (جنفا أو إثما) قال خطأ أوعمدا . وأخرج سعيد بن منصور والبيهقى فى سننه عنه . قال الجنف فى الوصية والاضرار فيها من الكبائر .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ *

قد تقدّم معنى (كتب) ، ولاخلاف بين المسلمين أجمعين أن صوم رمضان فريضة افترضها الله سبحانه على هذه الأمة * والصيام أصله فى اللغة الامساك وترك التنقل من حال الى حال ، ويقال للصمت صوم

لأنه إمساك عن الكلام ، ومنه ـ إنى نذرت للرحمن صوما ـ أى إمساكا عن الكلام ، ومنه قول النابغة :

خيل صيام وخيل غير صائمة * تحت العجاج وخيل تعلك اللجما

أى خيل ممسكة عن الجرى والحركة * وهو فى الشرع الامساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس * وقوله (كما كتب) أى صوما كما كتب على أن الكاف فى موضع نصب على النعت ، أو كتب عليكم الصيام مشبها ما كتب على انه فى محل نصب على الحال . وقال بعض النحاة ان الكاف فى موضع رفع نعتا للصيام ، وهو ضعيف لأن الصيام معرّف باللام ، والضمير المستتر فى قوله (كما كتب) راجع إلى ما ، واختلف المفسرون فى وجه التشبيه ماهو ، فقيل هو قدر الصوم ووقته ، فان الله كتب على اليهود والنصارى صوم رمضان فغيروا ، وقيل هو الوجوب ، فان الله أوجب على الأمم الصيام ، وقيل هو الصفة أى ترك الأكل والشرب ونحوهما فى وقت ، فعلى الأوّل معناه ان الله كتب على هذه الأمة صوم رمضان كما كتبه على الذين من قبلهم ، وعلى الثانى : أن الله أوجب على هذه الأمة الصيام كما أوجبه على الذين من قبلهم ، وعلى الثالث : أن الله سبحانه أوجب على هذه الأمة الامساك عن المفطرات كما أوجبه على الذين من قبلهم * وقوله تعالى (لعلكم تتقون) بالمحافظة عليها ، وقيل تتقون المعاصى بسبب هذه العبادة ، لانها تكسر الشهوة وتضعف دواعى المعاصى ، كما ورد فى الحديث انه جنة وانه وجاء * وقوله (أياما) منتصب على انه مفعول ثان لقوله (كتب) قاله الفراء ، وقيل انه منتصب على أنه ظرف ، أى كتب عليكم الصيام فى أيام * وقوله (معدودات) أى معينات بعدد معلوم ، ويحتمل أن يكون فى هذا الجمع لكونه من جموع القلة إشارة إلى تقليل الأيام * وقوله (فمن كان منكم مريضا) قيل للمريض حالتان ، ان كان لايطيق الصوم ، كان الافطار عزيمة وان كان يطيقه مع تضرر ومشقة كان رخصة ، وبهذا قال الجمهور * وقوله (على سفر) اختلف أهل العلم فى السفر المبيح للافطار ، فقيل مسافة قصر الصلاة ، والخلاف فى قدرها معروف ، وبه قال الجمهور وقال غيرهم بمقادير لادليل عليها * والحق أن ماصدق عليه مسمى السفر فهو الذى يباح عنده الفطر ، وهكذا ماصدق عليه مسمى المرض فهو الذى يباح عنده الفطر . وقد وقع الاجماع على الفطر فى سفر الطاعة ، واختلفوا فى الأسفار المباحة ، والحق أن الرخصة ثابتة فيه ، وكذا اختلفوا فى سفر المعصية * وقوله (فعدّة) أى فعليه عدّة أو فالحكم عدّة ، أو فالواجب عدّة ، والعدّة فعلة من العدد ، وهو بمعنى المعدود * وقوله (من أيام أخر) قال سيبويه ولم ينصرف ، لانه معدول به عن الآخر ، لان سبيل هذا الباب أن يأتى بالألف واللام . وقال الكسائى هو معدول به عن آخر ، وقيل انه جمع أخرى ، وليس فى الآية مايدل على وجوب التتابع فى القضاء * قوله (وعلى الذين يطيقونه) قراءة الجمهور بكسر الطاء وسكون الياء ، وأصله يطوقونه نقلت الكسرة إلى الطاء ، وانقلبت الواو ياء لانكسار ماقبلها . وقرأ حميد على الأصل من غير إعلال . وقرأ ابن عباس بفتح الطاء مخففة وتشديد الواو ، أى يكلفونه . وروى ابن الانبارى عن ابن عباس يطيقونه بفتح الياء وتشديد الطاء والياء مفتوحتين بمعنى يطيقونه . وروى عن عائشة وابن عباس وعمرو بن دينار وطاوس أنهم قرءوا يطوّقونه بفتح الياء وتشديد الطاء مفتوحة . وقرأ أهل المدينة والشام (فدية طعام) مضافا . وقرءوا أيضا (مساكين) وقرأ ابن عباس (طعام مسكين) وهى قراءة أبى عمرو وعاصم وحمزة والكسائى . وقد اختلف أهل العلم فى هذه الآية ، هل هى محكمة أو منسوخة ، فقيل انها منسوخة ، وانما كانت رخصة عند ابتداء فرض الصيام ، لانه شق عليهم ، فكان من أطعم كل يوم مسكينا ترك الصوم وهو يطيقه ، ثم نسخ ذلك ، وهذا قول الجمهور . وروى عن بعض أهل العلم أنها

لم تنسخ ، وانها رخصة للشيوخ والعجائز خاصة اذا كانوا لايطيقون الصيام الا بمشقة ، وهـذا يناسب قراءة التشديد أى يكلفونه ، كما مر ، والناسخ لهذه الآية عند الجمهور قوله تعالى (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) . وقد اختلفوا فى مقدار الفدية ، فقيل كل يوم صاع من غير البر ، ونصف صاع منه ، وقيل مدّ فقط * وقوله (فمن تطوّع خيرا فهو خير له) . قل ابن شهاب معناه من أراد الاطعام مع الصوم . وقال مجاهد معناه من زاد فى الاطعام على المدّ ، وقيـل من أطعم مع المسكين مسكينا آخر . وقرأ عيسى بن عمرو ويحى بن وثاب وحمزة والكسائى يطوّع مشدّدا مع جزم الفعل على معنى يتطوّع ، وقرأ الباقون بتخفيف الطاء على أنه فعل ماض * وقوله (وأن تصوموا خير لكم) معناه أن الصيام خير لهم من الافطار مع الفدية ، وكان هذا قبل النسخ ، وقيل معناه ، وأن تصوموا فى السفر والمرض غير الشاق .

وقدأخرج أحمد وأبوداود وابن جرير وابن المنذر وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن معاذ ابن جبل ، قال أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال ، وأحيل الصيام ثلاثة أحوال ، فذكر أحوال الصلاة ثم قل وأما أحوال الصيام ، فان رسول الله ﷺ قدم المدينة ، فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، وصام عاشوراء : ثم ان الله سبحانه فرض عليه الصيام وأنزل عليـه (ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) إلى قوله (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) فـكان من شاء صام ، ومن شاء أطعم مسكينا فأجزأ ذلك عنه ، ثم ان الله أنزل الآية الأخرى (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) فأثبت الله صيامه على الصحيح المقيم ، ورخص فيه للمريض والمسافر ، وثبت الاطعام للكبير الذى لايستطيع الصيام ، ثم ذكر تمام الحديث وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (كما كتب على الذين من قبلكم) قال يعنى بذلك أهل الكتاب . وأخرج البخارى فى تاريخه والطبرانى عن دغفل بن حنظلة عن النبى ﷺ قال كان على النصارى صوم شهر رمضان فمرض ملكهم ، فقالوا لئن شفاه الله لنزيدنّ عشرا ، ثم كان آخر فأكل لحما فأوجع فوه ، فقال لئن شفاه الله ليزيدنّ سبعة ، ثم كان عليهم ملك آخر ، فقال ماندع من هـذه الثلاثة الأيام شيئا أن نتمها ونجعل صومنا فى الربيع ، ففعل فصارت خمسين يوما . وأخرج ابن جرير عن السدى فى قوله (لعلكم تتقون) قل تتقون من الطعام والشراب والنساء مثل مااتقوا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس نحو ماسبق عن معاذ . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر ، قال قل رسول الله ﷺ صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم . وأخرج البخارى ومسلم عن عائشة قالت كان عاشوراء صياما ، فلما أنزل رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر . وأخرج عبـد بن حميد أن ابن عباس قال ان قوله تعالى (وعلى الذين يطيقونه) قد نسخت . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه نحو ذلك وزاد ان الناسخ لها قوله تعالى (فمن شهد منكم الشهر) الآية . وأخرج نحو ذلك عنه أبوداود فى ناسخه وأخرج نحوه عنـه أيضا سعد بن منصور وعبدبن حميد وأبوداود وابن جرير وابن المنذر وغيرهم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث سلمة بن الأكوع ، قال لما نزلت هذه الآية (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) كان من شاء صام ، ومن شاء أن يفطر و يفتدى فعل حتى نزلت هذه الآية بعدها فنسختها (فمن شهد منكم الشهر) . وأخرج البخارى عن ابن أبى ليلى . قال حدّثنا أصحاب محمد ، فذكر نحوه وأخرج ابن جرير عن على بن أبى طالب فى قوله (وعلى الذين يطيقونه) قال الشيخ الكبير الذى لايستطيع الصوم فيفطر و يطعم مكان كل يوم مسكينا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبـد بن حميد والدارقطنى والبيهقى أن أنس بن مالك ضعف عن الصوم عاما قبل موته ، فصنع جفنة من ثريد ، ودعا ثلاثين مسكينا فأطعمهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والدارقطنى وصححه عن ابن عباس أنه قل لأم ولد له حامل أو مرضعة

أنت بمنزلة الذين لايطيقون الصيام عليك الطعام لاقضاء عليك . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم والدارقطنى عن ابن عمر أن إحدى بناته أرسلت تسأله عن صوم رمضان وهى حامل ، قال تفطر وتطعم كل يوم مسكينا . وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة فى قوله (فمن تطوّع خيرا) قال أطعم مسكينين . وأخرج عبد بن حميد عن طاوس فى قوله (فمن تطوّع خيرا) قال إطعام مساكين . وأخرج ابن جرير عن ابن شهاب فى قوله (وأن تصوموا خير لكم) أى ان الصوم خير لكم من الفدية . وقد ورد فى فضل الصوم أحاديث كثيرة جدّا .

شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلْهُدَى وَٱلْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ✻

(رمضان) مأخوذ من رمض الصائم يرمض اذا احترق جوفه من شدّة العطش ، والرمضاء ممدود : شدّة الحر ، ومنه الحديث الثابت فى الصحيح « صلاة الأوّابين اذا رمضت الفصال » : أى أحرقت الرمضاء أجوافها . قال الجوهرى ، وشهر رمضان يجمع على رمضانات وأرمضاء ، يقال انهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التى وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام الحر ، فسمى بذلك ، وقيل انما سمى رمضان لأنه يرمض الذنوب ، أى يحرقها بالأعمال الصالحة . وقال الماوردى ان اسمه فى الجاهلية ناتق ، وأنشد المفضل :

وفى ناتق أجلت لدى حومة الوغا ✻ وولت على الأدبار فرسان خثعما

وانما سموه بذلك لأنه كان ينتقهم لشدّته عليهم ، وشهر مرتفع فى قراءة الجماعة على أن مبتدا خبره (الذى أنزل فيه القرآن) أو على أنه خبر لمبتدا محذوف أى المفروض عليكم صومه شهر رمضان ، ويجوز أن يكون بدلا من الصيام المذكور فى قوله تعالى (كتب عليكم الصيام) . وقرأ مجاهد وشهر بن حوشب بنصب الشهر ، ورواها هارون الأعور عن أبى عمرو وهو منتصب بتقدير الزموا أو صوموا . قال الكسائى والفراء انه منصوب بتقدير فعل (كتب عليكم الصيام ✻ وأن تصوموا) وأنكر ذلك النحاس وقال انه منصوب على الاغراء . وقال الأخفش انه نصب على الظرف ، ومنع الصرف للألف والنون الزائدتين ✻ قوله (أنزل فيه القرآن) قيل أنزل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، ثم كان جبريل ينزل به نجما نجما . وقيل أنزل فيه أوّله ، وقيل أنزل فى شأنه القرآن ، وهذه الآية أعم من قوله تعالى ـ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ـ ✻ وقوله ـ انا أنزلناه فى ليلة مباركة ـ يعنى ليلة القدر ✻ والقرآن اسم لكلام الله تعالى ، وهو بمعنى المقروء كالمشروب سمى شرابا ، والمكتوب سمى كتابا ، وقيل هو مصدر قرأ يقرأ ، ومنه قول الشاعر :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به ✻ يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

أى قراءة ، ومنه قوله تعالى ـ وقرآن الفجر ـ أى قراءة الفجر ✻ وقوله (هدى للناس) منتصب على الحال ، أى هاديا لهم ✻ قوله (وبينات من الهدى) من عطف الخاص على العام اظهارا لشرف المعطوف بافراده بالذكر ، لأن القرآن يشمل محكمه ومتشابهه ، والبينات تختص بالمحكم منه ✻ والفرقان مافرق بين الحق والباطل ، أى فصل ✻ قوله (فمن شهد منكم الشهر) أى حضر ولم يكن فى سفر بل كان مقيما ، والشهر منتصب على أنه ظرف ، ولا يصح أن يكون مفعولا به . قال جماعة من السلف والخلف ان من

أدركه شهر رمضان مقيما غير مسافر لزمه صيامه ، سافر بعد ذلك أو أقام استدلالا بهذه الآية . وقال الجمهور انه اذا سافر أفطر ، لأن معنى الآية ان حضر الشهر من أوّله إلى آخره لا إذا حضر بعضه وسافر فانه لا يتحتم عليه الاصوم ماحضره ، وهذا هو الحق ، وعليه دلت الأدلة لصحيحة من السنة . وقد كان يخرج ﷺ فى رمضان فيفطر * وقوله (فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) قد تقدّم تفسيره * وقوله (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) فيه أن هذا مقصد من مقاصد الرب سبحانه ، ومراد من مراداته فى جميع أمور الدين ، ومثله قوله تعالى - وما جعل عليكم فى الدين من حرج - وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه كان يرشد إلى التيسير وينهى عن التعسير كقوله ﷺ « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا » وهو فى الصحيح * واليسر : السهل الذى لا عسر فيه * وقوله (ولتكملوا العدّة) الظاهر أنه معطوف على قوله (يريد الله بكم اليسر) أى يريد بكم اليسر ، ويريد إكمالكم للعدّة وتكبيركم ، وقيل انه متعلق بمحذوف تقديره : رخص لكم هذه الرخصة لتكملوا العدّة ، وشرع لكم الصوم لمن شهد الشهر لتكملوا العدّة . وقد ذهب الى الأوّل البصريون . قالوا والتقدير يريد لأن تكملوا العدّة ، ومثله قول كثير بن صخر :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما * تمثل لى ليلا بكل سبيل

وذهب الكوفيون الى الثانى ، وقيل الواو مقحمة ، وقيل ان هذه اللام لام الأمر والواو لعطف الجملة التى بعدها على الجملة التى قبلها . وقال فى الكشاف ان قوله (لتكملوا العدّة) علة للأمر بمراعاة العدّة (ولتكبروا) علة ماعلم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر (ولعلكم تشكرون) علة الترخيص والتيسير ، والمراد بالتكبير هنا هو قول القائل الله أكبر . قال الجمهور ومعناه الحض على التكبير فى آخر رمضان وقد وقع الخلاف فى وقته ، فروى عن بعض السلف أنهم كانوا يكبرون ليلة الفطر ، وقيل اذا رأوا هلال شوّال كبروا الى انقضاء الخطبة ، وقيل الى خروج الامام ، وقيل هو التكبير يوم الفطر . قال مالك هو من حين يخرج من داره الى أن يخرج الامام ، وبه قال الشافعى . وقال أبو حنيفة يكبر فى الأضحى ولا يكبر فى الفطر * وقوله (ولعلكم تشكرون) قد تقدّم تفسيره .

وقد أخرج أبو حاتم وأبو الشيخ وابن عدى والبيهقى فى سننه عن أبى هريرة مرفوعا وموقوفا « لا تقولوا رمضان فان رمضان اسم من أسماء الله تعالى ، ولكن قولوا شهر رمضان » . وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال « من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ماتقدّم من ذنبه » وثبت عنه أنه قال « من قام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ماتقدّم من ذنبه » وثبت عنه أنه قال « شهرا عيد لا ينقصان رمضان وذوالحجة » وقال « اذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة » وهذا كله فى الصحيح ، وثبت عنه فى أحاديث كثيرة غير هذه أنه كان يقول رمضان بدون ذكر الشهر . وأخرج ابن مردويه والاصبهانى فى الترغيب عن أنس قال قال رسول الله ﷺ « انما سمى رمضان لأن رمضان يرمض الذنوب » . وأخرجا أيضا عن عائشة مرفوعا نحوه . وأخرج ابن عساكر فى تاريخه عن ابن عمر نحوه . وقد ورد فى فضل رمضان أحاديث كثيرة وأخرج أحمد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن أبى حاتم والطبرانى والبيهقى فى الشعب عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال « أنزلت صحف ابراهيم فى أوّل ليلة من رمضان ، وأنزل الزبور لثمانى عشرة خلت من رمضان ، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان » . وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن جابر مثله ، لكنه قال « وأنزل الزبور لأثنى عشر ، وزاد وأنزل التوراة لست خلون من رمضان ، وأنزل الانجيل لثمانى عشرة خلت من رمضان » . وأخرج محمد بن نصر عن عائشة نحو قول جابر الا أنها لم تذكر

نزول القرآن . وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي فى الأسماء والصفات عن مقسم ، قال سأل عطية بن الأسود ابن عباس . فقال انه قد وقع فى قلبي الشك فى قول الله (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) * وقوله ـ انا أنزلناه فى ليلة القدر ـ * وقوله ـ انا أنزلناه فى ليلة مباركة ـ فقال ابن عباس انه أنزل فى ليلة القدر وفى رمضان و ـ فى ليلة مباركة ـ جملة واحدة ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رسلا فى الشهور والأيام . وأخرج محمد بن نصر والطبراني وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي والضياء فى المختارة عن ابن عباس ، قال نزل القرآن جملة لأربعة وعشرين من رمضان فوضع فى بيت العزة فى السماء الدنيا ، فجعل جبريل ينزله على رسول الله ﷺ ترتيلا . وأخرج ابن جرير عنه أنه قال « ليلة القدر هى الليلة المباركة وهى فى رمضان أنزل القرآن جملة واحدة من الذكر الى البيت المعمور » . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله (هدى للناس) قال يهتدون به (وبينات من الهدى) قال فيه الحلال والحرام والحدود . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس فى قوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) قال هو اهلاله بالدار . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن عليّ قال : من أدرك رمضان وهو مقيم ثم سافر فقد لزمه الصوم لأن الله يقول (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) . وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عمر نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس فى قوله (يريد الله بكم اليسر) قال اليسر : الافطار فى السفر ، والعسر : الصوم فى السفر وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع فى قوله (ولتكملوا العدّة) قال عدّة شهر رمضان . وأخرج ابن جرير عن الضحاك أنه قال عدّة ماأفطر المريض فى السفر . وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فان غمّ عليكم فأكملوا العدّة ثلاثين يوما » . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال حق على الصائمين اذا نظروا الى شهر شوّال أن يكبروا الله حتى يفرغوا من عيدهم ، لأن الله يقول (ولتكملوا العدّة ولتكبروا الله على ماهداكم) . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة عن ابن مسعود أنه كان يكبر : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد . وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي فى سننه عن ابن عباس أنه كان يكبر : الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا الله أكبر ولله الحمد وأجلّ ، الله أكبر على ماهدانا .

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ *

قوله (وإذا سألك عبادى عنى) يحتمل أن السؤال عن القرب والبعد ، كما يدل عليه * قوله (فانى قريب) ويحتمل أن السؤال عن إجابة الدعاء ، كما يدل على ذلك * قوله (أجيب دعوة الدّاع) ويحتمل أن السؤال عما هو أعمّ من ذلك ، وهذا هو الظاهر مع قطع النظر عن السبب الذى سيأتى بيانه * وقوله (فانى قريب) قيل بالأجابة ، وقيل بالعلم ، وقيل بالانعام . وقال فى الكشاف انه تمثيل لحاله فى سهولة إجابته لمن دعاه ، وسرعة انجاحه حاجة من سأله بمن قرب مكانه ، فاذا دعى أسرعت تلبيته ، ومعنى الأجابة هو معنى مافى قوله تعالى ـ ادعونى أستجب لكم ـ وقيل معناه أقبل عبادة من عبدنى بالدعاء لما ثبت عنه ﷺ من أن الدعاء هو العبادة ، كما أخرجه أبو داود وغيره من حديث النعمان بن بشير ، والظاهر أن الأجابة هنا هى باقية على معناها اللغوى ، وكون الدعاء من العبادة لايستلزم أن الأجابة هى القبول للدّعاء ، أى جعله عبادة متقبلة ، فالاجابة أمر آخر غير قبول هذه العبادة * والمراد

أنه سبحانه يجيب بما شاء وكيف شاء ، فقد يحصل المطلوب قريبا ، وقد يحصل بعيدا . وقد يدفع عن الداعى من البلاء مالا يعلمه بسبب دعائه ، وهذا مقيد بعدم اعتداء الداعى فى دعائه ، كما فى قوله سبحانه ـ ادعوا ربكم تضرّعا وخفية إنه لايحب المعتدين ـ ومن الاعتداء أن يطلب مالا يستحقه ولا يصلح له كمن يطلب منزلة فى الجنة مساوية لمنزلة الأنبياء أو فوقها * وقوله (فليستجيبوا لى) أى كما أجبتهم إذا دعونى فليستجيبوا لى فيما دعوتهم إليه من الايمان والطاعات ، وقيل معناه أنهم يطلبون إجابة الله سبحانه لدعائهم باستجابتهم له ، أى القيام بما أمرهم به ، والترك لما نهاهم عنه * والرشد خلاف الغىّ ، رشد يرشد رشدا ورشدا . قال الهروى : الرشدوالرشد ، والرشاد : الهدى والاستقامة . قال ومنه هذه الآية .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق الصلت بن حكيم عن رجل من الأنصار عن أبيه عن جدّه . قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فسكت النبى ﷺ فنزلت هذه الآية . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن الحسن قال سأل أصحاب النبى ﷺ أين ربنا ؟ فأنزل الله هذه الآية . وأخرج ابن مردويه عن أنس أنه سأل أعرابىّ النبى ﷺ أين ربنا ؟ فنزلت . وأخرج ابن عساكر فى تاريخه عن علىّ قال قال رسول الله ﷺ « لاتعجزوا عن الدعاء فان الله أنزل علىّ ـ ادعونى أستجب لكم ـ » فقال رجل يارسول الله ربنا يسمع الدعاء أم كيف ذلك ؟ فأنزل الله هذه الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطاء أنه بلغه أنه لما نزلت ـ ادعونى أستجب لكم ـ قالوا لو نعلم أىّ ساعة ندعو فنزلت . وقد ثبت فى الصحيح من حديث أبى سعيد أن النبى ﷺ قال « مامن مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها احدى ثلاث خصال ، إما أن يعجل له دعوته ، و إما أن يدخر له فى الآخرة ، و إما أن يصرف عنه من السوء مثلها » . وثبت فى الصحيح أيضا من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « يستجاب لأحدكم مالم يعجل ، يقول دعوت فلم يستجب لى » . وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس فى قوله (فليستجيبوا لى) قال ليدعونى (وليؤمنوا بى) أى انهم إذا دعونى استجبت لهم . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال (فليستجيبوا لى) أى فليطيعونى . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الربيع بن أنس فى قوله (لعلهم يرشدون) قال يهتدون .

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ *

قوله (أحل لكم) فيه دلالة على أن هذا الذى أحله الله كان حراما عليهم ، وهكذا كان كما يفيده السبب لنزول الآية وسيأتى * والرفث كناية عن الجماع . قال الزجاج الرفث : كلمة جامعة لكل مايريد الرجل من امرأته ، وكذا قال الأزهرى ، ومنه قول الشاعر :

ويرين من أنس الحديث زوانيا * وبهنّ عن رفث الرجال نفار

وقيل

وقيل الرفث أصله قول الفحش ، رفث وأرفث : اذا تكلم بالقبيح ، وليس هو المراد هنا ، وعدّى الرفث بالى لتضمينه معنى الامضاء ، وجعل النساء لباسا للرجال ، والرجال لباسا لهنّ لامتزاج كل واحد منهما بالآخر عند الجماع كالامتزاج الذى يكون بين الثوب ولابسه . قال أبو عبيدة وغيره ، يقال للمرأة لباس وفراش و إزار ، وقيل انما جعل كل واحد منهما لباسا للآخر ، لأنه يستره عند الجماع عن أعين الناس * وقوله (تختانون أنفسكم) أى تخونونها بالمباشرة فى ليالى الصوم ، يقال خان واختان بمعنى وهما من الخيانة . قال القتيبى : أصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شىء فلا يؤدّى الأمانة فيه انتهى . وانما سماهم خائنين لأنفسهم لأن ضرر ذلك عائد عليهم * وقوله (فتاب عليكم) يحتمل معنيين ، أحدهما قبول التوبة من خيانتهم لأنفسهم ، والآخر التخفيف عنهم بالرخصة والاباحة كقوله ــ علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ــ يعنى خفف عنكم ، وكقوله ــ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ــ يعنى تخفيفا ، وهكذا قوله (وعفا عنكم) يحتمل العفو من الذنب ، ويحتمل التوسعة والتسهيل * وقوله (وابتغوا) قيل هو الولد ، أى ابتغوا بمباشرة نسائكم حصول ماهو معظم المقصود من النكاح وهو حصول النسل . وقيل المراد ابتغوا القرآن بما أبيح لكم فيه . قاله الزجاج وغيره ، وقيل ابتغوا الرخصة والتوسعة ، وقيل ابتغوا ما كتب لكم من الاماء والزوجات ، وقيل غير ذلك مما لا يفيده النظم القرآنى ، ولا دل عليه دليل آخر ، وقرأ الحسن البصرى ، واتبعوا بالعين المهملة من الاتباع * وقوله (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) هو تشبيه بليغ * والمراد هنا بالخيط الأبيض : هو المعترض فى الأفق ، لا الذى هو كذنب السرحان فانه الفجر الكذاب الذى لا يحل شيئا ولا يحرمه * والمراد بالخيط الأسود : سواد الليل ، والتبين : أن يمتاز أحدهما عن الآخر ، وذلك لا يكون الا عند دخول وقت الفجر * وقوله (ثم أتموا الصيام الى الليل) فيه التصريح بأن للصوم غاية هى الليل ، فعند إقبال الليل من المشرق و إدبار النهار من المغرب يفطر الصائم ويحلّ له الأكل والشرب وغيرهما * وقوله (ولا تباشروهنّ وأنتم عاكفون فى المساجد) قيل المراد بالمباشرة هنا الجماع ، وقيل تشمل التقبيل واللمس اذا كانا لشهوة لا اذا كانا لغير شهوة فهما جائزان كما قاله عطاء والشافعى وابن المنذر وغيرهم ، وعلى هذا يحتمل ماحكاه ابن عبد البر من الاجماع على أن المعتكف لا يباشر ولا يقبل ، فتكون هذه الحكاية للاجماع مقيدة بأن يكونا لشهوة ، والاعتكاف فى اللغة الملازمة ، يقال عكف على الشىء اذا لازمه ، ومنه قول الشاعر :

وظل بنات الليل حولى عكفا * عكوف البواكى حولهنّ صريع

ولما كان المعتكف يلازم المسجد قيل له عاكف فى المسجد ومعتكف فيه ، لانه يحبس نفسه لهذه العبادة فى المسجد ، والاعتكاف فى الشرع ملازمة طاعة مخصوصة على شرط مخصوص . وقد وقع الاجماع على أنه ليس بواجب وعلى أنه لا يكون الا فى مسجد ، وللاعتكاف أحكام مستوفاة فى كتب الفقه وشروح الحديث * وقوله (تلك حدود الله) أى هذه الأحكام حدود الله ، وأصل الحدّ المنع ، ومنه سمى البوّاب والسجان حدادا ، وسميت الأوامر والنواهى حدود الله لأنها تمنع أن يدخل فيها ماليس منها ، وأن يخرج عنها ماهو منها ، ومن ذلك سميت الحدود حدودا لأنها تمنع أصحابها من العود ، ومعنى النهى عن قربانها النهى عن تعدّيها بالمخالفة لها ، وقيل ان حدود الله هى محارمه فقط ، ومنها المباشرة من المعتكف والافطار فى رمضان لغير عذر وغير ذلك مما سبق النهى عنه ، ومعنى النهى عن قربانها على هذا واضح * وقوله ــ كذلك يبين الله آياته) أى كما بين لكم هذه الحدود يبين لكم العلامات الهادية الى الحق وقد أخرج البخارى وأبو داود والنسائى وغيرهم عن البراء بن عازب . قال كان أصحاب رسول الله

ﷺ إذا كان الرجل صائما فحضر الافطار ، فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسى وان قيس بن صرمة الأنصارى كان صائما ، فكان يومه ذلك يعمل فى أرضه ، فلما حضر الافطار أتى امرأته فقال هل عندك طعام ؟ قالت لا ولكن أنطلق فأطلب لك ، فغلبته عينه فنام وجاءت امرأته ، فلما رأته نائما قالت خيبة لك أنمت ؟ فلما انتصف النهار غشى عليه فذكر ذلك للنبى ﷺ فنزلت هذه الآية (أحلّ لكم ليلة الصيام) إلى قوله (من الفجر) ففرحوا بها فرحا شديدا . وأخرج البخارى أيضا من حديثه . قال لما نزل صوم شهر رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله ، فكان رجال يخونون أنفسهم ، فأنزل الله (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) الآية . وقد روى فى بيان سبب نزول هذه الآية أحاديث عن جماعة من الصحابة نحو ما قاله البراء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال كان الناس أوّل ما أسلموا : إذا صام أحدهم يصوم يومه حتى إذا أمسى طعم من الطعام ، ثم قال وان عمر بن الخطاب أتى امرأته ، ثم أتى رسول الله فقال يارسول انى أعتذر إلى الله و إليك من نفسى ، وذكر ماوقع منه ، فنزل قوله تعالى (أحلّ لكم ليلة الصيام) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه . قال ان المسلمين كانوا فى شهر رمضان ، إذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام والشراب إلى مثلها من القابلة ، ثم ان ناسا من المسلمين أصابوا النساء والطعام فى رمضان بعد العشاء ، منهم عمر بن الخطاب فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله (أحلّ لكم ليلة الصيام) الآية . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس . قل الرفث : الجماع . وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر مثله . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى فى سننه عن ابن عباس . قال الدخول والتغشى والافضاء والمباشرة والرفث واللمس والمس هذا الجماع غير أن الله حيى كريم يكنى بما شاء عما شاء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله (هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ) قال هنّ سكن لكم وأنتم سكن لهنّ . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (تختانون أنفسكم) قال : تظلمون أنفسكم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (فالآن باشروهنّ) قال : انكحوهنّ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (وابتغوا ما كتب الله لكم) قال الولد . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد وقتادة والضحاك مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى (وابتغوا ما كتب الله لكم) قال : ليلة القدر . وأخرج البخارى فى تاريخه عن أنس مثله . وأخرج عبد الرزاق عن قتادة قال (وابتغوا) الرخصة التى كتب الله لكم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد . قال أنزلت (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) ولم ينزل (من الفجر) فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود ، فلا يزال يأكل و يشرب حتى يتبين له رؤيتهما ، فأنزل الله (من الفجر) فعلموا أنه يعنى : الليل والنهار . وفى الصحيحين وغيرهما عن عدى بن حاتم ، أنه جعل تحت وساده خيطين أبيض وأسود ، وجعل ينظر إليهما فلا يتبين له الأبيض من الأسود فغدا على رسول الله ﷺ فأخبره فقال ان وسادك إذا لعريض ، إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل . وفى رواية فى البخارى وغيره ، أنه قل له إنك لعريض القفا وفى رواية عند ابن جرير وابن أبى حاتم أنه ضحك منه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن الضحاك . قال كانوا يجامعون وهم معتكفون حتى نزلت (ولا تباشروهنّ وأنتم عاكفون فى المساجد) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير عن الربيع نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد

وابن المنذر عن ابن عباس قال « اذا جامع المعتكف بطل اعتكافه و يستأنف » . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (تلك حدود الله) قال يعنى طاعة الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك قال (حدود الله) معصية الله : يعنى المباشرة فى الاعتكاف . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل أنها الجماع . . وأخرج أيضا عن سعيد بن جبير فى قوله (كذلك) يعنى هكذا يبين الله .

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ *

هذا يعم جميع الأمة وجميع الأموال لايخرج عن ذلك الا ماورد دليل الشرع بأنه يجوز أخذه ، فانه مأخوذ بالحق لابالباطل ، ومأكول بالحل لابالاثم ، وان كان صاحبه كارها كقضاء الدين اذا امتنع منه من هو عليه ، وتسليم ماأوجبه الله من الزكاة ونحوها ، ونفقه من أوجب الشرع نفقته * والحاصل أن مالم يبح الشرع أخذه من مالكه ، فهو مأكول بالباطل وان طابت به نفس مالكه : كمهر البغى ، وحلوان الكاهن ، وثمن الخمر * والباطل فى اللغة : الذاهب الزائل * وقوله (وتدلوا) مجزوم عطفا على تأكلوا فهو من جملة المنهى عنه ، يقال أدلى الرجل بحجته أو بالأمر الذى يرجو النجاح به تشبيها بالذى يرسل الدلو فى البئر ، يقال أدلى دلوه : أرسلها ، والمعنى أنكم لاتجمعوا بين أكل الأموال بالباطل و بين الادلاء بها الى الحكام بالحجج الباطلة ، وفى هذه الآية دليل أن حكم الحاكم لايحلل الحرام ولا يحرم الحلال من غير فرق بين الأموال والفروج ، فمن حكم له القاضى بشىء مستندا فى حكمه الى شهادة زور أو يمين فجور فلا يحل له أكله ، فان ذلك من أكل أموال الناس بالباطل ، وهكذا اذا أرشى الحاكم فحكم له بغير الحق فانه من أكل أموال الناس بالباطل ، ولاخلاف بين أهل العلم ان حكم الحاكم لايحلل الحرام ولايحرم الحلال . وقد روى عن أبى حنيفة مايخالف ذلك ، وهو مردود لكتاب الله تعالى ولسنة رسول الله ﷺ كما فى حديث أم سلمة قالت قال رسول الله ﷺ « انكم تختصمون الى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ماأسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه بشىء فلا يأخذه فانما أقطع له قطعة من النار ، وهو فى الصحيحين وغيرهما * وقوله (فريقا) أى قطعة أو جزءا أو طائفة ، فعبر بالفريق عن ذلك ، وأصل الفريق : القطعة من الغنم تشذ عن معظمها . وقيل فى الكلام تقديم وتأخير والتقدير لتأكلوا أموال فريق من الناس بالاثم ، وسمى الظلم والعدوان اثما باعتبار تعلقه بفاعله * وقوله (وأنتم تعلمون) أى حال كونكم عالمين أن ذلك باطل ليس من الحق فى شىء ، وهذا أشد لعقابهم وأعظم لجرمهم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولا تأكلوا أموالكم) الآية ، قال هذا فى الرجل يكون عليه مال وليس عليه بينة فيجحد المال ويخاصم الى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه . وروى سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن مجاهد قال معناها لاتخاصم وأنت تعلم أنك ظالم . وأخرج ابن المنذر عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير أن امرأ القيس ابن عابس وعبدان بن أشوع الحضرمى اختصما فى أرض ، وأراد امرؤ القيس أن يحلف ، فنزلت (ولا تأكلوا أموالكم) الآية .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا

وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *

قوله (يسألونك) سيأتي بيان من هم السائلون له ﷺ ، والأهلة جمع هلال ، وجمعها باعتبار هلال كل شهر ، أوكل ليلة ، تنزيلا لاختلاف الأوقات منزلة اختلاف الذوات ، والهلال اسم لما يبدو فى أول الشهر وفى آخره . قال الأصمعى هو هلال حتى يستدير ، وقيل هو هلال حتى ينير بضوئه السماء وذلك ليلة السابع ، وانما قيل له هلال لان الناس يرفعون أصواتهم بالاخبار عنه عند رؤيته ، ومنه استهلّ الصبى : إذا صاح ، واستهلّ وجهه ، وتهلل : إذا ظهر فيه السرور * قوله (قل هى مواقيت للناس والحج) فيه بيان وجه الحكمة فى زيادة الهلال ونقصانه ، وأن ذلك لأجل بيان المواقيت التى يوقت الناس عباداتهم ومعاملاتهم بها كالصوم والفطر والحج ومدّة الحمل والعدّة والاجارات والأيمان وغير ذلك ، ومثله قوله تعالى — لتعلموا عدد السنين والحساب — *والمواقيت جمع الميقات ، وهو الوقت . وقراءة الجمهور : والحج بفتح الحاء . وقرأ ابن أبى اسحاق بكسرها فى جميع القرآن . قال سيبويه : الحج بالفتح كالردّ والشدّ ، وبالكسر كالذكر مصدران بمعنى ، وقيل بالفتح مصدر ، وبالكسر الاسم ، وإنما أفرد سبحانه الحج بالذكر لانه مما يحتاج فيه الى معرفة الوقت ، ولا يجوز فيه النسىء عن وقته ، ولعظم المشقة على من التبس عليه وقت مناسكه أو أخطأ وقتها أو وقت بعضها . وقد جعل بعض علماء المعانى هذا الجواب ، أعنى قوله (قل هى مواقيت) من الأسلوب الحكيم ، وهو تلقى المخاطب بغير ما يترقب ، تنبيها على أنه الأولى بالقصد ، ووجه ذلك أنهم سألوا عن أجرام الأهلة باعتبار زيادتها ونقصانها ، فأجيبوا بالحكمة التى كانت تلك الزيادة والنقصان لأجلها لكون ذلك أولى بأن يقصد السائل ، وأحق بأن يتطلع لعلمه * قوله (وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها) وجه اتصال هذا بالسؤال عن الأهلة والجواب بأنها مواقيت للناس والحج أن الأنصار كانوا اذا حجوا لايدخلون من أبواب بيوتهم ، اذا رجع أحدهم الى بيته بعد إحرامه قبل تمام حجه ، لانهم يعتقدون أن المحرم لايجوز أن يحول بينه وبين السماء حائل وكانوا يتسنمون ظهور بيوتهم . وقال أبوعبيدة ان هذا من ضرب المثل ، والمعنى ليس البرّ أن تسألوا الجهال ، ولكن البرّ التقوى واسألوا العلماء ، كما تقول : أتيت هذا الأمر من بابه ، وقيل هو مثل فى جماع النساء ، وأنهم أمروا باتيانهنّ فى القبل لافى الدبر ، وقيل غير ذلك * والبيوت جمع بيت ، وقرئ بضم الباء وكسرها . وقد تقدّم تفسير التقوى والفلاح ، وسبق أيضا أن التقدير فى مثل قوله (ولكن البرّ من اتقى) ولكن البرّ برّ من اتقى

وقد أخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس فى قوله تعالى (يسألونك عن الأهلة) قال نزلت فى معاذ بن جبل وثعلبة بن غنمة ، وهما رجلان من الأنصار قالا يارسول الله مابال الهلال يبدو ويطلع دقيقا مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ، ثم لايزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حال واحد ؟ فنزلت (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس) فى حلّ دينهم ولصومهم ولفطرهم وعدد نسائهم والشروط التى الى أجل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة . قال سألوا النبى ﷺ عن الأهلة لم جعلت ؟ فأنزل الله (يسألونك عن الأهلة) الآية ، فجعلها لصوم المسلمين ولافطارهم ولمناسكهم وحجهم وعدد نسائهم ومحل دينهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية نحوه . وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس نحوه . وقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ « جعل الله الأهلة مواقيت للناس فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فان غمّ عليكم فعدّوا ثلاثين يوما » . وأخرج أحمد والطبرانى

وابن

ii.192,193. iii.91: ix.9: xxii.28.

وابن عدى والدارقطنى بسند ضعيف عن طلق بن على . قال قال رسول الله ﷺ فذكر نحو حديث ابن عمر . وأخرج البخارى وغيره عن البراء قال كانوا اذا أحرموا فى الجاهلية أتوا البيوت من ظهورها فنزلت (وليس البر) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن جابر قال كانت قريش تدعى الحمس ، وكانوا يدخلون من الأبواب فى الاحرام ، وكانت الأنصار وسائر العرب لايدخلون من باب فى الاحرام فبينا رسول الله ﷺ فى بستان اذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصارى ، فقالوا يارسول الله ان قطبة بن عامر رجل فاجر ، وانه خرج معك من الباب فقال له ماحملك على ماصنعت ؟ قال رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت ، فقال انى رجل أحمسى ، قال فان دينى دينك ، فأنزل الله الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه . وقد ورد هذا المعنى عن جماعة من الصحابة والتابعين .

وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ * وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ * فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلهِ فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّالِمِينَ *

لاخلاف بين أهل العلم أن القتال كان ممنوعا قبل الهجرة لقوله تعالى ـ فاعف عنهم واصفح ـ * وقوله ـ واهجرهم هجرا جميلا ـ * وقوله ـ لست عليهم بمسيطر ـ * وقوله ـ ادفع بالتى هى أحسن ـ ونحو ذلك مما نزل بمكة ، فلما هاجر الى المدينة أمره الله سبحانه بالقتال ، ونزلت هذه الآية ، وقيل ان أوّل مانزل قوله تعالى ـ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ـ فلما نزلت الآية كان ﷺ يقاتل من قاتله ، ويكف عمن كف عنه حتى نزل قوله تعالى ـ اقتلوا المشركين ـ * وقوله تعالى ـ وقاتلوا المشركين كافة ـ وقال جماعة من السلف ان المراد بقوله (الذين يقاتلونكم) من عدا النساء والصبيان والرهبان ونحوهم ، وجعلوا هذه الآية محكمة غير منسوخة ، والمراد بالاعتداء عند أهل القول الأوّل هو مقاتلة من يقاتل من الطوائف الكفرية * والمراد به على القول الثانى مجاوزة قتل من يستحق القتل الى قتل من لايستحقه ممن تقدّم ذكره * قوله (حيث ثقفتموهم) يقال ثقف يثقف ثقفا ، ورجل ثقيف اذا كان محكما لما يتناوله من الأمور . قال فى الكشاف ، والثقف وجود على وجه الأخذ والغلبة ، ومنه رجل ثقف : سريع الأخذ لأقرانه انتهى ، ومنه قول حسان :

فاما يثقفنّ بنى لؤى * جذيمة ان قتلهم دواء

قوله (وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) أى مكة . قال ابن جرير الخطاب للمهاجرين ، والضمير لكفار قريش انتهى . وقد امتثل رسول الله ﷺ أمر ربه ، فأخرج من مكة من لم يسلم عند أن فتحها الله عليه * قوله (والفتنة أشدّ من القتل) أى الفتنة التى أرادوا أن يفتنوكم ، وهى رجوعكم الى الكفر أشدّ من القتل ، وقيل المراد بالفتنة المحنة التى تنزل بالانسان فى نفسه أو أهله أو ماله أو عرضه ، وقيل ان المراد بالفتنة : الشرك الذى عليه المشركون ، لأنهم كانوا يستعظمون القتل فى الحرم ، فأخبرهم الله أن الشرك الذى هم عليه أشدّ مما يستعظمونه ، وقيل المراد فتنتهم اياكم بصدّكم عن المسجد الحرام أشدّ من قتلكم اياهم فى الحرم أو من قتلهم اياكم ان قتلوكم * والظاهر أن المراد الفتنة فى الدين بأى سبب كان ،

وعلى أىّ صورة اتفقت ، فانها أشدّ من القتل * قوله (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام) الآية ، اختلف أهل العلم فى ذلك ، فذهبت طائفة الى أنها محكمة وأنه لايجوز القتال فى الحرم الابعد أن يتعدى بالقتال فيه فانه يجوز دفعه بالمقاتلة له ، وهذا هو الحق . وقالت طائفة ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى ــ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ــ ويجاب عن هذا الاستدلال بأن الجمع ممكن ببناء العام على الخاص ، فيقتل المشرك حيث وجد الا بالحرم ، ومما يؤيد ذلك قوله ﷺ « انها لم تحل لأحد قبلى وانما أحلت لى ساعة من نهار » وهو فى الصحيح . وقد احتج القائلون بالنسخ بقتله ﷺ لابن خطل ، وهو متعلق بأستار الكعبة ، ويجاب عنه بأنه وقع فى تلك الساعة التى أحلّ الله لرسوله ﷺ * قوله (فان انتهوا) أى عن قتالكم ودخلوا فى الاسلام * قوله (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة) فيه الأمر بمقاتلة المشركين الى غاية هى أن لاتكون فتنة وأن يكون الدين لله ، وهو الدخول فى الاسلام ، والخروج عن سائر الأديان المخالفة له ، فمن دخل فى الاسلام وأقلع عن الشرك لم يحل قتاله ، قيل المراد بالفتنة هنا الشرك ، والظاهر أنها الفتنة فى الدين على عمومها كما سلف * قوله (فلا عدوان إلا على الظالمين) أى لاتعتدوا الا على من ظلم وهو من لم ينته عن الفتنة ، ولم يدخل فى الاسلام ، وانما سمى جزاء الظالمين عدوانا مشاكلة كقوله تعالى ــ وجزاء سيئة سيئة مثلها ــ * وقوله (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله تعالى (وقاتلوا فى سبيل الله) الآية أنها أوّل آية نزلت فى القتال بالمدينة فلما نزلت كان رسول الله يقاتل من قاتله ، ويكف عمن كف عنه ، حتى نزلت سورة براءة . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد فى هذه الآية قال ان أصحاب محمد أمروا بقتال الكفار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولا تعتدوا) يقول لاتقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير ولا من ألقى السلم وكفّ يده ، فان فعلتم فقد اعتديتم . وأخرج ابن أبى شيبة عن عمر ابن عبد العزيز ، أنه قال إن هذه الآية فى النساء والذرية . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله (والفتنة أشدّ من القتل) يقول الشرك أشدّ من القتل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى الآية . قال ارتداد المؤمن الى الوثن أشد عليه من أن يقتل محقا . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود فى ناسخه وابن جرير عن قتادة فى قوله (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه) قال حتى يبدءوا بالقتال ، ثم نسخ بعد ذلك فقال (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة) . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو داود فى ناسخه عن قتادة ، أن قوله (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام) * وقوله ــ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ــ فكان كذلك حتى نسخ هاتين الآيتين جميعا فى براءة قوله ــ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم * وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ــ . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله (فان انتهوا) قال فان تابوا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس فى قوله (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة) يقول شرك بالله ، (ويكون الدين) ويخلص التوحيد لله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى الآية . قال الشرك * وقوله (فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) قال لاتقاتلوا الامن قاتلكم . وأخرج ابن جرير عن الربيع فى قوله (ويكون الدين لله) يقول حتى لاتعبدوا الا الله . وأخرج أيضا عن عكرمة فى قوله (فلا عدوان إلا على الظالمين) قال هم من أبى أن يقول لا إله إلا الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه .

ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ

مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ *

قوله (الشهر الحرام بالشهر بالحرام) أى اذا قاتلوكم فى الشهر الحرام وهتكوا حرمته قاتلتموهم فى الشهر الحرام مكافأة لهم ومجازاة على فعلهم * (والحرمات) جمع حرمة ، كالظلمات جمع ظلمة ، وانما جمع الحرمات لانه أراد الشهر الحرام ، والبلد الحرام وحرمة الاحرام ، والحرمة مامنع الشرع من انتهاكه * والقصاص المساواة والمعنى أن كل حرمة يجرى فيها القصاص ، فمن هتك حرمة عليكم ، فلكم أن تهتكوا حرمة عليه قصاصا ، قيل وهذا كان فى أوّل الاسلام ، ثم نسخ بالقتال ، وقيل انه ثابت بين أمة محمد ﷺ لم ينسخ ، ويجوز لمن تعدّى عليه فى مال أو بدن أن يتعدّى بمثل ماتعدّى عليه ، وبهذا قال الشافعى وغيره . وقال آخرون ان أمور القصاص مقصورة على الحكام ، وهكذا الأموال لقوله ﷺ « أدّ الأمانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك » . أخرجه الدارقطنى وغيره ، وبه قال أبوحنيفة وجمهور المالكية وعطاء الخراسانى ، والقول الأوّل أرجح ، وبه قال ابن المنذر واختاره ابن العربى والقرطبى ، وحكاه الداودى عن مالك ، ويؤيده إذنه ﷺ لامرأة أبى سفيان أن تأخذ من ماله مايكفيها وولدها وهو فى الصحيح ، ولا أصرح وأوضح من قوله تعالى فى هذه الآية (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم) وهذه الجملة فى حكم التأكيد للجملة الأولى ، أعنى قوله (والحرمات قصاص) وانما سمى المكافأة اعتداء مشاكلة كما تقدّم .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال لما سار رسول الله ﷺ معتمرا فى سنة ست من الهجرة وحبسه المشركون عن الدخول والوصول الى البيت ، وصدّوه بمن معه من المسلمين فى ذى القعدة ، وهو شهر حرام قاضاهم على الدخول من قابل ، فدخلها فى السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين وأقصه الله منهم نزلت فى ذلك هذه الآية (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه أيضا . وأخرجا أيضا عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج نحوه . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (فمن اعتدى عليكم) الآية * وقوله ـ وجزاء سيئة ـ الآية * وقوله ـ ولمن انتصر بعد ظلمه ـ الآية * وقوله ـ وان عاقبتم ـ الآية قال هذا ونحوه نزل بمكة والمسلمون يومئذ قليل ليس لهم سلطان يقهر المشركين ، فكان المشركون يتعاطونهم بالشتم والأذى ، فأمر الله المسلمين من يتجازى منهم أن يتجازى بمثل ماأوتى اليه أو يصبروا ويعفوا ، فلماهاجر رسول الله ﷺ الى المدينة وأعزّ الله سلطانه ، أمر الله المسلمين أن ينتهوا فى مظالمهم الى سلطانهم ، ولا يعدو بعضهم على بعض كأهل الجاهلية ، فقال ـ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ـ الآية يقول ينصره السلطان حتى ينصفه على من ظلمه ، ومن انتصر لنفسه دون السلطان فهو عاص مسرف قد عمل بحمية الجاهلية ولم يرض بحكم الله تعالى انتهى * وأقول هذه الآية التى جعلها ابن عباس رضى الله عنه ناسخة مؤيدة لما تدل عليه الآيات التى جعلها منسوخة ومؤكدة له فان الظاهر من قوله ـ فقد جعلنا لوليه سلطانا ـ أنه جعل السلطان له أى جعل له تسلطا يتسلط به على القاتل ، ولهذا قال ـ فلا يسرف فى القتل ـ ثم لو سلمنا أن معنى الآية كما قاله لكان ذلك مخصصا للقتل من عموم الآيات المذكورة لاناسخا لها فانه لم ينص فى هذه الآية الا على القتل وحده ، وتلك الآيات شاملة له ولغيره ، وهذا معلوم من لغة العرب التى هى المرجع فى تفسير كلام الله سبحانه .

وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *

فى هذه الآية الأمر بالانفاق فى سبيل الله ، وهو الجهاد ، واللفظ يتناول غيره مما يصدق عليه أنه من سبيل الله ، والباء فى قوله (بأيديكم) زائدة ، والتقدير ولا تلقوا أيديكم ، ومثله ـ ألم يعلم بأن الله يرى ـ وقال المبرد (بأيديكم) أى بأنفسكم تعبيرا بالبعض عن الكل : كقوله ـ بما كسبت أيديكم ، وقيل هذا مثل مضروب ، يقال فلان ألقى بيده فى أمر كذا : اذا استسلم ، لأن المستسلم فى القتال يلقى سلاحه بيديه فكذلك فعل كل عاجز فى أى فعل كان . وقال قوم : التقدير ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم * والتهلكة : مصدر من هلك يهلك هلاكا وهلكا وتهلكة : أى لا تأخذوا فيما يهلككم ، وللسلف فى معنى الآية أقوال سيأتى بيانها ، و بيان سبب نزول الآية ، والحق أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فكل ماصدق عليه أنه تهلكة فى الدين أو الدنيا فهو داخل فى هذا ، و به قال ابن جرير الطبرى ، ومن جملة مايدخل تحت الآية أن يقتحم الرجل فى الحرب فيحمل على الجيش مع عدم قدرته على التخلص وعدم تأثيره لأثر ينفع المجاهدين ولا يمنع من دخول هذا تحت الآية إنكار من أنكره من الذين رأوا السبب فانهم ظنوا أن الآية لا تجاوز سببها ، وهو ظن تدفعه لغة العرب * وقوله (وأحسنوا) أى فى الانفاق فى الطاعة ، أو أحسنوا الظن بالله فى إخلافه عليكم .

وقد أخرج عبد بن حميد والبخارى والبيهقى فى سننه عن حذيفة فى قوله (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) قال نزلت فى النفقة . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية . قال هو ترك النفقة فى سبيل الله مخافة العيلة . وأخرج عبد بن حميد والبيهقى عن ابن عباس نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن الحسن نحوه . وأخرج عبد بن حميد والبيهقى فى الشعب عنه قال هو البخل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى الآية قال كان رجال يخرجون فى بعوث يبعثها رسول الله ﷺ بغير نفقة ، فاما يقطع لهم ، و إما كانوا عيالا ، فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله ولا يلقوا بأيديهم الى التهلكة ، والتهلكة : أن تهلك رجال من الجوع والعطش ومن المشى ، وقال لمن بيده فضل (وأحسنوا ان الله يحب المحسنين) . وأخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير والبغوى فى معجمه وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان وابن مانع والطبرانى عن الضحاك بن أبى جبير أن الأنصار كانوا ينفقون فى سبيل الله ويتصدّقون فأصابتهم سنة فساء ظنهم وأمسكوا عن ذلك ، فأنزل الله الآية . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والترمذى وصححه والنسائى وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أسلم بن عمران قل كنا بالقسطنطينية ، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر ، وعلى أهل الشام فضالة بن عبيد ، فخرج صف عظيم من الروم فصففنا لهم فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم ، فصاح الناس وقالوا سبحان الله يلقى بيده الى التهلكة فقام أبو أيوب صاحب رسول الله ﷺ فقال ياأيها الناس انكم تؤوّلون الآية هذا التأويل ، وانما أنزلت فينا هذه الآية معشر الأنصار انا لما أعز الله دينه ، وكثر ناصروه ، قال بعضنا لبعض سرّا دون رسول الله ﷺ ان أموال الناس قد ضاعت ، وان الله قد أعز الاسلام وكثر ناصروه ، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ماضاع منها ، فأنزل الله على نبيه يردّ علينا (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) فكانت التهلكة الاقامة فى الأموال و إصلاحها وترك الغزو . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وصححه والبيهقى عن البراء بن عازب

قال

قال فى تفسير الآية هو الرجل يذنب الذنب فيلقى بيديه ، فيقول لايغفر الله لى أبدا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والطبرانى والبيهقى فى الشعب عن النعمان بن بشير نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير قال فى تفسير الآية انه القنوط . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال التهلكة عذاب الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث أنهم حاصروا دمشق فأسرع رجل الى العدوّ وحده . فعاب ذلك عليه المسلمون ، ورفع حديثه الى عمرو بن العاص ، فأرسل اليه فردّه . وقال قال الله (ولاتلقوا بأيديكم الى التهلكة) . وأخرج ابن جرير عن رجل من الصحابة فى قوله (وأحسنوا) قال أدّوا الفرائض . وأخرج عبد بن حميد عن أبى اسحق مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة قال أحسنوا الظن بالله .

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *

قوله (وأتموا الحج) اختلف العلماء فى المعنى المراد باتمام الحج والعمرة لله ، فقيل أداؤهما والاتيان بهما من دون أن يشوبهما شىء مما هو محظور ولا يخل بشرط ولا فرض لقوله تعالى ـ فأتمهنّ ـ * وقوله (ثم أتموا الصيام إلى الليل) . وقال سفيان الثورى : إتمامهما أن تخرج لهما لا لغيرهما ، وقيل إتمامهما أن تفرد كل واحد منهما من غير تمتع ولا قران ، وبه قال ابن حبيب . وقال مقاتل إتمامهما أن لايستحلوا فيهما مالاينبغى لهم ، وقيل إتمامهما أن يحرم لهما من دويرة أهله ، وقيل أن ينفق فى سفرهما الحلال الطيب . وسيأتى بيان سبب نزول الآية وما هو مروى عن السلف فى معنى إتمامهما . وقد استدل بهذه الآية على وجوب العمرة لان الأمر باتمامها أمر بها ، وبذلك قال علىّ وابن عمر وابن عباس وعطاء وطاوس ومجاهد والحسن وابن سيرين والشعبى وسعيد بن جبير ومسروق وعبد الله بن شدّاد والشافعى وأحمد واسحاق وأبو عبيد وابن الجهم من المالكية . وقال مالك والنخعى وأصحاب الرأى كما حكاه ابن المنذر عنهم انها سنة وحكى عن أبى حنيفة أنه يقول بالوجوب ، ومن القائلين بأنها سنة ابن مسعود وجابر بن عبد الله ، ومن جملة ما استدل به الأوّلون ماثبت عنه ﷺ فى الصحيح أنه قال لأصحابه « من كان معه هدى فليهلّ بحج وعمرة » وثبت عنه أيضا فى الصحيح أنه قال « دخلت العمرة فى الحج الى يوم القيامة » . وأخرج الدارقطنى والحاكم من حديث زيد بن ثابت قال قال رسول الله ﷺ « ان الحج والعمرة فريضتان لايضرك بأيهما بدأت » . واستدل الآخرون بما أخرجه الشافعى فى الآية وعبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن أبى صالح الحنفى قال قال رسول الله ﷺ « الحج جهاد والعمرة تطوّع » . وأخرج ابن ماجه عن طلحة بن عبيد الله مرفوعا مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والترمذى وصححه عن جابر أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن العمرة أواجبة هى ؟ قال لا وأن تعتمروا خير لكم : وأجابوا عن الآية وعن الأحاديث المصرحة بأنها فريضة بحمل ذلك على أنه قد وقع الدخول فيها ، وهى

بعد الشروع فيها واجبة بلا خلاف ، وهـذا وان كان فيه بعد ، لـكنه يجب المصير اليه جمعا بين الأدلة ولا سيما بعد تصريحه ﷺ بما تقدّم فى حـديث جابر من عدم الوجوب ، وعلى هذا يحمل ماورد مما فيه دلالة على وجوبها ، كما أخرجه الشافعى فى الأم أن فى الـكتاب الذى كتبه النبى ﷺ لعمرو بن حزم ، ان العمرة هى الحج الأصغر ، وكحديث ابن عمر عند البيهقى فى الشعب قال جاء رجل الى النبى ﷺ فقال أوصنى ، فقال تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصـلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم شهر رمضان ، وتحج وتعتمر ، وتسمع وتطيع ، وعليك بالعلانية ، واياك والسر ، وهكذا ينبغى حمل ماورد من الأحاديث التى قرن فيها بين الحج والعمرة ، فى أنهما من أفضل الأعمـال ، وانهما كفارة لما بينهما ، وانهما يهدمان ما كان قبلهما ونحو ذلك * قوله (فان أحصرتم) الحصر : الحبس . قال أبو عبيـدة والـكسائى والخليل انه يقال أحصر بالمرض ، وحصر بالعدوّ ، وفى المجمل لابن فارس العكس ، يقال أحصر بالعدوّ ، وحصر بالمرض ورجح الأوّل ابن العربى وقال هو رأى أكثر أهل اللغة . وقال الزجاج انه كـذلك عند جميع أهل اللغة . وقال الفراء هما بمعنى واحد فى المرض والعدوّ ، ووافقه على ذلك أبو عمرو الشيبانى ، فقال حصرنى الشىء وأحصرنى : أى حبسنى ، و بسبب هذا الاختلاف بين أهل اللغة اختلف أئمة الفقه فى معنى الآية ، فقالت الحنفية : المحصر من يصير ممنوعا من مكة بعد الاحرام بمرض أو عدوّ أو غيره . وقالت الشافعية وأهل المدينة المراد بالآية حصر العدوّ . وقد ذهب جمهور العلماء الى أن المحصر بعدوّ يحل حيث أحصر و ينحر هـديه ان كان ثمّ هـدى ويحلق رأسه ، كما فعل النبى ﷺ هو وأصحابه فى الحديبية * وقوله (فما استيسر من الهدى) مافى موضع رفع على الابتداء أو الخبر أى فالواجب أو فعليكم ؛ ويحتمل أن يكون فى موضع نصب ، أى فانحروا أو فاهدوا ما استيسر أى ماتيسر ، يقال يسر الأمر واستيسر ، كما يقال صعب واستصعب ، والهدى والهدىّ لغتان ، وهما جمع هدية ، وهى مايهدى الى البيت من بدنة أو غـيرها . قال الفراء : أهل الحجاز و بنو أسد يخففون الهدى ، وتميم وسفلى قيس يثقلون ، قال الشاعر :

حلفت برب كعبة والمصلى * وأعناق الهدىّ مقلدات

قال وواحد الهدى هدية . ويقال فى جمع الهدىّ أهد ، واختلف أهل العلم فى المراد بقوله (ما استيسر) فذهب الجمهور الى أنه شاة . وقال ابن عمر وعائشة وابن الزبير : جمل أو بقرة . وقال الحسن أعلا الهدى بدنة ، وأوسطه بقرة ، وأدناه شاة * وقوله (ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله) هو خطاب لجميع الأمة من غير فرق ، بين محصر وغير محصر ، وإليه ذهب جمع من أهل العلم ، وذهبت طائفة إلى أنه خطاب للمحصرين خاصة ، أى لاتحلوا من الاحرام حتى تعلموا أن الهـدى الذى بعثتموه إلى الحرم قد بلغ محله ، وهو الموضع الذى يحل فيـه ذبحه ، واختلفوا فى تعيينه . فقال مالك والشافعى هو موضع الحصر اقتـداء برسول الله ﷺ حيث أحصر فى عام الحديبية . وقال أبو حنيفة هو الحرم لقوله تعالى ـ ثم محلها إلى البيت العتيق ـ وأجيب عن ذلك بأن المخاطب به هو الآمن الذى يمكنه الوصول إلى البيت ، وأجاب الحنفية عن نحره ﷺ فى الحـديبية ، بأن طرف الحديبية الذى إلى أسفل مكة هو من الحرم ، وردّ بأن المكان الذى وقع فيـه النحر ليس هو من الحرم * قوله (فمن كان منكم مريضا) الآية ، المراد بالمرض هنا مايصدق عليه مسمى المرض لغة * والمراد بالأذى من الرأس : مافيه من قمل أو جراح ونحو ذلك ، ومعنى الآية أن من كان مريضا أو به أذى من رأسه فحلق فعليه فدية . وقد بينت السنة ما أطلق هنا من الصيام والصدقة والنسك ، فثبت فى الصحيح أن رسول الله رأى كعب بن عجرة وهو محرم وقمله يتساقط على وجهه . فقال أيؤذيك هوامّ رأسك ؟ قال نعم ، فأمره أن يحلق و يطعم ستة مساكين ، أو يهدى شاة ، أو يصوم ثلاثة أيام . وقد ذكر ابن عبـد البر أنه لاخلاف بين العلماء أن النسك هنا هو شاة . وحكى عن

الجمهور

الجمهور أن الصوم المذكور فى الآية ثلاثة أيام ، والاطعام لستة مساكين . وروى عن الحسن وعكرمة ونافع أنهم قالوا الصوم فى فدية الأذى عشرة أيام ، والاطعام عشرة مساكين ، والحديث الصحيح المتقدّم يردّ عليهم ويبطل قولهم . وقد ذهب مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم وداود إلى أن الاطعام فى ذلك مدّان بمدّ النبى ﷺ أى لكل مسكين . وقال الثورى نصف صاع من برّ أو صاع من غيره . وروى ذلك عن أبى حنيفة . قال ابن المنذر وهذا غلط لان فى بعض أخبار كعب أن النبى ﷺ قال له تصدق بثلاثة أصوع من تمر على ستة مساكين . واختلفت الرواية عن أحمد بن حنبل فروى عنه مثل قول مالك والشافعى وروى عنه أنه إن أطعم برّا فمدّ لكل مسكين وان أطعم تمرا فنصف صاع ، واختلفوا فى مكان هذه الفدية فقال عطاء ما كان من دم فبمكة ، وما كان من طعام أوصيام فحيث شاء ، وبه قال أصحاب الرأى . وقال طاوس والشافعى الاطعام والدم لا يكونان الا بمكة ، والصوم حيث شاء . وقال مالك ومجاهد حيث شاء فى الجميع وهو الحق لعدم الدليل على تعيين المكان * قوله (فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى) أى برأتم من المرض ، وقيل من خوفكم من العدوّ على الخلاف السابق ، ولكن الأمن من العدوّ أظهر من استعمال أمنتم فى ذهاب المرض ، فيكون مقوّيا لقول من قال ان قوله (فان أحصرتم) المراد به الاحصار من العدوّ ، كما أن قوله (فمن كان منكم مريضا) يقوّى قول من قال بذلك لافراد عذر المرض بالذكر . وقد وقع الخلاف هل المخاطب بهذا هم المحصرون خاصة أم جميع الأمة على حسب ماسلف والمراد بالتمتع المذكور فى الآية أن يحرم الرجل بعمرة ثم يقيم حلالا بمكة الى أن يحرم بالحج فقد استباح بذلك مالا يحل للمحرم استباحته ، وهو معنى تمتع واستمتع ولا خلاف بين أهل العلم فى جواز التمتع بل هو عندى أفضل أنواع الحج كما حررته فى شرحى على المنتقى . وقد تقدّم الخلاف فى معنى قوله (فما استيسر من الهدى) * قوله (فمن لم يجد) الآية أى فمن لم يجد الهدى ، إما لعدم المال أو لعدم الحيوان ، صام ثلاثة أيام فى الحج ، أى فى أيام الحج ، وهى من عند شروعه فى الاحرام الى يوم النحر ، وقيل يصوم قبل يوم التروية يوما ويوم التروية ويوم عرفة ، وقيل مابين أن يحرم بالحج الى يوم عرفة ، وقيل يصومهنّ من أوّل عشر ذى الحجة وقيل مادام بمكة ، وقيل انه يجوز أن يصوم الثلاث قبل أن يحرم . وقد جوّز بعض أهل العلم صيام أيام التشريق لمن لم يجد الهدى ، ومنعه آخرون * قوله (وسبعة اذا رجعتم) قرأه الجمهور بخفض سبعة ، وقرأ زيد بن على وابن أبى عبلة بالنصب على أنه معمول بفعل مقدّر ، أى وصوموا سبعة ، وقيل على أنه معطوف على ثلاثة ، لأنها وان كانت مجرورة لفظا فهى فى محل نصب كأنه قيل فصيامُ ثلاثةٍ * والمراد بالرجوع هنا الرجوع الى الأوطان . قال أحمد واسحق يجزيه الصوم فى الطريق ، ولا يتضيق عليه الوجوب الا اذا وصل وطنه ، وبه قال الشافعى وقتادة والربيع ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وغيرهم . وقال مالك اذا رجع من منى فلا بأس أن يصوم ، والأوّل أرجح . وقد ثبت فى الصحيح من حديث ابن عمر أنه قال ﷺ « فمن لم يجد فليصم ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجع الى أهله » فبين ﷺ أن الرجوع المذكور فى الآية هو الرجوع الى الأهل . وثبت أيضا فى الصحيح من حديث ابن عباس بلفظ وسبعة اذا رجعتم الى أمصاركم ، وانما قال سبحانه (تلك عشرة كاملة) مع أن كل أحد يعلم أن الثلاثة والسبعة عشرة لدفع أن يتوهم متوهم التخيير بين الثلاثة الأيام فى الحج والسبعة اذا رجع . قاله الزجاج . وقال المبرد ذكر ذلك ليدل على انقضاء العدد لئلا يتوهم متوهم انه قد بقى منه شىء بعد ذكر السبعة ، وقيل هو توكيد كما تقول كتبت بيدى . وقد كانت العرب تأتى بمثل هذه الفذلكة فيما دون هذا العدد : كقول الشاعر :

ثلاث واثنتان فهنّ خمس * وسادسة تميل الى سهامى

وكذا قول الآخر

ثلاث بالعداد وذاك حسبى * وست حين يدركنى العشاء

فذلك تسعة فى اليوم رىّ * وشرب المرء فوق الرى داء

وقوله (كاملة) توكيد آخر بعد الفذلكة لزيادة التوصية بصيامها، وأن لاينقص من عددها * وقوله (ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) الاشارة بقوله (ذلك) قيل هى راجعة الى التمتع فتدل على أنه لامتعة لحاضرى المسجد الحرام كما يقوله أبوحنيفة وأصحابه قالوا ومن تمتع منهم كان عليه دم، وهو دم جناية لايأكل منه، وقيل انها راجعة الى الحكم، وهو وجوب الهدى والصيام، فلا يجب ذلك على من كان من حاضرى المسجد الحرام، كما يقوله الشافعى ومن وافقه * والمراد بمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام: من لم يكن ساكنا فى الحرم، أو من لم يكن ساكنا فى المواقيت فما دونها على الخلاف فى ذلك بين الأئمة * وقوله (واتقوا الله) أى فيما فرضه عليكم فى هذه الأحكام، وقيل هو أمر بالتقوى على العموم وتحذير من شدّة عقاب الله سبحانه.

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الدلائل وابن عبدالبر فى التمهيد عن يعلى بن أمية قال جاء رجل الى النبى ﷺ وهو بالجعرانة وعليه جبة وعليه أثر خلوق، فقال كيف تأمرنى يارسول الله أن أصنع فى عمرتى؟ فأنزل الله (وأتموا الحج والعمرة لله) فقال رسول الله ﷺ أين السائل عن العمرة؟ فقال هاأناذا، قال اخلع الجبة واغسل عنك أثر الخلوق ثم ماكنت صانعا فى حجك فاصنعه فى عمرتك. وقد أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما من حديثه، ولكن فيهما أنه نزل عليه ﷺ الوحى بعد السؤال ولم يذكر ماهو الذى أنزل عليه. وأخرج ابن أبى شيبة عن علىّ فى قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) قال أن تحرم من دويرة أهلك. وأخرج ابن عدى والبيهقى مثله من حديث أبى هريرة مرفوعا. وأخرج عبدالرزاق وابن أبى حاتم عن ابن عمر قال من تمامهما أن يفرد كل واحد منهما عن الآخر، وأن يعتمر فى غير أشهر الحج. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس. قال تمام الحج يوم النحر اذا رمى جمرة العقبة وزار البيت فقد حلّ، وتمام العمرة اذا طاف بالبيت وبالصفا والمروة فقد حلّ. وقد ورد فى فضل الحج والعمرة أحاديث كثيرة ليس هذا موطن ذكرها. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (فان أحصرتم) يقول من أحرم بحج أوعمرة ثم حبس عن البيت بمرض يجهده، أوعدوّ يحبسه، فعليه ذبح مااستيسر من الهدى شاة فما فوقها، وان كانت حجة الاسلام فعليه قضاؤها، وان كانت بعد حجة الفريضة فلا قضاء عليه. وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله (فان أحصرتم) يقول: الرجل اذا أهلّ بالحج فأحصر بعث بما استيسر من الهدى، فان كان عجل قبل أن يبلغ الهدى محله فحلق رأسه، أومس طيبا، أوتداوى بدواء، كان عليه فدية من صيام أو صدقة أو نسك، فالصيام ثلاثة أيام، والصدقة ثلاثة آصع على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع، والنسك شاة (فاذا أمنتم) يقول فاذا برئ فمضى من وجهه ذلك الى البيت أحلّ من حجته بعمرة، وكان عليه الحج من قابل، فان هو رجع ولم يتم من وجهه ذلك الى البيت كان عليه حجة وعمرة، فان هو رجع متمتعا فى أشهر الحج كان عليه مااستيسر من الهدى شاة، فان هو لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجع قال ابراهيم فذكرت هذا الحديث لسعيد بن جبير، فقال هكذا قال ابن عباس فى هذا الحديث كله. وأخرج مالك وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن علىّ فى قوله (فما استيسر من الهدى) قال شاة. وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد

وابن

وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس مثله . وأخرج الشافعى فى الأم وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقى (فما استيسر من الهدى) قال بقرة أو جزور ، قيل أو مايكفيه شاة ؟ قال لا . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد عن ابن عباس قال فى تفسير (مااستيسر) مايجد . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال ان كان موسرا فمن الابل ، والا فمن البقر والا فمن الغنم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق القاسم عن عائشة وابن عمر أنهما كانا لايريان مااستيسر من الهدى الا من الابل والبقر ، وكان ابن عباس يقول ، مااستيسر من الهدى شاة . وأخرج الشافعى فى الأم وعبدالرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال لاحصر الاحصر العدوّ ، فأما من أصابه مرض ، أو وجع ، أوضلال فليس عليه شىء انما قال الله (فاذا أمنتم) فلا يكون الأمن الا من الخوف . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر قال لا إحصار الامن عدوّ . وأخرج أيضا عن الزهرى نحوه . وأخرج أيضا عن عطاء قال لا إحصار الامن مرض ، أوعدوّ ، أو أمر حابس . وأخرج أيضا عن عروة قال كل شىء حبس المحرم فهو إحصار وأخرج البخارى عن المسور أن رسول الله ﷺ نحر قبل أن يحلق وأمر أصحابه بذلك . وأخرج أبو داود فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله (ولاتحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله) ثم استثنى فقال (فمن كان منكم مريضا) الآية . وأخرج الترمذى وابن جرير عن كعب بن عجرة قال لفىّ نزلت و إياى عنى بها ، (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فمن كان منكم مريضا ، يعنى من اشتدّ مرضه . وأخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر عنه . قال يعنى بالمرض أن يكون برأسه أذى أوقروح ، أو به أذى من رأسه قال الأذى : هو القمل . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس . قال النسك المذكور فى الآية شاة . وروى أيضا عن علىّ مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فمن تمتع بالعمرة إلى الحج) يقول من أحرم بالعمرة فى أشهر الحج . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم أن ابن الزبير كان يقول انما المتعة لمن أحصر ، وليست لمن خلى سبيله . وقال ابن عباس هى لمن أحصر ومن خلى سبيله . وأخرج ابن جرير عن علىّ فى قوله (فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج) قال فان أخر العمرة حتى يجمعها مع الحج فعليه الهدى . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن علىّ بن أبى طالب فى قوله (فصيام ثلاثة أيام) قال قبل التروية يوم ، ويوم التروية ، ويوم عرفة فان فاتته صامهنّ أيام التشريق . وأخرج هؤلاء إلا ابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عمر مثله إلا أنه قال و إذا فاته صام أيام منى فانهن من الحج . وأخرج ابن جرير والدارقطنى والبيهقى عن ابن عمر نحوه مرفوعا . وأخرج ابن أبى شيبة عن علقمة ومجاهد وسعيد بن جبير مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس . قال الصيام للمتمتع مابين إحرامه إلى يوم عرفة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال إذا لم يجد المتمتع بالعمرة هديا فعليه صيام ثلاثة أيام فى الحج قبل يوم عرفة ، وان كان يوم عرفة الثالث فقد تمّ صومه ، وسبعة إذا رجع إلى أهله . وأخرج الدارقطنى عن عائشة سمعت رسول الله ﷺ يقول « من لم يكن معه هدى فليصم ثلاثة أيام قبل يوم النحر ، ومن لم يكن صام تلك الثلاثة الأيام فليصم أيام التشريق » وأخرج أيضا عن عبد الله بن حذافة أن رسول الله ﷺ أمره فى رهط أن يطوفوا فى منى فى حجة الوداع ، فينادوا ان هذه أيام أكل وشرب ، وذكر الله فلا نصوم فيهنّ إلا صوما فى هدى . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن عطاء فى قوله تعالى (ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) قال

ستقريات ، عرفة ، وعرنة ، والرجيع ، والنخلتان ، ومرّ الظهران ، وضجنان . وقال مجاهدهم أهل الحرم
وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس . قال هم أهل الحرم . وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر مثله .

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ *

قوله (الحج أشهر) فيه حذف ، والتقدير وقت الحج أشهر ، أى وقت عمل الحج ، وقيل التقدير الحج فى أشهر ، وفيه أنه يلزم النصب مع حذف حرف الجر لا الرفع . قال الفراء الأشهر رفع لان معناه وقت الحج أشهر معلومات ، وقيل : التقدير الحج حج أشهر معلومات . وقد اختلف فى الأشهر المعلومات . فقال ابن مسعود وابن عمر وعطاء والربيع ومجاهد والزهرى ، هى شوّال وذوالقعدة وذوالحجة كله ، و به قال مالك وقال ابن عباس والسدى والشعبى والنخعى ، هى شوّال وذوالقعدة وعشر من ذى الحجة ، و به قال أبو حنيفة والشافعى وأحمد وغيرهم . وقد روى أيضا عن مالك ، و يظهر فائدة الخلاف فى ماوقع من أعمال الحج بعد يوم النحر ، فمن قال ان ذا الحجة كله من الوقت لم يلزمه دم التأخير ، ومن قال ليس إلا العشر منه . قال يلزم دم التأخير . وقد استدل بهذه الآية من قال انه لايجوز الاحرام بالحج قبل أشهر الحج ، وهو عطاء وطاوس ومجاهد والأوزاعى والشافعى وأبو ثور . قالوا فمن أحرم بالحج قبلها أحلّ بعمرة ، ولا يجزيه عن إحرام الحج كمن دخل فى صلاة قبل وقتها ، فانها لاتجزيه . وقال أحمد وأبو حنيفة انه مكروه فقط . وروى نحوه عن مالك ، والمشهور عنه جواز الاحرام بالحج فى جميع السنة من غير كراهة . وروى مثله عن أبى حنيفة ، وعلى هذا القول ينبغى أن ينظر فى فائدة توقيت الحج بالأشهر المذكورة فى الآية . وقد قيل ان النص عليها لزيادة فضلها . وقد روى القول بجواز الاحرام فى جميع السنة عن اسحاق بن راهويه وابراهيم النخعى والثورى والليث بن سعد ، واحتج لهم بقوله تعالى (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) فجعل الأهلة كلها مواقيت للحج ، ولم يخص الثلاثة الأشهر ، ويجاب بأن هذه الآية عامة ، وتلك خاصة ، والخاص مقدّم على العام ، ومن جملة مااحتجوا به القياس للحج على العمرة ، فكما يجوز الاحرام للعمرة فى جميع السنة ، كذلك يجوز للحج ، ولا يخفى أن هذا القياس مصادم للنص القرآنى فهو باطل ، فالحق ماذهب اليه الأوّلون ان كانت الأشهر المذكورة فى قوله (الحج أشهر) مختصة بالثلاثة المذكورة بنص أو إجماع ، فان لم يكن كذلك فالأشهر جمع شهر ، وهو من جموع القلة يتردد مابين الثلاثة الى العشرة ، والثلاثة هى المتيقنة ، فيجب الوقوف عندها ، ومعنى قوله (معلومات) أن الحج فى السنة مرة واحدة فى أشهر معلومات من شهورها ليس كالعمرة ، أو المراد معلومات ببيان النبى ﷺ ، أو معلومات عند المخاطبين لايجوز التقدّم عليها ولا التأخر عنها * قوله (فمن فرض فيهنّ الحج) أصل الفرض فى اللغة الحزّ والقطع ، ومنه فرضة القوس والنهر والجبل ، ففرضية الحج لازمة للعبد الحر كلزوم الحزّ للقوس ، وقيل معنى فرض : أبان وهو أيضا يرجع الى القطع ، لأن من قطع شيئا فقد أبانه عن غيره ، والمعنى فى الآية ، فمن ألزم نفسه فيهنّ الحج بالشروع فيه بالنية قصدا باطنا ، و بالاحرام فعلا ظاهرا ، و بالتلبية نطقا مسموعا . وقال أبو حنيفة ان إلزامه نفسه يكون بالتلبية أو بتقليد الهدى وسوقه . وقال الشافعى تكفى النية فى الاحرام بالحج * والرفث

قال

قال ابن عباس وابن جبير والسدى وقتادة والحسن وعكرمة والزهرى ومجاهد ومالك هو الجماع . وقال ابن عمر وطاوس وعطاء وغيرهم الرفث : الافحاش بالكلام . قال أبو عبيدة الرفث : اللغاء من الكلام ، وأنشد :

وربّ أسراب حجيج كظم * عن اللغا ورفث التكلم

يقال رفث يرفث بكسر الفاء وضمها * والفسوق : الخروج عن حدود الشرع ، وقيل : هو الذبح للأصنام وقيل التنابز بالألقاب ، وقيل السباب * والظاهر أنه لايختص بمعصية معينة ، وإنما خصصه من خصصه بما ذكر باعتبار أنه قد أطلق على ذلك الفرد اسم الفسوق ، كما قال سبحانه فى الذبح للأصنام ـ أو فسقا أهلّ لغير الله به ـ * وقال فى التنابز ـ بئس الاسم الفسوق ـ * وقال ﷺ فى السباب « سباب المسلم فسوق » ولا يخفى على عارف أن إطلاق اسم الفسوق على فرد من أفراد المعاصى لايوجب اختصاصه به * والجدال مشتق من الجدل وهو القتل ، والمراد به هنا المماراة ، وقيل السباب ، وقيل الفخر بالآباء * والظاهر الأوّل . وقد قرئ بنصب الثلاثة ورفعها ، ورفع الأوّلين ، ونصب الثالث ، وعكس ذلك ، ومعنى النفى لهذه الأمور النهى عنها * وقوله (وماتفعلوا من خير يعلمه الله) حث على الخير بعد ذكر الشر وعلى الطاعة بعد ذكر المعصية ، وفيه أن كل مايفعلونه من ذلك فهو معلوم عند الله لايفوت منه شىء * وقوله (وتزوّدوا) فيه الأمر باتخاذ الزاد ، لأن بعض العرب كانوا يقولون كيف نحج بيت ربنا ولا يطعمنا ؟ فكانوا يحجون بلا زاد ، ويقولون نحن متوكلون على الله سبحانه ، وقيل المعنى تزوّدوا لمعادكم من الأعمال الصالحة (فان خير الزاد التقوى) * والأوّل أرجح كما يدل على ذلك سبب نزول الآية ، وسيأتى * وقوله (فان خير الزاد التقوى) إخبار بأن خير الزاد اتقاء المنهيات ، فكأنه قال اتقوا الله فى إتيان ماأمركم به من الخروج بالزاد فان خير الزاد التقوى ، وقيل المعنى فان خير الزاد مااتقى به المسافر من الهلكة والحاجة الى السؤال والتكفف * وقوله (واتقون ياأولى الألباب) فيه التخصيص لأولى الألباب بالخطاب بعد حث جميع العباد على التقوى ، لان أرباب الألباب هم القابلون لأوامر الله الناهضون بها ، ولبّ كل شىء خالصه * قوله (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فيه الترخيص لمن حج فى التجارة ونحوها من الأعمال التى يحصل بها شىء من الرزق ، وهو المراد بالفضل هنا ، ومنه قوله تعالى ـ فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ـ أى لا إثم عليكم فى أن تبتغوا فضلا من ربكم مع سفركم لتأدية ماافترضه عليكم من الحج * قوله (فاذا أفضتم) أى دفعتم ، يقال فاض الاناء إذا امتلأ ماء حتى ينصب من نواحيه ، ورجل فياض : أى متدفقة يداه بالعطاء ، ومعناه أفضتم أنفسكم فترك ذكر المفعول ، كما ترك فى قولهم دفعوا من موضع كذا * وعرفات اسم لتلك البقعة ، أى موضع الوقوف ، وقرأه الجماعة بالتنوين ، وليس التنوين هنا للفرق بين ماينصرف ومالا ينصرف ، وإنما هو بمنزلة النون فى مسلمين . قال النحاس هذا الجيد . وحكى سيبويه عن العرب حذف التنوين من عرفات قال لما جعلوها معرفة حذفوا التنوين . وحكى الأخفش والكوفيون فتح التاء تشبيها بتاء فاطمة ، وأنشدوا :

تنوّرتها من أذرعات وأهلها * بيثرب أدنى دارها نظر عالى

وقال فى الكشاف ، فان قلت هلا منعت الصرف ، وفيها السببان التعريف والتأنيث ، قلت لايخلو التأنيث ، إما أن يكون بالتاء التى فى لفظها ، وإما بتاء مقدّرة ، كما فى سعاد ، فالتى فى لفظها ليست للتأنيث وإنما هى مع الألف التى قبلها علامة جمع المؤنث ، ولا يصح تقدير التاء فيها ، لان هذه التاء لاختصاصها بجمع المؤنث مانعة من تقديرها ، كما لاتقدّر تاء التأنيث فى بنت ، لأن التاء التى هى بدل من الواو لاختصاصها بالمؤنث كتاء التأنيث فأبت تقديرها انتهى ، وسميت عرفات لان الناس يتعارفون فيها ، وقيل ان آدم التقى

هو وحواء فيها فتعارفا ، وقيل غير ذلك . قال ابن عطية ، والظاهر أنه اسم مرتجل كسائر أسماء البقاع ، واستدل بالآية على وجوب الوقوف بعرفة ، لان الافاضة لاتكون إلا بعده ، والمراد بذكر الله عند المشعر الحرام دعاؤه ، ومنه التلبية والتكبير ، وسمى المشعر مشعرا من الشعار ، وهو العلامة ، والدعاء عنده من شعائر الحج ، ووصف بالحرام لحرمته ، وقيل المراد بالذكر صلاة المغرب والعشاء بالمزدلفة جمعا . وقد أجمع أهل العلم على أن السنة أن يجمع الحاج بينهما فيها * والمشعر هو جبل قزح الذى يقف عليه الامام ، وقيل هومابين جبلى المزدلفة من مأزمى عرفة إلى وادى محسر * قوله (واذكروه كما هداكم) الكاف نعت مصدر محذوف ، وما مصدرية أو كافة أى اذكروه ذكرا حسنا ، كما هداكم هداية حسنة ، وكرر الأمر بالذكر تأكيدا ، وقيل الأوّل أمر بالذكر عند المشعر الحرام ،والثانى أمر بالذكر على حكم الاخلاص ، وقيل المراد بالثانى تعديد النعمة عليهم ، وان فى قوله (وان كنتم من قبله) مخففة كما يفيده دخول اللام فى الخبر ، وقيل هى بمعنى قدأى قد كنتم ، والضمير فى قوله (من قبله) عائد إلى الهدى ، وقيل إلى القرآن .

وقد أخرج الطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن أبى أمامة قال قال رسول صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله تعالى (الحج أشهر معلومات) شوّال ، وذوالقعدة ، وذوالحجة . وأخرج الطبرانى فى الأوسط أيضا عن ابن عمر مرفوعا مثله . وأخرج الخطيب عن ابن عباس مرفوعا مثله أيضا . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن عمر بن الخطاب موقوفا مثله . وأخرج الشافعى فى الأم وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عمر موقوفا مثله . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عباس وعطاء والضحاك مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه من طرق عن ابن عمر فى قوله (الحج أشهر معلومات) قال : شوّال ، وذوالقعدة وعشر ليال من ذى الحجة . وأخرجوا إلا الحاكم عن ابن مسعود مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والبيهقى عن ابن عباس من طرق مثله . وأخرج ابن المنذر والدارقطنى والطبرانى والبيهقى عن عبد الله بن الزبير مثله أيضا . وأخرج ابن أبى شيبة عن الحسن ومحمد وابراهيم مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عمر فى قوله (فمن فرض فيهنّ الحج) قال من أهلّ فيهنّ بحج . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى عن ابن مسعود قال الفرض : الاحرام . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن الزبير قال : الاهلال . وأخرج عنه ابن المنذر والدارقطنى والبيهقى . قال فرض الحج الاحرام . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال الفرض الاهلال . وروى نحو ذلك عن جماعة من التابعين وأخرج الشافعى فى الأم وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال لاينبغى لأحد أن يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج من أجل قول الله تعالى (الحج أشهر معلومات) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن خزيمة والحاكم وصححه والبيهقى عنه نحوه . وأخرج الشافعى فى الأم وابن أبى شيبة وابن مردويه والبيهقى عن جابر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال لاينبغى لأحد أن يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج . وأخرج الطبرانى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) قال الرفث : التعريض للنساء بالجماع ، والفسوق : المعاصى كلها ، والجدال : جدال الرجل صاحبه . وأخرج ابن مردويه والاصبهانى فى الترغيب عن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « فلا رفث لاجماع ، ولافسوق المعاصى والكذب » . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه من طرق عن ابن عباس فى الآية . قال الرفث الجماع ، والفسوق المعاصى ، والجدال المراء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة والطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر قال الرفث : غشيان النساء ،

والفسوق : السباب ، والجدال : المراء . وأخرج سعيدبن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى عنه نحوه . وروى نحو ماتقدّم عن جماعة من التابعين بعبارات مختلفة . وأخرج عبد بن حميد والبخارى وأبوداود والنسائى وغيرهم عن ابن عباس . قال كان أهل اليمن يحجون ولايتزوّدون ويقولون نحن متوكلون ثم يقدمون فيسألون الناس ، فأنزل الله (وتزوّدوا فان خير الزاد التقوى) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال كان ناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أزودة يقولون نحج بيت الله ولا يطعمنا ! فنزلت الآية . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر قال كانوا اذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها واستأنفوا زادا آخر ، فأنزل الله (وتزوّدوا فان خير الزاد التقوى) فنهوا عن ذلك وأمروا أن يتزوّدوا الكعك والدقيق والسويق . وأخرج الطبرانى عن ابن الزبير قال كان الناس يتوكل بعضهم على بعض فى الزاد فأمرهم الله أن يتزوّدوا . وقد روى عن جماعة من التابعين مثل ماتقدّم عن الصحابة . وأخرج سعيد ابن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير عن ابن عباس قال كانوا يتقون البيوع والتجارة فى الموسم والحج ويقولون أيام ذكر الله ، فنزلت (ليس عليكم جناح) الآية . وقد أخرج نحوه عنه البخارى وغيره . وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأبوداود وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى عن أبى أمامة التيمى قال قلت لابن عمر إنا أناس نكرى فهل لنا من حج ؟ قال أليس تطوفون بالبيت ، وبين الصفا والمروة ، وتأتون المعرّف ، وترمون الجمار ، وتحلقون رءوسكم ؟ قلت بلى ، فقال ابن عمر جاء رجل الى النبى ﷺ فسأله عن الذى سألتنى عنه فلم يجبه حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فدعاه النبى ﷺ فقرأ عليه الآية وقال أنتم حجاج . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس أنه كان يقرأ (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فى مواسم الحج . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن الزبير أنه قرأها كما قرأها ابن عباس . وأخرج ابن أبى داود فى المصاحف أن ابن مسعود قرأها كذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال انما سمى عرفات لأن جبريل كان يقول لابراهيم عليه السلام حين رأى المناسك عرفت . وأخرج مثله ابن أبى حاتم عن ابن عمر . وأخرج مثله عبدالرزاق وابن جرير عن علىّ . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عمر أنه سئل عن المشعر الحرام فسكت حتى اذا هبطت أيدى الرواحل بالمزدلفة ، قال هذا المشعر الحرام . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عنه أنه قال المشعر الحرام : المزدلفة كلها . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى سننه عنه . قال هو الجبل وما حوله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه قال مابين الجبلين الذى بجمع مشعر . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن الزبير فى قوله (واذكروه كما هداكم) قال ليس هذا بعامّ ، هذا لأهل البلد كانوا يفيضون من جمع ويفيض سائر الناس من عرفات ، فأبى الله لهم ذلك ، فأنزل (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) . وأخرج عبد بن حميد عن سفيان فى قوله (وان كنتم من قبله) قال من قبل القرآن . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وان كنتم من قبله لمن الضالين) قال لمن الجاهلين .

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ

فى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خلَٰقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عذَابَ ٱلنَّارِ * أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَٰتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ *

قيل الخطاب فى قوله (ثم أفيضوا) للحمس من قريش لأنهم كانوا لايقفون مع الناس بعرفات ، بل كانوا يقفون بالمزدلفة ، وهى من الحرم ، فأمروا بذلك ، وعلى هذا تكون ثم لعطف جملة على جملة لاللترتيب ، وقيل الخطاب لجميع الأمة ، والمراد بالناس ابراهيم ، أى ثم أفيضوا من حيث أفاض ابراهيم ، فيحتمل أن يكون أمرا لهم بالافاضة من عرفة ، ويحتمل أن يكون إفاضة أخرى وهى التى من المزدلفة ، وعلى هذا تكون ثم على بابها أى للترتيب . وقد رجح هذا الاحتمال الأخير ابن جرير الطبرى ، وانما أمروا بالاستغفار لانهم فى مساقط الرحمة ، ومواطن القبول ، ومظنات الاجابة ، وقيل ان المعنى استغفروا للذى كان مخالفا لسنة ابراهيم ، وهو وقوفكم بالمزدلفة دون عرفة * والمراد بالمناسك أعمال الحج ، ومنه قوله ﷺ « خذوا عنى مناسككم » أى فاذا فرغتم من أعمال الحج فاذكروا الله ، وقيل المراد بالمناسك الذبائح ، وانما قال سبحانه (كذكركم آباءكم) لأن العرب كانوا اذا فرغوا من حجهم يقفون عند الجمرة فيذكرون مفاخر آبائهم ، ومناقب أسلافهم ، فأمرهم الله بذكره مكان ذلك الذكر ، ويجعلونه ذكرا مثل ذكرهم لآبائهم أو أشدّ من ذكرهم لآبائهم . قال الزجاج ان قوله (أو أشدّ) فى موضع خفض عطفا على ذكركم ، والمعنى أوكأشدّ ذكرا ، ويجوز أن يكون فى موضع نصب أى اذكروه أشدّ ذكرا . وقال فى الكشاف انه عطف على ماأضيف اليه الذكر فى قوله (كذكركم) كما تقول كذكر قريش آباءهم أوقوم أشدّ منهم ذكرا * قوله (فمن الناس من يقول) الآية ، لما أرشد سبحانه عباده الى ذكره ، وكان الدعاء نوعا من أنواع الذكر جعل من يدعوه منقسما الى قسمين ، أحدهما يطلب حظ الدنيا ولا يلتفت الى حظ الآخرة ، والقسم الآخر يطلب الأمرين جميعا ، ومفعول الفعل ، أعنى قوله (آتنا) محذوف أى مانريد أو مانطلب ، والواو فى قوله (وماله) واو الحال ، والجملة بعدها حالية * والخلاق : النصيب ، أى وما لهذا الداعى فى الآخرة من نصيب لان همه مقصور على الدنيا لايريد غيرها ، ولا يطلب سواها . وفى هذا الخبر معنى النهى عن الاقتصار على طلب الدنيا والذم لمن جعلها غاية رغبته ، ومعظم مقصوده . وقد اختلف فى تفسير الحسنتين المذكورتين فى الآية ، فقيل هما مايطلبه الصالحون فى الدنيا من العافية ، ومالا بدّ منه من الرزق ، ومايطلبونه فى الآخرة من نعيم الجنة والرضا ، وقيل المراد بحسنة الدنيا : الزوجة الحسناء ، وحسنة الآخرة : الحور العين ، وقيل حسنة الدنيا : العلم والعبادة ، وقيل غير ذلك . قال القرطبى والذى عليه أكثر أهل العلم أن المراد بالحسنتين نعيم الدنيا والآخرة . قال وهذا هو الصحيح فان اللفظ يقتضى هذا كله ، فان حسنة نكرة فى سياق الدعاء فهو محتمل لكل حسنة من الحسنات على البدل ، وحسنة الآخرة : الجنة باجماع انتهى * قوله (وقنا) أصله أوقنا حذفت الواو كما حذفت فى يقى لأنها بين ياء وكسرة مثل يعد ، هذا قول البصريين . وقال الكوفيون حذفت فرقا بين اللازم والمتعدّى * وقوله (أولئك) إشارة الى الفريق الثانى (لهم نصيب من) جنس (ماكسبوا) من الأعمال أى من ثوابها ، ومن جملة أعمالهم الدعاء ، فما أعطاهم الله بسببه من الخير فهو مما كسبوا ، وقيل ان معنى قوله (مما كسبوا) التعليل أى من أجل ما كسبوا ، وهو بعيد ، وقيل ان

قوله

قوله (أولئك) إشارة الى الفريقين جميعا ، أى للأوّلين نصيب من الدنيا ، ولا نصيب لهم فى الآخرة ، وللآخرين نصيب مما كسبوا فى الدنيا وفى الآخرة * وسريع من سرع يسرع كعظم يعظم سرعا وسرعة ، والحساب مصدر كالمحاسبة ، وأصله العدد ، يقال : حسب يحسب حسابا ، وحسابة وحسبانا وحسبا . والمراد هنا المحسوب ، سمى حسابا تسمية للمفعول بالمصدر ، والمعنى أن حسابه لعباده فى يوم القيامة سريع مجيئه ، فبادروا ذلك بأعمال الخير ، أو أنه وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم ، وأنه لايشغله شأن عن شأن فيحاسبهم فى حالة واحدة كما قال تعالى (ماخلقكم ولابعثكم الا كنفس واحدة) * قوله (فى أيام معدودات) قال القرطبى لاخلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات فى هذه الآية هى أيام منى وهى أيام التشريق ، وهى أيام رمى الجمار . وقال الثعلبى قال ابراهيم الأيام المعدودات : أيام العشر ، والأيام المعلومات أيام لنحر ، وكذا روى عن مكى والمهدوى . قال القرطبى ولايصح لما ذكرناه من الاجماع على ما نقله أبو عمر بن عبدالبر وغيره . وروى الطحاوى عن أبى يوسف أن الأيام المعلومات أيام النحر قال لقوله تعالى ــ ويذكروا الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ــ وحكى الكرخى عن محمد ابن الحسن أن الأيام المعلومات أيام النحر الثلاثة ، يوم الأضحى ، ويومان بعده . قال الكيا الطبرى فعلى قول أبى يوسف ومحمد لافرق بين المعلومات والمعدودات ، لأن المعدودات المذكورة فى القرآن أيام التشريق بلاخلاق . وروى عن مالك أن الأيام المعدودات والأيام المعلومات يجمعها أربعة أيام ، يوم النحر ، وثلاثة أيام بعده ، فيوم النحر معلوم غير معدود ، واليومان بعده معلومان معدودان ، واليوم الرابع معدود لامعلوم ، وهو مروى عن ابن عمر . وقال ابن زيد الأيام المعلومات ، عشر ذى الحجة ، وأيام التشريق ، والمخاطب بهذا الخطاب المذكور فى الآية ، أعنى قوله تعالى (واذكروا الله فى أيام معدودات) هو الحاج وغيره كما ذهب اليه الجمهور ، وقيل هو خاص بالحاج . وقد اختلف أهل العلم فى وقته ، فقيل من صلاة الصبح يوم عرفة الى العصر من آخر أيام التشريق ، وقيل من غداة عرفة الى صلاة العصر من آخر النحر ، وبه قال أبوحنيفة ، وقيل من صلاة الظهر يوم النحر الى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق ، وبه قال مالك والشافعى * قوله (فمن تعجل) الآية ، اليومان هما يوم ثانى النحر ، ويوم ثالثه . وقال ابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة والنخعى من رمى فى اليوم الثانى من الأيام المعدودات ، فلا حرج ، ومن تأخر إلى الثالث فلا حرج ، فمعنى الآية كل ذلك مباح ، وعبر عنه بهذا التقسيم اهتماما وتأكيدا ، لان من العرب من كان يذم التعجل ، ومنهم من كان يذم التأخر ، فنزلت الآية رافعة للجناح فى كل ذلك . وقال علىّ وابن مسعود معنى الآية ، من تعجل فقد غفر له ، ومن تأخر فقد غفر له ، والآية قد دلت على أن التعجل والتأخر مباحان * وقوله (لمن اتقى) معناه أن التخيير ورفع الاثم ثابت لمن اتقى ، لان صاحب التقوى يتحرز عن كل ما يريبه ، فكان أحق بتخصيصه بهذا الحكم . قال الأخفش التقدير ذلك لمن اتقى ، وقيل لمن اتقى بعد انصرافه من الحج عن جميع المعاصى ، وقيل لمن اتقى قتل الصيد ، وقيل معناه السلامة لمن اتقى ، وقيل هو متعلق بالذكر ، أى الذكر لمن اتقى .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة . قالت كانت قريش ومن دان بدينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحمس ، وكانت سائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الاسلام أمر الله نبيه أن يأتى عرفات ثم يقف بها ، ثم يفيض منها ، فذلك قوله تعالى (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) . وأخرجا أيضا عنها موقوفا نحوه . وقد ورد فى هذا المعنى روايات عن الصحابة والتابعين . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال إذا كان يوم عرفة هبط الله إلى سماء الدنيا فى الملائكة ، فيقول لهم عبادى آمنوا بوعدى ، وصدّقوا برسلى

ماجزاؤهم ؟ فيقال أن تغفر لهم ، فذلك قوله (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) . وقد وردت أحاديث كثيرة فى المغفرة لأهل عرفة ، ونزول الرحمة عليهم ، وإجابة دعائهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله تعالى (فاذا قضيتم مناسككم) قال حجكم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله (فاذا قضيتم مناسككم) قال إهراق الدماء (فاذكروا الله كذكركم آباءكم) قال تفاخر العرب بينها بفعال آبائها يوم النحر حين يفرغون ، فأمروا بذكر الله مكان ذلك . وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس . قال كان المشركون يجلسون فى الحج فيذكرون أيام آبائهم وما يعدّون من أنسابهم يومهم أجمع ، فأنزل الله على رسوله (فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكرا) . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى عن عبدالله بن الزبير نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير وعكرمة نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (كذكركم آباءكم) يقول كما يذكر الأبناء الآباء . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس أيضا أنه قيل له فى قوله (كذكركم آباءكم) ان الرجل ليأتى عليه اليوم ، ومايذكر أباه . فقال انه ليس بذاك ، ولكن يقول تغضب لله إذا عصى أشدّ من غضبك إذا ذكر والدك بسوء . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون اللهم اجعله عام غيث ، وعام خصب ، وعام ولاد حسن لايذكرون من أمر الآخرة شيئا ، فأنزل الله فيهم (فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق) ويجىء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) فأنزل الله فيهم (أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) . وأخرج الطبرانى عن عبد الله بن الزبير قال كان الناس فى الجاهلية إذا وقفوا عند المشعر الحرام دعوا فقال أحدهم اللهمّ ارزقنى إبلا ، وقال الآخر اللهمّ ارزقنى غنما ، فأنزل الله الآية . وأخرج ابن جرير عن أنس ، أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة فيدعون : اللهم اسقنا المطر ، وأعطنا على عدوّنا الظفر ، وردّنا صالحين إلى صالحين ، فنزلت الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله (أولئك لهم نصيب مما كسبوا) قال مما عملوا من الخير . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (سريع الحساب) قال سريع الاحصاء . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن أبى حاتم عن علىّ . قال الأيام المعدودات ثلاثة أيام ، يوم الأضحى ويومان بعده ، اذبح فى أيها شئت ، وأفضلها أوّلها . وأخرج الفريابى وابن أبى الدنيا وابن المنذر عن ابن عمر أنها أيام التشريق الثلاثة . وفى لفظ هذه الأيام الثلاثة بعد يوم النحر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال ، الأيام المعلومات أيام العشر ، والأيام المعدودات أيام التشريق . وأخرج الطبرانى عن ابن الزبير قال فى قوله (واذكروا الله فى أيام معدودات) قال هنّ أيام التشريق ، يذكر فيهنّ بتسبيح وتهليل وتكبير وتحميد . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الأيام المعدودات أربعة أيام ، يوم النحر ، والثلاثة أيام بعده . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر ، أنه كان يكبر تلك الأيام بمنى ويقول التكبير واجب ، ويتأوّل هذه الآية (واذكروا الله فى أيام معدودات) . وأخرج ابن جرير والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ، أنه كان يكبر يوم النحر ويتلو هذه الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله (واذكروا الله فى أيام معدودات) قال التكبير أيام التشريق ، يقول فى دبر كل صلاة ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر . وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر أنه كان يكبر ثلاثا ثلاثا وراء الصلوات ويقول : لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . وأخرج المروزى عن الزهرى قال كان رسول الله ﷺ يكبر أيام التشريق كلها

وأخرج مالك عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن عمر بن الخطاب خرج الغد من يوم النحر بمنى حين ارتفع النهار شيئا فكبر وكبر الناس بتكبيره ، ثم خرج الثانية فى يومه ذلك بعد ارتفاع النهار ، فكبر وكبر الناس بتكبيره حتى بلغ تكبيرهم البيت ، ثم خرج الثالثة من يومه ذلك حين زاغت الشمس ، فكبر وكبر الناس بتكبيره . وقد ثبت فى الصحيح من حديث ابن عمر أن النبى ﷺ كان يرمى الجمار ويكبر مع كل حصاة . وقد روى نحوذلك من حديث عائشة عند الحاكم وصححه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه) قال فى تعجيله (ومن تأخر فلا اثم عليه) قال فى تأخيره . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال : النفر فى يومين لمن اتقى . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه قال من غابت له الشمس فى اليوم الذى قال الله فيه (فمن تعجل فى يومين) وهو بمنى فلا ينفرنّ حتى يرمى الجمار من الغد . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (لمن اتقى) قال لمن اتقى الصيد وهو محرم . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأهل السنن والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن يعمر الديلى سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بعرفة وأتاه الناس من أهل مكة فقالوا يارسول الله كيف الحج ؟ قال الحج عرفات ، فمن أدرك ليلة جمع قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك أيام منى ثلاثة أيام (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه) قال مغفورا له (ومن تأخر فلا إثم عليه) قال مغفورا له . وأخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله (لمن اتقى) قال لمن اتقى فى حجه . قال قتادة وذكر لنا أن ابن مسعود كان يقول من اتقى فى حجه غفرله ماتقدم من ذنبه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبى العالية فى قوله (فلا اثم عليه لمن اتقى) قال ذهب إثمه كله ان اتقى فيما بقى من عمره .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَافِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَايُحِبُّ ٱلْفَسَادَ * وَإِذَاقِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِٱلْعِبَادِ *

لما ذكر سبحانه طائفتى المسلمين بقوله (فمن الناس من يقول) عقب ذلك بذكر طائفة المنافقين وهم الذين يظهرون الايمان ، ويبطنون الكفر . وسبب النزول الأخنس بن شريق كما يأتى بيانه . قال ابن عطية ماثبت قط أن الأخنس أسلم ، وقيل انها نزلت فى قوم من المنافقين ، وقيل انها نزلت فى كل من أضمر كفرا أو نفاقا أوكذبا ، وأظهر بلسانه خلافه ، ومعنى قوله (يعجبك) واضح ، ومعنى قوله (ويشهد الله على مافى قلبه) انه يحلف على ذلك ، فيقول يشهد الله على مافى قلبى من محبتك أو من الاسلام أو يقول الله يعلم أنى أقول حقا ، وانى صادق فى قولى لك ، وقرأ ابن محيصن (ويشهد الله) بفتح حرف المضارعة ورفع الاسم الشريف على أنه فاعل ، والمعنى ، و يعلم الله منه خلاف ماقال ، ومثله قوله تعالى ــ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ــ وقراءة الجماعة أبلغ فى الذم . وقرأ ابن عباس (والله يشهد على مافى قلبه) وقرأ أبىّ وابن مسعود (ويستشهد الله على مافى قلبه) * وقوله (فى الحياة الدنيا) متعلق بالقول ، أو بيعجبك ، فعلى الأوّل القول صادر فى الحياة ، وعلى الثانى الاعجاب موردفيها * والألد : الشديد الخصومة . يقال رجل ألدّ ، وامرأة لداء ، ولددته ألدّه ، إذا جادلته فغلبته ، ومنه قول الشاعر :

وألدّ ذى جنف علىّ كأنما * تغلى عداوة صدره فى مرجل

والخصام مصدر خاصم . قاله الخليل ، وقيل جمع خصم . قاله الزجاج ككلب وكلاب ، وصعب وصعاب وضخم وضخام ، والمعنى أنه أشدّ المخاصمين خصومة ، لكثرة جداله ، وقوّة مراجعته ، و إضافة الألدّ إلى الخصام بمعنى فى ، أى ألدّ فى الخصام ، أوجعل الخصام ألدّ على المبالغة * وقوله (و إذا تولى) أى أدبر وذهب عنك يامحمد ، وقيل انه بمعنى ضلّ وغضب ، وقيل انه بمعنى الولاية ، أى إذا كان واليا فعل مايفعله ولاة السوء من الفساد فى الأرض * والسعى المذكور يحتمل أن يكون المراد به السعى بالقدمين إلى ماهو فساد فى الأرض ، كقطع الطريق ، وحرب المسلمين ، ويحتمل أن يكون المراد به العمل فى الفساد ، وان لم يكن فيه سعى بالقدمين ، كالتدبير على المسلمين بما يضرهم ، وأعمال الحيل عليهم ، وكل عمل يعمله الانسان بجوارحه أو حواسه يقال له سعى ، وهذا هو الظاهر من هذه الآية * وقوله (ويهلك) عطف على قوله (ليفسد) وفى قراءة أبىّ وليهلك . وقرأه قتادة بالرفع . وروى عن ابن كثير (ويهلك) بفتح الياء وضم الكاف ورفع الحرث والنسل ، وهى قراءة الحسن وابن محيصن * والمراد بالحرث : الزرع ، والنسل الأولاد وقيل الحرث النساء . قال الزجاج ، وذلك لان النفاق يؤدى إلى تفريق الكلمة ، ووقوع القتال ، وفيه هلاك الخلق ، وقيل معناه ان الظالم يفسد فى الأرض فيمسك الله المطر فيهلك الحرث والنسل ، وأصل الحرث فى اللغة : الشق ، ومنه المحراث لما يشق به الأرض ، والحرث : كسب المال وجمعه ، وأصل النسل فى اللغة الخروج والسقوط ، ومنه نسل الشعر ، ومنه أيضا ــ إلى ربهم ينسلون * ومن كل حدب ينسلون ــ ويقال لما خرج من كل أنثى نسل لخروجه منها * وقوله (والله لايحب الفساد) يشمل كل نوع من أنواعه من غير فرق بين مافيه فساد الدين ، ومافيه فساد الدنيا ، والعزة : القوّة والغلبة ، من عزه يعزه إذا غلبه ومنه ــ وعزنى فى الخطاب ــ ، وقيل العزة هنا : الحمية ، ومنه قول الشاعر :

أخذته عزة من جهله * فتولى مغضبا فعل الضجر

وقيل العزة هنا : المنعة وشدّة النفس ، ومعنى (أخذته العزة بالاثم) : حملته العزة على الاثم ، من قولك أخذته بكذا : إذا حملته عليه وألزمته إياه ، وقيل أخذته العزة بما يؤثمه ، أى ارتكب الكفر للعزة ، ومنه ــ بل الذين كفروا فى عزة وشقاق ــ وقيل الباء فى قوله (بالاثم) بمعنى اللام ، أى أخذته العزة والحمية عن قبول الوعظ للاثم الذى فى قلبه ، وهو النفاق ، وقيل الباء بمعنى مع أى أخذته العزة مع الاثم * وقوله (فحسبه جهنم) أى كافيه معاقبة وجزاء ، كما تقول للرجل كفاك ماحلّ بك ، وأنت تستعظم عليه ماحلّ به * والمهاد ، جمع المهد وهو الموضع المهيأ للنوم ، ومنه مهد الصبى ، وسميت جهنم مهادا ، لانها مستقر الكفار ، وقيل المعنى انها بدل لهم من المهاد كقوله ــ فبشرهم بعذاب أليم ــ وقول الشاعر :

* تحية بينهم ضرب وجيع * ويشرى بمعنى يبيع أى يبيع نفسه فى مرضاة الله كالجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومثله قوله تعالى ــ وشروه بثمن بخس ــ وأصله الاستبدال ، ومنه قوله ــ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ــ ، ومنه قول الشاعر :

وشريت بردا ليتنى * من بعد برد كنت هامه

ومنه قول الآخر

يعطى بها ثمنا فيمنعها * ويقول صاحبه ألا تشرى

والمرضاة الرضا ، تقول رضى يرضى ، رضا ومرضاة ، ووجه ذكر الرأفة هنا ، أنه أوجب عليهم ماأوجبه ليجازيهم ويثيبهم عليه ، فكان ذلك رأفة بهم ولطفا لهم .

وقد أخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال لما أصيبت السرية

التي فيها عاصم ومرثد . قال رجال من المنافقين ياويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا ، لاهم قعدوا في أهلهم ولاهم أدّوا رسالة صاحبهم ، فأنزل الله (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا) أي مايظهر من الاسلام بلسانه (ويشهد الله على مافي قلبه) انه مخالف لمايقوله بلسانه (وهو ألدّ الخصام) أي ذوجدال إذا كلمك وراجعك (واذا تولى) خرج من عندك (سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد) أي لايحب عمله ولا يرضى به (ومن الناس من يشري نفسه) الذين يشرون أنفسهم من الله بالجهاد في سبيله ، والقيام بحقه ، حتى هلكوا على ذلك يعني هذه السرية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدي في قوله (ومن الناس من يعجبك) الآية قال نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة أقبل الى النبي ﷺ المدينة وقال جئت أريد الاسلام ويعلم الله اني لصادق ، فأعجب النبي ﷺ ذلك منه ، فذلك قوله (ويشهد الله على مافي قلبه) ، ثم خرج من عند النبي ﷺ فمرّ بزرع لقوم من المسلمين وحمر ، فأحرق الزرع ، وعقر الحمر ، فأنزل الله (واذا تولى سعى في الأرض) الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وهو ألدّ الخصام) قال هو شديد الخصومة . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله (واذا تولى سعى في الأرض) قال عمل في الأرض (أهلك الحرث) قال نبات الأرض (والنسل) نسل كل شيء من الحيوان الناس والدواب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أيضا أنه سئل عن قوله (واذا تولى سعى في الأرض) قال يلي في الأرض فيعمل فيها بالعدوان والظلم ، فيحبس الله بذلك القطر من السماء ، فتهلك بحبس القطر الحرث والنسل والله لايحب الفساد . ثم قرأ مجاهد ـ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ـ الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه سئل عن قوله (ويهلك الحرث والنسل) قال : الحرث الزرع ، والنسل : نسل كل دابة . وأخرج ابن المنذر والطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال « ان من أكبر الذنوب عند الله أن يقول الرجل لأخيه : اتق الله فيقول عليك بنفسك أنت تأمرني » . وأخرج ابن المنذر والبيهقي في الشعب عن سفيان قال قال رجل لمالك بن مغول اتق الله فسقط ، فوضع خدّه على الأرض تواضعا لله . وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (ولبئس المهاد) قال بئس المنزل . وأخرجا عن مجاهد قال بئس ماشهدوا لأنفسهم . وأخرج ابن مردويه عن صهيب قال لما أردت الهجرة من مكة الى النبي ﷺ قالت لي قريش ياصهيب قدمت الينا ولا مال لك ، وتخرج أنت ومالك ، والله لايكون ذلك أبدا ، فقلت لهم أرأيتم ان دفعت اليكم مالي تخلون عني ؟ قالوا نعم فدفعت اليهم مالي فخلوا عني ، فخرجت حتى قدمت المدينة فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال ربح البيع صهيب مرتين . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر عن سعيد بن المسيب نحوه . وأخرج الطبراني والحاكم والبيهقي في الدلائل عن صهيب نحوه . وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه عن أنس قال نزلت في خروج صهيب الى النبي ﷺ . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال هم المهاجرون والأنصار .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ *

لما ذكر الله سبحانه أن الناس ينقسمون الى ثلاث طوائف ، مؤمنين ، وكافرين ، ومنافقين ، أمرهم

بعد ذلك بالكون على ملة واحدة ، وانما أطلق على الثلاث الطوائف لفظ الايمان ، لان أهل الكتاب مؤمنون بنبيهم وكتابهم ، والمنافق مؤمن بلسانه ، وان كان غير مؤمن بقلبه ، والسلم بفتح السين وكسرها قال الكسائى ومعناهما واحد ، وكذا عندالبصريين ، وهما جميعا يقعان للاسلام والمسالمة . وقال أبوعمرو ابن العلاء انه بالفتح للمسالمة ، وبالكسر للاسلام ، وأنكر المبرد هذه التفرقة . وقال الجوهرى : السلم بفتح السين : الصلح ، وتكسر ويذكر ويؤنث ، وأصله من الاستسلام والانقياد ، ورجح الطبرى أنه هنا بمعنى الاسلام ، ومنه قول الشاعر الكندى :

دعوت عشيرتى للسلم لما * رأيتهم تولوا مدبرينا

أى الى الاسلام . وقرأ الأعمش السلم بفتح السين واللام ، وقد حكى البصريون فى سلم وسلم وسلم أنها بمعنى واحد * وكافة حال من السلم أومن ضمير المؤمنين ، فمعناه على الأوّل لايخرج منكم أحد ، وعلى الثانى لايخرج من أنواع السلم شىء ، بل ادخلوا فيها جميعا ، أى فى خصال الاسلام ، وهومشتق من قولهم كففت : أى منعت ، أى لايمتنع منكم أحد من الدخول فى الاسلام ، والكف : المنع ، والمراد به هنا الجميع (ادخلوا فى السلم كافة) أى جميعا * وقوله (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى لاتسلكوا الطريق التى يدعوكم اليه الشيطان ، وقد تقدّم الكلام على خطوات * قوله (زللتم) أى تنحيتم عن طريق الاستقامة ، وأصل الزلل فى القدم ، ثم استعمل فى الاعتقادات والآراء وغيرذلك ، يقال زلّ يزلّ زلا وزللا وزلولا : أى دحضت قدمه . وقرئ (زللتم) بكسر اللام وهما لغتان ، والمعنى : فان ضللتم وعرّجتم عن الحق (من بعد ماجاءتكم البينات) أى الحجج الواضحة ، والبراهين الصحيحة ، أن الدخول فى الاسلام هو الحق (فاعلموا أن الله عزيز) غالب لايعجزه الانتقام منكم (حكيم) لاينتقم الابحق * قوله (هل ينظرون) أى ينتظرون ، يقال نظرته وانتظرته بمعنى ، والمراد هل ينتظر التاركون للدخول فى السلم ، والظلل جمع ظلة ، وهى مايظلك ، وقرأ قتادة ويزيد بن القعقاع فى ظلال ، وقرأ يزيد أيضا (والملائكة) بالجر عطفا على الغمام أو على ظلل . قال الأخفش (والملائكة) بالخفض بمعنى وفى الملائكة قال والرفع أجود . وقال الزجاج التقدير فى ظلل من الغمام ومن الملائكة * والمعنى هل ينتظرون الا أن يأتيهم الله بما وعدهم من الحساب والعذاب فى ظلل من الغمام والملائكة . قال الأخفش وقد يحتمل أن يكون معنى الاتيان راجعا الى الجزاء ، فسمى الجزاء إتيانا كما سمى التخويف والتعذيب فى قصة ثمود إتيانا ، فقال — فأتى الله بنيانهم من القواعد — وقال فى قصة النضير — فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا — وانما احتمل الاتيان هذا ، لأن أصله عند أهل اللغة القصد الى الشىء ، فمعنى الآية هل ينظرون الا أن يظهر الله فعلا من الأفعال مع خلق من خلقه يقصد الى مجازاتهم ، وقيل ان المعنى يأتيهم أمر الله وحكمه ، وقيل ان قوله (فى ظلل) بمعنى بظلل ، وقيل المعنى يأتيهم ببأسه فى ظلل * والغمام : السحاب الرقيق الأبيض سمى بذلك ، لانه يغم أى يستر ، ووجه إتيان العذاب فى الغمام على تقدير أن ذلك هو المراد مافى مجىء الخوف من محل الأمن من الفظاعة وعظم الموقع ، لان الغمام مظنة الرحمة لامظنة العذاب * وقوله (وقضى الأمر) عطف على يأتيهم داخل فى حيز الانتظار ، وانما عدل إلى صيغة الماضى دلالة على تحققه فكأنه قد كان ، أوجملة مستأنفة جىء بها للدلالة على أن مضمونها واقع لامحالة ، أى وفرغ من الأمر الذى هو اهلاكهم . وقرأ معاذ بن جبل وقضاء الأمر بالمصدر عطفا على الملائكة . وقرأ يحيى بن يعمر ، وقضى الأمور بالجمع . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى (ترجع الأمور) على بناء الفعل للفاعل ، وقرأ الباقون على البناء للمفعول وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة) قال

يعنى

يعنى مؤمنى أهل الكتاب ، فانهم كانوا مع الايمان بالله مستمسكين ببعض أمر التوراة والشرائع التى أنزلت فيهم ، يقول ادخلوا فى شرائع دين محمد ولا تدعوا منها شيئا ، وحسبكم الايمان بالتوراة وما فيها . وأخرج ابن جرير عن عكرمة أن هذه الآية نزلت فى ثعلبة وعبد الله بن سلام وابن يامين وأسد وأسيد ابنى كعب وسعيد بن عمرو وقيس بن زيد كلهم من يهود قالوا يارسول الله يوم السبت يوم كنا نعظمه فدعنا فلنسبت فيه ، وان التوراة كتاب الله فلنقم بها الليل ، فنزلت (ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : السلم الطاعة لله ، وكافة يقول جميعا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : السلم الاسلام ، والزلل : ترك الاسلام . وأخرج ابن جرير عن السدى قال (فان زللتم من بعد جاءتكم البينات) قال فان ظللتم من بعد ماجاءكم محمد ﷺ . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال « يجمع الله الأوّلين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء ، وينزل الله فى ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسى » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عمر فى هذه الآية قال : يهبط حين يهبط ، و بينه و بين خلقه سبعون ألف حجاب ، منها النور ، والظلمة ، والماء ، فيصوت الماء فى تلك الظلمة صوتا تنخلع له القلوب . وأخرج أبو يعلى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى هذه الآية قال : يأتى الله يوم القيامة فى ظلل من السحاب ، قد قطعت طاقات . وأخرج ابن جرير والديلمى عنه أن النبى ﷺ قال « ان من الغمام طاقات يأتى الله فيها محفوفات بالملائكة » وذلك قوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عكرمة (فى ظلل من الغمام) قال طاقات والملائكة حوله . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : يأتيهم الله فى ظلل من الغمام ، وتأتيهم الملائكة عند الموت . وأخرج عن عكرمة فى قوله (وقضى الأمر) يقول قامت الساعة .

سَلْ بَنِى إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ آتَيْنَٰهُم مِّنْ آيَةٍۭ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ *

المأمور بالسؤال لبنى اسرائيل هو النبى ﷺ ويجوز أن يكون هو كل فرد من السائلين ، وهو سؤال تقريع وتوبيخ * (وكم) فى محل نصب بالفعل المذكور بعدها ، على أنها مفعول بآتى ، ويجوز أن ينتصب بفعل مقدر دلّ عليه المذكور ، أى كم آتينا آتيناهم ، وقدّر متأخرا ، لان لها صدر الكلام ، وهى إما استفهامية للتقرير أو خبرية للتكثير * ومن آية فى موضع نصب على التميز ، وهى البراهين التى جاء بها أنبياؤهم فى أمر محمد ﷺ ، وقيل المراد بذلك الآيات التى جاء بها موسى ، وهى التسع * والمراد بالنعمة هنا ماجاءهم من الآيات . وقال ابن جرير الطبرى ، النعمة هنا : الاسلام ، والظاهر دخول كل نعمة أنعم الله بها على عبد من عباده كائنا من كان ، فوقع منه التبديل لها ، وعدم القيام بشكرها ، ولا ينافى ذلك كون

السياق فى بنى اسرائيل ، أوكونهم السبب فى النزول لما تقرر من ان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وفى قوله (فان الله شديد العقاب) من الترهيب والتخويف مالا يقادر قدره * قوله (زين) مبنى للمجهول ، والمزين : هو الشيطان أو الأنفس المجبولة على حب العاجلة * والمراد بالذين كفروا رؤساء قريش أوكل كافر . وقرأ مجاهد وحميد بن قيس (زين) على البناء للمعلوم . قال النحاس : وهى قراءة شاذة ، لانه لم يتقدم للفاعل ذكر . وقرأ ابن أبى عبلة زينت ، وانما خص الذين كفروا بالذكر مع كون الدنيا مزينة للمسلم والكافر كما وصف سبحانه بأنه جعل ماعلى الأرض زينة لها ليبلو الخلق أيهم أحسن عملا ، لان الكافر افتتن بهذا التزيين وأعرض عن الآخرة ، والمسلم لم يفتتن به ، بل أقبل على الآخرة * قوله (ويسخرون من الذين آمنوا) هذه الجملة فى محل نصب على الحال : أى والحال أن أولئك الكفار يسخرون من الذين آمنوا لكونهم فقراء لاحظ لهم من الدنيا كحظ رؤساء الكفر ، وأساطين الضلال ، وذلك لان عرض الدنيا عندهم هو الأمر الذى يكون من ناله سعيدا رابحا ، ومن حرمه شقيا خاسرا . وقد كان غالب المؤمنين اذ ذاك فقراء لاشتغالهم بالعبادة وأمر الآخرة ، وعدم التفاتهم الى الدنيا وزينتها وحكى الأخفش أنه يقال سخرت منه وسخرت به ، وضحكت منه وضحكت به ، وهزأت منه وهزأت به ، والاسم السخرية والسخرى . ولما وقع من الكفار ماوقع من السخرية بالمؤمنين رد الله عليهم بقوله (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) ، والمراد بالفوقية هنا : العلو فى الدرجة ، لأنهم فى الجنة والكفار فى النار ، ويحتمل أن يراد بالفوق المكان ، لأن الجنة فى السماء ، والنار فى أسفل سافلين ، أوأن المؤمنين هم الغالبون فى الدنيا كما وقع ذلك من ظهور الاسلام وسقوط الكفر ، وقتل أهله ، وأسرهم وتشريدهم ، وضرب الجزية عليهم ، ولامانع من حمل الآية على جميع ذلك لولا التقييد بكونه فى يوم القيامة * قوله (والله يرزق من يشاء بغير حساب) يحتمل أن يكون فيه إشارة إلى أن الله سبحانه سيرزق المستضعفين من المؤمنين ، ويوسع عليهم ، ويجعل مايعطيهم من الرزق بغير حساب ، أى بغير تقدير ، ويحتمل أن المعنى أن الله يوسع على بعض عباده فى الرزق كما وسع على أولئك الرؤساء من الكفار استدراجا لهم ، وليس فى التوسعة دليل على أن من وسع عليه فقد رضى عنه ، ويحتمل أن يراد بغير حساب من المرزوقين ، كما قال سبحانه — ويرزقه من حيث لايحتسب — * قوله (كان الناس أمة واحدة) أى كانوا على دين واحد فاختلفوا (فبعث الله النبيين) ويدل على هذا المحذوف ، أعنى قوله فاختلفوا قراءة ابن مسعود فانه قرأ — كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين — ، واختلف فى الناس المذكورين فى هذه الآية من هم ؟ فقيل هم بنو آدم حين أخرجهم الله نسما من ظهر آدم ، وقيل آدم وحده ، وسمى ناسا ، لانه أصل النسل ، وقيل آدم وحواء ، وقيل المراد القرون الأولى التى كانت بين آدم ونوح ، وقيل المراد نوح ومن فى سفينته ، وقيل معنى الآية كان الناس أمة واحدة كلهم كفار فبعث الله النبيين ، وقيل المراد الاخبار عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم كانوا أمة واحدة فى خلوهم عن الشرائع ، وجهلهم بالحقائق ، لولا أن الله من عليهم بارسال الرسل * والأمة مأخوذة من قولهم أممت الشىء : أى قصدته أى مقصدهم واحد غير مختلف * قوله (فبعث الله النبيين) قيل جملتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، والرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر * وقوله (مبشرين ومنذرين) بالنصب على الحال * قوله (وأنزل معهم الكتاب) أى الجنس ، وقال ابن جرير الطبرى ان الألف واللام للعهد والمراد التوراة * وقوله (ليحكم) مسند إلى الكتاب فى قول الجمهور ، وهو مجاز مثل قوله تعالى — هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق — وقيل ان المعنى ليحكم كل نبى بكتابه ، وقيل ليحكم الله ، والضمير فى قوله (فيه) الأولى راجع إلى مافى قوله (فيما اختلفوا فيه) والضمير فى قوله (وما اختلف فيه) يحتمل أن يعود

الى

إلى الكتاب ، ويحتمل أن يعود إلى المنزّل عليه وهو محمد ﷺ . قاله الزجاج ، ويحتمل أن يعود إلى الحق * وقوله (إلا الذين أوتوه) أى أوتوا الكتاب ، أو أوتوا الحق أو أوتوا النبى : أى أعطوا علمه * وقوله (بغيا بينهم) منتصب على أنه مفعول به ، أى لم يختلفوا إلا للبغى : أى الحسد والحرص على الدنيا ، وفى هذا تنبيه على السفه فى فعلهم ، والقبيح الذى وقعوا فيه ، لانهم جعلوا نزول الكتاب سببا فى شدّة الخلاف * وقوله (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق) أى فهدى الله أمّة محمد ﷺ إلى الحق ، وذلك بما بينه لهم فى القرآن من اختلاف من كان قبلهم ، وقيل معناه فهدى الله أمّة محمد للتصديق ، بجميع الكتب بخلاف من قبلهم ، فان بعضهم كذّب كتاب بعض ، وقيل ان الله هداهم إلى الحق من القبلة ، وقيل هداهم ليوم الجمعة ، وقيل هداهم لاعتقاد الحق فى عيسى بعد أن كذّبته اليهود وجعلته النصارى ربا ، وقيل المراد بالحق الاسلام . وقال الفراء ان فى الآية قلبا ، وتقديره فهدى الله الذين آمنوا بالحق لما اختلفوا فيه . واختاره ابن جرير وضعفه ابن عطية * وقوله (باذنه) . قال الزجاج : معناه بعلمه . قال النحاس وهذا غلط ، والمعنى بأمره .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله (سل بنى اسرائيل) قال هم اليهود (كم آتيناهم من آية بينة) ماذكر الله فى القرآن ومالم يذكر (ومن يبدّل نعمة الله) قال يكفرها . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال آتاهم الله آيات بينات ، عصى موسى ، ويده ، وأقطعهم البحر ، وأغرق عدوّهم وهم ينظرون ، وظلل من الغمام ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى (ومن يبدّل نعمة الله) يقول : من يكفر بنعمة الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله (زين للذين كفروا الحياة الدنيا) قال الكفار يبتغون الدنيا ويطلبونها (ويسخرون من الذين آمنوا) فى طلبهم الآخرة . قال ابن جريج لاأحسبه الاعن عكرمة . قل قالوا لوكان محمد نبيا لاتبعه ساداتنا وأشرافنا ، والله مااتبعه الا أهل الحاجة مثل ابن مسعود وأصحابه . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (ويسخرون من الذين آمنوا) يقولون ماهؤلاء على شىء استهزاء وسخريا (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) هنا كم التفاضل . وأخرج عبد الرزاق عن قتادة . قال فوقهم فى الجنة . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال سألت ابن عباس عن هذه الآية (والله يرزق من يشاء بغير حساب) قال تفسيرها ليس على الله رقيب ولامن يحاسبه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : لايحاسب الربّ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو يعلى والطبرانى بسند صحيح عن ابن عباس قال : كان الناس أمة واحدة قال على الاسلام كلهم . وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم عنه قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا ، فبعث الله النبيين . قال : وكذلك فى قراءة عبد الله كان الناس أمة واحدة فاختلفوا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبىّ بن كعب ، قال كانوا أمة واحدة حيث عرضوا على آدم ففطرهم الله على الاسلام ، وأقرّوا له بالعبودية ، وكانوا أمة واحدة مسلمين ، ثم اختلفوا من بعد آدم . وأخرج وكيع وعبد ابن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد كان الناس أمة واحدة ، قال آدم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبىّ أنه كان يقرؤها (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين) وان الله انما بعث الرسل وأنزل الكتب بعد الاختلاف وما اختلف الذين أوتوه يعنى بنى اسرائيل أوتوا الكتاب والعلم بغيا بينهم يقول بغيا على الدنيا وطلب ملكها وزخرفها أيهم يكون له الملك والمهابة فى الناس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس (كان الناس أمة واحدة) قال كفارا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى هريرة فى قوله (فهدى الله الذين آمنوا) قال قال النبى ﷺ

«نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة ، وأوّل الناس دخولا يبدأ بهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق ، فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، فغدا لليهود ، و بعد غد للنصارى» ، وهو فى الصحيح بدون ذكر الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى قوله (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق) قال اختلفوا فى يوم الجمعة ، فأخذ اليهود يوم السبت ، والنصارى يوم الأحد ، فهدى الله أمة محمد ليوم الجمعة واختلفوا فى القبلة ، فاستقبلت النصارى المشرق ، واليهود بيت المقدس ، وهدى أمة محمد للقبلة ، واختلفوا فى الصلاة ، فمنهم من يركع ولا يسجد ، ومنهم من يسجد ولا يركع ، ومنهم من يصلى وهو يتكلم ، ومنهم من يصلى وهو يمشى فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك ، واختلفوا فى الصيام ، فمنهم من يصوم النهار ، ومنهم من يصوم من بعد الطعام فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك ، واختلفوا فى ابراهيم ، فقالت اليهود كان يهوديا ، وقالت النصارى كان نصرانيا وجعله الله حنيفا مسلما ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك ، واختلفوا فى عيسى ، فكذبت به اليهود ، وقالوا لأمه بهتانا عظيما ، وجعلته النصارى إلها وولدا ، وجعله الله روحه وكلمته ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ *

أم هنا منقطعة بمعنى بل . وحكى بعض اللغويين أنها قد تجىء بمثابة همزة الاستفهام يبتدأ بها الكلام فعلى هذا معنى الاستفهام هنا التقرير والانكار : أى أحسبتم دخولكم الجنة واقعا ، ولم تمتحنوا بمثل ماامتحن به من كان قبلكم ، فتصبروا كما صبروا ، ذكر الله سبحانه هذه التسلية بعد أن ذكر اختلاف الأمم على أنبيائهم ، تثبيتا للمؤمنين ، وتقوية لقلوبهم ، ومثل هذه الآية قوله تعالى ـ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ـ * وقوله تعالى ـ الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ـ * وقوله (مستهم) بيان لقوله (مثل الذين خلوا) * (والبأساء والضراء) قد تقدّم تفسيرهما ، والزلزلة : شدّة التحريك يكون فى الأشخاص وفى الأحوال ، يقال زلزل الله الأرض زلزلة وزلزالا بالكسر ، فتزلزلت : إذا تحركت واضطربت ، فمعنى زلزلوا : خوّفوا وأزعجوا إزعاجا شديدا . وقال الزجاج أصل الزلزلة : نقل الشىء من مكانه ، فاذا قلت : زلزلته فمعناه كررت زلله من مكانه * وقوله (حتى يقول) أى استمرّ ذلك الى غاية هى قول الرسول ومن معه (متى نصر الله) والرسول هنا قيل هو محمد ﷺ وقيل هو شعياء ، وقيل هو كل رسول بعث الى أمته . وقرأ مجاهد والأعرج ونافع وابن محيصن بالرفع فى قوله (حتى يقول) ، وقرأ غيرهم بالنصب فالرفع على انه حكاية لحال ماضية ، والنصب باضمار أن على أنه غاية لما قبله . وقرأ الأعمش وزلزلوا و يقول الرسول بالواو بدل حتى ، ومعنى ذلك أن الرسول ومن معه بلغ بهم الضجر الى أن قالوا هذه المقالة المقتضية لطلب النصر ، واستبطاء حصوله ، واستطالة تأخره ، فبشرهم الله سبحانه بقوله (ألا ان نصر الله قريب) . وقالت طائفة فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله ، و يقول الرسول ﷺ ألا إن نصر الله قريب ، ولا ملجىء لهذا التكلف ، لأن قول الرسول ومن معه (متى نصر الله) ليس فيه الا استعجال النصر من الله سبحانه ، وليس فيه ما زعموه من الشك والارتياب حتى يحتاج الى ذلك التأويل المتعسف .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة أن هذه الآية نزلت فى يوم الأحزاب ، أصاب النبى ﷺ يومئذ وأصحابه بلاء وحصر . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء وأنه مبتليهم فيها ، وأخبرهم أنه هكذا فعل بأنبيائه وصفوته لتطيب أنفسهم فقال (مستهم البأساء والضراء) فالبأساء : الفتن ، والضراء : السقم ، وزلزلوا بالفتن وأذى الناس اياهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (ولما يأتكم مثل الذين خلوا) قال أصابهم هذا يوم الأحزاب حتى قال قائلهم ــ ماوعدنا الله ورسوله الا غرورا ــ ولعله يعنى بقوله حتى قال قائلهم : يعنى قائل المنافقين كما يفيد ذلك قوله تعالى ــ اذ جاء وكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا * و إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله الاغرورا .

يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ *

السائلون هنا : هم المؤمنون سألوا عن الشىء الذى ينفقونه ماهو ؟ فأجيبوا ببيان المصرف الذى يصرفون فيه تنبيها على أنه الأولى بالقصد ، لأن الشىء لايعتدّ به الا اذا وضع فى موضعه وصادف مصرفه وقيل انه قد تضمن قوله (ما أنفقتم من خير) بيان ماينفقونه وهو كل خير ، وقيل انهم انما سألوا عن وجوه البر التى ينفقون فيها ، وهو خلاف الظاهر . وقد تقدم الكلام فى الأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وقوله (كتب) أى فرض . وقد تقدّم بيان معناه ، بين سبحانه أن هذا أى فرض القتال عليهم من جملة ماامتحنوا به * والمراد بالقتال قتال الكفار * والكره بالضم : المشقة ، و بالفتح : ما أكرهت عليه ويجوز الضم فى معنى الفتح فيكونان لغتين ، يقال كرهت الشىء كرها وكرها وكراهة وكراهية وأكرهته عليه إكراها وانما كان الجهاد كرها لان فيه إخراج المال ، ومفارقة الأهل والوطن ، والتعرّض لذهاب النفس ، وفى التعبير بالمصدر وهو قوله (كره) مبالغة ، ويحتمل أن يكون بمعنى المكروه كما فى قولهم الدرهم ضرب الأمير * وقوله (وعسى أن تكرهوا شيئا) قيل عسى هنا بمعنى قد . روى ذلك عن الأصم . وقال أبو عبيدة عسى من الله إيجاب ، والمعنى عسى أن تكرهوا الجهاد لما فيه من المشقة وهو خير لكم ، فربما تغلبون و تظفرون وتغنمون وتؤجرون ، ومن مات مات شهيدا ، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم فربما يتقوّى عليكم العدوّ فيغلبكم ، و يقصدكم الى عقر دياركم ، فيحلّ بكم أشدّ مما تخافونه من الجهاد الذى كرهتم مع مايفوتكم فى ذلك من الفوائد العاجلة والآجلة (والله يعلم) مافيه صلاحكم وفلاحكم (وأنتم لاتعلمون) .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (يسألونك ماذا ينفقون) قال يوم نزلت هذه الآية لم تكن زكاة ، وهى النفقة ينفقها الرجل على أهله ، والصدقة يتصدّق بها فنسختها الزكاة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال سأل المؤمنون رسول الله ﷺ أين يضعون أموالهم ؟ فنزلت (يسألونك ماذا ينفقون) الآية ، فذلك النفقة فى التطوّع والزكاة سواء ذلك كله . وأخرج ابن المنذر أن عمرو بن الجموح سأل رسول الله ﷺ ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها ؟ فنزلت . وأخرج ابن أبى حاتم

عن سعيد بن جبير فى قوله (كتب عليكم القتال) قال ان الله أمر النبى ﷺ والمؤمنين بمكة بالتوحيد وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يكفوا أيديهم عن القتال ، فلما هاجر إلى المدينة نزلت سائر الفرائض وأذن لهم فى القتال ، فنزلت (كتب عليكم القتال) يعنى فرض عليكم وأذن لهم بعد مانهاهم عنه (وهو كره لكم) يعنى القتال وهو مشقة عليكم (وعسى أن تكرهوا شيئا) يعنى الجهاد قتال المشركين وهو خير لكم ، ويجعل الله عاقبته فتحا وغنيمة وشهادة (وعسى أن تحبوا شيئا) يعنى القعود عن الجهاد (وهو شرّ لكم) فيجعل الله عاقبته شرا ، فلا تصيبوا ظفرا ولا غنيمة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج قال قلت لعطاء مايقول فى قوله (كتب عليكم القتال) أوجب الغزو على الناس من أجلها قال لا كتب على أولئك حينئذ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن شهاب فى الآية قال الجهاد مكتوب على كل أحد غزا أوقعد ، فالقاعد ان استعين به أعان ، وان استغيث به أغاث ، وان استنفر نفر ، وان استغنى عنه قعد . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله (وهو كره لكم) قال نسختها هذه الآية ـ وقالوا سمعنا وأطعنا ـ . وأخرجه ابن جرير موصولا عن عكرمة عن ابن عباس . وأخرج ابن المنذر والبيهقى فى سننه من طريق علىّ قال عسى من الله واجب . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى نحوه أيضا . وقد ورد فى فضل الجهاد ووجوبه أحاديث كثيرة لايتسع المقام لبسطها .

يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ *

قوله (قتال فيه) هو بدل اشتمال . قاله سيبويه ، ووجهه أن السؤال عن الشهر لم يكن الا باعتبار ماوقع فيه من القتال . قال الزجاج : المعنى يسئلونك عن القتال فى الشهر الحرام ، وأنشد سيبويه قول الشاعر :

فما كان قيس هلكه هلك واحد * ولكنه بنيان قوم تهدّما

فقوله هلكه بدل اشتمال من قيس ، وقال الفراء : هو مخفوض يعنى قوله (قتال فيه) على نية عن وقال أبوعبيدة هو مخفوض على الجوار . قال النحاس لايجوز أن يعرب الشىء على الجوار فى كتاب الله ولا فى شىء من الكلام ، وانما وقع فى شىء شاذ ، وهو قولهم : هذا جحر ضب خرب ، وتابع النحاس ابن عطية فى تخطئة أبى عبيدة . قال النحاس ، ولايجوز إضمار عن ، والقول فيه انه بدل . وقرأ ابن مسعود وعكرمة يسألونك عن الشهر الحرام وعن قتال فيه . وقرأ الأعرج (قتال فيه) بالرفع . قال النحاس وهو غامض فى العربية ، والمعنى يسألونك عن الشهر الحرام جائز قتال فيه * وقوله (قل قتال فيه كبير) مبتدأ وخبر : أى القتال فيه أمر كبير مستنكر ، والشهر الحرام : المراد به الجنس . وقد كانت العرب لاتسفك فيه دما ولا تغير على عدوّ ، والأشهر الحرم : هى ذوالقعدة ، وذوالحجة ، ومحرّم ، ورجب ثلاثة سرد ، وواحد فرد * وقوله (وصدّ عن سبيل الله) مبتدأ * وقوله (وكفر به) معطوف على صد * وقوله

(والمسجد الحرام) عطف على سبيل الله * وقوله (وإخراج أهله منه) معطوف أيضا على صدّ * وقوله (أكبر عند الله) خبر صدّ وما عطف عليه : أى الصدّ عن سبيل الله ، والكفر به والصدّ عن المسجد الحرام ، وإخراج أهل الحرم منه (أكبر عند الله) أى أعظم إثما وأشدّ ذنبا من القتال فى الشهر الحرام كذا قال المبرد وغيره ، والضمير فى قوله (وكفر به) يعود الى الله ، وقيل يعود الى الحج . وقال الفراء ان قوله (وصدّ) عطف على كبير ، والمسجد عطف على الضمير فى قوله (وكفر به) فيكون الكلام منتسقا متصلا غير منفصل . قال ابن عطية وذلك خطأ لأن المعنى يسوق الى أن قوله (وكفر به) أى بالله عطف أيضا على كبير ، ويجىء من ذلك أن إخراج أهل المسجد منه أكبر من الكفر بالله ، وهذا بين فساده ، ومعنى الآية على القول الأوّل الذى ذهب اليه الجمهور : أنكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال فى الشهر الحرام ، وما تفعلون أنتم من الصدّ عن سبيل الله لمن أراد الاسلام ومن الكفر بالله ومن الصدّ عن المسجد الحرام ، ومن إخراج أهل الحرم منه أكبر جرما عند الله ، والسبب يشهد لهذا المعنى ، ويفيد أنه المراد كما سيأتى بيانه فان السؤال منهم المذكور فى هذه الآية هو سؤال إنكار لما وقع من السرية التى بعثها النبى ﷺ ، والمراد بالفتنة هنا الكفر : أى كفركم أكبر من القتل الواقع من السرية التى بعثها النبى ﷺ وقيل المراد بالفتنة : الاخراج لأهل الحرم منه ، وقيل المراد بالفتنة هنا فتنتهم عن دينهم حتى يهلكوا أى فتنة المستضعفين من المؤمنين أو نفس الفتنة التى الكفار عليها ، وهذا أرجح من الوجهين الأوّلين ، لان الكفر والاخراج قد سبق ذكرهما وأنهما مع الصدّ أكبر عند الله من القتال فى الشهر الحرام * وقوله (ولا يزالون) ابتداء كلام يتضمن الاخبار من الله عزّ وجل للمؤمنين بأن هؤلاء الكفار لا يزالون مستمرين على قتالكم وعداوتكم حتى يردوكم عن الاسلام الى الكفر ان استطاعوا ذلك وتهيأ لهم منكم ، والتقييد بهذا الشرط مشعر باستبعاد تمكنهم من ذلك وقدرتهم عليه ، ثم حذّر الله سبحانه المؤمنين من الاغترار بالكفار والدخول فيما يريدونه من ردّهم عن دينهم الذى هو الغاية لما يريدونه من المقاتلة للمؤمنين . فقال (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم) الى آخر الآية * والردّة : الرجوع عن الاسلام الى الكفر ، والتقييد بقوله (فيمت وهو كافر) يفيد أن عمل من ارتدّ انما يبطل اذا مات على الكفر * وحبط : معناه بطل وفسد ، ومنه الحبط وهو فساد يلحق المواشى فى بطونها من كثرة أكلها للكلأ فتنتفخ أجوافها ، وربما تموت من ذلك ، وفى هذه الآية تهديد للمسلمين ليثبتوا على دين الاسلام ، ومعنى قوله (فى الدنيا والآخرة) أنه لا يبقى له حكم المسلمين فى الدنيا ، فلا يأخذ شيئا مما يستحقه المسلمون ، ولا يظفر بحظ من حظوظ الاسلام ولا ينال شيئا من ثواب الآخرة الذى يوجبه الاسلام ويستحقه أهله . وقد اختلف أهل العلم فى الردّة هل تحبط العمل بمجردها أم لا تحبط الا بالموت على الكفر ، والواجب حمل ما أطلقته الآيات فى غير هذا الموضع على ما فى هذه الآية من التقييد . وقد تقدم الكلام فى معنى الخلود * قوله (وهاجروا) الهجرة : معناها الانتقال من موضع الى موضع ، وترك الأوّل لايثار الثانى ، والهجر ضدّ الوصل ، والتهاجر : التقاطع ، والمراد بها هنا الهجرة من دار الكفر الى دار الاسلام * والمجاهدة : استخراج الجهد ، جهد مجاهدة وجهادا ، والجهاد والتجاهد : بذل الوسع * وقوله (يرجون) معناه يطمعون ، وانما قال يرجون بعد تلك الأوصاف المادحة التى وصفهم بها ، لأنه لا يعلم أحد فى هذه الدنيا أنه صائر الى الجنة ، ولو بلغ فى طاعة الله كل مبلغ ، والرجاء : الأمل ، يقال رجوت فلانا : أرجو رجاء ورجاوة . وقد يكون الرجاء بمعنى الخوف كما فى قوله تعالى ــ مالكم لا ترجون لله وقارا ــ أى لا تخافون عظمة الله .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والبيهقى فى سننه بسند صحيح عن جندب

ابن عبد الله عن النبى ﷺ أنه بعث رهطا و بعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح أو عبيدة بن الحارث . فلما ذهب لينطلق بكى شوقا وصبابة الى النبى ﷺ فجلس فبعث مكانه عبد الله بن جحش وكتب له كتابا وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا وقال لا تكرهنّ أحدا من أصحابك على المسير معك فلما قرأ الكتاب استرجع وقال سمعا وطاعة لله ولرسوله ، نخبرهم الخبر ، وقرأ عليهم الكتاب فرجع رجلان ومضى بقيتهم فلقوا ابن الحضرمى فقتلوه ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو جمادى . فقال المشركون للمسلمين قتلتم فى الشهر الحرام ، فأنزل الله (يسألونك عن الشهر الحرام) الآية ، فقال بعضهم ان لم يكونوا أصابوا وزرا فليس لهم أجر ، فأنزل الله (ان الذين آمنوا والذين هاجروا) الى آخر الآية . وأخرج البزار عن ابن عباس أن سبب نزول الآية هو ذلك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : ان المشركين صدوا رسول الله ﷺ وردّوه عن المسجد الحرام فى شهر حرام ؛ ففتح الله على نبيه فى شهر حرام من العام المقبل ، فعاب المشركون على رسول الله ﷺ القتال فى شهر حرام . فقال الله (قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله) من القتال فيه وأن محمدا ﷺ بعث سرية ، فلقوا عمرو بن الحضرمى وهو مقبل من الطائف فى آخر ليلة من جمادى وأوّل ليلة من رجب ، وان أصحاب محمد كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى ، وكانت أوّل رجب ولم يشعروا ، فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه وأن المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك فنزلت الآية . وأخرج ابن اسحق عنه أن سبب نزول الآية مصاب عمرو بن الحضرمى . وقد ورد من طرق كثيرة فى تعيين السبب مثل ما تقدّم . وأخرج ابن أبى داود عن عطاء بن ميسرة قال أحلّ القتال فى الشهر الحرام فى براءة فى قوله — فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة — . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان الثورى أنه سئل عن هذه الآية . فقال هذا شىء منسوخ ، ولا بأس بالقتال فى الشهر الحرام . وأخرج النحاس فى ناسخه عن ابن عباس أن هذه الآية منسوخة بآية السيف فى براءة — فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم — . وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر (والفتنة أكبر من القتل) قال الشرك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد (ولا يزالون يقاتلونكم) قال كفار قريش . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله (أولئك يرجون رحمة الله) قال هؤلاء خيار هذه الأمة جعلهم الله أهل رجاء ، انه من رجا طلب ، ومن خاف هرب . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه .

يَسْـئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْـئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *

السائلون فى قوله (يسألونك عن الخمر) هم المؤمنون كما سيأتى بيانه عند ذكر سبب نزول الآية ، والخمر مأخوذة من خمر اذا ستر ، ومنه خمار المرأة ، وكل شىء غطى شيئا فقد خمره ، ومنه « خمروا آنيتكم » وسمى خمرا لأنه يخمر العقل أى يغطيه و يستره ، ومن ذلك الشجر الملتف يقال له الخمر بفتح الميم ، لأنه يغطى ما تحته و يستره ، يقال منه أخمرت الأرض : كثر خمرها . قال الشاعر :

ألا يا زيد والضحاك سيرا * فقد جاوزتما خمر الطريق

أى جاوزتما الوهد ، وقيل انما سميت الخمر خمرا لأنها تركت حتى أدركت كما يقال قد اختمر العجين أى بلغ ادراكه ، وخمر الرأى أى ترك حتى تبين فيه الوجه ، وقيل انما سميت الخمر خمرا لأنها تخالط العقل من المخامرة وهى المخالطة ، وهذه المعانى الثلاثة متقاربة موجودة فى الخمر لأنها تركت حتى أدركت ثم خالطت العقل فخمرته : أى سترته ، والخمر ماء العنب الذى غلا واشتدّ وقذف بالزبد ، وما خامر العقل من غيره فهو فى حكمه كما ذهب اليه الجمهور . وقال أبو حنيفة والثورى وابن أبى ليلى وابن عكرمة وجماعة من فقهاء الكوفة ماأسكر كثيره من غير خمر العنب فهو حلال : أى مادون المسكر فيه ، وذهب أبو حنيفة الى حلّ ماذهب ثلثاه بالطبخ ، والخلاف فى ذلك مشهور . وقد أطلت الكلام على الخمر فى شرحى للمنتقى فليرجع اليه * والميسر مأخوذ من اليسر ، وهو وجوب الشىء لصاحبه ، يقال يسر لى كذا اذا وجب فهو ييسر يسرا وميسرا ، والياسر : اللاعب بالقداح . وقد يسر ييسر . قال الشاعر :

فأعنهم وايسر كما يسروا به * واذاهم نزلوا بضنك فانزل

وقال الازهرى الميسر : الجزور التى كانوا يتقامرون عليه ، سمى ميسرا ، لأنه يجزأ أجزاء ، فكأنه موضع التجزئة ، وكل شىء جزأته فقد يسرته ، والياسر الجازر ، قال وهذا الأصل فى الياسر ، ثم يقال للضارب بالقداح ، والمتقامرين على الجزور ياسرون ، لأنهم جازرون : اذ كانوا سببا لذلك . وقال فى الصحاح ، و يسر القوم الجزور اذا اجتزروها ، واقتسموا أعضاءها ، ثم قال و يقال يسر القوم : اذا قامروا ، ورجل ميسر وياسر بمعنى ، والجمع أيسار . قال النابغة :

انى أتمم أيسارى وأمنحهم * مثنى الأيادى وأكسو الجفنة الأدما

والمراد بالميسر فى الآية قمار العرب بالأزلام . قال جماعة من السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم كل شىء فيه قمار من نرد أو شطرنج أوغيرهما فهو الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب الا ماأبيح من الرهان فى الخيل والقرعة فى إفراز الحقوق . وقال مالك : الميسر ميسران ، ميسر اللهو وميسر القمار ، فمن ميسر اللهو النرد والشطرنج والملاهى كلها ، وميسر القمار : مايتخاطر الناس عليه ، وكل ماقومر به فهو ميسر ، وسيأتى البحث مطوّلا فى هذا فى سورة المائدة عند قوله ـ انما الخمر والميسر ـ * قوله (قل فيهما إثم كبير) يعنى الخمر والميسر ، فاثم الخمر : أى إثم تعاطيها ينشأ من فساد عقل مستعملها فيصدر عنه مايصدر عن فاسد العقل من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش والزور ، وتعطيل الصلوات ، وسائر مايجب عليه . وأما إثم الميسر : أى إثم تعاطيه ، فما ينشأ عن ذلك من الفقر وذهاب المال فى غير طائل والعداوة وايحاش الصدور * وأما منافع الخمر فربح التجارة فيها ، وقيل مايصدر عنها من الطرب والنشاط وقوّة القلب وثبات الجنان و إصلاح المعدة وقوّة الباءة . وقد أشار شعراء العرب الى شىء من ذلك قال :

واذا شربت فاننى * رب الخورنق والسدير
واذا صحوت فاننى * رب الشويهة والبعير

وقال آخر

ونشربها فتتركنا ملوكا * وأسدا ماينهنهنا اللقاء

وقال من أشار الى مافيها من المفاسد والمصالح :

رأيت الخمر صالحة وفيها * خصال تفسد الرجل الحليما
فلا والله أشربها صحيحا * ولا أشفى بها أبدا سقيما
ولا أعطى بها ثمنا حياتى * ولا أدعو لها أبدا نديما

ومنافع الميسر : مصير الشيء الى الانسان بغير تعب ولا كدّ ، وما يحصل من السرور والأريحية عند أن يصيرله منها سهم صالح ، وسهام الميسر أحد عشر منها سبعة لها فروض على عدد ما فيها من الحظوظ ، الأوّل الفذ بفتح الفاء بعدها معجمة ، وفيه علامة واحدة ، وله نصيب وعليه نصيب . الثانى التوأم بفتح المثناة الفوقية وسكون الواو وفتح الهمزة ، وفيه علامتان ، وله وعليه نصيبان . الثالث الرقيب ، وفيه ثلاث علامات ، وله وعليه ثلاثة أنصباء . الرابع الحلس بمهملتين ، الأولى مكسورة واللام ساكنة ، وفيه أربع علامات ، وله وعليه أربعة أنصباء . الخامس النافر بالنون والفاء والمهملة ، ويقال : النافس بالسين المهملة مكان الراء ، وفيه خمس علامات ، وله وعليه خمسة أنصباء . السادس المسبل بضم الميم وسكون المهملة وفتح الباء الموحدة وفيه ست علامات ، وله وعليه ستة أنصباء . السابع المعلى بضم الميم وفتح المهملة وتشديد اللام المفتوحة وفيه سبع علامات ، وله وعليه سبعة أنصباء ، وهو أكثر السهام حظا ، وأعلاها قدرا ، فجملة ذلك ثمانية وعشرون فردا ، والجزور تجعل ثمانية وعشرين جزءا ، هكذا قال الأصمعى ، و بقى من السهام أربعة أغفالا لافروض لها ، وهى : المنيح بفتح الميم وكسر النون وسكون الياء التحتية و بعدها مهملة ، والسفيح بفتح المهملة وكسر الفاء وسكون الياء التحتية بعدها مهملة ، والوغد بفتح الواو وسكون المعجمة بعدها مهملة والضعف بالمعجمة بعدها مهملة ثم فاء ، وانما أدخلوا هذه الأربعة التى لافروض لها بين ذوات الفروض لتكثر السهام على الذى يجيلها و يضرب بها فلا يجد الى الميل مع أحد سبيلا . وقد كان المجيل للسهام يلتحف بثوب ويحثو على ركبتيه ويخرج رأسه من الثوب ، ثم يدخل يده فى الربابة بكسر المهملة و بعدها باء موحدة و بعد الألف باء موحدة أيضا وهى الخريطة التى يجعل فيها السهام ، فيخرج منها باسم كل رجل سهما ، فمن خرج له سهم له فرض أخذ فرضه ، ومن خرج له سهم لافرض له لم يأخذ شيئا وغرم قيمة الجزور : وكانوا يدفعون تلك الأنصباء الى الفقراء . وقد قال ابن عطية ان الأصمعى أخطأ فى قوله ان الجزور تقسم على ثمانية وعشرين جزءا . وقال انما تقسم على عشرة أجزاء * قوله تعالى (وإثمهما أكبر من نفعهما) أخبر سبحانه بأن الخمر والميسر وان كان فيهما نفع فالاثم الذى يلحق متعاطيهما أكثر من هذا النفع لأنه لاخير يساوى فساد العقل الحاصل بالخمر ، فانه ينشأ عنه من الشرور مالايأتى عليه الحصر ، وكذلك لاخير فى الميسر يساوى مافيها من المخاطرة بالمال والتعرّض للفقر ، واستجلاب العداوات المفضية الى سفك الدماء وهتك الحرم . وقرأ حمزة والكسائى كثير بالمثلثة . وقرأ الباقون بالباء الموحدة . وقرأ أبىّ و إثمهما أقرب من نفعهما * قوله (قل العفو) قرأه الجمهور بالنصب . وقرأ أبو عمرو وحده بالرفع . واختلف فيه عن ابن كثير ، و بالرفع قرأه الحسن وقتادة . قال النحاس ان جعلت ذا بمعنى الذى كان الاختيار الرفع على معنى الذى ينفقون هو العفو ، وان جعلت ماوذا شيئا واحدا كان الاختيار النصب على معنى : قل ينفقون العفو ، والعفو : ماسهل وتيسر ولم يشق على القلب ، والمعنى أنفقوا مافضل عن حوائجكم ولم تجهدوا فيه أنفسكم ، وقيل : هومافضل عن نفقة العيال . وقال جمهور العلماء ، هو نفقات التطوّع ، وقيل ان هذه الآية منسوخة بآية الزكاة المفروضة ، وقيل هى محكمة ، وفى المال حق سوى الزكاة * قوله (كذلك يبين الله لكم الآيات) أى فى أمر النفقة * وقوله (فى الدنيا والآخرة) متعلق بقوله (تتفكرون) أى تتفكرون فى أمرهما ، فتحبسون من أموالكم ماتصلحون به معايش دنياكم وتنفقون الباقى فى الوجوه المقرّبة إلى الآخرة ، وقيل فى الكلام تقديم وتأخير ، أى كذلك يبين الله لكم الآيات فى الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون فى الدنيا وزوالها وفى الآخرة و بقائها ، فترغبون عن العاجلة إلى الآجلة ، وقيل يجوز أن يكون إشارة إلى قوله (وإثمهما أكبر من نفعهما) أى لتتفكروا فى أمر الدنيا والآخرة ، وليس هذا بجيد

قوله

* قوله (ويسألونك عن اليتامى) هـذه الآية نزلت بعد نزول قوله تعالى ـ ولا تقربوا مال اليتيم ـ
* وقوله ـ ان الذين يأكلون أموال اليتامى ـ وقد كان ضاق على الأولياء الأمر كما سيأتى بيانه ان شاء الله ، فنزلت هذه الآية * والمراد بالاصلاح هنا مخالطتهم ، على وجه الاصلاح لأموالهم فان ذلك أصلح من مجانبتهم . وفى ذلك دليل على جواز التصرّف فى أموال الأيتام من الأولياء والاوصياء بالبيع والمضاربة والاجارة ، ونحو ذلك * قوله (وان تخالطوهم فاخوانكم) اختلف فى تفسير المخالطة لهم . فقال أبو عبيدة مخالطة اليتامى أن يكون لأحدهم المال و يشق على كافله أن يفرد طعامه عنه ولايجد بدّا من خلطه بعياله فيأخذ من مال اليتيم مايرى أنه كافيه بالتحرى فيجعله مع نفقة أهله ، وهذا قد تقع فيه الزيادة والنقصان فدلت هذه الآية على الرخصة ، وهى ناسخة لما قبلها ، وقيل المراد بالمخالطة : المعاشرة للأيتام ، وقيل المراد بها المصاهرة لهم * والأولى عدم قصر المخالطة على نوع خاص بل تشمل كل مخالطة ، كما يستفاد من الجملة الشرطية * وقوله (فاخوانكم) خبر لمبتدا محذوف ، أى فهم إخوانكم فى الدين * وفى قوله (والله يعلم المفسد من المصلح) تحذير للأولياء ، أى لايخفى على الله من ذلك شىء فهو يجازى كل أحد بعمله من أصلح فلنفسه ، ومن أفسد فعلى نفسه * وقوله (لأعنتكم) أى ولو شاء لجعل ذلك شاقا عليكم ومتعبا لكم وأوقعكم فيما فيه الحرج والمشقة ، وقيل العنت هنا : معناه الهلاك . قاله أبو عبيدة ، وأصل العنت المشقة . وقال ابن الانبارى ، أصل العنت التشديد ، ثم نقل إلى معنى الهلاك * وقوله (عزيز) أى لايمتنع عليه شىء ، لانه غالب لايغالب (حكيم) يتصرف فى ملكه بما تقتضيه مشيئته وحكمته ، وليس لكم أن تختاروا لأنفسكم .

وقد أخرج أحمد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو داود والترمذى وصححه والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والضياء فى المختارة عن عمر ، أنه قال : اللهمّ بين لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فانها تذهب بالمال والعقل فنزلت (يسألونك عن الخمر والميسر) يعنى هذه الآية ، فدعى عمر فقرئت عليه . فقال اللهمّ بين لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فنزلت التى فى سورة النساء ـ يأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى ـ فكان ينادى رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة أن لايقربن الصلاة سكران فدعى عمر فقرئت عليه . فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فنزلت الآية التى فى المائدة ، فدعى عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ ـ فهل أنتم منتهون ـ قال عمر انتهينا انتهينا . وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس قال كنا نشرب الخمر فأنزلت (يسألونك عن الخمر والميسر) الآية ، فقلنا نشرب منها ماينفعنا ، فنزلت فى المائدة ـ إنما الخمر والميسر ـ الآية * فقالوا اللهمّ انتهينا . وأخرج أبو عبيد والبخارى فى الأدب المفرد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عمر قال الميسر : القمار . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر عن ابن عباس مثله قال : كان الرجل فى الجاهلية يخاطر عن أهله وماله ، فأيهما قمر صاحبه ذهب بأهله وماله * وقوله (قل فيهما إثم كبير) يعنى ماينقص من الدين عند شربها (ومنافع للناس) يقول فيما يصيبون من لذتها وفرحها إذا شربوا (وإثمهما أكبر من نفعهما) يقول مايذهب من الدين فالاثم فيه أكبر مما يصيبون من لذتها وفرحها إذا شربوها ، فأنزل الله بعد ذلك ـ لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى ـ الآية ، فكانوا لايشربونها عند الصلاة ، فاذا صلوا العشاء شربوها ، ثم ان ناسا من المسلمين شربوها فقاتل بعضهم بعضا ، وتكلموا بما لم يرض الله من القول فأنزل الله ـ إنما الخمر والميسر والأنصاب ـ الآية فحرّم الخمر ونهى عنها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : منافعهما قبل التحريم ، و إثمهما بعد ماحرّمهما . وأخرج ابن اسحاق وابن أبى حاتم عنه أن

نفرا من الصحابة حين أمروا بالنفقة فى سبيل الله أتوا النبى ﷺ فقالوا انا لاندرى ماهـذه النفقة التى أمرنا بها فى أموالنا ، فما ننفق منها ؟ فأنزل الله (و يسألونك ماذا ينفقون قل العفو) وكان قبل ذلك ينفق ماله حتى مايجد مايتصدق به ، ولامايأكل حتى يتصدق عليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال العفو : هو مالا يتبين فى أموالـكم ، وكان هذا قبل أن تفرض الصدقة . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والبيهقى فى الشعب عنه فى الآية قال (العفو) مايفضل عن أهلك . وفى لفظ قال : الفضل عن العيال . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله (قل العفو) قال لم تفرض فيه فريضة معلومة ، ثم قال ـ خذ العفو وأمر بالمعروف ـ ثم نزلت فى الفرائض بعد ذلك مسماة . وقد ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول » . وثبت نحوه فى الصحيح مرفوعا من حديث حكيم بن حزام . وفى الباب أحاديث كثيرة وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة) قال يعنى فى زوال الدنيا وفنائها ، و إقبال الآخرة و بقائها . وأخرج أبوداود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عنـه قال لما أنزل الله ـ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن * وإن الذين يأكلون أموال اليتامى ـ الآية ، انطلق من كان عنـده يتيم يعزل طعامه عن طعامه ، وشرابه عن شرابه ، فجعل يفصل له الشىء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فيرمى به فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله (و يسألونك عن اليتامى) الآية ، فخلطوا طعامهم بطعامهم ، وشرابهم بشرابهم . وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج عبد بن حميـد وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وان تخالطوهم) قال المخالطة : أن يشرب من لبنك وتشرب من لبنـه ، ويأكل من قصعتك وتأكل من قصعته ، ويأكل من ثمرتك ، وتأكل من ثمرته (والله يعلم المفسد من المصلح) قال يعلم من يتعمد أكل مال اليتيم ، ومن يتحرج منـه ولا يألو عن إصلاحه (ولو شاء الله لأعنتكم) يقول : لوشاء ماأحل لكم ماأعنتكم مما لاتتعمدون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنـه فى قوله (لأعنتكم) يقول لأحرجكم وضيق عليكم ، ولكنه وسع ويسر . وأخرج عبد بن حميـد وابن جرير وابن المنـذر وابن أبى حاتم عنـه فى قوله (ولو شاء الله لأعنتكم) قال ولو شاء لجعل ماأصبتم من أموال اليتامى موبقا .

وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ *

قوله (ولاتنكحوا) قرأه الجمهور بفتح التاء ، وقرئ فى الشواذ بضمها ، قيل والمعنى كأن المتزوج لها أنكحها من نفسها . وفى هذه الآية النهى عن نكاح المشركات ، فقيل المراد بالمشركات الوثنيات ، وقيل انها تعم الكتابيات ، لأن أهل الكتاب مشركون ـ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ـ وقد اختلف أهل العلم فى هذه الآية . فقالت طائفة ان الله حرم نكاح المشركات فيها والكتابيات من الجملة ثم جاءت آية المائدة فخصصت الكتابيات من هذا العموم ، وهـذا محكى عن ابن عباس ومالك وسفيان ابن سعيد وعبد الرحمن بن عمر والأوزاعى . وذهبت طائفة الى أن هذه الآية ناسخة لآية المائدة وأنه يحرم

نكاح

نكاح الكتابيات والمشركات وهذا أحد قولى الشافعى ، وبه قال جماعة من هل العلم ، ويجاب عن قولهم ان هذه الآية ناسخة لآية المائدة بأن سورة البقرة من أوّل مانزل وسورة المائدة من آخر مانزل * والقول الأوّل هو الراجح . وقد قال به مع من تقدم عثمان بن عفان وطلحة وجابر وحذيفة وسعيد بن المسيب وسعيد ابن جبير والحسن وطاوس وعكرمة والشعبى والضحاك كما حكاه النحاس والقرطبى . وقد حكاه ابن المنذر عن المذكورين وزاد عمر بن الخطاب وقال لايصح عن أحد من الأوائل أنه حرّم ذلك . وقال بعض أهل العلم ان لفظ المشرك لايتناول أهل الكتاب لقوله تعالى ــ مايودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خير من ربكم ــ * وقال ــ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ــ وعلى فرض أن لفظ المشركين يعمّ ، فهذا العموم مخصوص بآية المائدة كما قدّمنا * قوله (ولأمة مؤمنة) أى ولرقيقة مؤمنة ، وقيل المراد بالأمة : الحرة لأن الناس كلهم عبيد الله وإماؤه * والأوّل أولى لما سيأتى ولأنه الظاهر من اللفظ ولأنه أبلغ فان تفضيل الأمة الرقيقة المؤمنة على الحرّة المشركة يستفاد منه تفضيل الحرّة المؤمنة على الحرّة المشركة بالأولى * وقوله (ولو أعجبتكم) أى ولو أعجبتكم المشركة من جهة كونها ذات جمال أو مال أو شرف ، وهذه الجملة حالية * قوله (ولاتنكحوا المشركين) أى لاتزوّجوهم بالمؤمنات (حتى يؤمنوا) قال القرطبى وأجمعت الأمة على أن المشرك لايطأ المؤمنة بوجه لما فى ذلك من الغضاضة على الاسلام ، وأجمع القراء على ضم التاء من تنكحوا * وقوله (ولعبد) الكلام فيه كالكلام فى قوله (ولأمة) والترجيح كالترجيح * قوله (أولئك) إشارة إلى المشركين والمشركات (يدعون الى النار) أى الى الأعمال الموجبة للنار ، فكان فى مصاهرتهم ومعاشرتهم ومصاحبتهم من الخطر العظيم مالا يجوز للمؤمنين أن يتعرضوا له ويدخلوا فيه (والله يدعو الى الجنة) أى الى الأعمال الموجبة للجنة وقيل المراد أن أولياء الله وهم المؤمنون يدعون الى الجنة * وقوله (باذنه) أى بأمره . قاله الزجاج ، وقيل بتيسيره وتوفيقه ، قاله صاحب الكشاف .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر عن مقاتل بن حيان قال نزلت هذه الآية فى أبى مرثد الغنوى استأذن النبى ﷺ فى عناق أن يتزوّجها ، وكانت ذات حظ من جمال وهى مشركة وأبو مرثد يومئذ مسلم : فقال يارسول الله انها تعجبنى ، فأنزل الله (ولا تنكحوا المشركات) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (ولا تنكحوا المشركات) قال استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب ، فقال ــ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب ــ . وقد روى هذا المعنى عنه من طرق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن سعيد بن جبير فى قوله (ولاتنكحوا المشركات) يعنى أهل الأوثان . وأخرج عبد بن حميد والبيهقى عن مجاهد نحوه ، وكذلك أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة نحوه أيضا . وأخرج عبد بن حميد عن النخعى نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن ابن عمر أنه كره نكاح نساء أهل الكتاب ، وتأوّل (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ) . وأخرج البخارى عنه قال حرّم الله نكاح المشركات على المسلمين ولاأعرف شيئا من الاشراك أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى أو عبد من عباد الله . وأخرج الواحدى وابن عساكر من طريق السدّى عن أبى مالك عن ابن عباس فى قوله تعالى (ولأمة مؤمنة خير من مشركة) قال نزلت فى عبد الله بن رواحة وكانت له أمة سوداء وانه غضب عليها فلطمها ، ثم انه فزع فأتى النبى ﷺ فأخبره خبرها . فقال النبى ﷺ له ماهى ياعبد الله ؟ قال تصوم وتصلى ، وتحسن الوضوء ، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال ياعبدالله هذه مؤمنة . فقال عبد الله فوالذى بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوّجنها ، ففعل فطعن عليه

ناس من المسلمين ، وقالوا نكح أمة ، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين ، وينكحوهم رغبة فى أحسابهم ، فأنزل الله فيهم (ولأمة مؤمنة خير من مشركة) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن السدى مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان فى قوله (ولأمة مؤمنة) قال بلغنا أنها كانت أمة لحذيفة سوداء ، فأعتقها وتزوّجها حذيفة . وأخرج ابن جرير عن أبى جعفر محمد بن على قال النكاح بولىّ فى كتاب الله ، ثم قرأ (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) .

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا ٱلنِّسَاءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ *

قوله (المحيض) هو الحيض ، وهو مصدر ، يقال حاضت المرأة ، حيضا ومحيضا ، فهى حائض وحائضة كذا قال الفراء وأنشد : * كحائضة تزنى بها غير طاهرة * ونساء حيض وحوائض ، والحيضة بالكسر : المرة الواحدة ، وقيل الاسم ، وقيل المحيض عبارة عن الزمان والمكان ، وهو مجاز فيهما . وقال ابن جرير الطبرى ، المحيض : اسم الحيض ، ومثله قول رؤبة : * إليك أشكو شدّة المعيش * أى العيش ، وأصل هذه الكلمة من السيلان والانفجار : يقال حاض السيل وفاض ، وحاضت الشجرة ، أى سالت رطوبتها ، ومنه الحيض ، أى الحوض ، لان الماء يحوض إليه : أى يسيل * وقوله (قل هو أذى) أى قل هو شىء يتأذى به : أى برائحته ، والأذى كناية عن القذر ، ويطلق على القول المكروه ومنه قوله تعالى ــ لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى ــ ، ومنه قوله تعالى ــ ودع أذاهم ــ * وقوله (فاعتزلوا النساء فى المحيض) أى فاجتنبوهنّ فى زمان الحيض ان حمل المحيض على المصدر أو فى محل الحيض ان حمل على الاسم * والمراد من هذا الاعتزال ترك المجامعة لا ترك المجالسة أو الملامسة فان ذلك جائز ، بل يجوز الاستمتاع منها بما عدا الفرج أو بما دون الازار على خلاف فى ذلك ، وأما ما يروى عن ابن عباس وعبيدة السلمانى أنه يجب على الرجل أن يعتزل فراش زوجته إذا حاضت فليس ذلك بشىء ، ولا خلاف بين أهل العلم فى تحريم وطء الحائض وهو معلوم من ضرورة الدين * قوله (ولا تقربوهنّ حتى يطهرن) قرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير وابن عامر وعاصم فى رواية حفص عنه بسكون الطاء وضم الهاء . وقرأ حمزة والكسائى وعاصم فى رواية أبى بكر يطهرن بتشديد الطاء وفتحها وفتح الهاء وتشديدها . وفى مصحف أبىّ وابن مسعود و يتطهرن ، والطهر انقطاع الحيض ، والتطهر : الاغتسال ، و بسبب اختلاف القراء اختلف أهل العلم . فذهب الجمهور إلى أن الحائض لا يحلّ وطؤها لزوجها حتى تتطهر بالماء . وقال محمد بن كعب القرظى ويحيى بن بكير إذا طهرت الحائض وتيممت حيث لا ماء حلت لزوجها وان لم تغتسل . وقال مجاهد وعكرمة : ان انقطاع الدم يحلها لزوجها ، ولكن تتوضأ . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد : ان انقطع دمها بعد مضىّ عشرة أيام جاز له أن يطأها قبل الغسل وان كان انقطاعه قبل العشر لم يجز حتى تغتسل أو يدخل عليها وقت صلاة . وقد رجح ابن جرير الطبرى قراءة التشديد * والأولى أن يقال إن الله سبحانه جعل للحلّ غايتين كما تقتضيه القراءتان : إحداهما انقطاع الدم ، والأخرى التطهر منه ، والغاية الأخرى مشتملة على زيادة على الغاية الأولى ، فيجب المصير إليها . وقد دلّ أن الغاية الأخرى هى المعتبرة قوله تعالى

بعد ذلك (فاذا تطهرن) فان ذلك يفيد أن المعتبر التطهر، لامجرد انقطاع الدم. وقد تقرر أن القراءتين بمنزلة الآيتين، فكما أنه يجب الجمع بين الآيتين المشتملة إحداهما على زيادة بالعمل بتلك الزيادة، كذلك يجب الجمع بين القراءتين * قوله (فأتوهنّ من حيث أمركم الله) أى فجامعوهنّ، وكنّى عنه بالاتيان * والمراد أنهم يجامعونهنّ فى المأتى الذى أباحه الله، وهو القبل، قيل و(من حيث)، بمعنى فى حيث، كما فى قوله تعالى ــ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ــ أى فى يوم الجمعة * وقوله ــ ماذا خلقوا من الأرض ــ أى فى الأرض، وقيل ان المعنى من الوجه الذى أذن الله لكم فيه، أى من غير صوم و إحرام واعتكاف، وقيل ان المعنى من قبل الطهر، لامن قبل الحيض، وقيل من قبل الحلال، لامن قبل الزنا * قوله (إن الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين) قيل المراد التوّابون من الذنوب، والمتطهرون من الجنابة والأحداث وقيل التوّابون من إتيان النساء فى أدبارهنّ، وقيل من إتيانهنّ فى الحيض، والأوّل أظهر * قوله (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) لفظ الحرث يفيد أن الاباحة لم تقع الا فى الفرج الذى هو القبل خاصة اذ هو مزدرع الذرية كما أن الحرث مزدرع النبات. فقد شبه مايلقى فى أرحامهنّ من النطف التى منها النسل بما يلقى فى الأرض من البذور التى منها النبات بجامع أن كل واحد منهما مادة لما يحصل منه، وهذه الجملة بيان للجملة الأولى، أعنى قوله (فأتوهنّ من حيث أمركم الله) * وقوله (أنى شئتم) أى من أى جهة شئتم من خلف، وقدام وباركة ومستلقية ومضطجعة، اذا كان فى موضع الحرث، وأنشد ثعلب:

إنما الأرحام أرضو * ن لنا محترثات فعلينا الزرع فيها * وعلى الله النبات

وانما عبر سبحانه بقوله (أنى) لكونها أعم فى اللغة من كيف وأين ومتى. وأما سيبويه ففسرها هنا بكيف. وقد ذهب السلف والخلف من الصحابة والتابعين والأئمة الى ماذكرنا من تفسير الآية، وأن إتيان الزوجة فى دبرها حرام. وروى عن سعيد بن المسيب ونافع وابن عمر ومحمد بن كعب القرظى وعبد الملك ابن الماجشون أنه يجوز ذلك حكاه عنهم القرطبى فى تفسيره قال وحكى ذلك عن مالك فى كتاب له يسمى «كتاب السر» وحذاق أصحاب مالك ومشايخهم ينكرون ذلك الكتاب، ومالك أجل من أن يكون له كتاب سر، ووقع هذا القول فى العتبية. وذكر ابن العربى أن ابن شعبان أسند جواز ذلك الى زمرة كبيرة من الصحابة والتابعين والى مالك من روايات كثيرة فى «كتاب جماع النسوان وأحكام القران» وقال الطحاوى روى أصبغ بن الفرج عن عبد الرحمن بن القاسم قال ما أدركت أحدا أقتدى به فى دينى شك فى أنه حلال: يعنى وطء المرأة فى دبرها، ثم قرأ (نساؤكم حرث لكم) ثم قال فأىّ شىء أبين من هذا. وقد روى الحاكم والدارقطنى والخطيب البغدادى عن مالك من طرق مايقتضى إباحة ذلك. وفى أسانيدها ضعف. وقد روى الطحاوى عن محمد بن عبدالله بن عبد الحكم أنه سمع الشافعى يقول ماصح عن النبى ﷺ فى تحليله ولا تحريمه شىء والقياس أنه حلال. وقد روى ذلك أبو بكر الخطيب. قال ابن الصباغ كان الربيع يحلف بالله الذى لا إله إلا هو لقد كذب ابن عبد الحكم على الشافعى فى ذلك فان الشافعى نص على تحريمه فى ستة كتب من كتبه * قوله (وقدّموا لأنفسكم) أى خيرا كما فى قوله تعالى ــ وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ــ وقيل ابتغاء الولد، وقيل التزويج بالعفائف، وقيل غير ذلك * وقوله (واتقوا الله) فيه تحذير عن الوقوع فى شىء من المحرّمات * وفى قوله (واعلموا أنكم ملاقوه) مبالغة فى التحذير * وفى قوله (وبشر المؤمنين) تأنيس لمن يفعل الخير ويجتنب الشر.

وقد أخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أنس أن اليهود كانوا اذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها فى البيوت، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل

الله (ويسألونك عن المحيض) الآية . فقال رسول الله ﷺ جامعوهنّ فى البيوت واصنعوا كل شىء الا النكاح . وأخرج النسائى والبزار عن جابر قال ان اليهود قالوا من أتى المرأة من دبرها كان ولده أحول فجاءوا الى رسول الله ﷺ فسألوه عن ذلك وعن إتيان الحائض ، فنزلت . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال الأذى : الدم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (فاعتزلوا النساء) يقول اعتزلوا نكاح فروجهنّ * وفى قوله (ولاتقربوهنّ حتى يطهرن) قال من الدم . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قل حتى ينقطع الدم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (فاذا تطهرن) قال بالماء . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير عن عكرمة نحوه أيضا . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد وعطاء أنهما قالا اذا رأت الطهر فلا بأس أن تستطيب بالماء ويأتيها قبل أن تغتسل . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (فأتوهن من حيث أمركم الله) قال يعنى أن يأتيها طاهرا غير حائض . وأخرج عبدبن حميد عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذرعن ابن عباس فى قوله (فأتوهنّ من حيث أمركم الله) قال من حيث أمركم أن تعتزلوهنّ . وأخرج ابن أبى شيبة عن عكرمة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس قال من حيث نهاكم أن تأتوهنّ وهنّ حيض يعنى من قبل الفرج . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن الحنفية قال (فأتوهنّ من حيث أمركم الله) من قبل التزويج . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله (يحب التوّابين) قال من الذنوب (ويحب المتطهرين) قال بالماء . وأخرج ابن أبى حاتم عن الأعمش قال : التوبة من الذنوب ، والتطهير من الشرك . وأخرج البخارى وأهل السنن وغيرهم عن جابر قال كانت اليهود تقول إذا أتى الرجل امرأته من خلفها فى قبلها جاء الولد أحول ، فنزلت (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) ان شاء مجبية وان شاء غير مجبية ، غير أن ذلك فى صمام واحد . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن مرّة الهمدانى نحوه . وقد روى هذا عن جماعة من السلف وصرّحوا أنه السبب ، ومن الراوين لذلك عبد الله بن عمر عند ابن عساكر ، وأم سلمة عند عبدالرزاق وعبد بن حميد والبيهقى فى الشعب . وأخرجه أيضا عنها ابن أبى شيبة وأحمد والدارمى وعبد بن حميد والترمذى وحسنه أنها سألت رسول الله ﷺ بعض نساء الأنصار عن التجبية ، فتلا عليها الآية وقال صماما واحدا ، والصمام : السبيل . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وحسنه والنسائى والضياء فى المختارة وغيرهم عن ابن عباس قال جاء عمر الى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله هلكت قال وما أهلكك ؟ قال حوّلت رحلى الليلة فلم يردّ عليه شيئا ، فأوحى الله الى رسوله هذه الآية (نساؤكم حرث لكم) يقول أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة . وأخرج أحمد عن ابن عباس مرفوعا أن هذه الآية نزلت فى أناس من الأنصار أتوا النبى ﷺ فسألوه فقال ائتها على كل حال اذا كان فى الفرج . وأخرج الدارمى وأبو داود وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عنه قال ابن عمر والله يغفر له أوهم انما كان هذا الحى من الأنصار وهم أهل وثن مع هذا الحى من اليهود وهم أهل كتاب كانوا يرون لهم فضلا عليهم فى العلم ، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم ، فكان من أمر أهل الكتاب ، لا يأتون النساء الا على حرف ، وذلك أستر ما تكون المرأة ، وكان هذا الحى من الأنصار . قد أخذوا بفعلهم ، وكان هذا الحى من قريش : يشرحون النساء شرحا ويتلذذون منهم مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، فلما قدم المهاجرون المدينة تزوّج رجل منهم امرأة من الأنصار ، فذهب يفعل بها ذلك فأنكرته عليه : وقالت إنما كنا نؤتى على حرف فاصنع ذلك والا فاجتنبنى ، فسرى أمرهما ، فبلغ رسول

الله ﷺ فأنزل الله الآية (نساؤكم حرث لكم) يقول مقبلات ومدبرات بعد أن يكون فى الفرج وان كان من قبل دبرها فى قبلها زاد الطبرانى ، قال ابن عباس ، قال ابن عمر فى دبرها فأوهم ، والله يغفر له ، وانما كان هذا الحديث على هذا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والدارمى والبيهقى عن ابن مسعود أنه قال محاش النساء عليكم حرام . وأخرج الشافعى فى الأم وابن أبى شيبة وأحمد والنسائى وابن ماجه وابن المنذر والبيهقى فى سننه من طريق خزيمة بن ثابت أن سائلا سأل رسول الله ﷺ عن اتيان النساء فى أدبارهنّ . فقال حلال أولا بأس ، فلما ولى دعاه فقال كيف قلت أمن دبرها فى قبلها فنعم ؟ أم من دبرها فى دبرها فلا ان الله لايستحيى من الحق لاتأتوا النساء فى أدبارهنّ . وأخرج ابن عدى والدارقطنى عن جابر بن عبد الله نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة والترمذى وحسنه والنسائى وابن حبان عن ابن عباس ، قال قال رسول الله ﷺ « لاينظر الله إلى رجل أتى امرأة فى الدبر » . وأخرج أحمد والبيهقى فى سننه عن ابن عمرو أن النبى ﷺ قال « الذى يأتى امرأته فى دبرها هى اللوطية الصغرى » . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « ملعون من أتى امرأته فى دبرها » . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حيد والنسائى والبيهقى عنه قال : اتيان الرجال والنساء فى أدبارهنّ كفر . وقد رواه ابن عدى عن أبى هريرة مرفوعا . قال ابن كثير والموقوف أصح . وقد ورد النهى عن ذلك من طرق منها عند البزار عن عمر مرفوعا وعند النسائى عنه موقوفا وهو أصح وعند ابن عدى فى الكامل عن ابن مسعود مرفوعا ، وعند ابن عدى أيضا عن عقبة بن عامر مرفوعا وعند أحمد عن طلق بن يزيد أو يزيد بن طلق مرفوعا ، وعند ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه عن على بن طلق مرفوعا ، وقد ثبت نحو ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين مرفوعا وموقوفا . وأخرج البخارى وغيره عن نافع . قال قرأت ذات يوم (نساؤكم حرث لكم) فقال ابن عمر أتدرى فيم أنزلت هذه الآية ؟ قلت لا ، قال نزلت فى اتيان النساء فى أدبارهنّ . وأخرج البخارى عن ابن عمر أنه قال (فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال فى الدبر . وقد روى هذا عن ابن عمر من طرق كثيرة . وفى رواية عند الدارقطنى أنه قال له نافع من دبرها فى قبلها ؟ فقال لا : الا فى دبرها . وأخرج ابن راهويه وأبو يعلى وابن جرير والطحاوى وابن مردويه باسناد حسن عن أبى سعيد الخدرى ، أن رجلا أصاب امرأته فى دبرها فأنكر الناس عليه ذلك ، فنزلت الآية . وأخرج البيهقى فى سننه عن محمد بن على ، قال : كنت عند محمد بن كعب القرظى فجاءه رجل ، فقال : ماتقول فى اتيان المرأة فى دبرها ؟ فقال : هذا شيخ من قريش فسله ، يعنى عبد الله بن على بن السائب : فقال قذر ولو كان حلالا . وقد روى القول بحل ذلك عن محمد بن المنكدر عند ابن جرير وعن ابن أبى مليكة عند ابن جرير أيضا ، وعن مالك بن أنس عند ابن جرير والخطيب وغيرهما ، وعن الشافعى عند الطحاوى والحاكم والخطيب . وقد قدّمنا مثل هذا ، وليس فى أقوال هؤلاء حجة ألبتة : ولا يجوز لأحد أن يعمل على أقوالهم : فانهم لم يأتوا بدليل يدلّ على الجواز ، فمن زعم منهم أنه فهم ذلك من الآية فقد أخطأ فى فهمه . وقد فسرها لنا رسول الله ﷺ وأكابر أصحابه بخلاف ماقاله هذا المخطىء فى فهمه كائنا من كان ، ومن زعم منهم أن سبب نزول الآية أن رجلا أتى امرأته فى دبرها ، فليس فى هذا مايدل على أن الآية أحلت ذلك ، ومن زعم ذلك فقد أخطأ ، بل الذى تدل عليه الآية أن ذلك حرام ، فكون ذلك هو السبب لايستلزم أن تكون الآية نازلة فى تحليله : فان الآيات النازلة على أسباب تأتى تارة بتحليل هذا ، وتارة بتحريمه . وقد روى عن ابن عباس أنه فسر هذه الآية بغير ماتقدّم . فقال معناها : ان شئتم فاعزلوا ، وان شئتم فلا تعزلوا . روى ذلك عنه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والضياء فى المختارة . وروى نحو ذلك عن ابن عمر . أخرجه ابن أبى شيبة

وعن سعيد بن المسيب . أخرجه ابن أبى شيبة وابن جرير .

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ *

العرضة : النصبة . قاله الجوهرى : يقال جعلت فلانا عرضة لكذا : أى نصبة ، وقيل العرضة من الشدّة والقوّة ، ومنه قولهم للمرأة عرضة للنكاح : إذا صلحت له وقويت عليه ، ولفلان عرضة : أى قوّة ، ومنه قول كعب بن زهير :

من كل نضاخة الدفرى إذا عرقت * عرضتها طامس الأعلام مجهول

ومثله قول أوس بن حجر :

وأدماء مثل الفحل يوما عرضتها * لرحلى وفيها هزة وتقاذف

وتطلق العرضة على الهمة ، ومنه قول الشاعر : * هم الأنصار عرضتها اللقاء *

أى همتها ، ويقال فلان عرضة للناس لايزالون يقعون فيه ، فعلى المعنى الذى ذكره الجوهرى أن العرضة النصبة كالقبضة والغرفة يكون ذلك اسما لما تعرضه دون الشىء ، أى تجعله حاجزا له ومانعا منه ، أى لا تجعلوا الله حاجزا ومانعا لما حلفتم عليه ، وذلك لان الرجل كان يحلف على بعض الخير من صلة رحم أو إحسان إلى الغير أو إصلاح بين الناس بأن لا يفعل ذلك ، ثم يمتنع من فعله معللا لذلك الامتناع بأنه قد حلف أن لايفعله ، وهذا المعنى هو الذى ذكره الجمهور فى تفسير الآية ، فنهاهم الله أن يجعلوه عرضة لأيمانهم : أى حاجزا لما حلفوا عليه ومانعا منه ، وسمى المحلوف عليه يمينا لتلبسه باليمين ، وعلى هذا يكون قوله (أن تبروا) عطف بيان لأيمانكم : أى لاتجعلوا الله مانعا للأيمان التى هى بركم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس ، ويتعلق قوله (لأيمانكم) بقوله (لاتجعلوا) أى لاتجعلوا الله لأيمانكم مانعا وحاجزا ، ويجوز أن يتعلق بعرضة : أى لاتجعلوه شيئا معترضا بينكم و بين البر وما بعده ، وعلى المعنى الثانى ، وهو أن العرضة : الشدة والقوّة يكون معنى الآية : لاتجعلوا اليمين بالله قوّة لأنفسكم ، وعدّة فى الامتناع من الخير ، ولا يصح تفسير الآية على المعنى الثالث ، وهو تفسير العرضة بالهمة . وأما على المعنى الرابع ، وهو من قولهم فلان لايزال عرضة للناس : أى يقعون فيه ، فيكون معنى الآية عليه ، ولا تجعلوا الله معرّضا لأيمانكم : فتبتذلونه بكثرة الحلف به ، ومنه ـ واحفظوا أيمانكم ـ . وقد ذمّ الله المكثرين للحلف فقال ـ ولا تطع كل حلاف مهين ـ . وقد كانت العرب تمادح بقلة الأيمان حتى قال قائلهم :

قليل الألايا حافظ ليمينه * وان ندرت منه الألية برّت

وعلى هذا فيكون قوله (أن تبرّوا) علة للنهى أى لاتجعلوا الله معرّضا لأيمانكم إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا لأن من يكثر الحلف بالله يجترئ على الحنث ويفجر فى يمينه . وقد قيل فى تفسير الآية أقوال هى راجعة الى هذه الوجوه التى ذكرناها ، فمن ذلك قول الزجاج معنى الآية أن يكون الرجل اذا طلب منه الفعل الذى فيه خير اعتلّ بالله : فقال علىّ يمين وهولم يحلف ، وقيل معناها : لاتحلفوا بالله كاذبين اذا أردتم البر والتقوى والاصلاح ، وقيل معناها اذا حلفتم على أن لاتصلوا أرحامكم ولا تتصدّقوا ولا تصلحوا وعلى أشباه ذلك من أبواب البر فكفروا عن اليمين . وقد قيل ان قوله (أن تبروا) مبتدا خبره محذوف

أى البرّ والتقوى ، والاصلاح أولى . قاله الزجاج ، وقيل انه منصوب أى لاتمنعكم اليمين بالله البرّ والتقوى والاصلاح . روى ذلك عن الزجاج أيضا ، وقيل معناه أن لاتبروا فحذف لا ، كقوله — يبين الله لكم أن تضلوا — أى لاتضلوا . قاله ابن جرير الطبرى ، وقيل هو فى موضع جر على قول الخليل والكسائى ، والتقدير فى (أن تبروا) * وقوله (سميع) أى لأقوال العباد (عليم) بما يصدر منهم * واللغو : مصدر لغا يلغو لغوا ، ولغى يلغى لغيا : اذا أتى بما لايحتاج اليه فى الكلام أو بما لاخير فيه ، وهو الساقط الذى لايعتدّ به ، فاللغو من اليمين : هو الساقط الذى لايعتدّ به ، ومنه اللغو فى الدية ، وهو الساقط الذى لايعتد به من أولاد الابل ، قال جرير :

ويذهب بينها المرى لغوا كما * ألغيت فى الدية الحوارا

وقال آخر

وربّ أسراب حجيج كظم * عن اللغا ورفث التكلم

أى لايتكلمن بالساقط والرفث ، ومعنى الآية : لايعاقبكم الله بالساقط من أيمانكم ، ولكن يعاقبكم بما كسبت قلوبكم : أى اقترفته بالقصد اليه : وهى اليمين المعقودة ، ومثله قوله تعالى — ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان — ، ومثله قول الشاعر :

ولست بمأخوذ بلغو يقوله * اذا لم تعمد عاقدات العزائم

وقد اختلف أهل العلم فى تفسير اللغو ، فذهب ابن عباس وعائشة وجمهور العلماء أيضا أنه قول الرجل لا والله و بلى والله فى حديثه وكلامه غير معتقد لليمين ، ولامريد لها . قال المروزى هذا معنى لغو اليمين الذى اتفق عليه عامة العلماء . وقال أبوهريرة وجماعة من السلف هو أن يحلف الرجل على الشىء لايظن الا أنه اياه ، فاذا ليس هو ماظنه ، والى هذا ذهبت الحنفية والزيدية ، و به قال مالك فى الموطأ . وروى عن ابن عباس أنه قال لغو اليمين : أن تحلف وأنت غضبان ، و به قال طاوس ومكحول . وروى عن مالك ، وقيل ان اللغو هو يمين المعصية ، قاله سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن وعبد الله بن الزبير وأخوه عروة كالذى يقسم ليشرب الخمر أوليقطعن الرحم ، وقيل لغو اليمين : هودعاء الرجل على نفسه كأن يقول أعمى الله بصره ، أذهب الله ماله ، هو يهودى ، هومشرك . قاله زيد بن أسلم . وقال مجاهد لغو اليمين أن يتبايع الرجلان فيقول أحدهما والله لا أبيعك بكذا . و يقول الآخر والله لأشتريه بكذا . وقال الضحاك لغو اليمين : هى المكفرة : أى اذا كفرت سقطت وصارت لغوا * والراجح القول الأوّل لمطابقته للمعنى اللغوى : ولدلالة الأدلة عليه كما سيأتى * وقوله (والله غفور حليم) أى حيث لم يؤاخذكم بما تقولونه بألسنتكم من دون عمد وقصد . وآخذكم بما تعمدته قلوبكم وتكلمت به ألسنتكم ، وتلك هى اليمين المعقودة المقصودة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) يقول لاتجعلنى عرضة ليمينك أن لاتصنع الخير ولكن كفر عن يمينك ، واصنع الخير . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عنه ، هو أن يحلف الرجل أن لا يكلم قرابته أولايتصدّق ، أو يكون بين رجلين مغاضبة فيحلف لايصلح بينهما ، و يقول قد حلفت : قال يكفر عن يمينه . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء ، قال جاء رجل الى عائشة فقال انى نذرت ان كلمت فلانا فان كل مملوك لى عتيق ، وكل مال لى ستر للبيت فقالت لاتجعل مملوكيك عتقاء ولاتجعل مالك سترا للبيت ، فان الله يقول (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) فكفر عن يمينك . وقد ورد أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر فى شأن مسطح . رواه ابن جرير عن ابن جريج ، والقصة مشهورة ، وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة فى الصحيحين وغيرهما أن النبى ﷺ قال «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه» . وثبت

أيضا فى الصحيحين وغيرهما أن النبى ﷺ قال « والله ان شاء الله لاأحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها الا أتيت الذى هو خير وكفرت عن يمينى » . وأخرج ابن ماجه وابن جرير عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ « من حلف على يمين قطيعة رحم أو معصية فبرّه أن يحنث فيها ويرجع عن يمينه » . وأخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله ﷺ « لانذر ولايمين فيما لايملك ابن آدم ولا فى معصية الله ولا فى قطيعة رحم » . وأخرج أبوداود والحاكم وصححه عن عمر مرفوعا مثله . وأخرج النسائى وابن ماجه عن مالك الجشمى ، قال قلت يارسول الله يأتينى ابن عمى فأحلف أن لا أعطيه ولاأصله ، فقال كفر عن يمينك . وأخرج مالك فى الموطأ وعبدالرزاق وعبد ابن حميد والبخارى وغيرهم عن عائشة : قالت أنزلت هذه الآية (لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) فى قول الرجل لا والله و بلى والله وكلا والله . وأخرج أبوداود وابن جرير وابن حبان وابن مردويه والبيهقى من طريق عطاء بن أبى رباح أنه سئل عن اللغو فى اليمين ، فقال قالت عائشة ان رسول الله ﷺ قال هو كلام الرجل فى بيته كلا والله و بلى والله . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عائشة : أنها قالت فى تفسير الآية ، ان اللغو هو القوم يتدارون فى الأمر يقول هذا لا والله و يقول هذا كلا والله يتدارون فى الأمر لاتعقد عليه قلوبهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عائشة أنها قالت : هو اللغو فى المزاحة والهزل ، وهو قول الرجل لاوالله و بلى والله فذاك لا كفارة فيه ، وانما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لايفعله . وأخرج ابن جرير عن الحسن : قال مر رسول الله ﷺ بقوم ينتضلون ومع النبى ﷺ رجل من أصحابه فرمى رجل من القوم ، فقال أصبت والله وأخطأت والله ، فقال الذى مع النبى ﷺ حنث الرجل يارسول الله ، فقال كلا ، أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة . وقد روى أبو الشيخ عن عائشة وابن عباس وابن عمر وابن عمرو أن اللغو لا والله و بلى والله . أخرجه سعيد ابن منصور وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن ابن عباس أنه قال لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان . وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة قال : لغو اليمين حلف الانسان على الشىء يظن أنه الذى حلف عليه فاذا هو غير ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم والبيهقى عن عائشة نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنها أن يحلف الرجل على تحريم ما أحل الله له . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال هو الرجل يحلف على المعصية . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد عن النخعى هو أن يحلف الرجل على الشىء ثم ينسى . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (والله غفور) يعنى اذ تجاوز عن اليمين التى حلف عليها (حليم) اذ لم يجعل فيها الكفارة

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *

قوله (يؤلون) أى يحلفون : والمصدر ايلا وألية وألوّة ، وقرأ ابن عباس الذين آلوا يقال آلى يؤالى ايلا و يأتلى بالتاء ائتلاء ، أى حلف ، ومنه ـ ولا يأتل أولوا الفضل منكم ـ ، ومنه

* قليل الألايا حافظ ليمينه * البيت . وقد اختلف أهل العلم فى الايلاء ، فقال الجمهور ان الايلاء هو أن يحلف أن لا يطأ امرأته أكثر من أربعة أشهر ، فان حلف على أربعة أشهر فما دونها لم يكن موليا وكانت عندهم يمينا محضا ، وبهذا قال مالك والشافعى وأحمد وأبو ثور . وقال الثورى والكوفيون الايلاء

Zam. Rāzī give this Reading from Ibn Masʿūd.

أن يحلف على أربعة أشهر فصاعدا ، وهو قول عطاء . وروى عن ابن عباس أنه لا يكون موليا حتى يحلف أن لا يمسها أبدا . وقالت طائفة إذا حلف أن لا يقرب امرأته يوما أو أقل أو أكثر ثم لم يطأ أربعة أشهر بانت منه بالايلاء . وبه قال ابن مسعود والنخعى وابن أبى ليلى والحكم وحماد بن أبى سليمان وقتادة واسحاق . قال ابن المنذر ، وأنكر هذا القول كثير من أهل العلم * قوله (من نسائهم) يشمل الحرائر والاماء إذا كنّ زوجات ، وكذلك يدخل تحت * قوله (للذين يؤلون) العبد إذا حلف من زوجته ، وبه قال الشافعى وأحمد وأبوثور قالوا و إيلاؤه كالحر . وقال مالك والزهرى وعطاء وأبوحنيفة واسحاق ان أجله شهران . وقال الشعبى ايلاء الأمة نصف ايلاء الحرة * والتربص التأنى والتأخر ، قال الشاعر :

تربص بها ريب المنون لعلها * تطلق يوما أو يموت حليلها

وقت الله سبحانه بهذه المدة دفعا للضرار عن الزوجة . وقد كان أهل الجاهلية يؤلون السنة والسنتين وأكثر من ذلك يقصدون بذلك ضرار النساء . وقد قيل ان الأربعة الأشهر هى التى لا تطيق المرأة الصبر عن زوجها زيادة عليها * قوله (فان فاءوا) أى رجعوا ومنه ـ حتى تفىء الى أمر الله ـ أى ترجع ، ومنه قيل للظل بعد الزوال فىء ، لأنه رجع عن جانب المشرق الى جانب المغرب ، يقال فاء يفىء فيئة وفيوءا ، وانه لسريع الفيئة ، أى الرجعة ، ومنه قول الشاعر :

ففاءت ولم تقض الذى أقبلت له * ومن حاجة الانسان ماليس قاضيا

قال ابن المنذر وأجمع كل من يحفظ عنه العلم على أن الفىء الجماع لمن لاعذر له ، فان كان له عذر مرض أوسجن فهى امرأته ، فاذا زال العذر فأبى الوطء فرّق بينهما ان كانت المدة قد انقضت ، قاله مالك ، وقالت طائفة اذا أشهد على فيئته بقلبه فى حال العذر أجزأه ، وبه قال الحسن وعكرمة والنخعى والأوزاعى وأحمد بن حنبل ، وقد أوجب الجمهور على المولى اذا فاء بجماع امرأته الكفارة ، وقال الحسن والنخعى لا كفارة عليه * قوله (وان عزموا الطلاق) العزم : العقد على الشىء ، يقال عزم يعزم عزما : وعزيمة وعزمانا ، واعتزم اعتزاما ، فمعنى عزموا الطلاق : عقدوا عليه قلوبهم * والطلاق من طلقت المرأة تطلق كنصر ينصر طلاقا فهى طالق وطالقة أيضا ، ويجوز طلقت بضم اللام : مثل عظم يعظم ، وأنكره الأخفش ، والطلاق حلّ عقد النكاح ، وفى ذلك دليل على أنها لا تطلق بمضىّ أربعة أشهر كما قال مالك مالم يقع انشاء تطليق بعد المدة ، وأيضا فانه قال سميع : وسميع يقتضى مسموعا بعد المضىّ . وقال أبوحنيفة (سميع) لايلائه (عليم) بعزمه الذى دل عليه مضىّ أربعة أشهر * واعلم أن أهل كل مذهب قد فسروا هذه الآية بما يطابق مذهبهم وتكلفوا بما لم يدل عليه اللفظ ، ولا دليل آخر ، ومعناها ظاهر واضح ، وهو أن الله جعل الأجل لمن يولى : أى يحلف من امرأته أربعة أشهر ، ثم قال مخبرا لعباده بحكم هذا المولى بعد هذه المدّة (فان فاءوا) رجعوا إلى بقاء الزوجية واستدامة النكاح (فان الله غفور رحيم) أى لا يؤاخذهم بتلك اليمين ، بل يغفر لهم ويرحمهم (و إن عزموا الطلاق) أى وقع العزم منهم عليه والقصد له (فان الله سميع) لذلك منهم (عليم) به ، فهذا معنى الآية الذى لاشك فيه ولا شبهة ، فمن حلف أن لا يطأ امرأته ولم يقيد بمدّة أوقيد بزيادة على أربعة أشهر كان علينا إمهاله أربعة أشهر ، فاذا مضت فهو بالخيار إما رجع الى نكاح امرأته ، وكانت زوجته بعد مضىّ المدّة كما كانت زوجته قبلها ، أوطلقها : وكان له حكم المطلق لامرأته ابتداء ، وأما اذا وقت بدون أربعة أشهر فان أراد أن يبرّ فى يمينه اعتزل امرأته التى حلف منها حتى تنقضى المدّة كما فعل رسول الله ﷺ حين آلى من نسائه شهرا فانه اعتزلهنّ حتى مضى الشهر ، وان أراد أن يطأ امرأته قبل مضى تلك المدّة التى هى دون أربعة أشهر حنث فى يمينه ولزمته الكفارة ، وكان ممتثلا لما صح عنه ﷺ من قوله « من حلف على شىء فرأى غيره خيرا منه فليأت الذى هو خير منه

وليكفر عن يمينه

وقد أخرج الشافعي وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي فى سننه عن ابن عباس قال الايلاء أن يحلف أنه لايجامعها أبدا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقي فى سننه عنه فى قوله (للذين يؤلون من نسائهم) قال هو الرجل يحلف لامرأته بالله لاينكحها فتتربص أربعة أشهر فان هو نكحها كفر عن يمينه ، فان مضت أربعة أشهر قبل أن ينكحها خيره السلطان إما أن يفيء وإما أن يعزم فيطلق كما قال الله سبحانه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والطبرانى والبيهقي عنه قال كان ايلاء الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك ، فوقت الله لهم أربعة أشهر فان كان ايلاؤه أقل من أربعة أشهر فليس بايلاء . وأخرج عبد بن حميد عن على قال الايلاء ايلا آن : ايلاء فى الغضب ، وايلاء فى الرضا ، فأما الايلاء فى الغضب : فاذا مضت أربعة أشهر فقد بانت منه . وأما ما كان فى الرضا فلا يؤاخذ به . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال لا إيلاء الا بغضب . وأخرج أبو عبيد فى فضائله وابن المنذر عن أبى ابن كعب أنه قرأ فان فاءوا فيهن فان الله غفور رحيم . وأخرج عبد بن حميد عن على قال الفيء : الجماع . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقي فى سننه من طرق عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود مثله . وأخرج ابن المنذر عن على قال الفيء الرضا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود مثله . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ، قال الفيء : الاشهاد وأخرج عبد الرزاق عنه قال الفيء : الجماع ، فان كان له عذر أجزأه أن يفيء بلسانه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال اذا حال بينه و بينها مرض أو سفر أو حبس أو شيء يعذر به فاشهاده فيء ، وللسلف فى الفيء أقوال مختلفة ، فينبغى الرجوع الى معنى الفيء لغة . وقد بيناه . وأخرج ابن جرير عن عمر بن الخطاب أنه قال فى الايلاء اذا مضت أربعة أشهر لاشيء عليه حتى يوقف فيطلق أو يمسك . وأخرج الشافعي وابن جرير والبيهقي عن عثمان بن عفان نحوه . وأخرج مالك والشافعي وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي عن على نحوه . وأخرج البخارى وعبد بن حميد عن ابن عمر نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير والبيهقي عن عائشة نحوه . وأخرج ابن جرير والدارقطنى والبيهقي من طريق سهيل بن أبى صالح عن أبيه قال سألت اثنى عشر رجلا من أصحاب النبي ﷺ عن الرجل يولى من امرأته فكلهم يقول ليس عليه شيء حتى تمضى الأربعة الأشهر فتوقف فان فاء والا طلق . وأخرج البيهقي عن ثابت بن عبيدة مولى زيد بن ثابت عن اثنى عشر رجلا من الصحابة نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقي عن عمر وعثمان وعلى وزيد بن ثابت وابن مسعود وابن عمر وابن عباس قالوا الايلاء تطليقة بائنة اذا مرت أربعة أشهر ، قبل أن يفيء فهى أملك بنفسها ، وللصحابة والتابعين فى هذا أقوال مختلفة متناقضة ، والمتعين الرجوع الى مافى الآية الكريمة ، وهو ماعرفناك فاشدد عليه يديك . وأخرج عبد الرزاق عن عمر قال : إيلاء العبد شهران . وأخرج مالك عن ابن شهاب قال ايلاء العبد نحو ايلاء الحر .

وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *

قوله (والمطلقات) يدخل تحت عمومه المطلقة قبل الدخول ، ثم خصص بقوله تعالى ـ فما لكم

عليهنّ من عدّة تعتدّونها ـ فوجب بناء العام على الخاص ، وخرجت من هذا العموم المطلقة قبل الدخول وكذلك خرجت الحامل بقوله تعالى ـ وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ ، وكذلك خرجت الآيسة بقوله تعالى ـ فعدّتهنّ ثلاثة أشهر ـ * والتربص : الانتظار ، قيل هو خبر فى معنى الأمر : أى ليتربصن قصد باخراجه مخرج الخبر تأكيد وقوعه ، وزاده تأكيدا وقوعه خبرا للمبتدأ . قال ابن العربى وهذا باطل وإنما هو خبر عن حكم الشرع ، فان وجدت مطلقة لا تتربص فليس ذلك من الشرع ، ولا يلزم من ذلك وقوع خبر الله سبحانه على خلاف مخبره * والقروء : جمع قرء . وروى عن نافع أنه قرأ قروّ بتشديد الواو . وقرأه الجمهور بالهمز . وقرأ الحسن بفتح القاف وسكون الراء والتنوين . قال الأصمعى الواحد قرء بضم القاف . وقال أبو زيد بالفتح ، وكلاهما قال أقرأت المرأة : حاضت ، وأقرأت : طهرت . وقال الأخفش أقرأت المرأة : إذا صارت صاحبة حيض ، فاذا حاضت قلت : قرأت بلا ألف . وقال أبو عمرو بن العلاء من العرب من يسمى الحيض قرءا ، ومنهم من يسمى الطهر قرءا ، ومنهم من يجمعهما جميعا فيسمى الحيض مع الطهر قرءا ، وينبغى أن يعلم أن القرء فى الأصل : الوقت ، يقال هبت الرياح لقرئها ولقارئها : أى لوقتها ، ومنه قول الشاعر :

كرهت العقرعقر بنى شليل * اذا هبت لقارئها الرياح

فيقال للحيض قرء ، وللطهر قرء ، لأن كل واحد منهما له وقت معلوم . وقد أطلقته العرب تارة على الاطهار ، وتارة على الحيض ، فمن إطلاقه على الاطهار قول الأعشى :

أفى كل عام أنت جاشم غزوة * تشدّ لأقصاها عزيم عزائكا

مورثة مالا وفى الحى رفعة * لما ضاع فيها من قروء نسائكا

أى أطهارهن ، ومن إطلاقه على الحيض قول الشاعر :

يارب ذى حنق علىّ قارض * له قرّو كقروّ الحائض

يعنى أنه طعنه فكان له دم كدم الحائض . وقال قوم هو مأخوذ من قرى الماء فى الحوض وهو جمعه ومنه القرآن لاجتماع المعانى فيه . قال عمرو بن كلثوم :

ذراعى عيطل أدماء بكر * هجان اللون لم تقرا جنينا

أى لم تجمعه فى بطنها * والحاصل أن القروء فى لغة العرب مشترك بين الحيض والطهر ، ولأجل هذا الاشتراك ، اختلف أهل العلم فى تعيين ماهو المراد بالقروء المذكورة فى الآية . فقال أهل الكوفة هى الحيض وهو قول عمر وعلىّ وابن مسعود وأبى موسى ومجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة والسدى وأحمد بن حنبل . وقال أهل الحجاز هى الاطهار ، وهو قول عائشة وابن عمر وزيد بن ثابت والزهرى وأبان بن عثمان والشافعى ، واعلم أنه قد وقع الاتفاق بينهم على أن القرء الوقت ، فصار معنى الآية عند الجميع ، والمطلقات يتربصن بأنفسهنّ ثلاثة أوقات ، فهى على هذا مفسرة فى العدد مجملة فى المعدود ، فوجب طلب البيان للمعدود من غيرها ، فأهل القول الأوّل استدلوا على أن المراد فى هذه الآية الحيض بقوله ﷺ « دعى الصلاة أيام أقرائك » وبقوله ﷺ « طلاق الأمة تطليقتان وعدّتها حيضتان » وبأن المقصود من العدّة استبراء الرحم وهو يحصل بالحيض لا بالطهر ، واستدل أهل القول الثانى بقوله تعالى (فطلقوهنّ لعدتهنّ) ولا خلاف أنه يؤمر بالطلاق وقت الطهر * وبقوله ﷺ لعمر مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، فتلك العدّة التى أمر الله أن تطلق لها النساء ، وذلك لأن زمن الطهر هو الذى تطلق فيه النساء قال أبو بكر بن عبد الرحمن ما أدركنا أحدا من فقهائنا الا يقول بأن الأقراء هى الاطهار ، فاذا طلق الرجل فى طهر لم يطأ فيه اعتدت بما بقى منه ولو ساعة ولو لحظة ، ثم استقبلت طهرا ثانيا بعد حيضة ، فاذا رأت الدم من الحيضة

الثالثة خرجت من العدّة انتهى * وعندى أن لاحجة فى بعض ما احتج به أهل القولين جميعا ، أما قول الأوّلين ان النبى ﷺ قال « دعى الصلاة أيام أقرائك » فغاية مافى هذا أن النبى ﷺ أطلق الاقراء على الحيض ولا نزاع فى جواز ذلك كما هو شأن اللفظ المشترك ، فانه يطلق تارة على هذا ، وتارة على هذا وانما النزاع فى الاقراء المذكورة فى هذه الآية ، وأما قوله ﷺ فى الأمة « وعدّتها حيضتان » فهو حديث أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه والدارقطنى والحاكم وصححه من حديث عائشة مرفوعا . وأخرجه ابن ماجه والبيهقى من حديث ابن عمر مرفوعا أيضا ، ودلالته على ماقاله الأوّلون قوية . وأما قولهم ان المقصود من العدّة استبراء الرحم وهو يحصل بالحيض لابالطهر : فيجاب عنه بأنه انما يتم لو لم يكن فى هذه العدّة شىء من الحيض على فرض تفسير الاقراء بالاطهار ، وليس كذلك بل هى مشتملة على الحيض كما هى مشتملة على الاطهار * وأما استدلال أهل القول الثانى بقوله تعالى ـ فطلقوهنّ لعدّتهنّ ـ فيجاب عنه بأن التنازع فى اللام فى قوله ـ لعدّتهنّ ـ يصير ذلك محتملا ، ولا تقوم الحجة بمحتمل . وأما استدلالهم بقوله ﷺ لعمر مره فليراجعها الحديث فهو فى الصحيح : ودلالته قوية على ماذهبوا اليه ، ويمكن أن يقال انها تنقضى العدّة بثلاثة أطهار أو بثلاث حيض ، ولامانع من ذلك فقد جوّز جمع من أهل العلم حمل المشترك على معنييه ، وبذلك يجمع بين الأدلة ، ويرتفع الخلاف ، ويندفع النزاع * وقد استشكل الزمخشرى تمييز الثلاثة بقوله قروء وهى جمع كثرة دون أقراء التى هى من جموع القلة * وأجاب بأنهم يتسعون فى ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما فى الجمعية * قوله (ولا يحل لهنّ أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهنّ) قيل المراد به الحيض ، وقيل الحمل ، وقيل كلاهما ، ووجه النهى عن الكتمان مافيه فى بعض الأحوال من الاضرار بالزوج واذهاب حقه ، فاذا قالت المرأة حضت وهى لم تحض ذهبت بحقه من الارتجاع ، واذا قالت لم تحض وهى قد حاضت ألزمته من النفقة مالم يلزمه فاضرّت به ، وكذلك الحمل ربما تكتمه لتقطع حقه من الارتجاع ، وربما تدّعيه لتوجب عليه النفقة ، ونحو ذلك من المقاصد المستلزمة للاضرار بالزوج . وقد اختلفت الأقوال فى المدّة التى تصدّق فيها المرأة إذا ادّعت انقضاء عدّتها * وقوله (ان كنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر) فيه وعيد شديد للكاتمات ، وبيان أن من كتمت ذلك منهنّ لم تستحق اسم الايمان * والبعولة جمع بعل وهو الزوج سمى بعلا لعلوّه على الزوجة لأنهم يطلقونه على الرب ومنه قوله تعالى ـ أتدعون بعلا ـ أى ربا ، ويقال بعول وبعولة كما يقال فى جمع الذكر ذكور وذكورة وهذه التاء لتأنيث الجمع وهو شاذ لايقاس عليه بل يعتبر فيه السماع ، والبعولة أيضا تكون مصدرا من بعل الرجل يبعل ، مثل منع يمنع : أى صار بعلا * وقوله (أحق بردّهنّ) أى برجعتهنّ ، وذلك يختص بمن كان يجوّز للزوج مراجعتها فيكون فى حكم التخصيص لعموم قوله (والمطلقات يتربصن بأنفسهنّ) لأنه يعم المثلثات وغيرهنّ * وقوله (فى ذلك) يعنى فى مدّة التربص فان انقضت مدّة التربص فهى أحق بنفسها ، ولا تحلّ له إلا بنكاح مستأنف بولىّ وشهود ، ومهر جديد ، ولا خلاف فى ذلك ، والرجعة تكون باللفظ وتكون بالوطء ، ولا يلزم المراجع شىء من أحكام النكاح بلا خلاف * وقوله (ان أرادوا إصلاحا) أى بالمراجعة أى إصلاح حاله معها وحالها معه ، فان قصد الاضرار بها فهى محرّمة لقوله تعالى (ولا تمسكوهنّ ضرارا لتعتدوا) قيل واذا قصد بالرجعة الضرار فهى صحيحة ، وان ارتكب بذلك محرّما وظلم نفسه ، وعلى هذا فيكون الشرط المذكور فى الآية للحث للأزواج على قصد الصلاح والزجر لهم عن قصد الضرار ، وليس المراد به جعل قصد الاصلاح شرطا لصحة الرجعة * قوله (ولهنّ مثل الذى عليهنّ بالمعروف) أى لهنّ من حقوق الزوجية على الرجال بمثل ماللرجال عليهنّ ، فيحسن عشرتها بما هو معروف من عادة الناس أنهم يفعلونه لنسائهم ، وهى كذلك تحسن عشرة زوجها بما هو معروف من عادة النساء

انهن

أنهنّ يفعلنه لأزواجهنّ من طاعة وتزين وتحبب ونحو ذلك * قوله (وللرجال عليهنّ درجة) أى منزلة ليست لهنّ وهو قيامه عليها فى الانفاق ، وكونه من أهل الجهاد والعقل والقوّة ، وله من الميراث أكثر مما لها ، وكونه يجب عليها امتثال أمره والوقوف عند رضاه ولو لم يكن من فضيلة الرجال على النساء إلا كونهنّ خلقن من الرجال لما ثبت أن حوّاء خلقت من ضلع آدم .

وقد أخرج أبو داود وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية قالت طلقت على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن للمطلقة عدّة ، فأنزل الله حين طلقت العدّة للطلاق فقال (والمطلقات يتربصن) الآية . وأخرج أبو داود والنسائى وابن المنذر عن ابن عباس (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) ثم قال ــ واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدّتهنّ ثلاثة أشهر ــ فنسخ وقال ــ ثم طلقتموهنّ من قبل أن تمسوهنّ فما لكم عليهنّ من عدّة تعتدّونها ــ . وأخرج مالك والشافعى وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والدارقطنى والبيهقى من طرق عن عائشة أنها قالت : الاقراء الاطهار . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن عمر وزيد ابن ثابت مثله . وأخرج المذكورون عن عمرو بن دينار قال الأقراء : الحيض عن أصحاب محمد ﷺ . وأخرج البيهقى وابن جرير عن ابن عباس فى قوله (ثلاثة قروء) قال ثلاث حيض . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله تعالى (ولا يحلّ لهنّ أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهنّ) قال كانت المرأة تكتم حملها حتى تجعله لرجل آخر فنهاهنّ الله عن ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عمر فى الآية قال : الحمل والحيض . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله تعالى (وبعولتهنّ أحق بردّهنّ) يقول إذا طلق الرجل امرأته تطليقة أو تطليقتين وهى حامل فهو أحق برجعتها مالم تضع حملها وهو قوله (ولا يحلّ لهنّ أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهنّ) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والبيهقى عن مجاهد فى قوله (وبعولتهنّ أحق بردّهنّ فى ذلك) قال فى العدّة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله ، وزاد مالم يطلقها ثلاثا . وأخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله (ولهنّ مثل الذى عليهنّ) قال اذا أطعن الله وأطعن أزواجهنّ فعليه أن يحسن صحبتها ، ويكف عنها أذاه ، وينفق عليها من سعته . وقد أخرج أهل السنن عن عمرو بن الأحوص أن رسول الله ﷺ قال « ألا ان لكم على نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا : أما حقكم على نسائكم أن لايوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذنّ فى بيوتكم لمن تكرهون : ألا وحقهنّ عليكم أن تحسنوا اليهنّ فى كسوتهنّ وطعامهنّ» وصححه الترمذى . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقى عن معاوية ابن حيدة القشيرى أنه سأل النبى ﷺ ماحق المرأة على الزوج ؟ قال أن تطعمها اذا طعمت ، وتكسوها اذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تهجر إلا فى البيت . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله (وللرجال عليهنّ درجة) قال فضل مافضله الله به عليها من الجهاد وفضل ميراثه على ميراثها وكل مافضل به عليها . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى مالك فى الآية قال يطلقها وليس لها من الأمر شىء . وأخرجا عن زيد بن أسلم قال الامارة .

الطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ

به تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *

المراد بالطلاق المذكور هو الرجعىّ بدليل ماتقدّم فى الآية الأولى أى الطلاق الذى تثبت فيه الرجعة للأزواج هو مرتان أى الطلقة الأولى والثانية إذلا رجعة بعد الثالثة ، وإنما قال سبحانه (مرتان) ولم يقل طلقتان إشارة إلى أنه ينبغى أن يكون الطلاق مرة بعد مرة : لاطلقتان دفعة واحدة ، كذا قال جماعة من المفسرين ، ولما لم يكن بعد الطلقة الثانية إلا أحد أمرين ، إما إيقاع الثالثة التى بها تبين الزوجة ، أوالامساك لها واستدامة نكاحها ، وعدم ايقاع الثالثة عليها قال سبحانه (فامساك بمعروف أو تسريح باحسان) أى فامساك بعد الرجعة لمن طلقها زوجها طلقتين بمعروف ، أى بما هو معروف عند الناس من حسن العشرة (أو تسريح باحسان) أى بايقاع طلقة ثالثة عليها من دون ضرار لها ، وقيل المراد (إمساك بمعروف) أى برجعة بعد الطلقة الثانية (أوتسريح باحسان) أى بترك الرجعة بعد الثانية حتى تنقضى عدّتها * والأول أظهر * وقوله (الطلاق) مبتدأ بتقدير مضاف ، أى عدد الطلاق الذى تثبت فيه الرجعة مرتان . وقد اختلف أهل العلم فى إرسال الثلاث دفعة واحدة هل يقع ثلاثا أو واحدة فقط ؟ فذهب إلى الأول الجمهور ، وذهب إلى الثانى من عداهم وهو الحق . وقدقرّرته فى مؤلفاتى تقريرا بالغا ، وأفردته برسالة مستقلة * قوله (ولا يحلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئا) الخطاب للأزواج ، أى لايحلّ للأزواج أن يأخذوا مما دفعوه الى نسائهم من المهر شيئا على وجه المضارة لهنّ ، وتنكير شيئا للتحقير أى شيئا نزرا فضلا عن الكثير ، وخص مادفعوه اليهنّ بعدم حلّ الأخذ منه مع كونه لايحلّ للأزواج أن يأخذوا شيئا من أموالهنّ التى يملكنها من غير المهر لكون ذلك هوالذى تتعلق به نفس الزوج ، وتتطلع لأخذه دون ماعداه مماهو فى ملكها ، على أنه اذا كان أخذ مادفعه اليها لايحلّ له كان ماعداه ممنوعا منه بالأولى ، وقيل الخطاب فى قوله (ولا يحلّ لكم) للأئمة والحكام ليطابق قوله (فان خفتم) فان الخطاب فيه للأئمة والحكام ، وعلى هذا يكون إسناد الأخذ اليهم لكونهم الآمرين بذلك * والأوّل أولى لقوله (مما آتيتموهنّ) فان إسناده إلى غير الأزواج بعيد جدّا لأن إيتاء الأزواج لم يكن عن أمرهم ، وقيل ان الثانى أولى لئلا يتشوّس النظم * قوله (إلا أن يخافا) أى لايجوز لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئا إلا أن يخافا أن لايقيما حدود الله أى عدم إقامة حدود الله التى حدّها للزوجين وأوجب عليهما الوفاء بها من حسن العشرة والطاعة ، فان خافا ذلك (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) أى لاجناح على الرجل فى الأخذ ، ولا على المرأة فى الاعطاء بأن تفتدى نفسها من ذلك النكاح ببذل شىء من المال يرضى به الزوج فيطلقها لأجله ، وهذا هوالخلع . وقد ذهب الجمهور الى جوازذلك للزوج وأنه يحلّ له الأخذ مع ذلك الخوف ، وهو الذى صرّح به القرآن * وحكى ابن المنذرعن بعض أهل العلم أنه لايحلّ له ماأخذ ولا يجبرعلى ردّه ، وهذا فى غاية السقوط . وقرأ حمزة إلا أن يخافا على البناء للمجهول ، والفاعل محذوف : وهو الأئمة والحكام ، واختاره أبوعبيد قال لقوله (فان خفتم) فجعل الخوف لغير الزوجين . وقد احتج بذلك من جعل الخلع الى السلطان : وهو سعيد بن جبير والحسن وابن سيرين . وقد ضعف النحاس اختيار أبى عبيد المذكور * وقوله (فان خفتم أن لايقيما حدود الله) أى اذا خاف الأئمة والحكام أوالمتوسطون

بين الزوجين وان لم يكونوا أئمة وحكاما عدم إقامة حدود الله من الزوجين : وهى ماأوجبه عليهما كما سلف . وقد حكى عن بكر بن عبد الله المدنى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى فى سورة النساء ـ وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا واثما مبينا ـ وهو قول خارج عن الاجماع ولاتنافى بين الاثنين . وقد اختلف أهل العلم اذا طلب الزوج من المرأة زيادة على مادفعه اليها من المهر ومايتبعه ورضيت بذلك المرأة هل يجوز أم لا ، وظاهر القرآن الجواز لعدم تقييده بمقدار معين ، وبهذا قال مالك والشافعى وأبو ثور ، وروى مثل ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين وقال طاوس وعطاء والأوزاعى وأحمد واسحق انه لايجوز ، وسيأتى ماورد فى ذلك عن النبى ﷺ * وقوله تعالى (تلك حدود الله) أى أحكام النكاح ، والفراق المذكورة هى حدود الله التى أمرتم بامتثالها فلا تعتدوها بالمخالفة لها فتستحقوا ماذكره الله من التسجيل على فاعل ذلك بأنه ظالم * قوله تعالى (فان طلقها) أى الطلقة الثالثة التى ذكرها سبحانه بقوله (أو تسريح باحسان) أى فان وقع منه ذلك فقد حرمت عليه بالتثليث (فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره) أى حتى تتزوج بزوج آخر . وقد أخذ بظاهر الآية سعيد بن المسيب ومن وافقه قالوا يكفى مجرد العقد لأنه المراد بقوله (حتى تنكح زوجا غيره) وذهب الجمهور من السلف والخلف الى أنه لابد مع العقد من الوطء لما ثبت عن النبى ﷺ من اعتبار ذلك وهو زيادة يتعين قبولها ، ولعله لم يبلغ سعيد بن المسيب ومن تابعه ، وفى الآية دليل على أنه لابد من أن يكون ذلك نكاحا شرعيا مقصودا لذاته لانكاحا غير مقصود لذاته ، بل حيلة للتحليل ، وذريعة الى ردها الى الزوج الأول ، فان ذلك حرام للأدلة الواردة فى ذمه وذم فاعله وأنه التيس المستعار الذى لعنه الشارع ولعن من اتخذه لذلك * قوله (فان طلقها) أى الزوج الثانى (فلا جناح عليهما) أى الزوج الأول والمرأة (أن يتراجعا) أى يرجع كل واحد منهما لصاحبه . قال ابن المنذر أجمع أهل العلم على أن الحر اذا طلق زوجته ثلاثا ثم انقضت عدتها ونكحت زوجا ودخل بها ثم فارقها وانقضت عدتها ثم نكحها الزوج الأول انها تكون عنده على ثلاث تطليقات * قوله (إن ظنا أن يقيما حدود الله) أى حقوق الزوجية الواجبة لكل منهما على الآخر . وأما اذا لم يحصل ظن ذلك بأن يعلما أو أحدهما عدم الاقامة لحدود الله أو ترددا أو أحدهما ولم يحصل لهما الظن فلا يجوز الدخول فى هذا النكاح لأنه مظنة للمعصية لله والوقوع فيما حرمه على الزوجين * وقوله (وتلك حدود الله) إشارة الى الأحكام المذكورة كما سلف ، وخص الذين يعلمون مع عموم الدعوة للعالم وغيره ، ووجوب التبليغ لكل فرد ، لأنهم المنتفعون بالبيان المذكور .

وقد أخرج مالك والشافعى وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن هشام بن عروة عن أبيه ، قال كان الرجل اذا طلق امرأته ثم ارتجعها قبل أن تنقضى عدتها كان ذلك له ، وان طلقها ألف مرة فعمد رجل الى امرأته فطلقها حتى اذا مادنا وقت انقضاء عدتها ارتجعها ، ثم طلقها ، ثم قال والله لاآويك الى ولاتحلين أبدا ، فأنزل الله (الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان) فاستقبل الناس الطلاق جديدا من يومئذ من كان منهم طلق ومن لم يطلق . وأخرج نحوه الترمذى وابن مردويه والحاكم وصححه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة . وأخرج البخارى عنها انها أتتها امرأة فسألتها عن شىء من الطلاق ، قالت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فنزلت (الطلاق مرتان) . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد وأبوداود فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن أبى رزين الأسدى ، قال قال رجل يارسول الله أرأيت قول الله الطلاق مرتان فأين الثالثة ؟ قال التسريح باحسان الثالثة . وأخرج نحوه ابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس

مرفوعا . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد أنه قال قال الله للثالثة (فامساك بمعروف أوتسريح باحسان) وأخرج ابن أبى حاتم عن يزيد بن أبى حبيب ، قال التسريح فى كتاب الله الطلاق . وأخرج البيهقى من طريق السدى عن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب النبى ﷺ فى قوله (الطلاق مرتان) قالوا وهو الميقات الذى تكون فيه الرجعة ، فاذا طلق واحدة أواثنتين ، فاما أن يمسك ويراجع بمعروف ، واما أن يسكت عنها حتى تنقضى عدتها فتكون أحق بنفسها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية نحوه . وأخرج أبوداود فى ناسخه وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال كان الرجل يأكل من مال امرأته الذى نحلها وغيره لايرى أن عليه جناحا ، فأنزل الله (ولايحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئا) فلم يصح لهم بعد هذه الآية أخذ شىء من أموالهنّ الابحقها ، ثم قال (الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فان خفتم ألا يقيما حدودالله) وقال ـ فان طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئامريئا ـ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (الا أن يخافا أن لايقيما حدود الله) قال الا أن يكون النشوز وسوء الخلق من قبلها ، فتدعوك الى أن تفتدى منك فلاجناح عليك فيما افتدت به . وأخرج مالك والشافعى وأحمد وأبوداود والنسائى والبيهقى من طريق عمرة بنت عبدالرحمن بن أسعد بن زرارة عن حبيبة بنت سهل الأنصارى انها كانت تحت ثابت بن قيس ، وأن رسول الله خرج الى الصبح فوجدها عند بابه فى الغلس ، فقال من هذه ؟ قالت أنا حبيبة بنت سهل ، فقال ماشأنك ؟ قالت لاأنا ولاثابت ، فلما جاء ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ هذه حبيبة بنت سهل ، فذكرت ماشاء الله أن تذكر ، فقالت حبيبة يارسول الله كل ما أعطانى عنده ، فقال رسول الله ﷺ خذ منها ، فأخذمنها وجلست فى أهلها . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال نزلت هذه الآية فى ثابت بن قيس ، وفى حبيبة ، وكانت اشتكته الى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ تردّين عليه حديقته ؟ قالت نعم ، فدعاه فذكر ذلك له ، فقال ويطيب لى ذلك ، قال نعم ، قال ثابت قد فعلت ، فنزلت (ولايحل لكم أن تأخذوا) الآية . وأخرج عبد الرزاق وأبوداود وابن جرير والبيهقى من طريق عمرة عن عائشة نحوه . وأخرج البخارى والنسائى وابن ماجه وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس أن جميلة بنت عبدالله ابن سلول امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبى ﷺ فقالت يارسول الله ثابت بن قيس ما أعتب عليه فى خلق ولادين . ولكن لاأطيقه بغضا وأكره الكفر فى الاسلام ، قال أتردّين عليه حديقته ؟ قالت نعم ، قال اقبل الحديقة وطلقها تطليقة ، ولفظ ابن ماجه فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها حديقته ولايزداد . وأخرج البيهقى من طريق عطاء ، قال أتت امرأة النبى ﷺ وقالت إنى أبغض زوجى وأحب فراقه ، قال أتردين عليه حديقته التى أصدقك ؟ قالت نعم وزيادة ، فقال النبى ﷺ أما الزيادة من مالك فلا . وأخرج البيهقى عن أبى الزبير أن ثابت بن قيس فذكر القصة ، وفيه أما الزيادة فلا . وأخرج ابن مردويه باسناد جيد عن ابن عباس ، وفيه أنه أمر النبى ﷺ ثابتا أن يأخذ ماساق ولا يزداد . وأخرج البيهقى عن أبى سعيد وذكر القصة ، وفيها فردت عليه حديقته وزادت . وأخرج ابن جرير عن عمر أنه قال فى بعض المختلعات اخلعها ولو من قرطها ، وفى لفظ أخرجه عبد الرزاق عنه أنه قال للزوج خذ ولوعقاصها . قال البخارى ، أجاز عثمان الخلع دون عقاصها . وأخرج عبد بن حميد والبيهقى عن عطاء أن النبى ﷺ كره أن يأخذ من المختلعة أكثر مما أعطاها * وقد ورد فى ذم المختلعات أحاديث منها عن ثوبان عند أحمد وأبى داود والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقى ، قال قال رسول الله ﷺ أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة ، وقال المختلعات هنّ المنافقات ، ومنها عن ابن عباس عند ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال «لاتسأل المرأة زوجها الطلاق فى غير كنهه فتجد ريح الجنة ، وان ريحها ليوجد

مسيرة أربعين عاما ، ومنها عن أبى هريرة عند أحمد والنسائى عن النبى ﷺ قال المختلعات والمنتزعات هنّ المنافقات ، ومنها عن عقبة عند ابن جرير مرفوعا مثل حديث أبى هريرة . وقد اختلف أهل العلم فى عدة المختلعة ، والراجح أنها تعتد بحيضة لما أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى والحاكم وصححه عن ابن عباس أن النبى ﷺ أمر امرأة ثابت بن قيس أن تعتدّ بحيضة ، ولما أخرجه الترمذى عن الربيع بنت معوذ بن عفراء أنها اختلعت على عهد رسول الله ، فأمرها النبى ﷺ أن تعتدّ بحيضة أو أمرت أن تعتد بحيضة . قال الترمذى الصحيح أنها أمرت أن تعتدّ بحيضة . وأخرج النسائى وابن ماجه عنها انها قالت اختلعت من زوجى ، فجئت عثمان فسألته ماذا علىّ من العدّة ؟ فقال لاعدّة عليك الا أن يكون حديث عهد بك فتمكثين حتى تحيضى حيضة ، قالت انما أتبع فى ذلك ، قضاء رسول الله ﷺ فى مريم المغالية ، وكانت تحت ثابت بن قيس فاختلعت منه . وأخرج النسائى عن الربيع بنت معوذ أن النبى ﷺ أمر امرأة ثابت بن قيس أن تتربص حيضة واحدة فتلحق بأهلها ، ولم يرد مايعارض هذا من المرفوع ، بل ورد عن جماعة من الصحابة والتابعين أن عدّة المختلعة كعدّة الطلاق ، وبه قال الجمهور قال الترمذى وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم ، واستدلوا على ذلك بأن المختلعة من جملة المطلقات فهى داخلة تحت عموم القرآن ، والحق ماذكرناه ، لأن ماورد عن النبى ﷺ يخصص عموم القرآن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (فان طلقها فلا تحلّ له) يقول فان طلقها ثلاثا فلا تحلّ له حتى تنكح زوجا غيره . وأخرج ابن المنذر عن علىّ نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه . وأخرج الشافعى وعبد الرزاق وابن أبى شيبة وأحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه والبيهقى عن عائشة : قلت جاءت امرأة رفاعة القرظى إلى رسول الله ﷺ فقالت انى كنت عند رفاعة فطلقنى فبت طلاقى فتزوّجنى عبد الرحمن بن الزبير وما معه الامثل هدبة الثوب ، فتبسم النبى ﷺ فقال أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة ؟ لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك . وقد روى نحو هذا عنها من طرق . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وأحمد والنسائى وابن ماجه وابن جرير والبيهقى عن عمر مرفوعا نحوه . وأخرج أحمد وابن جرير والبيهقى عن أنس مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن أبى هريرة مرفوعا نحوه ، ولم يسم هؤلاء الثلاثة الصحابة صاحبة القصة . وأخرج أحمد والنسائى عن ابن عباس أن العميصاء أو الرميصاء أتت النبى ﷺ وفى آخره فقال النبى ﷺ ليس ذلك لك حتى يذوق عسيلتك رجل غيره * وقد ثبت لعن المحلل فى أحاديث منها عن ابن مسعود عند أحمد والترمذى وصححه والنسائى والبيهقى فى سننه قال « لعن النبى ﷺ المحلل والمحلل له » ومنها عن علىّ عند أحمد وأبى داود والترمذى وابن ماجه والبيهقى مرفوعا مثل حديث ابن مسعود ، ومنها عن جابر مرفوعا عند الترمذى مثله ، ومنها عن ابن عباس مرفوعا عند ابن ماجه مثله ، ومنها عن عقبة بن عامر عند ابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقى مرفوعا مثله ، ومنها عن أبى هريرة مرفوعا عند أحمد وابن أبى شيبة والبيهقى مثله وفى الباب أحاديث فى ذم التحليل وفاعله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا) يقول إذا تزوّجت بعد الأوّل فدخل بها الآخر فلا حرج على الأوّل أن يتزوّجها إذا طلقها الآخر أو مات عنها فقد حلت له . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله (أن يقيما حدود الله) قال أمر الله وطاعته .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ

ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *

البلوغ إلى الشىء : معناه الحقيق الوصول إليه ، ولا يستعمل البلوغ بمعنى المقاربة إلا مجازا لعلاقه مع قرينة كما هنا ، فانه لايصح اراده المعنى الحقيقى ، لأن المرأة إذا قد بلغت آخر جزء من مدّة العدّة وجاوزته إلى الجزء الذى هو الأجل للانقضاء فقد خرجت من العدّة ، ولم يبق للزوج عليها سبيل . قال القرطبى فى تفسيره ان معنى (بلغن) هنا قاربن باجماع العلماء . قال ولأن المعنى يضطر إلى ذلك ، لأنه بعد بلوغ الأجل لاخيار له فى الامساك * والامساك بمعروف : هو القيام بحقوق الزوجية ، أى إذا طلقتم النساء فقاربن آخر العدّة فلا تضاروهنّ بالمراجعة من غير قصد لاستمرار الزوجية واستدامتها ، بل اختاروا أحد أمرين ، إما الامساك بمعروف من غير قصد لضرار ، أو التسريح باحسان ، أى تركها حتى تنقضى عدّتها من غير مراجعة ضرار ، ولا تمسكوهنّ ضرارا كما كانت تفعل الجاهلية من طلاق المرأة حتى يقرب انقضاء عدّتها ، ثم مراجعتها لاعن حاجة ولا لمحبة ، ولكن لقصد تطويل العدّة ، وتوسيع مدّة الانتظار (ضرارا) لقصد الاعتداء منكم عليهنّ ، والظلم لهنّ (ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه) لأنه عرضها لعقاب الله وسخطه . قال الزجاج يعنى عرّض نفسه للعذاب ، لأن اتيان مانهى الله عنه تعرّض لعذاب الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوًا) أى لاتأخذوا أحكام الله على طريقة الهزؤ ، فانها جدّ كلها ، فمن هزل فيها فقد لزمته ، نهاهم سبحانه أن يفعلوا كما كانت الجاهلية تفعل ، فانه كان يطلق الرجل منهم أو يعتق أو يتزوّج ، ويقول كنت لاعبا . قال القرطبى ، ولا خلاف بين العلماء أن من طلق هازلا أن الطلاق يلزمه * قوله (واذكروا نعمت الله عليكم) أى النعمة التى صرتم فيها بالاسلام وشرائعه بعد أن كنتم فى جاهلية جهلاء ، وظلمات بعضها فوق بعض * والكتاب : هو القرآن * والحكمة قال المفسرون هى السنة التى سنها لهم رسول الله ﷺ (يعظكم به) أى يخوّفكم بما أنزل عليكم ، وأفرد الكتاب والحكمة بالذكر مع دخولهما فى النعمة دخولا أوّليا ، تنبيها على خطرهما وعظم شأنهما .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : قال كان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها قبل انقضاء عدّتها ثم يطلقها فيفعل بهاذلك يضارّها و يعطلها ، فأنزل الله (و إذا طلقتم النساء) الآية . وأخرج نحوه مالك وابن جرير وابن المنذر عن ثور بن يزيد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والبيهقى عن الحسن فى قوله (ولا تمسكوهنّ ضرارا لتعتدوا) قال هو الرجل يطلق امرأته فاذا أرادت أن تنقضى عدّتها أشهد على رجعتها يريد أن يطوّل عليها . وأخرج ابن ماجه وابن جرير والبيهقى عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ « مابال أقوام يلعبون بحدود الله يقول قد طلقتك قد راجعتك قد طلقتك قد راجعتك ليس هذا طلاق المسلمين طلقوا المرأة فى قبل عدّتها » . وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبادة بن الصامت قال كان الرجل على عهد رسول الله ﷺ يقول للرجل زوّجتك ابنتى ثم يقول كنت لاعبا ، و يقول قد أعتقت ، و يقول كنت لاعبا ، فأنزل الله سبحانه (ولا تتخذوا آيات الله هزوًا) فقال رسول الله ﷺ « ثلاث من قالهنّ لاعبا أو غير لاعب فهنّ جائزات عليه الطلاق والنكاح والعتاق . وأخرج ابن مردويه عن أبى الدرداء : قال كان الرجل يطلق ثم يقول لعبت و يعتق ثم يقول لعبت ، فأنزل الله (ولا تتخذوا

آيات

آيات الله هزؤا) فقال رسول الله ﷺ «من طلق أو أعتق فقال لعبت فليس قوله بشىء يقع عليه فيلزمه». وأخرج ابن مردويه أيضا عن ابن عباس قال طلق رجل امرأته وهو يلعب لا يريد الطلاق، فأنزل الله (ولا تتخذوا آيات الله هزؤا) فألزمه رسول الله ﷺ الطلاق. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن مرفوعا نحو حديث عبادة. وأخرج أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ثلاث جدّهنّ جدّ وهزلهنّ جدّ النكاح والطلاق والرجعة».

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ *

الخطاب فى هذه الآية بقوله (وإذا طلقتم) و بقوله (فلا تعضلوهنّ) إما أن يكون للأزواج، ويكون معنى العضل منهم أن يمنعوهنّ من أن يتزوّجن من أردن من الأزواج بعد انقضاء عدّتهنّ لحمية الجاهلية كما يقع كثيرا من الخلفاء والسلاطين غيرة على من كنّ تحتهم من النساء أن يصرن تحت غيرهم، لأنهم لما نالوه من رياسة الدنيا وما صاروا فيه من النخوة والكبرياء يتخيلون أنهم قد خرجوا من جنس بنى آدم إلا من عصمه الله منهم بالورع والتواضع، وإما أن يكون الخطاب للأولياء، ويكون معنى اسناد الطلاق اليهم أنهم سبب له لكونهم المزوّجين للنساء المطلقات من الأزواج المطلقين لهنّ، و بلوغ الأجل المذكور هنا المراد به المعنى الحقيقى، أى نهايته لا كما سبق فى الآية الأولى * والعضل الحبس. وحكى الخليل دجاجة معضلة قد احتبس بيضها، وقيل العضل: التضييق والمنع، وهو راجع إلى معنى الحبس: يقال أردت أمرا فعضلتنى عنه، أى منعتنى وضيقت علىّ: وأعضل الأمر إذا ضاقت عليك فيه الحيل. وقال الأزهرى: أصل العضل من قولهم عضلت الناقة إذا نشب ولدها فلم يسهل خروجه، وعضلت الدجاجة: نشب بيضها، وكل مشكل عند العرب معضل، ومنه قول الشافعى رحمه الله:

اذا المعضلات تصدين لى * كشفت خفاء لها بالنظر

و يقال أعضل الأمر إذا اشتد، وداء عضال، أى شديد عسير البرء أعيا الأطباء، وعضل فلان أيمه أى منعها يعضلها بالضم والكسر لغتان * قوله (أن ينكحن) أى من أن ينكحن فمحله الجر عند الخليل، والنصب عند سيبويه والفراء، وقيل هو بدل اشتمال من الضمير المنصوب فى قوله (فلا تعضلوهنّ) * وقوله (أزواجهنّ) ان أريد به المطلقون لهنّ فهو مجاز باعتبار ما كان، وان أريد به من يردن أن يتزوّجنه فهو مجاز باعتبار ماسيكون * وقوله (ذلك) إشارة الى مافصل من الأحكام، وانما أفرد مع كون المذكور قبله جمعا، حملا على معنى الجمع بتأويله بالفريق ونحوه * وقوله (ذلكم) محمول على لفظ الجمع، خالف سبحانه مابين الاشارتين افتنانا * وقوله (أزكى) أى أنمى وأنفع (وأطهر) من الأدناس (والله يعلم) مالكم فيه الصلاح (وأنتم لاتعلمون) ذلك.

وقد أخرج البخارى وأهل السنن وغيرهم عن معقل بن يسار: قال كانت لى أخت فأتانى ابن عم فأنكحتها إياه فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويها وهويته ثم خطبها مع الخطاب: فقلت له يالكع أكرمتك بها وزوّجتكها فطلقتها ثم جئت تخطبها: والله لاترجع

اليك أبدا ، وكان رجلا لابأس به ، وكانت المرأة تريد أن ترجع اليه ، فعلم الله حاجته اليها وحاجتها الى بعلها فأنزل الله (واذا طلقتم النساء) الآية ، قال ففيّ نزلت هذه الآية فكفرت عن يمينى وأنكحتها اياه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية فى الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين فتنقضى عدّتها ثم يبدو له تزويجها وأن يراجعها وتريد المرأة ذلك ، فمنعها وليها من ذلك ، فنهى الله أن يمنعوها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن السدّى قال نزلت هذه الآية فى جابر بن عبدالله الأنصارى كانت له ابنة عم فطلقها زوجها تطليقة وانقضت عدّتها فأراد مراجعتها فأبى جابر فقال طلقت بنت عمنا ثم تريد أن تنكحها الثانية ، وكانت المرأة تريد زوجها ، فأنزل الله (واذا طلقتم النساء) . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل (اذا تراضوا بينهم بالمعروف) يعنى بمهر و بينة ونكاح مؤتنف . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ « أنكحوا الأيامى : فقال رجل يارسول الله ماالعلائق بينهم ؟ قال ماتراضى عليه أهلهن » . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك قال (والله يعلم وأنتم لاتعلمون) قال الله يعلم من حب كل واحد منهما لصاحبه مالاتعلم أنت أيها الولى .

وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *

لما ذكر الله سبحانه النكاح والطلاق : ذكر الرضاع ، لأن الزوجين قد يفترقان و بينهما ولد ، ولهذا قيل ان هذا خاص بالمطلقات ، وقيل هو عام * وقوله (يرضعن) قيل هو خبر فى معنى الأمر للدلالة على تحقق مضمونه ، وقيل هو خبر على بابه ليس هو فى معنى الأمر على حسب ماسلف فى قوله ـ يتربصن ـ وقوله (كاملين) تأكيد للدلالة على أن هذا التقدير تحقيق لاتقريبى * وقوله (لمن أراد أن يتم الرضاعة) أى ذلك لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وفيه دليل على أن إرضاع الحولين ليس حتما ، بل هو التمام ، ويجوز الاقتصار على مادونه ، وقرأ مجاهد وابن محيصن لمن أراد أن تتم بفتح التاء ورفع الرضاعة على اسناد الفعل اليها وقرأ أبوحيوة وابن أبى عبلة والجارود بن أبى سبرة بكسر الراء من الرضاعة وهى لغة . وروى عن مجاهد أنه قرأ الرضعة ، وقرأ ابن عباس لمن أراد أن يكمل الرضاعة . قال النحاس لايعرف البصريون الرضاعة الا بفتح الراء * وحكى الكوفيون جواز الكسر * والآية تدل على وجوب الرضاع على الأم لولدها ، وقد حمل ذلك على ما اذا لم يقبل الرضيع غيرها * قوله (وعلى المولود له رزقهنّ وكسوتهنّ) أى على الأب الذى يولد له ، وآثر هذا اللفظ دون قوله : وعلى الوالد للدلالة على أن الأولاد للآباء لاللأمهات ، ولهذا ينسبون اليهم دونهنّ كأنهنّ انما ولدن لهم فقط ، ذكر معناه فى الكشاف ، والمراد بالرزق هنا الطعام الكافى المتعارف به بين الناس ، والمراد بالكسوة مايتعارفون به أيضا ، وفى ذلك دليل على وجوب ذلك على الآباء للامهات المرضعات ، وهذا فى المطلقات ، وأما غير المطلقات فنفقتهنّ وكسوتهنّ واجبة على الأزواج من غير ارضاعهنّ لأولادهنّ * وقوله (لاتكلف نفس الاوسعها) هو تقييد لقوله (بالمعروف) أى هذه النفقة والكسوة الواجبتان على الأب بما يتعارفه الناس لايكلف منها الا مايدخل تحت وسعه وطاقته لامايشق عليه و يعجز

عنه

عنه ، وقيل المراد لاتكلف المرأة الصبر على التقتير فى الأجرة ، ولا يكلف الزوج ماهو إسراف ، بل يراعى القصد * قوله (لاتضار) قرأ أبو عمرو وابن كثير وجماعة ورواه أبان عن عاصم بالرفع على الخبر ، وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائى وعاصم فى المشهور عنه تضارّ بفتح الراء المشدّدة على النهى ، وأصله لاتضارر أولاتضارر على البناء للفاعل أوالمفعول ، أى لا تضارر الأب بسبب الولد بأن تطلب منه مالا يقدر عليه من الرزق والكسوة ، أو بأن تفرط فى حفظ الولد والقيام بما يحتاج اليه ، أولا تضارر من زوجها بأن يقصر عليها فى شىء مما يجب عليه أو ينتزع ولدها منها بلاسبب ، وهكذا قراءة الرفع تحتمل الوجهين ، وقرأ عمر بن الخطاب لاتضارر على الأصل بفتح الراء الأولى ، وقرأ أبوجعفر بن القعقاع لاتضار باسكان الراء وتخفيفها ، وروى عنه الاسكان والتشديد ، وقرأ الحسن وابن عباس لاتضارر بكسر الراء الأولى ، ويجوز أن تكون الباء فى قوله بولده صلة لقوله (تضار) على انه بمعنى تضر ، أى لاتضر والدة بولدها فتسىء تربيته أو تقصر فى غذائه ، وأضيف الولد تارة الى الأب وتارة الى الأم ، لأن كل واحد منهما يستحق أن ينسب اليه مع مافى ذلك من الاستعطاف ، وهذه الجملة تفصيل للجملة التى قبلها وتقرير لها ، أى لايكلف كل واحد منهما الآخر مالا يطيقه فلا تضاره بسبب ولده * قوله (وعلى الوارث) هو معطوف على قوله (وعلى المولود له) وما بينهما تفسير للمعروف ، أوتعليل له معترض بين المعطوف والمعطوف عليه * واختلف أهل العلم فى معنى قوله (وعلى الوارث مثل ذلك) فقيل هو وارث الصبى أى اذا مات المولود له كان على وارث هذا الصبى المولود ارضاعه كما كان يلزم أباه ذلك ، قاله عمر بن الخطاب وقتادة والسدّى والحسن ومجاهد وعطاء وأحمد واسحق وأبوحنيفة وابن أبى ليلى على خلاف بينهم هل يكون الوجوب على من يأخذ نصيبا من الميراث ، أو على الذكور فقط ، أوعلى كل ذى رحم له وان لم يكن وارثا منه ، وقيل المراد بالوارث وارث الأب تجب عليه نفقة المرضعة وكسوتها بالمعروف . قاله الضحاك ، وقال مالك فى تفسير هذه الآية بمثل ماقاله الضحاك ، ولكنه قال انها منسوخة ، وانها لاتلزم الرجل نفقة أخ ولا ذى قرابة ولاذى رحم منه ، وشرطه الضحاك بأن لا يكون للصبى مال ، فان كان له مال أخذت أجرة رضاعه من ماله . وقيل المراد بالوارث المذكور فى الآية هو الصبى نفسه : أى عليه من ماله ارضاع نفسه اذا مات أبوه وورث من ماله ، قاله قبيصة بن ذؤيب و بشير بن نصر قاضى عمر بن عبدالعزيز . وروى عن الشافعى ، وقيل هوالباقى من والدى المولود بعد موت الآخر منهما ، فاذا مات الأب كان على الأم كفاية الطفل اذا لم يكن له مال ، قاله سفيان الثورى ، وقيل ان معنى قوله تعالى (وعلى الوارث مثل ذلك) أى وارث المرضعة يجب عليه أن يصنع بالمولود كما كانت الأم تصنعه به من الرضاع والخدمة والتربية . وقيل ان معنى قوله تعالى (وعلى الوارث مثل ذلك) انه يحرم عليه الاضرار بالأم كما يحرم على الأب ، و به قالت طائفة من أهل العلم ، قالوا وهذا هوالأصل ، فمن ادّعى أنه يرجع فيه العطف الى جميع ماتقدّم فعليه الدليل . قال القرطبى وهو الصحيح ، اذلو أراد الجميع الذى هو الرضاع والانفاق وعدم الضرر لقال وعلى الوارث مثل هؤلاء ، فدل على انه معطوف على المنع من المضارة ، وعلى ذلك تأوّله كافة المفسرين فيما حكى القاضى عبدالوهاب . قال ابن عطية ، وقال مالك وجميع أصحابه والشعبى والزهرى والضحاك وجماعة من العلماء ، المراد بقوله مثل ذلك أن لاتضار . وأما الرزق والكسوة فلا يجب شىء منه * وحكى ابن القاسم عن مالك مثل ماقدمنا عنه فى تفسيرهذه الآية ودعوى النسخ * ولا يخفى عليك ضعف ماذهبت اليه هذه الطائفة ، فان ماخصصوا به معنى قوله (وعلى الوارث مثل ذلك) من ذلك المعنى أى عدم الاضرار بالمرضعة قد أفاده قوله (لاتضار والدة بولدها) لصدق ذلك على كل مضارة ترد عليها من المولود له أوغيره . وأما قول القرطبى : لوأراد الجميع لقال مثل هؤلاء ، فلايخفى مافيه من الضعف البين ، فان اسم الاشارة يصلح للمتعدد كما يصلح للواحد بتأويل المذكور أونحوه . وأما ماذهب اليه أهل القول الأوّل من أن المراد بالوارث

وارثا لصبي ، فيقال عليه ان لم يكن وارثا حقيقة مع وجود الصبي حيا ، بل هو وارث مجازا باعتبار مايئول اليه . وأما ماذهب اليه أهل القول الثانى فهو وان كان فيه حمل الوارث على معناه الحقيقى ، لكن فى ايجاب النفقة عليه مع غنى الصبي مافيه ، ولهذا قيده القائل به بأن يكون الصبي فقيرا ، ووجه الاختلاف فى تفسير الوارث ماتقدم من ذكر الوالدات والمولود له والولد ، فاحتمل أن يضاف الوارث الى كل منهم * قوله (فان أرادا فصالا) الضمير للوالدين * والفصال : الفطام عن الرضاع أى التفريق بين الصبي والثدى ، ومنه سمى الفصيل لأنه مفصول عن أمه * وقوله (عن تراض منهما) أى صادرا عن تراض من الأبوين اذا كان الفصال قبل الحولين (فلا جناح عليهما) فى ذلك الفصال سبحانه * لما بين أن مدة الرضاع حولين كاملين قيد ذلك بقوله (لمن أراد أن يتم الرضاعة) وظاهره أن الأب وحده إذا أراد أن يفصل الصبي قبل الحولين كان ذلك جازا له ، وهنا اعتبر سبحانه تراضى الأبوين وتشاورهما فلا بدّ من الجمع بين الأمرين بأن يقال ان الارادة المذكورة فى قوله (لمن أراد أن يتمّ الرضاعة) لابدّ أن تكون منهما ، أو يقال ان تلك الارادة اذا لم يكن الأبوان للصبي حيين بأن كان الموجود أحدهما ، أو كانت المرضعة للصبي ظئرا غير أمه * والتشاور استخراج الرأى : يقال شرت العسل : استخرجته ، وشرت الدابة : أجريتها لاستخراج جريها ، فلا بدّ لأحد الأبوين اذا أراد فصال الرضيع أن يراضى الآخر ويشاوره حتى يحصل الاتفاق بينهما على ذلك * قوله (وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم) قال الزجاج التقدير أن تسترضعوا لأولادكم غير الوالدة * وعن سيبويه أنه حذف اللام لأنه يتعدى الى مفعولين ، والمفعول الأول محذوف ، والمعنى أن تسترضعوا المراضع أولادكم (اذا سلمتم ما آتيتم) بالمدّ أى أعطيتم ، وهى قراءة الجماعة إلا ابن كثير فانه قرأ بالقصر أى فعلتم ، ومنه قول زهير :

وما كان من خير أتوه فانما * توارثه آباء آبائهم قبل

والمعنى أنه لابأس عليكم أن تسترضعوا أولادكم غير أمهاتهم اذا سلمتم الى الأمهات أجرهنّ بحساب ماقد أرضعن لكم الى وقت ارادة الاسترضاع . قاله سفيان الثورى ومجاهد . وقال قتادة والزهرى ان معنى الآية اذا سلمتم ما آتيتم من إرادة الاسترضاع أى سلم كل واحد من الأبوين ورضى وكان ذلك عن اتفاق منهما وقصد خير وإرادة معروف من الأمر ، وعلى هذا فيكون قوله (سلمتم) عاما للرجال والنساء تغليبا وعلى القول الأول الخطاب للرجال فقط ، وقيل المعنى : اذا سلمتم لمن أردتم استرضاعها أجرها فيكون المعنى اذا سلمتم ماأردتم ايتاءه : أى إعطاءه إلى المرضعات بالمعروف أى بما يتعارفه الناس من أجر المرضعات من دون مماطلة لهنّ أو حط بعض ماهو لهنّ من ذلك ، فان عدم توفير أجرهنّ يبعثهنّ على التساهل بأمر الصبي والتفريط فى شأنه .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن مجاهد فى قوله (والوالدت يرضعن أولادهنّ) قل المطلقات (حولين) قال سنتين (لاتضار والدة بولدها) يقول لاتأبى أن ترضعه ضرارا لتشق على أبيه (ولا مولود له بولده) يقول ولا يضارّ الوالد بولده فيمنع أمه أن ترضعه ليحزنها بذلك (وعلى الوارث) قال يعنى الولى من كان (مثل ذلك) قال النفقة بالمعروف وكفالته ورضاعه ان لم يكن للمولود مال وأن لاتضارّ أمه (فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور) قال غير مسيئين فى ظلم أنفسهما ولا الى صبيهما فلا جناح عليهما (وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم) قال خيفة الضيعة على الصبي (فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف) قال حساب ماأرضع به الصبي . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى تفسير هذه الآية أنه قال المراد بقوله (والوالدات يرضعن أولادهنّ) هى فى الرجل يطلق امرأته وله منها ولد . وقال فى قوله (إذا سلمتم ما آتيتم) قل ماأعطيتم الظئر من فضل

على أجرها . وأخرج أبو داود فى ناسخه عن زيد بن أسلم فى قوله (والوالدات يرضعن أولادهنّ) قال انها المرأة تطلق أو يموت عنها زوجها . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى التى تضع لستة أشهر أنها ترضع حولين كاملين ، واذا وضعت لسبعة أشهر أرضعت ثلاثة وعشرين شهرا لتمام ثلاثين شهرا ، واذا وضعت لتسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهرا ، ثم تلا ـ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ـ . وأخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله (وعلى المولود له رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف) قال على قدر الميسرة . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى قوله (لاتضارّ والدة بولدها ولا مولود له بولده) ليس لها أن تلقى ولدها عليه ولايجد من يرضعه ، وليس له أن يضارها فينتزع منها ولدها وهى تحب أن ترضعه (وعلى الوارث) قال هو ولىّ الميت . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء وابراهيم والشعبى فى قوله (وعلى الوارث) قال هو وارث الصبى ينفق عليه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة نحوه وزاد اذا كان المولود لامال له مثل الذى على والده من أجر الرضاع . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن نحوه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن ابن سيرين نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن قبيصة بن ذؤيب فى قوله (وعلى الوارث مثل ذلك) قال هو الصبى . وأخرج وكيع عن عبد الله بن مغفل نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (وعلى الوارث مثل ذلك) قال لايضارّ . وأخرج ابن جرير عن الضحاك (فان أرادا فصالا) قال الفطام . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد . قال التشاور فيما دون الحولين ليس لها أن تفطمه الا أن يرضى ، وليس له أن يفطمه الا أن ترضى . وأخرجوا أيضا عن عطاء فى قوله تعالى (وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم) قال أمه أو غيرها (فلا جناح عليكم اذا سلمتم) قال اذا سلمت لها أجرها (ما آتيتم) ماأعطيتم .

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ *

لما ذكر سبحانه عدّة الطلاق واتصل بذكرها ذكر الارضاع عقب ذلك بذكر عدّة الوفاة لئلا يتوهم أن عدّة الوفاة مثل عدّة الطلاق . قال الزجاج : ومعنى الآية والرجال الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا أى ولهم زوجات فالزوجات يتربصن . وقال أبو على الفارسى تقديره : والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بعدهم ، وهو كقولك السمن منوان بدرهم أى منه * وحكى المهدوى عن سيبويه أن المعنى وفيما يتلى عليكم الذين يتوفون ، وقيل التقدير وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن : ذكره صاحب الكشاف ، وفيه أن قوله (ويذرون أزواجا) لايلائم ذلك التقدير ، لأن الظاهر من النكرة المعادة المغايرة . وقال بعض النحاة من الكوفيين ان الخبر عن الذين متروك ، والقصد الإخبار عن أزواجهم بأنهنّ يتربصن ، ووجه الحكمة فى جعل العدّة للوفاة هذا المقدار أن الجنين الذكر يتحرك فى الغالب لثلاثة أشهر ، والأنثى لأربعة ، فزاد الله سبحانه على ذلك عشرا ، لأن الجنين ربما يضعف عن الحركة فتتأخر حركته قليلا ولا تتأخر عن هذا الأجل * وظاهر هذه الآية العموم ، وأن كل من مات عنها زوجها تكون عدّتها هذه العدّة ، ولكنه قد خصص هذا العموم قوله تعالى ـ وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ ـ وإلى هذا ذهب الجمهور . وروى عن بعض الصحابة وجماعة من أهل العلم أن الحامل تعتد بآخر الأجلين جمعا بين العام والخاص وإعمالا لهما ، والحق ماقاله الجمهور ، والجمع بين العام والخاص

على هـذه الصفة لايناسب قوانين اللغة ولا قواعد الشرع ، ولا معنى لاخراج الخاص من بين أفراد العام الابيان أن حكمه مغاير لحكم العام ومخالف له . وقد صح عنه ﷺ أنه أذن لسبيعة الأسلمية أن تتزوج بعد الوضع والتربص الثانى والتصبر عن النكاح * وظاهر الآية عدم الفرق بين الصغيرة والكبيرة والحرة والأمة وذات الحيض والآيسة ، وأن عدّتهن جميعا للوفاة أربعة أشهر وعشر ، وقيل ان عدّة الأمة نصف عدّة الحرة شهران وخمسة أيام . قال ابن العربى إجماعا الا مايحكى عن الأصم فانه سوّى بين الحرة والأمة . وقال الباجى ولا نعلم فى ذلك خلافا الا ماروى عن ابن سيرين أنه قال عدّتها عدّة الحرة ، وليس بالثابت عنه ، ووجه ماذهب اليه الأصم وابن سيرين مافى هذه الآية من العموم ، ووجه ماذهب اليه من عداهما قياس عدّة الوفاة على الحدّ فانه ينصف للأمة بقوله سبحانه ـ فعليهنّ نصف ماعلى المحصنات من العذاب ـ . وقد تقدم حديث « طلاق الأمة تطليقتان وعدّتها حيضتان » وهو صالح للاحتجاج به ، وليس المراد منه إلا جعل طلاقها على النصف من طلاق الحرّة ، وعدّتها على النصف من عدّتها ، ولكنه لما لم يمكن أن يقال طلاقها تطليقة ونصف ، وعدّتها حيضة ونصف لكون ذلك لا يعقل كانت عدّتها وطلاقها ذلك القدر المذكور فى الحديث جبرا للكسر ، ولكن ههنا أمر يمنع من هذا القياس الذى عمل به الجمهور ، وهو أن الحكمة فى جعل عدّة الوفاة أربعة أشهر وعشرا هو ماقدّمنا من معرفة خلوّها من الحمل ولا يعرف إلا بتلك المدّة ، ولا فرق بين الحرّة والأمة فى مثل ذلك ، بخلاف كون عدّتها فى غير الوفاة حيضتين ، فان ذلك يعرف به خلوّ الرحم ، ويؤيد عدم الفرق ماسيأتى فى عدّة أم الولد * واختلف أهل العلم فى عدّة أم الولد لموت سيدها . فقال سعيد بن المسيب ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وابن سيرين والزهرى وعمر ابن عبدالعزيز والأوزاعى واسحاق وابن راهويه وأحمد بن حنبل فى رواية عنه أنها تعتدّ بأربعة أشهر وعشر لحديث عمرو بن العاص : قال لاتلبسوا علينا سنة نبينا ﷺ « عدّة أمّ الولد إذا توفى عنها سيدها أربعة أشهر وعشر » . أخرجه أحمد وأبوداود وابن ماجه والحاكم وصححه ، وضعفه أحمد وأبوعبيد . وقال الدارقطنى الصواب أنه موقوف . وقال طاوس وقتادة عدّتها شهران وخمس ليال . وقال أبوحنيفة وأصحابه والثورى والحسن بن صالح تعتد بثلاث حيض ، وهو قول علىّ وابن مسعود وعطاء وابراهيم النخعى . وقال مالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه عدّتها حيضة وغير الحائض شهر ، وبه يقول ابن عمر والشعبى ومكحول والليث وأبو عبيد وأبو ثور والجمهور * قوله (فاذا بلغن أجلهنّ) المراد بالبلوغ هنا : انقضاء العدّة (فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهنّ) من التزين والتعرّض للخطاب (بالمعروف) الذى لايخالف شرعا ولا عادة مستحسنة . وقد استدل بذلك على وجوب الاحداد على المعتدة عدة الوفاة . وقد ثبت ذلك فى الصحيحين وغيرهما من غير وجه أن النبى ﷺ قال « لايحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ على ميت فوق ثلاث الا على زوج أربعة أشهر وعشرا » وكذلك ثبت عنه ﷺ فى الصحيحين وغيرهما النهى عن الكحل لمن هى فى عدّة الوفاة ، والاحداد : ترك الزينة من الطيب ، ولبس الثياب الجيدة والحلى وغير ذلك ، ولا خلاف فى وجوب ذلك فى عدّة الوفاة ، ولا خلاف فى عدم وجوبه فى عدّة الرجعية ، واختلفوا فى عدّة البائنة على قولين ، ومحل ذلك كتب الفروع .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (والذين يتوفون منكم) قال كان الرجل اذا مات وترك امرأته اعتدت سنة فى بيته ينفق عليها من ماله . ثم أنزل الله (والذين يتوفون منكم الآية) فهذه عدة المتوفى عنها الا أن تكون حاملا ، فعدتها أن تضع مافى بطنها . وقال فى ميراثها ـ ولهنّ الربع مما تركتم ـ فبين ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة (فاذا بلغن أجلهنّ فلا جناح

عليكم

عليكم) يقول : اذا طلقت المرأة ، أو مات عنها زوجها ، فاذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع وتتعرض للتزويج ، فذلك المعروف . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبى العالية قال : ضمت هذه الأيام العشر الى الاربعة أشهر ، لأن فى العشر ينفخ فيه الروح . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله (فاذا بلغن أجلهنّ) يقول اذا انقضت عدتها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب فى قوله (فلا جناح عليكم) يعنى أولياءها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم عن ابن عباس أنه كره للمتوفى عنها زوجها الطيب والزينة . وأخرج مالك وعبد الرزاق وأهل السنن وصححه الترمذى والحاكم عن الفريعة بنت مالك بن سنان وهى أخت أبى سعيد الخدرى أنها جاءت الى رسول الله ﷺ تسأل أن ترجع الى أهلها فى بنى خدرة ، وان زوجها خرج فى طلب أعبد لها أبقوا حتى اذا تطرف القدوم لحقهم فقتلوه . قالت فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع الى أهلى فان زوجى لم يتركنى فى منزل يملكه ولا نفقة : فقال رسول الله ﷺ نعم : فانصرفت حتى اذا كنت فى الحجرة أو فى المسجد فدعانى أو أمر بى فدعيت ، فقال كيف قلت . قالت : فرددت اليه القصة التى ذكرت له من شأن زوجى فقال : امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله . قالت فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرا ، قالت فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلىّ فسألنى عن ذلك فأخبرته فاتبعه وقضى به .

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ *

الجناح الاثم : أى لا اثم عليكم ، والتعريض ضد التصريح ، وهو من عرض الشىء أى جانبه كأنه يحوم به حول الشىء ولا يظهره ، وقيل هو من قولك : عرضت الرجل ، أى أهديت له . ومنه أن ركبا من المسلمين عرضوا رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابا بيضا ، أى أهدوا لهما : فالمعرض بالكلام يوصل الى صاحبه كلاما يفهم معناه . وقال فى الكشاف : الفرق بين الكناية والتعريض ، أن الكناية أن يذكر الشىء بغير لفظه الموضوع له . والتعريض أن يذكر شيئا يدل به على شىء لم يذكره : كما يقول المحتاج للمحتاج اليه ، جئتك لأسلم عليك ، ولأنظر الى وجهك الكريم ولذلك قالوا : * وحسبك بالتسليم منى تقاضيا *

وكأنه إمالة الكلام الى عرض يدل على الغرض ، ويسمى التلويح لأنه يلوح منه ما يريده انتهى * والخطبة بالكسر : ما يفعله الطالب من الطلب ، والاستلطاف بالقول والفعل . يقال : خطبها يخطبها خطبة وخطبا . وأما الخطبة بضم الخاء : فهى الكلام الذى يقوم به الرجل خاطبا * وقوله (أكننتم) معناه سترتم وأضمرتم من التزويج بعد انقضاء العدّة . والاكنان التستر والاخفاء : يقال أكننته وكننته بمعنى واحد . ومنه بيض مكنون ، ودرّ مكنون . ومنه أيضا أكنّ البيت صاحبه : أى ستره * وقوله (علم الله أنكم ستذكرونهنّ) أى علم الله أنكم لا تصبرون عن النطق لهنّ برغبتكم فيهن ، فرخص لكم فى التعريض دون التصريح . وقال فى الكشاف : ان فيه طرفا من التوبيخ : كقوله ــ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ــ * وقوله (ولكن لا تواعدوهنّ سرا) معناه على سر فحذف الحرف لأن الفعل لايتعدّى الى المفعولين . وقد اختلف العلماء فى معنى السر فقيل : معناه نكاحا أى لا يقل الرجل لهذه المعتدّة تزوّجينى بل يعرض تعريضا . وقد ذهب الى أن معنى الآية هذا جمهور العلماء ، وقيل السر الزنا ، أى

لا يكن منكم مواعدة على الزنا فى العدّة ثم التزويج بعدها . قله جابر بن زيد وأبو مجلز والحسن وقتادة والضحاك والنخعى واختاره ابن جرير الطبرى ، ومنه قول الحطيئة .

ويحرم سرّ جارتهم عليهم * ويأكل جارهم أنف القصاع

وقيل السرّ الجماع ، أى لاتصفوا أنفسكم لهنّ بكثرة الجماع ترغيبا لهنّ فى النكاح ، وإلى هذا ذهب الشافعى فى معنى الآية ، ومنه قول امرئ القيس .

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى * كبرت وأن لا يحسن السرّ أمثالى

ومثله قول الأعشى

فلن تطلبوا سرّها للغنى * ولن تسلموها لازهادها

أراد تطلبون نكاحها لكثرة مالها ، ولن تسلموها لقلة مالها ، والاستدراك بقوله (لكن) من مقدّر محذوف دلّ عليه (ستذكرونهن) أى فاذكروهنّ (ولكن لاتواعدوهنّ سرّا) . قال ابن عطية أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو رفث من ذكر جماع أو تحريض عليه لايجوز . وقال أيضا أجمعت الأمة على كراهة المواعدة فى العدّة للمرأة فى نفسها وللاب فى ابنته البكر وللسيد فى أمته * قوله (إلا أن تقولوا قولا معروفا) قيل هو استثناء منقطع بمعنى لكن ، والقول المعروف هو ما أبيح من التعريض ومنع صاحب الكشاف أن يكون منقطعا : وقال هو مستثنى من قوله (لاتواعدوهنّ) أى لاتواعدوهنّ مواعدة قط إلا مواعدة معروفة غير منكرة ، فجعله على هذا استثنا مفرغا ، ووجه منع كونه منقطعا أنه يؤدى الى جعل التعريض موعودا وليس كذلك ، لأن التعريض طريق المواعدة ، لأنه الموعود فى نفسه * قوله (ولا تعزموا عقدة النكاح) قد تقدّم الكلام فى معنى العزم : يقال عزم الشىء ، وعزم عليه ، والمعنى هنا لاتعزموا على عقدة النكاح ثم حذف على . قال سيبويه والحذف فى هذه الآية لايقاس عليه وقال النحاس يجوز أن يكون المعنى ولا تعقدوا عقدة النكاح ، لأن معنى تعزموا وتعقدوا واحد ، وقيل ان العزم على الفعل يتقدّمه فيكون فى هذا النهى مبالغة ، لأنه اذا نهى عن المتقدّم على الشىء ، كان النهى عن ذلك الشىء بالأولى * قوله (حتى يبلغ الكتاب أجله) يريد حتى تنقضى العدّة ، والكتاب هنا هو الحد والقدر الذى رسم من المدّة ، سماه كتابا لكونه محدودا ومفروضا كقوله تعالى ـ إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ـ وهذا الحكم أعنى تحريم عقد النكاح فى العدّة مجمع عليه .

وقد أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء) قال التعريض أن تقول : انى أريد التزويج ، وانى لأحب المرأة من أمرها وأمرها ، وان من شأنى النساء ولوددت أن الله يسر لى امرأة صالحة . وأخرج ابن جرير عنه أنه يقول لها : ان رأيت أن لاتسبقينى بنفسك ولوددت أن الله قد هيأ بينى وبينك ، ونحو هذا من الكلام . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : يقول انى فيك لراغب ولوددت أنى تزوجتك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن فى قوله (أو أكننتم) قال أسررتم . وأخرج عبد الرزاق عن الضحاك مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن الحسن فى قوله (علم الله أنكم ستذكرونهنّ) قال بالخطبة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن مجاهد قال : ذكره إياها فى نفسه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولكن لاتواعدوهنّ سرا) قال يقول لها : إنى عاشق ، وعاهدينى أن لاتتزوّجى غيرى ونحو هذا (إلا أن تقولوا قولا معروفا) وهو قوله ان رأيت أن لا تسبقينى بنفسك . وأخرج ابن جرير عنه فى السر أنه الزنا ، كان الرجل يدخل من أجل الزنا وهو يعرض بالنكاح . وأخرج

عبد الرزاق وابن المنذر عنه فى قوله (إلا أن تقولوا قولا معروفا) قال : يقول انك لجميلة وانك الىّ خير وان النساء من حاجتى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (ولا تعزموا عقدة النكاح) قال لاتنكحوا حتى يبلغ الكتاب أجله قال حتى تنقضى العدّة .

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ * وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *

المراد بالجناح هنا التبعة من المهر ونحوه ، فرفعه رفع لذلك ، أى لاتبعة عليكم بالمهر ونحوه ان طلقتم النساء على الصفة المذكورة ، ومافى قوله (مالم تمسوهنّ) هى مصدرية ظرفية بتقدير المضاف أى مدّة عدم مسيسكم ، ونقل أبو البقاء أنها شرطية من باب اعتراض الشرط على الشرط ليكون الثانى قيدا للأوّل كما فى قولك ان تأتنى انتحسن الىّ أكرمك ، أى ان تأتنى محسنا الىّ ، والمعنى ان طلقتموهن غير ماسين لهنّ . وقيل انها موصولة ، أى ان طلقتم النساء اللاتى لم تمسوهنّ ، وهكذا اختلفوا فى قوله (أو تفرضوا) فقيل أو بمعنى إلا ، أى الا أن تفرضوا ، وقيل بمعنى حتى ، أى حتى تفرضوا ، وقيل بمعنى الواو ، أى وتفرضوا * ولست أرى لهذا التطويل وجها ، ومعنى الآية أوضح من أن يلتبس ، فان الله سبحانه رفع الجناح عن المطلقين مالم يقع أحد الأمرين ، أى مدّة انتفاء ذلك الأحد ، ولاينتفى الأحد المبهم الا بانتفاء الأمرين معا ، فان وجد المسيس وجب المسمى أو مهر المثل ، وان وجد الفرض وجب نصفه مع عدم المسيس ، وكل واحد منها جناح : أى المسمى أو نصفه أو مهر المثل * واعلم أن المطلقات أربع ، مطلقة مدخول بها مفروض لها ، وهى التى تقدّم ذكرها قبل هذه الآية ، وفيها نهى الأزواج عن أن يأخذوا مما آتوهنّ شيئا ، وان عدّتهن ثلاثة قروء ، ومطلقة غير مفروض لها ولامدخول بها وهى المذكورة هنا فلا مهر لها ، بل المتعة ، وبين فى سورة الأحزاب أن غير المدخول بها اذا طلقت فلا عدّة عليها . ومطلقة مفروض لها غير مدخول بها ، وهى المذكورة بقوله سبحانه هنا (وان طلقتموهنّ من قبل أن تمسوهنّ وقدفرضتم لهنّ فريضة) ، ومطلقة مدخول بها غيرمفروض لها ، وهى المذكورة فى قوله تعالى ـ فمااستمتعتم به منهنّ فآتوهنّ أجورهنّ ـ والمراد بقوله (مالم تمسوهنّ) مالم تجامعوهنّ ، وقرأ ابن مسعود من قبل أن تجامعوهن ، أخرجه عنه ابن جرير وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم (مالم تمسوهنّ) وقرأه حمزة والكسائى تماسوهنّ من المفاعلة ، والمراد بالفريضة هنا تسمية المهر * قوله (ومتعوهنّ) أى أعطوهنّ شيئا يكون متاعا لهنّ ، وظاهر الأمر الوجوب ، وبه قال على وابن عمر والحسن البصرى وسعيد بن جبير وأبو قلابة والزهرى وقتادة والضحاك ، ومن أدلة الوجوب قوله تعالى ـ يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهنّ فمالكم عليهن من عدّة تعتدّونها فمتعوهنّ وسرحوهنّ سراحا جميلا ـ وقال مالك وأبو عبيد والقاضى شريح وغيرهم ان المتعة للمطلقة المذكورة مندوبة لاواجبة لقوله تعالى (حقا على المحسنين) ولو كانت واجبة لأطلقها على الخلق أجمعين ، ويجاب عنه بأن ذلك لاينافى الوجوب بل هو تأكيده كما فى قوله فى الآية الأخرى (حقا على المتقين) أى ان الوفاء بذلك والقيام به شأن أهل التقوى ، وكل مسلم يجب عليه أن يتقى الله سبحانه ، وقد وقع الخلاف أيضا هل المتعة مشروعة لغير هذه المطلقة قبل المسيس والفرض

أم ليست بمشروعة الالها فقط ؟ فقيل انها مشروعة لكل مطلقة ، واليه ذهب ابن عباس وابن عمر وعطاء وجابر بن زيد وسعيد بن جبير وأبو العالية والحسن البصرى والشافعى فى أحد قوليه واحمد واسحق ولكنهم اختلفوا هل هى واجبة فى غير المطلقة قبل البناء والفرض أم مندوبة فقط ، واستدلوا بقوله تعالى ــ وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين ــ و بقوله تعالى ــ ياأيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ــ والآية الأولى عامة لكل مطلقة ، والثانية فى أزواج النبى ﷺ وقد كن مفروضا لهن مدخولا بهن . وقال سعيد بن المسيب انها تجب للمطلقة اذا طلقت قبل المسيس وان كانت مفروضا لها لقوله تعالى ــ ياأيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن ــ قال هذه الآية التى فى الأحزاب نسخت التى فى البقرة ، وذهب جماعة من أهل العلم الى أن المتعة مختصة بالمطلقة قبل البناء والتسمية ، لأن المدخول بها تستحق جميع المسمى أو مهر المثل ، وغير المدخولة التى قد فرض لها زوجها فريضة ، أى سمى لها مهرا وطلقها قبل الدخول تستحق نصف المسمى ، ومن القائلين بهذا ابن عمر ومجاهد ، وقد وقع الاجماع على أن المطلقة قبل الدخول والفرض لاتستحق الا المتعة اذا كانت حرة . وأما اذا كانت أمة فذهب الجمهور الى أن لها المتعة ، وقال الأوزاعى والثورى لامتعة لها لأنها تكون لسيدها وهو لايستحق مالا فى مقابل تأذى مملوكته ، لأن الله سبحانه انما شرع المتعة للمطلقة قبل الدخول والفرض ، لكونها تتأذى بالطلاق قبل ذلك ، وقد اختلفوا فى المتعة المشروعة هل هى مقدرة بقدر أم لا ؟ فقال مالك والشافعى فى الجديد لاحد لها معروف ، بل مايقع عليه اسم المتعة ، وقال أبو حنيفة انه اذا تنازع الزوجان فى قدر المتعة وجب لها نصف مهر مثلها ولاينقص من خمسة دراهم ، لأن أقل المهر عشرة دراهم ، وللسلف فيها أقوال سيأتى ذكرها ان شاء الله * وقوله (على الموسع قدره وعلى المقتر قدره) يدل على أن الاعتبار فى ذلك بحال الزوج ، فالمتعة من الغنى فوق المتعة من الفقير وقرأ الجمهور على الموسع بسكون الواو وكسر السين ، وهو الذى اتسعت حاله . وقرأ أبو حيوة بفتح الواو وتشديد السين وفتحها ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر قدره بسكون الدال فيهما ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وعاصم فى رواية حفص بفتح الدال فيهما . قال الأخفش وغيره هما لغتان فصيحتان : وهكذا يقرأ فى قوله تعالى ــ فسالت أودية بقدرها ــ * وقوله ــ وماقدروا الله حق قدره ــ والمقتر المقل ، ومتاعا مصدر مؤكد لقوله (ومتعوهن) * والمعروف ماعرف فى الشرع والعادة الموافقة له * وقوله (حقا) وصف لقوله (متاعا) أو مصدر لفعل محذوف ، أى حق ذلك حقا ، يقال حققت عليه القضاء وأحققت أى أوجبت * قوله (وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) الآية ، فيه دليل على أن المتعة لاتجب لهذه المطلقة لوقوعها فى مقابلة المطلقة قبل البناء والفرض التى تستحق المتعة * وقوله (فنصف مافرضتم) أى فالواجب عليكم نصف ماسميتم لهن من المهر وهذا مجمع عليه ، وقرأ الجمهور (فنصف) بالرفع ، وقرأ من عدا الجمهور بالنصب أى فادفعوا نصف مافرضتم ، وقرئ أيضا بضم النون وكسرها وهما لغتان ، وقد وقع الاتفاق أيضا على أن المرأة التى لم يدخل بها زوجها ومات وقد فرض لها مهرا تستحقه كاملا بالموت ولها الميراث وعليها العدة ، واختلفوا فى الخلوة هل تقوم مقام الدخول وتستحق المرأة بها كمال المهر كما تستحقه بالدخول أم لا ؟ فذهب الى الأول مالك والشافعى فى القديم والكوفيون والخلفاء الراشدون وجمهور أهل العلم ، وتجب عندهم أيضا العدة ، وقال الشافعى فى الجديد لايجب الا نصف المهر ، وهو ظاهر الآية لما تقدم من أن المسيس هو الجماع ولاتجب عنده العدة ، واليه ذهب جماعة من السلف * قوله (إلا أن يعفون) أى المطلقات ، ومعناه يتركن و يصفحن ووزنه يفعلن وهو استثناء مفرغ من أعم العام ، وقيل منقطع ، ومعناه يتركن النصف

الذى

الذى يجب لهنّ على الأزواج ولم تسقط النون مع إن ، لأن جمع المؤنث فى المضارع على حالة واحدة فى الرفع والنصب والجزم لكون النون ضميرا ، وليست بعلامة اعراب كما فى المذكر فى قولك الرجال يعفون ، وهذا عليه جمهور المفسرين ، وروى عن محمد بن كعب القرظى أنه قال الا أن يعفون : يعنى الرجال وهو ضعيف لفظا ، ومعنى قوله (أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) معطوف على محل قوله الا أن يعفون ، لأن الأوّل مبنى وهذا معرب ، قيل هو الزوج ، و به قال جبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وشريح وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبى وعكرمة ونافع وابن سيرين والضحاك ومحمد بن كعب القرظى وجابر بن زيد وأبو مجلز والربيع ابن أنس و إياس بن معاوية ومكحول ومقاتل بن حيان وهو الجديد من قولى الشافعى ، و به قال أبو حنيفة وأصحابه والثورى وابن شبرمة والأوزاعى ورجحه ابن جرير ، وفى هذا القول قوّة وضعف ، أما قوّته فالكون الذى بيده عقدة النكاح حقيقة هو الزوج ، لأنه هو الذى اليه رفعه بالطلاق ، وأما ضعفه فلكون العفو منه غير معقول ، وما قالوا به من أن المراد بعفوه أن يعطيها المهر كاملا غير ظاهر ، لأن العفو لا يطلق على الزيادة وقيل المراد بقوله (أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) هو الولى ، و به قال النخعى وعلقمة والحسن وطاوس وعطاء وأبو الزناد وزيد بن أسلم وربيعة والزهرى والأسود بن يزيد والشعبى وقتادة ومالك والشافعى فى قوله القديم : وفيه قوّة وضعف ، أما قوّته فلكون معنى العفو فيه معقولا . وأما ضعفه فلكون عقدة النكاح بيد الزوج لا بيده ، ومما يزيد هذا القول ضعفا أنه ليس للولى أن يعفو عن الزوج مما لا يملكه * وقد حكى القرطبى الاجماع على أن الولى لا يملك شيئا من مالها ، والمهر مالها ، فالراجح ماقاله الأوّلون لوجهين . الأوّل أن الزوج هو الذى بيده عقدة النكاح حقيقة . الثانى أن عفوه باكمال المهر هو صادر عن المالك مطلق التصرف بخلاف الولى ، وتسمية الزيادة عفوا وان كان خلاف الظاهر ، لكن لما كان الغالب أنهم يسوقون المهر كاملا عند العقد كان العفو معقولا ، لأنه تركه لها ولم يسترجع النصف منه ، ولا يحتاج فى هذا الى أن يقال انه من باب المشاكلة كما فى الكشاف ، لأنه عفو حقيقى أى ترك لما يستحق المطالبة به الا أن يقال انه مشاكلة أو يطيب فى توفية المهر قبل أن يسوقه الزوج * قوله (وأن تعفوا أقرب للتقوى) قيل هو خطاب للرجال والنساء تغليبا ، وقرأه الجمهور بالتاء الفوقية ، وقرأ أبو نهيك والشعبى بالياء التحتية ، فيكون الخطاب مع الرجال * وفى هذا دليل على مارجحناه من أن الذى بيده عقدة النكاح هو الزوج ، لأن عفو الولى عن شىء لا يملكه ليس هو أقرب الى التقوى بل أقرب الى الظلم والجور * قوله (ولا تنسوا الفضل بينكم) قرأه الجمهور بضم الواو ، وقرأ يحيى بن يعمر بكسرها ، وقرأ على ومجاهد وأبو حيوة وابن أبى عبلة ولا تناسوا : والمعنى أن الزوجين لا ينسيان التفضل من كل واحد منهما على الآخر ، ومن جملة ذلك أن تتفضل المرأة بالعفو عن النصف ويتفضل الرجل عليها باكمال المهر : وهو ارشاد للرجال والنساء من الأزواج الى ترك التقصى على بعضهم بعضا والمسامحة فيما يستغرقه أحدهما على الآخر للوصلة التى قد وقعت بينهما من افضاء البعض الى البعض وهى وصلة لا يشبهها وصلة ، فمن رعاية حقها ومعرفتها حق معرفتها الحرص منهما على التسامح * وقوله (ان الله بما تعملون بصير) فيه من ترغيب المحسن وترهيب غيره مالا يخفى .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (مالم تمسوهنّ أو تفرضوا لهنّ فريضة) قال المس : النكاح ، والفريضة : الصداق (ومتعوهنّ) قال هو على الرجل يتزوّج المرأة ولم يسم لها صداقا ثم يطلقها قبل أن يدخل بها ، فأمره الله أن يمتعها على قدر عسره و يسره ، فان كان موسرا متعها بخادم ، وان كان معسرا متعها بثلاثة أثواب أو نحو ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أنه قال متعة الطلاق أعلاها الخادم ، ودون ذلك الورق ، ودون ذلك الكسوة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن ابن عمر قال أدنى مايكون من المتعة ثلاثون درهما ، وروى القرطبى فى تفسيره

عن الحسن بن على أنه متع بعشرين ألفا ورقاق من عسل ، وعن شريح أنه متع بخمسمائة درهم . وأخرج الدارقطنى عن الحسن بن على أنه متع بعشرة آلاف . وأخرج عبدالرزاق عن ابن سيرين أنه كان يمتع بالخادم والنفقة أو بالكسوة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (من قبل أن تمسوهنّ) قال المس : الجماع ، فلها نصف صداقها وليس لها أكثر من ذلك الا أن يعفون . وهى المرأة الثيب والبكر يزوّجها غير أبيها فجعل الله العفو لهنّ ان شئن عفون بتركهن وان شئن أخذن نصف الصداق (أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) وهو أبو الجارية البكر جعل العفو اليه ليس لها معه أمر اذا طلقت ما كانت فى حجره . وأخرج الشافعى وسعيد بن منصور والبيهقى عن ابن عباس قال فى الرجل يتزوّج المرأة فيخلو بها ولا يمسها ثم يطلقها ليس لها الا نصف الصداق ، لأن الله يقول (فان طلقتموهنّ) الآية وأخرج البيهقى عن ابن مسعود قال لها نصف الصداق وان جلس بين رجليها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط والبيهقى بسند حسن عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال « الذى بيده عقدة النكاح : الزوج . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والدارقطنى والبيهقى عن علىّ مثله من قوله . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن أبى حاتم والبيهقى عنه قال هو أبوها وأخوها ومن لا تنكح الا باذنه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله (ولا تنسوا الفضل بينكم) قال فى هذا أو غيره . وأخرج عبدالرزاق وابن أبى شيبة وأحمد وأبوداود والترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه والحاكم وصححه البيهقى أن قوما أتوا ابن مسعود فقالوا ان رجلا تزوّج منا امرأة ولم يفرض لها صداقا ولم يجمعها اليه حتى مات ، فقال أرى أن أجعل لها صداقا كصداق نسائها لا وكس ولا شطط ولها الميراث وعليها العدة أربعة أشهر وعشر ، فسمع بذلك ناس من أشجع منهم معقل بن سنان ، فقالوا نشهد انك قضيت مثل الذى قضى به رسول الله ﷺ فى امرأة منا يقال لها بروع بنت واشق . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة والبيهقى عن علىّ أنه قال فى المتوفى عنها زوجها ولم يفرض لها صداقا لها الميراث وعليها العدّة ولا صداق لها . وقال لا يقبل قول اعرابى من أشجع على كتاب الله . وأخرج الشافعى والبيهقى عن ابن عباس قال فى المرأة التى يموت عنها زوجها ، وقد فرض لها صداقا : لها الصداق والميراث . وأخرج مالك والشافعى وابن أبى شيبة والبيهقى عن عمر بن الخطاب أنه قضى فى المرأة يتزوّجها الرجل أنه اذا أرخيت الستور فقد وجب الصداق . وأخرج ابن أبى شيبة والبيهقى عن عمر وعلىّ قال اذا أرخى سترا وأغلق بابا فلها الصداق كاملا وعليها العدّة . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة والبيهقى عن زرارة بن أوفى قال قضى الخلفاء الراشدون أنه من أغلق بابا أو أرخى سترا فقد وجب الصداق والعدّة . وأخرج مالك والبيهقى عن زيد بن ثابت نحوه . وأخرج البيهقى عن محمد بن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال من كشف امرأة فنظر الى عورتها ، فقد وجب الصداق

حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَٰنِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ *

المحافظة على الشىء : المداومة والمواظبة عليه ، والوسطى تأنيث الأوسط ، وأوسط الشىء ووسطه خياره . ومنه قوله تعالى ــ وكذلك جعلناكم أمّة وسطا ــ ، ومنه قول بعض العرب : يمدح النبى ﷺ

ياأوسط الناس طرّا فى مفاخرهم * وأكرم الناس أما برة وأبا

ووسط فلان القوم يسطهم ، أى صار فى وسطهم وأفرد الصلاة الوسطى بالذكر بعد دخولها فى عموم

الصلوات تشريفا لها . وقرأ أبو جعفر (والصلاة الوسطى) بالنصب على الاغراء ، وكذلك قرأ الحلوانى وقرأ قالون عن نافع الوصطى بالصاد لمجاورة الطاء وهما لغتان : كالسراط والصراط * وقد اختلف أهل العلم فى تعيينها على ثمانية عشر قولا أوردتها فى شرحى للمنتقى ، وذكرت ما تمسكت به كل طائفة ، وأرجح الأقوال وأصحها ما ذهب اليه الجمهور من أنها العصر ، لما ثبت عند البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم من حديث على قال : كنا نراها الفجر حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول : يوم الأحزاب شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ، ملأ الله قبورهم وأجوافهم نارا . وأخرج مسلم والترمذى وابن ماجه وغيرهم من حديث ابن مسعود مرفوعا مثله . وأخرجه أيضا ابن جرير وابن المنذر والطبرانى من حديث ابن عباس مرفوعا . وأخرجه البزار باسناد صحيح من حديث جابر مرفوعا . وأخرجه أيضا البزار باسناد صحيح من حديث حذيفة مرفوعا . وأخرجه الطبرانى باسناد ضعيف من حديث أم سلمة مرفوعا . وورد فى تعيين أنها العصر من غير ذكر يوم الأحزاب أحاديث مرفوعة إلى النبى ﷺ ، منها . عن ابن عمر عند ابن منده ، ومنها عن سمرة عند أحمد وابن جرير والطبرانى ، ومنها عنه أيضا عند ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وصححه ابن جرير والطبرانى والبيهقى ، وعن أبى هريرة عند ابن جرير والبيهقى والطحاوى . وأخرجه عنه أيضا ابن سعيد والبزار وابن جرير والطبرانى وعن ابن عباس عند البزار بأسانيد صحيحة ، وعن أبى مالك الأشعرى عند ابن جرير والطبرانى ، فهذه أحاديث مرفوعة إلى النبى ﷺ مصرحة بأنها العصر . وقد روى عن الصحابة فى تعيين أنها العصر آثار كثيرة ، وفى الثابت عن النبى ﷺ مالا يحتاج معه إلى غيره * وأما ماروى عن على وابن عباس أنهما قالا : انها صلاة الصبح ، كما أخرجه مالك فى الموطأ عنهما . وأخرجه ابن جرير عن ابن عباس ، وكذلك أخرجه عنه عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر . وكذلك أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عمر ، وكذلك أخرجه ابن جرير عن جابر ، وكذلك أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى أمامة ، وكل ذلك من أقوالهم وليس فيها شىء من المرفوع الى النبى ﷺ ، ولا تقوم بمثل ذلك حجة لاسيما اذا عارض ماقد ثبت عنه ﷺ ثبوتا يمكن أن يدّعى فيه التواتر ، واذا لم تقم الحجة بأقوال الصحابة لم تقم بأقوال من بعدهم من التابعين وتابعيهم بالأولى وهكذا لاتقوم الحجة بما أخرجه ابن أبى حاتم باسناد حسن عن ابن عباس أنه قل ، صلاة الوسطى : المغرب وهكذا لااعتبار بما ورد من قول جماعة من الصحابة : أنها الظهر أو غيرها من الصلوات ، ولكن المحتاج الى امعان نظر وفكر ماورد مرفوعا الى النبى ﷺ مما فيه دلالة على أنها الظهر كما أخرجه ابن جرير عن زيد بن ثابت مرفوعا . إن الصلاة الوسطى صلاة الظهر ، ولا يصح رفعه بل المروى عن زيد بن ثابت ذلك من قوله ، واستدل على ذلك بأن النبى ﷺ كان يصلى بالهاجرة ، وكانت أثقل الصلاة على أصحابه : وأين يقع هذا الاستدلال من تلك الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبى ﷺ وهكذا لا اعتبار بما روى عن ابن عمر من قوله انها الظهر ، وكذلك ماروى عن عائشة وأبى سعيد الخدرى وغيرهم فلاحجة فى قول أحد مع قول رسول الله ﷺ ، وأما مارواه عبد الرزاق وابن جرير وغيرهما أن حفصة قالت لأبى رافع مولاها وقد أمرته أن يكتب لها مصحفا إذا أتيت على هذه الآية (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) فتعال حتى أمليها عليك ، فلما بلغ ذلك أمرته أن يكتب (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر) . وأخرجه أيضا عنها مالك وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقى فى سننه وزادوا وقالت أشهد أنى سمعتها من رسول الله ﷺ . وأخرج مالك وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم عن أبى يونس مولى عائشة أنها أمرته أن يكتب لها مصحفا وقالت اذا بلغت هذه الآية فآذنى

(حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) قال فلما بلغتها آذنتها فأملت علىّ (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر) : قالت عائشة سمعتها من رسول الله ﷺ . وأخرج وكيع وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أم سلمة أنها أمرت من يكتب لها مصحفا ، وقالت له كما قالت حفصة وعائشة ، فغاية مافى هذه الروايات عن أمهات المؤمنين الثلاث رضى الله عنهن أنهن يروين هذا الحرف هكذا عن رسول الله ﷺ ، وليس فيه مايدل على تعيين الصلاة الوسطى أنها الظهر أوغيرها ، بل غاية مايدل عليه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى أنها غيرها ، لأن المعطوف غير المعطوف عليه ، وهذا الاستدلال لايعارض ماثبت عنه ﷺ ثبوتا لايدفع أنها العصر كما قدّمنا بيانه * فالحاصل أن هذه القراءة التى نقلتها أمهات المؤمنين الثلاث باثبات قوله وصلاة العصر معارضة بما أخرجه ابن جرير عن عروة قال كان فى مصحف عائشة (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهى صلاة العصر) . وأخرج وكيع عن حميدة قالت قرأت فى مصحف عائشة (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر) . وأخرج ابن أبى داود عن قبيصة بن ذؤيب مثله . وأخرج سعيد بن منصور وأبو عبيد عن زياد بن أبى مريم أن عائشة أمرت بمصحف لها أن يكتب وقالت إذا بلغتم (حافظوا على الصلوات) فلا تكتبوها حتى تؤذنونى فلما أخبروها أنهم قد بلغوا ، قالت اكتبوها صلاة الوسطى صلاة العصر . وأخرج ابن جرير والطحاوى والبيهقى عن عمرو بن رافع قال كان مكتوبا فى مصحف حفصة (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهى صلاة العصر) . وأخرج أبو عبيد فى فضائله وابن المنذر عن أبىّ بن كعب أنه كان يقرؤها (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر) . وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد والبخارى فى تاريخه وابن جرير والطحاوى عن ابن عباس أنه كان يقرؤها (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر) . وأخرج المحاملى عن السائب بن يزيد أنه تلاها كذلك ، فهذه الروايات تعارض تلك الروايات باعتبار التلاوة ، ونقل القراءة ، ويبقى ماصح عن النبى ﷺ من التعيين صافيا عن شوب كدر المعارضة ، على أنه قد ورد مايدل على نسخ تلك القراءة التى نقلتها حفصة وعائشة وأم سلمة . فأخرج عبد بن حميد ومسلم وأبو داود فى ناسخه وابن جرير والبيهقى عن البراء بن عازب . قال نزلت (حافظوا على الصلوات وصلاة العصر) فقرأناها على عهد رسول الله ﷺ ماشاء الله ثم نسخها الله ، فأنزل (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) فقيل له هى إذن صلاة العصر . قال قد حدّثتك كيف نزلت وكيف نسخها الله والله أعلم . وأخرج البيهقى عنه من وجه آخر نحوه * وإذا تقرر لك هذا وعرفت ماسقناه تبين لك أنه لم يرد مايعارض أن الصلاة الوسطى صلاة العصر ، وأما حجج بقية الأقوال فليس فيها شىء مما ينبغى الاشتغال به لانه لم يثبت عن النبى ﷺ فى ذلك شىء ، و بعض القائلين عوّل على أمر لايعوّل عليه ، فقال انها صلاة كذا لانها وسطى بالنسبة إلى أن قبلها كذا من الصلوات و بعدها كذا من الصلوات ، وهذا الرأى المحض والتخمين البحت لاينبغى أن تسند إليه الأحكام الشرعية على فرض عدم وجود مايعارضه عن النبى ﷺ فكيف مع وجود ماهو فى أعلا درجات الصحة والقوّة والثبوت عن رسول الله ﷺ ، ويالله العجب من قوم لم يكتفوا بتقصيرهم فى علم السنة واعراضهم عن خير العلوم وأنفعها ، حتى كلفوا أنفسهم التكلم على أحكام الله والتجرى على تفسير كتاب الله بغير علم ولاهدى ، فجاءوا بما يضحك منه تارة ويبكى منه أخرى * قوله (وقوموا لله قانتين) القنوت : قيل هو الطاعة ، أى قوموا لله فى صلاتكم طائعين . قاله جابر بن زيد وعطاء وسعيد ابن جبير والضحاك والشافعى ، وقيل هو الخشوع . قاله ابن عمر ومجاهد : ومنه قول الشاعر :

قانتا لله يدعو ربه * وعلى عمد من الناس اعتزل

وقيل

وقيل هو الدعاء و به قال ابن عباس : وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قنت شهرا يدعو على رعل وذكوان . وقال قوم : ان القنوت طول القيام ، وقيل معناه ساكتين . قاله السدى ويدل عليه حديث زيد بن أرقم فى الصحيحين وغيرهما . قال كان الرجل يكلم صاحبه فى عهد النبى ﷺ فى الحاجة فى الصلاة حتى نزلت هذه الآية (وقوموا لله قانتين) فأمرنا بالسكوت ، وقيل أصل القنوت فى اللغة الدوام على الشيء فكل معنى يناسب الدوام يصح اطلاق القنوت عليه . وقد ذكر أهل العلم أن للقنوت ثلاثة عشر معنى . وقد ذكرنا ذلك فى شرح المنتقى ، والمتعين ههنا حمل القنوت على السكوت للحديث المذكور * قوله (فان خفتم فرجالا أو ركبانا) الخوف هو الفزع ، والرجال جمع رجل أو راجل من قولهم رجل الانسان يرجل رجلا : اذا عدم المركوب ومشى على قدميه فهو رجل وراجل . يقول أهل الحجاز : مشى فلان الى بيت الله حافيا رجلا ، حكاه ابن جرير الطبرى وغيره * لما ذكر الله سبحانه الأمر بالمحافظة على الصلوات ، ذكر حالة الخوف أنهم يضيعون فيها ما يمكنهم ويدخل تحت طوقهم من المحافظة على الصلاة بفعلها حال الترجل وحال الركوب ، وأبان لهم أن هذه العبادة لازمة فى كل الأحوال بحسب الامكان . وقد اختلف أهل العلم فى حد الخوف المبيح لذلك والبحث مستوفى فى كتب الفروع * قوله (فاذا أمنتم) أى اذا زال خوفكم فارجعوا الى ما أمرتم به من اتمام الصلاة مستقبلين القبلة قائمين بجميع شروطها وأركانها وهو قوله (فاذكروا الله كما علمكم) وقيل معنى الآية خرجتم من دار السفر الى دار الاقامة وهو خلاف معنى الآية * وقوله (كما علمكم) أى مثل ما علمكم من الشرائع (مالم تكونوا تعلمون) والكاف صفة لمصدر محذوف أى ذكرا كائنا كتعليمه اياكم ، أو مثل تعليمه اياكم .

وقد أخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين فى الصلاة الوسطى هكذا : وشبك بين أصابعه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عمر أنه سئل عن الصلاة الوسطى فقال : هى فيهن فحافظوا عليهن . وأخرج عبد بن حميد عن زيد بن ثابت أنه سأله رجل عن الصلاة الوسطى فقال : حافظ على الصلوات تدركها . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن الربيع بن خيثم : أن سائلا سأله عن الصلاة الوسطى قال : حافظ عليهن فانك ان فعلت أصبتها ، انما هى واحدة منهن . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن سيرين قال سئل شريح عن الصلاة الوسطى فقال : حافظوا عليها تصيبوها . وقد قدّمنا ماروى عن النبى ﷺ وعن أصحابه رضى الله عنهم فى تعيينها . وأخرج الطبرانى عن ابن عباس فى قوله تعالى (وقوموا لله قانتين) مثل ماقدمنا عن زيد بن أرقم . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن محمد بن كعب نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة نحوه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وقوموا لله قانتين) قال مصلين . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية . قال كل أهل دين يقومون فيها عاصين ، قوموا أنتم مطيعين . وأخرج ابن أبى شيبة عن الضحاك مثله . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (وقوموا لله قانتين) قال من القنوت الركوع والخشوع ، وطول الركود يعنى طول القيام وغض البصر وخفض الجناح والرهبة لله . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن النبى ﷺ أنه قال : ان فى الصلاة لشغلا . وفى صحيح مسلم وغيره أن النبى ﷺ قال : ان هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، انما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن . وقد اختلفت الأحاديث فى القنوت المصطلح عليه ، هل هو قبل الركوع أو بعده ، وهل هو فى جميع الصلوات أو بعضها ، وهل هو مختص بالنوازل أم لا ؟ والراجح اختصاصه بالنوازل . وقد أوضحنا ذلك فى شرحنا للمنتقى فليرجع اليه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله

تعالى (فان خفتم فرجالا أو ركبانا) قال يصلى الراكب على دابته ، والراجل على رجليه (فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون) يعنى كما علمكم أن يصلى الراكب على دابته ، والراجل على رجليه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله قال : اذا كانت المسابقة فليوم برأسه حيث كان وجهه فذلك قوله (فرجالا أو ركبانا) . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال (فان خفتم فرجالا أو ركبانا) قل : ركعة ركعة . وأخرج وكيع وابن جرير عن مجاهد (فاذا آمنتم) قال خرجتم من دار السفر الى دار الاقامة .

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةٌ لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ * كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *

هذا عود إلى بقية الأحكام المفصلة فيما سلف . وقد اختلف السلف ومن تبعهم من المفسرين فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة ؟ فذهب الجمهور إلى أنها منسوخة بالأربعة الأشهر والعشر كما تقدّم ، وأن الوصية المذكورة فيها منسوخة بما فرض الله لهنّ من الميراث * وحكى ابن جرير عن مجاهد أن هذه الآية محكمة لانسخ فيها ، وأن العدّة أربعة أشهر وعشر ، ثم جعل الله لهنّ وصية منه سكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة ، فان شاءت المرأة سكنت فى وصيتها ، وان شاءت خرجت . وقد حكى ابن عطية والقاضى عياض أن الاجماع منعقد على أن الحول منسوخ وأن عدّتها أربعة أشهر وعشر . وقد أخرج عن مجاهد ماأخرجه ابن جرير عنه البخارى فى صحيحه * وقوله (وصية) قرأ نافع وابن كثير وعاصم فى رواية أبى بكر والكسائى بالرفع على أن ذلك مبتدأ لخبر محذوف يقدر مقدّما أى عليهم وصية ، وقيل ان الخبر قوله (لأزواجهم) وقيل انه خبر مبتدا محذوف : أى وصية الذين يتوفون وصية أو حكم الذين يتوفون وصية . وقرأ أبو عمرو وحمزة وابن عامر بالنصب على تقدير فعل محذوف ، أى فليوصوا وصية أو أوصى الله وصية ، أو كتب الله عليهم وصية * وقوله (متاعا) منصوب بوصية أو بفعل محذوف ، أى متعوهنّ متاعا أو جعل الله لهنّ ذلك متاعا ، ويجوز أن يكون منتصبا على الحال * والمتاع هنا : نفقة السنة * وقوله (غير إخراج) صفة لقوله (متاعا) وقال الأخفش انه مصدر كأنه قال لا إخراجا ، وقيل انه حال أى متعوهنّ غير مخرجات ، وقيل منصوب بنزع الخافض ، أى من غير إخراج ، والمعنى أنه يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل نزول الموت بهم لأزواجهم أن يمتعن بعدهم حولا كاملا بالنفقة والسكنى من تركتهم ولا يخرجن من مساكنهنّ * وقوله (فان خرجن) يعنى باختيارهنّ قبل الحول (فلا جناح عليكم) أى لاحرج على الولى والحاكم وغيرهما (فيما فعلن فى أنفسهنّ) من التعرّض للخطاب والتزين لهم * وقوله (من معروف) أى بما هو معروف فى الشرع غير منكر ، وفيه دليل على أن النساء كنّ مخيرات فى سكنى الحول وليس ذلك بحتم عليهنّ ، وقيل المعنى لاجناح عليكم فى قطع النفقة عنهنّ وهو ضعيف ، لأن متعلق الجناح هو مذكور فى الآية بقوله (فيما فعلن) * وقوله (وللمطلقات متاع) قد اختلف المفسرون فى هذه الآية فقيل هى المتعة وانها واجبة لكل مطلقة ، وقيل ان هذه الآية خاصة بالثيبات اللواتى قد جومعن لأنه قد تقدّم قبل هذه الآية ذكر المتعة للواتى لم يدخل بهنّ الأزواج . وقد قدّمنا الكلام على هذه المتعة والخلاف فى كونها خاصة بمن طلقت قبل البناء والفرض أو عامة للمطلقات ، وقيل ان هذه الآية شاملة للمتعة الواجبة

وهى متعة المطلقة قبل البناء والفرض ، وغير الواجبة وهى متعة سائر المطلقات فانها مستحبة فقط ، وقيل المراد بالمتعة هنا النفقة .

وقد أخرج البخارى وغيره عن ابن الزبير قال قلت لعثمان بن عفان (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا) قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو لم تدعها ؟ قال يابن أخى لاأغير شيئا منه من مكانه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : كان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكناها فى الدار سنة فنسختها آية المواريث فجعل لهنّ الربع والثمن مما ترك الزوج . وأخرج ابن جرير نحوه عن عطاء . وأخرج نحوه أيضا أبوداود والنسائى عن ابن عباس من وجه آخر . وأخرج الشافعى وعبد الرزاق عن جابر بن عبد الله قال ليس للمتوفى عنها زوجها نفقة حسبها الميراث . وأخرج أبو داود فى ناسخه والنسائى عن عكرمة : قل نسختها (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشرا) . وأخرج ابن الانبارى فى المصاحف عن زيد بن أسلم نحوه . وأخرج أيضا عن قتادة نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهنّ من معروف) قال النكاح الحلال الطيب . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال لما نزل قوله (متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) قال رجل ان أحسنت فعلت ، وان لم أرد ذلك لم أفعل ، فأنزل الله (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب قال نسخت هذه الآية بقوله (وان طلقتموهنّ من قبل أن تمسوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضة فنصف مافرضتم) . وأخرج أيضا عن عتاب بن خصيف فى قوله (وللمطلقات متاع) قال كان ذلك قبل الفرائض . وأخرج مالك وعبد الرزاق والشافعى وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى عن ابن عمر قال لكل مطلقة متعة الا التى تطلقها ولم تدخل بها وقد فرض لها كفى بالنصف متاعا . وأخرج ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال لكل مؤمنة طلقت حرّة أو أمة متعة ، وقرأ (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) . وأخرج البيهقى عن جابر بن عبد الله قال لما طلق حفص بن المغيرة امرأته فاطمة أتت النبى ﷺ فقال لزوجها متعها قال لاأجد ماأمتعها : قال فانه لابدّ من المتاع متعها ولو نصف صاع من تمر . وأخرج عبد بن حميد عن أبى العالية فى الآية قال لكل مطلقة متعة .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * وَقَٰتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * مَنْ ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *

الاستفهام هنا للتقرير ، والرؤية المذكورة هى رؤية القلب لارؤية البصر ، والمعنى عند سيبويه تنبه الى أمر الذين خرجوا ، ولا تحتاج هذه الرؤية الى مفعولين كذا قيل * وحاصله أن الرؤية هنا التى بمعنى الادراك مضمنة معنى التنبه ، ويجوز أن تكون مضمنة معنى الانتهاء ، أى ألم ينته علمك اليهم ، أو معنى الوصول ، أى ألم يصل علمك اليهم ، ويجوز أن تكون بمعنى الرؤية البصرية ، أى ألم تنظر الى الذين خرجوا ، جعل الله سبحانه قصة هؤلاء لما كانت بمكان من الشيوع والشهرة تحمل كل أحد على الاقرار بها بمنزلة المعلومة لكل فرد ، أو المبصرة لكل مبصر ، لأن أهل الكتاب قد أخبروا بها ودوّنوها وأشهروا أمرها ، والخطاب هنا لكل من يصلح له ، والكلام جار مجرى المثل فى مقام التعجيب ادّعاء لظهوره وجلائه بحيث يستوى

فى إدرا كه الشاهد والغائب * وقوله (وهم ألوف) فى محل نصب على الحال من ضمير خرجوا ، وألوف من جموع الكثرة ، فدل على أنها ألوف كثيرة * وقوله (حذر الموت) مفعول له * وقوله (فقال لهم الله موتوا) هو أمر تكوين عبارة عن تعلق إرادته بموتهم دفعة ، أو تمثيل لاماتته سبحانه إياهم ميتة نفس واحدة كأنهم أمروا فأطاعوا * قوله (ثم أحياهم) هو معطوف على مقدّر يقتضيه المقام ، أى قال الله لهم موتوا فماتوا ثم أحياهم ، أو على قال لما كان عبارة عن الاماتة * وقوله (ان الله لذو فضل على الناس) التنكير فى قوله فضل للتعظيم ، أى لذو فضل عظيم على الناس جميعا ، أما هؤلاء الذين خرجوا فلكونه أحياهم ليعتبروا ، وأما المخاطبون فلكونه قد أرشدهم الى الاعتبار والاستبصار بقصة هؤلاء * قوله (وقاتلوا فى سبيل الله) هو معطوف على مقدّر كأنه قيل اشكروا فضله بالاعتبار بما قص عليكم وقاتلوا ، هذا اذا كان الخطاب بقوله (وقاتلوا) راجعا الى المخاطبين بقوله (ألم تر الى الذين خرجوا) كما قاله جمهور المفسرين ، وعلى هذا يكون إيراد هذه القصة لتشجيع المسلمين على الجهاد ، وقيل ان الخطاب للذين أحيوا من بنى إسرائيل فيكون عطفا على قوله (موتوا) وفى الكلام محذوف تقديره وقال لهم قاتلوا . وقال ابن جرير لاوجه لقول من قال ان الأمر بالقتال للذين أحيوا * قوله (من ذا الذى يقرض الله) لما أمر سبحانه بالقتال والجهاد أمر بالانفاق فى ذلك ، ومن استفهامية مرفوعة المحل بالابتداء ، وذا خبره ، والذى وصلته وصف له أو بدل منه ، و إقراض الله مثل لتقديم العمل الصالح الذى يستحق به فاعله الثواب ، وأصل القرض اسم لكل مايلتمس عليه الجزاء ، يقال أقرض فلان فلانا : أى أعطاه مايتجازاه . قال الشاعر :

* واذا جوزيت قرضا فاجزه * وقال الزجاج القرض فى اللغة : البلاء الحسن والبلاء السيئ

قال أمية

كل امرئ سوف يجزى قرضه حسنا * أو سيئا ومدينا مثل مادانا

وقال آخر

تجازى القروض بأمثالها — فبالخير خيرا و بالشر شرا

وقال الكسائى القرض : ماأسلفت من عمل صالح أوسيئ ، وأصل الكلمة القطع ، ومنه المقراض واستدعاء القرض فى الآية انما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه ، والله هو الغنى الحميد : شبه عطاء المؤمن مايرجو ثوابه فى الآخرة بالقرض كما شبه إعطاء النفوس والأموال فى أخذ الجنة بالبيع والشراء * وقوله (حسنا) أى طيبة به نفسه من دون منّ ولا أذى * وقوله (فيضاعفه) قرأ عاصم وغيره بالألف ونصب الفاء . وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائى باثبات الألف ورفع الفاء . وقرأ ابن عامر و يعقوب فيضعفه باسقاط الألف مع تشديد العين ونصب الفاء . وقرأ ابن كثير وأبو جعفر بالتشديد ورفع الفاء ، فمن نصب فعلى أنه جواب الاستفهام ، ومن رفع فعلى تقدير مبتدا ، أى هو يضاعفه . وقد اختلف فى تقدير هذا التضعيف على أقوال ، وقيل لايعلمه إلا الله وحده * وقوله (والله يقبض و يبسط) هذا عام فى كل شىء فهو القابض الباسط ، والقبض : التقتير ، والبسط : التوسيع ، وفيه وعيد بأن من بخل من البسط يوشك أن يبدّل بالقبض ، ولهذا قال (واليه ترجعون) أى هو يجازيكم بما قدمتم عند الرجوع إليه ، إذا أنفقتم مما وسع به عليكم أحسن اليكم ، وان بخلتم عاقبكم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم عن ابن عباس فى قوله (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم) قال كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارا من الطاعون وقالوا نأتى أرضا ليس بها موت حتى اذا كانوا بموضع كذا وكذا قال لهم الله موتوا فماتوا فمرّ عليهم نبىّ من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم حتى يعبدوه فأحياهم . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أن القرية التى خرجوا منها داوردان . وأخرج ابن جرير وابن

المنذر

المنذر وابن أبى حاتم هذه القصة مطوّلة عن أبى مالك وفيها أنهم بضعة وثلاثون ألفا . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن عبد العزيز أن ديارهم هى أذرعات . وأخرج أيضا عن أبى صالح قال كانوا تسعة آلاف . وأخرج جماعة من محدثى المفسرين هذه القصة على أنحاء ، ولا يأتى الاستكثار من طرقها بفائدة . وقد ورد فى الصحيحين وغيرهما عن النبى ﷺ النهى عن الفرار من الطاعون وعن دخول الأرض التى هو بها من حديث عبدالرحمن بن عوف . وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال لما نزلت (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) قال أبو الدحداح الأنصارى يارسول الله ان الله ليريد منا القرض ؟ قال نعم ياأبا الدحداح قال أرنى يدك يارسول الله فناوله يده قال فانى قد أقرضت ربى حائطى ، وله فيه ستمائة نخلة . وقد أخرج هذه القصة عبد الرزاق وابن جرير من طريق زيد بن أسلم ، زاد الطبرانى عن أبيه عن عمر بن الخطاب وابن مردويه عن أبى هريرة وابن اسحق وابن المنذر عن ابن عباس . وأخرج ابن جرير عن السدى فى قوله (أضعافا كثيرة) قال هذا التضعيف لايعلم أحد ماهو . وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى عثمان النهدى قال بلغنى عن أبى هريرة حديث أنه قال « ان الله ليكتب لعبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة » فحججت ذلك العام ولم أكن أريد أن أحج إلا لألقاه فى هذا الحديث فلقيت أباهريرة فقلت له فقال ليس هذا قلت ولم يحفظ هذا الحديث الذى حدّثك انما قلت « ان الله ليعطى العبد المؤمن بالحسنة الواحدة ألفى ألف حسنة » ثم قال أبو هريرة أوليس تجدون هذا فى كتاب الله ؟ (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) فالكثيرة عند الله أكثر من ألفى ألف وألفى ألف ، والذى نفسى بيده لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان الله يضاعف الحسنة ألفى ألف حسنة » . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان فى صحيحه وابن مردويه والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن عمر قال لما نزلت ــ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ــ الى آخرها قال رسول الله ﷺ ربّ زد أمتى ، فنزلت (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) قال رب زد أمتى ، فنزلت ــ انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ــ . وأخرج ابن المنذر عن سفيان قال لما نزلت ــ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ــ قال ربّ زد أمتى ، فنزلت (من ذا الذى يقرض الله) قال ربّ زد أمتى ، فنزلت ــ مثل الذين ينفقون أموالهم ــ قال رب زد أمتى ، فنزلت ــ انما يوفى الصابرون ــ وفى الباب أحاديث هذه أحسنها ، وستأتى عند تفسير قوله تعالى ــ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ــ فابحثها . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (والله يقبض ويبسط) قال يقبض الصدقة ، ويبسط : قال يخلف (واليه ترجعون) قال من التراب والى التراب تعودون . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى الآية قال علم الله أن فيمن يقاتل فى سبيل الله من لايجد قوّة وفيمن لايقاتل فى سبيل الله من يجد غنى ، فندب هؤلاء الى القرض فقال (من ذا الذى يقرض الله) قال يبسط عليك وأنت ثقيل عن الخروج لاتريده ويقبض عن هذا وهو يطيب نفسا بالخروج ويخف له ، فقوّه مما بيدك يكن لك الحظ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا

وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ *

قوله (ألم تر إلى الملأ) الكلام فيه كالكلام فى قوله - ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم - وقد قدّمناه والملأ الأشراف من الناس كأنهم ملئوا شرفا. وقال الزجاج سموا بذلك لانهم ملئون بما يحتاج اليه منهم، وهو اسم جمع كالقوم والرهط، ذكر الله سبحانه فى التحريض على القتال قصة أخرى جرت فى بنى اسرائيل بعد القصة المتقدّمة * وقوله (من بعد موسى) من ابتدائية وعاملها مقدّر أى كائنين من بعد موسى أى بعد وفاته * وقوله (لنبىّ لهم) قيل هو شمويل بن يار بن علقمة ويعرف بابن العجوز، ويقال فيه شمعون، وهو من ولد يعقوب، وقيل من نسل هرون، وقيل هو يوشع بن نون وهذا ضعيف جدا لأن يوشع هو فتى موسى ولم يوجد داود الا بعد ذلك بدهر طويل، وقيل اسمه اسماعيل * وقوله (ابعث لنا ملكا) أى أميرا نرجع اليه ونعمل على رأيه * وقوله (نقاتل) بالنون والجزم على جواب الأمر، وبه قرأ الجمهور. وقرأ الضحاك وابن أبى عبلة بالياء ورفع الفعل على أنه صفة للملك، وقرئ بالنون والرفع على أنه حال أو كلام مستأنف * وقوله (هل عسيتم) بالفتح للسين وبالكسر لغتان، وبالثانية قرأ نافع، وبالأولى قرأ الباقون. قال فى الكشاف وقراءة الكسر ضعيفة. وقال أبو حاتم ليس للكسر وجه انتهى. وقال أبو على وجه الكسر قول العرب: هو عس بذلك: مثل حر وشج: وقد جاء فعل وفعل، فى نحو نقم ونقم: فكذلك عسيت وعسيت، وكذا قال مكى. وقد قرأ بالكسر أيضا الحسن وطلحة فلا وجه لتضعيف ذلك، وهو من أفعال المقاربة، أى هل قاربتم أن لا تقاتلوا، وادخال حرف الاستفهام على فعل المقاربة لتقرير ماهو متوقع عنده والاشعار بأنه كائن وفصل بين عسى وخبرها بالشرط للدلالة على الاعتناء به. قال الزجاج أن لا تقاتلوا فى موضع نصب أى هل عسيتم مقاتلة. قال الأخفش أن فى قوله (وما لنا ألا نقاتل) زائدة. وقال الفراء هو محمول على المعنى. أى وما منعنا كما تقول مالك ألا تصلى، وقيل المعنى وأىّ شىء لنا فى أن لا نقاتل. قال النحاس وهذا أجودها * وقوله (وقد أخرجنا) تعليل والجملة حالية وإفراد الأولاد بالذكر لأنهم الذين وقع عليهم السبى، أو لأنهم بمكان فوق مكان سائر القرابة (فلما كتب) أى فرض، أخبر سبحانه أنهم

تولوا لاضطراب نياتهم وفتور عزائمهم . واختلف فى عدد القليل الذين استثناهم الله سبحانه : وهم الذين اكتفوا بالغرفة * وقوله (وقال لهم نبيهم) شروع فى تفصيل ما جرى بينهم و بين نبيهم من الأقوال والأفعال * وطالوت : اسم أعجمى ، وكان سقاء ، وقيل دباغا ، وقيل مكاريا ، ولم يكن من سبط النبوة وهم بنو لاوى ولا من سبط الملك ، وهم بنو يهوذا . فلذلك (قالوا أنى يكون له الملك علينا) أى كيف ذلك ولم يكن من بيت الملك ، ولاهوى ممن أوتى سعة من المال ، حتى تتبعه لشرفه أولماله ، وهذه الجملة أعنى قوله (ونحن أحق) حالية ، وكذلك الجملة المعطوفة عليها . وقوله (اصطفاه عليكم) أى اختاره واختيار الله هو الحجة القاطعة ثم بين لهم مع ذلك وجه الاصطفاء : بأن الله زاده بسطة فى العلم ، الذى هو ملاك الانسان ورأس الفضائل وأعظم وجوه الترجيح ، وزاده بسطة فى الجسم الذى يظهر به الأثر فى الحروب ونحوها ، فكان قويا فى دينه و بدنه ، وذلك هو المعتبر ، لاشرف النسب . فان فضائل النفس مقدّمة عليه (والله يؤتى ملكه من يشاء) فالملك ملكه ، والعبيد عبيده ، فمالكم والاعتراض على شيء ليس هو لكم ولا أمره اليكم . وقد ذهب بعض المفسرين الى أن قوله (والله يؤتى ملكه من يشاء) من قول نبينا محمد ﷺ ، وقيل هو من قول نبيهم ، وهو الظاهر * وقوله (واسع) أى واسع الفضل ، يوسع على من يشاء من عباده (عليم) بمن يستحق الملك و يصلح له * والتابوت فعلوت من التوب ، وهو الرجوع لأنهم يرجعون إليه ، أى علامة ملكه اتيان التابوت الذى أخذ منهم ، أى رجوعه اليكم وهو صندوق التوراة * والسكينة فعيلة مأخوذة من السكون ، والوقار والطمأنينة : أى فيه سبب سكون قلوبكم فيما اختلفتم فيه من أمر طالوت . قال ابن عطية : الصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم ، فكانت النفوس تسكن الى ذلك وتأنس به وتتقوّى . وقد اختلف فى السكينة على أقوال سيأتى بيان بعضها ، وكذلك اختلف فى البقية ، فقيل : هى عصا موسى ورضاض الألواح ، وقيل غير ذلك . قيل والمراد بآل موسى وهارون هما أنفسهما ، أى مما ترك هارون وموسى ، ولفظ آل مقحمة لتفخيم شأنهما وقيل المراد الأنبياء من بنى يعقوب لأنهما من ذرية يعقوب ، فسائر قرابته ومن تناسل منه آل لهما * وفصل معناه خرج بهم ، فصلت الشيء فانفصل : أى قطعته فانقطع ، وأصله متعد ، يقال فصل نفسه : ثم استعمل استعمال اللازم كانفصل ، وقيل ان فصل يستعمل لازما ومتعديا : يقال فصل عن البلد فصولا ، وفصل نفسه فصلا * والابتلاء الاختبار * والنهر : قيل هو بين الأردن وفلسطين ، وقرأه الجمهور بنهر بفتح الهاء . وقرأ حميد ومجاهد والأعرج بسكون الهاء * والمراد بهذا الابتلاء اختبار طاعتهم ، فمن أطاع فى ذلك الماء أطاع فيما عداه ، ومن عصى فى هذا وغلبته نفسه فهو بالعصيان فى سائر الشدائد أحرى ، ورخص لهم فى الغرفة ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع وليكسر نزاع النفس فى هذه الحال ، وفيه أن الغرفة تكف سورة العطش عند الصابرين على شظف العيش الدافعين أنفسهم عن الرفاهية * فالمراد بقوله (فمن شرب منه) أى كرع ولم يقتصر على الغرفة ، ومن ابتدائية . ومعنى قوله (فليس منى) أى ليس من أصحابى من قولهم : فلان من فلان كأنه بعضه لاختلاطهما وطول صحبتهما . وهذا مهيع فى كلام العرب معروف ، ومنه قول الشاعر :

إذا حاولت فى أسد فجورا * فانى لست منك ولست منى

وقوله (ومن لم يطعمه) يقال طعمت الشيء : أى ذقته ، وأطعمته الماء أى أذقته ، وفيه دليل على أن الماء يقال له طعام ، والاغتراف الأخذ من الشيء باليد أو بآلة ، والغرف مثل الاغتراف ، والغرفة المرة الواحدة . وقد قرئ بفتح الغين وضمها : فالفتح ، للمرة والضم اسم للشيء المغترف ، وقيل بالفتح الغرفة بالكف الواحدة ، و بالضم الغرفة بالكفين ، وقيل هما لغتان بمعنى واحد ، ومنه قول الشاعر :

لايدلفون إلى ماء بآنيـة * إلااغترافا من الغدران بالراح

قوله (إلا قليلا) سيأتى بيان عددهم ، وقرئ (إلاقليل) ولا وجه له إلا ماقيل من أنه من هجر اللفظ إلى جانب المعنى : أى لم يطعه إلا قليل ، وهو تعسف * قوله (فلما جاوزه) أى جاوز النهر طالوت (والذين آمنوا معه) وهم القليل الذين أطاعوه ، ولـكنهم اختلفوا فى قوّة اليقين ، فبعضهم قل (لاطاقة لنا) و (قال الذين يظنون) أى يتيقنون (أنهم ملاقوا الله) : والفئة الجماعة : والقطعة منهم من فأوت رأسه بالسيف أى قطعته * وقوله (برزوا) أى صاروا فى البراز وهو المتسع من الأرض * وجالوت أمير العمالقة . قالوا : أى جميع من معه من المؤمنين ، والافراغ يفيد معنى الـكثرة * وقوله (وثبت أقدامنا) هذا عبارة عن القوّة وعـدم الفشل ، يقال ثبت قدم فلان على كذا إذا استقر له ولم يزل عنـه ، وثبت قدمه فى الحرب إذا كان الغلب له والنصر معـه * قوله (وانصرنا على القوم الـكافرين) هم جالوت وجنوده . ووضع الظاهر موضع المضمر اظهارا لما هو العـلة الموجبة للنصر عليهم وهى كفرهم ، وذكر النصر بعـد سؤال تثبيت الأقدام ، لـكون الثانى هو غاية الأوّل * قوله (فهزموهم باذن الله) الهزم الـكسر ، ومنه سقاء منهزم أى انثنى بعضه على بعض مع الجفاف ، ومنه ماقيل فى زمزم انها هزمة جبريل أى هزمها برجله فخرج الماء ، والهزم مايكسر من يابس الحطب ، وتقدير الـكلام : فأنزل الله عليهم النصر (فهزموهم باذن الله) أى بأمره وارادته * قوله (وقتـل داود جالوت) هو داود بن ايشا بكسر الهمزة ثم تحتية ساكنة بعدها معجمة ، ويقال داود بن زكريا بن بشوى من سبط يهوذا بن يعقوب جمع الله له بين النبوّة والملك بعد أن كان راعيا ، وكان أصغر اخوته : اختاره طالوت لمقاتلة جالوت فقتله * والمراد بالحـكمة هنا النبوّة ، وقيـل هى تعليمه صنعة الدروع ومنطق الطير ، وقيل هى إعطاؤه السلسلة التى كانوا يتحاكمون اليها * قوله (وعلمه مما يشاء) قيـل ان المضارع هنا موضوع موضع الماضى وفاعل هذا الفعل هو الله تعالى . وقيل داود وظاهر هـذا التركيب أن الله سبحانه علمه مما قضت به مشيئته وتعلقت به إرادته . وقد قيـل ان من ذلك ما قدّمنا من تعليمه صنعة الدروع وما بعده * قوله (ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض) قرأه الجماعة (ولولا دفع الله) وقرأ نافع دفاع : وهما مصدران لدفع كذا قال سيبويه . وقال أبو حاتم : دافع ودفع واحد مثل : طرقت نعـلى وطارقته ، واختار أبو عبيدة قراءة الجمهور وأنـكر قراءة دفاع . قال لأن الله عزّ وجلّ لايغالبه أحـد . قال مكى يوهم أبو عبيـدة أن هذا من باب المفاعلة وليس به ، وعلى القراءتين فالمصدر مضاف الى الفاعل ، أى (ولولادفع الله الناس) و بعضهم بدل من الناس وهم الذين يباشرون أسباب الشر والفساد ببعض آخر منهم : وهم الذين يـكفونهم عن ذلك ويردّونهم عنه (لفسدت الأرض) لتغلب أهل الفساد عليها واحداثهم للشرور التى تهلك الحرث والنسل وتنـكير فضل للتعظيم * وآيات الله هى ما اشتملت عليه هذه القصة من الأمور المذكورة * والمراد (بالحق) هنا الخبر الصحيح الذى لاريب فيـه عند أهل الـكتاب والمطلعين على أخبار العالم * وقوله (انك لمن المرسلين) اخبار من الله سبحانه بأنه من جملة رسل الله سبحانه تقوية لقلبه وتثبيتا لجنانه وتشييدا لأمره .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (ألم تر إلى الملأ من بنى اسرائيل) قال هذا حين رفعت النبوّة واستخرج أهل الايمان ، وكانت الجبابرة قد أخرجتهم من ديارهم وأبنائهم ، (فلما كتب عليهم القتال) وذلك حيـن أتاهم التابوت . قال وكان من اسرائيـل سبطان : سبط نبوّة ، وسبط خلافة ، فلاتـكون الخلافة الا فى سبط الخلافة ، ولاتـكون النبوّة إلافى سبط النبوّة . فقال لهم نبيهم (ان الله قد بعث لـكم طالوت ملـكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه) وليس من أحد السبطين لامن سبط النبوّة ولامن سبط الخلافة (قال ان الله اصطفاه عليكم) فأبوا أن يسلموا له الرياسة حتى قل

لهم

لهم ان آية ملكه (أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية) وكان موسى حين ألقى الألواح تكسرت ورفع منها وجمع مابقى فجعله فى التابوت ، وكانت العمالقة قد سبت ذلك التابوت ، والعمالقة فرقة من عاد كانوا بأريحاء ، فجاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون اليه حتى وضعته عند طالوت ، فلما رأوا ذلك قالوا نعم فسلموا له وملكوه ، وكانت الأنبياء اذا حضروا قتالا قدّموا التابوت بين أيديهم ويقولون : إن آدم نزل بذلك التابوت وبالركن وبعصى موسى من الجنة ، وبلغنى أن التابوت وعصى موسى فى بحيرة طبرية ، وأنهما يخرجان قبل يوم القيامة ، وقد ورد هذا المعنى مختصرا ومطوّلا عن جماعة من السلف فلا يأتى التطويل بذكر ذلك بفائدة يعتدّ بها . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق السدى عن أبى مالك عن ابن عباس (وزاده بسطة) يقول فضيلة (فى العلم والجسم) يقول كان عظيما جسيما يفضل بنى اسرائيل بعنقه . وأخرج أيضا عن وهب بن منبه (وزاده بسطة فى العلم) قال العلم بالحرب . وأخرج ابن المنذر عنه أنه سئل أنبيا كان طالوت ؟ قال لا : لم يأته وحى . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه ، أنه سئل عن تابوت موسى ماسعته ؟ قال : نحو من ثلاثة أذرع فى ذراعين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : السكينة الرحمة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال : السكينة الطمأنينة وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : السكينة دابة قدر الهرّ لها عينان لهما شعاع ، وكان اذا التقى الجمعان أخرجت يديها ونظرت اليهم فيهزم الجيش من الرعب . وأخرج الطبرانى بسند ضعيف عن علىّ قال : السكينة ريح خجوج ولها رأسان . وأخرج عبد الرزاق وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن علىّ قال : السكينة لها وجه كوجه الانسان ثم هى بعد ريح هفافة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن مجاهد قال : السكينة من الله كهيئة الريح ، لها وجه كوجه الهرّ وجناحان وذنب مثل ذنب الهرّ . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس قال (فيه سكينة من ربكم) قال طست من ذهب من الجنة كان يغسل بها قلوب الانبياء ألقى الألواح فيها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن وهب بن منبه أنه قال : هى روح من الله تتكلم ، اذا اختلفوا فى شىء تكلم فأخبرهم ببيان مايريدون . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن ، قال هى شىء تسكن اليه قلوبهم . وأخرج عبد الرزاق عن قتادة قال فيه سكينة ، أى وقار

* وأقول هذه التفاسير المتناقضة لعلها وصلت الى هؤلاء الأعلام من جهة اليهود أقماهم الله ، فجاءوا بهذه الأمور لقصد التلاعب بالمسلمين رضى الله عنهم والتشكيك عليهم ، وانظر الى جعلهم لها تارة حيوانا وتارة جمادا وتارة شيئا لايعقل ، كقول مجاهد كهيئة الريح لها وجه كوجه الهرّ وجناحان وذنب مثل ذنب الهرّ وهكذا كل منقول عن بنى اسرائيل يتناقض ويشتمل على مالا يعقل فى الغالب ولا يصح أن يكون مثل هذه التفاسير المتناقضة مرويا عن النبى ﷺ ولارأيا رآه قائله ، فهم أجلّ قدرا من التفسير بالرأى وبما لامجال للاجتهاد فيه : اذا تقرر لك هذا عرفت أن الواجب الرجوع فى مثل ذلك الى معنى السكينة لغة وهو معروف ، ولاحاجة الى ركوب هذه الأمور المتعسفة المتناقضة ، فقد جعل الله عنها سعة ولو ثبت لنا فى السكينة تفسير عن النبى ﷺ لوجب علينا المصير اليه والقول به ، ولكنه لم يثبت من وجه صحيح بل ثبت أنها تنزلت على بعض الصحابة عند تلاوته للقرآن كما فى صحيح مسلم عن البراء ، قال كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو ، وجعل فرسه ينفر منها ، فلما أصبح أتى النبى ﷺ فذكر ذلك له ، فقال تلك السكينة نزلت للقرآن ، وليس فى هذا الا أن هذه التى سماها رسول الله ﷺ سكينة سحابة دارت على ذلك القارئ فالله أعلم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم

عن ابن عباس فى قوله (وبقية مما ترك آل موسى) قال عصاه ورضاض الألواح . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى صالح قال : كان فى التابوت عصى موسى وعصى هرون وثياب موسى وثياب هرون ولوحان من التوراة والمنّ وكلمة الفرج « لا إله إلا الله الحليم الكريم وسبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم والحمد لله رب العالمين » وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة فى قوله (تحمله الملائكة) قال أقبلت به الملائكة تحمله حتى وضعته فى بيت طالوت فأصبح فى داره وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (ان فى ذلك لآية) قال علامة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (إن الله مبتليكم بنهر) يقول بالعطش ، فلما انتهى الى النهر وهو نهر الأردن كرع فيه عامة الناس فشربوا منه فلم يزد من شرب منه الا عطشا ، وأجزأ من اغترف غرفة بيده وانقطع الظمأ عنه . وأخرج عبد ابن حميد وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير (فشربوا منه إلا قليلا منهم) قال القليل ثلثمائة و بضعة عشر عدة أهل بدر . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن البراء قال : كنا أصحاب محمد نتحدّث أن أصحاب بدر على عدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه الا مؤمن بضعة عشر وثلثمائة . وقد أخرج ابن جرير عن قتادة قل ذكر لنا أن النبى ﷺ قال لأصحابه يوم بدر « أنتم بعدّة أصحاب طالوت يوم لقى جالوت » وأخرج ابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : كانوا ثلثمائة ألف وثلاثة آلاف وثلثمائة وثلاثة عشر فشربوا منه كلهم الا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا عدّة أصحاب النبى ﷺ يوم بدر فردّهم طالوت ومضى ثلثمائة وثلاثة عشر . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (الذين يظنون) قال الذين يستيقنون . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : كان طالوت أميرا على الجيش ، فبعث أبوداود مع داود بشىء الى اخوته ، فقال داود لطالوت ماذا لى ، وأقبل جالوت ، فقال لك ثلث ملكى وأنكحك ابنتى ، فأخذ مخلاه فجعل فيها ثلاث مروات ثم سمى ابراهيم واسحق و يعقوب ، ثم أدخل يده ، فقال بسم الله إلهى وإله آبائى ابراهيم واسحق و يعقوب ، فخرج على ابراهيم فجعله فى مرجمته فرمى بها جالوت فخرق ثلاثة وثلاثين بيضة عن رأسه وقتلت ماوراءه ثلاثين ألفا ، وقد ذكر المفسرون أقاصيص كثيرة من هذا الجنس والله أعلم . وأخرج ابن أبى حاتم والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن عباس فى قوله (ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض) قال يدفع الله بمن يصلى عمن لا يصلى ، و بمن يحج عمن لايحج ، و بمن يزكى عمن لايزكى . وأخرج ابن عدى وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عمر قال : قل رسول الله ﷺ ان الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء ثم قرأ ابن عمر (ولولا دفع الله الناس) الآية وفى اسناده يحيى بن سعيد العطار الحمصى وهو ضعيف جدا .

تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ *

قوله (تلك الرسل) قيل هو اشارة الى جميع الرسل فتكون الألف واللام للاستغراق ، وقيل هو اشارة الى الأنبياء المذكورين فى هذه السورة ، وقيل الى الأنبياء الذين بلغ علمهم الى النبى ﷺ والمراد

بتفضيل

بتفضيل بعضهم على بعض أن الله سبحانه جعل لبعضهم من مزايا الكمال فوق ماجعله للآخر ، فكان الأكثر مزايا فاضلا والآخر مفضولا ، وكما دلت هذه الآية على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض كذلك دلت الآية الأخرى وهى قوله تعالى ـ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا ـ * وقد استشكل جماعة من أهل العلم الجمع بين هذه الآية و بين ماثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة مرفوعا بلفظ «لاتفضلونى على الأنبياء» ، وفى لفظ آخر «لاتفضلوا بين الأنبياء» وفى لفظ «لاتخيروا بين الأنبياء» فقال قوم ان هذا القول منه ﷺ كان قبل أن يوحى اليه بالتفضيل ، وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل ، وقيل انه قال ﷺ ذلك على سبيل التواضع كما قال «لايقل أحدكم أناخير من يونس بن متى» تواضعا مع علمه أنه أفضل الأنبياء كما يدل عليه قوله « أنا سيد ولد آدم » ، وقيل انما نهى عن ذلك قطعا للجدال والخصام فى الأنبياء ، فيكون مخصوصا بمثل ذلك لا اذا كان صدور ذلك مأمونا ، وقيل ان النهى انما هو من جهة النبوّة فقط ، لأنها خصلة واحدة لاتفاضل فيها ، ولا نهى عن التفاضل بزيادة الخصوصيات والكرامات ، وقيل ان المراد النهى عن التفضيل لمجرد الأهواء والعصبية * وفى جميع هذه الأقوال ضعف * وعندى أنه لاتعارض بين القرآن والسنة ، فان القرآن دل على أن الله فضل بعض أنبيائه على بعض ، وذلك لايستلزم أنه يجوز لنا أن نفضل بعضهم على بعض ، فان المزايا التى هى مناط التفضيل معلومة عند الله لاتخفى عليه منها خافية وليست بمعلومة عند البشر ، فقد يجهل أتباع نبىّ من الأنبياء بعض مزاياه وخصوصياته فضلا عن مزايا غيره ، والتفضيل لايجوز الا بعد العلم بجميع الأسباب التى يكون بها هذا فاضلا ، وهذا مفضولا ، لاقبل العلم ببعضها أو بأكثرها أو بأقلها فان ذلك تفضيل بالجهل و إقدام على أمر لايعلمه الفاعل له وهو ممنوع منه ، فلوفرضنا أنه لم يرد الا القرآن فى الاخبار لنا بأن الله فضل بعض أنبيائه على بعض لم يكن فيه دليل على أنه يجوز للبشر أن يفضلوا بين الأنبياء ، فكيف وقد وردت السنة الصحيحة بالنهى عن ذلك ، واذا عرفت هذا علمت أنه لاتعارض بين القرآن والسنة بوجه من الوجوه ، فالقرآن فيه الاخبار من الله بأنه فضل بعض أنبيائه على بعض ، والسنة فيها النهى لعباده أن يفضلوا بين أنبيائه فمن تعرّض للجمع بينهما زاعما أنهما متعارضان فقد غلط غلطا بينا * قوله (منهم من كلم الله) وهو موسى ونبينا سلام الله عليهما . وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال فى آدم انه نبى مكلم . وقد ثبت مايفيد ذلك فى صحيح ابن حبان من حديث أبى ذرّ * قوله (ورفع بعضهم درجات) هذا البعض يحتمل أن يراد به من عظمت منزلته عند الله سبحانه من الأنبياء ويحتمل أن يراد به نبينا ﷺ لكثرة مزاياه المقتضية لتفضيله ، ويحتمل أن يراد به ادريس ، لأن الله سبحانه أخبرنا بأنه رفعه مكانا عليا ، وقيل انهم أولوا العزم ، وقيل ابراهيم ، ولا يخفاك أن الله سبحانه أبهم هذا البعض المرفوع ، فلا يجوز لنا التعرّض للبيان له الا ببرهان من الله سبحانه أومن أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، ولم يرد مايرشد الى ذلك ، فالتعرّض لبيانه هو من تفسير القرآن الكريم بمحض الرأى ، وقد عرفت مافيه من الوعيد الشديد مع كون ذلك ذريعة الى التفضيل بين الأنبياء وقد نهينا عنه ، وقد جزم كثير من أئمة التفسير أنه نبينا ﷺ وأطالوا فى ذلك ، واستدلوا بما خصه الله به من المعجزات ومزايا الكمال وخصال الفضل ، وهم بهذا الجزم بدليل لايدل على المطلوب قد وقعوا فى خطرين وارتكبوا نهيين وهما تفسير القرآن بالرأى والدخول فى ذرائع التفضيل بين الأنبياء وان لم يكن ذلك تفضيلا صريحا فهو ذريعة اليه بلا شك ولاشبهة لأن من جزم بأن هذا البعض المرفوع درجات هو النبى الفلانى انتقل من ذلك الى التفضيل المنهى عنه وقد أغنى الله نبينا المصطفى ﷺ عن ذلك بما لايحتاج معه الى غيره من الفضائل والفواضل ، فاياك أن تتقرب اليه ﷺ بالدخول فى أبواب نهاك عن دخولها فتعصيه وتسىء وأنت تظن أنك مطيع محسن * قوله (وآتينا عيسى ابن مريم البينات) أى الآيات الباهرة

والمعجزات الظاهرة من احياء الأموات وابراء المرضى وغير ذلك * قوله (وأيدناه بروح القدس) هو جبريل ، وقد تقدّم الكلام على هذا * قوله (ولوشاء الله مااقتتل الذين من بعدهم) أى من بعد الرسل وقيل من بعد موسى وعيسى ومحمد لأن الثانى مذكور صريحا والأوّل والثالث وقعت الاشارة اليهما بقوله (منهم من كلم الله) أى لو شاء الله عدم اقتتالهم مااقتتلوا ، فمفعول المشيئة محذوف على القاعدة (ولكن اختلفوا) استثناء من الجملة الشرطية ، أى ولكن الاقتتال ناشىء عن اختلافهم اختلافا عظيما حتى صاروا مللا مختلفة (منهم من آمن ومنهم من كفر ولوشاء الله) عدم اقتتالهم بعد هذا الاختلاف (مااقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد) لارادّ لحكمه ، ولامبدّل لقضائه ، فهو يفعل مايشاء ويحكم مايريد .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله تعالى (فضلنا بعضهم على بعض) قال اتخذ الله ابراهيم خليلا وكلم موسى تكليما وجعل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون وهو عبد الله وكلمته وروحه ، وآتى داود زبورا ، وآتى سليمان ملكا لاينبغى لأحد من بعده ، وغفرلمحمد ما تقدّم من ذنبه وما تأخر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن مجاهد فى قوله (منهم من كلم الله) قال كلم الله موسى ، وأرسل محمدا ﷺ الى الناس كافة . وأخرج ابن أبى حاتم عن عامر الشعبى فى قوله (ورفع بعضهم درجات) قال محمدا ﷺ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم) يقول من بعد موسى وعيسى . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : كنت عند النبى ﷺ وعنده أبو بكر وعمر وعثمان ومعاوية اذ أقبل علىّ فقال النبى ﷺ لمعاوية : أتحب عليا ، قال : نعم ، قال : انها ستكون بينكم فتنة هنيهة ، قال : معاوية فما بعد ذلك يارسول الله ؟ قال : عفو الله ورضوانه ، قال : رضينا بقضاء الله ، فعند ذلك نزلت هذه الآية (ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد) قال السيوطى وسنده واه .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ *

ظاهر الأمر فى قوله (أنفقوا) الوجوب ، وقد حمله جماعة على صدقة الفرض لذلك ، ولما فى آخر الآية من الوعيد الشديد . وقيل ان هذه الآية تجمع زكاة الفرض والتطوّع ، قال ابن عطية وهذاصحيح ولكن ماتقدّم من الآيات فى ذكر القتال وأن الله يدفع بالمؤمنين فى صدور الكافرين يترجح منه أن هذا الندب انما هو فى سبيل الله ، قال القرطبى وعلى هذا التأويل يكون انفاق المال مرة واجبا ، ومرة ندبا بحسب تعين الجهاد وعدم تعينه * قوله (من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه) أى أنفقوا مادمتم قادرين (من قبل أن يأتى) مالا يمكنكم الانفاق فيه وهو (يوم لا بيع فيه) أى لاتتبايع الناس فيه * والخلة خالص المودّة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين . أخبر سبحانه أنه لاخلة فى يوم القيامة نافعة ولا شفاعة مؤثرة الالمن أذن الله له . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بنصب لابيع ولاخلة ولاشفاعة ، من غيرتنوين . وقرأ الباقون برفعهامنوّنة ، وهما لغتان مشهورتان للعرب ، ووجهان معروفان عندالنحاة ، فمن الأوّل قول حسان

ألاطعان ألافرسان عادية * ألا تجشؤكم حول التنانير

ومن الثانى قول الراعى

وماصرمتك حتى قلت معلنة * لاناقة لى فى هذا ولاجمل

ويجوز فى غير القرآن التغاير برفع البعض ونصب البعض كما هو مقرر فى علم الاعراب * قوله

(والكافرون

(والـكافرون هم الظالمون) فيه دليل على أن كل كافر ظالم لنفسه ، ومن جملة من يدخل تحت هذا العموم مانع الزكاة منعا يوجب كفره لوقوع ذلك فى سياق الأمر بالانفاق .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا أنفقوا ممارزقناكم) قال من الزكاة والتطوّع . وأخرج ابن المنـذر عن سفيان قال يقال نسخت الزكاة كل صدقة فى القرآن ، ونسخ شهر رمضان كل صوم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال قد علم الله أن ناسايتخاللون فى الدنيا و يشفع بعضهم لبعض . فأمايوم القيامة فلا خلة إلاخلة المتقين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عطاء قال : الحمد لله الذى قال (والـكافرون هم الظالمون) ولم يقل والظالمون هم الـكافرون .

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ *

قوله (لاإله إلاهو) أى لامعبود بحق إلا هو ، وهذه الجملة خبر المبتدا * والحى : الباقى ، وقيل الذى لايزول ولا يحول ، وقيل المصرّف للأمور والمقدّر للأشياء . قال الطبرى عن قوم انه يقال حىّ كما وصف نفسه و يسلم ذلك دون أن ينظر فيه ، وهو خبر ثان أومبتدأ خبره محذوف * والقيوم : القائم على كل نفس بما كسبت ، وقيل القائم بذاته المقيم لغـيره ، وقيل القائم بتدبير الخلق وحفظه ، وقيل هو الذى لاينام ، وقيل الذى لابديل له ، وأصـل قيوم قيووم اجتمعت الياء والواو وسبقت احداهما بالسكون فأدغمت الأولى فى الثانية بعد قلب الواوياء . وقرأ ابن مسعود وعلقمة والنخعى والأعمش الحى القيام بالألف ، وروى ذلك عن عمر ، ولاخلاف بين أهل اللغة أن القيوم أعرف عنـد العرب وأصح بناء ، وأثبت علة * والسنة النعاس فى قول الجمهور ، والنعاس : مايتقدّم النوم من الفتور وانطباق العينين ، فاذا صار فى القلب صار نوما ، وفرق المفصل بين السنة والنعاس والنوم : فقال السنة من الرأس ، والنعاس فى العـين ، والنوم فى القلب انتهى * والذى ينبغى التعويل عليه فى الفرق بين السنة والنوم أن السنة لايفقد معها العقل : بخلاف النوم فانه استرخاء أعضاء الدماغ من رطوبات الأبخرة حتى يفقد معه العقل ، بل وجميع الادراكات بسائر المشاعر ، والمراد أنه لايعتريه سبحانه شىء منهما ، وقدّم السنة على النوم ، لـكونها تتقدّمه فى الوجود . قال الرازى فى تفسيره ان السنة : ماتتقدّم النوم . فاذا كانت عبارة عن مقدّمة النوم ، فاذا قيل لاتأخذه سنة دلّ على أنه لايأخذه نوم بطريق الأولى : فـكان ذكر النوم تـكرارا ، قلنا تقدير الآية لاتأخذه سنة فضلا عن أن يأخذه نوم والله أعلم بمراده انتهى * وأقول ان هذه الأولوية التى ذكرها غير مسلمة فان النوم قد يرد ابتداء من دون ماذكر من النعاس * واذا ورد على القلب والعين دفعة واحدة فانه يقال له نوم ، ولا يقال له سنة ، فلا يستلزم نفى السنة نفى النوم . وقد ورد عن العرب نفيهما جميعا ، ومنه قول زهير :

ولا سنة طوال الدهر تأخذه * ولا ينام وما فى أمره فند

فلم يكتف بنفى السنة ، وأيضافان الانسان يقدر على أن يدفع عن نفسه السنة ، ولايقدر على أن يدفع عن نفسه النوم فقد يأخذه النوم ولا تأخذه السنة ، فلو وقع الاقتصار فى النظم القرآنى على نفى السنة لم يفد ذلك نفى النوم ، وهكذا لو وقع الاقتصار على نفى النوم لم يفد نفى السنة ، فـكم من ذى سنة غير نائم ، وكرر

حرف النفي للتنصيص على شمول النفي لكل واحد منهما * قوله (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) في هذا الاستفهام من الانكار على من يزعم أن أحدا من عباده يقدر على أن ينفع أحدا منهم بشفاعة أو غيرها والتقريع والتوبيخ له مالا مزيد عليه، وفيه من الدفع في صدور عباد القبور والصدّ في وجوههم والفت في أعضادهم مالا يقادر قدره ولا يبلغ مداه، والذي يستفاد منه فوق مايستفاد من قوله تعالى ـ ولايشفعون الا لمن ارتضى * وقوله تعالى ـ وكم من ملك في السموات لاتغني شفاعتهم شيئا الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ـ وقوله تعالى ـ لايتكلمون الا من أذن له الرحمن ـ بدرجات كثيرة. وقد بينت الأحاديث الصحيحة الثابتة في دواوين الاسلام صفة الشفاعة، ولمن هي، ومن يقوم بها، قوله (يعلم مابين أيديهم وما خلفهم) الضميران لما في السموات والأرض بتغليب العقلاء على غيرهم، وما بين أيديهم وما خلفهم عبارة عن المتقدّم عليهم والمتأخر عنهم، أوعن الدنيا والآخرة وما فيهما * قوله (ولا يحيطون بشيء من علمه) قد تقدّم معنى الاحاطة، والعلم هنا بمعنى المعلوم: أي لايحيطون بشيء من معلوماته، قوله (وسع كرسيه) الكرسي الظاهر أنه الجسم الذي وردت الآثار بصفته كما سيأتي بيان ذلك. وقد نفى وجوده جماعة من المعتزلة، وأخطئوا في ذلك خطأ بينا، وغلطوا غلطا فاحشا. وقال بعض السلف ان الكرسي هنا عبارة عن العلم. قالوا ومنه قيل للعلماء الكراسي، ومنه الكراسة التي يجمع فيها العلم، ومنه قول الشاعر:

تحف بهم بيض الوجوه وعصبة * كراسي بالأخبار حين تنوب

ورجح هذا القول ابن جرير الطبري، وقيل كرسيه: قدرته التي يمسك بها السموات والأرض، كما يقال اجعل لهذا الحائط كرسيا: أي مايعمده، وقيل ان الكرسي هو العرش، وقيل هو تصوير لعظمته ولا حقيقة له، وقيل هو عبارة عن الملك * والحق القول الأوّل، ولاوجه للعدول عن المعنى الحقيقي الا مجرد خيالات تسببت عن جهالات وضلالات، والمراد بكونه وسع السموات والأرض أنها صارت فيه وأنه وسعها ولم يضق عنها لكونه بسيطا واسعا * وقوله (ولا يؤوده حفظهما) معناه لايثقله ثقالة أدنى الشيء، بمعنى أثقلني وتحملت منه مشقة. وقال الزجاج يجوز أن يكون الضمير في قوله (يؤوده) لله سبحانه، ويجوز أن يكون للكرسي لأنه من أمر الله * (والعليّ) يراد به علوّ القدرة والمنزلة * وحكى الطبري عن قوم أنهم قالوا هو العلي عن خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه. قال ابن عطية وهذه أقوال جهلة مجسمين، وكان الواجب أن لاتحكى انتهى، والخلاف في إثبات الجهة معروف في السلف والخلف، والنزاع فيه كائن بينهم والأدلة من الكتاب والسنة معروفة ولكن الناشئ على مذهب يرى غيره خارجا عن الشرع ولاينظر في أدلته ولا يلتفت إليها، والكتاب والسنة: هما المعيار الذي يعرف به الحق من الباطل، ويتبين به الصحيح من الفاسد ـ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ـ ولا شك أن هذا اللفظ يطلق على القاهر الغالب كما في قوله ـ ان فرعون علا في الأرض ـ وقال الشاعر:

فلما علونا واستوينا عليهم * تركناهم صرعى لنسر وكاسر

والعظيم بمعنى عظم شأنه وخطره. قال في الكشاف ان الجملة الأولى بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمنا عليه غير ساه عنه * والثانية بيان لكونه مالكا لما يدبره * والجملة الثالثة بيان لكبرياء شأنه * والجملة الرابعة بيان لاحاطته بأحوال الخلق وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة وغير المرتضى * والجملة الخامسة بيان لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله وعظم قدره.

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم في قوله (الحيّ) أي حي لايموت (والقيوم) القائم الذي لابديل له. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي عن مجاهد في قوله (القيوم) قال القائم على

كل شىء . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال القيوم : الذى لازوال له . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (لاتأخذه سنة ولا نوم) قال السنة : النعاس ، والنوم : هو النوم . وأخرجوا إلا البيهقى عن السدّى قال السنة : ريح النوم ، الذى تأخذه فى الوجه فينعس الانسان . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله (يعلم مابين أيديهم) قال مامضى من الدنيا (وما خلفهم) من الآخرة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (مابين أيديهم) ماقدّموا من أعمالهم (وما خلفهم) ماأضاعوا من أعمالهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (وسع كرسيه) قال علمه ألا ترى إلى قوله (ولا يؤوده حفظهما) . وأخرج الدارقطنى فى الصفات والخطيب فى تاريخه عنه قال سئل رسول الله ﷺ عن قول الله (وسع كرسيه) قال كرسيه موضع قدمه ، والعرش لايقدّر قدره إلا الله عزّ وجلّ . وأخرجه الحاكم وصححه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقى عن أبى موسى الأشعرى مثله موقوفا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال لو أن السموات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهنّ الى بعض ما كنّ فى سعته يعنى الكرسى الا بمنزلة الحلقة فى المفازة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه والبيهقى عن أبى ذرّ الغفارى أنه سأل رسول الله ﷺ عن الكرسى . فقال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده ماالسموات السبع عند الكرسى الا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وان فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة » . وأخرج عبد بن حميد والبزار وأبو يعلى وابن جرير وأبو الشيخ والطبرانى والضياء المقدسى فى المختارة عن عمر قال أتت امرأة الى النبى ﷺ وقالت ادع الله أن يدخلنى الجنة ، فعظم الربّ سبحانه وقال ان كرسيه وسع السموات والأرض ، وانه له أطيطا كأطيط المرجل الحديد من ثقله . وفى إسناده عبد الله بن خليفة وليس بالمشهور . وفى سماعه من عمر نظر ، ومنهم من يرويه عن عمر موقوفا . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا أنه موضع القدمين . وفى إسناده الحكم بن ظهير الفزارى الكوفى وهو متروك . وقد ورد عن جماعة من السلف من الصحابة وغيرهم فى وصف الكرسى آثار لاحاجة فى بسطها . وقد روى أبو داود فى كتاب السنة من سننه من حديث جبير بن مطعم حديثا فى صفته ، وكذلك أورد ابن مردويه عن بريدة وجابر وغيرهما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولا يؤوده حفظهما) قال لايثقل عليه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه (ولا يؤوده) قال ولا يكثره . وأخرج ابن جرير عنه قال العظيم : الذى قد كمل فى عظمته

واعلم أنه قد ورد فى فضل هذه الآية أحاديث . فأخرج أحمد ومسلم واللفظ له عن أبىّ بن كعب أن النبى ﷺ سأله أىّ آية من كتاب الله أعظم ؟ قال آية الكرسى قال ليهنك العلم أبا المنذر. وأخرج النسائى وأبو يعلى وابن حبان وأبو الشيخ فى العظمة والطبرانى والحاكم وصححه عن أبىّ بن كعب أنه كان له جرن فيه تمر فكان يتعاهده فوجده ينقص فحرسه ذات ليلة فاذا هو بدابة شبه الغلام المحتلم قال فسلمت فردّ السلام : فقلت ماأنت جنىّ أم إنسى ؟ قال جنىّ : قلت ناولنى يدك فناولنى فاذا يده يد كلب وشعره شعر كلب ، فقلت هكذا خلق الجنّ ؟ قال لقد علمت الجنّ أن مافيهم من هو أشدّ منى ، قلت ماحملك على ماصنعت ؟ قال بلغنى أنك رجل تحب الصدقة فأحببنا أن نصيب من طعامك : فقال له أبىّ فما الذى يجيرنا منكم ؟ قال هذه الآية آية الكرسى التى فى سورة البقرة من قالها حين يمسى أجير منا حتى يصبح ، ومن قالها حين يصبح أجير منا حتى يمسى ، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره فقال صدق الخبيث . وأخرج البخارى فى تاريخه والطبرانى وأبو نعيم فى المعرفة بسند رجاله ثقات عن ابن الأسقع البكرى أن النبى ﷺ جاءهم فى صفة المهاجرين فسأله انسان أىّ آية فى القرآن أعظم ؟ فقال النبى ﷺ (الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم لاتأخذه سنة ولا نوم) حتى

انقضت الآية . وأخرج أحمد من حديث أبى ذرّ مرفوعا نحوه . وأخرج الخطيب البغدادى فى تاريخه عن أنس مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج الدارمى عن أنفع بن عبد الله الكلاعى نحوه . وأخرج البخارى فى صحيحه من حديث أبى هريرة قال وكلنى رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتانى آت فجعل يحثو وذكر قصة ، وفى آخرها أنه قال له دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت ماهى ؟ قال اذا أويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسى فانك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فأخبر أبو هريرة بذلك رسول الله ﷺ فقال أما انه صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب ياأبا هريرة ؟ قال لا : قال ذلك شيطان كذا . وأخرج نحو ذلك أحمد عن أبى أيوب . وأخرج الطبرانى والحاكم وأبو نعيم والبيهقى عن معاذ بن جبل مرفوعا نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أن النبى ﷺ قال « أعظم آية فى كتاب الله الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم » . وأخرج نحوه أحمد والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن أبى ذرّ مرفوعا . وأخرج نحوه أيضا أحمد والطبرانى من حديث أبى أمامة مرفوعا . وأخرج سعيد بن منصور والحاكم والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « سورة البقرة فيها آية سيدة آى القرآن لاتقرأ فى بيت فيه شيطان إلا خرج منه ، آية الكرسى » . قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه . وأخرج الحاكم من حديث زائدة مرفوعا « لكل شىء سنام وسنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هى سيدة آى القرآن ، آية الكرسى» . وقال غريب لانعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير . وقد تكلم فيه شعبة وضعفه ، وكذا ضعفه أحمد ويحيى بن معين وغير واحد ، وتركه ابن مهدىّ ، وكذبه السعدى . وأخرج أبوداود والترمذى وصححه من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول فى هاتين الآيتين الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم ، والٓمٓ الله لا إله إلا هو ان فيهما اسم الله الأعظم . وقد وردت أحاديث فى فضلها غير هذه ، وورد أيضا فى فضل قراءتها دبر الصلوات وفى غير ذلك ، وورد أيضا فى فضلها مع مشاركة غيرها لها أحاديث ، وورد عن السلف فى ذلك شىء كثير :

لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ *

قد اختلف أهل العلم فى قوله (لا إكراه فى الدين) على أقوال : الأوّل أنها منسوخة لأنّ رسول الله ﷺ قد أكره العرب على دين الاسلام وقاتلهم ولم يرض منهم الا بالاسلام ، والناسخ لها قوله تعالى ـ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين ـ وقال تعالى ـ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أنّ الله مع المتقين وقال ـ ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ـ ، وقد ذهب الى هذا كثير من المفسرين . القول الثانى أنها ليست بمنسوخة وانما نزلت فى أهل الكتاب خاصة وأنهم لا يكرهون على الاسلام اذا أدّوا الجزية ، بل الذين يكرهون هم أهل الأوثان ، فلا يقبل منهم إلا الاسلام أو السيف ، والى هذا ذهب الشعبى والحسن وقتادة والضحاك . القول الثالث أن هذه الآية فى الأنصار خاصة ، وسيأتى بيان ماورد فى ذلك . القول الرابع أن معناها لاتقولوا لمن أسلم تحت السيف انه مكره فلا اكراه فى الدين . القول الخامس أنها وردت فى السبى متى كانوا من أهل الكتاب لم

يجبروا

يجبروا على الاسلام . وقال ابن كثير فى تفسيره أى لا تكرهوا أحدا على الدخول فى دين الاسلام فانه بين واضح جلىّ دلائله و براهينه لاتحتاج الى أن يكره أحد على الدخول فيه ، بل من هداه الله للاسلام وشرح صدره ونوّر بصيرته دخل فيه على بينة ، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه و بصره ، فانه لايفيده الدخول فى الدين مكرها مقسورا ، وهذا يصلح أن يكون قولا سادسا . وقال فى الكشاف فى تفسيره هذه الآية : أى لم يجرِ الله أمر الايمان على الاجبار والقسر ، ولكن على التمكين والاختيار ، ونحوه قوله ـ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ـ أى لو شاء لقسرهم على الايمان ، ولكن لم يفعل ، و بنى الأمر على الاختيار ، وهذا يصلح أن يكون قولا سابعا ، والذى ينبغى اعتماده و يتعين الوقوف عنده : أنها فى السبب الذى نزلت لأجله محكمة غير منسوخة وهو أن المرأة من الأنصار تكون مقلاة ، لا يكاد يعيش لها ولد ، فتجعل على نفسها ان عاش لها ولد أن تهوّده فلما أجليت يهود بنى النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا : لا ندع أبناءنا فنزلت : أخرجه أبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان وابن مردويه والبيهقى فى السنن والضياء فى المختارة عن ابن عباس ، وقد وردت هذه القصة من وجوه ، حاصلها ماذكره ابن عباس مع زيادات تتضمن أن الأنصار قالوا انما جعلناهم على دينهم : أى دين اليهود ، ونحن نرى أن دينهم أفضل من ديننا وأن الله جاء بالاسلام فلنكرهنهم ، فلما نزلت خير الأبناء رسول الله ﷺ ولم يكرههم على الاسلام ، وهذا يقتضى أن أهل الكتاب لا يكرهون على الاسلام اذا اختاروا البقاء على دينهم وأدّوا الجزية ، وأما أهل الحرب فالآية وان كانت تعمهم ، لأن النكرة فى سياق النفى وتعريف الدين يفيدان ذلك ، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، لكن قد خص هذا العموم بما ورد من الآيات فى اكراه أهل الحرب من الكفار على الاسلام * قوله (قد تبين الرشد من الغىّ) الرشد هنا الايمان ، والغىّ الكفر ، أى قد تميز أحدهما من الآخر . وهذا استئناف يتضمن التعليل لما قبله * والطاغوت : فعلوت من طغى يطغى و يطغو اذا جاوز الحدّ . قال سيبويه : هو اسم مذكر مفرد ، أى اسم جنس يشمل القليل والكثير ، وقال أبو على الفارسى انه مصدر كرهبوت وجبروت يوصف به الواحد والجمع ، وقلبت لامه الى موضع العين وعينه الى موضع اللام كجبذ وجذب ، ثم تقلب الواو ألفا لتحركها وتحرك ماقبلها ، فقيل طاغوت ، واختار هذا القول النحاس ، وقيل أصل الطاغوت فى اللغة مأخوذ من الطغيان يؤدى معناه من غير اشتقاق كما قيل ، لآلىء : من اللؤلؤ ، وقال المبرد هو جمع . قال ابن عطية وذلك مردود . قال الجوهرى : والطاغوت الكاهن والشيطان وكل رأس فى الضلال ، وقد يكون واحدا . قال الله تعالى ـ يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ـ وقد يكون جمعا . قال الله تعالى ـ أولياؤهم الطاغوت ـ والجمع الطواغيت ، أى فمن يكفر بالشيطان أو الأصنام أو أهل الكهانة ورءوس الضلالة أو بالجميع (و يؤمن بالله) عز وجل بعد ماتميز له الرشد من الغى فقد فاز وتمسك بالحبل الوثيق ، أى المحكم * والوثقى فعلى من الوثاقة وجمعها وثق مثل الفضلى والفضل . وقد اختلف المفسرون فى تفسير العروة الوثقى بعد اتفاقهم على أن ذلك من باب التشبيه والتمثيل لما هو معلوم بالدليل بما هو مدرك بالحاسة ، فقيل المراد بالعروة الايمان وقيل الاسلام ، وقيل لا إله إلا الله ولا مانع من الحمل على الجميع * والانفصام الانكسار من غير بينونة . قال الجوهرى فصم الشىء كسره من غير أن يبين . وأما القصم بالقاف فهو الكسر مع البينونة ، وفسر صاحب الكشاف الانفصام بالانقطاع * قوله (الله ولىّ الذين آمنوا) الولىّ : فعيل بمعنى فاعل ، وهو الناصر * وقوله (يخرجهم) تفسير للولاية ، أو حال من الضمير فى ولىّ ، وهذا يدل على أن المراد بقوله : الذين آمنو ، الذين أرادوا

الايمان لأن من قد وقع منه الايمان قد خرج من الظلمات الى النور الا أن يراد بالاخراج اخراجهم من الشبه التى تعرض للمؤمنين فلا يحتاج الى تقدير الاراده ، والمراد بالنور فى قوله (يخرجونهم من النور الى الظلمات) ما جاء به أنبياء الله من الدعوة الى الدين فان ذلك نور للكفار أخرجهم أولياؤهم عنه الى ظلمة الكفر ، أى قررهم أولياؤهم على ما هم عليه من الكفر بسبب صرفهم عن اجابة الداعى الى الله من الأنبياء وقيل المراد بالذين كفروا هنا الذين ثبت فى علمه تعالى كفرهم يخرجهم أولياؤهم من الشياطين ورءوس الضلال من النور الذى هو فطرة الله التى فطر الناس عليها الى ظلمات الكفر التى وقعوا فيها بسبب ذلك الاخراج .

وقد أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن سعيد بن جبير نحو ماتقدّم عن ابن عباس من ذكر سبب نزول قوله تعالى (لا إكراه فى الدين) وزاد أن النبى ﷺ خير الأبناء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الشعبى نحوه أيضا ، وقال فلحق بهم أى ببنى النضير من لم يسلم وبقى من أسلم . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : كان ناس من الأنصار مسترضعين فى بنى قريظة فثبتوا على دينهم ، فلما جاء الاسلام أراد أهلوهم أن يكرهوهم على الاسلام فنزلت . وأخرج ابن جرير عن الحسن نحوه . وأخرج ابن اسحق وابن جرير عن ابن عباس فى قوله (لا كراه فى الدين) قال نزلت فى رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو رجلا مسلما : فقال للنبى ﷺ ألا أستكرههما فانهما قد أبيا الا النصرانية فنزلت . وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن عبيدة نحوه . وكذلك أخرج أبوداود فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر عن السدّى نحوه . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود فى ناسخه وابن جرير عن قتادة قال : كانت العرب ليس لها دين : فأكرهوا على الدين بالسيف . قال ولا تكرهوا اليهود ولا النصارى والمجوس اذا أعطوا الجزية . وأخرج سعيد بن منصور عن الحسن نحوه . وأخرج البخارى عن أسلم : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية أسلمى تسلمى فأبت ، فقال اللهم اشهد ثم تلا (لا اكراه فى الدين) وروى عنه سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم أنه قال لزنبق الرومى غلامه : لو أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين فأبى فقال (لا إكراه فى الدين) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن سليمان بن موسى فى قوله : (لا إكراه فى الدين) قال نسختها — جاهد الكفار والمنافقين — . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب قال : الطاغوت الشيطان . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : الطاغوت الكاهن . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية قال : الطاغوت الساحر . وأخرج ابن أبى حاتم عن مالك بن أنس قال : الطاغوت ما يعبد من دون الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : العروة الوثقى لا إله إلا الله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن أنس بن مالك أنها القرآن . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد أنها الايمان . وعن سفيان أنها كلمة الاخلاص . وقد ثبت فى الصحيحين تفسير العروة الوثقى فى غير هذه الآية بالاسلام مرفوعا فى تعبيره ﷺ لرؤيا عبد الله بن سلام . وأخرج ابن عساكر عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر فانهما حبل الله الممدود ، فمن تمسك بهما فقد تمسك بعروة الله الوثقى التى لا انفصام لها . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : اذا وحد الله وآمن بالقدر فهى العروة الوثقى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن معاذ أنه سئل عن قوله (لا انفصام لها) قال لا انقطاع لها دون دخول الجنة . وأخرج ابن المنذر والطبرانى عن ابن عباس فى قوله (الله ولىّ الذين آمنوا) الآية . قال هم قوم كانوا كفروا بعيسى فآمنوا بمحمد

ﷺ (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) الآية . قال هم قوم آمنوا بعيسى فلما بعث محمد كفروا به . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : الظلمات : الكفر . والنور: الايمان . وأخرج أبو الشيخ عن السدّى مثله .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِيمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ آتَيٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ *

فى هذه الآية استشهاد على ماتقدم ذكره من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت ، وهمزة الاستفهام لانكار النفى وتقرير المنفى أى ألم ينته علمك أونظرك الى هذا الذى صدرت منه هذه المحاجة . قال الفراء : ألم تر بمعنى هل رأيت ، أى هل رأيت الذى حاج ابراهيم وهو النمروذ بن كوش بن كنعان بن سام بن نوح ، وقيل انه النمروذ ابن فالخ بن عابر بن شالخ بن ارنخشذ بن سام * وقوله (أن آتاه الله الملك) أى لأن آتاه الله ، أومن أجل أن آتاه الله على معنى أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتوّ ، فحاج لذلك ، أوعلى أنه وضع المحاجة التى هى أقبح وجوه الكفر موضع مايجب عليه من الشكر ، كما يقال عادينى لأنى أحسنت اليك ، أو وقت أن آتاه الله الملك * قوله (اذقال ابراهيم) هو ظرف لحاج ، وقيل بدل من قوله (أن آتاه الله الملك) على الوجه الأخير وهو بعيد * قوله (ربى الذى يحيى ويميت) بفتح ياء ربى ، وقرىء بحذفها * قوله (أنا أحيى) قرأ جمهور القراء أنا أحيى بطرح الألف التى بعد النون من أنا فى الوصل وأثبتها نافع وابن أبى أويس كما فى قول الشاعر :

أنا شيخ العشيرة فاعرفونى * حميدا قد تذربت السناما

أراد ابراهيم عليه السلام أن الله هو الذى يخلق الحياة والموت فى الأجساد ، وأراد الكافر أنه يقدر أن يعفو عن القتل ، فيكون ذلك احياء ، وعلى أن يقتل فيكون ذلك إماتة ، فكان هذا جوابا أحمق لايصح نصبه فى مقابلة حجة ابراهيم ، لأنه أراد غير ما أراده الكافر ، فلو قال له ربى الذى يخلق الحياة والموت فى الأجساد ، فهل تقدر على ذلك لبهت الذى كفر بادىء بدء وفى أوّل وهلة ، ولكنه انتقل معه الى حجة أخرى تنفيسا لخناقه ، وإرسالا لعنان المناظرة فقال (فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) لكون هذه الحجة لاتجرى فيها المغالطة ولايتيسر للكافر أن يخرج عنها بمخرج مكابرة ومشاغبة * قوله (فبهت الذى كفر) بهت الرجل وبهت وبهت اذا انقطع وسكت متحيرا . قال ابن جرير وحكى عن بعض العرب فى هذا المعنى بهت بفتح الباء والهاء . قال ابن جنى قرأ أبو حيوة فبهت بفتح الباء وضم الهاء ، وهى لغة فى بهت بكسر الهاء ، قال وقرأ ابن السميفع فبهت بفتح الباء والهاء على معنى فبهت ابراهيم الذى كفر ، فالذى فى موضع نصب ، قال وقد يجوز أن يكون بهت بفتحهما لغة فى بهت . وحكى أبو الحسن الأخفش قراءة فبهت بكسر الهاء ، قال والأكثر بالفتح فى الهاء ، قال ابن عطية وقد تأوّل قوم فى قراءة من قرأ فبهت بفتحهما أنه بمعنى سب وقذف ، وان النمروذ هو الذى سب حين انقطع ولم يكن له حيلة انتهى * وقال سبحانه (فبهت الذى كفر) ولم يقل فبهت الذى حاج ، اشعارا بأن تلك المحاجة كفر * وقوله (والله لايهدى القوم الظالمين) تذييل مقرر لمضمون الجملة التى قبله

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب أن الذى حاجّ ابراهيم فى ربه هو نمروذ بن كنعان وأخرجه ابن جرير عن مجاهد وقتادة والربيع والسدى . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن

أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن زيد بن أسلم أن أوّل جبار كان فى الأرض نمروذ . وكان الناس يخرجون يمتارون من عنده الطعام ، فخرج ابراهيم عليه السلام يمتار مع من يمتار فاذا مرّ به ناس قال : من ربكم ؟ قالوا أنت . حتى مرّ به ابراهيم ، فقال : من ربك ؟ قال الذى يحيي و يميت ، قال : أنا أحيي وأميت ، قال : فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ، فردّه بغير طعام . فرجع ابراهيم الى أهله فمرّ على كثيب من رمل أصفر فقال : ألا آخذ من هذا فآتى به أهلى ، فتطيب أنفسهم حين أدخل عليهم ، فأخذ منه فأتى أهله فوضع متاعه ثم نام : فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فاذا هى بأجود طعام رآه آخذ فصنعت له منه فقربته إليه : وكان عهده بأهله أنه ليس عندهم طعام : فقال من أين هذا ؟ قالت من الطعام الذى جئت به ، فعرف أن الله رزقه فحمد الله . ثم بعث الله إلى الجبار ملكا أن آمن وأتركك على ملكك . قال فهل رب غيرى ؟ فجاءه الثانية فقال له ذلك فأبى عليه ، ثم أتاه الثالثة فأبى عليه . فقال له الملك فاجمع جموعك إلى ثلاثة أيام ، فجمع الجبار جموعه فأمر الله الملك ففتح عليه بابا من البعوض وطلعت الشمس فلم يروها من كثرتها فبعثها الله عليهم فأكلت شحومهم وشربت دماءهم فلم يبق إلا العظام ، والملك كما هو لا يصيبه من ذلك شىء ، فبعث الله عليه بعوضة فدخلت فى منخرة فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق وأرحم الناس به من جمع يديه ، ثم ضرب بهما رأسه وكان جبارا أربعمائة سنة فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه ، ثم أماته الله ، وهو الذى كان بنى صرحا إلى السماء فأتى الله بنيانه من القواعد . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى الآية . قال هو نمروذ بن كنعان يزعمون أنه أوّل من ملك فى الأرض أتى برجلين قتل أحدهما وترك الآخر . فقال (أنا أحيي وأميت) . وأخرج أبو الشيخ عن السدى (والله لا يهدى القوم الظالمين) قال إلى الايمان .

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

قوله (أوكالذى) أو للعطف حملا على المعنى ، والتقدير هل رأيت كالذى حاج أو كالذى مرّ على قرية . قاله الكسائى والفراء . وقال المبرد ان المعنى : ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه ، ألم تر من هو كالذى مرّ على قرية فحذف قوله من هو . وقد اختار جماعة أن الكاف زائدة ، واختار آخرون أنها اسمية ، والمشهور أن القرية هى بيت المقدس بعد تخريب بختنصر لها ، وقيل المراد بالقرية أهلها * وقوله (خاوية على عروشها) أى ساقطة على عروشها ، أى سقط السقف ثم سقطت الحيطان عليه . قاله السدّى واختاره ابن جرير ، وقيل معناه خالية من الناس ، والبيوت قائمة ، وأصل الخواء الخلوّ ، يقال خوت الدار وخويت تخوى خواء ممدود وخويا ، وخويا أقفرت ، والخواء أيضا : الجوع لخلوّ البطن عن الغذاء * والظاهر القول الأوّل بدلالة قوله (على عروشها) من خوى البيت اذا سقط ، أو من خوت الأرض اذا تهدمت ، وهذه الجملة حالية ، أى من حال كونها كذلك * وقوله (أنى يحيي هذه الله) أى متى يحيي أو كيف يحيي ، وهو استبعاد لاحيائها وهى على تلك الحالة المشابهة لحالة الأموات المباينة لحالة الأحياء ، وتقديم المفعول لكون الاستبعاد ناشئا من جهته لا من جهة الفاعل . فلما قال المارّ هذه المقالة مستبعدا لاحياء القرية المذكورة

بالعمارة لها والسكون فيها ضرب الله له المثل فى نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) . وحكى الطبرى عن بعضهم أنه قال كان هذا القول شكا فى قدرة الله على الاحياء ، فلذلك ضرب له المثل فى نفسه . قال ابن عطية ليس يدخل شك فى قدرة الله سبحانه على إحياء قرية بجلب العمارة إليها ، وانما يتصوّر الشك إذا كان سؤاله عن إحياء موتاها * وقوله (مائة عام) منصوب على الظرفية * والعام : السنة أصله مصدر كالعوم سمي به هذا القدر من الزمان * وقوله (بعثه) معناه أحياه * قوله (قال كم لبثت) هو استئناف كأن سائلا سأله ماذا قال له بعد بعثه ؟ ، واختلف فى فاعل قال ، فقيل هو الله عزّ وجلّ ، وقيل ناداه بذلك ملك من السماء ، قيل هو جبريل ، وقيل غيره ، وقيل انه نبيّ من الأنبياء ، وقيل رجل من المؤمنين من قومه شاهده عند أن أماته الله ، وعمر إلى عند بعثه * والأوّل أولى لقوله فيما بعد (وانظر إلى العظام كيف ننشزها) . وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة إلا عاصما كم لبت بادغام الثاء فى التاء لتقاربهما فى المخرج . وقرأ غيرهم بالاظهار وهو أحسن لبعد مخرج الثاء من مخرج التاء * وكم فى موضع نصب على الظرفية و إنما قال (يوما أو بعض يوم) بناء على ماعنده وفى ظنه فلا يكون كاذبا ، ومثله قول أصحاب الكهف ـ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ـ ومثله قوله ﷺ فى قصة ذى اليدين « لم تقصر ولم أنس » وهذا مما يؤيد قول من قال ان الصدق ماطابق الاعتقاد ، والكذب ماخالفه * وقوله (قال بل لبثت مائة عام) هو هو استئناف أيضا كما سلف ، أى مالبثت يوما أو بعض يوم بل لبثت مائة عام * وقوله (فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه) أمره سبحانه أن ينظر الى هذا الأثر العظيم من آثار القدرة ، وهو عدم تغير طعامه وشرابه مع طول تلك المدّة . وقرأ ابن مسعود وهذا طعامك وشرابك لم يتسنه . وقرأ طلحة بن مصرف وانظر لطعامك وشرابك لمائة سنة . وروى عن طلحة أيضا أنه قرأ لم يسنّ بادغام التاء فى السين وحذف الهاء وقرأه الجمهور باثبات الهاء فى الوصل ، والتسنه مأخوذ من السنة ، أى لم تغيره السنون ، وأصلها سنهة أوسنوة من سنهت النخلة وتسنهت : إذا أتت عليها السنون ، ونخلة سنا : أى تحمل سنة ولا تحمل أخرى ، وأسنهت عند بنى فلان : أقمت عندهم ، وأصله يتسنا سقطت الألف للجزم والهاء للسكت ، وقيل هو من أسن الماء إذا تغير ، وكان يجب على هذا أن يقال يتأسن من قوله ـ حمأ مسنون ـ قاله أبو عمرو الشيبانى . وقال الزجاج ليس كذلك ، لأن قوله ـ مسنون ـ ليس معناه متغير ، وانما معناه مصبوب على سنه الأرض * وقوله (وانظر الى حمارك) اختلف المفسرون فى معناه ، فذهب الأكثر الى أن معناه انظر اليه كيف تفرّقت أجزاؤه ، ونخرت عظامه ثم أحياه الله وعاد كما كان . وقال الضحاك ووهب بن منبه : انظر إلى حمارك قائما فى مربطه لم يصبه شيء بعد أن مضت عليه مائة عام ، و يؤيد القول الأوّل قوله تعالى (وانظر إلى العظام كيف ننشزها) و يؤيد القول الثانى مناسبته لقوله (فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه) وانما ذكر سبحانه عدم تغير طعامه وشرابه بعد اخباره أنه لبث مائة عام مع أن عدم تغير ذلك الطعام والشراب لايصلح أن يكون دليلا على تلك المدّة الطويلة ، بل على ماقاله من لبثه يوما أو بعض يوم لزيادة استعظام ذلك الذى أماته الله تلك المدّة فانه إذا رأى طعامه وشرابه لم يتغير مع كونه قد ظن أنه لم يلبث الا يوما أو بعض يوم زادت الحيرة وقويت عليه الشبهة ، فاذا نظر إلى حماره عظاما نخرة تقرّر لديه أن ذلك صنع من تأتى قدرته بما لاتحيط به العقول ، فان الطعام والشراب سريع التغير . وقد بقى هذه المدّة الطويلة غير متغير ، والحمار يعيش المدّة الطويلة . وقد صار كذلك ـ فتبارك الله أحسن الخالقين ـ * قوله (ولنجعلك آية للناس) . قال الفراء انه أدخل الواو فى قوله (ولنجعلك) دلالة على أنها شرط لفعل بعدها معناه ولنجعلك آية للناس ودلالة على البعث بعد الموت جعلنا ذلك ، وان شئت جعلت الواو مقحمة زائدة . قال الأعمش موضع كونه آية هو أنه جاء شبابا على حاله يوم مات فوجد الأبناء والحفدة شيوخا * قوله (وانظر إلى

العظام كيف ننشزها) قرأ الكوفيون وابن عامر بالزاى والباقون بالراء ، وروى أبان عن عاصم ننشرها بفتح النون الأولى وسكون الثانية وضم الشين والراء . وقد أخرج الحاكم وصححه عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ . قرأ كيف ننشزها بالزاى ، فمعنى القراءة بالزاى نرفعها ، ومنه النشز : وهو المرتفع من الأرض ، أى نرفع بعضها إلى بعض ، وأما معنى القراءة بالراء المهملة فواضحة من أنشر الله الموتى : أى أحياهم * وقوله (ثم نكسوها لحما) أى نسترها به كما نستر الجسد باللباس فاستعار اللباس لذلك ، كما استعاره النابغة للاسلام فقال الحمد لله اذ لم يأتنى أجلى * حتى اكتسيت من الاسلام سربالا

قوله (فلما تبين له) أى ما تقدم ذكره من الآيات التى أراه الله سبحانه وأمره بالنظر اليها والتفكر فيها (قال أعلم أن الله على كل شىء قدير) لا يستعصى عليه شىء من الأشياء . قال ابن جرير المعنى فى قوله (فلما تبين له) أى لما اتضح له عيانا ما كان مستنكرا فى قدرة الله عنده قبل عيانه (قال أعلم) . وقال أبو على الفارسى معناه : أعلم أن هذا الضرب من العلم الذى لم أكن علمته . وقرأ حمزة والكسائى (قال اعلم) على لفظ الأمر خطابا لنفسه على طريق التجريد .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن علىّ فى قوله (أو كالذى مرّ على قرية) قال خرج عزير نبىّ الله من مدينته وهو شاب فمرّ على قرية خربة وهى خاوية على عروشها ، فقال (أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه) فأوّل ما خلق الله عيناه فجعل ينظر إلى عظامه ينضم بعضها إلى بعض ، ثم كسيت لحما ، ثم نفخ فيه الروح ، فقيل له (كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام) فأتى مدينته . وقد ترك جارا له إسكافا شابا فجاء وهو شيخ كبير . وقد ورد عن جماعة من السلف أن الذى أماته الله عزير ، منهم ابن عباس عند ابن جرير وابن عساكر ، ومنهم عبد الله بن سلام عند الخطيب وابن عساكر ، ومنهم عكرمة وقتادة وسليمان وبريدة والضحاك والسدّى عند ابن جرير ، وورد عن جماعة آخرين أن الذى أماته الله هو نبىّ اسمه أرمياء ، فمنهم عبد الله ابن عبيد بن عمير عند عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، ومنهم وهب بن منبه عند عبد الرزاق وابن جرير وأبى الشيخ . وأخرج ابن اسحق عنه أيضا أنه الخضر . وأخرج ابن أبى حاتم عن رجل من أهل الشام أنه حزقيل . وروى ابن كثير عن مجاهد أنه رجل من بنى إسرائيل * والمشهور القول الأوّل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (خاوية) قال خراب . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال (خاوية) ليس فيها أحد . وأخرج أيضا عن الضحاك قال (على عروشها) سقوفها . وأخرج ابن جرير عن السدّى قال ساقطة على سقوفها . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال (لبثت يوما) ثم التفت فرأى الشمس فقال (أو بعض يوم) . وأخرج عنه أيضا قال كان طعامه الذى معه سلة من تين ، وشرابه زق من عصير . وأخرج أيضا عن مجاهد نحوه . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (لم يتسنه) قال لم يتغير . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير قال (لم يتسنه) لم ينتن . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله (ولنجعلك آية للناس) مثل ما تقدم عن الأعمش ، وكذلك أخرج مثله أيضا عن عكرمة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (كيف ننشزها) قال نخرجها . وأخرج ابن جرير عن زيد بن ثابت قال نحييها .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *

قوله

قوله (واذ) ظرف منصوب بفعل محذوف ، أى اذكر وقت قول ابراهيم ، وانما كان الأمر بالذكر موجها الى الوقت دون ماوقع فيه مع كونه المقصود ، لقصد المبالغة ، لأن طلب وقت الشىء يستلزم طلبه بالأولى ، وهكذا يقال فى سائر المواضع الواردة فى الكتاب العزيز بمثل هذا الظرف * وقوله (ربّ) آثره على غيره لمافيه من الاستعطاف الموجب لقبول مايرد بعده من الدعاء * وقوله (أرنى) قال الأخفش لم يرد رؤية القلب ، وانما أراد رؤية العين ، وكذا قال غيره ، ولا يصح أن يراد الرؤية القلبية هنا ، لأن مقصود ابراهيم أن يشاهد الاحياء لتحصل له الطمأنينة ، والهمزة الداخلة على الفعل لقصد تعديته الى المفعول الثانى وهو الجملة ، أعنى قوله كيف تحيى الموتى ، وكيف فى محل نصب على التشبيه بالظرف أو بالحال والعامل فيها الفعل الذى بعدها * وقوله (أولم تؤمن) عطف على مقدّر : أى ألم تعلم ولم تؤمن بأنى قادر على الاحياء حتى تسألنى إراءته (قال بلى) علمت وآمنت بأنك قادر على ذلك ، ولكن سألت ليطمئن قلبى باجتماع دليل العيان إلى دلائل الايمان . وقد ذهب الجمهور إلى أن ابراهيم لم يكن شاكا فى إحياء الموتى قط ، وانما طلب المعاينة لما جبلت عليه النفوس البشرية من رؤية ماأخبرت عنه ، ولهذا قال النبى ﷺ « ليس الخبر كالمعاينة » . وحكى ابن جرير عن طائفة من أهل العلم أنه سأل ذلك لأنه شك فى قدرة الله . واستدلوا بما صح عنه ﷺ فى الصحيحين وغيرهما من قوله « نحن أحق بالشك من ابراهيم » وبما روى عن ابن عباس أنه قال « مافى القرآن عندى آية أرجى منها » . أخرجه عنه عبدالرزاق وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه ، ورجح هذا ابن جرير بعد حكايته له . قال ابن عطية وهو عندى مردود ، يعنى قول هذه الطائفة ، ثم قال وأما قول النبى ﷺ « نحن أحق بالشك من ابراهيم » فمعناه أنه لو كان شاكا لكنا نحن أحق به ونحن لانشك فابراهيم أحرى أن لايشك ، فالحديث مبنى على نفى الشك عن ابراهيم ، وأما قول ابن عباس هى أرجى آية ، فمن حيث ان فيها الادلال على الله وسؤال الاحياء فى الدنيا ، وليست مظنة ذلك ، ويجوز أن نقول هى أرجى آية لقوله (أولم تؤمن) أى ان الايمان كاف لايحتاج معه إلى تنقير وبحث ، قال فالشك يبعد على من ثبت قدمه فى الايمان فقط ، فكيف بمرتبة النبوّة والخلة ، والأنبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التى فيها رذيلة إجماعا ، واذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر الألفاظ للآية لم تعط شكا ، وذلك أن الاستفهام بكيف انما هو سؤال عن حالة شىء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول نحو قولك : كيف علم زيد ، وكيف نسج الثوب ونحوهذا ، ومتى قلت كيف ثوبك ، وكيف زيد فانما السؤال عن حال من أحواله . وقد تكون كيف خبرا عن شىء شأنه أن يستفهم عنه بكيف نحو قولك : كيف شئت فكن ، ونحو قول البخارى : كيف كان بدء الوحى وهى فى هذه الآية استفهام عن هيئة الاحياء ، والاحياء متقرر ، ولكن لماوجدنا بعض المنكرين لوجود شىء قد يعبرون عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشىء يعلم أنها لاتصح ، فيلزم من ذلك أن الشىء فى نفسه لايصح ، مثال ذلك أن يقول مدع أنا أرفع هذا الجبل ، فيقول المكذب له أرنى كيف ترفعه ، فهذه طريقة مجاز فى العبارة ومعناها تسليم جدل كأنه يقول افرض أنك ترفعه ، فلما كان فى عبارة الخليل هذا الاشتراك المجازى خلص الله له ذلك وحمله على أن بين له الحقيقة فقال له (أولم تؤمن قال بلى) فكمل الأمر وتخلص من كل شىء ، ثم علل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة . قال القرطبى هذا ماذكره ابن عطية وهو بالغ ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فانه كفر ، والأنبياء متفقون على الايمان بالبعث . وقد أخبر الله سبحانه أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل : فقال ـ ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ـ * وقال اللعين ـ إلا عبادك منهم المخلصين ـ واذا لم يكن له عليهم سلطنة فكيف يشككهم ، وانما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها ، واتصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها ، فأراد أن يرقى من

علم اليقين الى عين اليقين ، فقوله (أرنى كيف) طلب مشاهدة الكيفية . قال الماوردى وليست الألف فى قوله (أولم تؤمن) ألف الاستفهام ، وانما هى ألف إيجاب وتقرير كما قال جرير :

ألستم خير من ركب المطايا * وأندى العالمين بطون راح

والواو واو الحال * وتؤمن : معناه ايمانا مطلقا دخل فيه فضل إحياء الموتى ، والطمأنينة : اعتدال وسكون . وقال ابن جرير معنى (ليطمئن قلبى) ليوقن * قوله (فخذ أربعة من الطير) الفاء جواب شرط محذوف ، أى ان أردت ذلك فخذ ، والطير : اسم جمع لطائر كركب لراكب ، أوجمع أومصدر ، وخص الطير بذلك ، قيل لأنه أقرب أنواع الحيوان الى الانسان ، وقيل ان الطير همته الطيران فى السماء ، والخليل كانت همته العلو ، وقيل غير ذلك من الأسباب الموجبة لتخصيص الطير * وكل هذه لا تسمن ولا تغنى من جوع وليست الا خواطر أفهام ، وبوادر أذهان لاينبغى أن تجعل وجوها لكلام الله ، وعللا لما يرد فى كلامه ، وهكذا قيل ماوجه تخصيص هذا العدد فان الطمأنينة تحصل باحياء واحد ، فقيل ان الخليل انما سأل واحدا على عدد العبودية فأعطى أربعا على قدر الربوبية ، وقيل ان الطيور الأربعة إشارة الى الأركان الأربعة التى منها تتركب أركان الحيوان ونحو ذلك من الهذيان * قوله (فصرهنّ اليك) قرئ بضم الصاد وكسرها ، أى اضممهنّ اليك وأملهن واجمعهن ، يقال رجل أصور : اذا كان مائل العنق ، ويقال صار الشىء يصوره : أماله . قال الشاعر :

الله يعلم أنا فى تلفتنا * يوم الفراق الى جيراننا صور

وقيل معناه قطعهنّ ، يقال صار الشىء يصوره : أى قطعه ، ومنه قول توبة بن الحمير :

فأدنت لى الأسباب حتى بلغتها * بنهضى وقد كان اجتماعى يصورها

أى يقطعها ، وعلى هذا يكون قوله (اليك) متعلقا بقوله (خذ) * وقوله (ثم اجعل على كل جبل منهنّ جزءا) فيه الأمر بالتجزئة ، لأن جعل كل جزء على جبل يستلزم تقدّم التجزئة . قال الزجاج المعنى ثم اجعل على كل جبل من كل واحد منهنّ جزءا ، والجزء النصيب * وقوله (يأتينك) فى محل جزم على أنه جواب الأمر ، ولكنه بنى لأجل نون الجمع المؤنث * وقوله (سعيا) المراد به الاسراع فى الطيران أو المشى .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس قال : إن ابراهيم مرّ برجل ميت زعموا أنه حبشىّ على ساحل البحر ، فرأى دواب البحر تخرج فتأكل منه ، وسباع الأرض تأتيه فتأكل منه ، والطير يقع عليه فيأكل منه . فقال ابراهيم عند ذلك : ربّ هذه دواب البحر تأكل من هذا ، وسباع الأرض والطير ، ثم تميت هذه فتبلى ثم تحييها ، فأرنى كيف تحيى الموتى (قال أولم تؤمن) ياابراهيم أنى أحيى الموتى (قال بلى) يارب (ولكن ليطمئن قلبى) يقول لأرى من آياتك وأعلم أنك قد أجبتنى فقال الله : خذ أربعا من الطير واصنع ماصنع ، والطير الذى أخذ : وز ، ورأل ، وديك ، وطاوس ، وأخذ نصفين مختلفين : ثم أتى أربعة أجبل ، فجعل على كل جبل نصفين مختلفين وهو قوله (ثم اجعل على كل جبل منهنّ جزءا) ثم تنحى ورءوسها تحت قدميه ، فدعا باسم الله الأعظم : فرجع كل نصف إلى نصفه وكل ريش الى طائره ، ثم أقبلت تطير بغير رءوس الى قدميه تريد رءوسها بأعناقها ، فرفع قدميه فوضع كل طائر منها عنقه فى رأسه فعادت كما كانت . وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج أيضا عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن نحوه . وأخرج بن جرير عن ابن جريج أنها كانت جيفة حمار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (ولكن ليطمئن قلبى) يقول أعلم أنك تجيبنى إذا دعوتك ، وتعطينى إذا سألتك . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس

فى قوله (فخذ أربعة من الطير) قال : الغرنوق ، والطاوس ، والديك ، والحمامة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ، قال الأربعة من الطير الديك ، والطاوس ، والغراب ، والحمام . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس (فصرهنّ) قال قطعهنّ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال هى بالنبطية شققهن . وأخرجا عنه أنه قال فصرهنّ أوثقهنّ . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال وضعهن على سبعة أجبل وأخذ الرءوس بيده فجعل ينظر الى القطرة تلقى القطرة ، والريشة تلقى الريشة حتى صرن أحياء ليس لهن رءوس فجئن الى رءوسهن فدخلن فيها .

مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَنْ يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنْفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُمْ بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ * وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرُبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *

قوله (كمثل حبة) لايصح جعل هذا خبرا عن قوله (مثل الذين ينفقون) لاختلافهما فلا بد من تقدير محذوف امافى الأوّل ، أى مثل نفقة الذين ينفقون ، أوفى الثانى ، أى كمثل زارع حبة ، والمراد بالسبع السنابل هى التى تخرج فى ساق واحد يتشعب منه سبع شعب فى كل شعبة سنبلة ، والحبة اسم لكل مايزدرعه ابن آدم ، ومنه قول المتلمس :

آليت حب العراق الدهر أطعمه * والحب يأكله فى القرية السوس

قيل المراد بالسنابل هنا سنابل الدخن ، فهو الذى يكون فى السنبلة منه هذا العدد . وقال القرطبى ان سنبل الدخن يجىء فى السنبلة منه أكثر من هذا العدد بضعفين وأكثر على ماشاهدنا . قال ابن عطية وقد يوجد فى سنبل القمح مافيه مائة حبة ، وأما فى سائر الحبوب فأكثر ، ولكن المثال وقع بهذا القدر ، وقال الطبرى ان قوله (فى كل سنبلة مائة حبة) معناه ان وجد ذلك والا فعلى أن تفرضه * قوله (والله يضاعف لمن يشاء) يحتمل أن يكون المراد يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء أو يضاعف هذا العدد ، فيزيد عليه أضعافه لمن يشاء وهذا هو الراجح لما سيأتى . وقد ورد القرآن بأن الحسنة بعشر أمثالها ، واقتضت هذه الآية بأن نفقة الجهاد حسنتها بسبعمائة ضعف فيبنى العام على الخاص ، وهذا بناء على أن سبيل الله هو الجهاد فقط ، وأما اذا كان المراد به وجوه الخير فيخص هذا التضعيف الى سبعمائة بثواب النفقات وتكون العشرة الأمثال فيما عدا ذلك * قوله (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) هذه الجملة متضمنة لبيان كيفية الانفاق الذى تقدّم ، أى هو انفاق الذين ينفقون ثم لايتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى * والمنّ هو ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها ، وقيل المنّ التحدّث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المعطى فيؤذيه ، والمنّ من الكبائر كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره أنه أحد الثلاثه الذين لاينظر الله اليهم ولايزكيهم ولهم عذاب عظيم * والأذى السب والتطاول والتشكى . قال فى

الكشاف ومعنى ثم اظهار التفاوت بين الانفاق وترك المنّ والأذى ، وان تركهما خير من نفس الانفاق كما جعل الاستقامة على الايمان خيرا من الدخول فيه بقوله ـ ثم استقاموا ـ انتهى ، وقدم المنّ على الأذى لكثرة وقوعه ووسط كلمة (لا) للدلالة على شمول النفى * وقوله (عند ربهم) فيه تأكيد وتشريف * وقوله (ولاخوف عليهم) ظاهره نفى الخوف عنهم فى الدارين لما تفيده النكرة الواقعة فى سياق النفى من الشمول وكذلك (ولاهم يحزنون) يفيد دوام انتفاء الحزن عنهم * قوله (قول معروف ومغفرة) قيل الخبر محذوف ، أى أولى وأمثل ، ذكره النحاس ، قال ويجوز أن يكون خبرا عن مبتدا محذوف أى الذى أمرتم به قول معروف وقوله (ومغفرة) مبتدأ أيضا وخبره قوله (خير من صدقة) وقيل ان قوله خير خبر عن قوله قول معروف وعن قوله ومغفرة وجاز الابتداء بالنكرتين ، لأن الأولى تخصصت بالوصف ، والثانية بالعطف ، والمعنى أن القول المعروف من المسئول للسائل وهو التأنيس والترجية بما عند الله ، والردّ الجميل خير من الصدقة التى يتبعها أذى . وقد ثبت فى صحيح مسلم عنه ﷺ «الكلمة الطيبة صدقة وان من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق» وما أحسن ماقاله ابن دريد :

لاتدخلنك ضجرة من سائل * فلخير دهرك أن ترى مسئولا
لاتجبهن بالردّ وجه مؤمل * فبقاء عزك أن ترى مأمولا

والمراد بالمغفرة الستر للخلة وسوء حالة المحتاج والعفو عن السائل اذا صدر منه من الالحاح مايكدر صدر المسئول ، وقيل المراد ان العفو من جهة السائل ، لأنه اذا رده ردّا جميلا عذره ، وقيل المراد فعل يؤدى الى المغفرة خير من صدقة أى غفران الله خير من صدقتكم ، وهذه الجملة مستأنفة مقررة لترك اتباع المنّ والأذى للصدقة * قوله (ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى) الابطال للصدقات اذهاب أثرها وافساد منفعتها ، أى لاتبطلوها بالمنّ والأذى أو بأحدهما * قوله (كالذى) أى ابطالا كابطال الذى على أنه نعت لمصدر محذوف ويجوز أن يكون حالا أى لاتبطلوا مشابهين للذى ينفق ماله رئاء الناس ، وانتصاب رئاء على أنه علة لقوله (ينفق) أى لأجل الرياء أو حال أى ينفق مرائيا لايقصد بذلك وجه الله وثواب الآخرة ، بل يفعل ذلك رياء للناس استجلابا لثنائهم عليه ومدحهم له ، قيل والمراد به المنافق بدليل قوله (ولايؤمن بالله واليوم الآخر) * قوله (فمثله كمثل صفوان) الصفوان الحجر الكبير الأملس وقال الأخفش صفوان جمع صفوانة وقال الكسائى صفوان واحد وجمعه صفى وأصفى ، وأنكره المبرد ، وقال النحاس يجوز أن يكون جمعا ويجوز أن يكون واحدا وهو أولى لقوله (عليه تراب فأصابه وابل) والوابل المطر الشديد :

مثل الله سبحانه هذا المنفق بصفوان عليه تراب يظنه الظان أرضا منبتة طيبة ، فاذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب وبقى صلدا ، أى أجرد نقيا من التراب الذى كان عليه ، فكذلك هذا المرائى فان نفقته لاتنفعه كما لاينفع المطر الواقع على الصفوان الذى عليه تراب (قوله (لايقدرون على شىء مما كسبوا) أى لاينتفعون بما فعلوه رياء ولايجدون له ثوابا ، والجملة مستأنفة كأنه قيل ماذا يكون حالهم حينئذ ؟ فقيل لايقدرون الخ ، والضميران للموصول ، أى كالذى باعتبار المعنى كما فى قوله تعالى ـ وخضتم كالذى خاضوا ـ أى الجنس أو الجمع أو الفريق قوله (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم) قيل ان قوله ابتغاء مرضات الله مفعول له وتثبيتا معطوف عليه ، وهو أيضا مفعول له ، أى الانفاق لأجل الابتغاء . والتثبيت كذا قال مكى فى المشكل قال ابن عطية وهو مردود لايصح فى تثبيتا أنه مفعول من أجله ، لأن الانفاق ليس من أجل التثبيت . قال وابتغاء نصب على المصدر فى موضع الحال ، وكان يتوجه فيه النصب على المفعول من أجله ، لكن النصب على المصدر هو الصواب من جهة عطف المصدر الذى هو تثبيتا عليه ، وابتغاء معناه طلب ، ومرضات مصدر رضى يرضى ، وتثبيتا معناه أنهم يتثبتون من أنفسهم ببذل أموالهم على الايمان وسائر العبادات رياضة لها

وتدريبا

وتدريبا وتمرينا ، أو يكون التثبيت بمعنى التصديق ، أى تصديقا للإسلام ناشئا من جهة أنفسهم . وقد اختلف السلف فى معنى هذا الحرف : فقال الحسن ومجاهد معناه أنهم يتثبتون أن يضعوا صدقاتهم ، وقيل معناه تصديقا ويقينا ، روى ذلك عن ابن عباس ، وقيل معناه احتسابا من أنفسهم . قاله قتادة ، وقيل معناه ان أنفسهم لها بصائر فهى تثبتهم على الانفاق فى طاعة الله تثبيتا ، قاله الشعبى والسدّى وابن زيد وأبو صالح وهذا أرجح مما قبله ، يقال ثبتّ فلانا فى هذا الأمر أثبته تثبيتا : أى صححت عزمه * قوله (كمثل جنة بربوة أصابها وابل) الجنة : البستان ، وهى أرض تنبت فيها الأشجار حتى تغطيها ، مأخوذة من لفظ الجن والجنين لاستتارها * والربوة : المكان المرتفع ارتفاعا يسيرا ، وهى مثلثة الراء ، وبها قرئ ، وإنما خصّ الربوة لان نباتها يكون أحسن من غيره ، مع كونه لا يصطلمه البرد فى الغالب للطافة هوائه بهبوب الرياح الملطفة له . قال الطبرى وهى رياض الحزن التى تستكثر العرب من ذكرها ، واعترضه ابن عطية فقال ان رياض الحزن منسوبة إلى نجد ، لأنها خير من رياض تهامة ، ونبات نجد أعطر ، ونسيمه أبرد وأرقّ ، ونجد يقال لها حزن ، وليست هذه المذكورة هنا من ذاك ، ولفظ الربوة مأخوذ من ربا يربو إذا زاد . وقال الخليل الربوة : أرض مرتفعة طيبة * والوابل : المطر الشديد كما تقدّم : يقال وبلت السماء تبل ، والأرض موبولة . قال الأخفش ، ومنه قوله تعالى – أخذا وبيلا – أى شديدا ، وضرب وبيل ، وعذاب وبيل (فآتت أكلها) بضم الهمزة : الثمر الذى يؤكل كقوله تعالى – تؤتى أكلها كل حين – وإضافته إلى الجنة إضافة اختصاص كسرج الفرس ، وباب الدار . قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو أكلها بضم الهمزة وسكون الكاف تخفيفا . وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى بتحريك الكاف بالضم * وقوله (ضعفين) أى مثلى ما كانت تثمر بسبب الوابل * فالمراد بالضعف المثل ، وقيل أربعة أمثال ونصبه على الحال من أكلها ، أى مضاعفا * قوله (فان لم يصبها وابل فطلّ) أى فان الطلّ يكفيها : وهو المطر الضعيف المستدق القطر . قال المبرد وغيره ، وتقديره فطلّ يكفيها . وقال الزجاج تقديره فالذى يصيبها طلّ * والمراد أن الطل ينوب مناب الوابل فى إخراج الثمرة ضعفين . وقال قوم الطل : الندى . وفى الصحاح الطل : أضعف المطر ، والجمع أطلال . قال الماوردى : وزرع الطل أضعف من زرع المطر * والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله لا تضيع بحال وان كانت متفاوتة ، ويجوز أن يعتبر التمثيل ما بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة ، وبين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابها من المطر الكثير والقليل ، فكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكلها ، فكذلك نفقتهم جلت أو قلت بعد أن يطلب بها وجه الله زاكية زائدة فى أجورهم * وقوله (والله بما تعملون بصير) . قرأ الزهرى بالياء التحتية . وقرأ الجمهور بالفوقية وفى هذا ترغيب لهم فى الاخلاص مع ترهيب من الرياء ونحوه ، فهو وعد ووعيد .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم فى قوله (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل) عن الربيع قال كان من بايع النبى ﷺ على الهجرة ورابط معه بالمدينة ولم يذهب وجها إلا باذنه كانت له الحسنة بسبعمائة ضعف ، ومن بايع على الاسلام كانت الحسنة له عشر أمثالها » . وأخرج مسلم وأحمد والنسائى والحاكم والبيهقى عن ابن مسعود أن رجلا تصدّق بناقة مخطومة فى سبيل الله فقال رسول الله ﷺ « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة » . وأخرج أحمد والترمذى وحسنه والنسائى وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن خريم بن فاتك قال قال رسول الله ﷺ « من أنفق نفقة فى سبيل الله كتب له سبعمائة ضعف » . وأخرجه البخارى فى تاريخه من حديث أنس . وأخرجه أحمد من حديث أبى عبيدة وزاد « ومن أنفق على نفسه وأهله أو عاد مريضا فالحسنة بعشر أمثالها » وأخرج نحوه النسائى فى الصوم . وأخرج ابن ماجه وابن أبى حاتم من حديث عمران بن حصين وعلىّ وأبى الدرداء وأبى هريرة وأبى أمامة وعبد الله

ابن عمرو وجابر كلهم يحدّث عن رسول الله ﷺ قال « من أرسل بنفقة فى سبيل الله وأقام فى بيته فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة درهم ، ومن غزا بنفسه فى سبيل وأنفق فى وجهه ذلك فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة ألف درهم ، ثم تلا هذه الآية والله يضاعف لمن يشاء » . وأخرجه أيضا ابن ماجه من حديث الحسن بن علىّ . وأخرج أحمد من حديث أبى هريرة : قال قال رسول الله ﷺ « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف الى ماشاء الله يقول الله إلا الصوم فانه لى وأنا أجزى به » وأخرجه أيضا مسلم . وأخرج الطبرانى من حديث معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال « طوبى لمن أكثر فى الجهاد فى سبيل الله من ذكر الله فان له بكل كلمة سبعين ألف حسنة كل حسنة منها عشرة أضعاف » وقد تقدّم ذكر طرف من أحاديث التضعيف للحسنات عند قوله تعالى ـ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ـ . وقد وردت الأحاديث الصحيحة فى أجر من جهز غازيا . وأخرج أبو داود والحاكم وصححه عن سهل بن معاذ عن أبيه : قال قال رسول الله ﷺ « ان الصلاة والصوم والذكر تضاعف على النفقة فى سبيل الله سبعمائة ضعف » . وأخرج أحمد والطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى سننه عن بريدة : قال قال رسول الله ﷺ « النفقة فى الحج كالنفقة فى سبيل الله بسبعمائة ضعف » . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال فى تفسير قوله تعالى (ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى) ان أقواما يبعثون الرجل منهم فى سبيل الله أو ينفق على الرجل أو يعطيه النفقة ثم يمنّ عليه و يؤذيه : يعنى أن هذا سبب النزول . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه . وقد وردت الأحاديث الصحيحة فى النهى عن المنّ والأذى وفى فضل الانفاق فى سبيل الله ، وعلى الأقارب ، وفى وجوه الخير ، ولا حاجة إلى التطويل بذكرها فهى معروفة فى مواطنها . وأخرج ابن أبى حاتم عن عمرو بن دينار قال بلغنا أن النبى ﷺ قال « مامن صدقة أحبّ إلى الله من قول الحق ألم تسمع قول الله تعالى : قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك فى قوله (قول معروف) قال : ردّ جميل ، تقول يرحمك الله ، يرزقك الله ولا تنهره ولا تغلظ له القول . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال « لا يدخل الجنة منان وذلك فى كتاب الله لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (صفوان) يقول الحجر (فتركه صلدا) يقول ليس عليه شىء . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عكرمة قال الوابل : المطر . وأخرجا عن قتادة قال الوابل : المطر الشديد ، قال وهذا مثل ضربه الله لأعمال الكفار يوم القيامة (لا يقدرون على شىء مما كسبوا) يومئذ كما ترك هذا المطر هذا الحجر ليس عليه شىء أنقى مما كان . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (فتركه صلدا) قال يابسا جاسيا لا ينبت شيئا . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى قوله (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله) قال هذا مثل ضربه الله لعمل المؤمن . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الشعبى فى قوله (وتثبيتا من أنفسهم) قال تصديقا ويقينا . وأخرج ابن جرير عن أبى صالح نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير قال يتثبتون أين يضعون أموالهم . وأخرجا عن الحسن قال كان الرجل إذا همّ بصدقة تثبت فان كان لله أمضاه وان خالطه شىء من الرياء أمسك . وأخرج ابن المنذر عن قتادة فى قوله (تثبيتا) قال النية . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال الربوة : النشز من الأرض . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال الربوة الأرض المستوية المرتفعة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : هى المكان المرتفع الذى لا تجرى فيه الأنهار . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله تعالى فطلّ قال الندى . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك قال الطل : الرذاذ من المطر يعنى اللين منه . وأخرجا عن قتادة قال هذا مثل ضربه الله لعمل المؤمن ، يقول

ليس لخيره خلف كما ليس لخير هذه الجنة خلف على أى حال كان ، ان أصابها وابل وان أصابها طل .

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ *

الودّ : الحب للشىء مع تمنيه ، والهمزة الداخلة على الفعل لانكار الوقوع ، والجنة تطلق على الشجر الملتفّ وعلى الأرض التى فيها الشجر * والأوّل أولى هنا لقوله (تجرى من تحتها الأنهار) بارجاع الضمير الى الشجر من دون حاجة الى مضاف محذوف ، وأما على الوجه الثانى فلا بدّ من تقديره ، أى من تحت أشجارها وهكذا قوله (فاحترقت) لايحتاج إلى تقدير مضاف على الوجه الأوّل ، وأما على الثانى فيحتاج إلى تقديره أى فاحترقت أشجارها ، وخصّ النخيل والأعناب بالذكر مع قوله (له فيها من كل الثمرات) لكونهما أكرم الشجر ، وهذه الجمل صفات للجنة ، والواو فى قوله (وأصابه الكبر) قيل عاطفة على قوله (تكون) ماض على مستقبل ، وقيل على قوله (يودّ) وقيل انه محمول على المعنى إذ تكون فى معنى كانت ، وقيل انها واو الحال أى وقد أصابه الكبر ، وهذا أرجح * وكبر السن هو مظنة شدّة الحاجة لما يلحق صاحبه من العجز عن تعاطى الأسباب * وقوله (وله ذرية ضعفاء) حال من الضمير فى أصابه ، أى والحال أن له ذرية ضعفاء فان من جمع بين كبر السنّ وضعف الذرية كان تحسره على تلك الجنة فى غاية الشدّة * والاعصار : الريح الشديدة التى تهبّ من الأرض إلى السماء كالعمود ، وهى التى يقال لها الزوبعة . قاله الزجاج . قال الجوهرى الزوبعة رئيس من رؤساء الجنّ ، ومنه سمى الاعصار زوبعة ، ويقال أمّ زوبعة : وهى ريح يثير الغبار ويرتفع إلى السماء كأنه عمود ، وقيل هى ريح تثير سحابا ذات رعد وبرق * وقوله (فاحترقت) عطف على قوله (فأصابها) وهذه الآية تمثيل من يعمل خيرا ويضمّ اليه مايحبطه فيجده يوم القيامة عند شدّة حاجته إليه لايسمن ولايغنى من جوع بحال من له هذه الجنة الموصوفة وهو متصف بتلك الصفة .

وقد أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : قال عمر يوما لأصحاب النبى ﷺ فيم ترون هذه الآية نزلت (أيودّ أحدكم أن تكون له جنة) قالوا الله أعلم ، قال قولوا نعلم أولا نعلم . فقال ابن عباس فى نفسى منها شىء ياأمير المؤمنين . فقال عمر يا ابن أخى قل ولا تحقر نفسك . قال ابن عباس ضربت مثلا لعمل . قال عمر أىّ عمل . قال ابن عباس لرجل غنى يعمل لطاعة الله ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل فى المعاصى حتى أغرق عمله . وأخرج ابن جرير عن عمر قال هذا مثل ضرب لانسان يعمل عملا صالحا حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج مايكون إليه عمل عمل السوء . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله (إعصار فيه نار) قال ريح فيها سموم شديدة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ *

وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * إِن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَنُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ *

قوله (من طيبات ما كسبتم) أى من جيد ما كسبتم ومختاره ، كذا قال الجمهور . وقال جماعة ان معنى الطيبات هنا الحلال ، ولامانع من اعتبار الأمرين جميعا ، لأن جيد الكسب ومختاره انما يطلق على الحلال عند أهل الشرع ، وان أطلقه أهل اللغة على ماهو جيد فى نفسه حلالا كان أو حراما ، فالحقيقة الشرعية مقدّمة على اللغوية * وقوله (ومما أخرجنا لكم من الأرض) أى ومن طيبات ماأخرجنا لكم من الأرض ، وحذف لدلالة ماقبله عليه ، وهى النباتات والمعادن والركاز * قوله (ولا تيمموا الخبيث) أى لاتقصدوا المال الردىء ، وقرأه الجمهور بفتح حرف المضارعة وتخفيف الياء ، وقرأ ابن كثير بتشديدها . وقرأ ابن مسعود ولاتأمموا وهى لغة . وقرأ أبومسلم بن خباب بضم الفوقية وكسر الميم * وحكى أبو عمرو أن ابن مسعود قرأتئمموا بهمزة بعد المضمومة * وفى الآية الأمر بانفاق الطيب والنهى عن انفاق الخبيث . وقد ذهب جماعة من السلف الى أن الآية فى الصدقة المفروضة ، وذهب آخرون الى أنها تعمّ صدقة الفرض والتطوّع ، وهو الظاهر ، وسيأتى من الأدلة مايؤيد هذا ، وتقديم الظرف فى قوله (منه تنفقون) يفيد التخصيص أى لاتخصوا الخبيث بالانفاق ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أى لاتقصدوا المال الخبيث مخصصين الانفاق به قاصرين له عليه * قوله (ولستم بآخذيه) أى والحال أنكم لاتأخذونه فى معاملاتكم فى وقت من الأوقات هكذا بين معناه الجمهور ، وقيل معناه ولستم بآخذيه لو وجدتموه فى السوق يباع * وقوله (الا أن تغمضوا فيه) هو من أغمض الرجل فى أمر كذا اذا تساهل ورضى ببعض حقه وتجاوز وغض بصره عنه ، ومنه قول الشاعر :

الى كم وكم أشياء منك تريبنى * أغمض عنها لست عنها بذى عمى

وقرأ الزهرى بفتح التاء وكسر الميم مخففا . وروى عنه أنه قرأ بضم التاء وفتح الغين وكسر الميم مشدّدة وكذلك قرأ قتادة ، والمعنى على القراءة الأولى من هاتين القراءتين الا أن تهضموا سومها من البائع منكم ، وعلى الثانية الا أن تأخذوا بنقصان . قال ابن عطية وقراءة الجمهور تخرّج على التجاوز أو على تغميض العين ، لأن أغمض بمنزلة غمض ، وعلى أنها بمعنى حتى ، أى حتى تأتوا غامضا من التأويل ، والنظر فى أخذ ذلك * قوله (الشيطان يعدكم الفقر) قد تقدّم معنى الشيطان واشتقاقه * و يعدكم معناه يخوّفكم الفقر ، أى بالفقر لئلا تنفقوا ، فهذه الآية متصلة بما قبلها . وقرئ الفقر بضم الفاء وهى لغة . قال الجوهرى : والفقر لغة فى الفقر ، مثل الضعف ، والضعف * والفحشاء : الخصلة الفحشاء ، وهى المعاصى والانفاق فيها والبخل عن الانفاق فى الطاعات . قال فى الكشاف : والفاحش عند العرب البخيل انتهى . ومنه قول طرفة بن العبد :

أرى الموت يعتام الكرام و يصطفى * عقيلة مال الفاحش المتشدّد

ولكن العرب وان أطلقته على البخيل فذلك لا ينافى اطلاقهم له على غيره من المعاصى ، وقد وقع كثيرا فى كلامهم * وقوله (والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) الوعد فى كلام العرب إذا أطلق فهو فى الخير ، واذا قيد فقد يقيد تارة بالخير وتارة بالشر . ومنه قوله تعالى ـ النار وعدها الله الذين كفروا ـ ومنه أيضا مافى هذه الآية من تقييد وعد الشيطان بالفقر ، وتقييد وعد الله سبحانه بالمغفرة ، والفضل * والمغفرة : الستر على عباده فى الدنيا والآخرة لذنوبهم وكفاراتها ، والفضل أن يخلف عليهم أفضل مما أنفقوا

فيوسع لهم فى أرزاقهم وينعم عليهم فى الآخرة بما هو أفضل وأكثر وأجلّ وأجمل * قوله (يؤتى الحكمة) هى العلم ، وقيل الفهم ، وقيل الاصابة فى القول ، ولامانع من الحمل على الجميع شمولا أو بدلا ، وقيل انها النبوّة وقيل العقل ، وقيل الخشية ، وقيل الورع ، وأصل الحكمة مايمنع من السفه ، وهو كل قبيح * والمعنى أن من أعطاه الله الحكمة فقد أعطاه خيرا كثيرا ، أى عظيما قدره جليلا خطره . وقرأ الزهرى و يعقوب ومن يؤتى الحكمة على البناء للفاعل ، وقرأه الجمهور على البناء للمفعول * والألباب : العقول ، واحدها لبّ ، وقدتقدّم الكلام فيه * قوله (وما أنفقتم من نفقة) ماشرطية و يجوز أن تكون موصولة ، والعائد محذوف أى الذى أنفقتموه ، وهذا بيان لحكم عام يشمل كل صدقة مقبولة وغير مقبولة وكل نذر مقبول أوغير مقبول * وقوله (فان الله يعلمه) فيه معنى الوعد لمن أنفق ونذر على الوجه المقبول ، والوعيد لمن جاء بعكس ذلك ، ووحد الضمير مع كون مرجعه شيئين ، هما النفقة والنذر ، لأن التقدير وما أنفقتم من نفقة فان الله يعلمها ، أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه ، ثم حذف أحدهما استغناء بالآخر ، قاله النحاس ، وقيل ان ما كان العطف فيه بكلمة أوكما فى قولك زيد أو عمرو فانه يقال أكرمته ولايقال أكرمتهما ، والاولى أن يقال ان العطف بأو يجوز فيه الأمران توحيد الضمير كما فى هذه الآية ، وفى قوله تعالى ــ واذارأوا تجارة أولهوا انفضوا اليها ــ * وقوله ــ ومن يكسب خطيئة أوإثما ثم يرم به بريئا ــ ، وتثنيته كما فى قوله تعالى (ان يكن غنيا أوفقيرا فالله أولى بهما) ومن الأوّل فى العطف بالواو قول امرئ القيس :

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها * لما نسجته من جنوب وشمأل

ومنه قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما * عندك راض والرأى مختلف

ومنه ــ والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها ــ وقيل انه اذاوحد الضمير بعد ذكر شيئين أوأشياء فهو بتأويل المذكور ، أى فان الله يعلم المذكور ، وبه جزم ابن عطية ورجحه القرطبى وذكر معناه كثير من النحاة فى مؤلفاتهم * قوله (وما للظالمين من أنصار) أى ماللظالمين أنفسهم بما وقعوا فيه من الاثم لمخالفة ماأمر الله به من الانفاق فى وجوه الخير من أنصار ينصرونهم يمنعونهم من عقاب الله بما ظلموا به أنفسهم والأولى الحمل على العموم من غير تخصيص لما يفيده السياق ، أى ما للظالمين بأىّ مظلمة كانت من أنصار * قوله (ان تبدوا الصدقات فنعماهى) قرئ بفتح النون وكسر العين و بكسرهما و بكسر النون وسكون العين و بكسر النون واخفاء حركة العين . وقد حكى النحويون فى نعم أربع لغات ، وهى هذه التى قرئ بها وفى هذا نوع تفصيل لما أجمل فى الشرطية المتقدمة ، أى ان تظهروا الصدقات فنعم شيئا اظهارها ، وان تخفوها وتصيبوا بها مصارفها من الفقراء فالاخفاء خير لكم . وقد ذهب جمهور المفسرين الى أن هذه الآية فى صدقة التطوّع لافى صدقة الفرض فلا فضيلة للاخفاء فيها ، بل قد قيل ان الاظهار فيها أفضل ، وقالت طائفة ان الاخفاء أفضل فى الفرض والتطوّع * قوله (ويكفر عنكم من سيآتكم) قرأ أبو عمرو وابن كثير وعاصم فى رواية أبى بكر وقتادة وابن اسحق نكفر بالنون والرفع وقرأ ابن عامر وعاصم فى رواية حفص بالياء والرفع . وقرأ الأعمش ونافع وحمزة والكسائى بالنون والجزم . وقرأ ابن عباس بالتاء الفوقية وفتح الفاء والجزم وقرأ الحسين بن على الجعفى بالنون ونصب الراء ، فمن قرأ بالرفع فهو معطوف على محل الجملة الواقعة جوابا بعد الفاء أوعلى أنه خبر مبتدإ محذوف ، ومن قرأ بالجزم فهو معطوف على الفاء ومابعدها ، ومن قرأ بالنصب فعلى تقدير أن . قال سيبويه والرفع ههنا الوجه الجيد ، وأجاز الجزم بتأويل وان تخفوها يكن الاخفاء خيرا لكم ويكفر ، و بمثل قول سيبويه قال الخليل * ومن فى قوله (من سيآتكم) للتبعيض ، أى شيئا من سيآتكم .

وحكى الطبرى عن فرقة أنها زائدة ، وذلك على رأى الأخفش . قال ابن عطية وذلك منهم خطأ

وقد أخرج ابن جرير عن على بن أبى طالب فى قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم) قال من الذهب والفضة (ومما أخرجنا لكم من الأرض) يعنى من الحب والتمر وكل شىء عليه زكاة . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن مجاهد فى قوله (أنفقوا من طيبات ما كسبتم) قال من التجارة (ومما أخرجنا لكم من الأرض) قال من الثمار . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والترمذى وصححه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن البراء بن عازب فى قوله (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) قال نزلت فينا معشر الأنصار كنا أصحاب نخل وكان الرجل يأتى من نخله على قدر كثرته وقلته ، وكان الرجل يأتى بالقنو والقنوين فيعلقه فى المسجد ، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام : فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه فيسقط البسر والتمر فيأكل ، وكان ناس ممن لا يرغب فى الخير : يأتى الرجل بالقنو فيه الشيص والحشف وبالقنو قد انكسر فيعلقه . فأنزل الله (ياأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) قال لو أن أحدكم أهدى اليه مثل ما أعطى لم يأخذه الا على اغماض وحياء ، قال فكنا بعد ذلك يأتى أحدنا بصالح ماعنده . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : ذكر لنا أن الرجل كان يكون له الحائطان فينظر الى أردئهما تمرا فيتصدق به ويخلط به الحشف فنزلت الآية ، فعاب الله ذلك عليهم ونهاهم عنه . وأخرج عبد بن حميد عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : لما أمر رسول الله ﷺ بصدقة الفطر جاء رجل بتمر ردىء ، فأمر النبى ﷺ الذى يخرص النخل أن لا يجيز . فأنزل الله تعالى الآية هذه . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والدارقطنى والحاكم والبيهقى فى سننه عن سهل ابن حنيف قال : أمر رسول الله ﷺ بالصدقة ، فجاء رجل بكبائس من هذا السخل : يعنى الشيص فوضعه ، فخرج رسول الله ﷺ فقال من جاء بهذا ؟ وكان كل من جاء بشىء نسب اليه . فنزلت (ولا تيمموا الخبيث) الآية . ونهى رسول الله ﷺ عن لونين من التمر أن يوجدا فى الصدقة ، الجعرور ولون الحبيق . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يشترون الطعام الرخيص ويتصدّقون . فأنزل الله (ياأيها آمنوا) الآية . وأخرج ابن جرير عن عبيدة السلمانى ، قال سألت على بن أبى طالب عن قول الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا أنفقوا) الآية ، فقال نزلت هذه الآية فى الزكاة المفروضة : كان الرجل يعمد الى التمر فيصرمه فيعزل الجيد ناحية ، فاذا جاء صاحب الصدقة أعطاه من الردىء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (يؤتى الحكمة من يشاء) قال المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه : محكمه ومتشابهه ، ومقدّمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله . وأخرج ابن مردويه عنه : أنها القرآن يعنى تفسيره . وأخرج ابن المنذر عنه أنها النبوّة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : انها الفقه فى القرآن . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى الدرداء . يؤتى الحكمة ، قال قراءة القرآن والفكرة فيه . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية قل : هى الكتاب والفهم به . وأخرج أيضا عن النخعى نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال هى الكتاب يؤتى اصابته من يشاء . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : هى الاصابة فى القول . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية قل : هى الخشية لله . وأخرج أيضا عن مطر الوراق مثله . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (فان الله يعلمه)

قال يحصيه . وقد ثبت عن النبي ﷺ فى نذر الطاعة والمعصية فى الصحيح وغيره ماهو معروف كقوله ﷺ لا نذر فى معصية الله . وقوله : من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه . وقوله : النذر ماابتغى به وجه الله ، وثبت عنه فى كفارة النذر ماهومعروف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (إن تبدوا الصدقات فنعماهى) الآية . قال فجعل السر فى التطوّع يفضل علانيتها سبعين ضعفا ، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا . وكذلك جميع الفرائض والنوافل فى الأشياء كلها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (إن تبدوا الصدقات) الآية . قال كان هذا يعمل قبل أن تنزل براءة ، فلما نزلت براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها انتهت الصدقات اليها . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (إن تبدوا الصدقات) الآية . قال هذا منسوخ . وقوله ــ وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ــ قال منسوخ نسخ كل صدقة فى القرآن الآية التى فى سورة التوبة ــ انما الصدقات للفقراء ــ وقد ورد فى فضل صدقة السر أحاديث صحيحة مرفوعة .

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * لِلْفُقَرَاءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ *

قوله (ليس عليك هداهم) أى ليس بواجب عليك أن تجعلهم مهديين قابلين لما أمروا به ونهوا عنه (ولكن الله يهدى من يشاء) هداية توصله الى المطلوب ، وهذه الجملة معترضة وفيها الالتفات ، وسيأتى بيان السبب الذى نزلت لأجله ، والمراد بقوله (من خير) كل مايصدق عليه اسم الخير كائنا ما كان ، وهو متعلق بمحذوف ، أى أىّ شيء تنفقون كائنا من خير ، ثم بين أن النفقة المعتدّ بها المقبولة انما هى ما كان ابتغاء وجه الله سبحانه ، أى لابتغاء وجه الله * وقوله (يوف اليكم) أى أجره وثوابه على الوجه الذى تقدّم ذكره من التضعيف * قوله (للفقراء) متعلق بقوله (وما تنفقوا من خير) أو بمحذوف أى اجعلوا ذلك للفقراء أو خبر مبتدأ محذوف : أى إنفاقكم للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله بالغزو أوالجهاد ، وقيل منعوا عن التكسب لماهم فيه من الضعف (الذين لايستطيعون ضربا فى الأرض) للتكسب بالتجارة والزراعة ، ونحو ذلك بسبب ضعفهم : قيل هم فقراء الصفة ، وقيل كل من يتصف بالفقر وما ذكر معه ، ثم ذكر سبحانه من أحوال أولئك الفقراء ما يوجب الحنوّ عليهم والشفقة بهم ، وهو كونهم متعففين عن المسئلة واظهار المسكنة بحيث يظنهم الجاهل بهم أغنياء * والتعفف تفعل وهو بناء مبالغة من عف عن الشيء اذا أمسك عنه وتنزه عن طلبه ، وفى يحسبهم لغتان : فتح السين وكسرها . قال أبو على الفارسى والفتح أقيس ، لأن العين من الماضى مكسورة فبابها أن تأتى فى المضارع مفتوحة . فالقراءة بالكسر على هذا حسنة وان كانت شاذة * ومن فى قوله من التعفف لابتداء الغاية ، وقيل لبيان الجنس * قوله (تعرفهم بسيماهم) أى برثاثة ثيابهم وضعف أبدانهم وكل مايشعر بالفقر والحاجة . والخطاب اما لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح للمخاطبة ، والسيما مقصورة العلامة . وقد تمد * والالحاف : الالحاح فى المسئلة وهو مشتق من اللحاف سمى بذلك لاشتماله على وجوه الطلب فى المسئلة كاشتمال اللحاف على التغطية .

ومعنى قوله (لايسألون الناس إلحافا) أنهم لايسألونهم ألبتة ، لاسؤال إلحاح ، ولاسؤال غير الحاح . وبه قال الطبرى والزجاج ، وإليه ذهب جمهور المفسرين ، ووجهه أن التعفف صفة ثابتة لهم لا تفارقهم ، ومجرد السؤال ينافيها ، وقيل المراد أنهم إذاسألواسألوا بتلطف ولا يلحفون فى سؤالهم وهذا وإن كان هو الظاهر من توجه النفى إلى القيد دون المقيد ، لكن صفة التعفف تنافيه ، وأيضا كون الجاهل بهم يحسبهم أغنياء لايكون إلا مع عدم السؤال ألبتة * وقوله (بالليل والنهار) يفيد زيادة رغبتهم فى الانفاق وشدّة حرصهم عليه حتى انهم لايتركون ذلك ليلا ولا نهارا ويفعلونه سرّا وجهرا عند أن تنزل بهم حاجة المحتاجين ويظهر لديهم فاقة المفتاقين فى جميع الأزمنة على جميع الأحوال ، ودخول الفاء فى خبر الموصول أعنى قوله (فلهم أجرهم) للدلالة على سببية ماقبلها لما بعدها ، وقيل هى للعطف والخبر للموصول محذوف أى ومنهم الذين ينفقون .

وقد أخرج عبد بن حميد والنسائى والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه والضياء فى المختارة عن ابن عباس : قال كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فنزلت هذه الآية (ليس عليك هداهم) الى قوله (وأنتم لاتظلمون) فرخص لهم . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء عنه قال ان النبى ﷺ كان يأمرنا أن لا نتصدّق إلا على أهل الاسلام حتى نزلت هذه الآية فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن الحنفية نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال كان أناس من الأنصار لهم نسب وقرابة من قريظة والنضير وكان يتقون أن لا يتصدّقوا عليهم ويريدونهم أن يسلموا ، فنزلت (ليس عليك هداهم) الآية . وأخرج ابن المنذر عن عمرو الهلالى قال سئل النبى ﷺ أنتصدّق على فقراء أهل الكتاب ؟ فأنزل الله (ليس عليك هداهم) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء الخراسانى قال فى قوله (وماتنفقون إلا ابتغاء وجه الله) قال اذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله . وأخرج ابن المنذر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله) قال هم أصحاب الصفة . وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظى نحوه . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال هم مهاجرو قريش بالمدينة مع النبى ﷺ أمروا بالصدقة عليهم . وأخرج ابن جرير عن الربيع فى قوله (الذين أحصروا فى سبيل الله) قال حصروا أنفسهم فى سبيل الله للغزو فلا يستطيعون تجارة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير قال هم قوم أصابتهم الجراحات فى سبيل الله فصاروا زمنى ، فجعل لهم فى أموال المسلمين حقا . وأخرج ابن أبى حاتم عن رجاء بن حيوة فى قوله (لايستطيعون ضربا فى الأرض) قال لايستطيعون تجارة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله (يحسبهم الجاهل أغنياء) قال دلّ الله المؤمنين عليهم وجعل نفقاتهم لهم ، وأمرهم أن يضعوا نفقاتهم فيهم ورضى عنهم . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (تعرفهم بسيماهم) قال التخشع . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع أن معناه تعرف فى وجوههم الجهد من الحاجة . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد (تعرفهم بسيماهم) قال رثاثة ثيابهم ، وثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة : قال قال رسول الله ﷺ « ليس المسكين الذى تردّه التمرة والتمرتان ، واللقمة واللقمتان ، إنما المسكين الذى يتعفف ، واقرءو ان شئتم لايسألون الناس إلحافا » . وقد ورد فى تحريم المسئلة أحاديث كثيرة الا لذى سلطان أو فى أمر لايجد منه بدّا . وأخرج ابن سعد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عدى والطبرانى وأبو الشيخ عن يزيد بن عبد الله بن غريب المليكى عن أبيه عن جدّه عن النبى

ﷺ قال « أنزلت هـذه الآية (الذين ينفقون أموالهم بالليـل والنهار) فى أصحاب الخيل » . وأخرج ابن المنـذر وابن أبى حاتم وابن عساكر عن أبى أمامة الباهلى نحوه وقال فيمن لاير بطها خيلاء ولارياء ولا سمعة . وأخرج ابن جرير عن أبى الدرداء نحوه . وأخرج عبد بن حميـد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن حنش الصنعانى أنه سمع ابن عباس يقول فى هـذه الآية هم الذين يعلفون الخيل فى سبيل الله . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميـد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن عساكر من طريق عبد الوهاب بن مجاهـد عن أبيه عن ابن عباس فى هـذه الآية : قال نزلت فى علىّ بن أبى طالب كانت له أربعة دراهم فأنفق بالليل درهما ، و بالنهار درهما ، ودرهما سرّا ، ودرهما علانية ، وعبدالوهاب ضعيف ولكن قد رواه ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى هـذ الآية قال هؤلاء قوم أنفقوا فى سبيل الله الذى افترض عليهم فى غـير سرف ولا إملاق ولا تبذير ولافساد . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن المسيب قال نزلت فى عبد الرحمن بن عوف وعثمان ابن عفان فى نفقتهم فى جيش العسرة .

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ *

الربا فى اللغة : الزيادة مطلقا ، يقال ربا الشىء يربو : إذا زاد ، وفى الشرع يطلق على شيئين ، على ربا الفضل ، وربا النسيئة حسبما هو مفصل فى كتب الفروع ، وغالب ما كانت تفعله الجاهلية أنه اذا حلّ أجل الدين قال من هو له لمن هو عليه أتقضى أم تربى ؟ فاذا لم يقض زاد مقدارا فى المال الذى عليه وأخره الأجل الى حين ، وهذا حرام بالاتفاق ، وقياس كتابة الربا بالياء للكسرة فى أوّله . وقد كتبوه فى المصحف بالواو . قال فى الكشاف على لغة من يفخم (١) كما كتبت الصلاة والزكاة ، وزيدت الألف بعدها تشبيها بواو الجمع انتهى * قلت وهذا مجرد اصطلاح لا يلزم المشى عليه ، فان هذه النقوش الكتابية أمور اصطلاحية لا يشاحح فى مثلها الافيما كان يدل به منها على الحرف الذى كان فى أصـل الكلمة ونحوه كما هو مقرر فى مباحث الخط من علم الصرف ، وعلى كل حال فرسم الكلمة وجعل نقشها الكتابى على مايقتضيه اللفظ بها هو الأولى فما كان فى النطق ألفا كالصلاة والزكاة ونحوهما كان الأولى فى رسمه أن يكون كذلك ، وكون أصل هذا الألف واوا أو ياء لايخفى على من يعرف علم الصرف ، وهذه النقوش ليست إلا لفهم اللفظ الذى يدل بها عليه كيف هو فى نطق من ينطق به لا لتفهيم أن أصل الكلمة كذا مما لايجرى به النطق ، فاعرف هـذا ولا تشتغل بما يعتبره كثير من أهل العلم فى هذه النقوش و يلزمون به أنفسهم و يعيبون من خالفه ، فان ذلك من المشاححة فى الأمور الاصطلاحية التى لاتلزم أحدا أن يتقيد بها ، فعليك بأن ترسم هـذه النقوش على مايلفظ به اللافظ عنـد قراءتها ، فانه الأمر المطلوب من وضعها والتواضع عليها ، وليس الأمر المطلوب منها أن تكون دالة على

(١) والمراد بالتفخيم هنا الفتح ، وضده الترقيق بالألف وهو الامالة وبهما قرىء انتهى من هامش الأصل

ماهو أصل الكلمة التى يتلفظ بها المتلفظ مما لايجرى فى لفظه الآن ، فلا تغتر بما يروى عن سيبويه ونحاة البصرة أن يكتب الربا بالواو ، لأنه يقول فى تثنيته ربوان . وقال الكوفيون يكتب بالياء ، وتثنيته ربيان . قال الزجاج مارأيت خطأ أقبح من هذا ولاأشنع : لايكفيهم الخطأ فى الخط حتى يخطئوا فى التثنية وهم يقرءون ـ وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو ـ وليس المراد بقوله هنا (الذين يأكلون الربا) اختصاص هذا الوعيد بمن يأكله ، بل هو عام لكل من يعامل بالربا فيأخذه ويعطيه ، وإنما خص الآكل لزيادة التشنيع على فاعله ، ولكونه هو الغرض الأهم ، فان آخذ الربا إنما أخذه للأكل * قوله (لايقومون) أى يوم القيامة ، كما يدل عليه قراءة ابن مسعود (لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس يوم القيامة) . أخرجه عبد بن حميد وابن أبى حاتم ، وبهذا فسره جمهور المفسرين قالوا انه يبعث كالمجنون عقوبة له وتمقيتا عند أهل المحشر ، وقيل ان المراد تشبيه من يحرص فى تجارته فيجمع ماله من الربا بقيام المجنون ، لان الحرص والطمع والرغبة فى الجمع قد استفزته حتى صار شبيها فى حركته بالمجنون ، كما يقال لمن يسرع فى مشيه ويضطرب فى حركاته : إنه قد جنّ ، ومنه قول الأعشى فى ناقته :

وتصبح من غب السرى وكأنها * ألمّ بها من طائف الجنّ أولق

فجعلها بسرعة مشيها ونشاطها كالمجنون * قوله (إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) أى الاقياما كقيام الذى يتخبطه ، والخبط : الضرب بغير استواء كخبط العشواء وهو المصروع * والمس : الجنون والأمس المجنون ، وكذلك الأولق وهو متعلق بقوله (يقومون) أى لايقومون من المس الذى بهم (إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان) أو متعلق بيقوم * وفى الآية دليل على فساد قول من قال ان الصرع لايكون من جهة الجنّ ، وزعم أنه من فعل الطبائع ، وقال ان الآية خارجة على ما كانت العرب تزعمه من أن الشيطان يصرع الانسان ، وليس بصحيح ، وان الشيطان لايسلك فى الانسان ولا يكون منه مس . وقد استعاذ النبى ﷺ من أن يتخبطه الشيطان ، كما أخرجه النسائى وغيره * قوله (ذلك) إشارة الى ماذكر من حالهم وعقوبتهم بسبب قولهم (إنما البيع مثل الربا) أى أنهم جعلوا البيع والربا شيئا واحدا ، وانما شبهوا البيع بالربا مبالغة بجعلهم الربا أصلا والبيع فرعا ، أى انما البيع بلا زيادة عند حلول الأجل كالبيع بزيادة عند حلوله ، فان العرب كانت لاتعرف ربا إلاذلك ، فردّ الله سبحانه عليهم بقوله (وأحلّ الله البيع وحرّم الربا) أى ان الله أحلّ البيع وحرّم نوعا من أنواعه ، وهو البيع المشتمل على الربا * والبيع مصدر باع يبيع ، أى دفع عوضا وأخذ معوّضا ، والجملة بيانية لامحل لها من الاعراب * قوله (فمن جاءه موعظة من ربه) أى من بلغته موعظة من الله من المواعظ التى تشتمل عليها الأوامر والنواهى ، ومنها ماوقع هنا من النهى عن الربا (فانتهى) أى فامتثل النهى الذى جاءه وانزجر عن المنهىّ عنه وهو معطوف ، أى قوله (فانتهى) على قوله (جاءه) * وقوله (من ربه) متعلق بقوله (جاءه) أو بمحذوف وقع صفة لموعظة أى كائنة من (من ربه فله ماسلف) أى ماتقدّم منه من الربا لايؤاخذ به لانه فعله قبل أن يبلغه تحريم الربا أو قبل أن تنزل آية تحريم الربا * وقوله (فأمره إلى الله) قيل الضمير عائد إلى الربا ، أى وأمر الربا إلى الله فى تحريمه على عباده واستمرار ذلك التحريم ، وقيل الضمير عائد إلى ماسلف ، أى أمره إلى الله فى العفو عنه واسقاط التبعة فيه ، وقيل الضمير يرجع إلى المربى ، أى أمر من عامل بالربا إلى الله فى تثبيته على الانتهاء أو الرجوع إلى المعصية (ومن عاد) إلى أكل الربا والمعاملة به (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) والاشارة إلى من عاد وجمع أصحاب باعتبار معنى من ، وقيل ان معنى من عاد هو أن يعود إلى القول بأنما البيع مثل الربا وأنه يكفر بذلك فيستحق الخلود ، وعلى التقدير الأوّل يكون الخلود مستعارا على معنى المبالغة ، كما تقول العرب ملك خالد أى طويل البقاء ، والمصير إلى هذا التأويل واجب للأحاديث المتواترة القاضية بخروج الموحدين من النار * قوله

(يمحق

(يمحق الله الربا) أى يذهب بركته فى الدنيا وان كان كثيرا فلا يبقى بيد صاحبه ، وقيل يمحق بركته فى الآخرة * قوله (ويربى الصدقات) أى يزيد فى المال الذى أخرجت صدقته ، وقيل يبارك فى ثواب الصدقة ويضاعفه ويزيد فى أجر المتصدّق ، ولامانع من حمل ذلك على الأمرين جميعا * قوله (والله لايحب كل كفار أثيم) أى لايرضى ، لأن الحب مختص بالتوّابين ، وفيه تشديد وتغليظ عظيم على من أربى حيث حكم عليه بالكفر ، ووصفه بأثيم للمبالغة ، وقيل لازالة الاشتراك ، اذ قد يقع على الزراع ، ويحتمل أن المراد بقوله (كل كفار) من صدرت منه خصلة توجب الكفر ، ووجه التصاقه بالمقام أن الذين قالوا انما البيع مثل الربا كفار . وقد تقدم تفسير قوله (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الى آخر الآية .

وقد أخرج أبو يعلى من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله (الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) قال يعرفون يوم القيامة بذلك لايستطيعون القيام الا كما يقوم المتخبط المنخنق (ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا) وكذبوا على الله (وأحلّ الله البيع وحرّم الربا) (ومن عاد) فأكل الربا (فأولئك أصحاب النارهم فيهاخالدون) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا يخنق . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من وجه آخر عنه أيضا فى قوله (لايقومون) قال ذلك حين يبعث من قبره . وأخرج الاصبهانى فى ترغيبه عن أنس قال قال رسول الله ﷺ « يأتى آكل الربا يوم القيامة مختبلا يجر شفتيه ثم قرأ لايقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » وقدوردت أحاديث كثيرة فى تعظيم ذنب الربا ، منها من حديث عبد الله بن مسعود عند الحاكم وصححه والبيهقى عن النبى ﷺ قال « الربا ثلاثة وسبعون بابا أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه وان أربا الربا عرض الرجل المسلم » ومن حديث أبى هريرة مرفوعا عند ابن ماجه والبيهقى بلفظ سبعون بابا ، وورد هذا المعنى مع اختلاف العدد عن عبد الله بن سلام وكعب وابن عباس وأنس . وأخرج ابن جرير عن الربيع فى الآية قال يبعثون يوم القيامة وبهم خبل من الشيطان وهى فى بعض القراآت : لايقومون يوم القيامة . يعنى قراءة ابن مسعود المتقدم ذكرها . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة قالت : لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة فى الربا ، خرج رسول الله ﷺ الى المسجد فقرأهنّ على الناس ثم حرّم التجارة فى الخمر . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن عمر بن الخطاب أنه خطب فقال : إن من آخر القرآن نزولا آية الربا وانه قد مات رسول الله ﷺ ولم يبينه لنا فدعوا مايريبكم إلى مالايريبكم . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس أنه قال : آخر آية أنزلها على رسوله آية الربا . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن عمر مثله . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى الربا الذى نهى الله عنه قال : كان أهل الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين ، فيقول لك كذا وكذا وتؤخر عنى فيؤخر عنه . وأخرج أيضا عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه أيضا ، وزاد فى قوله (فمن جاءه موعظة من ربه) قال يعنى البيان الذى فى القرآن فى تحريم الربا فانتهى عنه (فله ماسلف) يعنى فله ما كان أكل من الربا قبل التحريم (وأمره الى الله) يعنى بعد التحريم وبعد تركه ان شاء عصمه منه وان شاء لم يفعل (ومن عاد) يعنى فى الربا بعد التحريم فاستحله بقولهم (انما البيع مثل الربا ـ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) يعنى لا يموتون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس فى قوله (يمحق الله الربا) قال ينقص الربا (ويربى الصدقات) قال يزيد فيها وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة مرفوعا من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولايقبل الله إلاطيبا فان الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوّه حتى تكون مثل الجبل . وأخرج البزار وابن جرير وابن حبان والطبرانى من حديث عائشة نحوه . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عمر مرفوعا

نحوه أيضا . وفى حديث عائشة وابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ بعد أن ساق الحديث (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) . وأخرج الطبرانى عن أبى برزة الأسلمى قال : قال رسول الله ﷺ ان العبد ليتصدّق بالكسرة تربو عند الله حتى تكون مثل أحد . وهذه الأحاديث تبين معنى الآية .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ *

قوله (اتقوا الله) أى قوا أنفسكم من عقابه واتركوا البقايا التى بقيت لكم من الربا ، وظاهره أنه أبطل من الربا مالم يكن مقبوضا * قوله (ان كنتم مؤمنين) قيل هو شرط مجازى على جهة المبالغة ، وقيل ان إن فى هذه الآية بمعنى اذ . قال ابن عطية وهو مردود لايعرف فى اللغة ، والظاهر أن المعنى ان كنتم مؤمنين على الحقيقة ، فان ذلك يستلزم امتثال أوامر الله ونواهيه * قوله (فان لم تفعلوا) يعنى ماأمرتم به من الاتقاء وترك مابقى من الربا (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) أى فاعلموا بها ، من أذن بالشىء اذا علم به ، قيل هو من الاذن بالشىء وهو الاستماع لأنه من طرق العلم . وقرأ أبو بكر عن عاصم وحمزة فآذنوا على معنى فأعلموا غيركم أنكم على حربهم ، وقد دلت هذه على أن أكل الربا والعمل به من الكبائر ، ولاخلاف فى ذلك ، وتنكير الحرب للتعظيم ، وزادها تعظيما نسبتها الى اسم الله الأعظم والى رسوله الذى هو أشرف خليقته * قوله (فان تبتم) أى من الربا (فلكم رءوس أموالكم) تأخذونها (لاتظلمون) غرماءكم بأخذ الزيادة (ولاتظلمون) أنتم من قبلهم بالمطل والنقص ، والجملة حالية أواستئنافية ، وفى هذا دليل على أن أموالهم مع عدم التوبة حلال لمن أخذها من الأئمة ونحوهم ممن ينوب عنهم * قوله (وان كان ذو عسرة) لما حكم سبحانه لأهل الربا برءوس أموالهم عند الواجدين للمال حكم فى ذوى العسرة بالنظرة الى يسار ، والعسرة ضيق الحال من جهة عدم المال ، ومنه جيش العسرة * والنظرة : التأخير ، والميسرة مصدر بمعنى اليسر ، وارتفع ذو بكان التامة التى بمعنى وجد ، وهذا قول سيبويه وأبى على الفارسى وغيرهما * وأنشد سيبويه :

فدى لبنى ذهل بن شيبان ناقتى * اذا كان يوم ذو كواكب أشهب

وفى مصحف أبىّ وان كان ذاعسرة على معنى ، وان كان المطلوب ذاعسرة . وقرأ الأعمش وان كان معسرا . قال أبو عمرو الدانى عن أحمد بن موسى وكذلك فى مصحف أبىّ بن كعب ، وروى المعتمر عن حجاج الوراق قال فى مصحف عثمان (وان كان ذا عسرة) قال النحاس ومكى والنقاش وعلى هذا يختص لفظ الآية بأهل الربا ، وعلى من قرأ ذو فهى عامة فى جميع من عليه دين ، واليه ذهب الجمهور . وقرأ الجماعة فنظرة بكسر الظاء . وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن بسكونها ، وهى لغة تميم . وقرأ نافع وحده ميسرة بضم السين والجمهور بفتحها ، وهى اليسار * قوله (وأن تصدقوا) بحذف إحدى التاءين ، وقرئ بتشديد الصاد ، أى وأن تصدقوا على معسرى غرمائكم بالابراء خير لكم ، وفيه الترغيب لهم بأن يتصدقوا برءوس أموالهم على من أعسر وجعل ذلك خيرا من انظاره ، قاله السدى وابن زيد والضحاك . قال الطبرى . وقال آخرون معنى الآية وأن تصدقوا على الغنى والفقير خير لكم ، والصحيح الأوّل ، وليس فى الآية مدخل للغنى * قوله (ان كنتم تعلمون) جوابه محذوف ، أى ان كنتم تعلمون أنه خير لكم عملتم به * قوله (واتقوا يوما) هو يوم

القيامة وتنكيره للتهويل وهومنصوب على أنه مفعول به لاظرف * وقوله (ترجعون فيه الى الله) وصفله وقرأ أبوعمرو بفتح التاء وكسر الجيم ، والباقون بضم التاء وفتح الجيم ، وذهب قوم الى أن هذا اليوم المذكور هو يوم الموت . وذهب الجمهور الى أنه يوم القيامة كما تقدم * وقوله (الى الله) فيه مضاف محذوف تقديره الى حكم الله (ثم توفى كل نفس) من النفوس المكلفة (ما كسبت) أى جزاء ماعملت من خير أوشر ، وجملة (وهم لايظلمون) حالية ، وجمع الضمير لأنه أنسب بحال الجزاء كما أن الافراد أنسب بحال الكسب ، وهذه الآية فيها الموعظة الحسنة لجميع الناس .

وقدأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا) قال نزلت فى العباس بن عبد المطلب ورجل من بنى المغيرة كانا شريكين فى الجاهلية يسلفان الربا الى ناس من ثقيف ، فجاء الاسلام ولهما أموال عظيمة فى الربا فأنزل الله هذه الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج ، قال كانت ثقيف قد صالحت النبى ﷺ على أن مالهم من ربا على الناس وما كان للناس عليهم من ربا فهو موضوع ، فلما كان الفتح استعمل عتاب بن أسيد على مكة ، وكانت بنوعمرو بن عوف يأخذون الربا من بنى المغيرة ، وكان بنوالمغيرة يربون لهم فى الجاهلية ، فجاء الاسلام ولهم عليهم مال كثير فأتاهم بنوعمرو يطلبون رباهم فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم فى الاسلام ، ورفعوا ذلك الى عتاب بن أسيد ، فكتب عتاب الى رسول الله ﷺ فنزلت (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا) فكتب بها رسول الله ﷺ الى عتاب ، وقال ان رضوا والا فأذنهم بحرب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فأذنوا بحرب) قال من كان مقيما على الربا لاينزع منه فحق على امام المسلمين أن يستتيبه فان نزع والا ضرب عنقه . وأخرجوا أيضا عنه فى قوله (فأذنوا بحرب) قال استيقنوا بحرب . وأخرج أهل السنن وغيرهم عن عمرو بن الأحوص أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ فقال ألا إن كل ربا فى الجاهلية موضوع ، لكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون ، وأول ربا موضوع ربا العباس . وأخرج ابن منده عن ابن عباس ، قال نزلت هذه الآية فى ربيعة بن عمرو وأصحابه (وان تبتم فلكم رءوس أموالكم) . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وان كان ذوعسرة) قال نزلت فى الربا . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد عن شريح نحوه . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير عن الضحاك فى الآية ، قال وكذلك كل دين على مسلم . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه . وقدوردت أحاديث صحيحة فى الصحيحين وغيرهما فى الترغيب لمن له دين على معسر أن ينظره . وأخرج أبوعبيد وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال آخر آية نزلت من القرآن على النبى ﷺ (واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله) وأخرج ابن أبى شيبة عن السدى وعطية العوفى مثله . وأخرج ابن الانبارى عن أبى صالح وسعيد بن جبير مثله أيضا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس انها آخر آية نزلت وكان بين نزولها و بين موت النبى ﷺ إحدى وثمانون يوما . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير أنه عاش النبى ﷺ بعد نزولها تسع ليال ثم مات .

يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ

فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ *

هذا شروع فى بيان حال المداينة الواقعة بين الناس بعد بيان حال الربا ، أى اذا داين بعضكم بعضا وعامله بذلك ، وذكر الدين بعد ذكر مايغنى عنه من المداينة لقصد التأكيد مثل قوله ـ ولاطائر يطير بجناحيه ـ وقيل انه ذكر ليرجع اليه الضمير من قوله (فاكتبوه) ولوقال فاكتبوا الدين لم يكن فيه من الحسن مافى قوله (اذا تداينتم بدين) ، والدين عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقدا ، والآخر فى الذمة نسيئة ، فان العين عند العرب ما كان حاضرا ، والدين ما كان غائبا ، قال الشاعر :

وعدتنا بدرهمينا طلاء * وسواء معجلا غير دين

وقال الآخر

اذا ماأوقدوا نارا وحطبا * فذاك الموت نقدا غير دين

وقد بين الله سبحانه هذا المعنى بقوله (إلى أجل مسمى) وقد استدل به على أن الأجل المجهول لايجوز وخصوصا أجل السلم . وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ «من أسلف فى تمر فليسلف فى كيل معلوم الى أجل معلوم» وقد قال بذلك الجمهور ، واشترطوا توقيته بالأيام أو الأشهر أو السنين ، قالوا ولايجوز الى الحصاد أو الدياس أو رجوع القافلة أو نحوذلك وجوّزه مالك * قوله (فاكتبوه) أى الدين بأجله لأنه أدفع للنزاع وأقطع للخلاف * قوله (وليكتب بينكم كاتب) هو بيان لكيفية الكتابة المأمور بها ، وظاهر الأمر الوجوب ، وبه قال عطاء والشعبى وغيرهما فأوجبوا على الكاتب أن يكتب اذا طلب منه ذلك ، ولم يوجد كاتب سواه ، وقيل الأمر للندب * وقوله (بالعدل) متعلق بمحذوف صفة لكاتب أى كاتب كائن بالعدل أى يكتب بالسوية لايزيد ولاينقص ولايميل الى أحد الجانبين ، وهو أمر للمتداينين باختيار كاتب متصف بهذه الصفة لا يكون فى قلبه ولا قلمه هوادة لأحدهما على الآخر ، بل يتحرى الحق بينهم والمعدلة فيهم * قوله (ولايأب كاتب) النكرة فى سياق النفى مشعرة بالعموم ، أى لايمتنع أحد من الكتاب أن يكتب كتاب التداين كما علمه الله ، أى على الطريقة التى علمه الله من الكتابة ، أو كما علمه الله بقوله بالعدل * قوله (وليملل الذى عليه الحق) الاملال والاملاء لغتان : الأولى لغة أهل الحجاز وبنى أسد ، والثانية لغة بنى تميم ، فهذه الآية جاءت على اللغة الأولى ، وجاء على اللغة الثانية قوله تعالى ـ فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ـ (والذى عليه الحق) هو من عليه الدين ، أمره الله تعالى بالاملاء ، لأن الشهادة انما تكون على اقراره بثبوت الدين فى ذمته ، وأمره الله بالتقوى فيما يمليه على الكاتب ، وبالغ فى ذلك بالجمع بين الاسم والوصف فى قوله (وليتق

الله

الله ربه) ونهاه عن البخس وهو النقص ، وقيل انه نهى للكاتب * والأوّل أولى لأن من عليه الحق هو الذى يتوقع منه النقص ولو كان نهيا للكاتب لم يقتصر فى نهيه على النقص لأنه يتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه النقص * والسفيه هو الذى لارأى له فى حسن التصرف فلا يحسن الأخذ ولا الاعطاء ، شبه بالثوب السفيه وهو الخفيف النسج ، والعرب تطلق السفه على ضعف العقل تارة ، وعلى ضعف البدن أخرى ، فمن الأوّل قول الشاعر :

نخاف أن تسفه أحلامنا * ونجهل الدهر مع الجاهل

ومن الثانى قول ذى الرمة

مشين كما اهتزت رماح تسفهت * أعاليها مرّ الرياح النواسم

أى استضعفها واستلانها بحركتها ، وبالجملة فالسفيه هو المبذر إما لجهله بالصرف أو لتلاعبه بالمال عبثا مع كونه لايجهل الصواب * والضعيف : هو الشيخ الكبير ، أو الصبى . قال أهل اللغة الضعف بضم الضاد : فى البدن و بفتحها فى الرأى * والذى لايستطيع أن يملّ : هو الأخرس أو العىّ الذى لا يقدر على التعبير كما ينبغى ، وقيل ان الضعيف هو المذهول العقل الناقص الفطنة العاجز عن الاملاء ، والذى لايستطيع أن يملّ : هو الصغير * قوله (فليملل وليه بالعدل) الضمير عائد إلى الذى عليه الحق فيملّ عن السفيه وليه المنصوب عنه بعد حجره عن التصرف فى ماله ، و يملّ عن الصبى وصيه أو وليه ، وكذلك يملّ عن العاجز الذى لايستطيع الاملال لضعفه وليه لأنه فى حكم الصبى أو المنصوب عنه من الامام أو القاضى ، و يملّ عن الذى لايستطيع وكيله إذا كان صحيح العقل وعرضت له آفة فى لسانه أو لم تعرض ولكنه جاهل لايقدر على التعبير كما ينبغى . وقال الطبرى ان الضمير فى قوله (وليه) يعود إلى الحق ، وهو ضعيف جدّا . قال القرطبى فى تفسيره وتصرف السفيه المحجور عليه دون وليه فاسد إجماعا مفسوخ أبدا لايوجب حكما ولا يؤثر شيئا فان تصرف سفيه ولاحجر عليه ففيه خلاف انتهى * قوله (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) الاستشهاد : طلب الشهادة ، وسماهما شهيدين قبل الشهادة من مجاز الأول ، أى باعتبار مايؤول إليه أمرهما من الشهادة و (من رجالكم) متعلق بقوله (واستشهدوا) أو بمحذوف هو صفة لشهيدين أى كائنين من رجالكم ، أى من المسلمين فيخرج الكفار ، ولا وجه لخروج العبيد من هذه الآية ، فهم اذا كانوا مسلمين من رجال المسلمين ، و به قال شريح وعثمان البتى وأحمد بن حنبل واسحق بن راهويه وأبو ثور . وقال أبو حنيفة ومالك والشافعى وجمهور العلماء لاتجوز شهادة العبد لما يلحقه من نقص الرق . وقال الشعبى والنخعى يصح فى الشىء اليسير دون الكثير ، واستدل الجمهور على عدم جواز شهادة العبد بأن الخطاب فى هذه الآية مع الذين يتعاملون بالمداينة والعبيد لا يملكون شيئا تجرى فيه المعاملة * ويجاب عن هذا بأن الاعتبار بعموم اللفظ لابخصوص السبب ، وأيضا العبد تصح منه المداينة وسائر المعاملات إذا أذن له مالكه بذلك . وقد اختلف الناس هل الاشهاد واجب أو مندوب . فقال أبو موسى الأشعرى وابن عمر والضحاك وعطاء وسعيد بن المسيب وجابر بن زيد ومجاهد وداود بن على الظاهرى وابنه انه واجب ، ورجحه ابن جرير الطبرى ، وذهب الشعبى والحسن ومالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابه الى أنه مندوب ، وهذا الخلاف بين هؤلاء هو فى وجوب الاشهاد على البيع . واستدل الموجبون بقوله تعالى (وأشهدوا اذا تبايعتم) ولافرق بين هذا الأمر و بين قوله (واستشهدوا) فيلزم القائلين بوجوب الاشهاد فى البيع أن يقولوا بوجوبه فى المداينة * قوله (فان لم يكونا) أى الشهيدان (رجلين فرجل وامرأتان) أى فليشهد رجل وامرأتان أو فرجل وامرأتان يكفون * وقوله (ممن ترضون من الشهداء) متعلق بمحذوف وقع صفة لرجل

وامرأتان أى كائنون ممن ترضون حال كونهم من الشهداء * والمراد ممن ترضون دينهم وعدالتهم ، وفيه أن المرأتين فى الشهادة برجل ، وأنها لاتجوز شهادة النساء إلا مع الرجل لاوحدهنّ إلا فيما لايطلع عليه غيرهنّ للضرورة ، واختلفوا هل يجوز الحكم بشهادة امرأتين مع يمين المدّعى كما جاز الحكم برجل مع يمين المدّعى ؟ فذهب مالك والشافعى الى أنه يجوز ذلك ، لأن الله سبحانه قد جعل المرأتين كالرجل فى هذه الآية ، وذهب أبو حنيفة وأصحابه الى أنه لايجوز ذلك ، وهذا يرجع إلى الخلاف فى الحكم بشاهد مع يمين المدّعى ، والحق أنه جائز لورود الدليل عليه ، وهو زيادة لم تخالف مافى الكتاب العزيز فيتعين قبولها . وقد أوضحنا ذلك فى شرحنا للمنتقى وغيره من مؤلفاتنا ، ومعلوم عند كل من يفهم أنه ليس فى هذه الآية مايردّ به قضاء رسول الله ﷺ بالشاهد واليمين ولم يدفعوا هذا الا بقاعدة مبنية على شفا جرف هار هى قولهم ان الزيادة على النص نسخ ، وهذه دعوى باطلة ، بل الزيادة على النص شريعة ثابتة جاءنا بها من جاءنا بالنص المتقدّم عليها ، وأيضا كان يلزمهم أن لايحكموا بنكول المطلوب ولا بيمين الردّ على الطالب . وقد حكموا بهما ، والجواب الجواب * قوله (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) قال أبو عبيد معنى تضلّ : تنسى ، والضلال عن الشهادة انما هو نسيان جزء منها وذكر جزء . وقرأ حمزة إن تضلّ بكسر الهمزة * وقوله (فتذكر) جوابه على هذه القراءة ، وعلى قراءة الجمهور هو منصوب بالعطف على تضلّ ، ومن رفعه فعلى الاستئناف . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو فتذكر بتخفيف الذال والكاف ، ومعناه تزيدها ذكرا ، وقراءة الجماعة بالتشديد ، أى تنبهها اذا غفلت ونسيت ، وهذه الآية تعليل لاعتبار العدد فى النساء ، أى فليشهد رجل وتشهد امرأتان عوضا عن الرجل الآخر لأجل تذكير إحداهما للأخرى اذا ضلت ، وعلى هذا فيكون فى الكلام حذف وهو سؤال سائل عن وجه اعتبار امرأتين عوضا عن الرجل الواحد ، فقيل وجهه أن تضلّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، والعلة فى الحقيقة هى التذكير ولكن الضلال لما كان سببا له نزل منزلته ، وأبهم الفاعل فى تضلّ وتذكر ، لان كلا منهما يجوز عليه الوصفان ، فالمعنى ان ضلت هذه ذكرتها هذه ، وان ضلت هذه ذكرتها هذه لاعلى التعيين ، أى ان ضلت إحدى المرأتين ذكرتها المرأة الأخرى ، وإنما اعتبر فيهما هذا التذكير لما يلحقهما من ضعف النساء بخلاف الرجال . وقد يكون الوجه فى الابهام أن ذلك يعنى الضلال والتذكير يقع بينهما متناوبا حتى ربما ضلت هذه عن وجه وضلت تلك عن وجه آخر فذكرت كل واحدة منهما صاحبتها . وقال سفيان ابن عيينة معنى قوله (فتذكر إحداهما الأخرى) تصيرها ذكرا ، يعنى أن مجموع شهادة المرأتين مثل شهادة الرجل الواحد * وروى نحوه عن أبى عمرو بن العلاء ، ولا شك أن هذا باطل لايدل عليه شرع ولا لغة ولا عقل * قوله (ولا يأب الشهداء اذا مادعوا) أى لأداء الشهادة التى قد تحملوها من قبل ، وقيل اذا مادعوا لتحمل الشهادة ، وتسميتهم شهداء مجاز كما تقدّم ، وحملها الحسن على المعنيين * وظاهر هذا النهى أن الامتناع من أداء الشهادة حرام * قوله (ولا تسأموا أن تكتبوه) معنى تسأموا : تملوا . قال الأخفش يقال سئمت أسأم سآمة وسآما ، ومنه قول الشاعر :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش * ثمانين حولا لاأبالك يسأم

أى لاتملوا أن تكتبوه ، أى الدين الذى تداينتم به ، وقيل الحق ، وقيل الشاهد ، وقيل الكتاب ، نهاهم الله سبحانه عن ذلك لأنهم ربما ملوا من كثرة المداينة أن يكتبوا ، ثم بالغ فى ذلك فقال (صغيرا أو كبيرا) أى حال كون ذلك المكتوب صغيرا أو كبيرا ، أى لاتملوا فى حال من الأحوال سواء كان الدين كثيرا أوقليلا ، وقيل انه كنى بالسآمة عن الكسل * والأوّل أولى ، وقدّم الصغير هنا على الكبير للاهتمام

به لدفع ماعساه أن يقال ان هذا مال صغير ، أى قليل لا احتياج إلى كتبه ، والاشارة فى قوله (ذلكم) إلى المكتوب المذكور فى ضمير قوله (أن تكتبوه) * وأقسط معناه أعدل ، أى أصح وأحفظ (وأقوم للشهادة) أى أعون على اقامة الشهادة وأثبت لها وهو مبنىّ من أقام ، وكذلك أقسط مبنىّ من فعله ، أى أقسط . وقد صرح سيبويه بأنه قياسى ، أى بنى أفعل التفضيل ، ومعنى قوله (وأدنى أن لا ترتابوا) أقرب لنفى الريب فى معاملاتكم ، أى الشك ، وذلك أن الكتاب الذى يكتبونه يدفع مايعرض لهم من الريب كائنا ما كان * قوله (إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم) أن فى موضع نصب على الاستثناء . قاله الأخفش وكان تامة ، أى إلا أن تقع أو توجد تجارة والاستثناء منقطع ، أى لكن وقت تبايعكم وتجارتكم حاضرة بحضور البدلين (تديرونها بينكم) تتعاطونها يدا بيد ، فالادارة : التعاطى والتقابض ، فالمراد التبايع الناجز يدا بيد فلا حرج عليكم ان تركتم كتابته ، وقرئ بنصب تجارة على أن كان ناقصة ، أى إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة * قوله (وأشهدوا إذا تبايعتم) قيل معناه : وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع المذكور هنا وهو التجارة الحاضرة على أن الاشهاد فيها يكفى ، وقيل معناه إذا تبايعتم أىّ تبايع كان حاضرا أو كالئا لان ذلك أدفع لمادة الخلاف ، وأقطع لمنشأ الشجار . وقد تقدّم قريبا ذكر الخلاف فى كون هذا الاشهاد واجبا أو مندوبا * قوله (ولا يضارّ كاتب ولا شهيد) يحتمل أن يكون مبنيا للفاعل أو للمفعول ، فعلى الأوّل معناه لا يضارر كاتب ولا شهيد من طلب ذلك منهما إما بعدم الاجابة أو بالتحريف والتبديل والزيادة والنقصان فى كتابته ، ويدل على هذا قراءة عمر بن الخطاب وابن عباس وابن أبى اسحق ولا يضارر بكسر الراء الأولى ، وعلى الثانى لا يضارر كاتب ولا شهيد ، بأن يدعيا الى ذلك وهما مشغولان بمهمّ لهما ويضيق عليهما فى الاجابة ويؤذيا ان حصل منهما التراخى ، أو يطلب منهما الحضور من مكان بعيد ، ويدل على ذلك قراءة ابن مسعود ولا يضارر بفتح الراء الأولى ، وصيغة المفاعلة تدل على اعتبار الأمرين جميعا . وقد تقدّم فى تفسير قوله تعالى (لا تضار والدة بولدها) ما إذا راجعته زادك بصيرة ان شاء الله * قوله (وان تفعلوا) أى مانهيتم عنه من المضارة (فانه) أى فعلكم هذا (فسوق بكم) أى خروج عن الطاعة إلى المعصية ملتبس بكم (واتقوا الله) فى فعل ماأمركم به وترك مانهاكم عنه (ويعلمكم الله) ماتحتاجون إليه من العلم ، وفيه الوعد لمن اتقاه أن يعلمه ، ومنه قوله تعالى ـ ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ـ * قوله (وان كنتم على سفر) لما ذكر سبحانه مشروعية الكتابة والاشهاد لحفظ الأموال ، ودفع الريب عقب ذلك بذكر حالة العذر عن وجود الكاتب ونص على حالة السفر ، فانها من جملة أحوال العذر ويلحق بذلك كل عذر يقوم مقام السفر ، وجعل الرهان المقبوضة قائمة مقام الكتابة ، أى فان كنتم مسافرين (ولم تجدوا كاتبا) فى سفركم (فرهان مقبوضة) قال أهل العلم الرهن فى السفر ثابت بنص التنزيل ، وفى الحضر بفعل رسول الله ﷺ كما ثبت فى الصحيحين أنه ﷺ رهن درعا له من يهودى . وقرأ الجمهور كاتبا ، أى رجلا يكتب لكم . وقرأ ابن عباس وأبىّ ومجاهد والضحاك وعكرمة وأبو العالية كتابا . قال ابن الانبارى فسره مجاهد فقال معناه فان لم تجدوا مدادا : يعني فى الأسفار . وقرأ أبو عمرو وابن كثير فرهن بضم الراء والهاء * وروى عنهما تخفيف الهاء جمع رهان . قاله الفراء والزجاج وابن جرير الطبرى . وقرأ عاصم ابن أبى النجود فرهن بفتح الراء واسكان الهاء . وقراءة الجمهور رهان . قال الزجاج ، يقال فى الرهن رهنت وأرهنت ، وكذا قال ابن الاعرابى والأخفش . وقال أبو على الفارسى ، يقال أرهنت فى المعاملات ، وأما فى القرض والبيع فرهنت . وقال ثعلب الرواة كلهم فى قول الشاعر :

فلما خشيت أظافيرهم * نجوت وأرهنتهم مالكا

على أرهنتهم على أنه يجوز رهنته وأرهنته الا الأصمعى فانه رواه وأرهنهم على أنه عطف لفعل مستقبل على فعل ماض وشبهه بقوله قمت وأصك وجهه . وقال ابن السكيت أرهنت فيهما بمعنى أسلفت ، والمرتهن الذى يأخذ الرهن ، والشيء مرهون ورهين ، وراهنت فلانا على كذا مراهنة خاطرته . وقد ذهب الجمهور الى اعتبار القبض كما صرح به القرآن ، وذهب مالك الى أنه يصح الارتهان بالايجاب والقبول من دون قبض * قوله (فان أمن بعضكم بعضا فليؤدّ الذى اؤتمن أمانته) أى ان كان الذى عليه الحق أمينا عند صاحب الحق لحسن ظنه به وأمانته لديه واستغنى بأمانته عن الارتهان (فليؤدّ الذى أؤتمن) وهو المديون (أمانته) أى الدين الذى عليه ، والأمانة مصدر سمى به الذى فى الذمة وأضافها الى الذى عليه الدين من حيث ان لها اليه نسبة ، وقرئ ايتمن بقلب الهمزة ياء ، وقرىء بادغام الياء فى التاء وهو خطأ ، لأن المنقلبة من الهمزة لاتدغم لأنها فى حكمها (وليتق الله ربه) فى أن لا يكتم من الحق شيئا * قوله (ولاتكتموا الشهادة) نهى للشهود أن يكتموا ماتحملوه من الشهادة ، وهو فى حكم التفسير لقوله (ولا يضار كاتب) أى لا يضارر بكسر الراء الأولى على أحد التفسيرين المتقدّمين * قوله (ومن يكتمها فانه آثم قلبه) خص القلب بالذكر لأن الكتم من أفعاله ، ولكونه رئيس الأعضاء ، وهو المضغة التى ان صلحت صلح الجسد كله ، وان فسدت فسد كله وارتفاع القلب على أنه فاعل أو مبتدأ وآثم خبره على ماتقرر فى علم النحو ، ويجوز أن يكون قلبه بدلا من آثم بدل البعض من الكل ، ويجوز أن يكون أيضا بدلا من الضمير الذى فى آثم الراجع الى من ، وقرىء قلبه بالنصب كما فى قوله ـ الا من سفه نفسه ـ

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (ياأيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين) قال نزلت فى السلم فى كيل معلوم الى أجل معلوم . وأخرج الشافعى وعبد الرزاق وعبد بن حميد والبخارى وغيرهم عنه ، قال أشهد أن السلف المضمون الى أجل مسمى ان الله أجله . وقرأ هذه الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية ، قال أمر بالشهادة عند المداينة لكيلا يدخل فى ذلك جحود ولانسيان ، فمن لم يشهد على ذلك فقد عصى (ولايأب الشهداء) يعنى من احتيج اليه من المسلمين ليشهد على شهادة أو كانت عنده شهادة فلا يحل له أن يأبى اذا مادعى ، ثم قال بعد هذا (ولا يضار كاتب ولاشهيد) والضرار أن يقول الرجل للرجل وهو عنه غنى ان الله قد أمرك أن لاتأبى اذا دعيت ، فيضاره بذلك وهو مكتف بغيره ، فنهاه الله عن ذلك . وقال (وان تفعلوا فانه فسوق بكم) يعنى معصية ، قال ومن الكبائر كتمان الشهادة ، لأن الله تعالى يقول (ومن يكتمها فانه آثم قلبه) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله (ولايأب كاتب) قال واجب على الكاتب أن يكتب . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال كانت الكتابة عزيمة فنسخها (ولا يضار كاتب ولاشهيد) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد ، قال (فان كان الذى عليه الحق سفيها) قال هو الجاهل أوضعيفا ، قال هو الأحمق . وأخرج ابن جرير عن الضحاك والسدّى فى قوله (سفيها) قالا هو الصبى الصغير . وأخرج ابن جرير من طريق عطية العوفى عن ابن عباس (فليملل وليه) قال صاحب الدين . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن الحسن ، قال ولىّ اليتيم . وأخرج ابن جرير عن الضحاك ، قال قال ولىّ السفيه أو الضعيف . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر والبيهقى عن مجاهد فى قوله (من رجالكم) قال من الأحرار . وأخرج ابن جرير عن الربيع فى قوله (ممن ترضون من الشهداء) قال عدول . وأخرج الشافعى والبيهقى عن مجاهد ، قال عدلان حران مسلمان . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (أن تضل احداهما) يقول أن تنسى إحدى المرأتين الشهادة (فتذكر إحداهما الأخرى) يعنى

تذكرها التى حبطت شهادتها ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولا يأب الشهداء) قال اذا كانت عندهم شهادة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع ، قال كان الرجل يطوف فى القوم الكثير يدعوهم يشهدون فلا يتبعه أحد منهم ، فأنزل الله (ولا يأب الشهداء) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن المنذر عن عائشة فى قوله (أقسط عند الله) قالت أعدل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (ولا يضار كاتب ولا شهيد) قال يأتى الرجل الرجلين فيدعوهما الى الكتابة والشهادة فيقولان إنا على حاجة ، فيقول انكما قد أمرتما أن تجيبا فليس له أن يضارهما . وأخرج ابن جرير عن طاوس (لا يضار كاتب) ، فيكتب مالم يمل عليه (ولا شهيد) فيشهد بما لم يستشهد . وأخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله (وان كنتم على سفر) الآية قال من كان على سفر فبايع بيعا الى أجل فلم يجد كاتبا فرخص له فى الرهان المقبوضة ، وليس له ان وجد كاتبا أن يرتهن . وأخرج عبد ابن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد . قال لا يكون الرهن الا فى السفر . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ، قال لا يكون الرهن الا مقبوضا . وأخرج البخارى فى تاريخه وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن ماجه وأبو نعيم والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى أنه قرأ هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين) حتى بلغ (فان أمن بعضكم بعضا) قال هذه نسخت ماقبلها * وأقول رضى الله عن هذا الصحابى الجليل ، ليس هذا من باب النسخ ، فهذا مقيد بالائتمان ، وماقبله ثابت محكم لم ينسخ وهو مع عدم الائتمان . وأخرج ابن جرير عن السدّى فى قوله (آثم قلبه) قال فاجر قلبه . وأخرج ابن جرير باسناد صحيح عن سعيد بن المسيب أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين . وأخرج أبو عبيد فى فضائله عن ابن شهاب ، قال آخر القرآن عهدا بالعرش آية الربا وآية الدين .

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

قوله (لله مافى السموات ومافى الأرض) قد تقدّم تفسيره * قوله (وان تبدوا مافى أنفسكم) الى آخر الآية ، ظاهره أن الله يحاسب العباد على ما أضمرته أنفسهم أو أظهرته من الأمور التى يحاسب عليها فيغفر لمن يشاء منهم مايغفره منها و يعذب من يشاء منهم بما أسر أو أظهر منها ، هذا معنى الآية على مقتضى اللغة العربية ، وقد اختلف أهل العلم فى هذه الآية على أقوال ، الأوّل أنها وان كانت عامة ، فهى مخصوصة بكتمان الشهادة ، وأن الكاتم للشهادة يحاسب على كتمه سواء أظهر للناس أنه كاتم للشاهدة أو لم يظهر . وقد روى هذا عن ابن عباس وعكرمة والشعبى ومجاهد ، وهو مردود بما فى الآية من عموم اللفظ ، ولا يصلح ماتقدم قبل هذه الآية من النهى عن كتم الشهادة أن تكون مختصة به * والقول الثانى أن مافى الآية مختص بما يطرأ على النفوس من الأمور التى هى بين الشك واليقين ، قاله مجاهد ، وهو أيضا تخصيص بلا مخصص * والقول الثالث أنها محكمة عامة ، ولكن العذاب على مافى النفس يختص بالكفار والمنافقين . حكاه الطبرى عن قوم ، وهو أيضا تخصيص بلا مخصص ، فان قوله (يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء) لا يختص ببعض معين إلا بدليل * والقول الرابع أن هذه الآية منسوخة ، قاله ابن مسعود وعائشة وأبو هريرة والشعبى وعطاء ومحمد بن سيرين ومحمد بن كعب وموسى بن عبيدة ، وهو مروى عن ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين ، وهذا هو الحق لما سيأتى من التصريح بنسخها ، ولما ثبت عن النبى ﷺ «ان الله غفر لهذه الأمة ماحدثت به أنفسها» * قوله (يحاسبكم به الله) قدم الجار والمجرور على الفاعل لاظهار العناية

به ، وقدم الابداء على الاخفاء ، لأن الأصل فى الأمور التى يحاسب عليها هو الأعمال البادية ، وأما تقديم الاخفاء فى قوله سبحانه ـ قل ان تخفوا مافى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ـ فلكون العلم يتعلق بالأعمال الخافية والبادية على السوية ، وقدم المغفرة على التعذيب لكون رحمته سبقت غضبه ، وجملة قوله (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) مستأنفة ، أى فهو يغفر وهى متضمنة لتفصيل ماأجمل فى قوله (يحاسبكم به الله) وهذا على قراءة ابن عباس وعاصم ، وأما على قراءة ابن كثير ونافع وابى عمرو وحمزة والكسائى بجزم الراء والباء ، فالفاء عاطفة لما بعدها على المجزوم قبلها ، وهو جواب الشرط ، أعنى قوله (يحاسبكم به الله) . وقرأ ابن عباس والأعرج وأبو العالية وعاصم الجحدرى بنصب الراء والباء فى قوله (فيغفر ويعذب) على اضمار أن عطفا على المعنى . وقرأ طلحة بن مصرف يغفر بغير فاء على البدل ، وبه قرأ الجعفى وخلاد .

وقد أخرج أحمد ومسلم وأبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال لما نزلت على رسول الله ﷺ (لله مافى السموات ومافى الأرض وان تبدوا مافى أنفسكم) الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب ، فقالوا يارسول الله كلفنا من الأعمال مانطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزل الله عليك هذه الآية ولانطيقها ، فقال رسول الله ﷺ أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ، بل قولوا (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) . فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله فى أثرها (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه) الآية . فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) الى آخرها . وأخرج أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقى عن ابن عباس مرفوعا نحوه وزاد فأنزل الله (ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا أوأخطأنا) . قال قد فعلت (ربنا ولاتحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا) قال قد فعلت (ربنا ولا تحملنا مالاطاقة لنا به) قال قد فعلت (واعف عنا واغفر لنا وارحمنا) الآية ، قال قد فعلت . وقد رويت هذه القصة عن ابن عباس من طرق . وأخرج البخارى والبيهقى عن مروان الأصفر عن رجل من أصحاب النبى ﷺ أحسبه ابن عمر (ان تبدوا مافى أنفسكم أوتخفوه) قال نسختها الآية التى بعدها . وأخرج عبد بن حميد والترمذى عن على نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير والطبرانى عن ابن مسعود نحوه . وأخرج ابن جرير عن عائشة نحوه أيضا .

وبمجموع ماتقدم يظهر لك ضعف ما أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى هذه الآية أنه قال نزلت فى كتمان الشهادة ، فانها لوكانت كذلك لم يشتد الأمر على الصحابة ، وعلى كل حال فبعد هذه الأحاديث المصرحة بالنسخ والناسخ لم يبق مجال لمخالفتها ، ومما يؤيد ذلك ماثبت فى الصحيحين والسنن الأربع من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ ان الله تجاوز لى عن أمتى ماحدّثت به أنفسها مالم تتكلم أوتعمل به . وأخرج ابن جرير عن عائشة قالت كل عبد همّ بسوء ومعصية وحدّث نفسه به حاسبه الله فى الدنيا يخاف ويحزن ويشتد همه لايناله من ذلك شىء كما همّ بالسوء ولم يعمل منه بشىء . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عنها نحوه ، والأحاديث المتقدمة المصرحة بالنسخ تدفعه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس . قال ان الله يقول يوم القيامة ان كتابى لم يكتبوا من أعمالكم الاماظهر منها . فاما ما أسررتم فى أنفسكم فأنا أحاسبكم به اليوم فأغفر لمن شئت وأعذب من شئت وهو مدفوع بما تقدم .

آمَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ

نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *

قوله (بما أنزل إليه من ربه) أى بجميع ماأنزل الله (والمؤمنون) عطف على الرسول * وقوله (كلّ) أى من الرسول والمؤمنين (آمن بالله) ويجوز أن يكون قوله (والمؤمنون) مبتدأ * وقوله (كلّ) مبتدأ ثان * وقوله (آمن بالله) خبر المبتدا الثانى، وهووخبره خبر المبتدا الأوّل، وأفرد الضمير فى قوله (آمن بالله) مع رجوعه الى كل المؤمنين، لما أن المراد بيان ايمان كل فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع كما اعتبرذلك فى قوله تعالى ـ وكلّ أتوه داخرين ـ. قال الزجاج لما ذكر الله سبحانه فى هذه السورة فرض الصلاة والزكاة، وبين أحكام الحج، وحكم الحيض، والطلاق والايلاء، وأقاصيص الأنبياء، وبين حكم الربا، ذكر تعظيمه سبحانه بقوله (لله مافى السموات وما فى الأرض) ثم ذكر تصديق نبيه ﷺ ثم ذكر تصديق المؤمنين بجميع ذلك فقال (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) أى صدّق الرسول بجميع هذه الأشياء التى جرى ذكرها، وكذلك المؤمنون كلهم صدّقوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وقيل سبب نزولها الآية التى قبلها. وقد تقدّم بيان ذلك * قوله (وملائكته) أى من حيث كونهم عباده المكرّمين المتوسطين بينه وبين أنبيائه فى إنزال كتبه * وقوله (وكتبه) لأنها المشتملة على الشرائع التى تعبد بها عباده * وقوله (ورسله) لأنهم المبلغون لعباده مانزل إليهم. وقرأ نافع وابن كثير وعاصم فى رواية أبى بكر وابن عامر وكتبه بالجمع. وقرءوا فى التحريم وكتابه، وقرأ ابن عباس هنا وكتابه وكذلك قرأ حمزة والكسائى، وروى عنه أنه قال: الكتاب أكثر من الكتب، وبينه صاحب الكشاف فقال لانه إذا أريد بالواحد الجنس والجنسية قائمة فى وحدان الجنس كلها لم يخرج منه شىء، وأما الجمع فلا يدخل تحته إلا مافيه الجنسية من الجموع انتهى، ومن أراد تحقيق المقام فليرجع الى شرح التلخيص المطوّل عند قول صاحب التلخيص «واستغراق المفرد أشمل». وقرأ الجمهور ورسله بضم السين. وقرأ أبو عمرو بتخفيف السين. وقرأ الجمهور لانفرّق بالنون * والمعنى يقولون لانفرّق، وقرأ سعيد بن جبير ويحيى بن يعمر وأبو زرعة وابن عمر وابن جرير ويعقوب لايفرّق بالياء التحتية * وقوله (بين أحد) ولم يقل بين آحاد، لأن الأحد يتناول الواحد، والجمع كما فى قوله تعالى ـ فما منكم من أحد عنه حاجزين ـ فوصفه بقوله ـ حاجزين ـ لكونه فى معنى الجمع، وهذه الجملة يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال وأن تكون خبرا آخر لقوله (كلّ) * وقوله (من رسله) أظهر فى محل الاضمار للاحتراز عن توهم اندراج الملائكة فى الحكم، أوللاشعار بعلة عدم التفريق بينهم * وقوله (وقالوا سمعنا وأطعنا) هو معطوف على قوله (آمن) وهو وان كان للمفرد، وهذا للجماعة فهو جائز نظرا الى جانب المعنى، أى أدركناه بأسماعنا وفهمناه وأطعنا مافيه، وقيل معنى سمعنا: أجبنا دعوتك * قوله (غفرانك) مصدر منصوب بفعل مقدّر، أى اغفر غفرانك. قاله الزجاج وغيره، وقدّم السمع والطاعة على طلب المغفرة لكون الوسيلة تتقدّم على المتوسل اليه * قوله (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) التكليف هو الأمر بما فيه مشقة وكلفة، والوسع: الطاقة، والوسع: مايسع الانسان ولا يضيق عليه، وهذه جملة مستقلة جاءت عقب قوله سبحانه (ان تبدوا مافى أنفسكم) الآية لكشف كربة المسلمين، ودفع المشقة عليهم فى التكليف بما فى الأنفس وهى كقوله سبحانه ـ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ـ * قوله (لها ما كسبت وعليها

ما اكتسبت) فيه ترغيب وترهيب ، أى لها ثواب ما كسبت من الخير ، وعليها وزر ما اكتسبت من الشر ، وتقدّم لها وعليها على الفعلين ليفيد أن ذلك لها لا لغيرها ، وعليها لا على غيرها ، وهذا مبنىّ على أن كسب للخير فقط ، واكتسب للشر فقط ، كما قاله صاحب الكشاف وغيره ، وقيل كل واحد من الفعلين يصدق على الأمرين ، وانما كرّر الفعل وخالف بين التصريفين تحسينا للنظم كما فى قوله تعالى ــ فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ــ * قوله (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا) أى لا تؤاخذنا باثم ما يصدر منا من هذين الأمرين * وقد استشكل هذا الدعاء جماعة من المفسرين وغيرهم قائلين ان الخطأ والنسيان مغفوران غير مؤاخذ بهما ، فما معنى الدعاء بذلك ، فانه من تحصيل الحاصل * وأجيب عن ذلك بأن المراد طلب المؤاخذة بما صدر عنهم من الأسباب المؤدية إلى النسيان والخطأ من التفريط وعدم المبالاة ، لا من نفس النسيان والخطأ فانه لا مؤاخذة بهما كما يفيد ذلك قوله ﷺ « رفع عن أمّتى الخطأ والنسيان » وسيأتى مخرّجه ، وقيل انه يجوز للانسان أن يدعو بحصول ما هو حاصل له قبل الدعاء لقصد استدامته ، وقيل انه وان ثبت شرعا أنه لا مؤاخذة بهما ، فلا امتناع فى المؤاخذة بهما عقلا ، وقيل لأنهم كانوا على جانب عظيم من التقوى بحيث لا يصدر عنهم الذنب تعمدا ، وانما يصدر عنهم خطأ أو نسيانا ، فكأنه وصفهم بالدعاء بذلك ايذانا بنزاهة ساحتهم عما يؤاخذون به ، كأنه قيل ان كان النسيان والخطأ مما يؤاخذ به ، فما منهم سبب مؤاخذة الا الخطأ والنسيان . قال القرطبى وهذا لم يختلف فيه أن الاثم مرفوع ، وانما اختلف فيما يتعلق على ذلك من الأحكام هل ذلك مرفوع ولا يلزم منه شىء ، أو يلزم ، أحكام ذلك كله اختلف فيه والصحيح أن ذلك يختلف بحسب الوقائع ، فقسم لا يسقط باتفاق كالغرامات والديانات والصلوات المفروضات ، وقسم يسقط باتفاق كالقصاص والنطق بكلمة الكفر ، وقسم ثالث مختلف فيه كمن أكل ناسيا فى رمضان أو حنث ساهيا ، وما كان مثله مما يقع خطأ ونسيانا ، ويعرف ذلك فى الفروع انتهى * قوله (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا) عطف على الجملة التى قبله ، وتكرير النداء للايذان بمزيد التضرّع واللجأ الى الله سبحانه * والاصر : العبء الثقيل الذى يأصر صاحبه ، أى يحبسه مكانه لا يستقل به لثقله * والمراد به هنا التكليف الشاق . والأمر الغليظ الصعب ، وقيل الاصر : شدّة العمل وما غلظ على بنى اسرائيل من قتل الأنفس وقطع موضع النجاسة ، ومنه قول النابغة :

يا مانع الضيم ان تغشى سراتهم * والحامل الاصر عنهم بعد ما غرقوا

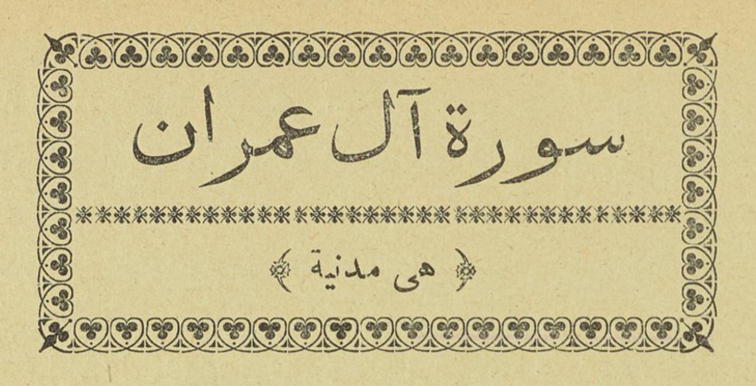
وقيل الاصر المسخ قردة وخنازير ، وقيل العهد ، ومنه قوله تعالى ــ وأخذتم على ذلكم إصرى ــ وهذا الخلاف يرجع الى بيان ما هو الاصر الذى كان على من قبلنا ، لا الى معنى الاصر فى لغة العرب ، فانه ما تقدّم ذكره بلا نزاع ، والاصار : الحبل الذى تربط به الأحمال ونحوها ، يقال أصر يأصر إصرا : حبس ، والاصر بكسر الهمزة من ذلك . قال الجوهرى ، والموضع مأصر ، والجمع مآصر ، والعامة تقول معاصر * ومعنى الآية أنهم طلبوا من الله سبحانه أن لا يحملهم من ثقل التكاليف ما حمل الأمم قبلهم * وقوله (كما حملته) صفة مصدر محذوف ، أى حملا مثل حملك إياه على من قبلنا ، أو صفة لاصرا ، أى اصرا مثل الاصر الذى حملته على من قبلنا * قوله (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) هو أيضا عطف على ما قبله ، وتكرير النداء للنكتة المذكورة قبل هذا * والمعنى لا تحملنا من الأعمال ما لا نطيق ، وقيل هو عبارة عن إنزال العقوبات ، كأنه قال لا تنزل علينا العقوبات بتفريطنا فى المحافظة على تلك التكاليف الشاقة التى كلفت بها من قبلنا ، وقيل المراد به الشاق الذى لا يكاد يستطاع من التكاليف قال فى الكشاف ، وهذا تكرير لقوله (ولا تحمل علينا إصرا) * قوله (واعف عنا) أى عن ذنوبنا ، يقال عفوت عن ذنبه : إذا تركته ولم تعاقبه عليه

(واغفر

(واغفر لنا) أى استر على ذنوبنا ، والغفر: الستر (وارحمنا) أى تفضل برحمة منك علينا (أنت مولانا) أى ولينا وناصرنا ، وخرج هذا مخرج التعليم كيف يدعون ، وقيل معناه أنت سيدنا ونحن عبيدك (فانصرنا على القوم الكافرين) فان من حق المولى أن ينصر عبيده ، والمراد عامة الكفرة ، وفيه اشارة الى إعلاء كلمة الله فى الجهاد فى سبيله . وقد قدّمنا فى شرح الآية التى قبل هذه أعنى قوله (ان تبدوا مافى أنفسكم) الخ أنه ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أن الله تعالى قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات قد فعلت ، فكان ذلك دليلا على أنه سبحانه لم يؤاخذهم بشىء من الخطأ والنسيان ولاحمل عليهم شيئا من الاصر الذى حمله على من قبلهم ، ولا حملهم مالا طاقة لهم به ، وعفا عنهم ، وغفر لهم ، ورحمهم ، ونصرهم على القوم الكافرين ، والحمد لله رب العالمين .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حبان (لا نفرّق بين أحد من رسله) لا نكفر بما جاءت به الرسل ، ولا نفرّق بين أحد منهم ، ولا نكذب به (وقالوا سمعنا) للقرآن الذى جاء من الله (وأطعنا) ، أقرّوا لله أن يطيعوه فى أمره ونهيه . وأخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (غفرانك ربنا) قال قد غفرت لكم (واليك المصير) قال اليك المرجع والمآب يوم يقوم الحساب . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم عن حكيم بن جابر . قال لما نزلت (آمن الرسول) الآية قال جبريل للنبى ﷺ ان الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك فسل تعطه ، فقال (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) حتى ختم السورة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) قال هم المؤمنون وسع الله عليهم أمر دينهم فقال - ماجعل عليكم فى الدين من حرج - * وقال - يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر - * وقال - فاتقوا الله مااستطعتم - وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) قال من العمل . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (الاوسعها) قال الا طاقتها . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك نحوه . وقد أخرج ابن ماجه وابن المنذر وابن حبان فى صحيحه والطبرانى والدارقطنى والحاكم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال « ان الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » وأخرجه ابن ماجه من حديث أبى ذرّ مرفوعا ، والطبرانى من حديث ثوبان ومن حديث ابن عمر ومن حديث عقبة بن عامر . وأخرجه البيهقى أيضا من حديثه . وأخرجه ابن عدى فى الكامل وأبو نعيم من حديث أبى بكرة . وأخرجه ابن أبى حاتم من حديث أمّ الدرداء . وأخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد من حديث الحسن مرسلا . وأخرجه عبد بن حميد من حديث الشعبى مرسلا . وفى أسانيد هذه الأحاديث مقال ولكنها يقوّى بعضها بعضا فلا تقصر عن رتبة الحسن لغيره . وقد تقدّم حديث « ان الله قال قد فعلت » وهو فى الصحيح وهو يشهد لهذه الأحاديث . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (إصرا) قال عهدا . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج مثله . وأخرج أيضا عن عطاء بن أبى رباح فى قوله (ولا تحمل علينا إصرا) قال لا تمسخنا قردة وخنازير . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى الآية أن الاصر : الذنب الذى ليس فيه توبة ولا كفارة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الفضيل فى الآية قال كان الرجل من بنى إسرائيل إذا أذنب قيل له توبتك أن تقتل نفسك فيقتل نفسه فوضعت الآصار عن هذه الأمة . وأخرج عبد بن حميد عن عطاء قال لما نزلت هذه الآيات (ربنا لا تؤاخذنا) الخ كلما قالها جبريل للنبى ﷺ قال النبى آمين : رب العالمين . وأخرج أبو عبيد عن ميسرة أن جبريل لقن النبى ﷺ خاتمة البقرة آمين . وأخرج أبو عبيد وابن أبى شيبة

وابن جرير وابن المنذر عن معاذ بن جبل أنه كان إذا فرغ من قراءة هـذه السورة قال آمين . وأخرج أبوعبيد عن جبير بن نفير أنه كان يقول آمين آمين . وأخرج عبد بن حميد عن أبى ذرّ قال هى للنبى ﷺ خاصة . وأخرج ابن جرير عن الضحاك فى هذه الآية قال سألها نبىّ الله ربه فأعطاه إياها ، فكانت للنبىّ ﷺ خاصة * وقد ثبت عند الشيخين وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود عن النبى ﷺ « قال من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » . وأخرج أبو عبيد والدارمى والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقى عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ « قال ان الله كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام ، فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ولا يقرآن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان » . وأخرج أحمد والنسائى والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الشعب بسند صحيح عن حذيفة أن النبى ﷺ كان يقول « أعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبىّ قبلى » . وأخرج أحمد والبيهقى عن أبى ذرّ مرفوعا نحوه . وأخرج أبو عبيد وأحمد ومحمد ابن نصر عن عقبة بن عامر سمعت رسول الله ﷺ يقول « اقرءوا هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة (آمن الرسول) الى خاتمتها ، فان الله اصطفى بها محمدا » وإسناده حسن . وأخرج مسلم عن ابن مسعود قال لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى الى سدرة المنتهى ، وأعطى ثلاثا ، أعطى الصلوات الخمس ، وأعطى خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لايشرك بالله من أمته شيئا المقحمات . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن أبى ذرّ أن رسول الله ﷺ قال « ان الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزه الذى تحت العرش فتعلموهما وعلموهما نساءكم وأبناءكم فانهما صلاة وقرآن ودعاء » . وأخرج الديلمى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « اثنان هما قرآن وهما يشفيان ، وهما مما يحبهما الله الآيتان من آخر البقرة . وأخرج الطبرانى بسند جيد عن شدّاد بن أوس قال قال رسول الله ﷺ « ان الله كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام ، فأنزل منـه آيتين ختم بهما سورة البقرة لايقرآن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان » . وأخرج ابن عدى عن أبى مسعود الأنصارى أن رسول الله ﷺ قال « أنزل الله آيتين من كنوز الجنة ، كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفى سنة ، من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأتاه عن قيام الليل » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ اذا قرأ آخر سورة البقرة أو آية الكرسى ضحك وقال انهما من كنز تحت العرش . وأخرج ابن مردويه عن معقل بن يسار قال قال رسول الله ﷺ « أعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش » وأخرج مسلم والنسائى واللفظ له عن ابن عباس قال بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل اذ سمع نقيضا فرفع جبريل بصره فقال هـذا باب قد فتح من السماء مافتح قط : قال فنزل منه ملك فأتى النبى ﷺ فقال أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبىّ قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفا منهما إلا أوتيته * فهذه ثلاثة عشر حديثا فى فضل هاتين الآيتين مرفوعة الى النبى ﷺ . وقد روى فى فضلهما من غير المرفوع عن عمر وعلىّ وابن مسعود وأبى مسعود وكعب الأحبار والحسن وأبى قلابة ، وفى قول النبى ﷺ مايغنى عن غيره .



قال القرطبى بالاجماع ، ومما يدل على ذلك أن صدرها الى ثلاث وثمانين آية نزل فى وفد نجران ، وكان قدومهم فى سنة تسع من الهجرة . وقد أخرج البيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس ، قال نزلت سورة آل عمران بالمدينة . وقد تقدّم فى أوائل سورة البقرة ماهومشترك بينها و بين هذه السورة من الأحاديث الدالة على فضلهما ، وكذلك تقدّم ماورد فى السبع الطوال . وأخرج الطبرانى بسند ضعيف عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تغيب الشمس . وأخرج سعيد بن منصور والبيهقى فى الشعب عن عمر بن الخطاب ، قال من قرأ البقرة وآل عمران والنساء كتب عند الله من الحكماء . وأخرج الديلمى ومحمد بن نصر والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود من قرأ آل عمران فهو غنىّ . وأخرج الدارمى وعبد بن حميد والبيهقى عنه قال نعم كنز الصعلوك آل عمران يقوم بها الرجل من آخر الليل . وأخرج سعيد بن منصور عن أبى عطاف ، قال اسم آل عمران فى التوراة طيبة . وأخرج ابن أبى شيبة عن عبد الملك بن عمير ، قال قرأ رجل البقرة وآل عمران ، فقال كعب قد قرأ سورتين ان فيهما الاسم الذى اذا دعى به أجاب .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ * إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ * هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ *

قرأ الحسن وعمرو بن عبيد وعاصم بن أبى النجود وأبو جعفر الرواسى (الم الله) بقطع ألف الوصل على تقدير الوقف على (الم) كما يقدرون الوقف على أسماء الأعداد نحو واحد اثنان ثلاثة أربعة مع وصلهم . قال الأخفش ويجوز (الم الله) بكسر الهمزة لالتقاء الساكنين . قال الزجاج هذا خطأ ولا تقوله العرب لثقله ، وقد ذكر سيبويه فى الكتاب أن فواتح السور التى لم تكن موازنة لمفرد طريق التلفظ بها الحكاية فقط ساكنة الأعجاز على الوقف سواء جعلت أسماء أو مسرودة على نمط التعديد وان لزمها التقاء الساكنين لما أنه مغتفر فى باب الوقف ، فحق هذه الفاتحة أن يوقف عليها ثم يبدأ بما بعدها كما فعله الحسن ومن معه فى قراءتهم المحكية سابقا ، وأما فتح الميم على القراءة المشهورة فوجهه ماروى عن سيبويه أن الميم فتحت

لالتقاء الساكنين . وقال الكسائى حروف التهجى اذا لقيتها ألف وصل ، فحذفت الألف وحركت الميم بحركة الألف ، وكذا قال الفراء وهـذه الفواتح ان جعلت مسرودة على نمط التعديد ، فلا محل لها من الاعراب وان جعلت أسماء للسورة فمحلها اما الرفع على أنها أخبار لمبتدآت مقدرة قبلها أو النصب على تقدير أفعال يقتضيها المقام كاذكر أو اقرأ أو نحوهما ، وقد تقدم فى أوائل سورة البقرة مايغنى عن الاعادة . وقوله (الله لاإله إلا هو) مبتدأ وخبر ، والجملة مستأنفة ، أى هو المستحق للعبودية * والحى القيوم : خبران آخران للاسم الشريف أو خبران لمبتدأ محذوف : أى هو الحى القيوم ، وقيل انهما صفتان للمبتدأ الأوّل أو بدلان منه أو من الخبر ، وقد تقدّم تفسير الحى والقيوم ، وقرأ جماعة من الصحابة القيام عمر وأبىّ بن كعب وابن مسعود * قوله (نزل عليك الكتاب) أى القرآن وقدم الظرف على المفعول به للاعتناء بالمنزل عليه ﷺ ، وهى إماجملة مستأنفة أوخبرآخر للمبتدأ الأوّل * وقوله (بالحق) أى بالصدق ، وقيل بالحجة الغالبة وهو فى محل نصب على الحال * وقوله (مصدقا) حال آخر من الكتاب مؤكدّة ، لأنه لا يكون الامصدقا ، فلا تكون الحال منتقلة أصلا ، وبهذا قال الجمهور ، وجوّز بعضهم الانتقال على معنى انه مصدق لنفسه ، ولغيره * وقوله (لما بين يديه) أى من الكتب المنزلة ، وهو متعلق بقوله : مصدقا ، واللام للتقوية * قوله (وأنزل التوراة والانجيل) هذه الجملة فى حكم البيان لقوله : لما بين يديه . وانما قال هنا أنزل وفيما تقدّم نزل : لأن القرآن نزل منجما ، والكتابان نزلا دفعة واحدة ، ولم يذكر فى الكتابين من أنزلا عليه ، وذكر فيما تقدّم أن الكتاب نزل على رسول الله ﷺ لأن القصد هنا ليس الا الى ذكر الكتابين لاذكر من نزلا عليه * وقوله (من قبل) أى أنزل التوراة والانجيل من قبل تنزيل الكتاب * وقوله (هدى للناس) اما حال من الكتابين أو علة للانزال * والمراد بالناس أهل الكتابين ، أوما هو أعمّ : لأن هذه الأمة متعبدة بمالم ينسخ من الشرائع . قال ابن فورك هدى للناس المتقين : كما قال فى البقرة هدى للمتقين * قوله (وأنزل الفرقان) أى الفارق بين الحق والباطل وهو القرآن وكرر ذكره تشريفا له مع ما يشتمل عليه هذا الذكر الآخر من الوصف له بأنه يفرق بين الحق والباطل ، وذكر التنزيل أوّلا والانزال ثانيا لكونه جامعا بين الوصفين ، فانه أنزل الى سماء الدنيا جملة ثم نزل منها الى النبى ﷺ مفرّقا منجما على حسب الحوادث كما سبق . وقيل أراد بالفرقان جميع الكتب المنزلة من الله تعالى على رسله . وقيل أراد الزبور لاشتماله على المواعظ الحسنة * وقوله (إنّ الذين كفروا بآيات الله) أى بما يصدق عليه أنه آية من الكتب المنزلة وغيرها ، أو بما فى الكتب المنزلة المذكورة على وضع آيات الله موضع الضمير العائد اليها ، وفيه بيان الأمر الذى استحقوا به الكفر (لهم) بسبب هذا الكفر (عذاب شديد) أى عظيم (والله عزيز) لايغالبه مغالب (ذوانتقام) عظيم ، والنقمة السطوة : يقال انتقم منه إذا عاقبه بسبب ذنب قد تقدّم منه * قوله (إنّ الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء) هذه الجملة استئنافية لبيان سعة علمه واحاطته بالمعلومات وعبر عن معلوماته بما فى الأرض والسماء مع كونها أوسع من ذلك لقصور عباده عن العلم بما سواهما من أمكنة مخلوقاته وسائر معلوماته ، ومن جملة مالايخفى عليه ايمان من آمن من خلقه وكفر من كفر * قوله (هو الذى يصوّركم فى الأرحام كيف يشاء) أصل اشتقاق الصورة من صاره الى كذا أى أماله اليه ، فالصورة مائلة الى شبه وهيئة ، وأصل الرحم من الرحمة لأنه مما يتراحم به ، وهـذه الجملة مستأنفة مشتملة على بيان احاطة علمه ، وأن من جملة معلوماته مالايدخل تحت الوجود وهو تصوير عباده فى أرحام أمهاتهم من نطف آبائهم كيف يشاء من حسن وقبيح ، وأسود ، وأبيض ، وطويل ، وقصير * وكيف معمول يشاء والجملة حالية .

وقد

وقد أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر عن جعفر بن محمد بن الزبير قال : قدم على رسول الله ﷺ وفد نجران ستون راكبا ، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم ، فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة والعاقب وعبد المسيح والسيد : وهو الأيهم ، ثم ذكروا القصة فى الكلام الذى دار بينهم و بين رسول الله ﷺ وأن الله أنزل فى ذلك صدر سورة آل عمران الى بضع وثمانين آية منها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع ، فذكر وفد نجران ومخاصمتهم للنبى ﷺ فى عيسى عليه السلام ، وأن الله أنزل (الم الله لاإله إلا هوالحى القيوم) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله (مصدقالما بين يديه) قال لما قبله من كتاب أو رسول . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه ، وقال فى قوله (وأنزل الفرقان) هو القرآن فرق بين الحق والباطل ، فأحل فيه حلاله وحرم فيه حرامه ، وشرع فيه شرائعه ، وحدّ فيه حدوده ، وفرض فيه فرائضه : و بين فيه بيانه ، وأمر بطاعته ، ونهى عن معصيته . وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير فى قوله (وأنزل الفرقان) أى الفصل بين الحق والباطل فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى وغيره ، وفى قوله (ان الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذوانتقام) أى ان الله ينتقم ممن كفر بآياته بعدعلمه بها ومعرفته بما جاء منه فيها * وفى قوله (ان الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء) ، أى قد علم مايريدون وما يكيدون وما يضاهون بقولهم فى عيسى اذ جعلوه ربا و إلها ، وعندهم من علمه غير ذلك غرة بالله وكفرا به (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) قدكان عيسى ممن صوّر فى الأرحام لايدفعون ذلك ولاينكرونه كما صوّر غيره من بنى آدم ، فكيف يكون إلها وقد كان بذلك المنزل . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله (يصوّركم فى الأرحام كيف يشاء) قال ذكورا واناثا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله (يصوّركم فى الأرحام كيف يشاء) قال اذا وقعت النطفة فى الأرحام طارت فى الجسد أربعين يوما ، ثم تكون علقة أربعين يوما ، ثم تكون مضغة أربعين يوما ، فاذا بلغ أن يخلق بعث الله ملكا يصوّرها فيأتى الملك بتراب بين أصبعيه فيخلط منه المضغة ثم يعجنه بها ثم يصوّر كما يؤمر ، فيقول أذكر أم أنثى ، أشقى أم سعيد ، وما رزقه ، وما عمره ، وما أثره وما مصائبه ؟ فيقول الله ويكتب الملك ، فاذا مات ذلك الجسد دفن حيث أخذ ذلك التراب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله (يصوّركم فى الأرحام كيف يشاء) قال من ذكر وأنثى وأحمر وأسود وتامّ الخلق وغير تام الخلق .

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ * رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ

الكتاب هو القرآن ، فاللام للعهد ، وقدم الظرف وهو عليك لما يفيده من الاختصاص * وقوله (منه آيات محكمات) الموافق لقواعد العربية أن يكون الظرف خبرا مقدما ، والأولى بالمعنى أن يكون مبتدأ تقديره من

الكتاب آيات بينات على نحو ماتقدّم فى قوله ـ ومن الناس من يقول ـ وانما كان أولى ، لأن المقصود انقسام الكتاب الى القسمين المذكورين لامجرد الاخبار عنهما بأنهما من الكتاب ، والجملة حالية فى محل نصب أو مستأنفة لامحل لها . وقد اختلف العلماء فى تفسير المحكمات والمتشابهات على أقوال ، فقيل ان المحكم ماعرف تأويله وفهم معناه وتفسيره ، والمتشابه مالم يكن لأحد الى علمه سبيل ، ومن القائلين بهذا جابر بن عبد الله والشعبى وسفيان الثورى ، قالوا وذلك نحو الحروف المقطعة فى أوائل السور ، وقيل المحكم مالايحتمل إلا وجها واحدا ، والمتشابه مايحتمل وجوها ، فاذا ردّت الى وجه واحد وأبطل الباقى صار المتشابه محكما ، وقيل ان المحكم ناسخه وحرامه وحلاله وفرائضه ومانؤمن به ونعمل عليه ، والمتشابه منسوخه ، وأمثاله وأقسامه وما نؤمن به ولا نعمل به . روى هذا عن ابن عباس : وقيل المحكم : الناسخ ، والمتشابه : المنسوخ ، روى عن ابن مسعود وقتادة والربيع والضحاك ، وقيل المحكم الذى ليس فيه تصريف ولا تحريف عما وضع له ، والمتشابه : مافيه تصريف وتحريف وتأويل . قاله مجاهد وابن اسحق . قال ابن عطية وهذا أحسن الأقوال ، وقيل المحكم ما كان قائما بنفسه لايحتاج الى أن يرجع فيه إلى غيره ، والمتشابه : مايرجع فيه الى غيره . قال النحاس وهذا أحسن ماقيل فى المحكمات والمتشابهات . قال القرطبى ماقاله النحاس يبين مااختاره ابن عطية وهو الجارى على وضع اللسان ، وذلك أن المحكم اسم مفعول من أحكم ، والاحكام : الاتقان ، ولا شك فى أن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيه ولا تردّد ، انما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته واتقان تركيبها ، ومتى اختلّ أحد الأمرين جاء التشابه والاشكال . وقال ابن خوز منداد : للمتشابه وجوه مااختلف فيه العلماء أىّ الآيتين نسخت الأخرى كما فى الحامل المتوفى عنها زوجها ، فان من الصحابة من قال ان آية وضع الحمل نسخت آية الأربعة الأشهر والعشر ، ومنهم من قال بالعكس ، وكاختلافهم فى الوصية للوارث ، وكتعارض الآيتين أيهما أولى أن يقدّم اذا لم يعرف النسخ ولم توجد شرائطه ، وكتعارض الأخبار ، وتعارض الأقيسة : هذا معنى كلامه

والأولى أن يقال ان المحكم هو الواضح المعنى : الظاهر الدلالة إما باعتبار نفسه أو باعتبار غيره ، والمتشابه مالا يتضح معناه أو لاتظهر دلالته لاباعتبار نفسه ولا باعتبار غيره ، واذا عرفت هذا عرفت أن هذا الاختلاف الذى قدّمناه ليس كما ينبغى ، وذلك لأن أهل كل قول عرّفوا المحكم ببعض صفاته ، وعرّفوا المتشابه بما يقابلها * و بيان ذلك أن أهل القول الأوّل جعلوا المحكم ماوجد إلى علمه سبيل ، والمتشابه مالا سبيل الى علمه ، ولاشك أن مفهوم المحكم والمتشابه أوسع دائرة مما ذكروه ، فان مجرد الخفاء أوعدم الظهور أو الاحتمال أو التردّد يوجب التشابه ، وأهل القول الثانى خصوا المحكم بما ليس فيه احتمال ، والمتشابه بما فيه احتمال ، ولا شك أن هذا بعض أوصاف المحكم والمتشابه لا كلها ، وهكذا أهل القول الثالث فانهم خصوا كل واحد من القسمين بتلك الأوصاف المعينة دون غيرها ، وأهل القول الرابع خصوا كل واحد منهما ببعض الأوصاف التى ذكرها أهل القول الثالث ، والأمر أوسع مما قالوه جميعا ، وأهل القول الخامس خصوا المحكم بوصف عدم التصريف والتحريف ، وجعلوا المتشابه مقابله ، وأهملوا ماهو أهمّ من ذلك مما لا سبيل الى علمه من دون تصريف وتحريف ، كفواتح السور المقطعة ، وأهل القول السادس خصوا المحكم بما يقوم بنفسه ، والمتشابه بما لايقوم بها ، وأن هذا هو بعض أوصافهما ، وصاحب القول السابع وهو ابن خوزمنداد عمد الى صورة الوفاق فجعلها محكما ، والى صورة الخلاف والتعارض فجعلها متشابها فأهمل ماهو أخص أوصاف كل واحد منهما من كونه باعتبار نفسه مفهوم المعنى أوغير مفهوم * قوله (هنّ أمّ الكتاب) أى أصله الذى يعتمد عليه ، ويردّ ماخالفه اليه ، وهذه الجملة صفة

لما قبلها * قوله (وأخر متشابهات) وصف لمحذوف مقدّر ، أى وآيات أخر متشابهات ، وهى جمع أخرى وانما لم ينصرف لانه عدل بها عن الآخر ، لان أصلها أن يكون كذلك . وقال أبو عبيد لم ينصرف ، لأن واحدها لاينصرف فى معرفة ولا نكرة ، وأنكر ذلك المبرد . وقال الكسائى لم تنصرف لأنها صفة ، وأنكره أيضا المبرد . وقال سيبويه لايجوز أن يكون أخر معدولة عن الألف واللام لأنها لو كانت معدولة عنها لكان معرفة ، ألا ترى أن سحر معرفة فى جميع الأقاويل لما كانت معدولة * قوله (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) الزيغ : الميل ، ومنه زاغت الشمس وزاغت الأبصار ، ويقال زاغ يزيغ زيغا : اذا ترك القصد ، ومنه قوله تعالى ـ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ـ وهذه الآية تعمّ كل طائفة من الطوائف الخارجة عن الحق * وسبب النزول نصارى نجران كما تقدّم ، وسيأتى * قوله (فيتبعون ماتشابه منه) أى يتعلقون بالمتشابه من الكتاب فيشككون به على المؤمنين ويجعلونه دليلا على ماهم فيه من البدعة المائلة عن الحق كما تجده فى كل طائفة من طوائف البدعة فانهم يتلاعبون بكتاب الله تلاعبا شديدا ويوردون منه لتنفيق جهلهم ماليس من الدلالة فى شىء * قوله (ابتغاء الفتنة) أى طلبا منهم لفتنة الناس فى دينهم والتلبيس عليهم وإفساد ذات بينهم (وابتغاء تأويله) أى طلبا لتأويله على الوجه الذى يريدونه ويوافق مذاهبهم الفاسدة . قال الزجاج معنى ابتغائهم تأويله : أنهم طلبوا تأويل بعثهم وإحيائهم فأعلم الله عزّ وجلّ أن تأويل ذلك ووقته لايعلمه إلا الله . قال والدليل على ذلك قوله ـ هل ينظرون الا تأويله يوم يأتى تأويله ـ أى يوم يرون مايوعدون من البعث والنشور والعذاب ـ يقول الذين نسوه ـ أى تركوه ـ قد جاءت رسل ربنا بالحق ـ أى قد رأينا تأويل ماأنبأتنا به الرسل * قوله (وما يعلم تأويله إلا الله) التأويل يكون بمعنى التفسير ، كقولهم تأويل هذه الكلمة على كذا ، أى تفسيرها ، ويكون بمعى مايؤول الأمر اليه ، واشتقاقه من آل الأمر الى كذا يؤول اليه : أى صار ، وأوّلته تأويلا : أى صيرته ، وهذه الجملة حالية ، أى يتبعون المتشابه لابتغاء تأويله ، والحال أن مايعلم تأويله إلا الله . وقد اختلف أهل العلم فى قوله (والراسخون فى العلم) هل هو كلام مقطوع عما قبله أو معطوف على ماقبله ؟ فتكون الواو للجمع ، فالذى عليه الأكثر انه مقطوع عما قبله ، وأن الكلام تمّ عند قوله (إلا الله) هذا قول ابن عمر وابن عباس وعائشة وعروة ابن الزبير وعمر بن عبد العزيز وأبى الشعثاء وأبى نهيك وغيرهم ، وهومذهب الكسائى والفراء والأخفش وأبى عبيد ، وحكاه ابن جرير الطبرى عن مالك واختاره ، وحكاه الخطابى عن ابن مسعود وأبىّ بن كعب قال وانما روى عن مجاهد أنه نسق الراسخين على ماقبله ، وزعم أنهم يعلمونه : قال واحتج له بعض أهل اللغة فقال معناه والراسخون فى العلم يعلمونه قائلين (آمنابه) وزعم أن موضع (يقولون) نصب على الحال وعامة أهل اللغة ينكرونه ويستبعدونه ، لأن العرب لاتضمر الفعل والمفعول معا ، ولا تذكر حالا إلا مع ظهور الفعل ، فاذا لم يظهر فعل لم يكن حالا ، ولو جاز ذلك لجاز أن يقال عبدالله راكبا ، يعنى أقبل عبدالله راكبا ، وانما يجوز ذلك مع ذكر الفعل كقوله عبدالله يتكلم يصلح بين الناس فكان يصلح حالا كقول الشاعر أنشدنيه أبو عمرو قال أنشدنا أبو العباس ثعلب :

أرسلت فيها رجلا لكالكا * يقصر يمشى ويطول باركا

فكان قول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قول مجاهد وحده ، وأيضا فانه لايجوز أن ينفى الله سبحانه شيئا عن الخلق وينسبه لنفسه فيكون له فى ذلك شريك ، ألا ترى قوله عزّ وجلّ ؟ ـ قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ـ * وقوله ـ لايجليها لوقتها إلا هو ـ * وقوله ـ كل شىء هالك إلا وجهه ـ فكان هذا كله مما استأثر الله سبحانه به لايشركه فيه غيره ، وكذلك قوله

تعالى (وما يعلم تأويله الا الله) ولو كانت الواو فى قوله (والرّاسخون) للنسق لم يكن لقوله (كلّ من عند ربنا) فائدة انتهى . قال القرطبي ماحكاه الخطابى من انه لم يقل بقول مجاهد غيره . فقد روى عن ابن عباس أن الراسخين معطوف على اسم الله عزّ وجلّ ، وأنهم داخلون فى علم المتشابه ، وأنهم مع علمهم به يقولون آمنا به . وقاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد وغيرهم ، و(يقولون) على هذا التأويل نصب على الحال من الراسخون كما قال :

الريح يبكى شجوه * والبرق يلمع فى الغمامه

وهذا البيت يحتمل المعنيين فيجوز أن يكون والبرق مبتدأ والخبر يلمع على التأويل الأوّل فيكون مقطوعا مما قبله ، ويجوز أن يكون معطوفا على الريح ، ويلمع فى موضع الحال على التأويل الثانى ، أى لامعا انتهى * ولايخفاك أن ماقاله الخطابى فى وجه امتناع كون قوله (يقولون آمنا به) حالا من أن العرب لاتذكر حالا الا مع ظهور الفعل الى آخر كلامه لايتم الا على فرض أنه لافعل هنا ، وليس الأمر كذلك ، فالفعل مذكور ، وهو قوله (وما يعلم تأويله) ولكنه جاء الحال من المعطوف ، وهو قوله (والرّاسخون) دون المعطوف عليه ، وهو قوله (إلا الله) وذلك جائز فى اللغة العربية . وقد جاء مثله فى الكتاب العزيز ، ومنه قوله تعالى ــ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ــ إلى قوله ــ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ــ الآية ، وكقوله ــ وجاء ربك والملك صفاصفا ــ أى وجاءت الملائكة صفا صفا ولكن ههنا مانع آخر من جعل ذلك حالا ، وهو أن تقييد علمهم بتأويله بحال كونهم قائلين آمنا به ليس بصحيح فان الراسخين فى العلم على القول بصحة العطف على الاسم الشريف يعلمونه فى كل حال من الاحوال لافى هذه الحالة الخاصة ، فاقتضى هذا أن جعل قوله (يقولون آمنا به) حالا غير صحيح ، فتعين المصير الى الاستئناف والجزم بأن قوله (والرّاسخون فى العلم) مبتدأ خبره (يقولون) ، ومن جملة مااستدل به القائلون بالعطف أن الله سبحانه مدحهم بالرسوخ فى العلم ، فكيف يمدحهم وهم لايعلمون ذلك ، ويجاب عن هذا بأن تركهم لطلب علم مالم يأذن الله به ، ولا جعل لخلقه الى علمه سبيلا هو من رسوخهم ، لأنهم علموا أن ذلك مما استأثر الله بعلمه وأن الذين يتبعونه هم الذين فى قلوبهم زيغ ، وناهيك بهذا من رسوخ ، وأصل الرسوخ فى لغة العرب : الثبوت فى الشىء ، وكل ثابت راسخ ، وأصله فى الأجرام أن ترسخ الخيل أو الشجر فى الأرض ، ومنه قول الشاعر :

لقد رسخت فى الصدر منى مودّة * لليلى أبت آياتها أن تغيرا

فهولاء ثبتوا فى امتثال ماجاءهم عن الله من ترك اتباع المتشابه ، وإرجاع علمه إلى الله سبحانه . ومن أهل العلم من توسط بين المقامين : فقال التأويل يطلق ويراد به فى القرآن شيئان * أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشىء ومايؤول أمره اليه ، ومنه قوله ــ هذا تأويل رؤياى ــ * وقوله ــ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله ــ أى حقيقة ماأخبروا به من أمر المعاد ، فان أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة ، لأن حقائق الأمور وكنهها لايعلمه إلا الله عزّ وجلّ ، ويكون قوله (والراسخون فى العلم) مبتدأ و(يقولون آمنا به) خبره . وأما ان أريد بالتأويل المعنى الآخر ، وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشىء كقوله ــ نبئنا بتأويله ــ أى بتفسيره ، فالوقف على (والراسخون فى العلم) لأنهم يعلمون ويفهمون ماخوطبوا به بهذا الاعتبار ، وان لم يحيطوا علما بحقائق الأشياء على كنه ماهى عليه ، وعلى هذا فيكون (يقولون آمنا به) حالا منهم ، ورجح ابن فورك ان الرّاسخين يعلمون تأويله ، وأطنب فى ذلك ، وهكذا جماعة من محققى المفسرين رجحوا ذلك . قال القرطبى : قال شيخنا أبو العباس

أحمد

أحمد بن عمر وهو الصحيح فان تسميتهم راسخين تقضى بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذى يستوى فى علمه جميع من يفهم كلام العرب ، وفى أىّ شىء هو رسوخهم اذا لم يعلموا الا مايعلم الجميع ، لكن المتشابه يتنوّع ، فمنه مالا يعلم ألبتة كأمر الروح والساعة مما استأثر الله بعلمه ، وهذا لايتعاطى علمه أحد ، فمن قال من العلماء الحذاق بأن الراسخين لايعلمون علم المتشابه فانما أراد هذا النوع . وأما مايمكن حمله على وجوه فى اللغة فيتأوّل ويعلم تأويله المستقيم ويزال مافيه من تأويل غير مستقيم انتهى .

واعلم أن هذا الاضطراب الواقع فى مقالات أهل العلم أعظم أسبابه اختلاف أقوالهم فى تحقيق معنى المحكم والمتشابه . وقد قدّمنا لك ماهو الصواب فى تحقيقهما ، ونزيدك ههنا ايضاحا وبيانا ، فنقول ان من جملة مايصدق عليه تفسير المتشابه الذى قدّمناه فواتح السور ، فانها غير متضحة المعنى ، ولا ظاهرة الدلالة ، لابالنسبة الى أنفسها ، لأنه لايدرى من يعلم بلغة العرب ، ويعرف عرف الشرع مامعنى الم ، المر ، حم ، طس ، طسم ونحوها ، لأنه لايجد بيانها فى شىء من كلام العرب ولا من كلام الشرع ، فهى غير متضحة المعنى ، لاباعتبارها نفسها ، ولا باعتبار أمر آخر يفسرها ويوضحها ، ومثل ذلك الألفاظ المنقولة عن لغة العجم ، والألفاظ الغريبة التى لايوجد فى لغة العرب ولا فى عرف الشرع مايوضحها ، وهكذا ما استأثر الله بعلمه كالروح وما فى قوله ـ إنّ الله عنده علم الساعة ـ الى آخر الآية ، ونحو ذلك ، وهكذا ما كانت دلالته غير ظاهرة لاباعتبار نفسه ولا باعتبار غيره كورود الشىء محتملا لأمرين احتمالا لايترجح أحدهما على الآخر باعتبار ذلك الشىء فى نفسه ، وذلك كالألفاظ المشتركة مع عدم ورود ما يبين المراد من معنى ذلك المشترك من الأمور الخارجة ، وكذلك ورود دليلين متعارضين تعارضا كليا بحيث لا يمكن ترجيح أحدهما على الآخر لاباعتبار نفسه ولا باعتبار أمر آخر يرجحه . وأما ما كان واضح المعنى باعتبار نفسه بأن يكون معروفا فى لغة العرب أو فى عرف الشرع أو باعتبار غيره ، وذلك كالأمور المجملة التى ورد بيانها فى موضع آخر من الكتاب العزيز أو فى السنة المطهرة أو الأمور التى تعارضت دلالتها ، ثم ورد مايبين راجحها من مرجوحها فى موضع آخر من الكتاب أو السنة أو سائر المرجحات المعروفة عند أهل الأصول المقبولة عند أهل الانصاف ، فلا شك ولاريب أن هذه من المحكم لامن المتشابه ، ومن زعم أنها من المتشابه فقد اشتبه عليه الصواب ، فاشدد يديك على هذا فانك تنجو به من مضايق ومزالق وقعت للناس فى هذا المقام حتى صارت كل طائفة تسمى مادل لما تذهب اليه محكما ، وما دل على مايذهب اليه من يخالفها متشابها : سيما أهل علم الكلام ، ومن أنكر هذا فعليه بمؤلفاتهم .

واعلم أنه قد ورد فى الكتاب العزيز مايدل على أنه جميعه محكم ، ولكن لا بهذا المعنى الوارد فى هذه الآية بل بمعنى آخر ، ومن ذلك قوله تعالى ـ كتاب أحكمت آياته ـ وقوله ـ تلك آيات الكتاب الحكيم ـ والمراد بالمحكم بهذا المعنى أنه صحيح الألفاظ قويم المعانى فائق فى البلاغة والفصاحة على كل كلام ، وورد أيضا مايدل على أنه جميعه متشابه لكن لابهذا المعنى الوارد فى هذه الآية التى نحن بصدد تفسيرها بل بمعنى آخر . ومنه قوله تعالى ـ كتابا متشابها ـ والمراد بالمتشابه بهذا المعنى أنه يشبه بعضه بعضا فى الصحة والفصاحة والحسن والبلاغة * وقد ذكر أهل العلم لورود المتشابه فى القرآن فوائد ، منها أنه يكون فى الوصول الى الحق مع وجودها فيه مزيد صعوبة ومشقة ، وذلك يوجب مزيد الثواب للمستخرجين للحق وهم الأئمة المجتهدون ، وقد ذكر الزمخشرى والرازى وغيرهما وجوها هذا أحسنها ، وبقيتها لاتستحق الذكر ههنا * قوله (كلّ من عند ربنا) فيه ضمير مقدر عائد على قسمى المحكم والمتشابه ، أى كله أو المحذوف غير ضمير ، أى كل واحد منهما ، وهذا من تمام المقول المذكور قبله * وقوله (وما يذكر إلا أولوا الألباب)

أى العقول الخالصة : وهم الراسخون فى العلم ، الواقفون عند متشابهه ، العالمون بمحكمه ، العاملون بما أرشدهم الله اليه فى هذه الآية * وقوله (ربنا لاتزغ) الخ من تمام مايقوله الراسخون : أى يقولون آمنابه كل من عند ربنا ، ويقولون (ربنا لاتزغ قلوبنا) قال ابن كيسان : سألوا ألايزيغوا فتزيغ قلوبهم نحو قوله تعالى — فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم — كأنهم لما سمعوا قوله سبحانه (وأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه) قلوا ربنا لاتزغ قلوبنا باتباع المتشابه (بعد اذ هديتنا) الى الحق بما أذنت لنا من العمل بالآيات المحكمات ، والظرف وهو قوله بعد منتصب بقوله لاتزغ * قوله (وهب لنا من لدنك رحمة) أى كائنة من عندك ، ومن لابتداء الغاية : ولدن بفتح اللام وضم الدال وسكون النون ، وفيه لغات أخرهذه أفصحها وهوظرف مكان ، وقديضاف الى الزمان ، وتنكير رحمة للتعظيم : أى رحمة عظيمة واسعة * وقوله (إنك أنت الوهاب) تعليل للسؤال أولاعطاء المسئول * وقوله (ربنا انك جامع الناس) أى باعثهم ومحييهم بعد تفرقهم (ليوم) هو يوم القيامة أى لحساب يوم ، أو لجزاء يوم على تقدير حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه * قوله (لاريب فيه) أى فى وقوعه ووقوع مافيه من الحساب والجزاء ، وقد تقدم تفسير الريب ، وجملة قوله (ان الله لايخلف الميعاد) للتعليل لمضمون ماقبلها أى ان الوفاء بالوعد شأن الاله سبحانه وخلفه يخالف الالوهية كما أنها تنافيه وتباينه .

وقدأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه ومانؤمن به ونعمل به ، والمتشابهات منسوخه ومقدمه ومؤخره ، وأمثاله وأقسامه ، ومانؤمن به ولانعمل به . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال : فى قوله (منه آيات محكمات) قال الثلاث آيات من آخر سورة الأنعام محكمات — قل تعالوا — والآيتان بعدها وفى رواية عنه أخرجها عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله (آيات محكمات) قال من هنا — قل تعالوا — الى ثلاث آيات ، ومن هنا — وقضى ربك ألاتعبدوا إلا إياه — الى ثلاث آيات بعدها * وأقول رحم الله ابن عباس ماأقل جدوى هذا الكلام المنقول عنه ، فان تعيين ثلاث آيات أوعشر أومائة من جميع آيات القرآن ووصفها بأنها محكمة ليس تحته من الفائدة شىء ، فالمحكمات هى أكثر القرآن على جميع الأقوال حتى على قوله المنقول عنه قريبا من أن المحكمات ناسخه وحلاله الخ ، فما معنى تعيين تلك الآيات من آخر سورة الأنعام . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : المحكمات الحلال والحرام ، وللسلف أقوال كثيرة هى راجعة الى ماقدمنا فى أول هذا البحث . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) يعنى أهل الشك ، فيحملون المحكم على المتشابه والمتشابه على المحكم ويلبسون ، فلبس الله عليهم (ومايعلم تأويله إلا الله) قال تأويله يوم القيامة لايعلمه إلا الله . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود زيغ قال : شك ، وفى الصحيحين وغيرهما عن عائشة قالت تلا رسول الله ﷺ (هو الذى أنزل عليك الكتاب) الى قوله (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) الى قوله (أولوا الألباب) قالت قال رسول الله ﷺ اذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى فاحذروهم ، وفى لفظ فاذا رأيت الذين يتبعون ماتشابه منه فأولئك الذى سماهم الله فاحذروهم . هذا لفظ البخارى ، ولفظ ابن جرير وغيره فاذا رأيتم الذين يتبعون ماتشابه منه والذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فلا تجالسوهم . وأخرج عبد بن حميد وعبدالرزاق وأحمد وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أبى أمامة عن النبى ﷺ فى قوله (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه) قال هم الخوارج . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه عن ابن مسعود عن النبى ﷺ . قال كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد

ونزل القرآن على سبعة أحرف : زاجر، وآمر ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه ، واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا . وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود موقوفا . وأخرج الطبراني عن عمر بن أبي سلمة ان النبي ﷺ . قال لعبد الله بن مسعود فذكر نحوه . وأخرج البخاري في التاريخ عن عليّ مرفوعا باسناد ضعيف نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي داود في المصاحف عن ابن مسعود نحوه . وأخرج ابن جرير وأبو يعلى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ . قال نزل القرآن على سبعة أحرف ، والمراء في القرآن كفر ، ماعرفتم فاعملوا به ، وماجهلتم منه فردّوه الى عالمه واسناده صحيح . وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي هريرة مرفوعا ، وفيه واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن طاوس . قال كان ابن عباس يقرؤها (وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به) . وأخرج ابن أبي داود في المصاحف عن الأعمش قال في قراءة عبد الله وان حقيقة تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي الشعثاء وأبي نهيك قال انكم تصلون هذه الآية وهي مقطوعة (وما يعلم تأويله إلا الله) والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) فانتهى علمهم الى قولهم الذى قالوا . وأخرج ابن جرير عن عروة . قال الراسخون في العلم لايعلمون تأويله ، ولكنهم يقولون آمنا به كلّ من عند ربنا . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير عن عمر بن عبدالعزيز نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن أبيّ قال كتاب الله ما استبان فاعمل به ، وما اشتبه عليك فآمن به وكله الى عالمه . وأخرج أيضا عن ابن مسعود . قال ان للقرآن منارا كمنار الطريق ، فما عرفتم فتمسكوا به وما اشتبه عليكم فذروه . وأخرج أيضا عن معاذ نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال تفسير القرآن على أربعة وجوه ، تفسير يعلمه العلماء وتفسير لايعذر الناس بجهالته من حلال أو حرام ، وتفسير تعرفه العرب بلغتها ، وتفسير لا يعلم تأويله الا الله من ادّعى علمه فهو كاذب . وأخرج ابن جرير عنه قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف حلال وحرام لايعذر أحد بالجهالة به ، وتفسير تفسره العرب ، وتفسير تفسره العلماء ، ومتشابه لايعلمه إلا الله ، ومن ادّعى علمه سوى الله فهو كاذب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه . قال أنا ممن يعلم تأويله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عطية العوفي عنه في قوله (يقولون آمنا به) نؤمن بالمحكم وندين به ونؤمن بالمتشابه ولاندين به وهو من عند الله كله . وأخرج الدارمي في مسنده ونصر المقدسي في الحجة عن سلمان ابن يسار أن رجلا يقال له ضبيع قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فأرسل اليه عمر وقد أعدّ له عراجين النخل . فقال من أنت ؟ فقال أنا عبدالله ضبيع ، فقال وأنا عبدالله عمر . فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه حتى دمى رأسه ، فقال ياأمير المؤمنين حسبك قد ذهب الذى كنت أجد في رأسي . وأخرجه الدارمي أيضا من وجه آخر ، وفيه أنه ضربه ثلاث مرات يتركه في كل مرة حتى يبرأ ، ثم يضربه . وأخرج أصل القصة ابن عساكر في تاريخه عن أنس . وأخرج الدارمي وابن عساكر أن عمر كتب الى أهل البصرة أن لايجالسوا ضبيعا . وقد أخرج هذه القصة جماعة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أنس وأبي أمامة وواثلة بن الأسقع وأبي الدرداء أن رسول الله ﷺ سئل عن الراسخين في العلم ؟ فقال من برّت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه ، ومن عف بطنه وفرجه فذلك من الراسخين في العلم . وأخرج ابن عساكر من طريق عبدالله بن يزيد الأزدي عن أنس مرفوعا نحوه . وأخرج أبو داود والحاكم عن أبي هريرة . قال قال رسول الله ﷺ الجدال في القرآن كفر . وأخرج نصر المقدسي

فى الحجة عن ابن عمر . قال خرج رسول الله ﷺ ومن وراء حجرته قوم يتجادلون بالقرآن ، فخرج محمرة وجنتاه كأنما يقطران دما . فقال ياقوم لاتجادلوا بالقرآن فانما ضل من كان قبلكم بجدالهم ، ان القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا ، ولكن نزل ليصدق بعضه بعضا ، فما كان من محكمه فاعملوا به ، وما كان من متشابهه فآمنوا به . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أم سلمة أن النبى ﷺ كان يقول «يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » ثم قرأ (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا) الآية . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وابن جرير والطبرانى وابن مردويه عنها مرفوعا نحوه بأطول منه . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وابن مردويه عن عائشة مرفوعا نحوه . وقد ورد نحوه من طرق أخر . وأخرج ابن النجار فى تاريخه فى قوله (ربنا انك جامع الناس ليوم) الآية عن جعفر بن محمد الخلدى قال : روى عن النبى ﷺ ان من قرأ هذه الآية على شىء ضاع منه رده الله عليه ، ويقول بعد قراءتها ياجامع الناس ليوم لاريب فيه اجمع بينى و بين مالى انك على كل شىء قدير .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ *

المراد بالذين كفروا جنس الكفرة ، وقيل وفد نجران ، وقيل قريظة ، وقيل النضير ، وقيل مشركو العرب ، وقرأ السلمى لن يغنى بالتحتية ، وقرأ الحسن بسكون الياء الآخرة تخفيفا * قوله (من الله شيئا) أى من عذابه شيئا من الاغناء ، وقيل ان كلمة من بمعنى عند ، أى لاتغنى عند الله شيئا . قاله أبو عبيد ، وقيل هى بمعنى بدل * والمعنى بدل رحمة الله وهو بعيد * قوله (وأولئك هم وقود النار) الوقود : اسم للحطب . وقد تقدم الكلام عليه فى سورة البقرة ، أى هم حطب جهنم الذى تسعر به ، وهم مبتدأ ، ووقود خبره والجملة خبر أولئك ، أوهم ضمير فصل ، وعلى التقديرين فالجملة مستأنفة مقررة لقوله (لن تغنى عنهم أموالهم) الآية . وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة بن مصرف وقود بضم الواو وهو مصدر ، وكذلك الوقود بفتح الواو فى قراءة الجمهور يحتمل أن يكون اسما للحطب كما تقدم فلا يحتاج الى تقدير ، ويحتمل أن يكون مصدرا ، لأنه من المصادر التى تأتى على وزن الفعول فتحتاج الى تقدير ، أى هم أهل وقود النار * قوله (كدأب آل فرعون) الدأب : الاجتهاد ، يقال دأب الرجل فى عمله يدأب دأبا ودءوبا : إذا جد واجتهد ، والدائبان الليل والنهار ، والدأب : العادة والشأن ، ومنه قول امرئ القيس :

كدأبك من أم الحويرث قبلها * وجارتها أم الرباب بمأسل

والمراد هنا كعادة آل فرعون وشأنهم وحالهم ، واختلفوا فى الكاف ، فقيل هى فى موضع رفع تقديره دأبهم كدأب آل فرعون مع موسى . وقال الفراء ان المعنى : كفرت العرب ككفر آل فرعون . قال النحاس لايجوز أن تكون الكاف متعلقة بكفروا ، لأن كفروا داخلة فى الصلة ، وقيل هى متعلقة بأخذهم الله ، أى أخذهم أخذة كما أخذ آل فرعون ، وقيل هى متعلقة بلن تغنى ، أى لم تغن عنهم غناء ، كما لم تغن

عن آل فرعون ، وقيل ان العامل فعل مقدّر من لفظ الوقود ، ويكون التشبيه فى نفس الاحراق . قالوا ويؤيده قوله تعالى ـ أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب . النار يعرضون عليها غدوّا وعشيا ـ ، والقول الأوّل هوالذى قاله جمهور المحققين ، ومنهم الأزهرى * قوله (والذين من قبلهم) أى من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة ، أى وكدأب الذين من قبلهم * قوله (كذبوا بآياتنا فأخذهم الله) يحتمل أن يريد الآيات المتلوّة ، ويحتمل أن يريد الآيات المنصوبة للدلالة على الوحدانية ، ويصح إرادة الجميع * والجملة بيان وتفسير لدأبهم ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من آل فرعون والذين من قبلهم على إضمارقد أى دأب هؤلاء كدأب أولئك قد كذبوا الخ * وقوله (بذنوبهم) أى بسائر ذنوبهم التى من جملتها تكذيبهم * قوله (قل للذين كفروا) قيل هم اليهود ، وقيل هم مشركو مكة ، وسيأتى بيان سبب نزول الآية * وقوله (ستغلبون) قرئ بالفوقية والتحتية ، وكذلك (تحشرون) . وقد صدق الله وعده بقتل بنى قريظة ، وإجلاء بنى النضير ، وفتح خيبر ، وضرب الجزية على سائر اليهود ، ولله الحمد * قوله (وبئس المهاد) يحتمل أن يكون من تمام القول الذى أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقوله لهم ، ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة تهويلا وتفظيعا * قوله (قد كان لكم آية) أى علامة عظيمة دالة على صدق ماأقول لكم ، وهذه الجملة جواب قسم محذوف ، وهى من تمام القول المأمور به لتقرير مضمون ماقبله ولم يقل كانت لأن التأنيث غير حقيقى . وقال الفراء انه ذكر الفعل لأجل الفصل بينه وبين الاسم بقوله (لكم) * والمراد بالفئتين المسلمون والمشركون لما التقوا يوم بدر * قوله (فئة تقاتل فى سبيل الله) قراءة الجمهور برفع فئة . وقرأ الحسن ومجاهد فئة وكافرة بالخفض ، فالرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف أى إحداهما فئة * وقوله (تقاتل) فى محل رفع على الصفة ، والجر على البدل من قوله (فئتين) * وقوله (وأخرى) أى وفئة أخرى كافرة . وقرأ ابن أبى عبلة بالنصب فيهما . قال ثعلب هو على الحال ، أى التقتا مختلفتين : مؤمنة وكافرة . وقال الزجاج النصب بتقدير أعنى ، وسميت الجماعة من الناس فئة لأنه يفاء اليها ، أى يرجع فى وقت الشدّة . وقال الزجاج الفئة : الفرقة مأخوذ من فأوت رأسه بالسيف : إذا قطعته ، ولا خلاف أن المراد بالفئتين هما المقتتلتان فى يوم بدر ، وانما وقع الخلاف فى المخاطب بهذا الخطاب ، فقيل المخاطب بها المؤمنون ، وقيل اليهود * وفائدة الخطاب للمؤمنين تثبيت نفوسهم وتشجيعها ، وفائدته اذا كان مع اليهود عكس الفائدة المقصودة بخطاب المسلمين * قوله (ترونهم مثليهم) . قال أبو على الفارسى الرؤية فى هذه الآية رؤية العين ، ولذلك تعدت الى مفعول واحد ويدل عليه قوله (رأى العين) والمراد أنه يرى المشركون المسلمين مثلى عدد المشركين أومثلى عدد المسلمين ، وهذا على قراءة الجمهور بالياء التحتية . وقرأ نافع بالفوقية * وقوله (مثليهم) منتصب على الحال . وقد ذهب الجمهور الى أن فاعل ترون هم المؤمنون ، والمفعول هم الكفار * والضمير فى مثليهم يحتمل أن يكون للمشركين ، أى ترون أيها المسلمون المشركين مثلى ماهم عليه من العدد ، وفيه بعد أن يكثر الله المشركين فى أعين المؤمنين . وقد أخبرنا أنه قللهم فى أعين المؤمنين ، فيكون المعنى ترون أيها المسلمون المشركين مثليكم فى العدد . وقد كانوا ثلاثة أمثالهم فقلل الله المشركين فى أعين المسلمين فأراهم اياهم مثلى عدّتهم لتقوى أنفسهم . وقد كانوا أعلموا أن المائة منهم تغلب المائتين من الكفار ، ويحتمل أن يكون الضمير فى مثليهم للمسلمين ، أى ترون أيها المسلمون أنفسكم مثلى ماأنتم عليه من العدد لتقوى بذلك أنفسكم . وقد قال من ذهب الى التفسير الأوّل ، أعنى أن فاعل الرؤية المشركون ، وأنهم رأوا المسلمين مثلى عددهم انه لايناقض هذا مافى سورة الأنفال من قوله تعالى ـ ويقللكم فى أعينهم ـ بل قللوا أوّلا فى أعينهم ليلاقوهم ويجترئوا عليهم ، فلما

لاقوهم كثروا فى أعينهم حتى غلبوا * قوله (رأى العين) مصدر مؤكد لقوله (ترونهم) أى رؤية ظاهرة مكشوفة لالبس فيها (والله يؤيد بنصره من يشاء) أى يقوّى من يشاء أن يقويه، ومن جملة ذلك تأييد أهل بدر بتلك الرؤية (ان فى ذلك) أى فى رؤية القليل كثيرا (لعبرة) فعلة من العبور كالجلسة من الجلوس * والمراد الاتعاظ، والتنكير للتعظيم، أى عبرة عظيمة، وموعظة جسيمة.

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (كدأب آل فرعون) قال كصنيع آل فرعون. وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عنه قال كفعل. وأخرج مثله أبو الشيخ عن مجاهد. وأخرج ابن جرير عن الربيع. قال كسنتهم. وأخرج ابن اسحق وابن جرير والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع الى المدينة جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع قال يامعشر يهود: أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا، قالوا يامحمد لايغرنك من نفسك أن قتلت نفرا كانوا أغمارا لايعرفون القتال انك والله لوقاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله (قل للذين كفروا ستغلبون) الى قوله (أولى الأبصار). وأخرج ابن جرير وابن اسحق وابن أبى حاتم عن عاصم بن عمر بن قتادة مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال قال فنحاص اليهودى وذكر نحوه. وأخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله (قد كان لكم آية) عبرة وتفكر. وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله) أصحاب رسول الله ﷺ ببدر (وأخرى كافرة) فئة قريش الكفار. وأخرج عبد الرزاق أن هذه الآية نزلت فى أهل بدر. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع فى قوله (قد كان لكم آية) يقول قد كان لكم فى هؤلاء عبرة ومتفكر، أيدهم الله ونصرهم على عدوّهم يوم بدر كان المشركين تسعمائة وخمسين رجلا، وكان أصحاب محمد ﷺ ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى الآية قال هذا يوم بدر نظرنا الى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا اليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال أنزلت فى التخفيف يوم بدر على المؤمنين كانوا يومئذ ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا، وكان المشركون مثليهم ستمائة وستة وعشرين فأيد الله المؤمنين.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ *

قوله (زين للناس) الخ كلام مستأنف لبيان حقارة ماتستلذه الأنفس فى هذه الدار، والمزين قيل هو الله سبحانه، وبه قال عمر كما حكاه عنه البخارى وغيره، ويؤيده قوله تعالى ـ إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم ـ * وقيل المزين هو الشيطان، وبه قال الحسن، حكاه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عنه. وقرأ الضحاك زين على البناء للفاعل. وقرأه الجمهور على البناء للمفعول * والمراد بالناس الجنس * والشهوات جمع شهوة، وهى نزوع النفس الى ماتريده * والمراد هنا المشتهيات عبر عنها بالشهوات

مبالغة

مبالغة فى كونها مرغوبا فيها أو تحقيرا لها لكونها مسترذلة عند العقلاء من صفات الطبائع البهيمية ، ووجه تزيين الله سبحانه لها ابتلاء عباده كما صرح به فى الآية الأخرى * وقوله (من النساء والبنين) فى محل الحال ، أى زين للناس حب الشهوات حال كونها من النساء والبنين الخ ، وبدأ بالنساء لكثرة تشوّق النفوس اليهنّ لأنهنّ حبائل الشيطان ، وخص البنين دون البنات لعدم الاطراد فى محبتهن * والقناطير جمع قنطار وهو اسم للكثير من المال . قال الزجاج القنطار مأخوذ من عقد الشىء وإحكامه : تقول العرب قنطرت الشىء : اذا أحكمته ، ومنه سميت القنطرة لاحكامها . وقد اختلف فى تقديره على أقوال للسلف ستأتى ان شاء الله . واختلفوا فى معنى المقنطرة فقال ابن جرير الطبرى معناها المضعفة ، وقال القناطير ثلاثة ، والمقنطرة تسعة . وقال الفراء القناطير جمع القنطار ، والمقنطرة جمع الجمع ، فتكون تسع قناطير * وقيل المقنطرة المضروبة ، وقيل المكملة كما يقال بدرة مبدرة ، وألوف ومؤلفة ، وبه قال مكى وحكاه الهروى . وقال ابن كيسان لا تكون المقنطرة أقلّ من سبع قناطير * وقوله (من الذهب والفضة) بيان للقناطير ، أو حال (والخيل المسوّمة) قيل هى المرعية فى المروج والمسارح ، يقال سامت الدابة والشاة : اذا سرحت ، وقيل هى المعدّة للجهاد ، وقيل هى الحسان ، وقيل المعلمة من السومة ، وهى العلامة ، أى التى يجعل عليها علامة لتتميز عن غيرها . وقال ابن فارس فى المجمل المسوّمة : المرسلة وعليها ركبانها . وقال ابن كيسان البلق * والأنعام هى الابل والبقر والغنم ، فاذا قلت نعم فهى الابل خاصة . قاله الفراء وابن كيسان ، ومنه قول حسان :

وكانت لايزال بها أنيس * خلال مروجها نعم وشاء

والحرث : اسم لكل مايحرث وهو مصدر سمى به المحروث ، يقول حرث الرجل حرثا : اذا أثار الأرض فيقع على الأرض والزرع . قال ابن الأعرابى الحرث : التفتيش * قوله (ذلك متاع الحياة الدنيا) أى ذلك المذكور مايتمتع به ثم يذهب ولايبقى ، وفيه تزهيد فى الدنيا وترغيب فى الآخرة * والمآب : المرجع آب يئوب إيابا : اذا رجع ، ومنه قول امرئ القيس :

لقد طوّفت فى الآفاق حتى * رضيت من الغنيمة بالاياب

قوله (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم) أى هل أخبركم بما هو خير لكم من تلك المستلذات وإبهام الخير للتفخيم ، ثم بينه بقوله (للذين اتقوا عند ربهم جنات) * وعند فى محل نصب على الحال من جنات وهى مبتدأ ، وخبرها للذين اتقوا ، ويجوز أن تتعلق اللام بخير * وجنات خبر مبتدأ مقدّر ، أى هو جنات ، وخص المتقين لأنهم المنتفعون بذلك . وقد تقدّم تفسير قوله (تجرى من تحتها الأنهار) وما بعده * قوله (الذين يقولون) بدل من قوله (للذين اتقوا) أو خبر مبتدأ محذوف ، أى هم الذين ، أو منصوب على المدح ، والصابرين وما بعده نعت للموصول على تقدير كونه بدلا ، أو منصوبا على المدح وعلى تقدير كونه خبرا يكون الصابرين وما بعده منصوبة على المدح . وقد تقدّم تفسير الصبر والصدق والقنوت * قوله (والمستغفرين بالأسحار) هم السائلون للمغفرة بالأسحار ، وقيل المصلون * والأسحار جمع سحر بفتح الحاء وسكونها . قال الزجاج هو من حين يدبر الليل الى أن يطلع الفجر ، وخص الأسحار لأنها من أوقات الاجابة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب ، لما نزلت (زين للناس حبّ الشهوات) قال الآن يارب حين زينتها لنا ، فنزلت (قل أؤنبئكم) . وأخرجه ابن المنذر عنه بلفظ خير انتهى إلى قوله (قل أؤنبئكم بخير) فبكى : وقال بعد ماذا بعد ماذا بعد ما زينتها . وأخرج أحمد وابن ماجه عن أبى هريرة : قال قال رسول الله ﷺ « القنطار اثنا عشر ألف أوقية » . رواه أحمد من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث عن حماد عن عاصم عن أبى صالح عنه . ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن

أبي شيبة عن عبدالصمد به . وقد رواه ابن جرير موقوفا على أبي هريرة . قال ابن كثير وهذا أصح . وأخرج الحاكم وصححه عن أنس قال : سئل رسول الله ﷺ عن القناطير المقنطرة فقال القنطار ألف أوقية . ورواه ابن أبي حاتم وابن مردويه عنه مرفوعا بلفظ ألف دينار . وأخرج ابن جرير عن أبيّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ «القنطار ألف أوقية ومائتا أوقية» . وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي من قول معاذ بن جبل ، وأخرجه ابن جرير من قول ابن عمر ، وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي من قول أبي هريرة ، وأخرجه ابن جرير والبيهقي من قول ابن عباس . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : القنطار ملء مسك جلد الثور ذهبا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر أنه قال : القنطار سبعون ألفا ، وأخرجه عبد بن حميد عن مجاهد : وأخرج أيضا عن سعيد بن المسيب قال القنطار ثمانون ألفا . وأخرج أيضا عن أبي صالح قال : القنطار مائة رطل . وأخرجه أيضا عن قتادة وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر قال : القنطار خمسة عشر ألف مثقال ، والمثقال أربعة وعشرون قيراطا وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال هو المال الكثير من الذهب والفضة . وأخرجه أيضا عن الربيع . وأخرج عن السدي أن المقنطرة المضروبة . وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس (والخيل المسومة) قال الراعية . وأخرج ابن المنذر عنه من طريق مجاهد . وأخرج ابن جرير عنه قال هي الراعية والمطهمة الحسان . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد . قال هي المطهمة الحسان . وأخرجا عن عكرمة قال تسويمها حسنها . وأخرج ابن أبي حاتم قال (الخيل المسومة) الغرّة والتحجيل . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله الصابرين قال قوم صبروا على طاعة الله وصبروا عن محارمه والصادقون قوم صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وألسنتهم وصدقوا في السر والعلانية ، والقانتون هم المطيعون والمستغفرون بالأسحار أهل الصلاة . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة قال هم الذين يشهدون صلاة الصبح . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أنس . قال أمرنا رسول الله ﷺ أن نستغفر بالأسحار سبعين مرة . وأخرج ابن جرير وأحمد في الزهد عن سعيد الجريري . قال بلغنا أن داود عليه السلام سأل جبريل فقال ياجبريل أيّ الليل أفضل ؟ قال ياداود ما أدري الا أن العرش يهتز في السحر ، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ . قال «ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة الى سماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول هل من سائل فأعطيه ، هل من داع فأستجيب له ، هل من مستغفر فأغفرله ؟

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ ٱهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ *

قوله (شهد الله) أي بين وأعلم . قال الزجاج : الشاهد هو الذي يعلم الشيء ويبينه ، فقد دلنا الله على وحدانيته بما خلق وبين ، وقال أبوعبيدة : شهد الله بمعنى قضى : أي أعلم . قال ابن عطية وهذا مردود

من

من جهات . وقيل انها شبهت دلالته على وحدانيته بأفعاله ووحيه بشهادة الشاهد فى كونهامبنية * وقوله أنه بفتح الهمزة . قال المبرد : أى بأنه ثم حذفت الباء كما فى أمرتك الخير : أى بالخير ، وقرأ ابن عباس انه بكسر الهمزة بتضمين شهد معنى قال . وقرأ أبو المهلب شهداء لله بالنصب على أنه حال من الصابرين ومابعده ، أوعلى المدح * والملائكة عطف على الاسم الشريف ، وشهادتهم اقرارهم بأنه لا إله إلا الله * وقوله (وأولوا العلم) معطوف أيضا على ماقبله ، وشهادتهم بمعنى الايمان منهم ومايقع من البيان للناس على ألسنتهم ، وعلى هذا لابدّ من حمل الشهادة على معنى يشمل شهادة الله وشهادة الملائكة وأولى العلم . وقد اختلف فى أولى العلم هؤلاء من هم ؟ فقيل هم الأنبياء ، وقيل المهاجرون والأنصار : قاله ابن كيسان ، وقيل مؤمنو أهل الكتاب ، قاله مقاتل ، وقيل المؤمنون كلهم ، قاله السدى والكلبى ، وهو الحق اذ لا وجه للتخصيص ، وفى ذلك فضيلة لأهل العلم جليلة ومنقبة نبيلة لقربهم باسمه واسم ملائكته ، والمراد بأولى العلم هنا علماء الكتاب والسنة وما يتوصل به الى معرفتهما إذ لا اعتداد بعلم لامدخل له فى العلم الذى اشتمل عليه الكتاب العزيز والسنة المطهرة * وقوله (قائما بالقسط) أى العدل : أى قائما بالعدل فى جميع أموره أومقيماله ، وانتصاب قائما على الحال من الاسم الشريف . قال فى الكشاف انها حال مؤكدة كقوله ـ وهو الحق مصدقا ـ وجاز افراده سبحانه بذلك دون ماهو معطوف عليه من الملائكة وأولى العلم لعدم اللبس ، وقيل انه منصوب على المدح ، وقيل انه صفة لقوله (إله) أى لا إله قائما بالقسط الا هو أو هو حال من قوله (الا هو) والعامل فيه معنى الجملة . وقل الفراء هو منصوب على القطع لأن أصله الألف واللام ، فلما قطعت نصب كقوله ـ وله الدين واصبا ـ ويدل عليه قراءة عبدالله بن مسعود القائم بالقسط * وقوله (لا إله إلا هو) تكرير لقصد التأكيد ، وقيل ان قوله (أنه لا إله إلا هو) كالدعوى ، والأخيرة كالحكم . وقال جعفر الصادق الأولى وصف وتوحيد ، والثانية رسم وتعليم * وقوله (العزيز الحكيم) مرتفعان على البدلية من الضمير أو الوصفية لفاعل شهد لتقرير معنى الوحدانية * قوله (ان الدين عند الله الاسلام) . قرأه الجمهور بكسر إن على أن الجملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى ، وقرىء بفتح أن . قال الكسائى أنصبهما جميعا يعنى قوله (شهد الله أنه) وقوله (ان الدين عند الله الاسلام) بمعنى شهد الله أنه كذا وأن الدين عند الله الاسلام . قال ابن كيسان ان الثانية بدل من الأولى . وقد ذهب الجمهور الى أن الاسلام هنا بمعنى الايمان وان كانا فى الأصل متغايرين كما فى حديث جبريل الذى بين فيه النبى ﷺ معنى الاسلام ومعنى الايمان ، وصدّقه جبريل وهو فى الصحيحين وغيرهما ، ولكنه قد يسمى كل واحد منهما باسم الآخر . وقد ورد ذلك فى الكتاب والسنة * قوله (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم) فيه الاخبار بأن اختلاف اليهود والنصارى كان لمجرد البغى بعد أن علموا بأنه يجب عليهم الدخول فى دين الاسلام بما تضمنته كتبهم المنزلة اليهم . قال الأخفش : وفى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى مااختلف الذين أوتوا الكتاب بغيا بينهم الا من بعد ماجاءهم العلم . والمراد بهذا الخلاف الواقع بينهم هو خلافهم فى كون نبينا ﷺ نبيا أم لا ؟ وقيل اختلافهم فى نبوّة عيسى . وقيل اختلافهم فى ذات بينهم حتى قالت اليهود : ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى : ليست اليهود على شىء * قوله (ومن يكفر بآيات الله) أى بالآيات الدالة على ان الدين عند الله الاسلام (فان الله سريع الحساب) فيجازيه و يعاقبه على كفره بآياته ، والاظهار فى قوله فان الله مع كونه مقام الاضمار للتهويل عليهم والتهديد لهم * قوله (فان حاجوك) أى جادلوك بالشبه الباطلة والأقوال المحرّفة فقل (أسلمت وجهى لله) أى أخلصت ذاتى لله ، وعبر بالوجه عن سائر الذات لكونه أشرف أعضاء الانسان وأجمعها للحواس ، وقيل الوجه هنا بمعنى القصد * وقوله (ومن اتبعن) عطف على فاعل أسلمت ، وجاز للفصل

وأثبت نافع وأبو عمرو و يعقوب الياء في اتبعن على الأصل وحذفها الآخرون اتباعا لرسم المصحف ، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع والمراد بالأميين هنا مشركو العرب * وقوله (أأسلمتم) استفهام تقريرى يتضمن الأمر ، أى أسلموا : كذا قاله ابن جرير وغيره . وقال الزجاج (أأسلمتم) تهديد ، والمعنى أنه قد أتاكم من البراهين ما يوجب الاسلام فهل علمتم بموجب ذلك أم لا ؟ تبكيتا لهم وتصغيرا لشأنهم فى الانصاف وقبول الحق * وقوله (فقد اهتدوا) أى ظفروا بالهداية التى هى الحظ الأكبر ، وفازوا بخير الدنيا والآخرة (وان تولوا) أى أعرضوا عن قبول الحجة ولم يعملوا بموجبها (فانما عليك البلاغ) أى فانما عليك أن تبلغهم ماأنزل اليك ، ولست عليهم بمسيطر فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، والبلاغ مصدر * وقوله (والله بصير بالعباد) فيه وعد ووعيد لتضمنه أنه عالم بجميع أحوالهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله (قائما بالقسط) قال بالعدل . وأخرج أيضا عن ابن عباس مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله (ان الدين عند الله الاسلام) قال الاسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، والاقرار بما جاء به من عند الله ، وهو دين الله الذى شرع لنفسه و بعث به رسله ودلّ عليه أولياءه لا يقبل غيره . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك . قال لم يبعث الله رسولا الا بالاسلام . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سعيد بن جبير . قال كان حول البيت ستون وثلثمائة صنم لكل قبيلة من قبائل العرب صنم أوصنمان ، فأنزل الله (شهد الله أنه لا إله إلا هو) الآية ، فأصبحت الأصنام كلها قد خرّت سجدا للكعبة . وأخرج ابن السنى فى عمل اليوم والليلة وأبو منصور الشحامى فى الأربعين عن علىّ . قال قال رسول الله ﷺ « ان فاتحة الكتاب وآية الكرسى والآيتين من آل عمران (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم * ان الدين عند الله الاسلام * قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء) الى قوله (بغير حساب) هن معلقات بالعرش ما بينهن و بين الله حجاب ، يقلن يارب تهبطنا الى أرضك والى من يعصيك . قال الله انى حلفت لا يقرؤكن أحد من عبادى دبر كل صلاة الا جعلت الجنة مأواه على ما كان منه ، والا أسكنته حظيرة القدس ، والا نظرت اليه بعينى المكنونة كل يوم سبعين نظرة ، والا قضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة والا أعذته من كل عدوّ ونصرته منه » . وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن أبى أيوب الأنصارى مرفوعا نحوه ، وفيه « لا يتلوكن عبد دبر كل صلاة مكتوبة إلا غفرت له ما كان منه وأسكنته جنة الفردوس ونظرت اليه كل يوم سبعين مرة ، وقضيت له سبعين حاجة أدناها المغفرة » . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى وابن السنى عن الزبير بن العوام . قال سمعت رسول الله ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فقال : وأنا على ذلك من الشاهدين ، ولفظ الطبرانى وأنا أشهد أن لا إله إلا أنت العزيز الحكيم . وأخرج ابن عدىّ والطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى شعب الايمان وضعفه والخطيب فى تاريخه وابن النجار عن غالب القطان . قال أتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قريبا من الأعمش ، فلما كان ليلة أردت أن أنحدر قام فتهجد من الليل فمرّ بهذه الآية (شهد الله أنه لا إله إلا هو) الى قوله (ان الدين عند الله الاسلام) فقال وأنا أشهد بما شهد به الله ، وأستودع الله هذه الشهادة ، وهى لى وديعة عند الله ، قالها مرارا فقلت لقد سمع فيها شيئا فسألته ، فقال حدثنى أبو وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عبدى عهد الىّ وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة » . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (وما اختلف فيه الا الذين أوتوا الكتاب) قال بنو اسرائيل . وأخرج ابن جرير عن

أبى العالية فى قوله (بغيا بينهم) يقول بغيا على الدنيا وطلب ملكها وسلطانها ، فقتل بعضهم بعضا على الدنيا من بعد ما كانوا علماء الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله (فان حاجوك) قال ان حاجك اليهود والنصارى . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (وقل للذين أوتوا الكتاب) قال اليهود والنصارى (والأميين) . قال هم الذين لا يكتبون .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ *

قوله (بآيات الله) ظاهره عدم الفرق بين آية وآية (و يقتلون النبيين بغير حق) يعنى اليهود قتلوا الأنبياء (و يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس) أى بالعدل ، وهم الذين يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر . قال المبرد : كان ناس من بنى اسرائيل جاءهم النبيون فدعوهم الى الله فقتلوهم ، فقام أناس من بعدهم من المؤمنين فأمروهم بالاسلام فقتلوهم . ففيهم نزلت الآية * وقوله (فبشرهم بعذاب أليم) خبر (انّ الذين كفروا) الخ ودخلته الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط ، وذهب بعض أهل النحو الى أن الخبر قوله (أولئك الذين حبطت أعمالهم) وقالوا ان الفاء لاتدخل فى خبر ان وان تضمن اسمها معنى الشرط ، لأنه قد نسخ بدخول انّ عليه ، ومنهم سيبويه والأخفش ، وذهب غيرهما الى أن مايتضمنه المبتدا من معنى الشرط لاينسخ بدخول انّ عليه ، ومثل المكسورة المفتوحة ، ومنه قوله تعالى ـ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه) * وقوله (حبطت أعمالهم) قد تقدم تفسير الاحباط ، ومعنى كونها حبطت فى الدنيا والآخرة أنه لم يبق لحسناتهم أثر فى الدنيا ، حتى يعاملوا فيها معاملة أهل الحسنات ، بل عوملوا معاملة أهل السيئات فلعنوا وحلّ بهم الخزى والصغار ولهم فى الآخرة عذاب النار * قوله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) فيه تعجيب لرسول الله ﷺ ولكل من تصح منه الرؤية من حال هؤلاء وهم أحبار اليهود * والكتاب : التوراة ، وتنكير النصيب للتعظيم ، أى نصيبا عظيما كما يفيده مقام المبالغة ، ومن قال ان التنكير للتحقير فلم يصب فلم ينتفعوا بذلك ، وذلك بأنهم يدعون الى كتاب الله الذى أوتوا نصيبا منه وهو التوراة (ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم) والحال انهم معرضون عن الأجابة الى مادعوا اليه مع علمهم به واعترافهم بوجوب الأجابة اليه ، و (ذلك) اشارة الى مامر من التولى والاعراض بسبب (أنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) وهى مقدار عبادتهم العجل . وقد تقدّم تفسير ذلك (وغرّهم فى دينهم ما كانو يفترون) من الأكاذيب التى من جلتها هذا القول * قوله (فكيف اذا جمعناهم ليوم لاريب فيه) هو ردّ عليهم وابطال لما غرّهم من الاكاذيب ، أى فكيف يكون حالهم اذا جمعناهم ليوم لاريب فيه وهو يوم الجزاء الذى لايرتاب مرتاب فى وقوعه فانهم يقعون لامحالة و يعجزون عن دفعه بالحيل والاكاذيب (ووفيت كل نفس ما كسبت) أى جزاء ماكسبت على حذف المضاف (وهم لايظلمون) بزيادة ولا

نقص * والمراد كل الناس المدلول عليهم بكل نفس . قال الكسائى : اللام فى قوله (ليوم) بمعنى فى ، وقال البصريون المعنى لحساب يوم . وقال ابن جرير الطبرى المعنى لما يحدث فى يوم .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى عبيدة بن الجراح قلت يارسول الله أىّ الناس أشدّ عذابا يوم القيامة ؟ قال رجل قتل نبيا ، أو رجلا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ (الذين يقتلون النبيين بغير حق و يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس) الى قوله (وما لهم من ناصرين) ثم قال رسول الله ﷺ ياأبا عبيدة قتلت بنو اسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا أوّل النهار فى ساعة واحدة فقام مائة رجل وسبعون رجلا من عباد بنى اسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر ، فقتلوا جميعا من آخر النهار من ذلك اليوم ، فهم الذين ذكر الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن عباس قال بعث عيسى يحيى بن زكريا فى اثنى عشر رجلا من الحواريين يعلمون الناس فكان ينهى عن نكاح بنت الأخ ، وكان ملك له بنت أخ تعجبه فأرادها وجعل يقضى لها كل يوم حاجة فقالت لها أمها اذا سألك عن حاجة فقولى حاجتى أن تقتل يحيى بن زكريا ، فقال سلى غير هذا ، فقالت لا أسألك غير هذا ، فلما أبت أمر به فذبح فى طست فبدرت قطرة من دمه فلم تزل تغلى حتى بعث الله بختنصر ، فدلت عجوز عليه ، فألقى فى نفسه أن لايزال يقتل حتى يسكن هذا الدم ، فقتل فى يوم واحد من ضرب واحد وسنّ واحد سبعين ألفا فسكن . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن معقل بن أبى مسكين فى الآية قال كان الوحى يأتى بنى إسرائيل فيذكرون قومهم ولم يكن يأتيهم كتاب فيقوم رجال ممن اتبعهم وصدّقهم فيذكرون قومهم فيقتلون فهم الذين يأمرون بالقسط من الناس . وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال الذين يأمرون بالقسط من الناس : ولاة العدل . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود فدعاهم الى الله : فقال له النعمان بن عمرو والحارث بن زيد على أىّ دين أتيت يامحمد ؟ قال على ملة ابراهيم ودينه قالا فان ابراهيم كان يهوديا ، قال لهما النبى ﷺ فهلما الى التوراة فهى بيننا و بينكم فأبيا عليه ، فأنزل الله (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله (نصيبا) قال حظا (من الكتاب) قال التوراة . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد فى قوله (قالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودات) قال يعنون الأيام التى خلق الله فيها آدم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله (وغرّهم فى دينهم ما كانوا يفترون) حين قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (ووفيت كل نفس) يعنى توفى كل نفس برّ أوفاجر (ما كسبت) ماعملت من خير أوشر (وهم لا يظلمون) يعنى من أعمالهم .

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ *

قوله (قل اللهمّ) . قال الخليل وسيبويه وجميع البصريين ، ان أصل اللهمّ ياألله ، فلما استعملت الكلمة دون حرف النداء الذى هو يا جعلوا بدله هذه الميم المشدّدة فجاءوا بحرفين وهما الميمان عوضا من

حرفين

حرفين وهما الياء والألف ، والضمة فى الهاء هى ضمة الاسم المنادى المفرد ، وذهب الفراء والكوفيون إلى أن الأصل فى اللهمّ يا ألله أمّنا بخير فحذف وخلط الكلمتان ، والضمة التى فى الهاء هى الضمة التى كانت فى أمّنا لما حذفت الهمزة انتقلت الحركة . قال النحاس هذا عند البصريين من الخطأ العظيم ، والقول فى هذا ماقاله الخليل وسيبويه . قال الكوفيون وقد يدخل حرف النداء على اللهمّ ، وأنشدوا فى ذلك قول الراجز : * غفرت أوعذبت يااللهما * وقول الآخر

وما عليك أن تقول كلما * سبحت أو هللت يااللهما

وقو الآخر

انى اذا ماحدث ألما * أقول يااللهمّ يااللهما

قالوا ولو كان الميم عوضا من حرف النداء لما اجتمعتا . قال الزجاج وهذا شاذ لايعرف قائله . قال النضر بن شميل من قال اللهمّ فقد دعا الله بجميع أسمائه * قوله (مالك الملك) أى مالك جنس الملك على الاطلاق ، ومالك منصوب عند سيبويه على أنه نداء ثان ، أى يامالك الملك ، ولا يجوز عنده أن يكون وصفا لقوله (اللهمّ) لان الميم عنده تمنع الوصفية . وقال محمد بن يزيد المبرد وابرهيم بن السرى الزجاج انه صفة لاسم الله تعالى ، وكذلك قوله تعالى ــ قل اللهمّ فاطر السموات والأرض ــ . قال أبو على الفارسى وهو مذهب المبرد ، وما قاله سيبويه أصوب وأبين ، وذلك لانه اسم مفرد ضم اليه صوت والأصوات لاتوصف نحو غاق وما أشبهه . قال الزجاج : والمعنى مالك العباد وما ملكوا ، وقيل المعنى مالك الدنيا والآخرة ، وقيل الملك هنا : النبوّة ، وقيل الغلبة ، وقيل المال والعبيد * والظاهر شموله لما يصدق عليه اسم الملك من غير تخصيص (تؤتى الملك من تشاء) أى من تشاء إيتاءه إياه (وتنزع الملك ممن تشاء) نزعه منه * والمراد بما يؤتيه من الملك وينزعه هو نوع من أنواع ذلك الملك العام * قوله (وتعزّ من تشاء) أى فى الدنيا أوفى الآخرة أو فيهما ، يقال عزّ : اذا غلب ، ومنه ــ وعزنى فى الخطاب ــ * وقوله (وتذلّ من تشاء) أى فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما ، يقال ذلّ يذلّ ذلا : اذا غلب وقهر * قوله (بيدك الخير) تقديم الخبر للتخصيص ، أى بيدك الخير لابيد غيرك ، وذكر الخير دون الشرّ ، لأن الخير بفضل محض بخلاف الشرّ فانه يكون جزاء لعمل وصل اليه ، وقيل لأن كل شرّ من حيث كونه من قضائه سبحانه هو متضمن للخير فأفعاله كلها خير ، وقيل انه حذف كما حذف فى قوله ــ سرابيل تقيكم الحرّ ــ وأصله بيدك الخير والشرّ ، وقيل خص الخير لأن المقام مقام دعاء * قوله (انك على كل شىء قدير) تعليل لما سبق وتحقيق له * قوله (تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل) أى تدخل مانقص من أحدهما فى الآخر ، وقيل المعنى تعاقب بينهما ويكون زوال أحدهما ولوجا فى الآخر * قوله (وتخرج الحىّ من الميت وتخرج الميت من الحىّ) قيل المراد إخراج الحيوان وهو حىّ من النطفة وهى ميتة ، وإخراج النطفة وهى ميتة من الحيوان وهو حىّ ، وقيل المراد إخراج الطائر وهو حىّ من البيضة وهى ميتة ، واخراج البيضة وهى ميتة من الدجاجة وهى حية ، وقيل المراد إخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن * قوله (بغير حساب) أى بغير تضييق ولا تقتير كما تقول فلان يعطى بغير حساب ، والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال ذكر لنا أن نبىّ الله ﷺ سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم فى أمته ، فنزلت الآية . وأخرج الطبرانى وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال اسم الله الأعظم (قل اللهم مالك الملك) الى قوله (بغير حساب) . وأخرج ابن أبى الدنيا والطبرانى عن معاذ أنه شكا الى النبى ﷺ دينا عليه فعلمه أن يتلو هذه الآية ، ثم يقول رحمن الدنيا والآخرة

ورحيمهما تعطى من تشاء منهما وتمنع من تشاء ارحمنى رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك اللهمّ أغننى من الفقر واقض عنى الدين . وأخرجه الطبرانى فى الصغير من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ « ألا أعلمك دعاء تدعو به لوكان عليك مثل جبل أحد دينا لأدّاه الله عنك فذكره واسناده جيد » وقد تقدّم عند تفسير قوله تعالى ـ شهد الله أنه لا إله إلا هو ـ بعض فضائل هذه الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (تؤتى الملك من تشاء) قال النبوّة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود فى قوله (تولج الليل فى النهار) الآية قال تأخذ الصيف من الشتاء ، وتأخذ الشتاء من الصيف (وتخرج الحىّ من الميت) تخرج الرجل الحىّ من النطفة الميتة ، (وتخرج الميت من الحىّ) تخرج النطفة الميتة من الرجل الحىّ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس (تولج الليل فى النهار) قال ما نقص من النهار تجعله فى الليل وما نقص من الليل تجعله فى النهار . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك نحوه أيضا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (تخرج الحىّ من الميت) قال تخرج النطفة الميتة من الحىّ ثم تخرج من النطفة بشرا حيا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة (تخرج الحىّ من الميت) قال هى البيضة تخرج من الحىّ وهى ميتة ، ثم يخرج منها الحىّ . وأخرج ابن جرير عنه : قال النخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والحبة من السنبلة ، والسنبلة من الحبة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى مالك مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن : قال المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن . والمؤمن عبد حىّ الفؤاد ، والكافر عبد ميت الفؤاد . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن سلمان الفارسى نحوه . وأخرج ابن مردويه عنه مرفوعا نحوه . وأخرجه أيضا عنه ، أو عن ابن مسعود مرفوعا . وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عبيد الله بن عبد الله أن خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث دخلت على النبى ﷺ فقال من هذه ؟ قيل خالدة بنت الأسود ، قال سبحان الذى يخرج الحىّ من الميت ، وكانت امرأة صالحة وكان أبوها كافرا . وأخرج ابن سعد عن عائشة مثله .

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ * قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ *

قوله (لا يتخذ) فيه النهى للمؤمنين عن موالاة الكفار لسبب من الأسباب ، ومثله قوله تعالى ـ لا تتخذوا بطانة من دونكم ـ الآية * وقوله ـ ومن يتولهم منكم فانه منهم ـ * وقوله ـ لا تجد قوما يؤمنون بالله ـ الآية * وقوله ـ لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ـ * وقوله ـ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء ـ * وقوله (من دون المؤمنين) فى محل الحال أى متجاوزين المؤمنين الى الكافرين استقلالا أو

اشتراكا

اشتراكا ، والاشارة بقوله (ومن يفعل ذلك) الى الاتحاد المدلول عليه بقوله (لايتخذ) ومعنى قوله (فليس من الله فى شىء) أى من ولايته فى شىء من الأشياء ، بل هو منسلخ عنه بكل حال * قوله (إلا أن تتقوا منهم تقاة على صيغة الخطاب بطريق الالتفات أى الا أن تخافوا منهم أمرا يجب اتقاؤه وهو استثناء مفرّغ من أعم الأحوال * وتقاة مصدر واقع موقع المفعول ، وأصلها وقية على وزن فعلة قلبت الواو تاء والياء ألفا ، وقرأ رجاء وقتادة تقية * وفى ذلك دليل على جواز الموالاة لهم مع الخوف منهم ، ولكنها تكون ظاهرا لاباطنا ، وخالف فى ذلك قوم من السلف ، فقالوا لاتقية بعد أن أعزّ الله الاسلام * قوله (ويحذركم الله نفسه) أى ذاته المقدّسة ، واطلاق ذلك عليه سبحانه جائز فى المشاكلة كقوله ـ تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك ـ وفى غيرها ، وذهب بعض المتأخرين الى منع ذلك الا مشاكلة . وقال الزجاج معناه ويحذركم الله إياه ثم استغنوا عن ذلك بهذا وصار المستعمل . قال وأما قوله ـ تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك ـ فمعناه تعلم ماعندى ومافى حقيقتى ولا أعلم ماعندك ولامافى حقيقتك . وقال بعض أهل العلم معناه ويحذركم الله عقابه مثل ـ واسأل القرية ـ فجعلت النفس فى موضع الاضمار ، وفى هذه الآية تهديد شديد وتخويف عظيم لعباده أن يتعرضوا لعقابه بموالاة أعدائه * قوله (قل ان تخفوا مافى صدوركم) الآية ، فيه أن كل مايضمره العبد ويخفيه أو يظهره ويبديه فهو معلوم لله سبحانه ، لايخفى عليه منه شىء ولايعزب عنه مثقال ذرة (ويعلم مافى السموات وما فى الأرض) مما هو أعم من الأمور التى يخفونها أو يبدونها ، فلايخفى عليه ماهو أخص من ذلك * قوله (يوم تجد) منصوب بقوله ـ ويحذركم الله نفسه ـ وقيل بمحذوف ، أى اذكر ، و (محضرا) حال * وقوله (وماعملت من سوء) معطوف على ما الأولى ، أى وتجد ماعملت من سوء محضرا تودّ لوأن بينها وبينه أمدا بعيدا . فحذف محضرا لدلالة الأوّل عليه ، وهذا اذا كان تجد من وجدان الضالة ، وأما اذا كان من وجد بمعنى علم كان محضرا هو المفعول الثانى ، ويجوز أن يكون قوله (وماعملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) جملة مستأنفة ، وتكون ما فى ماعملت مبتدأ وتودّ خبره * والأمد : الغاية ، وجمعه آماد ، أى تودّ لوأن بينها وبين ماعملت من السوء أمدا بعيدا ، وقيل ان قوله (يوم تجد) منصوب بقوله (تود) والضمير فى قوله (وبينه) لليوم ، وفيه بعد ، وكرر قوله (ويحذركم الله نفسه) للتأكيد وللاستحضار ليكون هذا التهديد العظيم على ذكر منهم ، وفى قوله (والله رءوف بالعباد) دليل على أن هذا التحذير الشديد مقترن بالرأفة منه سبحانه بعباده لطفا بهم ، وما أحسن مايحكى عن بعض العرب أنه قيل له : انك تموت وتبعث وترجع الى الله ، فقال أتهدّدوننى بمن لم أر الخير قط الا منه .

وقد أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان الحجاج بن عمرو حليف كعب ابن الأشرف وابن أبى الحقيق وقيس بن زيد قد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم ، فقال رفاعة ابن المنذر وعبدالله بن جبير وسعد بن خثمة لأولئك النفر اجتنبوا هؤلاء النفر من يهود ، واحذروا مباطنتهم لايفتنوكم عن دينكم ، فأبى أولئك النفر ، فأنزل الله فيهم (لايتخذ المؤمنون الكافرين) الى قوله (والله على كل شىء قدير) وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن ابى حاتم من طرق عنه قال : نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار ويتخذوهم وليجة من دون المؤمنين الا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين فيظهرون لهم اللطف ويخالفونهم فى الدين ، وذلك قوله تعالى (الا أن تتقوا منهم تقاة) وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى (ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء) فقد برىء الله منه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (الا أن تتقوا منه تقاة) قال : التقية باللسان من حمل على أمر يتكلم به ، وهو معصية الله فيتكلم به مخافة الناس وقلبه مطمئن بالايمان ، فان ذلك لايضره ، انما

التقية باللسان . وأخرج عبدبن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عنه فى الآية قال : التقاة التكلم باللسان والقلب مطمئن بالايمان ، ولايبسط يده فيقتل ولا الى اثم فانه لاعذر له . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى الآية قال : التقية باللسان ، وليس بالعمل . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة (الا أن تتقوا منهم تقاة) قال الا أن يكون بينك و بينه قرابة فتصله لذلك . وأخرج عبدبن حيد والبخارى عن الحسن قال : التقية جائزة الى يوم القيامة * وحكى البخارى عن أبى الدرداء أنه قال : انا لبش فى وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم ، ويدل على جواز التقية * قوله تعالى ـ الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ـ ومن القائلين بجواز التقية باللسان أبو الشعثاء والضحاك والربيع بن أنس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (قل ان تخفوا) الآية قال : أخبرهم أنه يعلم ما أسروا وما أعلنوا . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله محضرا ، يقول موفرا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال : يسر أحدكم أن لايلقى عمله ذلك أبدا ، يكون ذلك مناه . وأما فى الدنيا فقد كانت خطيئته يستلذها . وأخرجا أيضا عن السدى (أمدابعيدا) قال : مكانا بعيدا . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج أمدا قال : أجلا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله (ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد) قال : من رأفته بهم حذرهم نفسه .

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ * إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَٰهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *

الحب والمحبة ميل النفس الى الشيء ، يقال : أحبه فهومحب ، وحبه يحبه بالكسر ، فهومحبوب . قال : الجوهرى وهذا شاذ ، لأنه لايأتى فى المضاعف يفعل بالكسر . قال ابن الدهان فى حب لغتان : حب وأحب وأصل حب فى هذا الباب حبب كطرق ، وقد فسرت المحبة لله سبحانه بارادة طاعته . قال الأزهرى محبة العبد لله ورسوله طاعته لهما واتباعه أمرهما ، ومحبة الله للعباد انعامه عليهم بالغفران ، وقرأ ابو رجاء العطاردى فاتبعونى بفتح الباء * وروى عن أبى عمرو بن العلاء أنه أدغم الراء من يغفر فى اللام . قال النحاس لايجيز الخليل وسيبويه ادغام الراء فى اللام وأبو عمرو أجل من أن يغلط فى هذا ، ولعله كان يخفى الحركة كما يفعل فى أشياء كثيرة * قوله (قل أطيعوا الله والرسول) حذف المتعلق مشعر بالتعميم ، أى فى جميع الأوامر والنواهى * قوله (فان تولوا) يحتمل أن يكون من تمام مقول القول ، فيكون مضارعا حذفت فيه إحدى التاءين : أى تتولوا ، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى فيكون ماضيا * وقوله (فان الله لايحب الكافرين) نفى المحبة كناية عن البغض والسخط ، ووجه الاظهار فى قوله (فان الله) مع كون المقام مقام اضمار لقصد التعظيم أوالتعميم * قوله (ان الله اصطفى آدم الخ) لما فرغ سبحانه من بيان أن الدين المرضى هو الاسلام ، وأن محمدا ﷺ هو الرسول الذى لايصح لأحد أن يحب الله الا باتباعه ، وأن اختلاف أهل الكتابين فيه انما هو لمجرد البغى عليه ، والحسد له ، شرع فى تقرير رسالة النبى ﷺ و بين أنه من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة * والاصطفاء الاختيار . قال الزجاج : اختارهم بالنبوة على عالمى زمانهم . وقيل ان الكلام على تقدير مضاف ، أى اصطفى دين آدم الخ ، وقد تقدم الكلام على تفسير العالمين ، وتخصيص آدم

بالذكر لأنه أبو البشر ، وكذلك نوح فانه آدم الثانى . وأما آل ابراهيم فلكون النبى ﷺ منهم مع كثرة الأنبياء منهم ، وأما آل عمران فهم وان كانوا من آل ابراهيم : فلما كان عيسى عليه السلام منهم كان لتخصيصهم بالذكر وجه . وقيل المراد بآل ابراهيم : ابراهيم نفسه ، وبآل عمران : عمران نفسه * قوله (ذرية بعضها من بعض) نصب ذرية على البدلية مما قبله ، قاله الزجاج ، أوعلى الحالية قاله الأخفش ، وقد تقدّم تفسير الذرية ، و بعضها من بعض فى محل نصب على صفة الذرية ، ومعناه متناسلة متشعبة أومتناصرة متعاضدة فى الدين .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن من طرق قال : قال أقوام على عهد رسول الله ﷺ والله يا محمد انا لنحب ربنا فأنزل الله (قل ان كنتم تحبون الله) الآية . وأخرج الحكيم الترمذى عن يحى بن كثير نحوه . وأخرج أيضا ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير فى قوله (قل ان كنتم تحبون الله) أى ان كان هذا من قولكم فى عيسى حبا لله وتعظيما له (فاتبعونى يحببكم الله و يغفر لكم ذنوبكم) أى مامضى من كفركم (والله غفور رحيم) . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى الدرداء فى قوله (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) قال على البر والتقوى والتواضع وذلة النفس . وأخرجه أيضا الحكيم الترمذى وأبو نعيم والديلمى وابن عساكر عنه . وأخرج ابن عساكر مثله عن عائشة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية والحاكم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ الشرك أخفى من ديب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء وأدناه أن يحب على شىء من الجور ويبغض على شىء من العدل ، وهل الدين إلا الحب والبغض فى الله . قال الله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وآل ابراهيم وآل عمران) قال هم المؤمنون من آل ابراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (ذرية بعضها من بعض) قال فى النية والعمل والاخلاص والتوحيد .

إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّآءُ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ *

قوله (اذ قالت) قال أبو عمرو اذ زائدة ، وقال محمد بن يزيد انه متعلق بمحذوف تقديره اذكر اذ قالت ، وقال الزجاج هو متعلق بقوله (اصطفى) وقيل متعلق بقوله (سميع عليم) ، وامرأة عمران اسمها حنة بالحاء المهملة والنون ، بنت فاقود بن قبيل أم مريم ، فهى جدة عيسى ، وعمران هو ابن ماثان جد عيسى * قوله (رب انى نذرت لك ما فى بطنى) تقديم الجار والمجرور لكمال العناية ، وهذا النذر كان جائزا فى شريعتهم ، ومعنى (لك) ، أى لعبادتك * ومحرّرا منصوب على الحال : أى عتيقا خالصا لله خادما للكنيسة . والمراد هنا الحرية التى هى ضد العبودية . وقيل المراد بالمحرر هنا الخالص لله سبحانه الذى لا يشوبه شىء من أمر الدنيا ، ورجح

هذا بأنه لاخلاف أن عمران وامرأته حرانان * قوله (فتقبل منى) التقبل أخذ الشىء على وجه الرضا : أى تقبل منى نذرى بما فى بطنى * قوله (فلما وضعتها) التأنيث باعتبار ماعلم من المقام أن الذى فى بطنها أنثى ، أولكونه أنثى فى علم الله ، أو بتأويل مافى بطنها بالنفس أوالنسمة أونحو ذلك * قوله (قالت رب انى وضعتها أنثى) انما قالت هذه المقالة لأنه لم يكن يقبل فى النذر إلا الذكر دون الأنثى فكأنها تحسرت وتحزنت لمافاتها من ذلك الذى كانت ترجوه وتقدره ، وأنثى حال مؤكدة من الضمير أو بدل منه * قوله (والله أعلم بما وضعت) قرأ أبو بكر وابن عامر بضم التاء فيكون من جملة كلامها ويكون متصلا بما قبله ، وفيه معنى التسليم لله والخضوع والتنزيه له أن يخفى عليه شىء ، وقرأ الجمهور وضعت فيكون من كلام الله سبحانه على جهة التعظيم لما وضعته والتفخيم لشأنه والتجهيل لها حيث وقع منها التحسر والتحزن مع أن هذه الأنثى التى وضعتها سيجعلها الله وابنها آية للعالمين وعبرة للمعتبرين ويختصها بما لم يختص به أحدا ، وقرأ ابن عباس بما وضعت بكسر التاء على أنه خطاب من الله سبحانه لها : أى أنك لاتعلمين قدر هذا الموهوب وماعلم الله فيه من الأمور التى تتقاصر عنها الافهام وتتصاغر عندها العقول * قوله (وليس الذكر كالأنثى) أى وليس الذكر الذى طلبت كالأنثى التى وضعت ، فان غاية ما أرادت من كونه ذكرا أن يكون نذرا خادما للكنيسة ، وأمر هذه الأنثى عظيم وشأنها فخيم ، وهذه الجملة اعتراضية مبينة لما فى الجملة الأولى من تعظيم الموضوع ورفع شأنه وعلو منزلته ، واللام فى الذكر والأنثى للعهد ، هذا على قراءة الجمهور وعلى قراءة ابن عباس ، وأما على قراءة أبى بكر وابن عامر فيكون قوله (وليس الذكر كالأنثى) من جملة كلامها ومن تمام تحسرها وتحزنها ، أى ليس الذكر الذى أردت أن يكون خادما ويصلح للنذر كالأنثى التى لاتصلح لذلك ، وكأنها أعذرت الى ربها من وجودها لها على خلاف ماقصدت * قوله (وانى سميتها مريم) عطف على (انى وضعتها أنثى) ومقصودها من هذا الاخبار بالتسمية التقرب الى الله سبحانه ، وأن يكون فعلها مطابقا لمعنى اسمها ، فان معنى مريم خادم الرب بلغتهم ، فهى وان لم تكن صالحة لخدمة الكنيسة فذلك لايمنع أن تكون من العابدات * قوله (وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) عطف على قوله (انى سميتها مريم) ، والرجيم المطرود ، وأصله المرمى بالحجارة ، طلبت الاعاذة لها ولولدها من الشيطان وأعوانه * قوله (فتقبلها ربها بقبول حسن) أى رضى بها فى النذر ، وسلك بها مسلك السعداء . وقال قوم معنى التقبل : التكفل والتربية والقيام بشأنها ، والقبول مصدر مؤكد للفعل السابق ، والباء زائدة ، والأصل تقبلا ، وكذلك قوله (وأنبتها نباتا حسنا) وأصله إنباتا فحذف الحرف الزائد ، وقيل هو مصدر لفعل محذوف ، أى فنبتت نباتا حسنا * والمعنى أنه سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان ، قيل انها كانت تنبت فى اليوم ماينبت المولود فى عام ، وقيل هو مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها فى جميع أحوالها * قوله (وكفلها زكريا) أى ضمها اليه . وقال أبو عبيدة ضمن القيام بها . وقرأ الكوفيون (وكفلها) بالتشديد أى جعله الله كافلا لها وملتزما بمصالحها ، وفى معناه مافى مصحف أبى " وأكفلها . وقرأ الباقون بالتخفيف على إسناد الفعل إلى زكريا ، ومعناه ماتقدم من كونه ضمها إليه وضمن القيام بها . وروى عمرو بن موسى عن عبد الله بن كثير وأبى عبد الله المزنى وكفلها بكسر الفاء . قال الأخفش لم أسمع كفل . وقرأ مجاهد فتقبلها باسكان اللام على المسئلة والطلب ، ونصب ربها على أنه منادى مضاف . وقرأ أيضا وأنبتها باسكان التاء وكفلها بتشديد الفاء المكسورة واسكان اللام ونصب زكريا مع المد . وقرأ حفص وحمزة والكسائى زكريا بغير مد ، ومده الباقون . وقال الفراء : أهل الحجاز يمدون زكريا ويقصرونه . قال الأخفش فيه لغات المد والقصر ، وزكرى " بتشديد الياء وهو ممتنع على جميع التقادير للعجمة والتعريف مع ألف التأنيث * قوله

كلما

(كلما دخل عليها زكرياء المحراب) قدّم الظرف للاهتمام به ، وكلمة كل ظرف ، والزمان محذوف ، وما مصدرية أو نكرة موصوفة ، والعامل فى ذلك قوله (وجد) أى كل زمان دخوله عليها وجد عندها رزقا ، أى نوعا من أنواع الرزق * والمحراب فى اللغة أكرم موضع فى المجلس . قاله القرطبى وهو منصوب على التوسع ، قيل ان زكريا جعل لها محرابا لايرتقى إليه الابسلم ، وكان يغلق عليها حتى كبرت . وكان إذا دخل عليها وجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف ، وفاكهة الصيف فى الشتاء . فقال يامريم أنى لك هذا ، أى من أين يجىء لك هذا الرزق الذى لايشبه أرزاق الدنيا (قالت هو من عند الله) فليس ذلك بعجيب ولا مستنكر ، وجملة قوله (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) تعليلية لما قبلها ، وهو من تمام كلامها ومن قال انه من كلام زكريا فتكون الجملة مستأنفة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (إنى نذرت لك مافى بطنى محررا) قال كانت نذرت أن تجعله فى الكنيسة يتعبد بها ، وكانت ترجو أن يكون ذكرا . وأخرج ابن المنذر عنه : قال نذرت أن تجعله محررا للعبادة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (محررا) قال خادما للبيعة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال محرّرا : خالصا لايخالطه شىء من أمر الدنيا . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة : قال قال رسول الله ﷺ « مامن مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه الا مريم وابنها ثم يقول أبوهريرة اقرءوا ان شئتم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » وللحديث ألفاظ عن أبى هريرة هذا أحدها . وروى من حديث غيره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال كفلها زكريا فدخل عليها المحراب فوجد عندها عنبا فى مكتل فى غير حينه ، فقال أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله قال ان الذى يرزقك العنب فى غير حينه لقادر أن يرزقنى من العاقر الكبير العقيم ولدا هنالك دعا زكريا ربه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة : قال كانت مريم ابنت سيدهم وإمامهم فتشاحّ عليها أحبارهم فاقترعوا فيها بسهامهم أيهم يكفلها ، وكان زكريا زوج أختها فكفلها ، وكانت عنده وحضنها . وأخرج البيهقى فى سننه عن ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (وكفلها زكريا) قال جعلها معه فى محرابه .

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّاءُ رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ * وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ * ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ *

قوله (هنالك) ظرف يستعمل للزمان والمكان ، وأصله للمكان ، وقيل انه للزمان خاصة ، وهناك للمكان ، وقيل يجوز استعمال كل واحد منهما مكان الآخر ، واللام للدلالة على البعد ، والكاف للخطاب ، والمعنى أنه دعا فى ذلك المكان الذى هو قائم فيه عند مريم ، أو فى ذلك الزمان أن يهب الله له ذرية طيبة ، والذى بعثه على ذلك مارآه من ولادة حنة لمريم وقد كانت عاقرا فحصل له رجاء الولد وان كان كبيرا وامرأته عاقرا ، أو بعثه على ذلك مارآه من فاكهة الشتاء فى الصيف والصيف فى الشتاء عند مريم ، لأن من أوجد ذلك فى غير وقته يقدر على ايجاد الولد من العاقر ، وعلى هذا يكون هذا الكلام قصة مستأنفة سيقت فى غضون قصة مريم لما بينهما من الارتباط * والذرية : النسل يكون للواحد ويكون للجمع ، ويدل على أنها هنا للواحد قوله ـ فهب لى من لدنك وليا ـ ولم يقل أولياء ، وتأنيث طيبة لكون لفظ الذرية مؤنثا * قوله (فنادته الملائكة) قرأ حمزة والكسائى فناداه ، وبذلك قرأ ابن عباس وابن مسعود . وقرأ الباقون فنادته الملائكة ، قيل المراد هنا جبريل ، والتعبير بلفظ الجمع عن الواحد جائز فى العربية ، ومنه ـ الذين قال لهم الناس ـ * وقيل ناداه جميع الملائكة وهو الظاهر من إسناد الفعل الى الجمع * والمعنى الحقيقى مقدّم فلا يصار الى المجاز الا لقرينة * قوله (وهو قائم) جملة حالية و (يصلى فى المحراب) صفة لقوله (قائم) أو خبر ثان لقوله (وهو) * قوله (أنّ الله يبشرك) قرئ بفتح أنّ ، والتقدير بأن الله ، وقرئ بكسرها على تقدير القول . وقرأ أهل المدينة يبشرك بالتشديد . وقرأ حمزة بالتخفيف . وقرأ حميد بن قيس المكى بكسر الشين وضم حرف المضارعة . قال الأخفش هى ثلاث لغات بمعنى واحد والقراءة الأولى هى التى وردت كثيرا فى القرآن ، ومنه ـ فبشر عبادى ـ فبشرهم بمغفرة ـ فبشرناها باسحق ـ قالوا بشرناك بالحق ـ وهى قراءة الجمهور * والثانية لغة أهل تهامة ، وبها قرأ أيضا عبد الله ابن مسعود * والثالثة من أبشر يبشر إبشارا * ويحيى ممتنع إما لكونه أعجميا أو لكون فيه وزن الفعل كيعمر مع العلمية . قال القرطبى حاكيا عن النقاش كان اسمه فى الكتاب الأوّل حنا انتهى ، والذى رأيناه فى مواضع من الانجيل انه يوحنا ، قيل سمى بذلك لأن الله أحياه بالايمان والنبوّة ، وقيل لأن الله أحيا به الناس بالهدى * والمراد هنا التبشير بولادته ، أى يبشرك بولادة يحيى * وقوله (مصدّقا بكلمة من الله) أى بعيسى عليه السلام ، وسمى كلمة الله لأنه كان بقوله سبحانه كن * وقيل سمى كلمة الله ، لأن الناس يهتدون به كما يهتدون بكلام الله . وقال أبو عبيد معنى (بكلمة من الله) بكتاب من الله قال والعرب تقول أنشدنى كلمته : أى قصيدته كما روى أن الحويدرة ذكر لحسان فقال لعن الله كلمته ، يعنى قصيدته انتهى ، ويحيى أوّل من آمن بعيسى وصدّق ، وكان أكبر من عيسى بثلاث سنين ، وقيل بستة أشهر ، والسيد : الذى يسود قومه . قال الزجاج السيد : الذى يفوق أقرانه فى كل شىء من الخير * والحصور أصله من الحصر وهو الحبس ، يقال حصرنى الشىء وأحصرنى : إذا حبسنى ، ومنه قول الشاعر :

وما هجر ليلى أن تكون تباعدت * عليك ولا أن أحصرتك شغول

والحصور الذى لايأتى النساء كأنه يحجم عنهنّ كما يقال رجل حصور وحصير : اذا حبس رفده ولم يخرجه ، فيحيى عليه السلام كان حصورا عن اتيان النساء ، أى محصورا لايأتيهنّ كغيره من الرجال إما لعدم القدرة على ذلك أو لكونه يكف عنهنّ منعا لنفسه عن الشهوة مع القدرة . وقد رجح الثانى بأن المقام مقام مدح ، وهو لايكون الا على أمر مكتسب يقدر فاعله على خلافه ، لاعلى ما كان من أصل الخلقة وفى نفس الجبلة * وقوله (من الصالحين) أى ناشئا من الصالحين ، لكونه من نسل الأنبياء ، أو كائنا من جملة الصالحين ، كما فى قوله ـ وانه فى الآخرة لمن الصالحين ـ . قال الزجاج : الصالح الذى يؤدى لله ماافترض

عليه

عليه ، والى الناس حقوقهم * قوله (قال رب أن يكون لى غلام) ظاهر هذا أن الخطاب منه لله سبحانه وان كان الخطاب الواصل إليه هو بواسطة الملائكة ، وذلك لمزيد التضرّع والجدّ فى طلب الجواب عن سؤاله ، وقيل انه أراد بالرب جبريل ، أى ياسيدى ، قيل وفى معنى هذا الاستفهام وجهان * أحدهما أنه سأل هل يرزق هذا الولد من امرأته العاقر أو من غيرها ؟ وقيل معناه بأى سبب أستوجب هذا ، وأنا وامرأتى على هذه الحال * والحاصل انه استبعد حدوث الولد منهما مع كون العادة قاضية بأنه لايحدث من مثلهما ، لانه كان يوم التبشير كبيرا ، قيل فى تسعين سنة ، وقيل ابن عشرين ومائة سنة ، وكانت امرأته فى ثمان وتسعين سنة ، ولذلك قال (وقد بلغنى الكبر) أى والحال ذلك ، جعل الكبر كالطالب له لكونه طليعة من طلائع الموت فأسند الفعل إليه * والعاقر : التى لاتلد ، أى ذات عقر على النسب ولو كان على الفعل لقال عقيرة ، أى بها عقر يمنعها من الولد ، و إنما وقع منه هذا الاستفهام بعد دعائه بأن يهب الله له ذرية طيبة ، ومشاهدته لتلك الآية الكبرى فى مريم استعظاما لقدرة الله سبحانه لالمحض الاستبعاد ، وقيل انه قد مرّ بعد دعائه الى وقت يشاء ربه أربعون سنة ، وقيل عشرون سنة فكان الاستبعاد من هذه الحيثية * قوله (كذلك الله يفعل مايشاء) أى يفعل الله مايشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل وهو ايجاد الولد من الشيخ الكبير والمرأة العاقر ، والكاف فى محل نصب نعت لمصدر محذوف ، والاشارة الى مصدر يفعل أو الكاف فى محل رفع على أنها خبر ، أى على هذا الشأن العجيب شأن الله ، ويكون قوله (يفعل مايشاء) بيانا له ، أو الكاف فى محل نصب على الحال ، أى يفعل الله الفعل كائنا مثل ذلك * قوله (قال رب اجعل لى آية) أى علامة أعرف بها صحة الحبل فأتلقى هذه النعمة بالشكر (قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا) أى علامتك أن تحبس لسانك عن تكليم الناس ثلاثة أيام لاعن غيره من الاذكار ، ووجه جعل الآية هذا لتخلص تلك الأيام لذكر الله سبحانه شكرا على ما أنعم به عليه . وقيل بأنّ ذلك عقوبة من الله سبحانه له بسبب سؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه : حكاه القرطبى عن أكثر المفسرين * والرمز فى اللغة الايماء بالشفتين أو العينين أو الحاجبين أو اليدين ، وأصله الحركة وهو استثناء منقطع : لكون الرمز من غير جنس الكلام ، وقيل هو متصل على معنى أن الكلام ماحصل به الافهام من لفظ أو اشارة أو كتابة وهو بعيد * والصواب الأوّل ، و به قال الأخفش والكسائى * قوله (وسبح) أى سبحه (بالعشىّ) وهو جمع عشية ، وقيل هو واحد وهو من حين تزول الشمس الى أن تغيب ، وقيل من العصر الى ذهاب صدر الليل وهو ضعيف جدا (والابكار) من طلوع الفجر الى وقت الضحى ، وقيل المراد بالتسبيح الصلاة * قوله (إذ قالت الملائكة يامريم) الظرف متعلق بمحذوف كالظرف الأوّل (انّ الله اصطفاك) اختارك (وطهرك) من الكفر أو من الأدناس على عمومها (واصطفاك على نساء العالمين) قيل هذا الاصطفاء الآخر غير الاصطفاء الأوّل ، فالأوّل هو حيث تقبلها بقبول حسن ، والآخر لولادة عيسى * والمراد بالعالمين هنا قيل نساء عالم زمانها وهو الحق ، وقيل نساء جميع العالم الى يوم القيامة ، واختاره الزجاج وقيل : الاصطفاء الآخر تأكيد للاصطفاء الأوّل ، والمراد بهما جميعا واحد * قوله (يامريم اقنتى لربك) أى أطيلى القيام فى الصلاة أو أديميه ، وقد تقدّم الكلام على معانى القنوت ، وقدّم السجود على الركوع لكونه أفضل أو لكون صلاتهم لاترتيب فيها مع كون الواو لمجرد الجمع بلا ترتيب * وقوله (واركعى مع الراكعين) ظاهره أن ركوعها يكون مع ركوعهم فيدل على مشروعية صلاة الجماعة ، وقيل المعنى أنها تفعل مثل فعلهم وان لم تصلّ معهم ، والاشارة بقوله (ذلك) الى ماسبق من الأمور التى أخبره الله بها * والوحى فى اللغة : الاعلام فى خفاء ، يقال وحى وأوحى بمعنى . قال ابن فارس : الوحى الاشارة والكتابة والرسالة ، وكل ما ألقيته الى غيرك

حتى تعلمه * قوله (وما كنت لديهم) أى تحضرنهم يعنى المتنازعين فى تربية مريم ، وانما نفى حضوره عندهم مع كونه معلوما لأنهم أنكروا الوحى ، فلوكان ذلك الانكار صحيحا لم يبق طريق للعلم به الا المشاهدة والحضور ، وهم لا يدّعون ذلك فثبت كونه وحيا مع تسليمهم أنه ليس ممن يقرأ التوراة ولا ممن يلابس أهلها * والأقلام جمع قلم ، من قلمه اذاقطعه ، أى أقلامهم التى يكتبون بها ، وقيل قداحهم (أيهم يكفل مريم) أى يحضنها : أى يلقون أقلامهم ليعلموا أيهم يكفلها ، وذلك عند اختصامهم فى كفالتها ، فقال زكريا هو أحق بها لكون خالتها عنده وهى أشيع أخت حنة أمّ مريم ، وقال بنو اسرائيل نحن أحق بها لكونها بنت عالمنا فاقترعوا وجعلوا أقلامهم فى الماء الجارى على أن من وقف قلمه ولم يجر مع الماء فهو صاحبها فجرت أقلامهم ووقف قلم زكريا ، وقد استدل بهذا من أثبت القرعة ، والخلاف فى ذلك معروف ، وقد ثبتت أحاديث صحيحة فى اعتبارها .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما رأى زكريا ذلك ، يعنى فاكهة الصيف فى الشتا وفاكهة الشتا فى الصيف عند مريم قال : ان الذى أتى بهذا مريم فى غير زمانه قادر أن يرزقنى ولدا ، فذلك حين دعا ربه . وأخرج ابن عساكر عن الحسن نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى ذرية طيبة يقول مباركة . وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن أبى حماد قال : فى قراءة ابن مسعود فناداه جبريل وهو قائم يصلى فى المحراب ، وروى ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى أنه قال (فنادته الملائكة) أى جبريل . وأخرج ابن المنذر عن السدى قال المحراب : المصلى . وقد أخرج الطبرانى والبيهقى عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال اتقوا هذه المذابح يعنى المحاريب . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن موسى الجهنى قال قال رسول الله ﷺ لاتزال أمتى بخير مالم يتخذوا فى مساجدهم مذابح كمذابح النصارى ، وقد رويت كراهة ذلك عن جماعة من الصحابة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال . انما سمى يحيى ، لأن الله أحياه بالايمان ، وأخرجوا عن ابن عباس قال (مصدقا بكلمة من الله) قال عيسى ابن مريم هو الكلمة . وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عنه قال ، كان يحيى وعيسى ابنى الخالة وكانت أم يحيى تقول لمريم : انى أجد الذى فى بطنى يسجد للذى فى بطنك فذلك تصديقه بعيسى سجوده فى بطن أمه وهو أوّل من صدق بعيسى . وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس وسيدا قال : حليما تقيا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : السيد الكريم على الله . وأخرج ابن جرير عن ابن المسيب قال السيد الفقيه العالم . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (سيدا وحصورا) قال السيد الحليم ، والحصور الذى لا يأتى النساء . وأخرج أحمد فى الزهد عن سعيد بن جبير فى الحصور مثله . وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال الحصور الذى لاينزل الماء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال كان ذكره مثل هدبة الثوب . وأخرجه ابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد من وجه آخر عن ابن عمرو موقوفا وهو أقوى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن شعيب الجبائى قال : اسم أم يحيى أشيع . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله اجعل لى آية قال بالحمل به . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (آيتك أن لاتكلم الناس ثلاثة أيام) قال انما عوقب بذلك لأن الملائكة شافهته بذلك مشافهة فبشرته بيحيى ، فسأل الآية بعد كلام الملائكة اياه فأخذ عليه بلسانه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (الا رمزا) قال الرمز بالشفتين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : الرمز الاشارة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وسبح بالعشى والابكار) قال العشى ميل الشمس الى أن تغيب والابكار أوّل الفجر . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث علىّ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد » . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « أفضل نساء العالمين خديجة وفاطمة ومريم وآسية امرأة فرعون » وأخرج ابن مردويه عن أنس مرفوعا نحوه . وأخرج نحوه أحمد والترمذى وصححه وابن المنذر وابن حبان والحاكم من حديثه مرفوعا ، وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام » وفى المعنى أحاديث كثيرة وكلها تفيد أن مريم عليها السلام سيدة نساء عالمها : لانساء جميع العالم ، ويؤيده ماأخرجه ابن عساكر عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : أربع نسوة سادات نساء عالمهن : مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وأفضلهنّ عالما فاطمة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله (يامريم اقنتى لربك) قال أطيلى الركود يعنى القيام . وأخرج ابن جرير عن سعيد ابن جبير اقنتى لربك : قال أخلصى . وأخرج عن قتادة قال : أطيعى ربك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم) قال ان مريم لما وضعت فى المسجد اقترع عليها أهل المصلى وهم يكتبون الوحى فاقترعوا بأقلامهم أيهم يكفلها . قال الله لمحمد وما كنت لديهم الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : ألقوا أقلامهم فى الماء فذهبت مع الجرية وصعد قلم زكريا فكفلها زكريا . وأخرج ابن جرير عن الربيع نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ، وكذلك أخرج ابن أبى حاتم عن ابن جريج أن الأقلام هى التى يكتبون بها التوراة . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عطاء أنها القداح ،

إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ *

قوله (اذ قالت) بدل من قوله واذ قالت المذكور قبله وما بينهما اعتراض ، وقيل بدل من اذ يختصمون

وقيل منصوب بفعل مقدر ، وقيل بقوله (يختصمون) وقيل بقوله (وما كنت لديهم)
والمسيح اختلف فيه مماذا أخذ ، فقيل من المسح : لأنه مسح الأرض ، أى ذهب فيها فلم يستكن بكن . وقيل انه كان لا يمسح ذا عاهة الابرئ ، فسمى مسيحا ، فهو على هذين فعيل بمعنى فاعل ، وقيل لأنه كان يمسح بالدهن الذى كانت الأنبياء تمسح به ، وقيل لأنه كان ممسوح الأخمصين ، وقيل لأن الجمال مسحه ، وقيل لأنه مسح بالتطهير من الذنوب ، وهو على هذه الأربعة الأقوال فعيل بمعنى مفعول . وقال أبو الهيثم المسيح ضد المسيخ بالخاء المعجمة وقال ابن الأعرابى المسيح : الصديق . وقال أبو عبيد أصله بالعبرانية مشيخا بالمعجمتين فعرب كما عرب موشى بموسى * وأما الدجال فسمى مسيحا لأنه ممسوح احدى العينين ، وقيل لأنه يمسح الأرض أى يطوف بلدانها الا مكة والمدينة وبيت المقدس * وقوله (عيسى) عطف بيان أو بدل ، وهو اسم أعجمى ، وقيل هو عربى مشتق من عاسه يعوسه اذا ساسه . قال فى الكشاف : هو معرب من أيشوع انتهى ، والذى رأيناه فى الانجيل فى مواضع أن اسمه يشوع بدون همزة ، وانما قيل ابن مريم مع كون الخطاب معها تنبيها على أنه يولد من غير أب فنسب الى أمه * والوجيه ذو الوجاهة : وهى القوّة والمنعة ، ووجاهته فى الدنيا النبوّة ، وفى الآخرة الشفاعة وعلوّ الدرجة ، وهو منتصب على الحال من كلمة ، وان كانت نكرة فهى موصوفة ، وكذلك قوله (ومن المقربين) فى محل نصب على الحال . قال الأخفش هو معطوف على وجيها * والمهد : مضجع الصبى فى رضاعه ومهدت الأمر هيأته ووطأته * والكهل هو من كان بين سن الشباب والشيوخة ، أى يكلم الناس حال كونه رضيعا فى المهد وحال كونه كهلا بالوحى والرسالة ، قاله الزجاج ، وقال الأخفش والفراء ان كهلا معطوف على وجيها . قال الأخفش (ومن الصالحين) عطف على وجيها أى هو من العباد الصالحين * قوله (أنى يكون لى ولد) أى كيف يكون على طريقة الاستبعاد العادى (ولم يمسسنى بشر) جملة حالية : أى والحال أنه على حالة منافية للحالة المعتادة من كون له أب (قال كذلك الله يخلق مايشاء) هو من كلام الله سبحانه . وأصل القضاء الاحكام ، وقد تقدم : وهو هنا الارادة : أى إذا أراد أمرا من الأمور (فانما يقول له كن فيكون) من غير عمل ولا مزاولة ، وهو تمثيل لكمال قدرته * قوله (ويعلمه الكتاب) قيل هو معطوف على يبشرك : أى إنّ الله يبشرك وإنّ الله يعلمه : وقيل على يخلق أى وكذلك يعلمه الله ، أو كلام مبتدأ سيق تطييبا لقلبها * والكتاب الكتابة * والحكمة العلم ، وقيل تهذيب الأخلاق ، وانتصاب رسولا على تقدير ويجعله رسولا : أو ويكلمهم رسولا : أو وأرسلت رسولا ، وقيل هو معطوف على قوله (وجيها) فيكون حالا لأن فيه معنى النطق ، أى وناطقا ، قال الأخفش وان شئت جعلت الواو فى قوله : ورسولا مقحمة ، والرسول حالا * وقوله (أنى قد جئتكم) معمول لرسول لأن فيه معنى النطق كما مر ، وقيل أصله بأنى قد جئتكم فحذف الجار ، وقيل منصوب بمضمر أى تقول أنى قد جئتكم ، وقيل معطوف على الأحوال السابقة * وقوله (بآية) فى محل نصب على الحال ، أى متلبسا بعلامة كائنة (من ربكم) * وقوله (انى أخلق) أى أصوّر وأقدّر (لكم من الطين كهيئة الطير) وهذه الجملة بدل من الجملة الأولى ، وهى أنى قد جئتكم أو بدل من آية أو خبر مبتدأ محذوف ، أى هى أنى ، وقرئ بكسر الهمزة على الاستئناف . وقرأ الأعرج وأبو جعفر كهية الطير بالتشديد ، والكاف فى قوله (كهيئة الطير) نعت مصدر محذوف أى أخلق لكم خلقا أو شيئا مثل هيئة الطير * وقوله (فأنفخ فيه) أى فى ذلك الخلق ، أو ذلك الشىء فالضمير راجع الى الكاف فى قوله كهيئة الطير ، وقيل الضمير راجع الى الطير ، أى الواحد منه ، وقيل الى الطين ، وقرئ فيكون طائرا وطيرا : مثل تاجر وتجر ، وقيل انه لم يخلق غير الخفاش لما فيه من عجائب الصنعة ، فان له ثديا وأسنانا وأذنا ، ويحيض ويطهر ، وقيل انهم طلبوا خلق الخفاش لما فيه من العجائب المذكورة ، ولكونه يطير بغير ريش ، ويلد كما

يلد سائر الحيوان مع كونه من الطير، ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور، ولا يبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل وانما يرى فى ساعتين : بعد غروب الشمس ساعة، و بعد طلوع الفجر ساعة، وهو يضحك كما يضحك الانسان، وقيل ان سؤالهم له كان على وجه التعنت، قيل كان يطير مادام الناس ينظرونه فاذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز فعل الله من فعل غيره * وقوله (باذن الله) فيه دليل على أنه لولا الاذن من الله عزّ وجلّ لم يقدر على ذلك، وأن خلق ذلك كان بفعل الله سبحانه أجراه على يد عيسى عليه السلام، قيل كانت تسوية الطين والنفخ من عيسى، والخلق من الله عزّ وجلّ * قوله (وأبرئ الأكمه) الأكمه : الذى يولد أعمى، كذا قال أبو عبيدة. وقال ابن فارس : الكمه العمى يولد به الانسان وقد يعرض، يقال كمه يكمه كمها : اذا عمى، وكمهت عينه : اذا أعميتها، وقيل الأكمه : الذى يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل، وقيل هو الممسوح العين * والبرص معروف وهو بياض يظهر فى الجلد. وقد كان عيسى عليه السلام يبرئ من أمراض عدّة كما اشتمل عليه الانجيل، وانما خص الله سبحانه هذين المرضين بالذكر لأنهما لا يبرآن فى الغالب بالمداواة، وكذلك احياء الموتى قد اشتمل الانجيل على قصص من ذلك * قوله (وأنبئكم بما تأكلون) أى أخبركم بالذى تأكلونه وبالذى تدّخرونه * قوله (ومصدّقا) عطف على قوله (ورسولا) وقيل المعنى وجئتكم مصدّقا * قوله (ولأحلّ) أى ولأجل أن أحلّ، أى جئتكم بآية من ربكم وجئتكم لأحلّ لكم بعض الذى حرّم عليكم من الأطعمة فى التوراة كالشحوم وكل ذى ظفر، وقيل إنما أحلّ لهم ماحرّمته عليهم الأحبار ولم تحرّمه التوراة. وقال أبو عبيدة يجوز أن يكون بعض بمعنى كلّ، وأنشد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها * أو يرتبط بعض النفوس حمامها

قال القرطبى وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة، لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل ولأن عيسى لم يحلل لهم جميع ماحرّمته عليهم التوراة، فانه لم يحلل القتل ولا السرق ولا الفاحشة وغير ذلك من المحرّمات الثابتة فى الانجيل مع كونها ثابتة فى التوراة وهى كثيرة يعرف ذلك من يعرف الكتابين ولكنه قد يقع البعض موقع الكل مع القرينة كقول الشاعر :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا * حنانيك بعض الشر أهون من بعض

أى بعض الشرّ أهون من كله * قوله (بآية من ربكم) هى قوله (ان الله ربى وربكم) وانما كان ذلك آية، لأن من قبله من الرسل كانوا يقولون ذلك فمجيئه بما جاءت به الرسل يكون علامة على نبوّته. ويحتمل أن تكون هذه الآية هى الآية المتقدّمة فتكون تكريرا لقوله (أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين) الآية.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (بكلمة) قال عيسى هو الكلمة من الله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس. قال المهد : مضجع الصبى فى رضاعه. وقد ثبت فى الصحيح أنه لم يتكلم فى المهد الا ثلاثة : عيسى * وكان فى بنى اسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلى فجاءته أمه فدعته فقال أجيبها أو أصلى ؟ فقالت اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات، وكان جريج فى صومعة فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى، فأتت راعيا فأمكنته من نفسها فولدت غلاما فقالت من جريج فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال من أبوك ياغلام ؟ قال الراعى، قالوا نبنى صومعتك من ذهب ؟ قال لا الا من طين * وكانت امرأة من بنى اسرائيل ترضع ابنا لها، فمرّ بها رجل راكب ذو شارة، فقالت اللهم اجعل ابنى مثله فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال

اللهم لاتجعلنى مثله ثم أقبل على ثديها يمصه ، ثم مرّ بأمة تجرر ويلعب بها ، فقالت اللهم لاتجعل ابنى مثل هذه فترك ثديها . فقال اللهمّ اجعلنى مثلها ، فقالت لم ذاك ؟ فقال الراكب جبار من الجبابرة ، وهذه الأمة يقولون لها زنيت ، وتقول حسبى الله ونعم الوكيل ، ويقولون سرقت ، وتقول حسبى الله . وأخرج أبو الشيخ والحاكم وصححه عن أبى هريرة : قال قال رسول الله ﷺ « لم يتكلم فى المهد إلا عيسى ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وابن ماشطة فرعون » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله (ويكلم الناس فى المهد وكهلا) قال : يكلمهم صغيرا وكبيرا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال الكهل : هو من فى سنّ الكهولة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال الكهل الحليم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ويعلمه الكتاب) قال : الخط بالقلم . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال انما خلق عيسى طائرا واحدا وهو الخفاش . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال الأكمه : الذى يولد أعمى . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال الأكمه : الأعمى الممسوح العينين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال الأكمه : الذى يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل . وأخرجوا عن عكرمة قال الأكمه : الأعمش . وأخرج أحمد فى الزهد عن خالد الحذاء . قال كان عيسى ابن مريم إذا سرح رسله يحيون الموتى يقول لهم قولوا كذا فاذا وجدتم قشعريرة ودمعة فادعوا عند ذلك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وأنبئكم بما تأكلون) قال بما أكلتم البارحة من طعام وما خبأتم منه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عمار بن ياسر قال أنبئكم بما تأكلون من المائدة وماتدخرون منها وكان أخذ عليهم فى المائدة حين نزلت أن يأكلوا ولا يدّخروا ، فأكلوا وادّخروا وخانوا ، فجعلوا قردة وخنازير . وأخرج ابن جرير عن وهب أن عيسى كان على شريعة موسى وكان يسبت ويستقبل بيت المقدس وقال لبنى إسرائيل إنى لم أدعكم إلى خلاف حرف مما فى التوراة إلا لأحلّ لكم بعض الذى حرّم عليكم وأضع عنكم من الآصار . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع فى الآية : قال كان الذى جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى ، وكان قد حرّم عليهم فيما جاء به موسى لحوم الابل والثروب فأحلها لهم على لسان عيسى وحرّم عليهم الشحوم فأحلت لهم فيما جاء به عيسى ، وفى أشياء من السمك ، وفى أشياء من الطير ، وفى أشياء أخر حرّمها عليهم وشدّد عليهم فيها ، فجاءهم عيسى بالتخفيف منه فى الانجيل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وجئتكم بآية من ربكم) قال مابين لهم عيسى من الأشياء كلها وما أعطاه ربه .

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللَّهِ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَآ آمَنَّا بِمَآ أَنْزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ * إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا

شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ *

قوله (فلما أحس) أى علم ووجد : قاله الزجاج . وقال أبو عبيدة معنى أحس عرف ، وأصل ذلك وجود الشيء بالحاسة ، والاحساس : العلم بالشيء . قال الله تعالى ـ هل تحس منهم من أحد ـ * والمراد بالاحساس هنا الادراك القوى الجارى مجرى المشاهدة * وبالكفر إصرارهم عليه ، وقيل سمع منهم كلمة الكفر . وقال الفراء أرادوا قتله ، وعلى هذا فمعنى الآية فلما أدرك منهم عيسى إرادة قتله التى هى كفر قال من أنصارى الى الله ، الأنصار جمع نصير * وقوله (الى الله) متعلق بمحذوف وقع حالا ، أى متوجها الى الله أوملتجئا اليه أو ذاهبا اليه ، وقيل الى بمعنى مع كقوله تعالى ـ ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم ـ وقيل المعنى من أنصارى فى السبيل الى الله ، وقيل المعنى : من يضم نصرته الى نصرة الله * والحواريون جمع حوارى ، وحوارى الرجل : صفوته وخلاصته وهو مأخوذ من الحور وهو البياض عند أهل اللغة ، حوّرت الثياب : بيضتها ، والحوارى من الطعام : ماحوّر أى بيض ، والحوارى أيضا الناصر ، ومنه قوله ﷺ « لكل نبى حوارى وحوارىّ الزبير » وهو فى البخارى وغيره . وقد اختلف فى سبب تسميتهم بذلك ، فقيل لبياض ثيابهم ، وقيل لخلوص نياتهم ، وقيل لأنهم خاصة الأنبياء ، وكانوا اثنى عشر رجلا ، ومعنى أنصار الله : أنصار دينه ورسله * وقوله (آمنا بالله) استئناف جار مجرى العلة لما قبله فان الايمان يبعث على النصرة * قوله (واشهد بأنا مسلمون) أى اشهد لنا يوم القيامة بأنا مخلصون لايماننا منقادون لما تريد منا * ومعنى (بما أنزلت) ما أنزله الله سبحانه فى كتبه * والرسول عيسى ، وحذف المتعلق مشعر بالتعميم ، أى اتبعناه فى كل مايأتى به فاكتبنا مع الشاهدين لك بالوحدانية ولرسولك بالرسالة ، أو اكتبنا مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم ، وقيل مع أمة محمد ﷺ * قوله (ومكروا) أى الذين أحس عيسى منهم الكفر ، وهم كفار بنى إسرائيل * ومكر الله استدراجه للعباد من حيث لايعلمون . قاله الفراء وغيره . وقال الزجاج مكر الله مجازاتهم على مكرهم ، فسمى الجزاء باسم الابتداء كقوله تعالى ـ الله يستهزئ بهم ـ وهو خادعهم ـ ، وأصل المكر فى اللغة : الاغتيال والخدع : حكاه ابن فارس ، وعلى هذا فلا يسند إلى الله سبحانه إلا على طريق المشاكلة ، وقيل مكر الله هنا إلقاء شبه عيسى على غيره ، ورفع عيسى إليه (والله خير الماكرين) أى أقواهم مكرا وأنفذهم كيدا وأقواهم على ايصال الضرر بمن يريد ايصاله به من حيث لايحتسب * قوله (إذ قال الله ياعيسى) العامل فى إذ مكروا ، أوقوله (خير الماكرين) أو فعل مضمر تقديره وقع ذلك . وقال الفراء ان فى الكلام تقديما وتأخيرا تقديره انى رافعك ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك من السماء . وقال أبو زيد متوفيك : قابضك . وقال فى الكشاف مستوفى أجلك ، ومعناه انى عاصمك من أن يقتلك الكفار ، ومؤخر أجلك الى أجل كتبته لك ، ومميتك حتف أنفك لاقتلا بأيديهم * وانما احتاج المفسرون الى تأويل الوفاة بما ذكر ، لأن الصحيح أن الله رفعه إلى السماء من غير وفاة ، كما رجحه كثير من المفسرين ، واختاره ابن جرير الطبرى ، ووجه ذلك انه قد صح فى الأخبار عن النبى ﷺ نزوله وقتله الدجال ، وقيل ان الله سبحانه توفاه ثلاث ساعات من نهار ثم رفعه إلى السماء ، وفيه ضعف ، وقيل المراد بالوفاة هنا النوم ومثله ـ وهو الذى يتوفاكم بالليل ـ أى ينيمكم ، وبه قال كثيرون * قوله (ومطهرك من الذين كفروا) أى من حيث جوازهم برفعه إلى السماء وبعده عنهم * قوله (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) أى الذين اتبعوا

ماجئت به وهم خلص أصحابه الذين لم يبلغوا فى الغلوّ فيه إلى مابلغ من جعله إلها ، ومنهم المسلمون فانهم اتبعوا ماجاءبه عيسى عليه السلام ووصفوه بما يستحقه من دون غلوّ ، فلم يفرّطوا فى وصفه كما فرطت اليهود ولا أفرطوا كما أفرطت النصارى . وقد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم * وقيل المراد بالآية أن النصارى الذين هم أتباع عيسى لايزالون ظاهرين على اليهود غالبين لهم قاهرين لمن وجد منهم ، فيكون المراد بالذين كفروا هم اليهود خاصة ، وقيل هم الروم لايزالون ظاهرين على من خالفهم من الكافرين ، وقيل هم الحواريون لايزالون ظاهرين على من كفر بالمسيح ، وعلى كل حال فغلبة النصارى لطائفة من الكفار أو لكل طوائف الكفار لا ينافى كونهم مقهورين مغلوبين بطوائف المسلمين كما تفيده الآيات الكثيرة ، بأن هذه الملة الاسلامية ظاهرة على كل الملل ، قاهرة لها مستعلية عليها . وقد أفردت هذه الآية بمؤلف سميته « وبل الغمامة فى تفسير ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة » فمن رام استيفاء مافى المقام فليرجع الى ذلك * والفوقية هنا هى أعم من أن تكون بالسيف أو بالحجة . وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن عيسى عليه السلام : ينزل فى آخر الزمان فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، و يضع الجزية ، ويحكم بين العباد بالشريعة المحمدية ويكون المسلمون أنصاره وأتباعه اذ ذاك فلا يبعد أن يكون فى هذه الآية اشارة الى هذه الحالة * قوله (ثم إلىّ مرجعكم) أى رجوعكم ، وتقديم الظرف للقصر (فأحكم بينكم) يومئذ (فيما كنتم فيه تختلفون) من أمور الدين * وقوله (فأما الذين كفروا) الى قوله (والله لايحب الظالمين) تفسير للحكم * قوله (فى الدنيا والآخرة) متعلق بقوله فأعذبهم ، أما تعذيبهم فى الدنيا فبالقتل والسبى والجزية والصغار ، وأما فى الآخرة فبعذاب النار * قوله (فنوفيهم أجورهم) أى نعطيهم إياها كاملة موفرة ، قرئ بالتحتية وبالنون * وقوله (لا يحب الظالمين) كناية عن بغضهم ، وهى جملة تذييلية مقررة لما قبلها * قوله (ذلك) اشارة الى ماسلف من نبأ عيسى وغيره وهو مبتدأ خبره مابعده ، و (من الآيات) حال أو خبر بعد خبر * والحكيم المشتمل على الحكم أو المحكم الذى لا خلل فيه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله (فلما أحس عيسى منهم الكفر) قال كفروا وأرادوا قتله ، فذلك حين استنصر قومه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : انما سموا الحواريين لبياض ثيابهم كانوا صيادين . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال : الحواريون قصارون مرّ بهم عيسى فآمنوا به . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : الحواريون هم الذين تصلح لهم الخلافة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : هم أصفياء الأنبياء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الضحاك مثله . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن قتادة قال الحوارى : الوزير . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان بن عيينة قال : الحوارى الناصر . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (فاكتبنا مع الشاهدين) قال مع محمد وأمته أنهم شهدوا له أنه قد بلغ ، وشهدوا للرسل أنهم قد بلغوا . وأخرج عبد ابن حميد وابن المنذر من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه قال : مع الشاهدين مع أصحاب محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير عن السدى قال : ان بنى اسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلا من الحواريين فى بيت فقال عيسى لأصحابه من يأخذ صورتى فيقتل وله الجنة ، فأخذها رجل منهم وصعد بعيسى الى السماء فذلك قوله (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (انى متوفيك) يقول مميتك . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن قال : متوفيك من الأرض . وأخرج الآخران عنه قال : وفاة المنام . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال :

هذا

هذا من المقدّم والمؤخر ، أى رافعك الىّ ومتوفيك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مطر الوراق قال متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن وهب قال : توفى الله عيسى ثلاث ساعات من النهار حتى رفعه اليه . وأخرج ابن عساكر عنه قال : أماته ثلاثة أيام ثم بعثه ورفعه . وأخرج الحاكم عنه قال : توفى الله عيسى سبع ساعات . وأخرج ابن سعد وأحمد فى الزهد والحاكم عن سعيد بن المسيب قال : رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . وأخرج ابن عساكر عن وهب مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله تعالى (ومطهرك من الذين كفروا) قال : طهره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفار قومه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا) قال : هم أهل الاسلام الذين اتبعوه على فطرته وملته وسنته . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن نحوه أيضا . وأخرج ابن أبى حاتم وابن عساكر عن النعمان بن بشير سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين لايبالون بمن خالفهم حتى يأتى أمر الله » قال النعمان من قال انى أقول على رسول الله مالم يقل فان تصديق ذلك فى كتاب الله . قال الله : وجاعل الذين اتبعوك الآية . وأخرج ابن عساكر عن معاوية مرفوعا نحوه ثم قرأ معاوية الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : النصارى فوق اليهود الى يوم القيامة ، وليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهم فوق اليهود فى شرق ولاغرب هم فى البلدان كلها مستذلون .

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ *

تشبيه عيسى بآدم فى كونه مخلوقا من غير أب كآدم ، ولا يقدح فى التشبيه اشتمال المشبه به على زيادة وهو كونه لا أمّ له : كما أنه لا أب له ، فذلك أمر خارج عن الأمر المراد بالتشبيه وان كان المشبه به أشد غرابة من المشبه وأعظم عجبا وأغرب أسلوبا * وقوله (خلقه من تراب) جملة مفسرة لما أبهم فى المثل : أى ان آدم لم يكن له أب ولا أم : بل خلقه الله من تراب ، وفى ذلك دفع لانكار من أنكر خلق عيسى من غير أب مع اعترافه بأنّ آدم خلق من غير أب وأمّ * قوله (ثم قال له كن فيكون) أى كن بشرا فكان بشرا * وقوله (فيكون) حكاية حال ماضية ، وقد تقدّم تفسير هذا * وقوله (الحق من ربك) قال الفراء هو مرفوع باضمار هو . وقال أبو عبيدة هو استئناف كلام وخبره قوله من ربك ، وقيل هو فاعل فعل محذوف : أى جاءك الحق من ربك * قوله (فلاتكن من الممترين) الخطاب اما لكل من يصلح له من الناس : أى لا يكن أحد منكم ممتريا ، أو للرسول ﷺ ويكون النهى له لزيادة التثبيت لأنه لا يكون منه شك فى ذلك * قوله (فمن حاجك فيه) هذا وان كان عاما فالمراد به الخاص وهم النصارى الذين وفدوا اليه ﷺ من نجران كما سيأتى بيانه ، ويمكن أن يقال هو على عمومه وان كان السبب خاصا فيدل على جواز المباهلة منه ﷺ لكل من حاجه فى عيسى عليه السلام ، وأمته أسوته وضمير فيه لعيسى ، والمراد بمجىء العلم هنا مجىء سببه ، وهو الآيات البينات ، والمحاجة المخاصمة

والمجادلة * وقوله (تعالوا) أى هلموا وأقبلوا ، وأصله الطلب لاقبال الذوات و يستعمل فى الرأى اذا كان المخاطب حاضرا كما تقول لمن هو حاضر عندك تعال ننظر فى هذا الأمر * قوله (ندع أبناءنا الخ) اكتفى بذكر البنين عن البنات ، إما لدخولهن فى النساء ، أو لكونهم الذين يحضرون مواقف الخصام دونهن ، ومعنى الآية ليدع كل منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه الى المباهلة * وفيه دليل على أن أبناء البنات يسمون أبناء لكونه ﷺ أراد بالأبناء الحسنين كما سيأتى * قوله (نبتهل) أصل الابتهال الاجتهاد فى الدعاء باللعن وغيره ، يقال بهله الله : أى لعنه ، والبهل اللعن . قال أبو عبيد والكسائى نبتهل نلتعن ، و يطلق على الاجتهاد فى الهلاك ، ومنه قول لبيد :

فى كهول سادة من قومه * نظر الدهر اليهم فابتهل

أى فاجتهد فى هلاكهم . قال فى الكشاف ثم استعمل فى كل دعاء يجتهد فيه وان لم يكن التعانا * قوله (فنجعل لعنة الله على الكاذبين) عطف على نبتهل مبين لمعناه * قوله (إن هذا) أى الذى قصه الله على رسوله من نبأ عيسى (لهو القصص الحق) القصص التتابع ، يقال فلان يقص أثر فلان أى يتبعه فأطلق على الكلام الذى يتبع بعضه بعضا ، وضمير الفصل للحصر ، ودخول اللام عليه لزيادة تأكيده و يجوز أن يكون مبتدأ وما بعده خبره ، وز يادة من فى قوله (من إله) لتأكيد العموم ، وهو ردّ على من قال بالتثليث من النصارى .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث حذيفة أن العاقب والسيد أتيا رسول الله ﷺ فأراد أن يلاعنهما ، فقال أحدهما لصاحبه لا تلاعنه ، فوالله لئن كان نبيا فلاعننا لا نفلح أبدا نحن ولا عقبنا من بعدنا ، فقالوا له نعطيك ماسألت ، فابعث معنا رجلا أمينا ، فقال قم ياأبا عبيدة ، فلما قام ، قال هذا أمين هذه الأمة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس أن رهطا من أهل نجران قدموا على النبى ﷺ وكان فيهم السيد والعاقب ، فقالوا ماشأنك تذكر صاحبنا ، قال من هو ؟ قالوا عيسى تزعم أنه عبدالله ، قالوا فهل رأيت مثل عيسى وأنبئت به ، ثم خرجوا من عنده ، فجاء جبريل فقال : قل لهم اذا أتوك (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم) الى آخر الآية . وقد رويت هذه القصة على وجوه عن جماعة من التابعين . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم فى الدلائل عن جابر قال : قدم على النبى ﷺ العاقب والسيد ، فدعاهما الى الاسلام ، فقالا أسلمنا يامحمد ، فقال كذبتما ان شئتما أخبرتكما مايمنعكما من الاسلام ؟ قالا فهات . قال حب الصليب ، وشرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير . قال جابر فدعاهما الى الملاعنة فواعداه على الغد ، فغدا رسول الله ﷺ وأخذ بيد علىّ وفاطمة والحسن والحسين ، ثم أرسل اليهما فأبيا أن يجيباه وأقرا له ، فقال : والذى بعثنى بالحق لو فعلا لأمطر الوادى عليهما نارا . قال جابر : فيهم نزلت (تعالوا ندع أبناءنا) الآية . قال جابر (أنفسنا وأنفسكم) رسول الله ﷺ وعلىّ ، وأبناءنا الحسن والحسين ، ونساءنا فاطمة ، ورواه أيضا الحاكم من وجه آخر عن جابر وصححه ، وفيه أنهم قالوا للنبى ﷺ هل لك أن نلاعنك . وأخرج مسلم والترمذى وابن المنذر والحاكم والبيهقى عن سعد بن أبى وقاص : قال لما نزلت هذه الآية (قل تعالوا) دعا رسول الله ﷺ عليا ، وفاطمة وحسنا ، وحسينا . فقال اللهم هؤلاء أهلى . وأخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه (تعالوا ندع أبناءنا) الآية . قال فجاء بأبى بكر وولده ، و بعمر وولده ، و بعثمان وولده ، و بعلىّ وولده . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق ابن جريج عن ابن عباس ثم نبتهل نجتهد . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال هذا الاخلاص يشير بأصبعه التى تلى الابهام ، وهذا

الدعاء

الدعاء فرفع يديه حذو منكبيه ، وهذا الابتهال فرفع يديه مدّا .

قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ *

قيل الخطاب لأهل نجران بدليل ماتقدم قبل هذه الآية ، وقيل ليهود المدينة ، وقيل لليهود والنصارى جميعا ، وهو ظاهر النظم القرآنى ، ولاوجه لتخصيصه بالبعض ، لأن هذه دعوة عامة لاتختص بأولئك الذين حاجوا رسول الله ﷺ * والسواء : العدل . قال الفراء : يقال فى معنى العدل سوى وسواء ، فاذا فتحت السين مددت ، واذا ضممت أوكسرت قصرت . قال زهير :

أروى خطة لاضيم فيها * يروى نبتها فيها السواء

وفى قراءة ابن مسعود الى كلمة عدل بيننا و بينكم * فالمعنى أقبلوا الى مادعيتم اليه ، وهى الكلمة العادلة المستقيمة التى ليس فيها ميل عن الحق ، وقد فسرها بقوله (أن لا نعبد إلا الله) وهو فى موضع خفض على البدل من كلمة ، أو رفع على اضمار مبتدا ، أى هى أن لا نعبد ، و يجوز أن تكون أن مفسرة لاموضع للجملة التى دخلت عليها ، وفى قوله (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا) تبكيت لمن اعتقد ربوبية المسيح وعزير ، واشارة الى أن هؤلاء من جنس البشر و بعض منهم ، وازراء على من قلد الرجال فى دين الله فحلل ماحللوه له ، وحرم ماحرموه عليه ، فان من فعل ذلك فقد اتخذ من قلده ربا ، ومنه ـ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ـ وقد جوّز الكسائى والفراء الجزم فى ولا نشرك ولا يتخذ على التوهم * قوله (فان تولوا) أى أعرضوا عما دعوا اليه (فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) أى منقادون لأحكامه مرتضون به معترفون بما أنعم الله به علينا من هذا الدين القويم .

وقد أخرج البخارى ومسلم والنسائى عن ابن عباس قال حدّثنى أبو سفيان أن هرقل دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فاذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم : سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فان عليك إثم الاريسيين ، و ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم الى قوله بأنا مسلمون» . وأخرج الطبرانى عن ابن عباس أن كتاب رسول الله ﷺ الى الكفار (تعالوا الى كلمة) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن جريج قال : بلغنى أن رسول الله ﷺ دعا يهود المدينة الى مافى هذه الآية فأبوا عليه ، فجاهدهم حتى أقرّوا بالجزية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال ذكرلنا أن النبى ﷺ دعا يهود أهل المدينة الى الكلمة السواء . وأخرج ابن جرير عن الربيع نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة الى كلمة سواء : قال عدل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله ـ ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا ـ قال لايطيع بعضنا بعضا فى معصية الله ، و يقال ان تلك الربوبية أن يطيع الناس سادتهم وقادتهم فى غير عبادة وان لم يصلوا لهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا) قال سجود بعضهم لبعض .

يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ *

هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ *

لما ادّعت كل واحـدة من طائفتى اليهود والنصارى أن ابراهيم عليه السلام كان على دينهم ردّ الله سبحانه ذلك عليهم وأبان بأن الملة اليهودية والملة النصرانية إنما كانتا من بعده . قال الزجاج هذه الآية أبين حجة على اليهود والنصارى أن التوراة والانجيل نزلا من بعده ، وليس فيهما اسم لواحد من الأديان واسم الاسلام فى كل كتاب انتهى ، وفيـه نظر فان الانجيل مشحون بالآيات من التوراة وذكر شريعة موسى والاحتجاج بها على اليهود ، وكذلك الزبور فيـه فى مواضع ذكر شريعة موسى ، وفى أوائله التبشير بعيسى ثم فى التوراة ذكر كثير من الشرائع المتقدّمة ، يعرف هذا كل من عرف هذه الكتب المنزلة . وقد اختلف فى قدر المدّة التى بين ابراهيم وموسى والمدّة التى بين موسى وعيسى . قال القرطبى : يقال كان بين ابراهيم وموسى ألف سنة ، و بين موسى وعيسى ألفا سنة ، وكذا فى الكشاف * قوله (أفلا تعقلون) أى تتفكرون فى دحوض حجتكم و بطلان قولكم * قوله (هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم) الأصل فى هاأنتم أأنتم أبدلت الهمزة الأولى هاء ، لأنها أختها كذا قال أبو عمرو بن العلاء والأخفش . قال النحاس : وهذا قول حسن . وقرأ قنبل هاتم ، وقيل الهاء للتنبيه دخلت على الجملة التى بعدها أى هاأنتم هؤلاء الرجال الحمقى حاججتم ، وفى هؤلاء لغتان المدّ والقصر * والمراد بما لهم به علم هو ما كان فى التوراة وان خالفوا مقتضاه وجادلوا فيه بالباطل ، والذى لا علم لهم به هو زعمهم أن ابراهيم كان على دينهم لجهلهم بالزمن الذى كان فيه * وفى الآية دليل على منع الجدال بالباطل ، بل ورد الترغيب فى ترك الجدال من المحقّ كما فى حديث « من ترك المراء ولو محقا فأنا ضمينه على الله يبيت فى ربض الجنة » . وقد ورد تسويغ الجدال بالتى هى أحسن لقوله تعالى ــ وجادلهم بالتى هى أحسن ــ ولاتجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن ــ ونحو ذلك ، فينبغى أن يقصر جوازه على المواطن التى تكون المصلحة فى فعله أكثر من المفسدة أو على المواطن التى المجادلة فيها بالمحاسنة لا بالمخاشنة * قوله (والله يعلم) أى كل شىء فيدخل فى ذلك ما حاججوا به . وقد تقدّم تفسير الحنيف * قوله (ان أولى الناس) أى أحقهم به وأخصهم للذين اتبعوا ملته واقتدوا بدينه (وهذا النبىّ) يعنى محمدا ﷺ ، أفرده بالذكر تعظيما له وتشريفا ، وأولويته ﷺ بابراهيم من جهة كونه من ذريته ، ومن جهة موافقته لدينه فى كثير من الشريعة المحمدية (والذين آمنوا) من أمة محمد ﷺ .

وقد أخرج ابن اسحق وابن جرير والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس : قال اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده فقالت الأحبار ما كان ابراهيم الا يهوديا . وقالت النصارى ما كان ابراهيم الا نصرانيا ، فنزل فيهم (ياأهل الكتاب لم تحاجون) الآية . وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية (هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم) يقول فيما شهدتم ورأيتم وعاينتم (فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم) يقول فيما لم تشهدوا ولم تروا ولم تعاينوا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال أما الذى لهم به علم فما حرّم عليهم وما أمروا به ، وأما الذى ليس لهم به علم فشأن ابراهيم . وأخرج

ابن

ابن أبى حاتم عن الحسن قال يعذر من حاج بعلم ولا يعذر من حاج بالجهل . وأخرج ابن جرير عنه عن الشعبي فى قوله (ماكان ابراهيم) قال أكذبهم الله وأدحض حجتهم . وأخرج أيضا عن الربيع مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حبان نحوه . وأخرج عبد بن حميد من طريق شهر بن حوشب حدّثني ابن غنم أنه لما خرج أصحاب رسول الله ﷺ إلى النجاشى فذكر قصتهم معه وما قلوه له لما قال له عمرو ابن العاص انهم يشتمون عيسى وهى قصة مشهورة ، ثم قال فأنزلت ذلك اليوم خصومتهم على رسول الله ﷺ وهو بالمدينة (ان أولى الناس بابراهيم) الآية . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال « ان لكل نبىّ ولاة من النبيين وان ولي منهم أبى خليل ربى » ثم قرأ (ان أولى الناس) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحكم بن ميناء أن رسول الله ﷺ قال « يامعشر قريش ان أولى الناس بالنبى المتقون فكونوا أنتم سبيل ذلك فانظروا أن لايلقانى الناس يحملون الأعمال وتلقونى بالدنيا تحملونها فأصدّ عنكم بوجهى » ثم قرأ عليهم (ان أولى الناس بابراهيم) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال كل مؤمن ولى ابراهيم ممن مضى وممن بقى .

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *

الطائفة من أهل الكتاب هم يهود بنى النضير وقريظة و بنى قينقاع حين دعوا جماعة من المسلمين إلى دينهم وسيأتى ، وقيل هم جميع أهل الكتاب ، فتكون من لبيان الجنس * وقوله (وما يضلون إلا أنفسهم) جملة حالية للدلالة على ثبوت قدم المؤمنين فى الايمان ، فلا يعود و بال من أراد فتنتهم إلا عليه * والمراد بآيات الله مافى كتبهم من دلائل نبوّة محمد ﷺ (وأنتم تشهدون) مافى كتبكم من ذلك ، أو تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء الذين تقرّون بنبوّتهم ، أو المراد كتم كل الآيات عنادا وأنتم تعلمون أنها حق * ولبس الحق بالباطل خلطه بما يتعمدونه من التحريف (وأنتم تعلمون) جملة حالية * قوله (وقالت طائفة من أهل الكتاب) هم رؤساؤهم وأشرافهم ، قالوا للسفلة من قومهم هذه المقالة * ووجه النهار : أوّله ، وسمي وجها لأنه أحسنه قال :

وتضىء فى وجه النهار منيرة * كجمانة البحرى سلّ نظامها

وهو منصوب على الظرف ، أمروهم بذلك لادخال الشك على المؤمنين ، لكونهم يعتقدون أن أهل الكتاب لديهم علم ، فاذا كفروا بعد الايمان وقع الريب لغيرهم واعتراه الشك ، وهم لايعلمون أن الله قد ثبت قلوب المؤمنين ومكن أقدامهم ، فلا تزلزلهم أراجيف أعداء الله ، ولا تحركهم ريح المعاندين * قوله (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) هذا من كلام اليهود بعضهم لبعض ، أى قال ذلك الرؤساء للسفلة لا تصدّقوا

تصديقا صحيحا الا لمن تبع دينكم من أهل الملة التى أنتم عليها ، وأما غيرهم ممن قد أسلم فأظهروا لهم ذلك خداعا (وجه النهار واكفروا آخره) ليفتتنوا ، ويكون قوله (أن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم) على هذا متعلقا بمحذوف ، أى فعلتم ذلك لأن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم ، يعنى أن ما بكم من الحسد والبغى أن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم من فضل العلم والكتاب دعاكم الى أن قلتم ماقلتم * وقوله (أو يحاجوكم) معطوف على أن يؤتى ، أى لاتؤمنوا ايمانا صحيحا وتقرّوا بما فى صدوركم إقرارا صادقا لغير من تبع دينكم ، فعلتم ذلك ودبرتموه أن المسلمين يحاجوكم يوم القيامة عند الله بالحق * وقوله (ان الهدى هدى الله) جملة اعتراضية . وقال الأخفش : المعنى ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم ، ولاتؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، ولاتصدقوا أن يحاجوكم ، فذهب الى أنه معطوف ، وقيل المراد لاتؤمنوا وجه النهار وتكفروا آخره الا لمن تبع دينكم أى لمن دخل فى الاسلام وكان من أهل دينكم قبل إسلامه لأن إسلام من كان منهم هو الذى قتلهم غيظا وأماتهم حسرة وأسفا ، ويكون قوله (أن يؤتى) على هذا متعلقا بمحذوف كالأول ، وقيل ان قوله (أن يؤتى) متعلق بقوله (لاتؤمنوا) أى لاتظهروا ايمانكم (بأن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم) أى أسرّوا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ماأوتيتم ، ولا تفشوه الا لأتباع دينكم ، وقيل المعنى ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم بالمدّ على الاستفهام تأكيدا للانكار الذى قالوه انه لايؤتى أحد مثل ماأوتوه فتكون على هذا أن ومابعدها فى محل رفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره تصدّقون بذلك ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على اضمار فعل تقدير تقرون أن يؤتى ، وقد قرأ آن يؤتى بالمدّ ابن كثير وابن محيصن وحميد . وقال الخليل أن فى موضع خفض والخافض محذوف . وقال ابن جريج المعنى ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم كراهية أن يؤتى ، وقيل المعنى لاتخبروا بما فى كتابكم من صفة محمد ﷺ الا لمن تبع دينكم لئلا يكون ذلك سببا لايمان غيرهم بمحمد ﷺ . وقال الفراء يجوز أن يكون قد انقطع كلام اليهود عند قوله (الا لمن تبع دينكم) ثم قال الله لمحمد ﷺ (قل ان الهدى هدى الله) أى ان البيان الحق بيان الله بين أن لايؤتى أحد مثل ماأوتيتم على تقدير لا كقوله تعالى — يبين الله لكم أن تضلوا — أى لئلا تضلوا ، وأو فى قوله (أو يحاجوكم) بمعنى حتى ، وكذلك قال الكسائى وهى عند الأخفش عاطفة كما تقدّم . وقيل ان هدى الله بدل من الهدى ، وأن يؤتى خبر إن على معنى قل إن هدى الله أن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم . وقد قيل ان هذه الآية أعظم آى هذه السورة إشكالا وذلك صحيح . وقرأ الحسن يؤتى بكسر التاء الفوقية . وقرأ سعيد بن جبير إن يؤتى بكسر الهمزة على أنها النافية * وقوله (يختص برحمته من يشاء) قيل هى النبوّة ، وقيل أعم منها ، وهو ردّ عليهم ودفع لما قالوه ودبروه .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن سفيان قال : كل شىء فى آل عمران من ذكر أهل الكتاب فهو فى النصارى ، ويدفع هذا أن كثيرا من خطابات أهل الكتاب المذكورة فى هذه السورة لا يصح حملها على النصارى ألبتة ، ومن ذلك هذه الآيات التى نحن بصدد تفسيرها ، فان الطائفة التى ودّت اضلال المسلمين وكذلك الطائفة القائلة (آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار) هى من اليهود خاصة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون) قال تشهدون أن نعت نبىّ الله محمد فى كتابكم ، ثم تكفرون به وتنكرونه ولا تؤمنون به وأنتم تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والانجيل النبى الأمى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع مثله . وأخرجا أيضا عن السدى نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن جريج وأنتم تشهدون على أنّ الدين عند الله الاسلام ليس لله دين غيره . وأخرجا عن الربيع فى

قوله

قوله (لم تلبسون الحق بالباطل) يقول لم تخلطون اليهودية والنصرانية بالاسلام، وقد علمتم أن دين الله الذى لايقبل من أحد غيره الاسلام (وتكتمون الحق) يقول تكتمون شأن محمد وأنتم تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والانجيل. وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن قتادة مثله. وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: قال عبد الله بن الصيف وعدىّ بن زيد والحارث بن عوف بعضهم لبعض تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع فيرجعون عن دينهم، فأنزل الله فيهم (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل الى قوله والله واسع عليم) وقدروى نحو هذا عن جماعة من السلف. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء فى المختارة من طريق أبى ظبيان عن ابن عباس فى قوله (وقالت طائفة) الآية قال كانوا يكونون معهم أول النهار ويجالسونهم ويكلمونهم: فاذا أمسوا وحضرت الصلاة كفروا به وتركوه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) قال هذا قول بعضهم لبعض. وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله. وأخرج أيضا عن السدى نحوه. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد (أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم) حسدا من يهود أن تكون النبوة فى غيرهم، وارادة أن يتابعوا على دينهم. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى مالك وسعيد بن جبير (أن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم) قال أمة محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال الله لمحمد ﷺ (ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم) ياأمة محمد (أو يحاجوكم عند ربكم) يقول اليهود فعل الله بنا كذا وكذا من الكرامة حتى أنزل علينا المنّ والسلوى فان الذى أعطيتكم أفضل فقولوا (قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء). وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة (قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم) يقول لما أنزل الله كتابا مثل كتابكم وبعث نبيا كنبيكم حسدتموه على ذلك (قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء). وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج (قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم) يقول هذا الأمر الذى أنعم الله عليه (أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم) قال قال بعضهم لبعض لا تخبروهم بما بين الله لكم فى كتابه (ليحاجوكم) قال ليخاصموكم (به عند ربكم) فتكون لهم حجة عليكم (قل إنّ الفضل بيد الله) قال الاسلام (يختص برحمته من يشاء) قال القرآن والاسلام. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد (يختص برحمته من يشاء) قال النبوّة. وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال رحمته الاسلام يختص بها من يشاء.

وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *

هذا شروع فى بيان خيانة اليهود فى المال بعد بيان خيانتهم فى الدين، والجار والمجرور فى قوله (ومن أهل

الكتاب) فى محل رفع على الابتداء على ماس فى قوله ـ ومن الناس من يقول ـ وقد تقدم تفسير القنطار * وقوله (تأمنه) هذه قراءة الجمهور . وقرأ ابن وثاب والأشهب العقيلى تمنه بكسر التاء الفوقية على لغة بكر وتميم ، ومثله قراءة من قرأ نستعين بكسر النون . وقرأ نافع والكسائى (يؤده) بكسر الهاء فى الدرج . قال أبو عبيد واتفق أبو عمرو والأعمش وحمزة وعاصم فى رواية أبى بكر على اسكان الهاء . قال النحاس اسكان الهاء لايجوز الا فى الشعر عند بعض النحويين ، وبعضهم لايجيزه ألبتة ، ويرى أنه غلط من قرأ به ويوهم أن الجزم يقع على الهاء وأبو عمرو أجل من أن يجوز عليه شىء من هذا ، والصحيح عنه أنه كان يكسر الهاء . وقال الفراء مذهب بعض العرب يسكنون الهاء اذا تحرك ماقبلها ، فيقولون ضربته ضربا شديدا كما يسكنون ميم أنتم وقمتم ، وأنشد :

لما رأى أن لادعه ولاشبع * مال الى أرضاه حقف فاضطجع اهـ

وقرأ أبو المنذر سلام والزهرى يؤده بضم الهاء بغير واو . وقرأ قتادة وحمزة ومجاهد يؤد هو بواو فى الادراج ، ومعنى الآية أن أهل الكتاب فيهم الأمين الذى يؤدّى أمانته وان كانت كثيرة ، وفيهم الخائن الذى لايؤدّى أمانته وان كانت حقيرة ، ومن كان أمينا فى الكثير فهو فى القليل أمين بالأولى ، ومن كان خائنا فى القليل : فهو فى الكثير خائن بالأولى * وقوله (الامادمت عليه قائما) استثناء مفرغ ، أى لايؤده اليك فى حال من الأحوال الا مادمت عليه قائما مطالباله مضيقا عليه متقاضيا لردّه ، والاشارة بقوله ذلك الى ترك الأداء المدلول عليه بقوله (لايؤده) * والأميون هم العرب الذين ليسوا أهل كتاب ، أى ليس علينا فى ظلمهم حرج لمخالفتهم لنا فى ديننا ، وادّعوا لعنهم الله أن ذلك فى كتابهم ، فردّ الله سبحانه عليهم بقوله (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . بلى) أى بلى عليهم سبيل لكذبهم واستحلالهم أموال العرب ، فقوله (بلى) اثبات لما نفوه من السبيل . قال الزجاج : تمّ الكلام بقوله (بلى) ثم قال (من أوفى بعهده واتقى) وهذه جملة مستأنفة ، أى من أوفى بعهده واتقى فليس من الكاذبين ، أوفان الله يحبه ، والضمير فى قوله (بعهده) راجع الى من ، أوالى الله تعالى ، وعموم المتقين قائم مقام العائد الى من ، أى فان الله يحبه * قوله (ان الذين يشترون بعهدالله) أى يستبدلون كما تقدّم تحقيقه غير مرة * وعهدالله هوماعاهدوه عليه من الايمان بالنبى ﷺ ، والأيمان هى التى كانوا يحلفون أنهم يؤمنون به وينصرونه ، وسيأتى بيان سبب نزول الآية (أولئك) أى الموصوفون بهذه الصفة (لاخلاق لهم فى الآخرة) أى لانصيب (ولا يكلمهم الله) بشىء أصلا كما يفيده حذف المتعلق من التعميم ، أولا يكلمهم بمايسرهم (ولا ينظر اليهم يوم القيامة) نظر رحمة ، بل يسخط عليهم ويعذبهم بذنوبهم كما يفيده قوله (ولهم عذاب أليم) :

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة فى قوله (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤدّه اليك) قال : هذا من النصارى (ومنهم من إن تأمنه بدينار) قال هذا من اليهود (الا مادمت عليه قائما) قال الا ماطلبته واتبعته . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل) قال قالت اليهود ليس علينا فيما أصبنا من مال العرب سبيل . وأخرج ابن جرير عن السدّى نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل) قال النبى ﷺ « كذب أعداء الله مامن شىء كان فى الجاهلية الا وهو تحت قدمىّ هاتين الا الأمانة فانها مؤدّاة الى البر والفاجر » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن صعصعة أنه سأل ابن عباس فقال : انا نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة . قال ابن عباس فتقولون ماذا ؟ قال نقول ليس علينا فى ذلك من بأس . قال هذا كما قال أهل الكتاب (ليس

علينا

علينافي الأميين سبيل) انهم اذا أدّوا الجزية لم تحل لكم أموالهم الا بطيب نفوسهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (بلى من أوفى بعهده واتقى) يقول اتقى الشرك (فان الله يحب المتقين) يقول الذين يتقون الشرك . وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود . قال قال رسول الله ﷺ «من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان . فقال الأشعث بن قيس فيّ والله كان ذلك ، كان بيني و بين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدّمته الى النبي ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ ألك بينة ؟ قلت لا ، قال لليهودي احلف ، فقلت يارسول الله اذن يحلف فيذهب مالي ، فأنزل الله (ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) الى آخر الآية» . وقد روى أن سبب نزول الآية أن رجلا كان يحلف بالسوق : لقد أعطى بسلعته مالم يعط بها . أخرجه البخاري وغيره . وروى أن سبب نزولها مخاصمة كانت بين الأشعث وامرىء القيس ورجل من حضرموت . أخرجه النسائي وغيره :

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ *

أي طائفة من اليهود يلوون ، أي يحرّفون و يعدلون به عن القصد ، وأصل اللىّ : الميل ، يقول لوى برأسه اذا أماله . وقرئ يلوّون بالتشديد ، ويلون بقلب الواو همزة ، ثم تخفيفها بالحذف ، والضمير في قوله (لتحسبوه) يعود الى مادل عليه (يلوون) وهو المحرّف الذى جاءوا به * قوله (وماهو من الكتاب) جملة حالية ، وكذلك قوله (وما هو من عند الله) وكذلك قوله (وهم يعلمون) أي انهم كاذبون مفترون .

وقدأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله (وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم) قال : هم اليهود ، كانوا يزيدون في الكتاب مالم ينزل الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال يحرّفونه :

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ *

أي ما كان ينبغي ولا يستقيم لبشر أن يقول هذه المقالة وهو متصف بتلك الصفة . وفيه بيان من الله سبحانه لعباده أن النصارى افتروا على عيسى عليه السلام مالم يصح عنه ، ولاينبغي أن يقوله * والحكم : الفهم والعلم * قوله (ولكن كونوا) أي ولكن يقول النبي كونوا ربانيين ، والرباني منسوب الى الرب بزيادة الألف والنون للمبالغة كما يقال لعظيم اللحية لحياني ، ولعظيم الجمة جماني ، ولغليظ الرقبة رقباني : قيل الرباني الذي يربى الناس بصغار العلم قبل كباره ، فكأنه يقتدى بالرب سبحانه في تيسير الأمور . وقال المبرد الربانيون أرباب العلم : واحدهم رباني ، من قوله ربه يربه فهو ربان اذا دبره ، وأصلحه والياء للنسب ، فمعنى الرباني العالم بدين الرب القوى التمسك بطاعة الله ، وقيل العالم الحكيم * قوله (بما كنتم تعلمون) أي بسبب كونكم عالمين : أي كونوا ربانيين بهذا السبب ، فان حصول العلم للانسان والدراسة له يتسبب عنهما الربانية التي هي التعليم للعلم ، وقوّة التمسك بطاعة الله ، وقرأ ابن عباس وأهل الكوفة بما كنتم

تعلمون بالتشديد . وقرأ أبو عمرو وأهل المدينة بالتخفيف ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد . قال : لانها لجمع المعنيين ، قال مكى : التشديد أبلغ لأن العالم قد يكون عالما غير معلم ، فالتشديد يدل على العلم والتعليم ، والتخفيف إنما يدل على العلم فقط ، واختار القراءة الثانية أبو حاتم . قال أبو عمرو وتصديقها تدرسون بالتخفيف دون التشديد انتهى * والحاصل أن من قرأ بالتشديد لزمه أن يحمل الربانى على أمر زائد على العلم والتعليم وهو أن يكون مع ذلك مخلصا أو حكيما أو حليما حتى تظهر السببية ، ومن قرأ بالتخفيف جاز له أن يحمل الربانى على العالم الذى يعلم الناس ، فيكون المعنى كونوا معلمين بسبب كونكم علماء و بسبب كونكم تدرسون العلم * وفى هذه الآية أعظم باعث لمن علم على أن يعمل ، وان من أعظم العمل بالعلم تعليمه والاخلاص لله سبحانه * قوله (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) بالنصب عطفا على ثم يقول ، ولا مزيدة لتأكيد النفى ، أى ليس له أن يأمر بعبادة نفسه ، ولا يأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا بل ينتهى عنه ، ويجوز عطفه على أن يؤتيه ، أى ما كان لبشر أن يأمركم بأن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، وبالنصب قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ، وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف والقطع من الكلام الأول ، أى ولا يأمركم الله أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، ويؤيده أن فى مصحف ابن مسعود ولن يأمركم * والهمزة فى قوله (أيأمركم) لانكار مانفى عن البشر * وقوله (بعد اذ أنتم مسلمون) استدل به من قال ان سبب نزول الآية استئذان من استأذن النبى ﷺ من المسلمين فى أن يسجدوا له .

وقد أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال قال أبو رافع القرظى حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم الى الاسلام أتريد يامحمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ؟ فقال رسول الله ﷺ معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غيره مابذلك بعثنى ولا بذلك أمرنى ، فأنزل الله فى ذلك (ما كان لبشر) الآية . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن : قال بلغنى أن رجلا قال يارسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك ؟ قال : لا ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله فانه لاينبغى أن يسجد لأحد من دون الله ، فأنزل الله (ما كان لبشر) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ربانيين) قال : فقهاء علماء . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : قال حكماء علماء حلماء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه : قال علماء فقهاء . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود : قال حكماء علماء . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى رزين فى قوله (وبما كنتم تدرسون) قال : مذاكرة الفقه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله (ولا يأمركم أن تتخذوا) قال ولا يأمرهم النبى .

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ *

قد اختلف فى تفسير قوله تعالى (واذ أخذ الله ميثاق النبيين) فقال سعيد بن جبير وقتادة وطاوس والحسن والسدى انه أخذ الله ميثاق الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضا بالايمان ، و يأمر بعضهم بعضا بذلك فهذا معنى النصرة له والايمان به ، وهو ظاهر الآية : فحاصله أن الله أخذ ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر وينصره . وقال الكسائى يجوز أن يكون معنى (واذ أخذ الله ميثاق النبيين) بمعنى واذ

أخذالله ميثاق الذين مع النبيين ، ويؤيده قراءة ابن مسعود واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ، وقيل فى الكلام حذف * والمعنى و إذ أخذ الله ميثاق النبيين لتعلمن الناس لما جاءكم من كتاب وحكمة ولتأخذن على الناس أن يؤمنوا ، ودلّ على هذا الحذف قوله (وأخذتم على ذلكم إصرى) وما فى قوله (لما آتينا كم) بمعنى الذى . قال سيبويه سألت الخليل عن قوله (و إذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتينا كم) فقال ما بمعنى الذى . قال النحاس : التقدير فى قول الخليل الذى آتيتكموه ثم حذفت الهاء لطول الاسم ، واللام لام الابتداء ، و بهذا قال الأخفش وتكون ما فى محل رفع على الابتداء ، وخبرها من كتاب وحكمة * وقوله (ثم جاء كم) وما بعده جملة معطوفة على الصلة ، والعائد محذوف ، أى مصدّق به . وقال المبرد والزجاج والكسائى : ما شرطية دخلت عليها لام التحقيق ، كما تدخل على إن ، ولتؤمنن به جواب القسم الذى هو أخذ الميثاق ، إذ هو بمنزلة الاستحلاف كما تقول أخذت ميثاقك لتفعلنّ كذا ، وهو سادّ مسدّ الجزاء . وقال الكسائى ان الجزاء قوله (فمن تولى) . وقال فى الكشاف ان اللام فى قوله (لما آتينا كم) لام التوطئة واللام فى قوله (لتؤمنن) جواب القسم ، وما يحتمل أن تكون المتضمنة لمعنى الشرط ، ولتؤمنن سادّ مسدّ جواب القسم والشرط جميعا وأن تكون موصولة بمعنى للذى آتيتكموه لتؤمنن به انتهى . وقرأ حمزة لما آتيتكم بكسر اللام وما بمعنى الذى وهى متعلقة بأخذ . وقرأ أهل المدينة آتينا كم على التعظيم . وقرأ الباقون آتيتكم على التوحيد ، وقيل ان ما فى قراءة من قرأ بكسر اللام مصدرية * ومعناه لأجل إيتائى إياكم بعض الكتاب والحكمة ، ثم لمجىء رسول مصدّق لما معكم ، واللام لام التعليل ، أى لأجل ذلك أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتؤمنن به * قوله (أقررتم) هو من الاقرار * والاصر فى اللغة الثقل ، سمى العهد إصرا لما فيه من التشديد * والمعنى وأخذتم على ذلك عهدى * قوله (قالوا أقررنا) جملة استئنافية كأنه قيل : ماذا قالوا عند ذلك ؟ فقيل قالوا أقررنا ، وانما لم يذكر أحدهم الاصر اكتفاء بذلك * قوله (قال فاشهدوا) أى قال الله سبحانه فاشهدوا ، أى ليشهد بعضهم على بعض (وأنا معكم من الشاهدين) أى وأنا على إقراركم وشهادة بعضكم على بعض من الشاهدين * قوله (فمن تولى) أى أعرض عما ذكر بعد ذلك الميثاق (فأولئك هم الفاسقون) أى الخارجون عن الطاعة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير . قال قلت لابن عباس ان أصحاب عبدالله يقرءون (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لما آتيتكم من كتاب وحكمة) ونحن نقرأ ميثاق النبيين ، فقال ابن عباس انما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن طاوس فى الآية . قال (أخذ الله ميثاق النبيين) أن يصدق بعضهم بعضا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (واذ أخذ الله ميثاق النبيين) قال هى خطأ من الكتاب وهى فى قراءة ابن مسعود ميثاق الذين أوتوا الكتاب . وأخرج ابن جرير عن علىّ قال لم يبعث الله نبيا آدم فمن بعده الا أخذ عليه العهد فى محمد لئن بعث وهو حىّ ليؤمنن به ولينصرنه ويأمره فيأخذ العهد على قومه ، ثم تلا (واذ أخذ الله ميثاق النبيين) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى الآية نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عنه فى قوله (إصرى) قال عهدى . وأخرج ابن جرير عن علىّ فى قوله (قال فاشهدوا) يقول فاشهدوا على أممكم بذلك (وأنا معكم من الشاهدين) عليكم وعليهم (فمن تولى) عنك يا محمد بعد هذا العهد من جميع الأمم (فأولئك هم الفاسقون) هم العاصون فى الكفر .

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ تَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسٰى وَعِيسٰى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلٰمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ *

قوله (أفغير) عطف على مقدّر ، أى أتتولون فتبغون غـير دين الله ، وتقديم المفعول لأنه المقصود بالانـكار . وقرأ أبو عمرو وحده يبغون بالتحتية وترجعون بالفوقية . قال لأن الأوّل خاص والثانى عام ، ففرّق بينهما لافتراقهما فى المعنى . وقرأ حفص بالتحتية فى الموضعين . وقرأ الباقون بالفوقية فيهما وانتصب طوعا وكرها على الحال ، أى طائعين ومكرهين * والطوع : الانقياد والاتباع بسهولة ، والـكره : مافيه مشقة وهو من أسلم مخافة القتل و إسلامه استسلام منه * قوله (آمنا) إخبار منه ﷺ عن نفسه وعن أمته (لا نفرّق بين أحـد منهم) كما فرّقت اليهود والنصارى فآمنوا ببعض وكفروا ببعض . وقد تقدّم تفسير هـذه الآية (ونحن له مسلمون) أى منقادون مخلصون * قوله (دينا) مفعول للفعل ، أى يبتغ دينا حال كونه غير الاسلام ، ويجوز أن ينتصب غير الاسلام على أنه مفعول الفعل ، ودينا إما تمييز أو حال اذا أوّل بالمشتق ، أو بدل من غير * قوله (وهو فى الآخرة من الخاسرين) إما فى محل نصب على الحال أو جملة مستأنفة ، أى من الواقعين فى الخسران يوم القيامة .

وقد أخرج الطبرانى بسند ضعيف عن النبى ﷺ فى قوله (وله أسلم من فى السموات والأرض) قال أما من فى السموات فالملائـكة ، وأما من فى الأرض فمن ولد على الاسلام ، وأما كرها فمن أتى به من سبايا الأمم فى السلاسل والأغلال يقادون إلى الجنـة وهم كارهون . وأخرج الديلمى عن أنس : قال قال رسول الله ﷺ فى الآية « الملائـكة أطاعوه فى السماء ، والأنصار ، وعبد القيس أطاعوه فى الأرض » . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : قال فى الآية (أسلم من فى السموات والأرض) حين أخـذ عليهم الميثاق . وأخرج ابن أبى حاتم عنـه فى قوله (وله أسلم) قال المعرفة . وأخرج عبـد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : أما المؤمن فأسلم طائعا فنفعه ذلك ، وقبل منه ، وأما الـكافر فأسلم حين رأى بأس الله فلم ينفعه ذلك ولم يقبل منـه — فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا — . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس : قال قال رسول الله ﷺ « من ساء خلقه من الرقيق والدواب والصبيان فاقرءوا فى أذنه أفغير دين الله تبغون » . وأخرج ابن السنى فى عمل اليوم والليلة عن يونس بن عبيد قال ليس رجل يكون على دابة صعبة فيقرأ فى أذنها (أفغير دين الله تبغون) الآية الا ذلت باذن الله عزّ وجلّ . وأخرج أحـمد والطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة : قال قال رسول الله ﷺ « تجىء الأعمال يوم القيامة فتجىء الصـلاة فتقول يارب أنا الصلاة فيقول إنك على خير ، وتجىء الصـدقة فتقول يارب أنا الصدقة فيقول انك على خـير ، وتجىء الصيام فيقول أنا الصيام فيقول انك على خير ، ثم تجىء الأعمال كل ذلك يقول الله انك على خير ، ثم يجىء الاسلام فيقول يارب أنت السلام وأنا الاسلام فيقول انك على خير بك اليوم آخذ و بك أعطى : قال الله تعالى فى كتابه (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منـه وهو فى الآخرة من الخاسرين .

كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * أُولَٰئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ *

قوله (كيف يهدى الله قوما) هـذا الاستفهام معناه الجحد، أى لايهدى الله، ونظيره قوله تعالى ـ كيف يكون للمشركين عهد عند الله ـ أى لاعهد لهم، ومثله قول الشاعر:

كيف نومى على الفراش ولما * تشمل الشام غارة شعواء

أى لانوم لى * ومعنى الآية لايهدى الله قوما الى الحق كفروا بعد ايمانهم، و بعد ماشهدوا أن الرسول حق، و بعد ماجاءتهم البينات من كتاب الله سبحانه ومعجزات رسول الله ﷺ * وقوله (والله لايهدى القوم الظالمين) جملة حالية، أى كيف يهدى المرتدين، والحال انه لايهدى من حصل منهم مجرد الظلم لأنفسهم، ومنهم الباقون على الكفر، ولا ريب أن ذنب المرتد أشد من ذنب من هو باق على الكفر، لأن المرتد قد عرف الحق ثم أعرض عنادا وتمردا * قوله (أولئك) إشارة الى القوم المتصفين بتلك الصفات السابقة، وهو مبتدا خبره الجملة التى بعده. وقد تقدم تفسير اللعن * وقوله (ولاهم ينظرون) معناه يؤخرون و يمهلون. ثم استثنى التائبين: فقال (إلا الذين تابوا من بعد ذلك): أى من بعد الارتداد (وأصلحوا) بالاسلام ماكان قد أفسدوه من دينهم بالردة. وفيه دليل على قبول تو بة المرتد اذا رجع الى الاسلام مخلصا، ولاخلاف فى ذلك فيما أحفظ * قوله (ثم ازدادوا كفرا). قال قتادة وعطاء الخراسانى والحسن نزلت فى اليهود والنصارى كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بنعته وصفته (ثم ازدادوا كفرا) باقامتهم على كفرهم، وقيل ازدادوا كفرا بالذنوب التى اكتسبوها، ورجحه ابن جرير الطبرى وجعلها فى اليهود خاصة * وقد استشكل جماعة من المفسرين قوله تعالى (فلن تقبل تو بتهم) مع كون التو بة مقبولة كما فى الآية الأولى، وكما فى قوله تعالى ـ وهو الذى يقبل التو بة عن عباده ـ وغير ذلك، فقيل المعنى لن تقبل تو بتهم عند الموت. قال النحاس: وهذا قول حسن كما قال تعالى ـ وليست التو بة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن ـ و به قال الحسن وقتادة وعطاء ومنه الحديث «ان الله يقبل تو بة العبد مالم يغرغر»: وقيل: المعنى لن تقبل تو بتهم التى كانوا عليها قبل أن يكفروا، لأن الكفر أحبطها: وقيل لن تقبل تو بتهم اذا تابوا من كفرهم الى كفر آخر، والأولى أن يحمل عدم قبول التو بة فى هذه الآية على من مات كافرا غير تائب فكأنه عبر عن الموت على الكفر بعدم قبول التو بة وتكون الآية المذكورة بعد هذه الآية، وهى قوله (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار) فى حكم البيان لها * قوله (ملء الأرض ذهبا) الملء بالكسر مقدار مايملأ الشىء، والملء بالفتح مصدر ملأت الشىء، وذهبا تمييز. قاله الفراء وغيره: وقال الكسائى نصب على اضمار من ذهب * كقوله ـ أوعدل ذلك صياما ـ أى من صيام، وقرأ الأعمش ذهب بالرفع على أنه بدل من ملء، والواو فى قوله (ولو افتدى به) قيل هى

مقحمة زائدة ، والمعنى لوافتدى به ، وقيل فيه حمل على الغنى كأنه قيل فلن يقبل من أحدهم فدية ولوافتدى بملء الأرض ذهبا ، وقيل هو عطف على مقدر ، أى لن يقبل من أحدهم ملءالأرض ذهبا لو تصدق به فى الدنياولو افتدى به من العذاب أى بمثله

وقد أخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : كان رجل من الأنصار أسلم ، ثم ارتد ولحق بالمشركين ، ثم ندم : فأرسل الى قومه أرسلوا الى رسول الله ﷺ هل لى من توبة ؟ فنزلت (كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم) الى قوله (غفور رحيم) فأرسل اليه قومه فأسلم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد نحوه ، وقال هو الحارث بن سويد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن السدى نحوه ، وأخرج ابن اسحق وابن المنذر عن ابن عباس نحوه أيضا . وقد روى عن جماعة نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم) . قال هم أهل الكتاب من اليهود عرفوا محمدا ثم كفروا به . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن : قال هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وذكر نحو ماتقدّم عنه . وأخرج البزار عن ابن عباس أن قوما أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدّوا ، فأرسلوا الى قومهم يسألون لهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية (إنّ الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا) قال السيوطى هذا خطأ من البزار . وأخرج ابن جرير عن الحسن فى الآية ، قال اليهود والنصارى لن تقبل توبتهم عند الموت . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية ، قال هم اليهود كفروا بالانجيل وعيسى ثم ازدادوا كفرا بمحمد ﷺ والقرآن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى الآية ، قال انما نزلت فى اليهود والنصارى كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا بذنوب أذنبوها ، ثم ذهبوا يتوبون من تلك الذنوب فى كفرهم ولو كانوا على الهدى قبلت توبتهم ، ولكنهم على الضلالة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله (ثم ازدادوا كفرا) قال نمّوا على كفرهم . وأخرج ابن جرير عن السدى فى قوله (ثم ازدادوا كفرا) قال ماتوا وهم كفار (لن تقبل توبتهم) قال اذا تاب عند موته لم تقبل توبته . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله (لن تقبل توبتهم) قال تابوا من الذنوب ولم يتوبوا من الأصل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله (وماتوا وهم كفار) قال : هو كل كافر . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس عن النبى ﷺ قال « يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت مفتديا به » فيقول نعم ، فيقال له لقد سئلت ماهو أيسر من ذلك ، فذلك قوله تعالى (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار الآية) .

لَنْ تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ *

هذا كلام مستأنف خطاب للمؤمنين عقب ذكر مالاينفع الكفار * قوله (لن تنالوا البر) يقال نالنى من فلان معروف ينالنى ، أى وصل الىّ ، والنوال : العطاء من قولك نولته تنويلا أعطيته * والبر : العمل الصالح ، وقال ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد وعمرو بن ميمون والسدّى هو الجنة ، فمعنى الآية لن تنالوا العمل الصالح أو الجنة ، أى تصلوا الى ذلك وتبلغوا اليه حتى تنفقوا مما تحبون ، أى حتى تكون نفقتكم من أموالكم التى تحبونها (ومن) تبعيضية ، ويؤيده قراءة ابن مسعود حتى تنفقوا بعض ماتحبون وقيل بيانية (وما) موصولة أوموصوفة ، والمراد النفقة فى سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات ، وقيل

المراد

المراد الزكاة المفروضة * وقوله (من شيء) بيان لقوله (ماتنفقوا) أى ماتنفقوا من أىّ شيء سواء كان طيبا أو خبيثا (فان الله به عليم) وما شرطية جازمة * وقوله (فان الله به عليم) تعليل لجواب الشرط واقع موقعه :

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس أن أبا طلحة لما نزلت هذه الآية أتى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله ان أحبّ أموالى الىّ بيرحاء ، وانها صدقة الحديث . وقد روى بألفاظ . وأخرج عبد ابن حميد والبزار عن ابن عمر قال حضرتنى هذه الآية (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) فذكرت ماأعطانى الله فلم أجد شيئا أحبّ الىّ من مرجانة جارية لى رومية ، فقلت هى حرة لوجه الله ، فلو أنى أعود فى شيء جعلته لله لنكحتها فأنكحتها نافعا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عمر بن الخطاب أنه كتب الى أبى موسى الأشعرى أن يبتاع له جارية من سبى جلولاء ، فدعا بها عمر ، فقال ان الله يقول (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) فأعتقها عمر . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم انها لما نزلت الآية جاء زيد بن حارثة بفرس له ، يقال لها سبل لم يكن له مال أحب اليه منها ، فقال هى صدقة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله تعالى (لن تنالوا البر) قال : الجنة . وأخرج ابن جرير عن عمرو بن ميمون والسدى مثله . وأخرج ابن المنذر عن مسروق مثله .

كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَٰءِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَٰءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَٰةُ قُلْ فَأْتُوا بِٱلتَّوْرَٰةِ فَٱتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ * فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ *

قوله (كل الطعام) أى المطعوم ، والحلّ مصدر يستوى فيه المفرد والجمع والمذكر والمؤنث ، وهو الحلال ، واسرائيل هو يعقوب كما تقدّم تحقيقه * ومعنى الآية أن كل المطعومات كانت حلالا لبنى يعقوب لم يحرم عليهم شيء منها إلا ما حرّم اسرائيل على نفسه ، وسيأتى بيان ماهو الذى حرمه على نفسه ، وهذا الاستثناء متصل من اسم كان * وقوله (من قبل أن تنزل التوراة) متعلق بقوله (كان حلا) أى ان كل المطعومات كانت حلالا (من قبل أن تنزل التوراة) أى كان ماعدا المستثنى حلالا لهم (من قبل أن تنزل التوراة) مشتملة على تحريم ماحرمه عليهم لظلمهم ، وفيه ردّ على اليهود لما أنكروا ماقصه الله سبحانه على رسوله ﷺ من أن سبب ماحرمه الله عليهم هو ظلمهم و بغيهم كما فى قوله ــ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ــ الآية * وقوله ــ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما ــ الى قوله ــ ذلك جزيناهم ببغيهم ــ وقالوا انها محرّمة على من قبلهم من الأنبياء ، يريدون بذلك تكذيب ماقصه الله على نبينا ﷺ فى كتابه العزيز ، ثم أمره الله سبحانه بأن يحاجهم بكتابهم ويجعل بينه و بينهم حكما ما أنزله الله عليهم لاما أنزله عليه فقال (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين) حتى تعلموا صدق ماقصه الله فى القرآن من أنه لم يحرم على بنى اسرائيل شيء من قبل نزول التوراة الا ماحرمه يعقوب على نفسه ، وفى هذا من الانصاف للخصوم مالا يقادر قدره ولا يبلغ مداه ، ثم قال (فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك) أى من بعد احضار التوراة وتلاوتها (فأولئك هم الظالمون) أى المفرطون فى الظلم المتبالغون فيه فانه لا أظلم ممن حوكم الى كتابه وما يعتقده شرعا صحيحا ، ثم جادل من بعد ذلك مفتريا على الله الكذب ، ثم لما كان مايفترونه من الكذب بعد قيام الحجة عليهم بكتابهم باطلا مدفوعا ، وكان ماقصه الله سبحانه فى القرآن

وصدقته التوراة صحيحا صادقا ، وكان ثبوت هـذا الصدق بالبرهان الذى لايستطيع الخصم دفعه ، أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بأن ينادى بصدق الله بعد أن سجل عليهم الكذب ، فقال (قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم) أى ملة الاسلام التى أناعليها ، وقد تقدم بيان معنى الحنيف ، وكأنه قال لهم اذا تبين لكم صدقى وصدق ماجئت به ، فادخلوا فى دينى ، فان من جملة ما أنزله الله على" ـ ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ـ .

وقد أخرج الترمذى وحسنه عن ابن عباس « أن اليهود قالوا للنبى ﷺ فأخبرنا ماحرّم اسرائيل على نفسه قال كان يسكن البدو فاشتكى عرق النساء فلم يجد شيئا يلائمه الا تحريم الابل وألبانها فلذلك حرمها قالوا صدقت » ، وذكر الحديث . وأخرجه أيضا أحمد والنسائى . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس فى الآية قال العرق أجده عرق النساء ، فكان يبيت له زق يعنى صياح ، فجعل لله عليه ان شفاه أن لايأكل لحما فيه عرق ، فحرمته اليهود . وأخرج البخارى فى تاريخه وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس من قوله ماأخرجه الترمذى سابقا عنه مرفوعا . وأخرج ابن اسحق وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول الذى حرّم اسرائيل على نفسه زائدتا الكبد والكليتان والشحم الا ما كان على الظهر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال ، قالت اليهود للنبى ﷺ نزلت التوراة بتحريم الذى حرم اسرائيل : فقال الله لمحمد ﷺ (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين) وكذبوا ليس فى التوراة ،

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ * وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ *

هـذا شروع فى بيان شىء آخر مما جادلت فيه اليهود بالباطل ، وذلك أنهم قالوا ان بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لكونه مهاجر الأنبياء وفى الأرض المقدسة فرد الله ذلك عليهم بقوله (ان أوّل بيت وضع للناس) الآية ، فقوله (وضع) صفة لبيت وخبر ان قوله للذى ببكة ، فنبه تعالى بكونه أوّل متعبد على أنه أفضل من غيره ، وقد اختلف فى البانى له فى الابتداء : فقيل الملائكة ، وقيل آدم ، وقيل ابراهيم ، ويجمع بين ذلك بأن أوّل من بناه الملائكة ، ثم جدّده آدم ، ثم ابراهيم * وبكة علم للبلد الحرام ، وكذا مكة وهما لغتان ، وقيل ان بكة اسم لموضع البيت ، ومكة اسم للبلد الحرام ، وقيل بكة للمسجد ، ومكة للحرم كله ، قيل سميت بكة لازدحام الناس فى الطواف ، يقال بك القوم ازدحموا ، وقيل البك دق العنق ، سميت بذلك لأنها كانت تدق أعناق الجبابرة ، وأما تسميتها بمكة ، فقيل سميت بذلك لقلة مائها ، وقيل لأنها تمك المخ من العظم بما ينال ساكنها من المشقة ، ومنه مككت العظم اذا أخرجت مافيه ، وملك الفصيل ضرع أمه ، وامتكه اذا امتصه ، وقيل سميت بذلك لأنها تمك من ظلم فيها ، أى تهلكه * قوله (مباركا) حال من الضمير فى وضع ، أومن متعلق الظرف ، لأن التقدير للذى استقر ببكة مباركا * والبركة : كثرة الخير الحاصل لمن يستقرّ فيه أو يقصده ، أى الثواب المتضاعف * والآيات البينات الواضحات : منها الصفا والمروة ، ومنها أثر القدم فى الصخرة الصماء ، ومنها أن الغيث إذا كان بناحية الركن اليمانى كان الخصب فى اليمن ، وان كان بناحية الشامى كان الخصب بالشام ، واذا عم البيت كان الخصب فى جميع البلدان ، ومنها انحراف الطيور عن أن تمرّ على هوائه فى جميع

الأزمان ، ومنها هلاك من يقصده من الجبابرة وغير ذلك * وقوله (مقام ابراهيم) بدل من آيات : قاله محمد بن يزيد المبرد . وقال فى الكشاف انه عطف بيان . وقال الأخفش انه مبتدأ ، وخبره محذوف ، والتقدير منها مقام ابراهيم ، وقيل هو خبر مبتدأ محذوف ، أى هى مقام ابراهيم . وقد استشكل صاحب الكشاف بيان الآيات وهى جمع بالمقام وهو فرد * وأجاب بأن المقام جعل وحده بمنزلة آيات لقوّة شأنه أو بأنه مشتمل على آيات . قال ويجوز أن يراد فيه آيات بينات مقام ابراهيم وأمن من دخله ، لأن الاثنين نوع من الجمع * قوله (ومن دخله كان آمنا) جملة مستأنفة لبيان حكم من أحكام الحرم ، وهو أن من دخله كان آمنا ، وبه استدل من قال ان من لجأ الى الحرم وقد وجب عليه حدّ من الحدود فانه لايقام عليه الحدّ حتى يخرج منه وهو قول أبى حنيفة ومن تابعه ، وخالفه الجمهور : فقالوا تقام عليه الحدود فى الحرم . وقد قال جماعة ان الآية خبر فى معنى الأمر ، أى ومن دخله فأمّنوه كقوله ـ فلارفث ولا فسوق ولا جدال ـ أى لاترفثوا ولاتفسقوا ولاتجادلوا * قوله (ولله على الناس حج البيت) اللام فى قوله (لله) هى التى يقال لها لام الايجاب والالزام ، ثم زاد هذا المعنى تأكيدا حرف (على) فانه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب ، كما إذا قال القائل لفلان علىّ كذا ، فذكر الله سبحانه الحج بأبلغ مايدل على الوجوب تأكيدا لحقه وتعظيما لحرمته ، وهذا الخطاب شامل لجميع الناس لايخرج عنه الا من خصصه الدليل كالصبى والعبد * وقوله (من استطاع إليه سبيلا) فى محل جر على أنه بدل بعض من الناس ، وبه قال أكثر النحويين ، وأجاز الكسائى أن يكون فى موضع رفع بحج ، والتقدير أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلا وقيل ان من حرف شرط ، والجزاء محذوف ، أى من استطاع اليه سبيلا فعليه الحج * وقد اختلف أهل العلم فى الاستطاعة ماذا هى ؟ فقيل الزاد والراحلة ، واليه ذهب جماعة من الصحابة : وحكاه الترمذى عن أكثر أهل العلم وهو الحق . قال مالك ان الرجل اذا وثق بقوّته لزمه الحج وان لم يكن له زاد وراحلة اذا كان يقدر على التكسب ، وبه قال عبد الله بن الزبير والشعبى وعكرمة . وقال الضحاك ان كان شابا قويا صحيحا وليس له مال فعليه أن يواجر نفسه حتى يقضى حجه ، ومن جملة مايدخل فى الاستطاعة دخولا أوّليا أن تكون الطريق الى الحج آمنة ، بحيث يأمن الحاج على نفسه وماله الذى لايجد زادا غيره ، أما لوكانت غير آمنة فلا استطاعة ، لأن الله سبحانه يقول (من استطاع اليه سبيلا) وهذا الخائف على نفسه أوماله لم يستطع اليه سبيلا بلا شك ولاشبهة . وقد اختلف أهل العلم اذا كان فى الطريق من الظلمة من يأخذ بعض الأموال على وجه لايجحف بزاد الحاج : فقال الشافعى لايعطى حبة ويسقط عنه فرض الحج ، ووافقه جماعة وخالفه آخرون * والظاهر أن من تمكن من الزاد والراحلة وكانت الطريق آمنة بحيث يتمكن من مرورها ولو بمصانعة بعض الظلمة لدفع شىء من المال يتمكن منه الحاج ولاينقص من زاده ولايجحف به فالحج غير ساقط عنه بل واجب عليه لأنه قد استطاع السبيل بدفع شىء من المال ولكنه يكون هذا المال المدفوع فى الطريق من جملة ماتتوقف عليه الاستطاعة ، فلو وجد الرجل زادا وراحلة ولم يجد مايدفعه لمن يأخذ المكس فى الطريق لم يجب عليه الحج لأنه لم يستطع اليه سبيلا ، وهذا لابدّ منه ولاينافى تفسير الاستطاعة بالزاد والراحلة فانه قد تعذر المرور فى طريق الحج لمن وجد الزاد والراحلة الا بذلك القدر الذى يأخذه المكاسون ، ولعل وجه قول الشافعى انه سقط الحج أن أخذ هذا المكس منكر فلايجب على الحاج أن يدخل فى منكر ، وأنه بذلك غير مستطيع ، ومن جملة مايدخل فى الاستطاعة أن يكون الحاج صحيح البدن على وجه يمكنه الركوب ، فلوكان زمنا بحيث لايقدر على المشى ولا على الركوب ، فهذا وان وجد الزاد والراحلة فهو لم يستطع السبيل * قوله (ومن كفر فان الله غنى عن العالمين) قيل انه عبر بلفظ الكفر

عن ترك الحج تأكيدا لوجوبه وتشديدا على تاركه ، وقيل المعنى ومن كفر بفرض الحج ولم يره واجبا ، وقيل ان من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر * وفى قوله (فان الله غنى عن العالمين) من الدلالة على مقت تارك الحج مع الاستطاعة وخذلانه و بعده من الله سبحانه مايتعاظمه سامعه و يرجف له قلبه ، فان الله سبحانه إنما شرع لعباده هذه الشرائع لنفعهم ومصلحتهم ، وهو تعالى شأنه وتقدس سلطانه غنىّ لاتعود اليه طاعات عباده بأسرها بنفع

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله (إنّ أوّل بيت) الآية : قال كانت البيوت قبله ، ولكنه كان أوّل بيت وضع لعبادة الله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى ذرّ : قال قلت يارسول الله أىّ مسجد وضع أوّل ؟ قال المسجد الحرام : قلت ثم أىّ ؟ قال المسجد الأقصى : قلت كم بينهما ؟ قال أربعون سنة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبرانى والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر : قال « خلق الله البيت قبل الأرض بألفى سنة وكان اذ كان عرشه على الماء زبدة بيضاء وكانت الأرض تحته كأنها حشفة فدحيت الأرض من تحته » . وأخرج نحوه ابن المنذر عن أبى هريرة . وأخرج ابن المنذر والأزرقى عن ابن جريج : قال بلغنا أن اليهود قالت بيت المقدس أعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء ، ولأنه فى الأرض المقدّسة : فقال المسلمون بل الكعبة أعظم فبلغ ذلك النبى ﷺ فنزلت (ان أوّل بيت) الآية الى قوله (فيه آيات بينات مقام ابراهيم) وليس ذلك فى بيت المقدس (ومن دخله كان آمنا) وليس ذلك فى بيت المقدس (ولله على الناس حج البيت) وليس ذلك فى بيت المقدس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن عبدالله بن الزبير : قال انما سميت بكة لأن الناس يجيئون اليها من كل جانب حجاجا . وروى سعيد بن منصور وابن جرير والبيهقى عن مجاهد انما سميت بكة لأن الناس يتباكون فيها ، أى يزدحمون . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حبان فى قوله (مباركا) قال جعل فيه الخير والبركة (وهدى للعالمين) يعنى بالهدى قبلتهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس (فيه آيات بينات) فهنّ مقام ابراهيم والمشعر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن فى قوله (فيه آيات بينات) قال مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت . وأخرج الأزرقى عن زيد ابن أسلم نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (ومن دخله كان آمنا) قال كان هذا فى الجاهلية كان الرجل لوجر كل جريرة على نفسه ثم لجأ الى الحرم لم يتناول ولم يطلب فأما فى الاسلام فانه لايمنع من حدود الله ، من سرق فيه قطع ، ومن زنا فيه أقيم عليه الحدّ ، ومن قتل فيه قتل . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والأزرقى عن عمر بن الخطاب قال لو وجدت فيه قاتل الخطاب مامسسته حتى يخرج منه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ومن دخله كان آمنا) قال من عاذ بالبيت أعاذه البيت ، ولكن لايؤوى ولا يطعم ولا يسقى فاذا خرج أخذ بذنبه . وقد روى عنه هذا المعنى من طرق . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عنه قال : لو وجدت قاتل أبى فى الحرم لم أعرض له . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال : لو وجدت قاتل أبى فى الحرم ماهجته . وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبى شريح العدوى : قال قام النبى ﷺ الغد من يوم الفتح : فقال ان مكة حرّمها الله ولم يحرّمها الناس ، فلا يحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرة ، فان أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا ان الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم و إنما أذن لى ساعة من نهار ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها أمس . وأخرج الدارقطنى والحاكم وصححه عن أنس أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله (من استطاع إليه سبيلا) فقيل ماالسبيل ؟ قال الزاد والراحلة . وأخرج الشافعى وعبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والترمذى وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم

وابن

وابن عدى وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عمر مرفوعا أنه قام رجل فقال ماالسبيل ؟ فقال الزاد والراحلة . وأخرج الدارقطنى والبيهقى فى سننهما من طريق الحسن عن أمه عن عائشة قالت : سئل رسول الله ﷺ ماالسبيل إلى الحج ؟ قال الزاد والراحلة . وأخرج الدارقطنى فى سننه عن ابن مسعود مرفوعا مثله . وأخرج الدارقطنى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه مرفوعا مثله . وأخرح الدار قطنى عن جابر مرفوعا مثله . وقد روى هذا الحديث من طرق أقلّ أحواله أن يكون حسنا لغيره فلا يضره ماوقع من الكلام على بعض طرقه كما هو معروف . وأخرج الدارقطنى عن علىّ مرفوعا فى الآية أنه سئل النبى ﷺ فقال تجد ظهر بعير . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن عمر بن الخطاب فى قوله (من استطاع اليه سبيلا) قال الزاد والراحلة . وأخرجا عن ابن عباس مثله . وأخرجه عنه مرفوعا ابن ماجه والطبرانى وابن مردويه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى عنه قال : السبيل أن يصح بدن العبد ويكون له ثمن زاد وراحلة من غير أن يجحف به . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عنه قال (سبيلا) من وجد اليه سعة ولم يحل بينه وبينه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عبدالله بن الزبير : قال الاستطاعة : القوّة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن النخعى : قال ان المحرم للمرأة من السبيل الذى قال الله . وقد ثبت عنه ﷺ النهى للمرأة أن تسافر بغير ذى محرم ، واختلفت الأحاديث فى قدر المدة ففى لفظ ثلاثة أيام ، وفى لفظ يوم وليلة ، وفى لفظ بريد .

وقد وردت أحاديث فى تشديد الوعيد على من ملك زادا وراحلة ولم يحج . فأخرج الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن علىّ بن أبى طالب : قال قال رسول الله ﷺ « من ملك زادا وراحلة تبلغه الى بيت الله ولم يحج بيت الله فلا عليه بأن يموت يهوديا أو نصرانيا وذلك بأن الله يقول ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنىّ عن العالمين » وفى إسناده هلال الخراسانى أبو هاشم . قال البخارى منكر الحديث وقيل مجهول . وقال ابن عدى هذا الحديث ليس بمحفوظ وفى إسناد أيضا الحارث الأعور وفيه ضعف . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد فى كتاب الايمان وأبو يعلى والبيهقى عن أبى أمامة : قال قال رسول الله ﷺ « من مات ولم يحج حجة الاسلام لم يمنعه مرض حابس أو سلطان جائر أو حاجة ظاهرة فليمت على أىّ حال شاء يهوديا أو نصرانيا » . وأخرج ابن أبى شيبة عن عبدالرحمن بن سابط مرفوعا مرسلا مثله . وأخرج سعيد بن منصور . قال السيوطى بسند صحيح عن عمر بن الخطاب . قال لقد هممت أن أبعث رجالا الى هذه الأمصار فلينظروا كل من كان له جده ولم يحج فيضربوا عليهم الجزية ماهم بمسلمين ماهم بمسلمين . وأخرج الاسماعيلى عنه يقول « من أطاق الحج ولم يحج فسواء عليه يهوديا مات أو نصرانيا » . قال ابن كثير بعد أن ساق إسناده ، وهذا إسناد صحيح . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة عنه نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عمر « من مات وهو موسر ولم يحج جاء يوم القيامة وبين عينيه مكتوب كافر » . وأخرج سعيد بن منصور عنه « من وجد الى الحج سبيلا سنة ، ثم سنة ثم سنة ، ثم مات ولم يحج لم يصلّ عليه ولا يدرى مات يهوديا أو نصرانيا » . وأخرج سعيد بن منصور عن عمر بن الخطاب : قال لو ترك الناس الحج لقاتلتهم عليه كما نقاتلهم على الصلاة والزكاة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ومن كفر فان الله غنىّ) قال : من زعم انه ليس بفرض عليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى الآية قال من كفر بالحج فلم يرج حجه برا ولا تركه مأثما . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى سننه عن عكرمة قال لما نزلت (ومن يبتغ غير الاسلام دينا) قالت اليهود فنحن مسلمون . فقال لهم النبى ﷺ « ان الله فرض على المسلمين حج البيت فقالوا لم يكتب علينا وأبوا أن يحجوا قال الله ومن كفر فان الله غنىّ

عن العالمين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الضحاك قال لما نزلت آية الحج (ولله على الناس حج البيت) الآية جمع رسول الله ﷺ أهل الملل مشركى العرب والنصارى واليهود والمجوس والصابئين فقال ان الله فرض عليكم الحج فحجوا البيت فلم يقبله الا المسلمون ، وكفرت به خمس ملل : قالوا لا نؤمن به ولا نصلى اليه ولا نستقبله ، فأنزل الله (ومن كفر فان الله غنى عن العالمين) وأخرج عبد بن حميد والبيهقى فى سننه عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبى داود نفيع ، قال قرأ رسول الله ﷺ (ولله على الناس حج البيت) الآية فقام رجل من هذيل ، فقال يارسول الله من تركه كفر ؟ فقال : من تركه لايخاف عقوبته ، ومن حج لايرجو ثوابه فهو ذاك . وأخرج ابن جرير عن عطاء بن أبى رباح فى الآية قال : من كفر بالبيت . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر عن النبى ﷺ فى قول الله (ومن كفر) قال من كفر بالله واليوم الآخر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد مثله من قوله . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد أنه سئل عن ذلك ، فقرأ (ان أوّل بيت وضع للناس) الى قوله (سبيلا) ثم قال ومن كفر بهذه الآيات . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود فى الآية قال (ومن كفر) فلم يؤمن به : فهو الكافر .

قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَٰناً وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *

قوله (قل ياأهل الكتاب) خطاب لليهود والنصارى ، والاستفهام فى قوله (لم تكفرون) للانكار والتوبيخ * وقوله (والله شهيد على ماتعملون) جملة حالية مؤكدة للتوبيخ والانكار ، وهكذا المجىء بضيعة المبالغة فى شهيد يفيد مزيد التشديد والتهويل ، والاستفهام فى قوله (لم تصدون) يفيد ما أفاده الاستفهام الأوّل . وقرأ الحسن (تصدون) من أصد ، وهما لغتان : مثل صدّ اللحم وأصدّ اذا تغير وأنتن ، وسبيل الله دينه الذى ارتضاه لعباده ، وهو دين الاسلام ، والعوج الميل والزيغ : يقال عوج بالكسر إذا كان فى الدين ، والقول والعمل وبالفتح فى الأجسام كالجدار ونحوه ، روى ذلك عن أبى عبيدة وغيره ، ومحل قوله (يبغونها عوجا) النصب على الحال ، والمعنى تطلبون لها اعوجاجا وميلا عن القصد والاستقامة بايهامكم على الناس بأنها كذلك تثقيفا لتحريفكم وتقويما لدعاويكم الباطلة * وقوله (وأنتم شهداء) جملة حالية أى كيف تطلبون ذلك بملة الاسلام ، والحال أنكم تشهدون أنها دين الله الذى لايقبل غيره كما عرفتم ذلك من كتبكم المنزلة على أنبيائكم . قيل ان فى التوراة ان دين الله الذى لا يقبل غيره الاسلام وأن فيه نعت محمد ﷺ ، وقيل المراد (وأنتم شهداء) أى عقلاء . وقيل المعنى وأنتم شهداء بين أهل دينكم مقبولون

عندهم ، فكيف تأتون بالباطل الذى يخالف ماأنتم عليه بين أهل دينكم ، ثم توعدهم سبحانه بقوله (وما الله بغافل عما تعملون) ثم خاطب سبحانه المؤمنين محذرا لهم عن طاعة اليهود والنصارى مبينا لهم أن تلك الطاعة تفضى الى أن يردّونهم بعد إيمانهم كافرين ، وسيأتى بيان سبب نزول الآية ، والاستفهام فى قوله (وكيف تكفرون) للانكار ، أى من أين يأتيكم ذلك ولديكم مايمنع منه ويقطع أثره : وهو تلاوة آيات الله عليكم وكون رسول الله ﷺ بين أظهركم ، ومحل قوله (وأنتم) وما بعده النصب على الحال ، ثم أرشدهم الى الاعتصام بالله ليحصل لهم بذلك الهداية إلى الصراط المستقيم الذى هو الاسلام ، وفى وصف الصراط بالاستقامة ردّ على ما ادّعوه من العوج . قال الزجاج : يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد ﷺ خاصة ، لأن رسول الله ﷺ كان فيهم وهم يشاهدونه ، ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة ، لأنّ آثاره ، وعلامته والقرآن الذى أوتيه فينا ، فكأن رسول الله ﷺ فينا وان لم نشاهده انتهى . ومعنى الاعتصام بالله التمسك بدينه وطاعته . وقيل بالقرآن ، يقال اعتصم به واستعصم وتمسك واستمسك اذا امتنع به من غيره ، وعصمه الطعام منع الجوع منه * قوله (اتقوا الله حق تقاته) أى التقوى التى تحق له ، وهى أن لايترك العبد شيئا مما يلزمه فعله ولايفعل شيئا مما يلزمه تركه و يبذل فى ذلك جهده ومستطاعه . قال القرطبى ذكر المفسرون انها لما نزلت هذه الآية قالوا يارسول الله من يقوى على هذا ؟ وشق عليهم ذلك فأنزل الله ـ فاتقوا الله مااستطعتم ـ فنسخت هذه الآية . روى ذلك عن قتادة والربيع وابن زيد . قال مقاتل وليس فى آل عمران من المنسوخ شىء إلا هذا . وقيل ان قوله (اتقوا الله حق تقاته) مبين بقوله (فاتقوا الله مااستطعتم) والمعنى اتقوا الله حق تقاته ما استطعتم . قال وهذا أصوب ، لأن النسخ انما يكون عند عدم الجمع والجمع ممكن فهو أولى * قوله (ولاتموتن الا وأنتم مسلمون) أى لاتكونن على حال سوى حال الاسلام فالاستثناء مفرغ ، ومحل الجملة : أعنى قوله (وأنتم مسلمون) النصب على الحال ، وقد تقدم فى البقرة تفسير مثل هذه الآية * قوله (واعتصموا بحبل الله جميعا) الحبل لفظ مشترك ، وأصله فى اللغة السبب الذى يتوصل به الى البغية ، وهو اما تمثيل أواستعارة ، أمرهم سبحانه بأن يجتمعوا على التمسك بدين الاسلام أو بالقرآن ، ونهاهم عن التفرق الناشىء عن الاختلاف فى الدين ، ثم أمرهم بأن يذكروا نعمة الله عليهم و بين لهم من هذه النعمة مايناسب المقام ، وهو أنهم كانوا أعداء مختلفين يقتل بعضهم بعضا وينهب بعضهم بعضا فأصبحوا بسبب هذه النعمة إخوانا وكانوا على شفا حفرة من النار بما كانوا عليه من الكفر فأنقذهم الله من هذه الحفرة بالاسلام . ومعنى قوله (أصبحتم) صرتم ، وليس المراد به معناه الأصلى : وهو الدخول فى وقت الصباح ، وشفا كل شىء حرفه وكذلك شفيره ، وأشفى على الشىء أشرف عليه ، وهو تمثيل للحالة التى كانوا عليها فى الجاهلية * وقوله (كذلك) اشارة الى مصدر الفعل الذى بعده ، أى مثل ذلك البيان البليغ يبين الله لكم * وقوله (لعلكم تهتدون) ارشاد لهم الى الثبات على الهدى والازدياد منه ،

وقد أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال : مرّ شاس بن قيس ، وكان شيخا قد عسى فى الجاهلية عظيم الكفر ، شديد الطعن على المسلمين ، شديد الحسد لهم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدّثون فيه ، فغاظه مارأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الاسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد ، والله مالنا معهم اذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شابا معه من يهود ، فقال اعمد اليهم فاجلس معهم ، ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار ، وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه للأوس على

الخزرج ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب أوس ابن قيظى أحد بنى حارثة من الأوس وجبار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه إن شئتم والله رددناها الآن جذعة ، وغضب الفريقان جميعا وقالوا قد فعلنا السلاح السلاح موعدكم الظاهرة ، والظاهرة الحرة ، فخرجوا إليها وانضمت الأوس بعضها إلى بعض والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج اليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال : يامعشر المسلمين الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد اذ هداكم الله الى الاسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم ترجعون الى ماكنتم عليه كفارا ، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوّهم لهم . فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا ، وعانق الرجال بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس ، وأنزل الله فى شأن شاس بن قيس وماصنع (قل ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ماتعملون) الى قوله (وما الله بغافل عما تعملون) وأنزل فى أوس بن قيظى وجبار ابن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ماصنعوا (ياأيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب) الى قوله (وأولئك لهم عذاب عظيم) وقد رويت هذه القصة مختصرة ومطوّلة من طرق .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (لم تصدون عن سبيل الله) قال : كانوا اذا سألهم أحد تجدون محمدا ؟ قالوا لا ، قال : فصدّوا الناس عنه و بغوا محمدا عوجا هلاكا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة لم تصدون عن الاسلام وعن نبى الله من آمن بالله وأنتم شهداء فيما تقرءون من كتاب الله أن محمدا رسول الله وأن الاسلام دين الله الذى لايقبل غيره ولايجزى الابه يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله (ومن يعتصم بالله) قال يؤمن به . وأخرجوا عن أبى العالية قال : الاعتصام الثقة بالله . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله (اتقوا الله حق تقاته) قال أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، و يشكر فلا يكفر ، وقد رواه الحاكم وصححه وابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعا بدون قوله ، و يشكر فلا يكفر . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : حق تقاته أن يطاع فلا يعصى فلن تستطيعوا فأنزل الله بعد ذلك — فاتقوا الله ما استطعتم — وأخرج عبد بن حميد عنه نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (حق تقاته) قال لم تنسخ ، ولكن حق تقاته أن يجاهدوا فى الله حق جهاده ولايأخذهم فى الله لومة لائم و يقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى قال السيوطى بسند صحيح عن ابن مسعود فى قوله (واعتصموا بحبل الله) قال حبل الله : القرآن . وقد وردت أحاديث أن كتاب الله هو حبل الله الممدود . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية . قال واعتصموا بحبل الله بالاخلاص لله وحده . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال بطاعته . وأخرج أيضا عن قتادة . قال بعهده وأمره . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال بالاسلام . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله (إذ كنتم أعداء) قال ماكان بين الأوس والخزرج فى شأن عائشة . وأخرج ابن اسحق قال كانت الحرب بين الأوس والخزرج عشرين ومائة سنة ، حتى قام الاسلام فأطفأ الله ذلك وألف بينهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (وكنتم على شفا حفرة من النار) يقول كنتم على طرف النار من مات منكم

وقع فى النار فبعث الله محمدا ﷺ واستنقذكم به من تلك الحفرة .

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ *

قوله (ولتكن) قرأه الجمهور باسكان اللام ، وقرئ بكسر اللام على الأصل ، ومن فى قوله (منكم) للتبعيض ، وقيل لبيان الجنس ، ورجح الأول بأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات يختص بأهل العلم الذين يعرفون كون ما يأمرون به معروفا و ينهون عنه منكرا . قال القرطبى : الأول أصح فانه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض على الكفاية ، وقد عينهم الله سبحانه بقوله ـ الذين ان مكناهم فى الأرض ـ الآية . وقرأ ابن الزبير (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر و يستعينون بالله على ما أصابهم) قال أبو بكر بن الانبارى وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير وكلام من كلامه غلط فيه بعض الناقلين فألحقه بألفاظ القرآن ، وقد روى أن عثمان قرأها كذلك ولكن لم يكتبها فى مصحفه فدل على أنها ليست بقرآن * وفى الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة ، وأصل عظيم من أصولها ، وركن مشيد من أركانها ، و به يكمل نظامها و يرتفع سنامها * وقوله (يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر) من باب عطف الخاص على العام ، إظهارا لشرفهما ، وأنهما الفردان الكاملان من الخير الذى أمر الله عباده بالدعاء إليه ، كما قيل فى عطف جبريل وميكائيل على الملائكة ، وحذف متعلق الأفعال الثلاثة ، أى يدعون و يأمرون و ينهون لقصد التعميم ، أى كل من وقع منه سبب يقتضى ذلك ، والاشارة فى قوله (وأولئك) ترجع إلى الأمة باعتبار اتصافها بما ذكر بعدها (هم المفلحون) أى المختصون بالفلاح ، وتعريف المفلحين للعهد أو للحقيقة التى يعرفها كل أحد * قوله (ولا تكونوا كالذين تفرقوا) هم اليهود والنصارى عند جمهور المفسرين ، وقيل هم المبتدعة من هذه الأمة ، وقيل الحرورية ، والظاهر الأول * والبينات الآيات الواضحة المبينة للحق الموجبة لعدم الاختلاف : قيل وهذا النهى عن التفرق والاختلاف يختص بالمسائل الأصولية ، وأما المسائل الفروعية الاجتهادية فالاختلاف فيها جائز ، ومازال الصحابة فمن بعدهم من التابعين وتابعيهم مختلفين فى أحكام الحوادث ، وفيه نظر فانه مازال فى تلك العصور المنكر للاختلاف موجودا ، وتخصيص بعض مسائل الدين بجواز الاختلاف فيها دون البعض الآخر ليس بصواب ، فالمسائل الشرعية متساوية الاقدام فى انتسابها إلى الشرع * وقوله (يوم تبيض وجوه) منتصب بفعل مضمر ، أى اذكر ، وقيل بما يدل عليه قوله (لهم عذاب عظيم) فان التقدير استقر لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه ، أى يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم تكون وجوه المؤمنين مبيضة ، ووجوه الكافرين مسودة و يقال ان ذلك عند قراءة الكتاب اذا قرأ المؤمن كتابه رأى حسناته فاستبشر وابيض وجهه ، واذا قرأ

الـكافر كتابه رأى سيئاته حزن واسودّ وجهه ، والتنكير فى وجوه للتكثير ، أى وجوه كثيرة . وقرأ يحيى بن وثاب تبيض وتسود بكسر التاءين . وقرأ الزهرى تباضّ وتسوادّ * قوله (أكفرتم) أى فيقال لهم أكفرتم والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم ، وهذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الاجمال ، وقدّم بيان حال الكافرين لكون المقام مقام تحذير وترهيب ، قيل هم أهل الكتاب ، وقيل المرتدّون ، وقيل المنافقون ، وقيل المبتدعون * قوله (ففى رحمة الله) أى فى جنته ودار كرامته : عبر عن ذلك بالرحمة إشارة إلى أن العمل لايستقلّ بدخول صاحبه الجنة : بل لابدّ من الرحمة ، ومنه حديث « لن يدخل أحد الجنة بعمله » وهو فى الصحيح * وقوله (هم فيها خالدون) جملة استئنافية جواب سؤال مقدّر * وتلك إشارة إلى ماتقدّم من تعذيب الكافرين وتنعيم المؤمنين * وقوله (نتلوها عليك بالحق) جملة حالية ، و بالحق متعلق بمحذوف ، أى متلبسة بالحق وهو العدل * وقوله (وما الله يريد ظلما للعالمين) جملة تذييلية مقررة لمضمون ماقبلها ، وفى توجه النفى إلى الارادة الواقعة على النكرة دليل على أنه سبحانه لايريد فردا من أفراد الظلم الواقعة على فرد من أفراد العالم * والمراد بما فى السموات وما فى الأرض مخلوقاته سبحانه ، أى له ذلك يتصرّف فيه كيف يشاء وعلى مايريد ، وعبر بما تغليبا لغير العقلاء على العقلاء لكثرتهم أو لتنزيل العقلاء منزلة غيرهم . قال المهدوى : وجه اتصال هذا بما قبله أنه لما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين وأنه لايريد ظلما للعالمين وصله بذكر اتساع قدرته ، وغناه عن الظلم لكون مافى السموات وما فى الأرض فى قبضته ، وقيل هو ابتداء كلام يتضمن البيان لعباده بأن جميع مافى السموات ومافى الأرض له حتى يسألوه و يعبدوه ولايعبدوا غيره * وقوله (والى الله ترجع الأمور) أى لاالى غيره لاشركة ولااستقلالا .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبى جعفر الباقر قال قرأ رسول الله ﷺ (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير) قال الخير : اتباع القرآن وسنتى . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية . قال كل آية ذكرها الله فى القرآن فى الأمر بالمعروف فهو الاسلام ، والنهى عن المنكر فهو عبادة الأوثان والشيطان انتهى ، وهو تخصيص بغير مخصص فليس فى لغة العرب ولافى عرف الشرع مايدل على ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال (يدعون الى الخير) أى الاسلام (و يأمرون بالمعروف) بطاعة ربهم (و ينهون عن المنكر) عن معصية ربهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك فى الآية : قال هم أصحاب محمد ﷺ خاصة وهم الرواة انتهى ، ولا أدرى ماوجه هذا التخصيص ، فالخطاب فى هذه الآية كالخطاب بسائر الأمور التى شرعها الله لعباده وكلفهم بها . وأخرج أبو داود والترمذى وابن ماجه والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » . وأخرج أحمد وأبو داود والحاكم عن معاوية مرفوعا نحوه وزاد كلها فى النار الا واحدة وهى الجماعة . وأخرج الحاكم عن عبد الله بن عمرو مرفوعا نحوه أيضا ، وزاد كلها فى النار الاملة واحدة ، فقيل له : ماالواحدة ؟ قال ماأنا عليه اليوم وأصحابى . وأخرج ابن ماجه عن عوف بن مالك مرفوعا نحوه ، وفيه فواحدة فى الجنة وثنتان وسبعون فى النار ، قيل يارسول الله فمن هم ؟ قال الجماعة . وأخرجه أحمد من حديث أنس ، وفيه قيل يارسول الله من تلك الفرقة ؟ قال الجماعة . وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفى الأمر بالكون فى الجماعة والنهى عن الفرقة . وأخرج ابن أبى حاتم والخطيب عن ابن عباس فى قوله (يوم تبيضّ وجوه) قال تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسودّ وجوه أهل البدع والضلالة . وأخرجه الخطيب والديلمى عن ابن عمر مرفوعا . وأخرجه أيضا مرفوعا أبو نصر السجزى فى الابانة عن أبى سعيد . وأخرج ابن جرير

وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبىّ بن كعب فى الآية : قال صاروا فرقتين يوم القيامة : يقال لمن اسودّ وجهه أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فهو الايمان الذى كان فى صلب آدم حيث كانوا أمة واحدة ، وأما الذين ابيضت وجوههم فهم الذين استقاموا على إيمانهم وأخلصوا له الدين فبيض الله وجوههم وأدخلهم فى رضوانه وجنته . وقد روى غير ذلك .

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ * لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ * ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ *

قوله (كنتم خير أمة) هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هذه الأمة فى الفضل على غيرها من الأمم ، وكان قيل هى التامة ، أى وجدتم وخلقتم خير أمة ، ومثله ماأنشده سيبويه :

* وجيران لنا كانوا كرام * ومنه قوله تعالى ـ كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ـ * وقوله ـ واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم ـ . وقال الأخفش يريد أهل أمة ، أى خير أهل دين ، وأنشد :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

وقيل معناه كنتم فى اللوح المحفوظ ، وقيل كنتم منذ آمنتم * وفيه دليل على أن هذه الأمة الاسلامية خير الأمم على الاطلاق ، وأن هذه الخيرية مشتركة مابين أوّل هذه الأمة وآخرها بالنسبة إلى غيرها من الأمم وان كانت متفاضلة فى ذات بينها . كما ورد فى فضل الصحابة على غيرهم * قوله (أخرجت للناس) أى أظهرت لهم * وقوله (تأمرون بالمعروف) الخ كلام مستأنف يتضمن بيان كونهم خير أمة مع مايشتمل عليه من أنهم خير أمة ماأقاموا على ذلك واتصفوا به ، فاذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر زال عنهم ذلك ، ولهذا قال مجاهد انهم خير أمة على الشرائط المذكورة فى الآية ، وهذا يقتضى أن يكون تأمرون ومابعده فى محل نصب على الحال ، أى كنتم خير أمة حال كونكم آمرين ناهين مؤمنين بالله و بما يجب عليكم الايمان به من كتابه ورسوله وماشرعه لعباده فانه لايتم الايمان بالله سبحانه الا بالايمان بهذه الأمور * قوله (ولو آمن أهل الكتاب) أى اليهود ايمانا كايمان المسلمين بالله ورسله وكتبه (لكان خيرا لهم) ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل قالوا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض ، ثم بين حال أهل الكتاب بقوله (منهم المؤمنون) وهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ منهم فانهم آمنوا بما أنزل عليه وماأنزل من قبله (وأكثرهم الفاسقون) أى الخارجون عن طريق الحق المتمردون فى باطلهم المكذبون لرسول الله ﷺ ولما جاء به فيكون هذا التفصيل على هذا كلاما مستأنفا جوابا عن سؤال مقدّر كأنه قيل هل منهم من آمن فاستحق ماوعده الله * قوله (لن يضروكم إلا أذى) أى لن يضروكم بنوع من أنواع الضرر الا بنوع الأذى ، وهو الكذب والتحريف والبهت ولايقدرون على الضرر الذى هو الضرر فى الحقيقة بالحرب والنهب ونحوهما ، فالاستثناء مفرغ ، وهذا وعد من الله لرسوله وللمؤمنين أن أهل الكتاب لايغلبونهم وأنهم منصورون عليهم ، وقيل الاستثناء منقطع * والمعنى لن يضروكم ألبتة لكن يؤذونكم ، ثم بين سبحانه مانفاه من الضرر بقوله (وان يقاتلوكم يولوكم الأدبار) أى ينهزمون ولايقدرون على مقاومتكم

فضلا عن أن يضروكم * وقوله (ثم لاينصرون) عطف على الجملة الشرطية ، أى ثم لايوجد لهم نصر ولا يثبت لهم غلب فى حال من الأحوال ، بل شأنهم الخذلان ماداموا . وقد وجدنا ماوعدنا سبحانه حقا فان اليهود لم تخفق لهم راية نصر ولا اجتمع لهم جيش غلب بعد نزول هذه الآية ، فهى من معجزات النبوّة * قوله (ضربت عليهم الذلة) قد تقدّم فى البقرة معنى هذا التركيب * والمعنى صارت الذلة محيطة بهم فى كل حال وعلى كل تقدير فى أىّ مكان وجدوا (إلا بحبل من الله) أى إلا أن يعتصموا بحبل من الله : قاله الفراء أى بذمة الله أو بكتابه (وحبل من الناس) أى بذمة من الناس وهم المسلمون ، وقيل المراد بالناس النبى ﷺ (وباءوا) أى رجعوا (بغضب من الله) وقيل احتملوا ، وأصل معناه فى اللغة اللزوم والاستحقاق ، أى لزمهم غضب من الله هم مستحقون له * ومعنى ضرب المسكنة إحاطتها بهم من جميع الجوانب ، وهكذا حال اليهود فانهم تحت الفقر المدقع والمسكنة الشديدة إلا النادر الشاذ منهم * والاشارة بقوله ذلك الى ماتقدّم من ضرب الذلة والمسكنة والغضب ، أى وقع عليهم ذلك بسبب أنهم كانوا يكفرون بآيات الله و يقتلون الأنبياء بغير حق ، والاشارة بقوله ذلك الى الكفر وقتل الأنبياء بسبب عصيانهم لله واعتدائهم لحدوده * ومعنى الآية أن الله ضرب عليهم الذلة والمسكنة والبواء بالغضب منه لكونهم كفروا بآياته وقتلوا أنبياءه بسبب عصيانهم واعتدائهم

وقد أخرج عبدالرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأحمد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله (كنتم خير أمة) قال هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى فى الآية : قال قال عمر بن الخطاب لو شاء الله لقال أنتم فكنا كلنا ولكن قال كنتم فى خاصة أصحاب محمد ومن صنعهم مثل صنعهم كانوا خير أمة أخرجت للناس ، وفى لفظ عنه أنه قال يكون لأوّلنا ولا يكون لآخرنا . وأخرج ابن جرير عن قتادة : قال ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية ثم قال : ياأيها الناس من سرّه أن يكون من تلك الأمة فليؤدّ شرط الله منها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة فى الآية : قال نزلت فى ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبى حذيفة وأبىّ بن كعب ومعاذ بن جبل . وأخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة فى الآية قال خير الناس للناس يأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الاسلام . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأحمد والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه عن معاوية بن حيدة أنه سمع النبى ﷺ يقول فى الآية انكم تمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها . وروى من حديث معاذ وأبى سعيد نحوه . وقد وردت أحاديث كثيرة فى الصحيحين وغيرهما أنه يدخل من هذه الأمة الجنة سبعون ألفا بغير حساب ولا عذاب ، وهذا من فوائد كونها خير الأمم . وأخرج ابن جرير عن الحسن (لن يضروكم إلا أذى) قال تسمعون منهم كذبا على الله يدعونكم الى الضلالة . وأخرج أيضا عن ابن جريج قال إشراكهم فى عزير وعيسى والصليب . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن وقتادة (ضربت عليهم الذلة) قالا يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون . وروى ابن المنذر عن الضحاك نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (الا بحبل من الله وحبل من الناس) قال بعهد من الله وعهد من الناس .

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَٰتِ ٱللَّهِ آنَاءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُولَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن تُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا

لَنْ تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *

قوله (ليسوا سواء) أى أهل الكتاب غير مستوين بل مختلفين ، والجلة مستأنفة سيقت لبيان التفاوت بين أهل الكتاب * وقوله (أمة قائمة) هو استئناف أيضا يتضمن بيان الجهة التى تفاوتوا فيها من كون بعضهم أمة قائمة إلى قوله (من الصالحين) قال الأخفش التقدير من أهل الكتاب ذوأمة ، أى ذوطريقة حسنة وأنشد : * وهل يأثمن ذوأمة وهو طائع * وقيل فى الكلام حذف ، والتقدير من أهل الكتاب أمة قائمة وأخرى غير قائمة ، فترك الأخرى اكتفاء بالأولى ، كقول أبى ذؤيب :

عصيت إليها القلب انى لأمرها * مطيع فما أدرى أرشد طلابها

أراد أرشد أم غىّ . قال الفراء أمة رفع بسواء ، والتقدير ليس يستوى أمة من أهل الكتاب قائمة يتلون آيات الله وأمة كافرة . قال النحاس : وهذا القول خطأ من جهات : أحدها أنه يرفع أمة بسواء فلا يعود على اسم ليس شىء ، ويرفع بما ليس جاريا على الفعل ، ويضمر مالا يحتاج إليه ، لأنه قد تقدم ذكر الكافرة ، فليس لاضمار هذا وجه . وقال أبوعبيدة : هذا مثل قولهم أكلونى البراغيث ، وذهبوا أصحابك . قال النحاس وهذا غلط ، لأنه قد تقدّم ذكرهم ، وأكلونى البراغيث لم يتقدّم لهم ذكر انتهى .

وعندى أن ماقاله الفراء قوىّ قويم ، وحاصله أن معنى الآية لا يستوى أمة من أهل الكتاب شأنها كذا وأمة أخرى شأنها كذا ، وليس تقدير هذا المحذوف من باب تقدير مالا حاجة اليه كما قال النحاس ، فان تقدّم ذكر الكافرة لا يفيد مفاد تقدير ذكرها هنا ، وأما قوله انه لا يعود على اسم ليس شىء فيردّه أن تقدير العائد شائع مشتهر عند أهل الفن ، وأما قوله ويرفع بما ليس جاريا على الفعل فغير مسلم * والقائمة : المستقيمة العادلة ، من قولهم أقمت العود فقام ، أى استقام * وقوله (يتلون) فى محل رفع على أنه صفة ثانية لأمة ويجوز أن يكون فى محل نصب على الحال (وآناء الليل) ساعاته ، وهو منصوب على الظرفية * وقوله (وهم يسجدون) ظاهره أن التلاوة كائنة منهم فى حال السجود ، ولا يصح ذلك اذا كان المراد بهذه الأمة الموصوفة فى الآية هم من قد أسلم من أهل الكتاب لأنه قد صح عن النبى ﷺ النهى عن قراءة القرآن فى السجود فلا بدّ من تأويل هذا الظاهر بأن المراد بقوله (وهم يسجدون) وهم يصلون كما قاله الفراء والزجاج ، وانما عبر بالسجود عن مجموع الصلاة ، لما فيه من الخضوع والتذلل * وظاهر هذا أنهم يتلون آيات الله فى صلاتهم من غير تخصيص لتلك الصلاة بصلاة معينة ، وقيل المراد بها الصلاة بين العشاءين ، وقيل صلاة الليل مطلقا * وقوله (يؤمنون بالله) صفة أخرى لأمة ، أى يؤمنون بالله وكتبه ورسله ، ورأس ذلك الايمان بما جاء به محمد ﷺ * وقوله (ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) صفتان أيضا لأمة ، أى ان هذا من شأنهم وصفتهم * وظاهره يفيد أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على العموم ، وقيل المراد بالأمر بالمعروف هنا أمرهم باتباع النبى ﷺ ، وبالنهى عن المنكر نهيهم عن مخالفته * وقوله (ويسارعون فى الخيرات) من جملة الصفات أيضا ، أى يبادرون بها غير متثاقلين عن تأديتها لمعرفتهم بقدر ثوابها * وقوله (وأولئك من الصالحين) أى من جملتهم ، وقيل من بمعنى مع ، أى مع الصالحين وهم الصحابة رضى الله عنهم * والظاهر أن المراد كل صالح ، والاشارة بقوله (أولئك) إلى الأمة الموصوفة بتلك الصفات * قوله (وما تفعلوا من خير) أىّ خير كان (فلن تكفروه) أى لن تعدموا ثوابه ، وعداه

إلى المفعولين وهو لايتعدّى إلا إلى واحد لأنه ضمنه معنى الحرمان ، كأنه قيل فلن تحرموه كما قاله صاحب الكشاف ، قرأ الأعمش وابن وثاب وحفص وحمزة والكسائى وخلف بالياء التحتية فى الفعلين وهى قراءة ابن عباس واختارها أبوعبيد . وقرأ الباقون بالمثناة من فوق فيهما ، وكان أبوعمرو يرى القراءتين جميعا ، والمراد بالمتقين كل من ثبتت له صفة التقوى ، وقيل المراد من تقدّم ذكره ، وهم الأمة الموصوفة بتلك الصفة ووضع الظاهر موضع المضمر مدحالهم ، ورفعا من شأنهم * وقوله (ان الذين كفروا) قيلهم بنو قريظة والنضير . قال مقاتل لما ذكر تعالى مؤمنى أهل الكتاب ذكر كفارهم فى هذه الآية * والظاهر أن المراد بذلك كل من كفر بما يجب الايمان به * ومعنى (لن تغنى) لن تدفع ، وخص الأولاد لأنهم أحب القرابة وأرجاهم لدفع ماينوبه * وقوله (مثل ماينفقون) بيان لعدم إغناء أموالهم التى كانوا يعوّلون عليها * والصرّ : البرد الشديد ، وأصله من الصرير الذى هو الصوت ، فهوصوت الريح الشديد . وقال الزجاج صوت لهب النار التى فى تلك الريح * ومعنى الآية : مثل نفقة الكافرين فى بطلانها وذهابها وعدم منفعتها كمثل زرع أصابه ريح باردة أو نار فأحرقته أوأهلكته فلم ينتفع أصحابه بشىء منه بعد أن كانوا على طمع من نفعه وفائدته ، وعلى هذا فلا بدّ من تقدير فى جانب المشبه به ، فيقال كمثل زرع أصابته ريح فيها صرّ أو مثل إهلاك ماينفقون كمثل إهلاك ريح فيها صرّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم وما ظلمهم الله أى المنفقين من الكافرين (ولكن أنفسهم يظلمون) بالكفر المانع من قبول النفقة التى أنفقوها ، وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لاللتخصيص ، لان الكلام فى الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لابالمفعول .

وقد أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن منده وأبونعيم فى المعرفة والبيهقى فى الدلائل وابن عساكر عن ابن عباس قال : لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيد وأسيد ابن سعيد : ومن أسلم من يهود معهم فآمنوا وصدّقوا ورغبوا فى الاسلام ، قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد وتبعه الاشرارنا ولو كانوا خيارنا ماتركوا دين آبائهم وذهبوا الى غيره : فأنزل الله (ليسوا سواء) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه (أمة قائمة) يقول مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه ولم تتركه كما تركه الآخرون وضيعوه . وأخرج عبدبن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ، قال (أمة قائمة) عادلة . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (آناء الليل) قال جوف الليل . وأخرج ابن جرير عن الربيع : قال ساعات الليل . وأخرج عبد بن حميد والبخارى فى تاريخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله (ليسوا سواء) قال لايستوى أهل الكتاب وأمة محمد يتلون آيات الله آناء الليل : قال صلاة العتمة هم يصلونها ، ومن سواهم من أهل الكتاب لايصلونها . وأخرج أحمد والنسائى والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى . قال السيوطى بسند حسن عن ابن مسعود قال أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ليلة ثم خرج الى المسجد فاذا الناس ينتظرون الصلاة ، فقال أما انه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم ، ولفظ ابن جرير والطبرانى فقال انه لايصلى هذه الصلاة أحد من أهل الكتاب . قال وأنزلت هذه الآية (ليس سواء) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن منصور : قال بلغنى أنها نزلت هذه الآية (يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) فيما بين المغرب والعشاء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة (فلن تكفروه) قال لن يضل عنكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن (فلن تكفروه) قال لن تظلموه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى فى الآية يقول مثل ماينفقون ، أى المشركون ولايتقبل منهم كمثل هذا الزرع اذا زرعه القوم الظالمون فأصابه ريح

فيها صرّ فأهلكته فكذلك أنفقوا فأهلكهم شركهم . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فيها صرّ قال برد شديد .

يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ *

البطانة مصدر يسمى به الواحد والجمع ، وبطانة الرجل خاصته الذين يستبطنون أمره ، وأصله البطن الذي هو خلاف الظهر ، و بطن فلان بفلان يبطن بطونا و بطانة اذا كان خاصا به ، ومنه قول الشاعر :

وهم خلصائي كلهم و بطانتي * وهم عيبتي من دون كل قريب

قوله (من دونكم) أي من سواكم : قاله الفراء أي من دون المسلمين وهم الكفار ، أي بطانة كائنة من دونكم ، ويجوز أن يتعلق بقوله (لاتتخذوا) * وقوله (لايألونكم خبالا) في محل نصب صفة لبطانة ، يقال لا آلوك جهدا : أي لا أقصر . قال امرؤ القيس :

وما المرء مادامت حشاشة نفسه * بمدرك أطراف الخطوب ولا آل

والمراد لايقصرون فيما فيه الفساد عليكم ، وانما عدّى إلى مفعولين لكونه مضمنا معنى المنع : أي لايمنعونكم خبالا ، والخبال والخبل الفساد في الأفعال والأبدان والعقول . قال أوس :

أبني لبني لستم بيد * إلا يد مخبولة العضد

أي فاسدة العضد * قوله (ودّوا ماعنتم) مامصدرية ، أي ودّوا عنتكم ، والعنت المشقة وشدة الضرر ، والجملة مستأنفة مؤكدة للنهي * قوله (قدبدت البغضاء) هي شدّة البغض كالضراء لشدة الضر * والأفواه جمع فم * والمعنى أنها قد ظهرت البغضاء في كلامهم لأنهم لما خامرهم من شدّة البغض والحسد أظهرت ألسنتهم مافي صدورهم فتركوا التقية وصرحوا بالتكذيب . أما اليهود فالأمر في ذلك واضح وأما المنافقون فكان يظهر من فلتات ألسنتهم مايكشف عن خبث طويتهم ، وهذه الجملة مستأنفة لبيان حالهم (وما تخفي صدورهم أكبر) لأن فلتات اللسان أقلّ مما تجنه الصدور ، بل تلك الفلتات بالنسبة إلى مافي الصدور قليلة جدا ، ثم انه سبحانه امتنّ عليهم ببيان الآيات الدالة على وجوب الاخلاص ان كانوا من أهل العقول المدركة لذلك البيان * قوله (هاأنتم أولاء) جملة مصدّرة بحرف التنبيه أي أنتم أولاء الخاطئون في موالاتهم ، ثم بين خطأهم بتلك الموالاة بهذه الجملة التذييلية . فقال (تحبونهم ولايحبونكم) ، وقيل ان قوله (تحبونهم) خبر ثان لقوله أنتم ، وقيل ان أولاء موصول وتحبونهم صلته أي تحبونهم لما أظهروا لكم الايمان أولما بينكم و بينهم من القرابة (ولايحبونكم) لما قد استحكم في صدورهم من الغيظ والحسد * قوله (وتؤمنون بالكتاب كله) أي بجنس الكتاب جميعا ، ومحل الجملة النصب على الحال ، أي لايحبونكم والحال أنكم مؤمنون بكتب الله سبحانه التي من جملتها كتابهم ، فما بالكم تحبونهم وهم لايؤمنون بكتابكم

وفيه توبيخ لهم شديد ، لأن من بيده الحق أحق بالصلابة والشدّة ممن هو على الباطل (واذا لقوكم قالوا آمنا) نفاقا وتقية (واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) تأسفا وتحسرا ، حيث عجزوا عن الانتقام منكم ، والعرب تصف المغتاظ والنادم بعضّ الأنامل والبنان ، ثم أمره الله سبحانه بأن يدعو عليهم ، فقال (قل موتوا بغيظكم) وهو يتضمن استمرار غيظهم ماداموا فى الحياة حتى يأتيهم الموت ، وهم عليه ، ثم قال (ان الله عليم بذات الصدور) فهو يعلم مافى صدوركم وصدورهم ، والمراد بذات الصدور : الخواطر القائمة بها ، وهو كلام داخل تحت قوله (قل) فهو من جملة المقول * قوله (ان تمسسكم حسنة تسؤهم) هذه الجملة مستأنفة لبيان تناهى عداوتهم * وحسنة وسيئة يعمان كل مايحسن وما يسوء ، وعبر بالمس فى الحسنة وبالاصابة فى السيئة ، للدلالة على أن مجرد مس الحسنة يحصل به المساءة ، ولا يفرحون إلا باصابة السيئة ، وقيل ان المس مستعار لمعنى الاصابة * ومعنى الآية أن من كانت هذه حالته لم يكن أهلا لأن يتخذ بطانة (وان تصبروا) على عداوتهم أو على التكاليف الشاقة : (وتتقوا) موالاتهم ، أو ماحرّمه الله عليكم (لايضركم كيدهم شيئا) ، يقال ضاره يضوره و يضيره ضيرا وضيورا : بمعنى ضرّه يضره ، وبه قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ، وقرأ الكوفيون وابن عامر لايضركم بضم الراء وتشديدها من ضرّ يضر ، فهو على القراءة الأولى مجزوم على أنه جواب الشرط ، وعلى القراءة الثانية مرفوع على تقدير اضمار الفاء كما فى قول الشاعر :

* من يفعل الحسنات الله يشكرها * قاله الكسائى والفراء ، وقال سيبويه انه مرفوع على نية التقديم ، أى لايضركم ان تصبروا * وحكى أبو زيد عن المفضل عن عاصم لايضركم بفتح الراء ، وشيئا صفة مصدر محذوف

وقد أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان رجال من المسلمين يواصلون رجالا من يهود لما كان بينهم من الجوار والحلف فى الجاهلية ، فأنزل الله فيهم ينهاهم عن مباطنتهم لخوف الفتنة عليهم منهم (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : هم المنافقون . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ قال هم الخوارج . قال السيوطى وسنده جيد . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (وتؤمنون بالكتاب كله) أى بكتابكم وبكتابهم وبما مضى من الكتب قبل ذلك ، وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل (ان تمسسكم حسنة) يعنى النصر على العدوّ والرزق والخير (تسؤهم وان تصبكم سيئة) يعنى القتل والهزيمة والجهد .

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ آلَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَآئِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ

فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ * وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ *

العامل فى إذ فعل محذوف ، أى واذكر إذ غدوت من منزل أهلك : أى من المنزل الذى فيه أهلك وقد ذهب الجمهور الى أن هذه الآية نزلت فى غزوة أحد . وقال الحسن فى يوم بدر . وقال مجاهد ومقاتل والكلبى فى غزوة الخندق * قوله (تبوّئ) أى تتخذ لهم مقاعد للقتال ، وأصل التبوّء اتخاذ المنزل ، يقال بوّأته منزلا اذا أسكنته إياه ، والفعل فى محل نصب على الحال * ومعنى الآية : واذكر اذ خرجت من منزل أهلك تتخذ للمؤمنين مقاعد للقتال ، أى أماكن يقعدون فيها ، وعبر عن الخروج بالغدوّ الذى هو الخروج غدوة مع كونه ﷺ خرج بعد صلاة الجمعة كما سيأتى ، لأنه قد يعبر بالغدوّ والرواح عن الخروج والدخول من غير اعتبار أصل معناهما كما يقال ، أضحى وان لم يكن فى وقت الضحى * قوله (اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) هو بدل من اذ غدوت ، أو متعلق بقوله تبوئ ، أو بقوله سميع عليم ، والطائفتان بنوسلمة من الخزرج ، و بنوحارثة من الأوس وكانا جناحى العسكر يوم أحد ، والفشل الجبن ، والهمّ من الطائفتين كان بعد الخروج ، لما رجع عبدالله بن أبىّ بمن معه من المنافقين فحفظ الله قلوب المؤمنين فلم يرجعوا ، وذلك قوله (والله وليهما) * قوله (ولقد نصركم الله ببدر) جملة مستأنفة سيقت لتصبيرهم بتذكير مايترتب على الصبر من النصر * و بدر اسم لماء كان فى موضع الوقعة ، وقيل هو اسم الموضع نفسه ، وسيأتى سياق قصة بدر فى الأنفال ان شاء الله * وأذلة جمع قلة ، ومعناه أنهم كانوا بسبب قلتهم أذلة ، وهو جمع ذليل استعير للقلة ، اذلم يكونوا فى أنفسهم أذلة ، بل كانوا أعزة * والنصر : العون . وقد شرح أهل التواريخ والسير غزوة بدر وأحد بأتمّ شرح فلا حاجة لنا فى سياق ذلك ههنا * قوله (اذ تقول) متعلق بقوله (نصركم) والهمزة فى قوله (ألن يكفيكم) للانكار منه ﷺ عليهم عدم اكتفائهم بذلك المدد من الملائكة ، ومعنى الكفاية سدّ الخلة ، والقيام بالأمر ، والامداد فى الأصل اعطاء الشىء حالا بعد حال والمجىء بلن لتأكيد النفى ، وأصل الفور القصد الى الشىء والأخذ فيه بجدّ ، وهو من قولهم فارت القدر تفور فورا وفورانا اذا غلت ، والفور الغليان وفار غضبه اذا جاش ، وفعله من فوره ، أى قبل أن يسكن ، والفوّارة مايفور من القدر ، استعير للسرعة : أى ان يأتوكم من ساعتهم هذه يمددكم ربكم بالملائكة فى حال اتيانهم لايتأخر عن ذلك * قوله (مسوّمين) بفتح الواو اسم مفعول ، وهى قراءة ابن عامر وحمزة والكسائى ونافع ، أى معلمين بعلامات . وقرأ أبو عمرو وابن كثير وعاصم (مسوّمين) بكسر الواو اسم فاعل ، أى معلمين أنفسهم بعلامة . ورجح ابن جرير هذه القراءة ، والتسويم اظهار سيما الشىء . قال كثير من المفسرين (مسوّمين) أى مرسلين خيلهم فى الغارة ، وقيل ان الملائكة اعتمت بعمائم بيض ، وقيل حمر ، وقيل خضر ، وقيل صفر ، فهذه هى العلامة التى علموا بها أنفسهم * حكى ذلك عن الزجاج ، وقيل كانوا على خيل بلق ، وقيل غير ذلك * قوله (وما جعله الله الا بشرى لكم) كلام مبتدأ غير داخل فى مقول القول ، والضمير فى قوله (جعله) للامداد المدلول عليه بالفعل ، أو للتسويم ، أو للانزال ، ورجح الأوّل الزجاج وصاحب الكشاف * وقوله (الا بشرى) استثناء مفرّغ من أعمّ العام ، والبشرى اسم من البشارة ، أى الا لتبشروا بأنكم تنصرون ولتطمئن قلوبكم به ، أى بالامداد ، واللام لام كى ، جعل الله ذلك الامداد بشرى بالنصر وطمأنينة للقلوب ، وفى قصر الامداد عليهما اشارة الى عدم مباشرة الملائكة للقتال يومئذ (وما النصر الا من عند الله) لامن عند غيره ، فلا تنفع كثرة المقاتلة ووجود العدة * قوله (ليقطع طرفا من الذين كفروا) متعلق بقوله (ولقد نصركم الله ببدر)

وقيل متعلق بقوله (وما النصر إلا من عند الله) وقيل متعلق بقوله (يمددكم) ، والطرف الطائفة ، والمعنى نصركم الله ببدر ليقطع طائفة من الكفار ، وهم الذين قتلوا يوم بدر ، أو وما النصر إلا من عند الله ليقطع تلك الطائفة أو يمددكم ليقطع * ومعنى يكبتهم يحزنهم ، والمكبوت المحزون ، وقال بعض أهل اللغة معناه يكيدهم ، أى يصيبهم بالحزن والغيظ فى أكبادهم ، وهو غير صحيح ، فان معنى كبت أحزن وأغاظ وأذل ، ومعنى كبد أصاب الكبد (فينقلبوا خائبين) أى غير ظافرين بمطلبهم * قوله (ليس لك من الأمر شىء) جملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه ، أى ان الله مالك أمرهم يصنع بهم مايشاء من الاهلاك أوالهزيمة أوالتوبة ان أسلموا أو العذاب ، فقوله (أو يتوب عليهم أو يعذبهم) عطف على قوله أو يكبتهم ، وقال الفراء ان أو بمعنى إلا أن ، بمعنى ليس لك من الأمر شىء الا أن يتوب عليهم فتفرح بذلك أو يعذبهم فتشفى بهم * قوله (ولله مافى السموات ومافى الأرض) كلام مستأنف ، لبيان سعة ملكه (يغفر لمن يشاء) أن يغفر له (و يعذب من يشاء) أن يعذبه يفعل فى ملكه مايشاء ويحكم مايريد ـ لا يسئل عما يفعل وهم يسألون ـ وفى قوله (والله غفور رحيم) اشارة الى أن رحمته سبقت غضبه ، وتبشير لعباده بأنه المتصف بالمغفرة والرحمة على وجه المبالغة ، وما أوقع هذا التذييل الجليل وأحبه الى قلوب العارفين بأسرار التنزيل .

وقد أخرج ابن اسحق والبيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب وعاصم بن عمر بن قتادة ومحمد بن يحيى بن حبان والحصين بن عبدالرحمن بن أسعد بن معاذ ، قالوا كان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص اختبر الله به المؤمنين ومحق به المنافقين ممن كان يظهر الاسلام بلسانه ، وهو مستخف بالكفر ، ويوم أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهاده من أهل ولايته ، وكان مما نزل من القرآن فى يوم أحد ستون آية من آل عمران فيها صفة ما كان فى يومه ذلك ، ومعاتبة من عاتب منهم ، يقول الله لنبيه (واذ غدوت من أهلك) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس (واذ غدوت من أهلك) الآية قال : يوم أحد . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (تبوّئ المؤمنين) قال توطن . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن أن الآية فى يوم الاحزاب . وقد ورد فى كتب السير والتاريخ كيفية الاختلاف فى المشورة على النبى ﷺ فى يوم أحد ، فمن قائل نخرج اليهم ، ومن قائل نبقى فى المدينة ، فخرج وكان من جملة المشير بن عبدالله ابن أبىّ ابن سلول رأس المنافقين ، وكان رأيه البقاء فى المدينة والمقاتلة فيها ، ثم لما خولف فى رأيه انخزل بمن معه من المنافقين وهم قدر الثلث من القوم الذين خرج بهم النبى ﷺ وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر قال فينا نزلت فى بنى حارثة و بنى سلمة (اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) وما يسرنى أنها لم تنزل لقوله (والله وليهما) وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله (اذ همت طائفتان) قال ذلك يوم أحد . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : هم بنو حارثة و بنو سلمة . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد (ولقد نصركم الله ببدر) الى (ثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) فى قصة بدر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله (وأنتم أذلة) يقول وأنتم قليل وهم يومئذ بضعة عشر وثلاثمائة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الشعبى أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربى يمدّ المشركين ، فشق ذلك عليهم فأنزل الله (ألن يكفيكم أن يمدّكم ربكم بثلاثة آلاف) الى قوله (مسوّمين) قال فبلغت كرزا فلم يمد المشركين ، ولم يمد المسلمين بالخمسة . وأخرج ابن جرير عن الشعبى لما كان يوم بدر بلغ رسول الله ﷺ ثم ذكر نحوه إلا أنه قال (ويأتوكم من فورهم هذا) يعنى كرزا وأصحابه (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين) فبلغ كرزا وأصحابه الهزيمة ، فلم يمدهم ولم ينزل الخمسة وأمدوا بعد ذلك بألف فهم أربعة آلاف . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى الآية

قال أمدوا بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف وذلك يوم بدر . وأخرج ابن جرير عن عكرمة فى قوله (بلى ان تصبروا وتتقوا) الآية ، قال هذا يوم أحد فلم يصبروا ولم يتقوا فلم يمدوا يوم أحد ولو أمدوا لم ينهزموا يومئذ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ويأتوكم من فورهم هـذا) يقول من سفرهم هذا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة من فورهم : قال من وجههم . وأخرج ابن جرير عن الحسن والربيع وقتادة والسدّى مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد من فورهم . قال من غضبهم . وأخرجا عن أبى صالح مولى أم هانئ مثله . وأخرج الطبرانى وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس . قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله (مسوّمين) قال معلمين ، وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم سوداء ، ويوم أحد عمائم حمراء . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عبدالله بن الزبير أن الزبير كان عليه يوم بدر عمامة صفراء معتجرا بها فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر . وأخرج ابن اسحق والطبرانى عن ابن عباس : قال كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء قد أرسلوها فى ظهورهم ، ويوم حنين عمائم حمراء ، ولم تضرب الملائكه فى يوم سوى يوم بدر ، وكانوا يكونون عددا ومددا لا يضربون ، وفى بيان التسويم عن السلف اختلاف كثير لا يتعلق به كثير فائدة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (ليقطع طرفا من الذين كفروا) قال قطع الله يوم بدر طرفا من الكفار ، وقتل صناديدهم ورءوسهم وقادتهم فى الشر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم فى قوله (ليقطع طرفا) قال هـذا يوم بدر قطع الله طائفة منهم و بقيت طائفة . وأخرج ابن جرير عن السدّى : قال ذكر الله قتلى المشركين بأحد ، وكانوا ثمانية عشر رجلا : فقال (ليقطع طرفا من الذين كفروا) ثم ذكر الله الشهداء فقال ـ ولا تحسبنّ الذين قتلوا فى سبيل أمواتا ـ . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد فى قوله (أو يكبتهم) : قال يحزنهم . وأخرج ابن جرير عن قتادة والربيع مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس أن النبى ﷺ كسرت رباعيته يوم أحـد وشج فى وجهه حتى سال الدم . فقال كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم الى ربهم فأنزل الله (ليس لك من الأمر شىء) الآية . وقد روى هذا المعنى فى روايات كثيرة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر . قال : قال رسول الله ﷺ يوم أحد « اللهمّ العن أباسفيان ، اللهمّ العن الحارث بن هشام ، اللهمّ العن سهيل بن عمرو ، اللهمّ العن صفوان ابن أمية ، فنزلت هذه الآية : ليس لك من الأمر شىء » . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما أيضا من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان اذا أراد أن يدعو على أحد ، أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع : اللهمّ أنج الوليد بن الوليـد وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة والمستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف يجهر بذلك ، وكان يقول فى بعض صلاته فى صلاة الفجر : اللهمّ العن فلانا وفلانا لأحياء من أحياء العرب حتى أنزل الله (ليس لك من الأمر شىء) وفى لفظ : اللهمّ العن لحيان ورعلا وذكوان وعصية عصت الله ورسوله ، ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما نزل قوله (ليس لك من الأمر شىء) الآية .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ * وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * سَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ *

قوله (يأأيها الذين آمنوا) قيل هو كلام مبتدأ للترهيب والترغيب فيما ذكر، وقيل هو اعتراض بين أثناء قصة أحد * وقوله (أضعافا مضاعفة) ليس لتقييد النهى لما هو معلوم من تحريم الربا على كل حال، ولكنه جىء به باعتبار ما كانوا عليه من العادة التى يعتادونها فى الربا، فانهم كانوا يربون الى أجل فاذا حلّ الأجل زادوا فى المال مقدارا يتراضون عليه، ثم يزيدون فى أجل الدّين فكانوا يفعلون ذلك مرّة بعد مرّة حتى يأخذ المربى أضعاف دينه الذى كان له فى الابتداء * وأضعافا حال، ومضاعفة نعت له، وفيه إشارة الى تكرار التضعيف عاما بعد عام، والمبالغة فى هذه العبارة تفيد تأكيد التوبيخ * قوله (واتقوا النار التى أعدّت للكافرين) فيه الارشاد الى تجنب مايفعله الكفار فى معاملاتهم. قال كثير من المفسرين وفيه أنه يكفر من استحلّ الربا، وقيل معناه اتقوا الربا الذى ينزع منكم الايمان فتستوجبون النار، وانما خصّ الربا فى هذه الآية لأنه الذى توعد الله عليه بالحرب منه لفاعله * وقوله (وأطيعوا الله والرسول) حذف المتعلق مشعر بالتعميم، أى فى كل أمر ونهى (لعلكم ترحمون) أى راجين الرحمة من الله عزّ وجلّ * وقوله (وسارعوا) عطف على أطيعوا، وقرأ نافع وابن عامر (سارعوا) بغير واو، وكذلك فى مصاحف أهل المدينة وأهل الشام، وقرأ الباقون بالواو. قال أبو علىّ كلا الأمرين سائغ مستقيم، والمسارعة: المبادرة، وفى الآية حذف، أى سارعوا الى مايوجب المغفرة من الطاعات * وقوله (عرضها السموات والأرض) أى عرضها كعرض السموات والأرض، ومثله الآية الأخرى ــ عرضها كعرض السماء والأرض ــ وقد اختلف فى معنى ذلك، فذهب الجمهور الى أنها تقرن السموات والأرض بعضها الى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض فذلك عرض الجنة، ونبه بالعرض على الطول لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض، وقيل ان هذا الكلام جاء على نهج كلام العرب من الاستعارة دون الحقيقة، وذلك أنها لما كانت الجنة من الاتساع والانفساح فى غاية قصوى حسن التعبير عنها بعرض السموات والأرض مبالغة لأنهما أوسع مخلوقات الله سبحانه فيما يعلمه عباده ولم يقصد بذلك التحديد * والسراء: اليسر، والضراء: العسر. وقد تقدّم تفسيرهما، وقيل السراء: الرخاء، والضراء: الشدّة، وهو مثل الأوّل، وقيل السراء فى الحياة، والضراء بعد الموت * قوله (والكاظمين الغيظ) يقال كظم غيظه، أى سكت عليه ولم يظهره، ومنه كظمت السقاء: أى ملأته * والكظامة: مايسدّ به مجرى الماء، وكظم البعير جرّته: اذا ردّها فى جوفه، وهو عطف على الموصول الذى قبله * قوله (والعافين عن الناس) أى التاركين عقوبة من أذنب اليهم واستحق المؤاخذة، وذلك من أجلّ ضروب الخير * وظاهره العفو عن الناس سواء كانوا من المماليك أم لا. وقال الزجاج وغيره المراد بهم المماليك، واللام فى المحسنين يجوز أن تكون للجنس فيدخل فيه كل محسن من هؤلاء وغيرهم، ويجوز أن تكون للعهد فيختص بهؤلاء * والأوّل أولى اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السياق فيدخل تحته كل من صدر منه مسمى الاحسان أىّ احسان كان * قوله (والذين اذا فعلوا فاحشة) هذا مبتدأ وخبره (أولئك) وقيل معطوف على المتقين *

والأوّل

والأوّل أولى ، وهؤلاء هم صنف دون الصنف الأوّل ملحقين بهم وهم التوّابون ، وسيأتى ذكر سبب نزولها ، والفاحشة وصف لموصوف محذوف ، أى فعلة فاحشة وهى تطلق على كل معصية . وقد كثر اختصاصها بالزنا * وقوله (أو ظلموا أنفسهم) أى باقتراف ذنب من الذنوب ، وقيل أو بمعنى الواو * والمراد ماذكر ، وقيل الفاحشة الكبيرة ، وظلم النفس الصغيرة ، وقيل غير ذلك * قوله (ذكروا الله) أى بألسنتهم أو أخطروه فى قلوبهم أو ذكروا وعده ووعيده (فاستغفروا لذنوبهم) أى طلبوا المغفرة لها من الله سبحانه ، وتفسيره بالتوبة خلاف معناه لغة ، وفى الاستفهام بقوله (ومن يغفر الذنوب إلا الله) من الانكار مع مايتضمنه من الدلالة على أنه المختص بذلك سبحانه دون غيره ، أى لايغفر جنس الذنوب أحد إلا الله ، وفيه ترغيب لطلب المغفرة منه سبحانه وتنشيط للمذنبين أن يقفوا فى مواقف الخضوع والتذلل ، وهذه الجملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه * وقوله (ولم يصرّوا على مافعلوا) عطف على فاستغفروا ، أى لم يقيموا على قبيح فعلهم . وقد تقدّم تفسير الاصرار * والمراد به هنا العزم على معاودة الذنب وعدم الاقلاع عنه بالتوبة منه * وقوله (وهم يعلمون) جملة حالية ، أى لم يصروا على فعلهم عالمين بقبحه * قوله(أولئك جزاؤهم) الاشارة الى المذكورين بقوله (والذين اذا فعلوا فاحشة) * وقوله (جزاؤهم) بدل اشتمال من اسم الاشارة * وقوله (مغفرة) خبر (ومن ربهم) متعلق بمحذوف وقع صفة لمغفرة ، أى كائنة من ربهم * وقوله (ونعم أجر العاملين) المخصوص بالمدح محذوف ، أى أجرهم ، أوذلك المذكور . وقدتقدّم تفسير الجنات وكيفية جرى الأنهار من تحتها .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : قال كانوا يتبايعون الى الأجل فاذا جاء الأجل زادوا عليهم وزادوا فى الأجل فنزلت (ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطاء : قال كانت ثقيف تدين بنى المغيرة فى الجاهلية وذكر نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن معاوية بن قرّة قال كان الناس يتأوّلون هذه الآية (واتقوا النار التى أعدّت للكافرين) اتقوا لاأعذبكم بذنوبكم فى النار التى أعددتها للكافرين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عطاء بن أبى رباح : قال قال المسلمون يارسول الله أبنو اسرائيل كانوا أكرم على الله منا ؟ كانوا اذا أذنب أحدهم ذنبا أصبح كفارة ذنبه مكتوبة فى عتبة بابه اجدع أنفك اجدع أذنك افعل كذا وكذا فسكت النبى ﷺ فنزلت (وسارعوا) الآية . وأخرج ابن المنذر عن أنس بن مالك فى تفسير (وسارعوا) قال التكبيرة الأولى . وأخرج ابن جرير من طريق السدّى عن ابن عباس فى قوله (عرضها السموات والأرض) مثل ماذكرناه سابقا عن الجمهور . وأخرج نحوه عنه سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق كريب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (الذين ينفقون فى السرّاء والضراء يقول فى اليسر والعسر (والكاظمين الغيظ) يقول كاظمين على الغيظ . وقد وردت أحاديث كثيرة فى ثواب من كظم الغيظ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن النخعى فى الآية قال الظلم من الفاحشة والفاحشة من الظلم . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والطبرانى وابن أبى الدنيا وابن المنذر والبيهقى عن ابن مسعود : قال ان فى كتاب الله لآيتين ما أذنب عبده ذنبا فقرأهما فاستغفر الله الاغفر له (والذين اذا فعلوا فاحشة) الآية * وقوله ـ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ـ الآية . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن ثابت البنانى : قال بلغنى أن إبليس حين نزلت هذه الآية بكى (والذين اذا فعلوا فاحشة) الآية . وأخرج الحكيم الترمذى عن عطاف بن خالد : قال بلغنى أنه لما نزل قوله تعالى (ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصرّوا على مافعلوا) صاح ابليس بجنوده وحثا على

رأسه التراب ودعا بالويل والثبور حتى جاءته جنوده من كل برّ وبحر ، فقالوا مالك ياسيدنا ؟ قال آية نزلت فى كتاب الله لا يضر بعدها أحدا من بنى آدم ذنب ، قالوا وماهى ؟ فأخبرهم قالوا نفتح لهم باب الاهواء فلا يتوبون ولا يستغفرون ولا يرون الا أنهم على الحق فرضى منهم بذلك . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والحميدى وعبد ابن حميد وأهل السنن الأربع وحسنه النسائى وابن حبان والدارقطنى فى الافراد والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن السنى والبيهقى فى الشعب والضياء فى المختارة عن أبى بكر الصديق سمعت رسول الله ﷺ يقول مامن رجل يذنب ذنبا ثم يقوم عند ذكر ذنبه فيتطهر ، ثم يصلى ركعتين ، ثم يستغفر الله من ذنبه ذلك الاغفر الله له ، ثم قرأ هذه الآية والذين اذا فعلوا فاحشة الآية . وأخرج البيهقى فى الشعب عن الحسن مرفوعا نحوه ، ولكنه قال : ثم خرج الى براز من الأرض فصلى . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والترمذى وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى الشعب عن أبى بكر الصديق : قال قال رسول الله ﷺ ما أصرّ من استغفر وان عاد فى اليوم سبعين مرة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (ولم يصرّوا) فيسكتون ولا يستغفرون . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل (ونعم أجر العاملين) قال أجر العاملين بطاعة الله الجنة .

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *

قوله (قد خلت من قبلكم سنن) هذا رجوع الى وصف باقى القصة * والمراد بالسنن ماسنه الله فى الأمم من وقائعه ، أى قد خلت من قبل زمانكم وقائع سنها الله فى الأمم المكذبة ، وأصل السنن جمع سنة وهى الطريقة المستقيمة ، ومنه قول الهذلى :

فلا تجزعن من سنة أنت سرتها * فأوّل راض سنة من يسيرها

والسنة الامام المتبع المؤتمّ به ، ومنه قول لبيد :

من معشر سنت لهم آباؤهم * ولكل قوم سنة وإمام

والسنة الأمة ، والسنن الأمم : قاله المفضل الضبي . وقال الزجاج : المعنى فى الآية أهل سنن فحذف المضاف ، والفاء فى قوله (فسيروا) سببية ، وقيل شرطية ، أى ان شككتم فسيروا * والعاقبة : آخر الأمر والمعنى سيروا فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين فانهم خالفوا رسلهم بالحرص على الدنيا ثم انقرضوا فلم يبق من دنياهم التى آثروها أثر : هذا قول أكثر المفسرين * والمطلوب من هذا السير المأمور به هو حصول المعرفة بذلك ، فان حصلت بدونه فقد حصل المقصود ، وان كان لمشاهدة الآثار زيادة غير حاصلة لمن لم يشاهدها ، والاشارة بقوله (هذا) الى قوله (قد خلت) ، وقال الحسن الى القرآن (بيان للناس) أى تبيين لهم ، وتعريف الناس للعهد وهم المكذبون ، أو للجنس ، أى للمكذبين وغيرهم * وفيه حث على النظر فى سوء عاقبة المكذبين ، وما انتهى اليه أمرهم * قوله (وهدى وموعظة) أى هذا النظر مع كونه بيانا فيه هدى وموعظة للمتقين من المؤمنين فعطف الهدى والموعظة على البيان يدل على التغاير ولو باعتبار المتعلق ، و بيانه أن اللام فى الناس ان كانت للعهد فالبيان للمكذبين والهدى والموعظة للمؤمنين ، وان كانت للجنس فالبيان لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم ، والهدى والموعظة للمتقين وحدهم * قوله (ولا تهنوا ولا تحزنوا) عزاهم وسلاهم بما نالهم يوم أحد من القتل والجراح ، وحثهم على قتال عدوّهم ، ونهاهم عن العجز والفشل ، ثم بين لهم أنهم الأعلون على عدوّهم بالنصر والظفر ، وهى جملة حالية ، أى والحال أنكم الأعلون عليهم وعلى غيرهم بعد هذه الوقعة . وقد صدق الله وعده فان النبى ﷺ بعد وقعة أحد ظفر بعدوّه فى جميع وقعاته ، وقيل المعنى : وأنتم الأعلون عليهم بما أصبتم منهم فى يوم بدر فانه أكثر مما أصابوا منكم اليوم * وقوله (ان كنتم مؤمنين) متعلق بقوله (ولا تهنوا) ومابعده ، أو بقوله (وأنتم الأعلون) أى ان كنتم مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا ، أوان كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون * والقرح بالضم والفتح : الجرح وهما لغتان فيه قاله الكسائى والأخفش . وقال الفراء هو بالفتح الجرح ، وبالضم ألمه . وقرأ محمد بن السميفع قرح بفتح القاف والراء على المصدر * والمعنى فى الآية ان نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر فلا تهنوا لما أصابكم فى هذا اليوم ، فانهم لم يهنوا لما أصابهم فى ذلك اليوم وأنتم أولى بالصبر منهم ، وقيل ان المراد بما أصاب المؤمنين والكافرين فى هذا اليوم ، فان المسلمين انتصروا عليهم فى الابتداء فأصابوا منهم جماعة ثم انتصر الكفار عليهم فأصابوا منهم * والأوّل أولى : لأن ماأصابه المسلمون من الكفار فى هذا اليوم لم يكن مثل ماأصابوه منهم فيه * وقوله (وتلك الأيام) أى الكائنة بين الأمم فى حروبها والآتية فيما بعد كالأيام الكائنة فى زمن النبوّة تارة تغلب هذه الطائفة ، وتارة تغلب الأخرى كما وقع لكم أيها المسلمون فى يوم بدر وأحد ، وهو معنى قوله (نداولها بين الناس) فقوله (تلك) مبتدأ ، والأيام صفته ، والخبر نداولها ، وأصل المداولة المعاورة : داولته بينهم عاورته ، والدولة : الكرة ، ويجوز أن تكون الأيام خبرا ونداولها حالا ، والأوّل أولى * وقوله (وليعلم الله) معطوف على علة مقدّرة كأنه قال نداولها بين الناس ليظهر أمركم وليعلم ، أو يكون المعلل محذوفا ، أى ليعلم الله الذين اتقوا ، فعلنا ذلك ، وهو من باب التمثيل ، أى فعلنا فعل من يريد أن يعلم لأنه سبحانه لم يزل عالما ، أو ليعلم الله الذين آمنوا بصبرهم علما يقع عليه الجزاء كما علمه علما أزليا (ويتخذ منكم شهداء) أى يكرمهم بالشهادة * والشهداء جمع شهيد سمى بذلك لكونه مشهودا له بالجنة ، أو جمع شاهد لكونه كالمشاهد للجنة ، ومن للتبعيض وهم شهداء أحد * وقوله (والله لايحب الظالمين) جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه لتقرير مضمون ماقبله * وقوله (وليمحص

الله الذين آمنوا) من جملة العلل معطوف على ماقبله * والتمحيص : الاختبار ، وقيل التطهير على حذف مضاف ، أى ليمحص ذنوب الذين آمنوا . قاله الفراء ، وقيل : يمحص يخلص . قاله الخليل والزجاج ، أى ليخلص المؤمنين من ذنوبهم * وقوله (ويمحق الكافرين) أى يستأصلهم بالهلاك ، وأصل التمحيق محو الآثار ، والمحق نقصها * قوله (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) كلام مستأنف لبيان ماذكر من التمييز ، وأم هى المنقطعة ، والهمزة للانكار ، أى بل أحسبتم ، والواو فى قوله (ولما يعلم الله) واو الحال * والجملة حالية ، وفيه تمثيل كالأول ، أو علم يقع عليه الجزاء * وقوله (وليعلم الصابرين) منصوب باضمار أن كما قال الخليل وغيره على أن الواو للجمع . وقال الزجاج الواو بمعنى حتى ، وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر ويعلم الصابرين بالجزم عطفا على (ولما يعلم) وقرئ بالرفع على القطع ، وقيل ان قوله (ولما يعلم) كناية عن نفى المعلوم ، وهو الجهاد * والمعنى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، والحال انه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر أى الجمع بينهما ، ومعنى (لما) معنى لم عند الجمهور ، وفرّق سيبويه بينهما فجعل لم لنفى الماضى ، ولما لنفى الماضى والمتوقع * قوله (ولقد كنتم تمنون الموت) هو خطاب لمن كان يتمنى القتال والشهادة فى سبيل الله ممن لم يحضر يوم بدر فانهم كانوا يتمنون يوما يكون فيه قتال : فلما كان يوم أحد انهزموا مع أنهم الذين ألحوا على رسول الله ﷺ بالخروج ولم يصبر منهم الا نفر يسير مثل أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك * وقوله (من قبل أن تلقوه) أى القتال أو الشهادة التى هى سبب الموت ، وقرأ الأعمش من قبل أن تلاقوه . وقد ورد النهى عن تمنى الموت فلا بدّ من حمله هنا على الشهادة . قال القرطبى وتمنى الموت من المسلمين يرجع إلى تمنى الشهادة المبنية على الثبات والصبر على الجهاد لا إلى قتل الكفار لهم لأنه معصية وكفر ، ولا يجوز إرادة المعصية ، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة فيسألون الصبر على الجهاد وان أدّى إلى القتل * قوله (فقد رأيتموه) أى القتال أو ماهو سبب للموت ، ومحل قوله (وأنتم تنظرون) النصب على الحال ، وقيد الرؤية بالنظر مع اتحاد معناهما للمبالغة ، أى قد رأيتموه معاينين له حين قتل من قتل منكم . قال الأخفش ان التكرير بمعنى التأكيد مثل قوله — ولا طائر يطير بجناحيه — وقيل معناه بصراء ليس فى أعينكم علل ، وقيل معناه وأنتم تنظرون إلى محمد ﷺ * قوله (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) * سبب نزول هذه ماسيأتى من أن النبى ﷺ لما أصيب فى يوم أحد صاح الشيطان قائلا قد قتل محمد ، ففشل بعض المسلمين حتى قال قائل قد أصيب محمد فأعطوا بأيديكم فانما هم اخوانكم . وقال آخر لو كان رسولا ماقتل ، فردّ الله عليهم ذلك وأخبرهم بأنه رسول قد خلت من قبله الرسل وسيخلو كما خلوا ، فجملة قوله (قد خلت من قبله الرسل) صفة لرسول * والقصر قصر إفراد كأنهم استبعدوا هلاكه فأثبتوا له صفتين الرسالة ، وكونه لايهلك ، فردّ الله عليهم ذلك بأنه رسول لايتجاوز ذلك الى صفة عدم الهلاك ، وقيل هو قصر قلب . وقرأ ابن عباس قد خلت من قبل رسلٌ ، ثم أنكر الله عليهم بقوله (أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) أى كيف ترتدّون وتتركون دينه اذا مات أو قتل مع علمكم أن الرسل تخلو وتمسك أتباعهم بدينهم وان فقدوا بموت أو قتل ، وقيل الانكار لجعلهم خلوّ الرسل قبله سببا لانقلابهم بموته أو قتله ، وإنما ذكر القتل مع علمه سبحانه أنه لايقتل لكونه مجوّزا عند المخاطبين * قوله (ومن ينقلب على عقبيه) أى بادباره عن القتال أو بارتداده عن الاسلام (فلن يضرّ الله شيئا) من الضرر وانما يضرّ نفسه (وسيجزى الله الشاكرين) أى الذين صبروا وقاتلوا واستشهدوا ، لأنهم بذلك شكروا نعمة الله عليهم بالاسلام ، ومن امتثل ماأمر به فقد شكر النعمة التى أنعم الله بها عليه * قوله (وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله) هذا كلام مستأنف يتضمن الحث على الجهاد والاعلام بأن الموت لابدّ منه * ومعنى (باذن الله) بقضاء الله وقدره ، وقيل ان هذه الجملة متضمنة للانكار على من فشل

بسبب ذلك الارجاف بقتله ﷺ فبين لهم أن الموت بالقتل أو بغيره منوط باذن الله ، و إسناده إلى النفس مع كونها غير مختارة له للأيذان بأنه لاينبغى لأحد أن يقدم عليه إلا باذن الله * وقوله (كتابا) مصدر مؤكد لما قبله ، لأن معناه كتب الله الموت كتابا * والمؤجل : المؤقت الذى لايتقدم على أجله ولا يتأخر * قوله (ومن يرد) أى بعمله (ثواب الدنيا) كالغنيمة ونحوها ، واللفظ يعمّ كل مايسمى ثواب الدنيا ، وان كان السبب خاصا (نؤته منها) أى من ثوابها على حذف المضاف (ومن يرد) بعمله (ثواب الآخرة) وهو الجنة نؤته من ثوابها ، ونضاعف له الحسنات أضعافا كثيرة (وسنجزى الشاكرين) بامتثال ماأمرناهم به كالقتال ، ونهيناهم عنه كالفرار وقبول الارجاف * وقوله (وكأين) قال الخليل وسيبويه هى أىّ دخلت عليها كاف التشبيه وثبتت معها فصارت بعد التركيب بمعنى كم ، وصوّرت فى المصحف نونا ، لأنها كلمة نقلت عن أصلها فغير لفظها لتغيير معناها ، ثم كثر استعمالها فتصرّفت فيها العرب بالقلب والحذف فصار فيها أربع لغات قرئ بها : أحدها كائن مثل كاعن ، وبها قرأ ابن كثير ، ومثله قول الشاعر :

وكائن بالأباطح من صديق * تراه لو أصبت هو المصابا

وقال آخر

وكائن رددنا عنكم من مدجج * يجىّ أمام الركب يردى مقنعا

وقال زهير

وكائن ترى من معجب لك شخصه * زيادته أو نقصه فى التكلم

وكأين بالتشديد مثل كعين ، و به قرأ الباقون وهو الأصل ، والثالثة كأين مثل كعين مخففا ، والرابعة كيئن بياء بعدها همزة مكسورة ، ووقف أبو عمرو بغير نون فقال كأى لأنه تنوين ، ووقف الباقون بالنون * والمعنى كثير من الأنبياء قتل معه ربيون ، قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو و يعقوب قتل على البناء للمجهول وهى قراءة ابن عباس ، واختارها أبو حاتم ، وفيه وجهان ، أحدهما أن يكون فى قتل ضمير يعود الى النبىّ ، وحينئذ يكون قوله (معه ربيون) جملة حالية كما يقال : قتل الأمير معه جيش ، أى ومعه جيش ، والوجه الثانى أن يكون القتل واقعا على ربيون ، فلا يكون فى قتل ضمير * والمعنى قتل بعض أصحابه وهم الربيون ، وقرأ الكوفيون وابن عامر قاتل ، وهى قراءة ابن مسعود واختارها أبو عبيد وقال ان الله اذا حمد من قاتل كان من قتل داخلا فيه ، واذا حمد من قتل لم يدخل فيه من قاتل ولم يقتل ، فقاتل أعمّ وأمدح ، ويرجح هذه القراءة الأخرى ، والوجه الثانى من القراءة الأولى قول الحسن ماقتل نبىّ فى حرب قط ، وكذا قال سعيد بن جبير والربيون بكسر الراء قراءة الجمهور ، وقرأ علىّ بضمها وابن عباس بفتحها ، وواحده ربى بالفتح منسوب الى الرب والربى بضم الراء وكسرها منسوب الى الربة بكسر الراء وضمها وهى الجماعة ، ولهذا فسرهم جماعة من السلف بالجماعات الكثيرة ، وقيل هم الأتباع ، وقيل هم العلماء . قال الخليل الربى : الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء وهم الربانيون نسبوا الى التأله والعبادة ومعرفة الربوبية . وقال الزجاج الربيون بالضم : الجماعات * قوله (فما وهنوا) عطف على قاتل أو قتل * والوهن : انكسار الجدّ بالخوف . وقرأ الحسن وهنوا بكسر الهاء وضمها . قال أبو زيد لغتان ، وهن الشىء يهن وهنا : ضعف ، أى ماوهنوا لقتل نبيهم أو لقتل من قتل منهم (وماضعفوا) أى عن عدوّهم (وما استكانوا) لما أصابهم فى الجهاد * والاستكانة : الذلة والخضوع وقرئ (وماوهنوا وماضعفوا) باسكان الهاء والعين * وحكى الكسائى ضعفوا بفتح العين ، وفى هذا توبيخ لمن انهزم يوم أحد وذل واستكان وضعف بسبب ذلك الارجاف الواقع من الشيطان ولم يصنع كما صنع أصحاب من خلا من قبلهم من الرسل * قوله (وما كان قولهم) أى قول أولئك الذين كانوا مع الأنبياء إلا هذا القول ، وقولهم منصوب على أنه خبر كان . وقرأ ابن كثير وعاصم فى رواية عنهما برفع قولهم * وقوله (إلا

أن قالوا) استثناء مفرغ ، أى ما كان قولهم عند أن قتل منهم ربانيون أو قتل نبيهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، قيل هى الصغائر * وقوله (وإسرافنا فى أمرنا) قيل هى الكبائر ، والظاهر أن الذنوب تعم كل مايسمى ذنبا من صغيرة أو كبيرة ، والاسراف مافيه مجاوزة للحد ، فهو من عطف الخاص على العام ، قالوا ذلك مع كونهم ربانيين هضما لأنفسهم وثبت أقدامنا) فى مواطن القتال (فآتاهم الله) بسبب ذلك (ثواب الدنيا) من النصر والغنيمة والعزة ونحوها (وحسن ثواب الآخرة) من إضافة الصفة الى الموصوف ، أى ثواب الآخرة الحسن ، وهو نعيم الجنة ، جعلنا الله من أهلها .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (قدخلت من قبلكم سنن) قال : تداول من الكفار والمؤمنين فى الخير والشر . وأخرج ابن أبى شيبة فى كتاب المصاحف عن سعيد بن جبير قال : أوّل ما نزل من آل عمران (هذا بيان للناس) ثم أنزل بقيتها يوم أحد . وأخرج ابن جرير عن الحسن فى قوله (هذا بيان) يعنى القرآن . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس قال : أقبل خالد بن الوليد يريد أن يعلو عليهم الجبل فقال النبى ﷺ « اللهم لايعلون علينا » فأنزل الله (ولا تهنوا ولا تحزنوا) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج قال : انهزم أصحاب رسول الله ﷺ فى الشعب يوم أحد ، فسألوا مافعل النبى ﷺ وما فعل فلان ، فنعى بعضهم لبعض وتحدّثوا أنّ النبى ﷺ قد قتل ، فكانوا فى همّ وحزن ، فبينماهم كذلك علا خالد بن الوليد بخيل المشركين فوقهم على الجبل ، وكانوا على أحد مجنبتى المشركين ، وهم أسفل من الشعب ، فلما رأوا النبى ﷺ فرحوا ، فقال النبى ﷺ اللهم لا قوّة لنا الابك ، وليس أحد يعبدك بهذا البلد غيرهؤلاء النفر فلا تهلكهم ، وثاب نفر من المشركين رماة فصعدوا فرموا خيل المشركين حتى هزمهم الله ، وعلا المسلمون الجبل ، فذلك قوله (وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك (وأنتم الأعلون) قال : وأنتم الغالبون . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد (إن يمسسكم قرح) قال جراح وقتل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله (إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله) قال : ان يقتل منكم يوم أحد ، فقد قتل منهم يوم بدر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (وتلك الأيام نداولها بين الناس) قال كان يوم أحد بيوم بدر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس فى قوله (وتلك الأيام) الآية : قال أدال المشركين على النبى ﷺ يوم أحد ، وبلغنى أن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد بضعة وسبعين رجلا عدد الأسارى الذين أسروا يوم بدر من المشركين ، وكان عدد الأسارى يوم بدر ثلاثة وسبعين رجلا . وأخرج ابن جريج وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (ويتخذ منكم شهداء) قال إنّ المسلمين كانوا يسألون ربهم : اللهمّ ربنا أرنا يوما كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ونبليك فيه خيرا ، ونلتمس فيه الشهادة ، فلقوا المشركين يوم أحد فاتخذ منهم شهداء . وأخرجا عنه فى قوله (وليمحص الله الذين آمنوا) قال يبتليهم (ويمحق الكافرين) قال ينقصهم . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق العوفى عنه أن رجالا من أصحاب النبى ﷺ كانوا يقولون ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر ونستشهد ، أوليت لنا يوما كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ونبلى فيه خيرا ونلتمس الشهادة والجنة والحياة والرزق ، فأشهدهم الله أحدا ، فلم يثبتوا إلا من شاء الله منهم ، فقال الله (ولقد كنتم تمنون الموت) الآية . وأخرج ابن المنذر عن كليب قال : خطبنا عمر بن الخطاب ، فكان يقرأ على المنبر آل عمران ويقول انها أحدية ، ثم قال تفرقنا عن رسول الله ﷺ يوم أحد ، فصعدت الجبل فسمعت يهوديا يقول : قتل محمد ، فقلت لاأسمع أحدا يقول قتل محمدا لاضربت عنقه فنظرت ، فاذا رسول الله ﷺ

والناس يتراجعون اليه ، فنزلت هذه الآية (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : نادى مناد يوم أحد ألا ان محمدا قد قتل فارجعوا الى دينكم الأول ، فأنزل الله (وما محمد إلا رسول) . وأخرج أيضا عن مجاهد نحوه . وأخرج أيضا عن عليّ في قوله (وسيجزى الله الشاكرين) قال الثابتين على دينهم : أبا بكر وأصحابه ، فكان عليّ يقول كان أبو بكر أمير الشاكرين . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم عنه أنه كان يقول في حياة رسول الله ﷺ ان الله يقول (أفان مات أوقتل انقلبتم على أعقابكم) والله لا ننقلب على أعقابنا بعد اذ هدانا الله ، والله لئن مات أوقتل لأقاتلنّ على ماقاتل عليه حتى أموت . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن مسعود في قوله (ربيون) قال ألوف . وأخرج سعيد بن منصور عن الضحاك قال : الربة الواحدة ألف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (ربيون) قال جموع . وأخرج ابن جرير عنه : قال علماء كثير . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله (وما استكانوا) قال تخشعوا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله (وإسرافنا في أمرنا) قال خطايانا .

يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَـٰسِرِينَ * بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَـٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ * سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَـٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ * وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَىٰكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَـٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *

لما أمر الله سبحانه بالاقتداء بمن تقدّم من أنصار الأنبياء حذر عن طاعة الكفار ، وهم مشركو العرب ، وقيل اليهود والنصارى ، وقيل المنافقون في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا الى دين آبائكم * وقوله (يردّوكم على أعقابكم) اى يخرجوكم من دين الاسلام الى الكفر (فتنقلبوا خاسرين) أى ترجعوا مغبونين * وقوله (بل الله مولاكم) إضراب عن مفهوم الجملة الأولى ، أى ان تطيعوا الكافرين يخذلوكم ولا ينصروكم بل الله ناصركم لا غيره ، وقرئ بل الله بالنصب على تقدير بل أطيعوا الله * قوله (سنلقى) قرأ السختياني بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالنون . وقرأ ابن عامر والكسائي (الرعب) بضم العين . وقرأ الباقون بالسكون وهما لغتان ، يقال رعبته رعبا ورعبا فهو مرعوب ، ويجوز أن يكون مصدرا ، والرعب بالضم الاسم ، وأصله الملء ، يقال سيل راعب ، أى يملأ الوادى ، ورعبت الحوض ملأته ، فالمعنى سنملأ قلوب الكافرين رعبا ، أى خوفا وفزعا ، والالقاء يستعمل حقيقة في الأجسام ، ومجازا في غيرها كهذه الآية ، وذلك أن المشركين بعد وقعة أحد ندموا أن لا يكونوا استأصلوا المسلمين ، وقالوا بئسما صنعنا قتلناهم حتى اذا لم يبق منهم الا الشريد تركناهم ارجعوا فاستأصلوهم ، فلما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما هموا به (بما أشركوا بالله) متعلق بقوله (سنلقى) ومامصدرية ، أى بسبب إشراكهم (مالم ينزل به سلطانا) أى مالم ينزل الله بجعله شريكا له حجة وبيانا وبرهانا ، والنفى يتوجه الى القيد

والمقيد ، أى لاحجة ولا إنزال ، والمعنى أنّ الاشراك بالله لم يثبت فى شىء من الملل * والمثوى المكان الذى يقام فيه ، يقال ثوى يثوى ثواء * قوله (ولقد صدقكم الله وعده) نزلت لما قال بعض المسلمين من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر ، وذلك أنه كان الظفر لهم فى الابتداء ، حتى قتلوا صاحب لواء المشركين وتسعة نفر بعده . فلما اشتغلوا بالغنيمة وترك الرماة مراكزهم طلبا للغنيمة كان ذلك سبب الهزيمة * والحسّ الاستئصال بالقتل ، قاله أبو عبيد ، يقال جراد محسوس اذا قتله البرد ، وسنة حسوس ، أى جدبة تأكل كل شىء . قيل وأصله من الحسّ الذى هو الادراك بالحاسة ، فعنى حسه : أذهب حسه بالقتل ، وتحسونهم تقتلونهم وتستأصلونهم ، قال الشاعر :

حسسناهم بالسيف حسا فأصبحت * بقيتهم قد شردوا وتبدّدوا

وقال جرير تحسهم السيوف كما تسامى * حريق النار فى الأجم الحصيد

(باذنه) أى بعلمه أو بقضائه (حتى اذا فشلتم) أى جبنتم وضعفتم ، قيل جواب حتى محذوف تقديره امتحنتم ، وقال الفراء : جواب حتى قوله (وتنازعتم) والواو مقحمة زائدة كقوله ــ فلما أسلما وتله للجبين ــ وقال أبو على يجوز أن يكون الجواب صرفكم عنهم ، وقيل فيه تقديم وتأخير ، أى حتى اذا تنازعتم وعصيتم فشلتم ، وقيل ان الجواب عصيتم ، والواو مقحمة ، وقد جوّز الأخفش مثله فى قوله تعالى ــ حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم ــ ، وقيل حتى بمعنى الى ، وحينئذ لاجواب لها ، والتنازع المذكور هو ما وقع من الرماة حين قال بعضهم نلحق الغنائم ، وقال بعضهم نثبت فى مكاننا كما أمرنا رسول الله ﷺ * ومعنى قوله (من بعد ما أراكم ماتحبون) ماوقع لهم من النصر فى الابتداء فى يوم أحد كما تقدّم (منكم من يريد الدنيا) يعنى الغنيمة (ومنكم من يريد الآخرة) أى الأجر بالبقاء فى مراكزهم امتثالا لأمر رسول الله ﷺ (ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) أى ردّكم الله عنهم بالانهزام بعد أن استوليتم عليهم ليمتحنكم (ولقد عفا عنكم) لما علم من ندمكم فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة ، والخطاب لجميع المنهزمين وقيل للرماة فقط * قوله (إذ تصعدون) متعلق بقوله صرفكم ، أو بقوله (ولقد عفا عنكم) أو بقوله (ليبتليكم) وقرأه الجمهور بضمّ التاء وكسر العين ، وقرأ أبو رجاء العطاردى وأبو عبد الرحمن السلمى والحسن وقتادة بفتح التاء والعين . وقرأ ابن محيصن وقنبل يصعدون بالتحتية . قال أبو حاتم أصعدت اذا مضيت حيال وجهك وصعدت اذا ارتقيت فى جبل فالاصعاد السير فى مستوى الارض و بطون الأودية ، والصعود الارتفاع على الجبال والسطوح والسلالم والدرج ، فيحتمل أن يكون صعودهم فى الجبل بعد إصعادهم فى الوادى ، فيصح المعنى على القراءتين ، وقال القتيبى : أصعد إذا أبعد فى الذهاب وأمعن فيه ، ومنه قول الشاعر :

ألا أيها ذا السائلى أين أصعدت * فان لها من بطن يثرب موعدا

وقال الفراء الاصعاد الابتداء فى السفر ، والانحدار الرجوع منه : يقال أصعدنا من بغداد الى مكة والى خراسان وأشباه ذلك : اذا خرجنا اليها وأخذنا فى السفر ، وانحدرنا إذا رجعنا ، وقال المفضل صعد وأصعد بمعنى واحد * ومعنى تلوون تعرجون وتقيمون . أى لايلتفت بعضكم الى بعض هربا ، فان المعرّج الى الشىء يلوى اليه عنقه أو عنق دابته (على أحد) أى على أحد ممن معكم ، وقيل على رسول الله ﷺ ، وقرأ الحسن تلون بواو واحدة ، وقرأ عاصم فى رواية عنه بضم التاء وهى لغة * قوله (والرسول يدعوكم فى أخراكم) أى فى الطائفة المتأخرة منكم ، يقال جاء فلان فى آخر الناس ، وآخرة الناس ، وأخرى الناس ، وأخريات الناس ، وكان دعاء النبى ﷺ أى عباد الله ارجعوا * قوله (فأثابكم) عطف على صرفكم ، أى فجازاكم الله غما حين صرفكم عنهم بسبب غمّ أذقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم ، أو غما موصولا بغمّ بسبب ذلك

الارجاف والجرح والقتل وظفر المشركين ، والغمّ فى الأصل التغطية ، غميت الشىء غطيته ، ويوم غمّ ، وليلة غمة : اذا كانا مظلمين : ومنه غمّ الهلال ، وقيل الغمّ الأوّل الهزيمة ، والثانى اشراف أبى هريرة وخالد بن الوليد عليهم فى الجبل * قوله (لكيلا تحزنوا) اللام متعلقة بقوله (فأثابكم) أى هذا الغمّ بعد الغمّ لكيلا تحزنوا على مافات من الغنيمة ولاما أصابكم من الهزيمة تمرينا لكم على المصائب وتدريبا لاحتمال الشدائد . وقال المفضل : معنى لكيلا تحزنوا لكى تحزنوا ، ولازائدة كقوله تعالى ـ مامنعك أن لاتسجد ـ أى أن تسجد * وقوله ـ لئلا يعلم أهل الكتاب ـ أى ليعلم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله (يأيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا) قال لاتنتصحوا اليهود والنصارى على دينكم ولاتصدقوهم بشىء فى دينكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى يقول ان تطيعوا أباسفيان بن حرب يردّكم كفارا . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) نحو ماقدّمناه فى سبب نزول الآية . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن عروة فى قوله (ولقد صدقكم الله وعده) قال كان الله وعدهم على الصبر والتقوى أن يمدّهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين ، وكان قد فعل فلما عصوا أمر رسول الله ﷺ وتركوا مصافهم وتركت الرماة عهد الرسول اليهم أن لايبرحوا منازلهم ، وأرادوا الدنيا رفع عنهم مدد الملائكة ، وقصة أحد مستوفاة فى السير والتواريخ فلا حاجة الى اطالة الشرح هنا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عبدالرحمن بن عوف فى قوله (اذ تحسونهم) . قال الحس القتل . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه . قال الفشل : الجبن . وأخرج ابن المنذر عن البراء بن عازب فى قوله (من بعد ماأراكم ماتحبون) قال الغنائم وهزيمة القوم . وأخرج ابن جرير عن الحسن فى قوله (ولقد عفا عنكم) قال يقول الله قد عفوت عنكم أن لا أكون استأصلتكم . وأخرج أيضا عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس (إذ تصعدون) قال أصعدوا فى أحد فرارا والرسول يدعوهم فى أخراهم إلىّ عباد الله ارجعوا إلىّ عباد الله ارجعوا . وأخرج ابن مردويه عن عبدالرحمن بن عوف (فأثابكم غما بغم) قال الغمّ الأوّل بسبب الهزيمة ، والثانى حين قيل قتل محمد ، وكان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (غما بغم) قال فرّة بعد الفرّة الأولى حين سمعوا الصوت أن محمدا قد قتل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم . قال الغم الأوّل الجراح والقتل ، والغم الآخر حين سمعوا أن النبى ﷺ قد قتل . وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله .

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ *

الأمنة والأمن سواء ، وقيل : الأمنة انما تكون مع أسباب الخوف ، والأمن مع عدمه ، وهى منصوبة

بأنزل ، ونعاسا بدل منها أوعطف بيان أو مفعول له ، وأما ماقيل من أن أمنة حال من نعاسا مقدّمة عليه أو حال من المخاطبين أومفعول له فبعيد . وقرأ ابن محيصن أمنة بسكون الميم * قوله (يغشى) قرئ بالتحتية على أن الضمير للنعاس و بالفوقية على أن الضمير لأمنة ، والطائفة تطلق على الواحد والجماعة ، والطائفة الأولى هم المؤمنون الذين خرجوا للقتال طلبا للاجر ، والطائفة الأخرى هم معتب بن قشير وأصحابه ، وكانوا خرجوا طمعا فى الغنيمة وجعلوا يناشدون على الحضور ، و يقولون الأقاويل * ومعنى (أهمتهم أنفسهم) حملتهم على الهمّ ، أهمنى الأمر أقلقنى ، والواو فى قوله (وطائفة) للحال ، وجاز الابتداء بالنكرة لاعتمادها على واو الحال ، وقيل : ان معنى (أهمتهم أنفسهم) صارت همهم لاهمّ لهم غيرها (يظنون بالله غير الحق) هذه الجملة فى محل نصب على الحال . أى يظنون بالله غير الحق الذى يجب أن يظن به ، وظنّ الجاهلية بدل منه ، وهو الظنّ المختص بملة الجاهلية ، أوظن أهل الجاهلية ، وهو ظنهم أن أمر النبى ﷺ باطل ، وأنه لاينصر ولايتمّ مادعا اليه من دين الحق * وقوله (يقولون) بدل من يظنون ، أى يقولون لرسول الله ﷺ (هل لنا من الأمر من شىء) أى هل لنا من أمر الله نصيب ، وهذا الاستفهام معناه الجحد ، أى مالناشىء من الأمر ، وهو النصر والاستظهار على العدوّ ، وقيل هو الخروج ، أى انما خرجنا مكرهين ، فردّ الله سبحانه ذلك عليهم بقوله (قل إن الأمر كله لله) وليس لكم ولالعدوّكم منه شىء ، فالنصر بيده والظفر منه * وقوله (يخفون فى أنفسهم) أى يضمرون فى أنفسهم النفاق ولايبدون لك ذلك ، بل يسألونك سؤال المسترشدين * وقوله (يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلناههنا) استئناف كأنه قيل ماهو الأمر الذى يخفون فى أنفسهم ؟ فقيل يقولون فيما بينهم أوفى أنفسهم (لوكان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا) أى ما قتل من قتل منا فى هذه المعركة ، فردّ الله سبحانه ذلك عليهم بقوله (قل لوكنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم) أى لو كنتم قاعدين فى بيوتكم لم يكن بدّ من خروج من كتب عليه القتل الى هذه المصارع التى صرعوا فيها ، فان قضاء الله لايردّ * وقوله (وليبتلى الله مافى صدوركم) علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل له أخرى مطوية للايذان بكثرتها ، كأنه قيل : فعل مافعل لمصالح جمة (وليبتلى) الخ ، وقيل انه معطوف على علة مطوية لبرز ، والمعنى ليمتحن مافى صدوركم من الاخلاص وليمحص مافى قلوبكم من وساوس الشيطان * قوله (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان) أى انهزموا يوم أحد ، وقيل المعنى إن الذين تولوا المشركين يوم أحد (إنما استزلهم الشيطان) استدعى زللهم بسبب بعض ما كسبوا من الذنوب التى منها مخالفة رسول الله ﷺ (ولقد عفا الله عنهم) لتوبتهم واعتذارهم .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : أمنهم الله يومئذ بنعاس غشاهم ، وانما ينعس من يأمن ، وقد ثبت فى صحيح البخارى وغيره أن أبا طلحة قال : غشينا ونحن فى مصافنا يوم أحد ، فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه و يسقط وآخذه فذلك قوله (ثم أنزل عليكم من بعد الغمّ أمنة نعاسا) الآية وأخرج الترمذى وصححه وابن جرير وأبو الشيخ والبيهقى فى الدلائل عن الزبير بن العوّام قال : رفعت رأسى يوم أحد فجعلت أنظر ومامنهم من أحد الا وهو يميل تحت جحفته من النعاس ، وتلاهذه الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال : إن المنافقين قالوا لعبد الله بن أبىّ ، وكان سيد المنافقين قتل اليوم بنو الخزرج . فقال وهل لنا من الأمر شىء ، أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل . وأخرج ابن جرير عن قتادة والربيع فى قوله (ظنّ الجاهلية) قال ظنّ أهل الشرك . وأخرج ابن اسحق وابن أبى حاتم عن ابن عباس . قال معتب هو الذى قال يوم أحد : لوكان لنا من الأمر شىء . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن أن الذى قال ذلك عبدالله بن أبىّ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبدالرحمن

ابن

ابن عوف فى قوله (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان) قال : هم ثلاثة ، واحد من المهاجرين ، واثنان من الأنصار . وأخرج ابن منده وابن عساكر عن ابن عباس فى الآية قال : نزلت فى عثمان ورافع بن المعلى وخارجة بن زيد . وقد روى فى تعيين من فى الآية روايات كثيرة .

يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَامَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا تَجْمَعُونَ * وَلَئِن مِّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ * فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ * إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ * لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ *

قوله (لاتكونوا كالذين كفروا) هم المنافقون الذين قالوا لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا هاهنا * قوله (وقالوا لأخوانهم) فى النفاق أو فى النسب ، أى قالوا لأجلهم (اذا ضربوا فى الأرض) اذا ساروا فيها للتجارة أونحوها ، قيل ان اذا هنا المفيدة لمعنى الاستقبال بمعنى اذ المفيدة لمعنى المضىّ ، وقيل هى على معناها ، والمراد هنا حكاية الحال الماضية ، وقال الزجاج : اذا هنا تنوب عن مامضى من الزمان ومايستقبل (لو كانوا غزى) جمع غاز كراكع وركع ، وغائب وغيب ، قال الشاعر * قل للقوافل والغزى اذا غزوا * (ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم) اللام متعلقة بقوله (قالوا) أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة فى قلوبهم * والمراد انه صار ظنهم أنهم لولم يخرجوا ماقتلوا حسرة ، أومتعلقة بقوله (لاتكونوا) أى لاتكونوا مثلهم فى اعتقاد ذلك ليجعله الله حسرة فى قلوبهم فقط دون قلوبكم ، وقيل المعنى لاتلتفتوا اليهم ليجعل الله عدم التفاتكم اليهم حسرة فى قلوبهم ، وقيل المراد حسرة فى قلوبهم يوم القيامة لما فيه من الخزى والندامة (والله يحيي ويميت) فيه ردّ على قولهم ، أى ذلك بيد الله سبحانه يصنع مايشاء ويحكم مايريد ، فيحيي من يريد و يميت من يريد من غير أن يكون للسفر أو الغزو أثر فى ذلك ، واللام فى قوله (ولئن قتلتم) موطئة * وقوله (لمغفرة) جواب القسم سادّ مسدّ جواب الشرط ، والمعنى أن السفر والغزو ليسا مما يجلب الموت ولئن وقع ذلك بأمر الله سبحانه (لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) أى الكفرة من منافع الدنيا وطيباتها مدّة أعمارهم على قراءة من قرأ بالياء التحتية ، أو خير مما تجمعون أيها المسلمون من الدنيا ومنافعها على قراءة من قرأ بالفوقية ، والمقصود فى الآية بيان مزية القتل أو الموت فى سبيل الله وزيادة تأثيرهما فى استجلاب المغفرة والرحمة * قوله (ولئن متم أو قتلتم) على أىّ وجه حسب تعلق الارادة الالهية (لا الى الله تحشرون)

هو جواب القسم المدلول عليه باللام الموطئة سادّ مسدّ جواب الشرط كما تقدم فى الجملة الأولى ، أى الى الرب الواسع المغفرة تحشرون لا إلى غيره كما يفيده تقديم الظرف على الفعل مع مافى تخصيص اسم الله سبحانه بالذكر من الدلالة على كمال اللطف والقهر * ومافى قوله (فبما رحمة من الله) مزيدة للتأكيد : قاله سيبويه وغيره ، وقال ابن كيسان انها نكرة فى موضع جرّ بالباء ، ورحمة بدل منها ، والأوّل أولى بقواعد العربية ، ومثله قوله تعالى ـ فبما نقضهم ميثاقهم ـ والجار والمجرور متعلق بقوله (لنت لهم) وقدّم عليه لافادة القصر ، وتنوين رحمة للتعظيم ، والمعنى أن لينه لهم ما كان إلا بسبب الرحمة العظيمة منه ، وقيل ان ما استفهامية * والمعنى فبأىّ رحمة من الله لنت لهم ، وفيه معنى التعجيب ، وهو بعيد ، ولو كان كذلك لحذف الألف من ما ، وقيل فبم رحمة من الله * والفظ : الغليظ الجافى . وقال الراغب الفظ هو الكريه الخلق ، وأصله فظاظ كحذر * وغلظ القلب : قساوته وقلة إشفاقه وعدم انفعاله للخير * والانفضاض التفرّق ، يقال فضضتهم فانفضوا ، أى فرّقتهم فتفرّقوا * والمعنى لو كنت فظا غليظ القلب لاترفق بهم لتفرّقوا من حولك هيبة لك واحتشاما منك بسبب ما كان من توليهم ، واذا كان الأمر كما ذكر (فاعف عنهم) فيما يتعلق بك من الحقوق (واستغفر لهم) الله سبحانه فيما هو إلى الله سبحانه (وشاورهم فى الأمر) أى الذى يرد عليك ، أىّ أمر كان مما يشاور فى مثله، أو فى أمر الحرّب خاصة كما يفيده السياق لما فى ذلك من تطييب خواطرهم واستجلاب مودّتهم ، ولتعريف الأمة بمشروعية ذلك حتى لايأنف منه أحد بعدك * والمراد هنا المشاورة فى غير الأمور التى يرد الشرع بها . قال أهل اللغة الاستشارة مأخوذة من قول العرب ، شرت الدابة وشورتها : إذا علمت خبرها ، وقيل من قولهم شرت العسل : إذا أخذته من موضعه .

قال ابن خوزمنداد : واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لايعلمون وفيما أشكل عليهم من أمور الدنيا ومشاورة وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب ، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ، ووجوه الكتاب والعمال والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها ، وحكى القرطبى عن ابن عطية أنه لاخلاف فى وجوب عزل من لايستشير أهل العلم والدين * قوله (فاذا عزمت فتوكل على الله) أى إذا عزمت عقب المشاورة على شىء واطمأنت به نفسك فتوكل على الله فى فعل ذلك ، أى اعتمد عليه وفوّض إليه ، وقيل ان المعنى فاذا عزمت على أمر أن تمضى فيه فتوكل على الله لا على المشاورة * والعزم فى الأصل : قصد الامضاء ، أى فاذا قصدت إمضاء أمر فتوكل على الله . وقرأ جعفر الصادق وجابر بن زيد فاذا عزمت بضم التاء بنسبة العزم إلى الله تعالى ، أى فاذا عزمت لك على شىء وأرشدتك إليه فتوكل على الله * وقوله (إن ينصركم الله فلا غالب لكم) جملة مستأنفة لتأكيد التوكل والحث عليه * والخذلان : ترك العون ، أى وان يترك الله عونكم (فمن ذا الذى ينصركم من بعده) وهذا الاستفهام انكارى * والضمير فى قوله (من بعده) راجع الى الخذلان المدلول عليه بقوله (وان يخذلكم) أو إلى الله ، ومن علم أنه لاناصر له إلا الله سبحانه وان من نصره الله لاغالب له ، ومن خذله لاناصر له ، فوّض أموره اليه وتوكل عليه ولم يشتغل بغيره ، وتقديم الجار والمجرور على الفعل فى قوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) لافادة قصره عليه * قوله (وما كان لنبىء أن يغلّ) أى ماصح له ذلك لتنافى الغلول والنبوّة . قال أبو عبيد الغلول من المغنم خاصة ، ولا نراه من الخيانة ولا من الحقد ، ومما يبين ذلك أنه يقال من الخيانة أغلّ يغلّ ، ومن الحقد غلّ يغلّ بالكسر ، ومن الغلول غلّ يغلّ بالضم ، يقال غلّ المغنم غلولا ، أى خان بأن يأخذ لنفسه شيئا يستره على أصحابه ، فمعنى الآية على القراءة بالبناء للفاعل ماصح لنبىّ أن يخون شيئا من المغنم فيأخذه لنفسه من غير اطلاع أصحابه * وفيه تنزيه الأنبياء عن الغلول ، ومعناها على القراءة بالبناء للمفعول ماصح لنبىّ أن يغله

أحد

أحد من أصحابه ، أى يخونه فى الغنيمة ، وهو على هذه القراءة الأخرى نهى للناس عن الغلول فى المغانم ، وإنما خص خيانة الأنبياء مع كون خيانة غيرهم من الأئمة والسلاطين والأمراء حراما ، لأن خيانة الأنبياء أشدّ ذنبا وأعظم وزرا (ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة) أى يأت به حاملا له على ظهره كما صح ذلك عن النبى ﷺ فيفضحه بين الخلائق ، وهذه الجملة تتضمن تأكيد تحريم الغلول والتنفير منه بأنه ذنب يختص فاعله بعقوبة على رءوس الأشهاد يطلع عليها أهل المحشر وهى مجيئه يوم القيامة بما غله حاملا له قبل أن يحاسب عليه و يعاقب عليه * قوله (ثم توفى كل نفس ما كسبت) أى تعطى جزاء ما كسبت وافيا من خير وشرّ ، وهذه الآية تمّ كل من كسب خيرا أو شرا ، ويدخل تحتها الغالّ دخولا أوّليا لكون السياق فيه * قوله (أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله) الاستفهام للانكار ، أى ليس من اتبع رضوان الله فى أوامره ونواهيه فعمل بأمره واجتنب نهيه كمن باء ، أى رجع بسخط عظيم كائن من الله بسبب مخالفته لما أمر به ونهى عنه ، ويدخل تحت ذلك من اتبع رضوان الله بترك الغلول واجتنابه ومن باء بسخط من الله بسبب إقدامه على الغلول ، ثم أوضح ما بين الطائفتين من التفاوت فقال (هم درجات عند الله) أى متفاوتون فى الدرجات * والمعنى هم ذوو درجات ، أولهم درجات ، فدرجات من اتبع رضوان الله ليست كدرجات من باء بسخط من الله ، فان الأوّلين فى أرفع الدرجات ، والآخرين فى أسفلها * قوله (لقد منّ الله على المؤمنين) جواب قسم محذوف ، وخص المؤمنين لكونهم المنتفعين ببعثته * ومعنى (من أنفسهم) أنه عربىّ مثلهم ، وقيل بشر مثلهم ، ووجه المنة على الأوّل أنهم يفقهون عنه ويفهمون كلامه ولا يحتاجون إلى ترجمان * ومعناها على الثانى أنهم يأنسون به بجامع البشرية ، ولو كان ملكا لم يحصل كمال الأنس به لاختلاف الجنسية ، وقرئ (من أنفسهم) بفتح الفاء ، أى من أشرفهم ، لأنه من بنى هاشم ، وبنو هاشم أفضل قريش ، وقريش أفضل العرب ، والعرب أفضل من غيرهم ، ولعلّ وجه الامتنان على هذه القراءة أنه لما كان من أشرفهم كانوا أطوع له وأقرب الى تصديقه ، ولابدّ من تخصيص المؤمنين فى هذه الآية بالعرب على الوجه الأوّل ، وأما على الوجه الثانى فلا حاجة إلى هذا التخصيص ، وكذا على قراءة من قرأ بفتح الفاء لاحاجة إلى التخصيص ، لأن بنى هاشم هم أنفس العرب والعجم فى شرف الأصل وكرم النجار ، ورفاعة المحتد ، ويدل على الوجه الأوّل قوله تعالى - هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم - وقوله - وانه لذكر لك ولقومك - * قوله (يتلو عليهم آياته) هذه منة ثانية ، أى يتلو عليهم القرآن بعد أن كانوا أهل جاهلية لايعرفون شيئا من الشرائع (ويزكيهم) أى يطهرهم من نجاسة الكفر ، وهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى ، وهما فى محل نصب على الحال ، أوصفة لرسول ، وهكذا قوله (ويعلمهم الكتاب) ، والمراد بالكتاب هنا القرآن * والحكمة : السنة . وقد تقدّم فى البقرة تفسير ذلك (وان كانوا من قبل) أى من قبل محمد ، أو من قبل بعثته (لفى ضلال مبين) أى واضح لاريب فيه ، واللام للفرق بين إن المخففة من الثقيلة ، وبين النافية ، فهى تدخل فى خبر المخففة لاالنافية ، واسمها ضمير الشأن ، أى وان الشأن والحديث ، وقيل انها النافية ، واللام بمعنى إلا ، أى وما كانوا من قبل إلا فى ضلال مبين ، وبه قال الكوفيون والجملة على التقديرين فى محل نصب على الحال .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله تعالى (وقالوا لاخوانهم إذا ضربوا فى الأرض) الآية قال هذا قول عبدالله بن أبىّ ابن سلول والمنافقين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم) قال يحزنهم قولهم ولا ينفعهم شيئا . وأخرجوا عن قتادة فى

قوله (فبما رحمة من الله) يقول فبرحمة من الله (لنت لهم) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (لانفضوا من حولك) قال لانصرفوا عنك . وأخرج ابن عدىّ والبيهقى فى الشعب . قال السيوطى بسند حسن عن ابن عباس : قال لما نزلت (وشاورهم فى الأمر) قال رسول الله ﷺ « أما ان الله ورسوله لغنيان عنها ولكنّ الله جعلها رحمة لأمتى فمن استشار منهم لم يعدم رشدا ، ومن تركها لم يعدم غيا » . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس (وشاورهم فى الأمر) . قال أبو بكر وعمر . وأخرج ابن مردويه عن علىّ قال سئل رسول الله ﷺ عن العزم : فقال مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم . وأخرج عبد بن حميد وأبوداود والترمذى وحسنه وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : قال نزلت هذه الآية (وما كان لنبى أن يغلّ) فى قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر . فقال بعض الناس لعلّ رسول الله ﷺ أخذها فنزلت . وأخرج البزار وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن عباس (وما كان لنبىّ أن يغلّ) قال ما كان لنبىّ أن يتهمه أصحابه . وقد ورد فى تحريم الغلول أحاديث كثيرة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس (هم درجات عند الله) يقول بأعمالهم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى شعب الايمان عن عائشة فى قوله (لقد منّ الله على المؤمنين) الآية قالت هذه للعرب خاصة .

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *

قوله (أولما أصابتكم مصيبة) الألف للاستفهام بقصد التقريع ، والواو للعطف * والمصيبة : الغلبة والقتل الذى أصيبوا به يوم أحد (قد أصبتم مثليها) يوم بدر ، وذلك أن الذين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعون . وقد كانوا قتلوا من المشركين يوم بدر سبعين وأسروا سبعين ، فكان مجموع القتلى ، والأسرى يوم بدر مثلى القتلى من المسلمين يوم أحد * والمعنى أحين أصابكم من المشركين نصف ما أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم وقلتم من أين أصابنا هذا ؟ وقد وعدنا بالنصر * وقوله (أنى هذا) أى من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل ، ونحن نقاتل فى سبيل الله ، ومعنا رسول الله ﷺ وقد وعدنا الله بالنصر عليهم * وقوله (قل هو من عند أنفسكم) أمر لرسول الله ﷺ بأن يجيب عن سؤالهم بهذا الجواب ، أى هذا الذى سألتم عنه هو من عند أنفسكم بسبب مخالفة الرماة لما أمرهم به النبى ﷺ من لزوم المكان الذى عينه لهم ، وعدم مفارقتهم له على كل حال ، وقيل ان المراد بقوله (هو من عند أنفسكم) خروجهم من المدينة ، ويردّه أن الوعد بالنصر انما كان بعد ذلك ، وقيل هو اختيارهم الفداء يوم بدر على القتل و (يوم التقى الجمعان) يوم أحد ، أى ما أصابكم يوم أحد من القتل والجرح والهزيمة (فباذن الله) فبعلمه ، وقيل بقضائه وقدره ، وقيل بتخليته بينكم و بينهم ، والفاء دخلت فى جواب الموصول لكونه يشبه الشرط كما قال سيبويه * وقوله (وليعلم المؤمنين) عطف على قوله (فباذن الله) عطف سبب على

سبب * وقوله (وليعلم الذين نافقوا) عطف على ماقبله ، قيل أعاد الفعل لقصد تشريف المؤمنين عن أن يكون الفعل المسند اليهم والى المنافقين واحدا * والمراد بالعلم هنا التميز والاظهار ، لأن علمه تعالى ثابت قبل ذلك * والمراد بالمنافقين هنا عبد الله بن أبيّ وأصحابه * قوله (وقيل لهم) هو معطوف على قوله (نافقوا) أى ليعلم الله الذين نافقوا والذين قيل لهم ، وقيل هو كلام مبتدأ ، أى قيل لعبدالله بن أبيّ وأصحابه (تعالوا قاتلوا فى سبيل الله) ان كنتم ممن يؤمن بالله واليوم الآخر (أو ادفعوا) عن أنفسكم ان كنتم لا تؤمنون بالله واليوم الآخر ، فأبوا جميع ذلك وقالوا لو نعلم أنه سيكون قتال لاتبعناكم وقاتلنا معكم ولكنه لاقتال هنالك ، وقيل المعنى لو كنا نقدر على القتال ونحسنه لاتبعناكم ولكنا لانقدر على ذلك ولا نحسنه ، وعبر عن نفى القدرة على القتال بنفى العلم به ، لكونها مستلزمة له ، وفيه بعد لاملجئ اليه ، وقيل معناه لو نعلم مايصح أن يسمى قتالا لاتبعناكم ، ولكن ما أنتم بصدده ليس بقتال ، ولكنه إلقاء بالنفس إلى التهلكة ، لعدم القدرة منا ومنكم على دفع ما ورد من الجيش بالبروز اليهم والخروج من المدينة ، وهذا أيضا فيه بعد دون بعد ماقبله ، وقيل معنى الدفع هنا تكثير سواد المسلمين ، وقيل معناه رابطوا ، والقائل للمنافقين هذه المقالة التى حكاها الله سبحانه هو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارىّ والد جابر بن عبد الله * قوله (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان) أى هم فى هذا اليوم الذى انخذلوا فيه عن المؤمنين الى الكفر أقرب منهم إلى الايمان عند من كان يظن أنهم مسلمون ، لأنهم قد بينوا حالهم وهتكوا أستارهم وكشفوا عن نفاقهم إذ ذاك ، وقيل المعنى أنهم لأهل الكفر يومئذ أقرب نصرة منهم لأهل الايمان * قوله (يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم) جملة مستأنفة مقررة لمضمون ماتقدمها ، أى انهم أظهروا الايمان وأبطنوا الكفر ، وذكر الأفواه للتأكيد ، مثل قوله – يطير بجناحيه – * قوله (الذين قالوا لاخوانهم) الخ أى هم الذين قالوا لاخوانهم على أنه خبر مبتدا محذوف ، ويجوز أن يكون بدلا من واو يكتمون ، أو منصوبا على الذم ، أو وصف للذين نافقوا . وقد تقدم معنى (قالوا لاخوانهم) أى قالوا لهم ذلك ، والحال أن هؤلاء القائلين قد قعدوا عن القتال (لو أطاعونا) بترك الخروج من المدينة ماقتلوا ، فردّ الله ذلك عليهم بقوله (قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) والدرء : الدفع ، أى لا ينفع الحذر من القدر فان المقتول يقتل بأجله .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (أو لما أصابتكم مصيبة) الآية ، يقول انكم قد أصبتم من المشركين يوم بدر مثلى ما أصابوا منكم يوم أحد ، وقد بين هذا عكرمة ، فأخرج ابن جرير عنه قال : قتل المسلمون من المشركين يوم بدر سبعين وأسروا سبعين ، وقتل المشركون يوم أحد من المسلمين سبعين . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال : لما رأوا من قتل منهم يوم أحد قالوا من أين هذا ؟ ما كان للكفار أن يقتلوا منا ، فلما رأى الله ماقالوا من ذلك ، قال الله هم بالأسرى الذين أخذتم يوم بدر . فردّهم الله بذلك وعجل لهم عقوبة ذلك فى الدنيا ليسلموا منها فى الآخرة ، ويؤيد هذا ما أخرجه ابن أبى شيبة والترمذى وحسنه والنسائى وابن جرير وابن مردويه عن علىّ قال : جاء جبريل الى النبى ﷺ فقال يامحمد ان الله قد كره ماصنع قومك فى أخذهم الأسارى ، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين : إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم ، وبين أن يأخذوا الفداء على أن تقبل منهم عدتهم ، فدعا رسول الله ﷺ الناس ، فذكر ذلك لهم ، فقالوا يارسول الله عشائرنا واخواننا لا بل نأخذ فداءهم فنقوى به على قتال عدوّنا ويستشهد منا عدتهم ، فليس فى ذلك ما نكره ، فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا عدة أسارى أهل بدر ، وهذا الحديث فى سنن الترمذى والنسائى هو من طريق أبى داود الحفرى عن يحيى بن زكريا بن أبى زائدة عن سفيان بن سعيد عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عبيدة عن علىّ : قال الترمذى بعد إخراجه

حسن غريب لانعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة ، وروى أبو أسامة عن هشام نحوه * وروى عن ابن سيرين عن عبيدة عن النبي ﷺ مرسلا واسناد ابن جرير لهذا الحديث هكذا حدّثنا القاسم حدّثنا الحسين حدّثنا اسماعيل بن علية عن ابن عون ح قال سنيد وهو حسين ، وحدّثني حجاج عن جرير عن محمد عن عبيدة عن عليّ فذكره . وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي بكر بن أبي شيبة ، حدّثنا قراد بن نوح ، حدّثنا عكرمة بن عمار ، حدّثنا سماك الحنفي أبو زميل حدّثني ابن عباس عن عمر بن الخطاب قال لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفرّ أصحاب محمد ﷺ عنه ، وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه ، فأنزل الله عزّ وجلّ (أولما أصابتكم مصيبة) الآية . وأخرجه الامام أحمد من طريق عبد الرحمن بن غزوان وهو قراد بن نوح به ، ولكن بأطول منه ، ولكنه يشكل على حديث التخيير السابق مانزل من المعاتبة منه سبحانه وتعالى لمن أخذ الفداء بقوله ـ ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ـ وماروى من بكائه ﷺ هو وأبو بكر ندما على أخذ الفداء ، ولو كان أخذ ذلك بعد التخيير لهم من الله سبحانه لم يعاتبهم عليه ، ولاحصل ماحصل من النبي ﷺ ومن معه من الندم والحزن ، ولاصوّب النبي ﷺ رأى عمر رضى الله عنه ، حيث أشار بقتل الاسرى ، وقال مامعناه لونزلت عقوبة لم ينج منها إلا عمر ، والجميع فى كتب الحديث والسير . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (قلتم أنى هذا) ونحن مسلمون نقاتل غضبا لله وهؤلاء مشركون . فقال (قل هو من عند أنفسكم) عقوبة لكم بمعصيتكم النبي ﷺ حين قال لاتتبعوهم . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله (أو ادفعوا) قال كثروا بأنفسكم وان لم تقاتلوا . وأخرج أيضا عن الضحاك نحوه ، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عون الأنصارى فى قوله (أو ادفعوا) قال رابطوا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن شهاب وغيره : قال خرج رسول الله ﷺ الى أحد فى ألف رجل من أصحابه حتى اذا كانوا بالشوط بين أحد والمدينة انخزل عنهم عبد الله بن أبيّ بثلث الناس وقال أطاعهم وعصانى ، والله ماندرى على مانقتل أنفسنا ههنا ؟ فرجع بمن اتبعه من أهل النفاق وأهل الريب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام من بنى سلمة ، يقول ياقوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عند ماحضرهم عدوّهم : قالوا لونعلم أنكم تقاتلون ماأسلمناكم ولانرى أن يكون قتال . وأخرجه ابن اسحق قال حدّثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحسين بن عبد الرحمن بن عمر بن سعد بن معاذ وغيرهم من علمائنا فذكره ، وزاد أنهم لما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف قال : أبعدكم الله أعداء الله فسيغنى الله عنكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله (لو نعلم قتالا لاتبعناكم) قال لو نعلم أنا واجدون معكم مكان قتال لاتبعناكم .

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَٱنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَانَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ

الشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *

لما بين الله سبحانه أن ماجرى على المؤمنين يوم أحد كان امتحانا ليتميز المؤمن من المنافق ، والكاذب من الصادق بين ههنا أن من لم ينهزم وقتل فله هـذه الكرامة والنعمة ، وأن مثل هذا مما يتنافس فيه المتنافسون ، لامما يخاف ويحذر كما قالوا من حكى الله عنهم (لوكانوا عندنا ماماتوا وما قتلوا) وقالوا (لو أطاعونا ماقتلوا) فهذه الجملة مستأنفة لبيان هذا المعنى ، والخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكل أحد ، وقرئ بالياء التحتية ، أى لايحسبن حاسب

وقد اختلف أهل العلم فى الشهداء المذكورين فى هذه الآية من هم ؟ فقيل شهداء أحد ، وقيل فى شهداء بدر ، وقيل فى شهداء بئر معونة ، وعلى فرض أنها نزلت فى سبب خاص فالاعتبار بعموم اللفظ لابخصوص السبب ، ومعنى الآية عند الجمهور أنهم أحياء حياة محققة ثم اختلفوا فمنهم من يقول انها ترد اليهم أرواحهم فى قبورهم فيتنعمون . وقال مجاهد يرزقون من ثمر الجنة أى يجدون ريحها وليسوا فيها ، وذهب من عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية * والمعنى أنهم فى حكم الله مستحقون للتنعم فى الجنة ، والصحيح الأول ولاموجب للمصير الى المجاز . وقد وردت السنة المطهرة بأن أرواحهم فى أجواف طيور خضر ، وأنهم فى الجنة يرزقون و يأكلون و يتمتعون * وقوله (الذين قتلوا) هو المفعول الأول * والحاسب هو النبى ﷺ ، أو كل أحد كما سبق ، وقيل يجوز أن يكون الموصول هو فاعل الفعل ، والمفعول الأول محذوف ، أى لاتحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتا ، وهذا تكلف لاحاجة اليه ، ومعنى النظم القرآنى فى غاية الوضوح والجلاء * وقوله (بل أحياء) خبر مبتدأ محذوف أى بل هم أحياء وقرئ بالنصب على تقدير الفعل ، أى بل احسبهم أحياء * وقوله (عند ربهم) إما خبر ثان ، أوصفة لأحياء ، أوفى محل نصب على الحال ، قيل وفى الكلام حذف ، والتقدير عند كرامة ربهم . قال سيبويه هذه عندية الكرامة لاعندية القرب * وقوله (يرزقون) يحتمل فى إعرابه الوجوه التى ذكرناها فى قوله (عند ربهم) والمراد بالرزق هنا هو الرزق المعروف فى العادات على ماذهب اليه الجمهور كما سلف ، وعند من عدا الجمهور المراد به الثناء الجميل ، ولا وجـه يقتضى تحريف الكلمات العربية فى كتاب الله تعالى وحملها على مجازات بعيدة ، لالسبب يقتضى ذلك * وقوله (فرحين) حال من الضمير فى يرزقون ، و بما آتاهم الله من فضله متعلق به ، وقرأ ابن السميفع فارحين ، وهما لغتان كالفره والفاره ، والحذر والحاذر * والمراد (بما آتاهم الله) ماساقه الله إليهم من الكرامة بالشهادة ، وما صاروا فيه من الحياة ، ومايصل اليهم من رزق الله سبحانه ، (و يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم) من اخوانهم المجاهدين الذين لم يقتلوا اذ ذاك * فالمراد باللحوق هنا أنهم لم يلحقوا بهم فى القتل والشهادة ، بل سيلحقون بهم من بعـد ، وقيل المراد لم يلحقوا بهم فى الفضل وان كانوا أهل فضل فى الجملة ، والواو فى (و يستبشرون) عاطفة على (يرزقون) أى يرزقون و يستبشرون وقيل المراد باخوانهم هنا جميع المسلمين الشهداء وغيرهم ، لأنهم لما عاينوا ثواب الله وحصل لهم اليقين بحقية دين الاسلام استبشروا بذلك لجميع أهل الاسلام الذين هم أحياء لم يموتوا وهـذا أقوى ، لأن معناه أوسع وفائدته أكثر ، واللفظ يحتمله بل هو الظاهر ، و به قال الزجاج وابن فورك * وقوله (ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون) بدل من الذين ، أى يستبشرون بهذه الحالة الحاصلة لاخوانهم من أنه لاخوف عليهم ولا حزن ، وأن هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن المحذوف ، وكرر قوله (يستبشرون) لتأكيد الأول ، ولبيان أن الاستبشار ليس لمجرد عدم الخوف والحزن ، بل به و بنعمة الله وفضله * والنعمة : ماينعم الله به على عباده * والفضل : مايتفضل به عليهم ، وقيل النعمة : الثواب ، والفضل الزائد ، وقيل النعمة الجنة ،

والفضل داخل فى النعمة ، ذكر بعدها للتأكيدها ، وقيل ان الاستبشار الأوّل متعلق بحال إخوانهم ، والاستبشار الثانى بحال أنفسهم * قوله (وأن الله لايضيع أجر المؤمنين) قرأ الكسائى بكسر الهمزة من أن ، وقرأ الباقون بفتحها ، فعلى القراءة الأولى هو مستأنف اعتراض ، وفيه دلالة على أن الله لايضيع أجر شىء من أعمال المؤمنين ، ويؤيده قراءة ابن مسعود والله لايضيع أجر المؤمنين ، وعلى القراءة الثانية الجملة عطف على فضل داخلة فى جملة مايستبشرون به * وقوله (الذين استجابوا) صفة للمؤمنين ، أو بدل منهم ، أو من الذين لم يلحقوا بهم ، أوهو مبتدأ خبره (للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) بجملته ، أومنصوب على المدح . وقد تقدّم تفسير القرح * قوله (الذين قال لهم الناس) المراد بالناس هنا نعيم بن مسعود كما سيأتى بيانه ، وجاز إطلاق لفظ الناس عليه لكونه من جنسهم ، وقيل المراد بالناس ركب عبد القيس الذين مروا بأبى سفيان ، وقيل هم المنافقون * والمراد بقوله (ان الناس قد جمعوا لكم) أبو سفيان وأصحابه ، والضمير فى قوله (فزادهم) راجع إلى القول المدلول عليه ، بقال أو إلى المقول ، وهو (ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) أو إلى القائل * والمعنى أنهم لم يفشلوا لما سمعوا ذلك ولا التفتوا إليه بل أخلصوا لله وازدادوا طمأنينة ويقينا ، وفيه دليل على ان الايمان يزيد وينقص * قوله (وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) حسب مصدر حسبه ، أى كفاه وهو بمعنى الفاعل ، أى محسب بمعنى كافى . قال فى الكشاف : والدليل على أنه بمعنى المحسب أنك تقول هذا رجل حسبك فتصف به النكرة ، لأن اضافته لكونه بمعنى اسم الفاعل غير حقيقية انتهى * والوكيل هو من توكل اليه الأمور ، أى نعم الموكول اليه أمرنا ، أوالكافى ، أوالكافل والمخصوص بالمدح محذوف ، أى نعم الوكيل الله سبحانه * قوله (فانقلبوا) هومعطوف على محذوف ، أى فخرجوا اليهم فانقلبوا بنعمة هومتعلق بمحذوف وقع حالا ، والتنوين للتعظيم ، أى رجعوا متلبسين (بنعمة) عظيمة وهى السلامة من عدوّهم وعافية (وفضل) ، أى أجر تفضل الله به عليهم ، وقيل ربح فى التجارة ، وقيل النعمة خاصة بمنافع الدنيا ، والفضل بمنافع الآخرة ، وقد تقدّم تفسيرهما قريبا بما يناسب ذلك المقام لكون الكلام فيه مع الشهداء الذين قد صاروا فى الدار الآخرة ، والكلام هنا مع الأحياء * قوله (لم يمسسهم سوء) فى محل نصب على الحال : أى سالمين عن سوء لم يصبهم قتل ولا جرح ولا مايخافونه (واتبعوا رضوان الله) فى مايأتون ويذرون ، ومن ذلك خروجهم لهذه الغزوة (والله ذو فضل عظيم) لايقادر قدره ولايبلغ مداه ، ومن تفضله عليهم تثبيتهم وخروجهم للقاء عدوّهم وارشادهم الى أن يقولوا هذه المقالة التى هى جالبة لكل خير ودافعة لكل شر * قوله (انما ذلكم) أى المثبط لكم أيها المؤمنون (الشيطان) هوخبر اسم الاشارة ويجوز أن يكون الشيطان صفة لاسم الاشارة ، والخبر قوله (يخوّف أولياءه) فعلى الأوّل يكون قوله (يخوّف أولياءه) جملة مستأنفة أو حالية ، والظاهر أن المراد هنا الشيطان نفسه باعتبار مايصدر منه من الوسوسة المقتضية للتثبيط ، وقيل المراد به نعيم بن مسعود لما قال لهم تلك المقالة ، وقيل أبوسفيان لما صدر منه الوعيد لهم * والمعنى أن الشيطان يخوّف المؤمنين أولياءه وهم الكافرون ، وقيل ان قوله (أولياءه) منصوب بنزع الخافض ، أى يخوّفكم بأوليائه أومن أوليائه ، قاله الفراء والزجاج وابو على الفارسى ، وردّه ابن الأنبارى بأن التخويف قد يتعدى بنفسه الى مفعولين : فلا ضرورة الى اضمار حرف الجر ، وعلى قول الفراء ومن معه يكون مفعول يخوّف محذوفا ، أى يخوّفكم ، وعلى الأول يكون المفعول الأوّل محذوفا والثانى مذكورا ويجوز أن يكون المراد أن الشيطان يخوّف أولياءه وهم القاعدون من المنافقين فلاحذف * قوله (فلاتخافوهم) أى أولياءه الذين يخوّفكم بهم الشيطان ، أوفلاتخافوا الناس المذكورين فى قوله (ان الناس قد جمعوا لكم) نهاهم سبحانه عن أن يخافوهم فيجبنوا عن اللقاء ويفشلوا عن الخروج ، وأمرهم بأن يخافوه سبحانه فقال : (وخافون) فافعلوا ما آمركم به واتركوا ما أنهاكم عنه لأنى الحقيق بالخوف منى ، والمراقبة لأمرى ونهى

لكون الخير والشر بيدى وقيده بقوله (ان كنتم مؤمنين) لأن الايمان يقتضى ذلك .
وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله) فى حمزة وأصحابه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن أبى الضحى أنها نزلت فى قتلى أحد وحمزة منهم . وأخرج عبد بن حميد وأبوداود وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس . قال قال رسول الله ﷺ «لما أصيب اخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى الى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا ياليت اخواننا يعلمون ماصنع الله لنا » ، وفى لفظ قالوا من يبلغ إخواننا أنا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد ولاينكلوا عن الحرب ، فقال الله أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هؤلاء الآيات (ولاتحسبن الذين قتلوا) الآية ومابعدها . وأخرج الترمذى وحسنه وابن ماجه وابن خزيمة والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله أن أباه سأل الله سبحانه أن يبلغ من وراءه ماهو فيه ، فنزلت هذه الآية وهو من قتلى أحد ، وقد روى من وجوه كثيرة أن سبب نزول الآية قتلى أحد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أنس أن سبب نزول هذه الآية قتلى بئر معونة ، وعلى كل حال فالآية باعتبار عموم لفظها يدخل تحتها كل شهيد ، وقد ثبت فى أحاديث كثيرة فى الصحيح وغيره أن أرواح الشهداء فى أجواف طيور خضر ، وثبت فى فضل الشهداء مايطول تعداده ويكثر ايراده مما هو معروف فى كتب الحديث . وأخرج النسائى وابن ماجه وابن أبى حاتم والطبرانى بسند صحيح عن ابن عباس قال : لما رجع المشركون عن أحد قالوا لامحمدا قتلتم ولا الكواعب أردفتم بئس ماصنعتم ارجعوا ، فسمع رسول الله ﷺ بذلك فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد ، أو بئر أبى عتبة ، شك سفيان ، فقال المشركون يرجع من قابل فرجع رسول الله ﷺ فكانت تعد غزوة ، فأنزل الله سبحانه (الذين استجابوا لله والرسول) الآية . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة فى قوله تعالى (الذين استجابوا لله والرسول) الآية انها قالت لعروة بن الزبير يابن أختى كان أبواك منهم : الزبير وأبو بكر لما أصاب نبى الله ﷺ ماأصاب يوم أحد انصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا ، فقال من يرجع فى أثرهم فانتدب منهم سبعون فيهم أبو بكر والزبير : وأخرج ابن اسحق وابن جرير والبيهقى فى الدلائل عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال خرج رسول الله ﷺ بحمراء الأسد ، وقد أجمع أبوسفيان بالرجعة الى رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا رجعنا قبل أن نستأصلهم لنكرن على بقيتهم ، فبلغه أن النبى ﷺ خرج فى أصحابه يطلبهم فثنى ذلك أبا سفيان وأصحابه ، ومر ركب من عبد القيس ، فقال لهم أبوسفيان بلغوا محمدا أنا قد أجمعنا الرجعة على أصحابه لنستأصلهم . فلما مر الركب برسول الله ﷺ بحمراء الأسد أخبروه بالذى قال أبوسفيان ، فقال رسول الله ﷺ والمسلمون معه : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فأنزل الله فى ذلك (الذين استجابوا لله والرسول) الآيات . وأخرج موسى بن عقبة فى مغازيه والبيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب قال : ان رسول الله ﷺ استنفر المسلمين لموعد أبى سفيان بدرا ، فاحتمل الشيطان أولياءه من الناس فمشوا فى الناس يخوفونهم ، وقالوا انا قد أخبرنا أن قد جمعوا لكم من الناس مثل الليل يرجون أن يواقعوكم ، والروايات فى هذا الباب كثيرة قد اشتملت عليها كتب الحديث والسير . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : القرح الجراحات . وأخرج ابن جرير عن السدى أن أباسفيان وأصحابه لقوا أعرابيا فجعلوا له جعلا على أن يخبر النبى ﷺ وأصحابه أنهم قد جمعوا لهم ، فأخبر النبى ﷺ بذلك ، فقال هو والصحابة : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ثم رجعوا من حمراء الأسد ، فأنزل الله فيهم وفى الأعرابى (الذين قال لهم الناس) الآية . وأخرج ابن مردويه عن

أبى رافع أن هذا الأعرابى من خزاعة .
وقد ورد فى فضل هذه الكلمة أعنى (حسبنا الله ونعم الوكيل) أحاديث منها ما أخرجه ابن مردويه عن أبى هريرة ، قال قال رسول الله ﷺ « اذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » قال ابن كثير بعد اخراجه : هذا حديث غريب من هذا الوجه . وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس قال قال النبى ﷺ « حسبى الله ونعم الوكيل » أمان كل خائف . وأخرج ابن أبى الدنيا فى الذكر عن عائشة « أن النبى ﷺ كان اذا اشتد غمه مسح بيده على رأسه ولحيته ثم تنفس الصعداء وقال حسبى الله ونعم الوكيل » . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها ابراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد حين قالوا (ان الناس قد جمعوا لكم) . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى عن عوف بن مالك أنه حدثهم «أن النبى ﷺ قضى بين رجلين ، فقال المقضىّ عليه لما أدبر : حسبى الله ونعم الوكيل ، فقال رسول الله ﷺ ردّوا علىّ الرجل فقال ماقلت ، قال قلت : حسبى الله ونعم الوكيل فقال رسول الله ﷺ « ان الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس ، فاذا غلبك أمر فقل حسبى الله ونعم الوكيل» . وأخرج أحمد عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ « كيف أنتم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته يسمع متى يؤمر فينفخ ، ثم أمر الصحابة أن يقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا » وهو حديث جيد . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل) قال النعمة أنهم سلموا ، والفضل أن عيرا مرّت ، وكان فى أيام الموسم فاشتراها رسول الله ﷺ فربح مالا فقسمه بين أصحابه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال الفضل ماأصابوا من التجارة والأجر . وأخرج ابن جرير عن السدى قال : أما النعمة فهى العافية ، وأما الفضل فالتجارة ، والسوء : القتل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (لم يمسسهم سوء) قال لم يؤذهم أحد (واتبعوا رضوان الله) قال : أطاعوا الله ورسوله . وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عنه فى قوله (انما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه) قال يقول الشيطان يخوّف بأوليائه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى مالك قال يعظم أولياءه فى أعينكم . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة مثل قول ابن عباس . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن انما كان ذلك تخويف الشيطان ولا يخاف الشيطان الاولىّ الشيطان .

وَلَا يَحْزُنْكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ *

قوله

قوله (ولايحزنك) قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى ، وقرأ ابن محيصن بضم الياء والزاى ، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الزاى ، وهما لغتان ، يقال : حزننى الأمر وأحزننى ، والأولى أفصح . وقرأطلحة يسرعون ، قيل هم قوم ارتدّوا فاغتمّ النبى ﷺ لذلك ، فسلاه الله سبحانه ونهاه عن الحزن ، وعلل ذلك بأنهم لن يضروا الله شيئا ، وانما ضروا أنفسهم بأن لاحظ لهم فى الآخرة ولهم عذاب عظيم ، وقيل هم كفار قريش ، وقيل هم المنافقون ، وقيل هو عام فى جميع الكفار : قال القشيرى والحزن على كفر الكافر طاعة ، ولكن النبى ﷺ كان يفرط فى الحزن ، فنهى عن ذلك كما قال الله تعالى — فلا تذهب نفسك عليهم حسرات — فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا — وعدّ السارعون بفى دون الى للدلالة على أنهم مستقرّون فيه مديمون لملابسته ، ومثله يسارعون فى الخيرات * وقوله (انهم لن يضروا الله شيئا) تعليل للنهى ، والمعنى أن كفرهم لاينقص من ملك الله سبحانه شيئا ، وقيل المراد لن يضروا أولياءه ، ويحتمل أن يراد لن يضروا دينه الذى شرعه لعباده ، وشيئا منصوب على المصدرية ، أى شيئا من الضرر وقيل منصوب بنزع الخافض ، أى بشىء * والحظ : النصيب ، قال أبوزيد يقال رجل حظيظ اذا كان ذا حظ من الرزق * والمعنى أن الله يريد أن لايجعل لهم نصيبا فى الجنة أو نصيبا من الثواب ، وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام الارادة واستمرارها (ولهم عذاب عظيم) بسبب مسارعتهم فى الكفر ، فكان ضرر كفرهم عائدا عليهم جالبا لهم عدم الحظ فى الآخرة ومصيرهم فى العذاب العظيم * قوله (إن الذين اشتروا الكفر بالايمان) أى استبدلوا الكفر بالايمان ، وقد تقدم تحقيق هذه الاستعارة (لن يضروا الله شيئا) معناه كالأوّل وهو للتأكيد لما تقدمه ، وقيل ان الأوّل خاص بالمنافقين ، والثانى يعمّ جميع الكفار ، والأوّل أولى * قوله (ولايحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم) قرأ ابن عامر وعاصم وغيرهما (يحسبن) بالياء التحتية وقرأ حمزة بالفوقية ، والمعنى على الأولى (لايحسبن الكافرون أنما نملى لهم) بطول العمر ورغد العيش أو بما أصابوا من الظفر يوم أحد (خير لأنفسهم) فليس الأمر كذلك بل (انما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين) وعلى القراءة الثانية لاتحسبن يامحمد أن الاملاء للذين كفروا بما ذكر خير لأنفسهم ، بل هو شر واقع عليهم ونازل بهم ، وهو أن الاملاء الذى نمليه لهم ليزدادوا إثما ، فالموصول على القراءة الأولى فاعل الفعل ، وأنما نملى وما بعده سادّ مسدّ مفعولى الحسبان عند سيبويه ، أو سادّ مسدّ أحدهما ، والآخر محذوف عند الأخفش ، وأما على القراءة الثانية فقال الزجاج ان الموصول هو المفعول الأوّل ، وأنما ومابعدها بدل من الموصول سادّ مسدّ المفعولين ولايصح أن يكون أنما ومابعده هو المفعول الثانى ، لأن المفعول الثانى فى هذا الباب هو الأوّل فى المعنى ، وقال أبو علىّ الفارسى لوصح هذا لكان خيرا بالنصب لأنه يصير بدلا من الذين كفروا ، فكأنه قال لاتحسبنّ إملاء الذين كفروا خيرا . وقال الكسائى والفراء انه يقدّر تكرير الفعل كأنه قال ولاتحسبنّ الذين كفروا ولاتحسبن أنما نملى لهم فسدّت مسدّ المفعولين . وقال فى الكشاف ، فان قلت كيف صح مجىء البدل ولم يذكر إلا أحد المفعولين ، ولايجوز الاقتصار بفعل الحسبان على مفعول واحد * قلت صح ذلك من حيث ان التعويل على البدل والمبدل منه فى حكم المنحى ، ألاتراك تقول جعلت متاعك بعضه فوق بعض مع امتناع سكوتك على متاعك انتهى . وقرأ يحيى بن وثاب (إنما نملى) بكسر إن فيهما وهى قراءة ضعيفة باعتبار العربية * وقوله (إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) جملة مستأنفة مبينة لوجه الاملاء للكافرين . وقد احتج الجمهور بهذه الآية على بطلان ماتقوله المعتزلة ، لأنه سبحانه أخبر بأنه يطيل أعمار الكفار ويجعل عيشهم رغدا ليزدادوا إثما . قال أبوحاتم وسمعت الأخفش يذكر كسر (إنما نملى) الأولى وفتح الثانية ، ويحتج بذلك لأهل القدر لأنه منهم ، ويجعله على هذا التقدير ولا يحسبنّ الذين كفروا أنما نملى لهم ليزدادوا إثما إنما نملى لهم خير

لأنفسهم . وقال فى الكشاف ان ازدياد الاثم علة ، وما كل علة بعرض ألا تراك تقول : قعدت عن الغزو للعجز والفاقة ، وخرجت من البلد لمخافة الشر وليس شىء يعرض لك وانما هى علل وأسباب * قوله (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه) كلام مستأنف ، والخطاب عند جمهور المفسرين للكفار والمنافقين ، أى ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر والنفاق (حتى يميز الخبيث من الطيب) وقيل الخطاب للمؤمنين والمنافقين ، أى ما كان الله ليترككم على الحال التى أنتم عليه من الاختلاط حتى يميز بعضكم من بعض ، وقيل الخطاب للمشركين * والمراد بالمؤمنين من فى الأصلاب والأرحام ، أى ما كان الله ليذر أولادكم على ما أنتم عليه حتى يفرّق بينكم و بينهم ، وقيل الخطاب للمؤمنين ، أى ما كان الله ليذركم يامعشر المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط بالمنافقين حتى يميز بينكم ، وعلى هذا الوجه ، والوجه الثانى يكون فى الكلام التفات . وقرىء (يميز) بالتشديد للمخفف ، من ماز الشىء يميزه ميزا : إذا فرّق بين شيئين ، فان كانت أشياء قيل ميزه تمييزا (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) حتى تميزوا بين الطيب والخبيث فانه المستأثر بعلم الغيب لايظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول من رسله يجتبيه فيطلعه على شىء من غيبه فيميز بينكم كما وقع من نبينا ﷺ من تعيين كثير من المنافقين ، فان ذلك كان بتعليم الله له ، لا بكونه يعلم الغيب ، وقيل المعنى وما كان الله ليطلعكم على الغيب فى من يستحق النبوّة ، حتى يكون الوحى باختياركم (ولكنّ الله يجتبى) أى يختار (من رسله من يشاء) * قوله (فآمنوا بالله ورسله) أى افعلوا الايمان المطلوب منكم ودعوا الاشتغال بما ليس من شأنكم من التطلع لعلم الله سبحانه (وان تؤمنوا) بما ذكر (وتتقوا فلكم) عوضا عن ذلك (أجر عظيم) لا يعرف قدره ولا يبلغ كنهه * قوله (ولا يحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم) الموصول فى محل رفع على أنه فاعل الفعل على قراءة من قرأ بالياء التحتية ، والمفعول الأوّل محذوف ، أى لايحسبنّ الباخلون البخل خيرا لهم . قاله الخليل وسيبويه والفراء ، قالوا و إنما حذف لدلالة يبخلون عليه ، ومن ذلك قول الشاعر :

إذا نهى السفيه جرى إليه * وخالف والسفيه إلى خلاف

أى جرى إلى السفه ، فالسفيه دلّ على السفه ، وأما على قراءة من قرأ بالفوقية فالفعل مسند إلى النبى ﷺ والمفعول الأوّل محذوف ، أى لاتحسبنّ يامحمد بخل الذين يبخلون خيرا لهم . قال الزجاج هو مثل ـ واسأل القرية ـ والضمير المذكور هو ضمير الفصل . قال المبرد والسين فى قوله (سيطوّقون ما بخلوا به) سين الوعيد ، وهذه الجملة مبينة لمعنى قوله (بل هو شرّ لهم) قيل ومعنى التطويق هنا أنه يكون ما بخلوا به من المال طوقا من نار فى أعناقهم ، وقيل معناه أنه سيحملون عقاب ما بخلوا به فهو من الطاقة وليس من التطويق ، وقيل : المعنى أنهم يلزمون أعمالهم كما يلزم الطوق العنق ، يقال طوّق فلان عمله طوق الحمامة ، أى ألزم جزاء عمله ، وقيل ان مالم تؤدّ زكاته من المال يمثل له شجاعا أقرع حتى يطوّق به فى عنقه كما ورد ذلك مرفوعا إلى النبى ﷺ . قال القرطبى : والبخل فى اللغة أن يمنع الانسان الحق الواجب ، فأما من منع مالا يجب عليه فليس ببخيل * قوله (ولله ميراث السموات والأرض) أى له وحده لا لغيره كما يفيده التقديم * والمعنى أن له ما فيهما مما يتوارثه أهلها فما بالهم يبخلون بذلك ولا ينفقونه وهو لله سبحانه لا لهم وانما كان عندهم عارية مستردّة ، ومثل هذه الآية قوله تعالى ـ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها ـ وقوله ـ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ـ * والميراث فى الأصل هو ما يخرج من مالك إلى آخر ولم يكن مملوكا لذلك الآخر قبل انتقاله اليه بالميراث ، ومعلوم أن الله سبحانه هو المالك بالحقيقة لجميع مخلوقاته .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد إن الذين اشتروا الكفر بالايمان : قال هم المنافقون .

واخرج

وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه عن ابن مسعود : قال مامن نفس برّة ولا فاجرة إلا والموت خير لها من الحياة ان كان برّا فقد قال الله ــ وماعند الله خير للأبرار ــ وان كان فاجرا فقد قال (ولا يحسبن الذين كفروا) الآية . وأخرج سعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبى الدرداء نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن محمد بن كعب نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن أبى برزة أيضا نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى قال : قالوا ان كان محمدصادقا فليخبرنا بمن يؤمن به منا ومن يكفر ، فأنزل الله (ما كان الله ليذر المؤمنين) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : قال يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة : قال يميز بينهم فى الجهاد والهجرة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) قال ولا يطلع على الغيب إلا رسول . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد (ولكنّ الله يجتبى) قال يختص . وأخرج ابن أبى حاتم عن مالك قال يستخلص . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولا يحسبنّ الذين يبخلون) قال هم أهل الكتاب بخلوا أن يبينوه للناس . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال هم يهود . وأخرج ابن جرير عن السدّى قال بخلوا أن ينفقوها فى سبيل الله لم يؤدّوا زكاتها . وأخرج البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « من آتاه الله مالا فلم يؤدّ زكاته مثل له شجاع أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمته يعنى بشدقه ، فيقول : أنامالك أنا كنزك ثم تلا هذه الآية » وقد ورد هذا المعنى فى أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة يرفعونها .

لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ *

قال أهل التفسير لما أنزل الله ــ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ــ . قال قوم من اليهود هذه المقالة تمويها على ضعفائهم لا أنهم يعتقدون ذلك ، لأنهم أهل كتاب بل أرادوا أنه تعالى ان صح ماطلبه منا من القرض على لسان محمد فهو فقير ليشككوا على إخوانهم فى دين الاسلام * وقوله (سنكتب ماقالوا) سنكتبه فى صحف الملائكة ، أو سنحفظه ، أوسنجازيهم عليه * والمراد الوعيد لهم وأن ذلك لايفوت على الله بل هو معدّ لهم ليوم الجزاء ، وجملة سنكتب على هذا مستأنفة جوابا لسؤال مقدّر ، كأنه قيل ماذا صنع الله بهؤلاء الذين سمع منهم هذا القول الشنيع ؟ فقال قال لهم (سنكتب ماقالوا) . وقرأ الأعمش وحمزة سيكتب بالمثناة التحتية مبنى للمفعول . وقرآ برفع اللام من قتلهم و يقول بالياء المثناة تحت * قوله (وقتلهم الأنبياء) عطف على ماقالوا ، أى ونكتب قتلهم الأنبياء ، أى قتل أسلافهم للأنبياء ، و إنما نسب ذلك اليهم لكونهم رضوا به ، جعل ذلك القول قرينا لقتل الأنبياء تنبيها على أنه من العظم والشناعة بمكان يعدل قتل الأنبياء * قوله (ونقول) معطوف على (سنكتب) أى ننتقم منهم بعد الكتابة بهذا القول

الذى نقوله لهم فى النار ، أوعند الموت ، أوعند الحساب * والحريق : اسم للنار الملتهبة و إطلاق الذوق على إحساس العذاب فيه مبالغة بليغة ، وقرأ ابن مسعود (و يقال ذوقوا) والاشارة بقوله (ذلك) الى العذاب المذكور قبله ، وأشار إلى القريب بالصيغة التى يشار بها إلى البعيد للدلالة على بعد منزلته فى الفظاعة ، وذكر الأيدى لكونها المباشرة لغالب المعاصى * وقوله (وأن الله ليس بظلام للعبيد) معطوف على (ماقدّمت أيديكم) ووجهه أنه سبحانه عذبهم بما أصابوا من الذنب وجازاهم على فعلهم فلم يكن ذلك ظلما ، أو بمعنى أنه مالك الملك يتصرّف فى ملكه كيف يشاء وليس بظالم لمن عذبه بذنبه ، وقيل ان وجهه أن نفى الظلم مستلزم للعدل المقتضى لاثابة المحسن ومعاقبة المسىء ، وردّ بأن ترك التعذيب مع وجود سببه ، ليس بظلم عقلا ولا شرعا ، وقيل ان جملة قوله (وأن الله ليس بظلام للعبيد) فى محل رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى والأمر أن الله ليس بظلام للعبيد ، والتعبير بذلك عن نفى الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم عند أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغا ، لبيان تنزهه عن ذلك ، ونفى ظلام المشعر بالكثرة يفيد ثبوت أصل الظلم * وأجيب عن ذلك بأن الذى توعد بأن يفعله بهم لو كان ظلما لكان عظيما فنفاه على حدّ عظمه لو كان ثابتا * قوله (الذين قالوا) هو خبر مبتدأ محذوف ، أى هم الذين قالوا ، وقيل نعت للعبيد ، وقيل منصوب على الذم ، وقيل هو فى محل جر بدل من (لقد سمع الله قول الذين قالوا) وهو ضعيف ، لأن البدل هو المقصود دون المبدل منه ، وليس الأمر كذلك هنا ، والقائلون هؤلاء هم جماعة من اليهود كما سيأتى وهذا المقول وهو أن الله عهد اليهم أن لايؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بالقربان هو من جملة دعاويهم الباطلة . وقد كان دأب بنى إسرائيل أنهم كانوا يقرّبون القربان فيقوم النبى فيدعو فتنزل نار من السماء فتحرقه ولم يتعبد الله بذلك كل أنبيائه ولا جعله دليلا على صدق دعوى النبوّة ، ولهذا ردّ الله عليهم فقال (قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات و بالذى قلتم) من القربان (فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين) كيحيى بن زكريا وشعياء وسائر من قتلوا من الأنبياء * والقربان : مايتقرّب به إلى الله من نسيكة وصدقة وعمل صالح وهو فعلان من القربة ، ثم سلى الله رسوله ﷺ بقوله (فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءو) بمثل ماجئت به من البينات * والزبر جمع زبور : وهو الكتاب . وقد تقدّم تفسيره (والكتاب المنير) الواضح الجلىّ المضىء ، يقال نار الشىء وأنار ونوّره واستناره بمعنى .

وقد أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : قل دخل أبو بكر بيت المدراس فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص وكان من علمائهم وأحبارهم ، فقال أبو بكر ويحك يافنحاص اتق الله وأسلم : فوالله انك لتعلم أن محمدا رسول الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة : فقال فنحاص والله ياأبا بكر مابنا إلى الله من فقر وانه إلينا لفقير ، وما نتضرّع إليه كما يتضرّع إلينا وانا عنه لأغنياء ، ولوكان غنيا عنا مااستقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا و يعطينا ، ولوكان غنيا عنا ماأعطانا الربا ، فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة ، وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا و بينكم لضربت عنقك ياعدوّ الله ، فذهب فنحاص الى رسول الله ﷺ فقال يامحمد : انظر ماصنع صاحبك بى ، فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر ماحملك على ماصنعت ؟ فقال يارسول الله قال قولا عظيما : يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال ، فضربت وجهه ، فجحد فنحاص ، فقال ماقلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص تصديقا لأبى بكر (لقد سمع الله قول الذين قالوا) الآية ، ونزل فى أبى بكر ومابلغه فى ذلك من الغضب (ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا) الآية . وقد أخرج هذه القصة ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة ، وأخرجها ابن جرير عن السدّى بأخصر من ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه ، والضياء فى

المختارة

المختارة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أتت اليهود محمدا ﷺ حين أنزل الله (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) فقالوا يا محمد أفقير ربك يسأل عباده القرض ، فأنزل الله الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة أن القائل لهذه المقالة حي بن أخطب وأنها نزلت فيه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن العلاء بن بدر أنه سئل عن قوله (وقتلهم الأنبياء بغير حق) وهم لم يدركوا ذلك ، قال بموالاتهم من قتل الأنبياء . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وأن الله ليس بظلام للعبيد) قال ما أنا بمعذب من لم يجترم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله (الذين قالوا ان الله عهد الينا) قال هم اليهود . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (حتى يأتينا بقربان تأكله النار) قال يتصدق الرجل منا فاذا تقبل منه أنزلت عليه نار من السماء فأكلته . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله (الذين قالوا ان الله عهد الينا) قال كذبوا على الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (بالبينات) قال الحلال والحرام (والزبر) قال كتب الأنبياء (والكتاب المنير) قال هو القرآن .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ * لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ * وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ *

قوله (ذائقة) من الذوق ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت .

من لم يمت غبطة يمت هرما * الموت كأس والمرء ذائقها

وهذه الآية تتضمن الوعد والوعيد للمصدّق والمكذب بعد اخباره عن الباخلين القائلين (إن الله فقير ونحن أغنياء) . وقرأ الأعمش ويحي بن وثاب وابن أبى اسحق (ذائقة الموت) بالتنوين ونصب الموت وقرأ الجمهور بالاضافة * قوله (وانما توفون أجوركم يوم القيامة) أجر المؤمن : الثواب ، وأجر الكافر : العقاب ، أى ان توفية الأجور ، وتكميلها انما تكون فى ذلك اليوم ، ومايقع من الأجور فى الدنيا أو فى البرزخ ، فانما هو بعض الأجور ، والزحزحة : التنحية ، والابعاد تكرير الزح : وهو الجذب بعجلة ، قاله فى الكشاف ، وقد سبق الكلام عليه ، أى فمن بعد عن النار يومئذ ونحى فقد فاز ، أى ظفر بما يريد ونجا مما يخاف ، وهذا هو الفوز الحقيقى الذى لافوز يقاربه : فان كل فوز وان كان بجميع المطالب دون الجنة ليس بشىء بالنسبة اليها .

اللهم لافوز الا فوز الآخرة ، ولا عيش الا عيشها ، ولا نعيم الا نعيمها ، فاغفر ذنوبنا ، واستر عيوبنا ، وارض عنا رضا لاسخط بعده ، واجمع لنا بين الرضا منك علينا والجنة * والمتاع ماتمتع به الانسان وينتفع به ثم يزول ولايبقى . كذا قال أكثر المفسرين * الغرور : الشيطان يغرّ الناس بالأمانى الباطلة ، والمواعيد الكاذبة ، شبه سبحانه الدنيا بالمتاع الذى يدلس به على من يريده وله ظاهر محبوب وباطن مكروه * قوله (لتبلونّ فى أموالكم وأنفسكم) هذا الخطاب للنبى ﷺ وأمته ، تسلية لهم عما سيلقونه

من الكفرة والفسقة ليوطنوا أنفسهم على الثبات والصبر على المكاره * والابتلاء الامتحان والاختبار ، والمعنى لتمتحنن ولتختبرن فى أموالكم بالمصائب والانفاقات الواجبة وسائر التكاليف الشرعية المتعلقة بالأموال ، والابتلاء فى الأنفس بالموت ، والأمراض ، وفقد الأحباب ، والقتل فى سبيل الله ، وهذه الجملة جواب قسم محذوف دلت عليه اللام الموطئة (ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) وهم اليهود والنصارى (ومن الذين أشركوا) وهم سائر الطوائف الكفرية من غير أهل الكتاب (أذى كثيرا) من الطعن فى دينكم وأعراضكم ، والاشارة بقوله (فان ذلك) الى الصبر والتقوى المدلول عليهما بالفعلين * وعزم الأمور معزوماتها : أى مما يجب عليكم أن تعزموا عليه لكونه عزمة من عزمات الله التى أوجب عليهم القيام بها ، يقال عزم الأمر : أى شدّه وأصلحه * قوله (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب) هذه الآية توبيخ لأهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى : أواليهود فقط على الخلاف فى ذلك ، والظاهر أن المراد بأهل الكتاب كل من آتاه الله علم شىء من الكتاب ، أىّ كتاب كان كما يفيده التعريف الجنسى فى الكتاب . قال الحسن وقتادة ان الآية عامة لكل عالم ، وكذا قال محمد بن كعب ، ويدل على ذلك قول أبى هريرة : لولا ماأخذ الله على أهل الكتاب ماحدّثتكم بشىء ، ثم تلا هذه الآية ، والضمير فى قوله (لتبيننه) راجع الى الكتاب ، وقيل راجع الى النبى ﷺ وان لم يتقدّم له ذكر ، لأن الله أخذ على اليهود والنصارى أن يبينوا نبوّته للناس ولايكتموها (فنبذوه وراء ظهورهم) . وقرأ أبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر وأهل (١) المدينة (ليبيننه) بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالمثناة الفوقية ، وقرأ ابن عباس (واذ أخذ الله ميثاق النبيين لتبيننه) ويشكل على هذه القراءة قوله (فنبذوه) فلا بد من أن يكون فاعله الناس . وفى قراءة ابن مسعود لتبينونه * والنبذ الطرح وقد تقدّم فى البقرة * وقوله (وراء ظهورهم) مبالغة فى النبذ والطرح ، وقد تقدّم أيضا معنى قوله (واشتروا به ثمنا قليلا) والضمير عائد الى الكتاب الذى أمروا ببيانه ونهوا عن كتمانه * وقوله (ثمنا قليلا) أى حقيرا يسيرا من حطام الدنيا وأعراضها ، قوله (فبئس ما يشترون) ما نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس ، ويشترون صفة ، والمخصوص بالذم محذوف : أى بئس شيئا يشترونه بذلك الثمن * قوله (لاتحسبن الذين يفرحون) قرأ الكوفيون بالتاء الفوقية والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له * وقوله (بما أتوا) أى بما فعلوا ، وقد اختلف فى سبب نزول الآية كما سيأتى ، والظاهر شمولها لكل من حصل منه ما تضمنته عملا بعموم اللفظ ، وهو المعتبر دون خصوص السبب ، فمن فرح بما فعل وأحب أن يحمده الناس بما لم يفعل فلاتحسبنه بمفازة من العذاب ، وقرأ نافع وابن عامر وابن كثير وأبو عمرو لا يحسبن بالياء التحتية : أى لايحسبن الفارحون فرحهم منجيا لهم من العذاب ، فالمفعول الأوّل محذوف وهو فرحهم ، والمفعول الثانى بمفازة من العذاب * وقوله (فلاتحسبنهم) تأكيد للفعل الأوّل على القراءتين ، والمفازة المنجاة مفعلة من فاز يفوز اذا نجا : أى ليسوا بفائزين ، سمى موضع الخوف مفازة على جهة التفاؤل . قاله الأصمعى : وقيل لأنها موضع تفويز ومظنة هلاك ، تقول العرب فوّز الرجل اذامات . قال ثعلب : حكيت لابن الاعرابى قول الأصمعى فقال أخطأ . قال لى أبو المكارم إنما سميت مفازة لأن من قطعها فاز . وقال ابن الأعرابى بل لأنه مستسلم لما أصابه . وقيل المعنى لاتحسبنهم بمكان بعيد من العذاب : لأن الفوز التباعد عن المكروه وقرأ مروان بن الحكم والأعمش وابراهيم النخعى (آتوا) بالمد ، أى يفرحون بما أعطوا ، وقرأ جمهور القراء السبعة وغيرهم (أتوا) بالقصر .

وقدأخرج ابن أبى شيبة وهناد وعبد بن حميد والترمذى وصححه وابن حبان وابن جرير وابن أبى حاتم

---

(١) صوابه وأهل مكة اه ضباع

والحاكم

والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « ان موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرءوا ان شئتم ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » . وأخرج ابن مردويه عن سهل بن سعد مرفوعا نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الزهرى فى قوله (ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) قال هو كعب بن الأشرف ، وكان يحرّض المشركين على رسول الله ﷺ وأصحابه فى شعره . وأخرج ابن المنذر من طريق الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى الآية قال : يعنى اليهود والنصارى ، فكان المسلمون يسمعون من اليهود قولهم – عزير ابن الله – ومن النصارى قولهم – المسيح ابن الله – (وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور) قال من القوّة مما عزم الله عليه وأمركم به . وأخرج ابن اسحق وابن جرير عن ابن عباس فى قوله (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس) قال فنحاص وأشيع وأشباههما من الأحبار . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس) قال كان الله أمرهم أن يتبعوا النبى الأمىّ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية ، قال فى التوراة والانجيل ان الاسلام دين الله الذى افترضه على عباده وأن محمدا رسول الله يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل فنبذوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية قال : هم اليهود لتبيننه للناس ، قال محمدا ﷺ وأخرج ابن جرير عن السدّى مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم ، فمن علم علما فليعلمه الناس ، و إياكم وكتمان العلم ، فان كتمان العلم هلكة . وأخرج ابن سعد عن الحسن قال لولا الميثاق الذى أخذه الله على أهل العلم ماحدثتكم بكثير مما تسألون عنه . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما أن مروان قال لبوّابه اذهب يارافع الى ابن عباس : فقل لئن كان كل امرئ منا فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون ، فقال ابن عباس مالكم ولهذه الآية ، انما أنزلت فى أهل الكتاب ، ثم تلا (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب) الآية ، قال ابن عباس سألهم النبى ﷺ عن شىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك اليه وفرحوا بما أتوا من كتمان ماسألهم عنه ، وفى البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى أن رجالا من المنافقين ، كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فاذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا : فنزلت . وقد روى أنها نزلت فى فنحاص وأشيع وأشباههما . وروى أنها نزلت فى اليهود . وأخرج مالك وابن سعد والطبرانى والبيهقى فى الدلائل عن محمد بن ثابت أن ثابت بن قيس ، قال يارسول الله لقد خشيت أن أكون قد هلكت قال لم ؟ قال قد نهانا الله أن نحب أن نحمد بما لم نفعل ، وأجدنى أحب الحمد ، ونهانا عن الخيلاء ، وأجدنى أحب الجمال ، ونهانا أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا رجل جهير الصوت ، فقال : ياثابت ألا ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة ، فعاش حميدا وقتل شهيدا يوم مسيلمة الكذاب . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك فى قوله (بمفازة) قال بمنجاة . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله .

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا

بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ *

قوله (ان فى خلق السموات) هذه جملة مستأنفة لتقرير اختصاصه سبحانه بما ذكره فيها * والمراد ذات السموات والأرض وصفاتهما (واختلاف الليل والنهار) أى تعاقبهما ، وكون كل واحد منهما يخلف الآخر ، وكون زيادة أحدهما فى نقصان الآخر وتفاوتهما طولا وقصرا وحرا وبردا وغير ذلك (لآيات) أى دلالات واضحة وبراهين بينة تدل على الخالق سبحانه . وقد تقدّم تفسير بعض ماهنا فى سورة البقرة * والمراد بأولى الألباب : أهل العقول الصحيحة الخالصة عن شوائب النقص ، فان مجرد التفكر فيما قصه الله فى هذه الآية يكفى العاقل ويوصله إلى الايمان الذى لاتزلزله الشبه ولاتدفعه التشكيكات * قوله (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) الموصول نعت لأولى الألباب ، وقيل هو مفصول عنه خبر مبتدأ محذوف ، أو منصوب على المدح * والمراد بالذكر هنا ذكره سبحانه فى هذه الأحوال من غير فرق بين حال الصلاة وغيرها ، وذهب جماعة من المفسرين إلى أن الذكر هنا عبارة عن الصلاة ، أى لايضيعونها فى حال من الأحوال فيصلونها قياما مع عدم العذر ، وقعودا وعلى جنوبهم مع العذر * قوله (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) معطوف على قوله (يذكرون) وقيل انه معطوف على الحال ، أعنى (قياما وقعودا) وقيل انه منقطع عن الأوّل * والمعنى أنهم يتفكرون فى بديع صنعهما وإتقانهما مع عظم أجرامها فان هذا الفكر إذا كان صادقا أوصلهم إلى الايمان بالله سبحانه * قوله (ربنا ماخلقت هذا باطلا) هو على تقدير القول ، أى يقولون ماخلقت هذا عبثا ولهوا ، بل خلقته دليلا على حكمتك وقدرتك * والباطل : الزائل الذاهب ، ومنه قول لبيد : * ألا كل شيء ماخلا الله باطل * وهو منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى خلقا باطلا ، وقيل منصوب بنزع الخافض ، وقيل هو مفعول ثان ، وخلق بمعنى جعل ، أو منصوب على الحال ، والاشارة بقوله (هذا) إلى السموات والأرض ، أو الى الخلق على أنه بمعنى المخلوق * قوله (سبحانك) أى تنزيها لك عما لايليق بك من الأمور التى من جملتها أن يكون خلقك لهذه المخلوقات باطلا * وقوله (فقنا عذاب النار) الفاء لترتيب هذا الدعاء على ماقبله * وقوله (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته) تأكيد لما تقدّمه من استدعاء الوقاية من النار منه سبحانه ، وبيان للسبب الذى لأجله دعاه عباده بأن يقيهم عذاب النار ، وهو أن من أدخله النار فقد أخزاه ، أى أذله وأهانه وقال المفضل * معنى أخزيته : أهلكته ، وأنشد :

أخزى الاله بنى الصليب عنيزة * واللابسين ملابس الرهبان

وقيل معناه : فضحته وأبعدته ، يقال أخزاه الله : أبعده ومقته ، والاسم الخزى . قال ابن السكيت : خزى يخزى خزيا : اذا وقع فى بلية * قوله (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للايمان) المنادى عند أكثر المفسرين هو النبى ﷺ ، وقيل هو القرآن ، وأوقع السماع على المنادى مع كون المسموع هو النداء لأنه قد وصف المنادى بما يسمع ، وهو قوله (ينادى للايمان أن آمنوا) . وقال أبو على الفارسى ان ينادى هو المفعول الثانى ، وذكر ينادى مع أنه قدفهم من قوله (مناديا) لقصد التأكيد والتفخيم لشأن هذا

المنادى به ، واللام فى قوله (للايمان) بمعنى الى ، وقيل ان ينادى يتعدّى باللام وبالى ، يقال ينادى لكذا وينادى الى كذا ، وقيل اللام للعلة ، أى لأجل الايمان * قوله (أن آمنوا) هى إما تفسيرية أومصدرية وأصلها بأن آمنوا فحذف حرف الجرّ * قوله (فآمنا) أى امتثلنا مايأمر به هذا المنادى من الايمان فآمنا ، وتكرير النداء فى قوله (ربنا) لاظهار التضرّع والخضوع ، قيل المراد بالذنوب هنا الكبائر وبالسيئات الصغائر * والظاهرعدم اختصاص أحد اللفظين بأحد الأمرين ، والآخر بالآخر ، بل يكون المعنى فى الذنوب والسيئات واحدا ، والتكرير للمبالغة والتأكيد ، كما أن معنى الغفر والكفر الستر * والأبرار جمع بارّ أو برّ ، وأصله من الاتساع فكأن البارّ متسع فى طاعة الله ومتسعة له رحمته : قيل هم الأنبياء ومعنى اللفظ أوسع من ذلك * قوله (ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك) هذا دعاء آخر ، والنكتة فى تكرير النداء ماتقدّم والموعود به على ألسن الرسل هو الثواب الذى وعد الله به أهل طاعته ، ففى الكلام حذف وهو لفظ الألسن كقوله ـ واسأل القرية ـ وقيل المحذوف التصديق ، أى ماوعدتنا على تصديق رسلك وقيل ماوعدتنا منزلا على رسلك ، أومحمولا على رسلك * والأوّل أولى ، وصدورهذا الدعاء منهم مع علمهم أن ماوعدهم الله به على ألسن رسله كائن لامحالة ، إما لقصد التعجيل أو للخضوع بالدعاء لكونه مخ العبادة ، وفى قولهم (انك لاتخلف الميعاد) دليل على أنهم لم يخافوا خلف الوعد ، وأن الحامل لهم على الدعاء هوماذكرنا .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس : قال أتت قريش اليهود فقالوا ماجاءكم به موسى من الآيات ؟ قالوا عصاه ويده بيضاء للناظرين ، وأتوا النصارى فقالوا كيف كان عيسى فيكم ؟ قالوا كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ، فأتوا النبى ﷺ فقالوا ادع لنا ربك يجعل لنا الصفاء ذهبا فدعا ربه ، فنزلت (إن فى خلق السموات والأرض) الآية . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال بتّ عند خالتى ميمونة فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل ، ثم استيقظ فجعل يمسح النوم عن وجهه بيديه ، ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة آل عمران حتى ختم . وأخرج عبدالله بن أحمد فى زوائد المسند ، والطبرانى والحاكم فى الكنى ، والبغوى فى معجم الصحابة عن صفوان بن المعطل : قال كنت مع النبىّ ﷺ فى سفر فذكر نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن مسعود فى قوله (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) الآية قال انما هذه فى الصلاة إذا لم يستطع قائما فقاعدا وان لم يستطع قاعدا فعلى جنبه . وقد ثبت فى البخارى من حديث عمران بن حصين : قال كانت بى بواسير فسألت النبى ﷺ عن الصلاة فقال : صلّ قائما فان لم تستطع فقاعدا فان لم تستطع فعلى جنب . وثبت فيه عنه : قال سألت رسول الله ﷺ عن صلاة الرجل وهو قاعد فقال : من صلى قائما فهو أفضل ، ومن صلى قاعدا فله نصف أجر القائم ، ومن صلى نائما فله نصف أجر القاعد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية : قال هذه حالاتك كلها يابن آدم : اذكر الله وأنت قائم ، فان لم تستطع فاذكره جالسا ، فان لم تستطع جالسا فاذكره وأنت على جنبك ، يسر من الله وتخفيف .

وأقول هذا التقييد الذى ذكره بعدم الاستطاعة مع تعميم الذكر لاوجه له لامن الآية ولامن غيرها فانه لم يرد فى شىء من الكتاب والسنة مايدل على أنه لايجوز الذكر من قعود الامع عدم استطاعة الذكر من قيام ، ولايجوز على جنب الا مع عدم استطاعته من قعود ، وانما يصلح هذا التقييد لمن جعل المراد بالذكر هنا الصلاة كما سبق عن ابن مسعود . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن حبان فى صحيحه وابن مردويه عن عائشة مرفوعا ويل لمن قرأ هذه الآية ولم يتفكر فيها . وأخرج ابن أبى الدنيا فى التفكر عن سفيان رفعه من قرأ

آخر سورة آل عمران فلم يتفكر فيها ويله فعدّ أصابعه عشرا ، قيل للأوزاعى ماغاية التفكر فيهنّ ؟ قال يقرؤهنّ وهو يعقلهنّ * وقد وردت أحاديث وآثار عن السلف فى استحباب التفكر مطلقا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أنس فى قوله (من تدخل النار فقد أخزيته) قال من تخلد . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن المسيب فى الآية قال هذه خاصة بمن لايخرج منها . وأخرج ابن جرير والحاكم عن عمرو بن دينار : قال قدم علينا جابر بن عبدالله فى عمرة فانتهيت اليه أنا وعطاء فقلت وماهم بخارجين من النار . قال أخبرنى رسول الله ﷺ أنهم الكفار ، قلت لجابر فقوله (إنك من تدخل النار فقد أخزيته) قال وما أخزاه حين أحرقه بالنار ، وان دون ذلك خزيا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله (مناديا ينادى للايمان) قال هو محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى : قال هو القرآن ليس كل أحد سمع النبى ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله (ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك) قال يستنجزون موعد الله على رسله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولا تخزنا يوم القيامة) قال لاتفضحنا .

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَٰجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ *

قوله (فاستجاب) الاستجابة بمعنى الاجابة ، وقيل الاجابة عامة ، والاستجابة خاصة بأعطاء المسئول ، وهذا الفعل يتعدّى بنفسه وباللام ، يقال استجابه ، واستجاب له ، والفاء للعطف ، وقيل على مقدّر ، أى دعوا بهذه الأدعية فاستجاب لهم ، وقيل على قوله (ويتفكرون) وانما ذكر سبحانه الاستجابة ومابعدها فى جملة مالهم من الأوصاف الحسنة لأنها منه ، اذ من أجيبت دعوته فقد رفعت درجته * قوله (أنى لاأضيع عمل عامل منكم) أى بأنى ، وقرأ عيسى بن عمرو بكسر الهمزة على تقدير القول . وقرأ أبىّ بثبوت الباء وهى للسببية ، أى فاستجاب لهم ربهم بسبب أنه لايضيع عمل عامل منهم * والمراد بالاضاعة ترك الاثابة * قوله (من ذكر أو أنثى) من بيانية ومؤكدة لما تقتضيه النكرة الواقعة فى سياق النفى من العموم * قوله (بعضكم من بعض) أى رجالكم مثل نسائكم فى الطاعة ونساؤكم مثل رجالكم فيها ، والجملة معترضة لبيان كون كل منهما من الآخر باعتبار تشعبهما من أصل واحد * قوله (فالذين هاجروا) الآية ، هذه الجملة تتضمن تفصيل ماأجمل فى قوله (أنى لاأضيع عمل عامل) أى فالذين هاجروا من أوطانهم إلى رسول الله ﷺ (وأخرجوا من ديارهم) فى طاعة الله عزّ وجلّ (وقاتلوا) أعداء الله (وقتلوا) فى سبيل الله ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وقتّلوا على التكثير ، وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى وقتلوا وقاتلوا ، وهو مثل قول الشاعر :

* تصابى وأمسى علاه الكبر * أى قد علاه الكبر ، وأصل الواو لمطلق الجمع بلا ترتيب كما قال به الجمهور * والمراد هنا أنهم قاتلوا وقتل بعضهم ، كما قال امرؤالقيس : * فان تقتلونا نقتلكمو *

وقرأ عمر بن عبد العزيز وقتلوا وقتلوا * ومعنى قوله (وأوذوا فى سبيلى) أى بسببه * والسبيل : الدين الحق * والمراد هنا مانالهم من الأذية من المشركين بسبب ايمانهم بالله وعملهم بما شرعه الله لعباده * وقوله (لأكفرنّ) جواب قسم محذوف * وقوله (ثوابا من عند الله) مصدر مؤكد عند البصريين ،

لان

لأن معنى قوله (لأدخلنهم جنات) لأثيبنهم ثوابا ، أى إثابة أو تثويبا كائنا من عند الله . وقال الكسائى انه منتصب على الحال . وقال الفراء على التفسير (والله عنده حسن الثواب) أى حسن الجزاء ، وهومايرجع على العامل من جزاء عمله ، من ثاب يثوب : اذا رجع .

وقد أخرج سعيد بن منصور وعبد الرزاق والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه عن أم سلمة قالت : يارسول الله لاأسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء ، فأنزل الله (فاستجاب لهم) الى آخر الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال « مامن عبد يقول يارب يارب يارب ثلاث مرات الانظر الله اليه » فذكر للحسن فقال أما تقرأ القرآن ؟ (ربنا اننا سمعنا مناديا) الى قوله (فاستجاب لهم ربهم) . وأخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت آخر آية نزلت هذه الآية (فاستجاب لهم ربهم) الى آخرها . وقد ورد فى فضل الهجرة أحاديث كثيرة .

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي ٱلْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ * لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ وَمَا عِنْدَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ * وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *

قوله (لايغرّنك) خطاب للنبى ﷺ * والمراد تثبيته على ماهو عليه كقوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا آمنوا) أو خطاب لكل أحد ، وهذه الآية متضمنة لقبح حال الكفار بعد ذكر حسن حال المؤمنين * والمعنى لايغرّنك ماهم فيه من تقلبهم فى البلاد بالأسفار للتجارة التى يتوسعون بها فى معاشهم فهو متاع قليل يتمتعون به فى هذه الدار ثم مصيرهم الى جهنم ، فقوله (متاع) خبر مبتدا محذوف ، أى هو متاع قليل لااعتداد به بالنسبة الى ثواب الله سبحانه (ومأواهم) أى مايأوون اليه * والتقلب فى البلاد : الاضطراب فى الأسفار الى الأمكنة ومثله قوله تعالى ـ فلايغررك تقلبهم فى البلاد ـ والمتاع مايعجل الانتفاع به ، وسماه قليلا لأنه فان ، وكل فان وان كان كثيرا فهو قليل * وقوله (وبئس المهاد) مامهدوا لأنفسهم فى جهنم بكفرهم ، أومامهد الله لهم من النار ، فالمخصوص بالذم محذوف : وهو هذا المقدّر * قوله (لكن الذين اتقوا ربهم) هو استدراك مما تقدّمه ، لأن معناه معنى النفى كأنه قال : ليس لهم فى تقلبهم فى البلاد كثير انتفاع (لكن الذين اتقوا) لهم الانتفاع الكثير والخلد الدائم . وقرأ يزيد بن القعقاع لكنّ بتشديد النون * قوله (نزلا) مصدر مؤكد عند البصريين كما تقدّم فى ثوابا ، وعند الكسائى والفراء مثل ماقالا فى ثوابا ، والنزل ماهيأ للنزيل ، والجمع أنزال ، قال الهروى (نزلا من عند الله) أى ثوابا من عند الله (وماعند الله) مما أعدّه لمن أطاعه (خير للابرار) ممايحصل للكفار من الربح فى الأسفار فانه متاع قليل عن قريب يزول * قوله (وانّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) هذه الجملة سيقت لبيان أن بعض أهل الكتاب لهم حظ من الدين ، وليسوا كسائرهم فى فضائحهم التى حكاها الله عنهم فيما سبق وفيما سيأتى ، فان هذا البعض يجمعون بين الايمان بالله و بما أنزل الله على نبينا محمد ﷺ وما أنزله على أنبيائهم حال كونهم (خاشعين لله لايشترون) أى يستبدلون (بآيات الله ثمنا قليلا) بالتحريف والتبديل كما يفعله سائرهم بل يحكون كتب الله سبحانه كما هى ، والاشارة بقوله (أولئك)

الى هذه الطائفة الصالحة من أهل الكتاب من حيث اتصافهم بهذه الصفات الجيدة (لهم أجرهم) الذى وعد الله سبحانه به بقوله ـ أولئك يؤتون أجرهم مرّتين ـ وتقديم الخبر يفيد اختصاص ذلك الأجر بهم * وقوله (عند ربهم) فى محل نصب على الحال * قوله (يا أيها الذين آمنوا اصبروا) الخ، هذه الآية العاشرة من قوله سبحانه (إنّ فى خلق السموات) ختم بها هذه السورة لما اشتملت عليه من الوصايا التى جمعت خير الدنيا والآخرة، فحض على الصبر على الطاعات والشهوات، والصبر: الحبس، وقد تقدم تحقيق معناه، والمصابرة مصابرة الأعداء، قاله الجمهور، أى غالبوهم فى الصبر على شدائد الحرب، وخص المصابرة بالذكر بعد أن ذكر الصبر لكونها أشدّ منه وأشقّ * وقيل المعنى صابروا على الصلوات، وقيل صابروا الأنفس عن شهواتها، وقيل صابروا الوعد الذى وعدتم ولا تيأسوا، والقول الأول هو المعنى العربىّ، ومنه قول عنترة:

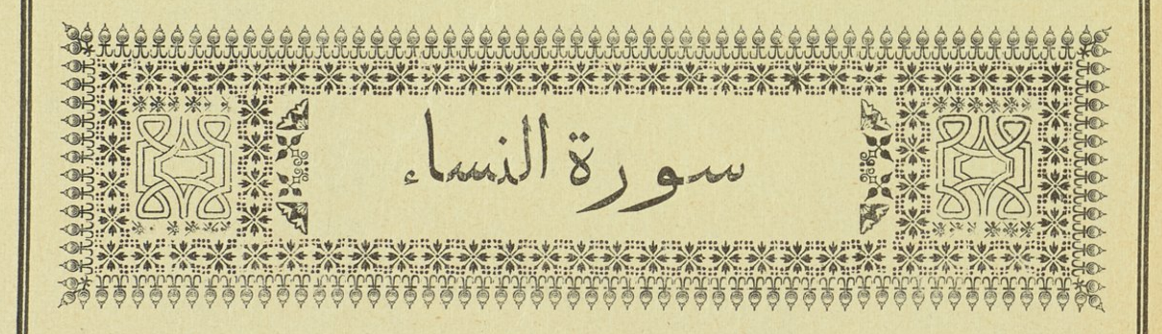
فلم أر حيا صابروا مثل صبرنا * ولا كافحوا مثل الذين نكافح

أى صابروا العدوّ فى الحرب * قوله (ورابطوا) أى أقيموا فى الثغور رابطين خيلكم فيها كما يربطها أعداؤكم، وهذا قول جمهور المفسرين، وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن هذه الآية فى انتظار الصلاة بعد الصلاة ولم يكن فى زمن رسول الله ﷺ غزو يرابط فيه، وسيأتى ذكر من خرّج عنه هذا، والرباط اللغوى هو الأوّل، ولا ينافيه تسميته ﷺ لغيره رباطا كما سيأتى، و يمكن اطلاق الرباط على المعنى الأوّل، وعلى انتظار الصلاة، قال الخليل: الرباط ملازمة الثغور ومواظبة الصلاة هكذا قال، وهو من أئمة اللغة * وحكى ابن فارس عن الشيبانى أنه قال: يقال ماء مترابط دائم لا يبرح وهو يقتضى تعدية الرباط الى غير ارتباط الخيل فى الثغور * قوله (واتقوا الله) فلا تخالفوا ما شرعه لكم (لعلكم تفلحون) أى تكونون من جملة الفائزين بكل مطلوب، وهم المفلحون.

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة فى قوله (لا يغرّنك تقلب الذين كفروا) تقلب ليلهم ونهارهم وما يجرى عليهم من النعم، قال عكرمة: قال ابن عباس و بئس المهاد، أى بئس المنزل. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (تقلبهم فى البلاد) قال ضربهم فى البلاد. وأخرج عبد ابن حميد والبخارى فى الأدب المفرد وابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله (وما عند الله خير للابرار) قال إنما سماهم الله أبرارا لأنهم برّوا الآباء والأبناء كما أن لوالدك عليك حقا كذلك لولدك عليك حقا. وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا، والأوّل أصح: قاله السيوطى. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد (خير للأبرار) لمن يطيع الله. وأخرج النسائى والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أنس قال: لما مات النجاشى قال ﷺ صلوا عليه، قالوا يارسول الله نصلى على عبد حبشى؟ فأنزل الله (وان من أهل الكتاب) الآية. وأخرج ابن جرير عن جابر مرفوعا أن المنافقين قالوا انظروا الى هذا يعنى النبى ﷺ يصلى على علج نصرانى فنزلت. وأخرج الحاكم وصححه عن عبد الله بن الزبير أنها نزلت فى النجاشى. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال هم مسلمة أهل الكتاب من اليهود والنصارى. وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد والذين اتبعوا محمدا ﷺ. وأخرج ابن المبارك وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ما قدّمنا ذكره. وأخرج ابن مردويه عنه عن أبى هريرة قال: أما انه لم يكن فى زمن النبى ﷺ غزو يرابطون فيه، ولكنها نزلت فى قوم يعمرون المساجد يصلون الصلوات فى مواقيتها ثم يذكرون الله فيها. وقد ثبت فى الصحيح وغيره من قول النبى ﷺ ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات: اسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم

الرباط . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال : اصبروا على دينكم وصابروا ، الوعد الذى وعدتكم ورابطوا عدوّى وعدوّكم * وقد روى من تفاسير السلف غير هذا فى قصر الصبر على نوع من أنواع الطاعات والمصابرة على نوع آخر ، ولاتقوم بذلك حجة ، فالواجب الرجوع الى المدلول اللغوى وقد قدّمناه ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى فضل الرباط وفيها التصريح بأنه الرباط فى سبيل الله ، وهو يردّ ماقاله أبوسلمة بن عبد الرحمن فان رسول الله ﷺ قد ندب إلى الرباط فى سبيل الله وهو الجهاد فيحمل مافى الآية عليه ، وقد ورد عنه ﷺ أنه سمى حراسة جيش المسلمين رباطا ، فأخرج الطبرانى فى الأوسط بسند جيد عن أنس قال سئل رسول الله ﷺ عن أجر المرابط فقال : من رابط ليلة حارسا من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممن صام وصلى .

وقد ورد فى فضل هذه العشر الآيات التى فى آخر هذه السورة مرفوعا الى النبى ﷺ ماأخرجه ابن السنى وابن مردويه وابن عساكر عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل عمران كل ليلة ، وفى اسناده مظاهر بن أسلم ، وهو ضعيف ، وقد تقدّم من حديث ابن عباس فى الصحيحين أن النبى ﷺ قرأ هذه العشر الآيات لما استيقظ ، وكذلك تقدم فى غير الصحيحين من رواية صفوان بن المعطل عن النبى ﷺ . وأخرج الدّارمى عن عثمان بن عفان قال : من قرأ آخر آل عمران فى ليلة كتب له قيام ليلة .



سورة النساء

هى مدنية كلها . قال القرطبى الا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح فى عثمان بن طلحة الحجبى ، وهى قوله تعالى (ان الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات الى أهلها) على ماسيأتى ان شاء الله ، قال النقاش ، وقيل نزلت عند هجرة رسول الله ﷺ من مكة الى المدينة ، وعلى ماتقدّم عن بعض أهل العلم ان قوله تعالى (يا أيها الناس) حيثما وقع ، فانه مكى يلزم أن يكون صدر هذه السورة مكيا ، و به قال علقمة وغيره ، وقال النحاس هذه الآية مكية ، قال القرطبى : والصحيح الأوّل ، فان فى صحيح البخارى عن عائشة أنها قالت : مانزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ يعنى قد بنى بها ، ولاخلاف بين العلماء أن النبى ﷺ انما بنى بعائشة بالمدينة ومن تبين أحكامها علم أنها مدنية لاشك فيها ، قال : وأما من قال (يا أيها الناس) مكى حيث وقع فليس بصحيح ، فان البقرة مدنية وفيها (ياأيها الناس) فى موضعين . وقد أخرج ابن الضريس فى فضائله والنحاس فى ناسخه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال نزلت سورة النساء بالمدينة ، وفى اسناده العوفى وهو ضعيف ، وكذا أخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت ، وأخرجه ابن المنذر عن قتادة .

وقد ورد فى فضل هذه السورة ماأخرجه الحاكم فى مستدركه عن عبدالله بن مسعود قال : ان فى سورة

النساء لخمس آيات مايسرنى أن لى بها الدنيا وما فيها (ان الله لا يظلم مثقال ذرة) الآية و (ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه) الآية و (ان الله لا يغفر أن يشرك به) الآية (ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم) الآية، ثم قال هذا اسناد صحيح ان كان عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود سمع من أبيه، وقد اختلف فى ذلك. وأخرجه عبد الرزاق عن معمر عن رجل عن ابن مسعود قال: خمس آيات من النساء هنّ أحب الىّ من الدنيا جميعا (ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه) الآية (وان تك حسنة يضاعفها) الآية (ان الله لا يغفر أن يشرك به) الآية (من يعمل سوءا أو يظلم نفسه) الآية (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم) الآية. ورواه ابن جرير، ثم روى من طريق صالح المرّى عن قتادة عن ابن عباس قال ثمان آيات نزلت فى سورة النساء هنّ خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت، وذكرماذكره ابن مسعود، وزاد (يريد الله ليبين لكم) الآية (والله يريد أن يتوب عليكم) الآية (يريد الله أن يخفف عنكم) الآية. وأخرج أحمد وابن الضريس ومحمد بن نصر والحاكم وصححه والبيهقى عن عائشة أن النبى ﷺ قال من أخذ السبع فهو حبر. وأخرج البيهقى فى الشعب عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، والمئين كل سورة بلغت مائة فصاعدا، والمثانى كل سورة دون المئين وفوق المفصل. وأخرج أبو يعلى وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن أنس قال وجد رسول الله ﷺ ذات ليلة شيئا فلما أصبح قيل يارسول الله ان أثر الوجع عليك لبين قال: أما انى على ماترون بحمد الله قد قرأت السبع الطوال. وأخرج أحمد عن حذيفة قال: قمت مع رسول الله ﷺ فقرأ السبع الطوال فى سبع ركعات. وأخرج عبد الرزاق عن بعض أهل النبى ﷺ أن النبى ﷺ قرأ بالسبع الطوال فى ركعة واحدة. وأخرج الحاكم عن ابن عباس أنه قال: سلونى عن سورة النساء فانى قرأت القرآن وأنا صغير. قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرّجاه. وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عنه قال: من قرأ سورة النساء فعلم مايحجب مما لا يحجب علم الفرائض.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا * وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ * وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا *

المراد بالناس الموجودون عند الخطاب من بنى آدم، ويدخل من سيوجد بدليل خارجىّ وهو الاجماع على أنهم مكلفون بما كلف به الموجودون، أو تغليب الموجودين على من لم يوجد كما غلب الذكور على الاناث فى قوله (اتقوا ربكم) لاختصاص ذلك بجمع المذكر * والمراد بالنفس الواحدة هنا آدم. وقرأ ابن أبى عبلة واحد بغير هاء على مراعاة المعنى، فالتأنيث باعتبار اللفظ: والتذكير باعتبار المعنى * قوله (وخلق منها

زوجها)

زوجها) قيل هو معطوف على مقدر يدل عليه الكلام ، أى خلقكم من نفس واحدة خلقها أوّلا : وخلق منها زوجها . وقيل على خلقكم ، فيكون الفعل الثانى داخلا مع الأول فى حيز الصلة ، والمعنى وخلق من تلك النفس التى هى عبارة عن آدم زوجها وهى حواء . وقد تقدّم فى البقرة معنى التقوى والربّ والزوج والبث ، والضمير فى قوله (منها) راجع إلى آدم وحواء المعبر عنهما بالنفس والزوج * وقوله (كثيرا) وصف مؤكد لما تفيده صيغة الجمع لكونها من جموع الكثرة ، وقيل هو نعت لمصدر محذوف أى بثا كثيرا * وقوله (ونساء) أى كثيرة : وترك التصريح به استغناء بالوصف الأوّل * قوله (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) قرأ أهل الكوفة بحذف التاء الثانية ، وأصله تتساءلون تخفيفا لاجتماع المثلين . وقرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بادغام التاء فى السين * والمعنى يسأل بعضكم بعضا بالله والرحم ، فانهم كانوا يقرنون بينهما فى السؤال والمناشدة ، فيقولون : أسألك بالله والرحم ، وأنشدك الله والرحم . وقرأ النخعى وقتادة والأعمش وحمزة (والأرحام) بالجر . وقرأ الباقون بالنصب .

وقد اختلف أئمة النحو فى توجيه قراءة الجرّ ، فأما البصريون فقالوا هى لحن لاتجوز القراءة بها . وأما الكوفيون فقالوا هى قراءة قبيحة . قال سيبويه فى توجيه هذا القبح ان المضمر المجرور بمنزلة التنوين ، والتنوين لايعطف عليه . وقال الزجاج وجماعة بقبح عطف الاسم الظاهر على المضمر فى الخفض الا باعادة الخافض كقوله تعالى ـ فخسفنا به وبداره الأرض ـ وجوّز سيبويه ذلك فى ضرورة الشعر ، وأنشد :

فاليوم قرّبت تهجونا وتمدحنا * فاذهب فما بك والأيام من عجب

ومثله قول الآخر

تعلق فى مثل السوارى سيوفنا * ومابينها والكعب بهو نفانف

بعطف الكعب على الضمير فى بينها * وحكى أبو على الفارسى أن المبرد قال لو صليت خلف إمام يقرأ (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) بالجرّ لأخذت نعلى ومضيت . وقد ردّ الامام أبو نصر القشيرى ماقاله القادحون فى قراء الجرّ : فقال ومثل هذا الكلام مردود عند أئمة الدين ، لأن القرا آت التى قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبى ﷺ تواترا ، ولايخفى عليك أن دعوى التواتر باطلة يعرف ذلك من يعرف الأسانيد التى رووها بها ، ولكن ينبغى أن يحتج للجواز بورود ذلك فى أشعار العرب كما تقدّم ، وكما فى قول بعضهم :

* وحسبك والضحاك سيف مهند *

وقول الآخر وقد رام آفاق السماء فلم يجد * له مصعدا فيها ولا الأرض مقعدا

وقول الآخر * مافيها والأمور من تلف *

وقول الآخر أكرّ على الكتيبة لست أدرى * أحتفى كان فيها أم سواها

فسواها فى موضع جر عطفا على الضمير فى فيها ، ومنه قوله تعالى ـ وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ـ * وأما قراءة النصب فمعناها واضح جلىّ ، لأنه عطف الرحم على الاسم الشريف ، أى اتقوا الله واتقوا الأرحام فلاتقطعوها ، فانها مما أمر الله به أن يوصل ، وقيل انه عطف على محل الجار والمجرور فى قوله (به) كقولك مررت بزيد وعمرا ، أى اتقوا الله الذى تساءلون به وتتساءلون بالأرحام * والأوّل أولى . وقرأ عبد الله بن يزيد والأرحام بالرفع على الابتداء والخبر مقدّر ، أى والأرحام صلوها أو والأرحام أهل أن توصل ، وقيل ان الرفع على الاغراء عند من يرفع به ، ومنه قول الشاعر :

ان قوما منهم عمير وأشبا * ه عمير ومنهم السفاح

لجديرون باللقاء اذا قا * ل أخو النجدة السلاح السلاح

والأرحام اسم لجميع الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره لاخلاف فى هذا بين أهل الشرع ولا بين أهل اللغة . وقد خصص أبو حنيفة و بعض الزيدية الرحم بالمحرم فى منع الرجوع فى الهبة مع موافقتهم على أن معناها أعم ، ولا وجه لهذا التخصيص . قال القرطبى اتفقت الملة على أن صلة الرحم واجبة وان قطيعتها محرّمة انتهى . وقد وردت بذلك الأحاديث الكثيرة الصحيحة * والرقيب : المراقب وهى صيغة مبالغة : يقال رقبت أرقب رقبة ورقبانا : اذا انتظرت * قوله (وآتوا اليتامى أموالهم) خطاب للأولياء والأوصياء * والايتاء : الاعطاء * واليتيم : من لا أب له . وقد خصصه الشرع بمن لم يبلغ الحلم . وقد تقدّم تفسير معناه فى البقرة مستوفى ، وأطلق اسم اليتيم عليهم عند إعطائهم أموالهم ، مع أنهم لا يعطونها الا بعد ارتفاع اسم اليتم بالبلوغ مجازا باعتبار ما كانوا عليه ، ويجوز أن يراد باليتامى المعنى الحقيقى و بالايتاء ما يدفعه الأولياء والأوصياء اليهم من النفقة والكسوة لا دفعها جميعها ، وهذه الآية مقيدة بالآية الأخرى وهى قوله تعالى (فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم) فلا يكون مجرد ارتفاع اليتم بالبلوغ مسوّغا لدفع أموالهم اليهم حتى يؤنس منهم الرشد * قوله (ولا تتبدّلوا الخبيث بالطيب) نهى لهم عن أن يصنعوا صنع الجاهلية فى أموال اليتامى فانهم كانوا يأخذون الطيب من أموال اليتامى و يعوّضونه بالردىء من أموالهم ولا يرون بذلك بأسا ، وقيل المعنى : لا تأكلوا أموال اليتامى وهى محرّمة خبيثة وتدعوا الطيب من أموالكم ، وقيل المراد لا تتعجلوا أكل الخبيث من أموالهم وتدعوا انتظار الرزق الحلال من عند الله * والأوّل أولى فان تبدّل الشىء بالشىء فى اللغة أخذه مكانه وكذلك استبداله ، ومنه قوله تعالى ـ ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضلّ سواء السبيل ـ * وقوله ـ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ـ ، وأما التبديل فقد يستعمل كذلك كما فى قوله ـ و بدّلناهم بجنتيهم جنتين ـ وأخرى بالعكس كما فى قولك بدّلت الحلقة بالخاتم : اذا أذبتها وجعلتها خاتما ، نصّ عليه الأزهرى * قوله (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) ذهب جماعة من المفسرين إلى أن المنهىّ عنه فى هذه الآية هو الخلط فيكون الفعل مضمنا معنى الضم ، أى لا تأكلوا أموالهم مضمومة الى أموالكم ، ثم نسخ هذا بقوله تعالى ـ وان تخالطوهم فاخوانكم ـ وقيل ان الى بمعنى مع كقوله تعالى ـ من أنصارى الى الله ـ * والأوّل أولى * والحوب : الاثم ، يقال حاب الرجل يحوب حوبا : اذا أثم ، وأصله الزجر للابل فسمى الاثم حوبا لأنه يزجر عنه * والحوبة : الحاجة * والحوب أيضا : الوحشة ، وفيه ثلاث لغات ، ضم الحاء وهى قراءة الجمهور ، وفتح الحاء وهى قراءة الحسن . قال الأخفش وهى لغة تميم ، والثالثة الحاب ، وقرأ أبىّ بن كعب حابا على المصدر كقال قالا * والتحوّب : التحزن ، ومنه قول طفيل :

فذوقوا كما ذقنا عداه محجر * من الغيظ فى أكبادنا والتحوّب

قوله (وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا) وجه ارتباط الجزاء بالشرط أن الرجل كان يكفل اليتيمة لكونه وليا لها و يريد أن يتزوّجها فلا يقسط لها فى مهرها ، أى يعدل فيه و يعطيها ما يعطيها غيره من الأزواج ، فنهاهم الله أن ينكحوهنّ الا أن يقسطوا لهنّ و يبلغوا بهنّ أعلى ما هو لهنّ من الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهنّ من النساء سواهنّ ، فهذا سبب نزول الآية كما سيأتى فهو نهى يخص هذه الصورة . وقال جماعة من السلف ان هذه الآية ناسخة لما كان فى الجاهلية وفى أوّل الاسلام من أن للرجل أن يتزوّج من الحرائر ما شاء فقصرهم بهذه الآية على أربع ، فيكون وجه ارتباط الجزاء بالشرط أنهم اذا خافوا ألا يقسطوا فى اليتامى فكذلك يخافون ألا يقسطوا فى النساء لأنهم كانوا يتحرّجون فى اليتامى ولا يتحرّجون فى النساء والخوف من الاضداد ، فان المخوف قد يكون معلوما . وقد يكون مظنونا ، ولهذا

اختلف الأئمة فى معناه فى الآية : فقال أبو عبيدة (خفتم) بمعنى أيقنتم . وقال آخرون (خفتم) بمعنى ظننتم . قال ابن عطية وهو الذى اختاره الحذاق وأنه على بابه من الظنّ لا من اليقين * والمعنى من غلب على ظنه التقصير فى العدل لليتيمة فليتركها و ينكح غيرها . وقرأ النخعى وابن وثاب (تقسطوا) بفتح التاء من قسط اذا جار ، فتكون هذه القراءة على تقدير زيادة لا ، كأنه قال وان خفتم أن تقسطوا . وحكى الزجاج أن أقسط يستعمل استعمال قسط ، والمعروف عند أهل اللغة أن أقسط بمعنى عدل ، وقسط بمعنى جار ، وما فى قوله (ماطاب) موصولة ، وجاء بما مكان من لأنهما قد يتعاقبان فيقع كل واحد منهما مكان الآخر كما فى قوله ـ والسماء وما بناها ـ فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على أربع ـ . وقال البصريون ان ماتقع للنعوت كما تقع لما لا يعقل ، يقال ماعندك ، فيقال ظريف وكريم فالمعنى فانكحوا الطيب من النساء ، أى الحلال ، وما حرّمه الله فليس بطيب ، وقيل ان ماهنا مدّية ، أى مادمتم مستحسنين للنكاح ، وضعفه ابن عطية . وقال الفراء ان ماهنا مصدرية . قال النحاس وهذا بعيد جدًا . وقرأ ابن أبى عبلة (فانكحوا من طاب) . وقد اتفق أهل العلم على أن هذا الشرط المذكور فى الآية لا مفهوم له وأنه يجوز لمن لم يخف أن يقسط فى اليتامى أن ينكح أكثر من واحدة ، ومن فى قوله (من النساء) إما بيانية أو تبعيضية ، لأن المراد غير اليتائم * قوله (مثنى وثلاث ورباع) فى محل نصب على البدل من ما كما قاله أبو على الفارسى ، وقيل على الحال ، وهذه الألفاظ لا تتصرّف للعدل والوصفية كما هو مبين فى علم النحو ، والأصل : انكحوا ماطاب لكم من النساء اثنتين اثنتين ، وثلاثا ثلاثا ، وأربعا أربعا .

وقد استدلّ بالآية على تحريم مازاد على الأربع ، و بينوا ذلك بأنه خطاب لجميع الأمة ، وأن كل ناكح له أن يختار ماأراد من هذا العدد كما يقال للجماعة اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم أو هذا المال الذى فى البدرة درهمين درهمين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، وهذا مسلم اذا كان المقسوم قد ذكرت جملته أو عين مكانه ، أما لو كان مطلقا كما يقال اقتسموا الدراهم ، و يراد به ما كسبوه فليس المعنى هكذا ، والآية من الباب الآخر لا من الباب الأوّل ، على أن من قال لقوم يقتسمون مالا معينا كثيرا اقتسموه مثنى وثلاث ورباع فقسموا بعضه بينهم درهمين درهمين ، و بعضه ثلاثة ثلاثة ، و بعضه أربعة أربعة كان هذا هو المعنى العربىّ ، ومعلوم أنه إذا قال القائل : جاءنى القوم مثنى وهم مائة ألف كان المعنى أنهم جاءوه اثنين اثنين ، وهكذا جاءنى القوم ثلاث ورباع ، والخطاب للجميع بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد كما فى قوله تعالى ـ اقتلوا المشركين ـ أقيموا الصلاة ـ آتوا الزكاة ـ ونحوها ، فقوله (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) معناه لينكح كل فرد منكم ماطاب له من النساء اثنتين اثنتين ، وثلاثا ثلاثا ، وأربعا أربعا ، هذا ماتقتضيه لغة العرب : فالآية تدلّ على خلاف ما استدلوا بها عليه ، ويؤيد هذا قوله تعالى فى آخر الآية (فان خفتم أن لاتعدلوا فواحدة) فانه وان كان خطابا للجميع فهو بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد *

فالأولى أن يستدلّ على تحريم الزيادة على الأربع بالسنة لا بالقرآن * وأما استدلال من استدلّ بالآية على جواز نكاح التسع باعتبار الواو الجامعة : فكأنه قال انكحوا مجموع هذا العدد المذكور فهذا جهل بالمعنى العربى ، ولو قال : انكحوا ثنتين وثلاثا وأربعا كان لهذا القول له وجه ، وأما مع المجىء بصيغة العدل فلا ، وانما جاء سبحانه بالواو الجامعة دون أو ، لأن التخيير يشعر بأنه لايجوز الا أحد الأعداد المذكورة دون غيره ، وذلك ليس بمراد من النظم القرآنى . وقرأ النخعى ويحيى بن وثاب ثلث وربع بغير ألف * قوله (فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة) فانكحوا واحدة كما يدل على ذلك قوله (فانكحوا ماطاب) وقيل التقدير فالزموا أو فاختاروا واحدة * والأوّل أولى ، والمعنى فان خفتم

ألا تعدلوا بين الزوجات فى القسم ونحوه فانكحوا واحدة ، وفيه المنع من الزيادة على الواحدة لمن خاف ذلك ، وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ والخبر محذوف . قال الكسائى أى فواحدة تقنع ، وقيل التقدير فواحدة فيها كفاية ، ويجوز أن تكون واحدة على قراءة الرفع خبر مبتدا محذوف أى فالمقنع واحدة * قوله (أوماملكت أيمانكم) معطوف على واحدة . أى فانكحوا واحدة أو انكحوا ماملكت أيمانكم من السرارى وان كثر عددهن كما يفيده الموصول . والمراد نكاحهن بطريق الملك لا بطريق النكاح ، وفيه دليل على أنه لاحق للمملوكات فى القسم كما يدل على ذلك جعله قسيما للواحدة فى الأمن من عدم العدل ، واسناد الملك الى اليمين ، لكونها المباشرة لقبض الأموال واقباضها ولسائر الأمور التى تنسب الى الشخص فى الغالب ، ومنه :

اذا ماراية نصبت لمجد * تلقاها عرابة باليمين

قوله (ذلك أدنى ألا تعولوا) أى ذلك أقرب الى ألا تعولوا أى تجوروا ، من عال الرجل يعول اذا مال وجار ، ومنه قولهم عال السهم عن الهدف : مال عنه ، وعال الميزان اذا مال ، ومنه :

قالوا اتبعنا رسول الله واطرحوا * قول الرسول وعالوا فى الموازين

ومنه قول أبى طالب

بميزان صدق لايغل شعيرة * له شاهد من نفسه غير عائل

ومنه أيضا

فنحن ثلاثة وثلاث ذود * لقد عال الزمان على عيال

والمعنى ان خفتم عدم العدل بين الزوجات ، فهذه التى أمرتم بها أقرب الى عدم الجور ، و يقال عال الرجل يعيل اذا افتقر وصار عالة ، ومنه قوله تعالى ـ وان خفتم عيلة ـ ، ومنه قول الشاعر :

وما يدرى الفقير متى غناه * وما يدرى الغنى متى يعيل

وقال الشافعى ألا تعولوا : ألا تكثر عيالكم . قال الثعلبى وما قال هذا غيره ، وانما يقال أعال يعيل : اذا كثر عياله ، وذكر ابن العربى أن عال تأتى لسبعة معان * الأول عال مال * الثانى زاد * الثالث جار * الرابع افتقر * الخامس أثقل * السادس قام بمؤونة العيال ، ومنه قوله ﷺ « وابدأ بمن تعول » السابع عال : غلب ، ومنه عيل صبرى ، قال و يقال أعال الرجل كثر عياله . وأما عال بمعنى كثر عياله فلا يصح : ويجاب عن انكار الثعلبى لما قاله الشافعى ، وكذلك انكار ابن العربى لذلك ، بأنه قد سبق الشافعى الى القول به زيد بن أسلم وجابر بن زيد وهما إمامان من أئمة المسلمين لا يفسران القرآن هما والامام الشافعى بما لاوجه له فى العربية . وقد أخرج ذلك عنهما الدارقطنى فى سننه . وقد حكاه القرطبى عن الكسائى وأبى عمر الدورى وابن الأعرابى ، وقال أبو حاتم كان الشافعى أعلم بلغة العرب منا ولعله لغة . وقال الثعلبى قال أستاذنا أبو القاسم بن حبيب : سألت أبا عمر الدورى عن هذا وكان إماما فى اللغة غير مدافع ، فقال هى لغة حمير ، وأنشد :

وان الموت يأخذ كل حى * بلا شك وان أمشى وعالا

أى وان كثرت ماشيته وعياله ، وقرأ طلحة بن مصرف أن لا تُعيلوا . قال ابن عطية وقدح الزجاج فى تأويل عال من العيال بأن الله سبحانه قد أباح كثرة السرارى ، وفى ذلك تكثير العيال ، فكيف يكون أقرب الى أن لا يكثروا ، وهذا القدح غير صحيح ، لأن السرارى انما هى مال يتصرف فيه بالبيع ، وانما العيال الحرائر ذوات الحقوق الواجبة * وقد حكى ابن الأعرابى أن العرب تقول : عال الرجل اذا كثر عياله ، وكفى بهذا وقد ورد عال لمعان غير السبعة التى ذكرها ابن العربى ، منها عال اشتد وتفاقم حكاه الجوهرى

وعال الرجل فى الأرض اذا ضرب فيها ، حكاه الهروى ، وعال اذا أعجز ، حكاه الأحمر فهذه ثلاثة معان غير السبعة ، والرابع عال كثر عياله ، فجملة معانى عال أحد عشر معنى * قوله (وآتوا النساء صدقاتهنّ نحلة) الخطاب للأزواج ، وقيل للأولياء * والصدقات بضم الدال جمع صدقة كثمرة ، قال الأخفش : وبنوتميم يقولون صدقة ، والجمع صدقات وان شئت فتحت وان شئت أسكنت * والنحلة بكسر النون وضمها لغتان ، وأصلها العطاء ، نحلت فلانا أعطيته ، وعلى هذا فهى منصوبة على المصدرية ، لأن الايتاء بمعنى الاعطاء : وقيل النحلة التدين ، فمعنى نحلة تدينا : قاله الزجاج ، وعلى هذا فهى منصوبة على المفعول له ، وقال قتادة : النحلة الفريضة ، وعلى هذا فهى منصوبة على الحال . وقيل النحلة طيبة النفس ، قال أبو عبيد ولا تكون النحلة الا عن طيبة نفس ، ومعنى الآية على كون الخطاب للأزواج أعطوا النساء اللاتى نكحتموهنّ مهورهنّ التى لهن عليكم عطية أوديانة منكم أوفريضة عليكم أوطيبة من أنفسكم ، ومعناها على كون الخطاب للأولياء أعطوا النساء من قراباتكم التى قبضتم مهورهنّ من أزواجهنّ تلك المهور . وقد كان الولى يأخذ مهر قريبته فى الجاهلية ولا يعطيها شيئا ، حكى ذلك عن أبى صالح والكلبى ، والأوّل أولى لأن الضمائر من أوّل السياق للأزواج * وفى الآية دليل على أن الصداق واجب على الأزواج للنساء ، وهو مجمع عليه كما قال القرطبى قال : وأجمع العلماء أنه لا حدّ لكثيره ، واختلفوا فى قليله . وقرأ قتادة صدقاتهن بضم الصاد وسكون الدال . وقرأ النخعى وابن وثاب بضمهما . وقرأ الجمهور بفتح الصاد وضم الدال * قوله (فان طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا) الضمير فى منه راجع الى الصداق الذى هو واحد الصدقات أو إلى المذكور وهو الصدقات ، أوهو بمنزلة اسم الاشارة ، كأنه قال من ذلك ، ونفسا تميز ، وقال أصحاب سيبويه منصوب باضمار فعل لا تميز ، أى أعنى نفسا ، والأوّل أولى . وبه قال الجمهور * والمعنى فان طبن أى النساء لكم أيها الأزواج أو الأولياء عن شىء من المهر (فكلوه هنيئا مريئا) ، وفى قوله (طبن) دليل على أن المعتبر فى تحليل ذلك منهن لهم إنما هو طيبة النفس لا مجرد مايصدر منها من الألفاظ التى لا يتحقق معها طيبه النفس ، فاذا ظهر منها مايدل على عدم طيبة نفسها لم يحلّ للزوج ولا للولى وان كانت قد تلفظت بالهبة أو النذر أونحوهما * وما أقوى دلالة هذه الآية على عدم اعتبار مايصدر من النساء من الألفاظ المفيدة للتمليك بمجردها لنقصان عقولهنّ وضعف ادراكهنّ وسرعة انخداعهنّ وانجذابهن الى مايراد منهن بأيسر ترغيب أو ترهيب * وقوله (هنيئا مريئا) منصوبان على أنهما صفتان لمصدر محذوف ، أى أكلا هنيئا مريئا أوقائمان مقام المصدر ، أوعلى الحال ، يقال هناه الطعام والشراب يهنيه ومرأه وأمرأه من الهنىء والمرىء والفعل هنأ ومرأ ، أى أتى من غير مشقة ولا غيظ ، وقيل هو الطيب الذى لا تنغيص فيه ، وقيل المحمود العاقبة الطيب الهضم ، وقيل مالا إثم فيه ، والمقصود هنا أنه حلال لهم خالص عن الشوائب ، وخص الأكل لأنه معظم مايراد بالمال ، وان كان سائر الانتفاعات به جائزة كالأكل .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (خلقكم من نفس واحدة) قال آدم (وخلق منها زوجها) . قال حوّاء من قصيرى آدم ، أى قصيرى أضلاعه . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر قال : خلقت حوّاء من خلف آدم الأيسر . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك قال : من ضلع الخلف وهو من أسفل الاضلاع . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (واتقو الله الذى تساءلون به) قال تعاطون به . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع . قال تعاقدون وتعاهدون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد . قال يقول أسألك بالله والرحم . وأخرج ابن جرير عن الحسن نحوه . وأخرج ابن جرير

وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : اتقوا الله الذى تساءلون به واتقوا الأرحام وصلوها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد (ان الله كان عليكم رقيبا) قال حفيظا . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال ان رجلا من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له ، فلما بلغ اليتيم طاب ماله فمنعه عمه فخاصمه إلى النبى ﷺ فنزلت (وآتوا اليتامى أموالهم) يعنى الأوصياء ، يقول : أعطوا اليتامى أموالهم (ولا تتبدّلوا الخبيث بالطيب) يقول : لاتستبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم ، يقول لاتذروا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى شعب الايمان عن مجاهد قال : لاتعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الحلال الذى قدّر لك (ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم) قال : مع أموالكم تخلطونها فتأكلونها جميعا (انه كان حوبا) إثما . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى الآية قال : كان أهل الجاهلية لايورّثون النساء ولايورّثون الصغار يأخذه الأكبر فنصيبه من الميراث طيب وهذا الذى يأخذ خبيث . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة : قال مع أموالكم . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية فى أموال اليتامى كرهوا أن يخالطوهم وجعل ولىّ اليتيم يعزل مال اليتيم عن ماله ، فشكوا ذلك الى النبى ﷺ ، فأنزل الله ـ يسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم ـ قال فخالطوهم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما أن عروة سأل عائشة عن قول الله عز وجل (وان خفتم ألاتقسطوا فى اليتامى) قالت : يابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى مالها و يعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوّجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل مايعطيها غيره فنهوا عن أن ينكحوهنّ الا أن يقسطوا لهنّ و يبلغوا بهنّ أعلى سنتهنّ فى الصداق وأمروا أن ينكحوا ماطاب لهم من النساء سواهنّ ، وأن الناس قد استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية ، فأنزل الله (و يستفتونك فى النساء) قالت عائشة وقول الله فى الآية الأخرى (وترغبون أن تنكحوهنّ) رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا فى ماله وجماله من باقى النساء الابالقسط من أجل رغبتهم عنهنّ اذا كنّ قليلات المال والجمال . وأخرج البخارى عن عائشة أن رجلا كانت له يتيمة فنكحها ، وكان لها عذق ، فكان يمسكها عليه ولم يكن لها من نفسه شىء فنزلت (وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى) أحسبه قال : كانت شريكته فى ذلك العذق وفى ماله . وقد روى هذا المعنى من طرق . وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس فى الآية قال : كان الرجل يتزوّج بمال اليتيم ماشاء الله تعالى ، فنهى الله عن ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : قصر الرجال على أربع نسوة من أجل أموال اليتامى . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى) قال كان الرجل يتزوج ماشاء فقال كما تخافون ألا تعدلوا فى اليتامى فخافوا ألا تعدلوا فيهنّ فقصرهم على الأربع . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية : قال كانوا فى الجاهلية ينكحون عشرا من النساء الأيامى ، وكانوا يعظمون شأن اليتيم فتفقدوا من دينهم شأن اليتامى وتركوا ما كانوا ينكحون فى الجاهلية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى الآية ، قال كما خفتم ألا تعدلوا فى اليتامى فخافوا ألا تعدلوا فى النساء اذا جمعتموهنّ عندكم . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق محمد بن أبى موسى الأشعرى عنه . قال فان خفتم الزنا فانكحوهنّ ، يقول كما خفتم فى أموال اليتامى ألاتقسطوا فيها فكذلك فخافوا على أنفسكم مالم تنكحوا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى مالك (ماطاب لكم) قال ما أحلّ لكم . وأخرج ابن جرير عن الحسن وسعيد

ابن

ابن جبير مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن عائشة نحوه . وأخرج الشافعى وابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وابن ماجه والنحاس فى ناسخه والدارقطنى والبيهقى عن ابن عمر أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم وتحته عشر نسوة فقال له النبى ﷺ اختر منهن ، وفى لفظ أمسك منهن أربعا وفارق سائرهن هذا الحديث أخرجه هؤلاء المذكورون من طرق عن اسمعيل بن علية وغندر ويزيد بن زريع وسعيد بن أبى عروبة وسفيان الثورى وعيسى بن يونس وعبد الرحمن بن محمد المحاربى والفضل بن موسى وغيرهم من الحفاظ عن معمر عن الزهرى عن سالم عن أبيه فذكره . وقد علل البخارى هذا الحديث فحكى عنه الترمذى أنه قال هذا حديث غير محفوظ * والصحيح ماروى عن شعيب وغيره عن الزهرى حدثت عن محمد بن سويد الثقفى أن غيلان بن سلمة فذكره ، وأما حديث الزهرى عن أبيه أن رجلا من ثقيف طلق نساءه فقال له عمر لأرجمن قبرك كما رجم قبر أبى رغال . وقد رواه معمر عن الزهرى مرسلا ، وهكذا رواه مالك عن الزهرى مرسلا . قال أبو زرعة وهو أصح . ورواه عقيل عن الزهرى بلغنا عن عثمان بن محمد بن أبى سويد . قال أبو حاتم وهذا وهم انما هو الزهرى عن عثمان بن أبى سويد . وقد ساقه أحمد برجال الصحيح ، فقال حدثنا اسماعيل ومحمد بن جعفر : قالا حدثنا معمر عن الزهرى . قال أبو جعفر فى حديثه أخبرنا ابن شهاب عن سالم عن أبيه أن غيلان فذكره . وقد روى من غير طريق معمر والزهرى : فأخرجه البيهقى عن أيوب عن نافع وسالم عن ابن عمر أن غيلان فذكره . وأخرج أبو داود وابن ماجه فى سننهما عن عمير الأسدى « قال أسلمت وعندى ثمان نسوة فذكرت للنبى ﷺ فقال اختر منهن أربعا » . قال ابن كثير ان إسناده حسن . وأخرج الشافعى فى مسنده عن نوفل بن معاوية الديلى « قال أسلمت وعندى خمس نسوة : فقال رسول الله ﷺ أمسك أربعا وفارق الأخرى » . وأخرج ابن ماجه والنحاس فى ناسخه عن قيس بن الحارث الأسدى قال « أسلمت وكان تحتى ثمان نسوة فأتيت النبى ﷺ فأخبرته فقال : اختر منهن أربعا وخل سائرهن ففعلت ، وهذه شواهد للحديث الأول كما قال البيهقى » . وأخرج ابن أبى شيبة والبيهقى فى سننه عن الحكم قال : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن المملوك لايجمع من النساء فوق اثنتين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية : يقول ان خفت ألا تعدل فى أربع فثلاث والا فثنتين والا فواحدة فان خفت ألا تعدل فى واحدة فما ملكت يمينك . وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله . وأخرج أيضا عن الضحاك (فان خفتم ألا تعدلوا) قال فى المجامعة والحب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى أو ماملكت أيمانكم : قال السرارى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان فى صحيحه عن عائشة عن النبى ﷺ (ذلك أدنى ألا تعولوا) قال ألا تجوروا . قال ابن أبى حاتم : قال أبى هذا حديث خطأ والصحيح عن عائشة موقوف . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة فى المصنف وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله (ألا تعولوا) قال ألا تميلوا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة : قال ألا تميلوا ، ثم قال أما سمعت قول أبى طالب :

بميزان قسط لايخيس شعيرة * ووازن صدق وزنه غير عائل

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد : قال ألا تميلوا . وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى رزين وأبى مالك والضحاك مثله. وأخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى الآية : قال ذلك أدنى ألا يكثر من تعولوا . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان بن عيينة : قال ألا تفتقروا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى صالح : قال كان

الرجل اذا زوّج أيمة أخذ صداقها دونها فنهاهم الله عن ذلك ونزلت (وآتوا النساء صدقاتهنّ نحلة) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (نحلة) قال يعنى بالنحلة المهر . وأخرج ابن أبى حاتم عن عائشة (نحلة) قالت واجبة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج (وآتوا النساء صدقاتهنّ نحلة) قال فريضة مسماة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج عبدبن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير (فان طبن لكم) قال هى للأزواج . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة (فان طبن لكم عن شىء منه) قال من الصداق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق علىّ عن ابن عباس (فان طبن لكم عن شىء منه نفسا) يقول اذا كان من غير ضرار ولا خديعة فهو هنىء مرىء كما قال الله .

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا *

هذارجوع الى بقية الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى . وقد تقدّم الأمر بدفع أموالهم اليهم فى قوله تعالى (وآتوا اليتامى أموالهم) فبين سبحانه هاهنا أن السفيه وغير البالغ لايجوز دفع ماله إليه . وقد تقدّم فى البقرة معنى السفيه لغة .

واختلف أهل العلم فى هؤلاء السفهاء من هم ؟ فقال سعيد بن جبير هم اليتامى لاتؤتوهم أموالكم . قال النحاس وهذا من أحسن ماقيل فى الآية . وقال مالك هم الأولاد الصغار لاتعطوهم أموالكم فيفسدوها وتبقوا بلا شىء . وقال مجاهد هم النساء . قال النحاس وغيره ، وهذا القول لايصح انما تقول العرب سفائه أو سفيهات . واختلفوا فى وجه إضافة الأموال إلى المخاطبين وهى للسفهاء ، فقيل أضافها إليهم لأنها بأيديهم وهم الناظرون فيها كقوله ـ فسلموا على أنفسكم ـ * وقوله ـ فاقتلوا أنفسكم ـ أى ليسلم بعضكم على بعض ، وليقتل بعضكم بعضا ، وقيل أضافها إليهم لأنها من جنس أموالهم فان الأموال جعلت مشتركة بين الخلق فى الأصل ، وقيل المراد أموال المخاطبين حقيقة ، وبه قال أبو موسى الأشعرى وابن عباس والحسن وقتادة * والمراد النهى عن دفعها إلى من لايحسن تدبيرها كالنساء والصبيان ومن هو ضعيف الادراك لايهتدى الى وجوه النفع التى تصلح المال ولا يتجنب وجوه الضرر التى تهلكه وتذهب به * قوله (التى جعل الله لكم قيما) المفعول الأوّل محذوف ، والتقدير التى جعلها الله لكم ، وقيما قراءة أهل المدينة وأبى عامر ، وقرأ غيرهم قياما ، وقرأ عبدالله بن عمر قواما * والقيام والقوام مايقيمك ، يقال فلان قيام أهله وقوام بيته ، وهوالذى يقيم شأنه : أى يصلحه ، ولما انكسرت القاف فى قوام أبدلوا الواو ياء . قال الكسائى والفراء : قيما وقواما بمعنى قياما ، وهومنصوب على المصدر ، أى لاتؤتوا السفهاء أموالكم التى تصلح بها أموركم فتقومون بها قياما ، وقال الأخفش : المعنى قائمة بأموركم فذهب الى أنها جمع . وقال البصريون قيما جمع قيمة كديمة وديم ، أى جعلها الله قيمة للأشياء ، وخطأ أبو على الفارسى هذا القول وقال هى مصدر كقيام وقوام * والمعنى أنها صلاح للحال وثبات له ، فأما على قول من قال ان المراد أموالهم على مايقتضيه ظاهر الاضافة : فالمعنى واضح . وأما على قول من قال انها أموال اليتامى : فالمعنى أنها من

جنس

جنس ماتقوم به معايشكم و يصلح به حالكم من الأموال . وقرأ الحسن والنخعى اللاتى جعل . قال الفراء الأكثر فى كلام العرب النساء اللواتى والأموال التى ، وكذلك غير الأموال : ذكره النحاس * قوله (وارزقوهم فيها وا كسوهم) أى اجعلوا لهم فيها رزقا أوافرضوا لهم ، وهذا فيمن تلزم نفقته وكسوته من الزوجات والأولاد ونحوهم ، وأما على قول من قال ان الأموال هى أموال اليتامى * فالمعنى اتجروا فيها حتى تربحوا وتنفقوهم من الأرباح أو اجعلوا لهم من أموالهم رزقا ينفقونه على أنفسهم و يكتسون به .

وقد استدل بهذه الآية على جواز الحجر على السفهاء ، و به قال الجمهور . وقال أبو حنيفة لايحجر على من بلغ عاقلا ، واستدل بها أيضا على وجوب نفقة القرابة . والخلاف فى ذلك معروف فى مواطنه * قوله (وقولوا لهم قولا معروفا) قيل ادعوا لهم : بارك الله فيكم ، وحاطكم ، وصنع لكم ، وقيل معناه عدوهم وعدا حسنا قولوا لهم : ان رشدتم دفعنا اليكم أموالكم ، و يقول الأب لابنه : مالى سيصير إليك وأنت ان شاء الله صاحبه ونحو ذلك * والظاهر من الآية مايصدق عليه مسمى القول الجميل ، ففيه إرشاد إلى حسن الخلق مع الأهل والأولاد أو مع الأيتام المكفولين . وقد قال النبى ﷺ فيما صح عنه خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى * قوله (وابتلوا اليتامى) الابتلاء الاختبار . وقد تقدم تحقيقه . وقد اختلفوا فى معنى الاختبار ، فقيل هو أن يتأمل الوصى أخلاق يتيمه ليعلم بنجابته وحسن تصرفه فيدفع اليه ماله إذا بلغ النكاح وآنس منه الرشد ، وقيل معنى الاختبار أن يدفع اليه شيئا من ماله و يأمره بالتصرف فيه حتى يعلم حقيقة حاله ، وقيل معنى الاختبار أن يرد النظر اليه فى نفقة الدار ليعرف كيف تدبيره ، وان كانت جارية رد اليها مايرد الى ربة البيت من تدبير بيتها * والمراد ببلوغ النكاح بلوغ الحلم لقوله تعالى ــ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم ــ ومن علامات البلوغ الانبات ، و بلوغ خمس عشرة سنة . وقال مالك وأبو حنيفة وغيرهما لايحكم لمن لم يحتلم بالبلوغ الا بعد مضى سبع عشرة سنة ، وهذه العلامات تعم الذكر والأنثى ، وتختص الأنثى بالحبل والحيض * قوله (فان آنستم) أى أبصرتم ورأيتم ، ومنه قوله ــ آنس من جانب الطور نارا ــ . قال الأزهرى تقول العرب اذهب فاستأنس هل ترى أحدا معناه تبصر ، وقيل هو هنا بمعنى وجد وعلم ، أى فان وجدتم وعلمتم منهم رشدا . وقراءة الجمهور رشدا بضم الراء وسكون الشين . وقرأ ابن مسعود والسلمى وعيسى الثقفى بفتح الراء والشين ، قيل هما لغتان ، وقيل هو بالضم مصدر رشد و بالفتح مصدر رشد

واختلف أهل العلم فى معنى الرشد هاهنا ، فقيل الصلاح فى العقل والدين ، وقيل فى العقل خاصة . قال سعيد بن جبير والشعبى انه لايدفع إلى اليتيم ماله إذا لم يؤنس رشده وان كان شيخا . قال الضحاك وان بلغ مائة سنة ، وجمهور العلماء على أن الرشد لايكون الابعد البلوغ ، وعلى أنه ان لم يرشد بعد بلوغ الحلم لايزول عنه الحجر . وقال أبو حنيفة لايحجر على الحر البالغ وان كان أفسق الناس وأشدهم تبذيرا ، و به قال النخعى وزفر * وظاهر النظم القرآنى أنها لاتدفع اليهم أموالهم إلا بعد بلوغ غاية هى بلوغ النكاح مقيدة هذه الغاية بايناس الرشد ، فلا بد من مجموع الأمرين فلا تدفع الى اليتامى أموالهم قبل البلوغ وان كانوا معروفين بالرشد ولا بعد البلوغ إلا بعد إيناس الرشد منهم * والمراد بالرشد نوعه وهو المتعلق بحسن التصرف فى أمواله وعدم التبذير بها ووضعها فى مواضعها * قوله (ولا تأكلوها إسرافا و بدارا أن يكبروا) الاسراف فى اللغة : الافراط ومجاوزة الحد . وقال النضر بن شميل السرف : التبذير ، والبدار المبادرة و (أن يكبروا) فى موضع نصب بقوله (بدارا) أى لاتأكلوا أموال اليتامى أكل إسراف وأكل مبادرة لكبرهم أولا تأكلوا لأجل السرف ولأجل المبادرة أولا تأكلوها مسرفين ومبادرين لكبرهم وتقولوا ننفق أموال اليتامى فيما نشتهى قبل أن يبلغوا فينتزعوها من أيدينا * قوله (ومن كان

غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) بين سبحانه مايحل لهم من أموال اليتامى ، فأمر الغنىّ بالاستعفاف وتوفير مال الصبى عليه وعدم تناوله منه ، وسوّغ للفقير أن يأكل بالمعروف .

واختلف أهل العلم فى الأكل بالمعروف ماهو ؟ فقال قوم هو القرض اذا احتاج اليه ويقضى متى أيسر الله عليه ، وبه قال عمر بن الخطاب وابن عباس وعبيدة السلمانى وابن جبير والشعبى ومجاهد وأبو العالية والأوزاعى ، وقال النخعى وعطاء والحسن وقتادة لاقضاء على الفقير فيما يأكل بالمعروف ، وبه قال جمهور الفقهاء ، وهذا بالنظم القرآنى ألصق فان اباحة الأكل للفقير مشعرة بجواز ذلك له من غير قرض ، والمراد بالمعروف المتعارف به بين الناس فلا يترفه بأموال اليتامى ويبالغ فى التنعم بالمأكول والمشروب والملبوس ، ولايدع نفسه عن سدّ الفاقة وستر العورة ، والخطاب فى هذه الآية لأولياء الأيتام القائمين بما يصلحهم كالأب والجدّ ووصيهما ، وقال بعض أهل العلم : المراد بالآية اليتيم ان كان غنيا وسع عليه وعف من ماله ، وان كان فقيرا كان الانفاق عليه بقدر مايحصل له ، وهذا القول فى غاية السقوط * قوله (فاذا دفعتم اليهم أموالهم فأشهدوا عليهم) أى اذا حصل مقتضى الدفع فدفعتم اليهم أموالهم فأشهدوا عليهم أنهم قدقبضوها منكم لتندفع عنكم التهم وتأمنوا عاقبة الدعاوى الصادرة منهم ، وقيل ان الاشهاد المشروع هو على ماأنفقه عليهم الأولياء قبل رشدهم ، وقيل هو على ردّ مااستقرضه الى أموالهم ، وظاهر النظم القرآنى مشروعية الاشهاد على مادفع اليهم من أموالهم وهو يعمّ الانفاق قبل الرشد ، والدفع للجميع اليهم بعد الرشد (وكفى بالله حسيبا) أى حاسبا لأعمالكم شاهدا عليكم فى كل شىء تعملونه ، ومن جملة ذلك معاملتكم لليتامى فى أموالهم ، وفيه وعيد عظيم ، والباء زائدة ، أى كفى الله .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) يقول لاتعمد الى مالك وماخوّلك الله وجعله لك معيشة ، فتعطيه امرأتك أو بنتك ، ثم تضطر الى مافى أيديهم ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذى تنفق عليهم فى كسوتهم ورزقهم ومؤونتهم قال : وقوله (قواما) يعنى قوامكم من معايشكم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه من طريق العوفى فى الآية يقول : لاتسلط السفيه من ولدك على مالك ، وأمره أن يرزقه منه ويكسوه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال هم بنوك والنساء . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى أمامة قال قال رسول الله ﷺ «ان النساء السفهاء الا التى أطاعت قيمها» وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : هم الخدم ، وهم شياطين الانس . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود قال : هم النساء والصبيان . وأخرج ابن جرير عن حضرمى أن رجلا عمد فدفع ماله الى امرأته فوضعته فى غير الحق : فقال الله (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير قال : هم اليتامى والنساء . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : هو مال اليتيم يكون عندك ، يقول لاتؤته إياه وأنفق عليه حتى يبلغ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (وارزقوهم) يقول أنفقوا عليهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد (وقولوا لهم قولا معروفا) قال أمروا أن يقولوا لهم قولا معروفا فى البرّ والصلة . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج (وقولوا لهم قولا معروفا) قال عدة تعدونهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (وابتلوا اليتامى) يعنى اختبروا اليتامى عند الحلم (فان آنستم) عرفتم (منهم رشدا) فى حالهم والاصلاح فى أموالهم (فادفعوا اليهم أموالهم ولاتأكلوها إسرافا وبدارا) يعنى تأكل مال اليتيم بادرة قبل أن يبلغ فتحول بينه وبين ماله . وأخرج البخارى وغيره عن عائشة قالت : أنزلت هذه الآية فى ولىّ اليتيم (ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) بقدر قيامه عليه . وأخرج عبد بن حميد

وابن

وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس (ومن كان غنيا فليستعفف) قال بغناه (ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) قال يأكل من ماله يقوت على نفسه حتى لايحتاج الى مال اليتيم . وأخرج ابن جرير عنه قال : هو القرض . وأخرج عبد بن حميد والبيهقى عن ابن عباس قال ان كان فقيرا أخذ من فضل اللبن وأخذ من فضل القوت ولايجاوزه ، ومايستر عورته من الثياب ، فان أيسر قضاه وان أعسر فهو فى حل . وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى سننه من طرق عن عمر بن الخطاب قال انى أنزلت نفسى من مال الله بمنزلة ولى اليتيم ان استغنيت استعففت وان احتجت أخذت منه بالمعروف فاذا أيسرت قضيت . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن أبى حاتم عن ابن عمر أن رجلا سأل رسول الله ﷺ فقال ليس لى مال ولى يتيم ، فقال كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذر ولا متأثل مالا ومن غير أن تقى مالك بماله . وأخرج أبو داود والنحاس كلاهما فى الناسخ وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) قال نسختها (ان الذين يأكلون أموال اليتامى) الآية .

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا *

لما ذكر سبحانه حكم أموال اليتامى وصله بأحكام المواريث وكيفية قسمتها بين الورثة . وأفرد سبحانه ذكر النساء بعد ذكر الرجال ، ولم يقل للرجال والنساء نصيب ، للايذان بأصالتهن فى هذا الحكم ، ودفع ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريث النساء ، وفى ذكر القرابة بيان لعلة الميراث مع التعميم لما يصدق عليه مسمى القرابة من دون تخصيص * وقوله (مما قل منه أو كثر) بدل من قوله (مما ترك) باعادة الجار ، والضمير فى قوله (منه) راجع الى المبدل منه * وقوله (نصيبا) منتصب على الحال أو على المصدرية أو على الاختصاص ، وسيأتى ذكر السبب فى نزول هذه الآية ان شاء الله ، وقد أجمل الله سبحانه فى هذه المواضع قدر النصيب المفروض ، ثم أنزل قوله (يوصيكم الله فى أولادكم) فبين ميراث كل فرد * قوله (واذا حضر القسمة أولوا القربى) المراد بالقرابة هنا غير الوارثين ، وكذا اليتامى والمساكين : شرع الله سبحانه أنهم اذا حضروا قسمة التركة كان لهم منها رزق فيرضخ لهم المتقاسمون شيئا منها . وقد ذهب قوم الى أن الآية محكمة وأن الأمر للندب . وذهب آخرون الى أنها منسوخة بقوله تعالى (يوصيكم الله فى أولادكم) والأول أرجح ، لأن المذكور فى الآية للقرابة غير الوارثين ليس هو من جملة الميراث حتى يقال انها منسوخة بآية المواريث الا أن يقولوا ان أولى القربى المذكورين هنا هم الوارثون ، كان للنسخ وجه ، وقالت طائفة ان هذا الرضخ لغير الوارث من القرابة واجب بمقدار ماتطيب به أنفس الورثة : وهو معنى الأمر الحقيقى فلا يصار الى الندب الا لقرينة ، والضمير فى قوله (منه) راجع الى المال المقسوم المدلول عليه بالقسمة ، وقيل راجع الى ماترك * والقول المعروف : هو القول الجميل الذى ليس فيه من بما صار اليهم من الرضخ ولا أذى *

قوله (وليخش الذين لو تركوا) هم الأوصياء كما ذهب اليه طائفة من المفسرين ، وفيه وعظ لهم بأن يفعلوا باليتامى الذين فى حجورهم مايحبون أن يفعل بأولادهم من بعدهم ، وقالت طائفة المراد جميع الناس ، أمروا باتقاء الله فى الأيتام وأولاد الناس وان لم يكونوا فى حجورهم ، وقال آخرون ان المراد بهم من يحضر الميت عند موته ، أمروا بتقوى الله ، و بأن يقولوا للمحتضر قولا سديدا من ارشادهم الى التخلص عن حقوق الله وحقوق بنى آدم ، والى الوصية بالقرب المقربة الى الله سبحانه ، والى ترك التبذير بماله واحرام ورثته كما يخشون على ورثتهم من بعدهم لو تركوهم فقراء عالة يتكففون الناس ، وقال ابن عطية الناس صنفان يصلح لأحدهما أن يقال له عند موته مالا يصلح للآخر ، وذلك أن الرجل اذا ترك ورثته مستقلين بأنفسهم أغنياء حسن أن يندب الى الوصية ، ويحمل على أن يقدم لنفسه ، واذا ترك ورثة ضعفاء مفلسين ، حسن أن يندب الى الترك لهم والاحتياط فان أجره فى قصد ذلك كأجره فى المساكين ، قال القرطبى : وهذا التفصيل صحيح * قوله (لو تركوا) صلة الموصول ، والفاء فى قوله (فليتقوا) لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، والمعنى وليخش الذين صفتهم ، وحالهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافا ، وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم وكاسبهم ، ثم أمرهم بتقوى الله : والقول السديد للمحتضرين ، أو لأولادهم من بعدهم على ماسبق * قوله (ان الذين يأكلون أموال اليتامى) استئناف يتضمن النهى عن ظلم الأيتام من الأولياء والأوصياء ، وانتصاب قوله (ظلما) على المصدرية ، أى أكل ظلم ، أو على الحالية : أى ظالمين لهم * وقوله (انما يأكلون فى بطونهم نارا) أى ما يكون سببا للنار ، تعبيرا بالمسبب عن السبب ، وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية * وقوله (وسيصلون) قراءة عاصم وابن عامر بضم الياء على مالم يسم فاعله . وقرأ أبو حيوة بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام من التصلية لكثرة الفعل مرة بعد أخرى . وقرأ الباقون بفتح الياء من صلى النار يصلاها ، والصلى هو التسخن بقرب النار أو مباشرتها ، ومنه قول الحارث بن عباد :

لم أكن من جناتها علم الله ... وانى لحرها اليوم صالى

والسعير الجمر المشتعل .

وقد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ولا الصغار حتى يدركوا فمات رجل من الأنصار يقال له أوس بن ثابت وترك ابنتين وابنا صغيرا فجاء ابنا عمه وهما عصبته الى رسول الله ﷺ فأخذا ميراثه كله ، فجاءت امرأته الى رسول الله ﷺ فنزلت الآية ، فأرسل اليهما رسول الله فقال : لا تحركا من الميراث شيئا ، فانه قد أنزل على شىء احترت فيه ان للذكر والأنثى نصيبا ، ثم نزل بعد ذلك (و يستفتونك فى النساء) ، ثم نزل (يوصيكم الله فى أولادكم) فدعا بالميراث ، فأعطى المرأة الثمن ، وقسم ما بقى للذكر مثل حظ الأنثيين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى الآية قال نزلت فى أم كلثوم ابنة أم كحلة أو أم كحة وثعلبة بن أوس وسويد وهم من الأنصار كان أحدهم زوجها والآخر عم ولدها ، فقالت يارسول الله توفى زوجى وتركنى وابنته فلم نورث من ماله ، فقال عم ولدها يارسول الله لا يركب فرسا ولا ينكى عدوا ويكسب عليها ولا يكتسب فنزلت . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس فى قوله تعالى (واذا حضر القسمة) : قال هى محكمة وليست بمنسوخة . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن خطاب بن عبد الله فى هذه الآية قال : قضى بها أبو موسى . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : هى واجبة على أهل الميراث ماطابت به أنفسهم . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة عن الحسن والزهرى قالا : هى محكمة ماطابت به أنفسهم . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن جرير والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : يرضخ لهم فان كان فى ماله تقصير

اعتذر

ie. Abu Bakr 'an 'Asim.

اعتذر اليهم فهو قولا معروفا . وأخرج ابن المنذر عن عائشة أنها لم تنسخ . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن أبى حاتم أن هذه الآية منسوخة بآية الميراث . وأخرج أبو داود فى ناسخه وعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب قال : هى منسوخة . وأخرج ابن جرير عن سعيد ابن جبير قال : ان كانوا كبارا يرضخوا وان كانوا صغارا اعتذروا اليهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه فى قوله (وليخش الذين لو تركوا) قال هذا فى الرجل يحضر الرجل عند موته فيسمعه يوصى وصية تضرّ بورثته ، فأمر الله الذى يسمعه أن يتقى الله ويوفقه و يسدّده للصواب ولينظر لورثته كما يحب أن يصنع لورثته اذا خشى عليهم الضيعة . وقد روى نحو هذا من طرق . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو يعلى والطبرانى وابن حبان فى صحيحه وابن أبى حاتم عن أبى برزة عن رسول الله ﷺ قال : يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج أفواههم نارا . فقيل يارسول الله من هم ؟ قال : ألم تر أن الله يقول (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى سعيد الخدرى قال : حدثنا النبى ﷺ عن ليلة أسرى به قال نظرت فاذا بقوم لهم مشافر كمشافر الابل ، وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل فى أفواههم صخرا من نار فيقذف فى فى أحدهم حتى يخرج من أسافلهم ، ولهم جؤار وصراخ : فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء (الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم قال هذه الآية لأهل الشرك حين كانوا لايورّثونهم ويأكلون أموالهم .

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِي أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ * تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ *

هذا تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون) الآية ، وقد استدل بذلك على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة ، وهذه الآية ركن من أركان الدين وعمدة من عمد الأحكام

وأمّ من أمهات الآيات لاشتمالها على مايهمّ من علم الفرائض ، وقد كان هـذا العلم من أجلّ علوم الصحابة وأ كثر مناظراتهم فيه ، وسيأتى بعد كمال تفسير مااشتمل عليه كلام الله من الفرائض ذكر بعض فضائل هذا العلم ان شاء الله * قوله (يوصيكم الله فى أولادكم) أى فى بيان ميراثهم * وقد اختلفوا هل يدخل أولاد الأولاد أم لا ، فقالت الشافعية انهم يدخلون مجازا لاحقيقة : وقالت الحنفية انه يتناولهم لفظ الأولاد حقيقة اذا لم يوجد أولاد الصلب ، ولاخلاف أن بنى البنين كالبنين فى الميراث مع عدمهم ، وانما هذا الخلاف فى دلالة لفظ الأولاد على أولادهم مع عدمهم ، ويدخل فى لفظ الأولاد من كان منهم كافرا ، ويخرج بالسنة وكذلك يدخل القاتل عمدا ، ويخرج أيضا بالسنة والاجماع ، ويدخل فيه الخنثى قال القرطبى : وأجمع العلماء أنه يورّث من حيث يبول ، فان بال منهما : فمن حيث سبق ، فان خرج البول منهما من غير سبق أحدهما فله نصف نصيب الذكر ونصف نصيب الأنثى ، وقيـل يعطى أقلّ النصيبين : وهو نصيب الأنثى : قاله يحي ابن آدم ، وهو قول الشافعى ، وهـذه الآية ناسخة لما كان فى صدر الاسلام من الموارثة بالحلف والهجرة والمعاقدة ، وقد أجمع العلماء على أنه اذا كان مع الأولاد من له فرض مسمى أعطيه : وكان مابقى من المال للذكر مثل حظ الأنثيين للحديث الثابت فى الصحيحين وغيرهما بلفظ «ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما أبقت الفرائض ، فلأولى رجل ذكر» الا اذا كان ساقطا معهم كالأخوة لأم * وقوله (للذكر مثل حظ الأنثيين) جملة مستأنفة لبيان الوصـية فى الأولاد ، فلابد من تقدير ضمير يرجع اليهم : أى يوصيكم الله فى أولادكم للذكر منهم مثـل حظ الأنثيين * والمراد حال اجتماع الذكور والأناث ، وأما حال الانفراد فللذكر جميع الميراث وللأنثى النصف وللاثنتين فصاعدا الثلثان * قوله (فان كنّ نساء فوق اثنتين فلهنّ ثلثا ماترك) أى فان كنّ الأولاد ، والتأنيث باعتبار الخبر ، أو البنات ، أو المولودات نساء ليس معهن ذكر فوق اثنتين أى زائدات على اثنتين على أن فوق صفة لنساء أو يكون خبرا ثانيا لـكان (فلهنّ ثلثا ماترك) الميت المدلول عليه بقرينة المقام * وظاهر النظم القرآنى أن الثلثين فريضة الثلاث من البنات فصاعدا ولم يسم للاثنتين فريضة ، ولهذا اختلف أهل العلم فى فريضتهما فذهب الجمهور الى أن لهما اذا انفردتا عن البنين الثلثين ، وذهب ابن عباس الى أن فريضتهما النصف ، احتج الجمهور بالقياس على الأختين فان الله سبحانه قال فى شأنهما ـ فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان ـ فألحقوا البنتين بالأختين فى استحقاقهما الثلثين كما ألحقوا الأخوات اذا زدن على اثنتين بالبنات فى الاشتراك فى الثلثين ، وقيل فى الآية مايدل على أن للبنتين الثلثين ، وذلك أنه لما كان للواحدة مع أخيها الثلث كان للابنتين اذا انفردتا الثلثان هكذا احتج بهذه الحجة اسمعيل بن عياش والمبرد . قال النحاس وهذا الاحتجاج عند أهل النظر غلط لأن الاختلاف فى البنتين اذا انفردتا عن البنين ، وأيضا للمخالف أن يقول إذا ترك بنتين وابنا فللبنتين النصف فهذا دليل على أن هذا فرضهما ، ويمكن تأييد مااحتج به الجمهور بأن الله سبحانه لما فرض للبنت الواحدة اذا انفردت النصف بقوله تعالى (وان كانت واحـدة فلها النصف) كان فرض البنتين اذا انفردتا فوق فرض الواحدة ، وأوجب القياس على الأختين الاقتصار للبنتين على الثلثين * وقيل ان فوق زائدة ، والمعنى وان كنّ نساء اثنتين كقوله تعالى ـ فاضربوا فوق الأعناق ـ أى الأعناق ، وردّ هذا النحاس وابن عطية ، فقالا هو خطأ ، لأن الظروف وجميع الأسماء لاتجوز فى كلام العرب أن تزاد لغير معنى ، قال ابن عطية : ولأن قوله ـ فوق الأعناق ـ هو الفصيح ، وليست فوق زائدة ، بل هى محكمة المعنى ، لأن ضربة العنق انما يجب أن تـكون فوق العظام فى المفصل دون الدماغ ، كما قال دريد بن الصمة : اخفض عن الدماغ ، وارفع عن العظم فهكذا كنت أضرب أعناق الأبطال انتهى ، وأيضا لوكان لفظ فوق زائدا كما قالوا لقال فلهما ثلثاماترك ولم يقل فلهنّ ثلثا ماترك ،

واوضح

وأوضح مايحتج به للجمهور ماأخرجه ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه وأبو يعلى وابن أبى حاتم وابن حبان والحاكم والبيهقى فى سننه عن جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع الى رسول الله ﷺ فقالت يارسول الله : هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك فى أحد شهيدا وان عمهما أخذ مالهما ، فلم يدع لهما مالا ولا ينكحان الا ولهما مال ، فقال يقضى الله فى ذلك ، فنزلت آية الميراث (يوصيكم الله فى أولادكم) الآية ، فأرسل رسول الله ﷺ الى عمهما فقال أعط ابنتى سعد الثلثين وأمهما الثمن وما بقى فهو لك ، أخرجوه من طرق عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر ، قال الترمذى ولا يعرف الامن حديثه * قوله (وان كانت واحدة فلها النصف) قرأ نافع وأهل المدينة (واحدة) بالرفع على أن كان تامة بمعنى : فان وجدت واحدة أو حدثت واحدة . وقرأ الباقون بالنصب ، قال النحاس وهذه قراءة حسنة . أى وان كانت المتروكة أو المولودة واحدة * قوله (ولأبويه لكل واحد منهما السدس) أى لأبوى الميت ، وهوكناية عن غير مذكور ، وجاز ذلك لدلالة الكلام عليه و (لكل واحد منهما السدس) بدل من قوله (ولأبويه) بتكرير العامل للتأكيد والتفصيل . وقرأ الحسن ونعيم بن ميسرة السدس بسكون الدال ، وكذلك قرآ الثلث والربع الى العشر بالسكون ، وهى لغة بنى تميم وربيعة . وقرأ الجمهور بالتحريك ضما ، وهى لغة أهل الحجاز و بنى أسد فى جميعها * والمراد بالأبوين الأب والأم والتثنية على لفظ الأب للتغليب .

وقد اختلف العلماء فى الجد هل هو بمنزلة الأب فتسقط به الأخوة أم لا ، فذهب أبو بكر الصديق الى أنه بمنزلة الأب ، ولم يخالفه أحد من الصحابة أيام خلافته ، واختلفوا فى ذلك بعد وفاته فقال بقول أبى بكر ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعائشة ومعاذ بن جبل وأبىّ بن كعب وأبو الدرداء وأبو هريرة وعطاء وطاووس والحسن وقتادة وأبو حنيفة وأبو ثور واسحق واحتجوا بمثل قوله تعالى ـ ملة أبيكم ابراهيم ـ وقوله ـ يابنى آدم ـ وقوله ﷺ «ارموا يابنى اسماعيل» * وذهب على بن أبى طالب وزيد ابن ثابت وابن مسعود الى توريث الجد مع الاخوة لأبوين أو لأب ولا ينقص معهم من الثلث ولا ينقص مع ذوى الفروض من السدس فى قول زيد ومالك والأوزاعى وأبى يوسف ومحمد والشافعى . وقيل يشرك بين الجد والاخوة الى السدس ولا ينقصه من السدس شيئا مع ذوى الفروض وغيرهم وهو قول ابن أبى ليلى وطائفة * وذهب الجمهور الى أن الجد يسقط بنى الاخوة ، وروى الشعبى عن على أنه أجرى بنى الاخوة فى المقاسمة مجرى الاخوة * وأجمع العلماء على أن الجد لا يرث مع الأب شيئا ، وأجمع العلماء على أن للجدة السدس اذا لم يكن للميت أمّ ، وأجمعوا على أنها ساقطة مع وجود الأم ، وأجمعوا على أن الأب لا يسقط الجدّة أم الأمّ .

واختلفوا فى توريث الجدّة وابنها حىّ ، فروى عن زيد بن ثابت وعثمان وعلىّ أنها لا ترث وابنها حىّ ، و به قال مالك والثورى والأوزاعى وأبو ثور وأصحاب الرأى ، وروى عن عمر وابن مسعود وأبى موسى أنها ترث معه ، وروى أيضا عن علىّ وعثمان ، و به قال شريح وجابر بن زيد وعبيد الله بن الحسن وشريك وأحمد واسحق وابن المنذر * قوله (ان كان له ولد) الولد يقع على الذكر والأنثى ، لكنه اذا كان الموجود الذكر من الأولاد وحده أو مع الأنثى منهم فليس للجدّ الا السدس وان كان الموجود أنثى كان للجدّ السدس بالفرض وهو عصبة فيما عدا السدس ، وأولاد ابن الميت كأولاد الميت * قوله (فان لم يكن له ولد) أى ولا ولد ابن لما تقدّم من الاجماع (وورثه أبواه) منفردين عن سائر الورثة كما ذهب اليه الجمهور من أن الأم لا تأخذ ثلث التركة الا اذا لم يكن للميت وارث غير الأبوين ، أما لو كان معهما أحد الزوجين فليس للأم الا ثلث الباقى بعد الموجود من الزوجين ، وروى عن ابن عباس أن للأم ثلث الأصل مع أحد الزوجين ، وهو يستلزم تفضيل الأمّ على الأب فى مسئلة زوج وأبوين مع الاتفاق على أنه أفضل منها عند انفرادهما عن أحد الزوجين * قوله (فان كان له إخوة فلأمه السدس) اطلاق

الاخوة يدل على أنه لافرق بين الاخوة لأبوين أولأحدهما .

وقد أجمع أهل العلم على أن الاثنين من الاخوة يقومون مقام الثلاثة فصاعدا فى حجب الأم إلى السدس إلاماروى عن ابن عباس أنه جعل الاثنين كالواحد فى عدم الحجب * وأجمعوا أيضا على أن الأختين فصاعدا كالأخوين فى حجب الأم * قوله (من بعد وصية يوصى بها أودين) قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم (يوصى) بفتح الصاد ، وقرأ الباقون بكسرها ، واختار الكسر أبو عبيد وأبو حاتم لأنه جرى ذكر الميت قبل هذا . قال الأخفش وتصديق ذلك قوله (يوصين وتوصون) .

واختلف فى وجه تقديم الوصية على الدين مع كونه مقدما عليها بالاجماع ، فقيل المقصود تقديم الأمرين على الميراث من غير قصد إلى الترتيب بينهما ، وقيل لما كانت الوصية أقل لزوما من الدين قدمت اهتماما بها ، وقيل قدمت لكثرة وقوعها فصارت كالأمر اللازم لكل ميت ، وقيل قدمت لكونها حظ المساكين والفقراء ، وأخر الدين لكونه حظ غريم يطلبه بقوة وسلطان ، وقيل لما كانت الوصية ناشئة من جهة الميت قدمت بخلاف الدين فانه ثابت مؤدى ذكر أولم يذكر ، وقيل قدمت لكونها تشبه الميراث فى كونها مأخوذة من غير عوض ، فربما يشق على الورثة إخراجها ، بخلاف الدين فان نفوسهم مطمئنة بأدائه ، وهذه الوصية مقيدة بقوله تعالى (غير مضار) كما سيأتى ان شاء الله * قوله (آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا) قيل خبر قوله (آباؤكم وأبناؤكم) مقدر ، أى هم المقسوم عليهم ، وقيل ان الخبر قوله (لاتدرون) ومابعده (وأقرب) خبر قوله (أيهم) و (نفعا) تمييز ، أى لاتدرون أيهم قريب لكم نفعه فى الدعاء لكم والصدقة عنكم كما فى الحديث الصحيح « أو ولد صالح يدعوله » . وقال ابن عباس والحسن قد يكون الابن أفضل فيشفع فى أبيه . وقال بعض المفسرين ان الابن اذا كان أرفع درجة من أبيه فى الآخرة سأل الله أن يرفع اليه أباه ، واذا كان الأب أرفع درجة من ابنه سأل الله أن يرفع ابنه إليه ، وقيل المراد النفع فى الدنيا والآخرة قاله ابن زيد ، وقيل المعنى انكم لاتدرون من أنفع لكم من آبائكم وأبنائكم أمن أوصى منهم فعرضكم لثواب الآخرة بامضاء وصيته فهو أقرب لكم نفعا ، أومن ترك الوصية ووفر عليكم عرض الدنيا ، وقوى هذا صاحب الكشاف قال لأن الجملة اعتراضية ومن حق الاعتراض أن يؤكد مااعترض بينه ، ويناسبه * قوله (فريضة من الله) نصب على المصدر المؤكد ، اذ معنى (يوصيكم) يفرض عليكم . وقال مكى وغيره هى حال مؤكدة ، والعامل يوصيكم * والأول أولى (ان الله كان عليما) بقسمة المواريث (حكيما) حكم بقسمتها وبينها لأهلها . وقال الزجاج (عليما) بالأشياء قبل خلقها (حكيما) فيما يقدره ويمضيه منها * قوله (ولكم نصف ماترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد) الخطاب هنا للرجال * والمراد بالولد ولد الصلب أو ولد الولد لما قدمنا من الاجماع (فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن) ، وهذا مجمع عليه لم يختلف أهل العلم فى أن للزوج مع عدم الولد النصف ومع وجوده وان سفل الربع * وقوله (من بعد وصية) الخ الكلام فيه كما تقدم * قوله (ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم) هذا النصيب مع الولد والنصيب مع عدمه تنفرد به الواحدة من الزوجات ويشترك فيه الأكثر من واحدة لاخلاف فى ذلك ، والكلام فى الوصية والدين كما تقدم * قوله (وان كان رجل يورث كلالة) المراد بالرجل الميت (ويورث) على البناء للمفعول من ورث لامن أورث وهو خبر كان (وكلالة) حال من ضمير (يورث) أى يورث حال كونه ذا كلالة ، أو على أن الخبر كلالة (ويورث) صفة (لرجل) أى ان كان رجل يورث ذا كلالة ليس له ولد ولا والد ، وقرئ (يورث) مخففا ومشددا فيكون كلالة مفعولا أو حالا ، والمفعول محذوف ، أى يورث ، وأريد حال كونه ذا كلالة ، أويكون مفعولا له ، أى لأجل

الكلالة * والكلالة مصدر من تكلله النسب ، أى أحاط به ، وبه سمى الاكليل لاحاطته بالرأس * وهو الميت الذى لاولد له ولا والد : هذا قول أبى بكر الصديق وعمر وعلىّ وجمهور أهل العلم ، وبه قال صاحب كتاب العين وأبى منصور اللغوى وابن عرفة والقتيبى وأبو عبيد وابن الأنبارى . وقد قيل انه إجماع . قال ابن كثير ، وبه يقول أهل المدينة والكوفة والبصرة وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور الخلف والسلف بل جميعهم . وقد حكى الاجماع غير واحد ، وورد فيه حديث مرفوع انتهى ، وروى أبو حاتم والأثرم عن أبى عبيدة أنه قال الكلالة : كل من لم يرثه أب أو ابن أو أخ فهو عند العرب كلالة . قال أبو عمر بن عبد البرّ ذكر أبى عبيدة الأخ هنا مع الأب والابن فى شرط الكلالة غلط لاوجه له ولم يذكره فى شرط الكلالة غيره ، وما يروى عن أبى بكر وعمر من أن الكلالة من لاولد له خاصة فقد رجعا عنه . وقال ابن زيد الكلالة : الحىّ والميت جميعا ، وانما سموا القرابة كلالة لأنهم أطافوا بالميت من جوانبه وليسوا منه ولا هو منهم ، بخلاف الابن والأب فانهما طرفان له فاذا ذهبا تكلله النسب ، وقيل ان الكلالة مأخوذة من الكلال وهو الاعياء فكأنه يصير الميراث الى الوارث عن بعد وإعياء . وقال ابن الأعرابى ان الكلالة بنو العمّ الأباعد ، وبالجملة فمن قرأ (يورث كلالة) بكسر الراء مشدّدة وهو بعض الكوفيين ، أو مخففة وهو الحسن وأيوب جعل الكلالة القرابة ، ومن قرأ (يورث) بفتح الراء وهم الجمهور احتمل أن يكون الكلالة الميت ، واحتمل أن يكون القرابة . وقد روى عن علىّ وابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس والشعبى أن الكلالة ما كان سوى الولد والوالد من الورثة . قال الطبرى : الصواب أن الكلالة هم الذين يرثون الميت من عدا ولده ووالده ، لصحة خبر جابر : فقلت يارسول الله إنما يرثنى كلالة أفأوصى بمالى كله ؟ قال لا ، انتهى . وروى عن عطاء أنه قال الكلالة : المال . قال ابن العربى : وهذا قول ضعيف لاوجه له . وقال صاحب الكشاف ان الكلالة تنطلق على ثلاثة : على من لم يخلف ولدا ولا والدا ، وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلفين ، وعلى القرابة من غير جهة الولد والوالد انتهى * قوله (أو امرأة) معطوف على رجل مقيد بما قيد به ، أى أو امرأة تورث كلالة * قوله (وله أخ أو أخت) قرأ سعد بن أبى وقاص من أمّ ، وسيأتى ذكر من أخرج ذلك عنه . قال القرطبى أجمع العلماء أن الاخوة هاهنا هم الاخوة لأمّ : قال ولا خلاف بين أهل العلم أن الاخوة للأب والأمّ أو للأب ليس ميراثهم هكذا : فدلّ إجماعهم على أن الاخوة المذكورين فى قوله تعالى (وان كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين) هم الاخوة لأبوين أو لأب ، وأفرد الضمير فى قوله (وله أخ أو أخت) لأن المراد كل واحد منهما كما جرت بذلك عادة العرب إذا ذكروا اسمين مستويين فى الحكم فانهم قد يذكرون الضمير الراجع اليهما مفردا كما فى قوله تعالى ـ واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة ـ * وقوله ـ يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ـ . وقد يذكرونه مثنى كما فى قوله ـ إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ـ . وقد قدّمنا فى هذا كلاما أطول من المذكور هنا * قوله (فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث) الاشارة بقوله (من ذلك) إلى قوله (وله أخ أو أخت) أى أكثر من الأخ المنفرد أو الأخت المنفردة بواحد ، وذلك بأن يكون الموجود اثنين فصاعدا : ذكرين أو أنثيين أو ذكرا وأنثى . وقد استدلّ بذلك على أن الذكر كالأنثى من الاخوة لأمّ ، لأن الله شرّك بينهم فى الثلث ولم يذكر فضل الذكر على الأنثى كما ذكره فى البنين والاخوة لأبوين أو لأب . قال القرطبى وهذا إجماع ، ودلت الآية على أن الاخوة لأمّ إذا استكملت بهم المسئلة كانوا أقدم من الاخوة لأبوين أو لأب ، وذلك فى المسئلة المسماة بالحمارية وهى إذا تركت الميتة زوجا وأمّا وأخوين لأمّ وإخوة لأبوين فان للزوج النصف وللأمّ السدس وللأخوين

لأمّ الثلث ولا شيء للاخوة لأبوين ، ووجه ذلك أنه قد وجد الشرط الذى يرث عنده الاخوة من الأمّ وهوكون الميت كلالة ، و يؤيد هذا حديث « ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل ذكر » وهو فى الصحيحين وغيرهما . وقد قررنا دلالة الآية والحديث على ذلك فى الرسالة التى سميناها « المباحث الدرية فى المسئلة الحمارية » . وفى هذه المسئلة خلاف بين الصحابة فمن بعدهم معروف * قوله (من بعد وصية يوصى بها أودين) الكلام فيه كما تقدّم * قوله (غير مضارّ) أى يوصى حال كونه غير مضارلورثته بوجه من وجوه الضرار ، كأن يقرّ بشىء ليس عليه أو يوصى بوصية لامقصد له فيها الا الاضرار بالورثة . أو يوصى لوارث مطلقا أو لغيره بزيادة على الثلث ولم تجزه الورثة ، وهذا القيد أعنى قوله (غير مضار) راجع الى الوصية والدين المذكورين فهوقيدلهما ، فما صدر من الاقرارات بالديون أوالوصايا المنهىّ عنها له أو التى لامقصد لصاحبها الا المضارة لورثته فهو باطل مردود لاينفذ منه شىء لاالثلث ولادونه . قال القرطبى : وأجمع العلماء على أن الوصية للوارث لاتجوز انتهى ، وهذا القيد أعنى عدم الضرارهوقيد لجميع ماتقدّم من الوصية والدين . قال أبو السعود فى تفسيره ، وتخصيص القيد بهذا المقام لما أن الورثة مظنة لتفريط الميت فى حقهم * قوله (وصية من الله) نصب على المصدر ، أى يوصيكم بذلك وصية من الله كقوله ـ فريضة من الله ـ . قال ابن عطية و يصح أن يعمل فيها مضارّ * والمعنى أن يقع الضرر بها أو بسببها فأوقع عليها تجوّزا ، فتكون وصية على هذامفعولا بها ، لأن اسم الفاعل قداعتمد على ذى الحال أولكونه منفيامعنى ، وقرأ الحسن (وصية من الله) بالجرّعلى إضافة اسم الفاعل إليها كقوله : * ياسارق الليلة أهل الدار * وفى كون هذه الوصية من الله سبحانه دليل على أنه قد وصى عباده بهذه التفاصيل المذكورة فى الفرائض وأن كل وصية من عباده تخالفها فهى مسبوقة بوصية الله ، وذلك كالوصايا المتضمنة لتفضيل بعض الورثة على بعض ، أوالمشتملة على الضرار بوجه من الوجوه ، والاشارة بقوله (تلك) إلى الأحكام المتقدمة وسماها حدودا لكونها لاتجوز مجاوزتها ولايحلّ تعديها (ومن يطع الله ورسوله) فى قسمة المواريث وغيرها من الأحكام الشرعية كما يفيده عموم اللفظ (ندخله جنات تجرى من تحتها الأنهار) وهكذا قوله (ومن يعص الله ورسوله) قرأ نافع وابن عامر (ندخله) بالنون ، وقرأ الباقون بالياء التحتية * قوله (وله عذاب مهين) أى وله بعد إدخاله النار عذاب لايعرف كنهه .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر قال عادنى رسول الله ﷺ فقلت ماتأمرنى أن أصنع فى مالى يارسول الله ؟ فنزلت . وقد قدّمنا أن سبب النزول سؤال امرأة سعد بن الربيع . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى قال : كان أهل الجاهلية لايورّثون الجوارى ولا الضعفاء من الغلمان : لايرث الرجل من ولده إلا من أطاق القتال ، فمات عبدالرحمن أخو حسان الشاعر وترك امرأة يقال لها أم كحة وترك خمس جوار فأخذ الورثة ماله فشكت ذلك أمّ كحة إلى النبى ﷺ فأنزل الله هذه الآية (فان كنّ نساء فوق اثنتين) ثم قال فى أمّ كحة (ولهنّ الربع مما تركتم) . وأخرج سعيد بن منصور والحاكم والبيهقى عن ابن مسعود : قال كان عمر بن الخطاب إذا سلك بنا طريقا فاتبعناه وجدناه سهلا : وأنه سئل عن امرأة وأبوين : فقال للمرأة الربع ، وللأم ثلث مابقى ، ومابقى فللأب . وأخرج عبد الرزاق والبيهقى عن زيد بن ثابت نحوه . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أنه دخل على عثمان فقال : ان الأخوين لايردّان الأمّ عن الثلث . قال الله (فان كان له إخوة) والأخوان ليسا بلسان قومك إخوة : فقال عثمان لاأستطيع أن أردّ ما كان قبلى ومضى فى الأمصار وتوارث به الناس . وأخرج الحاكم والبيهقى فى سننه عن زيد بن ثابت أنه قال : ان العرب تسمى الأخوين إخوة . وأخرج ابن أبى شيبة

وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وابن الجارود والدارقطنى والبيهقى فى سننه عن علىّ قال : انكم تقرءون هذه الآية (من بعد وصية يوصى بها أودين) وان رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية وأن أعيان بنى الأم يتوارثون دون بنى العلات . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا) يقول أطوعكم لله من الآباء والأبناء أرفعكم درجة عند الله يوم القيامة ، لأن الله سبحانه شفع المؤمنين بعضهم فى بعض . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (أقرب لكم نفعا) قال فى الدنيا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والدارمى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن سعد بن أبى وقاص أنه كان يقرأ (وله أخ أوأخت من أمّ) . وأخرج البيهقى عن الشعبى قال ماورّث أحد من أصحاب النبى ﷺ الاخوة من الأمّ مع الجدّ شيئا قط . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب قال : قضى عمر أن ميراث الاخوة لأمّ بينهم للذكر مثل الأنثى : قال ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علمه من رسول الله ، ولهذه الآية التى قال الله (فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث) . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد الرزاق وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس : قال الاضرار فى الوصية من الكبائر ، ثم قرأ (غير مضارّ) . وقد رواه ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عنه مرفوعا . وفى إسناده عمر بن المغيرة أبو حفص المصيصى . قال أبو القاسم بن عساكر و يعرف بمفتى المساكين ، وروى عنه غير واحد من الأئمة ، قال فيه أبو حاتم الرازى هو شيخ . وقال على ابن المدينى هو مجهول لاأعرفه . قال ابن جرير والصحيح الموقوف انتهى ، ورجال إسناد هذا الموقوف رجال الصحيح فان النسائى رواه فى سننه عن علىّ بن حجر عن علىّ بن مسهر عن داود بن أبى هند عن عكرمة عنه . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه واللفظ له والبيهقى عن أبى هريرة : قال قال رسول الله ﷺ « ان الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فاذا أوصى حاف فى وصيته فيختم له بشرّ عمله فيدخل النار ، وان الرجل ليعمل بعمل أهل الشرّ سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا ان شئتم (تلك حدود الله) إلى قوله (عذاب مهين) وفى إسناده شهر بن حوشب ، وفيه مقال معروف » . وأخرج ابن ماجه عن أنس : قال قال رسول الله ﷺ « من قطع ميراث وارثه قطع الله ميراثه من الجنة يوم القيامة » . وأخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة مرفوعا . وأخرجه ابن أبى شيبة وسعيد بن منصور عن سليمان بن موسى : قال قال رسول الله ﷺ فذكر نحوه . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث سعد بن أبى وقاص أن النبى ﷺ أتاه يعوده فى مرضه فقال ان لى مالا كثيرا وليس يرثنى الا ابنة لى أفأتصدّق بالثلثين ؟ فقال لا : قال فالشطر ؟ قال لا : قال فالثلث ؟ قال الثلث والثلث كثير انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس . وأخرج ابن أبى شيبة عن معاذ بن جبل : قال ان الله تصدّق عليكم بثلث أموالكم زيادة فى حسناتكم يعنى الوصية . وفى الصحيحين عن ابن عباس قال : وددت أن الناس غضوا من الثلث الى الربع لأن رسول الله ﷺ قال « الثلث كثير » . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر : قال ذكر عند عمر الثلث فى الوصية ، فقال الثلث وسط لابخس ولا شطط . وأخرج ابن أبى شيبة عن علىّ : قال لأن أوصى بالخمس أحبّ إلىّ من أن أوصى بالربع ، ولأن أوصى بالربع أحبّ إلىّ من أن أوصى بالثلث ، ومن أوصى بالثلث لم يترك .

فائدة

ورد فى الترغيب فى تعلم الفرائض وتعليمها ماأخرجه الحاكم والبيهقى فى سننه عن ابن مسعود : قال قال رسول الله ﷺ « تعلموا الفرائض وعلموه الناس فانى امرؤ مقبوض وان العلم سيقبض وتظهر الفتن حتى يختلف الاثنان فى الفريضة لايجدان من يقضى بها » . وأخرجاه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « تعلموا الفرائض وعلموه فانه نصف العلم وأنه ينسى وهو أوّل ماينزع من أمتى » . وقدروى عن عمر وابن مسعود وأنس آثار فى الترغيب فى الفرائض ، وكذلك روى عن جماعة من التابعين ومن بعدهم .

وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّـٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا * وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا * إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *

لما ذكر سبحانه فى هذه السورة الاحسان إلى النساء وايصال صدقاتهنّ اليهنّ وميراثهنّ مع الرجال ذكر التغليظ عليهنّ فيما يأتين به من الفاحشة لئلا يتوهمن أنه يسوغ لهنّ ترك التعفف * واللاتى جمع التى بحسب المعنى دون اللفظ ، وفيه لغات اللاتى باثبات التاء والياء ، واللات بحذف الياء وابقاء الكسرة لتدل عليها ، واللائى بالهمزة والياء ، واللاء بكسر الهمزة وحذف الياء ، ويقال فى جمع الجمع اللواتى واللوائى واللوات واللواء * والفاحشة : الفعلة القبيحة ، وهى مصدر كالعافية والعاقبة ، وقرأ ابن مسعود (بالفاحشة) * والمراد بها هنا الزنا خاصة ، واتيانها فعلها ومباشرتها * والمراد بقوله (من نسائكم) المسلمات ، وكذا (منكم) المراد به المسلمون * قوله (فأمسكوهنّ فى البيوت) كان هذا فى أوّل الاسلام ثم نسخ بقوله تعالى ــ الزانية والزانى فاجلدوا ــ ، وذهب بعض أهل العلم إلى أن الحبس المذكور ، وكذلك الأذى باقيان مع الجلد ، لأنه لاتعارض بينها ، بل الجمع ممكن * قوله (أو يجعل الله لهنّ سبيلا) هو مافى حديث عبادة الصحيح من قوله ﷺ « خذوا عنى قد جعل الله لهنّ سبيلا ، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام » الحديث * قوله (واللذان يأتيانها منكم) اللذان تثنية الذى ، وكان القياس أن يقال اللذيان كرحيان . قال سيبويه حذفت الياء ليفرق بين الأسماء الممكنة و بين الأسماء المبهمة . وقال أبو علىّ حذفت الياء تخفيفا . وقرأ ابن كثير (اللذانّ) بتشديد النون وهى لغة قريش ، وفيه لغة أخرى وهى (اللذا) بحذف النون . وقرأ الباقون بتخفيف النون . قال سيبويه المعنى : وفيمايتلى عليكم اللذان يأتيانها ، أى الفاحشة منكم ، ودخلت الفاء فى الجواب لأن فى الكلام معنى الشرط * والمراد باللذان هنا الزانى والزانية تغليبا ، وقيل الآية الأولى فى النساء خاصة محصنات وغير محصنات ، والثانية فى الرجال خاصة ، وجاء بلفظ التثنية لبيان صنفى الرجال ، من أحصن ومن لم يحصن ، فعقوبة النساء الحبس ، وعقوبة الرجال الأذى واختار هذا النحاس ورواه عن ابن عباس ورواه القرطبى عن مجاهد وغيره واستحسنه . وقال السدّى وقتادة

وغيرهما الآية الأولى فى النساء المحصنات ويدخل معهنّ الرجال المحصنون ، والآية الثانية فى الرجل والمرأة البكرين ، ورجحه الطبرى وضعفه النحاس وقال تغليب المؤنث على المذكر بعيد . وقال ابن عطية : ان معنى هذا القول تام الا أن لفظ الآية يقلق عنه ، وقيل كان الامساك للمرأة الزانية دون الرجل نخصت المرأة بالذكر فى الامساك ثم جمعا فى الايذاء . قال قتادة كانت المرأة تحبس و يؤذيان جميعا * واختلف المفسرون فى تفسير الأذى ، فقيل التو بيخ والتعيير ، وقيل السب والجفاء من دون تعيير ، وقيل النيل باللسان والضرب بالنعال ، وقد ذهب قوم إلى أن الأذى منسوخ كالحبس ، وقيل ليس بمنسوخ كما تقدّم فى الحبس * قوله (فان تابا) أى من الفاحشة (وأصلحا) العمل فيما بعد (فأعرضوا عنهما) أى اتركوهما وكفوا عنهما الأذى ، وهذا كان قبل نزول الحدود على ماتقدّم من الخلاف * قوله (انما التوبة على الله) استئناف لبيان أن التوبة ليست بمقبولة على الاطلاق كما ينبئ عنه قوله (توّابا رحيما) بل انما تقبل من البعض دون البعض كما بينه النظم القرآنى هاهنا ، فقوله (انما التوبة) مبتدأ خبره قوله (للذين يعملون السوء بجهالة) * وقوله (على الله) متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار ، أو متعلق بمحذوف وقع حالا عند من يجوّز تقديم الحال التى هى ظرف على عاملها المعنوى ، وقيل المعنى انما التوبة على فضل الله ورحمته بعباده ، وقيل : المعنى إنما التوبة واجبة على الله ، وهذا على مذهب المعتزلة لأنهم يوجبون على الله عزّ وجلّ واجبات من جملتها قبول توبة التائبين ، وقيل : على هنا بمعنى عند ، وقيل : بمعنى من .

وقد اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين لقوله تعالى ـ وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون ـ وذهب الجمهور إلى أنها تصح من ذنب دون ذنب خلافا للمعتزلة ، وقيل ان قوله (على الله) هو الخبر * وقوله (للذين يعملون) متعلق بما تعلق به الخبر أو بمحذوف وقع حالا * والسوء هنا : العمل السيئ * وقوله (بجهالة) متعلق بمحذوف وقع صفة أو حالا ، أى يعملونها متصفين بالجهالة أو جاهلين . وقد حكى القرطبى عن قتادة أنه قال أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل معصية فهى بجهالة عمدا كانت أو جهلا * وحكى عن الضحاك ومجاهد أن الجهالة هنا العمد ، وقال عكرمة أمور الدنيا كلها جهالة ، ومنه قوله تعالى ـ انما الحياة الدنيا لعب ولهو ـ وقال الزجاج : معناه بجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية ، وقيل معناه أنهم لايعلمون كنه العقوبة : ذكره ابن فورك ، وضعفه ابن عطية * قوله (ثم يتوبون من قريب) معناه قبل أن يحضرهم الموت كما يدل عليه قوله (حتى اذا حضر أحدهم الموت) و به قال أبو مجلز والضحاك وعكرمة وغيرهم ، والمراد قبل المعاينة للملائكة وغلبة المرء على نفسه ، ومن فى قوله (من قريب) للتبعيض ، أى يتوبون بعض زمان قريب : وهو ماعدا وقت حضور الموت ، وقيل معناه قبل المرض ، وهو ضعيف : بل باطل لما قدّمنا ، ولما أخرجه أحمد والترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال «ان الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر» وقيل معناه يتوبون على قرب عهد من الذنب من غير إصرار * قوله (فأولئك يتوب الله عليهم) هو وعد منه سبحانه بأنه يتوب عليهم بعد بيانه أن التوبة لهم مقصورة عليهم * وقوله (وليست التوبة للذين يعملون السيئات) تصريح بما فهم من حصر التوبة فيما سبق على من عمل السوء بجهالة ثم تاب من قريب * قوله (حتى اذا حضر أحدهم الموت) حتى حرف ابتداء ، والجملة المذكورة بعدها غاية لماقبلها ، وحضور الموت حضور علاماته وبلوغ المريض الى حالة السياق ومصيره مغلوبا على نفسه مشغولا بخروجها من بدنه ، وهو وقت الغرغرة المذكورة فى الحديث السابق ، وهى بلوغ روحه حلقومه ، قاله الهروى * وقوله (قال انى تبت الآن) أى وقت حضور الموت * قوله (ولا الذين يموتون وهم كفار) معطوف على الموصول فى قوله (للذين

يعملون السيئات) أى ليست التوبة لأولئك ولا للذين يموتون وهم كفار مع أنه لاتوبة لهم رأسا ، وانما ذكروا مبالغة فى بيان عدم قبول توبة من حضرهم الموت ، وأن وجودها كعدمها .

وقدأخرج البزار وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن عباس فى قوله (واللاتى يأتين الفاحشة) قال : كانت المرأة إذا فجرت حبست فى البيوت ، فان ماتت ماتت ، وان عاشت عاشت ، حتى نزلت الآية فى سورة النور ــ الزانية والزانى فاجلدوا ــ فجعل الله لهنّ سبيلا . فمن عمل شيئا جلد وأرسل ، وقد روى هذا عنه من وجوه . وأخرج أبو داود فى سننه عنه والبيهقى فى قوله (واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم) الى قوله (سبيلا) ثم جمعهما جميعا ، فقال (واللذان يأتيانها منكم فآذوهما) ثم نسخ ذلك بآية الجلد ، وقد قال بالنسخ جماعة من التابعين ، أخرجه أبوداود والبيهقى عن مجاهد ، وأخرجه عبد بن حميد وأبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ، وأخرجه البيهقى فى سننه عن الحسن ، وأخرجه ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ، وأخرجه ابن جرير عن السدى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (واللذان يأتيانها منكم) قال : كان الرجل اذا زنا أوذى بالتعيير وضرب بالنعال ، فأنزل الله بعد هذه الآية ــ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ــ فان كانا محصنين رجما فى سنة رسول الله ﷺ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد (واللذان يأتيانها منكم) قال الرجلان الفاعلان . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير (واللذان يأتيانها منكم) يعنى البكرين . وأخرج ابن جرير عن عطاء قال : الرجل والمرأة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله ــ إنما التوبة على الله ــ الآية قال : هذه للمؤمنين ، وفى قوله (وليست التوبة للذين يعملون السيئات) قال هــذه لأهل النفاق (ولا الذين يموتون وهم كفار) قال هذه لأهل الشرك . وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة قال اجتمع أصحاب محمد ﷺ فرأوا أن كل شىء عصى به فهو جهالة عمــدا كان أو غيره . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبى العالية أن أصحاب محمد ﷺ كانوايقولون كل ذنب أصابه عبد فهوجهالة . وأخرج ابن جرير من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله (إنما التوبة على الله) الآية قال من عمل السوء فهو جاهل من جهالته عمل السوء (ثم يتوبون من قريب) قال فى الحياة والصحة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنــه قال : القريب ماينه و بين أن ينظر الى ملك الموت . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والبيهقى فى الشعب عن الضحاك قال : كل شىء قبل الموت فهوقريب له التوبة مابينه و بين أن يعاين ملك الموت فاذاتاب حين ينظر الى ملك الموت فليس له ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال القريب مالم يغرغر * وقد وردت أحاديث كثيرة فى قبول توبة العبد مالم يغرغر ، ذكرها ابن كثير فى تفسيره ، ومنها الحديث الذى قدّمنا ذكره .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا * وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا * وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم

من

مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا *

هذا متصل بما تقدم من ذكر الزوجات والمقصود نفى الظلم عنهنّ ، والخطاب للأولياء ، ومعنى الآية يتضح بمعرفة سبب نزولها ، وهو ما أخرجه البخارى وغيره عن ابن عباس فى قوله (ياأيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها) قال كانوا اذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته ان شاء بعضهم تزوّجها وان شاءوا زوّجوها وان شاءوا لم يزوّجوها ، فهم أحق بها من أهلها ، فنزلت ، وفى لفظ لأبى داود عنه فى هذه الآية كان الرجل يرث امرأة ذى قرابته فيعضلها حتى يموت أو تردّ اليه صداقها ، وفى لفظ لابن جرير وابن أبى حاتم عنه ، فان كانت جميلة تزوّجها وان كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها ، وقد روى هذا السبب بألفاظ ، فمعنى قوله (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) أى لا يحل لكم أن تأخذوهن بطريق الارث فتزعمون أنكم أحق بهن من غيركم ، وتحبسونهن لأنفسكم (ولا) يحل لكم أن (تعضلوهن) عن أن يتزوّجن غيركم لتأخذوا ميراثهن اذا متن ، أو ليدفعن اليكم صداقهن اذا أذنتم لهن بالنكاح . قال الزهرى وأبو مجلز كان من عادتهم اذا مات الرجل وله زوجة ألقى ابنه من غيرها أو أقرب عصبته ثوبه على المرأة فيصير أحق بها من نفسها ومن أوليائها ، فان شاء تزوّجها بغير صداق الا الصداق الذى أصدقها الميت ، وان شاء زوّجها من غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئا ، وان شاء عضلها لتفتدى منه بما ورثت من الميت أو تموت فيرثها ، فنزلت الآية ، وقيل الخطاب لأزواج النساء اذا حبسوهنّ مع سوء العشرة طمعا فى ارثهنّ أو يفتدين ببعض مهورهنّ واختاره ابن عطية ، قال ودليل ذلك قوله (الا أن يأتين بفاحشة) واذا أتت بفاحشة فليس للولى حبسها حتى تذهب بمالها اجماعا من الأمة ، وانما ذلك للزوج ، قال الحسن : اذا زنت البكر فانها تجلد مائة وتنفى وتردّ الى زوجها ما أخذت منه ، وقال أبو قلابة : اذا زنت امرأة الرجل فلا بأس أن يضارها و يشق عليها حتى تفتدى منه ، وقال السدى : اذا فعلن ذلك فخذوا مهورهن ، وقال قوم الفاحشة : البذاءة باللسان ، وسوء العشرة قولا وفعلا ، وقال مالك وجماعة من أهل العلم للزوج أن يأخذ من الناشز جميع ما تملك ، هذا كله على أن الخطاب فى قوله (ولا تعضلوهن) للازواج ، وقد عرفت بما قدمنا فى سبب النزول أن الخطاب فى قوله (ولا تعضلوهنّ) لمن خوطب بقوله (لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها) فيكون المعنى : ولا يحل لكم أن تمنعوهنّ من الزواج (لتذهبوا ببعض ما آتيتموهنّ) أى ما آتاهنّ من ترثونه (الا أن يأتين بفاحشة مبينة) جاز لكم حبسهنّ عن الأزواج ، ولا يخفى ما فى هذا من التعسف مع عدم جواز حبس من أتت بفاحشة عن أن تتزوّج وتستعف من الزنا ، وكما أن جعل قوله (ولا تعضلوهنّ) خطابا للاولياء فيه هذا التعسف كذلك جعل قوله (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) خطابا للازواج فيه تعسف ظاهر مع مخالفته لسبب نزول الآية الذى ذكرناه ، والأولى أن يقال ان الخطاب فى قوله (لايحل لكم) للمسلمين ، أى لايحل لكم معاشر المسلمين أن ترثوا النساء كرها كما كانت تفعله الجاهلية ، ولايحل لكم معاشر المسلمين أن تعضلوا أزواجكم : أى تحبسوهنّ عندكم مع عدم رغوبكم فيهنّ ، بل لقصد أن تذهبوا ببعض ما آتيتموهنّ من المهر يفتدين به من الحبس والبقاء تحتكم ، وفى عقدتكم مع كراهتكم لهنّ (الا أن يأتين بفاحشة مبينة) جاز لكم مخالعتهن ببعض ما آتيتموهنّ * قوله (مبينة) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وحمزة والكسائى بكسر الياء . وقرأ الباقون بفتحها . وقرأ ابن عباس (مبينة) بكسر الباء وسكون الياء من أبان الشىء فهو مبين * قوله (وعاشروهنّ بالمعروف) أى بما هو معروف فى هذه الشريعة و بين أهلها من حسن المعاشرة ، وهو خطاب للأزواج أو لما هو أعمّ ، وذلك يختلف باختلاف الأزواج فى الغنى والفقر

والرفاعة والوضاعة (فان كرهتموهنّ) لسبب من الأسباب من غيرارتكاب فاحشة ولا نشوز (فعسى) أن يؤل الأمر الى ماتحبونه من ذهاب الكراهة وتبدّلها بالمحبة ، فيكون فى ذلك خير كثير من استدامة الصحبة وحصول الأولاد ، فيكون الجزاء على هذا محذوفا مدلولا عليه بعلته ، أى فان كرهتموهنّ فاصبروا (فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) * قوله (وآتيتم إحداهنّ قنطارا) قد تقدم بيانه فى آل عمران ، والمراد به هنا المال الكثير فلا تأخذوا منه شيئا ، قيل هى محكمة ، وقيل هى منسوخة بقوله تعالى فى سورة البقرة ـ ولاتأخذوا مما آتيتموهن شيئا الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ـ والأولى أن الكل محكم ، والمراد هنا غير المختلعة لايحل لزوجها أن يأخذ مما آتاها شيئا * قوله (أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا) الاستفهام للانكار والتقريع ، والجلة مقرّرة للجملة الأولى المشتملة على النهى * وقوله (وكيف تأخذونه) انكار بعد انكار مشتمل على العلة التى تقتضى منع الأخذ : وهى الافضاء . قال الهروى : وهو اذا كانا فى لحاف واحد جامع أو لم يجامع ، وقال الفراء الافضاء أن يخلو الرجل والمرأة وان لم يجامعها . وقال ابن عباس ومجاهد والسدى : الافضاء فى هذه الآية : الجماع ، وأصل الافضاء فى اللغة المخالطة ، يقال للشىء المختلط فضاء ، و يقال القوم فوضى وفضاء ، أى مختلطون لا أمير عليهم * قوله (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) معطوف على الجلة التى قبله ، أى والحال أن قد أفضى بعضكم الى بعض ، وقد أخذن منكم ميثاقا غليظا ، وهو عقد النكاح ومنه قوله ﷺ «فانكم أخذتموهنّ بأمانة الله واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله» وقيل هو قوله تعالى ـ فامساك بمعروف أوتسريح باحسان ـ وقيل هو الأولاد * قوله (ولاتنكحوا مانكح آباؤكم من النساء) نهى عما كانت عليه الجاهلية من نكاح نساء آبائهم اذا ماتوا ، وهو شروع فى بيان من يحرم نكاحه من النساء ومن لايحرم . ثم بين سبحانه وجه النهى عنه فقال (انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا) هذه الصفات الثلاث تدل على أنه من أشدّ المحرّمات وأقبحها ، وقد كانت الجاهلية تسميه نكاح المقت ، قال ثعلب : سألت ابن الأعرابى عن نكاح المقت فقال : هو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه اذا طلقها أو مات عنها ، و يقال لهذا الضيزن ، وأصل المقت البغض من مقته يمقته مقتا فهو ممقوت ومقيت * قوله (الا ماقد سلف) هو استثناء منقطع ، أى لكن ماقد سلف فاجتنبوه ودعوه ، وقيل الا بمعنى بعد أى بعد ماسلف ، وقيل المعنى ولاماسلف ، وقيل هو استثناء متصل من قوله (مانكح آباؤكم) يفيد المبالغة فى التحريم باخراج الكلام مخرج التعليق بالمحال ، يعنى ان أمكنكم أن تنكحوا ماقد سلف فانكحوا : فلا يحل لكم غيره * قوله (وساء سبيلا) هى جارية مجرى بئس فى الذم والعمل ، والمخصوص بالذم محذوف ، أى ساء سبيلا سبيل ذلك النكاح ، وقيل انها جارية مجرى سائر الأفعال ، وفيها ضمير يعود الى ماقبلها .

وقد أخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف قال : لما توفى أبوقيس ابن الأسلت أراد ابنه أن يتزوّج امرأته ، وقد كان لهم ذلك فى الجاهلية . فأنزل الله (لايحلّ لكم أن ترثوا النساء كرها) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية فى كبيشة بنت معمر بن معن ابن عاصم من الأوس كانت عند أبى قيس بن الأسلت فتوفى عنها فجنح عليها ابنه ، فجاءت الى النبى ﷺ فقالت لاأنا ورثت زوجى ولا أنا تركت فأنكح ، فنزلت هذه الآية . وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر عن عبد الرحمن بن البيلمانى فى قوله (لايحلّ لكم أن ترثوا النساء كرها ولاتعضلوهنّ) قال : نزلت هاتان الآيتان إحداهما فى أمر الجاهلية ، والأخرى فى أمر الاسلام ، قال ابن المبارك (أن ترثوا النساء كرها) فى الجاهلية ، ولاتعضلوهنّ فى الاسلام . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله (ولاتعضلوهنّ) قال : لاتضر بامرأتك لتفتدى منك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد (ولاتعضلوهنّ) يعنى أن

ينكحن

ينكحن أزواجهنّ كالعضل فى سورة البقرة . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : كان العضل فى قريش بمكة : ينكح الرجل المرأة الشريفة فلعلها لاتوافقه فيفارقها على أن لاتتزوج الا باذنه ، فيأتى بالشهود فيكتب ذلك عليها و يشهد ، فاذا خطبها خاطب فان أعطته وأرضته أذن لها والاعضلها ، وقد قدّمنا عن ابن عباس فى بيان السبب ماعرفت . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) قال البغض والنشوز : فاذافعلت ذلك فقدحلّ له منها الفدية . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير عن الضحاك نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال الفاحشة هنا الزنا . وأخرج ابن جرير عن أبى قلابة وابن سيرين نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (وعاشروهنّ بالمعروف) قال : خالطوهنّ . قال ابن جرير صحفه بعض الرواة وانما هو خالقوهنّ . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال حقها عليك الصحبة الحسنة والكسوة والرزق المعروف . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل (وعاشروهنّ بالمعروف) يعنى صحبتهن بالمعروف (فان كرهتموهنّ فعسى أن تكرهواشيئا) فيطلقها فتتزوج من بعده رجلا فيجعل الله له منها ولدا و يجعل الله فى تزويجها خيرا كثيرا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس . قال الخير الكثير أن يعطف عليها فترزق ولدها ويجعل الله فى ولدها خيرا كثيرا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن نحو ماقال مقاتل . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وان أردتم استبدال زوج) الآية قال ان كرهت امرأتك وأعجبك غيرها فطلقت هذه وتزوّجت تلك فأعط هذه مهرها ، وان كان قنطارا . وأخرج سعيد بن منصور وأبو يعلى قال السيوطى بسند جيد أن عمر نهى الناس أن يزيدوا النساء فى صدقاتهنّ على أر بعمائة درهم فاعترضت له امرأة من قريش فقالت : أما سمعت ما أنزل الله يقول (وآتيتم إحداهنّ قنطارا) فقال : اللهم غفرا كل الناس أفقه من عمر ، فركب المنبر فقال يا أيها الناس انى كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء فى صدقاتهنّ على أر بعمائة درهم ، فمن شاء أن يعطى من ماله ماأحب ، قال أبو يعلى : وأظنه قال فمن طابت نفسه فليفعل ، قال ابن كثير اسناده جيد قوىّ ، وقد رويت هذه القصة بألفاظ مختلفة ، هذا أحدها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الافضاء : هو الجماع ، ولكن الله يكنى . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (وأخذن منكم ميثاقا غليظا قال : الغليظ امساك بمعروف أوتسريح باحسان . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه وقال : وقد كان ذلك يؤخذ عند عقد النكاح : آلله عليك لتمسكن بمعروف أولتسرحن باحسان . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن أبى مليكة أن ابن عمر كان اذا نكح قال : أنكحتك على ماأمر الله به : امساك بمعروف أو تسريح باحسان . وأخرج ابن أبى شيبة عن أنس بن مالك نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة عن عكرمة ومجاهد فى قوله (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) قال : أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال هو قول الرجل ملكت . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : كلمة النكاح التى تستحل بها فروجهن . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والبيهقى فى سننه فى قوله تعالى (ولاتنكحوا مانكح آباؤكم من النساء) أنها نزلت لما أراد ابن أبى قيس بن الأسلت أن يتزوج امرأة أبيه بعد موته . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك (إلا ماقد سلف) الا ما كان فى الجاهلية . وأخرج عبدالرزاق وابن أبى شيبة وأحمد والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن البراء قال : لقيت خالى ومعه الراية قلت : أين تريد ؟ قال : بعثنى رسول الله ﷺ الى رجل تزوّج امرأة أبيه من بعده ، فأمرنى أن أضرب

عنقه وآخذ ماله .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا *

قوله (حرمت عليكم أمهاتكم) أى نكاحهنّ ، وقد بين الله سبحانه فى هذه الآية مايحل ومايحرم من النساء ، فحرّم سبعا من النسب ، وستامن الرضاع والصهر ، وألحقت السنة المتواترة تحريم الجمع بين المرأة وعمتها ، و بين المرأة وخالتها ، ووقع عليه الاجماع ، فالسبع المحرّمات من النسب : الأمهات والبنات والاخوات والعمات والخالات و بنات الأخ و بنات الأخت ، والمحرمات بالصهر والرضاع : الأمهات من الرضاعة والاخوات من الرضاعة وأمهات النساء والربائب وحلائل الأبناء والجمع بين الأختين ، فهؤلاء ست ، والسابعة منكوحات الآباء ، والثامنة الجمع بين المرأة وعمتها ، قال الطحاوى : وكل هذا من المحكم المتفق عليه ، وغير جائز نكاح واحدة منهنّ بالاجماع الا أمهات النساء اللواتى لم يدخل بهنّ أزواجهنّ ، فان جمهور السلف ذهبوا الى أن الأمّ تحرم بالعقد على الابنة ، ولاتحرم الابنة الا بالدخول بالأم ، وقال بعض السلف : الأم والربيبة سواء لاتحرم منهما واحدة الا بالدخول بالأخرى ، قالوا ومعنى قوله (وأمهات نسائكم) أى اللاتى دخلتم بهن ، وزعموا أن قيد الدخول راجع الى الأمهات والربائب جميعا ، رواه خلاس عن على بن أبى طالب ، وروى عن ابن عباس وجابر وزيد بن ثابت وابن الزبير ومجاهد قال القرطبى : ورواية خلاس عن على لاتقوم بها حجة ولاتصح روايته عند أهل الحديث ، والصحيح عنه مثل قول الجماعة ، وقد أجيب عن قولهم ان قيد

الدخول

الدخول راجع الى الأمهات والربائب بأن ذلك لايجوز من جهة الاعراب ، و بيانه أن الخبرين اذا اختلفا فى العامل لم يكن نعتهما واحدا فلا يجوز عند النحويين مررت بنسائك وهويت نساء زيد الظريفات على أن يكون الظريفات نعتا للجميع ، فكذلك فى الآية لايجوز أن يكون اللاتى دخلتم بهنّ نعتا لهما جميعا ، لأن الخبرين مختلفان ، قال ابن المنذر : والصحيح قول الجمهور لدخول جميع أمهات النساء فى قوله (وأمهات نسائكم) ، ومما يدل على ماذهب اليه الجمهور ما أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى سننه من طريقين عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن النبى ﷺ قال اذا نكح الرجل المرأة فلا يحلّ له أن يتزوّج أمها دخل بالابنة أولم يدخل ، واذا تزوّج الأمّ فلم يدخل بها ثم طلقها ، فان شاء تزوّج الابنة قال ابن كثير فى تفسيره مستدلا للجمهور ، وقد روى فى ذلك خبر غير أن فى اسناده نظرا فذكر هذا الحديث ثم قال وهذا الخبر وان كان فى اسناده مافيه فان اجماع الحجة على صحة القول به يغنى عن الاستشهاد على صحته بغيره قال فى الكشاف ، وقد اتفقوا على أن تحريم أمهات النساء مبهم دون تحريم الربائب على ماعليه ظاهر كلام الله تعالى انتهى ، ودعوى الاجماع مدفوعة بخلاف من تقدّم * واعلم أنه يدخل فى لفظ الأمهات أمهاتهنّ وجداتهنّ وأمّ الأب وجدّاته ، وان علون لأن كلهن أمهات لمن ولده من ولدته وان سفل ، و يدخل فى لفظ البنات بنات الاولاد وان سفلن والاخوات تصدق على الاخت لأبوين أو لأحدهما ، والعمة اسم لكل أنثى شاركت أباك أوجدّك فى أصليه أوأحدهما . وقد تكون العمة من جهة الأم وهى أخت أب الامّ ، والخالة اسم لكل أنثى شاركت أمك فى أصليها أوفى أحدهما ؟ وقد تكون الخالة من جهة الاب وهى أخت أم أبيك ، و بنت الأخ اسم لكل أنثى لأخيك عليها ولادة بواسطة ومباشرة وان بعدت ، وكذلك بنت الأخت * قوله (وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم) هذا مطلق مقيد بما ورد فى السنة من كون الرضاع فى الحولين الا فى مثل قصة ارضاع سالم مولى أبى حذيفة ، وظاهر النظم القرآنى أنه يثبت حكم الرضاع بما يصدق عليه مسمى الرضاع لغة وشرعا ، ولكنه قد ورد تقييده بخمس رضعات فى أحاديث صحيحة ، والبحث عن تقرير ذلك وتحقيقه يطول ، وقد استوفيناه فى مصنفاتنا وقررنا ماهو الحق فى كثير من مباحث الرضاع * قوله (وأخواتكم من الرضاعة) الأخت من الرضاع هى التى أرضعتها أمك بلبان أبيك سواء أرضعتها معك أومع من قبلك أو بعدك من الاخوة والأخوات ، والأخت من الأم هى التى أرضعتها أمك بلبان رجل آخر * قوله (وأمهات نسائكم) قد تقدم الكلام على اعتبار الدخول وعدمه * والمحرّمات بالمصاهرة أربع : أمّ المرأة وابنتها وزوجة الأب وزوجة الابن * قوله (وربائبكم) الربيبة بنت امرأة الرجل من غيره ، سميت بذلك لأنه يربيها فى حجره : فهى مربوبة فعيلة بمعنى مفعولة . قال القرطبى واتفق الفقهاء على أن الربيبة تحرم على زوج أمّها اذا دخل بالأم وان لم تكن الربيبة فى حجره ، وشذ بعض المتقدمين وأهل الظاهر ، فقالوا لاتحرم الربيبة الا أن تكون فى حجر المتزوّج ، فلو كانت فى بلد آخر وفارق الأم فله أن يتزوّج بها ، وقد روى ذلك عن علىّ . قال ابن المنذر والطحاوى لم يثبت ذلك عن علىّ لأن راويه ابراهيم بن عبيد عن مالك بن أوس بن الحدثان عن علىّ ، وابراهيم هذا لايعرف . وقال ابن كثير فى تفسيره بعد إخراج هذا عن علىّ وهذا إسناد قوىّ ثابت إلى علىّ بن أبى طالب على شرط مسلم والحجور : جمع حجر * والمراد أنهنّ فى حضانة أمهاتهنّ تحت حماية أزواجهنّ كما هو الغالب ، وقيل المراد بالحجور البيوت ، أى فى بيوتكم : حكاه الأثرم عن أبى عبيدة * قوله (فان لم تكونوا دخلتم بهنّ فلا جناح عليكم) أى فى نكاح الربائب ، وهو تصريح بما دلّ عليه مفهوم ماقبله .

وقد اختلف أهل العلم فى معنى الدخول الموجب لتحريم الربائب : فروى عن ابن عباس أنه قال الدخول

الجماع وهوقول طاوس وعمرو بن دينار وغيرهما . وقال مالك والثورى وأبوحنيفة والأوزاعى والليث والزيدية ان الزوج إذا لمس الأم لشهوة حرّمت عليه ابنتها وهو أحد قولى الشافعى . قال ابن جرير الطبرى وفى إجماع الجميع أن خلوة الرجل بامرأته لاتحرّم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها وقبل النظر إلى فرجها لشهوة مايدل على أن معنى ذلك هو الوصول اليها بالجماع انتهى ، وهكذا حكى الاجماع القرطبى فقال وأجمع العلماء على أن الرجل اذا تزوّج المرأة ثم طلقها أوماتت قبل أن يدخل بها حلّ له نكاح ابنتها . واختلفوا فى النظر فقال مالك اذا نظر الى شعرها أو صدرها أو شىء من محاسنها للذة حرمت عليه أمها وابنتها . وقال الكوفيون اذا نظر الى فرجها للشهوة كان بمنزلة اللمس للشهوة ، وكذا قال الثورى ولم يذكر الشهوة . وقال ابن أبى ليلى لاتحرم بالنظر حتى يلمس ، وهوقول الشافعى * والذى ينبغى التعويل عليه فى مثل هذا الخلاف هو النظر فى معنى الدخول شرعا أولغة ، فان كان خاصا بالجماع فلاوجه لالحاق غيره به من لمس أو نظر أو غيرهما ، وان كان معناه أوسع من الجماع بحيث يصدق على ماحصل فيه نوع استمتاع كان مناط التحريم هو ذلك * وأما الربيبة فى ملك اليمين فقد روى عن عمر بن الخطاب أنه كره ذلك . وقال ابن عباس أحلتهما آية وحرمتهما آية ولم أكن لأفعله . وقال ابن عبد البرّ لاخلاف بين العلماء أنه لايحلّ لأحد أن يطأ امرأة وابنتها من ملك اليمين ، لأن الله حرّم ذلك فى النكاح قال (وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم) وملك اليمين عندهم تبع للنكاح إلا ماروى عن عمر وابن عباس وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى ولا من تبعهم انتهى * قوله (وحلائل أبنائكم) الحلائل : جمع حليلة وهى الزوجة ، سميت بذلك ، لأنها تحلّ مع الزوج حيث حلّ فهى فعيلة بمعنى فاعلة ، وذهب الزجاج وقوم إلى أنها من لفظة الحلال فهى حليلة بمعنى محللة ، وقيل لأن كل واحد منهما يحلّ إزار صاحبه * وقد أجمع العلماء على تحريم ماعقد عليه الآباء على الأبناء وما عقد عليه الأبناء على الآباء سواء كان مع العقد وطء أولم يكن لقوله تعالى (ولاتنكحوا مانكح آباؤكم من النساء) * وقوله (وحلائل أبنائكم)

واختلف الفقهاء فى العقد إذا كان فاسدا هل يقتضى التحريم أم لا ؟ كما هو مبين فى كتب الفروع . قال ابن المنذر أجمع كل من يحفظ عنه العلم من علماء الأمصار أن الرجل اذا وطىء امرأة بنكاح فاسد أنها تحرم على أبيه وابنه وعلى أجداده ، وأجمع العلماء على أن عقد الشراء على الجارية لايحرّمها على أبيه وابنه فاذا اشترى جارية فلمس أو قبل حرمت على أبيه وابنه ، لا أعلمهم يختلفون فيه فوجب تحريم ذلك تسليما لهم ولما اختلفوا فى تحريمها بالنظر دون اللمس لم يجز ذلك لاختلافهم : قال ولا يصح عن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ خلاف ماقلناه * قوله (الذين من أصلابكم) وصف للأبناء ، أى دون من تبنيتم من أولاد غيركم كما كانوا يفعلونه فى الجاهلية ، ومنه قوله تعالى — فلما قضى زيد منها وطرا زوّجنا كها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهنّ وطرا — ومنه قوله تعالى — وماجعل أدعياءكم أبناءكم — ومنه — ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) وأما زوجة الابن من الرضاع فقد ذهب الجمهور الى أنها تحرم على أبيه . وقد قيل انه اجماع مع أن الابن من الرضاع ليس من أولاد الصلب ، ووجهه ماصح عن النبى ﷺ من قوله « يحرم من الرضاع مايحرم من النسب » ولا خلاف أن أولاد الأولاد وان سفلوا بمنزلة أولاد الصلب فى تحريم نكاح نسائهم على آبائهم .

وقد اختلف أهل العلم فى وطء الزنا هل يقتضى التحريم أم لا ؟ فقال أكثر أهل العلم اذا أصاب رجل امرأة بزنا لم يحرم عليه نكاحها بذلك ، وكذلك لاتحرم عليه امرأته اذا زنا بأمها أو بابنتها ، وحسبه أن يقام عليه الحدّ ، وكذلك يجوز له عندهم أن يتزوّج بأم من زنى بها وبابنتها . وقالت طائفة من أهل العلم

ان

ان الزنا يقتضى التحريم . حكى ذلك عن عمران بن حصين والشعبى وعطاء والحسن وسفيان الثورى وأحمد واسحق وأصحاب الرأى ، وحكى ذلك عن مالك ، والصحيح عنه كقول الجمهور * احتج الجمهور بقوله تعالى (وأمهات نسائكم) و بقوله (وحلائل أبنائكم) والموطوءة بالزنا لايصدق عليها أنها من نسائهم ولا من حلائل أبنائهم .

وقد أخرج الدارقطنى عن عائشة : قالت سئل رسول الله ﷺ عن رجل زنى بامرأة فأراد أن يتزوجها أوابنتها فقال لايحرّم الحرام الحلال ، واحتج المحرّمون بما روى فى قصة جريج الثابتة فى الصحيح أنه قال ياغلام من أبوك ؟ فقال فلان الراعى فنسب الابن نفسه الى أبيه من الزنا ، وهذا احتجاج ساقط ، واحتجوا أيضا بقوله ﷺ « لاينظر الله الى رجل نظر الى فرج امرأة وابنتها ولم يفصل بين الحلال والحرام » . ويجاب عنه بأن هذا مطلق مقيد بما ورد من الأدلة الدالة على أن الحرام لايحرّم الحلال .

واختلفوا فى اللواط هل يقتضى التحريم أم لا ؟ فقال الثورى اذا لاط بالصبى حرمت عليه أمه وهو قول أحمد بن حنبل قال اذا تلوّط بابن امرأته أو أبيها أو أخيها حرمت عليه امرأته . وقال الأوزاعى اذا لاط بغلام وولد للمفجور به بنت لم يجز للفاجر أن يتزوّجها لأنها بنت من قد دخل به * ولايخفى مافى قول هؤلاء من الضعف والسقوط النازل عن قول القائلين بأن وطء الحرام يقتضى التحريم بدرجات لعدم صلاحية ماتمسك به أولئك من الشبه على مازعمه هؤلاء من اقتضاء اللواط للتحريم * قوله (وأن تجمعوا بين الأختين) أى وحرّم عليكم أن تجمعوا بين الأختين فهو فى محل رفع عطفا على المحرمات السابقة وهو يشمل الجمع بينهما بالنكاح والوطء بملك اليمين ، وقيل ان الآية خاصة بالجمع فى النكاح لافى ملك اليمين وأما فى الوطء بالملك فلاحق بالنكاح .

وقد أجمعت الأمة على منع جمعهما فى عقد نكاح ، واختلفوا فى الأختين بملك اليمين : فذهب كافة العلماء إلى أنه لايجوز الجمع بينهما فى الوطء بالملك ، وأجمعوا على أنه يجوز الجمع بينهما فى الملك فقط . وقد توقف بعض السلف فى الجمع بين الأختين فى الوطء بالملك ، وسيأتى بيان ذلك * واختلفوا فى جواز عقد النكاح على أخت الجارية التى توطأ بالملك . فقال الأوزاعى اذا وطىء جارية له بملك اليمين ، لم يجز له أن يتزوّج أختها . وقال الشافعى ملك اليمين لايمنع نكاح الأخت . وقد ذهبت الظاهرية إلى جواز الجمع بين الأختين بملك اليمين فى الوطء كما يجوز الجمع بينهما فى الملك . قال ابن عبدالبر بعد أن ذكر ماروى عن عثمان بن عفان من جواز الجمع بين الأختين فى الوطء بالملك . وقد روى مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عباس ، ولكنهم اختلف عليهم ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار بالحجاز ولا بالعراق ولا ماوراءها من المشرق ، ولا بالشام ولا المغرب إلا من شذ عن جماعتهم باتباع الظاهر ونفى القياس . وقد ترك من تعمد ذلك ، وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لايحلّ الجمع بين الأختين بملك اليمين فى الوطء كما لايحلّ ذلك فى النكاح . وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله (حرّمت عليكم أمهاتكم و بناتكم وأخواتكم) إلى آخر الآية أن النكاح بملك اليمين فى هؤلاء كلهنّ سواء ، فكذلك يجب أن يكون قياسا ونظرا الجمع بين الأختين وأمهات النساء والربائب ، وكذا هو عند جمهورهم ، وهى الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها ، والله المحمود انتهى .

وأقول هاهنا إشكال وهو أنه قد تقرّر أن النكاح يقال على العقد فقط ، وعلى الوطء فقط ، والخلاف فى كون أحدهما حقيقة والآخر مجازا ، أو كونهما حقيقتين معروف ، فان حملنا هذا التحريم المذكور فى هذه الآية وهى قوله (حرّمت عليكم أمهاتكم) الى آخرها على أن المراد تحريم العقد عليهنّ لم يكن فى قوله

تعالى (وأن تجمعوا بين الأختين) دلالة على تحريم الجمع بين المملوكتين فى الوطء بالملك ، وما وقع من إجماع المسلمين على أن قوله (حرّمت عليكم أمهاتكم و بناتكم وأخواتكم) إلى آخره يستوى فيه الحرائر والاماء والعقد والملك لا يستلزم أن يكون محل الخلاف ، وهو الجمع بين الأختين فى الوطء بملك اليمين مثل محل الاجماع ، ومجرد القياس فى مثل هذا الموطن لا تقوم به الحجة لما يرد عليه من النقوض ، وان حملنا التحريم المذكور فى الآية على الوطء فقط لم يصح ذلك للاجماع على تحريم عقد النكاح على جميع المذكورات من أوّل الآية إلى آخرها فلم يبق الاحمل التحريم فى الآية على تحريم عقد النكاح فيحتاج القائل بتحريم الجمع بين الأختين فى الوطء بالملك إلى دليل ولا ينفعه أن ذلك قول الجمهور ، فالحق لا يعرف بالرجال ، فان جاء به خالصا عن شوب الكدر فبها ونعمت ، والا كان الأصل الحل ، ولا يصح حمل النكاح فى الآية على معنييه جميعا أعنى العقد والوطء لأنه من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو ممنوع ، أو من باب الجمع بين معنى المشترك وفيه الخلاف المعروف فى الأصول فتدبر هذا .

وقد اختلف أهل العلم اذا كان الرجل يطأ مملوكته بالملك ثم أراد أن يطأ أختها بالملك : فقال علىّ وابن عمر والحسن البصرى والأوزاعى والشافعى وأحمد واسحق لا يجوز له وطء الثانية حتى يحرّم فرج الأخرى باخراجها من ملكه ببيع أو عتق أو بأن يزوّجها . قال ابن المنذر ، وفيه قول ثان لقتادة وهو أنه ينوى تحريم الأولى على نفسه وأن لا يقربها ثم يمسك عنهما حتى تستبرئ المحرّمة ثم يغشى الثانية ، وفيه قول ثالث وهو أنه لا يقرب واحدة منهما هكذا قال الحكم وحماد ، وروى معنى ذلك عن النخعى . وقال مالك اذا كان عنده أختان بملك فله أن يطأ أيتهما شاء ، والكف عن الأخرى موكول إلى أمانته ، فان أراد وطء الأخرى فيلزمه أن يحرّم على نفسه فرج الأولى بفعل يفعله من إخراج عن الملك أو تزويج أو بيع أو عتق أو كتابة أو اخدام طويل ، فان كان يطأ احداهما ثم وثب على الأخرى دون أن يحرّم الأولى وقف عنهما ولم يجز له قرب احداهما حتى يحرّم الأخرى ولم يوكل ذلك الى أمانته لأنه متهم . قال القرطبى : وقد أجمع العلماء على أن الرجل اذا طلق زوجته طلاقا يملك رجعتها أنه ليس له أن ينكح أختها حتى تنقضى عدّة المطلقة . واختلفوا اذا طلقها طلاقا لا يملك رجعتها : فقالت طائفة ليس له أن ينكح أختها ولا رابعة حتى تنقضى عدّة التى طلق : روى ذلك عن على وزيد بن ثابت ومجاهد وعطاء والنخعى والثورى وأحمد بن حنبل وأصحاب الرأى . وقالت طائفة : له أن ينكح أختها و ينكح الرابعة لمن كان تحته أربع وطلق واحدة منهنّ طلاقا بائنا ، روى ذلك عن سعيد بن المسيب والحسن والقاسم وعروة بن الزبير وابن أبى ليلى والشافعى وأبى ثور وأبى عبيد ، قال ابن المنذر ولا أحسبه الاقول مالك وهو أيضا إحدى الروايتين عن زيد بن ثابت وعطاء * قوله (إلا ماقد سلف) يحتمل أن يكون معناه معنى ماتقدّم من قوله تعالى (ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء الاماقد سلف) و يحتمل معنى آخر ، وهو جواز ماسلف وأنه اذا جرى الجمع فى الجاهلية كان النكاح صحيحا واذا جرى فى الاسلام خير بين الأختين * والصواب الاحتمال الأوّل * قوله (والمحصنات من النساء) عطف على المحرّمات المذكورات ، وأصل التحصن التمنع ، ومنه قوله تعالى — لتحصنكم من بأسكم — أى لتمنعكم ، ومنه الحصان بكسر الحاء للفرس لأنه يمنع صاحبه من الهلاك * والحصان بفتح الحاء : المرأة العفيفة لمنعها نفسها ، ومنه قول حسان :

حصان رزان ماتزنّ بريبة * وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

والمصدر الحصانة بفتح الحاء * والمراد بالمحصنات هنا ذوات الأزواج . وقد ورد الاحصان فى القرآن لمعان ، هذا أحدها ، والثانى يراد به الحرّة ، ومنه قوله تعالى (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات) *

وقوله

وقوله ـ والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ـ والثالث يراد به العفيفة ومنه قوله تعالى (محصنات غير مسافحات) * (محصنين غير مسافحين) والرابع المسلمة، ومنه قوله تعالى (فاذا أحصنّ).

وقد اختلف أهل العلم فى تفسير هذه الآية، أعنى قوله (والمحصنات من النساء إلا ماملكت أيمانكم) فقال ابن عباس وأبو سعيد الخدرى وأبو قلابة ومكحول والزهرى: المراد بالمحصنات هنا: المسبيات ذوات الأزواج خاصة، أى هنّ محرّمات عليكم إلا ماملكت أيمانكم بالسبى من أرض الحرب فان تلك حلال وان كان لها زوج، وهو قول الشافعى، أى ان السباء يقطع العصمة، وبه قال ابن وهب وابن عبد الحكم وروياه عن مالك، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه وأحمد واسحق وأبو ثور، واختلفوا فى استبرائها بماذا يكون؟ كما هو مدوّن فى كتب الفروع. وقالت طائفة المحصنات فى هذه الآية: العفائف، وبه قال أبو العالية وعبيدة السلمانى وطاوس وسعيد بن جبير وعطاء، ورواه عبيدة عن عمر * ومعنى الآية عندهم: كل النساء حرام الا ماملكت أيمانكم، أى تملكون عصمتهنّ بالنكاح وتملكون الرقبة بالشراء، وحكى ابن جرير الطبرى أن رجلا قال لسعيد بن جبير أما رأيت ابن عباس حين سئل عن هذه الآية فلم يقل فيها شيئا؟ فقال كان ابن عباس لايعلمها، وروى ابن جرير أيضا عن مجاهد أنه قال: لو أعلم من يفسر لى هذه الآية لضربت إليه أكباد الابل انتهى * ومعنى الآية والله أعلم واضح لاسترة به، أى وحرّمت عليكم المحصنات من النساء، أى المزوّجات أعمّ من أن يكنّ مسلمات أوكافرات إلا ماملكت أيمانكم منهنّ أما بسبى فانها تحلّ ولوكانت ذات زوج، أو بشراء فانها تحل ولو كانت مزوّجة وينفسخ النكاح الذى كان عليها بخروجها عن ملك سيدها الذى زوّجها، وسيأتى ذكر سبب نزول الآية ان شاء الله، والاعتبار بعموم اللفظ لابخصوص السبب. وقد قرئ المحصنات بفتح الصاد وكسرها: فالفتح على أن الأزواج أحصنوهنّ، والكسر على أنهنّ أحصنّ فروجهن عن غير أزواجهنّ أو أحصنّ أزواجهنّ * قوله (كتاب الله عليكم) منصوب على المصدرية، أى كتب الله ذلك عليكم كتابا. وقال الزجاج والكوفيون انه منصوب على الاغراء، أى الزموا كتاب الله، أو عليكم كتاب الله، واعترضه أبو علىّ الفارسى بأن الاغراء لايجوز فيه تقديم المنصوب وهذا الاعتراض إنما يتوجه على قول من قال انه منصوب بعليكم المذكور فى الآية، وروى عن عبيدة السلمانى أنه قال ان قوله (كتاب الله عليكم) إشارة إلى قوله تعالى (مثنى وثلاث ورباع) وهو بعيد بل هو إشارة إلى التحريم المذكور فى قوله (حرّمت عليكم) إلى آخر الآية * قوله (وأحلّ لكم ماوراء ذلكم) قرأ حمزة والكسائى وعاصم فى رواية حفص وأحلّ على البناء للمجهول، وقرأ الباقون على البناء للمعلوم عطفا على الفعل المقدّر فى قوله (كتاب الله عليكم) وقيل على قوله (حرّمت عليكم) ولا يقدح فى ذلك اختلاف الفعلين، وفيه دلالة على أنه يحلّ لهم نكاح ماسوى المذكورات، وهذا عام مخصوص بما صح عن النبى ﷺ من تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها. وقد أبعد من قال ان تحريم الجمع بين المذكورات مأخوذ من الآية هذه لأنه حرّم الجمع بين الأختين فيكون مافى معناه فى حكمه، وهو الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها، وكذلك تحريم نكاح الأمة لمن يستطيع نكاح حرّة كما سيأتى فانه يخصص هذا العموم * قوله (أن تبتغوا بأموالكم) فى محل نصب على العلة، أى حرّم عليكم ماحرّم وأحلّ لكم ماأحلّ لأجل أن تبتغوا بأموالكم النساء اللاتى أحلهنّ الله لكم ولاتبتغوا بها الحرام فتذهب حال كونكم (محصنين) أى متعففين عن الزنا (غير مسافحين) أى غير زانين * والسفاح: الزنا وهو مأخوذ من سفح الماء، أى صبه وسيلانه، فكأنه سبحانه أمرهم بأن يطلبوا بأموالهم

النساء على وجه النكاح ، لا على وجه السفاح ، وقيل ان قوله (أن تبتغوا بأموالكم) بدل من ما فى قوله (ماوراء ذلكم) أى وأحل لكم الابتغاء بأموالكم * والأول أولى ، وأراد سبحانه بالأموال المذكورة مايدفعونه فى مهور الحرائر وأثمان الاماء * قوله (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن) ما موصولة فيها معنى الشرط ، والفاء فى قوله (فآتوهن) لتضمن الموصول معنى الشرط ، والعائد محذوف ، أى فآتوهن أجورهن عليه .

وقد اختلف أهل العلم فى معنى الآية : فقال الحسن ومجاهد وغيرهما : المعنى فما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الشرعى (فآتوهن أجورهن) أى مهورهن . وقال الجمهور ان المراد بهذه الآية نكاح المتعة الذى كان فى صدر الاسلام ، ويؤيد ذلك قراءة أبى بن كعب وابن عباس وسعيد بن جبير (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن) ثم نهى عنها النبى ﷺ كما صح ذلك من حديث على قال : نهى النبى ﷺ عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر ، وهو فى الصحيحين وغيرهما ، وفى صحيح مسلم من حديث سبرة بن معبد الجهنى عن النبى ﷺ أنه قال يوم فتح مكة « يأيها الناس انى كنت أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء والله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شىء فليخل سبيلها ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا » . وفى لفظ لمسلم أن ذلك كان فى حجة الوداع ، فهذا هو الناسخ . وقال سعيد بن جبير نسختها آية الميراث اذ المتعة لاميراث فيها . وقالت عائشة والقاسم بن محمد تحريمها ونسخها فى القرآن ، وذلك قوله تعالى ـ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فانهم غير ملومين ـ وليست المنكوحة بالمتعة من أزواجهم ولا مما ملكت أيمانهم فان من شأن الزوجة أن ترث وتورث ، وليست المستمتع بها كذلك . وقد روى عن ابن عباس أنه قال بجواز المتعة وأنها باقية لم تنسخ . وروى عنه أنه رجع عن ذلك عند أن بلغه الناسخ . وقد قال بجوازها جماعة من الروافض ولا اعتبار بأقوالهم . وقد أتعب نفسه بعض المتأخرين بتكثير الكلام على هذه المسئلة وتقوية ماقاله المجوزون لها ، وليس هذا المقام مقام بيان بطلان كلامه .

وقد طولنا البحث ودفعنا الشبه الباطلة التى تمسك بها المجوزون لها فى شرحنا للمنتقى فليرجع اليه * قوله (فريضة) منتصب على المصدرية المؤكدة أو على الحال ، أى مفروضة * قوله (ولاجناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) أى من زيادة أو نقصان فى المهر فان ذلك سائغ عند التراضى : هذا عند من قال بأن الآية فى النكاح الشرعى ، وأما عند الجمهور القائلين بأنها فى المتعة : فالمعنى التراضى فى زيادة مدة المتعة أو نقصانها أو فى زيادة مادفعه اليها الى مقابل الاستمتاع بها أو نقصانه * قوله (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات) الطول : الغنى والسعة : قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والسدى وابن زيد ومالك والشافعى وأحمد واسحق وأبو ثور وجمهور أهل العلم * ومعنى الآية فمن لم يستطع منكم غنى وسعة فى ماله يقدر بها على نكاح المحصنات المؤمنات فلينكح من فتياتكم المؤمنات ، يقال طال يطول طولا فى الافضال والقدرة ، وفلان ذو طول : أى ذو قدرة فى ماله * والطول بالضم : ضد القصر . وقال قتادة والنخعى وعطاء : والثورى ان الطول الصبر * ومعنى الآية عندهم أن من كان يهوى أمة حتى صار لذلك لايستطيع أن يتزوج غيرها فان له أن يتزوجها اذا لم يملك نفسه وخاف أن يبغى بها وان كان يجد سعة فى المال لنكاح حرة . وقال أبو حنيفة وهو مروى عن مالك ان الطول : المرأة الحرة ، فمن كان تحته حرة لم يحل له أن ينكح الأمة ، ومن لم يكن تحته حرة جاز له أن يتزوج أمة ولو كان غنيا ، وبه قال أبو يوسف ، واختاره ابن جرير واحتج له * والقول الأول هو المطابق لمعنى الآية ،

ولا يخلو ماعداه عن تكلف ، فلا يجوز للرجل أن يتزوّج بالأمة الا اذا كان لايقدر على أن يتزوّج بالحرّة لعدم وجود مايحتاج اليه فى نكاحها من مهر وغيره . وقد استدلّ بقوله (من فتياتكم المؤمنات) على أنه لايجوز نكاح الأمة الكتابية ، و به قال أهل الحجاز وجوّزه أهل العراق ، ودخلت الفاء فى قوله (فما ملكت أيمانكم) لتضمن المبتدا معنى الشرط * وقوله (من فتياتكم المؤمنات) فى محل نصب على الحال ، نقدعرفت أنه لايجوزللرجل الحرّ أن يتزوّج بالمملوكة إلا بشرط عدم القدرة على الحرّة * والشرط الثانى ماسيذكره الله سبحانه آخر الآية من قوله (ذلك لمن خشى العنت منكم) فلا يحلّ للفقير أن يتزوّج بالمملوكة إلا إذا كان يخشى على نفسه العنت * والمراد هنا الأمة المملوكة للغير ، وأما أمة الانسان نفسه فقد وقع الاجماع على أنه لايجوز له أن يتزوّجها ، وهى تحت ملكه لتعارض الحقوق واختلافها * والفتيات : جمع فتاة ، والعرب تقول للمملوك فتى وللمملوكة فتاة . وفى الحديث الصحيح « لايقولنّ أحدكم : عبدى وأمتى ولكن ليقل فتاى وفتاتى » قوله (والله أعلم بإيمانكم) فيه تسلية لمن ينكح الأمة اذا اجتمع فيه الشرطان المذكوران ، أى كلكم بنو آدم وأكرمكم عند الله أتقاكم فلا تستنكفوا من الزواج بالاماء عند الضرورة فربما كان إيمان بعض الاماء أفضل من ايمان بعض الحرائر ، والجملة اعتراضية * وقوله (بعضكم من بعض) مبتدأوخبر * ومعناه أنهم متصلون فى الأنساب لأنهم جميعا بنوآدم ، أو متصلون فى الدين ، لأنهم جميعا أهل ملة واحدة وكتابهم واحدونبيهم واحد * والمراد بهذا توطئة نفوس العرب لأنهم كانوا يستهجنون أولاد الاماء و يستصغرونهم و يغضون منهم * (فانكحوهنّ باذن أهلهنّ) أى باذن المالكين لهنّ ، لأن منافعهنّ لهم لايجوز لغيرهم أن ينتفع بشىء منها الاباذن من هى له * قوله (وآتوهنّ أجورهنّ بالمعروف) أى أدّوا اليهنّ مهورهنّ بماهو بالمعروف فى الشرع ، وقد استدل بهذا من قال ان الأمة أحق بمهرها من سيدها ، واليه ذهب مالك ، وذهب الجمهور الى أن المهر للسيد ، وانما أضافها اليهنّ ، لأن التأدية اليهنّ تأدية الى سيدهن لكونهن ماله * قوله (محصنات) أى عفائف . وقرأ الكسائى محصنات بكسر الصاد فى جميع القرآن الا فى قوله (والمحصنات من النساء) وقرأ الباقون بالفتح فى جميع القرآن * قوله (غيرمسافحات) أى غير معلنات بالزنا * والأخدان الأخلاء والخدن والخدين المخادن : أى المصاحب ، وقيل ذات الخدن هى التى تزنى سرّا ، فهومقابل للمسافحة ، وهى التى تجاهر بالزنا ، وقيل المسافحة المبذولة وذات الخدن التى تزنى بواحد ، وكانت العرب تعيب الاعلان بالزنا ولاتعيب اتخاذ الأخدان ، ثم رفع الاسلام جميع ذلك . قال الله ــ ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن ــ * قوله (فاذا أحصنّ) قرأ عاصم وحمزة والكسائى بفتح الهمزة . وقرأ الباقون بضمها ، والمراد بالأحصان هنا الاسلام ، روى ذلك عن ابن مسعود وابن عمر وأنس والأسود بن يزيد وزرّبن حبيش وسعيد بن جبير وعطاء وابراهيم النخعى والشعبى والسدّى وروى عن عمر بن الخطاب باسناد منقطع وهو الذى نص عليه الشافعى ، و به قال الجمهور ، وقال ابن عباس وأبوالدرداء ومجاهد وعكرمة وطاوس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم انه التزويج ، وروى عن الشافعى ، فعلى القول الأوّل لاحدّ على الأمة الكافرة . وعلى القول الثانى لأحد على الأمة التى لم تتزوّج . وقال القاسم وسالم إحصانها اسلامهاوعفافها . وقال ابن جرير ان معنى القراءتين مختلف فمن قرأ أحصنّ بضم الهمزة فمعناه التزويج ، ومن قرأ بفتح الهمزة فمعناه الاسلام . وقال قوم ان الاحصان المذكور فى الآية هو التزوّج ولكن الحدّواجب على الأمة المسلمة اذا زنت قبل أن تتزوّج بالسنة ، و به قال الزهرى . قال ابن عبد البرّ ظاهرقول الله عزّ وجل يقتضى أنه لاحدّ على الأمة وان كانت مسلمة الابعد التزويج ، ثم جاءت السنة بجلدها وان لم تحصن ، وكان ذلك زيادة بيان . قال القرطبى ظهرالمسلم حمى لايستباح الا بيقين ، ولايقين مع الاختلاف

لولا ماجاء فى صحيح السنة من الجلد . قال ابن كثير فى تفسيره والأظهر والله أعلم أن المراد بالاحصان هنا التزويج ، لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول سبحانه (ومن لم يستطع منكم طولا) الى قوله (فاذا أحصنّ فان أتين بفاحشة فعليهنّ نصف ماعلى المحصنات من العذاب) فالسياق كله فى الفتيات المؤمنات فتعين أن المراد بقوله (فاذا أحصنّ) أى تزوّجن كما فسره به ابن عباس ومن تبعه . قال وعلى كل ّمن القولين اشكال على مذهب الجمهور لأنهم يقولون ان الأمة اذازنت فعليها خمسون جلدة سواء كانت مسلمة أوكافرة مزوّجة أو بكرا مع أن مفهوم الآية يقتضى أنه لاحدّ على غير المحصنة من الاماء . وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك ، ثم ذكر أن منهم من أجاب وهم الجمهور بتقديم منطوق الأحاديث على هذا المفهوم ، ومنهم من عمل على مفهوم الآية . وقال اذا زنت ولم تحصن فلا حدّ عليها وانما تضرب تأديبا . قال وهو المحكىّ عن ابن عباس واليه ذهب طاوس وسعيد بن جبير وأبو عبيد وداود الظاهرى فى رواية عنه فهؤلاء قدموا مفهوم الآية على العموم ، وأجابوا عن مثل حديث أبى هريرة وزيد بن خالد فى الصحيحين وغيرهما أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة اذا زنت ولم تحصن . قال ان زنت فاجلدوها ثم ان زنت فاجلدوها ثم ان زنت فاجلدوها ثم بيعوها ولو بضفير بأن المراد بالجلد هنا التأديب وهو تعسف : وأيضا قد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة . قال سمعت رسول الله ﷺ :يقول اذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحدّ ولا يثرّب عليها ، ثم ان زنت فليجلدها الحدّ الحديث ، ولمسلم من حديث علىّ قال يا أيها الناس أقيموا على أرقائكم الحدّ من أحصن ومن لم يحصن فان أمة لرسول الله ﷺ زنت فأمرنى أن أجلدها الحديث ، وأما ماأخرجه سعيد ابن منصور وابن خزيمة والبيهقى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «ليس على الأمة حدّ حتى تحصن بزوج فاذا أحصنت بزوج فعليها نصف ماعلى المحصنات من العذاب » فقد قال ابن خزيمة والبيهقى ان رفعه خطأ ، والصواب وقفه * قوله (فان أتين بفاحشة) الفاحشة هنا الزنا (فعليهنّ نصف ماعلى المحصنات) أى الحرائر الأبكار لأن الثيب عليها الرجم وهو لايتبعض ، وقيل المراد بالمحصنات هنا المزوّجات لأن عليهنّ الجلد والرجم ، والرجم لايتبعض فصار عليهنّ نصف ماعليهنّ من الجلد * والمراد بالعذاب هنا الجلد ، وانما نقص حدّ الاماء عن حدّ الحرائر لأنهنّ أضعف ، وقيل لأنهنّ لايصلن الى مرادهنّ كما تصل الحرائر ، وقيل لأن العقوبة تجب على قدر النعمة كما فى قوله تعالى ــ يضاعف لها العذاب ضعفين ــ ولم يذكر الله سبحانه فى هذه الآية العبيد وهم لاحقون بالاماء بطريق القياس ، وكما يكون على الاماء والعبيد نصف الحد فى الزنا كذلك يكون عليهم نصف الحدّ فى القذف والشرب ، والاشارة بقوله (ذلك لمن خشى العنت منكم) الى نكاح الاماء * والعنت الوقوع فى الاثم ، وأصله فى اللغة انكسار العظم بعد الجبر ، ثم استعير لكل مشقة (وأن تصبروا) عن نكاح الاماء (خير لكم) من نكاحهنّ : أى صبركم خير لكم لأن نكاحهنّ يفضى الى إرقاق الولد والغض من النفس * قوله (يريد الله ليبين لكم) اللام هنا هى لام كى التى تعاقب أن . قال الفراء : العرب تعاقب بين لام كى وأن فتأتى باللام التى على معنى كى فى موضع أن فى أردت وأمرت فيقولون أردت أن تفعل وأردت لتفعل ومنه ــ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، وأمرت لأعدل بينكم ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين ــ ومنه

أريد لأنسى ذكرها فكأنما * تمثل لى ليلى بكل سبيل

وحكى الزجاج هذا القول ، وقال لوكانت اللام بمعنى أن لدخلت عليها لام أخرى كما تقول جئت كى تكرمنى ثم تقول جئت لكى تكرمنى ، وأنشد :

أردت لكيما يعلم الناس أنها * سراويل قيس والوفود شهود

وقيل اللام زائدة لتأكيد معنى الاستقبال ، أولتأكيد ارادة التبيين ، ومفعول يبين محذوف ، أى ليبين

لكم

لكم ماخفى عليكم من الخير ، وقيل مفعول يريد محذوف . أى يريد الله هذا ليبين لكم ، وبه قال البصريون ، وهومروىّ عن سيبويه ، وقيل اللام بنفسها ناصبة للفعل من غير اضمارأن ، وهى ومابعدها مفعول للفعل المتقدّم ، وهومثل قول الفراء السابق ، وقال بعض البصريين ان قوله (يريد) مؤوّل بالمصدر مرفوع بالابتدا مثل : تسمع بالمعيدى خيرمن أن تراه * ومعنى الآية يريد الله ليبين لكم مصالح دينكم وما يحل لكم ومايحرم عليكم (ويهديكم سنن الذين من قبلكم) أى طرقهم ، وهم الأنبياء وأتباعهم لتقتدوا بهم (ويتوب عليكم) أى ويريد أن يتوب عليكم فتوبوا اليه وتلافوا مافرط منكم بالتوبة يغفر لكم ذنوبكم (والله يريد أن يتوب عليكم) هذا تأكيد لما قدفهم من قوله (ويتوب عليكم) المتقدّم ، وقيل الأوّل معناه الارشاد الى الطاعات ، والثانى فعل أسبابها ، وقيل ان الثانى لبيان كمال منفعة ارادته سبحانه وكمال ضرر مايريده الذين يتبعون الشهوات ، وليس المراد به مجرد ارادة التوبة حتى يكون من باب التكرير للتأكيد ، قيل هذه الارادة منه سبحانه فى جميع أحكام الشرع ، وقيل فى نكاح الأمة فقط

واختلف فى تعيين المتبعين للشهوات فقيل هم الزناة ، وقيل اليهود والنصارى ، وقيل اليهود خاصة ، وقيل هم المجوس لأنهم أرادوا أن يتبعهم المسلمون فى نكاح الأخوات من الأب ، والاوّل أولى * والميل العدول عن طريق الاستواء * والمراد بالشهوات هنا ماحرّمه الشرع دون ماأحله ، ووصف الميل بالعظم بالنسبة الى ميل من اقترف خطيئة نادرا * قوله (والله يريد أن يخفف عنكم) بما مرّ من الترخيص لكم ، أو بكل مافيه تخفيف عليكم (وخلق الانسان ضعيفا) عاجزا غير قادر على ملك نفسه ودفعها عن شهواتها وفاء بحق التكليف ، فهومحتاج من هذه الحيثية الى التخفيف ، فلهذا أراد الله سبحانه التخفيف عنه .

وقدأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس : قال حرم من النسب سبع ومن الصهر سبع ، ثم قرأ (حرّمت عليكم أمهاتكم) إلى قوله (وبنات الأخت) هذامن النسب ، وباقى الآية من الصهر ، والسابعة (ولاتنكحوا مانكح آباؤكم من النساء) . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى عن عمران بن حصين فى قوله (وأمهات نسائكم) قال هى مبهمة . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس قال هى مبهمة إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها أو ماتت لم تحلّ له أمها . وأخرج هؤلاء الا البيهقى عن علىّ فى الرجل يتزوّج المرأة ثم يطلقها أوماتت قبل أن يدخل بها هل تحل له أمّها ؟ قال : هى بمنزلة الربيبة . وأخرج هؤلاء عن زيد بن ثابت أنه كان يقول اذا ماتت عنده فأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمّها ، واذا طلقها قبل أن يدخل بها فلا بأس أن يتزوّج أمّها . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال فى قوله (وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم) أريد بهما الدخول جميعا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عبدالله بن الزبير : قال الربيبة والأم سواء لابأس بهما اذا لم يدخل بالمرأة . وأخرج عبدالرزاق وابن أبى حاتم بسند صحيح عن مالك بن أوس بن الحدثان قال كانت عندى امرأة فتوفيت وقد ولدت لى فوجدت عليها فلقينى علىّ بن أبى طالب . فقال مالك ؟ فقلت توفيت المرأة فقال علىّ لها ابنة ؟ قلت : نعم وهى بالطائف : قال كانت فى حجرك ؟ قلت : لا : قال فانكحها ، قلت فأين قول الله (وربائبكم اللاتى فى حجوركم) ؟ قال انها لم تكن فى حجرك .

وقدقدّمنا قول من قال انه إسناد ثابت على شرط مسلم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : الدخول الجماع . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطاء قال : كنا نتحدّث أن محمدا ﷺ لما نكح امرأة زيد ، قال المشركون بمكة فى ذلك ، فأنزل الله (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) ونزلت ـ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ـ

ونزلت ـ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ـ . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (وأن تجمعوا بين الأختين) قال : يعنى فى النكاح . وأخرج عبد بن حميد عنه فى الآية : قال ذلك فى الحرائر فأما المماليك فلا بأس . وأخرج ابن المنذر عنه نحوه من طريق أخرى . وأخرج مالك والشافعى وعبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن عثمان بن عفان أن رجلا سأله عن الأختين فى ملك اليمين هل يجمع بينهما ؟ قال أحلتهما آية وحرّمتهما آية وما كنت لأصنع ذلك ، فخرج من عنده ، فلقى رجلا من أصحاب النبى ﷺ أراه علىّ بن أبى طالب فسأله عن ذلك : فقال لوكان لى من الأمر شىء ثم وجدت أحدا فعل ذلك لجعلته نكالا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر والبيهقى عن علىّ أنه سئل عن رجل له أمتان أختان وطىء إحداهما وأراد أن يطأ الأخرى ، فقال : لاحتى يخرجها من ملكه ، قيل فان زوّجها عبده ، قال : لاحتى يخرجها من ملكه . وأخرج عبدالرزاق وابن أبى شيبة وعبد ابن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن مسعود أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين الأمتين فكرهه فقيل : يقول الله (الا ماملكت أيمانكم) فقال و بعيرك أيضا مما ملكت يمينك . وأخرج ابن أبى شيبة والبيهقى من طريق أبى صالح عن علىّ بن أبى طالب قال فى الأختين المملوكتين أحلتهما آية وحرّمتهما آية ولا آمر ولا أنهى ، ولا أحلّ ولا أحرّم ، ولا أفعل أنا وأهل بيتى . وأخرج أحمد عن قيس قال : قلت لابن عباس أيقع الرجل على المرأة وابنتها مملوكتين له ؟ فقال أحلتهما آية وحرّمتهما آية ولم أكن لأفعله . وأخرج عبدالرزاق والبيهقى عنه فى الأختين من ملك اليمين أحلتهما آية وحرّمتهما آية . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبيهقى عن ابن عمر قال : اذا كان للرجل جاريتان أختان فغشى إحداهما فلا يقرب الأخرى حتى يخرج التى غشى من ملكه . وأخرج البيهقى عن مقاتل بن سليمان قال : انما قال الله فى نساء الآباء (الاماقد سلف) لأن العرب كانوا ينكحون نساء الآباء ثم حرم النسب والصهر فلم يقل الا ماقد سلف لأن العرب كانت لاتنكح النسب والصهر . وقال فى الأختين (إلا ماقد سلف) لأنهم كانوا يجمعون بينهما فحرّم جمعهما جميعا إلاماقد سلف قبل التحريم (ان الله كان غفورا رحيما) لما كان من جماع الأختين قبل التحريم .
وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ بعث يوم حنين جيشا إلى أوطاس فلقوا عدوّا فقاتلوهم فظهروا عليهم وأصابوا لهم سبايا فكأن ناسا من أصحاب النبىّ ﷺ تحرّجوا من غشيانهنّ من أجل أزواجهنّ من المشركين ، فأنزل الله فى ذلك (والمحصنات من النساء إلاماملكت أيمانكم) يقول إلاماأفاء الله عليكم . وأخرج الطبرانى عن ابن عباس أن ذلك سبب نزول الآية . وأخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (والمحصنات من النساء) قال كل ذات زوج إتيانها زنا الاماسبيت . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة والطبرانى عن علىّ وابن مسعود فى قوله (والمحصنات من النساء الا ماملكت أيمانكم) قال علىّ المشركات اذا سبين حلت له . وقال ابن مسعود : المشركات والمسلمات . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : اذا بيعت الأمة ولها زوج فسيدها أحق ببضعها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (والمحصنات من النساء) قال ذوات الأزواج . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن أنس بن مالك مثله . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن مسعود مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (والمحصنات) قال العفيفة العاقلة من مسلمة أومن أهل الكتاب . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه فى الآية : قال لايحلّ له أن يتزوّج فوق الأربع فما زاد فهو عليه حرام كأمّه وأخته . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبى العالية

فى قوله (والمحصنات من النساء) قال يقول انكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، ثم حرّم ماحرّم من النسب والصهر ، ثم قال (والمحصنات من النساء) فرجع إلى أوّل السورة فقال هنّ حرام أيضا إلالمن نكح بصداق وسنة وشهود . وأخرج عبدالرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير عن عبيدة قال :أحلّ الله لك أربعا فى أوّل السورة وحرّم نكاح كل محصنة بعد الأربع إلا ماملكت يمينك . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ « الاحصان احصانان احصان نكاح ، واحصان عفاف » فمن قرأها والمحصنات بكسر الصاد فهنّ العفائف ، ومن قرأهاوالمحصنات بالفتح فهنّ المتزوّجات . قال ابن أبى حاتم : قال أبىّ هذا حديث منكر . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وأحلّ لكم ماوراء ذلكم) قال ماوراء هذا النسب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى : قال مادون الأربع . وأخرج ابن جرير عن عطاء : قال ماوراء ذات القرابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (وأحلّ لكم ماوراء ذلكم) قال ماملكت أيمانكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن عبيدة السلمانى نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (محصنين غير مسافحين) قال غير زانين . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فآتوهنّ أجورهنّ) يقول اذا تزوّج الرجل منكم المرأة ثم نكحها مرة واحدة فقد وجب صداقها كله والاستمتاع هو النكاح ، وهوقوله ـ وآتوا النساء صدقاتهن ـ . وأخرج الطبرانى والبيهقى فى سننه عن ابن عباس : قال كانت المتعة فى أوّل الاسلام ، وكانوا يقرءون هذه الآية (فما استمتعتم به منهنّ إلى أجل مسمى) الآية فكان الرجل يقدم البلدة ليس له بها معرفة فيتزوّج بقدر مايرى أنه يفرغ من حاجته ليحفظ متاعه ويصلح شأنه ، حتى نزلت هذه الآية (حرّمت عليكم أمهاتكم) فنسخت الأولى فحرّمت المتعة وتصديقها من القرآن ـ إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم ـ وماسوى هذا الفرج فهوحرام .

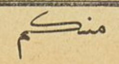
وقدأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن الأنبارى فى المصاحف والحاكم وصححه أن ابن عباس . قرأ (فما استمتعتم به منهنّ إلى أجل مسمى) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبىّ بن كعب أنه قرأها كذلك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ، أن هذه الآية فى نكاح المتعة ، وكذلك أخرج ابن جرير عن السدّى . والأحاديث فى تحليل المتعة ثم تحريمها ، وهل كان نسخها مرّة أومرّتين ؟ مذكورة فى كتب الحديث . وقد أخرج ابن جرير فى تهذيبه وابن المنذر والطبرانى والبيهقى عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس ماذا صنعت ذهبت الركاب بفتياك وقالت فيها الشعراء : قال وما قالوا ؟ قلت قالوا :

* أقول للشيخ لما طال مجلسه * ياصاح هل لك فى فتيا ابن عباس
هل لك فى رخصة الاعطاف آنسة * تكون مثواك حتى مصدر الناس

فقال إنالله وإنا إليه راجعون لا والله مابهذا أفتيت ولا هذا أردت ولا أحللتها إلا للمضطر . وفى لفظ ولا أحللت منها الا ماأحلّ الله من الميتة والدم ولحم الخنزير . وأخرج ابن جرير عن حضرمىّ أن رجالا كانوا يفرضون المهر ثم عسى أن تدرك أحدهم العسرة ، فقال الله (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به) قال التراضى أن يوفى لها صداقها ثم يخيرها . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى الآية قال ان وضعت لك منه شيئا فهوسائغ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس (ومن لم يستطع منكم طولا) يقول من لم يكن له سعة (أن ينكح المحصنات) يقول الحرائر (فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) فلينكح من إماء المؤمنين (محصنات غير مسافحات)

يعنى عفائف غير زوانى فى سرّ ولا علانية (ولا متخذات أخدان) يعنى أخلاء (فاذا أحصنّ) ثم اذا تزوّجت حرا ثم زنت (فعليهنّ نصف ماعلى المحصنات من العذاب) قال من الجلد (ذلك لمن خشى العنت منكم) هو الزنا : فليس لأحد من الاحرار أن ينكح أمة الا أن لايقدر على حرّة وهو يخشى العنت (وأن تصبروا) عن نكاح الاماء ف(هو خير لكم) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن مجاهد (ومن لم يستطع منكم طولا) يعنى من لايجد منكم غنى (أن ينكح المحصنات) يعنى الحرائر فلينكح الأمة المؤمنة (وأن تصبروا) عن نكاح الاماء (خير لكم) وهو حلال . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عنه قال مما وسع الله به على هذه الأمة نكاح الأمة النصرانية واليهودية وان كان موسرا . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة والبيهقى عنه قال لايصلح نكاح إماء أهل الكتاب ، لأن الله يقول (من فتياتكم المؤمنات) . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة عن الحسن «أن رسول الله ﷺ نهى أن تنكح الأمة على الحرّة والحرّة على الأمة ومن وجد طولا لحرّة فلا ينكح أمة» . وأخرج ابن أبى شيبة والبيهقى عن ابن عباس : قال لايتزوّج الحرّ من الاماء الا واحدة . وأخرج ابن أبى شيبة عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله (والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض) يقول أنتم اخوة بعضكم من بعض . وأخرج ابن المنذر عن السدّى (فانكحوهنّ باذن أهلهنّ) قال باذن مواليهنّ (وآتوهنّ أجورهنّ) قال مهورهنّ . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال المسافحات المعلنات بالزنا ، والمتخذات أخدان : ذات الخليل الواحد . قال كان أهل الجاهلية يحرّمون ماظهر من الزنا و يستحلون ماخفى ، فأنزل الله ـ ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ـ . وأخرج ابن أبى حاتم عن علىّ قال : قال رسول الله ﷺ (فاذا أحصنّ) قال إحصانها : إسلامها . وقال علىّ اجلدوهنّ . قال ابن أبى حاتم حديث منكر . وقال ابن كثير فى إسناده ضعيف ومبهم لم يسمّ ، ومثله لاتقوم به حجة . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس قال : حدّ العبد يفترى على الحرّ أربعون . وأخرج ابن جرير عنه قال العنت : الزنا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى (ويريد الذين يتبعون الشهوات) قال هم اليهود والنصارى . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (ويريد الذين يتبعون الشهوات) قال الزنا . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد (يريد الله أن يخفف عنكم) يقول فى نكاح الأمة وفى كل شىء فيه يسر . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد (يريد الله أن يخفف عنكم) قال رخص لكم فى نكاح الاماء (وخلق الانسان ضعيفا) قال لولم يرخص له فيها . وأخرج ابن جرير والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس : قال ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء هنّ خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت : أوّلهنّ (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم) ، والثانية (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما) ، والثالثة (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا) ، والرابعة (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) ، والخامسة (ان الله لايظلم مثقال ذرّة) الآية ، والسادسة (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله) الآية ، والسابعة (ان الله لايغفر أن يشرك به) الآية ، والثامنة (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرّقوا بين أحد منهم أولئك سوف نؤتيهم أجورهم وكان الله) للذين عملوا من الذنوب (غفورا رحيما) .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ



مِنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً * إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً *

الباطل : ماليس بحق ، ووجوه ذلك كثيرة ، ومن الباطل البيوعات التي نهى عنها الشرع * والتجارة فى اللغة عبارة عن المعاوضة ، وهذا الاستثناء منقطع ، أى لكن تجارة عن تراض منكم جائزة بينكم أو لكن كون تجارة عن تراض منكم حلالا لكم * وقوله (عن تراض) صفة لتجارة ، أى كائنة عن تراض ، وانما نصّ الله سبحانه على التجارة دون سائر أنواع المعاوضات لكونها أكثرها وأغلبها ، وتطلق التجارة على جزاء الأعمال من الله على وجه المجاز ، ومنه قوله تعالى ـ هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ـ * وقوله ـ يرجون تجارة لن تبور ـ .

واختلف العلماء فى التراضى : فقالت طائفة تمامه وجوبه بافتراق الأبدان بعد عقد البيع ، أو بأن يقول أحدهما لصاحبه : اختر كما فى الحديث الصحيح « البيعان بالخيار مالم يتفرّقا » أو يقول أحدهما لصاحبه اختر ، و إليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين ، و به قال الشافعى والثورى والأوزاعى والليث وابن عيينة واسحق وغيرهم . وقال مالك وأبو حنيفة تمام البيع هو أن يعقد البيع بالألسنة فيرتفع بذلك الخيار ، وأجابوا عن الحديث بمالا طائل تحته . وقد قرئ تجارة بالرفع على أن كان تامة ، وتجارة بالنصب على أنها ناقصة * قوله (ولا تقتلوا أنفسكم) أى لايقتل بعضكم أيها المسلمون بعضا إلا بسبب أثبته الشرع ، أو لاتقتلوا أنفسكم باقتراف المعاصى ، أو المراد النهى عن أن يقتل الانسان نفسه حقيقة ، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعانى ، ومما يدل على ذلك احتجاج عمرو بن العاص بها حين لم يغتسل بالماء البارد حين أجنب فى غزاة ذات السلاسل فقرّر النبى ﷺ احتجاجه وهو فى مسند أحمد وسنن أبى داود وغيرهما * قوله (ومن يفعل ذلك) أى القتل خاصة أو أكل أموال الناس ظلما والقتل عدوانا وظلما ، وقيل هو إشارة إلى كل مانهى عنه فى هذه السورة . وقال ابن جرير انه عائد على مانهى عنه من آخر وعيد وهو قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لايحلّ لكم أن ترثوا النساء كرها) لأن كل مانهى عنه من أوّل السورة قرن به وعيد الا من قوله (يأيها الذين آمنوا لايحل لكم) فانه لاوعيد بعده الاقوله (ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما) والعدوان : تجاوز الحدّ * والظلم : وضع الشىء فى غير موضعه ، وقيل ان معنى العدوان والظلم واحد ، وتكريره لقصد التأكيد كما فى قول الشاعر : * وألفى قولها كذبا ومينا *

وخرج بقيد العدوان والظلم ما كان من القتل بحق كالقصاص وقتل المرتد وسائر الحدود الشرعية ، وكذلك قتل الخطأ * قوله (فسوف نصليه) جواب الشرط ، أى ندخله نارا عظيمة (وكان ذلك) أى إصلاؤه النار (على الله يسيرا) لأنه لايعجزه شىء ، وقرئ نصليه بفتح النون ، روى ذلك عن الأعمش والنخعى ، وهو على هذه القراءة منقول من صلى ، ومنه شاة مصلية * قوله (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) أى إن تجتنبوا كبائر الذنوب التى نهاكم الله عنها (نكفر عنكم سيئاتكم) أى ذنوبكم التى هى صغائر ، وحمل السيئات على الصغائر هنا متعين لذكر الكبائر قبلها ، وجعل اجتنابها شرطا لتكفير السيئات .

وقد اختلف أهل الأصول فى تحقيق معنى الكبائر ثم فى عددها ، فأما فى تحقيقها ، فقيل ان الذنوب كلها كبائر ، وانما يقال لبعضها صغيرة ، بالاضافة الى ماهو أكبر منها كما يقال ، الزنا صغيرة بالاضافة الى الكفر

والقبلة المحرّمة صغيرة بالاضافة الى الزنا ، وقد روى نحو هذا عن الاسفرايني والجويني والقشيري وغيرهم قالوا : والمراد بالكبائر التى يكون اجتنابها سببا لتكفير السيئات هى الشرك ، واستدلوا على ذلك بقراءة من قرأ (ان تجتنبوا كبير ماتنهون عنه) وعلى قراءة الجمع ، فالمراد أجناس الكفر ، واستدلوا على ماقالوه بقوله تعالى (ان الله لايغفر أن يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء) قالوا فهذه الآية مقيدة لقوله (ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه) وقال ابن عباس : الكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب ، وقال ابن مسعود الكبائر مانهى الله عنه فى هذه السورة الى ثلاث وثلاثين آية ، وقال سعيد بن جبير : كل ذنب نسبه الله الى النار فهو كبيرة ، وقال جماعة من أهل الأصول : الكبائر كل ذنب رتب الله عليه الحدّ أو صرح بالوعيد فيه ، وقيل غير ذلك مما لافائدة فى التطويل بذكره * وأما الاختلاف فى عددها فقيل : انها سبع ، وقيل سبعون ، وقيل سبعمائة وقيل غير منحصرة ، ولكن بعضها أكبر من بعض ، وسيأتى ماورد فى ذلك ان شاء الله * قوله (وندخلكم مدخلا) أى مكان دخول وهو الجنة (كريما) : أى حسنا مرضيا ، وقد قرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر والكوفيون (مدخلا) بضم الميم . وقرأ أهل المدينة بفتح الميم ، وكلاهما اسم مكان ، ويجوز أن يكون مصدرا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى ، قال السيوطى بسند صحيح عن ابن مسعود فى قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) قال انها محكمة مانسخت ولاتنسخ الى يوم القيامة . وأخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن فى الآية قال كان الرجل يتحرّج أن يأكل عند أحد من الناس بعد مانزلت هذه الآية ، فنسخ ذلك الآية التى فى النور — ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم — الآية . وأخرج ابن ماجه وابن المنذر عن أبى سعيد قال قال رسول الله ﷺ « انما البيع عن تراض» وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى صالح وعكرمة فى قوله تعالى (ولاتقتلوا أنفسكم) قالا نهاهم عن قتل بعضهم بعضا . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير عن عطاء بن أبى رباح نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن السدى (ولا تقتلوا أنفسكم) قال أهل دينكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما) يعنى متعمدا اعتداء بغير حق (وكان ذلك على الله يسيرا) يقول كان عذابه على الله هينا . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قلت لعطاء أرأيت قوله تعالى (ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا) فى كل ذلك أم فى قوله (ولاتقتلوا أنفسكم) ؟ قال بل فى قوله (ولا تقتلوا أنفسكم) . وأخرج عبد بن حميد عن أنس بن مالك قال : هان ماسألكم ربكم (ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : كل مانهى الله عنه فهو كبيرة ، وقد ذكرت الطرفة : يعنى النظرة . وأخرج ابن جرير عنه قال كل شىء عصى الله فيه فهو كبيرة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال كل ماوعد الله عليه النار كبيرة . وأخرج ابن جرير والبيهقى فى الشعب عنه قال : الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير ماقدّمنا عنه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس أنه سئل عن الكبائر أسبع هى ؟ قال هى الى السبعين أقرب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أن رجلا سأله كم الكبائر أسبع هى ؟ قال : هى الى سبعمائة أقرب منها الى سبع غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار . وأخرج البيهقى فى الشعب عنه كل ذنب أصرّ عليه العبد كبيرة : وليس بكبيرة ماتاب عنه العبد ، وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة : قال قال رسول الله ﷺ « اجتنبوا السبع الموبقات »

قالوا

قالوا وماهى يارسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، وقتل النفس التى حرّم الله الا بالحق ، والسحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى بكرة قال قال النبى ﷺ « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا بلى يارسول الله ، قال الاشراك بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت » . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عمرو عن النبى ﷺ قال « الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس شك شعبة : واليمين الغموس» . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمرو قال قال رسول الله ﷺ « ان من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قالوا وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه» ، والأحاديث فى تعداد الكبائر وتعينها كثيرة جدا فمن رام الوقوف على ماورد فى ذلك : فعليه بكتاب الزواجر فى الكبائر ، فانه قد جمع فأوعى

واعلم أنه لابد من تقييد مافى هذه الآية من تكفير السيئات بمجرد اجتناب الكبائر بما أخرجه النسائى وابن ماجه وابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن أبى هريرة وأبى سعيد أن النبى ﷺ جلس على المنبر ثم قال «والذى نفسى بيده مامن عبد يصلى الصلوات الخمس ويصوم رمضان ويؤدى الزكاة ويجتنب الكبائر السبع الا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يوم القيامة حتى انها لتصفق ، ثم تلا ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » . وأخرج أبو عبيد فى فضائله وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال : ان فى سورة النساء خمس آيات مايسرنى أن لى بها الدنيا ومافيها ، ولقد علمت أن العلماء اذا مرّوا بها يعرفونها : قوله تعالى (ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه) الآية * وقوله (ان الله لايظلم مثقال ذرّة) الآية * وقوله (ان الله لايغفر أن يشرك به) الآية * وقوله (ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك) الآية * وقوله (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه) الآية .

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا ٱكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْئَلُوا ٱللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً * وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا * ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا *

قوله (ولاتتمنوا) التمنى نوع من الارادة يتعلق بالمستقبل ، كالتلهف نوع منها يتعلق بالماضى ، وفيه النهى عن أن يتمنى الانسان ما فضل الله به غيره من الناس عليه ، فان ذلك نوع من عدم الرضا بالقسمة التى قسمها الله بين عباده على مقتضى ارادته وحكمته البالغة ، وفيه أيضا نوع من الحسد المنهىّ عنه اذا صحبه ارادة زوال تلك النعمة عن الغير .

وقد اختلف العلماء فى الغبطة هل تجوز أم لا ؟ وهى أن يتمنى أن يكون به حال مثل حال صاحبه من دون أن يتمنى زوال ذلك الحال عن صاحبه ، فذهب الجمهور الى جواز ذلك ، واستدلوا بالحديث الصحيح «لاحسد

الا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » وقد بوّب عليه البخارى باب الاغتباط فى العلم والحكم ، وعموم لفظ الآية يقتضى تحريم تمنى ماوقع به التفضيل سواء كان مصحوبا بما يصير به من جنس الحسد أم لا ، وماورد فى السنة من جواز ذلك فى أمور معينة يكون مخصصا لهذا العموم ، وسيأتى ذكر سبب نزول الآية ، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لابخصوص السبب * وقوله (للرجال نصيب) الخ فيه تخصيص بعد التعميم ورجوع الى مايتضمنه سبب نزول الآية من أن أمّ سلمة قالت يارسول الله يغزو الرجال ولانغزى ولانقاتل فنستشهد ، وانما لنا نصف الميراث فنزلت ، أخرجه عبدالرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم والبيهقى ، وقد روى نحو هذا السبب من طرق بألفاظ مختلفة ، والمعنى فى الآية أن الله جعل لكل من الفريقين نصيبا على حسب ماتقتضيه ارادته وحكمته ، وعبر عن ذلك المجعول لكل فريق من فريقى النساء والرجال بالنصيب مما اكتسبوا على طريق الاستعارة التبعية شبه اقتضاء حال كل فريق لنصيبه باكتسابه إياه . قال قتادة للرجال نصيب مما اكتسبوا من الثواب والعقاب وللنساء كذلك . وقال ابن عباس المراد بذلك الميراث والاكتساب على هذا القول بمعنى ماذكرنا * قوله (واسألوا الله من فضله) عطف على قوله (ولاتتمنوا) وتوسيط التعليل بقوله (للرجال نصيب) الخ بين المعطوف والمعطوف عليه لتقرير ماتضمنه النهى ، وهذا الأمر يدل على وجوب سؤال الله سبحانه من فضله كما قاله جماعة من أهل العلم * قوله (ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون) أى جعلنا لكل انسان ورثة موالى يلون ميراثه ، فلكلّ مفعول ثان قدّم على الفعل لتأكيد الشمول ، وهذه الجملة مقررة لمضمون ماقبلها ، أى ليتبع كل أحد ماقسم الله له من الميراث ولا يتمنّ مافضل الله به غيره عليه ، وقد قيل ان هذه الآية منسوخة بقوله بعدها (والذين عاقدت أيمانكم) ، وقيل العكس كما روى ذلك ابن جرير ، وذهب الجمهور الى أن الناسخ لقوله (والذين عاقدت أيمانكم) قوله تعالى ـ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض ـ والموالى جمع مولى ، وهو يطلق على المعتق والمعتق والناصر وابن العم والجار ، قيل والمراد هنا العصبة ، أى ولكلّ جعلنا عصبة يرثون ماأبقت الفرائض * قوله (والذين عاقدت أيمانكم) المراد بهم موالى الموالاة ، كان الرجل من أهل الجاهلية يعاقد الرجل ، أى يحالفه فيستحق من ميراثه نصيبا ، ثم ثبت فى صدر الاسلام بهذه الآية ، ثم نسخ بقوله ـ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض ـ وقراءة الجمهور عاقدت ، وروى عن حمزة أنه قرأ عقدت بتشديد القاف على التكثير ، أى والذين عقدت لهم أيمانكم الحلف ، أوعقدت عهودهم أيمانكم ، والتقدير على قراءة الجمهور والذين عاقدتهم أيمانكم فآتوهم نصيبهم ، أى ماجعلتموه لهم بعقد الحلف * قوله (الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض) هذه الجملة مستأنفة مشتملة على بيان العلة التى استحق بها الرجال الزيادة ، كأنه قيل كيف استحق الرجال مااستحقوا مما لم تشاركهم فيه النساء . فقال (الرجال قوّامون) الخ ، والمراد أنهم يقومون بالذبّ عنهنّ كما تقوم الحكام ، والأمراء بالذب عن الرعاية وهم أيضا يقومون بما يحتجن اليه من النفقة والكسوة والمسكن ، وجاء بصيغة المبالغة فى قوله (قوّامون) ليدلّ على أصالتهم فى هذا الأمر ، والباء فى قوله (بما فضل الله) للسببية ، والضمير فى قوله (بعضهم على بعض) للرجال والنساء ، أى انما استحقوا هذه المزية لتفضيل الله للرجال على النساء بما فضلهم به من كون فيهم الخلفاء والسلاطين والحكام والأمراء والغزاة وغير ذلك من الأمور * قوله (وبما أنفقوا) أى وبسبب ماأنفقوا من أموالهم ، وما مصدرية أو موصولة ، وكذلك هى فى قوله (بما فضل الله) ومن تبعيضية ، والمراد ماأنفقوه فى الانفاق على النسا وبما دفعوه فى مهورهنّ من أموالهم وكذلك ماينفقونه فى الجهاد ومايلزمهم فى العقل .

? cf. Ban. 114.

وقد

وقد استدل جماعة من العلماء بهذه الآية على جواز فسخ النكاح اذا عجز الزوج عن نفقة زوجته وكسوتها ، وبه قال مالك والشافعي وغيرهما * قوله (فالصالحات) أى من النساء (قانتات) أى مطيعات لله قائمات بما يجب عليهنّ من حقوق الله وحقوق أزواجهنّ (حافظات للغيب) أى لما يجب حفظه عند غيبة أزواجهنّ عنهنّ من حفظ نفوسهنّ وحفظ أموالهم ، وما فى قوله (بما حفظ الله) مصدرية ، أى بحفظ الله * والمعنى أنهنّ حافظات لغيب أزواجهنّ بحفظ الله لهنّ ومعونته وتسديده ، أو حافظات له بما استحفظهنّ من أداء الأمانة إلى أزواجهنّ على الوجه الذى أمر الله به ، أو حافظات له بحفظ الله لهنّ بما أوصى به الأزواج فى شأنهنّ من حسن العشرة ، ويجوز أن تكون ما موصولة والعائد محذوف . وقرأ أبو جعفر (بما حفظ الله) بنصب الاسم الشريف * والمعنى بما حفظن الله ، أى حفظن أمره ، أو حفظن دينه ، فحذف الضمير الراجع إليهنّ للعلم به ، وما على هذه القراءة مصدرية ، أو موصولة كالقراءة الأولى ، أى بحفظهنّ الله أو بالذى حفظن الله به * قوله (واللاتى تخافون نشوزهنّ) هذا خطاب للأزواج ، قيل الخوف هنا على بابه ، وهو حالة تحدث فى القلب عند حدوث أمر مكروه ، أو عند ظنّ حدوثه ، وقيل المراد بالخوف هنا العلم * والنشوز : العصيان . وقد تقدّم بيان أصل معناه فى اللغة . قال ابن فارس : يقال نشزت المرأة : استعصت على بعلها ونشز بعلها عليها : إذا ضربها وجفاها (فعظوهنّ) أى ذكروهنّ بما أوجبه الله عليهنّ من الطاعة وحسن العشرة ورغبوهنّ ورهبوهنّ (واهجروهنّ فى المضاجع) يقال هجره ، أى تباعد منه * والمضاجع : جمع مضجع ، وهو محل الاضطجاع ، أى تباعدوا عن مضاجعتهنّ ولا تدخلوهنّ تحت ماتجعلونه عليكم حال الاضطجاع من الثياب ، وقيل هو أن يوليها ظهره عند الاضطجاع ، وقيل هو كناية عن ترك جماعها ، وقيل لاتبيت معه فى البيت الذى يضطجع فيه (واضربوهنّ) أى ضربا غير مبرح * وظاهر النظم القرآنى أنه يجوز للزوج أن يفعل جميع هذه الأمور عند مخافة النشوز ، وقيل انه لايهجرها الا بعد عدم تأثير الوعظ ، فان أثر الوعظ لم ينتقل الى الهجر ، وان كفاه الهجر لم ينتقل الى الضرب (فان أطعنكم) كما يجب وتركن النشوز (فلا تبغوا عليهنّ سبيلا) أى لاتتعرّضوا لهنّ بشىء مما يكرهن لا بقول ولا بفعل ، وقيل المعنى لاتكلفوهنّ الحب لكم فانه لايدخل تحت اختيارهنّ (إن الله كان عليا كبيرا) إشارة إلى الأزواج بخفض الجناح ولين الجانب ، أى وان كنتم تقدرون عليهنّ فاذكروا قدرة الله عليكم فانها فوق كل قدرة ، والله بالمرصاد لكم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولا تتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض) يقول لايتمنى الرجل فيقول ليت أن لى مال فلان وأهله ، فنهى الله سبحانه عن ذلك ولكن يسأل الله من فضله (للرجال نصيب مما اكتسبوا) يعنى مما ترك الوالدان والأقربون للذكر مثل حظ الأنثيين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أن سبب نزول الآية أن النساء قلن لو جعل أنصباؤنا فى الميراث كأنصباء الرجال . وقال الرجال إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا فى الآخرة كما فضلنا عليهنّ فى الميراث . وقد تقدّم ذكر سبب النزول . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (واسألوا الله من فضله) قال ليس بعرض الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير (واسألوا الله من فضله) قال العبادة ليس من أمر الدنيا . وأخرج الترمذى عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ « سلوا الله من فضله فان الله يحب أن يسأل » . قال الترمذى كذا رواه حماد بن واقد وليس بالحافظ ، ورواه أبو نعيم عن اسرائيل عن حكيم بن جبير عن رجل عن النبى ﷺ ، وحديث أبى نعيم أشبه أن يكون أصح ، وكذا رواه ابن جرير وابن مردويه ، ورواه أيضا ابن مردويه من حديث ابن عباس .

وأخرج البخارى وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس (ولكلّ جعلنا موالى) قال ورثة (والذين عاقدت أيمانكم) قال كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرى الأنصارى دون ذوى رحمه للأخوّة التى آخى النبى ﷺ بينهم ، فلما نزلت (ولكلّ جعلنا موالى) نسخت ، ثم قال (والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ويوصى له . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه (ولكلّ جعلناموالى) قال عصبة (والذين عاقدت أيمانكم) قال : كان الرجلان أيهما مات ورثه الآخر ، فأنزل الله ـ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ـ يقول إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا وصية فهو لهم جائز من ثلث مال الميت وهو المعروف . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال كان الرجل قبل الاسلام يعاقد الرجل يقول ترثنى وأرثك وكان الأحياء يتحالفون : فقال رسول الله ﷺ «كل حلف كان فى الجاهلية أوعقد أدركه الاسلام فلا يزيده الاسلام الاشدّة ولا عقد ولا حلف فى الاسلام» فنسختها هذه الآية ـ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض ـ وأخرج أبو داود وابن جرير وابن مردويه والبيهقى عنه فى الآية قال كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما الآخر فنسخ ذلك فى الأنفال ـ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض ـ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن أن رجلا من الأنصار لطم امرأته فجاءت تلتمس القصاص فجعل النبى ﷺ بينهما القصاص فنزل ـ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه ـ فسكت رسول الله ﷺ ونزل القرآن (الرجال قوّامون على النساء) الآية ، فقال رسول الله ﷺ أردنا أمرا ، وأراد الله غيره . وأخرج ابن مردويه عن علىّ نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس (الرجال قوّامون على النساء) يعنى أمراء عليهنّ أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته وطاعته أن تكون محسنة إلى أهله حافظة لماله (بما فضل الله) فضله عليها بنفقته وسعيه (فالصالحات قانتات) قال مطيعات (حافظات للغيب) يعنى إذا كنّ كذا فأحسنوا اليهنّ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة (حافظات للغيب) قال حافظات للغيب بما استودعهنّ الله من حقه وحافظات لغيب أزواجهنّ . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال (حافظات للغيب) للأزواج . وأخرج ابن جرير عن السدّى قال تحفظ على زوجها ماله وفرجها حتى يرجع كما أمرها الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس (واللاتى تخافون نشوزهنّ) قال تلك المرأة تنشز وتستخف بحق زوجها ولا تطيع أمره ، فأمره الله أن يعظها ويذكرها بالله ويعظم حقه عليها فان قبلت والا هجرها فى المضجع ولا يكلمها من غير أن يذر نكاحها ، وذلك عليها تشديد فان رجعت والا ضربها ضربا غير مبرح ولا يكسر لها عظما ولا يجرح بها جرحا (فان أطعنكم فلا تبغوا عليهنّ سبيلا) يقول إذا أطاعتك فلا تتجنى عليها العلل . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (واهجروهنّ فى المضاجع) قال لايجامعها . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عنه قال يهجرها بلسانه ويغلظ لها بالقول ولا يدع الجماع . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير عن عكرمة نحوه . وأخرج ابن جرير عن عطاء أنه سأل ابن عباس عن الضرب غير المبرح ؟ فقال بالسواك ونحوه . وقد أخرج الترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه عن عمرو بن الأحوص أنه شهد خطبة الوداع مع رسول الله ﷺ وفيها أنه قال: النبى ﷺ « ألا واستوصوا بالنساء خيرا فانما هنّ عوار عندكم ليس تملكون منهنّ شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبنية ، فان فعلن فاهجروهنّ فى المضاجع واضربوهنّ ضربا غير مبرّح ، فان أطعنكم فلا تبغوا عليهنّ سبيلا »

سبيلا » . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبدالله بن زمعة : قال قال رسول الله ﷺ « أيضرب أحدكم امرأته كما يضرب العبد ? ثم يجامعها فى آخر اليوم .

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا *

قد تقدّم معنى الشقاق فى البقرة ، وأصله أن كل واحد منهم يأخذ شقا غير شق صاحبه ، أى ناحية غير ناحيته ، وأضيف الشقاق الى الظرف لاجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى — بل مكر الليل والنهار — وقوله * ياسارق الليلة أهل الدار * والخطاب للأمراء والحكام ، والضمير فى قوله (بينهما) للزوجين لأنه قد تقدّم ذكر مايدل عليهما ، وهو ذكر الرجال والنساء (فابعثوا) الى الزوجين (حكما) يحكم بينهما ممن يصلح لذلك عقلا ودينا وانصافا ، وانما نص الله سبحانه على أن الحكمين يكونان من أهل الزوجين لأنهما أقعد بمعرفة أحوالهما ، واذا لم يوجد من أهل الزوجين من يصلح للحكم بينهما كان الحكمان من غيرهم ، وهذا اذا أشكل أمرهما ولم يتبين من هو المسىء منهما ، فأما اذا عرف المسىء فانه يؤخذ لصاحبه الحق منه ، وعلى الحكمين أن يسعيا فى إصلاح ذات البين جهدهما ، فان قدرا على ذلك عملا عليه ، وان أعياهما إصلاح حالهما ورأيا التفريق بينهما جاز لهما ذلك من دون أمر من الحاكم فى البلد ولا توكيل بالفرقة من الزوجين ، وبه قال مالك والأوزاعى واسحق ، وهو مروىّ عن عثمان وعلىّ وابن عباس والشعبى والنخعى والشافعى ، وحكاه ابن كثير عن الجمهور . قالوا لأن الله قال (فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) وهذا نصّ من الله سبحانه أنهما قاضيان لا وكيلان ولا شاهدان . وقال الكوفيون وعطاء وابن زيد والحسن وهو أحد قولى الشافعى ان التفريق هو إلى الامام أو الحاكم فى البلد لا إليهما مالم يوكلهما الزوجان أو يأمرهما الامام والحاكم لأنهما رسولان شاهدان فليس إليهما التفريق ، ويرشد إلى هذا قوله (إن يريدا) أى الحكمان (إصلاحا) بين الزوجين (يوفق الله بينهما) لاقتصاره على ذكر الاصلاح دون التفريق * ومعنى (إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) أى يوقع الموافقة بين الزوجين حتى يعود الى الألفة وحسن العشرة * ومعنى الارادة : خلوص نيتهما لصلاح الحال بين الزوجين ، وقيل ان الضمير فى قوله (يوفق الله بينهما) للحكمين كما فى قوله (ان يريدا إصلاحا) أى يوفق بين الحكمين فى اتحاد كلمتهما وحصول مقصودهما ، وقيل كلا الضميرين للزوجين ، أى ان يريدا إصلاح مابينهما من الشقاق أوقع الله بينهما الألفة والوفاق ، واذا اختلف الحكمان لم ينفذ حكمهما ولا يلزم قبول قولهما بلا خلاف .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (وان خفتم شقاق بينهما) قال هذا الرجل والمرأة إذا تفاسد الذى بينهما أمر الله أن تبعثوا رجلا صالحا من أهل الرجل ورجلا مثله من أهل المرأة فينظران أيهما المسىء ، فان كان الرجل هو المسىء حجبوا امرأته عنه وقسروه على النفقة ، وان كانت المرأة هى المسيئة قسروها على زوجها ومنعوها النفقة ، فان اجتمع رأيهما على أن يفرّقا أو يجمعا فأمرهما جائز ، فان رأيا أن يجمعا فرضى أحد الزوجين وكره الآخر ذلك ثم مات أحدهما فان الذى رضى يرث الذى كره ولا يرث الكاره الراضى (إن يريدا إصلاحا) قال : هما الحكمان (يوفق الله بينهما) وكذلك كل مصلح يوفقه للحق والصواب . وأخرج الشافعى فى الأمّ وعبد الرزاق فى المصنف وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن عبيدة السلمانى فى هذه الآية قال

جاء رجل وامرأة الى على ومعهما فئام من الناس فأمرهم على فبعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، ثم قال للحكمين تدريان ماعليكما ؟ عليكما ان رأيتما أن تجمعا أن تجمعا ، وان رأيتما أن تفرقا أن تفرقا ، قالت المرأة رضيت بكتاب الله بما على فيه ولى . وقال الرجل أما الفرقة فلا ، فقال كذبت والله حتى تقر مثل الذى أقرت به . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : بعثت أنا ومعاوية حكمين فقيل لنا ان رأيتما أن تجمعا جمعتما ، وان رأيتما أن تفرقا فرقتما ، والذى بعثهما عثمان . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن الحسن قال انما يبعث الحكمان ليصلحا و يشهدا على الظالم بظلمه ، فأما الفرقة فليست بأيديهما .. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه . وأخرج البيهقى عن على قال : اذا حكم أحد الحكمين ولم يحكم الآخر فليس حكمه بشىء حتى يجتمعا .

وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنْبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا *

قد تقدم بيان معنى العبادة * وشيئا إما مفعول به ، أى لاتشركوابه شيئا من الأشياء من غيرفرق بين حى وميت وجماد وحيوان ، و إما مصدر : أى لاتشركوا به شيئا من الاشراك من غير فرق بين الشرك الأكبر والأصغر والواضح والخفى * وقوله (احسانا) مصدر لفعل محذوف ، أى أحسنوا بالوالدين احسانا . وقرأ ابن أبى عبلة بالرفع ، وقد دل ذكر الاحسان الى الوالدين بعد الأمر بعبادة الله والنهى عن الاشراك به على عظم حقهما ، ومثله — أن اشكرلى ولوالديك — فأمر سبحانه بأن يشكرا معه * قوله (وبذى القربى) أى صاحب القرابة ، وهو من يصح اطلاق اسم القربى عليه وان كان بعيدا * (واليتامى والمساكين) قد تقدم تفسيرهم ، والمعنى : وأحسنوا بذى القربى الى آخر ماهو مذكور فى هذه الآية (والجار ذى القربى) أى القريب جواره ، وقيل هو من له مع الجوار فى الدار قرب فى النسب (والجار الجنب) المجانب وهو مقابل للجار ذى القربى ، والمراد من يصدق عليه مسمى الجوار مع كون داره بعيدة * وفى ذلك دليل على تعميم الجيران بالاحسان اليهم سواء كانت الديار متقاربة أو متباعدة ، وعلى أن الجوار حرمة مرعية مأمور بها * وفيه رد على من يظن أن الجار مختص بالملاصق دون من بينه و بينه حائل ، أو مختص بالقريب دون البعيد ، وقيل ان المراد بالجار الجنب هنا هو الغريب ، وقيل هو الأجنبى الذى لاقرابة بينه و بين المجاور له . وقرأ الأعمش والمفضل (والجار الجنب) بفتح الجيم وسكون النون أى ذى الجنب ، وهو الناحية ، وأنشد الأخفش :

* الناس جنب والأمير جنب * وقيل المراد بالجار ذى القربى : المسلم ، و بالجار الجنب : اليهودى والنصرانى

وقد اختلف أهل العلم فى المقدار الذى يصدق عليه مسمى الجوار و يثبت لصاحبه الحق ، فروى عن الأوزاعى والحسن أنه الى حد أربعين دارا من كل ناحية ، وروى عن الزهرى نحوه ، وقيل من سمع اقامة الصلاة ، وقيل اذا جمعتهما محلة ، وقيل من سمع النداء * والأولى أن يرجع فى معنى الجار الى الشرع ، فان وجد فيه مايقتضى بيانه وانه يكون جارا الى حد كذا من الدور ، أو من مسافة الأرض ، كان العمل عليه متعينا ، وان لم يوجد رجع الى معناه لغة أو عرفا ، ولم يأت فى الشرع مايفيد أن الجار هو الذى بينه و بين جاره مقدار كذا ، ولا ورد فى لغة العرب أيضا مايفيد ذلك ، بل المراد بالجار فى اللغة المجاور ، و يطلق على معان ، قال فى

القاموس

القاموس ، والجار المجاور ، والذى أجرته من أن يظلم ، والمجير ، والمستجير ، والشريك فى التجارة ، وزوج المرأة وهى جارته ، وفرج المرأة ، وماقرب من المنازل ، والاست كالجارة ، والقاسم ، والحليف ، والناصر انتهى . قال القرطبى فى تفسيره ، وروى أن رجلا جاء الى النبى ﷺ فقال انى نزلت محلة قوم ، وان أقربهم الىّ جوارا أشدّهم لى أذى ، فبعث النبى ﷺ أبا بكر وعمر وعليا يصيحون على أبواب المساجد ألا ان أربعين دارا جار ولايدخل الجنة من لايأمن جاره بوائقه انتهى ، ولو ثبت هذا لكان مغنيا عن غيره ، ولكنه رواه كما ترى من غير عزوله الى أحد كتب الحديث المعروفة ، وهو وان كان اماما فى علم الرواية ، فلا تقوم الحجة بما يرويه بغير سند مذكور ولا نقل عن كتاب مشهور ، ولاسيما وهو يذكر الواهيات كثيرا كما يفعل فى تذكرته ، وقد ورد فى القرآن مايدل على أن المساكنة فى مدينة مجاورة قال الله تعالى ـ لئن لم ينته المنافقون ـ الى قوله ـ ثم لايجاورونك فيها الاقليلا ـ فجعل اجتماعهم فى المدينة جوارا ، وأما الاعراف فى مسمى الجوار فهى تختلف باختلاف أهلها ولا يصح حمل القرآن على أعراف متعارفة واصطلاحات متواضعة * قوله (والصاحب بالجنب) قيل هو الرفيق فى السفر ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والضحاك ، وقال على بن أبى طالب وابن مسعود وابن أبى ليلى هو الزوجة ، وقال ابن جريج هو الذى يصحبك و يلزمك رجاء نفعك ، ولا يبعد أن تتناول الآية جميع مافى هذه الأقوال مع زيادة عليها ، وهو كل من صدق عليه أنه صاحب بالجنب ، أى بجنبك كمن يقف بجنبك فى تحصيل علم أو تعلم صناعة أو مباشرة تجارة أو نحو ذلك * قوله (وابن السبيل) قال مجاهد : هو الذى يجتاز بك مارّا ، والسبيل الطريق ، فنسب المسافر اليه لمروره عليه ولزومه اياه ، فالأولى تفسيره بمن هو على سفر فان على المقيم أن يحسن اليه ، وقيل هو المنقطع به ، وقيل هو الضيف * قوله (وماملكت أيمانكم) أى وأحسنوا الى ماملكت أيمانكم احسانا : وهم العبيد والاماء ، وقد أمر النبى ﷺ بأنهم يطعمون مما يطعم مالكهم و يلبسون مما يلبس * والمختال ذو الخيلاء وهو الكبر والتيه ، أى لايحب من كان متكبرا تائها على الناس مفتخرا عليهم * والفخر : المدح للنفس والتطاول وتعديد المناقب ، وخص هاتين الصفتين لأنهما يحملان صاحبهما على الأنفة مما ندب الله اليه فى هذه الآية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى شعب الايمان من طرق عن ابن عباس فى قوله (والجار ذى القربى) يعنى الذى بينك و بينه قرابة (والجار الجنب) يعنى الذى ليس بينك و بينه قرابة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن نوف البكالى قال : الجار ذى القربى المسلم : والجار الجنب : اليهودى والنصرانى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن عباس فى قوله (والصاحب بالجنب) قال الرفيق فى السفر . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير ومجاهد مثله . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وابن المنذر وابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم (والصاحب بالجنب) قال هو جليسك فى الحضر ورفيقك فى السفر ، وامرأتك التى تضاجعك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن علىّ قال : هو المرأة . وأخرج هؤلاء والطبرانى عن ابن مسعود مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وماملكت أيمانكم) قال مما خوّلك الله فأحسن صحبته : كل هذا أوصى الله به . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل نحوه .

وقد ورد مرفوعا الى رسول الله ﷺ فى برّ الوالدين ، وفى صلة القرابة ، وفى الاحسان الى اليتامى ، وفى الاحسان الى الجار ، وفى القيام بما يحتاجه المماليك أحاديث كثيرة : قد اشتملت عليها كتب السنة لاحاجة بنا الى بسطها هنا ، وهكذا ورد فى ذم الكبر والاختيال والفخر ماهو معروف .

ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا * وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا * وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا * إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا * فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا *

قوله (الذين يبخلون) هم فى محل نصب بدلا من قوله (من كان مختالا) أوعلى الذمّ، أوفى محل رفع على الابتداء والخبر مقدر، أى لهم كذا وكذا من العذاب، ويجوز أن يكون مرفوعا بدلا من الضمير المستتر فى قوله (مختالا فخورا) ويجوز أن يكون منصوبا على تقدير أعنى، أو مرفوعا على الخبر والمبتدأ مقدّر، أى هم الذين يبخلون، والجملة فى محل نصب على البدل * والبخل المذموم فى الشرع هوالامتناع من أداء ما أوجب الله، وهؤلاء المذكورون فى هذه الآية ضموا الى ماوقعوا فيه من البخل الذى هوأشرّ خصال الشر ماهوأقبح منه وأدلّ على سقوط نفس فاعله، و بلوغه فى الرذالة الى غايتها، وهو أنهم مع بخلهم بأموالهم وكتمهم لما أنعم الله به عليهم من فضله (يأمرون الناس بالبخل) كأنهم يجدون فى صدورهم من جود غيرهم بماله حرجا ومضاضة، فلا كثر فى عباده من أمثالكم، هذه أموالكم قدبخلتم بها لكونكم تظنون انتقاصها باخراج بعضها فى مواضعه، فما بالكم بخلتم بأموال غيركم؟ مع أنه لايلحقكم فى ذلك ضرر، وهل هذا الاغاية اللوم ونهاية الحمق والرقاعة وقبح الطباع وسوء الاختيار. وقد تقدم اختلاف القراآت فى البخل: وقد قيل: ان المراد بهذه الآية اليهود فانهم جمعوا بين الاختيال والفخر والبخل بالمال وكتمان ماأنزل الله فى التوراة، وقيل المراد بها المنافقون، ولايخفى أن اللفظ أوسع من ذلك وأكثر شمولا وأعمّ فائدة * قوله (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس) عطف على قوله (الذين يبخلون) ووجه ذلك أن الأوّلين قد فرطوا بالبخل و بأمر الناس به و بكتم ما آتاهم الله من فضله، وهؤلاء أفرطوا ببذل أموالهم فى غير مواضعها لمجرد الرياء والسمعة كما يفعله من يريد أن يتسامع الناس بأنه كريم ويتطاول على غيره بذلك و يشمخ بأنفه عليه مع ماضم الى هذا الانفاق الذى يعود عليه بالضرر من عدم الايمان بالله و باليوم الآخر * قوله (ومن يكن الشيطان له قرينا) فى الكلام اضمار، والتقدير ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فقرينهم الشيطان (ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) والقرين المقارن: وهو الصاحب والخليل * والمعنى من قبل من الشيطان فى الدنيا فقدقارنه فيها، أوفهوقرينه فى النار فساء الشيطان قرينا (وماذا عليهم)، أى على هذه الطوائف (لوآمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله) ابتغاء لوجهه وامتثالا لأمره: أى وماذا يكون عليهم من ضرر لوفعلوا ذلك * قوله (ان الله لايظلم مثقال ذرة) المثقال مفعال من الثقل كالمقدار من القدر، وهو منتصب على أنه نعت لمفعول محذوف، أى لايظلم شيئا مثقال ذرة * والذرة واحدة الذر: وهى النمل الصغار، وقيل رأس النملة، وقيل الذرة الخردلة، وقيل كل جزء من أجزاء الهباء الذى يظهر فيما يدخل من الشمس من كوة أو غيرها ذرة، والأوّل هو المعنى اللغوى الذى يجب حمل القرآن عليه، والمراد من الكلام أن الله لايظلم كثيرا ولاقليلا أى لايبخسهم من ثواب أعمالهم ولايزيد فى عقاب ذنوبهم وزن ذرّة فضلا عما فوقها * قوله (وان

تك حسنة يضاعفها) قرأ أهل الحجاز (حسنة) بالرفع . وقرأ من عداهم بالنصب ، والمعنى على القراءة الأولى ان توجد حسنة على أن كان هى التامة لا الناقصة ، وعلى القراءة الثانية ان تك فعلته حسنة يضاعفها ، وقيل ان التقدير ان تك مثقال الذرّة حسنة ، وأنث ضمير المثقال لكونه مضافا الى المؤنث والأوّل أولى . وقرأ الحسن (نضاعفها) بالنون ، وقرأ الباقون بالياء ، وهى الأرجح لقوله (ويؤت من من لدنه أجرا عظيما) . وقد تقدّم الكلام فى المضاعفة * والمراد مضاعفة ثواب الحسنة * قوله (فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد) كيف منصوبة بفعل مضمر كما هو رأى سيبويه ، أومحلها رفع على الابتداء كما هو رأى غيره ، والاشارة بقوله (هؤلاء) الى الكفار ، وقيل الى كفار قريش خاصة * والمعنى فكيف يكون حال هؤلاء الكفار يوم القيامة اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ، وهذا الاستفهام معناه التوبيخ والتقريع (يومئذ يودّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوّى بهم الأرض) قرأ نافع وابن عامر (تسوّى) بفتح التاء وتشديد السين ، وقرأ حمزة والكسائى بفتح التاء وتخفيف السين ، وقرأ الباقون بضم التاء وتخفيف السين * والمعنى على القراءة الأولى والثانية أن الأرض هى التى تسوّى بهم ، أى أنهم تمنوا لو انفتحت لهم الأرض فساخوا فيها ، وقيل الباء فى قوله (بهم) بمعنى على ، أى تسوّى عليهم الأرض ، وعلى القراء الثالثة الفعل مبنىّ للمفعول ، أى لو سوّى الله بهم الأرض فيجعلهم والأرض سواء حتى لايبعثوا * قوله (ولا يكتمون الله حديثا) عطف على (يودّ) أى يومئذ يودّ الذين كفروا و يومئذ لا يكتمون الله حديثا ولا يقدرون على ذلك . قال الزجاج : قال بعضهم (لا يكتمون الله حديثا) مستأنف لأن ماعملوه ظاهر عند الله لايقدرون على كتمانه . وقال بعضهم هو معطوف ، والمعنى يودّون أن الأرض سوّيت بهم وأنهم لم يكتموا الله حديثا لأنه ظهر كذبهم .

وقد أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : قال كان كردم بن يزيد حليف كعب بن الأشرف وأسامة بن حبيب ونافع بن أبى نافع وبحرى بن عمرو وحيى بن أخطب ورفاعة ابن زيد بن التابوت يأتون رجالا من الأنصار يتنصحون لهم فيقولون لاتنفقوا أموالكم فانا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها ولاتسارعوا فى النفقة فانكم لاتدرون مايكون ؟ فأنزل الله فيهم (الذين يبخلون و يأمرون الناس بالبخل) إلى قوله (وكان الله بهم عليما) . وقد أخرج ابن أبى حاتم عنه أنها نزلت فى اليهود . وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد . وأخرجه ابن جرير عن سعيد ابن جبير . وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس (إن الله لايظلم مثقال ذرّة) قال : رأس نملة حمراء . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير فى قوله (وان تك حسنة) وزن ذرة زادت على سيئاته (يضاعفها) فأما المشرك فيخفف به عنه العذاب ولا يخرج من النار أبدا . وأخرج البخارى وغيره عن ابن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ اقرأ علىّ ، قلت يارسول الله آقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال نعم انى أحبّ أن أسمعه من غيرى : فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال حسبك الآن فاذا عيناه تذرفان . وأخرجه الحاكم وصححه من حديث عمرو بن حريث . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (لو تسوّى بهم الأرض) يعنى : أن تسوّى الأرض بالجبال والأرض عليهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية : يقول ودّوا لو انخرقت بهم الأرض فساخوا فيها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولا يكتمون الله حديثا) قال بجوارحهم .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا *

قوله (يأيها الذين آمنوا) جعل الخطاب خاصا بالمؤمنين لأنهم كانوا يقربون الصلاة حال السكر، وأما الكفار فهم لايقربونها سكارى ولا غير سكارى * قوله (لاتقربوا) قال أهل اللغة اذا قيل لاتقرب بفتح الراء معناه لاتتلبس بالفعل، واذا كان بضم الراء كان معناه لاتدن منه * والمراد هنا: النهى عن التلبس بالصلاة وغشيانها، وبه قال جماعة من المفسرين، واليه ذهب أبو حنيفة. وقال آخرون المراد مواضع الصلاة، وبه قال الشافعى وعلى هذا فلا بدّ من تقدير مضاف، ويقوّى هذا قوله (ولا جنبا إلا عابرى سبيل) وقالت طائفة المراد الصلاة ومواضعها معا، لأنهم كانوا حينئذ لايأتون المسجد الا للصلاة، ولا يصلون الا مجتمعين، فكانا متلازمين * قوله (وأنتم سكارى) الجملة فى محل نصب على الحال * وسكارى: جمع سكران، مثل كسالى: جمع كسلان. وقرأ النخعى سكرى بفتح السين، وهو تكسير سكران. وقرأ الأعمش سكرى كحبلى صفة مفردة. وقد ذهب العلماء كافة الى أن المراد بالسكر هنا سكر الخمر الا الضحاك، فانه قال: المراد سكر النوم، وسيأتى بيان سبب نزول الآية، وبه يندفع مايخالف الصواب من هذه الأقوال * قوله (حتى تعلموا ماتقولون) هذا غاية النهى عن قربان الصلاة فى حال السكر، أى حتى يزول عنكم أثر السكر وتعلموا ماتقولونه، فان السكران لايعلم مايقوله.

وقد تمسك بهذا من قال ان طلاق السكران لايقع، لأنه اذا لم يعلم مايقوله انتفى القصد، وبه قال عثمان بن عفان وابن عباس وطاوس وعطاء والقاسم وربيعة، وهو قول الليث بن سعد واسحق وأبى ثور والمزنى. واختاره الطحاوى وقال أجمع العلماء على أن طلاق المعتوه لايجوز، والسكران معتوه كالموسوس * وأجازت طائفة وقوع طلاقه وهو محكىّ عن عمر بن الخطاب ومعاوية وجماعة من التابعين، وهو قول أبى حنيفة والثورى والأوزاعى. واختلف قول الشافعى فى ذلك. وقال مالك يلزمه الطلاق والقود فى الجراح والقتل ولا يلزمه النكاح والبيع * قوله (ولا جنبا) عطف على محل الجملة الحالية، وهى قوله (وأنتم سكارى) والجنب لايؤنث ولا يثنى ولا يجمع لأنه ملحق بالمصدر كالبعد والقرب. قال الفراء: يقال جنب الرجل وأجنب من الجنابة، وقيل يجمع الجنب فى لغة على أجناب، مثل عنق وأعناق، وطنب وأطناب * وقوله (إلا عابرى سبيل) استثناء مفرّغ، أى لاتقربوها فى حال من الأحوال الا فى حال عبور السبيل * والمراد به هنا السفر، ويكون محل هذا الاستثناء المفرّغ النصب على الحال من ضمير لاتقربوا بعد تقييده بالحال الثانية، وهى قوله (ولا جنبا) لابالحال الأولى، وهى قوله (وأنتم سكارى) فيصير المعنى: لا تقربوا الصلاة حال كونكم جنبا الا حال السفر فانه يجوز لكم أن تصلوا بالتيمم، وهذا قول علىّ وابن عباس وابن جبير ومجاهد والحكم وغيرهم، قالوا لايصح لأحد أن يقرب الصلاة وهو جنب الا بعد الاغتسال الا المسافر فانه يتيمم، لأن الماء قد يعدم فى السفر لافى الحضر، فان الغالب أنه لايعدم. وقال ابن مسعود وعكرمة والنخعى وعمرو بن دينار ومالك والشافعى: عابر السبيل هو المجتاز فى المسجد، وهو مروىّ عن ابن عباس، فيكون معنى الآية على هذا لاتقربوا مواضع الصلاة، وهى المساجد فى حال الجنابة الا أن تكونوا مجتازين فيها من جانب الى جانب، وفى القول الأوّل قوّة من جهة كون الصلاة فيه باقية على معناها الحقيقى، وضعف من جهة مافى حمل عابر السبيل على المسافر، وان معناه أنه يقرب الصلاة عند عدم الماء بالتيمم فان هذا الحكم يكون فى الحاضر

اذا عدم الماء ، كما يكون فى المسافر ، وفى القول الثانى قوة من جهة عدم التكلف فى معنى قوله (الا عابرى سبيل) وضعف من جهة حمل الصلاة على مواضعها ، وبالجملة فالحال الأولى ، أعنى قوله (وأنتم سكارى) تقوى بقاء الصلاة على معناها الحقيقى من دون تقدير مضاف ، وكذلك ماسيأتى من سبب نزول الآية يقوى ذلك * وقوله (الا عابرى سبيل) يقوى تقدير المضاف ، أى لاتقربوا مواضع الصلاة ، ويمكن أن يقال ان بعض قيود النهى ، أعنى لاتقربوا ، وهو قوله (وأنتم سكارى) يدل على أن المراد بالصلاة معناها الحقيقى و بعض قيود النهى ، وهو قوله (الا عابرى سبيل) يدل على أن المراد مواضع الصلاة ، ولا مانع من اعتبار كل واحد منهما مع قيده الدال عليه ، ويكون ذلك بمنزلة نهيين مقيد كل واحد منهما بقيد ، وهما لاتقربو الصلاة التى هى ذات الأذكار والأركان وأنتم سكارى ، ولاتقربوا مواضع الصلاة حال كونكم جنبا الاحال عبوركم فى المسجد من جانب الى جانب ، وغاية مايقال فى هذا انه من الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو جائز بتأويل مشهور . وقال ابن جرير بعد حكايته للقولين * والأولى قول من قال (ولا جنبا الا عابرى سبيل) الا مجتازى طريق فيه ، وذلك أنه قد بين حكم المسافر اذا عدم الماء ، وهو جنب فى قوله (وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا) فكان معلوما بذلك ، أى ان قوله (ولا جنبا إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا) لو كان معنيا به المسافر لم يكن لاعادة ذكره فى قوله (وان كنتم مرضى أو على سفر) معنى مفهوم . وقد مضى ذكر حكمه قبل ذلك ، فاذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية : ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون ، ولاتقربوها أيضا جنبا حتى تغتسلوا الاعابرى سبيل . قال والعابر السبيل : المجتاز مرا وقطعا ، يقال منه عبرت هذا الطريق فانا أعبره عبرا وعبورا ، ومنه قيل عبر فلان النهر اذا قطعه وجاوزه ، ومنه قيل للناقة القوية ، هى عبر أسفار لقوتها على قطع الأسفار . قال ابن كثير وهذا الذى نصره ، يعنى ابن جرير هو قول الجمهور ، وهو الظاهر من الآية انتهى * قوله (حتى تغتسلوا) غاية للنهى عن قربان الصلاة أو مواضعها حال الجنابة * والمعنى لاتقربوها حال الجنابة حتى تغتسلوا الاحال عبوركم السبيل قوله (وان كنتم مرضى) المرض عبارة عن خروج البدن عن حد الاعتدال والاعتياد الى الاعوجاج والشذوذ ، وهو على ضربين كثير و يسير ، والمراد هنا أن يخاف على نفسه التلف أو الضرر باستعمال الماء أو كان ضعيفا فى بدنه لايقدر على الوصول الى موضع الماء ، وروى عن الحسن أنه يتطهر وان مات ، وهذا باطل يدفعه قوله تعالى ـ وماجعل عليكم فى الدين من حرج ـ ، وقوله ـ ولاتقتلوا أنفسكم ـ ، وقوله ـ يريد الله بكم اليسر ـ * قوله (أو على سفر) فيه جواز التيمم لمن صدق عليه اسم المسافر ، والخلاف مبسوط فى كتب الفقه ، وقد ذهب الجمهور الى أنه لايشترط أن يكون سفر قصر ، وقال قوم لابد من ذلك ، وقد أجمع العلماء على جواز التيمم للمسافر ، واختلفوا فى الحاضر فذهب مالك وأصحابه وأبو حنيفة ومحمد الى أنه يجوز فى الحضر والسفر ، وقال الشافعى لايجوز للحاضر الصحيح أن يتيمم الا أن يخاف التلف * قوله (أو جاء أحد منكم من الغائط) هو المكان المنخفض والمجىء منه كناية عن الحدث ، والجمع الغيطان والأغواط وكانت العرب تقصد هذا الصنف من المواضع لقضاء الحاجة تسترا عن أعين الناس ، ثم سمى الحدث الخارج من الانسان غائطا توسعا ، ويدخل فى الغائط جميع الأحداث الناقضة للوضوء * قوله (أولامستم النساء) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر (لامستم) وقرأ حمزة والكسائى (لمستم) قيل المراد بما فى القراءتين الجماع ، وقيل المراد به مطلق المباشرة ، وقيل انه يجمع الأمرين جميعا . وقال محمد بن يزيد المبرد الأولى فى اللغة أن يكون (لامستم) بمعنى قبلتم ونحوه ، ولمستم بمعنى غشيتم .

واختلف العلماء فى معنى ذلك على أقوال ، فقالت فرقة : الملامسة هنا مختصة باليد دون الجماع : قالوا والجنب لاسبيل له الى التيمم بل يغتسل أو يدع الصلاة حتى يجد الماء . وقد روى هذا عن عمر بن الخطاب وابن مسعود ، قال ابن عبد البر لم يقل بقولهما فى هذه المسئلة أحد من فقهاء الأمصار من أهل الرأى ، وحملة الآثار انتهى ، وأيضا الأحاديث الصحيحة تدفعه وتبطله كحديث عمار وعمران بن حصين وأبى ذرّ فى تيمم الجنب ، وقالت طائفة هو الجماع كما فى قوله ـ ثم طلقتموهنّ من قبل أن تمسوهنّ ـ ، وقوله ـ وان طلقتموهنّ من قبل أن تمسوهنّ ـ وهو مروى عن علىّ وأبىّ بن كعب وابن عباس ومجاهد وطاوس والحسن وعبيد ابن عمير وسعيد بن جبير والشعبى وقتادة ومقاتل بن حبان وأبى حنيفة ، وقال مالك الملامس بالجماع يتيمم ، والملامس باليد يتيمم اذا التذ ، فان لمسها بغير شهوة فلا وضوء ، و به قال أحمد واسحق ، وقال الشافعى اذا أفضى الرجل بشىء من بدنه الى بدن المرأة سواء كان باليد أو بغيرها من أعضاء الجسد انتقضت به الطهارة والا فلا ، وحكاه القرطبى عن ابن مسعود وابن عمر والزهرى وربيعة . وقال الأوزاعى اذا كان اللمس باليد نقض الطهر ، وان كان بغير اليد لم ينقضه لقوله تعالى ـ فلمسوه بأيديهم ـ وقد احتجوا بحجج تزعم كل طائفة أن حجتها تدل على أن الملامسة المذكورة فى الآية هى ماذهبت اليه ، وليس الأمر كذلك فقد اختلفت الصحابة ومن بعدهم فى معنى الملامسة المذكورة فى الآية ، وعلى فرض أنها ظاهرة فى الجماع فقد ثبتت القراءة المروية عن حمزة والكسائى بلفظ أو لمستم وهى محتملة بلا شك ولا شبهة ومع الاحتمال فلا تقوم الحجة بالمحتمل ، وهذا الحكم تعم به البلوى و يثبت به التكليف العامّ ، فلا يحل اثباته بمحتمل قد وقع النزاع فى مفهومه ، واذا عرفت هذا فقد ثبتت السنة الصحيحة بوجوب التيمم على من اجتنب ولم يجد الماء ، فكان الجنب داخلا فى الآية بهذا الدليل وعلى فرض عدم دخوله ، فالسنة تكفى فى ذلك * وأما وجوب الوضوء أو التيمم على من لمس المرأة بيده أو بشىء من بدنه فلا يصح القول به استدلالا بهذه الآية لما عرفت من الاحتمال ، وأما مااستدلوا به من أنه ﷺ أتاه رجل فقال يارسول الله ماتقول فى رجل لقى امرأة لايعرفها ؟ وليس يأتى الرجل من امرأته شيئا الا قد أتاه منها غير أنه لم يجامعها ، فأنزل الله ـ أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ـ . أخرجه أحمد والترمذى والنسائى من حديث معاذ ، قالوا فأمره بالوضوء لأنه لمس المرأة ولم يجامعها ، ولايخفاك أنه لادلالة بهذا الحديث على محل النزاع فان النبى ﷺ انما أمره بالوضوء ليأتى بالصلاة التى ذكرها الله سبحانه فى هذه الآية ، اذ لا صلاة الا بوضوء ، وأيضا فالحديث منقطع لأنه من رواية ابن أبى ليلى عن معاذ ولم يلقه ، واذا عرفت هذا فالأصل البراءة عن هذا الحكم ، فلا يثبت الا بدليل خالص عن الشوائب الموجبة لقصوره عن الحجة ، وأيضا قد ثبت عن عائشة من طرق أنها قالت كان النبى ﷺ يتوضأ ، ثم يقبل ، ثم يصلى ولا يتوضأ ، وقد روى هذا الحديث بألفاظ مختلفة ، رواه أحمد وابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى وابن ماجه ، وماقيل من أنه من رواية حبيب بن أبى ثابت عن عروة عن عائشة ولم يسمع من عروة ، فقد رواه أحمد فى مسنده من حديث هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة ، ورواه ابن جرير من حديث ليث عن عطاء عن عائشة ، ورواه أحمد أيضا وأبو داود والنسائى من حديث أبى روق الهمدانى عن ابراهيم التيمى عن عائشة ، ورواه أيضا ابن جرير من حديث أم سلمة ورواه أيضا من حديث زينب السهمية ، ولفظ حديث أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يقبلها وهو صائم ولايفطر ولايحدث وضوءا ، ولفظ حديث زينب السهمية أن النبى ﷺ كان يقبل ثم يصلى ولايتوضأ ، ورواه أحمد عن زينب السهمية عن عائشة * قوله (فلم تجدوا ماء) هذا القيد ان كان راجعا الى جميع ماتقدم مما هو مذكور بعد الشرط : وهو المرض والسفر والمجىء من الغائط وملامسة النساء

كان فيه دليل على أن المرض والسفر بمجردهما لايسوّغان التيمم بل لابد مع وجود أحد السببين من عدم الماء فلا يجوز للمريض أن يتيمم الا اذا لم يجد ماء ، ولايجوز للمسافر أن يتيمم الا اذا لم يجد ماء ، ولكنه يشكل على هذا أن الصحيح كالمريض اذا لم يجد الماء تيمم ، وكذلك المقيم كالمسافر اذا لم يجد الماء تيمم فلا بد من فائدة فى التنصيص على المرض والسفر ، فقيل وجه التنصيص عليهما أن المرض مظنة للعجز عن الوصول الى الماء ، وكذلك المسافر عدم الماء فى حقه غالب ، وان كان راجعا الى الصورتين الأخيرتين : أعنى قوله (أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء) كما قال بعض المفسرين كان فيه اشكال ، وهو أن من صدق عليه اسم المريض أو المسافر جاز له التيمم ، وان كان واجدا للماء قادرا على استعماله . وقد قيل انه رجع هذا القيد الى الآخرين مع كونه معتبرا فى الأوّلين لندرة وقوعه فيهما * وأنت خبير بأن هذا كلام ساقط وتوجيه بارد ، وقال مالك ومن تابعه : ذكر الله المرض والسفر فى شرط التيمم اعتبارا بالأغلب فى من لم يجد الماء بخلاف الحاضر ، فان الغالب وجوده ، فلذلك لم ينص الله سبحانه عليه انتهى * والظاهر أن المرض بمجرده مسوّغ للتيمم ، وان كان الماء موجودا اذا كان يتضرر باستعماله فى الحال أو فى المآل ولاتعتبر خشية التلف ، فالله سبحانه يقول ـ يريد الله بكم اليسر ـ ويقول ـ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ـ ، والنبى ﷺ يقول «الدين يسر» ويقول «يسروا ولاتعسروا» وقال «قتلوه قتلهم الله» ويقول «أمرت بالشريعة السمحة» فاذا قلنا ان قيد عدم وجود الماء راجع الى الجميع كان وجه التنصيص على المرض هو أنه يجوز له التيمم والماء حاضر موجود اذا كان استعماله يضره ، فيكون اعتبار ذلك القيد فى حقه اذا كان استعماله لايضره ، فان فى مجرد المرض مع عدم الضرر باستعمال الماء ما يكون مظنة لعجزه عن الطلب ، لأنه يلحقه بالمرض نوع ضعف * وأما وجه التنصيص على المسافر فلا شك أن الضرب فى الأرض مظنة لاعواز الماء فى بعض البقاع دون بعض * قوله (فتيمموا) التيمم لغة القصد يقال : تيممت الشىء قصدته وتيممت الصعيد تعمدته ، وتيممته بسهمى ورمحى قصدته دون من سواه ، وأنشد الخليل :

يممته الرمح شزرا ثم قلت له * هذى البسالة لالعب الزحاليق

وقال امرؤ القيس :

تيممتها من أذرعات وأهلها * بيثرب أدنى دارها نظر عالى

وقال : تيممت العين التى عند ضارج * يفىء عليها الظل عرمضها طامى

قال ابن السكيت : قوله (فتيمموا) أى اقصدوا ، ثم كثر استعمال هذه الكلمة حتى صار التيمم مسح الوجه واليدين بالتراب . وقال ابن الأنبارى فى قولهم قد تيمم الرجل ، معناه قد مسح التراب على وجهه ، وهذا خلط منهما للمعنى اللغوى بالمعنى الشرعى فان العرب لاتعرف التيمم بمعنى مسح الوجه واليدين ، وانما هو معنى شرعى فقط ، وظاهر الأمر الوجوب ، وهو مجمع على ذلك ، والأحاديث فى هذا الباب كثيرة ، وتفاصيل التيمم وصفاته مبينة فى السنة المطهرة ومقالات أهل العلم مدوّنة فى كتب الفقه * قوله (صعيدا) الصعيد وجه الأرض سواء كان عليه تراب أولم يكن ، قاله الخليل وابن الأعرابى والزجاج ، قال الزجاج : لا أعلم فيه خلافا بين أهل اللغة ، قال الله تعالى ـ وانا لجاعلون ماعليها صعيدا جرزا ـ أى أرضا غليظة لاتنبت شيئا وقال تعالى ـ فتصبح صعيدا زلقا ـ وقال ذوالرمة :

كأنه بالضحى يرمى الصعيد به * ونابه فى عظام الرأس خرطوم

وانما سمى صعيدا لأنه نهاية مايصعد اليه من الأرض ، وجمع الصعيد صعدات .

وقد اختلف أهل العلم فيما يجزئ التيمم به ، فقال مالك وأبوحنيفة والثورى والطبرى انه يجزئ بوجه

الأرض كله ترابا كان أو رملا أو حجارة ، وحملوا قوله (طيبا) على الطاهر الذى ليس بنجس ، وقال الشافعى وأحمد وأصحابهما انه لايجزئ التيمم الا بالتراب فقط ، واستدلوا بقوله تعالى (صعيدا زلقا) أى ترابا أملس طيبا ، وكذلك استدلوا بقوله (طيبا) قالوا : والطيب التراب الذى ينبت * وقد تنوزع فى معنى الطيب ، فقيل الطاهر كما تقدم ، وقيل المنبت كما هنا ، وقيل الحلال ، والمحتمل لاتقوم به حجة ، ولو لم يوجد فى الشىء الذى يتيمم به الا مافى الكتاب العزيز ، لكان الحق ماقاله الأوّلون ، لكن ثبت فى صحيح مسلم من حديث حذيفة ابن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ « فضلنا الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدا ، وجعلت تربتها لنا طهورا اذا لم نجد الماء ، وفى لفظ : وجعل ترابها لنا طهورا ، فهذا مبين لمعنى الصعيد المذكور فى الآية ، أو مخصص لعمومه ، أومقيد لاطلاقه ، و يؤيد هذا ماحكاه ابن فارس عن كتاب الخليل : تيمم بالصعيد ، أى أخذ من غباره انتهى ، والحجر الصلد لاغبار له * قوله (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) هذا المسح مطلق يتناول المسح بضربة أو ضربتين ، ويتناول المسح الى المرفقين أو الى الرسغين ، وقد بينته السنة بيانا شافيا ، وقد جمعنا بين ماورد فى المسح بضربة و بضربتين ، وماورد فى المسح الى الرسغ والى المرفقين فى شرحنا للمنتقى وغيره من مؤلفاتنا بما لايحتاج الناظر فيه الى غيره * قوله (ان الله كان عفوّا غفورا) أى عفا عنكم وغفر لكم تقصيركم ورحمكم بالترخيص لكم والتوسعة عليكم .

وقد أخرج عبد بن حميد وأبوداود والترمذى وحسنه والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والضياء فى المختارة عن على بن أبى طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدّمونى فقرأت ـ قل ياأيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون ونحن نعبد ماتعبدون ، فأنزل الله (ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون) وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه : أن الذى صلى بهم عبد الرحمن . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة فى الآية قال : نزلت فى أبى بكر وعمر وعلىّ وعبد الرحمن بن عوف وسعد ، صنع لهم علىّ طعاما وشرابا فأكلوا وشربوا ثم صلى بهم المغرب فقرأ ـ قل ياأيها الكافرون ـ حتى ختمها فقال : ليس لى دين وليس لكم دين ، فنزلت . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والنسائى والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى هذه الآية قال : نسختها ـ انما الخمر والميسر ـ الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك فى الآية قال لم يعن بها الخمر انما عنى بها سكر النوم . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس (وأنتم سكارى) قال النعاس . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة فى المصنف وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن علىّ * قوله (ولاجنبا الاعابرى سبيل) قال نزلت فى المسافر تصيبه الجنابة فيتيمم و يصلى وفى لفظ قال : لايقرب الصلاة الا أن يكون مسافرا تصيبه الجنابة فلا يجد الماء فيتيمم و يصلى حتى يجد الماء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس فى الآية يقول : لاتقربوا الصلاة وأنتم جنب اذا وجدتم الماء ، فان لم تجدوا الماء فقد أحلت أن تمسحوا بالأرض . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : لايمرّ الجنب ولا الحائض فى المسجد . انما أنزلت (ولاجنبا الاعابرى سبيل) للمسافر يتيمم ثم يصلى . وأخرج الدارقطنى والطبرانى وأبو نعيم فى المعرفة وابن مردويه والبيهقى فى سننه والضياء فى المختارة عن الأسلع بن شريك قال : كنت أرحل ناقة رسول الله ﷺ فأصابتنى جنابة فى ليلة باردة ، وأراد رسول الله ﷺ الرحلة : فكرهت أن أرحل ناقته وأنا جنب وخشيت أن أغتسل بالماء البارد فأموت أو أمرض ، فأمرت رجلا من الأنصار فرحلها ، ثم رضفت أحجارا فأسخنت بها ماء فاغتسلت ، ثم لحقت رسول الله ﷺ وأصحابه ، فقال : ياأسلع مالى أرى راحلتك تغيرت ، قلت يارسول الله لم أرحلها ، رحلها رجل من الأنصار ، قال : ولم ؟ قلت : انى أصابتنى

جنابة فخشيت القرّ على نفسى فأمرته أن يرحلها ورضفت أحجارا فأسخنت بها ماء فاغتسلت به ، فأنزل الله (ياأيها الذين آمنوا) الى قوله (ولاجنبا الا عابرى سبيل) . وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير والطبرانى والبيهقى من وجه آخر عن أسلع قال : كنت أخدم النبى ﷺ وأرحل له ، فقال لى ذات ليلة يا أسلع قم فارحل لى ، قلت يارسول الله أصابتنى جنابة ، فسكت عنى ساعة حتى جاء جبريل بآية الصعيد فقال قم يا أسلع فتيمم ، الحديث . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق عطاء الخراسانى عن ابن عباس (لاتقربوا الصلاة) قال المساجد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى من طريق عطاء الخراسانى عنه (ولاجنبا الا عابرى سبيل) قال لاتدخلوا المسجد وأنتم جنب الا عابرى سبيل قال : تمرّ به مرّا ولاتجلس . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه . وأخرج عبدالرزاق والبيهقى فى سننه عنه أنه كان يرخص للجنب أن يمرّ فى المسجد ولايجلس فيه ، ثم قرأ قوله (ولاجنبا الاعابرى سبيل) . وأخرج البيهقى عن أنس نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير والبيهقى عن جابر قال : كان أحدنا يمرّ فى المسجد وهو جنب مجتازا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وان كنتم مرضى) قال نزلت فى رجل من الأنصار كان مريضا فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ ولم يكن له خادم فيناوله ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، فأنزل الله هذه الآية . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (وان كنتم مرضى) قال : هو الرجل المجدور أو به الجراح أو القرح يجنب فيخاف ان اغتسل أن يموت فيتيمم . وأخرج ابن جرير عن ابراهيم النخعى قال نال أصحاب رسول الله ﷺ جراح ففشت فيهم ، ثم ابتلوا بالجنابة ، فشكوا ذلك الى النبى ﷺ فنزلت (وان كنتم مرضى) الآية . وأخرج عبدالرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم والبيهقى من طرق عن ابن مسعود فى قوله (أولامستم النساء) قال اللمس مادون الجماع والقبلة منه ، وفيه الوضوء . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن ابن عمر أنه كان يتوضأ من قبلة المرأة ، ويقول هى اللماس . وأخرج الدارقطنى والبيهقى والحاكم عن عمر . قال ان القبلة من اللمس فتوضأ منها . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علىّ : قال اللمس هو الجماع ولكن الله كنى عنه . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : كنا فى حجرة ابن عباس ومعنا عطاء بن أبى رباح ونفر من الموالى وعبيد بن عمير ونفر من العرب فتذاكرنا اللماسّ ، فقلت أنا وعطاء والموالى : اللمس باليد ، وقال عبيد بن عمير والعرب : هو الجماع فدخلت على ابن عباس فأخبرته ، فقال غلبت الموالى وأصابت العرب ، ثم قال ان اللمس والمس والمباشرة الى الجماع ماهو ، ولكن الله يكنى ماشاء بما شاء . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : ان أطيب الصعيد أرض الحرث .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا ٱلسَّبِيلَ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا * مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا

يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا * إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا *

قوله (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) كلام مستأنف ، والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية من المسلمين * والنصيب : الحظ ، والمراد اليهود أوتوا نصيبا من التوراة * وقوله (يشترون) جملة حالية ، والمراد بالاشتراء الاستبدال . وقد تقدم تحقيق معناه * والمعنى أن اليهود استبدلوا الضلالة ، وهى البقاء على اليهودية بعد وضوح الحجة على صحة نبوّة نبينا ﷺ * قوله (ويريدون أن تضلوا السبيل) عطف على قوله (يشترون) مشارك له فى بيان سوء صنيعهم وضعف اختيارهم ، أى لم يكتفوا بما جنوه على أنفسهم من استبدال الضلالة بالهدى ، بل أرادوا مع ضلالهم أن يتوصلوا بكتمهم وجحدهم الى أن تضلوا أنتم أيها المؤمنون السبيل المستقيم الذى هو سبيل الحق (والله أعلم بأعدائكم) أيها المؤمنون وما يريدونه بكم من الاضلال ، والجملة اعتراضية (وكفى بالله وليا) لكم (وكفى بالله نصيرا) ينصركم فى مواطن الحرب ، فاكتفوا بولايته ونصره ولا تتولوا غيره ولا تستنصروه ، والباء فى قوله (بالله) فى الموضعين زائدة * قوله (من الذين هادوا) قال الزجاج : ان جعلت متعلقة بما قبل فلا يوقف على قوله (نصيرا) وان جعلت منقطعة ، فيجوز الوقف على نصيرا ، والتقدير من الذين هادوا قوم يحرّفون ثم حذف ، وهذا مذهب سيبويه ، ومثله قول الشاعر .

لو قلت ما فى قومها لم أيثم * يفضلها فى حسب وميسم

قالوا : المعنى لو قلت ما فى قومها أحد يفضلها ، ثم حذف وقال الفراء : المحذوف لفظ من ، أى من الذين هادوا من يحرّفون الكلم كقوله ـ وما منا الا له مقام معلوم ـ أى من له ، ومنه قول ذى الرمة :

* فظلوا ومنهم دمعه سابق له * أى من دمعه ، وأنكره المبرد والزجاج ، لأن حذف الموصول كحذف بعض الكلمة ، وقيل ان قوله (من الذين هادوا) بيان لقوله (الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) * والتحريف الامالة والازالة ، أى يميلونه ويزيلونه عن مواضعه ويجعلون مكانه غيره ، أو المراد أنهم يتأوّلونه على غير تأويله ، وذمهم الله عز وجل بذلك ، لأنهم يفعلونه عنادا و بغيا ، وتأثيرا لغرض الدنيا * قوله (ويقولون سمعنا وعصينا) أى سمعنا قولك وعصينا أمرك (واسمع غير مسمع) أى اسمع حال كونك غير مسمع ، وهو يحتمل أن يكون دعاء على النبى ﷺ ، والمعنى اسمع لا سمعت ، ويحتمل أن يكون المعنى اسمع غير مسمع مكروها ، أو اسمع غير مسمع جوابا ، وقد تقدّم الكلام فى راعنا ، ومعنى (ليا بألسنتهم) أنهم يلوونها عن الحق ، أى يميلونها الى ما فى قلوبهم ، وأصل اللىّ : الفتل وهو منتصب على المصدر ، ويجوز أن يكون مفعولا لأجله * قوله (وطعنا فى الدين) معطوف على ليا ، أى يطعنون فى الدين بقولهم : لو كان نبيا لعلم أنا نسبه ، فأطلع الله سبحانه نبيه ﷺ على ذلك (ولو أنهم قالوا سمعنا) قولك (وأطعنا) أمرك (واسمع) ما نقول (وانظرنا) أى لو قالوا هذا مكان قولهم راعنا (لكان خيرا لهم) مما قالوه (وأقوم) أى أعدل وأولى من قولهم الأوّل وهو قولهم (سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا) لما فى هذا من المخالفة وسوء الأدب ، واحتمال الذم فى راعنا (ولكن) لم يسلكوا المسلك الحسن ويأتوا بما هو خير لهم وأقوم ، ولهذا (لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا

قليلا

قليلا) أى الا ايمانا قليلا ، وهو الايمان ببعض الكتب دون بعض و ببعض الرسل دون بعض * قوله (يأيها الذين أوتوا الكتاب) ذكر سبحانه أوّلا أنهم أوتوا نصيبا من الكتاب ، وهنا ذكر أنهم أوتوا الكتاب * والمراد أنهم أوتوا نصيبامنه ، لأنهم لم يعملوا بجميع مافيه ، بل حرّفوا و بدّلوا * وقوله (مصدّقا) منتصب على الحال * والطمس : استئصال أثر الشيء ، ومنه ـ واذا النجوم طمست ـ يقال نطمس بكسر الميم وضمها لغتان فى المستقبل ، و يقال طمس الأثر ، أى محاه كله ، ومنه ـ ر بنا اطمس على أموالهم ـ أى أهلكها ، ويقال هومطموس البصر ، ومنه ـ ولونشاء لطمسنا على أعينهم ـ أى أعميناهم

واختلف العلماء فى المعنى المراد بهذه الآية هل هو حقيقة ؟ فيجعل الوجه كالقفا ، فيذهب بالأنف والفم والحاجب والعين ، أو ذلك عبارة عن الضلالة فى قلوبهم وسلبهم التوفيق ، فذهب الى الأوّل طائفة ، وذهب الى الآخر آخرون ، وعلى الأوّل فالمراد بقوله (فنردّها على أدبارها) نجعلها قفا ، أى نذهب بآثار الوجه وتخطيطه حتى يصير على هيئة القفا ، وقيل انه بعد الطمس يردّها الى موضع القفا ، والقفا الى مواضعها ، وهذا هو ألصق بالمعنى الذى يفيده قوله (فنردّها على أدبارها) * فان قيل كيف جاز أن يهدّدهم بطمس الوجوه ان لم يؤمنوا ولم يفعل ذلك بهم * فقيل انه لما آمن هؤلاء ومن اتبعهم رفع الوعيد عن الباقين . وقال المبرد الوعيد باق منتظر ، وقال لابدّ من طمس فى اليهود ومسخ قبل يوم القيامة * قوله (أونلعنهم كما لعنا أصحاب السبت) الضمير عائد الى أصحاب الوجوه ، قيل المراد باللعن هنا المسخ لأجل تشبيهه بلعن أصحاب السبت ، وكان لعن أصحاب السبت مسخهم قردة وخنازير ، وقيل المراد نفس اللعنة وهم ملعونون بكل لسان * والمراد وقوع أحد الأمرين : اما الطمس أواللعن . وقدوقع اللعن ، ولكنه يقوّى الأوّل تشبيه هذا اللعن بلعن أهل السبت * قوله (وكان أمر الله مفعولا) أى كائنا موجودا لامحالة ، أو يرادبالأمر المأمور * والمعنى أنه متى أراده كان ، كقوله ـ انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ـ * قوله (ان الله لايغفر أن يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء) هذا الحكم يشمل جميع طوائف الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ، ولا يختص بكفار أهل الحرب ، لأن اليهود قالوا عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، وقالوا ثالث ثلاثة ، ولا خلاف بين المسلمين أن المشرك اذا مات على شركه لم يكن من أهل المغفرة التى تفضل الله بها على غير أهل الشرك حسبما تقتضيه مشيئته ، وأماغير أهل الشرك من عصاة المسلمين فداخلون تحت المشيئة يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء . قال ابن جرير قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة فى مشيئة الله عزّ وجلّ ان شاء عذبه وان شاء عفا عنه مالم تكن كبيرته شركا بالله عزّ وجلّ * وظاهره أن المغفرة منه سبحانه تكون لمن اقتضته مشيئته تفضلا منه ورحمة وان لم يقع من ذلك المذنب تو بة ، وقيد ذلك المعتزلة بالتو بة . وقد تقدّم قوله تعالى ـ ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ـ وهى تدل على أن الله سبحانه يغفر سيئات من اجتنب الكبائر ، فيكون مجتنب الكبائر ممن قد شاء الله غفران سيئاته .

وقد أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس : قال كان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء اليهود ، واذا كلم رسول الله ﷺ لوى لسانه ، وقال : أرعنا سمعك يامحمد حتى نفهمك ثم طعن فى الاسلام وعابه ، فأنزل الله فيه (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله (يحرّفون الكلم عن مواضعه) يعنى : يحرّفون حدود الله فى التوراة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (يحرّفون الكلم عن مواضعه) قال : تبديل اليهود التوراة (و يقولون سمعنا وعصينا) قالوا سمعنا ماتقول ولا نطيعك

(واسمع غير مسمع) قال غير مقبول ما تقول (ليا بألسنتهم) قال خلافا يلوون به ألسنتهم (واسمع وانظرنا) قال أفهمنا لا تعجل علينا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن عباس فى قوله (واسمع غير مسمع) قال : يقولون اسمع لا سمعت . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس : قال كلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار اليهود ، منهم عبد الله بن صوريا وكعب بن أسد فقال لهم يامعشر يهود : اتقوا الله وأسلموا ، فوالله انكم لتعلمون أن الذى جئتكم به لحق ، فقالوا مانعرف ذلك يامحمد ، وأنزل الله فيهم (ياأيها الذين أوتوا الكتاب) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (من قبل أن نطمس وجوها) قال طمسها أن تعمى (فنردّها على أدبارها) يقول نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم فيمشون القهقرى ونجعل لأحدهم عينين فى قفاه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (من قبل أن نطمس وجوها) يقول عن صراط الحق (فنردّها على أدبارها) قال فى الضلالة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى عن أبى أيوب الأنصارى قال جاء رجل الى النبى ﷺ فقال ان لى ابن أخ لاينتهى عن الحرام : قال وما دينه ؟ قال يصلى ويوحد الله : قال استوهب منه دينه فان أبى فابتعه منه ، فطلب الرجل منه ذلك فأبى عليه : فأتى النبى ﷺ فأخبره : فقال وجدته شحيحا على دينه ، فنزلت (إن الله لايغفر أن يشرك به) الآية . وأخرج ابن الضريس وأبو يعلى وابن المنذر وابن عدى بسند صحيح عن ابن عمر قال : كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا ﷺ « ان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء . وقال انى ادّخرت دعوتى وشفاعتى لأهل الكبائر من أمتى فأمسكنا عن كثير مما كان فى أنفسنا » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عمر : قال لما نزلت ـ ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ـ الآية قام رجل فقال : والشرك يانبىّ الله ؟ فكره ذلك النبى ﷺ فقال (ان الله لايغفر أن يشرك به) الآية . وأخرج ابن المنذر عن أبى مجلز أن سؤال هذا الرجل هو سبب نزول (ان الله لايغفر أن يشرك به) . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال فى هذه الآية ان الله حرّم المغفرة على من مات وهو كافر ، وأرجأ أهل التوحيد الى مشيئته فلم يؤيسهم من المغفرة . وأخرج الترمذى وحسنه عن على قال : أحبّ آية إلىّ فى القرآن (ان الله لايغفر أن يشرك به) الآية .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا *

قوله (ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم) تعجيب من حالهم . وقد اتفق المفسرون على أن المراد اليهود

واختلفوا

واختلفوا فى المعنى الذى زكوا به أنفسهم ، فقال الحسن وقتادة هو قولهم - نحن أبناء الله وأحباؤه - وقولهم - لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى - وقال الضحاك هو قولهم لاذنوب لنا ونحن كالأطفال ، وقيل قولهم ان آباءهم يشفعون لهم ، وقيل ثناء بعضهم على بعض * ومعنى التزكية : التطهير والتنزيه فلا يبعد صدقها على جميع هذه التفاسير وعلى غيرها ، واللفظ يتناول كل من زكى نفسه بحق أو بباطل من اليهود وغيرهم ، ويدخل فى هذا التلقب بالألقاب المتضمنة للتزكية كمحيي الدين وعز الدين ونحوهما * قوله (بل الله يزكى من يشاء) أى ذلك اليه سبحانه فهو العالم بمن يستحق التزكية من عباده ، ومن لايستحقها فليدع العباد تزكية أنفسهم ويفوّضوا أمر ذلك الى الله سبحانه فان تزكيتهم لأنفسهم مجرد دعاوى فاسدة تحمل عليها محبة النفس وطلب العلوّ والترفع والتفاخر ، ومثل هذه الآية قوله تعالى - فلا تزكوا أنفسكم هوأعلم بمن اتقى - * قوله (ولا يظلمون) أى هؤلاء المزكون لأنفسهم (فتيلا) وهو الخيط الذى فى نواة التمر ، وقيل القشرة التى حول النواة ، وقيل هو مايخرج بين أصبعيك أوكفيك من الوسخ اذا فتلتهما ، فهو فتيل بمعنى مفتول ، والمراد هنا الكناية عن الشىء الحقير ، ومثله - ولايظلمون نقيرا - وهوالنكتة التى فى ظهر النواة * والمعنى أن هؤلاء الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكيتهم لأنفسهم بقدر هذا الذنب ولا يظلمون بالزيادة على مايستحقون ، ويجوز أن يعود الضمير الى (من يشاء) أى لايظلم هؤلاء الذين يزكيهم الله فتيلا ممايستحقونه من الثواب ، ثم عجب النبى ﷺ من تزكيتهم لأنفسهم فقال : (انظر كيف يفترون على الله الكذب) فى قولهم ذلك * والافتراء : الاختلاق ومنه افترى فلان على فلان ، أى رماه بما ليس فيه ، وفريت الشىء . قطعته ، وفى قوله (وكفى به إثما مبينا) من تعظيم الذنب وتهويله مالا يخفى * قوله (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) هذا تعجيب من حالهم بعد التعجيب الأوّل وهم اليهود .

واختلف المفسرون فى معنى الجبت ، فقال ابن عباس وابن جبير وأبو العالية الجبت : الساحر بلسان الحبشة * والطاغوت : الكاهن ، وروى عن عمر بن الخطاب أن الجبت : السحر ، والطاغوت الشيطان وروى عن ابن مسعود أن الجبت والطاغوت هاهنا كعب بن الأشرف . وقال قتادة الجبت : الشيطان ، والطاغوت : الكاهن ، وروى عن مالك أن الطاغوت ماعبد من دون الله ، والجبت : الشيطان ، وقيل هما كل معبود من دون الله أو مطاع فى معصية الله ، وأصل الجبت الجبس ، وهو الذى لاخير فيه فأبدلت التاء من السين . قاله قطرب ، وقيل الجبت : إبليس ، والطاغوت : أولياؤه * قوله (ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) أى يقول اليهود لكفار قريش أنتم أهدى من الذين آمنوا بمحمد سبيلا ، أى أقوم دينا ، وأرشد طريقا * وقوله (أولئك) إشارة الى القائلين (الذين لعنهم الله) أى طردهم وأبعدهم من رحمته (ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) يدفع عنه مانزل به من عذاب الله وسخطه * قوله (أم لهم نصيب من الملك) أم منقطعة ، والاستفهام للانكار ، يعنى ليس لهم نصيب من الملك (فاذن لايؤتون الناس نقيرا) والفاء للسببية الجزائية لشرط محذوف ، أى ان جعل لهم نصيب من الملك فاذن لايعطون الناس نقيرا منه لشدّة بخلهم وقوّة حسدهم ، وقيل المعنى بل لهم نصيب من الملك على أن معنى أم الاضراب عن الأوّل والاستئناف للثانى ، وقيل هى عاطفة على محذوف ، والتقدير أهم أولى بالنبوّة ممن أرسلته أم لهم نصيب من الملك فاذن لايؤتون الناس نقيرا * والنقير : النقرة فى ظهر النواة ، وقيل مانقر الرجل بأصبعه كما ينقر الأرض * والنقير أيضا : خشبة تنقر وينبذ فيها . وقد نهى النبى ﷺ عن النقير ، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما ، والنقير : الأصل ، يقال فلان كريم النقير ، أى كريم الأصل *

والمراد هنا : المعنى الأوّل ، والمقصود به المبالغة فى الحقارة كالقطمير والفتيل * واذن هنا ملغاة غير عاملة لدخول فاء العطف عليها ، ولو نصب لجاز . قال سيبويه إذن فى عوامل الأفعال بمنزلة أظن فى عوامل الأسماء التى تلغى اذا لم يكن الكلام معتمدا عليها ، فان كانت فى أوّل الكلام وكان الذى بعدها مستقبلا نصبت * قوله (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) أم منقطعة مفيدة للانتقال عن توبيخهم بأمر الى توبيخهم بآخر ، أى بل يحسدون الناس ، يعنى اليهود يحسدون النبى ﷺ فقط ، أو يحسدونه هو وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله من النبوّة والنصر وقهر الأعداء * قوله (فقد آتينا آل ابراهيم) هذا إلزام لليهود بما يعترفون به ولا ينكرونه ، أى ليس ما آتينا محمدا وأصحابه من فضلنا ببدع حتى يحسدهم اليهود على ذلك ، فهم يعلمون بما آتينا آل ابراهيم ، وهم أسلاف محمد ﷺ . وقد تقدّم تفسير الكتاب والحكمة ، والملك العظيم ، قيل هو ملك سليمان ، واختاره ابن جرير (فمنهم) أى اليهود (من آمن به) أى بالنبى ﷺ (ومنهم من صدّ عنه) أى أعرض عنه ، وقيل الضمير فى به راجع الى ماذكر من حديث آل ابراهيم ، وقيل الضمير راجع الى ابراهيم * والمعنى فمن آل ابراهيم من آمن بابراهيم ومنهم من صدّ عنه ، وقيل الضمير يرجع الى الكتاب * والأوّل أولى (وكفى بجهنم سعيرا) أى نارا مسعرة .

وقد أخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس : قال ان اليهود قالوا ان آباءنا قد توفوا وهم لنا قربة عند الله وسيشفعون لنا ويزكوننا . فقال الله لمحمد ﷺ (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : كانت اليهود يقدّمون صبيانهم يصلون بهم ويقرّبون قربانهم ويزعمون أنهم لاخطايا لهم ولا ذنوب ، وكذبوا . قال الله انى لأطهر ذاذنب بآخر لاذنب له ، ثم أنزل الله (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن أن التزكية قولهم ــ نحن أبناء الله وأحباؤه ، وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ــ . وأخرج عبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولايظلمون فتيلا) قال الفتيل : ماخرج من بين الأصبعين ، وفى لفظ آخر عنه : هو أن تدلك بين أصبعيك فما خرج منهما فهو ذلك . وأخرج سعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عنه قال النقير : النقرة تكون فى النواة التى نبتت منها النخلة * والفتيل الذى يكون على شق النواة * والقطمير : القشر الذى يكون على النواة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه : قال الفتيل : الذى فى الشق الذى فى بطن النواة . وأخرج الطبرانى والبيهقى فى الدلائل عنه قال قدم حيىّ بن أخطب وكعب بن الأشرف مكة على قريش فحالفوهم على قتال رسول الله ﷺ ، وقالوا لهم أنتم أهل العلم القديم وأهل الكتاب فأخبرونا عنا وعن محمد ، قالوا ما أنتم وما محمد ؟ قالوا ننحر الكوماء ونسقى اللبن على الماء ، ونفك العناة ونسقى الحجيج ، ونصل الأرحام : قالوا فما محمد ؟ قالوا صنبور ، أى فرد ضعيف قطع أرحامنا واتبعه سراق الحجيج بنو غفار ، فقالوا لا بل أنتم خير منه وأهدى سبيلا ، فأنزل الله (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) الآية . وأخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة مرسلا . وقد روى عن ابن عباس وعن عكرمة بلفظ آخر . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير عن السدّى عن أبى مالك . وأخرج نحوه أيضا البيهقى فى الدلائل وابن عساكر فى تاريخه عن جابر بن عبدالله . وأخرج عبدالرزاق وابن جرير عن عكرمة قال : الجبت والطاغوت صنمان . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عمر فى تفسير الجبت والطاغوت ماقدّمناه عنه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : قال الجبت حيىّ بن أخطب ، والطاغوت كعب بن الأشرف . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال

الجبت : الأصنام ، والطاغوت : الذى يكون بين يدى الأصنام يعبرون عنها الكذب ليضلوا الناس . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال الجبت : اسم الشيطان بالحبشية ، والطاغوت : كهان العرب . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (أم لهم نصيب من الملك) قال فليس لهم نصيب ولو كان لهم نصيب لم يؤتوا الناس نقيرا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس قال النقير : النقطة التى فى ظهر النواة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس قال قال أهل الكتاب زعم محمد أنه أوتى ماأوتى فى تواضع ، وله تسع نسوة وليس له همة الا النكاح ، فأى ملك أفضل من هذا ؟ فأنزل الله هذه الآية (أم يحسدون الناس) الى قوله (ملكا عظيما) يعنى ملك سليمان . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : الناس فى هذا الموضع النبى خاصة . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال هم هذا الحى من العرب .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا *

قوله (بآياتنا) الظاهر عدم تخصيص بعض الآيات دون بعض ، و (سوف) كلمة تذكر للتهديد . قاله سيبويه وينوب عنها السين . وقد تقدم معنى نصلى فى أول السورة * والمراد سوف ندخلهم نارا عظيمة . وقرأ حميد بن قيس (نصليهم) بفتح النون * قوله (كلما نضجت جلودهم) يقال نضج الشىء نضجا ونضاجا ، ونضج اللحم ، وفلان نضج الرأى ، أى محكمه * والمعنى أنها كلما احترقت جلودهم بدلهم الله جلودا غيرها ، أى أعطاهم مكان كل جلد محترق جلدا آخر غير محترق فان ذلك أبلغ فى العذاب للشخص ، لأن إحساسه لعمل النار فى الجلد الذى لم يحترق أبلغ من إحساسه لعملها فى الجلد المحترق ، وقيل المراد بالجلود السرابيل التى ذكرها فى قوله — سرابيلهم من قطران — ولا موجب لترك المعنى الحقيقى هاهنا ، وان جاز إطلاق الجلود على السرابيل مجازا كما فى قول الشاعر :

كسا اللوم تيما خضرة فى جلودها * فويل لتيم من سرابيلها الخضر

وقيل المعنى أعدنا الجلد الأول جديدا ، ويأبى ذلك معنى التبديل * قوله (ليذوقوا العذاب) أى ليحصل لهم الذوق الكامل بذلك التبديل ، وقيل معناه : ليدوم لهم العذاب ولا ينقطع ، ثم أتبع وصف حال الكفار بوصف حال المؤمنين . وقد تقدم تفسير الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار * قوله (لهم فيها أزواج مطهرة) أى من الأدناس التى تكون فى نساء الدنيا * والظل : الظليل الكثيف الذى لا يدخله مايدخل ظل الدنيا من الحر والسموم ونحو ذلك ، وقيل هو مجموع ظل الأشجار والقصور ، وقيل الظل الظليل هو الدائم الذى لا يزول ، واشتقاق الصفة من لفظ الموصوف للمبالغة كما يقال : ليل أليل .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله (كلما نضجت جلودهم) قال اذا احترقت جلودهم بدلناهم جلودا بيضاء أمثال القراطيس . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى عنه بسند ضعيف قال : قرئ عند عمر (كلما نضجت جلودهم) الآية ، فقال معاذ : عندى تفسيرها تبدل فى ساعة مائة مرة ، فقال عمر : هكذا سمعت من رسول الله ﷺ . وأخرجه أبو نعيم فى الحلية وابن مردويه أن القائل كعب وأنه قال : تبدل فى الساعة الواحدة عشرين ومائة مرة . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن مسعود أن

غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعا . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله (ظلا ظليلا) قال : هو ظل العرش الذى لايزول .

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا *

هذه الآية من أمهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع ، لأن الظاهر أن الخطاب يشمل جميع الناس فى جميع الأمانات . وقد روى عن على وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب أنها خطاب لولاة المسلمين ، والأوّل أظهر ، وورودها على سبب كما سيأتى لاينافى مافيها من العموم ، فالاعتبار بعموم اللفظ لابخصوص السبب كما تقرر فى الأصول ، وتدخل الولاة فى هذا الخطاب دخولا أوّليا ، فيجب عليهم تأدية مالديهم من الأمانات وردّ الظلامات ، وتحرّى العدل فى أحكامهم ، ويدخل غيرهم من الناس فى الخطاب ، فيجب عليهم ردّ مالديهم من الأمانات والتحرى فى الشهادات والأخبار ، وممن قال بعموم هذا الخطاب : البراء بن عازب وابن مسعود وابن عباس وأبىّ بن كعب ، واختاره جمهور المفسرين ، ومنهم ابن جرير ، وأجمعوا على أن الأمانات مردودة الى أربابها : الأبرار منهم والفجار ، كما قال ابن المنذر * والأمانات جمع أمانة ، وهى مصدر بمعنى المفعول * قوله (واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) أى وان الله يأمركم اذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل * والعدل هو فصل الحكومة على مافى كتاب الله سبحانه ، وسنة رسوله ﷺ ، لا الحكم بالرأى المجرد فان ذلك ليس من الحق فى شىء الا اذا لم يوجد دليل تلك الحكومة فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ، فلا بأس باجتهاد الرأى من الحاكم الذى يعلم بحكم الله سبحانه ، وبما هو أقرب الى الحق عند عدم وجود النصّ ، وأما الحاكم الذى لايدرى بحكم الله ورسوله ولا بما هو أقرب اليهما فهو لايدرى ماهو العدل ، لأنه لايعقل الحجة اذا جاءته فضلا عن أن يحكم بها بين عباد الله * قوله (نعما) ما موصوفة أو موصولة ، وقد قدّمنا البحث فى مثل ذلك :

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبى ﷺ لما فتح مكة وقبض مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة ، فنزل جبريل عليه السلام بردّ المفتاح ، فدعا النبى ﷺ عثمان بن طلحة وردّه اليه . وقرأ هذه الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن عساكر عن ابن جريج : أن هذه الآية نزلت فى عثمان بن طلحة لما قبض منه ﷺ مفتاح الكعبة فدعاه ودفعه اليه . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن أبى شيبة عن على قال : حقّ على الامام أن يحكم بما أنزل الله وأن يؤدى الأمانة ، فاذا فعل ذلك فحقّ على الناس أن يسمعوا له وأن يطيعوا ، وأن يجيبوا اذا دعوا . وأخرج أبوداود والترمذى والحاكم والبيهقى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال «أدّ الأمانة لمن ائتمنك ولاتخن من خانك» . وقد ثبت فى الصحيح أن من خان اذا اؤتمن ففيه خصلة من خصال النفاق .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا *

لما أمر سبحانه القضاة والولاة اذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالحق : أمر الناس بطاعتهم هاهنا ، وطاعة الله عز وجل هى امتثال أوامره ونواهيه ، وطاعة رسوله ﷺ ، هى فيما أمر به ونهى عنه : وأولى

الأمر : هم الأئمة والسلاطين والقضاة وكل من كانت له ولاية شرعية ، لاولاية طاغوتية ، والمراد طاعتهم فيما يأمرون به وينهون عنه مالم تكن معصية ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الله كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ ، وقال جابر بن عبدالله ومجاهد ان أولى الأمر : هم أهل القرآن والعلم ، وبه قال مالك والضحاك ، وروى عن مجاهد أنهم أصحاب محمد ﷺ ، وقال ابن كيسان : هم أهل العقل والرأى ، والراجح القول الأول * قوله (فان تنازعتم فى شىء فردّوه الى الله والرسول) المنازعة المجاذبة ، والنزع : الجذب ، كأن كل واحد ينتزع حجة الآخر ويجذبها ، والمراد الاختلاف والمجادلة ، وظاهر قوله (فى شىء) يتناول أمور الدين والدنيا ، ولكنه لما قال (فردّوه الى الله والرسول) تبين به أن الشىء المتنازع فيه يختص بأمور الدين دون أمور الدنيا ، والردّ الى الله : هو الردّ الى كتابه العزيز ، والردّ الى الرسول : هو الردّ الى سنته المطهرة بعدموته ، وأما فى حياته فالرد اليه سؤاله ، هذا معنى الردّ اليهما ، وقيل معنى الردّ أن يقولوا : الله أعلم ، وهو قول ساقط وتفسير بارد ، وليس الرد فى هذه الآية الا الردّ المذكور فى قوله تعالى ــ ولو ردّوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ــ * قوله (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) فيه دليل على أن هذا الرد متحتم على المتنازعين ، وانه شأن من يؤمن بالله واليوم الآخر ، والاشارة بقوله (ذلك) الى الردّ المأمور به (خير) لكم (وأحسن تأويلا) : أى مرجعا ، من الأول آل يؤل الى كذا : أى صار اليه ، والمعنى أن ذلك الردّ خير لكم وأحسن مرجعا ترجعون اليه ، ويجوز أن يكون المعنى أن الردّ أحسن تأويلا من تأويلكم الذى صرتم اليه عند التنازع .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس فى قوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) قال نزلت فى عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدّى اذ بعثه النبى ﷺ فى سرية ، وقصته معروفة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن عطاء فى الآية . قال طاعة الله والرسول اتباع الكتاب والسنة (وأولى الأمر) قال : أولى الفقه والعلم . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى هريرة . قال (وأولى الأمر منكم) هم الأمراء ، وفى لفظ هم أمراء السرايا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والحكيم الترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن جابر بن عبد الله فى قوله (وأولى الأمر منكم) قال : أهل العلم . وأخرج سعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن أبى العالية نحوه أيضا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله ــ فان تنازعتم فى شىء فردّوه الى الله والرسول ــ قال الى كتاب الله وسنة رسوله . ثم قرأ ــ ولو ردّوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ــ وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ميمون بن مهران فى الآية . قال : الردّ الى الله الردّ الى كتابه ، والردّ الى رسوله مادام حيا . فاذا قبض فالى سنته . وأخرج ابن جرير عن قتادة والسدّى مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (ذلك خير وأحسن تأويلا) يقول ذلك أحسن ثوابا وخير عاقبة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وأحسن تأويلا) قال وأحسن جزاء . وقد وردت أحاديث كثيرة فى طاعة الأمراء ثابتة فى الصحيحين وغيرهما مقيدة بأن يكون ذلك فى المعروف ، وأنه لاطاعة فى معصية الله .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ

يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا *

قوله (ألم تر الى الذين يزعمون) فيه تعجيب لرسول الله ﷺ من حال هؤلاء الذين ادّعوا لأنفسهم أنهم قد جمعوا بين الايمان بما أنزل على رسول الله، وهو القرآن، وما أنزل على من قبله من الأنبياء، فجاءوا بما ينقض عليهم هذه الدعوى ويبطلها من أصلها ويوضح أنهم ليسوا على شيء من ذلك أصلا، وهو إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت وقد أمروا فيما أنزل على رسول الله وعلى من قبله أن يكفروا به، وسيأتى بيان سبب نزول الآية، وبه يتضح معناها. وقد تقدّم تفسير الطاغوت والاختلاف في معناه * قوله (ويريد الشيطان) معطوف على قوله (يريدون) والجملتان مسوقتان لبيان محل التعجب، كأنه قيل ماذا يفعلون؟ فقيل يريدون كذا، ويريد الشيطان كذا * وقوله (ضلالا) مصدر للفعل المذكور بحذف الزوائد كقوله — والله أنبتكم من الأرض نباتا — أو مصدر لفعل محذوف دلّ عليه الفعل المذكور، والتقدير ويريد الشيطان أن يضلهم فيضلون ضلالا * والصدود: اسم للمصدر، وهو الصدّ عند الخليل، وعند الكوفيين أنهما مصدران، أى يعرضون عنك إعراضا * قوله (فكيف إذا أصابتهم مصيبة بماقدّمت أيديهم) بيان لعاقبة أمرهم وما صار اليه حالهم، أى كيف يكون حالهم (إذا أصابتهم مصيبة) أى وقت إصابتهم فانهم يعجزون عند ذلك ولا يقدرون على الدفع * والمراد (بماقدّمت أيديهم) مافعلوه من المعاصى التى من جملتها التحاكم الى الطاغوت (ثم جاءوك) يعتذرون عن فعلهم، وهو عطف على (أصابتهم) * وقوله (يحلفون) حال، أى جاءوك حال كونهم حالفين (ان أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) أى ماأردنا بتحاكمنا إلى غيرك إلا الاحسان لا الاساءة، والتوفيق بين الخصمين لا المخالفة لك. وقال ابن كيسان: معناه ماأردنا الا عدلا وحقا مثل قوله — وليحلفنّ ان أردنا الا الحسنى — فكذبهم الله بقوله (أولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم) من النفاق والعداوة للحق. قال الزجاج: معناه قد علم الله أنهم منافقون (فأعرض عنهم) أى عن عقابهم، وقيل عن قبول اعتذارهم (وعظهم) أى خوّفهم من النفاق (وقل لهم فى أنفسهم) أى فى حق أنفسهم، وقيل معناه قل لهم خاليا بهم ليس معهم غيرهم (قولا بليغا) أى بالغا فى وعظهم الى المقصود مؤثرا فيهم، وذلك بأن توعدهم بسفك دمائهم وسبى نسائهم وسلب أموالهم (وماأرسلنا من رسول) من زائدة للتوكيد (الا ليطاع) فيما أمر به ونهى عنه (باذن الله) بعلمه، وقيل بتوفيقه (ولوأنهم اذ ظلموا أنفسهم) بترك طاعتك والتحاكم الى غيرك (جاءوك) متوسلين اليك متنصلين عن جناياتهم ومخالفاتهم (فاستغفروا الله) لذنوبهم وتضرّعوا اليك حتى تقم شفيعا لهم فاستغفرت لهم، وانما قال (واستغفر لهم الرسول) على طريقة الالتفات لقصد التفخيم لشأن الرسول ﷺ (لوجدوا الله توّابا رحيما) أى كثير

التوبة عليهم والرحمة لهم * قوله (فلا وربك) . قال ابن جرير قوله (فلا) ردّ على ماتقدّم ذكره ، تقديره فليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، ثم استأنف القسم بقوله (وربك لايؤمنون) وقيل انه قدّم لا على القسم اهتماما بالنفى ، و إظهارا لقوّته ثم كرره بعد القسم تأكيدا ، وقيل لا مزيدة لتأكيد معنى القسم لا لتأكيد معنى النفى ، والتقدير فوربك لايؤمنون كما فى قوله ـ فلا أقسم بمواقع النجوم ـ (حتى يحكموك) أى يجعلوك حكما بينهم فى جميع أمورهم لايحكمون أحدا غيرك ، وقيل معناه يتحاكمون إليك ، ولا ملجىء لذلك (فيما شجر بينهم) أى اختلف بينهم واختلط ، ومنه الشجر لاختلاف أغصانه ، ومنه قول طرفة :

وهم الحكام أرباب الهدى * وسعاة الناس فى الأمر الشجر

أى المختلف ، ومنه تشاجر الرماح ، أى اختلافها (ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت) قيل هو معطوف على مقدّر ينساق إليه الكلام ، أى فتقضى بينهم ثم لايجدوا * والحرج : الضيق ، وقيل الشك ، ومنه قيل للشجر الملتف حرج وحرجة ، وجمعها حراج ، وقيل الحرج : الاثم ، أى لايجدون فى أنفسهم إثما بانكارهم ماقضيت (ويسلموا تسليما) أى ينقادوا لأمرك وقضائك انقيادا لايخالفونه فى شىء . قال الزجاج (تسليما) مصدر مؤكد ، أى ويسلمون لحكمك تسليما لايدخلون على أنفسهم شكا ولاشبهة فيه * والظاهر أن هذا شامل لكل فرد فى كل حكم كما يؤيد ذلك قوله (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع باذن الله) فلا يختص بالمقصودين بقوله (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) وهذا فى حياته ﷺ ، وأما بعد موته فتحكيم الكتاب والسنة وتحكيم الحاكم بمافيهما من الأئمة والقضاة إذا كان لايحكم بالرأى المجرد مع وجود الدليل فى الكتاب والسنة أو فى أحدهما وكان يعقل مايرد عليه من حجج الكتاب والسنة بأن يكون عالما باللغة العربية ومايتعلق بها من نحو وتصريف ومعانى وبيان عارفا بمايحتاج اليه من علم الأصول بصيرا بالسنة المطهرة ، مميزا بين الصحيح وما يلحق به ، والضعيف وما يلحق به ، منصفا غير متعصب لمذهب من المذاهب ولا لنحلة من النحل ، ورعا لايحيف ولايميل فى حكمه ، فمن كان هكذا فهو قائم فى مقام النبوّة مترجم عنها حاكم بأحكامها ، وفى هذا الوعيد الشديد ماتقشعرّ له الجلود وترجف له الأفئدة فانه أوّلا أقسم سبحانه بنفسه مؤكدا لهذا القسم بحرف النفى بأنهم لايؤمنون ، فنفى عنهم الايمان الذى هو رأس مال صالحى عباد الله حتى تحصل لهم غاية هى تحكيم رسول الله ﷺ ثم لم يكتف سبحانه بذلك حتى قال (ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت) فضم الى التحكيم أمرا آخر ، هو عدم وجود حرج ، أى حرج فى صدورهم ، فلا يكون مجرد التحكيم والاذعان كافيا حتى يكون من صميم القلب عن رضا واطمئنان وانثلاج قلب وطيب نفس ، ثم لم يكتف بهذا كله ، بل ضمّ إليه قوله (ويسلموا) أى يذعنوا وينقادوا ظاهرا وباطنا ، ثم لم يكتف بذلك ، بل ضمّ اليه المصدر المؤكد فقال (تسليما) فلايثبت الايمان لعبد حتى يقع منه هذا التحكيم ، ولايجد الحرج فى صدره بما قضى عليه ويسلم لحكم الله وشرعه تسليما لايخالطه ردّ ولاتشوبه مخالفة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى بسند . قال السيوطى صحيح عن ابن عباس : قال كان برزة الأسلمى كاهنا يقضى بين اليهود فيما يتنافرون فيه فتنافر إليه ناس من المسلمين ، فأنزل الله (ألم تر إلى الذين يزعمون) الآية . وأخرج ابن اسحق وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : قال كان الجلاس بن الصامت قبل توبته ومعقب بن قشير ورافع بن زيد كانوا يدّعون الاسلام فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين فى خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ فدعوهم إلى الكهان حكام الجاهلية . فنزلت الآية المذكورة

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت) قال : الطاغوت رجل من اليهود كان يقال له كعب بن الأشرف ، وكانوا اذا مادعوا الى ما أنزل الله والى الرسول ليحكم بينهم ، قالوا بل نحاكمكم الى كعب ، فنزلت الآية . وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله . وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن عبدالله بن الزبير : أن الزبير خاصم رجلا من الأنصار قد شهد بدرا مع النبى ﷺ الى رسول الله ﷺ فى شراج من الحرة ، وكانا يسقيان به كلاهما النخل ، فقال الأنصارى سرح الماء يمرّ ، فأبى عليه ، فقال رسول ﷺ اسق يازبير ، ثم أرسل الماء الى جارك ، فغضب الأنصارى ، وقال يارسول الله آن كان ابن عمتك ؟ فتلوّن وجه رسول الله ﷺ ثم قال اسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع الى الجدر ، ثم أرسل الماء الى جارك ، واستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه سعة له وللأنصارى ، فلما أحفظ رسول الله الأنصارى استوعى للزبير حقه فى صريح الحكم ، فقال الزبير : ما أحسب هذه الآية نزلت الا فى ذلك (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق ابن لهيعة عن الأسود أن سبب نزول الآية أنه اختصم الى رسول ﷺ رجلان فقضى بينهما ، فقال المقضىّ عليه ردّنا الى عمر ، فردّهما ، فقتل عمر الذى قل ردّنا ، ونزلت الآية ، فأهدر النبى ﷺ دم المقتول . وأخرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن مكحول فذكر نحوه ، وبين أن الذى قتله عمر كان منافقا ، وهما مرسلان ، والقصة غريبة ، وابن لهيعة فيه ضعف .

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا *

(لو) حرف امتناع ، وأن مصدرية ، أوتفسيرية ، لأن (كتبنا) فى معنى أمرنا * والمعنى أن الله سبحانه لو كتب القتل والخروج من الديار على هؤلاء الموجودين من اليهود مافعله الا القليل منهم ، أو لو كتب ذلك على المسلمين مافعله الا القليل منهم ، والضمير فى قوله (فعلوه) راجع الى المكتوب الذى دلّ عليه كتبنا ، أو الى القتل والخروج المدلول عليهما بالفعلين ، وتوحيد الضمير فى مثل هذا قد قدّمنا وجهه * قوله (الا قليل) قرأه الجمهور بالرفع على البدل . وقرأ عبدالله بن عامر وعيسى بن عمر (الاقليلا) بالنصب على الاستثناء ، وكذا هو فى مصاحف أهل الشام ، والرفع أجود عند النحاة * قوله (ولو أنهم فعلوا مايوعظون به) من اتباع الشرع والانقياد لرسول الله ﷺ (لكان) ذلك (خيرا لهم) فى الدنيا والآخرة ، (وأشدّ تثبيتا) لأقدامهم على الحق فلا يضطربون فى أمر دينهم (وإذن) ، أى وقت فعلهم لما يوعظون به (لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما) لاعوج فيه ليصلوا الى الخير الذى يناله من امتثل ماأمر به وانقاد لمن يدعوه الى الحق * قوله (ومن يطع الله والرسول) كلام مستأنف لبيان فضل طاعة الله والرسول ، والاشارة بقوله (فأولئك) الى المطيعين كما تفيده من (مع الذين أنعم الله عليهم) بدخول الجنة ، والوصول الى ماأعدّ الله لهم * والصدّيق المبالغ فى الصدق كما تفيده الصيغة ، وقيل هم فضلاء أتباع الأنبياء * والشهداء من ثبتت لهم الشهادة ،

والصالحين : أهل الأعمال الصالحة * والرفيق مأخوذ من الرفق ، وهو لين الجانب ، والمراد به المصاحب لارتفاقك بصحبته ، ومنه الرفقة لارتفاق بعضهم ببعض ، وهومنتصب على التميز أوالحال : كما قال الأخفش وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) هم يهود كما أمر أصحاب موسى أن يقتل بعضهم بعضا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سفيان أنها نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى نحوه . وقد روى من طرق أن جماعة من الصحابة قالوا لما نزلت الآية لوفعل ربنا لفعلنا . أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن . وأخرجه ابن أبى حاتم عن عامر بن عبدالله بن الزبير . وأخرجه أيضا عن شريح بن عبيد . وأخرج الطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية ، والضياء المقدسى فى صفة الجنة ، وحسنه عن عائشة قالت جاء رجل الى النبى ﷺ فقال يارسول الله : انك لأحب الىّ من نفسى : وانك لأحب الىّ من ولدى وانى لأكون فى البيت فأذكرك ، فما أصبرحتى آتى فأنظر اليك ، واذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك اذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وإنى اذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك ، فلم يردّ عليه النبى ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم) الآية . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس نحوه .

يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَٱنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ ٱنْفِرُوا جَمِيعاً * وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً * وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يٰلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً * فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً * وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَٱجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً * ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوا أَوْلِيَاءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفاً *

قوله (ياأيها الذين آمنوا) هذا خطاب لخلص المؤمنين ، وأمر لهم بجهاد الكفار والخروج فى سبيل الله ، والحذر والحذر لغتان كالمثل والمثل ، قال الفراء : أكثر الكلام الحذر ، والحذر مسموع أيضا ، يقال خذ حذرك ، أى احذر ، وقيل معنى الآية الأمر لهم بأخذ السلاح حذرا ، لأن به الحذر * قوله (فانفروا) نفر ينفر بكسر الفاء نفيرا ، ونفرت الدابة تنفر بضم الفاء نفورا * والمعنى انهضوا لقتال العدوّ ، أوالنفير اسم للقوم الذين ينفرون ، وأصله من النفار والنفور ، وهو الفزع ، ومنه قوله تعالى ـ ولوا على أدبارهم نفورا ـ أى نافرين * قوله (ثبات) جمع ثبة ، أى جماعة ، والمعنى انفروا جماعات متفرقات * قوله (أو انفروا جميعا) أى مجتمعين جيشا واحدا * ومعنى الآية الأمر لهم بأن ينفروا على أحد الوصفين ليكون ذلك أشدّ على عدوّهم وليأمنوا من أن يتخطفهم الأعداء اذا نفر كل واحد منهم وحده أو نحو ذلك ، وقيل ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى (انفروا خفافا وثقالا) و بقوله ـ ان لا تنفروا يعذبكم ـ والصحيح أن الآيتين

جميعا محكمتان ، إحداهما فى الوقت الذى يحتاج فيه الى نفور الجميع ، والأخرى عند الاكتفاء بنفور البعض دون البعض * قوله (وإن منكم لمن ليبطئن) التبطئة ، والابطاء : التأخر ، والمراد المنافقون كانوا يقعدون عن الخروج ويقعدون غيرهم ، والمعنى أن من دخلائكم وجنسكم ومن أظهر إيمانه لكم نفاقا من يبطىء المؤمنين ويثبطهم ، واللام فى قوله (لمن) لام توكيد ، وفى قوله (ليبطئن) لام جواب القسم ، ومن فى موضع نصب وصلتها الجملة . وقرأ مجاهد والنخعى والكلبى (ليبطئن) بالتخفيف (فان أصابتكم مصيبة من قتل أو هزيمة أو ذهاب مال (قال) هذا المنافق (قد أنعم الله علىّ اذ لم أكن معهم) حتى يصيبنى ما أصابهم (ولئن أصابكم فضل من) غنيمة أو فتح (ليقولن) هذا المنافق قول نادم حاسد (ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) * قوله (كأن لم تكن بينهم وبينه مودّة) جملة معترضة بين الفعل الذى هو ليقولن وبين مفعوله ، وهو (ياليتنى) وقيل ان فى الكلام تقديما وتأخيرا ، وقيل المعنى ليقولنّ كأن لم تكن بينكم وبينه مودّة أى كأن لم يعاقدكم على الجهاد ، وقيل هو فى موضع نصب على الحال . وقرأ الحسن (ليقولنّ) بضم اللام على معنى من . وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم (كأن لم تكن) بالتاء على لفظ المودّة * قوله (فأفوز) بالنصب على جواب التمنى . وقرأ الحسن (فأفوز) بالرفع * قوله (فليقاتل فى سبيل الله) هذا أمر للمؤمنين وقدّم الظرف على الفاعل للاهتمام به و (الذين يشرون) معناه يبيعون وهم المؤمنون ، والفاء فى قوله (فليقاتل) جواب شرط مقدّر ، أى ان لم يقاتل هؤلاء المذكورون سابقا الموصوفون بأن منهم لمن ليبطئن ، فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم البائعون للحياة الدنيا بالآخرة ، ثم وعد المقاتلين فى سبيل الله بأنه سيؤتيهم أجرا عظيما لايقادر قدره ، وذلك أنه اذا قتل فاز بالشهادة التى هى أعلى درجات الأجور وان غلب وظفر كان له أجر من قاتل فى سبيل الله مع ماقد ناله من العلوّ فى الدنيا والغنيمة ، وظاهر هذا يقتضى التسوية بين من قتل شهيدا أو انقلب غانما ، وربما يقال ان التسوية بينهما انما هى فى إيتاء الأجر العظيم ، ولايلزم أن يكون أجرهما مستويا ، فان كون الشىء عظيما : هو من الأمور النسبية التى يكون بعضها عظيما بالنسبة الى ماهو دونه وحقيرا بالنسبة الى ماهو فوقه * قوله (وما لكم لاتقاتلون فى سبيل الله) خطاب للمؤمنين المأمورين بالقتال على طريق الالتفات * قوله (والمستضعفين) مجرور عطفا على الاسم الشريف ، أى مالكم لاتقاتلون فى سبيل الله وسبيل المستضعفين حتى تخلصوهم من الأسر وتريحوهم مما هم فيه من الجهد ، ويجوز أن يكون منصوبا على الاختصاص ، أى وأخص المستضعفين فانهم من أعظم مايصدق عليه سبيل الله ، واختار الأوّل الزجاج والأزهرى ، وقال محمد بن يزيد أختار أن يكون المعنى ، وفى المستضعفين فيكون عطفا على السبيل ، والمراد بالمستضعفين هنا من كان بمكة من المؤمنين تحت إذلال الكفار : وهم الذين كان يدعو لهم النبى ﷺ فيقول : اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة والمستضعفين من المؤمنين كما فى الصحيح ، ولايبعد أن يقال ان لفظ الآية أوسع من هذا ، والاعتبار بعموم اللفظ لولا تقييده بقوله (الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها) فانه يشعر باختصاص ذلك بالمستضعفين الكائنين فى مكة لأنه قد أجمع المفسرون على أن المراد بالقرية الظالم أهلها مكة * وقوله (من الرجال والنساء والولدان) بيان للمستضعفين * قوله (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله) هذا ترغيب للمؤمنين وتنشيط لهم بأن قتالهم لهذا المقصد لالغيره (والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت) أى سبيل الشيطان أو الكهان أو الأصنام ، وتفسير الطاغوت هنا بالشيطان أولى لقوله (فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) أى مكره ومكر من اتبعه من الكفار .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فانفروا ثبات) قال عصبا

يعنى سرايا متفرقين (أو انفروا جميعا) يعنى كلكم . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عنه قال فى سورة النساء (خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا) نسختها ـ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ـ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله (ثبات) أى فرقا قليلا . وأخرج عن قتاده فى قوله (أوانفروا جميعا) أى اذا نفر نبى الله ﷺ فليس لأحد أن يتخلف عنه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وانّ منكم لمن ليبطئن) إلى قوله (فسوف نؤتيه أجرا عظيما) مابين ذلك فى المنافقين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان فى الآية قال : هوفيما بلغنا عبدالله بن أبىّ ابن سلول رأس المنافقين . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير (فليقاتل) يعنى يقاتل المشركين فى سبيل الله فى طاعة الله (ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل) يعنى يقتله العدوّ (أو يغلب) يعنى يغلب العدوّ من المشركين (فسوف نؤتيه أجرا عظيما) يعنى جزاء وافرا فى الجنة ، فجعل القاتل والمقتول من المسلمين فى جهاد المشركين شريكين فى الأجر . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (فى سبيل الله والمستضعفين) قال وفى المستضعفين . وأخرج ابن جرير عن الزهرى : قال وسبيل المستضعفين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه من طريق العوفى قال المستضعفون أناس مسلمون كانوا بمكة لايستطيعون أن يخرجوا منها . وأخرج البخارى عنه قال « أنا وأمى من المستضعفين » . وأخرج ابن جرير عنه قال : القرية الظالم أهلها مكة . وأخرج ابن أبى حاتم عن عائشة مثله . وأخرج عبدبن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : قال اذا رأيتم الشيطان فلا تخافوه واحملوا عليه (ان كيد الشيطان كان ضعيفا) . قال مجاهد كان الشيطان يتراءى لى فى الصلاة فكنت أذكر قول ابن عباس فأحمل عليه فيذهب عنى .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَآتُوا ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ * قُلْ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ ٱتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا * أَيْنَ مَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا * مَنْ يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا * وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِي تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا *

قوله (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم) الآية ، قيل هم جماعة من الصحابة أمروا بترك القتال فى مكة بعد أن تسرعوا اليه ، فلما كتب عليهم بالمدنية تثبطوا عن القتال من غير شك فى الدين بل خوفا من الموت وفرقا من هول القتل ، وقيل انها نزلت فى اليهود ، وقيل فى المنافقين أسلموا قبل فرض القتال ،

فلما فرض كرهوه ، وهـذا أشبـه بالسياق لقوله (وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) ، وقوله (وان تصبهم حسنة) الآية ، ويبعد صدور مثل هذا من الصحابة * قوله (كخشية الله) صفة مصدر محذوف ، أى خشية كخشية الله ، أوحال ، أى تخشونهم مشبهين أهل خشية الله ، والمصدر مضاف الى المفعول ، أى كخشيتهم الله * وقوله (أوأشد خشية) معطوف على كخشية الله فى محل جر، أو معطوف على الجار والمجرور جميعا فيكون فى محل الحال كالمعطوف عليـه ، وأو للتنويع على معنى أن خشية بعضهم كخشية الله وخشية بعضهم أشـد منها * قوله (وقالوا) عطف على مايدل عليه قوله (اذا فريق منهم) أى فلما كتب عليهم القتال فاجأ فريق منهم خشية الناس (وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا) أى هلا أخرتنا ، يريدون المهلة الى وقت آخر قريب من الوقت الذى فرض عليهم فيه القتال ، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم فقال (قل متاع الدنيا قليـل) سريع الفناء لايدوم لصاحبه ، وثواب الآخرة خير لـكم من المتاع القليل (لمن اتقى) منـكم ورغب فى الثواب الدائم (ولاتظلمون فتيلا) أى شيئا حقيرا يسيرا ، وقد تقدّم تفسير الفتيل قريبا واذا كنتم توفرون أجوركم ولاتنقصون شيئا منها ، فـكيف ترغبون عن ذلك وتشتغلون بمتاع الدنيا مع قلته وانقطاعه * وقوله (أينما تـكونوا يدرككم الموت) كلام مبتدأ ، وفيه حث لمن قعد عن القتال خشية الموت ، و بيان لفساد ماخالطه من الجبن وخامره من الخشية ، فان الموت اذا كان كائنا لامحالة * فمن لم يمت بالسيف مات بغيره * ، والبروج جمع برج : وهو البناء المرتفع ، والمشيدة المرفعة من شاد القصر اذا رفعه وطلاه بالشيد : وهو الجص ، وجواب لولا محذوف لدلالة ماقبله عليه :

وقد اختلف فى هذه البروج ماهى ? فقيل الحصون التى فى الأرض ، وقيل هى القصور ، قال الزجاج والقتيبى ، ومعنى مشيدة مطوّلة ، وقيل معناه مطلية بالشيد : وهو الجص ، وقيل المراد بالبروج بروج فى سماء الدنيا مبنية ، حكاه مكى عن مالك ، وقال ألاترى الى قوله ـ والسماء ذات البروج ـ جعل فى السماء بروجا ـ ولقد جعلنا فى السماء بروجا ـ ، وقيـل ان المراد بالبروج المشيدة هنا قصور من حديد . وقرأ طلحة ابن سليمان (يدرككم الموت) بالرفع على تقـدير الفاء كما فى قوله * وقال رائدهم أرسوا نزاولها * قوله (وان تصبهم حسنة) هذا ومابعده مختص بالمنافقين ، أى ان تصبهم نعمة نسبوها الى الله تعالى وان تصبهم بلية ونقمة نسبوها الى رسول الله ﷺ فردّ الله ذلك عليهم بقوله (قل كلّ من عند الله) ليس كما تزعمون ، ثم نسبهم الى الجهل وعدم الفهم ، فقال (فمـال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) أى مابالهم هكذا * قوله (ما أصابك من حسنة فمن الله) هذا الخطاب إما لـكل من يصلح له من الناس ، أو لرسول الله ﷺ تعريضا لأمته ، أى ماأصابك من خصب ورخاء وصحة وسلامة فمن الله بفضله ورحمته ، وماأصابك من جهد و بلاء وشدّة فمن نفسك بذنب أتيته فعوقبت عليه ، وقيل ان هذا من كلام الذين لايفقهون حديثا أى فيقولون ماأصابك من حسنة فمن الله ، وقيل ان ألف الاستفهام مضمرة ، أى أفمن نفسك ، ومثله قوله تعالى ـ وتلك نعمة تمنها علىّ ـ والمعنى أو تلك نعمة ، ومثله قوله ـ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ـ أى أهذا ربى ، ومنه قول أبى خراش الهذلى .

رمونى وقالوا ياخويلد لم ترع * فقلت وأنـكرت الوجوه هم هم

أى أهم هم ، وهذا خلاف الظاهر ، وقد ورد فى الـكتاب العزيز مايفيد مفاد هذه الآية كقوله تعالى ـ وماأصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير ـ ، وقوله ـ أو لما أصابتـكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ـ * وقد يظن أن قوله (وماأصابك من سيئة فمن نفسك) مناف لقوله (قل كلّ من عند الله) ولقوله ـ وماأصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله ـ ، وقوله ـ ونبلوكم

بالشر والخيرفتنة) ، وقوله ـ واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له ومالهم من دونه من وال ـ وليس الأمر كذلك فالجمع ممكن كما هو مقرر فى مواطنه * قوله (وأرسلناك للناس رسولا) فيه البيان لعموم رسالته ﷺ الى الجميع كما يفيده التأكيد بالمصدر والعموم فى الناس ، ومثله قوله ـ وما أرسلناك الا كافة للناس ـ ، وقوله ـ ياأيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعا ـ (وكفى بالله شهيدا) على ذلك * قوله (من يطع الرسول فقد أطاع الله) فيه أن طاعة الرسول طاعة لله ، وفى هذا من النداء بشرف رسول الله ﷺ وعلوّ شأنه وارتفاع مرتبته مالا يقادر قدره ولا يبلغ مداه ، ووجهه أن الرسول لايأمر الا بما أمر الله به ، ولا ينهى الا عما نهى الله عنه (ومن تولى) : أى أعرض (فما أرسلناك عليهم حفيظا) أى حافظا لأعمالهم ، انما عليك البلاغ ، وقد نسخ هذا بآية السيف (ويقولون طاعة) بالرفع على أنها خبر مبتدا محذوف ، أى أمرنا طاعة ، أوشأننا طاعة . وقرأ الحسن والجحدرى ونصر بن عاصم بالنصب على المصدر ، أى نطيع طاعة وهذه فى المنافقين فى قول أكثر المفسرين ، أى يقولون اذا كانوا عندك طاعة (واذا برزوا من عندك) أى خرجوا من عندك (بيت طائفة منهم) أى زوّرت طائفة من هؤلاء القائلين غير الذى تقول لهم أنت وتأمرهم به ، أوغير الذى تقول لك هى من الطاعة لك ، وقيل معناه غيروا و بدّلوا وحرّفوا قولك فيما عهدت اليهم ، والتبييت : التبديل ، ومنه قول الشاعر :

أتونى فلم أرض مابيتوا * وكانوا أتونى بأمر نكر

يقال بيت الرجل الأمر اذا دبره ليلا ، ومنه قوله تعالى ـ اذيبيتون مالا يرضى من القول ـ (والله يكتب مايبيتون) أى يثبته فى صحائف أعمالهم ليجازيهم عليه . وقال الزجاج : المعنى ينزله عليك فى الكتاب * قوله (فأعرض عنهم) أى دعهم وشأنهم حتى يمكن الانتقام منهم ، وقيل معناه لاتخبر بأسمائهم ، وقيل معناه لاتعاقبهم ، ثم أمره بالتوكل عليه والثقة به فى النصر على عدوّه ، قيل وهذا منسوخ بآية السيف .

وقد أخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبى ﷺ فقالوا يانبىّ الله كنا فى عزة ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة ؟ فقال انى أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم ، فلما حوّله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا ، فأنزل الله (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم) الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى تفسير الآية نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد أنها نزلت فى اليهود . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (فلما كتب عليهم القتال اذا فريق) الآية . قال نهى الله هذه الأمة أن يصنعوا صنيعهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (إلى أجل قريب) قال هو الموت . وأخرجا نحوه عن ابن جريج . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة (فى بروج مشيدة) قال فى قصور محصنة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية . قال هى قصور فى السماء . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سفيان نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة فى قوله (وان تصبهم حسنة) يقول نعمة (وان تصبهم سيئة) قال مصيبة (قل كل من عند الله) قال النعم والمصائب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله (وان تصبهم حسنة) قال هذه فى السراء والضراء ، وفى قوله (ماأصابك من حسنة) قال هذه فى الحسنات والسيئات . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (قل كلّ من عند الله) يقول الحسنة والسيئة من عند الله ، أما الحسنة فأنعم بها عليك ، وأما السيئة فابتلاك بها ، وفى قوله (وما أصابك من

سيئة) قال ماأصابه يوم أحد أن شج وجهه وكسرت رباعيته . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق العوفى عنه فى قوله (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) قال هذا يوم أحد يقول ما كانت من نكبة فبذنبك وأنا قدّرت ذلك . وأخرج ابن المنذر من طريق مجاهد أن ابن عباس كان يقرأ (وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأنا كتبتها عليك) قال مجاهد وكذلك قراءة أبىّ وابن مسعود . وأخرج نحو قول مجاهد هذا ابن الأنبارى فى المصاحف . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (ويقولون طاعة) قال هم أناس كانوا يقولون عند رسول الله ﷺ آمنا بالله ورسوله ليأمنوا على دمائهم وأموالهم (فاذا برزوا) من عند رسول الله (بيت طائفة منهم) يقول خالفوا الى غير ماقالوا عنده فعابهم الله . وأخرج ابن جرير عنه قال غير أولئك ماقاله النبى ﷺ .

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا * وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا *

الهمزة فى قوله (أفلا يتدبرون) للانكار ، والفاء للعطف على مقدّر ، أى أيعرضون عن القرآن فلا يتدبرونه ، يقال تدبرت الشىء : تفكرت فى عاقبته وتأملته ، ثم استعمل فى كل تأمل ، والتدبير : أن يدبر الانسان أمره كأنه ينظر الى ماتصير إليه عاقبته ، ودلت هذه الآية ، وقوله تعالى — أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها — على وجوب التدبر للقرآن ليعرف معناه * والمعنى أنهم لو تدبروه حق تدبره لوجدوه مؤتلفا غير مختلف ، صحيح المعانى ، قوىّ المبانى ، بالغا فى البلاغة إلى أعلى درجاتها (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) أى تفاوتا وتناقضا ، ولا يدخل فى هذا اختلاف مقادير الآيات والسور ، لأن المراد اختلاف التناقض والتفاوت وعدم المطابقة للواقع ، وهذا شأن كلام البشر لاسيما اذا طال وتعرّض قائله للاخبار بالغيب فانه لايوجد منه صحيحا مطابقا للواقع الا القليل النادر * قوله (واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به) يقال أذاع الشىء وأذاع به : إذا أفشاه وأظهره ، وهؤلاء هم جماعة من ضعفة المسلمين كانوا اذا سمعوا شيئا من أمر المسلمين فيه أمن نحو ظفر المسلمين وقتل عدوّهم ، أو فيه خوف نحو هزيمة المسلمين وقتلهم أفشوه وهم يظنون أنه لاشىء عليهم فى ذلك * قوله (ولو ردّوه إلى الرسول و إلى أولى الأمر منهم) وهم أهل العلم والعقول الراجحة الذين يرجعون إليهم فى أمورهم ، أوهم الولاة عليهم (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) أى يستخرجونه بتدبيرهم وصحة عقولهم * والمعنى أنهم لو تركوا الاذاعة للاخبار حتى يكون النبى ﷺ هو الذى يذيعها أو يكون أولى الأمر منهم هم الذين يتولون ذلك ، لأنهم يعلمون ماينبغى أن يفشى وماينبغى أن يكتم * والاستنباط مأخوذ من استنبطت الماء : إذا استخرجته * والنبط : الماء المستنبط أوّل مايخرج من ماء البئر عند حفرها ، وقيل ان هؤلاء الضعفة كانوا يسمعون إرجافات المنافقين على المسلمين فيذيعونها فتحصل بذلك المفسدة * قوله (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا) أى لولا ماتفضل الله به عليكم من إرسال رسوله و إنزال كتابه لاتبعتم الشيطان فبقيتم على كفركم إلا قليلا منكم ، أو إلا اتباعا قليلا منكم ، وقيل المعنى أذاعوا به إلا قليلا منهم فانه لم يذع ولم يفش : قاله الكسائى والأخفش والفراء وأبو عبيدة وأبو حاتم وابن جرير ، وقيل المعنى لعلمه الذين يستنبطونه إلا قليلا منهم : قاله الزجاج .

وقد

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) يقول ان قول الله لايختلف وهو حق ليس فيه باطل وان قول الناس يختلف. وأخرج عبد بن حميد ومسلم وابن أبي حاتم من طريق ابن عباس عن عمر بن الخطاب : قال لما اعتزل النبي ﷺ نساءه دخلت المسجد فوجدت الناس ينكتون بالحصا ويقولون طلق رسول الله ﷺ نساءه فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي لم يطلق نساءه، ونزلت هذه الآية (واذا جاءهم أمر من الأمن أوالخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال هذا فى الاخبار إذا غزت سرية من المسلمين أخبر الناس عنها : فقالوا أصاب المسلمون من عدوّهم كذا وكذا وأصاب العدوّ من المسلمين كذا وكذا فأفشوه بينهم من غير أن يكون النبي ﷺ هو يخبرهم به. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك (وإذا جاءهم) قال هم أهل النفاق. وأخرج ابن جرير عن أبي معاذ مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان) قال فانقطع الكلام * وقوله (إلا قليلا) فهو فى أوّل الآية يخبر عن المنافقين. قال (واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به إلا قليلا) يعنى بالقليل المؤمنين.

فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا * مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا * وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا * ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا *

الفاء فى قوله (فقاتل) قيل هى متعلقة بقوله (ومن يقاتل فى سبيل الله) الخ أى من أجل هذا فقاتل، وقيل متعلقة بقوله (ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله) فقاتل، وقيل هى جواب شرط محذوف يدل عليه السياق تقديره اذا كان الأمر ماذكر من عدم طاعة المنافقين فقاتل، أو إذا أفردوك وتركوك فقاتل. قال الزجاج أمر الله رسوله ﷺ بالجهاد وان قاتل وحده، لأنه قد ضمن له النصر. قال ابن عطية هذا ظاهر اللفظ إلا أنه لم يجيء فى خبر قط أن القتال فرض عليه دون الأمة، فالمعنى والله أعلم أنه خطاب له فى اللفظ، وفى المعنى له ولأمته، أى أنت يامحمد وكل واحد من أمتك يقال له (فقاتل فى سبيل لاتكلف إلا نفسك) أى لاتكلف غير نفسك ولاتلزم فعل غيرك، وهو استئناف مقرّر لما قبله، لأن اختصاص تكليفه بفعل نفسه من موجبات مباشرته للقتال وحده، وقرئ (لاتكلف) بالجزم على النهى، وقرئ بالنون * قوله (وحرّض المؤمنين) أى حضهم على القتال والجهاد، يقال حرّضت فلانا على كذا : إذا أمرته به، وحارض فلان على الأمر وأكبّ عليه وواظب عليه بمعنى واحد * قوله (عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا) فيه إطماع للمؤمنين بكف بأس الذين كفروا عنهم، والاطماع من الله عزّ وجلّ واجب، فهو وعد منه سبحانه، ووعده كائن لامحالة (والله أشدّ بأسا) أى أشدّ صولة وأعظم سلطانا (وأشدّ تنكيلا) أى عقوبة، يقال نكلت بالرجل تنكيلا، من النكال وهو العذاب * والمنكل : الشيء الذى ينكل بالانسان

(من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها) أصل الشفاعة والشفعة ونحوهما من الشفع وهو الزوج ، ومنه الشفيع لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعا ، ومنه ناقة شفوع : اذا جمعت بين محلبين فى حلبة واحدة وناقة شفيع : اذا اجتمع لها حمل وولد يتبعها * والشفع : ضمّ واحد إلى واحد * والشفعة : ضمّ ملك الشريك إلى ملكك ، فالشفاعة : ضمّ غيرك إلى جاهك ووسيلتك ، فهى على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع واتصال منفعة إلى المشفوع له * والشفاعة الحسنة هى فى البرّ والطاعة * والشفاعة السيئة فى المعاصى ، فمن شفع فى الخير لينفع فله نصيب منها ، أى من أجرها ، ومن شفع فى الشر كمن يسعى بالنميمة والغيبة كان له كفل منها ، أى نصيب من وزرها * والكفل : الوزر والاثم ، واشتقاقه من الكساء الذى يجعله الراكب على سنام البعير لئلا يسقط ، يقال اكتفلت البعير : إذا أدرت على سنامه كساء وركبت عليه لأنه لم يستعمل الظهر كله ، بل استعمل نصيبا منه ، ويستعمل فى النصيب من الخير والشر ، ومن استعماله فى الخير قوله تعالى ــ يؤتكم كفلين من رحمته ــ (وكان الله على كل شئ مقيتا) أى مقتدرا : قاله الكسائى . وقال الفراء المقيت : الذى يعطى كل انسان قوته ، يقال قته أقوته قوتا ، وأقته أقيته إقاتة فأنا قائت ومقيت . وحكى الكسائى أقات يقيت . وقال أبو عبيدة المقيت : الحافظ . قال النحاس : وقول أبى عبيدة أولى ، لأنه مشتق من القوت * والقوت : معناه مقدار مايحفظ الانسان . وقال ابن فارس فى المجمل المقيت : المقتدر * والمقيت : الحافظ والشاهد ، وأما قول الشاعر :

ألى الفضل أم علىّ اذا حو * سبت انى على الحساب مقيت

فقال ابن جرير الطبرى انه من غير هذا المعنى * قوله (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردّوها) التحية تفعلة ، من حييت ، والأصل تحيية ، مثل ترضية وتسمية فأدغموا الياء فى الياء ، وأصلها الدعاء بالحياة * والتحية : السلام ، وهذا المعنى هو المراد هنا ، ومثله قوله تعالى ــ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ــ وإلى هذا ذهب جماعة المفسرين ، وروى عن مالك أن المراد بالتحية هنا تشميت العاطس . وقال أصحاب أبى حنيفة التحية هنا : الهدية لقوله (أوردّوها) ولا يمكن ردّ السلام بعينه ، وهذا فاسد لاينبغى الالتفات إليه * والمراد بقوله (فحيوا بأحسن منها) أن يزيد فى الجواب على ماقاله المبتدئ بالتحية ، فاذا قال المبتدئ : السلام عليكم ، قال المجيب : وعليكم السلام ورحمة الله ، وإذا زاد المبتدئ لفظا زاد المجيب على جملة ماجاء به المبتدئ لفظا أو ألفاظا نحو وبركاته ومرضاته وتحياته

قال القرطبى أجمع العلماء على أن الابتداء بالسلام سنة مرغب فيها ، وردّه فريضة لقوله (فحيوا بأحسن منها أوردّوها) واختلفوا إذا ردّ واحد من جماعة هل يجزئ أولا ؟ فذهب مالك والشافعى الى الاجزاء ، وذهب الكوفيون الى أنه لايجزئ عن غيره ، ويرد عليهم حديث علىّ عن النبى ﷺ قال « يجزئ عن الجماعة اذا مرّوا أن يسلم أحدهم ، ويجزئ عن الجلوس أن يردّ أحدهم » أخرجه أبو داود ، وفى إسناده سعيد بن خالد الخزاعى المدنى وليس به بأس . وقد ضعفه بعضهم . وقد حسن الحديث ابن عبد البر * ومعنى قوله (أو ردّوها) الاقتصار على مثل اللفظ الذى جاء به المبتدئ ، فاذا قال السلام عليكم ، قال المجيب : وعليكم السلام . وقد ورد فى السنة المطهرة فى تعيين من يبتدئ بالسلام ومن يستحق التحية ومن لايستحقها مايغنى عن البسط هاهنا * قوله (إن الله كان على كل شئ حسيبا) يحاسبكم على كل شئ ، وقيل معناه حفيظا ، وقيل كافيا من قولهم أحسبنى كذا ، أى كفانى ، ومثله ــ حسبك الله ــ * قوله (الله لا إله إلا هو) مبتدأ وخبر ، واللام فى قوله (ليجمعنكم) جواب قسم محذوف ، أى والله ليجمعنكم الله بالحشر إلى يوم القيامة ، أى إلى حساب يوم القيامة ، وقيل إلى بمعنى فى ، وقيل انها زائدة * والمعنى ليجمعنكم يوم

القيامة

القيامة ، و (يوم القيامة) يوم القيام من القبور (لاريب فيه) أى فى يوم القيامة ، أوفى الجمع ، أى جمعا لاريب فيه (ومن أصدق من الله حديثا) إنكار لأن يكون أحد أصدق منه سبحانه . وقرأ حمزة والكسائى ومن أزدق بالزاى . وقرأ الباقون بالصاد ، والصاد الأصل . وقد تبدل زايا لقرب مخرجها منها .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى سنان فى قوله (وحرّض المؤمنين) قال عظهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (من يشفع شفاعة حسنة) الآية قال شفاعة الناس بعضهم لبعض . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (يكن له نصيب منها) قال حظ منها * وقوله (كفل منها) قال الكفل : هو الاثم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى قال الكفل : الحظ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (وكان الله على كل شىء مقيتا) قال حفيظا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبد الله بن رواحة أنه سأله رجل عن قول الله (وكان الله على كل شىء مقيتا) قال يقيت كل إنسان بقدر عمله ، وفى إسناده رجل مجهول . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (مقيتا) قال شهيدا . وأخرج ابن جرير عنه (مقيتا) قال شهيدا حسيبا حفيظا . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (مقيتا) قال قادرا . وأخرج ابن جرير عن السدّى قال المقيت : القدير . وأخرج أيضا عن ابن زيد مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك قال المقيت : الرزاق . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى فى الأدب المفرد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال « من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه وان كان يهوديا أو نصرانيا أومجوسيا ، ذلك بأن الله يقول واذا حييتم بتحية الآية » . وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه . قال السيوطى بسند حسن عن سلمان الفارسى : قال جاء رجل الى النبى ﷺ فقال : السلام عليك يارسول الله : فقال وعليك ورحمة الله ، ثم أتى آخر فقال : السلام عليك يارسول الله ورحمة الله فقال وعليك ورحمة الله و بركاته ، ثم جاء آخر فقال السلام عليك ورحمة الله و بركاته : فقال له وعليك فقال له الرجل يانبىّ الله بأبى أنت وأمى أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت علىّ ؟ فقال انك لم تدع لنا شيئا . قال الله (واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أوردّوها) فرددناها عليك . وأخرج البخارى فى الأدب المفرد عن أبى هريرة « أن رجلا مرّ على رسول الله ﷺ وهو فى مجلس فقال سلام عليكم ، فقال عشر حسنات ، فمرّ رجل آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله ، فقال عشرون حسنة فمرّ رجل آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله و بركاته فقال ثلاثون حسنة » . وأخرج البيهقى فى شعب الايمان عن ابن عمر مرفوعا نحوه . وأخرج البيهقى عن سهل بن حنيف مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج أحمد والدارمى وأبوداود والترمذى وحسنه والنسائى والبيهقى عن عمران بن حصين مرفوعا نحوه أيضا ، وزاد بعد كل مرّة أن النبى ﷺ ردّ عليه ، ثم قال عشر إلى آخره . وأخرج أبو داود والبيهقى عن معاذ ابن أنس الجهنى مرفوعا نحوه ، وزاد بعد قوله و بركاته : ومغفرته ، فقال أربعون ، يعنى حسنة .

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً * وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ

وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا * سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا *

الاستفهام فى قوله (مالكم) للانكار، واسم الاستفهام مبتدأ وما بعده خبره * والمعنى : أىّ شىء كائن (لكم فى المنافقين) أى فى أمرهم وشأنهم حال كونكم (فئتين) فى ذلك * وحاصله الانكار على المخاطبين، أن يكون لهم شىء يوجب اختلافهم فى شأن المنافقين، وقد اختلف النحويون فى انتصاب فئتين. فقال الأخفش والبصريون على الحال كقولك : مالك قائما. وقال الكوفيون انتصابه على أنه خبر لكان، وهى مضمرة، والتقدير فما لكم فى المنافقين كنتم فئتين * وسبب نزول الآية ماسيأتى وبه يتضح المعنى * وقوله (والله أركسهم) معناه ردّهم إلى الكفر (بما كسبوا)، وحكى الفراء والنضر بن شميل والكسائى أركسهم وركسهم، أى ردّهم الى الكفر ونكسهم فالركس والنكس قلب الشىء على رأسه، أوردّ أوّله الى آخره، والمنكوس المركوس، وفى قراءة عبدالله بن مسعود وأبىّ (والله ركسهم) ومنه قول عبدالله بن رواحة :

ارکسوا فى فئة مظلمة * كسواد الليل يتلوها فتن

والباء فى قوله (بما كسبوا) سببية، أى أركسهم بسبب كسبهم، وهو لحوقهم بدار الكفر، والاستفهام فى قوله (أتريدون أن تهدوا من أضلّ الله) للتقريع والتوبيخ، وفيه دليل على أن من أضله الله لاتنجع فيه هداية البشر - انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء - * قوله (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) أى طريقا الى الهداية * قوله (ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هؤلاء المنافقين، و إيضاح أنهم يودّون أن يكفر المؤمنون كما كفروا وتمنوا ذلك عنادا وغلوّا فى الكفر وتماديا فى الضلال، فالكاف فى قوله (كما) نعت مصدر محذوف، أى كفرا مثل كفرهم، أو حال كما روى عن سيبويه * قوله (فتكونون سواء) عطف على قوله (تكفرون) داخل فى حكمه، أى ودّوا كفركم ككفرهم، وودّوا مساواتكم لهم * قوله (فلا تتخذوا منهم أولياء) جواب شرط محذوف، أى اذا كان حالهم ماذكر فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا ويحققوا ايمانهم بالهجرة (فان تولوا) عن ذلك (فخذوهم) اذا قدرتم عليهم (واقتلوهم حيث وجدتموهم) فى الحلّ والحرم (ولا تتخذوا منهم وليا) توالونه (ولا نصيرا) تستنصرون به * قوله (الا الذين يصلون الى قوم بينكم و بينهم ميثاق) هو مستثنى من قوله (فخذوهم واقتلوهم) أى الا الذين يتصلون و يدخلون فى قوم بينكم و بينكم ميثاق بالجوار والحلف فلا تقتلوهم لما بينهم و بين من بينكم و بينهم عهد وميثاق فان العهد يشملهم، هذا أصح ماقيل فى معنى الآية، وقيل الاتصال هنا هو اتصال النسب * والمعنى الا الذين ينتسبون الى قوم بينكم و بينهم ميثاق. قاله أبو عبيدة. وقد أنكر ذلك أهل العلم عليه لأن النسب لايمنع من القتال بالاجماع فقد كان

بين

بين المسلمين و بين المشركين أنساب ولم يمنع ذلك من القتال * وقد اختلف فى هؤلاء القوم الذين كان بينهم و بين رسول الله ﷺ ميثاق ، فقيل هم قريش كان بينهم و بين النبى ﷺ ميثاق (والذين يصلون) إلى قريش هم بنو مدلج ، وقيل نزلت فى هلال بن عويمر وسراقة بن جعشم وخزيمة بن عامر ابن عبد مناف كان بينهم و بين النبى ﷺ عهد، وقيل خزاعة ، وقيل بنو بكر بن زيد * قوله (أو جاءوكم حصرت صدورهم) عطف على قوله (يصلون) داخل فى حكم الاستثناء ، أى الا الذين يصلون والذين جاءوكم ، و يجوز أن يكون عطفا على صفة قوم ، أى الا الذين يصلون الى قوم بينكم و بينهم ميثاق والذين يصلون الى قوم جاءوكم حصرت صدورهم أى ضاقت صدورهم عن القتال فأمسكوا عنه ، والحصر الضيق والانقباض . قال الفراء وهو أى حصرت صدورهم حال من المضمر المرفوع فى جاءوكم كما تقول جاء فلان ذهب عقله ، أى قد ذهب عقله . وقال الزجاج هو خبر بعد خبر ، أى جاءوكم ، ثم أخبر فقال (حصرت صدورهم) فعلى هذا يكون حصرت بدلا من جاءوكم ، وقيل حصرت فى موضع خفض على النعت لقوم ، وقيل التقدير أو جاءوكم رجال أو قوم حصرت صدورهم . وقرأ الحسن (أو جاءوكم حصرة صدورهم) نصبا على الحال . وقرئ حصرات وحاصرات ، وقال محمد بن يزيد المبرد : حصرت صدورهم هو دعاء عليهم كما تقول لعن الله الكافر ، وضعفه بعض المفسرين ، وقيل أو بمعنى الواو * وقوله (أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم) هو متعلق بقوله (حصرت صدورهم) أى حصرت صدورهم عن قتالكم والقتال معكم لقومهم ، فضاقت صدورهم عن قتال الطائفتين : وكرهوا ذلك (ولو شاء الله لسلطهم عليكم) ابتلاء منه لكم واختبارا كما قال سبحانه ـ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ـ أو تمحيصا لكم أو عقوبة بذنوبكم ، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك ، واللام فى قوله (فلقاتلوكم) جواب لو على تكرير الجواب ، أى لو شاء الله لسلطهم ولقاتلوكم. والفاء للتعقيب ، (فان اعتزلوكم) ولم يتعرضوا لقتالكم (وألقوا اليكم السلم) ، أى استسلموا لكم وانقادوا (فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) أى طريقا ، فلا يحل لكم قتلهم ولا أسرهم ولا نهب أموالهم فهذا الاستسلام يمنع من ذلك و يحرمه (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم و يأمنوا قومهم) فيظهرون لكم الاسلام و يظهرون لقومهم الكفر ليأمنوا من كلا الطائفتين ، وهم قوم من أهل تهامة طلبوا الأمان من رسول الله ﷺ ليأمنوا عنده وعند قومهم ، وقيل هى فى قوم من أهل مكة ، وقيل فى نعيم بن مسعود فانه كان يأمن المسلمين والمشركين ، وقيل فى قوم من المنافقين ، وقيل فى أسد وغطفان (كلما ردوا الى الفتنة) أى دعاهم قومهم اليها وطلبوا منهم قتال المسلمين (أركسوا فيها) أى قلبوا فيها فرجعوا الى قومهم وقاتلوا المسلمين ، ومعنى الارتكاس ، الانتكاس (فان لم يعتزلوكم) يعنى هؤلاء الذين يريدون أن يأمنوكم و يأمنوا قومهم (و يلقوا اليكم السلم) أى يستسلمون لكم و يدخلون فى عهدكم وصلحكم و ينسلخون عن قومهم (و يكفوا أيديهم) عن قتالكم (فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم) أى حيث وجدتموهم وتمكنتم منهم (وأولئكم) الموصوفون بتلك الصفات (جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) أى حجة واضحة تتسلطون بها عليهم وتقهرونهم بها بسبب مافى قلوبهم من المرض ومافى صدورهم من الدغل وارتكاسهم فى الفتنة بأيسر عمل وأقل سعى .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خرج الى أحد فرجع ناس خرجوا معه ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين ، فرقة تقول نقتلهم ، وفرقة تقول لا ، فأنزل الله (فما لكم فى المنافقين فئتين) الآية كلها ، فقال رسول الله ﷺ انها طيبة وانها تنفى الخبث كما تنفى النار خبث الفضة ، هذا أصح ماروى فى سبب نزول الآية ، وقد رويت أسباب غير ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (والله أركسهم) يقول أوقعهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال ردهم . وأخرج ابن

جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (الا الذين يصلون الى قوم بينكم و بينهم ميثاق) قال : نزلت في هلال بن عويمر وسراقة بن مالك المدلجي ، وفي بني خزيمة بن عامر بن عبد مناف . وأخرج أبوداود في ناسخه وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس والبيهقي في سننه عنه في قوله (الا الذين يصلون) الآية قال : نسختها براءة — فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم — . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدّي (حصرت صدورهم) يقول ضاقت صدورهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع (وألقوا اليكم السلم) قال : الصلح . وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (فان اعتزلوكم) الآية قال : نسختها — فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم — . وأخرج ابن جرير عن الحسن وعكرمة في هذه الآية قال : نسختها براءة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (ستجدون آخرين) الآية ، قال ناس من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء ، ثم يرجعون الى قومهم فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا ، فأمر بقتالهم ان لم يعتزلوا و يصالحوا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة أنهم ناس كانوا بتهامة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدّي أنها نزلت في نعيم ابن مسعود .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً *

قوله (وما كان لمؤمن) هذا النفي هو بمعنى النهي المقتضي للتحريم كقوله — وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله — ولو كان هذا النفي على معناه لكان خبراوهو يستلزم صدقه ، فلا يوجد مؤمن قتل مؤمنا قط ، وقيل المعنى ما كان له ذلك في عهد الله ، وقيل ما كان له ذلك فيما سلف كما ليس له الآن ذلك بوجه ، ثم استثنى منه استثناء منقطعا ، فقال الاخطأ ، أي ما كان له أن يقتله ألبتة ، لكن ان قتله خطأ فعليه كذا ، هذا قول سيبويه والزجاج ، وقيل هو استثناء متصل ، والمعنى وماثبت ولاوجد ولاساغ لمؤمن أن يقتل مؤمنا الاخطأ اذ هومغلوب حينئذ ، وقيل المعنى ولاخطأ ، قال النحاس : ولايعرف ذلك في كلام العرب ، ولايصح في المعنى ، لأن الخطأ لايحظر ، وقيل ان المعنى ماينبغي أن يقتله لعلة من العلل الا للخطأ وحده ، فيكون قوله خطأ منتصبا بأنه مفعول له ، ويجوز أن ينتصب على الحال ، والتقدير لايقتله في حال من الأحوال الا في حال الخطأ ، ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف ، أي الاقتلا خطأ ، ووجوه الخطأ كثيرة و يضبطها عدم القصد ، والخطأ الاسم من أخطأ خطأ اذا لم يتعمد * قوله (فتحرير رقبة مؤمنة) أي فعليه تحرير رقبة مؤمنة يعتقها كفارة عن قتل الخطأ ، وعبر بالرقبة عن جميع الذات .

واختلف العلماء في تفسير الرقبة المؤمنة ، فقيل هي التي صلت وعقلت الايمان فلاتجزئ الصغيرة ، و به قال ابن عباس والحسن والشعبي والنخعي وقتادة وغيرهم ، وقال عطاء بن أبي رباح انها تجزئ الصغيرة المولودة بين مسلمين ، وقال جماعة منهم مالك والشافعي يجزئ كل من حكم له بوجوب الصلاة عليه ان مات ولايجزئ

فى قول جمهور العلماء أعمى ولامقعد ولا أشل ويجزئ عند الأكثر الأعرج والأعور ، قال مالك ، الا أن يكون عرجا شديدا ، ولايجزئ عند أكثرهم المجنون ، وفى المقام تفاصيل طويلة مذكورة فى علم الفروع * قوله (ودية مسلمة الى أهله) الدية ماتعطى عوضا عن دم المقتول الى ورثته ، والمسلمة المدفوعة المؤداة ، والأهل المراد بهم الورثة ، وأجناس الدية وتفاصيلها قد بينتها السنة المطهرة * قوله (الا أن يصدّقوا) أى الا أن يتصدّق أهل المقتول على القاتل بالدية ، سمى العفو عنها صدقة ترغيبا فيه . وقرأ أبىّ الا يتصدّقوا ، وهذه الجملة المستثناة متعلقة بقوله (فدية مسلمة) أى فعليه دية مسلمة الا أن يقع العفو من الورثة عنها * قوله (فان كان من قوم عدوّلكم) أى فان كان المقتول من قوم عدوّلكم وهم الكفار الحربيون ، وهذه مسئلة المؤمن الذى يقتله المسلمون فى بلاد الكفار الذين كان منهم ، ثم أسلم ولم يهاجر وهم يظنون أنه لم يسلم وأنه باق على دين قومه فلا دية على قاتله بل عليه تحرير رقبة مؤمنة * واختلفوا فى وجه سقوط الدية : فقيل وجهه أن أولياء القتيل كفار لاحق لهم فى الدية . وقيل وجهه أن هذا الذى آمن ولم يهاجر حرمته قليلة لقول الله تعالى – والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء – وقال بعض أهل العلم ان ديته واجبة لبيت المال * قوله (وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى مؤقت أو مؤبد . وقرأ الحسن (وهو مؤمن فدية مسلمة الى أهله) أى فعلى قاتله دية مؤداة الى أهله من أهل الاسلام وهم ورثته (وتحرير رقبة مؤمنة) كما تقدم (فمن لم يجد) أى الرقبة ولا اتسع ماله لشرائها (فصيام شهرين متتابعين) أى فعليه صيام شهرين متتابعين لم يفصل بين يومين من أيام صومهما إفطار فى نهار ، فلو أفطر استأنف ، هذا قول الجمهور ، وأما الافطار لعذر شرعى كالحيض ونحوه فلا يوجب الاستئناف ، واختلف فى الافطار لعروض المرض * قوله (توبة من الله) منصوب على أنه مفعول له : أى شرع ذلك لكم توبة . أى قبولا لتوبتكم ، أو منصوب على المصدرية . أى تاب عليكم توبة . وقيل منصوب على الحال . أى حال كونه ذا توبة كائنة من الله * (قوله ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم) لما بين سبحانه حكم القاتل خطأ بين حكم القاتل عمدا .

وقد اختلف العلماء فى معنى العمد فقال عطاء والنخعى وغيرهما هو القتل بحديدة كالسيف والخنجر ، وسنان الرمح ونحو ذلك من المحدّد ، أو بما يعلم أن فيه الموت من ثقال الحجارة ونحوها ، وقال الجمهور : انه كل قتل من قاتل قاصد للفعل بحديدة أو بحجر أو بعصى أو بغير ذلك ، وقيده بعض أهل العلم بأن يكون بما يقتل مثله فى العادة . وقد ذهب بعض أهل العلم الى أن القتل ينقسم الى ثلاثة أقسام عمد وشبه عمد وخطأ ، واستدلوا على ذلك بأدلة ليس هذا مقام بسطها . وذهب آخرون الى أنه ينقسم الى قسمين عمد وخطأ ولا ثالث لهما ، واستدلوا بأنه ليس فى القرآن الا القسمان ، ويجاب عن ذلك بأن اقتصار القرآن على القسمين لا ينفى ثبوت قسم ثالث بالسنة ، وقد ثبت ذلك فى السنة * وقد جاءت هذه الآية بتغليظ عقوبة القاتل عمدا فجمع الله له فيها بين كون جهنم جزاء له : أى يستحقها بسبب هذا الذنب وبين كونه خالدا فيها وبين غضب الله عليه ولعنته له وإعداده له عذابا عظيما . وليس وراء هذا التشديد تشديد ولا مثل هذا الوعيد وعيد ، وانتصاب خالدا على الحال * وقوله (وغضب الله عليه) معطوف على مقدّر ، يدل عليه السياق أى جعل جزاءه جهنم أو حكم عليه أو جازاه وغضب عليه وأعدّ له .

وقد اختلف العلماء هل لقاتل العمد من توبة أم لا توبة له ؟ فروى البخارى عن سعيد بن جبير قال : اختلف فيها علماء أهل الكوفة فرحلت فيها الى ابن عباس فسألته عنها فقال : نزلت هذه الآية (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) وهى آخر ما نزل وما نسخها شىء ، وقد روى النسائى عنه نحو هذا . وروى النسائى

عن زيد بن ثابت نحوه ، وممن ذهب الى أنه لاتوبة له من السلف أبو هريرة وعبد الله بن عمرو وأبوسلمة وعبيد بن عمير والحسن وقتادة والضحاك بن مزاحم ، نقله ابن أبى حاتم عنهم . وذهب الجمهور الى أن التوبة منه مقبولة ، واستدلوا بمثل قوله تعالى ـ ان الحسنات يذهبن السيئات وقوله ـ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ـ * وقوله ـ ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ـ ، قالوا أيضا : والجمع ممكن بين آية النساء هذه وآية الفرقان فيكون معناهما فجزاؤه جهنم إلا من تاب ، لاسيما وقد اتحد السبب وهو القتل ، والموجب وهو التوعد بالعقاب . واستدلوا أيضا بالحديث المذكور فى الصحيحين عن عبادة ابن الصامت أنه ﷺ قال « بايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ثم قال فمن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو إلى الله ان شاء عفا عنه وان شاء عذبه » وبحديث أبى هريرة الذى أخرجه مسلم فى صحيحه وغيره فى الذى قتل مائة نفس ، وذهب جماعة منهم أبوحنيفة وأصحابه والشافعى الى أن القاتل عمدا داخل تحت المشيئة تاب أولم يتب .

وقد أوضحت فى شرحى على المنتقى متمسك كل فريق * والحق أن باب التوبة لم يغلق دون كل عاص بل هومفتوح لكل من قصده ورام الدخول منه ، واذا كان الشرك وهوأعظم الذنوب ، وأشدّها تمحوه التوبة الى الله ويقبل من صاحبه الخروج منه والدخول فى باب التوبة ، فكيف بمادونه من المعاصى التى من جملتها القتل عمدا ، لكن لابدّ فى توبة قاتل العمد من الاعتراف بالقتل وتسليم نفسه للقصاص ان كان واجبا أو تسليم الدية إن لم يكن القصاص واجبا وكان القاتل غنيا متمكنا من تسليمها أو بعضها ، وأمامجرد التوبة من القاتل عمدا وعزمه على أن لايعود إلى قتل أحد من دون اعتراف ولاتسليم نفس فنحن لانقطع بقبولها ، والله أرحم الراحمين ، هوالذى يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ) يقول ما كان له ذلك فيما أتاه من ربه من عهد الله الذى عهد اليه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وما كان لمؤمن) الآية . قال ان عياش بن أبى ربيعة قتل رجلا مؤمنا كان يعذبه هو وأبو جهل وهو أخوه لأمه فى اتباع النبى ﷺ وعياش يحسب أن ذلك الرجل كافر ، وأوضح من هذا السياق ماأخرجه ابن جرير عن عكرمة : قال كان الحارث بن يزيد من بنى عامر بن لؤى يعذب عياش بن أبى ربيعة مع أبى جهل ، ثم خرج مهاجرا إلى النبى ﷺ يعنى الحارث فلقيه عياش بالحرّة فعلاه بالسيف وهو يحسب أنه كافر ، ثم جاء إلى النبى ﷺ فأخبره ، فنزلت (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ) الآية فقرأها النبى ﷺ عليه ثم قال له قم فحرّر . وأخرجه ابن جرير وابن المنذر عن السدّى بأطول من هذا . وقد روى من طرق غير هذه . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد : قال نزلت فى رجل قتله أبو الدرداء كان فى سرية فعدل أبوالدرداء الى شعب يريد حاجة له ، فوجد رجلا من القوم فى غنم فحمل عليه بالسيف فقال لا إله إلا الله فضربه . وأخرج ابن منده وأبو نعيم نحو ذلك ، ولكن فيه أن الذى قتل المتعوّذ بكلمة الشهادة هو بكر بن حارثة الجهنى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فتحرير رقبة مؤمنة) قال يعنى بالمؤمنة من قد عقل الايمان وصلى ، وكل رقبة فى القرآن لم تسمّ مؤمنة ، فانه يجوز المولود فمافوقه ممن ليس به زمانة ، وفى قوله (ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدّقوا) قال عليه الدية مسلمة الا أن يتصدّق بها عليه . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد عن قتادة : قال فى حرف أبىّ (فتحرير رقبةٍ مؤمنة لايجزىء فيها صبىّ) . وأخرج عبدبن حميد وأبو داود والبيهقى عن أبى هريرة أن رجلا أتى النبى ﷺ بجارية سوداء فقال يارسول الله إن علىّ

عتق رقبة مؤمنة : فقال لها أين الله ؟ فأشارت إلى السماء بأصبعها : فقال لها فمن أنا ؟ فأشارت إلى رسول الله ﷺ والى السماء ، أى أنت رسول الله : فقال أعتقها فانها مؤمنة . وقد روى من طرق وهو فى صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمى . وقد وردت أحاديث فى تقدير الدية ، وفى الفرق بين دية الخطأ ودية شبه العمد ، ودية المسلم ، ودية الكافر ، وهى معروفة فلا حاجة لنا فى ذكرها فى هذا الموضع . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن ابراهيم النخعى فى قوله (ودية مسلمة الى أهله) قال هذا المسلم الذى ورثته مسلمون (فان كان من قوم عدوّ لكم وهو مؤمن) قال هذا الرجل المسلم وقومه مشركون وليس بينهم و بين رسول الله عقد (وان كان من قوم بينكم و بينهم ميثاق) قال هذا الرجل المسلم وقومه مشركون و بينهم و بين رسول الله ﷺ عقد فيقتل فيكون ميراثه للمسلمين وتكون ديته لقومه ، لأنهم يعقلون عنه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (فان كان من قوم عدوّ لكم وهو مؤمن) يقول فان كان فى أهل الحرب وهو مؤمن فقتله خطأ فعلى قاتله أن يكفر بتحرير رقبة مؤمنة ، أوصيام شهرين متتابعين ولا دية عليه ، وفى قوله (وان كان من قوم بينكم و بينهم ميثاق) يقول اذا كان كافرا فى ذمتكم فقتل فعلى قاتله الدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طريق عطاء بن السائب عن أبى عياض قال كان الرجل يجىء فيسلم ، ثم يأتى قومه وهم مشركون فيقيم فيهم فتغزوهم جيوش النبى ﷺ فيقتل الرجل فيمن يقتل ، فأنزل الله هذه الآية (وان كان من قوم عدوّ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) وليست له دية . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه من طريق عطاء بن السائب عن أبى يحي عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (توبة من الله) يعنى تجاوزا من الله لهذه الأمة حيث جعل فى قتل الخطأ الكفارة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة أن رجلا من الأنصار قتل أخا مقيس بن صبابة فأعطاه النبى ﷺ الدية فقبلها ، ثم وثب على قاتل أخيه ، وفيه نزلت الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه ، وفيه أن مقيس بن صبابة لحق بمكة بعد ذلك وارتدّ عن الاسلام . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : قال نزلت هذه الآية (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) بعد التى فى سورة الفرقان بثمان سنين وهى قوله — والذين لايدعون مع الله إلها آخر — إلى قوله — غفورا رحيما — . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن زيد بن ثابت أن قوله (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) نزلت بعد قوله — والذين لايدعون مع الله إلها آخر — بستة أشهر . وأخرج ابن المنذر عنه : قال نزلت هذه الآية التى فى النساء بعد قوله — و يغفر مادون ذلك لمن يشاء — بأربعة أشهر ، والآثار عن الصحابة فى هذا كثيرة جدّا ، والحق ما عرّفناك .

يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا *

هذا متصل بذكر الجهاد والقتال ، والضرب السير فى الأرض ، تقول العرب ضربت فى الأرض : اذا سرت لتجارة أوغزو أوغيرهما ، وتقول ضربت الأرض بدون فى : اذا قصدت قضاء حاجة الانسان ، ومنه قوله ﷺ « لايخرج الرجلان يضربان الغائط » * قوله (فتبينوا) من التبين وهو التأمل ،

وهى قراءة الجماعة الا حمزة فانه قرأ فتثبتوا من التثبت ، واختار القراءة الأولى أبو عبيدة وأبو حاتم قالا لأن من أمر بالتبين فقد أمر بالتثبت ، وانما خص السفر بالأمر بالتبين ، مع أن التبين والتثبت فى أمر القتل واجبان حضرا وسفرا بلا خلاف ، لأن الحادثة التى هى سبب نزول الآية كانت فى السفر كما سيأتى * قوله (ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلم) وقرئ السلام ، ومعناهما واحد ، واختار أبو عبيدة السلام ، وخالفه أهل النظر فقالوا السلم هنا أشبه ، لأنه بمعنى الانقياد والتسليم * والمراد هنا لاتقولوا لمن ألقى بيده اليكم واستسلم لست مؤمنا ، فالسلم والسلام كلاهما بمعنى الاستسلام ، وقيل هما بمعنى الاسلام ، أى لاتقولوا لمن ألقى اليكم الاسلام أى كلمته وهى الشهادة لست مؤمنا ، وقيل هما بمعنى التسليم الذى هو تحية أهل الاسلام ، أى لاتقولوا لمن ألقى اليكم التسليم فقال السلام عليكم : لست مؤمنا * والمراد نهى المسلمين عن أن يهملوا ماجاء به الكافر مما يستدل به على إسلامه ، ويقولوا انه انما جاء بذلك تعوّذا وتقية ، وقرأ أبو جعفر (لست مؤمّنا) من أمنته : اذا أجرته فهو مؤمّن .

وقد استدل بهذه الآية على أن من قتل كافرا بعد أن قال لا إله إلا الله قتل به ، لأنه قد عصم بهذه الكلمة دمه وماله وأهله ، وانما سقط القتل عمن وقع منه ذلك فى زمن النبى ﷺ لأنهم تأوّلوا وظنوا أن من قالها خوفا من السلاح لا يكون مسلما ولا يصير بها دمه معصوما ، وأنه لابدّ من أن يقول هذه الكلمة وهو مطمئن غير خائف ، وفى حكم التكلم بكلمة الاسلام إظهار الانقياد بأن يقول أنا مسلم أو أنا على دينكم ، لما عرفت من أن معنى الآية الاستسلام والانقياد ، وهو يحصل بكل مايشعر بالاسلام من قول أو فعل ، ومن جملة ذلك كلمة الشهادة وكلمة التسليم ، فالقولان الآخران فى معنى الآية داخلان تحت القول الأول * قوله (تبتغون عرض الحياة الدنيا) الجملة فى محل نصب على الحال ، أى لاتقولوا تلك المقالة طالبين الغنيمة ، على أن يكون النهى راجعا الى القيد والمقيد لا إلى القيد فقط ، وسمى متاع الدنيا عرضا لأنه عارض زائل غير ثابت . قال أبو عبيدة يقال جميع متاع الدنيا عرض بفتح الراء ، وأما العرض بسكون الراء فهو ماسوى الدنانير والدراهم ، فكل عرض بالسكون عرض بالفتح ، وليس كل عرض بالفتح عرضا بالسكون ، وفى كتاب العين : العرض : مانيل من الدنيا ، ومنه قوله تعالى ــ تريدون عرض الدنيا ــ وجمعه عروض ، وفى المجمل لابن فارس والعرض : مايعترض للانسان من مرض ونحوه ، وعرض الدنيا ما كان فيها من مال قلّ أو كثر ، والعرض من الأثاث : ما كان غير نقد * قوله (فعند الله مغانم كثيرة) هو تعليل للنهى ، أى عند الله مما هو حلال لكم من دون ارتكاب محظور مغانم كثيرة تغتنمونها وتستغنون بها عن قتل من قد استسلم وانقاد ، واغتنام ماله (كذلك كنتم من قبل) أى كنتم كفارا ، فحقنت دماؤكم لما تكلمتم بكلمة الشهادة ، أو كذلك كنتم من قبل تخفون إيمانكم عن قومكم خوفا على أنفسكم حتى منّ الله عليكم باعزاز دينه فأظهرتم الايمان وأعلنتم به ، وكرر الأمر بالتبين للتأكيد عليهم لكونه واجبا لافسحة فيه ولا رخصة .

وقد أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : لحق ناس من المسلمين رجلا معه غنيمة له ، فقال السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته ، فنزلت (يأيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا) الآية . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وحسنه وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : مرّ رجل من بنى سليم بنفر من أصحاب رسول الله ﷺ وهو يسوق غنما له فسلم عليهم ، فقالوا ماسلم علينا الا ليتعوّذ منا فعدوا اليه فقتلوه وأتوا بغنمه الى النبى ﷺ فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين اذا ضربتم فى سبيل الله) وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وابن جرير وابن المنذر

وابن

وابن أبى حاتم والطبرانى وأبونعيم والبيهقى عن عبدالله بن أبى حدرد الأسلمى قال بعثنا رسول الله ﷺ الى إضم فخرجت فى نفر من المسلمين فيهم أبوقتادة الحرث بن ربعى ومحلم بن جثامة بن قيس الليثى، فخرجنا حتى اذا كنا ببطن إضم مرّ بنا عامر بن الأضبط الأشجعى على قعود له معه متيع ووطب من لبن، فلما مرّ بنا سلم علينا بتحية الاسلام فأمسكنا عنه وحمل عليه محلم بن جثامة لشىء كان بينه و بينه فقتله وأخذ بعيره ومتيعه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر نزل فينا القرآن (ياأيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا) الآية، وفى لفظ عند ابن اسحق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من حديث أبى حدرد هذا أن النبى ﷺ قال لمحلم أقتلته بعد ماقال آمنت بالله؟ فنزل القرآن. وأخرج ابن جرير من حديث ابن عمر أن محلما جلس بين يدى النبى ﷺ ليستغفر له فقال لا غفر الله لك فقام وهو يتلقى دموعه ببرديه، فما مضت به ساعة حتى مات ودفنوه فلفظته الأرض فجاءوا الى النبى ﷺ فذكروا ذلك له، فقال ان الأرض تقبل من هو شرّ من صاحبكم، ولكن الله أراد أن يعظكم، ثم طرحوه فى جبل وألقوا عليه الحجارة فنزلت (يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم) الآية. وأخرج البزار والدارقطنى فى الافراد والطبرانى والضياء فى المختارة عن ابن عباس أن سبب نزول الآية أن المقداد بن الأسود قتل رجلا بعد ماقال لا إله إلا الله، وفى سبب النزول روايات كثيرة، وهذا الذى ذكرناه أحسنها. وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (كذلك كنتم من قبل) قال تستخفون بإيمانكم كما استخفى هذا الراعى بإيمانه يعنى الذين قتلوه بعد أن ألقى اليهم السلام، وفى لفظ تكتمون إيمانكم من المشركين (فمنّ الله عليكم) فأظهر الاسلام فأعلنتم إيمانكم (فتبينوا) قال وعيد من الله ثان. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله (كذلك كنتم من قبل) قال كنتم كفارا حتى منّ الله عليكم بالاسلام وهداكم له.

لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا *

التفاوت بين درجات من قعد عن الجهاد من غير عذر، ودرجات من جاهد فى سبيل الله بماله ونفسه. وان كان معلوما لكن أراد سبحانه بهذا الاخبار تنشيط المجاهدين ليرغبوا وتبكيت القاعدين ليأنفوا * قوله (غير أولى الضرر) قرأ أهل الكوفة وأبو عمرو بالرفع على أنه وصف للقاعدين كما قال الأخفش لأنهم لا يقصد بهم قوم بأعيانهم فصاروا كالنكرة فجاز وصفهم بغير. وقرأ أبو حيوة بكسر الراء على أنه وصف للمؤمنين وقرأ أهل الحرمين بفتح الراء على الاستثناء من القاعدين أو من المؤمنين: أى الا أولى الضرر فانهم يستوون مع المجاهدين، ويجوز أن يكون منتصبا على الحال من القاعدين. أى لا يستوى القاعدون الأصحاء فى حال صحتهم، وجازت الحال منهم، لأن لفظهم لفظ المعرفة. قال العلماء أهل الضرر هم أهل الأعذار لأنها أضرت بهم حتى منعتهم عن الجهاد، وظاهر النظم القرآنى أن صاحب العذر يعطى مثل أجر المجاهد، وقيل يعطى أجره من غير تضعيف فيفضله المجاهد بالتضعيف لأجل المباشرة، قال القرطبى: والأول أصح ان شاء الله للحديث الصحيح فى ذلك «ان بالمدينة رجالا ماقطعتم واديا ولا سرتم مسيرا إلا كانوا معكم أولئك قوم حبسهم العذر». قال وفى هذا المعنى ماورد فى الخبر «اذا مرض العبد قال الله تعالى اكتبوا لعبدى ما كان يعمله فى

الصحة إلى أن يبرأ أو أقبضه إلىّ » * قوله (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) هذا بيان لما بين الفريقين من التفاضل المفهوم من ذكر عدم الاستواء اجمالا ، والمراد هنا غير أولى الضرر حملا للمطلق على المقيد ، وقال هنا (درجة) ، وقال فيما بعد (درجات) فقال قوم التفضيل بالدرجة ثم بالدرجات انما هو مبالغة و بيان وتأكيد . وقال آخرون فضل الله المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر بدرجة واحدة وفضل الله المجاهدين على القاعدين من غير أولى الضرر بدرجات ، قاله ابن جريج والسدّى ، وغيرهما ، وقيل ان معنى درجة علوّا ، أى أعلى ذكرهم ورفعهم بالثناء والمدح ، ودرجة منتصبة على التميز أو المصدرية لوقوعها موقع المرة من التفضيل ، أى فضل الله تفضيله أو على نزع الخافض أو على الحالية من المجاهدين أى ذوى درجة * قوله (وكلا) مفعول أوّل لقوله (وعد الله) قدّم عليه لأفادته القصر ، أى كل واحد من المجاهدين والقاعدين وعده الله الحسنى ، أى المثوبة ، وهى الجنة * قوله (أجرا) هو منتصب على التميز ، وقيل على المصدرية ، لأن فضل بمعنى آجر : فالتقدير آجرهم أجرا ، وقيل مفعول ثان لفضل لتضمنه معنى الاعطاء ، وقيل منصوب بنزع الخافض ، وقيل على الحال من درجات مقدّم عليها ، وأما انتصاب درجات ومغفرة ورحمة : فهى بدل من أجرا ، وقيل ان مغفرة ورحمة ناصبهما أفعال مقدّرة ، أى غفر لهم مغفرة ورحمهم رحمة .

وقد أخرج البخارى وأحمد وأبوداود والترمذى والنسائى وغيرهم عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى عليه لايستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله ، فجاء ابن أم مكتوم وهو يمليها علىّ فقال يارسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت ، وكان أعمى ، فأنزل الله على رسوله ﷺ ونفذه على فخذى (غير أولى الضرر) . وقد أخرج هذا المعنى عبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم من حديث البراء . وأخرجه أيضا سعيد بن منصور وأحمد وأبو داود وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه من حديث خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه . وأخرج الترمذى وحسنه والنسائى وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال (لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر) عن بدر والخارجون الى بدر وأخرجه عنه أيضا عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر . وأخرج عبد بن حميد والطبرانى والبيهقى عنه قال : نزلت فى قوم كانت تشغلهم أمراض وأوجاع ، فأنزل الله عذرهم من السماء . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن أنس بن مالك قال : نزلت هذه الآية فى ابن أم مكتوم ، ولقد رأيته فى بعض مشاهد المسلمين معه اللواء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) قال على أهل الضرر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (وكلا وعد الله الحسنى) قال : الجنة . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : كان يقال الاسلام درجة ، والهجرة درجة فى الاسلام ، والجهاد فى الهجرة درجة ، والقتل فى الجهاد درجة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن محيريز فى قوله (درجات) قال الدرجات سبعون درجة ما بين الدرجتين عدو الفرس الجواد المضمر سبعين سنة . وأخرج نحوه عبد الرزاق فى المصنف عن أبى مجلز . وأخرج البخارى والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « ان فى الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين فى سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فاذا سألتم الله فسلوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلا الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة »

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ

قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولٰئِكَ مَأْوٰيهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولٰئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا * وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا *

قوله (توفاهم) يحتمل أن يكون فعلا ماضيا وحذفت منه علامة التأنيث ، لأن تأنيث الملائكة غير حقيق ، ويحتمل أن يكون مستقبلا ، والأصل تتوفاهم ، فحذفت إحدى التاءين * وحكى ابن فورك عن الحسن أن المعنى تحشرهم الى النار ، وقيل تقبض أرواحهم وهو الأظهر ، والمراد بالملائكة ملائكة الموت لقوله تعالى ــ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ــ * وقوله (ظالمى أنفسهم) حال ، أى فى حال ظلمهم أنفسهم ، وقول الملائكة (فيم كنتم) سؤال توبيخ ، أى فى أىّ شىء كنتم من أمور دينكم ؟ وقيل المعنى أكنتم فى أصحاب النبي ﷺ أم كنتم مشركين ، وقيل ان معنى السؤال التقريع لهم بأنهم لم يكونوا فى شيء من الدين * وقولهم (كنا مستضعفين فى الأرض) يعنى مكة ، لأن سبب النزول من أسلم بها ولم يهاجر كما سيأتى ، ثم أوقفتهم الملائكة على دينهم وألزمتهم الحجة وقطعت معذرتهم فقالوا (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) قيل المراد بهذه الأرض المدينة ، والأولى العموم اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو الحق ، فيراد بالأرض كل بقعة من بقاع الأرض تصلح للهجرة اليها ، ويراد بالأرض الأولى كل أرض ينبغى الهجرة منها * قوله (مأواهم جهنم) هذه الجملة خبر لأولئك ، والجملة خبر ان فى قوله (ان الذين توفاهم الملائكة) ودخول الفاء لتضمن اسم ان معنى الشرط (وساءت) أى جهنم (مصيرا) أى مكانا يصيرون اليه * قوله (الا المستضعفين) هو استثناء من الضمير فى مأواهم ، وقيل هو استثناء منقطع لعدم دخول المستضعفين فى الموصول وضميره * وقوله (من الرجال والنساء والولدان) متعلق بمحذوف ، أى كائنين منهم ، والمراد بالمستضعفين من الرجال الزمنى ونحوهم والولدان كعياش بن أبى ربيعة وسلمة بن هشام ، وانما ذكر الولدان مع عدم التكليف لهم لقصد المبالغة فى أمر الهجرة ، وايهام أنها تجب لو استطاعها غير المكلف ، فكيف من كان مكلفا ، وقيل أراد بالولدان المراهقين والمماليك * قوله (لا يستطيعون حيلة) صفة للمستضعفين أو للرجال والنساء والولدان ، أو حال من الضمير فى المستضعفين ، قيل الحيلة لفظ عام لأنواع أسباب التخلص ، أى لا يجدون حيلة ولا طريقا الى ذلك ، وقيل السبيل : سبيل المدينة (فأولئك) اشارة الى المستضعفين الموصوفين بما ذكر (عسى الله أن يعفو عنهم) وجىء بكلمة الاطماع لتأكيد أمر الهجرة ، حتى يظن أن تركها ممن لا تجب عليه يكون ذنبا يجب طلب العفو عنه * قوله (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغما كثيرا وسعة) هذه الجملة متضمنة للترغيب فى الهجرة والتنشيط اليها * وقوله (فى سبيل الله) فيه دليل على أن الهجرة لا بدّ أن تكون بقصد صحيح ونية خالصة غير مشوبة بشىء من أمور الدنيا ، ومنه الحديث الصحيح «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» .

وقد اختلف فى معنى قوله سبحانه (يجد فى الأرض مراغما) فقال ابن عباس وجماعة من التابعين ومن بعدهم المراغم : المتحوّل والمذهب . وقال مجاهد المراغم : المتزحزح . وقال ابن زيد المراغم : المهاجر ،

و به قال أبو عبيدة . قال النحاس فهذه الأقوال متفقة المعانى ، فالمراغم : المذهب والمتحوّل ، وهو الموضع الذى يراغم فيه ، وهومشتق من الرغام وهوالتراب ، ورغم أنف فلان ، أى لصق بالتراب ، وراغمت فلانا : هجرته وعاديته ولم أبال أن رغم أنفه ، وقيل انما سمى مهاجرا ومراغما ، لأن الرجل كان إذا أسلم عادى قومه وهجرهم ، فسمى خروجه مراغما ، وسمى مسيره إلى النبى ﷺ هجرة * والحاصل فى معنى الآية أن المهاجر يجد فى الأرض مكانا يسكن فيه على رغم أنف قومه الذين هاجرهم ، أى على ذلهم وهوانهم * قوله (وسعة) أى فى البلاد ، وقيل فى الرزق ، ولا مانع من حمل السعة على ماهو أعمّ من ذلك * قوله (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) قرئ يدركه بالجزم على أنه معطوف على فعل الشرط ، و بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، و بالنصب على إضمار أن * والمعنى أن من أدركه الموت قبل أن يصل إلى مطلوبه وهو المكان الذى قصد الهجرة إليه أوالأمر الذى قصد الهجرة له (فقدوقع أجره على الله) أى ثبت ذلك عنده ثبوتا لايتخلف (وكان الله غفورا) أى كثير المغفرة (رحيما) أى كثير الرحمة . وقد استدلّ بهذه الآية على أن الهجرة واجبة على كل من كان بدار الشرك أو بدار يعمل فيها بمعاصى الله جهارا إذا كان قادرا على الهجرة ولم يكن من المستضعفين لما فى هذه الآية الكريمة من العموم وان كان السبب خاصا كما تقدّم * وظاهرها عدم الفرق بين مكان ومكان ، وزمان وزمان . وقد ورد فى الهجرة أحاديث ، وورد مايدلّ على أنه لاهجرة بعد الفتح * وقد أوضحنا ماهو الحق فى شرحنا على المنتقى فليرجع إليه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس : قال كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالاسلام فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر فأصيب بعضهم وقتل البعض . فقال المسلمون قدكان أصحابناهؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم ، فنزلت فيهم هذه الآية (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) قال : فكتب إلى من بقى بمكة من المسلمين بهذه الآية ، وأنه لاعذر لهم فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة ، فنزلت فيهم هذه الآية — ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله — إلى آخر الآية ، فكتب المسلمون اليهم بذلك فحزنوا وأيسوا من كل خير ، فنزلت فيهم — ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم — فكتبوا اليهم بذلك ان الله قد جعل لكم مخرجا فاخرجوا فخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا ، وقتل من قتل . وقد أخرجه البخارى وغيره عنه مقتصرا على أوّله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله (ان الذين توفاهم الملائكة) الى قوله (وساءت مصيرا) قال نزلت فى قيس بن الفاكه بن المغيرة والحارث بن ربيعة بن الأسود وقيس بن الوليد بن المغيرة وأبى العاص ابن منبه بن الحجاج وعلى بن أمية بن خلف . قال لما خرج المشركون من قريش وأتباعهم لمنع أبى سفيان ابن حرب وعير قريش من رسول الله ﷺ وأصحابه وأن يطلبوا مانيل منهم يوم نخلة خرجوا معهم بشباب كارهين كانوا قد أسلموا واجتمعوا ببدر على غير موعد فقتلوا ببدر كفارا ورجعوا عن الاسلام وهم هؤلاء الذين سميناهم . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن اسحق . وقد روى نحو هذا من طرق . وقد أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس أنه تلا هذه الآية (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان) فقال : كنت أنا وأمى من المستضعفين أنا من الولدان وأمى من النساء . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله (لايستطيعون حيلة) قال قوّة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله (لايستطيعون حيلة) قال : نهوضا إلى المدينة (ولا

يهتدون سبيلا) قال طريقا إلى المدينة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (مراغما كثيرا وسعة) قال المراغم : المتحوّل من أرض إلى أرض * والسعة : الرزق . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد (مراغما) قال : متزحزحا عما يكره . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله (وسعة) قال ورخاء . وأخرج أيضا عن مالك : قال سعة البلاد . وأخرج أبو يعلى وابن أبى حاتم والطبرانى . قال السيوطى بسند رجاله ثقات عن ابن عباس : قال خرج ضمرة بن جندب من بيته مهاجرا فقال لقومه احملونى فأخرجونى من أرض الشرك إلى رسول الله ﷺ فمات فى الطريق قبل أن يصل إلى النبى ﷺ فنزل الوحى (ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من وجه آخر عنه نحوه . وأخرج ابن سعد وأحمد والحاكم وصححه عن عبد الله بن عتيك قال سمعت النبى ﷺ يقول « من خرج من بيته مجاهدا فى سبيل الله ، وأين المجاهدون فى سبيل الله ؟ فخرّ عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله يعنى بحتف أنفه على فراشه والله انها لكلمة ماسمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ ومن قتل قعصاء فقد استوجب الجنة » . وأخرج أبو يعلى والبيهقى فى شعب الايمان عن أبى هريرة : قال قال رسول الله ﷺ « من خرج حاجا فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة ، ومن خرج معتمرا فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة ، ومن خرج غازيا فى سبيل الله فمات كتب له أجر الغازى إلى يوم القيامة » . قال ابن كثير وهذا حديث غريب من هذا الوجه .

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا * وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا *

قوله (وإذا ضربتم) قد تقدّم تفسير الضرب فى الأرض قريبا * قوله (فليس عليكم جناح) فيه دليل على أن القصر ليس بواجب ، وإليه ذهب الجمهور ، وذهب الأقلون إلى أنه واجب ، ومنهم عمر ابن عبد العزيز والكوفيون والقاضى إسماعيل وحماد بن أبى سليمان ، وهو مروىّ عن مالك ، واستدلوا بحديث عائشة الثابت فى الصحيح « فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فزيدت فى الحضر وأقرّت فى السفر » ولايقدح فى ذلك مخالفتها لما روت ، فالعمل على الرواية الثابتة عن رسول الله ﷺ ومثله حديث يعلى ابن أمية . قال سألت عمر بن الخطاب : قلت (ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) وقد أمن الناس فقال لى عمر عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال صدقة تصدّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته . أخرجه أحمد ومسلم وأهل السنن * وظاهر قوله

فاقبلوا صدقته أن القصر واجب * قوله (ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) ظاهرهذا الشرط أن القصر لايجوز فى السفر الا مع خوف الفتنة من الكافرين لامع الأمن ولكنه قد تقرّر بالسنة أن النبى ﷺ قصر مع الأمن كما عرفت ، فالقصر مع الخوف ثابت بالكتاب ، والقصر مع الأمن ثابت بالسنة ، ومفهوم الشرط لايقوى على معارضة ماتواتر عنه ﷺ من القصر مع الأمن . وقد قيل ان هذا الشرط خرّج مخرج الغالب ، لأن الغالب على المسلمين إذ ذاك القصر للخوف فى الأسفار ، ولهذا قال يعلى بن أمية لعمر ماقال كما تقدّم ، وفى قراءة أبىّ (أن تقصروا من الصلاة أن يفتنكم الذين كفروا) بسقوط (ان خفتم) * والمعنى على هذه القراءة كراهة أن يفتنكم الذين كفروا . وذهب جماعة من أهل العلم الى أن هذه الآية انما هى مبيحة للقصر فى السفر للخائف من العدوّ ، فمن كان آمنا فلا قصر له ، وذهب آخرون الى أن قوله (ان خفتم) ليس متصلا بما قبله وأن الكلام تمّ عند قوله (من الصلاة) ثم افتتح فقال (ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) فأقم لهم يامحمد صلاة الخوف * وقوله (ان الكافرين كانوا لكم عدوّا مبينا) معترض ، ذكر معنى هذا الجرجانى والمهدوى وغيرهما وردّه القشيرى والقاضى أبو بكر بن العربى وقد حكى القرطبى عن ابن عباس معنى ماذكره الجرجانى ومن معه ، ومما يردّ هذا و يدفعه الواو فى قوله (واذا كنت فيهم) . وقد تكلف بعض المفسرين : فقال ان الواو زائدة وان الجواب للشرط المذكور ، أعنى قوله (ان خفتم) هو قوله (فلتقم طائفة) وذهب قوم إلى أن ذكر الخوف منسوخ بالسنة ، وهى حديث عمر الذى قدّمنا ذكره ، وما ورد فى معناه * قوله (أن يفتنكم الذين كفروا) . قال الفراء أهل الحجاز يقولون فتنت الرجل ، وربيعة وقيس وأسد ، وجميع أهل نجد يقولون أفتنت الرجل ، وفرق الخليل وسيبويه بينهما ، فقالا فتنته : جعلت فيه فتنة مثل كحلته ، وأفتنته : جعلته مفتنا ، وزعم الأصمعى أنه لايعرف أفتنته * والمراد بالفتنة القتال والتعرّض بما يكره * قوله (عدوّا) أى أعداء * قوله (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) هذا خطاب لرسول الله ﷺ ، ولمن بعده من أهل الأمر حكمه كما هو معروف فى الأصول ، ومثله قوله تعالى ــ خذ من أموالهم صدقة ــ ونحوه ، والى هذا ذهب جمهور العلماء وشذ أبو يوسف واسماعيل بن علية فقالا لاتصلى صلاة الخوف بعد النبى ﷺ لأن هذا الخطاب خاص برسول الله ﷺ قالا ولايلحق غيره به لما له ﷺ من المزية العظمى وهذا مدفوع فقد أمرنا الله باتباع رسوله والتأسى به . وقد قال ﷺ « صلوا كما رأيتمونى أصلى » والصحابة رضى الله عنهم أعرف بمعانى القرآن ، وقد صلوها بعد موته فى غير مرّة كما ذلك معروف * ومعنى (أقمت لهم الصلاة) أردت الاقامة ، كقوله ــ واذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ــ ، وقوله ــ وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ــ * قوله (فلتقم طائفة منهم معك) يعنى بعد أن تجعلهم طائفتين : طائفة تقف بازاء العدوّ ، وطائفة تقوم منهم معك فى الصلاة (وليأخذوا أسلحتهم) أى الطائفة التى تصلى معه ، وقيل الضمير راجع إلى الطائفة التى بازاء العدوّ * والأوّل أظهر ، لأن الطائفة القائمة بازاء العدوّ لابدّ أن تكون قائمة بأسلحتها ، وانما يحتاج الى الأمر بذلك من كان فى الصلاة ، لأنه يظن أن ذلك ممنوع منه حال الصلاة ، فأمره الله بأن يكون آخذا لسلاحه ، أى غير واضع له ، وليس المراد الأخذ باليد ، بل المراد أن يكونوا حاملين لسلاحهم ليتناولوه من قرب اذا احتاجوا اليه ، وليكون ذلك أقطع لرجاء عدوّهم من امكان فرصته فيهم . وقد قال بارجاع الضمير من قوله (وليأخذوا أسلحتهم) الى الطائفة القائمة بازاء العدوّ ابن عباس قال : لأن المصلية لاتحارب ، وقال غيره : ان الضمير راجع الى المصلية وجوّز الزجاج والنحاس أن يكون ذلك أمرا للطائفتين جميعا ، لأنه أرهب للعدوّ . وقد أوجب أخذ السلاح فى هذه الصلاة أهل الظاهر حملا للأمر على الوجوب ، وذهب أبو حنيفة الى أن المصلين لايحملون السلاح

وأن

وأن ذلك يبطل الصلاة ، وهومدفوع بما فى هذه الآية و بما فى الأحاديث الصحيحة * قوله (فاذاسجدوا) أى القائمون فى الصلاة (فليكونوا) أى الطائفة القائمة بازاء العدوّ (من ورائكم) أى من وراء المصلين ، ويحتمل أن يكون المعنى ، فاذا سجد المصلون معه ، أى أتموا الركعة تعبيرا بالسجود عن جميع الركعة أوعن جميع الصلاة (فليكونوا من ورائكم) أى فلينصرفوا بعد الفراغ الى مقابلة العدوّ للحراسة (ولتأت طائفة أخرى) ، وهى القائمة فى مقابلة العدو التى لم تصلّ (فليصلوا معك) على الصفة التى كانت عليها الطائفة الأولى (وليأخذوا) أى هذه الطائفة الأخرى (حذرهم وأسلحتهم) زيادة التوصية للطائفة الأخرى بأخذ الحذر مع أخذ السلاح ، قيل وجهه أن هذه المرة مظنة لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبى ﷺ فى شغل شاغل ، وأما فى المرة الأولى فربما يظنونهم قائمين للحرب ، وقيل لأن العدوّ لايؤخر قصده عن هذا الوقت ، لأنه آخر الصلاة ، والسلاح مايدفع به المرء عن نفسه فى الحرب ، ولم يبين فى الآية الكريمة كم تصلى كل طائفة من الطائفتين ؟ وقد وردت صلاة الخوف فى السنة المطهرة على أنحاء مختلفة وصفات متعددة ، وكلها صحيحة مجزئة من فعل واحدة منها فقد فعل ماأمر به ، ومن ذهب من العلماء الى اختيار صفة دون غيرها فقد أبعد عن الصواب ، وقد أوضحنا هذا فى شرحنا للمنتقى ، وفى سائر مؤلفاتنا * قوله (ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) هذه الجملة متضمنة للعلة التى لأجلها أمرهم الله بالحذر وأخذ السلاح ، أى ودّوا غفلتكم عن أخذ السلاح وعن الحذر ليصلوا الى مقصودهم و ينالوا فرصتهم ، فيشدّون عليكم شدّة واحدة ، والأمتعة مايتمتع به فى الحرب ، ومنه الزاد والراحلة * قوله (ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أوكنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم) رخص لهم سبحانه فى وضع السلاح اذا نالهم أذى من المطر ، وفى حال المرض ، لأنه يصعب مع هذين الأمرين حمل السلاح ، ثم أمرهم بأخذ الحذر لئلا يأتيهم العدوّ على غرّة وهم غافلون .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن أبى حنظلة ، قال سألت ابن عمر عن صلاة السفر فقال : ركعتان قلت فأين قوله تعالى (ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) ؟ ونحن آمنون ، قال سنة رسول الله ﷺ . وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن ماجه وابن حبان والبيهقى عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد أنه سأل ابن عمر أرأيت قصر الصلاة فى السفر ؟ انا لانجدها فى كتاب الله ، انما نجد ذكر صلاة الخوف ، فقال ابن عمر : ياابن أخى ان الله أرسل محمدا ﷺ ولانعلم شيئا ، فانما نفعل كما رأينا رسول الله ﷺ يفعل ، وقصر الصلاة فى السفر سنة سنها رسول الله ﷺ ، وفى الصحيحين وغيرهما عن حارثة بن وهب الخزاعى قال : صليت مع النبى ﷺ الظهر والعصر بمنى أكثر ما كان الناس وأمنه ركعتين . وأخرج ابن أبى شيبة والترمذى وصححه والنسائى عن ابن عباس قال : صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة ونحن آمنون لانخاف شيئا ركعتين . وأخرج ابن جرير عن على قال : سأل قوم من التجار رسول الله ﷺ فقالوا يارسول الله انا نضرب فى الأرض فكيف نصلى ؟ فأنزل الله (واذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) ثم انقطع الوحى ، فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبى ﷺ فصلى الظهر فقال : المشركون قد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم هلا شددتم عليهم ، فقال قائل منهم ان لهم أخرى مثلها فى أثرها ، فأنزل الله بين الصلاتين (ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ان الكافرين كانوا لكم عدوّا مبينا واذا كنت فيهم) الى قوله (ان الله أعدّ للكافرين عذابا مهينا) فنزلت صلاة الخوف . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والدارقطنى والحاكم وصححه عن أبى عياش الزرقى قال : كنا مع رسول الله ﷺ

بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا و بين القبلة ، فصلى بنا النبى ﷺ الظهر فقالوا قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم ، ثم قالوا تأتى عليهم الآن صلاة هى أحب اليهم من أبنائهم وأنفسهم فنزل جبريل بهذه الآيات (واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) ثم ذكر صفة الصلاة التى صلوها مع النبى ﷺ ، والأحاديث فى صفة صلاة الخوف كثيرة ، وهى مستوفاة فى مواطنها ، فلا نطول بذكرها هاهنا . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس فى قوله (ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى) قال : نزلت فى عبدالرحمن بن عوف كان جريحا .

فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا * وَلَا تَهِنُوا فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا *

(قضيتم) بمعنى فرغتم من صلاة الخوف ، وهو أحد معانى القضاء ، ومثله ـ فاذا قضيتم مناسككم ـ ـ فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ـ * قوله (فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) أى فى جميع الأحوال حتى فى حال القتال . وقد ذهب جمهور العلماء الى أن هذا الذكر المأمور به انما هو أثر صلاة الخوف أى اذا فرغتم من الصلاة فاذكروا الله فى هذه الأحوال ، وقيل معنى قوله (فاذا قضيتم الصلاة) اذا صليتم فصلوا قياما وقعودا أو على جنوبكم حسبما يقتضيه الحال عند ملاحمة القتال ، فهى مثل قوله ـ فان خفتم فرجالا أو ركبانا ـ * قوله (فاذا اطمأننتم) أى أمنتم وسكنت قلوبكم ، والطمأنينة : سكون النفس من الخوف (فأقيموا الصلاة) أى فأتوا بالصلاة التى دخل وقتها على الصفة المشروعة من الاذكار والأركان ولاتفعلوا ما أمكن ، فان ذلك انما هو فى حال الخوف ، وقيل المعنى فى الآية أنهم يقضون ماصلوه فى حال المسايفة ، لأنها حالة قلق وانزعاج وتقصير فى الأذكار والأركان ، وهو مروىّ عن الشافعى ، والأوّل أرجح (ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) أى محدودا معينا ، يقال وقته فهو موقوت ووقته فهو موقت * والمعنى ان الله افترض على عباده الصلوات وكتبها عليهم فى أوقاتها المحدودة لايجوز لأحد أن يأتى بها فى غير ذلك الوقت الا لعذر شرعى من نوم أو سهو أو نحوهما * قوله (ولاتهنوا فى ابتغاء القوم) أى لاتضعفوا فى طلبهم وأظهروا القوّة والجلد * قوله (ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون) تعليل للنهى المذكور قبله ، أى ليس ماتجدونه من ألم الجراح ومزاولة القتال مختصا بكم ، بل هو أمر مشترك بينكم و بينهم ، فليسوا بأولى منكم بالصبر على حر القتال ومرارة الحرب ، ومع ذلك فلكم عليهم مزية لاتوجد فيهم ، وهى أنكم ترجون من الله من الأجر وعظيم الجزاء مالايرجونه لكفرهم وجحودهم ، فأنتم أحق بالصبر منهم وأولى بعدم الضعف منهم ، فان أنفسكم قوية ، لأنها ترى الموت مغنما ، وهم يرونه مغرما * ونظير هذه الآية قوله تعالى ـ ان يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله ـ وقيل ان الرجاء هنا بمعنى الخوف ، لأن من رجا شيئا فهو غير قاطع بحصوله ، فلا يخلو من خوف مايرجو ، وقال الفراء والزجاج : لايطلق الرجاء بمعنى الخوف الامع النفى كقوله تعالى ـ مالكم لاترجون لله وقارا ـ أى لاتخافون له عظمة . وقرأ عبدالرحمن الأعرج (أن تكونوا) بفتح الهمزة ، أى لأن تكونوا . وقرأ منصور بن المعتمر تيلمون بكسر التاء ولا يجوز عند البصريين كسر التاء لثقله .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فاذكروا الله قياما وقعودا

وعلى

وعلى جنوبكم) قال بالليل والنهار فى البر والبحر وفى السفر والحضر والغنى والفقر والسقم والصحة والسر والعلانية وعلى كل حال . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن مسعود أنه بلغه أن قوما يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم . فقال انما هذه اذا لم يستطع الرجل أن يصلى قائما صلى قاعدا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد (فاذا اطمأننتم) قال اذا خرجتم من دار السفر إلى دار الاقامة (فأقيموا الصلاة) قال : أتموها . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة نحوه . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه أيضا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) يعنى مفروضا . وأخرج ابن جرير عنه قال : الموقوت الواجب . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله (ولاتهنوا) : قال ولاتضعفوا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (تألمون) قال : توجعون (وترجون من الله مالايرجون) قال : ترجون الخير .

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا *

قوله (بما أراك الله) إما بوحى أو بما هو جار على سنن ماقد أوحى الله به ، وليس المراد هنا رؤية العين لأن الحكم لايرى ، بل المراد بما عرّفه الله به وأرشده اليه * قوله (ولاتكن للخائنين) أى لأجل الخائنين خصيما ، أى مخاصما عنهم مجادلا للمحقين بسببهم ، وفيه دليل على أنه لايجوز لأحد أن يخاصم عن أحد الأبعد أن يعلم أنه محق * قوله (واستغفرالله) أمر لرسول الله ﷺ بالاستغفار . قال ابن جرير : ان المعنى استغفر الله من ذنبك فى خصامك للخائنين ، وسيأتى بيان السبب الذى نزلت لأجله الآية ، وبه يتضح المراد ، وقيل: المعنى واستغفر الله للمذنبين من أمتك والمخاصمين بالباطل * قوله (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) أى لاتحاجج عن الذين يخونون أنفسهم ، والمجادلة مأخوذة من الجدل وهوالفتل ، وقيل مأخوذة من الجدالة وهى وجه الأرض ، لأن كل واحد من الخصمين يريد أن يلقى صاحبه عليها ، وسمى ذلك خيانة لأنفسهم ، لأن ضرر معصيتهم راجع اليهم * والخوّان : كثير الخيانة * والأثيم : كثير الاثم ، وعدم المحبة كناية عن البغض * قوله (يستخفون من الناس) أى يستترون منهم كقوله ــ ومن هومستخف بالليل ــ أى مستتر ، وقيل معناه يستخفون من الناس ولايستخفون من الله ، أى لايستترون منه أولايستحيون منه ، والحال أنه معهم فى جميع أحوالهم عالم بما هم فيه فكيف يستخفون منه (اذ يبيتون) أى يديرون الرأى بينهم ، وسماه تبييتا ، لأن الغالب أن تكون إدارة الرأى بالليل (مالا يرضى من القول) أى من الرأى الذى أداروه بينهم ، وسماه قولا ، لأنه لايحصل الا بعد المقاولة بينهم * قوله (هاأنتم هؤلاء) يعنى القوم الذين جادلوا عن صاحبهم السارق كما سيأتى ، والجملة مبتدأ وخبر . قال الزجاج (أولاء) بمعنى الذين ، و(جادلتم) بمعنى حاججتم (فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة) الاستفهام للانكار والتوبيخ ، أى فمن يخاصم ويجادل الله عنهم يوم القيامة عند تعذيبهم بذنوبهم ؟ (أم من يكون عليهم وكيلا) أى مجادلا ومخاصما * والوكيل فى الأصل : القائم بتدبير الأمور * والمعنى من ذاك

يقوم بأمرهم اذا أخذهم الله بعذابه .

وقد أخرج الترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن قتادة ابن النعمان : قال كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق بشر و بشير ومبشر وكان بشر رجلا منافقا يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ ثم ينحله بعض العرب ، ثم يقول قال فلان كذا وكذا ، قال فلان كذا وكذا ، فاذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر ، قالوا والله مايقول هذا الشعر الا هذا الخبيث ، فقال :

أوكلما قال الرجال قصيدة * أضموا فقالوا ابن الأبيرق قالها اهـ

قال وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة فى الجاهلية والاسلام ، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير وكان الرجل اذا كان له يسار فقدمت ضافطة : أى حمولة من الشام من الدرمك ابتاع الرجل منها فخصّ بها نفسه ، وأما العيال فانما طعامعهم التمر والشعير ، فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمى رفاعة بن رافع حملا من الدرمك ، فجعله فى مشربة ، وفى المشربة سلاح له درعان وسيفاهما ومايصلحهما فعدى عليه من تحت الليل فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح ، فلما أصبح أتانى عمى رفاعة : فقال يابن أخى تعلم أن قد عدى علينا فى ليلتنا هذه فنقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا . قال فتحسسنا فى الدار وسألنا ، فقيل لنا قد رأينا بنى أبيرق استوقدوا نارا فى هذه الليلة ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم . قال وكان بنو أبيرق قالوا ونحن نسأل فى الدار والله مانرى صاحبكم الا لبيد بن سهل رجلا منا له صلاح واسلام ، فلما سمع ذلك لبيد اخترط سيفه ، ثم أتى بنى أبيرق وقال أنا أسرق فوالله ليخالطنكم هذا السيف أولتبينن هذه السرقة ، قالوا : إليك عنا أيها الرجل فوالله ماأنت بصاحبها : فسألنا فى الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها : فقال لى عمى يابن أخى لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له . قال قتادة فأتيت رسول الله ﷺ فقلت يارسول الله ان أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا الى عمى رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه فليردّوا علينا سلاحنا ، وأما الطعام فلاحاجة لنا فيه ، فقال رسول الله ﷺ سأنظر فى ذلك ، فلما سمع ذلك بنو أبيرق أتوا رجلا منهم يقال له أسير بن عروة فكلموه فى ذلك واجتمع اليه ناس من أهل الدار ، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا يارسول الله ان قتادة بن النعمان وعمه عمدوا الى أهل بيت منا أهل اسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولاثبت . قال قتادة فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته فقال عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم اسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثبت . قال قتادة فرجعت ولوددت أنى خرجت من بعض مالى ولم أكلم رسول الله ﷺ فى ذلك فأتانى عمى رفاعة فقال لى يابن أخى ماصنعت ؟ فأخبرته بما قال لى رسول الله ﷺ ، فقال : الله المستعان فلم نلبث أن نزل القرآن (انا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما) بنى أبيرق (واستغفر الله) أى مما قلت لقتادة (إن الله كان غفورا رحيما * ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) الى قوله (ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) أى لو استغفروا الله لغفر لهم (ومن يكسب إثما) الى قوله (فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا) قولهم للبيد (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك) يعنى أسير بن عروة ، فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده الى رفاعة ، قال قتادة فلما أتيت عمى بالسلاح وكان شيخا قد غشى فى الجاهلية : أى كبر ، وكنت أرى اسلامه مدخولا فلما أتيته بالسلاح . قال يابن أخى هو فى سبيل الله فعرفت أن اسلامه كان صحيحا ، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين فنزل على سلافة بنت سعد فأنزل الله ـ ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ـ الى قوله

(ضلالا

(ضلالا بعيدا) فلما نزل على سلافة رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر، فأخذت رحله فوضعته على رأسها، ثم خرجت فرمت به فى الأبطح، ثم قالت: أهديت لى شعر حسان ما كنت تأتينى بخير. قال الترمذى هذا حديث غريب لا نعلم أحدا أسنده غير محمد بن سلمة الحرانى، ورواه يونس بن بكير وغير واحد عن محمد ابن اسحق عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلا لم يذكر فيه عن أبيه عن جده، ورواه ابن أبى حاتم عن هاشم ابن القاسم الحرانى عن محمد بن سلمة به ببعضه، ورواه ابن المنذر فى تفسيره قال حدثنا محمد بن اسمعيل يعنى الصائغ، حدثنا أحمد بن أبى شعيب الحرانى، حدثنا محمد بن سلمة فذكره بطوله، ورواه أبو الشيخ الاصبهانى فى تفسيره عن محمد بن العباس بن أيوب والحسن بن يعقوب كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبى شعيب الحرانى عن محمد بن سلمة به، ثم قال فى آخره قال محمد بن سلمة: سمع منى هذا الحديث يحيى بن معين وأحمد بن حنبل واسحق بن أبى اسرائيل، وقد رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى العباس الأصم عن أحمد ابن عبد الجبار العطاردى عن يونس بن بكير عن محمد بن اسحق بمعناه أتم منه، ثم قال هذا صحيح على شرط مسلم. وقد أخرجه ابن سعد عن محمود بن لبيد قال: غدا بشير فذكره مختصرا، وقد رويت هذه القصة مختصرة ومطوّلة عن جماعة من التابعين.

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيماً * وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً *

هذا من تمام القصة السابقة، والمراد بالسوء: القبيح الذى يسوء به (أو يظلم نفسه) بفعل معصية من المعاصى أو ذنب من الذنوب التى لا تتعدى الى غيره (ثم يستغفر الله) يطلب منه أن يغفر له ما قارفه من الذنب (يجد الله غفورا) لذنبه (رحيما) به، وفيه ترغيب لمن وقع منه السرق من بنى أبيرق أن يتوب الى الله و يستغفره وأنه غفور لمن يستغفره رحيم به، وقال الضحاك: ان هذه الآية نزلت فى شأن وحشى قاتل حمزة، أشرك بالله وقتل حمزة، ثم جاء الى النبى ﷺ وقال: هل لى من توبة؟ فنزلت، وعلى كل حال فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهى لكل عبد من عباد الله أذنب ذنبا ثم استغفر الله سبحانه * قوله (ومن يكسب اثما) من الآثام بذنب يذنبه (فانما يكسبه على نفسه) أى عاقبته عائدة عليه، والكسب ما يجرّ به الانسان الى نفسه نفعا أو يدفع به ضررا، ولهذا لا يسمى فعل الرب كسبا، قاله القرطبى (ومن يكسب خطيئة أو إثما) قيل هما بمعنى واحد كرر للتأكيد، وقال الطبرى: ان الخطيئة تكون عن عمد وعن غير عمد، والاثم لا يكون الا عن عمد، وقيل الخطيئة: الصغيرة، والاثم: الكبيرة * قوله (ثم يرم به بريئا) توحيد الضمير لكون العطف بأو، أو لتغليب الاثم على الخطيئة، وقيل انه يرجع الى الكسب * قوله (فقد احتمل بهتانا و إثما مبينا) لما كانت الذنوب لازمة لفاعلها كانت كالثقل الذى يحمل، ومثله — وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم — * والبهتان مأخوذ من البهت: وهو الكذب على البرىء بما ينبهت له و يتحير منه، يقال بهته بهتا و بهتانا اذا قال عليه ما لم يقل، و يقال بهت الرجل بالكسر اذا دهش وتحير، و بهت بالضم، ومنه — فبهت

الذى كفر ، والاثم المبين الواضح * قوله (ولو لا فضل الله عليك ورحمته) خطاب لرسول الله ﷺ والمراد بهذا الفضل والرحمة لرسول الله أنه نبهه على الحق فى قصة بنى أبيرق * وقيل المراد بهما النبوّة والعصمة (لهمت طائفة منهم) أى من الجماعة الذين عضدوا بنى أبيرق كما تقدّم (أن يضلوك) عن الحق (وما يضلون الا أنفسهم) لأن وبال ذلك عائد عليهم (ومايضرونك من شىء) لأن الله سبحانه هو عاصمك من الناس . ولأنك عملت بالظاهر ولا ضرر عليك فى الحكم به قبل نزول الوحى ، والجار والمجرور فى محل نصب على المصدرية ، أى وما يضرونك شيئا من الضرر * قوله (وأنزل الله عليك الكتاب) قيل هذا ابتداء كلام ، وقيل الواو للحال ، أى وما يضرونك من شىء حال انزال الله عليك الكتاب والحكمة ، أو مع انزال الله ذلك عليك * قوله (وعلمك مالم تكن تعلم) معطوف على أنزل ، أى علمك بالوحى مالم تكن تعلم من قبل (وكان فضل الله عليك عظيما) اذ لافضل أعظم من النبوّة ونزول الوحى .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه) الآية ، قال أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته ، فمن أذنب ذنبا صغيرا كان أو كبيرا ثم استغفر الله يجد الله غفورا رحيما ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال : من قرأ هاتين الآيتين من سورة النساء ثم استغفر الله غفرله (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما * ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وعلمك مالم تكن تعلم) قال علمه الله بيان الدنيا والآخرة بين حلاله وحرامه ليحتج بذلك على خلقه . وأخرج أيضا عن الضحاك قال : علمه الخير والشر .

وقد ورد فى قبول الاستغفار ، وأنه يمحو الذنب أحاديث كثيرة مدوّنة فى كتب السنة .

لَا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوٰيهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا * وَمَنْ يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا *

النجوى : السرّ بين الاثنين أو الجماعة ، تقول ناجيت فلانا مناجاة ونجاءً وهم ينتجون ويتناجون ، ونجوت فلانا أنجوه نجوى ، أى ناجيته ، فنجوى مشتقة من نجوت الشىء أنجوه ، أى خلصته وأفردته * والنجوة من الأرض : المرتفع لانفراده بارتفاعه عما حوله ، فالنجوى : المسارّة مصدر . وقد تسمى به الجماعة كما يقال قوم عدل . قال الله تعالى ــ واذ هم نجوى ــ فعلى الأوّل يكون الاستثناء منقطعا ، أى لكن من أمر بصدقة ، أومتصلا على تقدير الانجوى من أمر بصدقة ، وعلى الثانى يكون الاستثناء متصلا فى موضع خفض على البدل من كثير ، أى لاخير فى كثير الا فيمن أمر بصدقة ، وقد قال جماعة من المفسرين ان النجوى كلام الجماعة المنفردة أو الاثنين سواء كان ذلك سرّا أوجهرا ، وبه قال الزجاج * قوله (بصدقة) الظاهر أنها صدقة التطوّع ، وقيل انها صدقة الفرض * والمعروف صدقة التطوّع * والأوّل أولى * والمعروف لفظ عام يشمل جميع أنواع البرّ . وقال مقاتل المعروف هنا : القرض * والأوّل أولى ، ومنه قول الحطيئة :

من يفعل الخير لايعدم جوازيه * لايذهب العرف بين الله والناس

ومنه الحديث «كل معروف صدقة ، وان من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق» ، وقيل المعروف اغاثة الملهوف * والاصلاح بين الناس عامّ فى الدماء والأعراض والأموال ، وفى كل شىء يقع التداعى فيه *

قوله

قوله (ومن يفعل ذلك) إشارة إلى الأمور المذكورة ، جعل مجرّد الأمر بها خيرا ، ثم رغب فى فعلها بقوله (ومن يفعل ذلك) لأن فعلها أقرب إلى الله من مجرّد الأمر بها ، اذ خيرية الأمر بها إنما هى لكونه وسيلة إلى فعلها * قوله (ابتغاء مرضات الله) علة للفعل ، لأن من فعلها لغير ذلك فهو غير مستحق لهذا المدح والجزاء ، بل قد يكون غير ناج من الوزر ، والأعمال بالنيات (ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى) المشاققة : المعاداة والمخالفة * وتبين الهدى : ظهوره ، بأن يعلم صحة الرسالة بالبراهين الدالة على ذلك ثم يفعل المشاققة (ويتبع غير سبيل المؤمنين) أى غير طريقهم وهو ماهم عليه من دين الاسلام والتمسك بأحكامه (نوله ماتولى) أى نجعله ، واليا لما تولاه من الضلال (ونصله جهنم) قرأ عاصم وحمزة وأبو عمرو (نوله ونصله) بسكون الهاء فى الموضعين . وقرأ الباقون بكسرهما وهما لغتان ، وقرئ (ونصله) بفتح النون من صلاه . وقد تقدّم بيان ذلك . وقد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على حجية الاجماع لقوله (ويتبع غير سبيل المؤمنين) * ولا حجة فى ذلك عندى ، لأن المراد بغير سبيل المؤمنين هنا هو الخروج من دين الاسلام إلى غيره كما يفيده اللفظ ويشهد به السبب ، فلا تصدق على عالم من علماء هذه الملة الاسلامية اجتهد فى بعض مسائل دين الاسلام فأدّاه اجتهاده إلى مخالفة من بعصره من المجتهدين ، فانه إنما رام السلوك فى سبيل المؤمنين ، وهو الدين القويم والملة الحنفية ولم يتبع غير سبيلهم .

وقد أخرج عبد بن حميد والترمذى وابن ماجه وغيرهم عن أمّ حبيبة قالت : قال رسول الله ﷺ « كلام ابن آدم كله عليه لاله إلا أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو ذكرا لله عزّ وجلّ » . قال سفيان الثورى هذا فى كتاب الله (لاخير فى كثير من نجواهم) الآية ، وقوله ـ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ـ ، وقوله ـ والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ـ . وقد وردت أحاديث صحيحة فى الصمت والتحذير من آفات اللسان والترغيب فى حفظه ، وفى الحث على الاصلاح بين الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل ابن حيان فى قوله (ومن يفعل ذلك) تصدّق أو أقرض أو أصلح بين الناس . وأخرج أبو نصر السجزى فى الابانة عن أنس : قال جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال له رسول الله ﷺ « ان الله أنزل علىّ القرآن ياأعرابى (لاخير فى كثير من نجواهم) الى قوله (فسوف نؤتيه أجرا عظيما) يا أعرابى الأجر العظيم الجنة . قال الأعرابى : الحمد لله الذى هدانا للاسلام » . وأخرج الترمذى والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ « لايجمع الله هذه الأمة على الضلالة أبدا ، ويد الله على الجماعة فمن شذ شذ فى النار » . وأخرجه الترمذى والبيهقى أيضا عن ابن عباس مرفوعا .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا * إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا * لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ

حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا *

قوله (إن الله لايغفر أن يشرك به) قد تقدّم تفسير هـذه الآية وتكريرها بلفظها للتأكيد ، وقيل كررت هنا لأجل قصة بنى أبيرق ، وقيل انها نزلت هنا لسبب غير قصة بنى أبيرق * وهو مارواه الثعلبى والقرطبى فى تفسيريهما عن الضحاك أن شيخا من الأعراب جاء الى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله انى شيخ منهمك فى الذنوب والخطايا إلا أنى لم أشرك بالله شيئا مـذ عرفته وآمنت به ولم أتخـذ من دونه وليا ولم أوقع المعاصى جرأة على الله ولا مكابرة له وانى لنادم وتائب ومستغفر فما حالى عنـد الله ؟ فأنزل الله تعالى (ان الله لايغفر أن يشرك به) الآية (ومن يشرك بالله فقد ضلّ) عن الحق (ضلالا بعيـدا) لأن الشرك أعظم أنواع الضلال وأبعـدها من الصواب (ان يدعون من دونه إلا إناثا) أى مايدعون من دون الله إلا أصناما لها أسماء مؤنثة كاللات والعزى ومناة ، وقيل المراد بالاناث الموات التى لاروح لها كالخشبة والحجر ، وقيل المراد بالاناث الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله ، وقرئ وثنا بضم الواو والثاء جمع وثن ، روى هـذه القراءة ابن الأنبارى عن عائشة ، وقرأ ابن عباس الا أثنا جمع وثن أيضا ، وأصـله وثن فأبدلت الواو همزة ، وقرأ الحسن الا أنثا بضم الهمزة والنون بعـدها مثلثة ، جمع أنيث كغدير وغـدر ، وحكى الطبرى أنه جمع إناث كثمار وثمر ، وحكى هذه القراءة أبو عمرو الدانى عن النبى ﷺ قال : وقرأ بها ابن عباس والحسن وأبو حيوة * وعلى جميع هذه القراءات فهذا الكلام خارج مخرج التوبيخ للمشركين والازراء عليهم والتضعيف لعقولهم : لكونهم عبـدوا من دون الله نوعا ضعيفا (وان يدعون إلا شيطانا مريدا) أى وما يدعون من دون الله إلا شيطانا مريدا وهو إبليس لعنه الله ، لأنهم اذا أطاعوه فيما سوّل لهم فقد عبـدوه . وقد تقدّم اشتقاق لفظ الشيطان * والمريد : المتمرّد العاتى ، من مرد : اذا عتا . قال الأزهرى المريد : الخارج عن الطاعة . وقد مرد الرجل مرودا : اذا عتا وخرج عن الطاعة ، فهو مارد ومريد ومتمرّد . وقال ابن عرفة هو الذى ظهر شرّه ، يقال شجرة مرداء : اذا تساقط ورقها وظهرت عيدانها ، ومنه قيل للرجل أمرد ، أى ظاهر مكان الشعر من عارضيه * قوله (لعنه الله) أصل اللعن الطرد والابعاد . وقد تقدّم ، وهو فى العرف إبعاد مقترن بسخط * قوله (وقال لأتخذنّ من عبادك نصيبا مفروضا) معطوف على قوله (لعنه الله) والجلتان صفة لشيطان ، أى شيطانا مريدا جامعا بين لعنة الله له ، و بين هـذا القول الشنيع * والنصيب المفروض : هو المقطوع المقدّر ، أى لأجعلنّ قطعة مقدّرة من عباد الله تحت غوايتى وفى جانب إضلالى حتى أخرجهم من عبادة الله إلى الكفر به * قوله (ولأضلنهم) اللام جواب قسم محذوف * والاضلال : الصرف عن طريق الهداية إلى طريق الغواية ، وهكذا اللام فى قوله (ولأمنينهم ولآمرنهم) * والمراد بالأمانى التى يمنيهم بها الشيطان هى الأمانى الباطلة الناشئة عن تسويله ووسوسته * قوله (ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام) أى ولآمرنهم بتبتك آذان الأنعام ، أى تقطيعها فليبتكنها بموجب أمرى * والبتك : القطع ، ومنـه سيف باتك ، يقال بتكه و بتكه مخففا ومشدّدا ، ومنـه قول زهير : * طارت وفى كفه من ريشها بتك * أى قطع . وقد فعل الكفار ذلك امتثالا لأمر الشيطان واتباعا لرسمه فشقوا آذان البحائر والسوائب كاذلك معروف * قوله (ولآمرنهم فليغيرنّ خلق الله) أى ولآمرنهم بتغيير خلق الله فليغيرنه بموجب أمرى لهم * واختلف العلماء فى هذا التغيير ماهو ؟ فقالت طائفة هو الخصاء وفقء الأعين وقطع الآذان . وقال آخرون ان المراد بهذا التغيير هو أن الله سبحانه خلق الشمس والقمر والأحجار والنار ونحوها من المخلوقات لما خلقها له ، فغيرها الكفار بأن

جعلوها

جعلوها آلهة معبودة ، و به قال الزجاج ، وقيل المراد بهذا التغيير تغيير الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، ولامانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور حملا شموليا أو بدليا .

وقد رخص طائفة من العلماء فى خصاء البهائم اذا قصد بذلك زيادة الانتفاع به لسمن أوغيره ، وكره ذلك آخرون ، وأما خصاء بنى آدم فحرام ، وقد كره قوم شراء الخصى . قال القرطبى ولم يختلفوا أن خصاء بنى آدم لايحل ولايجوز وأنه مثلة وتغيير لخلق الله وكذلك قطع سائر أعضائهم فى غير حدّ ولاقود : قاله أبوعمر ابن عبدالبر (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله) باتباعه وامتثال مايأمر به من دون اتباع لما أمر الله به ولاامتثاله (فقد خسر خسرانا مبينا) أى واضحا ظاهرا (يعدهم) المواعيد الباطلة (ويمنيهم) الأمانى العاطلة (ومايعدهم الشيطان إلاغرورا) أى ومايعدهم الشيطان بمايوقعه فى خواطرهم من الوساوس الفارغة (إلاغرورا) يغرّهم به و يظهر لهم فيه النفع وهوضرر محض ، وانتصاب غرورا على أنه نعت لمصدر محذوف ، أى وعدا غرورا أوعلى أنه مفعول ثان أومصدر على غير لفظه . قال ابن عرفة الغرور : مارأيت له ظاهرا تحبه وله باطن مكروه وهذه الجملة اعتراضية * قوله (أولئك) اشارة الى أولياء الشيطان وهذا مبتدأ وخبره الجملة ، وهى قوله (مأواهم جهنم) * قوله (محيصا) أى معدلا ، من حاص يحيص ، وقيل ملجأ ومخلصا ، والمحيص اسم مكان ، وقيل مصدر * قوله (والذين آمنوا) الخ جعل هذا الوعد للذين آمنوا مقترنا بالوعيد المتقدّم للكافرين * قوله (وعدالله حقا) : قال فى الكشاف مصدران : الأوّل مؤكد لنفسه ، والثانى مؤكد لغيره ، ووجهه أن الأوّل مؤكد لمضمون الجملة الاسمية ومضمونها وعد ، والثانى مؤكد لغيره ، أى حق ذلك حقا * قوله (ومن أصدق من الله قيلا) هذه الجملة مؤكدة لما قبلها ، والقيل مصدر قال كالقول ، أى لا أجد أصدق قولا من الله عز وجل ، وقيل ان قيلا اسم لامصدر ، وانه منتصب على التمييز .

وقد أخرج الترمذى من حديث علىّ أنه قال : مافى القرآن آية أحب الى من هذه الآية (إنّ الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء) قال الترمذى حسن غريب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبى مالك فى قوله (ان يدعون من دونه الا إناثا) قال اللات والعزى ومناة كلها مؤنثة . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وابن المنذر وابن أبى حاتم والضياء فى المختارة عن أبىّ بن كعب فى الآية قال مع كل صنم جنية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (ان يدعون من دونه الا إناثا) قال موتى . وأخرج مثله عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن . وأخرج مثله أيضا عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن الحسن قال : كان لكل حى من أحياء العرب صنم يعبدونها يسمونها أنثى بنى فلان ، فأنزل الله (ان يدعون من دونه الا إناثا) وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك قال : المشركون ان الملائكة بنات الله ، وانما نعبدهم ليقربونا الى الله زلفى ، قال : اتخذوهنّ أربابا وصوّروهنّ صور الجوارى فحلوا وقلدوا ، وقالوا هؤلاء يشبهن بنات الله الذى نعبده يعنون الملائكة . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان فى قوله (وقال لأتخذنّ من عبادك) الخ ، قال : هذا ابليس يقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة . وأخرج ابن المنذر عن الربيع بن أنس مثله . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (فليبتكن آذان الأنعام) قال التبتيك فى البحيرة والسائبة يبتكون آذانها لطواغيتهم ، وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أنس أنه كره الاخصاء وقال فيه نزلت (ولآمرنهم فليغيرنّ خلق الله) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن أبى شيبة والبيهقى عن ابن عمر قال : نهى رسول الله ﷺ عن خصاء

البهائم والخيل . وأخرج ابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس قال : نهى رسول الله ﷺ عن صبر الروح واخصاء البهائم ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله (ولآمرنهم فليغيرنّ خلق الله) قال دين الله . وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله أيضا . وأخرح عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن قال الوشم .

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا * وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا *

قرأ أبو جعفر بتخفيف الياء من أمانى فى الموضعين ، واسم ليس محذوف : أى ليس دخول الجنة أو الفضل أو القرب من الله بأمانيكم ولا أمانىّ أهل الكتاب كما يدل على ذلك سبب نزول الآية الآتى ، وقيل ضمير يعود الى وعد الله ، وهو بعيد ، ومن أمانىّ أهل الكتاب قولهم ـ لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى ـ وقولهم ـ نحن أبناء الله وأحباؤه ـ وقولهم ـ لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ـ * قوله (من يعمل سوءا يجز به) قيل المراد بالسوء الشرك ، وظاهر الآية أعمّ من ذلك ، فكل من عمل سوءا أىّ سوء كان فهو مجزىّ به من غير فرق بين المسلم والكافر * وفى هذه الجملة ما ترجف له القلوب من الوعيد الشديد ، وقد كان لها فى صدور المسلمين عند نزولها موقع عظيم كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره من حديث أبى هريرة ، قال : لما نزلت (من يعمل سوءا يجز به) بلغت من المسلمين مبلغا شديدا . فقال رسول الله ﷺ قاربوا وسددوا ففى كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها * قوله (ولا يجد له) قرأه الجماعة بالجزم عطفا على الجزاء ، وروى ابن بكار عن ابن عامر (ولا يجد) بالرفع استئنافا ، أى ليس لمن يعمل السوء من دون الله وليا يواليه ولا نصيرا ينصره (ومن يعمل من الصالحات) أى بعضها حال كونه (من ذكر أو أنثى) وحال كونه مؤمنا ، والحال الأولى لبيان من يعمل ، والحال الأخرى لافادة اشتراط الايمان فى كل عمل صالح (فأولئك) اشارة الى العامل المتصف بالايمان (يدخلون الجنة) قرأ أبو عمرو وابن كثير (يدخلون) بضم حرف المضارعة على البناء للمجهول . وقرأ الباقون بفتحها على البناء للمعلوم (ولا يظلمون نقيرا) أى لا ينقصون شيئا حقيرا ، وقد تقدّم تفسير النقير (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله) أى أخلص نفسه له حال كونه محسنا أى عاملا للحسنات (واتبع ملة ابراهيم) أى دينه حال كون المتبع (حنيفا) أى مائلا عن الأديان الباطلة الى دين الحق ، وهو الاسلام (واتخذ الله ابراهيم خليلا) أى جعله صفوة له وخصه بكراماته قال ثعلب : انما سمى الخليل خليلا لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خليلا الاملأته ، وأنشد قول بشار :

قد تخللت مسلك الروح منى * وبه سمى الخليل خليلا

وخليل فعيل بمعنى فاعل كالعليم بمعنى العالم ، وقيل هو بمعنى المفعول كالحبيب بمعنى المحبوب وقد كان ابراهيم عليه السلام محبوبا لله ومحبا له ، وقيل الخليل من الاختصاص ، فالله سبحانه اختص ابراهيم برسالته فى ذلك الوقت واختاره لها ، واختار هذا النحاس ، وقال الزجاج : معنى الخليل الذى ليس فى محبته خلل

(ولله

(ولله مافى السموات ومافى الأرض) فيه اشارة الى أنه سبحانه اتخذ ابراهيم خليلا لطاعته لا لحاجته ولا للتكثر به والاعتضاد بمخالته (وكان الله بكل شيء محيطا) هذه الجملة مقررة لمعنى الجملة التى قبلها أى أحاط علمه بكل شيء ـ لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها .

وقد أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : قالت العرب لانبعث ولا نحاسب ، وقالت اليهود والنصارى ـ لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى ـ ـ وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة ـ فأنزل الله (ليس بأمانيكم ولاأمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به) . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن مسروق قال : احتج المسلمون وأهل الكتاب ، فقال المسلمون : نحن أهدى منكم ، وقال أهل الكتاب : نحن أهدى منكم ، فنزلت ففلج عليهم المسلمون بهذه الآية (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) الآية ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مسروق قال : تفاخر النصارى وأهل الاسلام ، فقال هؤلاء نحن أفضل منكم ، وقال : هؤلاء نحن أفضل منكم فنزلت ، وقد وردمعنى هذه الروايات من طرق كثيرة مختصرة ومطوّلة . وأخرج عبد بن حميد والترمذى وابن المنذر عن أبى بكر الصديق أن النبى ﷺ قال له لما نزلت هذه الآية أما أنت وأصحابك يا أبا بكر فتجزون بذلك فى الدنيا حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب ، وأما الآخرون فيجمع لهم ذلك حتى يجزوا به يوم القيامة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة وأبى سعيد أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول « مايصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهمّ يهمه إلا كفر الله به من سيئاته » . وقد ورد فى هذا المعنى أحاديث كثيرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس أن ابن عمر لقيه فسأله عن هذه الآية (ومن يعمل من الصالحات) قال الفرائض . وأخرج الحاكم وصححه عن جندب أنه سمع النبى ﷺ يقول قبل أن يتوفى «ان الله اتخذنى خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا» . وأخرج الحاكم أيضا وصححه عن ابن عباس قال : أتعجبون أن تكون الخلة لابراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد ﷺ .

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا *

سبب نزول هذه الآية سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء وأحكامهن فى الميراث وغيره . فأمر الله نبيه ﷺ أن يقول لهم (الله يفتيكم) ، أى يبين لكم حكم ماسألتم عنه ، وهذه الآية رجوع الى ماافتتحت به السورة من أمر النساء ، وكان قد بقيت لهم أحكام لم يعرفوها ، فسألوا ، فقيل لهم (الله يفتيكم) * قوله (ومايتلى عليكم) معطوف على قوله (الله يفتيكم) والمعنى والقرآن الذى يتلى عليكم يفتيكم فيهن والمتلوّ فى الكتاب فى معنى اليتامى قوله تعالى ـ وان خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى ـ ويجوز أن يكون قوله وما يتلى معطوفا على الضمير فى قوله (يفتيكم) الراجع الى المبتدا لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالمفعول والجار والمجرور ، ويجوز أن يكون مبتدأ وفى الكتاب خبره على أن المراد به اللوح المحفوظ ، وقد قيل فى اعرابه غير ماذكرنا ، ولم نذكره لضعفه * وقوله (فى يتامى النساء) على الوجه الأوّل والثانى صلة لقوله (يتلى) وعلى الوجه الثالث بدل من قوله (فيهنّ) . (اللاتى لاتؤتونهنّ ماكتب لهنّ) أى مافرض لهنّ

من الميراث وغيره (وترغبون) معطوف على قوله (لاتؤتونهنّ) عطف جملة مثبتة على جملة منفية ، وقيل حال من فاعل (تؤتونهنّ) * وقوله (أن تنكحوهنّ) يحتمل أن يكون التقدير فى أن تنكحوهن ، أى ترغبون فى أن تنكحوهنّ لجمالهن ، ويحتمل أن يكون التقدير وترغبون عن أن تنكحوهنّ لعدم جمالهنّ * قوله (والمستضعفين من الولدان) معطوف على يتامى النساء : أى ومايتلى عليكم فى يتامى النساء وفى المستضعفين من الولدان ، وهو قوله تعالى - يوصيكم الله فى أولادكم - وقد كان أهل الجاهلية لايورّثون النساء ولامن كان مستضعفا من الولدان كما سلف ، وانما يورّثون الرجال القائمين بالقتال وسائر الأمور * قوله (وأن تقوموا لليتامى بالقسط) معطوف على قوله (فى يتامى النساء) كالمستضعفين أى ومايتلى عليكم فى يتامى النساء وفى المستضعفين وفى أن تقوموا لليتامى بالقسط : أى العدل ، ويجوز أن يكون فى محل نصب ، أى و يأمركم أن تقوموا (وما تفعلوا من خير) فى حقوق المذكورين (فان الله كان به عليما) يجازيكم بحسب فعلكم من خير وشر .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله (و يستفتونك فى النساء) الآية . قال كان أهل الجاهلية لايورّثون المولود حتى يكبر ولا يورّثون المرأة ، فلما كان الاسلام قال : (و يستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهنّ وما يتلى عليكم فى الكتاب) فى أوّل السورة فى الفرائض وأخرج عبد الحميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى الآية قال : كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان شيئا كانوا يقولون لايغزون ولا يغنمون خيرا ففرض الله لهنّ الميراث حقا واجبا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه بأطول منه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابراهيم فى الآية قال كانوا اذا كانت الجارية يتيمة دميمة لم يعطوها ميراثها وحبسوها من التزويج حتى تموت فيرثونها ، فأنزل الله هذا . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة فى قوله (و يستفتونك فى النساء) الى قوله وترغبون أن تنكحوهن . قالت هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها قد شركته فى ماله حتى فى العذق فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوّجها رجلا فتشركه فى ماله بما شركته فيعضلها فنزلت هذه الآية . وأخرج ابن المنذر من طريق ابن عون عن الحسن وابن سيرين فى هذه الآية قال أحدهما ترغبون فيهنّ ، وقال الآخر ترغبون عنهن .

وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصَّالَحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنْفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ ٱللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا *

امرأة مرفوعة بفعل مقدّر يفسره ما بعده : أى وان خافت امرأة ، وخافت بمعنى توقعت ماتخاف من زوجها ، وقيل معناه تيقنت وهو خطأ . قال الزجاج : المعنى (وان امرأة خافت من بعلها) دوام النشوز . قال النحاس الفرق بين النشوز والاعراض : أن النشوز التباعد ، والاعراض أن لا يكلمها ولا يأنس بها ، وظاهر الآية أنها تجوز المصالحة عند مخافة أىّ نشوز أو أىّ إعراض ، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

الذى

الذى سيأتى ، وظاهرها أنه يجوز التصالح بأىّ نوع من أنواعه إما باسقاط النوبة أو بعضها أو بعض النفقة أو بعض المهر * قوله (أن يصالحا) هكذا قرأه الجمهور ، وقرأ الكوفيون (أن يصلحا) وقراءة الجمهور أولى لأن قاعدة العرب أن الفعل اذا كان بين اثنين فصاعدا قيل تصالح الرجلان أو القوم ، لا أصلح * وقوله (صلحا) منصوب على أنه اسم مصدر ، أو على أنه مصدر محذوف الزوائد ، أو منصوب بفعل محذوف أى فيصلح حالهما صلحا ، وقيل هو منصوب على المفعولية * وقوله (بينهما) ظرف للفعل ، أوفى محل نصب على الحال * قوله (والصلح خير) لفظ عام يقتضى أن الصلح الذى تسكن اليه النفوس ويزول به الخلاف خير على الاطلاق ، أو خير من الفرقة ، أو من الخصومة ، وهذه جملة اعتراضية * قوله (وأحضرت الأنفس الشح) إخبار منه سبحانه بأن الشح فى كل واحد منهما ، بل فى كل الأنفس الانسانية كائن وأنه جعل كأنه حاضر لها لا يغيب عنها بحال من الأحوال وأن ذلك بحكم الجبلة والطبيعة فالرجل يشح بما يلزمه للمرأة من حسن العشرة وحسن النفقة ونحوها ، والمرأة تشح على الرجل بحقوقها اللازمة للزوج فلا تترك له شيئا منها * وشح الأنفس : بخلها بما يلزمها أو يحسن فعله بوجه من الوجوه ، ومنه ـ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ـ قوله (وان تحسنوا وتتقوا) أى تحسنوا عشرة النساء وتتقوا مالا يجوز من النشوز والاعراض (فان الله كان بما تعملون خبيرا) فيجازيكم يامعشر الأزواج بما تستحقونه * قوله (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء) أخبر سبحانه بنفى استطاعتهم للعدل بين النساء على الوجه الذى لاميل فيه ألبتة لما جبلت عليه الطباع البشرية من ميل النفس الى هذه دون هذه ، وزيادة هذه فى المحبة ونقصان هذه ، وذلك بحكم الخلقة بحيث لايملكون قلوبهم ولا يستطيعون توقيف أنفسهم على التسوية ، ولهذا كان يقول الصادق المصدوق ﷺ « اللهمّ هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما لاأملك » ولما كانوا لايستطيعون ذلك ولو حرصوا عليه وبالغوا فيه نهاهم عزّ وجلّ عن أن يميلوا كل الميل ، لأن ترك ذلك وتجنب الجور كل الجور فى وسعهم وداخل تحت طاقتهم ، فلا يجوز لهم أن يميلوا عن إحداهنّ الى الأخرى كل الميل حتى يذروا الأخرى كالمعلقة التى ليست ذات زوج ولا مطلقة تشبيها بالشىء الذى هو معلق غير مستقرّ على شىء ، وفى قراءة أبىّ فتذروها كالمسجونة * قوله (وان تصلحوا) أى ماأفسدتم من الأمور التى تركتم مايجب عليكم فيها من عشرة النساء والعدل بينهنّ (وتتقوا) كل الميل الذى نهيتم عنه (فان الله كان غفورا رحيما) لايؤاخذكم بما فرط منكم * قوله (وان يتفرّقا) أى لم يتصالحا ، بل فارق كل واحد منهما صاحبه (يغن الله كلا) منهما أى يجعله مستغنيا عن الآخر بأن يهىء للرجل امرأة توافقه وتقرّ بها عينه ، وللمرأة رجلا تغتبط بصحبته ويرزقهما (من سعته) رزقا يغنيهما به عن الحاجة (وكان الله واسعا حكيما) واسع الفضل صادرة أفعاله على جهة الاحكام والاتقان .

وقد أخرج الترمذى وحسنه وابن المنذر والطبرانى والبيهقى عن ابن عباس قال خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت يارسول الله لاتطلقنى وأجعل يومى لعائشة ففعل ونزلت هذه الآية (وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا) الآية . قال ابن عباس فما اصطلحا عليه من شىء فهو جائز . وأخرج أبوداود والحاكم وصححه والبيهقى عن عائشة أن سبب نزول الآية هو قصة سودة المذكورة . وأخرج البخارى وغيره عنها فى الآية ، قالت : الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول أجعلك من شأنى فى حلّ فنزلت هذه الآية . وأخرج الشافعى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة والبيهقى عن سعيد بن المسيب أن ابنة محمد بن سلمة كانت عند رافع بن خديج فكره منها أمرا إما كبرا أو غيره فأراد طلاقها فقالت لاتطلقنى واقسم لى مابدا لك فاصطلحا ، وجرت السنة بذلك ونزل القرآن (وان امرأة خافت من بعلها نشوزا)

الآية . وأخرج أبوداود الطيالسى وابن أبى شيبة وابن راهويه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن على أنه سئل عن هذه الآية ، فقال هو رجل عنده امرأتان فتكون إحداهما قد عجزت أو تكون دميمة فيريد فراقها فتصالحه على أن يكون عندها ليلة ، وعند الأخرى ليالى ولا يفارقها ، فما طابت به نفسها فلا بأس به ، فان رجعت سوّى بينهما . وقد ورد عن جماعة من الصحابة نحو هذا ، وثبت فى الصحيحين من حديث عائشة : قالت « لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة فكان رسول الله ﷺ يقسم لها بيوم سودة » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (وأحضرت الأنفس الشح) قال : هواه فى الشىء يحرص عليه ، وفى قوله (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء) قال فى الحب والجماع ، وفى قوله (فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) قال لاهى أيمة ولا ذات زوج . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبوداود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن المنذر عن عائشة قالت كان النبى ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » واسناده صحيح . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأهل السنن عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « من كانت له امرأتان فمال الى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط » . قال الترمذى انما أسنده همام ، ورواه هشام الدستوائى عن قتادة : قال كان يقال ولا يعرف هذا الحديث مرفوعا الا من حديث همام . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء) قال الجماع . وأخرج ابن أبى شيبة عن الحسن : قال الحب .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذٰلِكَ قَدِيرًا * مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيرًا *

قوله (ولله مافى السموات ومافى الأرض) هذه الجملة مستأنفة لتقرير كمال سعته سبحانه وشمول قدرته (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) أمرناهم فيما أنزلناه عليهم من الكتب ، واللام فى الكتاب للجنس (وإياكم) عطف على الموصول (أن اتقوا الله) أى أمرناهم وأمرناكم بالتقوى ، وهو فى موضع نصب بقوله (وصينا) أو منصوب بنزع الخافض . قال الأخفش ، أى بأن اتقوا الله ، ويجوز أن تكون أن مفسرة ، لأن التوصية فى معنى القول * قوله (وإن تكفروا فان لله مافى السموات وما فى الأرض) معطوف على قوله (أن اتقوا) أى وصيناهم وإياكم بالتقوى وقلنا لهم ولكم ان تكفروا ، وفائدة هذا التكرير التأكيد ليتنبه العباد على سعة ملكه وينظروا فى ذلك ويعلموا أنه غنى عن خلقه (ان يشأ يذهبكم) أى يفنكم (ويأت بآخرين) أى بقوم آخرين غيركم ، وهو كقوله تعالى ـ وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ـ (من كان يريد ثواب الدنيا) وهو من يطلب بعمله شيئا من أمور الدنيا كالمجاهد يطلب الغنيمة دون الأجر (فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) فما باله يقتصر على أدنى الثوابين وأحقر الأجرين ، وهلا طلب بعمله ما عند الله سبحانه ، وهو ثواب الدنيا والآخرة فيحرزهما جميعا

و يفوز بهما * وظاهر الآية العموم . وقال ابن جرير الطبرى انها خاصة بالمشركين والمنافقين (وكان الله سميعا بصيرا) يسمع مايقولونه و يبصر مايفعلونه .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وكان الله غنيا) عن خلقه (حميدا) قال مستحمدا اليهم . وأخرجا أيضا عن علىّ مثله . وأخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله (وكفى بالله وكيلا) قال حفيظا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله (ان يشأ يذهبكم أيها الناس و يأت بآخرين) قال قادر والله ربنا على ذلك أن يهلك من خلقه ماشاء و يأتى بآخرين من بعدهم

يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُۥٓا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا *

قوله (قوّامين) صيغة مبالغة ، أى ليتكرر منكم القيام بالقسط ، وهو العدل فى شهادتكم على أنفسكم وهو الاقرار بما عليكم من الحقوق ، وأما شهادته على والديه فبأن يشهد عليهما بحق للغير ، وكذلك الشهادة على الأقربين ، وذكر الأبوين لوجوب برّهما وكونهما أحبّ الخلق اليه ، ثم ذكر الأقربين ، لأنهم مظنة المودّة والتعصب ، فاذا شهدوا على هؤلاء بما عليهم فالأجنبى من الناس أحرى أن يشهدوا عليه . وقد قيل ان معنى الشهادة على النفس أن يشهد بحق على من يخشى لحوق ضرر منه على نفسه وهو بعيد * وقوله (شهداء لله) خبر بعد خبر لكان ، أوحال ولم ينصرف لأن فيه ألف التأنيث . وقال ابن عطية الحال فيه ضعيفة فى المعنى لأنها تخصص القيام بالقسط الى معنى الشهادة فقط * وقوله (لله) أى لمرضاته وثوابه * وقوله (ولو على أنفسكم) متعلق بشهداء ، هذا المعنى الظاهر من الآية ، وقيل معنى (شهداء لله) بالواحدانية فيتعلق قوله (ولو على أنفسكم) بقوّامين * والأوّل أولى * قوله (إن يكن غنيا أو فقيرا) اسم كان مقدّر ، أى ان يكن المشهود عليه غنيا فلا يراعى لأجل غناه استجلابا لنفعه أواستدفاعا لضره فيترك الشهادة عليه ، أوفقيرا فلايراعى لأجل فقره رحمة له و إشفاقا عليه فيترك الشهادة عليه ، وانما قال (فالله أولى بهما) ولم يقل به مع أن التخيير انما يدل على الحصول لواحد ، لأن المعنى فالله أولى بكل واحد منهما . وقال الأخفش تكون أو بمعنى الواو ، وقيل انه يجوز ذلك مع تقدّم ذكرهما كما فى قوله ـ وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ـ . وقد تقدّم فى مثل هذا ماهو أبسط مما هنا . وقرأ أبىّ (فالله أولى بهم) . وقرأ ابن مسعود (ان يكن غنىّ أوفقير) على أن كان تامة (فلا تتبعوا الهوى) نهاهم عن اتباع الهوى * وقوله (أن تعدلوا) فى موضع نصب وهو إما من العدل كأنه قال : فلا تتبعوا الهوى كراهة أن تعدلوا بين الناس ، أو من العدول كأنه قال فلا تتبعوا الهوى مخافة أن تعدلوا عن الحق ، أوكراهة أن تعدلوا عن الحق * قوله (وان تلووا) من اللىّ ، يقال لويت فلانا حقه : اذا دفعته عنه * والمراد لىّ الشهادة ميلا الى المشهود عليه ، وقرأ ابن عامر والكوفيون (١) (وان تلوا) من الولاية ، أى وان تلوا الشهادة وتتركوا مايجب عليكم من تأديتها على وجه الحق . وقد قيل ان هذه القراءة تفيد معنيين : الولاية والاعراض

(١) صوابه حمزة اهـ مصحح القرآن

والقراءة الأولى تفيد معنى واحدا وهو الاعراض ، وزعم بعض النحويين أن القراءة الثانية غلط ولحن لأنه لامعنى للولاية هاهنا . قال النحاس وغيره وليس يلزم هذا ، ولكن يكون تلوا بمعنى تلووا ، وذلك أن أصله تلووا فاستثقلت الضمة على الواو بعدها واو أخرى فألقيت الحركة على اللام وحذفت إحدى الواوين لالتقاء الساكنين ، وذكر الزجاج نحوه * قوله (أوتعرضوا) أى عن تأدية الشهادة من الأصل (فان الله كان بماتعملون خبيرا) أى بما تعملون من اللىّ والاعراض أومن كل عمل ، وفى هذا وعيد شديد لمن لم يأت بالشهادة كما تجب عليه . وقد روى أن هذه الآية تعمّ القاضى والشهود ، أما الشهود فظاهر ، وأما القاضى فذلك بأن يعرض عن أحد الخصمين أو يلوى عن الكلام معه ، وقيل هى خاصة بالشهود * قوله (ياأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله) أى اثبتوا على إيمانكم ودوموا عليه ، والخطاب هنا للمؤمنين جميعا (والكتاب الذى نزل على رسوله) هو القرآن ، واللام للعهد (والكتاب الذى أنزل من قبل) هو كل كتاب ، واللام للجنس ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر نزل وأنزل بالضم . وقرأ الباقون بالفتح فيهما وقيل ان الآية نزلت فى المنافقين * والمعنى ياأيها الذين آمنوا فى الظاهر أخلصوا لله ، وقيل نزلت فى المشركين * والمعنى ياأيها الذين آمنوا باللات والعزّى آمنوا بالله وهما ضعيفان * قوله (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) أى بشىء من ذلك (فقد ضلّ) عن القصد (ضلالا بعيدا) وذكر الرسول فيما سبق لذكر الكتاب الذى أنزل عليه ، وذكر الرسل هنا لذكر الكتب جملة فناسبه ذكر الرسل جملة ، وتقديم الملائكة على الرسل لأنهم الوسائط بين الله و بين رسله .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين) الآية : قال أمر الله المؤمنين أن يقولوا بالحق ولوعلى أنفسهم أوآبائهم أوأبنائهم لايحابون غنيا لغناه ولا يرحمون مسكينا لمسكنته ، وفى قوله (فلا تتبعوا الهوى) فتذروا الحق فتجوروا (وان تلووا) يعنى بألسنتكم بالشهادة (أوتعرضوا) عنها . وأخرج أحمد وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبونعيم فى الحلية عنه فى معنى الآية : قال الرجلان يجلسان عند القاضى فيكون لىّ القاضى و إعراضه لأحد الرجلين على الآخر . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا : قال لما قدم النبى ﷺ المدينة كانت البقرة أوّل سورة نزلت ثم أردفهاسورة النساء : قال فكان الرجل تكون عنده الشهادة قبل ابن عمه أو ذوى رحمه فيلوى بها لسانه أويكتمها مما يرى من عسرته حتى يوسر فيقضى حين يوسر ، فنزلت (كونوا قوّامين بالقسط) الآية . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (وان تلووا أو تعرضوا) يقول تلوى لسانك بغير الحق وهى اللجلجة فلا تقيم الشهادة على وجهها * والاعراض : الترك . وأخرج الثعلبى عن ابن عباس أن عبد الله بن سلام وأسدا وأسيدا ابنى كعب وثعلبة بن قيس وسلاما ابن أخت عبد الله بن سلام وسلمة ابن أخيه ويامين ابن يامين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا يارسول الله انا نؤمن بك و بكتابك وموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل ، فقال رسول الله ﷺ بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن و بكل كتاب كان قبله : فقالوا لانفعل ، فنزلت (ياأيها الذين آمنوا آمنوا بالله) الآية * و ينبغى النظر فى صحة هذا فالثعلبى رحمه الله ليس من رجال الرواية ولايفرّق بين الصحيح والموضوع . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك فى هذه الآية : قال يعنى بذلك أهل الكتاب ، كان الله قد أخذ ميثاقهم فى التوراة والانجيل ، وأقرّوا على أنفسهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، فلما بعث الله رسوله دعاهم الى أن يؤمنوا بمحمد والقرآن وذكرهم الذى أخذ عليهم من الميثاق ، فنهم من صدّق النبى ﷺ واتبعه ، ومنهم من كفر .

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا * بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا * وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا * ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ ٱللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا *

أخبر الله سبحانه عن هذه الطائفة التى آمنت ثم كفرت ثم آمنت ثم كفرت ثم ازدادت كفرا بعد ذلك كله أنه لم يكن الله سبحانه ليغفر لهم ذنوبهم ولا ليهديهم سبيلا يتوصلون به الى الحق و يسلكونه الى الخير ، لأنه يبعد منهم كل البعد أن يخلصوا لله و يؤمنوا إيمانا صحيحا ، فان هذا الاضطراب منهم تارة يدّعون أنهم مؤمنون وتارة يمرقون من الايمان ويرجعون الى ماهو دأبهم وشأنهم من الكفر المستمر والجحود الدائم يدلّ أبلغ دلالة على أنهم متلاعبون بالدين ليست لهم نية صحيحة ولا قصد خالص ، قيل المراد بهؤلاء اليهود فانهم آمنوا بموسى ، ثم كفروا بعزير ، ثم آمنوا بعزير ، ثم كفروا بعيسى ، ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل آمنوا بموسى ثم كفروا به بعبادتهم العجل ثم آمنوا به عند عوده اليهم ثم كفروا بعيسى ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم * والمراد بالآية أنهم ازدادوا كفرا واستمروا على ذلك كما هو الظاهر من حالهم والا فالكافر اذا آمن وأخلص ايمانه وأقلع عن الكفر فقد هداه الله السبيل الموجب للمغفرة ، والاسلام يجبّ ماقبله ، ولكن لما كان هذا مستبعدا منهم جدّا كان غفران ذنوبهم وهدايتهم الى سبيل الحق مستبعدا * قوله (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما) اطلاق البشارة على ماهو شرّ خالص لهم تهكم بهم وقد مرّ تحقيقه * وقوله (الذين يتخذون الكافرين أولياء) وصف للمنافقين أو منصوب على الذمّ ، أى يجعلون الكفار أولياء لهم يوالونهم على كفرهم و يمالئونهم على ضلالهم * وقوله (من دون المؤمنين) فى محل نصب على الحال ، أى يوالون الكافرين متجاوزين ولاية المؤمنين (أيبتغون عندهم العزة) هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والجملة معترضة * قوله (فان العزّة لله جميعا) هذه الجملة تعليل لما تقدّم من توبيخهم بابتغاء العزّة عند الكافرين ، وجميع أنواع العزّة وأفرادها مختص بالله سبحانه ، وما كان منها مع غيره فهو من فيضه وتفضله كما فى قوله ــ ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ــ * والعزة : الغلبة ، يقال عزّه يعزّه عزّا : إذا غلبه (وقد نزّل عليكم فى الكتاب) الخطاب لجميع من أظهر الايمان من مؤمن ومنافق ، لأن من أظهر الايمان فقد لزمه أن يمتثل ماأنزله الله ، وقيل انه خطاب للمنافقين فقط كما يفيده التشديد والتوبيخ ، وقرأ عاصم و يعقوب (نزل) بفتح النون والزاى وتشديدها ، وفاعله ضمير راجع الى اسم الله تعالى فى قوله (فان العزّة لله جميعا) . وقرأ حميد بتخفيف الزاى مفتوحة مع فتح النون ، وقرأ الباقون بضم النون مع كسر الزاى مشدّدة على البناء للمجهول * وقوله (أن إذا سمعتم آيات الله) فى محل نصب على القراءة الأولى على أنه مفعول نزل ، وفى محل رفع على القراءة الثانية على أنه فاعل ، وفى

محل رفع على أنه مفعول مالم يسمّ فاعله على القراءة الثالثة ، وأن هى المخففة من الثقيلة ، والتقدير أنه اذا سمعتم آيات الله * والكتاب : هو القرآن * وقوله (يكفر بها و يستهزأ بها) حالان ، أى اذا سمعتم الكفر والاستهزاء بآيات الله فأوقع السماع على الآيات * والمراد سماع الكفر والاستهزاء * وقوله (فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) أى أنزل عليكم فى الكتاب أنكم عند هذا السماع للكفر والاستهزاء بآيات الله لاتقعدوا معهم مادامواكذلك حتى يخوضوا فى حديث غير حديث الكفر والاستهزاء بها * والذى أنزله الله عليهم فى الكتاب هو قوله تعالى ــ واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ــ وقد كان جماعة من الداخلين فى الاسلام يقعدون مع المشركين واليهود حال سخريتهم بالقرآن واستهزائهم به فنهوا عن ذلك .

وفى هذه الآية باعتبار عموم لفظها الذى هو المعتبر دون خصوص السبب دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقص والاستهزاء للأدلة الشرعية كما يقع كثيرا من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء الرجال بالكتاب والسنة ولم يبق فى أيديهم سوى قال إمام مذهبنا كذا . وقال فلان من أتباعه بكذا ، واذا سمعوا من يستدلّ على تلك المسئلة بآية قرآنية أو بحديث نبوىّ سخروا منه ولم يرفعوا الى ماقاله رأسا ولا بالوا به بالة وظنوا أنه قد جاء بأمر فظيع وخطب شنيع ، وخالف مذهب إمامهم الذى نزلوه منزلة معلم الشرائع ، بل بالغوا فى ذلك حتى جعلوا رأيه الفائل ، واجتهاده الذى هو عن منهج الحق مائل ، مقدّما على الله وعلى كتابه وعلى رسوله ، فانا لله وانا اليه راجعون ، ماصنعت هذه المذاهب بأهلها والأئمة الذين انتسب هؤلاء المقلدة اليهم برآء من فعلهم فانهم قد صرّحوا فى مؤلفاتهم بالنهى عن تقليدهم كما أوضحنا ذلك فى رسالتنا المسماة « بالقول المفيد . فى حكم التقليد » وفى مؤلفنا المسمى « بأدب الطلب ومنتهى الأرب» : اللهمّ انفعنا بما علمتنا واجعلنا من المقتدين بالكتاب والسنة و باعد بيننا و بين آراء الرجال المبنية على شفا جرف هار . يامجيب السائلين * قوله (إنكم اذا مثلهم) تعليل للنهى أى انكم ان فعلتم ذلك ولم تنتهوا فأنتم مثلهم فى الكفر ، قيل وهذه المماثلة ليست فى جميع الصفات ولكنه الزام شبه بحكم الظاهر كما فى قول القائل : * وكل قرين بالمقارن يقتدى *

وهذه الآية محكمة عند جميع أهل العلم الا ماروى عن الكلبى فانه قال هى منسوخة بقوله تعالى ــ وماعلى الذين يتقون من حسابهم من شىء ــ وهو مردود فان من التقوى اجتناب مجالس هؤلاء الذين يكفرون بآيات الله و يستهزئون بها * قوله (ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا) هذا تعليل لكونهم مثلهم فى الكفر ، قيل وهم القاعدون والمقعود اليهم عند من جعل الخطاب موجها الى المنافقين * قوله (الذين يتربصون بكم) أى ينتظرون بكم مايتجدّد و يحدث لكم من خير أوشر ، والموصول فى محل نصب على أنه صفة للمنافقين أو بدل منهم فقط دون الكافرين ، لأن التربص المذكور هو من المنافقين دون الكافرين ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على الذم ، (فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم) هذه الجملة والجملة التى بعدها حكاية لتربصهم ، أى ان حصل لكم فتح من الله بالنصر على من يخالفكم من الكفار (قالوا) لكم (ألم نكن معكم) فى الاتصاف بظاهر الاسلام والتزام أحكامه والمظاهرة والتسويد وتكثير العدد (وان كان للكافرين نصيب) من الغلب لكم والظفر بكم (قالوا) للكافرين (ألم نستحوذ عليكم) ، أى ألم نقهركم ونغلبكم ونتمكن منكم ولكن أبقينا عليكم ، وقيل المعنى انهم قالوا للكفار الذين ظفروا بالمسلمين ألم نستحوذ عليكم حتى هابكم المسلمون وخذلناهم عنكم ، والأوّل أولى ، فان معنى الاستحواذ : الغلب ، يقال استحوذ على كذا ، أى غلب عليه ، ومنه قوله تعالى ــ استحوذ عليهم الشيطان ــ ولا يصح أن يقال ألم نغلبكم حتى هابكم المسلمون ، ولكن المعنى ألم نغلبكم يامعشر الكافرين ونتمكن منكم فتركناكم وأبقينا عليكم حتى حصل

لكم هذا الظفر بالمسلمين (ونمنعكم من المؤمنين) بتخذيلهم وتثبيطهم عنكم حتى ضعفت قلوبهم عن الدفع لكم وعجزوا عن الانتصاف منكم ، والمراد أنهم يميلون مع من له الغلب والظفر من الطائفتين ويظهرون لهم أنهم كانوا معهم على الطائفة المغلوبة ، وهذا شأن المنافقين : أبعدهم الله ، وشأن من حذا حذوهم من أهل الاسلام من التظهر لكل طائفة بأنه معها على الأخرى ، والميل الى من معه الحظ من الدنيا فى مال أو جاه فيلقاه بالتملق والتودد والخضوع والذلة ، ويلقى من لاحظ له من الدنيا بالشدّة والغلظة وسوء الخلق ويزدرى به ويكافحه بكل مكروه ، فقبح الله أخلاق أهل النفاق وأبعدها * قوله (فالله يحكم بينكم يوم القيامة) بما انطوت عليه ضمائرهم من النفاق والبغض للحق وأهله ، ففى هذا اليوم تنكشف الحقائق وتظهر الضمائر وان حقنوا فى الدنيا دماءهم وحفظوا أموالهم بالتكلم بكلمة الاسلام نفاقا (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) ، هذا فى يوم القيامة اذا كان المراد بالسبيل النصر والغلب ، أو فى الدنيا ان كان المراد به الحجة : قال ابن عطية : قال جميع أهل التأويل : ان المراد بذلك يوم القيامة . قال ابن العربى : وهذا ضعيف لعدم فائدة الخبر فيه ، وسببه توهم من توهم أن آخر الكلام يرجع الى أوّله يعنى قوله (فالله يحكم بينكم يوم القيامة) وذلك يسقط فائدته ، اذ يكون تكرارا هذا معنى كلامه ، وقيل المعنى ان الله لايجعل للكافرين سبيلا على المؤمنين يمحو به دولتهم ويذهب آثارهم ويستبيح بيضتهم كما يفيده الحديث الثابت فى الصحيح «وأن لا أسلط عليهم عدوّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبى بعضهم بعضا» وقيل انه سبحانه لايجعل للكافرين سبيلا على المؤمنين ماداموا عاملين بالحق غير راضين بالباطل ولا تاركين للنهى عن المنكر كما قال تعالى ــ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ــ قال ابن العربى : وهذا نفيس جدا ، وقيل ان الله لايجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا شرعا ، فان وجد فبخلاف الشرع ، هذا خلاصة ماقاله أهل العلم فى هذه الآية ، وهى صالحة للاحتجاج بها على كثير من المسائل

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله (ان الذين آمنوا ثم كفروا) الآية قال : هم اليهود والنصارى آمنت اليهود بالتوراة ثم كفرت ، وآمنت النصارى بالانجيل ثم كفرت . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عنه فى الآية قال : هؤلاء اليهود آمنوا بالتوراة ثم كفروا ثم ذكر النصارى فقال : ثم آمنوا ثم كفروا ، يقول آمنوا بالانجيل ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا بمحمد ﷺ . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى الآية قال : هؤلاء المنافقون آمنوا مرتين ثم كفروا مرتين ثم ازدادوا كفرا بعد ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ثم ازدادوا كفرا) قال : تموا على كفرهم حتى ماتوا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبى وائل قال : ان الرجل ليتكلم فى المجلس بالكلمة من الكذب ليضحك بها جلساءه فيسخط الله عليهم جميعا ، فذكروا ذلك لابراهيم النخعى ، فقال صدق أبو وائل ، أو ليس ذلك فى كتاب الله ؟ فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : أنزل فى سورة الأنعام ــ حتى يخوضوا فى حديث غيره ــ ثم نزل التشديد فى سورة النساء (انكم إذا مثلهم) . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير ان الله جامع المنافقين من أهل المدينة والكافرين من أهل مكة الذين خاضوا واستهزءوا بالقرآن فى جهنم جميعا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد (الذين يتربصون بكم) قال : هم المنافقون يتربصون بالمؤمنين (فان كان لكم فتح من الله) ان أصاب المسلمين من عدوّهم غنيمة ، قال المنافقون (ألم نكن) قد كنا (معكم) ، فأعطونا من الغنيمة مثل ماتأخذون (وان كان للكافرين نصيب) يصيبونه من المسلمين ، قال المنافقون للكفار (ألم نستحوذ عليكم) ألم نبين لكم أنا على ما أنتم عليه ، قد كنا نثبطهم عنكم . وأخرج ابن جرير عن السدّى (ألم نستحوذ عليكم) قال : نغلب عليكم . وأخرج عبد الرزاق

والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الشعب والحاكم وصححه عن على أنه قيل له أرأيت هذه الآية (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون ، فقال ادنه ادنه ، ثم قال (فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : فى الآخرة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبى مالك نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن السدى (سبيلا) قال : حجة .

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا * إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا *

قوله (ان المنافقين يخادعون الله) هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان بعض قبائح المنافقين وفضائحهم ، وقد تقدّم معنى الخدع فى البقرة ، ومخادعتهم لله هى أنهم يفعلون فعل المخادع من اظهار الايمان وابطان الكفر ، ومعنى كون الله خادعهم : أنه صنع بهم صنع من يخادع من خادعه ، وذلك أنه تركهم على ماهم عليه من التظهر بالاسلام فى الدنيا ، فعصم به أموالهم ودماءهم ، وأخر عقوبتهم الى الدار الآخرة ، فجازاهم على خداعهم بالدرك الأسفل من النار ، قال فى الكشاف : والخادع اسم فاعل من خادعته ، فخدعته اذا غلبته وكنت أخدع منه * والكسالى بضم الكاف جمع كسلان ، وقرئ بفتحها ، والمراد أنهم يصلون وهم متكاسلون متثاقلون لايرجون ثوابا ولايخافون عقابا * والرياء اظهار الجميل ليراه الناس ، لالاتباع أمر الله ، وقد تقدّم بيانه ، والمراءاة المفاعلة * قوله (ولايذكرون الله إلا قليلا) معطوف على يراءون ، أى لايذكرونه سبحانه إلا ذكرا قليلا أو لايصلون إلا صلاة قليلة ، ووصف الذكر بالقلة لعدم الاخلاص ، أو لكونه غير مقبول أو لكونه قليلا فى نفسه ، لأن الذى يفعل الطاعة لقصد الرياء : انما يفعلها فى المجامع ولايفعلها خاليا كالمخلص * قوله (مذبذبين بين ذلك) المذبذب المتردد بين أمرين والذبذبة الاضطراب ، يقال ذبذبه فتذبذب ، ومنه قول النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة * ترى كل ملك دونها يتذبذب

قال ابن جنى المذبذب : القلق الذى لايثبت على حال فهؤلاء المنافقون متردّدون بين المؤمنين والمشركين لامخلصين الايمان ولامصرّحين بالكفر ، قال فى الكشاف : وحقيقة المذبذب الذى يذبّ عن كلا الجانبين أى يذاد ويدفع ، فلا يقرّ فى جانب واحد كما يقال فلان يرمى به الرجوان الا أن الذبذبة فيها تكرير ليس فى الذب كأن المعنى كلما مال الى جانب ذبّ عنه انتهى . وقرأ الجمهور بضم الميم وفتح الذالين . وقرأ ابن عباس بكسر الذال الثانية ، وفى حرف أبىّ متذبذبين . وقرأ الحسن بفتح الميم والذالين ، وانتصاب مذبذبين اما على

الحال أو على الذم ، والاشارة بقوله بين ذلك الى الايمان والكفر * قوله (لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) أى لامنسو بين الى المؤمنين ولا الى الكافرين ، ومحل الجملة : النصب على الحال ، أو على البدل من مذبذبين أو على التفسير له (ومن يضلل الله) أى يخذله و يسلبه التوفيق (فلن تجد له سبيلا) أى طريقا يوصله الى الحق * قوله (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) أى لاتجعلوهم خاصة لكم و بطانة توالونهم من دون إخوانكم من المؤمنين كما فعل المنافقون من موالاتهم للكافرين (أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، أى أتريدون أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة يعذبكم بها بسبب ارتكابكم لما نهاكم عنه من موالاة الكافرين (ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) . قرأ الكوفيون الدرك بسكون الراء . وقرأ غيرهم بتحريكها ، قال أبوعلى هما لغتان والجمع أدراك ، وقيل جمع المحرك أدراك مثل جمل وأجمال ، وجمع الساكن أدرك : مثل فلس وأفلس . قال النحاس : والتحريك أفصح ، والدرك : الطبقة * والنار دركات سبع ، فالمنافق فى الدرك الأسفل منها ، وهى الهاوية ، لغلظ كفره وكثرة غوائله ، وأعلى الدركات جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية . وقد تسمى جميعها باسم الطبقة العليا ، أعاذنا الله من عذابها (ولن تجد لهم نصيرا) يخلصهم من ذلك الدرك ، والخطاب لكل من يصلح له ، أو للنبى ﷺ (إلا الذين تابوا) استثناء من المنافقين ، أى إلا الذين تابوا عن النفاق (وأصلحوا) ماأفسدوا من أحوالهم (وأخلصوا دينهم لله) أى جعلوه خالصا له غير مشوب بطاعة غيره * والاعتصام بالله : التمسك به والوثوق بوعده ، والاشارة بقوله (أولئك) إلى الذين تابوا واتصفوا بالصفات السابقة * قوله (مع المؤمنين) . قال الفراء ، أى من المؤمنين يعنى الذين لم يصدر منهم نفاق أصلا . قال القتيبى حاد عن كلامهم غضبا عليهم فقال (فأولئك مع المؤمنين) ولم يقل هم المؤمنون انتهى * والظاهر أن معنى مع معتبر هنا ، أى فأولئك مصاحبون للمؤمنين فى أحكام الدنيا والآخرة ، ثم بين ماأعدّ الله للمؤمنين الذين هؤلاء معهم فقال (وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما) وحذفت الياء من يؤت فى الخط كما حذفت فى اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها ، ومثله — يوم يدع الداع — وسندع الزبانية — ويوم يناد المناد — ونحوها فان الحذف فى الجميع لالتقاء الساكنين * قوله (مايفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم) هذه الجملة متضمنة لبيان أنه لاغرض له سبحانه فى التعذيب الا مجرد المجازاة للعصاة * والمعنى أىّ منفعة له فى عذابكم ان شكرتم وآمنتم ، فان ذلك لايزيد فى ملكه كما أن ترك عذابكم لاينقص من سلطانه (وكان الله شاكرا عليما) أى يشكر عباده على طاعته فيثيبهم عليها و يتقبلها منهم * والشكر فى اللغة : الظهور ، يقال دابة شكور : اذا ظهر من سمنها فوق ماتعطى من العلف .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن فى قوله (ان المنافقين يخادعون الله) الآية : قال يلقى على كل مؤمن ومنافق نور يمشون به يوم القيامة حتى اذا انتهوا إلى الصراط طفىء نور المنافقين ومضى المؤمنون بنورهم فتلك خديعة الله إياهم . وأخرج ابن جرير عن السدّى نحوه . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد وسعيد بن جبير نحوه أيضا ولا أدرى من أين جاء لهم هذا التفسير ، فان مثله لاينقل الا عن النبى ﷺ . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج فى الآية : قال نزلت فى عبدالله بن أبىّ وأبى عامر بن النعمان . وقد ورد فى الأحاديث الصحيحة وصف صلاة المنافق وأنه يرقب الشمس حتى اذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقرها أربعا لايذكر الله فيها إلا قليلا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (مذبذبين بين ذلك) قال هم المنافقون (لا إلى هؤلاء) يقول لا إلى أصحاب محمد (ولا إلى هؤلاء) اليهود ، وثبت فى

الصحيح عن النبيّ ﷺ « ان مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير الى هذه مرّة والى هذه مرّة فلا تدرى أيهما تتبع » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) قال ان لله السلطان على خلقه ولكنه يقول عذرا مبينا . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال « كل سلطان فى القرآن فهو حجة والله سبحانه أعلم » . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن مسعود فى قوله (ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) قال فى توابيت من حديد مقفلة عليهم ، وفى لفظ مبهمة عليهم ، أى مغلقة لايهتدى لمكان فتحها . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى هريرة نحوه . وأخرج ابن أبى الدنيا عن ابن مسعود نحوه أيضا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله (مايفعل الله بعذابكم ان شكرتم) الآية قال ان الله لايعذّب شاكرا ولا مؤمنا .

لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا * إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا *

نفى الحب كناية عن البغض ، وقراءة الجمهور (الامن ظلم) على البناء للمجهول . وقرأ زيد بن أسلم وابن أبى اسحق والضحاك وابن عباس وابن جبير وعطاء بن السائب (الا من ظلم) على البناء للمعلوم ، وهو على القراءة الأولى استثناء متصل بتقدير مضاف محذوف ، أى الاجهر من ظلم ، وقيل انه على القراءة الأولى أيضا منقطع ، أى لكن من ظلم فله أن يقول ظلمنى فلان .

واختلف أهل العلم فى كيفية الجهر بالسوء الذى يجوز لمن ظلم ، فقيل هوأن يدعو على من ظلمه ، وقيل لابأس أن يجهر بالسوء من القول على من ظلمه : بأن يقول فلان ظلمنى أو هو ظالم أونحو ذلك ، وقيل معناه الا من أكره على أن يجهر بسوء من القول من كفر أو نحوه فهو مباح له ، والآية على هذا فى الاكراه ، وكذا قال قطرب ، قال ويجوز أن يكون على البدل كأنه قال لايحبّ الله الامن ظلم ، أى لايحبّ الظالم بل يحبّ المظلوم * والظاهر من الآية أنه يجوز لمن ظلم أن يتكلم بالكلام الذى هو من السوء فى جانب من ظلمه ويؤيده الحديث الثابت فى الصحيح بلفظ « لىّ الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته » ، وأما على القراءة الثانية فالاستثناء منقطع ، أى إلا من ظلم فى فعل أو قول فاجهروا له بالسوء من القول فى معنى النهى عن فعله والتوبيخ له . وقال قوم معنى الكلام لايحبّ الله أن يجهر أحد بالسوء من القول ، لكن من ظلم فانه يجهر بالسوء ظلما وعدوانا وهو ظالم فى ذلك ، وهذا شأن كثير من الظلمة فانهم مع ظلمهم يستطيلون بألسنتهم على من ظلموه وينالون من عرضه . وقال الزجاج يجوز أن يكون المعنى إلا من ظلم فقال سوءا فانه ينبغى أن يأخذوا على يديه ويكون استثناء ليس من الأوّل (وكان الله سميعا عليما) هذا تحذير للظالم بأن الله يسمع مايصدر منه ويعلم به ، ثم بعد أن أباح للمظلوم أن يجهر بالسوء ندب إلى ماهو الأولى والأفضل فقال (إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء) تصابون به (فان الله كان عفوّا) عن عباده (قديرا) على الانتقام منهم بما كسبت أيديهم فاقتدوا به سبحانه فانه يعفو مع القدرة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (لايحبّ الله الجهر بالسوء من القول) قال لايحبّ الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوما فانه رخص له أن يدعو على من ظلمه وان يصبر فهو خير له . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى الآية : قال نزلت

فى رجل ضاف رجلا بفلاة من الأرض فلم يضفه ثم ذكر أنه لم يضفه لم يزد على ذلك . وأخرج ابن المنذر عن اسماعيل (لايحبّ الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) قال كان الضحاك بن مزاحم يقول هذا على التقديم والتأخير يقول الله : مايفعل الله بعذا بكم ان شكرتم وآمنتم إلامن ظلم وكان يقرؤها كذلك ، ثم قال (لايحبّ الله الجهر بالسوء من القول) أى على كل حال هكذا قال وهوقريب من التحريف لمعنى الآية . وقد أخرج ابن أبى شيبة والترمذى عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » ، وروى نحوه أبوداود عنها من وجه آخر . وقد أخرج أبو داود من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال « المتسابان ماقالاه فعلى البادئ منهما مالم يعتد المظلوم » .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً * أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْكٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكٰفِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً * وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولٰئِكَ سَوْفَ نُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللهُ غَفُورًا رَحِيماً *

لما فرغ من ذكر المشركين والمنافقين ذكر الكفار من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، لأنهم كفروا بمحمد ﷺ فكان ذلك كالكفر بجميع الرسل والكتب المنزلة ، والكفر بذلك كفر بالله ، وينبغى حمل قوله (ان الذين يكفرون بالله ورسله) على أنه استلزم ذلك كفرهم ببعض الكتب والرسل لا أنهم كفروا بالله ورسله جميعا : فان أهل الكتاب لم يكفروا بالله ولا بجميع رسله ، لكنهم لما كفروا بالبعض كان ذلك كفرا بالله وبجميع الرسل * ومعنى (ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله) أنهم كفروا بالرسل بسبب كفرهم ببعضهم وآمنوا بالله فكان ذلك تفريقا بين الله وبين رسله (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) هم اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد ، وكذلك النصارى آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد (ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا) أى يتخذوا بين الايمان والكفر دينا متوسطا بينهما ، فالاشارة بقوله (ذلك) الى قوله نؤمن ونكفر (أولئك هم الكافرون) أى الكاملون فى الكفر * وقوله (حقا) مصدر مؤكد لمضمون الجملة ، أى حق ذلك حقا ، أو هو صفة لمصدر الكافرين ، أى كفرا حقا * قوله (ولم يفرّقوا بين أحد منهم) بأن يقولوا نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ودخول بين على أحد لكونه عاما فى المفرد مذكرا ومؤنثا ومثناهما وجمعهما . وقد تقدّم تحقيقه ، والاشارة بقوله (أولئك) إلى الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرّقوا بين أحد منهم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى الآية : قال (أولئك) أعداء الله اليهود والنصارى آمنت اليهود بالتوراة وموسى وكفروا بالانجيل وعيسى ، وآمنت النصارى بالانجيل وعيسى وكفروا بالقرآن ومحمد اتخذوا اليهودية والنصرانية وهما بدعتان ليستا من الله وتركوا الاسلام ، وهو دين الله الذى بعث به رسله . وأخرج ابن جرير عن السدّى وابن جريج نحوه .

يَسْئَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتٰبِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتٰباً مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا ٱللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنٰتُ فَعَفَوْنَا عَنْ

ذٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَاناً مُبِيناً * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً * فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَلْ رَفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً * وَإِنْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً *

قوله (يسألك أهل الكتاب) هم اليهود سألوه ﷺ أن يرقى الى السماء وهم يرونه فينزل عليهم كتابا مكتوبا فيما يدّعيه يدل على صدقه دفعة واحدة كما أتى موسى بالتوراة تعنتا منهم، أبعدهم الله ، فأخبره الله عز وجل بأنهم قد سألوا موسى سؤالا أكبر من هذا السؤال ، فقالوا (أرنا الله جهرة) أى عيانا وقد تقدّم معناه فى البقرة ، وجهرة نعت لمصدر محذوف ، أى رؤية جهرة * وقوله (فقد سألوا) جواب شرط مقدر أى ان استكبرت هذا السؤال منهم لك (فقد سألوا موسى أكبر من ذلك) * قوله (فأخذتهم الصاعقة) هى النار التى نزلت عليهم من السماء فأهلكتهم ، والباء فى قوله (بظلمهم) للسببية ، أى بسبب ظلمهم فى سؤالهم الباطل لامتناع الرؤية عيانا فى هذه الحالة ، وذلك لا يستلزم امتناعها يوم القيامة ، فقد جاءت بذلك الأحاديث المتواترة ومن استدل بهذه الآية على امتناع الرؤية يوم القيامة ، فقد غلط غلطا بينا ، ثم لم يكتفوا بهذا السؤال الباطل الذى نشأ منهم بسبب ظلمهم بعد ما رأوا المعجزات ، بل ضموا اليه ما هو أقبح منه : وهو عبادة العجل ، وفى الكلام حذف ، والتقدير فأحييناهم (فاتخذوا العجل) * والبينات : البراهين والدلائل ، والمعجزات من اليد والعصا وفلق البحر وغيرها (فعفونا عن ذلك) أى عما كان منهم من التعنت وعبادة العجل (وآتينا موسى سلطانا مبينا) أى حجة بينة ، وهى الآيات التى جاء بها ، وسميت سلطانا ، لأن من جاء بها قهر خصمه ، ومن ذلك أمر الله سبحانه له بأن يأمرهم بقتل أنفسهم توبة عن معصيتهم ، فانه من جملة السلطان الذى قهرهم به (ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم) أى بسبب ميثاقهم ليعطوه ، لأنه روى أنهم امتنعوا من قبول شريعة موسى فرفع الله عليهم الطور فقبلوها ، وقيل ان المعنى بسبب نقضهم ميثاقهم الذى أخذ منهم ، وهو العمل بما فى التوراة وقد تقدّم رفع الجبل فى البقرة ، وكذلك تفسير دخولهم الباب سجدا (وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت) فتأخذوا ما أمرتم بتركه فيه من الحيتان ، وقد تقدّم تفسير ذلك ، وقرئ لا تعتدوا وتعدّوا بفتح العين وتشديد الدال (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) مؤكدا وهو العهد الذى أخذه عليهم فى التوراة ، وقيل انه عهد مؤكد باليمين ، فسمى غليظا لذلك * قوله (فبما نقضهم ميثاقهم) ما مزيدة للتوكيد ، أو نكرة ، ونقضهم بدل منها ، والباء متعلقة بمحذوف والتقدير فبنقضهم ميثاقهم لعناهم . وقال الكسائى : هو متعلق بما قبله ، والمعنى فأخذتهم الصاعقة بظلمهم الى قوله (فبما نقضهم ميثاقهم) قال ففسر ظلمهم الذى أخذتهم الصاعقة بسببه بما بعده من نقضهم ميثاقهم وقتلهم الأنبياء وما بعده ، وأنكر ذلك ابن جرير الطبرى وغيره ، لأن الذين أخذتهم الصاعقة كانوا على عهد موسى ، والذين قتلوا الأنبياء ورموا مريم بالبهتان كانوا بعد موسى بزمان ، فلم تأخذ الصاعقة الذين أخذتهم برمتهم بالبهتان ، قال المهدوى وغيره : وهذا لا يلزم ، لأنه يجوز أن يخبر عنهم ، والمراد

آباؤهم ، وقال الزجاج : المعنى فبنقضهم ميثاقهم حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، لأن هذه القصة ممتدّة الى قوله (فبظلم من الذين هادوا حرمنا) ونقضهم الميثاق أنه أخذ عليهم أن يبينوا صفة النبى ﷺ ، وقيل المعنى فبنقضهم ميثاقهم وفعلهم كذا طبع الله على قلوبهم ، وقيل المعنى فبنقضهم لا يؤمنون إلا قليلا ، والفاء فى قوله (فلا يؤمنون) مقحمة * قوله (وكفرهم بآيات الله) معطوف على ماقبله ، وكذا قوله (وقتلهم) ، والمراد بآيات الله كتبهم التى حرّفوها ، والمراد بالأنبياء الذين قتلوهم يحيى وزكرياء * وغلف جمع أغلف وهو المغطى بالغلاف ، أى قلوبنا فى أغطية فلا نفقه ماتقول ، وقيل ان غلف جمع غلاف ، والمعنى أن قلوبهم أوعية للعلم فلا حاجة لهم الى علم غير ماقد حوته قلوبهم وهو كقولهم - قلوبنا فى أكنة - وغرضهم بهذا ردّ حجة الرسل * قوله (بل طبع الله عليها بكفرهم) هذه الجملة اعتراضية ، أى ليس عدم قبولهم للحق بسبب كونها غلفا بحسب مقصدهم الذى يريدونه ، بل بحسب الطبع من الله عليها * والطبع : الختم ، وقد تقدّم ايضاح معناه فى البقرة * وقوله (فلا يؤمنون إلا قليلا) أى هى مطبوع عليها من الله بسبب كفرهم فلا يؤمنون إلا ايمانا قليلا ، أو الاقليلا منهم كعبد الله بن سلام ومن أسلم معه منهم * وقوله (وبكفرهم) معطوف على قولهم واعادة الجار لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، وهذا التكرير لافادة أنهم كفروا كفرا بعد كفر ، وقيل ان المراد بهذا الكفر كفرهم بالمسيح ، فحذف لدلالة مابعده عليه * قوله (وقولهم على مريم بهتانا عظيما) هو رميها بيوسف النجار ، وكان من الصالحين * والبهتان : الكذب المفرط الذى يتعجب منه * قوله (وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) معطوف على ماقبله ، وهو من جملة جناياتهم وذنوبهم لأنهم كذبوا بأنهم قتلوه وافتخروا بقتله وذكروه بالرسالة استهزاء ، لأنهم ينكرونها ولا يعترفون بأنه نبىّ ، وما ادّعوه من أنهم قتلوه قد اشتمل على بيان صفته وايضاح حقيقته الانجيل ، ومافيه هو من تحريف النصارى : أبعدهم الله ، فقد كذبوا وصدق الله القائل فى كتابه العزيز (وماقتلوه وما صلبوه) والجملة حالية أى قالوا ذلك والحال (أنهم ماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم) أى ألقى شبهه على غيره ، وقيل لم يكونوا يعرفون شخصه وقتلوا الذى قتلوه وهم شاكون فيه (وان الذين اختلفوا فيه) أى فى شأن عيسى ، فقال بعضهم قتلناه ، وقال من عاين رفعه الى السماء ماقتلناه ، وقيل ان الاختلاف بينهم ، هو أن النسطورية من النصارى قالوا : صلب عيسى من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ، وقالت الملكانية وقع القتل والصلب على المسيح بكماله ناسوته ولاهوته ، ولهم من جنس هذا الاختلاف كلام طويل لا أصل له ، ولهذا قال الله (وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه) أى فى تردّد لا يخرج الى حيز الصحة ، ولا الى حيز البطلان فى اعتقادهم ، بل هم متردّدون مرتابون فى شكهم يعمهون . وفى جهلهم يتحيرون و (مالهم به من علم الا اتباع الظن) من زائدة لتوكيد نفى العلم ، والاستثناء منقطع ، أى لكنهم يتبعون الظن ، وقيل هو بدل بما قبله * والأوّل أولى : لا يقال ان اتباع الظن ينافى الشك الذى أخبر الله عنهم بأنهم فيه * لأن المراد هنا بالشك التردد كما قدّمنا ، والظن نوع منه ، وليس المراد به هنا ترجح أحد الجانبين * قوله (وما قتلوه يقينا) أى قتلا يقينا على أنه صفة مصدر محذوف ، أو متيقنين على أنه حال ، وهذا على أن الضمير فى قتلوه لعيسى ، وقيل انه يعود الى الظن ، والمعنى ماقتلوا ظنهم يقينا كقولك قتلته علما اذا علمته علما تاما ، قال أبو عبيدة : ولو كان المعنى وماقتلوا عيسى يقينا لقال وماقتلوه فقط ، وقيل المعنى وماقتلوا الذى شبه لهم ، وقيل المعنى : بل رفعه الله اليه يقينا ، وهو خطأ ، لأنه لا يعمل ما بعد بل فيما قبلها ، وأجاز ابن الأنبارى نصب يقينا بفعل مضمر هو جواب قسم ويكون (بل رفعه الله اليه) كلاما مستأنفا ، ولا وجه لهذه الأقوال ، والضمائر قبل قتلوه و بعده لعيسى ، وذكر اليقين هنا لقصد التهكم بهم لاشعاره بعلمهم فى الجملة * قوله (بل رفعه الله اليه) ردّ عليهم واثبات لما هو الصحيح

وقد تقدّم ذكر رفعه عليه السلام فى آل عمران * قوله (وان من أهل الكتاب الا ليؤمننّ به قبل موته) المراد بأهل الكتاب : اليهود والنصارى ، والمعنى ومامن أهل الكتاب أحدالاوالله ليؤمنن به قبل موته ، والضمير فى به راجع الى عيسى ، والضمير فى موته راجع الى مادل عليه الكلام : وهولفظ أحدالمقدّر أوالكتابى المدلول عليه بأهل الكتاب ، وفيه دليل على أنه لايموت يهودى أونصرانى الا وقد آمن بالمسيح ، وقيل كلا الضميرين لعيسى ، والمعنى أنه لايموت عيسى حتى يؤمن به كل كتابى فى عصره ، وقيل الضمير الأوّل لله ، وقيل الى محمد ، وقد اختار كون الضميرين لعيسى ابن جرير ، وقال به جماعة من السلف وهو الظاهر ، والمرادالايمان به عند نزوله فى آخر الزمان كما وردت بذلك الأحاديث المتواترة (ويوم القيامة يكون عيسى على أهل الكتاب (شهيدا) يشهد على اليهود بالتكذيب له ، وعلى النصارى بالغلوّفيه حتى قالوا هو ابن الله

وقد أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : جاء ناس من اليهود الى رسول الله ﷺ فقالوا : ان موسى جاء بالألواح من عند الله فأتنا بالألواح من عند الله حتى نصدقك . فأنزل الله (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء) إلى (وقولهم على مريم بهتانا عظيما) . وأخرج ابن جرير وابن المنذرعن ابن جريج فى الآية . قال ان اليهود والنصارى قالوا لمحمد ﷺ لن نبايعك على ماتدعونا اليه حتى تأتينا بكتاب من عند الله الى فلان انك رسول الله والى فلان انك رسول الله ، فأنزل الله (يسألك أهل الكتاب) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (أرنا الله جهرة) قال انهم اذا رأوه فقد رأوه وانما قالوا جهرة أرنا الله قال هو مقدم ومؤخر . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله (ورفعنا فوقهم الطور) قال جبل كانوا فى أصله فرفعه الله فجعله فوقهم كأنه ظلة فقال : لتأخذنّ أمرى أو لأرمينكم به فقالوا نأخذه فأمسكه الله عنهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وقولهم على مريم بهتانا عظيما) قال رموها بالزنا . وأخرج سعيد بن منصور والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى الى السماء خرج الى أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين فخرج عليهم من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء فقال ان منكم من يكفر بى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى ، ثم قال أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى : فقام شاب من أحدثهم سنا فقال له اجلس ، ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال اجلس ، ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال أنا ، فقال أنت ذاك فألقى عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روزنة فى البيت الى السماء ، قال وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق ، فقالت طائفة كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد الى السماء فهؤلاء اليعقوبية ، وقالت فرقة كان فينا ابن الله ماشاء ، ثم رفعه الله اليه ، وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة كان فينا عبدالله ورسوله وهؤلاء المسلمون فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الاسلام طامسا حتى بعث الله محمدا ، فأنزل الله عليه ــ فآمنت طائفة من بنى اسرائيل ــ يعنى الطائفة التى آمنت فى زمن عيسى ــ وكفرت طائفة ــ يعنى التى كفرت فى زمن عيسى ــ فأيدنا الذين آمنوا ــ فى زمن عيسى باظهار محمد دينهم على دين الكافرين . قال ابن كثير بعد أن ساقه بهذا اللفظ عند ابن أبى حاتم قال حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكره وهذا اسناد صحيح الى ابن عباس وصدق ابن كثير ، فهؤلاء كلهم من رجال الصحيح . وأخرجه النسائى من حديث أبى كريب عن أبى معاوية بنحوه . وقد رويت قصته عليه السلام من طرق بألفاظ مختلفة وساقها عبد بن حميد وابن جرير عن وهب ابن منبه على صفة قريبة مما فى الانجيل ، وكذلك ساقها ابن المنذر عنه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس

فى

فى قوله (وماقتلوه يقينا) قال لم يقتلوا ظنهم يقينا . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن جويبر والسدّى مثله أيضا . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله (وان من أهل الكتاب الا ليؤمننّ به قبل موته) قال خروج عيسى ابن مريم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طرق عنه فى الآية : قال قبل موت عيسى . وأخرجا عنه أيضا قال : قبل موت اليهودى . وأخرج ابن جرير عنه قال : انه سيدرك أناس من أهل الكتاب عيسى حين يبعث سيؤمنون به . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عنه قال « ليس يهودىّ يموت أبدا حتى يؤمن بعيسى ، قيل لابن عباس أرأيت ان خرّ من فوق بيت ؟ قال يتكلم به فى الهواء ، فقيل أرأيت ان ضرب عنق أحدهم ؟ قال يتلجلج بها لسانه » . وقد روى نحو هذا عنه من طرق ، وقال به جماعة من التابعين ، وذهب كثير من التابعين فمن بعدهم إلى أن المراد قبل موت عيسى كما روى عن ابن عباس قبل هذا ، وقيده كثير منهم بأنه يؤمن به من أدركه عند نزوله الى الأرض . وقد تواترت الأحاديث بنزول عيسى حسبما أوضحنا ذلك فى مؤلف مستقل يتضمن ذكر ما ورد فى المنتظر والدجال والمسيح .

فَبِظُلْمٍ مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُولَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا * إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا * رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *

الباء فى قوله (فبظلم) للسببية ، والتنكير والتنوين للتعظيم ، أى فبسبب ظلم عظيم حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، لا بسبب شىء آخر كما زعموا أنها كانت محرّمة على من قبلهم . وقال الزجاج هذا بدل من قوله (فبما نقضهم) * والطيبات المذكورة هى ما نصه الله سبحانه ـ وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذى ظفر ـ الآية (وبصدّهم) أنفسهم وغيرهم (عن سبيل الله) وهو اتباع محمد ﷺ وتحريفهم وقتلهم الأنبياء وما صدر منهم من الذنوب المعروفة * وقوله (كثيرا) مفعول للفعل المذكور ، أى بصدّهم ناسا كثيرا ، أو صفة مصدر محذوف ، أى صدّا كثيرا (وأخذهم الربا وقد نهوا عنه) أى معاملتهم فيما بينهم بالربا وأكلهم له وهو محرّم عليهم (وأكلهم أموال الناس بالباطل) كالرشوة والسحت الذى كانوا يأخذونه * قوله (لكن الرّاسخون فى العلم منهم) استدراك من قوله (وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما) أو ـ من الذين هادوا ـ وذلك أن اليهود أنكروا وقالوا ان هذه الأشياء كانت حراما فى الأصل وأنت تحلها فنزل (لكن الراسخون) * والراسخ : هو المبالغ فى علم الكتاب الثابت فيه ، والرسوخ : الثبوت . وقد تقدّم الكلام عليه فى آل عمران * والمراد عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ونحوهما ، والراسخون مبتدأ ، ويؤمنون خبره ،

والمؤمنون معطوف على الراسخون * والمراد بالمؤمنين إما من آمن من أهل الكتاب أو من المهاجرين والأنصار أو من الجميع * قوله (والمقيمين الصلاة) قرأ الحسن ومالك بن دينار وجماعة (والمقيمون الصلاة) على العطف على ماقبله ، وكذا هو فى مصحف ابن مسعود ، واختلف فى وجه نصبه على قراءة الجمهور على أقوال : الأول قول سيبويه انه نصب على المدح ، أى وأعنى المقيمين . قال سيبويه هذا باب ماينتصب على التعظيم ، ومن ذلك (والمقيمين الصلاة) وأنشد :

وكل قوم أطاعوا أمر سيدهم * إلا نميرا أطاعت أمر غاويها
الطاعنين ولما يطعنوا أحدا * والقائلون لمن دار نخليها

وأنشد : لايبعدنّ قومى الذين هم * سمّ العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك * والطيبون معاقد الأزر

قال النحاس وهذا أصح ماقيل فى المقيمين . وقال الكسائى والخليل هو معطوف على قوله (بما أنزل اليك) . قال الأخفش وهذا بعيد ، لأن المعنى يكون هكذا ، و يؤمنون بالمقيمين ، ووجهه محمد بن يزيد المبرد بأن المقيمين هنا هم الملائكة ، فيكون المعنى يؤمنون بما أنزل إليك و بما أنزل من قبلك و بالملائكة واختار هذا ، وحكى أن النصب على المدح بعيد ، لأن المدح إنما يأتى بعد تمام الخبر ، وخبر الرّاسخون هو قوله (أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما) وقيل ان المقيمين معطوف على الضمير فى قوله (منهم) ، وفيه أنه عطف على مضمر بدون إعادة الخافض . وحكى عن عائشة أنها سئلت عن المقيمين فى هذه الآية وعن قوله تعالى - ان هذان لساحران - وعن قوله - والصابئون - فى المائدة ؟ فقالت يابن أخى الكتاب أخطئوا . أخرجه عنها أبوعبيد فى فضائله وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر . وقال أبان بن عثمان كان الكاتب يملى عليه فيكتب فكتب (لكن الرّاسخون فى العلم منهم والمؤمنون) ثم قال ماأكتب ؟ فقيل له اكتب (والمقيمين الصلاة) فمن ثم وقع هذا . أخرجه عنه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر . قال القشيرى : وهذا باطل لأن الذين جمعوا الكتاب كانوا قدوة فى اللغة فلايظنّ بهم ذلك ، ويجاب عن القشيرى بأنه قد روى عن عثمان بن عفان أنه لما فرغ من المصحف وأتى به إليه . قال أرى فيه شيئا من لحن ستقيمه العرب بألسنها . أخرجه عنه ابن أبى داود من طرق . وقد رجح قول سيبويه كثير من أئمة النحو والتفسير ، ورجح قول الخليل والكسائى ابن جرير الطبرى والقفال ، وعلى قول سيبويه تكون الجملة معترضة بين المبتدأ والخبر على قول من قال ان خبر الرّاسخون هو قوله (أولئك سنؤتيهم) أو بين المعطوف والمعطوف عليه ان جعلنا خبر الرّاسخون هو يؤمنون ، وجعلنا قوله (والمؤتون الزكاة) عطفا على المؤمنون لاعلى قول سيبويه أن المؤتون الزكاة مرفوع على الابتداء أو على تقدير مبتدأ محذوف ، أى هم المؤتون الزكاة * قوله (والمؤمنون بالله واليوم الآخر) هم مؤمنو أهل الكتاب وصفوا أوّلا بالرسوخ فى العلم ثم بالايمان بكتب الله وأنهم يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وقيل المراد بهم المؤمنون من المهاجرين والأنصار كما سلف وأنهم جامعون بين هذه الأوصاف ، والاشارة بقوله (أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما) الى الرّاسخون وما عطف عليه * قوله (إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيئين من بعده) هذامتصل بقوله (يسألك أهل الكتاب) * والمعنى أن أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم كأمر من تقدّمه من الأنبياء فمابالكم تطلبون منه مالم يطلبه أحد من المعاصرين للرسل ، والوحى إعلام فى خفاء ، يقال وحى إليه بالكلام وحيا ، وأوحى يوحى إيحاء ، وخصّ نوحا لكونه أوّل نبىّ شرعت على لسانه الشرائع ، وقيل غير ذلك ، والكاف فى قوله (كما) نعت مصدر محذوف ، أى ايحاء مثل

ايحائنا الى نوح ، أوحال ، أى أوحينا اليك هذا الايحاء حال كونه مشبها بايحائنا الى نوح * قوله (وأوحينا الى ابراهيم) معطوف على (أوحينا الى نوح) (واسماعيل واسحق و يعقوب والأسباط) وهم أولاد يعقوب كما تقدّم (وعيسى وأيوب و يونس وهارون وسليمان) خص هؤلاء بالذكر بعد دخولهم فى لفظ النبيين تشريفا لهم كقوله ـ وملائكته ورسله وجبريل ـ ، وقدّم عيسى على أيوب ومن بعده مع كونهم فى زمان قبل زمانه ، ردّا على اليهود الذى كفروا به ، وأيضا فالواو ليست الا لمطلق الجمع * قوله (وآتينا داود زبورا) معطوف على أوحينا * والزبور : كتاب داود . قال القرطبي وهو مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام ، وانما هى حكم ومواعظ انتهى * قلت هو مائة وخمسون مزمورا * والمزمور : فصل يشتمل على كلام (١) لداود يستغيث بالله من خصومه و يدعو الله عليهم و يستنصره ، وتارة يأتى بمواعظ ، وكان يقول ذلك فى الغالب فى الكنيسة و يستعمل مع تكلمه بذلك شيئا من الآلات التى لها نغمات حسنة كما هو مصرّح بذلك فى كثير من تلك المزمورات * والزبر : الكتابة * والزبور بمعنى المزبور : أى المكتوب ، كالرسول والحلوب والركوب . وقرأ حمزة (زبورا) بضم الزاى ، جمع زبر كفلس وفلوس * والزبر بمعنى المزبور ، والأصل فى الكلمة التوثيق ، يقال بئر مزبورة أى مطوية بالحجارة ، والكتاب سمى زبورا لقوّة الوثيقة به * قوله (ورسلا) منصوب بفعل مضمر يدل عليه (أوحينا) أى وأرسلنا رسلا (قد قصصناهم عليك من قبل) وقيل هو منصوب بفعل دلّ عليه (قصصناهم) أى وقصصنا رسلا ، ومثله ما أنشده سيبويه :

أصبحت لاأحمل السلاح ولا * أملك رأس البعير ان نفرا
والذئب أخشاه ان مررت به * وحدى وأخشى الرياح والمطرا

أى وأخشى الذئب . وقرأ أبىّ (رسل) بالرفع على تقدير ، ومنهم رسل * ومعنى (من قبل) أنه قصهم عليه من قبل هذه السورة ، أو من قبل هذا اليوم ، قيل انه لما قصّ الله فى كتابه بعض أسماء أنبيائه ولم يذكر أسماء بعض . قالت اليهود ذكر محمد الأنبياء ولم يذكر موسى ، فنزل (وكلم الله موسى تكليما) . وقراءة الجمهور برفع الاسم الشريف على أن الله هو الذى كلم موسى . وقرأ النخعى ويحيى بن وثاب بنصب الاسم الشريف على أن موسى هو الذى كلم الله سبحانه (وتكليما) مصدر مؤكد * وفائدة التأكيد دفع توهم كون التكليم مجازا ، كما قال الفراء ان العرب تسمى ماوصل الى الانسان كلاما بأىّ طريق ، وقيل مالم يؤكد بالمصدر ، فاذا أكد لم يكن الا حقيقة الكلام . قال النحاس وأجمع النحويون على أنك اذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازا * قوله (رسلا مبشرين ومنذرين) بدل من رسلا الأوّل ، أو منصوب بفعل مقدّر : أى وأرسلنا ، أو على الحال بأن يكون رسلا موطئا لما بعده ، أو على المدح : أى مبشرين لأهل الطاعات ومنذرين لأهل المعاصى * قوله (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) أى معذرة يعتذرون بها كما فى قوله تعالى ـ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ـ وسميت المعذرة حجة مع أنه لم يكن لأحد من العباد على الله حجة تنبيها على أن هذه المعذرة مقبولة لديه تفضلا منه ورحمة * ومعنى قوله (بعد الرسل) بعد إرسال الرسل (وكان الله عزيزا) لايغالبه مغالب (حكيما) فى أفعاله التى من جملتها إرسال الرسل .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد (و بصدّهم عن سبيل الله كثيرا) قال أنفسهم وغيرهم عن الحق . وأخرج ابن اسحق فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله (لكن الراسخون فى العلم منهم) قال نزلت فى عبد الله بن سلام وأسيد بن شعبة وثعلبة بن شعبة حين فارقوا اليهود وأسلموا

(١) كيف يستقيم هذا والزبور الذى هو المزامير كلام الله اه مصححه

وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الدلائل عنه أن بعض اليهود قال يامحمد ما نعلم الله أنزل على بشرمن شىء بعد موسى ، فأنزل الله (انا أوحينا اليك) الآية . وأخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وابن حبان فى صحيحه والحاكم وابن عساكر عن أبى ذرّ قال قلت يارسول الله كم الأنبياء ؟ قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا . قلت كم الرسل منهم ؟ قال ثلثمائة وثلاثة عشر جمّ غفير . وأخرج نحوه ابن أبى حاتم عن أبى أمامة مرفوعا الا أنه قال : والرسل ثلثمائة وخمسة عشر . وأخرج أبو يعلى والحاكم بسند ضعيف عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ كان فيمن خلا من اخوانى من الأنبياء ثمانية آلاف نبىّ ثم كان عيسى ثم كنت أنا بعده . وأخرج الحاكم عن أنس بسند ضعيف نحوه . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرّم الفواحش ماظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب اليه المدح من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب اليه العذر من الله من أجل ذلك بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين .

لَٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيداً * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَٰلاً بَعِيداً * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا * يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً *

قوله (لكن الله يشهد) الاسم الشريف مبتدأ والفعل خبره ، ومع تشديد النون هو منصوب على أنه اسم لكنّ ، والاستدراك من محذوف مقدّر كأنهم قالوا : مانشهد لك يامحمد بهذا : أى الوحى والنبوّة ، فنزل (لكن الله يشهد) * وقوله (والملائكة يشهدون) جملة معطوفة على الجملة الأولى ، أو جملة حالية ، وكذلك قوله (أنزله بعلمه) جملة حالية أى متلبسا بعلمه الذى لايعلمه غيره من كونك أهلا لما اصطفاك الله له من النبوّة وأنزله عليك من القرآن (وكفى بالله شهيدا) أى كفى الله شاهدا والباء زائدة ، وشهادة الله سبحانه هى مايضعه من المعجزات الدالة على صحة النبوّة ، فان وجود هذه المعجزات شهادة للنبى ﷺ بصدق ما أخبر به من هذا وغيره (ان الذين كفروا) بكل مايجب الايمان به ، أو بهذا الأمر الخاص ، وهو ما فى هذا المقام (وصدوا عن سبيل الله) وهو دين الاسلام بانكارهم نبوّة محمد ﷺ و بقولهم ما نجد صفته فى كتابنا وانما النبوّة فى ولد هرون وداود ، و بقولهم إن شرع موسى لا ينسخ (قد ضلوا ضلالا بعيدا) عن الحق بما فعلوا ، لأنهم مع كفرهم منعوا غيرهم عن الحق (ان الذين كفروا) بجحدهم (وظلموا) غيرهم بصدّهم عن السبيل أوظلموا محمدا بكتمانهم نبوّته أوظلموا أنفسهم بكفرهم ، ويجوز الحمل على جميع هذه المعانى (لم يكن الله ليغفرلهم) اذا استمروا على كفرهم وماتوا كافرين (ولا ليهديهم طريقا الا طريق جهنم) لكونهم اقترفوا

مايوجب

مايوجب لهم ذلك بسوء اختيارهم وفرط شقائهم وجحدوا الواضح وعاندوا البين (خالدين فيها أبدا) أى يدخلهم جهنم خالدين فيها ، وهى حال مقدّرة * وقوله (أبدا) منصوب على الظرفية ، وهو لدفع احتمال أن الخلود هنا يراد به المكث الطويل (وكان ذلك) أى تخليدهم فى جهنم أو ترك المغفرة لهم والهداية مع الخلود فى جهنم (على الله يسيرا) لأنه سبحانه لايصعب عليه شىء ـ انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ـ (فآمنوا خيرا لكم) اختلف أئمة النحو فى انتصاب خيرا على ماذا ؟ فقال سيبويه والخليل بفعل مقدر : أى واقصدوا أو أتوا خيرا لكم ، وقال الفراء : هو نعت لمصدر محذوف ، أى فآمنوا إيمانا خيرا لكم ، وذهب أبو عبيدة والكسائى الى أنه خبر لكان مقدّرة : أى فآمنوا يكن الايمان خيرا لكم ، وأقوى هذه الأقوال الثالث ، ثم الأوّل ، ثم الثانى على ضعف فيه (وان تكفروا) أى وان تستمروا على كفركم (فان لله مافى السموات والارض) من مخلوقاته ، وأنتم من جملتهم ، ومن كان خالقا لكم ولها فهو قادر على مجازاتكم بقبيح أفعالكم ، ففى هذه الجملة وعيد لهم مع إيضاح وجه البرهان و إماطة الستر عن الدليل بما يوجب عليهم القبول والاذعان . لأنهم يعترفون بأن الله خالقهم ـ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله ـ * قوله (ياأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم) الغلوّ : هو التجاوز فى الحدّ ومنه غلا السعر يغلو غلاء ، وغلا الرجل فى الأمر غلوّا ، وغلا بالجارية لحمها وعظمها اذا أسرعت الشباب فجاوزت لداتها * والمراد بالآية : النهى لهم عن الافراط تارة والتفريط أخرى ، فمن الافراط غلوّ النصارى فى عيسى حتى جعلوه ربا ، ومن التفريط غلوّ اليهود فيه عليه السلام حتى جعلوه لغير رشدة ، وما أحسن قول الشاعر :

ولا تغل فى شىء من الأمر واقتصد * كلا طرفى قصد الأمور ذميم

(ولاتقولوا على الله الا الحق) وهو ماوصف به نفسه ووصفته به رسله ولاتقولوا الباطل كقول اليهود عزير ابن الله ، وقول النصارى المسيح ابن الله (انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) المسيح مبتدأ وعيسى بدل منه ، وابن مريم صفة لعيسى ، ورسول الله الخبر ، ويجوز أن يكون عيسى ابن مريم عطف بيان والجملة تعليل للنهى ، وقد تقدّم الكلام على المسيح فى آل عمران * قوله (وكلمته) عطف على رسول الله ، و (ألقاها إلى مريم) حال ، أى كوّنه بقوله كن فكان بشرا من غير أب ، وقيل (كلمته) بشارة الله مريم ورسالته اليها على لسان جبريل بقوله ـ إذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه ـ وقيل الكلمة هاهنا بمعنى الآية ، ومنه ـ وصدّقت بكلمات ربها ـ * وقوله ـ مانفدت كلمات الله ـ * قوله (وروح منه) أى أرسل جبريل فنفخ فى درع مريم فحملت باذن الله ، وهذه الاضافة للتفضيل ، وان كان جميع الأرواح من خلقه تعالى ، وقيل قد يسمى من تظهر منه الأشياء العجيبة روحا و يضاف الى الله فيقال هذا روح من الله : أى من خلقه ، كما يقال فى النعمة انها من الله ، وقيل (روح منه) أى من خلقه كما قال تعالى ـ وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه ـ : أى من خلقه ، وقيل (روح منه) أى رحمة منه ، وقيل (روح منه) : أى برهان منه ، وكان عيسى برهانا وحجة على قومه * وقوله (منه) متعلق بمحذوف وقع صفة لروح ، أى كائنة منه ، وجعلت الروح منه سبحانه وان كانت بنفخ جبريل لكونه تعالى الآمر لجبريل بالنفخ (فآمنوا بالله ورسله) أى بأنه سبحانه إله واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، و بأن رسله صادقون مبلغون عن الله ماأمرهم بتبليغه ، ولاتكذبوهم ولاتغلوا فيهم ، فتجعلوا بعضهم آلهة * قوله (ولاتقولوا ثلاثة) ارتفاع ثلاثة على أنه خبر مبتدا محذوف ، قال الزجاج : أى لاتقولوا آلهتنا ثلاثة ، وقال الفراء وأبو عبيد ، أى لاتقولوا هم ثلاثة كقوله ـ سيقولون ثلاثة ـ وقال أبو على الفارسى لاتقولوا هو ثالث ثلاثة ، فحذف المبتدأ والمضاف ، والنصارى مع تفرق مذاهبهم متفقون على التثليث و يعنون بالثلاثة الثلاثة

الأقانيم فيجعلونه سبحانه جوهرا واحدا وله ثلاثة أقانيم ، و يعنون بالأقانيم أقنوم الوجود ، وأقنوم الحياة ، وأقنوم العلم ، ور بما يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس : فيعنون بالأب الوجود و بالروح الحياة و بالابن المسيح ، وقيل المراد بالآلهة الثلاثة : الله سبحانه وتعالى ، ومريم ، والمسيح ، وقد اختبط النصارى فى هذا اختباطا طو يلا .

ووقفنا فى الأناجيل الأر بعة التى يطلق عليها عندهم اسم الانجيل على اختلاف كثير فى عيسى : فتارة يوصف بأنه ابن الانسان ، وتارة يوصف بأنه ابن الله ، وتارة يوصف بأنه ابن الرب وهذا تناقض ظاهر وتلاعب بالدين * والحق ما أخبرنا الله به فى القرآن ، وماخالفه فى التوراة أو الانجيل أو الزبور فهو من تحريف المحرّفين وتلاعب المتلاعبين * ومن أعجب مارأيناه أن الأناجيل الأربعة كل واحد منها منسوب الى واحد من أصحاب عيسى عليه السلام ،

وحاصل مافيها جميعا أن كل واحد من هؤلاء الأر بعة ذكر سيرة عيسى من عند أن بعثه الله الى أن رفعه اليه ، وذكر ماجرى له من المعجزات والمراجعات لليهود ونحوهم ، فاختلفت ألفاظهم ، واتفقت معانيها ، وقد يزيد بعضهم على بعض بحسب مايقتضيه الحفظ والضبط ، وذكر ماقاله عيسى وما قيل له ، وليس فيها من كلام الله سبحانه شىء ، ولا أنزل على عيسى من عنده كتابا ، بل كان عيسى عليه السلام يحتج عليهم بما فى التوراة و يذكر أنه لم يأت بما يخالفها ، وهكذا الزبور فانه من أوّله الى آخره من كلام داود عليه السلام * وكلام الله أصدق ، وكتابه أحق ، وقد أخبرنا أن الانجيل كتابه أنزله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم ، وأن الزبور كتابه آتاه (١) داود وأنزله عليه * قوله (انتهوا خيرا لكم) أى انتهوا عن التثليث ، وانتصاب خيرا هنا فيه الوجوه الثلاثة التى تقدمت فى قوله (فآمنوا خيرا لكم) . (انما الله إله واحد) لاشريك له صاحبة ولا ولد (سبحانه أن يكون له ولد) أى أسبحه تسبيحا عن أن يكون له ولد (له مافى السموات ومافى الأرض) وما جعلتموه له شريكا أو ولدا هو من جملة ذلك ، والمملوك المخلوق لا يكون شريكا ولا ولدا (وكفى بالله وكيلا) يكل الخلق أمورهم اليه ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا .

وقد أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : دخل جماعة من اليهود على رسول الله ﷺ فقال لهم انى والله أعلم أنكم تعلمون أنى رسول الله ، قالوا مانعلم ذلك ، فأنزل الله (لكن الله يشهد) الآية . وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل عن أبى موسى أن النجاشى قال لجعفر مايقول صاحبك فى ابن مريم ؟ قال يقول فيه قول الله هو روح الله وكلمته ، أخرجه من البتول العذراء لم يقربها بشر فتناول عودا من الأرض فرفعه ؟ فقال يامعشر القسيسين والرهبان مايزيد هؤلاء على ماتقولون فى ابن مريم مايزن هذه . وأخرجه البيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود بأطول من هذا . وأخرج البخارى عن عمر : قال قال رسول الله ﷺ « لاتطرونى كما أطرت النصارى اعيسى بن مريم فانما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله» .

لَنْ يَسْتَنْكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَائِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنْكَفُوا وَٱسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ

(١) من هذا تفهم أن ماتقدّم له محكىّ عن عقيدة غيره اه مصححه

ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا *

أصل يستنكف نكف وباقى الحروف زائدة ، يقال نكفت من الشيء واستنكفت منه وأنكفته ، أى نزهته عما يستنكف منه . قال الزجاج استنكفت : أى أنف ، مأخوذ من نكفت الدمع : اذا نحيته بأصبعك عن خديك ، وقيل هو من النكف وهو العيب ، يقال ماعليه فى هذا الأمر نكف ولا وكف : أى عيب * ومعنى الأوّل لن يأنف عن العبودية ولن يتنزه عنها * ومعنى الثانى لن يعيب العبودية ولن ينقطع عنها (ولا الملائكة المقربون) عطف على المسيح ، أى ولن يستنكف الملائكة المقرّبون عن أن يكونوا عبادا لله .

وقد استدلّ بهذا القائلون بتفضيل الملائكة على الأنبياء ، وقرر صاحب الكشاف وجه الدلالة بما لايسمن ولا يغنى من جوع وادّعى أن الذوق قاض بذلك ، ونعم الذوق العربى اذا خالطه محبة المذهب وشابه شوائب الجمود كان هكذا ، وكل من يفهم لغة العرب يعلم أن من قال لايأنف من هذه المقالة إمام ولا مأموم أو لا كبير ولا صغير أو لاجليل ولاحقير ، ثم يدل هذا على أن المعطوف أعظم شأنا من المعطوف عليه ، وعلى كل حال فما أردأ الاشتغال بهذه المسئلة وما أقلّ فائدتها وما أبعدها عن أن تكون مركزا من المراكز الشرعية الدينية وجسرا من الجسور (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر) أى يأنف تكبرا ويعدّ نفسه كبيرا عن العبادة (فسيحشرهم إليه جميعا) المستنكف وغيره ، فيجازى كلا بعمله ، وترك ذكر غير المستنكف هنا لدلالة أوّل الكلام عليه ، ولكون الحشر لكلا الطائفتين (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم) من غير أن يفوتهم منها شيء (وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما) بسبب استنكافهم واستكبارهم (ولا يجدون لهم من دون الله وليا) يواليهم (ولا نصيرا) ينصرهم * قوله (ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم) بما أنزله عليكم من كتبه وبمن أرسله اليكم من رسله ، ومانصبه لهم من المعجزات * والبرهان : مايبرهن به على المطلوب (وأنزلنا اليكم نورا مبينا) وهو القرآن ، وسماه نورا لأنه يهتدى به من ظلمة الضلال (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به) أى بالله ، وقيل بالنور المذكور (فسيدخلهم فى رحمة منه) يرحمهم بها (وفضل) يتفضل به عليهم (ويهديهم إليه) أى الى امتثال ماأمر به واجتناب مانهى عنه ، أو اليه سبحانه وتعالى باعتبار مصيرهم الى جزائه وتفضله (صراطا مستقيما) أى طريقا يسلكونه اليه مستقيما لاعوج فيه ، وهو التمسك بدين الاسلام وترك غيره من الأديان . قال أبو على الفارسى : الهاء فى قوله (اليه) راجعة الى ماتقدّم من اسم الله ، وقيل راجعة الى القرآن ، وقيل إلى الفضل ، وقيل إلى الرحمة والفضل لأنهما بمعنى الثواب ، وانتصاب صراطا على أنه مفعول ثان للفعل المذكور ، وقيل على الحال .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال (لن يستنكف المسيح) لن يستكبر . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية والاسماعيلى فى معجمه بسند ضعيف عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ فى قوله (فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) قال أجورهم يدخلهم الجنة ويزيدهم من فضله الشفاعة فيمن وجبت له النار ممن صنع اليهم المعروف فى الدنيا . وقد ساقه ابن

كثير فى تفسيره فقال . وقد روى ابن مردويه من طريق بقية عن اسماعيل بن عبد الله الكندى عن الأعمش عن شقيق عن ابن مسعود فذكره وقال هذا إسناد لايثبت واذا روى عن ابن مسعود موقوفا فهو جيد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة (قد جاءكم برهان) أى بينة (وأنزلنا اليكم نورا مبينا) قال هذا القرآن . وأخرجا أيضا عن مجاهد قال برهان حجة . وأخرجا أيضا عن ابن جريج فى قوله (واعتصموا به) قال القرآن .

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ *

قد تقدّم الكلام فى الكلالة فى أوّل هذه السورة ، وسيأتى ذكر المستفتى المقصود بقوله (يستفتونك) * قوله (إن امرؤ هلك) أى ان هلك امرؤ هلك كما تقدّم فى قوله ـ وان امرأة خافت ـ * وقوله (ليس له ولد) إماصفة لامرؤ أوحال ، ولاوجه للمنع من كونه حالا ، والولد يطلق على الذكر والأنثى ، واقتصر على عدم الولد هنا مع أن عدم الوالد معتبر فى الكلالة : اتكالا على ظهور ذلك ، قيل : والمراد بالولد هنا الابن ، وهو أحد معنيي المشترك ، لأن البنت لاتسقط الأخت * وقوله (وله أخت) عطف على قوله (ليس له ولد) * والمراد بالأخت هنا هى الأخت لأبوين أولأب لالأم فان فرضها السدس كما ذكر سابقا . وقد ذهب جمهور العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم الى أن الاخوات لأبوين أولأب عصبة للبنات وان لم يكن معهم أخ ، وذهب ابن عباس الى أن الأخوات لايعصبن البنات ، واليه ذهب داود الظاهرى وطائفة وقالوا انه لاميراث للأخت لأبوين أولأب مع البنت ، واحتجوا بظاهر هذه الآية ، فانه جعل عدم الولد المتناول للذكر والأنثى قيدا فى ميراث الأخت ، وهذا استدلال صحيح لو لم يرد فى السنة مايدل على ثبوت ميراث الأخت مع البنت ، وهو ماثبت فى الصحيح أن معاذا قضى على عهد رسول الله ﷺ فى بنت وأخت فجعل للبنت النصف وللأخت النصف ، وثبت فى الصحيح أيضا أن النبى ﷺ قضى فى بنت و بنت ابن وأخت ، فجعل للبنت النصف ولبنت الابن السدس وللأخت الباقى ، فكانت هذه السنة مقتضية لتفسير الولد بالابن دون البنت * قوله (وهو يرثها) أى المرء يرثها ، أى يرث الأخت (ان لم يكن لها ولد) ذكر » ان كان المراد بارثه لها حيازته لجميع ماتركته ، وان كان المراد ثبوت ميراثه لها فى الجملة أعم من أن يكون كلا أو بعضا صح تفسير الولد بما يتناول الذكر والأنثى ، واقتصر سبحانه فى هذه الآية على نفى الولد مع كون الأب يسقط الأخ كما يسقطه الولد الذكر ، لأن المراد بيان سقوط الأخ مع الولد فقط هنا ، وأما سقوطه مع الأب فقد تبين بالسنة كما ثبت فى الصحيح من قوله ﷺ « ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل ذكر » والأب أولى من الأخ (فان كانتا اثنتين) أى فان كان من يرث بالأخوّة اثنتين ، والعطف على الشرطية السابقة والتأنيث والتثنية ، وكذلك الجمع فى قوله (وان كانوا إخوة) باعتبار الخبر (فلهما الثلثان مماترك) المرء ان لم يكن له ولد كما سلف ومافوق الاثنتين من الأخوات يكون لهنّ الثلثان بالأولى (وان كانوا) أى من يرث بالاخوّة (اخوة رجالا ونساء) أى مختلطين ذكورا واناثا (فللذكر) منهم (مثل حظ الأنثيين) تعصيبا (يبين الله لكم أن تضلوا) أى يبين لكم حكم الكلالة وسائر الأحكام كراهة أن تضلوا ، هكذا حكاه القرطبى عن البصريين . وقال الكسائى : المعنى

لئلا تضلوا ، ووافقه الفراء وغيره من الكوفيين (والله بكل شىء) من الأشياء التى هذه الأحكام المذكورة منها (عليم) أى كثير العلم .

وقد أخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن جابر بن عبدالله قال دخل علىّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل فتوضأ ثم صبّ علىّ فعقلت فقلت انه لا يرثنى الا كلالة فكيف الميراث ؟ فنزلت آية الفرائض وأخرجه عنه ابن سعد وابن أبى حاتم بلفظ أنزلت فىّ (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) . وأخرج ابن راهويه وابن مردويه عن عمر أنه سأل رسول الله ﷺ كيف تورث الكلالة ؟ فأنزل الله (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) الآية . وأخرج مالك ومسلم وابن جرير والبيهقى عن عمر : قال ماسألت النبى ﷺ عن شىء أكثر مما سألته فى الكلالة حتى طعن باصبعه فى صدرى وقال ماتكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء . وأخرج أحمد وأبوداود والترمذى والبيهقى عن البراء بن عازب قال : جاء رجل الى النبى ﷺ فسأله عن الكلالة ؟ فقال تكفيك آية الصيف . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر قال : ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد الينا فيهنّ عهدا ننتهى اليه : الجدّ ، والكلالة ، وأبواب من أبواب الربا . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن البراء بن عازب قال « آخر سورة نزلت كاملة براءة ، وآخر آية نزلت خاتمة سورة النساء يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة » . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن سيرين قال : كان عمر بن الخطاب اذا قرأ (يبين الله لكم أن تضلوا) قال اللهمّ من بينت له الكلالة فلم تبين لى .

وقد أوضحنا الكلام خلافا واستدلالا وترجيحا فى شأن الكلالة فى أوائل هذه السورة فلا نعيده .

والى هنا انتهى الجزء الأوّل من التفسير المبارك : المسمى « فتح القدير » الجامع بين فنى الرواية والدراية : من علم التفسير بقلم مؤلفه : الراجى من ربه سبحانه أن يعينه على تمامه ، وينفع به من شاء من عباده ، ويجعله ذخيرة له عند وفوده إلى دار الآخرة « محمد بن على بن محمد الشوكانى » غفر الله لهما

وكان الانتهاء إلى هذا الموضع فى يوم العيد الأكبر : يوم النحر المبارك من سنة أربع وعشرين بعد مائتين وألف من الهجرة النبوية : حامدا لله ومصليا ومسلما على رسوله وحبيبه محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه . اه

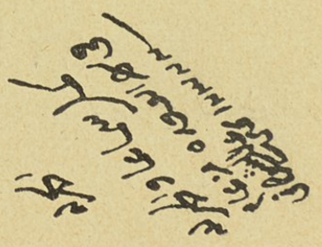
الحمد له : كمل سماعا والحمد لله فى شهر القعدة من عام سنة ١٢٣٢

يحيى بن على الشوكانى

تنبيه

وضعنا بالصفحة التالية ، تمة المؤلف للجزء الأوّل بخط يده الشريفة تبركا به ، وليطلع القراء على أنموذج من النسخة الخطية الوحيدة التى كان الطبع عليها

والى هنا انتهى الجزء الاول من التفسير المبارك المسمى فتح القدير
الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير بقلم مؤلفه الراجي من ربه
سبحانه ان يعينه على تمامه وينفع به من شاء من عباده ويجعله ذخيرة له
عنده وفوده الى دار الاخرة محمد بن علي بن محمد الشوكاني غفر الله لهما وكان الانتهى
الى هذا الموضع في يوم العيد الاكبر يوم النحر المبارك من سنة اربع وعشرين
بعد مائتين والف من الهجرة النبوية حامدا لله ومصليا ومسلما على
رسوله وحبيبه محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه



بحمد الله تم طبع الجزء الأوّل ، ويليه الجزء الثانى
وأوّله تفسير سورة المائدة

فهرس

الجزء الأول

من فتح القدير فى التفسير للامام الشوكانى

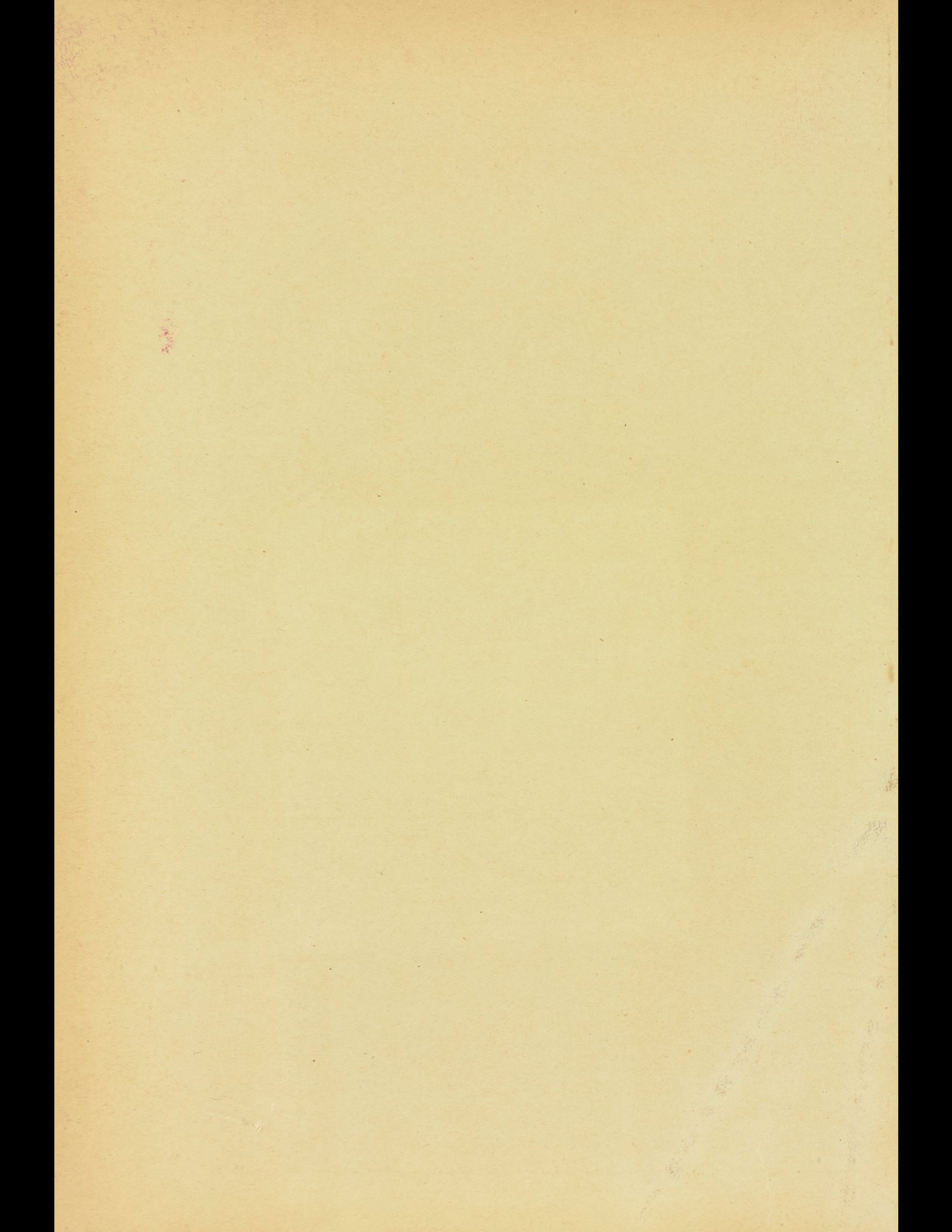
صحيفة

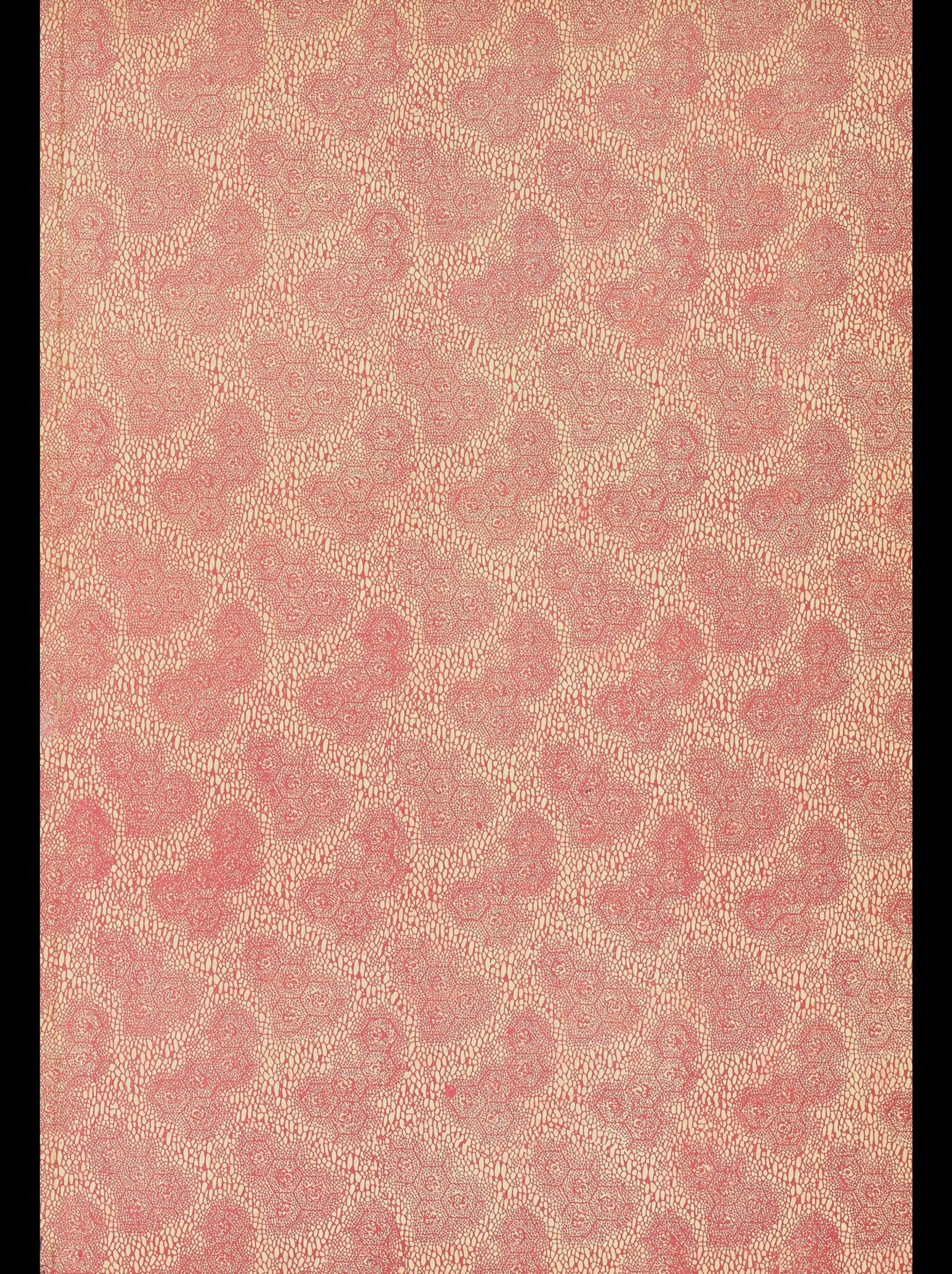
صحيفة

صحيفة

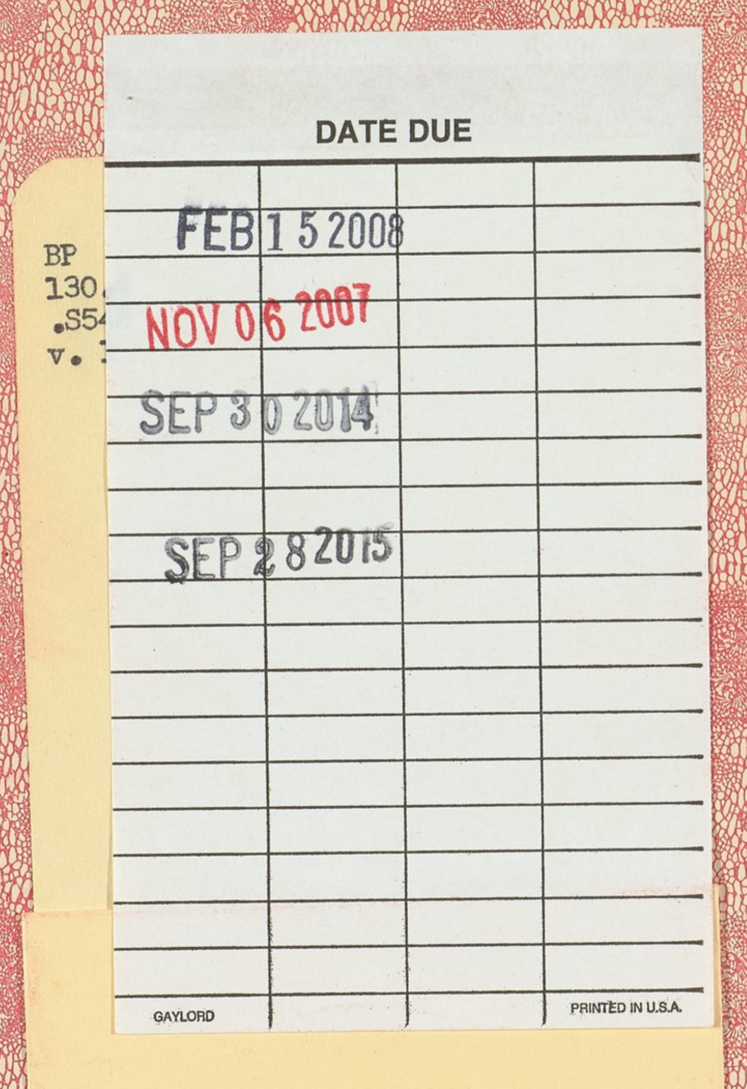
صحيفة

تمت






COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0040401480


DATE DUE
FEB 15 2008
NOV 06 2007
SEP 30 2014
SEP 28 2015
GAYLORD
PRINTED IN U.S.A.

